

بوزياني الدراجي

أدباء وشعراء من نلمسان

الجزء الأول



دار
الأهلى
للطباعة والنشر

الناشيء

أدياء وشجرهم من تلمسان

بوزيانجي الكراجي

الجزء الأول

(نسخة منقحة)



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق
الوطني لترقية الفنون والآداب

Cet ouvrage a été publié avec le soutien du Ministère de la
Culture, dans le cadre du Fonds National pour la Promotion
et le Développement des Arts et des Lettres.

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف السحولة (16305) الجزائر
هاتف وفاكس: 0 21 35 78 29

الإيداع القانوني: 1193 – 2011

ردمك: 2 – 46 – 858 – 9961 – 978 ISBN



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي هذا الكتاب الذي اشتمل على تراجم
نخبة رائعة من أدباء وشعراء تلمسان، وضمّ بين
صفحاته نصوصاً شعرية ونثرية في قمة الجمال..
أهديه: إلى أبنائي شباب الجزائر المتطلع باحترام إلى
ماضيه الذهبي، والناهض بمستقبله المشرق في مثابرة
وإصرار. ولعل إهدائي لهم هذا الكتاب؛ يحفزهم
على التقرب من تراث موطنهم الغني بالإبداع
الجميل، والإنتاج الأبي الرفيع؛ ذلك الإنتاج؛ الذي
انتشر في ربوع الأرض شرقاً وغرباً؛ فملاءها سحراً
وعطراً وحبوراً.

بوزياني الدراجي

مقدمة

تحتل تلمسان؛ مكانة مرموقة بين مدن المغرب الأوسط كلها؛ إذ تعد أحد المراكز المشعة بالعلم والأدب والفنون؛ منذ عهود موغلة في القدم. أضف إلى ذلك؛ ما حباها الله به من جمال الطبيعة المشرقة، وعذوبة الماء الغزير، وطيب الغذاء الوفير، وصفاء الهواء العليل.

ونظراً للمكانة الحيوية النابضة لهذه المدينة، وموقعها الحصين، وثراء محيطها الجغرافي؛ فقد منحها الله شرف السيادة والسُّمو؛ حيث غدت منذ أقدم العصور سدة الحكم، وقلعة حصينة للأمراء والملوك. وبحكم هذا كله؛ أضحت تلمسان مركز إشعاع للعلوم والآداب والفنون؛ تشع بأنوارها على البلاد المغربية كلها.

وعليه؛ فقد نما وتألّق - في هذه المدينة العريقة - جمع غفير من العلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء والمتصوفين؛ الذين نشروا معارفهم ومآثرهم في ربوع الأرض كافة؛ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. وبالمقابل؛ فقد جذبت تلمسان إليها واستقطبت نخبة جليّة من علماء المغرب كله والأندلس؛ أين وجدوا بيئة خصبة مستتيرة هيّأت لهم الظروف المواتية لنشر علومهم، وبعث إبداعاتهم. ومن هنا؛ رُوِيَ - في إعداد هذا الكتاب - اتّباع منهج؛ يلتزم بأن يشتمل على كل ما تمّ جمعه من عيّنات تخص أدباء تلمسان وشعراءها؛ الذين أثمروا وأبدعوا - خلال القرون ما بين: السادس منها والعاشر الهجري - سواء كانوا من سكانها الأصليين المقيمين فيها، أو من أهلها المهاجرين عنها، أو من الوافدين إليها والمستقرين بها. كما يدخل في الاهتمام - هنا أيضاً - كل من أبدع وكتب في محيط وأحواز هذه المدينة الغراء؛ ولا يقتصر الأمر على حيّز ضيق يُحدّ بأسوار المدينة المذكورة.

اتَّبَعَ هذا المسلك؛ لأن تلك العصور الأولى؛
تختلف عما يُعرَف الآن؛ من نظرة ضيقة للوطن؛
وما يفهم من أحوال مستجدة؛ كالجنسية القطرية،
والانتماء إلى الوطن المحدد بالحدود الحالية. لذا فقد
كان أهل ديار الاسلام كلهم من جنسية واحدة؛
جنسية المسلمين.

وعليه؛ فكل الذين ينتقلون من مسقط الرأس؛
إلى موضع آخر؛ يختارونه كي يكون سكناً لهم،
ومستقرهم، وموضع عيشهم؛ يمكن اعتباره موطناً
ينتسبون إليه. وهذا لا يمنع انتسابهم أيضاً إلى البلد
الذي ولدوا فيه. فذلك يثري عملية التتويج بصاحب
الترجمة والتذكير به في حالات متعددة. وهو ما
يفسر انتساب كثير من الأعلام والعلماء إلى أكثر
من بلد واحد في المؤلفات الحديثة. وهذا ليس عيباً؛
بل هو فعل محمود.

هذا؛ وقد اتَّبَعَ - في هذا المجال - طريقاً؛
يُحرَصُ من خلاله على ذكرهم بالتوالي؛ حسب
الترتيب الزمني العام (القرن الهجري)؛ وتبعاً
لحروف المعجم؛ ضمن كل فترة زمنية (قرن) على
حدة. لهذا؛ سيتم تقسيم أبواب هذا الكتاب زمنياً؛

الأقدم فالأحدث؛ دون سرد الموضوع؛ طبقاً لتاريخ
الوفاة أو الميلاد؛ أو بحروف المعجم بشكل شامل.
وقد خُصَّص الجزء الأول لدراسة تاريخية؛
تناولت تاريخ تلمسان والتعريف بها؛ منذ نشأتها
على يد الرومان؛ ثم العصر الوندالي، والعصر
البيزنطي؛ وانتهاءً بالعصر الإسلامي؛ أين أضحت
هذه المدينة مركز إشعاع سياسي وعلمي. وغدت
بعدها عاصمة لدولة سادت على المغرب الأوسط
كله.

أما الأجزاء الأخرى؛ فقد تضمنت تراجم أدباء
ولشعراء تلمسان؛ بشكل موسع بعض الشيء؛ حباً في
المزيد من الفائدة، ورغبة في تمكين القراء من
معرفة أكبر قدر من المعلومات عنهم؛ مع الاستفادة
من أبداعاتهم الأدبية والشعرية التي سَيُنَشَرُ كل ما
عثر منها؛ مصحَّحةً ومحقَّقة. وبذلك سيضحى هذا
الكتاب - بحول الله - بمثابة الموسوعة التي
ستشمل جلَّ ما عرف عن أدباء وشعراء تلمسان
عبر العصور المحددة له.

أما بقية العلماء؛ والمتصوفة - ممن تعذر
علينا العثور على ما أبدعوه من شعر، أو نصوص
أدبية - فقد تمت الإشارة إليهم في الجزء الأول؛

ضمن الفترات الزمنية؛ التي حكمت فيها أهم الدول والإمارات تلمسان. خاصة وأن جُلَّ علماء ومتصوفي تلمسان؛ كانوا في الأصل من الألباء والشعراء. لذا فقد تحتم التعرض لهم، والإشارة إليهم دون التقيد بعرض نصوص لإبداعاتهم الأدبية والشعرية؛ إذ تُركَ هذا الأمر للباحثين من الشباب؛ لعلهم يحظون بما وقفنا عنده. والله هو الموفق والمعين.

بوزياني الدراجي

الجزائر في 2011/11/2

نقد المصادر والمراجع

على الرغم من شح المعلومات وصعوبة الوصول إليها؛ فقد حظي مؤلف هذا الكتاب بما توفر لديه من مصادر ومراجع تاريخية وأدبية تعالج مواضيع تخص البلدان المغربية كلها والأندلس؛ فأتضح أن تلك المصادر والمراجع لا تخلوا من فوائد جلية. ولهذا نذكرها تباعاً أهمها؛ مرتبة حسب مدى تناولها للموضوع المطلوب:

1- كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م). إذ يتميز هذا المصدر - عن غيره من المصادر بالدقة؛ خاصة الجزء الثاني منه؛ لأن مؤلفه كان كاتباً للسرة؛ في بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ فاعتبر - عندئذ - شاهد عيان، ومعاشراً لجل الأحداث التاريخية التي ورد ذكرها في هذا الجزء بالذات من الكتاب.

صنف يحيى بن خلدون كتابه في جزأين اثنتين:
عالج في أولهما أصول قبيل بني عبد الواد
وأخبارهم ومواطنهم والكيفية التي وصل بها الملك
إليهم؛ من خلال تدرجهم في الصعود من مرتبة
رئاسة القبيلة إلى مرتبة أسمى؛ وهي سدة الملك
والسلطان. وبعدها تولى صاحب هذا الكتاب الحديث
— ضمن أبواب مختصرة — عن أخبار سلاطين
الدولة؛ بدءاً بأول الملوك الزيانيين ومؤسس دولتهم
يَعْمَرَأْسَنُ بن زيان؛ وانتهاء بالعهد الذي تولى فيه
الأخوان: أبي سعيد عثمان وأبي ثابت الزعيم؛ ابني
عبد الرحمان بن يحيى بن يَعْمَرَأْسَنُ بن زيان
شؤون الدولة. إذ سقطت في وقتها الدولة الزيانية
للمرة الثانية؛ وبذلك انقطع بهما حكم الأسرة الثانية
من بني زيان. حقق هذا الجزء — في بداية الأمر
— المستشرق الفرنسي ألفرد بل (Bel, A. O. 1873 —
1945م)؛ ونشره بالجزائر سنة 1321هـ/1903م. ثم
أعاد عبد الحميد حاجيات تحقيق هذا الجزء
بالجزائر سنة 1400هـ/1980م. وذلك برعاية المكتبة
الوطنية الجزائرية. وقد اشتمل الجزء الأول من كتاب
بغية الرواد على معلومات جلية؛ خصصت لتلمسان
ومحيطها الجغرافي وعلمائها وحكائها والمتصوفين

بها. وبذلك يعتبر كتاب يحيى بن خلدون المصدر الأساس في هذا الموضوع؛ إذ نقل عليه كثيرون ممن اعتنوا بموضع تلمسان وعلمائها.

أما الجزء الثاني فهو خاص بالفترة التي حكمت فيها الأسرة الزيانية الثالثة؛ ممثلة بالسلطان أبي حمو موسى (الثاني) ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان. قام بتحقيق هذا الجزء - أيضاً في بداية الأمر - ألفرد بل؛ الذي طبع الجزأين بمطبعة فونطانة بالجزائر: أين أنجز الجزء الأول سنة 1321هـ/1903م. بينما تم طبع الجزء الثاني سنة 1328هـ/1910م بالمطبعة نفسها. وقد أعاد نشر الجزء الثاني - بعد التعليق عليه والتقديم له - بوزياني الدراجي؛ ضمن منشورات دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع؛ بالجزائر سنة 2007م؛ في إطار سنة الجزائر للثقافة العربية. وقد اشتمل الجزء الثاني من بغية الرواد - إلى جانب موضوع التاريخ السياسي والعسكري للفترة التي حكم فيها أبو حمو موسى الثاني ابن يوسف - على نصوص في غاية الأهمية لأبناء وشعراء عاصروا هذه الفترة. بالإضافة إلى ما أبدعه هذا السلطان الأديب والشاعر المجيد من شعر

ونثر. كما تضمن الكتاب أيضاً معلومات مفيدة تخص الحياة الثقافية في تلمسان: الفنية منها والعمرانية؛ ثم الأدبية والعلمية عموماً. لذا فقد وجب التتويه بما قدمه كتاب بغية الرواد من فائدة معتبرة.

(2) - كتاب زهر البستان في دولة بني زيان، لمؤلف مجهول الهوية. وهو مخطوط تم تصويره على ((ميكرو فيلم))؛ نقلًا عن إحدى المكتبات البريطانية بمانشيستر. The John Rylands University library of Manchester (وهذه النسخة المخطوطة مسجلة في تلك المكتبة تحت رقم MS 283. (796).

وقد كان لمؤلف هذا الكتاب شرف تحقيق زهر البستان في دولة بني زيان؛ في انتظار نشره عمّا قريب بحول الله. علماً بأن زهر البستان يتألف أساساً من ثلاثة أجزاء؛ تم العثور - حتى الآن - على الجزء الثاني فقط؛ بينما تعذر العثور على الجزأين: الأول والثالث. ويستدل على أنهما كانا موجودين فعلاً؛ بما ذكره صاحب الكتاب نفسه في الجزء الثاني المتوفر حالياً؛ حيث أشار في بداية الجزء الثاني إلى الجزء الأول منه؛ كما أشار كذلك في نهاية هذا الجزء إلى الجزء الثالث. ويبدو أن

مؤلف كتاب زهر البستان في دولة بني زيان كان من معاصري السلطان أبي حمو الثاني ابن يوسف. وبذلك؛ يحتل هذا المصدر الأهمية نفسها التي اختلف بها كتاب بغية الرواد. غير أن فقدان الجزء الأول والجزء الثالث يجرده من مزايا عديدة؛ إذ ينحصر موضوعه ضمن فترة زمنية محددة بخمس سنوات من عمر هذه الدولة (وبالتحديد خلال فترة قصيرة من عهد أبي حمو الثاني). وهو ما ثبت في ذلك الجزء؛ الذي تبدأ أحداثه بسنة 760هـ/1358م. وتنتهي بسنة 765هـ/1363م. على أن كتاب زهر البستان لا يخلو من فوائد جمة؛ على الرغم من صغر الفترة الزمنية التي تناول أحداثها؛ إذ شحنت بتفاصيل هامة؛ تتعلق بالسلطان أبي حمو موسى الثاني، وبلاطه الزاخر بالنشاط والحيوية. من ذلك؛ ما تضمنه الكتاب من شواهد، ومواضيع أدبية، وأشعار للسلطان أبي حمو، وبعض الأبناء والشعراء المعاصرين له. وواضح أن مؤلف زهر البستان كان من بين الذين خدموا في بلاط السلطان أبي حمو؛ على غرار كتاب آخرين مثل: يحيى بن خلدون وغيره. ولكنه يبدو أمام هذا الأخير محدود الحيلة، وشحيح الذخيرة؛ كما أن أسلوبه يميل إلى

أساليب الرواة في عرض الأحداث. المهم أن هذا الكتاب - وإن فقدت أجزاءه الأخرى - قد احتوى على شواهد ونصوص أدبية وشعرية هامة؛ بل ثمة نصوص لم يذكرها صاحب بغية الرواد. بالإضافة إلى أنه اهتم بالتفصيل الصغيرة؛ التي تجاهلها يحيى ابن خلدون. ويستشف من خلال سرد صاحب زهر البستان للأحداث؛ أنه سبق يحيى بن خلدون في التواجد ببلاط أبي حمو؛ لأنه أورد في كتابه خبر قدوم يحيى بن خلدون إلى تلمسان؛ بصفته سفيراً لأمير بجاية. وقد حدث هذا - بالطبع - قبل أن يلتحق يحيى بالبلاط الزياني. أما ناسخ هذه النسخة من مخطوط زهر البستان؛ فيُدعى: الحبيب بن خلف بن جلول بن العيد الفرادي؛ المولود في غريس بنواحي معسكر الحالية. قال إنه فرغ من نسخه صبيحة يوم الجمعة؛ الخامس عشر من شهر المحرم، في غرة عام 1235هـ؛ لصالح مسلم بن عبد القادر خوجة؛ ثم لمن شاء الله بعده؛ هبة أو شراء. وهكذا؛ فإن أجزاء كتاب زهر البستان في دولة بني زيان الأخرى ضاعت؛ كما ضاعت كتب

أخرى تعالج الموضوع نفسه. ولعل تتبع آثار الناسخ المذكور، ومن نسخ له؛ يأتي بفائدة.

والجدير بالذكر هنا؛ أن بعض الكتاب والعلماء سبق أن ألفوا كتباً عن دولة بني زيان؛ منهم على سبيل المثال الفقيه القاضي سعيد العقباتي؛ في تاريخه عن هذه الدولة. ولكنه ضاع واندثر؛ وقد ذكره الرحالة والمؤرخ المغربي أبو القاسم الزياني في كتابه "الترجمة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً". إذ يقول أنه اطلع على كتاب العقباتي - مع غيره من الكتب - حينما زار ضريح الصوفي الشهير أبي مدين شعيب.

3- كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ للسلطان أبي حمو موسى (الثاني) ابن يوسف (723هـ/1323م - 791هـ/1388م). وهو كتاب تربوي أدبي سياسي؛ ألفه هذا السلطان؛ في شكل وصايا أخلاقية، وسياسية، وعسكرية؛ موجهة إلى ولي عهده. حيث اقتبس - بتصرف - بعض فقراته من كتاب ((سراج الملوك)) للطرطوشي، وكتاب ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه، وكتاب ((المنهج السلوك في سياسة الملوك)) لعبد الرحمن بن عبد الله، وكتاب ((سلوان المطاع في عدوان الاتباع)) لمحمد بن ظفر

المالكي.¹ أما بقية فصول كتابه؛ فهي عبارة عن بعض الآراء السياسية، والنصائح العسكرية؛ التي تعبر عن أفكار السلطان الزياني الخاصة؛ ورؤيته لشئون الحكم والسياسة، ورأيه في الشئون العسكرية والتكتيك الحربي، بالإضافة إلى الشئون المالية، والإدارية للدولة. أضف إلى كل ذلك؛ أن هذا المصدر؛ قد اشتمل على عدد لا بأس به من القصائد التي نظمها هذا السلطان. ومن خلال ذلك كله؛ يتجلى الأسلوب الأببي الجليل للسلطان أبي حمو الثاني، ومكانته العلمية الرفيعة. وعليه؛ فكتاب واسطة السلوك؛ له مكانة خاصة هنا؛ لأنه يقدم - بصدق ودقة - صورة واضحة للمكانة العلمية والأدبية التي يتحلى بها السلطان أبو حمو موسى الثاني.

وقد تم الاعتماد على نسختين من هذا المصدر: أحدهما مخطوطة، والأخرى مطبوعة. فالأولى هي النسخة المخطوطة التابعة للمكتبة الوطنية الجزائرية؛ المصنفة تحت رقم 1374، أما النسخة الثانية؛ فهي مطبوعة بمطبعة الدولة التونسية؛ بتونس

¹ أنظر تفاصيل ذلك في مقالة ((النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني))؛ للدكتورة وداد القاضي، المنشورة بمجلة الأصالة؛ عدد: 27؛ من السنة الرابعة.

سنة 1279هـ/1862م. والاعتماد هنا يتم أولاً على
النسخة المخطوطة؛ لأنها أكمل وأوفى؛ بينما تستغل
النسخة المطبوعة في المقارنة والتصحيح بقدر الإمكان.
(4- كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني
زيان وذكر ملوكهم الأعيان؛ لأبي عبد الله محمد
ابن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت: 899
هـ/1493م). كان التنسي كاتباً لدى السلطان الزياني
محمد المتوكل بن محمد أبي زيان بن أبي ثابت بن
أبي تاشفين بن أبي حمو موسى الثاني؛ الذي تولى
الحكم في تلمسان (من سنة 866هـ/1461م إلى سنة
873هـ/1468م). وهو من الكتاب الأدباء؛ ذوي الباع
الطويل في صناعة الإنشاء والتأليف في المجال الأدبي.
أكمل محمد التنسي ما وقف عنده الأخوان: عبد
الرحمن بن خلدون ويحيى بن خلدون. لذا فقد
عومل هذا المصدر بالمعاملة نفسها المخصصة لكتاب
بغية الرواد. وقد صنف التنسي كتابه هذا ضمن
خمسة أقسام؛ بُوِّب كل قسم منها إلى عدة أبواب.
غير أن الذي له علاقة بالموضوع هنا؛ لا يتعدى
الباب السابع من القسم الأول. وما تبقى فهو تأليف
أدبي خارج عن نطاق الاهتمام في هذا المجال.
وعلى هذا؛ فقد اقتصر العمل على الباب السابع

المذكور؛ وبالتحديد على نسخة منه مصورة في (ميكرو فيلم)؛ منقولة عن المخطوط المغربي المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط؛ تحت رقم: 1444¹. وقد قام محمود بوعباد بتحقيق هذا الباب؛ ونشره فيما بعد برعاية المكتبة الوطنية الجزائرية؛ تحت عنوان: ((تاريخ بني زيان ملوك تلمسان))؛ وذلك سنة (1405هـ/1985م).

ومن مميزات هذا المصدر؛ أنه يضيف معلومات جديدة بالنسبة لما ورد في كتب: العبر، وبغية الرواد، وزهر البستان، وواسطة السلوك. إذ أنه يكمل ما انتهى عنده مؤلفو تلك المصادر. باهتمامه على نصوص أدبية عديدة؛ منها قصائد شعرية لشعراء في البلاط الزياني؛ بالإضافة إلى قصائد نظمها بعض سلاطين الدولة.

¹ تفضل المرحوم السيد محمود بو عباد - مشكورا - عندما كان مديرا للمكتبة الوطنية الجزائرية بإعطائي نسخة من "الميكرو فيلم" المذكور.

5- كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان؛ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني؛ الملقب بابن مريم؛ (كان حياً سنة 1025هـ/1611م)؛ حقق هذا الكتاب محمد بن أبي شنب؛ وطبعه بالمطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1326هـ/1908م. وفي هذا الكتاب؛ جمع مؤلفه معلومات هامة عن علماء تلمسان، ورجال الفكر فيها. واستقى بعض أخبارهم من كتاب بغية الرواد. والفائدة المجناة منه؛ تتلخص في تقصي أخبار بعض الأدباء والشعراء التلمسانيين.

6- كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء الزمان؛ لأبي مدين شعيب وآخرين؛ تحقيق عبد الحميد حاجيات، ونشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، سنة 1974م. يشتمل هذا الكتاب على قصائد وأزجال نظمها مجموعة من المتصوفين؛ بما فيهم أبو مدين شعيب نفسه. لهذا فالكتاب المذكور قيم جداً ومفيد.

7- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر؛ لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (732هـ/1331م - 808هـ/1405م). والطبعة المعتمدة

هنا؛ هي التي نشرت بعناية دار الكتاب اللبناني؛
ببيروت 1967 - 1968 - 1977م. وينحصر ما تم
استغلاله من هذا الكتاب الضخم؛ ضمن مجلدين
هما: السادس والسابع. وأهم ما يستفاد من كتاب
العبر في هذا الباب هو ما ورد في المجلدين: السادس
والسابع من أخبار عن تلمسان، وعن الدول التي
استولت عليها؛ بالإضافة إلى ما ورد فيه عن حياة
عبد الرحمن بن خلدون ورحلاته؛ ثم حديثه عن
تعرف عليهم من علماء تلمسان؛ بالإضافة إلى
القصيدة التي نظمها السلطان الزياني أبو زيان
محمد بن أبي حمو موسى الثاني، وأرفقها مع هدية
إلى السلطان برقوق بالقاهرة. وقد نقل محمد بن
توليت الطنجي هذا الباب الأخير كله؛ واجتثته عن
سياقه في المجلد السابع؛ ثم نشره بعد تحقيقه تحت
عنوان ((التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً
وشرقاً)). وجملة القول؛ فقد تمت الاستفادة هنا
بالذات من المجلد السابع؛ ومما نشره محمد بن
توليت؛ خاصة وأن عبد الرحمن بن خلدون استكمل
ما انقطع بعد ممات أخيه يحيى.

8- كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً؛ لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون. حقق هذا الكتاب الأستاذ محمد بن تاووت الطنجي، ونشره بواسطة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة 1370هـ/1951م. وهذا الكتاب - في حقيقة الأمر - مستخرج من المجلد السابع من كتاب العبر؛ وتتمثل فائدته - بالإضافة إلى ما فيه من معلومات عن أدباء وعلماء تلمسان - في التعاليق، والتحقيق الذي أعده الأستاذ الطنجي.

9- كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة. للسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب. (713هـ/1313م - 776هـ/1374م). هذا الكتاب عبارة عن موسوعة أدبية اشتملت على معلومات تاريخية وجغرافية هامة تخص الأندلس؛ بالإضافة إلى ما تضمنته من معلومات ونصوص أدبية في غاية الأهمية؛ تخص علماء وشعراء من تلمسان. وأشهر طبعات كتاب الإحاطة هي الطبعة التي حققها محمد عبد الله عنان. تليها الطبعة التي حققها يوسف علي طويل. وأخيراً الطبعة التي راجعها وقدمها وعلق عليها بوزياني الدراجي؛ بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية في سنة 2009م.

وما يهم الباحث من كتاب الإحاطة في هذا المجال؛ هي المعلومات الخاصة بعلماء وأدباء وشعراء تلمسان؛ وهي موزعة على عدد من أقسام الكتاب؛ مثل القسم الأول؛ الذي يشتمل على ترجمتي: إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري التلمساني. وإدريس (المأمون) ابن يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي. ثم المجلد الثاني؛ الذي يحتوي على ترجمة: أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد بن علي بن داود المقرئ التلمساني (الجد). ثم المجلد الثالث؛ حيث تتواجد تراجم كل من: محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، ومحمد بن خميس بن عمر بن محمد الحجري التلمساني، ومحمد بن أحمد بن محمد بن محمد ابن مرزوق العجيسي التلمساني، ومحمد بن أحمد ابن إبراهيم بن محمد الأنصاري التلمساني. ثم المجلد الرابع الذي يشتمل على تراجم كل من: السلطان أبي حمو موسى الثاني ابن يوسف، وعبد الله بن فارس بن زيان العبد الوادي التلمساني، والسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، والشاعر الزاهد عبد الرحمن بن يخلفتن.

— (10) كتاب نفح طيب في غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب؛ لأبي العباس
أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت:
1041هـ/1631م)؛ حققه إحسان عباس؛ ونشر بواسطة
دار صادر ببيروت؛ سنة 1388هـ/1968م. وهذا
المصدر عبارة عن موسوعة أدبية وتاريخية لبلاد
الأندلس والمغرب. وقد أفاد مؤلف هذا الكتاب
كثيراً؛ خاصة في التعرف ببعض أدباء وشعراء
وعلماء تلمسان.

— (11) كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض؛ لأبي
العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني؛ تحقيق
مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي.
ونشر بواسطة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة سنة 1939م. يشبه هذا المصدر كتاب نفح
الطيب؛ إذ يعتبر بدوره موسوعة أدبية تتناول ما
أنتجه المغاربة والأندلسيون من تراث أدبي ثري
وشعري. وفوائده في هذا المجال كبيرة جداً.

— (12) كتاب فوات الوفيات؛ لمحمد بن شاکر
الکتابي (ولد في حدود 686هـ/1287م. وكان حياً سنة
764هـ/1362م). وضع كتابه هذا كذیل لکتاب وفیات
الأعيان؛ بعد أن لاحظ إغفال ابن خلکان لتراجم

بعض الخلفاء والأعيان. وكتاب محمد بن شاكر هذا؛ مخصص - في عمومته - إلى أعيان المشرق؛ حتى وإن اشتمل على تراجم بعض الأندلسيين. والفائدة المجناة من كتاب فوات الوفيات - في هذا المجال - يمكن حصرها ضمن ترجمتين اثنتين: الأولى في المجلد الثاني؛ وتتعلق بعفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله الكومي التلمساني؛ المعروف بالعفيف التلمساني. أما الترجمة الثانية ففي المجلد الثالث؛ وتخص ولد سليمان المذكور؛ وهو شمس الدين محمد بن سليمان علي بن عبد الله الكومي التلمساني؛ المعروف بالشاب الظريف.

- (13) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين؛ لعبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المعروف بصاحب الصلاة (توفي في حدود 594هـ/1198م). نشر هذا الكتاب بعد تحقيقه: عبد الهادي التازي؛ ونشره بواسطة دار الأندلس ببيروت سنة 1964م. ويشتمل هذا المصدر على عينات أدبية عديدة؛ لها فائدة معتبرة.

— 14) كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب؛
لعبد الواحد المراكشي (كان حياً سنة
613هـ/1216م)؛ حقق الكتاب محمد سعيد العريان
ومحمد العربي العلمي؛ ونشرته المكتبة التجارية
الكبرى بالقاهرة سنة 1949م في طبعته الأولى. تتحصر
أهمية هذا الكتاب هنا فيما ورد من معلومات
ونصوص أدبية وأشعار تخص عبد المؤمن بن
علي وأولاده. وقد أفاد المؤلف.

— 15) كتاب الغصون اليلعة في محاسن شعراء
المئة السابعة؛ لابن سعيد أبي الحسن علي بن
موسى الأندلسي (610هـ/1213م — 685هـ/1286م)؛
تحقيق إبراهيم الإبياري، ونشر دار المعارف بمصر
سنة 1945م. لهذا الكتاب أهمية خاصة؛ لأنه ترجم
لبعض أدباء وشعراء تلمسان؛ وأورد من أشعارهم
عينات في منتهى الأهمية؛ خاصة وأن ما ورد في هذا
الكتاب مفقود في مصادر أخرى.

— 16) كتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية:
نسبه بعضهم إلى لسان الدين بن الخطيب؛ حسب
النشرة التونسية سنة 1337هـ/1918م. غير أن ثمة
بعض المحققين يشككون في نسبة هذا الكتاب إلى ابن
الخطيب. وبالمقابل؛ فقد رجح محمد عبد الله عنان؛

أن يكون هذا الكتاب من تأليف أبي العلاء بن
سماك العاملي المالقي؛ بحكم وجود نسخة مخطوطة
في الخزانة الملكية تحت رقم 3674؛ تحمل هذا
الاسم. غير أن عبد القادر زمامة؛ الذي حقق
الكتاب - في المغرب مع أحد زملائه - نفيًا هذا
الأمر؛ وبذلك؛ بقي الموضوع في خانة "المؤلف
المجهول". وقد تم نشر كتاب الحل الموشية في
الأخبار المراكشية - مؤخرًا - في الجزائر؛ بواسطة
دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع؛ بتحقيق محمد
شايب شريف؛ وذلك بدعم من وزارة الثقافة
الجزائرية. المهم أن هذا الكتاب يجري عليه هنا ما
يجري على كتابي: المعجب، والمن بالإمامة؛ فهو
أيضاً يشتمل على معلومات هامة؛ تخص عبد
المؤمن بن علي الكومي، وبنيه.

- 17- ديوان أبي مدين شعيب؛ لأبي مدين شعيب
ابن الحسين الأنصاري؛ (ت: 594هـ/1197م). ويشتمل
على 48 قصيدة. في حوزة المؤلف نسخة منها. وقد
قورنت بنصوص أخرى؛ لمزيد من التحقق، ومراعاة
للتصحيح.

18- تعريف الخلف برجال السلف؛ لمحمد الحفناوي الديسي؛ (1269هـ/1852م - 1361هـ/1942م) قدم له محمد رؤوف القاسمي؛ طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر سنة 1991م. سبق نشر هذا الكتاب في سنة 1906م. وهو يشتمل على عدد كبير من التراجم المغاربية عموماً والجزائرية بالخصوص. وهو مفيد جداً.

19- ديوان الشاب الطريف؛ لمحمد بن سليمان التلمساني (661هـ/1262م - 688هـ/1289م)؛ تقديم محمد قناش؛ ونشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر سنة 1991م. فائدة هذا الديوان؛ انحصرت في مراجعة أشعار الشاب الطريف ومقارنتها بما لدى مؤلف هذا الكتاب.

20- كتاب الوفيات؛ لأبي العباس أحمد بن حسن ابن علي بن الخطيب؛ المعروف بابن قنفذ القسنطيني (ت: 810هـ/1407م)؛ تحقيق عادل نويهض. ونشر دار الآفاق الجديدة ببيروت سنة 1983م. يشتمل هذا المصدر على تراجم لأعيان وأدباء من البلدان المغربية كلها؛ بالإضافة إلى الأندلس والمشرق. وفائدته هنا؛ تنحصر في ما تناوله بخصوص بعض علماء وأدباء تلمسان.

- (21) كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، لأبي عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت: 781هـ/1379م). قام بتحقيق هذا الكتاب في البداية ليفي بروفنسال (E. Levè-provençal). في شكل منتخبات منه. وصدر مؤخراً هذا الكتاب كاملاً، وفي ثوب جديد؛ بعناية وتحقيق ماريّا خيسوس بيخير؛ ونشر بواسطة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1401هـ/1981م. ويشتمل هذا الكتاب على بعض المعلومات ذات العلاقة ببعض العلماء والأدباء؛ كمال تتجلى أهميته بكون صاحبه ممن يدخل في اهتمامات هذا العمل.

- (22) جنوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس؛ لأحمد بن القاضي المكناسي (ت: 960هـ/1025هـ). طبع هذا الكتاب في سنة 1309هـ/ طباعة حجرية بإشراف محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي؛ ثم أعادت طبعه دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط سنة 1973م. تتحصر فائدته في تتبع بعض التراجم التي يهتم بها هذا البحث. وقد أفاد.

23- كتاب نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان؛ لإسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأحمر (ت: 807هـ/1404م)؛ تحقيق محمد رضوان الداية؛ ونشر دار الثقافة ببيروت سنة 1967م. وهو - كما يشير عنوانه - يحتوي على مختارات لأعلام الشعراء المغاربة والأندلسيين. وفائدته - هنا - تنحصر في ترجمة ابن أبي حجلة التلمساني.

24- كتاب درة الحجال في أسماء الرجال؛ لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي؛ المعروف بابن القاضي (960هـ/1552م - 1025هـ/1616م)؛ حققه محمد الأحمدى أبو النور؛ ونشر في طبعته الأولى بعناية دار التراث بالقاهرة، والمكتبة العتيقة بتونس؛ وذلك بين سنتي: 1970م - 1971م. ويعتبر هذا المصدر - كما أشار صاحبه - بمثابة ذيل لكتاب وفيات الأعيان. يشتمل على تراجم كثيرة لأعلام من المغرب والأندلس والمشرق؛ غير أنها اتصفت بالافتضاب والاختصار؛ الأمر الذي أفقده مزايا الكمال والوضوح. ومع ذلك فهو لا يخلو من فائدة.

25- كتاب الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة؛ لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت: 703هـ/1303م)؛ كان ضمن الحملة

المرينية المحاصرة لتلمسان؛ فمات في المنصورة؛ أثناء الحصار. حقق بعض أجزاء هذا الكتاب إحسان عباس ومحمد بنشرية، ونشر دار الثقافة بيروت لبنان سنة 1964م ما عرف من أجزاء النيل والتكملة؛ لا يتجاوز تسعة أجزاء؛ ولكنها لم تنشر كلها؛ وتم الاعتماد هنا على جزأين: الرابع والسادس. والكتاب هام جداً؛ خاصة في تراجم أعيان بلاد المغرب والأندلس.

— (26) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك)؛ لأبي عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك فوكين دي سالن؛ نشر مكتبة أمريكا والشرق Adrien Maisonneuve بباريز سنة 1965م. وهو كتاب جغرافي وصفى؛ ولكنه يشتمل على معلومات تاريخية هامة؛ وفائدته هنا تتمثل فيما ورد ضمنه عن تلمسان من أخبار تاريخية وأوصاف جغرافية.

— (27) كتاب القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق)؛ لأبي عبد الله الشريف الإدريسي (توفي في حدود 560هـ/1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي؛ ونشر ديوان المطبوعات

الجامعية بالجزائر سنة 1983م. يتناول هذا الكتاب قضايا جغرافية ومعلومات اجتماعية واقتصادية هامة. وتتمثل فائدته هنا؛ فيما ورد ضمنه من معلومات تخص تلمسان ومحيطها.

- (28) كتاب وصف إفريقيا؛ للحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي؛ ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر؛ ونشر دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1983م. وهو كتاب جغرافي يصف مناطق عديدة من إفريقيا الشمالية. وفائدته هنا تتمثل في الفصول المخصصة لمملكة تلمسان.

- (29) كتاب معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار؛ للسان الدين بن الخطيب؛ تحقيق عبد الرحمن دويب، ونشر دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر سنة 2001م. يتناول هذا الكتاب نصاً أدبياً لابن الخطيب يصف فيه تلمسان.

- (30) نيل الابتهاج بتطريز الديباج؛ لأحمد بابا التنبكتي (ت 963هـ/1036م)؛ إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة؛ ونشر بواسطة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس سنة 1989م. ويشتمل هذا الكتاب على تراجم كثيرة هامة؛ تمت الاستفادة منها.

— 31) كتاب التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي؛ لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت: 617هـ/1220م)؛ حققه أحمد توفيق؛ ونشره بواسطة كلية الآداب بالرباط. الطبعة الثانية. لهذا الكتاب فائدة معتبرة؛ إذ استقى منه في الترجمة لبعض المتصوفة منهم على سبيل المثال لا الحصر: ولي الله أبو مدين شعيب.

— 32) كتاب أنس الفقير وعز الحقيير؛ لأحمد الخطيب المعروف بابن القنفذ (ت: 810هـ/1407م). تصحيح: محمد الفاسي، ووأولف فور؛ ونشر المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس بالمغرب الأقصى سنة 1965م. وأهم فائدة قدمت من هذا الكتاب؛ هي أخبار أبي مدين شعيب؛ مع بعض أصحابه وتلاميذه.

— 33) التكملة لكتاب الصلة؛ لمحمد بن عبد الله البناسي المعروف بابن الأبار (ت: 609هـ/1212م). نشر مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد سنة 1956م. يشتمل هذا الكتاب على عدد من التراجم المفيدة.

- (34) - خريدة القصر وجريدة العصر؛ للعماد الأصفهاني (1125/519م - 597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوق ومحمد العروسي المطوي والجيلاني ابن الحاج يحيى؛ ونشر الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر بين سنوات: 1971 - 1973. يشتمل هذا الكتاب على تراجم لشعراء من البلاد المغربية والأندلس؛ وقد أفاد الباحث.

- (35) - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛ ليوسف بن تغري بدري الأتابكي (1410/813م - 874هـ/1469م)؛ نشر بعناية وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر. وهو كتاب تاريخي؛ ولكنه يتناول تراجم الأعيان حسب تاريخ وفاتهم. وأهم فائدة جنيبت منه في هذا المجال؛ هي المعلومات عن عدد من علماء وشعراء تلمسان المقيمين بالمشرق.

- (36) - كتاب الرحلة المغربية؛ لأبي عبد الله العبدري البناسي (كان حياً سنة 688هـ/1289م). تحقيق أحمد بن جثو؛ بكلية الآداب بالجزائر. زار المؤلف الرحالة تلمسان في عهد السلطان عثمان بن يغمزاسن (سنة 688هـ/1289م) بالتحديد؛ وسجل في كتابه صورة فائمة عن تلمسان ومدن المغرب

الأوسط؛ التي مرّ بها عموماً. وكتابه هذا اشتمل على بعض المعلومات الهامة؛ المتعلقة بالجانب الثقافي في المجتمع التلمساني، والمغرب الأوسط عموماً. ولكنه - مع ذلك - لم يقدم للقارئ معلومات ذات فائدة كبيرة تخص أدباء وعلماء تلمسان.

— (37) كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك (صورة الأرض)؛ لأبي القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي الحوقلي الشهير بابن حوقل (ت: 367هـ/977م). نُشر هذا الكتاب في لندن مرتين: سمي في الأولى بـ "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك" وفي الطبعة الثانية سمي بـ "صورة الأرض". ثم قامت دار مكتبة الحياة بنشره مرة أخرى سنة 1992م بهذا الاسم. وصاحب هذا المصدر رحالة وتاجر مشرقي بغدادي بدأ رحلته سنة 331هـ/943م وانتهى منها في سنة 362هـ/973م؛ أي اسغرقت رحلته مدة 30 سنة قضاها في الغربية. ولما انتهى به المطاف عند قرطبة؛ أقام بها طويلاً؛ في عصرها الذهبي؛ أيام حكم عبد الرحمن الناصر لدين الله (الثالث). وهناك كانت له فرصة التعرف على الإصطخري؛ فعرفه بكتابه المسالك والممالك؛ طالباً

منه تصحيحه واستكمال ما نقص منه. وأهمية هذا المصدر تتجلى في كونه أول المصادر الجغرافية التي أشارت إلى تلمسان - حتى وإن سماها "تمسان" بالنون بعد التاء - لأن مسالك الإسطخري قبله لم تذكرها بتاتاً. وما جاء من مصادر بعد "صورة الأرض" اقتبست منها.

(38) - كتاب معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت: 626هـ/1228م)؛ من مطبوعات دار صادر ببيروت سنة 1977م. عجم ياقوت حروف تلمسان؛ فكتب: ((تِلْمَسَان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة))¹. وأشار أيضاً إلى الاسم الذي ذكره ابن حوقل؛ وهو "تمسان" بالنون عوض اللام. وبعد فقرات؛ وصف فيها المدينة؛ قال: ((ويكون بتلمسان الخيل الراشدية؛ لها فضل على سائر الخيل؛ وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعاً من الكنايش؛ لا توجد في غيرها))². كما أشار صاحب هذا المصدر أيضاً - عند حديثه عن تلمسان - إلى شاعر من هذه المدينة؛ زار بغداد سنة 520هـ/1126م؛ اسمه أبو الحسين خطّاب بن

¹ مج: 2، ص: 44.

² نفسه، ص: 44.

أحمد بن خطّاب؛ وقال عنه - نقلاً عن سماه أبا سعيد - أنه ((كان شاعراً جيد الشعر))¹.

- (39) - كتاب تقويم البلدان؛ للسلطان المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة؛ (ت: 732هـ/1331م)؛ بعناية: رينود، وماك فوكين ديسلان؛ وطبع بدار الطباعة السلطانية بباريس سنة 1840م. بوب هذا المصدر تبويها جيداً؛ وجاءت معلوماته دقيقة؛ ولكنها مختصرة. والذي يفيد هنا هو تناول الكتاب لوصف تلمسان. كما قام صاحب المصدر بضبط وتعجيم حروف الاسم؛ فذكر - مثلاً -: ((تلمسان: بكسر المثناة من فوق وكسر اللام وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون))².

- (40) - كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار؛ لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت: 900هـ/1494م)؛ تحقيق إحسان عباس؛ ونشر مكتبة لبنان ببيروت سنة 1975م. تناول هذا المصدر موضوع تلمسان في جانبه التاريخي والجغرافي؛ وقد أفاد المؤلف.

¹ مج: 2، ص: 44.
² نفسه، ص: 136.

— 41) — كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛
لأحمد بن محمد بن خلكان (608هـ/1211م —
681هـ/1282م)؛ حققه إحسان عباس. ونشره بواسطة
دار الثقافة في بيروت؛ لبنان عبر السنوات من:
1968م إلى 1972م. وهو مخصص لتراجم عدد من
الأعلام المشاركة؛ تتخللهم بعض التراجم المغربية.
والفائدة منه هنا تنحصر في الترجمة لبعض ملوك
المغرب.

بالإضافة إلى مصادر أخرى؛ لها فائدة
متواضعة؛ سيأتي ذكرها في جول المصادر والمراجع.

أما المراجع الحديثة التي تعالج تاريخ تلمسان فهي قليلة جداً؛ خاصة تلك التي تهتم بالتراث الأدبي في هذه المدينة العريقة. ومع هذا فقد عثر على ما يسد الرمق بعض الشيء. ومن بين تلك المراجع المعتمدة هنا:

1- كتاب تاريخ الجزائر العام؛ لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي؛ نشر دار الثقافة ببيروت سنة 1980م. موضوع هذا الكتاب هو التاريخ العام للجزائر وبلدان المغرب. وهو قيم جداً؛ وقد اعتمد منه الجزء الثاني؛ لتناوله المواضيع الثقافية المطلوبة وتراجم لأعلام الجزائر وتلمسان؛ من: علماء وشعراء وكتاب.

2- كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث؛ لمبارك بن محمد الميلي؛ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1976م. وهذا الكتاب أيضاً خاص بالتاريخ العام للجزائر وبلدان مغربية أخرى. غير أنه يأتي في درجة ثانية بالنسبة لكتاب عبد الرحمن الجيلالي؛ من حيث الاهتمام بالمجال الثقافي، والعناية بأعلام الجزائر ومثقفها. ومع هذا فقد أفاد المؤلف.

3- كتاب معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر؛ لعادل نوهض؛ نشر مؤسسة نويهض الثقافية ببيروت سنة 1980م. يشتمل هذا الكتاب - كما ورد في عنوانه - على تراجم لمجموعة كبيرة من أعلام الجزائر؛ غير أن أسلوبه المختصر يستدعي الحاجة للبحث عن مراجع أخرى لاستكمال ما نقص منه.

4- باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان؛ لمحمد بن رمضان شاوش؛ ونشر ديوان المطبوعات الجزائرية، بالجزائر سنة 1995م. وهذا المرجع في غاية الأهمية؛ لتنوعه وشموله. فهو يعالج موضوعه من زوايا سياسية وحضارية وثقافية واجتماعية. وقد أفاد الباحث فائدة معتبرة.

5- كتاب تلمسان في العهد الزياني؛ لعبد العزيز فيلاي؛ نشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر سنة 2002م. وهذا الكتاب قيم جداً؛ إذ يعالج الموضوع في جوانبه: الاجتماعية والحضارية والعمرانية والثقافية؛ بالإضافة إلى الأوضاع السياسية لدولة بني زيان. وعليه؛ فقد أفاد المؤلف.

6- كتاب "أبو حمو موسى الزيتي - حياته وآثاره"؛ لعبد الحميد حاجيات؛ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1974م. وهذا الكتاب عبارة عن دراسة تخص السلطان الزياني أبي حمو الثاني. فاشتملت على عينات ونصوص نثرية وشعرية في غاية الأهمية؛ كان قد كتبها هذا السلطان الأديب الشاعر. وعليه فالفائدة المجناة منها عظيمة.

7- كتاب العالم الربني أبو مدين شعيب التلمساني؛ لمحمد الطاهر علاوي. نشر دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع؛ بالجزائر سنة 2011 م. وهو كتاب مفيد للغاية؛ إذ يتناول موضوع ولي الله ونزيل تلمسان أبي مدين شعيب. وقد اشتمل الكتاب على عينات هامة من شعره ونثره. وقد أفاد وأوفى.

8- LE ROYAUME ABDELOUADIDE A L'EPOQUE D'ABOU HAMMOU MOUSSA 1 ET ABOU TACHFIN 1 لعطاء الله دهينة؛ نشر ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر سنة 1985م. أفاد هذا الكتاب المؤلف فيما يتعلق بالوضع التاريخي والجغرافي لمدينة تلمسان.

9 - TLEMCEN ANCIENNE CAPITALE DU ROYAUME -
لأب بارجيس L'ABBE J.J. BARGES ؛ DE CE NOM,
نشر LIBRAIRIE COMMISSIONNAIRE POUR
L'ALGERIE ET LA France, 1859 ؛ وهذا الكتاب عبارة
عن رحلة وصفية لمدينة تلمسان. أفادت مؤلف هذا
الكتاب.

10 - كتاب تاريخ الجزائر الثقافي من القرن
العشر إلى الرابع عشر الهجري؛ لأبي القاسم سعد
الله؛ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر
سنة 1981م. يشتمل هذا المرجع على معلومات هامة
حول بعض العلماء من تلمسان. وقد أفاد المؤلف.

11 - كتاب القبائل الأمازيغية (أنوارها - مواطنها -
أعيانها)؛ لبوزياتي الدراجي، نشر دار الكتاب العربي
بالجزائر سنة 1999م. يشتمل هذا المرجع على تراجم
عديدة لأعيان وعلماء من تلمسان؛ وهو مفيد.

تلمسان عبر التاريخ

تلمسان في العصور القديمة

— الفترة ما قبل الرومان:

ثبت من خلال ما عثر عليه من بقايا أثرية؛ أن الإنسان تواجد — منذ أقدم العصور — في محيط تلمسان الحالية. وبمحاذاة ما عرف في العصر الروماني باسم بوماريا.

ويبدو أن موقع بوماريا؛ لم يكن خالياً من السكان قبل وصول الرومان إلى تلك الجهات؛ لأنه ثبت أن هذا الموضع كان مأهولاً منذ الأزل؛ وقد يكون الرومان أنشأوا بوماريا بجوار تجمع سكاني يتكون من أهل البلاد الأصليين؛ لا يعرف له اسم حتى الآن¹. غير أن بعض الآراء التي تحتاج إلى سند

¹ قال ألفرد بل: ((من الطبيعي أن يكون الإنسان قد استقر في هذه البقعة - الملازمة لسكنى البشر - منذ آلاف السنين. فقد عُثِر في كل جهة تقريبا على آثار إنسان ما قبل التاريخ. ومن المنتظر أن يُعثر على آثار أخرى كثيرة؛ إذ لم يُكتشف - حتى الآن - إلا عن قليل من تلك الآثار؛ وخاصة وأنه لم يَقم أحد - فيما نعلم - بالحفر المنظم في الكهوف الكثيرة المنتشرة في هذا الإقليم)). دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

تاريخي؛ تفيد أن الاسم هو أغادير. هذا الاسم الذي يرجح أن له روابط ما مع الفينيقيين¹.

وقد ثبت - من خلال المخلفات الأثرية العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ - أن هذه الجهة كانت مأهولة. ويتجلى ذلك من خلال الكهوف القديمة المتواجدة في منطقة القلعة العليا وبودغن؛ حيث تعلوها هضبة لالاسقي. كما أن اكتشافات ج. بلايتشر G. Bleicher سنة 1875م تؤكد هذا؛ حين اكتشف في كهوف بودغن بقايا أدوات أزلية مصقولة؛ تعود إلى العصر الحجري؛ من ضمنها: معاول حجرية مصقولة.

هذا؛ وقد وصل تعداد تلك الكهوف إلى مائة كهف تقريباً؛ عرفت بقلعة المارجدية تامراديث Tameradit. وقد اكتشف أيضاً الباحث إيستوني M. Estaunié - في باب القرمدين بتلمسان سنة 1941م - على آلة حجرية تستخدم لصقل الأحجار²؛ صنعت في العصر الحجري؛ بالإضافة إلى ما تم اكتشافه في

¹ أنظر التمهيد الذي استهل به الأب بارجيس كتابه Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111. ودائرة المعارف

الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.

² موجودة في متحف بمدينة تلمسان.

كهوف بهضبة لالا ستي - بقرية بني بوبلان - من قطع أثرية وصل عددها زهاء 2000 قطعة؛ تتخللها عظام بشرية؛ انحدرت من العصر الحجري الأوسط.

— مدينة بوماريا Pomarium Pomaria:

معنى الكلمة باللاتينية هو: البساتين¹ أو المراعي؛ نظراً لما يحيط بها من سهول خصبة غنية، وما يحفّ موقعها من غطاء مخضر بالنبات، وأشجار باسقات، وما يكتفه من جمال الطبيعة النضرة الفيحاء، وخصوبة الأرض الثرية المعطاءة، وتوافر المياه العذبة الرقراقة؛ المتدفقة عبر الحقول والبساتين المثمرة الغنّاء، المحملة بما جادت به من الغلال الطيبة المذاق، وما عبقّت به من روائح عطرة فواحة.

¹ دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسن، ص: 452.

عُرِفَتْ بوماريا في خارطة شمال إفريقيا بعد أن شرعت جيوش الرومان في تشييد الخط الدفاعي الاستيطاني الثاني (الليمس)¹؛ فَبُنِيَتْ هذه المدينة العسكرية الأزلية على مرتفع صخري؛ يعلو سطح البحر بـ 827 متر، ويستند إلى السلسلة الجبلية الجنوبية الشامخة بقمتها؛ التي ترتفع إلى مستوى 1842م فوق سطح البحر.

كما تشرف المدينة على سهول فيحاء، خصبة؛ من شمالها وشرقها وغربها. وقد شُرع في بنائها منذ سنة 222 بعد الميلاد؛ وانتهى من ذلك في سنة 235 ميلادية. في عهد الامبراطور جورديان الأول Gordian I²؛ حيث جُعِلَتْ بمثابة المعسكر الأمامي؛ الذي يقوم بمراقبة السكان الأصليين، وقمع أي محاولة لتمردهم وعصيانهم، وحماية المستعمرين الرومان؛ وعليه فقد أسكنوا في بوماريا فرقة من المشاة (وفي قول من الفرسان)³؛ كقوة ردع وتأديب للسكان الأصليين.

¹ تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 186 - 189. 238.

² عند الأب بارجيس: الإمبراطور جورديان الأصغر؛ Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111.

³ دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454. Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111.

– في العصر الروماني:

وتقول المصادر أن هندسة البناء في بوماريا لا تختلف كثيراً عما كان الرومان يقيمونه من معسكرات؛ إذ يفترض أن يحيط بها سور حصين منيع؛ له أبواب أربعة مستطيلة الشكل؛ يتجه الباب الأول نحو الشرق وهو الباب الإمبراطوري، يعاكسه في الجهة المقابلة الباب الغربي (الديكومي)، ثم يقوم باب ثالث في الجهة الجنوبية، وآخر في الجهة الشمالية. كما تشتمل المدينة أيضاً على مقر للقيادة وسوق لشراء وبيع البضائع المعروضة، ومخزن لخزن الأسلحة وحفظ كل ثمين وذو قيمة.

وجاء في المصادر كذلك؛ أن بوماريا الرومانية حظيت بمكانة دينية هامة؛ حيث اشتملت على أبرشية؛ أشرف عليها أسقف ذاع صيته؛ وهو الأسقف الكاثوليكي لوجيونيس بوماريانيسيس PAMARIENSIS أو POMARIENSIS.¹

كانت بوماريا في العهد الروماني تابعة لمورطانيا القيصرية؛ وتحتل موقعاً حيوياً هاماً؛ إذ شيدت على الخط الأمامي لليمس؛ وهو خط الدفاع

¹ Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111

الروماني؛ المشيد ضد هجمات البدو، والثائرين
المقاومين للنفوذ الأجنبي. كما تشرف هذه المدينة
أيضاً على طرق المواصلات الرئيسة¹؛ مثل: الطريق
الواصل بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية.
ثم الطريق الرابط بين مدن عدة؛ مثل ألبولاي
Albulae (عين تموشنت الحالية)، وبورتوس ديفينيس
Portus Divini (المرسى الكبير بوهران)، وسيقا (المقر
الغربي لحاضرة صيفاقس)؛ وكذلك رشقون؛ وهو
الميناء البحري لسيقا؛ المتواجد على مصب وادي
تافنا.

وقد حدد الباحثون الموقع الأصلي لمدينة
بوماريا؛ فوجدوا أنها كانت مبنية في الجهة الشرقية
من تلمسان الحالية؛ ضمن الحدائق والبساتين؛ أين
بنيت - الآن - فوقها دور عديدة، وعمارات سكنية،
ومحطة السكة الحديدية. فلم يبق منها سوى بعض
الأحجار المنحوتة²؛ التي استخدمت من جديد في
بعض المباني الخاصة والمنشآت العمومية؛ مثل

¹ ((ومدينة تلمسان ققل بلاد المغرب؛ وهي على رصيف للداخل والخارج
منه؛ لا بد منها والاجتياز بها على كل حال)). القارة الإفريقية وجزيرة
الأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق)، ص: 151.

² دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

مئذنة مسجد أغادير العتيق؛ التي بناها يغمراسن بن زيان¹.

– في العصر الوندالي:

عرفت بوماريا – كغيرها من مدن شمال إفريقيا؛ بحكم تقلبات الأوضاع السياسية في البلدان المغربية كلها – عرفت تحولات عديدة؛ إذ غدت أرضها تابعة لجنسرريك الملك الوندالي؛ الزاحف من إسبانيا؛ وذلك سنة 429م؛ حيث انحسر – حينها – النفوذ الروماني وغاب عن المنطقة كلها؛ زهاء القرن من الزمان تقريباً. وقد أشار ألفرد بل إلى غياب أي توثيق أو تسجيل يمكنه إجلاء حقيقة الأوضاع في بوماريا خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين العهدين: الروماني والإسلامي؛ حيث قال: ((ولا نعرف شيئاً عن تاريخ تلمسان فيما بين العهد الروماني والفتح الإسلامي؛ ولا نعرف كيف دخل الإسلام إلى هذا الإقليم في القرن السابع الميلادي؛

¹ بغية الرواد في نكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيل في بيان شرف بني زيان)، ص: 125.

Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 127.

كما لا نعرف شيئاً عن إمارة بني صفرة¹ البربرية؛
التي كان يتزعمها أبو قرة في القرن الثامن
الميلادي. وكل ما نعلمه أن أمير تلمسان كان
يخرج في مناسبات عدة؛ على رأس أتباعه من
خوارج زناتة للغزو ناحية الشرق؛ فوصل إلى الزاب
وإفريقية²)).

ونتيجة لغياب سلطان الدولة الكبرى، والنفوذ
الواسع؛ المتمثل في الدولتين: الرومانية والبيزنطية؛
وحتى الدولة الوندالية؛ فقد أدى ذلك كله إلى موجات
من الاضطراب وأزمات مدمّرة؛ تكون قد طالّت
بوماريا وغيرها من المدن في الجهات الغربية
والشرقية؛ فدمّرت بعضها، وأنهكت أخرى؛ حيث
ظهرت في هذه الأثناء إمارات أمازيغية عديدة: في
الأوراس والحضنة والواشريس؛ بالإضافة إلى إمارات
ألتافا Altava (أولاد ميمون حالياً)؛ تلك المدينة التي
تبعد عن بوماريا بـ 30 كلم تقريباً؛ وكان على
رأسها ملك يدعى مازونة Masuna.. وهنا يتبيّن ما
حدث لبوماريا؛ من انتقال مركز الحكم منها إلى

¹ يبدو أن المترجم خائنه الحقيقة هنا؛ إذ لا توجد إمارة لقوم يسمون ببني صفرة؛
وكل ما قصده الفرد بل هي الإمارة الصفيرية بزعامة أبي قرة اليفرني.

² دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

ألتفا؛ حاضرة الملك في عهد مازونة¹. حدث ذلك كله؛ حينما انتهز السكان الأصليون في البلدان المغربية الأحداث المضطربة والصراع بين الوندال والرومان؛ فسعوا إلى كسب مواقع؛ مكنتهم من الاستقلال والاستقلال عن مركز الحكم في روما أو بيزنطا بعدها؛ حيث ظهرت تلك الممالك الأمازيغية في غرب البلاد ووسطها.

— في العصر البيزنطي:

وعلى الرغم من المساعي الحثيثة لإمبراطور بيزنطة؛ في دعم قاداته وجيوشه في الشمال الإفريقي؛ بغرض بسط نفوذ روم الشرق في تلك الديار؛ فإنه لم يحقق كل أهدافه. فحتى وإن كان إمبراطور الروم قد طرد الوندال نهائياً من إفريقيا الشمالية؛ فإنه عجز عن إخضاع زعماء الأمازيغ؛ خاصة في وسط البلاد وغربها؛ (المغرب الأوسط والمغرب الأقصى). وحتى مدينة قيصريّة نفسها (شرشال) فقد تعذر على البيزنطيين الوصول إليها إلا عن طريق

¹ تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 347 - 348. 369 - 370. 380 - 381. مدنية المغرب العرب في التاريخ، ص ص: 383 - 392. الجزائر بين الماضي والحاضر، ص: 87. تاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 104.

البحر. وبذلك يمكن القول: أن البيزنطيين؛ لم يستطيعوا استعادة السيطرة المطلقة على شمال إفريقيا؛ كما كان الحال أيام الطفرة الرومانية الأولى. حيث برزت إمارات أمازيغية عديدة؛ صمدت في وجه البيزنطيين؛ منها: مملكة ألتافا، ومملكة جدار، ومملكة الحضنة، ومملكة الأوراس.

ومع ذلك؛ فإن تلك الإمارات؛ تأثرت بالرومان والبيزنطيين؛ إذ اقتبست منهم الصبغة الحضارية الخاصة بهما؛ حيث تشكلت - ضمن تلك الإمارات المحلية - كتل اجتماعية غير متجانسة وتفتقر للانسجام؛ تميزت بتعايشها ثقافياً ودينياً وتأثرها بحضارة بيزنطة؛ بالإضافة إلى وجود خليط من مظاهر دينية أخرى. فالإلى جانب المسيحية؛ وجدت ديانات أخرى مثل: اليهودية، والوثنية..

ولا يعرف إن كانت مدينة بوماريا قد بقيت على حالها الأول؛ طوال الفترة البيزنطية؛ وخلال العهد الوندالي أو بعد انحساره عن الديار المغربية كلها؛ أو على الأقل في محيطها الخارجي؛ حتى وإن كانت قد تعرضت للدمار. وعلى هذا؛ فما عرف - حتى الآن - عن مدينة بوماريا؛ في تلك الفترة القديمة، وبعد تلك الحروب والصراعات؛ لا يفيد في

بحث ولا يغني عن حاجة. وكل ما في الأمر؛ أن المصادر ذكرت أن النفوذ البيزنطي تلاشى في الجهات الوسطى والغربية؛ وبقي محصوراً في شرق الوطن الجزائري وتونس. وحتى الذي بقي من النفوذ البيزنطي في شمال إفريقيا؛ فإنه لم يدم طويلاً على تلك الحال؛ إذ تقلص وسقط تماماً في هذه الديار؛ تحت سنانك خيل المسلمين؛ بدءاً بإفريقية ثم المغرب الأوسط فالأقصى.

وهنا؛ يمكن القول أن اسم بوماريا اختفى تماماً. ولا يُعرف إن كان ذلك حدث جراء تدميرها في العصر الوندالي. أو أنها بقيت لمدة ما. غير أن ما هو واضح - حتى الآن - هو أن السكان الأصليين؛ اختاروا لهذه المدينة اسماً آخر؛ ربما يكون هو الاسم الأقدم لها؛ أو لموقعها؛ قبل وصول الرومان؛ وبناء معسكرهم (بوماريا) في تلك البقعة.

العصر الإسلامي الأول

المهم؛ أن موقع بوماريا أضحى - بعد الفتح الإسلامي - ضمن الأملاك المشاعة بين أعضاء القبيلة الأمازيغية الكبرى؛ التي عرفت لدى المسلمين بزناتة؛ خاصة بين فرعها المسمى ببني يفرن. عندها؛ اختفى اسم بوماريا وحلّ محله اسم أغادير (أقادير أو أكادير)؛ وربما - لفترة قصيرة أيضاً - اسم مدينة الجدار¹. وقد يكون ذلك نعتاً لمدينة تلمسان؛ فضّله سكان المدينة؛ نظراً لما شاهدوه من ضخامة وعلوّ أسوار المدينة². واسم الجدار هنا؛ لا علاقة له بمملكة الونشريس؛ المسماة بالجدار أو (بني جدار) القائمة معالمها الأثرية في منطقة تيارت³.

¹ دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.

² شاع هذا الاسم في العهد الإسلامي؛ وقد أشار إليه ابن خلدون؛ بقوله: ((وما يزعم بعض العوام من سكانها [سكان تلمسان]؛ أنها أزلية البناء؛ وأن الجدار الذي ذكر في القرآن - في قصة الخضر وموسى عليهما السلام - هو بناحية أكادير منها؛ فأمر بعيد عن التحصيل؛ لأن موسى عليه السلام؛ لم يفارق المشرق إلى المغرب؛ وبنو إسرائيل؛ لم يتسع ملكهم لإفريقية؛ فضلاً عما وراءها؛ وإنما هي من مقالات التشيع المجهول عليه أهل العالم؛ في تفضيل ما ينسب إليهم، أو ينسبون إليه؛ من بلد أو أرض أو علم أو صناعة)). العبر، مج: 7، ص: 156.

³ أنظر: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 380. وكتاب L'Algerie dans l'Atiquité, p: 224. وكتاب الجزائر بين الماضي والحاضر،

ولكن سكان تلمسان وغيرهم من محبي الأساطير؛ أرجعوا كلمة "الجدار" إلى قصة النبي موسى مع الخضر عليهما السلام. حين دخلا قرية فاستطعما أهلها؛ فأبوا إطعامهم؛ فوجدا جداراً؛ كاد أن يسقط؛ فأقامه سيدنا الخضر؛ فقال له النبي موسى: ((لَوْ شِئْتَ لَتَخَطَّتَ عَلَيْهِ أَجْراً))¹. ثم فسّر سيدنا الخضر للنبي موسى عليهما السلام ما التبس لديه؛ فقال: إن هذا الجدار لغلامين؛ والدهما رجل صالح؛ ترك لهما تحت الجدار المذكور كنزاً؛ فأراد الله أن يُقام الجدار حتى يكبرا؛ فيكتشفا الكنز بنفسيهما.

وهي قصة موجودة في القرآن الكريم؛ وفي سورة الكهف بالتحديد. ويبدو أن فئة من المتصوفة استهوتهم القصة المذكورة؛ إذ هم أكثر الناس عناية بما جاء فيها؛ بسبب الخضر عليه السلام؛ ذلك الرجل الصالح الذي منحه الله علماً لم يحصل عليه موسى وهو النبي. وتلمسان - كما هو معروف - مليئة بالمتصوفين والصالحين.

ص: 86. وكتب L'AFRIQUE DU NORD DANS L'ANTIQUITE, p: 345

وكتاب أضرحة الملوك النوميديين والمور، ص: 51 - 54.

¹ سورة الكهف؛ من الآية: 77.

وعلى الجملة؛ فقد تلاشى اسم بوماريا؛ بعد أن أطلق المسلمون - من قبائل زناتة - على موقعها اسماً آخر؛ قد يكون أغادير، أو تلمسان أو غيره. وسيأتي لاحقاً ذكر الفترة الزمنية الأولى التي شاع فيها استعمال اسم تلمسان.

— اغادير¹ او افادير او اجادير² AGADIR:

معناها بالأمازيغية - في أحد الأقوال - القلعة. بينما جاء في قول آخر؛ أن هذا الاسم فينيقي الأصل³؛ اندرج في اللغة الأمازيغية؛ ومعناه الجرف أو الهضبة؛ ذات الانحدار الخفيف. وبالتالي في اسم أغادير⁴، وأصوله الفينيقية؛ يفهم أنه هو الاسم القديم للمدينة؛ إذ ينحدر إلى العهد الفينيقي؛ وبذلك يكون هو الاسم الحقيقي للموقع الذي شيد الرومان عليه مدينتهم بوماريا؛ لذا فقد أصرّ الأمازيغ على استعادة الاسم الأصلي القديم؛ بعد زوال المعسكر الروماني.

¹ تكتب أيضاً ((أكادير)).

² بالجيم المصرية.

³ دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452. Tlemcen

ancienne capitale du royaume de ce nom, préface.

⁴ ثمة أغادير أخرى في جنوب المغرب الأقصى.

ويؤيد هذا الرأي؛ مكانة هذا الموقع ومنزلته في القلوب؛ والحميمية الخاصة به؛ لدى السكان الأصليين. حيث أن أغادير (قسم من المدينة الحالية)؛ ربما كانت مركز تجمع للجيش الأمازيغي بقيادة كسيلة؛ ذلك الجيش الذي تصدى للمسلمين بقيادة أبي المهاجر دينار؛ المقيم آنذاك؛ في موضع يسمى عيون أبي المهاجر. فانتهت المعركة - سنة 55هـ/674م - بأسر كسيلة واعتناقه الإسلام على يد أبي المهاجر¹. وهكذا؛ ظلت أغادير (تلمسان القديمة) في صدارة المدن الأمازيغية في العهدين الأموي والعباسي. حيث بزرت كحاضرة لإمارة أمازيغية زناتية؛ تمثل قبيلة بني يفرن². التي ربما تكون قد اعتنقت - في ذلك العهد - المذهب الخارجي الصفري³. كما شارك أعضاؤها في ثورات عديدة؛ تفجرت ضد بني أمية وبني العباس.

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص: 28. العبر، مج: 6، ص: 297. مج: 7، ص: 156.

² قال ابن خلدون: ((كان من بني يفرن - بالمغرب الأوسط - بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد؛ المعروفة بهم لهذا العهد. وهم الذين اختطوا تلمسان - كما نذكره في أخبارهم - وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس؛ أبو قررة. ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم)). العبر، مج: 7، ص: 24. أنظر أيضاً مج: 7، ص: 156.

³ اختلف المؤرخون بخصوص مذهب بني يفرن. فمنهم من نسبهم إلى الصفرية، ومنهم من أنكر ذلك واعتبرهم من السنة. فهذا ابن حزم

— معنى كلمة تلمسان:

تلمسان أو تلمسن: فسرها بعضهم بمعنى أنها مركبة من كلمتين أمازيغيتين: تلم - سن؛ معنى الأولى هو: تجمع؛ والكلمة الثانية معناها: اثنان. والمقصود في بعض التفسيرات: أنها تجمع بين التل والصحراء؛ بسبب وجود المدينة في التل؛ بينما هي محاذية للصحراء؛ التي لا تبعد عنها كثيراً. نقل هذا القول يحيى بن خلدون عن أبي عبد الله محمد الآبلي؛ الذي - كما قال - يعرف اللسان الأمازيغي.¹ وذكر - أيضاً - أن بعضهم يسميها: تلشان²؛ كلمة مركبة كذلك من كلمتين هما: تل³؛ بمعنى: لها، ثم شان؛ ومعناها شأن؛ بعد تخفيف الهمزة؛ أي: لها شان. غير أن تفسير الآبلي أقرب للمعقول. أما عبد الرحمن بن خلدون؛ فقال؛ نقلاً

يقول: ((وأما جمهور بني مغراوة وبني يفرن؛ فسنة)). جمهرة أنساب العرب؛ ص: 498. ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا أيضاً؛ فيقول: ((وكثير من الناس يقولون إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة؛ كما ذكره ابن حزم وغيره)). العبر؛ مج: 7- ص: 25 - 26. غير أن هذه الاختلافات لا تنفي مرافقتهم للخوارج في ثوراتهم. وربما اختاروا العودة للمذهب السني؛ أيام تواجد إدريس بن إدريس؛ داخل تلمسان مدة ثلاث سنين؛ بعد فتحها للمرة الثانية سنة 197هـ/812م. وسيأتي ذكر هذا لاحقاً.

¹ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد؛ ج: 1، ص: 85.

² في نفح الطيب: "تلمشان"؛ بالميم بعد اللام. ج: 7، ص: 134.

³ نفسه: "تلم"؛ بالميم بعد اللام.

عن الرقيق القيرواني: ((واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين: "تلم سين"¹؛ ومعناها تجمع من اثنين؛ يعنون البر والبحر))². ومن جهة أخرى؛ قال ألفرد بل: ((تلمسان: كلمة عربية مأخوذة من الكلمة البربرية "تلمس" (والجمع تلمسان وتلمسين)؛ ومعناها نبع أو بئر. ومن ثم كان معنى تلمسان: مدينة الينابيع))³. بينما يعتقد جورج مارسلي أن اسم هذه المدينة مركب من كلمتين أمازيغيتين: الأولى؛ "تلا"؛ ومعناها "المنبع"؛ والثانية؛ "سان"؛ أي "الجاف". وبهما يصبح اسمها: "المنبع الجاف". وثمة من يقول أيضاً أنها تلمسين (بكسر المثناة الفوقية وسكون اللام وكسر الميم)؛ ومفردها: تلماس؛ بمعنى: جيب ماء، أو نبع. وبهذا نترجم إلى مدينة الينابيع. ثم تمادى آخرون في تفسيرهم؛ فقالوا: أن كلمة تلمسان عربية الأصل؛ وهي مركبة من كلمتين: الأولى؛ تلم؛ أي تجمع، والثانية إنسان (حذف منها الألف والنون وأدمجت الكلمتان: تلم سان)؛ أي مجمع

¹ كتب في بعض النسخ: ((تلم سان - تلم سن - تلم سين)). العبر، مج: 7، ص: 156 - 157.

² العبر، مج: 7، ص: 157.

³ دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.

الناس. وهذا طبعاً محض خيال. ولم يقتصر الحال على ما ورد؛ بل ثمة من يرى أن المقصود هو جمعها لمدينتين: الأولى هي أغادير (أفادير)، والثانية تكرارات (تقّرات). وهذا في حد ذاته؛ لا يصح إلا في حال بدء ظهور اسم تلمسان - فعلياً - بعد بناء تكرارات؛ أي في زمن المرابطين. يحدث هذا - طبعاً - عند الذين يعتقدون أن اسم تلمسان؛ لم يصبح متداولاً بشكل واسع بين المؤرخين إلا في عهد المرابطين وبعده. بحكم معرفتهم أن أقدم كتابين أرخا لهذه المدينة هما "تاريخ تلمسان" لأبي عثمان سعيد ابن عيسى بن أحمد بن لب الرعيني الأندلسي المعروف بالأصفر¹ (توفي في حدود سنة 460هـ/1067م)، و"تاريخ تلمسان" أيضاً لقاضي تلمسان ابن هدية القرشي (المتوفى سنة 736هـ/1335م).

¹ لا يعرف علاقته بتلمسان؛ حتى أنه خصص لها تاريخاً. وهو من الذين استوطنوا طليطلة بالأندلس؛ وله عناية خاصة بعلم النحو؛ حيث قلم بشرح كتاب الجمل للزجاجي. وله أيضاً مشاركة في علم المنطق واللغة والأشعار والأخبار. أنظر ترجمته في صلة بن بشكوال، ج: 1، ص: 223 رقم الترجمة: 509. وكتاب إنباه الرواة في أنباه النحاة ج: 2، ص: 47، رقم الترجمة: 274. وكتاب روضة الجنان، ج: 3، ص: 272.

فكل ما ورد أعلاه عبارة عن تعاريف عديدة؛
لمعنى تلمسان؛ وكلها تفيد أن الاسم مركب من
كلمتين؛ اختلف الناس في معناها. المهم أن هذه
المدينة وصفت بأسماء عديدة؛ منها: لؤلؤة المغرب،
وجوهرة المغرب، وعروس المغرب الأوسط،
وحاضرة المغرب الأوسط، وقاعدة المغرب الأوسط،
وأم بلاد زناتة¹، ومدينة الفن والتاريخ، وغرناطة
إفريقيا... إلخ.

يعترف عبد الرحمن بن خلدون بأنه لم يصل
إلى معرفة أخبار تلمسان قبل وجود بني يفرن
بها². كما يقول أنه لم يعثر على ذكر لها أقدم
من خبر الطبري (توفي سنة 310هـ/923م)؛ حين
أورد خبر حصار أبي قرّة وأصحابه لعمر بن حفص
في طبنة؛ إذ قال: ((فأفرجوا عنه؛ وانصرف أبو قرّة
إلى مواطنه بنواحي تلمسان))³. ثم أضاف الخبر
الذي أورده الرقيق القيرواني (توفي بعد

¹ وصفها ابن خلدون فقال: ((هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط؛ وأم بلاد
زناتة؛ اختطها بنو يفرن؛ بما كانت في مواطنهم)). العبر، مج: 7، ص: 156.

² ((ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك)). نفسه، ص: 156.

³ نفسه، ص: 156. وهذه العبارة غير موجودة؛ هكذا؛ في نسخة (تاريخ
الأمم والملوك) المتوفرة لدى مؤلف هذا الكتاب. ولعلها وجدت في نسخة
أخرى اطلع عليها ابن خلدون؛ أو يكون نقلها عن كتاب الرقيق.

417هـ/1026م)؛ ومفاده أن أبا المهاجر دينار ((توغل في ديار المغرب؛ ووصل إلى تلمسان؛ وبه سميت عيون المهاجر؛ قريباً منها))¹. كما أشار أن الرقيق ذكر تلمسان أيضاً؛ حين تكلم عن توغل إبراهيم ابن الأغلب في الجهات الغربية؛ حتى نزل تلمسان². وعند الأخذ بالإعتبار؛ كل ما ذكره ابن خلدون؛ يمكن إضافة معلومة - تركها هذا الأخير، ولم يشر إليها - وقد وردت في كتاب فتوح مصر والمغرب؛ لابن عبد الحكم (الذي توفي سنة 257هـ/871م). مع استبعاد أن يكون ابن خلدون لم يطلع على هذا الكتاب. جاء في الكتاب المذكور أن موسى بن نصير كان مقيماً بالقيروان؛ بينما كان طارق بن زياد مقيماً في تلمسان (سماها تلمسين)؛

¹ العبر، مج: 7، ص: 156. حتى كتاب الرقيق القيروان نفسه؛ الذي نشر - مبتوراً - حالياً؛ فلا وجود لاسم تلمسان فيه. وبذلك؛ يكون ابن خلدون؛ قد اطلع على نسخ أخرى. ومصادق هذا؛ أن ابن عذاري نقل نصين عن الطبري والرقيق وعريب؛ قال في الأول: ((وفي سنة 153 هـ؛ قتل عمرو ابن حفص؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو غادي، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا - فيما ذكر - ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً؛ ومعهم أبو قرة اليفرني أمير تلمسان في أربعين ألفاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 77. وجاء في النص الثاني: ((قال الرقيق وعريب: ((وفي 153 هـ [هـ] زحف أبو قرة من تلمسان في جمع كبير من البربر إلى القيروان؛ فصالحه عمرو ابن حفص؛ وانصرف)). نفسه، ص: 77 - 78.

² العبر، مج: 7، ص: 156.

فراسل يليان طارق بن زياد قائلاً: ((إني مدخلك
الأندلس؛ وطارق يومئذ بتلمسين وموسى بن نصير
بالقيروان؛ فقال طارق: إني لا أطمئن إليك حتى تبعث
إليّ برهينة؛ فبعث إليه بابنتيه؛ ولم يكن له
غيرهما؛ فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما))¹.

إذن؛ فاسم تلمسان (أو تلمسين) كان متداولاً أيام
ابن عبد الحكم الذي ولد في سنة 187هـ/802م
وتوفي سنة 257هـ/871م. ثم يتعزز هذا القول
بالإشارة إلى ابن حوقل (المتوفي سنة 367هـ/977م؛
أي في عصر الناصر لدين الله الأموي)؛ هذا الرحالة
الذي يكون قد انفرد - آنذاك بين كتّاب الرحلة
والجغرافية القدماء - بالإشارة إلى تلمسان؛ حيث
كتب: ((ومنها [أي قرية العلويين] إلى تنمسان [بالنون
عوض الهمزة] مرحلة طريفة؛ وهي مدينة أزلية؛ ولها
أنهار جارية، وأرحية عليها، وفواكه؛ ولها سور
من آجر حصين، منيع؛ وزرعها سقي؛ وغلاتها
عظيمة، ومزارعها كثيرة))².

¹ فتوح مصر والمغرب، ص: 277.

² صورة الأرض، ص: 88.

وهكذا؛ فابن حوقل سماها تنمسان، ولم يشر إلى اسم أغادير. واسم تنمسان (بالنون) أشار إليه أيضاً - فيما بعد - ياقوت الرومي البغدادي (توفي سنة 626هـ/1228م) في معجمه؛ حين كتب: ((وبعضهم يقول تنمسان؛ بالنون عوض اللام)). ولكنه اعتمد بالأساس على اسم تلمسان (باللام) حين كتب: ((تِلْمَسَان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة))¹. وكان البكري (المتوفي قبله في سنة 487هـ/1094م) قد تكلم - في مسالكه - عن مدينة تلمسان أيضاً؛ وسماها بهذا الاسم. وتبعه في ذلك الشريف الإدريسي (المتوفي سنة 560هـ/1164م)؛ الذي سماها باسم تلمسان. كما سماها أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف² بالبزق: "تلمسان"؛ وذلك في مواضع عديدة من كتابه: "أخبار المهدي بن تومرت". ومنذئذ أضحت المصادر جميعها تستعمل كلمة تلمسان. وكل هذا يفيد أن اسمها (باللام أو بالنون) ظهر - لأول مرة - في فترة حكم زناتة

¹ معجم البلدان، ص: 44.

² قدر بعضهم مولده في حدود 490هـ/1096م؛ وكان حيا في العهد الذي حكم فيه عبد المؤمن بن علي.

المغراويين؛ وربما نَعَمِدُوا ذلك؛ قصد تَجاهل اسم
أغابير؛ التي شَيدَها أبو قرة اليفرني منافسهم.

تلمسان.. ناج رنانه

— في عهد أبي قرة اليفرني:

يفهم من أقوال عبد الرحمن بن خلدون؛ أن أبا قرة اليفرني الزناتي هو مؤسس مدينة تلمسان؛ علماً بأنه لم يشر في حديثه — هنا — إلى اسم أغادير أو بوماريا.. هذه الأخيرة؛ التي يكون أبو قرة¹ قد شيد مدينته أغادير فوق أنقاضها؛ فأضحت منذئذ تسمى بهذا الاسم؛ حتى برز اسم تلمسان؛ الذي أصبح متداولاً وشائعاً بين المؤرخين والجغرافيين المسلمين وغيرهم؛ وفي الوقت ذاته؛ نسي الناس اسم بوماريا؛ وكذلك أغادير²..

وكان أبو قرة هذا؛ (ونسبه بعضهم إلى قبيلة مغيلة)³؛ كان يرأس قبيلة بني يفرن آنذاك؛ حيث

¹ من مآثره بقايا سور كبير في تلمسان؛ به باب - موجود الآن - يسمى باب أبي قرة. (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 76).

² ثمة من يعتقد أن أغادير نشأت قبل بوماريا؛ بل يرون أن بوماريا نفسها بنيت على أنقاض أغادير. ويبقى هذا الاحتمال قائماً بالحاح؛ في انتظار ظهور دليل يؤكد أو ينفيه.

³ البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. اختلف المؤرخون حول نسبه؛ فمنهم من نسبه إلى بني يفرن؛ ومنهم من نسبه إلى قبيلة مغيلة. هذه القبيلة التي كانت تعيش أيضاً في محيط تلمسان، وثبت أنها تدين بالمذهب الصفري. وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وبعض المؤرخين ينسب أبا قرة

أبلى كل البلاء في ثورات الخوارج؛ إذ شارك معهم في معظم الحروب ضد بني أمية وبني العباس. كما كان على رأس أربعين ألف مقاتل؛ أثناء حصار الثوار الأمازيغ لوالي القيروان عمر بن حفص (هزارمرد) بطبنة سنة 150هـ/767م¹. وتذكر المصادر أن أبا قررة نصب نفسه بتلمسان (أي أغادير قديماً) في مرتبة خليفة للمسلمين؛ ولقب بهذا اللقب سنة 148هـ/765م².

والثابت؛ أن بعض المصادر؛ أوردت خبر أبي قررة قبل هذا التاريخ (تاريخ حصار طبنة)؛ حيث وُجد

هذا إلى مغيلة؛ ولم أنظر بصحيح في ذلك؛ والطرائق متساوية في الجانبين؛ فإن نواحي تلمسان - وإن كانت موطناً لبني يفرن - فهي أيضاً موطن مغيلة؛ والقبيلتان متجاورتان؛ لكن بني يفرن كانوا أشد قوة، وأكثر جمعاً؛ ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن؛ لأنهم صفرية)). العبر، مج: 7، ص: 25.

¹ جاء في "الكامل في التاريخ" أن هذا الحصار حدث سنة 151هـ/768م. أنظر: ج: 5، ص: 31 - 32. أما الطبري فذكر قصة مقتل عمر بن حفص خلال سنة 153هـ/770م. أنظر، تاريخ الأمم والملوك؛ ج: 9، ص: 284.

² البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص: 75. 77 - 78. العبر، مج: 7، ص: 24 - 25. وأورد ابن الأثير مقولة لأبي قررة؛ رد بها على رسول والي القيروان؛ الذي عرض عليه رشوة تقدر بستين ألف درهم؛ فقال: ((بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة؛ أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 32. وهذا النص؛ يثبت أنه لقب بلقب خليفة مدة أربعين سنة. وبذلك يكون ما ورد في تاريخ الأمم والملوك للطبري فيه تحريف؛ حين كتب: ((وكان يسلم عليه - قبل ذلك - بالخلافة أربعين يوماً)). ج: 9، ص: 284. والصحيح هو ((عاماً)).

على رأس قوة أمازيغية؛ زحفت إلى القيروان في عهد
حنظلة بن صفوان؛ حدث ذلك في سنة 124هـ/741م
بالتحديد¹. كما اعترض أبو قررة أيضاً بجيشة
الأغلب بن سالم سنة 148هـ/765م؛ ولكنه انسحب
دون حرب².

¹ البيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

² الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 26.

إمارة الحسينيين في تلمسان

المهم؛ أن أخبار أبي قررة تلاشت فيما بعد؛ ولا يعرف مصيره بين قومه. وكل ما ثبت من أخبار؛ أن تلمسان؛ أضحت تحت سيادة فرع آخر من فروع زناتة؛ تمثله قبيلة مغراوة¹؛ المجاورة لتلمسان من جهة الشرق؛ لأن مجالات مغراوة الأولى هي ما بين تلمسان وشلف إلى جبل مديونة وما يليه². ويؤكد هذا؛ وجودهم في هذه المدينة سنة 174هـ/790م؛ حينما زحف إدريس الأكبر ابن عبد الله بن حسن بن الحسن³ بن علي بن أبي طالب؛ نحو تلمسان؛ فخرج إليه المتغلب على المدينة؛ أمير مغراوة - محمد بن خزر - طائعاً ومبايعاً؛ ثم فتح له أبواب المدينة؛ فدخلها متمكناً إياها.

¹ يبدو أن تلمسان؛ أضحت تحت إمرة خزر بن محمد بن خزر؛ وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((إلى أن ولي منهم خزر بن محمد بن خزر؛ فملك جميع بلاد زناتة، وملك تلمسان، وناهرت، وجميع بلاد القبلة)). إعمال الأعلام (قسم المغرب) ص: 153.

² العبر، مج: 7، ص: 50. وجبل مديونة يسمى أيضاً جبل وجدة. أنظر القبائل الأمازيغية، ج: 1، ص: 109.

³ ثمة من ينسبه إلى الحسينيين. وقد تم اعتماد ما ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب؛ وهو الصحيح. ص: 48.

ومن مآثره فيها؛ أنه شَيّد مسجدها الجامع، ونصب منبرها سنة 174هـ/790م¹.

وفي هذا الزمن بالذات وصل إلى تلمسان سليمان بن عبد الله. قدم من المشرق؛ هارباً ولاجئاً إلى كنف أخيه إدريس بن عبد الله؛ فاستقر بهذه المدينة واستوطنها²؛ ومن ثمة عقد له أخوه إدريس على ولايتها.

— بنو سليمان في تلمسان:

ويبدو أن الوضع تغير في تلمسان، ولم يبق على حاله بعد موت إدريس الأول؛ لأن ابن خلدون — وغيره — ذكروا أن إدريس الثاني ابن إدريس بن عبد الله عاود — مرة ثانية — فتح تلمسان سنة

¹ ورد في الأنيس المطرب بروض القرطاس ما يلي: ((وكتب عليه [أي المنبر]: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله عنهم؛ وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة)). ص: 8. ويقول ابن خلدون: ((وبنى مسجدها [أي تلمسان]، وأمر بعمل منبره، وكتب اسمه فيه حسبما هو مخطوط في صفح (٢) المنبر لهذا العهد)). العبر، مج: 7، ص: 25. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 192. ودائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 455.

² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 122. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص: 210. والعبر، مج: 4، ص: 24. ومج: 7، ص: 52. أنظر أيضاً دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، ص: 373 - 380.

197هـ/812م¹؛ وأقام بها مدة ثلاث سنين؛ وأعاد بناء مسجدها²؛ ثم أسند - مرة أخرى - ولايتها لابن عمه محمد بن سليمان بن عبد الله³. وهذا يعني؛ أن هذ المدينة خرجت عن سلطة بني سليمان لفترة ما؛ غير معروفة أسبابها ولا كيفيتها. غير أن عبارة أوردها ابن خلدون؛ تفيد أنه كان - خلال إقامته في تلمسان - منشغلاً بقلومة فرق الخوارج والصفريّة في تلمسان وأحوازها؛ حتى استعاد نفوذ المذهب السني، ونشره بين الناس⁴. وبعد ذلك؛ أضحى سكان تلك الجهات على مذهب

¹ الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27. والعبر، مج: 4، ص: 27. وإعمال الأعلام، (قسم المغرب)، ص: 201. أنظر أيضاً المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 123.

² جاء في الأتيس المطرب بروض القرطاس أنه صنع فيها منبراً لمسجدها. ومعنى هذا أنه غير منبر والده: ((ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلاح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبراً. قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة؛ فرأيت - في رأس منبرها - لوحاً من بقية منبر قديم؛ قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين (؟) بن علي رضي الله عنهم؛ في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة" فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين؛ ثم رجع إلى مدينة فاس)). ص: 27.

³ العبر، مج: 7، ص: 52.

⁴ قال ابن خلدون في هذا: ((وأقام بها [أي في تلمسان] ثلاث سنين؛ وانتضمت كلمة البرابرة وزناتة، ومحووا دعوة الخوارج منهم)). العبر، مج: 4، ص: 27. أنظر أيضاً مج: 7، ص: 157.

السنة. وهذا ما ظهر - فيما بعد - بالنسبة لبني
يفرن المقيمين بها؛ إذ كانوا من أتباع المذهب
السني. ومنذئذ؛ أضحت هذه المدينة وأحوازها - وما
يتبعها من مدن ساحلية - حصة وإمارة لبني
سليمان¹. بينما اكتفى بنو يفرن ومغراوة بامتلاك
الضواحي والبراري؛ وصلح حالهم مع الأدارسة
وبني سليمان؛ فكانوا معهم على وفاق وولام.

وحتى بعد موت إدريس بن إدريس؛ وتقسيم
ملكته بين أولاده؛ ظلت تلمسان وأحوازها؛ ضمن
ممتلكات بني سليمان². ولم يقف الحال عند هذا
فحسب؛ بل غدت مدناً كثيرة في المغرب الأوسط
ضمن ممتلكاتهم³.

¹ قال ابن خلدون: ((فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه [أي عقب
سليمان]؛ واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية؛ فكانت تلمسان لولد إدريس
ابن محمد بن سليمان، وأرشكول لولد عيسى بن محمد، وتنس لولد
إبراهيم بن محمد بن محمد، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني
يفرن ومغراوة)). العبر، مج: 7، ص: 52.

² ((وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله)). العبر، مج: 4، ص: 28.
أنظر أيضاً، مج: 7، ص: 157.

³ يقول ابن خلدون: ((ولحق بتلمسان [أي سليمان] فملكها، وأذعنت له
زناتة وسائر قبائل البربر هنالك. وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على
سنه. ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط؛ فاقسموا ممالكه
ونواحيه؛ فكانت تلمسان - من بعده - لابنه محمد.... وكانت أرشكول
لعيسى بن محمد بن سليمان، وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن
سليمان، ثم لابنه عيسى وكنته أبو العيش.... وكانت تنس لإبراهيم بن
محمد بن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده.... وكان من ولد إبراهيم هذا

تلمسان بين الفاطميين والامويين

— بنو يفرن ومغراوة في تلمسان:

واستمر حال بني سليمان هكذا؛ حتى ظهرت في إفريقيا الدولة الفاطمية؛ التي تطلعت إلى التوسع غرباً؛ فتصدت لها زناتة¹؛ وعلى رأسها قبائل: بني يفرن ومغراوة؛ إذ بادرت تلك القبائل إلى محاربة الفاطميين، والوقوف ضد أطماعهم التوسعية؛ وذلك منذ سنة 298هـ/910م؛ حين هدد محمد بن خزر المغراوي مدينة تيهارت؛ وطمع في الاستيلاء عليها، وإخراج عامل الفاطميين نواس بن صولات من تلك المدينة²؛ ولكن المغراويين عجزوا أمام هذه الدولة الفتية؛ التي ساندتها قبائل: كتامة ومكناسة، ثم تلكتة الصنهاجية فيما بعد³. غير أن المغراويين

أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد ابن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط... قال ابن حزم: "وهم بالمغرب كثير جداً؛ وكان به لهم ممالك؛ وقد بطل جميعها"... وحمل بني حمزة هؤلاء؛ جوهر إلى القيروان؛ وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفة هناك عند البربر)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 - 36.

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص ص: 155. 162.

² نفسه ص: 155.

³ إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 153.

تمكنوا - بالصبر والمطاوله ومدلومة النضال - من إقلاق مضاجع الغزاة الفاطميين وأتباعهم، بل استطاعوا كسر شوكة جيشهم، وقتل قائدهم مصالة ابن حبوس في سنة 309هـ/921م¹.

وكان الناصر لدين الله الأموي بالأندلس؛ قد أدرك مدى حاجته إلى حلفاء ببلاد المغرب؛ خاصة بعد قيام الدولة الفاطمية واستحالتها، وتبنيها لشعار خلافة المسلمين؛ لذا فقد بادر بالاتصال بقبائل زناتة؛ تلك القبائل التي تصدت - من قبل - للمشاريع التوسعية التي يرمي إليها الفاطميون. وعليه؛ فبعد تعاظم الخطر الفاطمي؛ المهدد لدول المنطقة كلها؛ استشعر الناصر لدين الله² حجم الضرر الزاحف إليه من إفريقية؛ لذا فقد قرر عقد حلف مع القبائل المغربية المعادية للشيعية؛ والسعي إلى التعاون معها ضد العدو المشترك.

¹ العبر، مج: 7، ص: 53. ولكن ابن عذاري سجل خبراً مفاده أن مصالة وفد على المهدي في المهدية سنة 310هـ/922م؛ ثم صرفه إلى تيارت. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص: 187.

² هو عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) ولد في سنة 277هـ/891م وتوفي في سنة 350هـ/961م. وهو أول من تسمى من المروانيين الأمويين بالأندلس بلقب أمير المؤمنين، ونودي بخليفة المسلمين؛ اختار هذا بعد ظهور الخلافة الفاطمية بالبلاد المغربية.

وبالفعل؛ فقد تمّ له ما أراد سنة 316هـ/928م¹؛ حين وقفت جلّ قبائل زناتة² في صفه ضد الفاطميين؛ وأعلنت الدعوة له على منابر المغرب التابعة إليها.

وهكذا؛ فإن كان الصراع المرير المزمّن؛ قد ظل على حاله، ولم يحسم بين قبائل زناتة والدولة الفاطمية؛ فإنه - بالتوازي - سرعان ما انتهى بالقضاء على الدولة الإدريسية في فاس بالمغرب الأقصى، وإمارات بني سليمان في تلمسان - بأحوازها وسواحلها - الأمر الذي عجل بإلحاقهم - جميعاً - بممتلكات الفاطميين، أحياناً، وبالدولة الأموية أحياناً أخرى.

¹ العبر، مج: 7، ص: 53.

² ((قبادر محمد بن خزر إلى إجابته؛ وطرّد أولياء الشيعة من الزاب؛ وملك شلب وتنس من أيديهم؛ وملك وهران، وولى عليها ابنه الخير؛ وبث دعوة الأمويين في أعمال المغرب الأوسط؛ ما عدا تاهرت. وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول. ثم فتح الناصر سبّعة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة؛ وأجار موسى بن العافية على طاعته؛ واتصلت يده بمحمد بن خزر؛ وتظاهروا على الشيعة. وخالف قلفول بن خزر أخاه محمد في طاعة الشيعة؛ وعقد له عبيد الله على مغراوة)). العبر، مج: 7، ص: 53 - 54.

– ظهور مكناسة واستفحالها:

ويعتبر أهم عامل – هنا – في الدمار والخراب الذي أصاب تلك الدول والإمارات؛ هو ظهور وتنامي عصبية قبيلة مكناسة (وهم فرع من البتر وإخوة لزناتة)؛ ومثلهم كقوة بطش وإفساد في ضواحي المغرب كله. الأمر الذي أنهك الأدارسة وبني سليمان معاً؛ لأنهما لم يحتملا الصراع المتواصل مع تلك القبيلة البترية المتماسكة؛ ذات العصبية الجياشة؛ والمدعومة بالدولة الفاطمية.. حدث ذلك كله؛ جراء أطماع هذه القبيلة؛ بقيادة زعيمها موسى بن أبي العافة¹؛ الذي – كما يبدو – يكنّ حقداً كبيراً، وضغينة حامية نحو الأدارسة. وعليه؛ فقد حارب أعداءه بالمطاول والمداومة؛ دون كلل أو ملل. وتم هذا طبعاً؛ نتيجة لعنفوان العصبية المكناسية؛ التي ازدادت لحمتها متانة وحميتها اشتعالاً؛ بفضل الصلة الحاصلة بينها وبين القائد العسكري للفاطميين مصالة بن حبوس المكناسي². وعلى هذا؛

¹ ((هو موسى بن أبي العافية بن أبي باسل بن الضحاك بن مجزول بن تمريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس بن ورسطف)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51.

² الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 49. 50. 51. العبر، مج: 4، ص ص: 32 - 33. ومج: 6، ص ص: 274 - 275.

فقد تمكنت هذه القبيلة البترية؛ من الهيمنة على الجهات الغربية كلها؛ بما فيها تلمسان؛ التي تغلب عليها زعيم مكناسة سنة 319هـ/931م؛ بعد أن طرد أميرها الحسن بن أبي العوش بن عيسى بن إدريس ابن محمد بن سليمان، وأجبره على النزوح إلى مدينة مليلة الساحلية¹.

وهنا؛ وجب التذكير بالأحداث المأساوية التي مرت بها ديار المغرب عبر قرون وقرون.. إذ لم تعرف هذه البلاد لحظة استقرار منذ القرون السالفة للدولة الإدريسية؛ وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد انتهت هذه الأرض - أيضاً - في أواخر الدولة المذكورة وفسد حالها. والجدير بالذكر هنا؛ أن هذه الأحداث المشتعلة؛ كانت تجري - في تلك الديار - بينما حافظ الوضع في مدينة تلمسان على ضبابيته؛ إذ انشغلت المصادر التاريخية بأخبار فاس ومحيطها، ثم تيهارت وما جاورها، وسجلماسة وأحوالها. أما تلمسان؛ فقد غابت عن مسرح الأحداث لبعض الوقت. ثم برزت - فجأة - عندما زحف إليها ابن

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص ص: 183.
¹ الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص 51. والعبر، مج: 4، ص ص: 275 - 276.

أبي العافية المكناسي - كما سبق ذكره - سنة 319هـ/931م¹؛ فأسقط دولة الحسن بن أبي العيش، واستولى على المدينة². ولكنه لم يدم في ملكه؛ بعد أن فسد الحال بينه وبين رُعاته الفاطميين³؛ الذين طاردوه في كل مكان هرب إليه.

ويبدو أن دوافع العصبية المكناسية تلاشت؛ بعد مقتل مصالة. لذا فقد بادر ابن أبي العافية - عند استيلائه على تلمسان وفاس - إلى نقل بيعته إلى عبد الرحمن الناصر في الأندلس⁴؛ الأمر الذي أغضب عبيد الله المهدي؛ فجرد جيشاً لقتاله بقيادة والي تيهرت الفاطمي حميد بن يصلتن⁵ المكناسي

¹ العبر، مج: 6، ص: 275.

² نفسه، ص ص: 275 - 276.

³ سبب الخلاف بين ابن أبي العافية والدولة الفاطمية؛ يرجع إلى نقل طاعته ودعوته إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي. عندها بعث إليه عبيد الله الشيعي جيشاً بقيادة حميد بن يصلتن المكناسي سنة 321هـ/933م؛ فهزمه وكبح جماحه، وأخرجه من أملاكه، ثم اجأه إلى

نواحي تسول. أنظر العبر، مج: 6، ص: 276.

⁴ ((فلما ملك ابن أبي العافية تلمسان وتكرور وفاس؛ بايع عبد الرحمن الناصر لدين الله - ملك الأندلس - وقام بدعوته وخطب له على جميع منابر عمله)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51. أنظر أيضاً العبر، مج: 6، 276.

⁵ كُتِب في بعض المصادر أحياناً: (يصلتن، ويصل، ويصلينصن). وحرّف في الأنيس المطرب؛ فكتب: حميد بن سبيل الكتامي. أنظر ص: 51. وكذا الحال عند يحيى بن خلدون؛ الذي سماه: ((حميد بن شبل الكتامي)).

(وهو ابن أخي مصالة)¹. فاستلحم المكناسيين، واستولى على ممتلكاتهم، وطارد قائدهم ابن أبي العافية؛ وأجبره على الهروب إلى جهات تسول؛ أين تحصن في انتظار إعادة الكرة. وبعد استيلاء ابن يصلتن على مدن المغرب؛ انثنى نحو مدينة تلمسان حيث استولى عليها في سنة 321هـ/933م؛ ثم أتبعها بمدينة فاس. وبعدها؛ عاد إلى إفريقية².

وما يمكن ملاحظته - هنا - هو صمت المصادر؛ عن ذكر اسم الوالي الذي نصبه حميد ابن يصلتن على تلمسان؛ بعد انتزاع المدينة من قبضة ابن أبي العافية. وربما يكون قد ولى عليها أميراً من بني سليمان؛ (كادريس بن إبراهيم صاحب أرشكول، أو أبي العيش بن عيسى، أو غيرهما). المهم؛ أن المصادر صمتت عن الإشارة إلى ذلك. ويفهم من كل هذا؛ أن تلمسان؛ دخلت في طاعة الفاطميين - لبعض الوقت - منذ سنة 321هـ/933م. ولكن طاعتها لم تدم - طويلاً - إذ سرعان ما انتقضت - مع مدن المغرب الأخرى -

بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 168. أما ابن الخطيب؛ فسماه: ((حميد بن تيسيل)). إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص ص: 215 - 216.

¹ العبر، مج: "6، ص: 276.

² الأتيس المطرب، ص ص: 51 - 52. والعبر، مج: 6، ص: 276.

على الفاطميين؛ بعد موت عبيد الله المهدي. وجراء هذا؛ تمكن ابن أبي العافية من التغلب على تلمسان - من جديد - بعد رجوع الجيش الفاطمي إلى إفريقية.

المهم؛ أن دوام الحال من المحال؛ إذ كسر الإمام الجديد للفاطميين - وخليفة المهدي (ولده القاسم) - حاجز الاستقرار والاطمئنان؛ بإرساله القائد ميسور الفتى سنة 322هـ/933م¹؛ على رأس جيش عرمرم؛ مهمته اجتياح أرض زناتة في الناحية الغربية؛ واستلحام العصاة، وتدمير الديار؛ والتكيل بابن العافية وقبيله. وبالفعل فقد حقق أهدافه كاملة وطارد ابن أبي العافية، وأخرجه من ديار المغرب؛ أين ألجأه إلى أعماق الصحراء². ومما أنجزه ميسور الفتى في حملته هذه؛ أنه فتح تلمسان سنة 323هـ/934م؛ حيث أسند ولايتها لأبي العيش بن عيسى (من بني سليمان)³. فعادت بذلك - مرة

¹ في الأنيس المطرب: سنة 323هـ.

² ((وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب؛ إلى نواحي: ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء؛ وقفل إلى القيروان)). العبر، مج: 6، ص: 277.

³ لم يذكر صاحب الأنيس المطرب - هنا - تلمسان؛ ولكنه قال: ((وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد موسى بن أبي العافية؛ قائمين بدعوة أبي القاسم الشيعي)). ص: 52.

أخرى - إمارة بني سليمان إلى تلمسان سنة 324هـ/935م؛ في ظل الدولة الفاطمية. ولكنها انطفت وانهارت فجأة؛ بعد انسحاب جيش الفاطميين ورجوعه إلى إفريقية في السنة نفسها. حينها انتهز موسى بن أبي العافية هذه الفرصة؛ فعاد من منفاه بالصحراء؛ واستولى - من جديد - على المدينة في سنة 325هـ/936م؛ حيث ساعده في مسعاه عبد الرحمن الناصر الأموي؛ الذي أمده بأسطول بحري¹. تمكن بعدها من فتح المدينة وإجبار أبي العيش بن عيسى على الفرار منها².

¹ العبر، مج: 6، ص: 277.

² نفسه، ص: 277. لم يشر صاحب الأنيس المطرب إلى هذا؛ وكل ما قاله: ((فلم يزل ابن أبي العافية شريداً في أطراف البلاد التي بقيت بيده؛ وذلك من مدينة أجرسيف إلى مدينة تكرور؛ إلى أن قتل في بعض بلاد ملوية؛ وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة؛ وقيل: في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة؛ قاله البرنوسي. فولي - بعده - إبراهيم؛ ولده إلى أن توفي في سنة خمسين وثلاثمائة؛ فولي ولده عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية؛ إلى أن توفي في سنة ستين وثلاثمائة. وذكر بعض المؤرخين أيامهم: أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية؛ ولي بعده ولده القاسم بن محمد؛ المحارب للمتونة؛ فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة؛ إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين؛ فقتله، واستأصل بلاده؛ حتى قطع مسافة ذرية موسى بن أبي العافية من المغرب. وكانت أيامهم فيه؛ من سنة خمس وثلاثمائة إلى سنة خمس وأربعين وأربعمائة. وذلك مائة وأربعين سنة؛ من أول دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى قيام لمتونة)). ص: 52 - 53.

وبحلول السنة المذكورة أعلاه؛ انشغل الفاطميون بما أصابهم من فتن وانكسارات؛ جراء ثورة أبي يزيد مخلص بن كيداد¹. فسمح هذا الأمر للناصر لدين الله بالتفكير من ضيقه، والتوسع في محيطه. عندها؛ صوّب وجهته - هو الآخر - نحو الضحية الأضعف في المنطقة؛ وهي الدولة الإدريسية؛ قصد إخضاعها لسلطانه، والسيطرة على ممالك المغرب. وعليه؛ فقد سمح ببقاء تلمسان - إلى جانب مدن المغرب - في قبضة ابن أبي العافية؛ على أن تكون ضمن إطار الدولة الأموية؛ كما حرص الناصر على تقسيم النفوذ - في ديار المغرب - بين القبيلتين المتنافستين: مغراوة ومكناسة؛ وعمل على اشتراكهما في دعوة الأمويين. ومع هذا فقد اشتعلت الفتن بين القبيلتين. فبادر الناصر لدين الله إلى إطفاء نارها؛ بإرسال قاضيه منفر بن سعيد؛ فأصلح بينهما²؛ وألزمهما بالسلم والمهادنة. وبعد أن شعر الناصر بالإطمئنان إلى سلامة نفوذه ببلاد المغرب؛ - نتيجة لتراجع دور الفاطميين؛ وانكماشهم في إفريقية؛ جراء ضربات الموجعة التي سددها إليهم أبي يزيد -

¹ العبر، مج: 7، ص: 54.

² نفسه، مج: 6، ص: 278.

تقمص دور الحاكم الفعلي في تلك الديار؛ حيث شرع في توزيع المهام والمناصب على أنصاره وقادة القبائل. من ذلك تكليف حميد بن يصل (يصلتن)¹ بقيادة جيش الأمويين في المغرب الأوسط. بحيث مثله في غزو تيهرت سنة 333هـ/944م؛ رفقة يعلى بن محمد اليفرني ومحمد بن خزر المغراوي؛ ثم ولاه أيضاً على تلمسان وأعمالها سنة 340هـ/951م².

والواضح؛ أن الفترة ما بين سنتي: 325هـ/936م (سنة تغلب ابن أبي العافية على تلمسان) و340هـ/951م؛ (سنة إسناد ولايتها إلى حميد بن يصل (يصلتن)؛ ساد فيها غموض قائم؛ لا يعرف خلاله مصير تلمسان. وكل ما في الأمر؛ هو هيمنة أخبار بني يفرن على الأحداث في الديار المغربية كلها؛ خلال معظم هذه الفترة الزمنية؛ التي ثار فيها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني على الفاطميين اعتباراً من سنة 325هـ؛ حيث أنهك

¹ وحميد بن يصل (يصلتن) هذا؛ ترك خدمة الفاطميين والتحق - سنة 328هـ/939م - بالناصر لدين الله الأموي؛ بواسطة محمد بن خزر؛ زعيم مغراوة؛ حيث قال ابن خلدون: ((ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين؛ وتحيز إلى محمد بن خزر؛ ثم أجاز إلى الناصر؛ وولاه على المغرب الأوسط)). العبر، مج: 7، ص: 54.
² نفسه، ص: 55.

دولتهم، وكاد أن يسقطها. وعلى هذا؛ فقد انصب
اهتمام المؤرخين على صراعه مع الشيعة؛ ولم
يشيروا - إلا في حالات نادرة وخاطفة - إلى ما
يجري من أحداث في تلمسان؛ وذلك حين قال ابن
خلدون: ((وعقد الناصر حميد بن يصل على
تلمسان وأعمالها؛ ولعل على بن محمد على المغرب
وأعماله))¹. وفي سنة 340هـ/951م كذلك؛ بدأت بوادر
الخلافة تطفوا على السطح بين الناصر لدين الله
ومغراوة؛ حدث هذا؛ بعد أن أسند السلطان الأموي
ولاية تلمسان إلى حميد بن يصل (يصلتن)؛ ثم
وضع على بن محمد؛ زعيم بني يفرن على رأس
ولاية المغرب الأقصى. وهنا انفرد العقد الواصل
بين ملك الأندلس، وقبيلة مغراوة؛ حيث بادر
زعيمها محمد بن خزر بمد يد التحالف والتعاون
إلى الفاطميين²؛ أعداء الأمويين وبني يفرن معاً.
والظاهر أن على بن محمد اليفرني؛ كان أكثر قرباً
إلى قلب عبد الرحمن الناصر؛ بسبب انتمائه لبني
يفرن؛ أعداء الفاطميين الصرحاء؛ جراء ثورتهم مع
أبي يزيد. كما أن تنذب محمد بن خزر المغراوي،

¹ العبر، مج: 7، ص: 55.

² نفسه، ص: 55.

وعلاقاته المشوبة بالرغبة مع الشيعة¹؛ حفز الناصر على الحذر منه. لذا فقد مالت ثقة الناصر الأموي إلى يعلى بن محمد أمير بني يفرن؛ بعد أن عقد محمد بن خزر صفقة مع الإمام الشيعي إسماعيل ضد أبي يزيد الخارجي.² ويرجع هذا التناغم مع الناصر لدين الله؛ إلى أيام والد يعلى؛ الذي قتل في زمن أبي يزيد؛ فخلفه في بني يفرن ولده يعلى بن محمد³. ووالد يعلى اليفرني هذا؛ هو محمد بن صالح⁴ شيخ بني يفرن؛ في الجهات الغربية.

— بنو يفرن من جديد في تلمسان:

وبرز دور محمد بن صالح اليفرني بعد ظهور فشل أبي يزيد مخلد بن كيداد في ثورته ضد الفاطميين؛ وإثر القبض عليه سنة 335هـ/946م؛

¹ تجلّى ذلك قبل سنة 333هـ/944م؛ حين اتصل محمد بن خزر بالعاقل الفاطمي إسماعيل؛ وقدم طاعته للدولة الشيعية. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولما خرج إسماعيل إلى حصار أبي يزيد؛ وزحف إلى المغرب في أتباعه؛ خشيه محمد بن خزر على نفسه؛ إما سلف منه في نقض دعوتهم؛ وقتل أتباعهم؛ فبعث إليه بطاعة معروفة. وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد؛ ووعد - في ذلك - بعشرين حملاً من المال)). العبر، مج: 7، ص: 54.

² نفسه، ص: 33 - 34، 54.

³ نفسه، ص: 36.

⁴ قتله عبد الله بن بكار اليفرني المتحيز إلى مغراوة؛ خلال فتنة نشبت بين القبيلتين. نفسه، ص: 35 - 36.

حيث تلقت قبيلة بني يفرن ضربة قاصمة؛ فنكّل بأتباعها في إفريقية، وطوردوا في أصقاع الأرض. عندها؛ جمعوا فلولهم ونزحوا إلى موطنهم الأصلي؛ وفي مدينة تلمسان بالذات؛ المدينة التي شيدها أيام أبي قرة اليفرني. وكان أمير بني يفرن هذه المرة هو صالح بن محمد اليفرني المذكور¹. فاستقبل النازحين بأريحية وصنّر رحب؛ أملتها العصبية اليفرنية². وواضح؛ أن الأمويين - في الأندلس - رجّحوا كفة بني يفرن؛ بعد موت زعيمهم محمد ابن صالح؛ وقد تجلّى ذلك حينما أسند الناصر لدين الله سنة 341هـ/954م ولاية المغرب وأعماله ليعلى بن محمد بن صالح اليفرني، وولاية تلمسان وأعمالها إلى حميد بن يسلتن (يصل الكناسي)؛ فعدت - بذلك - هذه المدينة تابعة للخلافة الأموية بالأندلس مباشرة.

وبفعل الحميّة والعصبية القبلية؛ وسعيّاً وراء النفوذ الواسع، ونتيجة للتزاحم على امتلاك الأرض؛

¹ ثبت أن مذهب بني يفرن - بدءاً بعهد صالح بن محمد هذا - أضحوا يدينون بالمذهب السني.

² ((ولما انقرض أمر أبي يزيد، وأئخذ المنصور فيمن كان بإفريقية - من بني يفرن - أقام هؤلاء الذين بنواحي تلمسان على وفودهم؛ وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح)). العبر، مج: 7، ص: 35.

نشبت الفتن بين قبيلتي: بني يفرن بقيادة يعلى بن محمد، وأمير مغراوة محمد بن خزر؛ الأمر الذي أغرق المغربيين: الأوسط والأقصى في جحيم من الفتن والحروب المفنية لكل أخضر ويابس. وكان يعلى بن محمد سباقاً إلى طاعة عبد الرحمن الناصر؛ فاستجاب له حين خاطب زناتة بطلبه¹. ثم بادر من فوره سنة 343هـ/954م؛ فانتزع مدينة وهران من أيدي الفاطميين؛ ثم زحف إلى تيهرت - مع حميد بن يصل ومحمد بن خزر - واستولوا عليها؛ وأسروا واليها ميسور الفتى: ((واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب؛ وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر؛ ما بين تاهرت إلى طنجة))².

¹ العبر، مج: 7، ص: 36.

² نفسه، ص: 36. يوجد اختلاف في أسماء الأشخاص بين ابن خلدون وصاحب الأتيس المطرب. إذ سمي هذا الأخير يعلى بن محمد اليفرني؛ باسم محمد بن الخير بن محمد اليفرني. ثم أضاف عبارة بدا - من خلالها - اضطرابه وخلطه؛ حيث قال: ((قولي [أي الناصر] عليها محمد ابن الخير بن محمد اليفرني ثم الزناتي؛ وكان من أبسط ملوك زناتة يداً، وأعظمهم شأناً، وأحسنهم - إلى ملوك بني أمية - انحياشاً، وأخلص لهم طرية. وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه بجدهم حرب بن حفص بن صولات بن ونمار اليفرني)). ص: 54. وهذا القول ينطبق - في الحقيقة - على مغراوة؛ لا على بني يفرن.

فغضب - بسبب ذلك - محمد بن خزر؛ واستاء للحظوة التي نالها ابن عمه ومنافسه يعلى ابن محمد اليفرني؛ لذا فقد لجأ إلى الخليفة الفاطمي المعز بن إسماعيل سنة 342هـ/955م؛ فاستقبله هذا الأخير بالترحاب والإكرام¹. وبقي في القيروان إلى أن زحف رفقة جوهر الصقلي إلى بلاد المغرب سنة 958/347م (أو 348هـ)؛ وهي الحملة التي قُتل فيها يعلى بن محمد اليفرني. وذكر ابن خلدون أن محمد ابن خزر مات في القيروان سنة 350هـ/961م عن عمر يناهز المائة عام. وبقي يعلى بن محمد اليفرني على حاله ومرتبته إلى عام 347 أو 348هـ/909م؛ أين زحفت جيوش الفاطميين نحوه بقيادة جوهر الصقلي؛ المرفوق بزيري بن مناد التلكتاتي الصنهاجي، ومحمد بن خزر المغراوي² المنافس ليعلى. فالتقى هذا الأخير بهم؛ معاناً طاعته؛ ولكن جوهر الصقلي غدر به، ودبر مقتله.

¹ ((فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة؛ من أجل قريعه يعلى بن محمد. ووفد على المعز؛ بعد أن هلك أبيه إسماعيل سنة اثنين وأربعين. فأولاه تكربة على طاعتهم؛ إلى أن حضر - مع جوهر - في غزاته إلى المغرب؛ بأعوام سبع أو ثمان وأربعين. ثم وفد على المعز؛ بعد ذلك سنة خمسين؛ وهلك بالقيروان؛ وقد نُيِّف على المائة من السنين)). العبر،

مج: 7، ص: 55.

² العبر، مج: 6، ص: 314. مج: 7، ص: 55.

وبذلك قضي على دولة بني يفرن في المغرب الأوسط؛ حيث بادر القائد الفاطمي إلى تهديم حاضرة يعلى؛ مدينة إفكان.

— تلكاة الصنهاجية ورنانة:

المهم؛ أن هذه الواقعة؛ كانت بداية ولوج بني زيري الصنهاجيين إلى الجهات الغربية؛ كما أعلنت عن بدء الصراع المبرر بين زناتة من جهة (مغراوة وبني يفرن) وصنهاجة من جهة أخرى (ممثلين ببني زيري بن مناد). هذا الصراع الذي لم تنقطع أحداثه؛ منذ التاريخ المذكور وحتى سقوط دولتي بني زيري: في إفريقية وفي المغرب الأوسط.

ولم يُعرف مصير تلمسان خلال حملة جواهر الصقلي؛ الذي اجتاح بلاد المغرب كلها بجيشه؛ ولا يعرف كذلك إن كان دخلها أم تجاوزها. ولكن ابن عذاري أشار إلى حميد بن يسلتن واليهاء؛ من قِبل الناصر لدين الله؛ فذكر أنه متواجد في مدينة أخرى؛ سماها: "تيكبساس"¹. ربما تكون هي

¹ ((وكتب الناصر إلى حميد يصال [يصل أو يسلتن] صاحب تيكبساس - وتلك الجهات كلها - أن يعين القائد المذكور [أي أحمد بن يعلى] على بني

تيفيساس¹ الواقعة في أرض غمارة؛ بين سبتة
وطنجة؛ وسماها ابن خلدون: "تيكيساس"². ويفهم من
هذا؛ أن يصلتن؛ والي تلمسان؛ انتقل منها بفعل
ضغوط الحرب مع جواهر الصقلي. وذكر ابن
خلدون أن أولياء الأموية انكفأوا وانقبضوا إلى أعمال
سبتة وطنجة؛ بعد هلاك الناصر لدين الله سنة
350هـ/961م³.

وهنا؛ يتضح أن وضع تلمسان تراجع وانكمش
في هذه الفترة المحرجة. وربما حدث لها ما حدث
لغيرها من مدن المغرب؛ بفعل الحرب والخراب؛
الذين تعرضت لهما طوال الأحداث المدمرة السالفة.
لذا فقد خلت تلمسان من حماتها؛ بعد انسحابهم
نحو أقصى الشمال الغربي للبلاد. وهذا يفسر ما
ذكره ابن عذاري بخصوص تواجد الوالي الأموي
حميد بن يصلتن في تيكيساس أو تيفيساس.

محمد؛ فتخلى بنو محمد عن بناء تطاوين؛ لما اجتمع العسكران عليهم)).
البيان المغرب، ج: 1، ص: 122.

¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 108.

² العبر، مج: 6، ص: 436 . 447 . 449.

³ نفسه، مج: 7، ص: 55.

وكانت الفترة التي تلت سنة 350هـ - بعد وفاة الناصر لدين الله - فترة صراع وكفاح مرير شنته قبائل زناتة ضد الغزاة الفاطميين وأتباعهم من بني زيري. كما أن الأمويين؛ ثبتوا على مواقفهم؛ ولم يتراجعوا عن أهدافهم في بلاد المغرب؛ إذ بادر المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن بالإتصال بقبائل زناتة؛ من أجل مواصلة التعاون المعمول به سابقاً. وبالفعل؛ تحقق له ما أراده؛ حين لبّى طلبه محمد بن الخير بن محمد بن خزر؛ زعيم مغراوة: ((فأتّخن في الشيعة، ودوخ بلادهم؛ ورماه معدّ بقريعه زيري بن مناد؛ أمير صنهاجة؛ وسوغه ما غلب عليه من أعمالهم))¹. وانكشفت حروبهم المدمرة هذه؛ عن مقتل محمد بن الخير سنة 360هـ/970م²؛ جراء انتحاره؛ خوفاً من معرة الهزيمة والأسر؛ ولحق به ((سبعة عشر أميراً؛

¹ العبر، مج: 7، ص: 55 - 56. أشار ابن الخطيب إلى محمد بن الخير؛ فقال: ((وكان محمد بن الخير من أكبر ملوك زناتة، وأكثرهم جمعاً، وأشجعهم جنداً، وأشدّهم إخلاصاً ومحبة لبني أمية... ثم محمد بن الخير ابن خزر؛ فغلب على مدينة تاهرت وتلمسان والمسيلة وأعالي المغرب والصحاري وجميع بوادي زناتة وأكثر بلاد الزاب والقبلة. وخطب في جميع طاعته لبني أمية؛ ملوك الأندلس)). أعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 153 - 155.

² في قول سنة 361هـ. أنظر العبر، مج: 7، ص: 59.

سوى الأتباع))¹. من مغراوة. كما قتل زيري بن مناد في معركة أخرى سنة 360هـ/970م؛ احتُزَّ فيها رأسه، وأُرسل إلى قرطبة².

وبموت زيري؛ استخلف المعز لدين الله الفاطمي ابنه بلكين مكانه؛ وسوغه ما سوغ لأبيه من أعمال يفتكها من زناتة؛ ثم أمده بما يلزم من العساكر والأموال؛ فخرج غازياً في أرض زناتة؛ فأُخذ في بنيتها وقتل أميرها الخير بن محمد عند سبلماسة؛ وتغلب على أوطانها في المغرب الأوسط؛ حيث وصل تمكنه وتغلبه إلى حدٍّ أنه: ((ورفع الأمان عن كل من ركب فرساً، أو أنتج خيلاً من سائر البربر؛ ونذر دماءهم. فأفقر المغرب الأوسط من زناتة؛ وساروا إلى ما وراء ملوية؛ من بلاد المغرب الأقصى؛ إلى أن كان من رجوع بني يعلى ابن محمد إلى تلمسان))³. وأدت هذه الحروب التي هلك فيها الخير بن محمد سنة 360 أو 361هـ؛ إلى نزوح أحياء زناتة؛ إلى الجهات الغربية؛ خلف

¹ العبر، مج: 7، ص: 56. أنظر أيضاً مج: 6، ص ص: 314 - 315.

² العبر، مج: 6، ص ص: 315. 316. ومج: 7، ص: 56.

³ العبر، مج: 7، ص: 57.

ملوية؛ فأصبح - بذلك - المغرب الأوسط ملكاً
خاصاً لبني زيري من صنهاجة¹.

ولما انتقل المعز لدين الله إلى القاهرة سنة
362هـ/972م؛ انفرد بلكين بن زيري بحكم إفريقية
والمغرب؛ نيابة عن الخليفة الفاطمي. فشنّها حرباً
شعواء ضد قبائل زناتة المتمردة. وانتهى به
المطاف إلى احتلال تلمسان سنة 367هـ/977م؛ مركز
قيادة أعدائه؛ فلم يصمدوا أمامه وفرّوا إلى جهة
أخرى². عندها؛ لم يبق أمام بلكين سوى محاصرة
تلمسان؛ فاضطر أهلها إلى الاستسلام؛ حيث نقلهم إلى
مدينته أشير. ولم يستمر بلكين في مطاردة أعدائه؛
لأن المعز نهاه عن التوغل في بلاد المغرب؛ عندها
عاد إلى حاضرة ملكه³.

ومع هذا؛ فقد عاود بلكين زحفه نحو الجهات
الغربية؛ فدوخ نواحيها، وسلك في عمق الأراضي
المغربية؛ حتى شارب على سبتة؛ حيث استطلع
الأوضاع العسكرية حولها؛ فاكتشف ما أفزعه من
الجموع التي جهزها لحربه المنصور بن أبي عامر؛

¹ العبر، مج: 7، ص: 59.

² البيان المغرب، ج: 1، ص: 231. العبر مج: 6، ص: 318.

³ العبر، مج: 6، ص: 318.

فعاد أدراجَه قائلاً: ((هذه أفعى فغرت إلينا فاهاً))¹.
وتوجه بعدها إلى جهاد برغواطة؛ فاكسح مواطنهم،
وقتل أميرهم عيسى بن أبي الأنصار. ولكنه توفي
سنة 373هـ/983م²؛ أثناء عودته إلى تلمسان في
موضع يسمى بوراكسن؛ يقع بين سجلماسة
وتلمسان.

— تلمسان.. حاضرة بني يعلى المغراويين:

وبوفاة بلكين، وانتصاب ولده المنصور على
عرش بني زيري؛ كُبح الزيرون عن المناطق
الغربية؛ إثر فشل المحاولة التي قام بها هذا
الأخير سنة 374هـ/984م؛ حيث هُزم أمام الأمير
المغراوي زيري بن عطية³ الملقب بالقرطاس. وبهذه
الهزيمة؛ تخلّى المنصور بن بلكين نهائياً عن فكرة

¹ نفسه، ص: 319.

² تذبذب ابن خلدون في تحديد سنة وفاته؛ فمرة قال أنه توفي سنة 373هـ ومرة قال أنه توفي في 372هـ. أنظر العبر، مج: 6، ص: 320. ومج: 7، ص: 60. وبالمقابل؛ ذكر ابن الخطيب أنه توفي سنة 372هـ. أعمال الأعلام (قسم المغرب).

³ جدّه هو عبد الله بن خزر؛ أخو محمد بن خزر. لأن عدد أبناء خزر أربعة هم: محمد كبير مغراوة السابق الذكر في أيام الناصر لدين الله والهالك بالقيروان، ثم معدّ الذي اتبع أبا يزيد، وقتله الإمام الفاطمي إسماعيل، ثم فلقول الذي اتبع الشيعة منذ البداية، وأخيراً عبد الله المنسوب إلى أمه "تبادلته"؛ ويقول بعضهم أنهم ثلاثة؛ لأن عبد الله ليس أخوهم بل ابن أخيه محمد بن خزر. العبر، مج: 7، ص: 59.

غزو زناتة في جهاتها الغربية¹. فاستفحلت - نتيجة لذلك - هذه القبائل في تلك الديار؛ وازدادت الاضطرابات بينها على اختلاف أشكالها؛ خاصة بين مغراوة وبنو يفرن². إذ غرقت البلاد في يَم من العيث والفساد المدمر. ومنذ 374هـ؛ السنة التي هزم فيها المنصور بن بلكين؛ أضحت الجهات الغربية؛ من ديار المغرب؛ مرتعاً مستباحاً لعيث القبائل؛ التي لا ضابط لها. ودامت حروبهم المشتعلة؛ بين القبائل والدولة الأموية من جهة، وبين القبائل - فيما بينها - من جهة أخرى³ حتى سنة

¹ نفسه، مج: 6، ص: 320.

² حدث الانقسام - في هذه الفترة - بين مغراوة وبنو يفرن؛ بعد وصول الحسن بن قنون الإدريسي؛ طالباً ملك أجداده في المغرب. عندها؛ اختار يدوي بن يعلى؛ زعيم بني يفرن الالتحاق به؛ والوقوف معه ضد بني أمية. أما مقاتل وزيري ولدا عطية المغراويين؛ فقد انحاشا إلى المنصور ابن أبي عامر القائم على شؤون بني أمية. وبهذا اصطدمت القبيلتان في ما بينهما؛ ضمن حرب قررها غيرهما.

³ استجابت القبائل لعاملي: التحريض والتفريق المتبعين من قبل المنصور ابن أبي عامر؛ فتقاتلت قبائل مغراوة وبنو يفرن سنوات وسنوات؛ دون طائل، ودون حسم للصراع؛ فتضاعفت مصائبهم وازادت كوارثهم من تلك الحروب المستمرة؛ التي أكلت الأخضر واليابس: ((وهلك مقاتل بن عطية؛ واستقل برناسة الطواغن - البدو من مغراوة - أخوه زيري بن عطية.... واستدعاه المنصور من محله بفلس سنة إحدى وثمانين [وثلاثمائة]؛ إشادة بتكريمه؛ وأغراه بيدوي بن يعلى [رئيس بني يفرن]؛ منافسه في الحظ وإيثار الطاعة؛ فبادر إلى إجابته...)). العير، مج: 7، ص: 61. بل حاول ابن أبي عامر استمالة يدوي بن يعلى اليفرنى؛ ولكنه

473هـ/1080م. السنة التي فتح فيها يوسف بن تاشفين تلمسان؛ وأسقط إمارة مغراوة نهائياً.

وكان المنصور بن أبي عامر قد أمر - سنة 376هـ/986م - واليه على المغرب؛ الوزير حسن ابن أحمد عبد الودود؛ وأصاه خيراً بأمرأء مغراوة؛ وخصّ منهم: مقاتل وزيري؛ لصدق ولائهم، وحسن خدمتهم. ثم أغراه - من جهة أخرى - بيدوي بن يَغْلَى اليفرنى؛ وحثّه على نبذ العهد معه؛ ودَعَمَ عدوه زيري بن عطية؛ لِمَا عرف عن يدوي من المراوغة، وسوء طاعته. وعلى هذا؛ فقد تحالفوا جميعاً ضده، وأجمعوا على مقاتلته؛ فالتقوا به سنة 381هـ/991م؛ أين انتصر عليهم، وجرح ابن عبد الودود بجراح أنهت حياته¹. وقد التحق بهذا الصراع الدامي - فجأة - أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي²؛ الذي نقض عهده مع أخيه

فشل؛ حينما استدعاه إلى قرطبة؛ فرد عليه: ((متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد إلى البيطرة؛ وأخذ في إفساد السابلة، والإجلاب على الأحياء، والعيث في العسالة)). العبر، مج: 7، ص: 62.

¹ العبر، مج: 7، ص: 63.

² ((وخالف أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي على ابن أخيه المنصور بن بلقين؛ أمير إفريقية، وظهير الدولة العبيدية؛ وخلق دعوة العبيديين، ومال إلى دعوة المروانيين؛ وغلب على مدينة تلمسان، ومدينة تنس ومدينة وهران وشلف وشرشال، وجبال وانشريس ولمدية وكثير

المنصور - وسأنده في أمره والي تيهرت خلوف بن أبي بكر¹ وأخوه عطية - فأسقطوا دعوة الشيعة، ورفعوا دعوة الأمويين؛ فخطبوا على منابر البلاد التي اقتطعوها - الممتدة من بلاد الزاب إلى وهران - باسم هشام المؤيد الأموي². وكان هذا الحضور؛ بمثابة نجدة وصلت إلى زيري بن عطية المغراوي؛ المنهك في حربه ضد بني يفرن. وبانضمام أبي البهار إلى الحلف - الذي يرعاه ابن أبي عامر - تحصل منه على أعمال هامة؛ حيث أشركه مع زيري بن عطية في أعمال المغرب مناصفة³. وواضح - من خلال النصوص المذكورة - أن

من بلاد الزاب؛ وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر)). الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 64. أنظر أيضاً العبر، مج: 7، ص ص: 43. 63- 64. وذكر ابن الخطيب أن هذا حدث في سنة 381هـ. أنظر أيضاً أعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 155.

¹ لم يطل به الحال حتى انثنى في موقفه، وعاد إلى طاعة المنصور بن بلكين. أنظر العبر، مج: 7، ص: 64.

² ((وخطب أبو البهار - من وراء البحار - المنصور بن أبي عامر؛ وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه؛ فاستقبلوا بالجيش، ولقاه رحباً وتسهلاً، وأعظم موصله، وأسنى جوائز وفده وصلاتهم)). العبر، مج: 7، ص: 64.

³ ((ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على يدوي بن يعلى؛ وقسم بينهما عمل المغرب شق الأبلمة؛ حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعدوة)). نفسه، ص: 64.

تلمسان دخلت - في هذا الوقت - ضمن سهم أبي
البهار بن زيري الصنهاجي¹.

والظاهر؛ أن هذا الدعم كله؛ الموجه لزي بن
عطية وحلفائه؛ لم يثن يدوي بن يعلى عن
مواصلة نشر الفتنة والفساد². بل تسرب الفساد إلى
الحلف الذي جمع بين زيري بن عطية وأبي البهار
الصنهاجي؛ بسب تراخي هذا الأخير عن المشاركة
في تأديب خلوف بن أبي بكر وأخيه؛ ناكثي العهد.
وعليه فقد نشبت بينهما حرب؛ خسرها أبو البهار؛
ولجأ إلى سبتة؛ ثم انتقل إلى جراوة؛ أين راسل ابن
أخيه المنصور بن بلكين؛ معتذراً؛ وطالباً العودة إلى
عمله؛ فوصلته الموافقة؛ فعاد ادراجته إلى حضن
الدولة الصنهاجية، مسلماً بطاعته للشريعة.

أما تلمسان؛ فقد سقطت في يد زيري بن
عطية المغراوي - لبعث الوقت - سنة 381هـ³. ثم

¹ الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 64. والعبر، مج: 7، ص: 65 -
66. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 155.

² ((فلم يرع ذلك يدوي، ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والإجلاب على
البدو والحاضرة، وشق عصا الجماعة)). العبر، مج: 7، ص: 64. أنظر
أيضاً الأنيس المطرب، ص: 65. وإعمال الأعلام، ص: 157 - 158.

³ ((ففر أبو البهار بنفسه أمامه، ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين؛
وترك له البلاد؛ فملك زيري بن عطية مدينة تلمسان، وسائر أعمال أبي

ذلك؛ بعد انكماش الزيريين، وانكفائهم داخل حدود مواطنهم؛ جراء الصراعات العائلية؛ التي نشبت بينهم، وانقسامهم، وتبعثر جهودهم. ومع هذا فقد بقيت أخبار تلمسان مغلفة بكثرة من الضباب؛ ولا يعرف مصيرها في ظل مغراوة؛ بعد عودة أبي البهار إلى أهله. وكل ما في الأمر؛ أن زيري بن عطية المغراوي يكون قد فقدها سنة 384هـ/994م؛ ولا يعرف كيف حدث ذلك. ويستشف هذا الرأي؛ من خلال ما قاله ابن خلدون: ((واستفحل أمر زيري [ابن عطية] بالمغرب، ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين [وثلاثمائة]؛ وأزلها عساكره وحشمه؛ واستعمل عليها نويه، ونقل إليها ذخيرته، وأعدّها معقماً؛ فكانت ثغراً لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط))¹. وبهذا يفهم أن وجدة كانت أقصى حدوده شرقاً؛ تقابلها تلمسان التي تعتبر بمثابة الثغر الغربي للصناجيين.

البهار؛ فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب)).
الأنيس المطرب، ص: 64. أنظر أيضاً العبر، مج: 7، ص ص: 65 - 66.
¹ العبر، مج: 7، ص ص: 65 - 66. أورد هذا القول - أيضاً - صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 65.

أما بخصوص بني يفرن؛ فإنهم واصلوا مقاومتهم للمغراويين؛ ولم تنقطع الحروب بين القبيلتين؛ حتى دخل المرابطون إلى المغرب؛ فقصوا على نفوذهما معاً، وأسقطوا إمارتهما المتناثرة¹.

وكعادة رؤساء القبائل؛ وطبعهم المتذبذب، وعصبيتهم المتقلبة - حسب حجم الفائدة ومصادر الريع السهلة - فقد انتابت زيري بن عطية لوثة من الزُّهُوِّ والغرور؛ أصابته بعد تغلبه على بني يفرن، وأبي البهار الصنهاجي؛ وبعد انفراده بالجهات الغربية من بلاد المغرب. وعلى هذا؛ فقد فسدت أحواله مع ابن أبي عامر سنة 386هـ/996م؛ حين انتقده؛ بخصوص استبداده وحجره لهشام المؤيد². وبالمقابل؛ شعر ابن أبي عامر بتعاظم قوة مغراوة في المغرب؛ بعد انسحاب بني يفرن من ساحة الصراع، وانكفاء الصنهاجيين داخل حدودهم؛ لذا فقد قرر تقليم أظافر زيري بن عطية، وتحجيم دور

¹ إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 166.

² ((وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به، والتشجيع لهشام المؤيد، والامتناع له من هضمته وحجره؛ فسخط ابن أبي عامر، وقطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانها، ونادى بالبرابرة منه)). العبر، مج: 7، ص: 66. أنظر أيضاً الأتيس المطرب، ص: 65. إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 158.

مغراوة؛ لذا فقد بادر إلى إرسال جيش للقيام بهذه المهمة؛ ضم جلّ زعماء الأمازيغ؛ مثل: ((محمد ابن الخير بن محمد بن الخير، وزيري بن خزر، وابن عمهما بكساس بن سيد الناس؛ ومن بني يفرن: أبو نوبخت بن عبد الله بن بكار؛ ومن مكناسة: إسماعيل بن البوري، ومحمد بن عبد الله ابن مدين؛ ومن ازداجة: خزون بن محمد))¹.

وبهذا العدد من أمراء الأمازيغ؛ وجه ابن أبي عامر رسالة حازمة لزيري بن عطية؛ قصد بها إقحامه أنه ليس في إمكانه الانفراد بمقدرات المغرب؛ وأن ابن أبي عامر في مقدوره الاستغناء عنه؛ بحكم تواجد هذا العدد الكبير من أمراء الأمازيغ بين يديه. وإلى جانب كل هذا قرّر تأديبه وتحجيم قدراته بالقوة؛ فعزّر الجيش الأموي؛ برفع مرتبة قيادته؛ حيث كلف ابنه المظفر عبد الملك بقيادته². ولما اشتبك الخصمان؛ انتهت المعركة - سنة 388هـ/998م - بهزيمة مغراوة، وإصابة زيري بن

¹ العبر، مج: 7، ص: 67.

² ولما سمع شيوخ القبائل الأمازيغية بعبور المظفر عبد الملك بن أبي عامر؛ تخطى عامة أصحاب زيري بن عطية - من الأمازيغ - عنه، والتحقوا بجيش ابن أبي عامر؛ حيث كوّنوا بالبر والإحسان، وأصناف الخير الجزيل؛ الذي لا مثيل له. أنظر، العبر، مج: 7، ص: 68.

عطية بجراح خطيرة؛ عالجها في منفاه بالصحراء¹:
((ونجا - وهو مثخناً بالجراح. واتبسط ملك عبد
الملك بن أبي عامر على الغرب وما ولاه إلى
سجلامة، وعلى تلمسان وتيهرت؛ وقفل إلى الأندلس
سنة 389))². ولم ينته نور زيري بن عطية؛ جراء
ما أصابه من هزيمة وجراح محرجة؛ بل بالعكس؛
فإنه واصل نشاطه من فوره؛ بعد أن التأمّت جراحه
وتعافى من نكبته؛ ولكنه اختار - هذه المرة -
وجهة أخرى؛ اتجه فيها نحو شرق البلاد؛ حيث
وطن بني زيري الصنهاجيين وأعمالاهم. ثم ذلك
بعد اطلاعه على الانشقاق الحاصل داخل الأسرة
الزيرية؛ وخروج بعضهم على ملكهم باديس بن
المنصور؛ عندها؛ انتهز زيري بن عطية فرصة
من ذهب؛ فحاصر تيهرت؛ حيث كان بها يطوفت
ابن بلكين؛ فاضطربت أحوال باديس؛ جراء
الخلافات المحيطة به. ولكنه أسند إلى حماد ابن
بلكين مهمة التصدي لزيري بن عطية؛ ولكنه هُزم
امامه عند وادي مناس³ (ميناء القريب من تيهارت

¹ العبر، مج: 7، ص: 68. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 159. وفي
الأنيس المطرب: سنة 387هـ. أنظر ص: 66 - 67.

² البيان المغرب، ج: 1، ص: 252.

³ العبر، مج: 7، ص: 69.

ومن غيليزان الحالية). وتمكن زيري بن عطية - بعد هزيمة جيش صنهاجة - من قتل أعداد منهم؛ تقول المصادر؛ أنهم بالآلاف؛ كما استولى على معسكرهم؛ ثم فتح كل من: تنس، وشلف، وتيهرت، والمسيلة، وتلمسان أيضاً¹.

وهنا يفهم أن مدينة تلمسان كانت - طوال الفترة السابقة - تابعة لبني زيري الصنهاجيين². وقد يكون هذا - في معظم الوقت - منذ احتلالها من قبل بلكين سنة 367هـ/977م؛ أين نقل أهلها إلى مدينة أشير. ومصادق ذلك ما سبق ذكره؛ بخصوص بناء زيري بن عطية لمدينة وجدة؛ واتخذها ثغرأله³.

ولما فتح زيري بن عطية مدن المغرب الأوسط المذكورة؛ أقام فيها دعوة الخليفة هشام

¹ ((وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف، وتنس والمسيلة. وأقام الدعوة فيها كلها للمريد هشام، لحاجبه المنصور من بعده)). العبر، مج: 7، ص: 70.

² يفهم من بعض النصوص؛ أن قبائل زناتة كانت تهيمن على بوادي المغرب الأوسط؛ ومنها بادية تلمسان؛ بينما يمتلك المدينة الصنهاجيون: ((ولم يزل حماد - أيلم بلديس هذا - أميراً على الزاب والمغرب الأوسط ومتولياً حروب زناتة. وكان نزوله ببلد أشير والقلعة؛ متاخماً لملوك زناتة، وأحيانهم البادية؛ بضواحي تلمسان وتيهرت)). العبر، مج: 6، ص: 350.

³ العبر، مج: 7، ص: 66. والأنيس المطرب، ص: 65.

المؤيد؛ كما دعا - إلى جانبه - لابن أبي عامر؛
إرضاء له، وترضية خاطر؛ قصد بها الاعتذار
ضمنياً؛ فقبل المنصور اعتذاره العملي. واعتل زيري
- إثر ذلك - خلال حصاره لمدينة أشير
الصنهاجية؛ حيث توفي عند عودته منها سنة
391هـ/1000م.¹ فبايعت مغراوة ابنه المعز؛ الذي
بادر - من فوره - بالاتصال بابن أبي عامر؛
عارضاً خدماته، ومغرباً عن إخلاصه له: ((واعتلق
بالدعوة العامرية، وصلحت حاله عندهم))². ولما
توفي المنصور بن أبي عامر؛ جدّد المعز بن
زيري³ عهده وطاعته لولده المظفر عبد الملك؛ بل
قدم ابنه معنصر رهينة لديه في قرطبة؛ فقبل هذا
العرض المغربي؛ وكتب إليه سنة 396هـ/1005م
كتاب عهد بأعمال أبيه في المغرب؛ فاستقر بفاس؛
ولكنه استثنى من ذلك سجلماسة؛ التي أسندها -

¹ الأتيس المطرب، ص: 67. والعبر، مج: 7، ص: 66. وإعمال الأعلام
(قسم المغرب)، ص: 160. أنظر أيضاً البيان المغرب، ج: 1، ص: 253.

² العبر، مج: 7، ص: 70. وذكر صاحب الأتيس المطرب أنه صالح
المظفر؛ ولم يشر إلى أبيه ابن أبي عامر: ((وقام بملك أبيه. وصالح
المظفر بن المنصور بن أبي عامر؛ فقلده أمر المغرب؛ فكانت مدة ملكه
بالمغرب؛ نحو عشرين سنة)). ص: 67. وهذا ما ذكره أيضاً ابن
الخطيب؛ الذي أضاف أن هذا حدث في سنة 397هـ/1006م. أنظر إعمال

الأعلام (قسم المغرب)، ص: 160. أنظر كذلك البيان المغرب، ج: 1، ص: 253.

³ توفي المعز بن زيري في سنة 416هـ/1025م. البيان المغرب، ج: 1، ص: 254.

لبعض الوقت - إلى واندِين بن خزرون بن فلفول
ابن خزر¹. وقد أورد ابن خلدون نص كتاب العهد
هذا². ومنذ هذا التاريخ الذي نُصِب فيه المعز
والياً على المغرب؛ وإلى سنة 462هـ/1069م (السنة
التي احتل فيها يوسف بن تاشفين فاس، وأسقط
الدولة المغراوية بها)؛ عرفت بلاد المغرب
اضطرابات لا حدود لها، وفتناً مدمرة أسقطت
الرؤوس والنفوس، وحروباً دامية؛ أفنت القريب
والغريب³.

أما تلمسان؛ فقد ذُكر سابقاً أن زيري بن
عطية افتكها من أيدي صنهاجة سنة 391هـ/1000م؛
مع مدن أخرى بالمغرب الأوسط. ولما توفي وخلفه
ابنه المعز على بلاد المغرب؛ نزل بتلمسان يعلى⁴

¹ العبر، مج: 7، ص: 72. 77 - 80. وقال ابن عذاري: ((وكتب للمعز
عهده بتجديد ولاية الغرب كله إلا مدينة سجلماسة؛ فإنه كان قد عقد
ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك؛ وولاهها واضح واندِين بن خزرون
اليفرني [؟ بل المغراوي] وابن عمه زيري بن فلفول [فلفول]). البيان
المغرب، ج: 1، ص: 254.

² العبر: مج: 7، ص: 71 - 72.

³ أنظر أعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 161 - 166.

⁴ ويعلى هذا؛ هو أخو الخير بن محمد بن الخير؛ أمير مغراوة الذي
انتحر سنة 360هـ في معركة بينه وبين زيري بن مناد الصنهاجي.
اجتمع الأخوان على قتال زيري؛ حيث أخذوا يار أبيهما؛ بقتله، وإرسال
رأسه إلى قرطبة. ولما زحف إليهما بلكين للآر بلبيه؛ قُتل - في تلك
الحرب - الخير أخو يعلى؛ فانسحبت مغراوة نحو غرب البلاد؛ بسبب

ابن محمد بن الخير المغراوي: ((فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه))¹. لعل هذا؛ ثم بأمر المظفر بن أبي عامر؛ الأمر الذي منع ابن عمه المعز بن زيري عن مضايقته. وربما اختار هو نفسه هذا؛ لتكون إمارة تلمسان بمثابة الحاجز الشرقي بينه وبين الصنهاجيين. وسلك بذلك المسلك نفسه الذي اختاره - من قبل - إدريس بن عبد الله؛ حين رضي بقيام إمارة بني سليمان كحاجز بينه وبين بني الأغلب أمراء القيروان. ويمكن القول - هنا - أن يعلى بن محمد بن الخير المغراوي؛ يعتبر المؤسس لإمارة تلمسان؛ التي ورثها بنوه من بعده²؛ سميت باسمهم؛ وظلت قائمة حتى أسقطها يوسف بن تاشفين بفتح هذه المدينة

ضغوط بلكين. الأمر الذي اظطرهم إلى الاستنجاد بالحكم في قرطبة؛ فعبر إليه يعلى وابن أخيه محمد بن الخير؛ حيث مثلاً أمامه مرات عديدة. وفي هذه الأثناء تحول ثقل مسئلية مغراوة إلى فرع آخر من أسرة بني خزر؛ حيث تغلب بنو عبد الله بن بن خزر (زيري ومقاتل) على أحياء مغراوة؛ بامتلاكهم لفاس؛ وإنشاء إمارة فيها سنة (أنظر العبر، مج: 7، ص: 58 - 76. 92).

¹ العبر، مج: 7، ص: 93.

² جاء في البيان المغرب: ((وأما تلمسان والزاب؛ فكان فيها يعلى الزناتي، ومات في هذا التاريخ [أي 460هـ] أو قريباً منه؛ وقام فيها بنوه)). ج: 1، ص: 255.

سنة 473هـ/1080م¹؛ حيث استلحم من بداخلها من بني يعلى. وبذلك انتهى الوجود المغراوي كإمارة في تلمسان.

والأمر الغريب؛ أن هذه الإمارة؛ نأت بنفسها عن الاضطرابات المدمرة؛ على الرغم من محيطها المشتعل بالحروب والقتال؛ التي تنشب بين بني زيري بن عطية في الجهات الغربية، وبني حماد في المناطق الشرقية. وهاتان الدولتان - كما هو معروف - تتميزان بكثرة الرجال والأتباع، ووفرة المال والكراع، وسعة الملك والضياع. فلم تتضرر إمارة بني يعلى - مثلاً - بعمليات الغزو التي قام بها بنو حماد ضد مغراوة في المغرب الأقصى²؛ كما أن حروب بني زيري بن عطية المغراويين ضد الحماديين مرّت على تلمسان مرور الكرام. فهذا باديس بن المنصور الصنهاجي؛ دفع حماداً لشن حرب ضد زناتة سنة 395هـ/1004م؛ وسوغ له كل ما فتحه من بلاد؛ فوصل في غزواته إلى جراوة - القريبة من تلمسان - حيث نقل أهلها إلى

¹ هكذا في العبر، م: 7، ص: 94. بينما كتب سنة 474هـ في مع: 6، ص: 359.

² أنظر العبر، مع: 6، ص: 350. 353.

المسئلة¹؛ ومع هذا؛ لم تشر المصادر إلى تعرض تلمسان لأي مكروه في حملاته تلك؛ مع أنها كانت تابعة لبني يعلى المغراويين. وبالمقابل؛ تخطى حمامة بن زيري² المغراوي تلمسان سنة 430هـ/1038م؛ حين غزا بلاد الحماديين في المغرب الأوسط؛ دون التعرض لتلمسان³. ثم إن بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي؛ تجاوز بدوره تلمسان؛ ولم يتعرض لها بسوء؛ عندما زحف إلى ديار المغرب الأقصى سنة 454هـ/1062م⁴. وحتى بنو يفرن - في صراعهم مع بني زيري المغراويين بفاس؛ لم يهددوا تلمسان⁵. ويبدو أن حكم بني يعلى تعزز أكثر فأكثر؛ بعد موت حماد:

¹ العبر، مج: 6، ص: 350.

² نفى صاحب الأنيس المطرب أن يكون حمامة ابن الأمير المعز بن زيري؛ بل قال أنه ابن عمه: ((ولي ملك المغرب بعد وفاة ابن عمه المعز بن زيري بن عطية)). ص: 68. وأيد هذا الرأي ابن خلدون الذي قال: ((ولي من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية؛ وليس - كما يزعم بعض المؤرخين - أنه ابنه؛ إنما هو اتفاق في الأسماء؛ أوجب هذا الخلط)). العبر، مج: 7، ص: 73. أما ابن عذاري؛ فيعتقد أنه ابنه. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص: 254.

³ العبر، مج: 6، ص: 352. وأشار أيضاً ابن الخطيب: أن حمامة؛ هرب إلى تلمسان؛ عندما تغلب عليه تميم بن يعلى اليفرني؛ أنظر إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 161. ولكن ابن خلدون وصاحب الأنيس المطرب؛ قالوا أنه هرب إلى وجدة. العبر، مج: 7، ص: 73. والأنيس، ص: 69.

⁴ العبر، مج: 7، ص: 75.

⁵ الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 69.

((فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان واختلفت أيامهم - مع آل حماد - سلماً وحرباً))¹.

بالإضافة إلى كل ذلك؛ وضح أنه لم يؤثر في تماسك إمارة بني يعلى ومنعتها؛ كل ما حدث من الوقائع والأحداث؛ التي فرضت عليهم من قبل بني حماد وحلفائهم من أعراب بني هلال. إذ أن هؤلاء الأعراب انتقلوا - بعد تغلبهم على بني زيري في إفريقية - إلى المغرب الأوسط؛ حيث أنهكوا قوى الحماديين، وأجبروهم في قلعته؛ ولكن هؤلاء استطاعوا - فيما بعد - ترويضهم، واستخدامهم في أغراضهم، ومهامهم الحربية: ((فكانت بينهم وبين بني يعلى - أمراء تلمسان - حروب ووقائع. وكانت زغبة أقرب إليهم بالمواطن؛ وكان الأمير بتلمسان - لعهدهم - بختي؛ من ولد يعلى))².

ومن العلامات البارزة التي ميزت إمارة بني يعلى في تلمسان؛ أنها تعتبر أول إمارة مستقلة بعد إمارة بني سليمان في المدينة ذاتها. ثم أنها أول إمارة - في الجهة الغربية - من المغرب الأوسط لحكت بقبائل بني هلال؛ حيث ثبت حضور قبائلي:

¹ العبر، مج: 7، ص: 93.

² العبر، مج: 7، ص: 93 - 94.

زغبة، والأثبج في الوقت ذاته؛ الذي سجل خلاله وجود بني عبد الواد - أصحاب تلمسان لاحقاً - في تلك النواحي¹.

وتقول المصادر أن أمير تلمسان (من بني يعلى) - أيام ظهور القبيلة الهلالية "زغبة" في تلك الجهات الغربية - يسمى بختي؛ بينما يسمى وزيره وقائد جيشه "أبو سعيد بن خليفة اليفرني"². وهنا يتضح التوافق والوئام الحاصل بين مغراوة وبني يفرن في تلمسان آنذاك. كما يبدو أن هذا التوافق امتدّ أثره إلى قبائل عديدة من زناتة في المغرب الوسط: ((فكان كثيراً ما يخرج [أي وزير بختي] بالعساكر من تلمسان؛ لقتال عرب الأثبج وزغبة؛ ويحتشد من إليهم من زناتة؛ أهل المغرب الأوسط؛ مثل: مغراوة، وبني يلومي، وبني عبد الواد، وتجين، وبني مرين. وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى [أو سعيد]؛ أعوام خمسين وأربعمائة))³.

¹ نفسه، ص: 94.

² في بعض مواضع أخرى: "أبو سعد" و"أبو سعدى". مج: 7، ص: 94.

³ العبر مج: 7، ص: 94.

— العمران والثقافة:

يبدو أن حظ دولة بني يعلى المغراوية في ميدان العمران والثقافة لا يرتقي إلى منزلة التتويه والإشادة به. وكل ما يمكن ذكره في هذا المجال؛ هو اسم أحد العلماء الكبار من أئمة المذهب المالكي؛ الذي اختار الإقامة بتلمسان في ظل حكم بني يعلى المغراويين؛ ووضح أنه لقي من حكام تلمسان — آنذاك — كل حفاوة وتكريم؛ ففضل البقاء في المدينة إلى نهاية عمره. ثم أثمر وجوده في هذه المدينة؛ فأعطاهما علماء آخرين؛ لازموه وتعلموا على يديه؛ سيأتي ذكرهم لاحقاً. وهذا العالم الجليل هو:

1 — أبو جعفر الروادي الأسدي المالكي¹ فقيه، وأحد أئمة المذهب المالكي بالمغرب. درس في صغره وصباه بطنابلس الغرب؛ ثم انتقل إلى تلمسان؛ أين استقر بها، واختار الإقامة فيها. له حظ وافر في علوم الحديث واللغة والكلام. لم يعرف له شيخاً أو معلماً؛ إذ قال ابن فرحون: ((وكان درسه وحده؛ لم يتفقه في أكثر علمه على إمام مشهور؛ وإنما

¹ له ترجمة في: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،

وصل بما أدركه)¹. بينما عرف التلاميذ الآخذون عنه؛ ومنهم: أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطّان البوني (العنابي)، المتوفى سنة 440هـ وأبو بكر أحمد بن أبي عمر محمّد بن أبي زيد المتوفى سنة 460هـ، وأبو علي ابن الوفاء السبّتي. من مؤلفات الدّودي: "النامي في شرح الموطأ"، و"الوعي في الفقه"، و"النصيحة في شرح صحيح البخاري" - ويرى بعضهم أنه أول شرح لكتاب البخاري - ثم "الإيضاح في الرد على القدرية"، وله أيضاً تفسير القرآن؛ لا عنوان له؛ وسموه باسمه تفسير الدّودي". توفي بتلمسان سنة 402هـ/1011م، ودفن عند باب العقبة. أين دفن بجواره فيما بعد ابن غزلون.

2 - أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطّان البوني (العنابي)؛ وهو من أصول قرطبية؛ درس في بلده عن: أبي محمد الأصيلي، والقاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس، وآخرين. ثم رحل إلى بلاد المغرب والمشرق. أين أخذ عن علماء آخرين. قال ابن بشكوال: ((أخذ عن أبي

¹ الديباج المذهب، ج: 1، ص: 166.

الحسن القابسي، وأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي،
وصحبه خمسة أعوام، وأخذ معظم ما عنده؛ من
رواياته، ووتواليفه¹. ولكن ابن بشكوال؛ لم يذكر
أين أقام معه تلك المدة؛ أهى في تلمسان أم في غيرها
من البلدان؟ وعليه فقد أثبتناه هنا لعموم الفائدة.
ومن مؤلفات مروان بن علي: مختصر تفسير
الموطأ. وتوفى في عناية قبل سنة 440هـ/1048م.

¹ كتاب الصلاة، ج: 2، ص: 616.

عهد المرابطين

— تكرر¹ .. تلمسان المرابطية:

ظلت الحال مضطربة والحروب مشتعلة في كامل الديار المغربية؛ إلى أن حلّ بها — سنة 445هـ/1053م — قوم جدد؛ يمتطون الهُجُن والمهاري؛ قدموا هذه المرة من جنوب البلاد؛ فمهدّوا بلاد المغرب، وكبحوا قبائل زناتة، ومحووا مفاستهم، وأصلحوا الأوضاع: السياسية والدينية والاقتصادية، ورفعوا مرتبة الدولة وسلطانها عالياً، وشجعوا العلم والعلماء؛ ونشروا نهج السلف، ودعموا المذهب المالكي. هؤلاء القوم هم صنهاجة الجنوب من: لمتونة ومسوفة؛ بقيادة يحيى بن عمر أولاً²، ثم

¹ تكتب أيضاً "تقرارات" أو "تأجرات"؛ بالجيم المصرية.

² هو الأمير يحيى بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت (تورفيت) اللمتوني. توفي يحيى بن عمر في سنة 447هـ/1055م. سماه صاحب الأئيس المطرب بروض القرطاس: يحيى بن عمر بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني. ص: 80. وأجمع على هذا الاسم: ابن الخطيب، وابن خلدون. إعلام الأعلام (قسم المغرب)، ص: 228. والعبر، مج: 6، ص: 374. وقد خصص ابن عذاري فصلاً عنوانه ب: ((ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 17.

أخيه أبي بكر بن عمر¹؛ ثم - من بعدهما - ابن عمهما يوسف بن تاشفين²؛ الذي فتح تلمسان سنة 468هـ/1075م³؛ أين قتل أميرها العباس بن يحيى⁴ المغراوي في أحد الأقوال⁵؛ بينما يرى آخرون أنه صالحه بواسطة الأمير مزدلي وأنعم عليه: ((ورحل الأمير مزدلي إلى تلمسان؛ ودخلها - في مهلة، وحال هدنة - ثم ولى ابنه يحيى بن مزدلي، ورجع إلى مراكش؛ فكان وصوله إليها في نصف ربيع الآخر؛ من هذه السنة [أي سنة 468هـ]؛ ومعه العباس صاحب تلمسان؛ فأنعم عليه أمير المسلمين بكل

¹ هو الأمير أبو بكر بن عمر بن إبراهيم بن تورقيت (تورقيت أو توقوت) اللمتوني. كان حياً بعد سنة 465هـ/1072م بثلاث سنين؛ حيث قتل خلال حرب بينه وبين السودانيين المجاورين له. الحلل الموشية، ص: 31، 34.

² سرد صاحب الحلل الموشية نسب يوسف بن تاشفين هكذا: ((هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت (تورقوت) بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي، الصنهاجي الحميري، وفي إبراهيم يجتمع مع ابني عمه الأميرين اللذين كانا قبله: أبي زكرياء وأبي بكر ابني عمر ابن إبراهيم بن تورقيت)). ص: 29.

³ البيان المغرب، ج: 1، ص: 29. والحلل الموشية، ص: 40. بينما يرى ابن أبي زرع، وابن خلدون أن يوسف بن تاشفين فتح تلمسان في سنة 474هـ. أنظر الأتيس المطرب، ص: 92. والعبر، مج: 6، ص: 359، 381.

⁴ في العبر: "العباس بن بختي". أنظر مج: 6، ص: 381. وفي البيان المغرب: "العباس بن يحيى". ج: 1، ص: 29.

⁵ العبر، مج: 6، ص: 381.

خير، وأمر له بظواهر كريمة، واتصرف إلى
وطنه¹)).

وبذلك عدت هذه المدينة ثغراً وحصناً
للمرابطين؛ حيث حظيت بعناية خاصة من قبل
يوسف بن تاشفين؛ الذي باشر ببناء مدينته الخاصة
في الناحية الغربية؛ وملاصقة لأغادير (الاسم القديم
لتلمسان)؛ وسمّى مدينته "تكرارات"² (تافرارت أو
تاجرارت بالجيـم المصرية) TAGRART؛ ومعناها - كما
فسرها ابن خلدون: ((وهو اسم المحلة بلسان
البربر³)). ويبدو أن ثمة تفرقات أخرى في مكانة
بالمغرب الأقصى؛ وهي التي أبقاها عبد المؤمن عند
فتحه لمكناسة سنة 543هـ/1148م⁴.

ومنذ خضعت تلمسان للمرابطين؛ أضحت بمثابة
المنطلق؛ نحو فتح بقية مدن المغرب الأوسط؛
كوهران وتنس والوانشريس ومدينة الجزائر.

¹ البيان المغرب، ج: 1، ص: 29.

² كتبها ياقوت الرومي بحرفة هكذا: ((تافرزت)). معجم البلدان، مج: 2، ص: 44.

³ العبر، مج: 6، ص: 381. لأن ابن تاشفين بناها في موضع محله
(معسكره) عند النزول لقتال تلمسان. وعليه فقد سماها تكرارات؛ باسم المعسكر.

⁴ ((وخربت [أي مكناسة]، وقتل أكثر رجالها، وخمست أموالهم؛ وبقيت
تاجرارت المدينة إلى الآن)). الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 134.

هذا؛ وقد أسند يوسف بن تاشفين ولاية تلمسان إلى محمد بن تينعمر¹ المسوفي؛ وخلفه بعد مماته أخوه تاشفين بن تينعمر². وفي عهد هذا الأخير؛ هاجمت جيوش الحماديين تلمسان سنة 496هـ/1102³ بقيادة المنصور⁴؛ فاحتلها وعاث جيشه فيها. ثم خرج منها عائداً إلى وطنه؛ بعد أن شفعت في أهل تلمسان زوجة أميرها تاشفين؛ المسماة حوا⁵. حدث ذلك؛ رداً على اكتساح والي تلمسان محمد بن تينعمر المسوفي لبلاد صنهاجة وممتلكاتها؛ عندما توغل شرقاً حتى نازل الجزائر. ثم سلك أخوه تاشفين بن تينعمر النهج نفسه؛ حين غزا

¹ وردت في العبر مرة ((ينعمر المسوفي))، ومرة أخرى ((ينعمر))، ومرة ثالثة ((تينعمر)).

² كتبها ابن خلدون في بعض المرات: ((ينعمر)). العبر، مج: 6، ص: 386.
³ هكذا في إعمال الأعلام (قسم المغرب) ص: 97. بينما حرف التاريخ في العبر، مج: 6، ص: 360؛ إذ كتب: سنة ست وسبعين [وأربعمائة]. أما في ص: 386 بالمجلد نفسه فكتبت: 497هـ؛ وهذا أقرب إلى الصحة. كما حرف التاريخ أيضاً في مج: 7، ص: 115؛ حيث كتب: ((ثم نهض إلى تلمسان في العساكر؛ واحتشد العرب من: الأتبع، ورياح، وزغبة، ومن لحق به من زناتة؛ وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين)).

⁴ هو المنصور بن الناصر بن علناس. (481هـ/1081م - 498هـ/1104م).
⁵ ((وعاثت عساكر المنصور في تلمسان؛ فخرجت إليه حوا؛ زوجة تاشفين أميرهم؛ متزمنة، راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشانج الصنهاجية. فأكبر قصدها إليه، وأكرم موصلها؛ وأفرج عنهم صبيحة يومه. وانكفا راجعا إلى حضرته بالقلعة)). العبر، مج: 6، ص: 361.

أشير، وخربها. الأمر الذي أغضب المنصور بن
الناصر الحمادي؛ فبادر إلى حشد جيشه، وجمع
أنصاره من أعراب هلال (الأثبج، ورياح، وزغبة)؛
بالإضافة إلى بعض الأحياء من زناتة؛ ثم زحف
بهم جميعاً إلى تلمسان؛ أين استولى عليها عنوة،
وأطلق العنان لجيشه كي ينهب ويفسد؛ ولكنه أمسك
عن ذلك؛ بعد شفاعة زوجة تاشفين؛ كما ذكر
سابقاً.

وبعد غزو المنصور لتلمسان؛ وعودته إلى
بلادته؛ تدارك الأمر يوسف بن تاشفين؛ الذي كان
منشغلاً في تمهيد الأندلس؛ فلم يرد فتح جبهة
أخرى ضد بني حماد؛ لذا فقد باشر بالصلح مع
الحماديين؛ وعزل أمير تلمسان تاشفين المسوفي؛
وعين بدلاً منه مزدلي؛ الذي استقدمه من إمارة
بلنسية بالأندلس.

وفي أواخر الدولة المرابطية؛ كان على ولاية
تلمسان؛ يحيى بن إسحاق المعروف بانكمار. هو
الذي التحق بصفوف عبد المؤمن بن علي الكومي¹

¹ سرد ابن أبي زرع نسب عبد المؤمن بن علي هكذا: ((هو أبو محمد عبد
المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن
الأمني بن موسى بن عون الله بن يحيى بن وزجائع بن سطفون بن

— مع جماعة من مسوفة — سنة 537هـ/1142م¹؛
بعد الفتنة التي وقعت بين لمتونة ومسوفة؛ حيث
أعلنوا طاعتهم للموحدين. فولى تاشفين بن علي
ابن يوسف — علي تلمسان وأحوازا — محمد بن
يحيى بن فانوا؛ ولكنه قتل في معركة بينه وبين
الموحدين؛ فأسند تاشفين بن علي ولايتها إلى أبي
بكر بن مزدلي؛ وهو آخر ولاية المرابطين في
تلمسان.

كما شهدت هذه المدينة ومحيطها بوادر نهاية
الدولة المرابطية. لأن عاهل الدولة تاشفين بن علي
كان في تلمسان؛ حين زحف إليه عبد المؤمن بن
علي أمير الموحدين؛ حيث نزل في ظاهر المدينة؛
بين ما يعرف بالصخرتين؛ أي الجبلين. وبالمقابل
نزل الجيش المرابطي في أرض منخفضة؛ ولما التحم
الجيشان؛ تغلب الموحدون؛ بحكم موقعهم المرتفع.
فانصبوا على أعدائهم؛ وكانت هزيمة اللمتونيين،
وفرار تاشفين بن علي إلى وهران؛ حيث هلك

نفور بن مطاط بن هود بن مادغيس بن برير بن قيس عيلان بن مضر
ابن نزار بن عدنان. هكذا أثبت نسبه جماعة المؤرخين لدولته؛ وأصله
منقول من خط حفيده أبي محمد عبد الواحد على ما ذكروه؛ والله أعلم.
فهو زناتي الأصل...)) الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 119.
¹ العبر، مج: 6، ص: 474.

هناك؛ بسقوطه من أعلى جبل في سنة
539هـ/1144م¹.

وثمة رواية أخرى؛ ذكرها ابن صاحب الصلاة؛
ونقلها عنه ابن أبي زرع² أيضاً؛ ومفادها؛ أن تاشفين
طوى المراحل نحو تلمسان؛ بهدف الوصول إليها
قبل عبد المؤمن؛ حين علم برحيله نحوها. ولما
دخلها تاشفين؛ بادر إلى تحصينها وضبط أحوالها.
أما عبد المؤمن فقد اكتفى بمحاصرة المدينة؛ عند
نزوله بجيشه بين الصخرتين؛ كما يقال. وجاء في
هذا الخبر؛ أن جيشيهما اشتبكا مراراً؛ ثم بادر عبد
المؤمن بالرحيل نحو وهران لفتحها؛ وترك قوة من
الموحدين تحاصر تلمسان. عندها؛ خرج على إثره
تاشفين - لحماية وهران - بعد أن استخلف في
تلمسان حامية من المرابطين. وهناك حدث له ما
حدث؛ من هلاكه؛ بالسقوط من المرتفع إلى البحر.
عندئذ سهل على عبد المؤمن؛ فتح وهران

¹ الأتيس المطرب، ص ص: 107 - 108. العبر، مج: 6، ص: 477.
أنظر خبراً مفصلاً عن هذه الوقائع كلها؛ في الحلل الموشية، ص ص:
159 - 164. وجاء في المعجب في تلخيص أخبار المغرب؛ أن مهلك
تاشفين حدث في سنة 540هـ. أنظر ص: 203.

² الأتيس المطرب، ص ص: 131 - 132.

وتلمسان في السنة نفسها؛ أي 539هـ/1144م¹. وواضح هنا أن هذه الرواية الأخيرة؛ يشوبها ضعف وعدم انسجام مع المنطق؛ لأن خروج تاشفين - بعد رحيل عبد المؤمن إلى وهران - غير معقول؛ خاصة وأن الجيش الموحيدي بقي محاصراً للمدينة؛ وهذا الأمر يعرض تاشفين للخطر. كما أن خروجه بعد عبد المؤمن؛ لا يمكنه من الوصول قبله إلى وهران؛ خاصة وأن المسافة غير بعيدة؛ ولا تتجاوز ثلاث مراحل.

المهم؛ أن تلمسان ظلت في قبضة المرابطين؛ إثر هروب تاشفين إلى وهران، ومماته فيها؛ لأنه ترك فيها الأمير محمد؛ الشهير بالشهور. وبالمقابل ترك عبد المؤمن مفرزة من جيش الموحيدين بقيادة

¹ أورد بن أبي زرع خبراً آخر عن فتح تلمسان؛ جاء فيه: ((ودخل عبد المؤمن وهران عنوة؛ وذلك في شهر محرم من سنة أربعين وخمسمائة؛ وفي شهر صفر دخل تلمسان؛ وملكها الموحدون؛ وفر عنها لمتونة؛ إلى أكادير؛ فحاصروا بها إلى سنة أربع وأربعين؛ فدخلها عليهم الموحدون عنوة. وقال اليرنوسي: فتح تلمسان سنة تسع وثلاثين)). الأنيس المطرب، ص: 133. وذكر عبد الواحد المراكشي أيضاً خبراً جاء فيه: ((وخرج تاشفين - بعد وفاة أبيه - قاصداً تلمسان؛ فلم يتفق له من أهلها ما يريد؛ فقصده مدينة وهران - وهي على ثلاث مراحل من تلمسان - فحاصره الموحدون بها. فلما اشتد عليه الحصار؛ خرج ركباً فرساً شهياً؛ فافتحم البحر حتى هلك)). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 202. وهكذا تعددت الروايات حول فتح الموحيدين لتلمسان وهلاك أمير المسلمين تاشفين بن علي.

ابن يحيى بن يومر؛ بغرض التضييق على المدينة ومحاصرتها. ولكن الحال تغير بعد وصول خبر هلاك تاشفين إلى تلمسان. عندها؛ سارع كل من فيها من اللمتونيين إلى الهروب. فدخل عبد المؤمن المدينة؛ أين قتل وسبى، ونهب وأبلى: ((ذكر ابن اليسع أنه بلغ عدد القتلى بها إلى مائة ألف أو أزيد، ولما ملكها أقام بها سبعة أشهر، ورحل منها إلى جهة المغرب))¹.

— العمران والثقافة:

أبرز الإنجازات العمرانية للمرابطين في تلمسان؛ هي بناؤهم لمدينة جديدة — غير أغادير القديمة — أحاطوها بسور حصين؛ وسموها تكرارات (تقّرات). كما بُني في مركز المدينة المرابطية مسجد جامع سنة 473هـ/1080م؛ ويقال أن أسسه وضعت حيث نُصبت خيمة يوسف بن تاشفين؛ عندما فتح تلمسان.

¹ الحلل الموشية، ص: 166. وجاء في العبر أيضاً: ((وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فل لمتونة؛ وفيهم: أبو بكر بن يحيى، وسير بن الحاج، وعلي بن فيلو - في آخرين من أعيانهم - ففر معهم من كان بها من لمتونة)). مج: 6، ص: 477.

وشيّد المرابطون أيضاً - بجوار المسجد -
قصرأ لسكنى أمراء المدينة؛ عرف فيما بعد باسم
القصر القديم. وفي أيام الأمير علي بن يوسف بن
تاشفين؛ أضاف للعمارة في تلمسان رونقاً وجمالاً؛
حينما جلب إليها - سنة 530هـ/1135م - مهندسين
وعلمة وفنيين من الأندلس؛ قاموا بتجديد عمارة
بعض المنشآت بالمدينة وتزيينها بالأشكال الفنية. من
تلك المنشآت: المسجد الجامع؛ الذي أضيفت عليه
مسحة رائعة من الأشكال الفنية الجميلة.

وفهم مما ورد في جُلّ المصادر التاريخية؛ أن
تلمسان - في عصر المرابطين - أخذت تشهد بوادر
النهضة العلمية والأدبية؛ إذ تمتّنت الصلات - في تلك
الفترة - بين العدوتين: المغربية والأندلسية؛ كما
ازدادت الحركة العلمية ونمت بين الضفتين؛ فكان
لتلمسان نصيب من تلك الحركة العلمية. إذ برز
فيها بعض العلماء والفقهاء والأدباء الشعراء. غير أن
العصر المرابطي غلب عليه - أيضاً - الاعتناء
بالعلوم الدينية؛ ذات التوجه المالكي. كما أن تلمسان في
هذا العصر؛ غابت عليها ظاهرة التصوف والميل إلى
الزهد بين كثير من العلماء.

وقد أوردت المصادر أسماء نخبة من أولئك العلماء والشعراء؛ بالإضافة إلى الأولياء الصالحين وال دراويش. ممن عاشوا في العصرين: المرابطي، والموحدي. وحتى يسهل تصنيفهم؛ فقد أخذ بالاعتبار الوقوف - في الفترة المرابطية - عند سنة 560هـ/1164م؛ لأن الدولة الموحدية قبل هذا التاريخ؛ لم يتسن لها تقديم شيء في المجال الثقافي بتلمسان؛ وكل ما وجد في هذه المدينة؛ فقد نما وترعرع في ظل المرابطين. وفيما يلي بعض الأسماء من علماء تلمسان وزهادها؛ على أن يترك المجال للأدباء والشعراء في أجزاء الكتاب اللاحقة:

1 - الولي الزاهد أبو زكرياء يحيى بن الصقيّل، فقيه، ومحدث وحافظ للحديث؛ يميل إلى الزهد والورع؛ ومنغمس في العبادة، لا يكاد يفارق المساجد، ويكثر من زيارة القبور؛ ويفضل العزلة عن الناس. نسبت له الكرامات واطلاعات صوفية. دفن رحمه الله خارج باب العقبة، قال عنه يحيى بن خلدون: ((وله الآن بتلمسان ولد على غير هدية، نجباء فيما ولوه من أمر السلطنة))¹. قال فيه ابن

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 116.

الزبير أنه ((روى عن القاضي أبي علي الصدي¹.
ذكره أبو عبد الله التلمساني))². بما أن الصدي
توفي في سنة 514هـ/1120م. يكون ابن الصقيل هذا
عاش في زمنه - وفي عصر المرابطين بالتحدين -
أما وفاته فلا تبعد كثيراً عنه؛ والله أعلم.

2 - أبو الحسن يحيى بن عيسى بن علي بن
محمد بن أحمد المرسى التلمساني (ابن الصقيل).
قد يكون من الأبناء الذين أشار إليهم يحيى بن
خلدون؛ في الترجمة السابقة. وهو أحد رواة الحديث،
ومن العدول الصالحين. لا يعرف تاريخ وفاته.
فألحقت ترجمته بسلفه.

3 - أبو جعفر أحمد بن علي بن غزلون الأموي؛
توفي في عام 524هـ/1129م. أندلسي من أهل
تُطيلة. قال عنه ابن بشكوال: ((روى عن أبي الوليد
سليمان بن خلف الباجي؛ وهو معدود في كبار
أصحابه. وكان من أهل الحفظ والمعرفة والذكاء؛
وقد أخذ عنه أصحابنا. وتوفي بالعدوة؛ في نحو
عشرين وخمسة))³. غير أن تعليقا في هامش

¹ الشهير بلقب ابن سكرة.

² صلة الصلة، رقم الترجمة: 356.

³ الصلة، ج: 1، ص: 77، رقم الترجمة: 169.

الصفحة كتب فيه: ((قبره بتلمسان بأجاير؛ منها
باب العقبة؛ وكثيراً ما زرت قبره رحمه الله.
وفاته - بلا شك - سنة أربع وعشرين. "من
هامش الأصل المعتمد عليه؛ وقد سقط هذا في
نسخة أوروبا"))¹. وقبره بجوار قبر أحمد الداودي.

4 - يحيى بن يوغان "يوقان" الصنهاجي؛ (أبو
زكرياء). وهو أحد أمراء المرابطين؛ اختار خلوة
الصوفيين؛ على مجالس الحكم والرئاسة. يقال أنه
زار يوماً أبا محمد عبد السلام التونسي؛ وطلب
منه أن يكون تلميذاً له؛ ((فقال له: "إنك لا تقدر
على ذلك"؛ فقال له أبو زكرياء: "أقدر إن شاء
الله: فقال له: "إن كنت كما تقول؛ فاذهب إلى
الجبل، واحتطب حزمة، وادخل بها رحبة القصر
وهي على ظهرك؛ حتى يذهب ما فيك من الكبر
والنخوة والزعامة"))². فنفذ الأمير ابن يوغان ما
اشرطه عليه أبو محمد عبد السلام؛ فذهب إلى
الجبل واحتطب حطباً؛ جمعه في حزمة؛ ثم حملها
على ظهره، ودخل بها رحبة القصر من باب
وخرج من باب آخر - وهي مركز إمارته في

¹ الصلاة، ج: 1، ص: 77.

² التشوف إلى رجال التصوف؛ ص: 123.

تلمسان - فلما رآه بعض الرؤساء من صنهاجة؛
فرّوا من أمامه؛ حياء منه، وإشفاقاً من رؤيته
على تلك الحال. ولكنه واصل طريقه إلى وسط
البلدة؛ حيث وضع حزمة الحطب من على ظهره،
وعرضها للبيع؛ فباعها بدرهم؛ ثم عاد إلى التونسي.
ولما حكى حكايته عليه؛ قال له: "أما الآن؛ فأنا
استوهب منك الدعاء". ثم إنه كان يحيل من يأتيه
في طلب الدعاء إلى ابن يوغان؛ ويقول له: ((اذهب
إلى ابن يوغان، واستوهب منه الدعاء؛ فإنه ملك
زهد في الدنيا؛ وأما أنا فكنت فقيراً وبقيت فقيراً؛
وما زدت شيئاً))¹. توفي بتلمسان في 537هـ/1142م.

5 - أبو عمر عثمان المعروف باسم ابن صاحب
الصلاة: وهو قاضي تلمسان، وخطيب جامعها. من
العلماء الأجلاء، والفقهاء المميزين. قام بشرح
الأحكام الصغرى. تلقى عليه عبد المؤمن بن علي
العلم في صغره؛ ثم قتله بأمر ابن تومرت؛ الذي
قال له: ((اقتله؛ فإن صغير الصاد من قوله لي:
"اشتغل بخويصة نفسك" في أذني حتى الآن))². وكان
قد وبَّخ ابن تومرت على بعض تصرفاته؛ خلال

¹ التشوف إلى رجال التصوف؛ ص: 123.

² بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 116.

مروره بتلمسان مع عبد المؤمن بن علي؛ عائداً إلى المغرب الأقصى. وتم قتله إثر فتح عبد المؤمن ابن علي تلمسان؛ في سنة 539هـ/1144م.

6 - عثمان بن علي بن الحسن التلمساني؛ (أبو عمرو). شيخ فاضل؛ ملتزم بدينه، صالح في أقواله وأفعاله، مواظب على تلاوة القرآن الكريم؛ بحيث كان يختمه كل ليلة. رحل للحج عبر الصحراء؛ ثم عاد. وقال يحيى بن خلدون: ((فلما كان على مسيرة يوم عن تلمسان، سمع، هاتفاً يقول له أدرك أمك فقد ماتت، فأغذ السير، وأدرك جنازتها على شفير القبر))¹. توفي رحمه الله في رمضان من عام 542هـ/1147م.

7 - علي بن أبي القاسم عبد الرحمن التلمساني؛ المعروف بابن جنون قشون²؛ (أبو الحسن). توفي في عام 557هـ/1161م. ولد ونشأ بتلمسان وتعلم بها؛ ثم عبر إلى الأندلس؛ أين روى على بعض علمائها. تولى القضاء بتلمسان ومراكش. من مؤلفاته: المقتضب الأشفي في اختصار المستصفي؛ في أصول الفقه.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 108.

² سمي في بعض النصوص ((ابن عرجون)).

8 - يعقوب بن حمود التلمساني؛ (أبو يوسف).
تعود أصوله الأولى إلى أغمات. أخذ بمرسية عن أبي
علي الصدي سنة 511هـ/1117م. ثم عاد إلى
تلمسان؛ التي باشر التعليم بها؛ ومن تلاميذه أبو
يحيى بن عصفور وآخرون. ولا يعرف تاريخ وفاته.
وإنما يدخل في أعلام العصر المرابطي؛ بحكم أنه
أخذ العلم عن الصدي المتوفي سنة 511هـ.

وهكذا؛ تكون تلمسان - في ذلك العهد - قد
احتلت مكانة مرموقة بين العلماء؛ إذ أضحت مركزاً
هاماً للفقهاء المالكي. وقد انتقل إليها عبد المؤمن
ابن علي - في صغره؛ من بلدته تاجرا القريبة من
ندرومة - بغرض استكمال تعليمه على يد العلماء
فيها؛ من بينهم: ابن صاحب الصلاة، وعبد السلام
التونسي.



العصر الموحدى

في أشهر الأقوال؛ يكون عبد المؤمن بن علي قد دخل إلى تلمسان في سنة 539هـ/1144م؛ حيث تملكها عنوة؛ إثر عودته من فتح وهران مباشرة:¹ ((ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان؛ استباح أهل تاكرارت؛ لما كانوا أكثرهم من الحشم؛ وعفا عن أهل تلمسان؛ ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها؛ بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن واندن؛

¹ الحلل الموشية، ص: 165. أورد ابن خلدون خبراً آخر أيضاً؛ حيث قال: ((وفيما نقل بعض المؤرخين؛ أنه لم يزل محاصراً لتلمسان؛ والفتوح ترد عليه. وهناك وصلته بيعة سجالمة. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب؛ وترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان؛ فقصده فاس سنة أربعين [وخمسمائة]؛ وقد تحصن بها يحيى الصحراوي. ولحق بها من فلّ تاشفين من تلمسان؛ فنازلها عبد المؤمن، وبعث عسكرياً لحصار مكناسة؛ ثم رحل في أتباعه؛ وترك عسكرياً من الموحدين على فاس؛ وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو إبراهيم من أصحاب المهدي العشرة؛ فحاصروها سبعة أشهر.... وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن - وهو بمكانه من حصار مكناسة - فرجع إليها، وولى عليها إبراهيم بن جامع.... وكان إبراهيم بن جامع لما افتتح تلمسان؛ ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس؛ فاعترضه المخضب بن عسكر؛ أمير بني مرين بأكرسيف؛ ونالوا منه ومن رففته. فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن واندن (بن..؟) عامل تلمسان؛ أن يجهز إليهم العساكر؛ فبعثها صحبة عبد الحق ابن مَنفَلاذ شيخ بني عبد الواد؛ فأوقعوا ببني مرين، وقتل المخضب أميرهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 478 - 479.

وقيل يوسف بن واندن¹. ثم أشار ابن خلدون؛
لتضارب الآراء في الرواية.

وذكر ابن أبي زرع أن عبد المؤمن بن علي
أمر - سنة 540هـ/1145م ((ببناء سور تاجرات
[تكرارت أو تفرارت] من تلمسان وبناء جامعها،
وتحصين المدينة، وإعلاء سورها))².

وبعد فتح إفريقية؛ أسند عبد المؤمن بن علي
سنة 547هـ/1152م ولاية تلمسان إلى ولده السيد أبي
حفص عمر؛ ثم وضع معه أبا محمد بن واندن
في مرتبة وزير، وأبا الأصبغ بن عياش ككاتب
ومعلم ومؤدب له³. وواضح - هنا - أنه اتخذ هذا
في إطار سياسة جديدة اتبعها؛ تمكنه من السيطرة
والتحكم في أوضاع الدولة؛ إذ أنه أسند أيضاً ولاية
فاس لابنه السيد أبي الحسن، وولاية سبتة للسيد أبي
سعيد⁴، وولاية بجاية للسيد أبي محمد عبد الله.
الأمر الذي أغضب أسرة المهدي؛ حيث عاد أخواه

¹ العبر، مج: 6، ص: 478.

² الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 133.

³ الحلل الموشية، ص: 186. والعبر، مج: 6، ص: 491.

⁴ نفسه: ((غرناطة)). ص: 186.

إلى مراكش؛ قصد حبك مؤامرة ضد عبد المؤمن
وبنيه؛ ولكنهما فشلا وقتلا¹.

وبعد أن استوزر عبد المؤمن ولده السيد أبا
حفص سنة 555هـ/1160م؛ أسند ولاية تلمسان للسيد
أبي عمران بن عبد المؤمن². وذكر عبد الواحد
المراكشي؛ أن عبد المؤمن أسند خطة القضاء
بتلمسان لابنه أبي يعقوب³. وهذه الخطة أسندت
ايضاً في تلمسان إلى طلحة بن أبي يعقوب. وتبين أن
والي هذه المدينة سنة 581هـ/1185م هو السيد أبو
الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن⁴. أما في
سنة 584هـ/1188م فكانت ولاية تلمسان من نصيب
أبي إسحاق بن عبد المؤمن؛ ولكن ابن أخيه
يعقوب بن المنصور عزله ونكبه في السنة نفسها؛
بعد عودته من إفريقية لأمر سمعه عنه؛ فأغضبه⁵.
وفي سنة 604هـ/1207م؛ كان والياً على تلمسان
أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن؛ الذي

¹ العبر، مج: 6، ص ص: 491 - 492. أنظر خبر هذه المؤامرة في المعجب
في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 233 - 234.

² العبر، مج: 6، ص: 500.

³ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 246.

⁴ العبر، مج: 6، ص: 507.

⁵ نفسه، ص: 510.

توفي بها في السنة نفسها¹. حيث أسند الناصر هذه
الولاية - سنة 605هـ/1208م - لأبي عمران بن
يوسف بن عبد المؤمن. ((أدال به من السيد
الحسن. فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين؛
وتطوف بأقطارها. وزحف إليه ابن غانية هنالك؛
فانفض الموحدون؛ وقتل السيد أبو عمران؛ وارتاع
أهل تلمسان؛ وأسرع السيد أبو زكرياء من فاس
إليها؛ فسكن نفوسهم. خلال ما عقد الناصر لأبي
زيد بن يوجان على تلمسان؛ وسرحه في العساكر؛
فزل بها؛ وفرّ ابن غانية))².

وفي سنة 611هـ/1214م؛ عزل المستنصر بن
الناصر أبا زيد بن يوجان (يوغان أو يوقان) عن
ولاية تلمسان؛ واسند ولايتها لأبي سعيد بن
المنصور³. ولكن ابن خلدون؛ ذكر أن ولده محمد
ابن أبي زيد بن يوجان (يوقان)؛ بايع للمأمون⁴؛
بينما كان والياً على تلمسان سنة 626هـ/1228م⁵.

¹ العبر، مج: 6، ص: 520.

² نفسه، ص: 520 - 521.

³ نفسه، ص: 524.

⁴ هو أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد
الرحمن بن علي. حكم من سنة 624هـ/1226م إلى سنة 630هـ/1232م.

⁵ العبر، مج: 6، ص: 529.

غير أنه يذكر - في موضع آخر - أن الوالي على تلمسان في سنة 624هـ/1226م؛ هو أبو سعيد¹؛ وهذا الأخير؛ هو الذي أجمعت المصادر على أنه كان على تلمسان في سنة 624هـ؛ عند ظهور بني عبد الواد؛ الذين استبدوا بهذه المدينة وأعمالها؛ وشيدوا دولتهم بعد اقتطاعها نهائياً عن الدولة الموحدية في سنة 633هـ/1235م.

وجملة القول؛ تعتبر تلمسان من مراكز الدولة الموحدية الهامة؛ بحيث اختص بها القرابة من بني عبد المؤمن؛ وفي هذا يقول عبد الرحمان بن خلدون: ((وكانت تلمسان - لذلك العهد - نزلاً للحامية، ومناخاً للسيد من القرابة؛ الذي يضم نثرها، ويذب عن أنحائها))².

¹ ((وكان الامون استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد؛ وكان غفلاً؛

ضعيف التدبير)). نفسه، مج: 7، ص: 152.

² العبر، مج: 7، ص ص: 151 - 152.

— العمران والثقافة:

شهدت الفترة الزمنية — التي استطلت فيها تلمسان بحماية الدولة الموحدية — أهم الإنجازات العمرانية؛ حيث رُفِعَتْ بها الأسوار إلى مستويات شاهقة، وحصنت بمواد البناء الصلبة المتينة، وحفرت حولها الخنادق والحواجز المائية، وأقيمت على أطرافها التحصينات المنيعة. كما شجع أمراء الدولة الموحدية السكان على إضافة المزيد من العمران، والتوسع في بناء المساكن والقصور. وينسب ابن خلدون معظم المنجزات العمرانية بتلمسان — في العهد الموحيدي — إلى أميرها السيد أبي عمران موسى بن يوسف؛ الذي وُلِّيَ المدينة سنة 556هـ/1160م: ((واتصلت أيام ولايته فيها؛ فشيد بناءها، وأوسع خططها، وأدار سياج الأسوار عليها))¹. كما اتبع نهجه — في البناء والعمران — السيد أبو الحسن علي بن أبي حفص بن عبد المؤمن؛ الذي وُلِّيَ تلمسان بعده؛ إذ اضطرته الأوضاع السياسية والعسكرية، والاضطرابات والفتن التي أشعلها ابن غانية سنة 581هـ/1185م — إثر احتلاله لبجاية

¹ العبر، مع: 7، ص: 160.

والجزائر ومليانة - إلى إضافة المزيد من الأسوار
والتحصينات: ((بإمعان النظر في تشييد أسوارها،
والاستبلاغ في تحصينها، وسدّ فروجها، وإعماق
الحفائر نطاقاً عليها؛ حتى صيرّها أمنع معاقل
المغرب، وأحصن أمصاره. وتقبل ولاتها هذا المذهب
من بعده في المعصم بها))¹. ثم تنامي عمران
تلمسان - مع الوقت - وتعاضم دورها السياسي
والعسكري؛ فاعتبرت - بحكم أهميتها وموقعها
وحصانتها - حاضرة للمغرب الأوسط؛ بعد تلاشي
دور تيهرت والمدن الأخرى.

أما خبر الحركة العلمية والثقافية عموماً في
مدينة تلمسان؛ فيتجلى بما شهدته من نموّ وتطور
في العهد الموحيدي؛ إذ فاقت - في مجملها - الأوضاع
الثقافية أيام المرابطين. ويمكن استشفاف ذلك من
خلال ما ظهر فيها من علماء وأدباء.

وثمة جزء معتبر مما هو مُنْبَت هنا؛ يمكن
إدخاله ضمن الفترة المرابطية؛ ولكن المنهج - الذي
ذكر سابقاً - يجعل كل من مات بعد سنة
560هـ/1164م من أعلام الدولة الموحدية؛ بينما يعود

¹ العبر، مج: 7، ص: 160.

السابقون من الرجال لهذا التاريخ إلى العصر المرابطي.

وفيما يلي أهم العلماء والمتصوفة في العهد الموحي؛ باستثناء الذين لهم مشاركة في فنون الأدب ونظم الشعراء؛ إذ خصصت لهم الأجزاء المتبقية من الكتاب:

1 - سليمان بن عبد الرحمن بن المعز الصنهاجي، المعروف بالتلمساني؛ (أبو الربيع). من بين شيوخه: أبو بكر بن خلف المعروف بالمواق، وأبو العباس أحمد بن محمد المعروف بالحصار. وكان يميل إلى الزهد، ويتصف بالورع؛ سكن مدينة سلا؛ وانشغل بحرفة النسخ؛ ولم يكن يرضيه إلا قيمة العدل. وتوفي بسلا سنة 579هـ/1183.

2 - يوسف بن عبد المؤمن الكومي؛ (أبو يعقوب)؛ هو أحد سلاطين الدولة الموحدية العظماء في العلم والسياسة. إذ كان - إلى جانب منصبه السياسي - واسع الاطلاع على علوم شتى؛ منها: الشرعية، والأدبية، والفلسفية. وقد عرف عنه إلمامه بالحكمة، والفلسفة؛ وحبّه للعلماء، وأهل الفكر؛ حيث جلب إلى بلاطه نخبة من علماء عصره آنذاك؛ مثل: ابن الطفيل، وابن رشد، وابن زهر وغيرهم. ووصفه

عبد الواحد المراكشي بقوله: ((كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية... مع إثارة للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط. صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك مني: إما البخاري، أو مسلم؛ وأغلب ظني أنه البخاري - حفظه في حياة أبيه؛ بعد تعلم القرآن؛ هذا مع ذكر جمل من الفقه؛ وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم؛ ثم طمح به شرف نفسه، وعلو همته إلى تعلم الفلسفة؛ فجمع كثيراً من أجزاءها؛ وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ فاستظهر من الكتب المعروف بالملكي أكثره؛ مما يتعلق بالعلم خاصة؛ دون العمل؛ ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة؛ وأمر بجمع كتبها؛ فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المنتصر بالله (الأموي)).¹ توفي رحمه الله في عام 580هـ/1184م.

3 - ميمون بن جبارة بن خلفون الكتامي؛ (أبو تميم). من العلماء الرؤساء؛ يتحلى بخلق حميد،

¹ المعجب، ص ص: 237 - 238.

وكرم فياض أخذ عن عبد الله بن عبد الحق التلمساني. ورحل إلى الأندلس؛ أين ولي قضاء بلنسية؛ فكان عادلاً في أحكامه، وحمدت سيرته. باشر إقراء الناس أصول الدين؛ ومن الذين أخذوا عنه: أبو الذهبي، وأبو الحجاج بن مرضي. وبعد عودته إلى ديار المغرب؛ ولي قضاء بجاية؛ ولكنه أعفى فيما بعد. وتوفي رحمه الله بتلمسان سنة 584هـ/1188م أثناء عبوره بها قاصداً مراكش.

4 - عبد السلام التونسي؛ (أبو محمد)¹. من الفقهاء والأولياء الصالحين. عاصر المرابطين والموحدين معاً. هو أحد مشائخ عبد المؤمن بن علي؛ حينما انتقل في صغره إلى تلمسان لتحصيل العلم. وهو الذي اختار أبو مدين شعيب الاستقرار بجواره؛ فدفن بقربه، وفي روضته. من شيوخ عبد السلام: عمه عبد العزيز؛ درس عليه بأغمات؛ ثم انتقل إلى تلمسان فكان راهباً، عالماً، زاهداً؛ لا يحيد عن الحق بأنملة، ولا يصغي فيه للومة لائم. فضل لبس الصوف وأكل الشعير المستخرج من حرث يده،

¹ لقد عاش فترة طويلة في العهد المرابطي. ويمكن اعتباره من أعلام ذلك العهد؛ ولكن المنهج المتبع هنا؛ يدخله بين أعلام العهد الموحي.

واكتفى بأكل السلاحف البرية عند الحاجة. توفي
بالعباد سنة 589هـ/1193م.

5 - يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الكومي؛
(أبو يوسف المنصور). كان من أعظم سلاطين
الدولة الموحدية؛ له إلمام واسع بالعلوم الدينية
والدنيوية، وله دراية بفنون الآداب. وقد ترك بصماته
بارزة جليلة في نظام الدولة الموحدية، ومؤسساتها
الإدارية، والعسكرية، والثقافية، والدينية. فقد كان -
إلى جانب حزمه، ودهائه، وحكته السياسية،
والعسكرية - يتمتع بمزايا علمية، وثقافية معتبرة؛
ولكن يعيبه تعصبه للمذهب المالكي؛ مذهب الدولة.
كما عرف بقمع الأفكار المتجددة النيرة، واشتهر
بكبحه وقمعه لكل المحاولات التي توحى بتجديد أو
لجتهاد. وقد شهدت الدولة الموحدية في عهده تشنج
مذهبي خطير؛ من ذلك: إحراق كتب الفروع،
والتضييق على الفقهاء من المالكية وغيرهم؛ حيث
ألزمهم يعقوب المنصور حدوداً سطرها بنفسه في
الإفتاء؛ جاعلاً حدود الإفتاء لا تتجاوز القرآن الكريم
أو ما ثبت في الصحاح من كتب الحديث. وقد
تطرق عبد الواحد المراكشي - في كتابه المعجب -
لذلك الأحداث بقوله: ((وفي أيامه انقطع علم الفروع،

وأمر بإحراق كتب المذهب؛ بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن؛ ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد؛ كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب، ونحوها. لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس؛ يؤتى منها بالأحمال؛ فتوضع ويطلق فيها النار؛ وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي، والخوض في شئ منه؛ وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة؛ وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة: (الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي دود، وسنن النسائي، وسنن البرار، ومسند ابن أبي شيبه، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي) في الصلاة، وما يتعلق بها؛ على نحو الأحاديث التي جمعها محمد ابن تومرت في الطهارة؛ فأجابوه إلى ذلك؛ وجمعوا ما أمرهم بجمعه؛ فكان يملئه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه؛ وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس من العوام، والخاصة؛ فكان

يجعل لمن حفظه الجعل السني؛ من الكساء،
والأموال؛ وكان قصده في الجملة نحو مذهب مالك،
وإزالته من المغرب مرة واحدة؛ وحمل الناس على
الظاهر من القرآن، والحديث؛ وهذا المقصد بعينه
كان مقصد أبيه، وجده¹.

ومن منجزات المنصور التنظيمية، والعمرانية:
أنه أول من خط العلامة بيده من سلاطين
الموحدين؛ وهي: ((الحمد لله وحده))، وسك الدنانير
اليقوبية، وشيد الجامع الأعظم بمراكش، وبنى عدداً
كبيراً من المدارس، والمساجد، والصوامع، والقناطر،
والمستشفيات بالأندلس، والأقطار المغربية كلها؛ كما
حفر آبار المياه، وخصّص للعلماء، وطلبة العلم
مرتبات ثابتة، وهو الذي بنى مدينة رباط الفتح.
توفي رحمه الله في سنة 595هـ/1198م.

6 - علي بن أحمد سعيد بن عبد الله الشنت
مري الكومي المعروف بقتون أو (جنون)؛ (أبو
الحسن). يعد من بين المحدثين الحفاظ؛ له غاية
بعلم الحديث خاصة. ومن مؤلفاته: "البستان في علم
القرآن"، و"فتح المنغلق وجمع المفترق"، و"الزلفه

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 278 - 279.

والإرشاد إلى ما قرب وعلا من الإسناد"، إلى آخره من كتب أخرى. وكانت وفاته في سنة 599هـ/1202م.

7 - يوسف بن علي بن جعفر التلمساني. روى بإشبيلية عن القاضي أبي بكر بن العربي، محدث جيد. لا يعرف تاريخ وفاته؛ غير أن خبر تلقيه العلم عن ابن العربي؛ يفيد أنه عاصره. وإذا عُرف أن وفاة هذا الأخير حدثت في سنة 543هـ/1148م؛ فمعناه أن وفاة صاحب الترجمة حدثت في القرن السادس؛ والأرجح تكون في العصر الموحيدي. والله أعلم.

8 - محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن سليمان التيجيبي؛ (أبو عبد الله). من المحدثين الأكفاء. من شيوخه: بشطوال، وأبو طاهر السلفي، وآخرون. أصله من إشبيلية، وعبر إلى المغرب؛ فدرس بفاس سنة 594هـ؛ ثم سبتة؛ وانتقل بعد ذلك إلى تلمسان؛ حيث استقر بها إلى أن وافاه الأجل في سنة 610هـ/1213م.

9 - عمر بن العباس الصنهاجي المعروف بالحبائك؛ (أبو علي). من الزهاد الصالحين. حضر جنازة قطب الصالحين الغوث أبي مدين في العباد؛ فتأثر؛

وَقَرَّرَ سُلُوكَ سَبِيلِ الْفُقَرَاءِ، وَالْإِتِّزَامَ بِطَرِيقِ الزَّهَادِ
وَالصَّالِحِينَ؛ فَزَع ثِيَابَهُ، وَأَعْطَاهَا لِأَحَدِ الْفُقَرَاءِ،
وَلَبَسَ مِرْقَعَةً. ثُمَّ عَادَ إِلَى مَنْزَلِهِ؛ فَلَمَّا رَأَتْهُ زَوْجَتُهُ؛
صَرَخَتْ: "يَا وَيْلَاهُ". فَقَالَ لَهَا: "إِنْ لَمْ تَوَافَقِيْنِي عَلَى
هَذَا؛ وَإِلَّا فَعِدِيْنِي مِيتًا"؛ وَتَخَلَّى لَهَا عَنْ كُلِّ مَا
يَمْلِكُ، وَتَرَكَ لَهَا أَمْرَ أَوْلَادِهِ؛ ثُمَّ سَاحَ فِي أَرْضِ اللَّهِ؛
وَلَمْ يَعُدْ إِلَى تَلْمِصَانٍ؛ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ؛ فَالتَّقَى
بِزَوْجَتِهِ فِي سُوَيْقَةِ أَجَادِيرٍ؛ فَتَظَاهَرَ بِالْدُرُوشَةِ؛ فَبَكَتْ
عَلَى حَالِهِ. ثُمَّ رَحَلَ نَحْوَ الْحِجَازِ؛ فَغَرِقَ فِي الْبَحْرِ
فِي حُدُودِ سَنَةِ 613هـ/1216م.

10 - إسماعيل بن إبراهيم التونسي؛ (أبو الطاهر).
أصله من تونس؛ ورحل عنها إلى مراكش؛ ولكنه
اخْتَارَ الْإِسْتِقْرَارَ بِتَلْمِصَانَ إِلَى آخِرِ عَمَرِهِ؛ حَيْثُ
اشْتَغَلَ بِتَدْرِيسِ الْعِلْمِ بِهَا. ثُمَّ تَرَهَّبَ وَانْعَزَلَ عَنِ
النَّاسِ. وَيُعْتَبَرُ أَبُو طَاهِرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْحَفَازِ. أَخَذَ
عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ. وَمِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ
عَنْهُ؛ أَنَّهُ قَالَ؛ عِنْدَمَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ
عَمْرُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْحَبَاكِيُّ: ((رَأَيْتُكَ الْبَارِحَةَ فِي النَّوْمِ
تَتَشَفَّنِي:

أَجِيرَانِي فَإِنِّي قَدْ وَحَلْتُ

وَفِي نَفْسِي وَإِثْبَاتِي حَصَلَتْ

أنزه خالقي عن ذا وعن ذا وأعرفه وليس كمن جهلت

فمم أجبرك؟ فقال: سيدي ما وصلت إليك إلا في هذا، فلما فرغ المجلس؛ خلا بعمر، فتشاورا في حديث بينهما لم يعرفه أحد¹. لا يعرف تاريخ وفاته؛ وإنما يمكن تحديد الفترة التي عاش فيها؛ إذا ما لوحظ أن زميله المذكور أعلاه: عمر بن العباس الحباك توفي غريقاً في سنة 613هـ/1216م.

11 - أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران بن دافال الوردميثي (ابن عمران). من العلماء الأجلاء. تولى القضاء في عهدي: الناصر والمستنصر. وهو ابن عيسى بن عمران² قاضي الخلافة الموحدية في أيام أبي يعقوب يوسف. وقد أشار ونوه به وبأولاده عبد الواحد المراكشي؛ وقال في بنيه: ((ما منهم إلا من ولي القضاء؛ وهم عليّ. وكان عليّ هذا رجلاً صالحاً؛ ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية؛ ثم عزل عنها، وولي مدينة تلمسان؛ وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه، وممن لا تأخذه

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 130.

² توجد ترجمته في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

هوادة في الحق. ومن أولاده: طلحة؛ ولي قضاء تلمسان. ويوسف؛ تركته قاضياً بمدينة فاس؛ بلغني وفاته؛ وأبامكة سنة 620هـ. وأبو عمران موسى؛ قاضي الجماعة في وقتنا هذا¹. وتوفي أبو عمران موسى بمراكش سنة 618هـ/1221م.

12 - محمد بن عبد الحق بن سليمان الكومي اليعفري التلمساني. من أهل تلمسان؛ ولد بها في سنة 536هـ/1141م؛ فقيه ومقريء. ولي القضاء في بلده مرتين. عبر إلى الأندلس؛ فأكرم بها. هو من أئمة الفقه والحديث وعلم الكلام. من مؤلفاته: المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار؛ في عشرين سقراً. وكتاب في غريب الموطأ. والتسلي عن الرزية والتجلي برضى باري البرية. ونظم العقود ورقم الحل والبرود. والافتاع في كيفية الاسماع. والفصل الجازم في فضيلة العلم والعالم. وفرقان الفرقان وميزان القرآن. توفي بتلمسان عام 625هـ/1227م.

13 - موفق الدين أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن إسماعيل الخزرجي الأنصاري التلمساني. توفي بالقاهرة سنة 633هـ/1236م. فقيه

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 246.

ومحدث؛ سلك نهج المتصوفة. سكن القاهرة، وسمع من علمائها كالْبَصِيرِي وغيره. من مؤلفاته: مجاميع في التصوف.

14 - أبو زكرياء يحيى بن محمد بن موسى التجيبي التلمساني. توفي بالإسكندرية في عام 652هـ/1254م. أحد فقهاء تلمسان ووعاظها ومفسريها البارزين زار مكة، وحج وجاور؛ ثم انتقل إلى الإسكندرية. من مؤلفاته: تفسير القرآن الكريم، وكتاب في الرقائق.

15 - محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخزرجي التلمساني. ولد في تلمسان سنة 584هـ/1188م، ونشأ وتعلم بها. فقيه وعالم؛ انتقل إلى سبتة ثم مصر أين استقر بالإسكندرية وتوفي بها سنة 656هـ/1258م. من مؤلفاته شرح الجلاب.

بنو عبد الواد

— التمرج نحو الملك:

وبنو زيان¹ هؤلاء؛ ينحدرون عن القبيلة الزناتية الكبيرة؛ المعروفة ببني عبد الواد². هذه القبيلة التي كانت مواطنها - في الأصل - ضمن أرض الزاب، وسفوح الأوراس؛ ثم انتقلت إلى غرب البلاد؛ انسياقاً مع تيار الحروب، وجرياً وراء الكلاء الوفير، وبحثاً عن الغنائم الثمينة؛ وتم ذلك؛ منذ الفتح الإسلامي؛ حيث تقول بعض الروايات أنهم

¹ ينتمي بنو زيان إلى قبيل بني عبد الواد؛ وهو أحد أحياء زناتة الأمازيقية. أنظر نسبهم في المصادر التالية: كتاب جمهرة أنساب العرب، ص ص: 495 - 498. وكتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقية؛ ص ص: 9 - 13، وكتاب العبر، مج: 6، ص ص: 175 - 192. ومج: 7، ص ص: 4 - 12. وكتاب بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 898 - 94.

² ينتسبون إلى جذهم المسمى عابد الوادي ((رهباتية عرف بها جدهم)). (بغية الرواد، ج: 1، ص: 186). وقال يحيى بن خلدون أنهم يتفرعون إلى فخذين رئيسين؛ يشتمل الأول على خمسة أحياء؛ وهم: بنو ياتكتن (أو يكتيمن)، وبنو وللو، ومصووجة، وبنو تومرت، وبنو ورسطف. أما الفخذ الثاني؛ فهم بنو القاسم؛ وينتسبون إلى إدريس بن إدريس. وينقسمون بدورهم إلى أحياء عديدة.

رافقوا عقبة بن نافع إلى تلك الديار؛ التي ربما اكتشفوها لأول مرة¹.

ومعاش بني عبد الواد - قبل وصولهم إلى مرتبة الملك - عبارة عن معاش بدوي بسيط؛ يركز على الرحلة خلف أنعامهم المنتجة عبر الفيافي والقفار؛ بحثاً عن الكلأ والماء. وكان يشاركونهم في حياتهم البدوية تلك؛ إخوانهم من أحياء سجيح بن واسين²؛ حيث انطلقوا عبر السفوح المنحدرة من جبل أوراس الجنوبية، وبالتحديد؛ في أرض الزاب؛ وجبل مصاب؛ وعلى امتداد السهوب القبلية للمغرب الأوسط؛ وحتى سجلماسة وفريق غرباً³. وقد خلفوا بقايا لهم في مواطن زناينة الأولى؛ حيث أشار

¹ ((ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد؛ موطنوه منذ العهد الأقدم لأول الفتح؛ معروفون بين ساكنيه. وقد ذكر بعض الأخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب؛ عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس؛ في ولايته الثانية - وهي الغزاة التي هلك في منصرفه منها - وأنهم أبلوا البلاء الحسن؛ فدعا لهم)). العبر، مج: 7، ص: 124. العبر، مج: 7، ص: 124. أنظر أيضاً: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 186.

² تندرج في هذا النمط من الحياة؛ قبائل زناينة أخرى؛ ك: بني مرين، وتوجين، وبني راشد، ومغراوة... إلخ.

³ العبر، مج: 7، ص: 120 - 121.

ابن خلدون؛ إلى فئات منهم في صحراء برقة،
وقصور غدامس، وبلاد الحمة، وبلاد الزاب¹.

ولما تغلب الموحدون على المغرب الأوسط
وإفريقية؛ انضم إليهم بنو عبد الواد، ووقفوا في
صف عبد المؤمن بن علي. بل سارعوا إلى تلبية
طالبه؛ حينما نهب بنو مرين غائمه؛ فلقق بهم
شيخ بني عبد الواد؛ عبد الحق بن متغفاد؛
واسترد أموال الخليفة الموحي بعد أن أئخن في بني
مرين. فغدوا منذئذ ضمن حماة الدولة وأتباعها
المخلصين؛ فأقطعهم عبد المؤمن أراضي التل الخصبة؛
التي كانت من أملاك بن يلومي وبني واماتوا²؛
((كان بنو عبد الواد - من ذلك - فيما بين
البطحاء والملوية؛ ساحله، وريفه، وصحراءه))³.

أما بخصوص دولتهم؛ فقد أئفق عبد الرحمن
ابن خلدون وأخوه يحيى، ومحمد بن عبد الله
التنسي؛ على رواية واحدة⁴ تقريباً؛ عرضوا بها
الكيفية التي أوصلت قبيل بني عبد الواد إلى الملك.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 122 - 123.

² نفسه، ص ص: 150 - 151.

³ نفسه، ص: 159. بغية الرواد، ج: 1، ص: 189.

⁴ نفسه، ص ص: 151 - 154. بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 199 - 200.
تاريخ ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص ص: 112 - 113.

وخلصاً روايتهم هكذا: كان على رأس ولاية تلمسان - سنة 624هـ/1226م - السيد أبو سعيد عثمان؛ شقيق الخليفة الموحي؛ المأمون¹؛ فاعتقل بعض مشائخ بني عبد الواد. بسعاية ونميمة من قبل الحسن بن حيون الكومي المعادي؛ عامل الدولة على تلمسان وأحوازها؛ الذي يُكنّ حقدًا دفيناً وضغينة مأكرة ضد العبد الواديين؛ بسبب تغلبهم على ضواحي تلمسان، وعدم خضوعهم لرغباته². فسعى لفائدتهم إبراهيم بن إسماعيل بن علان الصنهاجي اللمتوني؛ متشفعاً لهم عند السيد أبي سعيد الموحي والي تلمسان؛ ولكن هذا الأخير ردّ شفاعته، ولم يصغ إليه؛ فغضب اللمتوني لذلك، وأنف وتعبّ؛ ثم جمع أنصاره من اللمتونيين، وبادر - من حينه - فقتل عامل الدولة الحسن بن حيون الكومي؛ وسرّح بني عبد الواد من الاعتقال؛ ووضع مكانهم في السجن؛ السيد أبا سعيد. حدث ذلك كله في سنة 624هـ/1226م. غير أنه تدارك

¹ يصفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((وكان غفلاً، ضعيف التدبير)). العبر، مج: 7، ص: 152.

² بغية الرواد، ج: 1، ص: 199. وقال عنه أيضاً عبد الرحمن بن خلدون: ((وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن؛ جرّها ما حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها)). العبر، مج: 7، ص: 152.

الأمر بعد فترة؛ إذ تطلع إلى أفق أبعد؛ حيث طمع في إعادة إحياء الدولة اللتونية¹؛ ولكنه علم أنه لا يمكنه ذلك إلا بإزاحة بني عبد الواد من الساحة؛ بحكم ولائهم للدولة الموحدية، ووفائهم لحكامها. وعندئذ؛ أخذ يتدبر في مكيده يتخلص بها منهم؛ إذ أرسل إلى مشائخ ذلك القبيل؛ يدعوهم إلى وليمة داخل تلمسان؛ وكان غرضه؛ هو قتلهم بمجرد دخولهم البلد. ولكنه فشل في خطته؛ عندما سبقه بنو عبد الواد إلى الإجهاز عليه؛ بعد أن علموا بما دبره. فقبضوا عليه وعلى مرافقيه؛ حين خرج إليهم ليرافقهم إلى داخل المدينة.

وشيخ بني عبد الواد - في تلك الفترة - هو جابر بن يوسف بن محمد بن زكدان (أو زيدان)؛ الذي ينتمي إلى فرع من القبيل المذكور يعرف ببني عطاء الله. تولى جابر أمر تلمسان؛ بمجرد دخوله إليها؛ حيث رفع الدعوة على المنابر للمأمون الموحيدي، وبعث إليه معاناً طاعته؛ فلم يجد المأمون بداً من إسناد هذه إليه بولاية

¹ ((وأجمع الانتقاض، والقيام بدعوة ابن غثية؛ مُجَدِّد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق... فطير الخبر إلى ابن غثية؛ فأغذ السير إليه)).
العبر، مج: 7، ص: 152.

تلمسان، وما يليها من بلاد زناتة. وحدث هذا في عام 627هـ/1229م. فاكْتَسَب - بذلك - بنو عبد الواد شرعية مستمدة من دار الخلافة الموحدية. وبهذا؛ أصبح بنو عبد الواد سادة على تلمسان وضواحيها. وبقي جابر بن يوسف في منصبه إلى سنة 629هـ/1231م. وهي السنة التي قتل فيها؛ أثناء حصاره لمدينة ندرومة. وخلفه - بعد وفاته - ولده الحسن بن جابر؛ ولكنه تخلى عن الحكم - بعد ستة أشهر - لعمه عثمان بن يوسف¹. فلم يبق هذا الأخير في ولايته سوى عامين تقريباً؛ إذ عزل في سنة 631هـ/1233م. وخلفه على تلمسان؛ ابن عمه أبو عزة زكدان (أو زيدان) بن زيان بن ثابت بن محمد. ولكنه قتل سنة 633هـ/1235م؛ جراء فتنة عشائرية؛ بين عشيرته من جهة، وبين بني مطهر وبني علي، وبني راشد من جهة أخرى².

¹ العبر، مج: 7، ص: 153.

² بنو راشد؛ أولاد عمومة لبني عبد الواد؛ وجدهم هو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم بن عبد الواد. أنظر العبر، مج: 7، ص: 150.

قيام دولة بني زيان

وبمقتل أبي عزة زكدان (أو زيدان) بن زيان؛
تولى أمر تلمسان - سنة 633هـ/1235م؛ - أخوه
يَغْمَرَّاسَن¹ بن زيان بن ثابت بن محمد؛ فقهري
المعارضين، وأُخِن في العشائر المتمردة؛ الأمر الذي
ساعد على إخماد نار الثورة والعصيان؛ وبعد ذلك؛
طَبَّب الخواطر، وهدأ النفوس، واسترضى الإخوة
والأقارب من مختلف أحياء بني عبد الواد؛ فسكنت
ثورة بني مطهر، وبني راشد، واجتمعت كلمتهم في
ظُلَّ السلطة العبد الوادية². ولم يطل بيغمراسن
الحال؛ حتى قرَّر الاستبداد والتَّصُل - شيئاً فشيئاً -
عن الدولة الموحدية؛ إذ قطف الثمرة المواتية عند
نضوجها؛ وذلك بإعلان استقلال دولته؛ والاستبداد
بالأمر؛ ولم يترك حينها لبني عبد المؤمن سوى

¹ ولد في سنة ثلاث أو خمس وستمائة هجرية؛ الموافق لعام 1206 أو 1208م. ومات في سن متقدمة؛ وصل بها إلى سن 76 سنة. وربما 96 سنة. أنظر: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 129.
² ((فوق التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار، وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله؛ وكان ذلك سُلماً إلى الملك؛ الذي أورثه بنيه؛ سائر الأيام)). العبر، مج: 7، ص: 154.

الدعاء على المنابر تأنيساً للكافة، ومرضاة للأكفاء؛
كما قال عبد الرحمن بن خلدون¹.

ومنذ أن قرّر يغمراسن الاستبداد والإستقلال عن
الموحدين؛ ولدت دولة بني عبد الواد الزيانية؛
متخدة تلمسان حاضرة لها؛ فجعلت منها مركزاً
إدارياً وسياسياً؛ شمل المغرب الأوسط كله. وقد
عزّز مكانة هذه الدولة؛ ما حظيت به من امتداد
عمرها، وبقائها فترة طويلة؛ بحيث امتدت حياتها
من سنة 633هـ/1235م إلى سنة 962هـ/1554م؛ خلال
العهد العثماني بالجزائر. وبذلك؛ فقد تواجدت في
الخارطة المغربية عموماً، والجزائرية خصوصاً زهاء
قرون ثلاثة كاملة.

كما حدّدت المصادر التاريخية الفترة التي حكم
خلالها مؤسس الدولة الأول؛ يغمراسن بن زيان؛ بـ

¹ ((واتخذ الآلة، ورتب الجنود والمسالح، واستلحق الصاكر من الروم
والغز؛ رامحة وناشبة، وفرض العطاء، واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث
في الجهات العمال، ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي؛ ومحا
من آثار الدولة المؤمنية وعطل من الأمر والنهي دستها؛ ولم يترك من
رسوم دولتهم، وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابر الخليفة بمراكش؛
وتنول التقليد والعهد من يده تأنيساً للكافة، ومرضاة للأكفاء من
قومه)). العبر، مج: 7، ص ص: 162 - 163.

48 سنة وخمسة أشهر واثنى عشر يوماً¹. (من 633 هـ/1236م إلى 681 هـ/1283م). علماً بأن هذه السنوات كلها؛ لم تعد الدولة العبد الوادية (الزيانية) - في عهد يغمراسن - ولم تضاف إليها أي شكل من أشكال الرفاهية الممكنة، أو فترة من فترات الهناء الممتعة، أو لحظة استرخاء وأمان؛ بل عانت الدولة - طوال عهده - من أهوال وحروب؛ ألهمت الديار المغربية كافة بنار الفتن والدمار؛ حيث زُجّت الدولة المذكورة في مواجهات دامية مع خصوم أقوياء؛ ك: بني مرين، وبني أبي حفص، والموحدين، وبني توجين، ومغراوة، وأعراب بني هلال.. إلخ.

وجملة القول؛ فدولة بني عبد الواد - كغيرها من دول المنطقة في ذلك العصر - تكاد تكون دولة قبلية؛ تهيمن عليها روح القبيلة، وتتميز بالطابع القبلي الواضح. وعليه فقد أضحت ساحة للصراع بين نظام قبلي متحجر؛ رافض لكل جديد يقضي على مصلحة القبيلة وأبنائها، ومانع لأيّ نظام يسعى لتوحيد القبائل، وإخضاعها لسلطان الدولة التي تسهر

¹ جعلها يحيى بن خلدون: 44 سنة؛ وسار على قوله التنسي؛ لأنه نقل عنه. وقد صحح ذلك الخطأ محمود بو عياد محقق الباب السابع من نظم الدر والعقيان. أنظر بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 129.

على المصلحة الجماعية للفئات المتواجدة بها؛ سواء كانوا قبائل أو أفراداً¹.

وبسبب ذلك؛ مرت الدولة العبد الوادية (الزبانية) بظروف قاسية، وشديدة الاضطراب؛ لم تمكنها من الاستقرار والازدهار؛ لأنها ربطت مصيرها بمصير نظام قبلي؛ لا يقبل التغيير والتجديد. وعلى هذا؛ فقد غدت جلّ القبائل المنتمة للدولة؛ تؤثر في مؤسساتها، وتتحكم في حركة نموها، ومقاس نجاعتها. ومن هنا؛ يمكن حصر أدوار حياة هذه الدولة؛ ضمن أربعة أدوار تاريخية كبرى هي:

¹ أنظر كتاب: دولة بن زيان (أوضاع سياسية ونظم).

الدور الاول

وهو دور النشأة والعنفوان. دام هذا الدور مائة وأربع سنوات (633هـ/1235م – 737هـ/1336). بدءاً بالتاريخ الذي أعلن فيه قيام الدولة المعنية؛ وحتى تاريخ سقوط تلمسان في قبضة أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1336م؛ ومقتل السلطان العبد الوادى أبي تاشفين عبد الرحمن الأول ابن أبي حمو موسى الأول. وتداول على الحكم في تلمسان – خلال هذا الدور التاريخي – خمسة ملوك؛ هم: يغمراسن بن زيان (حكم من 633هـ/1235م إلى 681هـ/1283م)، وأبو سعيد عثمان بن يغمراسن (من 681هـ/1283م إلى 703هـ/1303م)، وأبو زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن (من 703هـ/1303م إلى 707هـ/1308م)، وأبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن (من 707هـ/1308م إلى 718هـ/1318م)، وأبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن (من 718هـ/1318م إلى 737هـ/1337م).

كما يتميز أن هذا الدور بروح العصبية العبد الوادية الجياشة؛ التي منحت الدولة قوة وتماسكاً عظيمين؛ ظَهَرَ في المقاومة الشديدة للأعداء، وفي وحدة الصّف، والتفاني في الدفاع عن سلامة الدولة، وفرض وجودها، وإبراز كيانها. لأن الدولة - هنا - في مستقبل عمرها، وقمة عزّها؛ إذ كانت تتميز بعصبية فياضة؛ تمتن اللّحمة، وتثير النُّعرة، وتشحذ الهمم. حيث كان العبد الواديون - في هذا الدور - غير بعيدين عن طبيعتهم الأولى؛ المنشبعة بروح البداوة الخشنة؛ والقدرة على التّكليف مع شدائد الحياة، والصبر في الخطوب، والاكتفاء بالضروري من وسائل العيش ولوازم الحياة.

دولة يغمراسن بن زيان

أما بخصوص أول ملوكهم؛ (يغمراسن بن زيان)؛ مؤسس هذه الدولة؛ فقد كان يتحلى بخلال وصفات عالية، ويحظى بخلق حميدة جليلة، وبساطة مظهر بادية، وسذاجة في الحياة سائدة؛ وشجاعة صادقة، ورئاسة فاعلة، وحماسة جامحة، ومواهب قيادية سامية، ويد مبسطة بالجوهر جارية، وفروسية بالعظام سائرة، وبطولة غالبية، وبسالة فائقة.¹

تولى يغمراسن الرئاسة؛ بعد مقتل أخيه أبي عزة زكدان أو (زيدان) بن زيان؛ جراء الفتن المتوالية المشتعلة بين بطون بني عبد الواد. فتمكن بفضل حزمه وبسالته من ضبط الأمور؛ والتغلب على الصعاب والموبقات كلها؛ حيث أخضع - بالقوة حيناً، وباللين حيناً آخر - كل المتمردين والمنشقين عن القبيلة الأم. ولمّا حقق مبتغاه في جمع الشمل،

¹ وقد وصفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((كان يَغْمَرَا سَنُ بن زيان ابن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرئاسة؛ مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده؛ وكان مرموقاً بعين التجلة، مزملاً للأمر عند المشيخة، وتَعْظِمة من أمره عند الخاصة، ويُقَرَّع إليه في نواب العامة)). العبر، مج: 7، ص: 162.

ونجح في استرضاء أحياء بني عبد الواد كلهم؛ تحول إلى بناء دولتهم الخاصة؛ حيث شرع في تعزيز أسسها، وبلورة شكلها. وبدأ بالخطوة الأولى؛ التي تجلت باستبداده نهائياً، وانفراده بالحكم دون الخليفة الموحي؛ جاعلاً من تلمسان حاضرة للمملكة، ونقل مرتبتها من مجرد مقر عمالة أو ولاية إلى دولة سيّدة؛ لا تربطها مع الموحدين سوى خيوط رفيعة من الولاء؛ تتمثل في الخطبة على المنابر، وكتاب التقليد الشكلي؛ ((مرضاة للأكفاء وتأسيساً للكافة))¹. ومع هذا فقد وجد تفهماً - عن مضض - من قبل الخليفة الموحدي الرشيد؛ الذي اضطر إلى مسايرة التيار؛ والحفاظ على ما بقي من روابط بين دولته وبني عبد الواد في تلمسان. بل تطورت علاقته مع يغمراسن إلى مستوى المجاملة والتراسل وتبادل الهدايا. غير أن هذا السلوك أثار غضب السلطان الحفصي أبا زكريا؛

¹ وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ومحا من آثار الدولة الموحية، وعطل من الأمر والنهي دستها؛ ولم يترك من رسوم دولتهم، وألقاب ملكهم إلا الدّعاء على منابر الخليفة بمراكش؛ وتناول التقليد والعهد من يده تأسيساً للكافة، ومرضاة للأكفاء من قومه)). العبر، مج: 7، ص ص: 162 - 163.

نضراً لطمعه وطوحه في امتلاك مراكش، والانتصاب على سدة الخلافة الموحدية.

– الغزو الحفصي لتلمسان:

ومن هنا؛ انطلقت بوادر الخصومة والاختلاف بين هذا الأخير ويغمراسن؛ الذي أصرّ على التمسك بعهوده مع الخليفة الرشيد. فانجر عن ذلك كله؛ نشوب حرب حامية الوطيس بين السلطان الحفصي وسلطان بني عبد الواد. انتهت باستيلاء الحفصيين على تلمسان؛ ولكنهم عجزوا عن حمايتها بصورة دائمة؛ فاضطر أبو زكرياء إلى عقد صلح مع يغمراسن؛ في مقابل رفع الدعوة على منابر تلمسان باسمه. كما قدم ليغمراسن أسهما وإقطاعات بإفريقية؛ تصل قيمة جبايتها إلى مائة ألف دينار؛ ترضية له، ورغبة منه في إبعاد يغمراسن عن الخلافة بمراكش.

— مقتل الخليفة السعيد:

وهكذا.. أدى هذا الاتفاق بين **يغمراسن** وأبي زكرياء إلى نشوب حرب أخرى بين الخليفة الموحي الجديد **السعيد ويغمراسن بن زيان**؛ انتهت بمقتل الخليفة المذكور، وانتصار **العبد الواديين**.

ويبدو أن لعبة الحرب أضحت حيوية ومصيرية بالنسبة ل**يغمراسن**؛ الذي أدمن الحرب؛ ولم يعد يشغله شيء عن ميادين القتال، وعويل الوغى؛ فانغمس في يَمّها راضياً أم مرغماً؛ حيث توالى الوقائع بينه وبين خصومه ومناقسيه غرباً وشرقاً وجنوباً؛ ممثلين ببني **مرين** وبني **توجين**، ومغراوة، ثم أعراب بني **هلال المجاورين لتلمسان**.

وعلى الرغم من قلة عدد بني **عبد الواد**،¹ وضعف مواردهم الاقتصادية؛ فقد صمدوا بإصرار أمام أعدائهم الأقوياء؛ منهم بالخصوص: **الموحدون**،

¹ أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا؛ حين قال: ((ثم اعتُبر بعد ذلك حال الدولتين - لهذا العهد - لزناتة: بني **مرين**، وبني **عبد الواد**؛ لما كان عدد بني **مرين** - لأول ملكهم - أكثر من بني **عبد الواد**؛ كانت دولتهم أقوى منها؛ وكان لهم عليهم الغلب؛ مرة بعد أخرى. يقال أن عدد بني **مرين** - لأول ملكهم - كان ثلاثة آلاف؛ وإن بني **عبد الواد** كانوا ألفاً؛ إلا أن الدولة، وكثرة التابع؛ كثرت من أعدادهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 645.

والمرينيون. إذ كبح يغمراسن جماح الموحدين بعد هزيمتهم أمامه، ومقتل خليفتهم السعيد؛ كما صدّ تحرّشات وهجمات المرينيين، ومنعهم من الاستيلاء على تلمسان والتوسع شرقاً؛ فأفقدتهم روح الحسم في القتال؛ بإطالة فترة الحرب معهم؛ فتأججت العداوة بين القبيلتين وتوالى الوقائع بينهما؛ إلى أن توفي يغمراسن سنة 681هـ/1283م. أثناء خروجه لاستقبال عروس ابنه أبي سعيد عثمان.

— الإنجازات العمرانية والثقافية:

ومن جهة أخرى؛ لا بد من الإشارة إلى بعض الإنجازات المدنية ذات الطابع الحضاري والثقافي؛ التي شارك في تحقيقها السلطان يغمراسن؛ على الرغم من انهماكه التام في ترتيب الشؤون العسكرية لدولته، وانشغاله المستمر في حبك الحروب والانغماس في معامعها الصاخبة. ومن بين تلك المنشآت التي أجزها هذا السلطان في تلمسان: أسوار باب كشوط الشامخة التي شيدها في سنة 665هـ/1265م، ثم

الصومعتان الخاصتان بالجامعين الأعظمين بـ: تكرارات،
وأغادير¹.

كما عرف عنه تعظيمه للعلماء، وإجلاله
للأولياء والصالحين؛ حتى قيل أنه يسافر إليهم حيث
يعتكفون، ويستجدي دعاءهم، ويتمسح بعتباتهم؛ ويتبرك
بهم². وثبت أيضاً تنقله بنفسه إلى مجالس العلماء؛
تعظيماً لمرتبتهم وتقديراً لعلمهم. وهذا السلوك ورد في
بعض المصادر. من ذلك؛ ركوبه للشيخ الفقيه أبي
إسحاق إبراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي؛
وجلوسه أمامه بين العلماء والطلبة؛ طالباً منه -
بالإحاح - البقاء والإقامة في تلمسان؛ حيث أقطعه
إقطاعات ثمينية؛ وقربه، وخصّه بسفارته³.

¹ ((وقد اسـُـوُذن في كتب اسمه بهما؛ فقال بالزناتية: "يسنت ربي"؛ أي
عرفه الله؛ علوّ همة، وحسن ظن بالخالق، وإعراضاً عن التفاضل
الدنيوي)). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207.
² ((وكان كثيراً ما يجالس الصلحاء، ويكثر من زياراتهم؛ وارتحل لزيارة
الولي الشهير أبي البيان واضح في موضعه بجبل أقرشان؛ متلمساً بركته،
والدعاء له ولعقبه)). تاريخ بني زيان (نظم الدرر)، ص: 126.
³ ((وله في أهل العلم رغبة عالية؛ يبحث عليهم أين ما كانوا،
ويستقدمهم إلى بلده، ويقابلهم بما هم أهل له. ومن أعلم من كان في زمانه
أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي؛ كانت الفتوى تأتيه
من إفريقية وتلمسان إلى تنس؛ فكان أمير المسلمين يفراسن يكتبه
كثيراً، ويرغبه في سكنى تلمسان؛ ويمتنع؛ إلى أن نشأت فتنة مغراوة؛
فورد مرة على تلمسان... فبلغ خبره أمير المسلمين؛ فركب بنفسه،
وجاء إليه... فقال له أمير المسلمين: "نحن لا ندعك ترجع؛ ولكن نرسل

ونظراً لتقديره لأهل العلم؛ فقد سعى إليه بعضهم، واختاروا الاستقرار بتلمسان. ومنئذ أضحت هذه المدينة تستقطب مشاهير العلماء والأدباء؛ ك: محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسى؛ الذي ولاه يغمراسن خطة الكتابة لديه، ورفع منزلته؛ فاستأنس بجوار يغمراسن؛ حتى أنه رفض عرضاً مغرياً؛ قدمه إليه المستنصر الحفصي¹. وهذه بعض أسماء علماء الدين والمتصوفة في عصر يغمراسن بن زيان:

1 - أبو عبد الله محمد بن عبد الله الكتامي الشهير بالخضار. ولد بتلمسان في عام 609هـ/1212م. وسمع بسبّة على الرئيس أبي القاسم العزفي كتابيه: "سير رسول الله صلى الله عليه وسلم"، "والدر المنظوم. رحل إلى الأندلس والمشرق؛ أين أخذ العلم

إلى أهلك من ينقلهم إلينا"؛ فكان كذلك؛ وأقطعه أمير المسلمين إقطاعات من جملتها "تيرشت"؛ التي أقطعت - بعد انقراض عقبة - لابني الإمام. وكان عنده أثر المنزل؛ لا يوجه في الرسائل غيره)). تاريخ بني زيان (نظم الدر)، ص: 126 - 127.

¹ قال لسان الدين بن الخطيب في ذلك: ((زعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا استقدمه - على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء - وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين؛ فاعتذر، ورد عليه المال. وكانت أشق ما مرّ على المستنصر؛ وظهر له علوّ شأنه، وبعد همته)). الإحاطة في أخبار غرناطة؛ القسم الثالث، ص: 90.

عن بعض الشيوخ في تلك الديار. وتوفي بسبّنة سنة 667هـ/1268م.

2 - أبو الحسن علي بن الخضار التلمساني: وهو أخ لأبي عبد الله السابق الذكر. قالت المصادر أنه إمام ومقرئ؛ وصفه بأنه حافظ، ويحكم القراءات. أخذ على عليّ بن عبد الكريم التلمساني؛ ثم انتقل إلى مدينة سبّنة؛ أين تولى الإقراء بها. وتوفي بين أحضانها في سنة 677هـ/1278م.

3 - أبو اسحاق بن يّخلف بن عبد السلام التنسي. وهو من أفاضل العلماء، والصالحين من الأولياء والزهاد؛ له منزلة جليلة، وقدر عظيم؛ في حياته ومماته، احتل مكانة سامية لدى الملوك والأمراء. له تأليف عديدة. رحل إلى الحج، ثم عاد إلى تلمسان؛ أين توفي في حدود سنة 680هـ/1281م؛ ودفن بالعباد.

4 - الفقيه القاضي الرئيس أبو محمد عبدون بن محمد الحباك الصنهاجي. فقيه وخطيب. ولاه يغمراسن ابن زيان خطة الحجابة في الدولة؛ فكان لدى أبي يحيى يغمرايسن بن زيان بمثابة رئيس للوزراء. فكان الرجل المناسب في المكان المناسب؛ إذ اتصف بالرأي السديد والحكمة السياسية. واعتبره يحيى بن

خلدون المستشار الأنصح والحاجب الأقرب للسلطان
يغمراسن بن زيان. وقال أيضاً: ((وله بالبلد خلف
نمط التجار أخيار، رحمة الله عليه وبرد ضريحه))¹.
لا يعرف تاريخ وفاته؛ كما لم تشر المصادر؛ أن
يغمراسن استبدل حاجبه، وكل ما في الأمر أنه لم
يتول هذا المنصب في عهد عثمان بن يغمراسن؛
مما يدل أنه توفي في عهد يغمراسن. أي قبل
681هـ/1282م.

5 - أبو عبد الله محمد بن عيسى. فقيه وصوفي
من أهل الصلاح؛ نشأ في أفادير بتلمسان؛ وعاصر
يغمراسن بن زيان في القرن السابع الهجري. ويقول
يحيى بن خلدون أن يغمراسن كان يزوره في داره؛
تبركاً به، والتماساً لدعائه. رحل إلى الحج مرات
عديدة؛ قدرت بخمس وعشرين حجة. لا يعرف يوم
مماته بالضبط.

6 - أبو الحسن علي بن عبد الكريم التلمساني.
هو من أهل تلمسان؛ مقرئ. أشاد به كل من
عرفه. ونوهوا بقدراته في القراءات. وقالوا أنه أخذ
القراءات عن فتح بن عبد الله المرادي صاحب

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 125. أنظر أيضاً: ص: 205.

ابن هذيل؛ كما قرأ عليه الحافظ أبو الحسن علي بن محمد التلمساني المعروف بابن الخضار. ونظراً لكون صاحب الترجمة قد قرأ على أبي الحسن علي بن الخضار؛ الذي توفي في عام 677هـ/1278م؛ يكون قد عاش في زمنه أي في الفترة التي حكم فيها يغمراسن بن زيان.

7 - الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني. ولد في حدود عام 629هـ/1231م. استوطن جدّه - المدعو مرزوق - تلمسان في عهد المرابطين. فسكنها، وخلف نسله في ثراها؛ فنشأوا بها، وتعلموا فيها؛ كما احترفوا الفلاحة في أراضيها الخصبة. فكانوا جميعاً أهل صلاح ووجاهة، وتدين. وكان الفقيه أبو عبد الله - صاحب هذه الترجمة - من الأولياء وأهل الصلاح والفضل؛ وكان محدثاً وفقهياً ومتصوّفاً، زاهداً، عابداً، مجاب الدعاء؛ ويقال أن له كرامات ومكاشفات وآثار في الترهيب والعلم شهيرات. وممن أخذ عنهم: أبو زكرياء يحيى بن محمد بن عصفور العبدي، وأبو إسحاق إبراهيم بن خلف ابن عبد السلام التنسي، والشيخ الصالح أبو عبد الله الكفيف، وأبو عبد الله المالقي، والفقيه أبو عبد الله

محمد بن اللجام، والفقيه أبو زيد اليزناسني. وكل هؤلاء من أبناء تلمسان؛ شهد لهم بالعلم والدين. وتوفي صاحب الترجمة في أوائل رجب الفرد سنة 681هـ/1282م؛ أي بعد أشهر من وفاة يغمراسن بن زيان؛ فدفن بجواره في دار الراحة من الجامع الأعظم؛ تطبقاً لوصية هذا السلطان بذلك؛ تبركا بجواره.

8 - الولي الصالح أبو الحسن علي بن النجارية. ذو الزهادة في الدنيا والإقبال على الآخرة، قبره إزاء قبر أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان، قصد التبرك بجواره. لا يعرف تاريخ وفاته بالضبط. وربما تكون حدثت قبل وفاة ذلك السلطان الزياني.

9 - الشيخ الخطيب أبو عثمان سعيد بن بن إبراهيم بن علي الخياط. عرف بابن سبعين. اختار سبيل التصوف؛ فلبس الخرقة ضمن طريقة أبي العباس الرفاعي، كما اختار طريقة أبي مدين شعيب في التصوف. لا يعرف تاريخ وفاته.

10 - الصالح أبو العباس أحمد بن الخياط. وهو أخ لصاحب الترجمة السابقة (أبي عثمان). ويعتبر من بين الصالحاء الاعلام. عرف بمداومة تلاوة كتاب الله تعالى؛ وكان عالماً به. قال يحيى بن خلدون:

((ثقفه السلطان أبو يعقوب المريني، فلما كُبل تكسرت عنه القيود، وألْفَى بالسجن أزيد من سبعمائة رجل؛ فأخذهم بالقراءة، والصلاة؛ فكان أمرهم في ذلك عجباً. وكان الناس يقصدونه بالسجن لتجويد القرآن))¹.

11 - الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن علي الخياط. هو ولد صاحب الترجمة الأولى (أبي عثمان). كان رجلاً صالحاً، يسترزق من مهنة الخياطة. ويحب عمل الخير، كما يشفق على أصحاب الحاجة. فكان يسعى لقضاء حاجاتهم لدى السلطان يغمراسن؛ فيقضيها له. فامتعض بعضهم منه؛ لأنه كما قال يحيى بن خلدون: ((كان يكثر الدخول على أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان؛ لقضاء حوائج الناس - فربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة - فقليل لأمير المسلمين في ذلك؛ فقال: دعوه؛ فهو رحمة للناس؛ وما قضى الله تعالى يقضيه؛ والله لا أبرمته. رحم الله السلطان، ونفع بالشيوخ))². توفي بتلمسان في تاريخ غير معلوم. المهم أنه في عهد يغمراسن بن زيان.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 117 - 118.
² نفسه، ص: 118.

12 - الفقيه الصالح العاكف أبو عبد الله ابن البلد.
ذكره يحيى بن خلدون؛ وصفه بين كبار الأولياء
المتقشفين، وقال أنه: ((لم يعد لباس الصوف
الخشن، وأكل الشعير من فضل صدقته بثمان ما
ينتسخه بيده))¹. وقبره رحمه الله بمسجد صالح من
العباد. تاريخ وفاته غير معروف.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 119.

دولة عثمان بن يغمراسن

أما السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن؛ فقد خلف والده بعد وفاته؛ سنة 681هـ/1282م؛ فحرص على ضبط أمور دولته، وتمهيد الجهات الشرقية؛ حتى أسوار بجاية. وفي سنة 684هـ/1285م - بادر إلى مخاطبة ملك بني مرين يعقوب بن عبد الحق؛ عارضاً عليه السلم والمصالحة؛ عملاً بوصية والده يغمراسن الذي حثّه على مسالمة سلاطين بني مرين، وتجنب الاحتكاك بهم والابتعاد عن مخاصمتهم؛ والاكتفاء بالتوسع نحو الشرق¹. فاتخذها

¹ قال ابن خلدون: ((حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله الأبلبي؛ قال: سمعت من السلطان أبي حمو موسى بن عثمان - وكان قهرماناً بداره - قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان - ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم - فقال له: يا بني؛ إن بني مرين؛ بعد استفحال ملكهم، واستيلائهم على الأعمال الغربية، وعلى حضرة الخلافة بمراكش؛ لا طاقة لنا بلقائهم؛ إذا جمعوا لوفود مددهم. ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم؛ لمعرفة النكوص عن القرن؛ التي أنت بعيد عنها. إياك واعتماد لقائهم؛ عليك باللياذ بالجدران؛ متى دلفوا إليك؛ وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جلورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكأى حشد العدو بحشدك؛ ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلاً لأخيرتك. فعلقت وصية الشيخ بقلبه، واعتقد عليها ضمائره،

عثمان نهجاً واستراتيجية التزم به؛ ولكن النزعة التوسعية لبني مرين أفسدت مسعاه. إذ هادنوه في وقت احتاجوا هم فيه إلى المهادنة؛ أيام انشغالهم بالتوسع في بالأندلس. ولما زالت الحاجة إلى ذلك عاودوا التحرش ببني زيان؛ حيث قام يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بخمس غزوات ضد تلمسان؛ انتهت كلها بالفشل؛ وانجلت عن مهلكه بيد أحد عبيده أثناء حصاره الطويل لتلمسان¹.

— حصار تلمسان الاكلام:

وبدأت حكاية حصار هذا السلطان المريني لتلمسان باختلاق ذرائع ومسوغات. أهمها أنه طلب من السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن تسليمه بعض اللاجئين المرينيين إلى تلمسان. فأبى السلطان الزياني إخفار ذمته؛ وقال: ((والله؛ لا أسلمه أبداً، ولا أبيع حرمتي، وأترك من استجارني حتى أموت؛ فليصنع ما بدا له))².

وجنح إلى السلم مع بني مرين؛ ليفرغ عزمه لذلك)). العبر، مج: 7، ص 189 - 190. أنظر أيضاً: ص: 443 - 444.

¹ العبر، مج: 7، ص: 196 - 201.

² الأتيس المطرب، ص: 393.

ويقول عبد الرحمن بن خلدون؛ أن رسول السلطان المريني أغلظ في القول إلى السلطان عثمان: ((فسطاً به، واعتقله؛ فثارت من السلطان الحفاظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة والتوترات المتواترة؛ واعتزم على غزو تلمسان))¹. وهذه الحادثة تثير الذاكرة، وتحيلها إلى قصة في عصر آخر؛ عرفت بقصة المروحة؛ بين داي الجزائر والقنصل الفرنسي؛ وتؤكد أن من أراد الحرب، ونوى الغزو؛ لن يعدم حيلة أو ذريعة يعلن بها عن قراره.

وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب من جديد بين الدولتين: المرينية والزيانية. ويبدو أن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق كان ينتظر الفرصة المواتية لإعادة الكرة مع بني عبد الواد؛ لذا فقد اختطف هذه المناسبة الذهبية - ولو لم تتوفر؛ لحاول إيجاد ذريعة أخرى لتحقيق أهدافه - لأن نزعة التوسع شرقاً مسيطرة على السلاطين المرينيين؛ بل تتحكم في نواياهم وأهدافهم؛ فهي استراتيجيتهم التي يتطلع إلى تحقيقها سلاطينهم كافة؛ صغيرهم وكبيرهم. وعلى هذا؛ فقد كرّر الغزو نحو

¹ العبر، مع: 7، ص: 442.

تلمسان خمس مرات؛ بدأها بسنة 689هـ/1290م؛ حيث حاصر المدينة مدة أربعين يوماً دون جدوى؛ فصبّ جام نغمته على الزرع والعمار؛ فقطع الأشجار؛ وهدم الآثار، وخرب القرى في الأرياف؛ ثم عاد إلى حاضرة ملكه بالمغرب الأقصى. وكان قد استعان في عيئه بقبائل مغراوة الوافدين عليه. فلما عاد إلى بلاده؛ خرج عثمان بن يغمراسن إلى ديار مغراوة؛ فشن عليها حملة انتقام؛ أتت على الأخضر واليابس؛ وأجلاهم إلى متيجة؛ بعد أن ترك ابنه أبا حمو موسى في شلف؛ لمراقبتهم، وكبحهم.

ونظراً إلى رغبة يوسف بن يعقوب المريني الملحة إلى الاستيلاء على تلمسان؛ فقد تكررت غزواته نحوها؛ حيث توالى واحدة بعد أخرى دون جدوى، إذ فشل هذا السلطان المريني في تحقيق مراده خلال غزواته الخمس: أولها سنة: 689هـ/1290م، والثانية سنة 695هـ/1295م، والثالثة سنة 696هـ/1296م، والرابعة سنة 697هـ/1297م، والخامسة سنة 698هـ/1298م. كلها خابت، ولم يتمكن بها من اختراق جدران تلمسان المحصنة بالأسوار العالية، والأبراج الشامخة المتينة.

غير أن الحملة الأخيرة؛ التي بدأت في سنة 698هـ/1298م؛ أضرت بتلمسان كثيراً؛ حيث لحق ببني عبد الواد ضرراً عظيماً؛ إذ دام الحصار خلالها ثماني سنوات وثلاثة أشهر متوالية وبدون انقطاع. فكان هذا الحصار فريداً في نوعه؛ إذ اتصف بطول أمده وضراوته. وبالمقابل؛ تميز بشدة صبر العبد الواديين، وصراحتهم، وإيائهم، وصدق مقاومتهم، وتقانيهم في صدّ عدوهم. فضربوا بذلك رقماً قياسيًّا في شدة الاحتمال، وصدق النضال: ((واستمر حصاره [أي يوسف بن يعقوب المريني] إياهم إلى تمام ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله. نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم))¹.

أما شكل الحصار وخطته؛ فيمكن تلخيصها هكذا: قام السلطان المريني بتطويق مدينة تلمسان من جميع جهاتها؛ ثم شرع في بناء مدينة محاذية لها سماها المنصورة؛ جعلها مستقراً له ولجيشه. والهدف من ذلك هو التمكن من مطاولة المحاصرين، وخنق تلمسان؛ حتى تستلم مع الزمن.

¹ العبر، مج: 7، ص: 197.

ومع هذا؛ لم يبق مكتوف الأيدي أمام تلمسان؛
حتى تفتح أبوابها؛ بل قام - خلال إنجاز مدينة
المنصورة - بتمهيد الجهات الشرقية، وإخضاع أتباع
بني عبد الواد في تلك الديار؛ فلم يترك مدينة إلا
واستسلمت له، وبلغ في زحفه إلى مشارف بجاية؛
حيث ضمن طاعة بني توجين كافة، ومغراوة كلها.
وبذلك وسّع نطاق الحصار إلى أبعد مدى، وعزل
مدينة تلمسان عن محيطها الحيوي؛ فشمّل بذلك
الاستقطاب والهيمنة: ندرومة، وتامزدكت، وهنين،
وهران، والقصبات، ومزغران، ومستغلام، ومازونة،
وتنس، وبرشك، وشرشال، والبطحاء، ووانشريس،
ومليانة، ولمدية، والجزائر، وتافركنيت¹؛ ((وذكره
الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية، وملوك
تونس؛ فمدوا إليه يد المواصلّة ولاطفوه بالمتاحفة،
والمهاداة؛ وخاطب صاحب الديار المصرية - ملك
الترك - وهاداه، وراجعه كما نذكره. ووفد عليه
شرفاء مكة بنو أبي نمي كما نذكر. وهو في خلال
ذلك مستجمع لمطوالة الحصار والتضييق))².

¹ الأتيس المطرب، ص: 367.

² العبر، مج: 7، ص: 458.

ولكن الله شاء بغير ما حلم به يوسف بن يعقوب المريني؛ حيث قتله - في ليلة من الليالي - أحد خصيائه - اسمه سعادة - بواسطة خنجر؛ بعد أن تسلل إلى مخدعه؛ فهلك لوقته؛ وفي سنة 706هـ/1306م¹. وبموته تفرق الجمع، وانفض الحصار؛ إذ سارع المتنافسون على العرش المريني للالتحاق بفاس؛ لترتيب شئون الحكم².

ومن غرائب الصدف؛ أن السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن توفي هو الآخر أثناء هذا الحصار؛ وقبل السلطان المريني بسنوات ثلاث تقريباً. إذ ورد في المصادر أنه توفي في سنة 703هـ/1303م؛ عن عمر حدد بأربع وستين سنة.

أما موت السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن؛ فقد اختلف المؤرخون في سببها المباشر. فبينما يعتقد بعضهم بأنه توفي جراء نزلة برد؛ بعد خروجه من الحمام؛ يقول آخرون أنه انتحر؛ والله أعلم. وإذا ما صح هذا السبب الأخير؛ فإن السلطان الزياني هذا؛ يكون قد سلك النهج نفسه الذي اختاره من قبل أسلافه من الملوك الأمازيغ.

¹ الأتيس المطرب، ص: 368. العبر، مج: 7، ص ص: 484 - 485.

² العبر، مج: 7، ص ص: 485 - 489.

الذين اختاروا وضع نهاية لحياتهم؛ منعاً للعار؛
الذي سيلحق بهم لو أسروا من قبل العدو. وبذلك
يكون عثمان بن يغمراسن قد انتجم مع غيره من
بني جنسه من الملوك في سالف الدهر؛ مثل:

— يوبا الأول؛ الذي أنهى حياته؛ بعد هزيمته أمام
القيصر سيزار سنة 47 قبل الميلاد.

— وفيرموس؛ الذي قتل نفسه سنة 375 ميلادية؛ بعد
هزيمته أمام القائد الروماني تيودوز، وخيانة أصحابه
له.

— وجيلدون سنة 395 ميلادية؛ بعد أن تغلب عليه
جيش روما؛ الذي قاده أخوه مقزبل؛ من أجل
روما.

— وأمير مغراوة محمد بن الخير بن محمد بن
خزر سنة 260هـ/873م؛ الذي ذبح نفسه؛ بعد
هزيمته أمام بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي.

أما السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن؛ فقد
اتفق — بخصوصه — يحيى بن خلدون، والتنسي
على رواية واحدة؛ مفادها أنه أصيب بنوبة برد؛
بعد خروجه من الحمام. بينما أورد عبد الرحمن بن
خلدون رواية مغايرة؛ جاء فيها: أنه هلك بالسم؛

بعد خروجه من الديماس¹. حدث ذلك في السنة الخامسة من سنوات الحصار؛ وبالتحديد؛ في يوم السبت؛ غرة ذي القعدة من عام 703هـ/1303م.

— العمران والثقافة:

وواضح أن السلطان أبا سعيد عثمان استفاد ممن كانوا في خدمة أبيه من العلماء والأدباء والكتاب؛ غير أنه اختص بشاعر المائة السابعة الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس؛ الذي ولّاه كتابة الإنشاء. ومع هذا فقد وصف أبو عبد الله محمد العبدري الحلي في رحلته الأوساط العلمية والأدبية في تلمسان — التي زارها في عصر أبي سعيد عثمان — بالضحالة والجذب؛ وهذه الصفة نعت بها مدن المغرب الأوسط كافة؛ وواضح أنه لم يكن منصفاً في

¹ الديماس هنا: هو الحمام. وقال عبد الرحمن بن خلدون: ((أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الأبلّي - وكان في صباه قهرمان دارهم - قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس. وكان قد أعد لشربه لبناً؛ فلما أخذ منه الديماس، وعطش؛ دعا بالقدح، وشرب اللبن، ونام؛ فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم؛ تفادياً من معرفة غلب عدوهم إياه)). العبر، مج: 7، ص: 196 - 197. أنظر أيضاً: بغية الرواد، ج: 1، ص: 201. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 131.

أحكامه التعسفية. وفيما يلي عرض لأسماء بعض علماء الدين والمتصوفة؛ الذين عاشوا في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن وابنه أبي زيان محمد. على أن يترك أمر الشعراء والأدباء للأجزاء اللاحقة من الكتاب.

1 - إبراهيم الطيار الغوث؛ (أبو إسحاق). يُعد من كبار الأولياء، ومن العاملين بجد على تعليم كتاب الله عز وجل. قالوا أنه لم يضطجع أربعاً وعشرين سنة؛ اقتصر فيها على قيام الليل، وصوم النهار. وقال المقرئ نقلا عن محمد بن مرزوق عن أصحاب لصاحب الترجمة: ((إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلا قاعداً. فسألت ابن مرزوق: لم لقب بالطيار؟ فحدثني عن بعض أصحابه؛ أنه نشر ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح؛ ثم قعد هنالك. فمر به رجل؛ فقال له: "طير؛ فقال: "أعن أمرك؟" قال: "نعم؛ فطار حتى وقع على الأرض وما به باس))¹. ومات قبل دخول سنة 700هـ؛ فدفن بالعباد.

¹ نفع الطيب، ج: 5، ص: 260.

2 - **الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عصفور**. تولى القضاء في عهد عثمان بن يغمراسن. وهو من قضاة العدل والفضل؛ احتل مكانة مرموقة بين القضاة الرؤساء؛ من المتصفين بالفضل والدين. وهو غير الذين عرفوا باسم "ابن عصفور كشيخ لسان الدين بن الخطيب المدعو باسم أبي زكرياء يحيى ابن عصفور؛ المحدث الساكن بتونس. أو أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور العبدري تلميذ أبي عبد الله بن عبد الحق، وشيخ أبي العباس الصدي الشاطبي، وابن الأبار، وأبي عبد الله بن مرزوق.¹

3 - **الشيخ أبو الحسن التنسي**. وهو أخو الشيخ أبي إسحاق؛ أثير يغمراسن بن زيان. ويعتبر من كبار العلماء العاملين. حظي لدى الملوك والعامّة بمكانة جليلة. يتصف بالورع والتقوى. كلف بالسفارة بين ملوك المغرب والمشرق؛ فلحقته أضرار من هذه المهمة؛ إذ اتهم أيام الحصار الأول لتلمسان (وقع في سنة 689هـ/1290م) بالميل إلى الأعداء؛ فخرج من المدينة، والتحق بالسلطان المريني أبي يعقوب يوسف؛

¹ أنظر تعليق محقق الجزء الأول من كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص: 153.

الذي أكرمه وبالغ في الاحتفاء به. وبقي لديه إلى أن
مات؛ فدفن بالعباد.

دولة

ابي زيان محمد بن عثمان

وبعد وفاة السلطان عثمان؛ خلفه ولده أبو زيان محمد؛ الذي يتحلى بمزايا أبيه عثمان بن يغمراسن من حيث الصرامة، والحزم، والصبر على المكاره، والإصرار في المواقف. تولى الأمر بعد وفاة والده في مخدعه؛ أين بعثت محظيته بنت السلطان الحفصي أبي إسحاق إلى ولديه: أبي زيان محمد، وأبي حمو موسى؛ فأعلمتهما بوفاته؛ فدارا إلى إحضار مشيخة بني عبد الواد؛ للنظر في الأمر؛ ولكنهما لم يصرحا في البداية بوفاته؛ وظهر عليهما الحرج؛ فارتاب الجمع في الأمر؛ فتساءل أحدهم نيابة عن بقية المشيخة؛ قائلاً: ((السلطان معنا آنفاً؛ ولم يمتد الزمن لوقوع المرض؛ فإن يكن هلك فخبرونا؛ فقال له أبو حمو: وإذا هلك؛ فما أتت صانع؟ فقال: إنما نخشى من مخالفتك؛ وإلاّ فسلطاننا أخوك الأكبر أبو زيان. فقام أبو حمو من مكانه، وأكبّ على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه، واقتدى

به المشيخة))¹. وهكذا عقدت بيعة أبي زيان محمد ابن عثمان بن يغمراسن؛ وفي يوم الأحد الثاني من ذي القعدة سنة 703هـ/1303م؛ فواصل جهود المقاومة، والتصدي لبني مرين؛ دون أن يظهر عليه الجزع، أو يبدي أي تراجع أو تراخي؛ بحيث لم يشعر أحد من خصومه أن شيئاً ما قد تغير بعد وفاة عثمان. ((وبلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب - بمكانه من حصارهم - فتفجع له، وعجب من صرامة قومه من بعده))². وظل الحصار مستمراً في عهد أبي زيان محمد؛ وبقي على حاله زهاء ثلاث سنوات تقريباً؛ إلى أن قُتل السلطان المريني بيد خصمه³. عندها؛ اندلعت بين إخوة السلطان المريني وأبنائه وأحفاده منافسة ضارية على السلطة؛ فتسابقوا إلى امتلاك العرش بفاس؛ ومن بينهم أبو ثابت؛ حفيد السلطان؛ الذي بعث رسولاً إلى السلطان الزياني؛ يعرض عليه الصلح؛ على أن يؤازره في مسعاه،

¹ العبر، مج: 7، ص: 197.

² نفسه، ص: 197.

³ اتفق الأخوان: ابن خلدون على هذا؛ بينما خالفهما التنسي؛ حيث نقل عن صاحب كتاب (درر الغرر) قوله بأن أبا زيان مات أثناء الحصار؛ وأن يوسف بن يعقوب المريني هلك في عهد أبي حمو موسى الأول. انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسن (نظم الدرر)، ص: 135.

ويقف معه ضد بقية أعضاء الأسرة المالكة
المرينية¹. فوافقه، وعقد معه معاهدة صلح ومساندة؛
أنهت الحصار، وأعادت الأمل، وفتحت أمام بني
زيان - من جديد - أبواب الملك واسعة على
مصراعها؛ فأعادوا الكرة، واجتاحوا معظم البلاد
الشرقية.

وقام السلطان أبو زيان محمد - في السنوات
الأولى من ولايته، وبالتحديد في سنة 705هـ/1305م؛
وقبل رفع الحصار عن تلمسان - قام بإجراء أول
قطيعة بين البلاط الزياني، والدولة الحفصية؛ حيث
أسقط الدعاء لهذه الدولة من منابر تلمسان؛ بعد أن
وصلته أخبار دعم سلطانها أبي عصيدة² بن الوائق

¹ قال ابن خلدون: ((وكان من خبر هذه الرسالة؛ أن يوسف بن يعقوب -
لما هلك - تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته؛ وتحيز أبو
ثابت حافده إلى بني ورتاجن؛ خولة كانت له فيهم؛ فاستجاش بهم؛
فأعصموا عليه؛ وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن؛ أن يعطوه الآلة،
ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه؛ على أنه إن تم أمره قوض
عنهم مهكر بني مرين. فعاقده عليها؛ ووفى لهم؛ لما تم أمره؛ ونزل
لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من
بلادهم، وجأجأ بجميع الكتاب التي أنزلها في ثغورهم؛ وقللوا إلى
أعمالهم بالمغرب الأقصى؛ واستمكن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب
الأوسط كلها)). العبر، مج: 7، ص: 201.

² هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الوائق؛ المعروف بأبي عصيدة،
والملقب بالمستنصر بالله. حكم من سنة 694هـ/1294م إلى سنة سنة
709هـ/1309م.

للسلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق. وذلك بإرسال أسطول حصي لمساعدته على تمهيد سواحل المغرب الأوسط¹. وعندها اقتصر ملوك بني زيان على الدعاء لأنفسهم.

كانت أول خطوات السلطان أبي زيان - رفقة أخيه أبي حمو؛ بعد رفع الحصار؛ وفي آخر ذي الحجة من سنة 706هـ/1306م - هي الزحف نحو مغراوة²؛ فسلط عليهم سيف انتقامه؛ إذ عاقبهم على مساندتهم لبني مرين، ووقفهم إلى جانبهم أثناء حصارهم لتلمسان. فدوخ أرضهم، ونسف عمارتهم، ثم عقد لمسامح (مولاه) على ديارهم؛ كما توجه إلى سهل السرسوا؛ حيث تتواجد أعراب سويد والديالم وبني يعقوب بن عامر؛ فأوقع بهم وأخرجهم من تلك الجهات التي غلبوا عليها زناتة أيام الحصار. ثم تحول إلى بلاد توجين؛ أين ألزمهم الطاعة، وضبط فيهم أمر الحشم.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 202 - 203. 467.

² يخالف التنسي هذا الرأي؛ حيث يرى أن أول ما قام به السلطان الزياني - وهو أبو حمو عنده وليس أبا زيان - أنه بدأ مباشرة بعد فك الحصار؛ بتخريب المنصورة التي شيدها يوسف بن يعقوب. بينما يقول صاحب الأتيس المطرب؛ أن أبا ثابت المتولي على بني مرين بعد جده يوسف ابن يعقوب اشترط على بني زيان أن يبقوا المنصورة على حالها، ولا يخلوها، وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح. أنظر هذا في ص: 369.

— العمران والثقافة:

وبعد تسعة أشهر من بدء تمهيد البلاد الشرقية؛ عاد السلطان أبو زيان محمد إلى تلمسان؛ حيث انصرف إلى إصلاح حاضرة ملكه، وبناء ما انتلم من الأسوار، وما فسد من عمار؛ كما انهمك في ترميم قصوره ورياضه؛ إلى أن تسرب إليه المرض، واشتدت علاته؛ ثم مات في آخر شوال من سنة 707هـ/1307م؛ عن عمر يقدر بثمان وأربعين سنة؛ ودام في الحكم أربع سنوات إلا سبعة أيام¹.



¹ انفرد التنسي برأي آخر؛ خالف به الأخوين (ابن خلدون)، وابن أبي زرع؛ إذ يرى أن أبا زيان مات أثناء الحصار؛ ولكنه صمت عن ذكر التاريخ الذي هلك فيه؛ كما تجاهل التاريخ الذي انتصب فيه خليفته أبي حمو موسى الأول على سدة الحكم بعد موت أخيه. أنظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 131. العبر، مج: 7، ص: 197. وبغية الرواد، ج: 1، ص: 212. والأئيس المطرب، ص: 367.

دولة أبي حمو موسى الأول

وبعد وفاة أبي زيان محمد؛ خلفه أخوه موسى ابن عثمان (أبو حمو الأول). الذي انتصب على سدة الحكم في تلمسان - في معظم الأقوال - يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر شوال سنة 707هـ/1307م. فنقل الدولة الزيانية من عهد السذاجة القبلية، والبساطة في الأحكام إلى الملك العضوض؛ ووصفه عبد الرحمن بن خلدون؛ بقوله: ((وكان صارماً، يقظاً، حازماً، داهية، قوي الشكيمة، صعب العريكة، شرس الأخلاق، مفرط الذكاء والحدة. وهو أول ملوك زناتة. رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وأرھف لذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم مجن بأسه؛ حتى دلوا لعز الملك، وتأدبوا بآداب السلطان))¹.

¹ ثم أضاف: ((سمعت عريف بن يحيى (أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة) يقول - ويعنيه - موسى بن عثمان هو معلم السياسة الموكية لزناتة؛ وإنما كانوا رؤساء بادية؛ حتى قام فيهم موسى ابن عثمان؛ فحدّ حدودها، وهذب مراسمها، ولقن عنه ذلك أقتاله، وأنظاره منهم؛ فتقبلوا مذهبه، واقتدوا بتعليمه)). العبر، مج: 7، ص: 204.

بأدر أبو حمو الأول - منذ توليه - إلى تجديد معاهدة الصلح بينه وبين سلطان بني مرين؛ اتباعاً لنهج والده عثمان، وتطبيقاً لوصية جدّه يغمراسن؛ التي ورد ذكرها فيما سبق. وبعدها؛ انطلق إلى تمهيد البلاد الشرقية من مملكته¹؛ حيث يكون قد واصل المجهود الذي بدأه أخوه أبو زيان محمد؛ فجرد حملات متتابعة ضدّ بني توجين ومغراوة؛ فأخذ فيهم، وسلبهم المال والأرواح؛ ثم انتقل إلى بقية القبائل المتواجدة في تلك الديار؛ حتى أخضعهم، واطمأن إلى استكانتهم، وطاعتهم؛ وبذلك تمكن من السيطرة - منذ توليه إلى سنة 714هـ/1314م - على المدن والمناطق التالية: شلف، وجبل واتشريس، والسرسو، ومازونة، مليانة، ولمدية، والجزائر، وبرشك، وتنس، ومستغلم، ووهران. هذا؛ ولم تشغله عملياته العسكرية ضد القبائل المتواجدة بين

¹ خالف التنسي بقية الروايات - على اعتبار أنه تولى الحكم أثناء الحصار كما سبقت الإشارة إليه - حيث ذكر أن أول عمل قام به أبو حمو الأول هو هدم مدينة المنصورة التي بناها السلطان المريني يوسف بن يعقوب؛ فقال: ((كان أول ما بدأ به الملك أبو حمو؛ هدم مدينة يوسف، وإصلاح ما تلثم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر، وحفر الخنادق، وخزن فيها من الطعام والأدام والملح والفحم والحطب ما لا حد له ولا حصر؛ ثم اشتغل بتمهيد الملك)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 135 - 136.

تلمسان والجزائر عن نقل عملياته الحربية إلى ديار
الحفصيين في إفريقية؛ إذ شدد ضغطه عليهم بعد
سقوط حجاب الثقة بينهم وبين بني زيان؛ جراء
مساندتهم لبني مرين أثناء حصارهم لتلمسان. وقد
استغل أبو حمو موسى الأول الظروف السيئة التي
مرت بها الدولة الحفصية في تلك الفترة؛ فاستفاد
من الاضطرابات والفتن المشتعلة بين أمراء الأسرة
المالكة في تونس؛ كما استثمر نتائج الأوضاع
السياسية والاجتماعية المتدهورة؛ المتمثلة في تطاول
الأعراب واستقوائهم على الدولة الحفصية، وتغلبهم
على ضواحي إفريقية كلها. لذا فقد جرد مجموعة
من الفرق المقاتلة لمحاصرة المراكز الرئيسية في
المغرب الأوسط وإفريقية؛ التابعة لتلك الدولة؛ مثل:
بجاية، وقسنطينة، وبونة. وهكذا؛ شرع السلطان
الزياني في خطته بالتقدم نحو الشرق؛ والاقتراب من
خطوطه الأمامية؛ حيث شيد سنة 711هـ/1311م
قصره المعروف باسمه في وادي نهل¹ بالقرب من
ملوزنة؛ الذي اتخذ مركز قيادة أمامي له.

¹ وادي نهل: أحد روافد واد الشلف؛ وهو قريب من مازونة. وفي هذا
الموقع شيد السلطان أبو حمو موسى الأول قصره المسمى باسمه؛
وعرف الآن باسم عمي موسى.

وبعد حملته الأولى سنة 710هـ/1310م - التي أضع خلالها بني توجين، ومغراوة؛ ونصب يوسف ابن حيون الهواري على عمالة وانشريس، ثم أقام مولاه مسامحاً عاملاً على بلاد مغراوة - عاد إلى تلمسان. ولكنه ما فتئ أن عاود الكرة سنة 711هـ/1311م؛ أين ربض في قصره بوادي نهل؛ وبعث البعوث نحو شرق البلاد؛ فبدأها بحملة مولاه مسامح؛ الذي ضيق - بحصاره - على مدينة الجزائر حتى سلمها صاحبها ابن علان إلى جيش أبي حمو سنة 712هـ/1312م. وبذلك أضحت متيجة ضمن ممتلكات الدولة الزيانية.

وكالعادة؛ تملل المرينيون، وتضايقوا من التوسع الزياني على حساب الحفصيين شرقاً؛ فحاولوا كبح طموح أبي حمو الأول. وكما جرت العادة؛ لم يفتقروا إلى الوسائل والمسوغات اللازمة. وهكذا؛ ففي سنة 714هـ/1314م رجع المرينيون إلى عادتهم القديمة؛ في التحرش بالزيانيين، ومحاصرة تلمسان. والسبب - كالعادة - هو لجوء أفراد من العائلة المالكة المرينية إلى تلمسان؛ جراء خلافات

وخصومات على الحكم. وتبعاً لإصرار الملك الزياني على منح الحماية للأجنيين؛ تنشب الحرب بين الدولتين. وقد حدث هذا في عهود سبقت؛ فاتبع أبو حمو الأول نهج أسلافه في ذلك الأمر؛ بحجة أنه لن يكسر جواره أو يخفر ذمته. وكسابق العهد؛ أدى موقفه هذا إلى غضب السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن عبد الحق؛ الذي سارع إلى غزو تلمسن، وحصارها؛ ولكنه فشل في مسعاه؛ بعد أن سرب أبو حمو الأول الأموال إلى وزرائه؛ وتبادل معهم الخطابات؛ ثم أعلم السلطان المريني بمؤمراتهم معه. فخاف أبو سعيد العاقبة؛ وانسحب عائداً إلى المغرب الأقصى.

وبعد انسحاب المرينيين إلى بلادهم؛ نهض أبو حمو لتطويع البلاد المشرقية من جديد؛ واهتم - بالتحديد - بالخارجين عنه؛ من مغراويّة في نواحي شلف؛ حيث باشر - بعد أن التحق بقصره بوادي نهل - بإخماد فتنة راشد بن محمد بن ثابت بن مندبل المغراوي، وطارده أتباعه في جبال شلف. ثم شكّل فرقاً عسكرية؛ أسند قيادتها إلى بعض أقاربه ومواليه. فأسند قيادة الفرقة المكلفة بحصار بجاية إلى

ابن عمه أبي سرحان مسعود بن أبي عامر برهوم. فضيق عليها، وشيّد بالقرب منها حصن أزفون (سماه بن خلدون أصفون بالصاد)؛ فاتخذة بمثابة المعسكر: ((فكان يسرح الجيوش لقتالها؛ فتجول في ساحتها ثم رجع إلى الحصن))¹. ثم وضع ابن عمه محمد بن يوسف، ومولاه مسامحاً على رأس فرقتين أخريين؛ وكلفهما بتدويخ ما وراء بجاية. وبعدها عقد لموسى بن علي الكردي على جيش ضخم بمشاركة فئة من زغبة، وبني سباع من عرب النواودة؛ وبعثهم عبر طريق الصحراء؛ نحو إفريقية؛ بغرض كسر شوكة الحفصيين، وتهديد ممتلكاتهم، وترويع أمنهم. فوصلوا بزحفهم الكاسح إلى بونة؛ ثم تخطوها إلى قسنطينة؛ أين ضيقوا عليها أياماً، كما استباحوا جبل بني ثابت المطل عليها؛ وأحرقوا الضواحي والمدن المجاورة. ولم يدم نجاحهم وظهورهم - بعد نجاحهم الأول في مسعاهم، وتوغلهم في ديار الحفصيين - حيث دبت رياح الخلاف بينهم: ((وحدثت بينهم المنافرة حسداً ومنافسة؛ فافترقوا، ولحقوا بالسلطان))². وكان الشئان هذا؛ بمثابة الفتيل الذي

¹ العبر، مج: 7، ص: 213.

² نفسه، ص: 213.

أشعل نار الفتنة بين أفراد الأسرة المالكة الزيتية؛ بل ظل مشتعلًا حتى انفجر في وجه السلطان أبي حمو الأول؛ ف قضى عليه.

ويبدو أن الدولة الزيتية - في عهد أبي حمو الأول - سلكت طريق الانحدار والسقوط؛ جراء ما أصابها من هرم، وشيخوخة، وفساد حالها من الداخل. وقد صدق ابن خلدون في حكمه عن صاحب الدولة الذي يضع ثقته الكلية في الموالي والمصطنعين. وبالطبع حدث ذلك في مرحلة متأخرة من عمر الدولة¹. قد تولد عن هذه الفتن المتوالية؛ وهذا الانقسام في الأسرة المالكة؛ تضعضع أركان الدولة الزيتية؛ حيث تسرب الوهن القاتل إلى بيت أبي حمو نفسه. فدب خلاف مكتوم بينه وبين ابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الأول. استغل هذا الخلاف بعض الموالي والمصطنعين في بلاط الدولة؛ فألهبوا النار الدفينة في نفس ولي العهد ضد أبيه؛ بحجة أنه يفضل عليه ابن عمه مسعود بن أبي عامر

¹ أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 656 - 657، فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص.

برهوم¹. وقد تولى إشعال نار الفتنة أحد الموالى المسمى هلال القطلاتي؛ الذي أوهم أبا تاشفين بأن أبيه سيحول ولاية العهد إلى ابن عمه أبي سرحان مسعود. وتطورت المؤامرة من مرحلة الشحن بالكلام إلى طور التنفيذ؛ حيث نفذوا مؤامرتهم بقتل السلطان أبي حمو الأول، ومسعود معاً في يوم الأربعاء 22 جمادى الأولى من عام 718هـ/1318م.

— العمران والثقافة:

وعلى الرغم من انشغال أبي حمو الأول بالحروب؛ وتصديه لعيث القبائل المختلفة في ربوع بلاده؛ فإنه لم يتجاهل المنجزات العمرانية وإنشاء المؤسسات الثقافية، ورفع مراتب العلماء في مملكته. فهو الذي أنشأ في تلمسان المدرسة الشهيرة بمدرسة ابني الإمام²؛ وهما العالمان الجليلان: أبو زيد عبد

¹ ((وكان - رحمه الله - مؤثراً لابن عمه أبي سرحان مسعود بن أبي عامر ابن يغمراسن بن زيان عن ابنه السلطان أبي تاشفين؛ ومفضلاً إياه عليه في السر والجهر، والنهي والأمر. فكثيراً ما كان يعيره به ويؤخه في الملأ بسببه؛ وربما أسمعته هجر القول؛ غير مبال بعاقبته)). بغية الرواد

في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 214.

² هما: الأخوان: أبو زيد عبد الرحمن (المتوفي سنة 743هـ/) وأبو موسى عيسى (المتوفي سنة 749هـ/1348م)؛ والاهما هو محمد بن عبد الله التلمساني البرشني التنسي.

الرحمن، وأبو موسى عيسى؛ كما أسند خطة الكتابة في بلاطة للكاتب الشهير والأديب ابن هدية¹؛ بالإضافة إلى احتضان العلامة المتقن أبي عبد الله الآبلي². وبذلك يكون أبو حمو موسى الأول هو أول من اعتنى - من سلاطين بني زيان - بالعلم النافع النبيل؛ والأدب الرفيع ذي القيمة الفنية السليمة. إذ قرب إليه العلماء المتميزين بمختلف العلوم النقيية والعقلية؛ الذين ازدهرت بهم تلمسان في عصر هذا السلطان المجتهد. كما استعان في بلاطه بكفاءات عالية في الآداب والفنون الأخرى. ولذلك؛ لوحظ في عصر هذا السلطان ترجع تهافت الناس على المتصوفة والدرأويش، وحلّ محلهم علماء العمل والتنوير. أما في ميدان البناء وتشبيد المنشآت والقصور؛ فقد جلب من الأندلس مجموعة متنوعة من الفعلة والبنائين؛ بغرض بناء المنازل والقصور، وتخطيط البساتين وزراعتها³. وفي ما يلي بعض أسماء العلماء الذين

¹ هو محمد بن منصور بن علي بن هدية (توفي سنة 736هـ/1335م)
² هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي؛ عالم واسع الاطلاع؛ يهتم بعلوم المنطق والرياضيات. ولد في تلمسان سنة 681هـ/1280م؛ ترجع أصوله إلى مدينة آبلّة الأندلسية. وكان والده في خدمة السلطان يغمراسن، بينما كان ابنه محمد قهرمانا ببلاط الدولة الزيانية.
³ العبر، مج: 7، ص: 297.

عاصروا أبا حمو موسى الأول؛ بينما يستثنى منهم الذين تعاطوا نظم الشعر؛ لأن مكانهم في الأجزاء التالية من الكتاب.

1 - الشيخ أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الإمام.

2 - والشيخ أبو موسى عيسى ابن الإمام الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الإمام:

أصلهما من برشك. وهما إمامان مشهوران بالعلم والرئاسة. ينتميان إلى سلف صالح. قال فيهما يحيى بن خلدون: ((أخبرني من ثقائه؛ أن جدهما كان من أولياء الله الأبرار. وكانت له أريضة يعمرها بالخضر لمعاشه. فعمد إليها ليلة لصان ليحتفرا منها اللفت؛ فأوثقتهما أرضها، وأصبحا عبرة، ونفع الله به))¹. قدم الإمامان إلى تلمسان في عهد أبي حمو موسى الأول؛ فاحتفى بهما ورفع منزلتهما؛ ثم ابتنى لهما المدرسة المسماة باسمهما؛ وموقعها داخل باب كشوطة. وكانت لهما رئاسة وحظوة؛ ومقاما محفوظاً في مجالس الملوك. ولهما في تلمسان خلف صالح؛ ينتحلون العلم؛ وقد وصل

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 130.

بعضهم إلى مراتب التدريس والفتيا في النوازل. توفي أبو زيد عبد الرحمن في سنة 743هـ/1342م؛ أما أبو موسى عيسى؛ فقد توفي في سنة 749هـ/1348م.

3 - العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلّي. يطلق عليه اسم المعلم الأصغر. وهو عالم منطقي ورياضي؛ ولد بتلمسان في سنة 681هـ/1280م. بينما يعود في أصوله الأولى إلى آبلّة بالأندلس. وينتمي إلى بيت نباهة من الجند. إذ كان والده من بين مساعدي السلطان يغمراسن بن زيان. فكانت لابنه محمد حظوظ التعلم لدى الشيخين الإمامين: أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى؛ في مدرسة تلمسان المسماة باسمهما. ثم أخذ العلم كذلك بمراكش عن أبي العباس أحمد بن البناء. وبعدها رحل إلى العراق؛ أين التقى بجمع من علماء المشرق؛ فأخذ عنهم. ولما عاد من المشرق؛ ولاه أبو حمو موسى الأول قيادة بني راشد. ولكنه كره العمل في الوظائف السلطانية؛ وفضل الانشغال بالعلم؛ ففرّ إلى جبال هسكورة بالأطلس؛ أين أقام عند علي بن محمد بن تروميت. واعتكف هناك على القراءة والتأمل. وكان اعتكافه هذا؛ سبباً في سمو فكره وتفوقه في مجالات العلوم العقلية؛ بحيث

بَرَزَ كل من عرف في زمانه في هذا الميدان. حتى أنه أضحي شيخاً ومعلماً لمعظم العلماء في عصره؛ وإذا ما تصفحت تراجم ذلك العصر؛ ستبين أن جلّ الفقهاء والعلماء ببلاد المغرب وإفريقية أخذوا عنه العلوم العقلية بالخصوص؛ ومنهم: عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى وغيرهم كثيرون. ومما قاله عبد الرحمن بن خلدون في أستاذه الأبلي: ((أصله من تلمسان؛ وبها نشأ، وقرأ، وكتب التعاليم، وحذق فيها. وأظله الحصار الكبير بتلمسان؛ أعوام المئاة السابعة؛ فخرج منها وحج؛ ولقي أعلام المشرق يومئذ؛ فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عرض عقله. ثم رجع من المشرق؛ وأفاق، وقرأ المنطق، والأصليين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام... ثم خرج من تلمسان؛ هارباً إلى المغرب؛ لأن سلطاتها - يومئذ - أبو حمو؛ من ولد يغمراسن بن زيان؛ كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسانه؛ ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا

العباس بن البناء))¹. توفي العلامة أبو عبد الله
الآبلي بفاس في ذي القعدة سنة 757هـ/1356م.
4 - أبو زيد عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي.
هو ولد محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد
ابن أبي العيش الخزرجي (يأتي ذكره مع الشعراء في
الجزء الثاني). لصاحب الترجمة هذه دراية بالتوثيق
والفرائض والحساب والهندسة؛ وله أيضاً خط جميل.
تولى الخطابة والإمامة بالجامع الأعظم بتلمسان.
وقال يحيى بن خلدون: أنه جدّ الفقيه أبي زكرياء
يحيى بن محمد بن عبد الرحيم؛ صاحب الأشغال
في بلاط أبي حمو الثاني. وعليه؛ يكون هذا الجد
أبو زيد عبد الرحيم؛ عاش في زمن أبي حمو الأول
أو ابنه أبي تاشفين الأول.

¹ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص: 21.

دولة

ابي تاشفين عبد الرحمن الاول

ولما قتل أبو حمو الأول غدرأ؛ بين جلسائه؛
انتقل الحكم إلى ولده أبي تاشفين عبد الرحمن بن
موسى؛ الذي أسند وزارته إلى قاتل أبيه هلال
القطلاتي. وهنا أصبح للموالي والمصطنعين - لأول
مرة - دوراً خطيراً في دولة بني زيان؛ على خلاف
ما سبق. لأن يغمراسن بن زيان باشر شئون الدولة
والجيش بنفسه؛ وكذلك الحال بالنسبة إلى ولده
عثمان؛ الذي تولى بنفسه شئون الدولة كلها. أما في
عهد ولده محمد أبي زيان فقد أسند - لأول مرة -
القيادة في الجيش إلى أحد مواليه المسمى مسامحاً.
ولما حكم أبو حمو موسى الأول توسع في الاعتماد
على الموالي والمصطنعين؛ فكانت نهايته بيدهم؛
حيث اقتحموا القصر بمساعدة ابنه أبي تاشفين وقتلوا
السلطان ومن معه من الوزراء والجلساء. حدث
ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين لجمادى الأولى
من سنة 718هـ/1318م.

سلك أبو تاشفين نهج أبيه في تجهيز البعوث العسكرية، والاعتماد على الموالى والمصطنعين في قيادة الجيوش. فأظفى على دولته هالة من القوة المصطنعة؛ لا تتناسب مع حقيقة حاله، ولا قدرة دولته. ومع هذا؛ فقد ضيقت جيوشه على الحفصيين؛ واستولت على مواقع هامة من أرضهم؛ بل تمكنت من إلحاق الهزيمة بالسلطان الحفصي أبي يحيى¹ نفسه، ودخول عاصمة الدولة تونس - سنة 730هـ/1329م - وتصيب منافسه الأمير محمد بن أبي بكر (ابن أبي عمران الحفصي) على سدة الحكم فيها؛ ثم أقاموا في تونس أربعين يوماً؛ وبعدها عادوا أدراجهم.

ويبدو أن ما أنجزه جيش بني زيان في تونس؛ أثار حساسية السلطان المريني أبي الحسن؛ الذي اعتبر دخول جيش أبي تاشفين إلى عاصمة الحفصيين؛ بمثابة إنذار بالخطر؛ لأنه - كغيره من ملوك بني مرين - لن يسمحوا بتعاظم قوة الدولة الزيانية؛ إلى الحد الذي يمكن أن تستعصى على الدولة المرينية. ولهذا فقد أخرج من الدرج الذرائع المطلوبة؛

¹ حكم الدولة الحفصية - من تونس وقسنطينة - من سنة 718هـ/1318م إلى سنة 746هـ/1345م.

ورفعها في وجه السلطان أبي تاشفين. وأول الذرائع؛
تتمثل في التظاهر بحميته وغيروته على صهره
السلطان الحفصي أبي يحيى؛ وثاني الذرائع؛ سرعة
استثمار ردّ الفعل الصادر عن السلطان أبي تاشفين
بفعل استفزازه. وبالفعل؛ تم ما خطط له. وسيأتي
لاحقاً شرح ذلك، وشرح الكيفية التي هجم خلالها
أبو الحسن بجيوشه الجرارة على تلمسان، وتمكنه
من احتلالها - لأول مرة في تاريخ المرينيين - وقتله
للسلطان أبي تاشفين يوم الأربعاء 27 أو 28 رمضان
من سنة 737هـ/1337م

— العمران والثقافة:

تلك هي خلاصة للوضع السياسي والعسكري أيام
السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول؛ أما إنجازات
هذا السلطان في الجوانب العمرانية والحضارية؛ فهي
عديدة ومتنوعة؛ واصل بها ما شرع فيه والده
أبو حمو الأول. وقد ذكرت إنجازاته العمرانية في
بعض المصادر التاريخية؛ مثل كتاب العبر الذي ورد
فيه: ((ونزل [أبو العباس بن أبي سالم المريني]
على مرحلة من تلمسان؛ بعد أن أغراه ونزمار بن

عريف - أمير سويد - بتخريب قصور الملك بتلمسان؛ وكانت لا يعبر عن حسنهما؛ اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين؛ واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس؛ لحضارتها وبدوة دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث إليهما السلطان أبو الوليد - صاحب الأندلس - بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس؛ فاستجابوا لهم القصور والمنازل والبساتين؛ بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله¹. ومن بين تلك القصور والمنشآت؛ على سبيل المثال: دار الملك، ودار السرور، و(أبي فهر)، والصهريج².

كما اهتم أيضاً بنشر العلم ورعاية العلماء؛ حيث شيد - بدوره - مدرسة جديدة³ عرفت باسم المدرسة التاشفينية؛ خصصها للفقيه الشيخ أبي موسى

¹ العبر، مج: 7، ص: 297.

² قال يحيى بن خلدون: ((كان - رحمه الله - جانحاً للذات، ممتعاً بالنعيم العاجل، مغتبطاً بلهو الدنيا ولعبها؛ ولع ببناء الدور وتحبير القصور، وتشيد المصانع، واغتراس المنتهزات؛ مستظهاً على ذلك بالآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم؛ بين: نجارين، وبنائين، وزليجين، وزواقين، وغيره؛ مع حذقه - رحمه الله - بالاختراع، وبصره في التشكيل والابتداع؛ فخلد آثاراً لم تكن قبله لملك، ولا عرف لها بمشارك الأرض ومغاربها نظير)). بغية الرواد، ج: 1، ص: 216.

³ ((وحسن تلك كله ببنائه المدرسة الجليلة العيمة النظير؛ التي بناها بجزء الجامع الأعظم)). أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 141.

عمران المشدالي. وأورد المقرئ أبياتاً شعرية؛ قال
أنه رآها مكتوبة على مجرى الماء في تلك المدرسة
التاشفينية؛ التي وصفها قائلاً: ((وهي من بدائع
الدنيا))¹. وجاء في تلك الأبيات:

أَنْظُرْ بِعَيْنِكَ بِهَجَّتِي وَسَنَائِي
وَبَدِيعِ إِتْقَانِي وَحُسْنِ بِنَائِي
وَبَدِيعِ شَكْلِي وَاعْتَبِرْ فِيمَا تَرَى
مَنْ نَشَأَتِي بَلْ مِنْ تَدْفُقِ مَائِي
جِسْمٌ لَطِيفٌ ذَائِبٌ سَيَلَانُهُ
صَافٍ كَذَوْبِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ
قَدْ حَفَّ بِي أَزْهَارُ وَشْيٍ نَمَّقَتْ
فَعَدَّتْ كَمِثْلِ الرُّوضِ غِبَّ سَمَاءِ

ومن العلماء الوافدين على تلمسان؛ ووجدوا
كل إكرام وترحاب من قبل السلطان أبي تاشفين:
الشيخ الفقيه أبي العباس أحمد بن عمران البجائي.
كما نقل صاحب نفح الطيب عن جدّه؛ حديثاً
حول مجالس العلم المنعقدة في بلاط أبي تاشفين. مما
يفيد أن هذا السلطان يعتني بالعلم والعلماء، ويعقد

¹ نفح الطيب، ج: 6، ص: 47.

مجالس لهم في بلاطه؛ يحضرها بنفسه؛ حيث تدور في تلك المجالس حوارات ومناقشات علمية في مختلف الفنون¹.

ومن المبتكرات الجميلة، والحيل الهندسية - في ذلك العصر - امتلاك أبي تاشفين في بلاطه لشجرة من الفضة؛ ثُبَّت على أغصانها عددٌ من الطيور الناطقة؛ وثُبَّت في أعلى الشجرة صقرٌ؛ ولهذه الشجرة منفاخ موجود في أصلها؛ فإذا نفخ فيه، ووصل الريح إلى موضع الطيور؛ صوتت بمختلف الأصوات؛ حسب صنفها؛ أما إذا وصل الريح إلى موضع الصقر؛ فإنه يصوت بمنطقة؛ فتصمت أصوات الطيور كلها وتنقطع². وفيما يلي أسماء بعض علماء الدين والمتصوفة الذين عاشوا في تلمسان أيام أبي تاشفين؛ على أن يترك الأدباء والشعراء؛ للأجزاء اللاحقة.

1 - الشيخ أبو العلى المديوني. بعدُ من كبار الأولياء الصالحين. يهرع إليه الناس المرضى طلباً للرقية من أجل الشفاء. توفي رحمه الله في حدود 735هـ/1234م؛ ودفن بمسجد الرحمة في العباد.

¹ أنظر خبر ذلك في نفح الطيب، ج: 5، ص: 218 - 219.
² أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 141.

2 - الفقيه الحافظ أبو موسى عمران المشدالي. أحد أئمة الفقه المالكي، ومن العلماء الأخيار الصالحاء الأبرار. أصله من زواوة بجاية؛ وفد إلى تلمسان في عهد السلطان أبي تاشفين الأول؛ فرحب به، وأكرمه. كان قد أخذ ببجاية عن الشيخ أبي علي ناصر الدين، وغيره. وبالمقابل أخذ عنه الفقيه أبو العباس أحمد بن أحمد المشوش، والفقيه أبو البركات الباروني، والفقيه أبو عثمان العقباني وآخرون. قال فيه يحيى بن خلدون: ((ولم يكن في معاصريه أحد مثله علماً بمذهب مالك، وحفظاً لأقوال أصحابه، وعرفناً بنوازل الأحكام، وصواباً في الفتيا؛ ولقد بذ جميع فقهاء المغرب في مسألة الركاب المموة بالذهب؛ غرابة نقل، واستدلال عقل))¹. أما وفاته؛ فقد وقعت في سنة 745هـ/1344م؛ أثناء عودته من مراكش.

3 - الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد النور الصنهاجي. هو أصلاً من ندرومة التابعة لتلمسان؛ ويعتبر من أئمة الفقه المالكي المؤهلين للفتيا؛ ومن رجال الدين المتين. درس على

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 131.

ابني الإمام في مدرستهما بتلمسان؛ ولما اشتد ساعده غدا من أصحابهما. ولي قضاء بلده؛ فاتصف بالسيرة الحميدة والعدل، وحسن الخلق. ولما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان، وقَتَلَ سلطانها أبا تاشفين؛ ضَمَّ إلى مجلسه جملة من علمائها؛ من بينهم محمد عبد النور هذا؛ بتوصية من ابني الإمام. ولما قرَّرَ السلطان المريني الرَّخْفَ إلى إفريقية؛ أصطحب معه مجموعة من كبار العلماء؛ من بينهم صاحب هذه الترجمة؛ الذي عَيَّنَّه أبو الحسن قاضياً للعسكر في حملته تلك. وكانت وفاته بالطاعون في تونس سنة 749هـ/1348م.

4 - **الفقيه أبو الحسن علي بن عبد النور الصنهاجي.** وهو أخو أبي الحسن. عرف بعلمه وفضله. واتصف بالسماحة والسخاء والفضل. كان نائباً عن أخيه في ولاية القضاء؛ ثم استقل بتلك المرتبة بعد موت أخيه. كما تولى القضاء أيضاً في بعض حواضر المغرب. فكان عدلاً ومواظباً على مجالس الملوك. قال فيه عبد الرحمن بن خلدون: ((خلف [أبو عبد الله] بتلمسان أخاه علياً؛ رفيقه في دروس ابن الإمام؛ إلا أنه أقصر باعاً منه في

الفقه¹)). استخدمه أبو عنان على قضاء مكناسة بعد أن ضمّه إليه حينما خرج على أبيه. ولكنه سُرح من قبل الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على الدولة بعد موت أبي عنان. فقرر الرحيل إلى الحج؛ حيث اصطحب معه أهله وأولاده. ولكنه مات لما أشرف على البيت العتيق. قال يحيى بن خلدون: ((أخذته حالة صوفية؛ فصعق مغشياً عليه؛ وطيف به - على تلك الحال - طواف القوم؛ ففضى نحيبه أثناءه²)). فدفن بمكة المكرمة. وقال يحيى بن خلدون: ((وله الآن بمصر ولد من أعلام فقهاء المالكية هو أبو عبد الله محمد³)).

5 - الفقيه أبو الحسن علي بن منصور بن علي ابن هدية. وهو ابن أبي علي منصور وزير أبي حمو الأول. تولى هو الآخر الخطابة بالجامع الأعظم أيام أبي حمو موسى الثاني ابن يوسف. فسار على نهج سلفه الصالح؛ فالتزم بالدين وتشبث بالعلم وتحلى بالفضل والنزاهة ورفعته الهمة. فكان صدرأ من صدور الدراية والتدريس والخلق العظيم.

¹ كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص: 46.

² أما عبد الرحمن بن خلدون؛ فقال: ((فلما قدم إلى مكة؛ وكان به بقية مرض؛ هلك في طواف القدوم)). التعريف بابن خلدون، ص: 47.

³ بغية الرواد، ج: 1، ص: 122.

لايعرف تاريخ وفاته. ويبدو أنه توفي بعد وفاة يحيى بن خلدون الذي توفي في سنة 781هـ.

6 - أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد النور الصنهاجي: كان رفقة أبيه وأهله في رحلة الحج التي هلك فيها أثناء طواف القدوم. وقبل موت أبيه؛ أوصى أمير الحج أن يوصل ابنه محمد إلى أمير مصر بلغا بن عبد الله الخاصكي الناصري. وفي هذا يقول عبد الرحمن بن خلدون: ((فأحسن خلافته فيه، وولاه من وظائف الفقهاء؛ ما سد به خلته، وصان عن سؤال الناس وجهه. وكان له - عفا الله عنه - كلف بعمل الكيمياء؛ تابعا لمن غلط في ذلك من أمثاله؛ فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه؛ إلى أن دعت الضرورة للترحل عن مصر؛ ولحق ببغداد؛ وناله مثل ذلك؛ فلحق بماردين؛ واستقر عند صاحبها، وأحسن جواره؛ إلى أن بلغا، بعد التسعين - أنه هلك هنالك حتف أنفه. والبقاء لله وحده)).¹

7 - أحمد المشدالي؛ وهو أخو أبي موسى عمران السابق الذكر. سار على نهج أخيه؛ في العلم،

¹ التعريف بابن خلدون، ص: 47.

والاستتارة، وحفظ الرواية، والديانة، والفضل. تولى التدريس بتلمسان بعد وفاة أخيه؛ ففجع وأفاد. لا يعرف تاريخ وفاته.

8 - **الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن ياسين ابن علي الملبتي المسناوي.** زول دراسته العلمية إلى أن تفقه في بلاد المشرق؛ فحج ثم رجع إلى بلاد المغرب؛ ففعد للتدريخ أين أخذ عنه أبو الحسن الصغير، والقاضي ابن أبي يحيى. ودخل إلى تلمسان، وهو في كامل شهرته بالعلم والدين والورع؛ فولي بها خطة القضاء. وقال عنه يحيى بن خلدون: ((فلم يعرض لأخذ الجراية عليه. وفي أيامه قُتل رجلاً حَداً. وكان يخدم نفسه بحمل خبزه إلى الفرن، وشراء نفقته من السوق، ومات في أيام السلطان أبي تاشفين، فاحتفل الناس في حضور جنازته، وحضرها السلطان وقبره عند باب زيزي، من داخل تلمسان، حرسها الله، رحمة الله عليه))¹.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 129.

الدور الثاني

دولة الاخوين: ابي سعيد وابي ثابت

تولي الحكم في هذا الدور: السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن؛ وشاركه في الحكم أخوه أبو ثابت الزعيم. كما أن هذا الدور لا يمثل إلا فترة قصيرة من حياة الدولة العبد الوادية (الزيانية). وهذه الفترة؛ لا تتجاوز أربع سنوات (من 749هـ/1348م إلى 753هـ/1352م). ومع هذا؛ فهي جديرة بحملها اسم "الدور"؛ بسبب اختلافه عن الدور الأول؛ في كونه بدأ بعد فترة غياب دامت تسع سنين؛ انمحت خلالها دولة بني عبد الواد من الخارطة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي تماماً.

ثم أن فرع الأسرة العبد الوادية - الذي تولى الحكم في هذا الدور - لا يتصل تسلسلياً بالسلطان عثمان بن يغمراسن بن زيان، كما هو الحال في أصحاب الدور السابق (من بني عثمان بن يغمراسن). بل ينتمي حكام الدور الثاني هذا إلى

يحيى بن يغمراسن - الأخ الأكبر لعثمان - وولي العهد قبل مماته.

كما يختلف هذا الدور الثاني أيضاً عن الدور الثالث الموالي؛ في أن دولة بني عبد الواد؛ قد انمحت كذلك من الخارطة السياسية للمغرب الإسلامي مدة سبع سنوات. بالإضافة إلى أن شكل النظام في الدور الثالث يختلف كثيراً عما كان عليه خلال الدور الثاني؛ إذ يتميز بالأبهة، ويتصف بالمراسيم السلطانية الواضحة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ يلاحظ أن سلاطين الدور الثالث؛ لا يتتحدرون عن فرع أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن مباشرة؛ بل ينتمون إلى سلسلة أخيه يوسف بن عبد الرحمن.

تولى الحكم في هذا الدور الثاني؛ ملك واحد فقط؛ وهو السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن؛ الذي وصل إلى سدة الملك سنة 749هـ/1348م؛ جراء هزيمة أبي الحسن في القيروان؛ حيث اجتمع مع أبي سعيد - المتواجد حينها ضمن الجيش المريني - جماعة من بني عبد الواد، وأحياء من زناتة ك: بني توجين ومغراوة وبني

راشد. حينما تحالفوا جميعاً مع أعراب إفريقية على حرب أبي الحسن، وكسر شوكته، وطرد جيشه من إفريقية. ولما هزموا السلطان المذكور؛ اتجهوا إلى تونس؛ أين التأم جمع بني عبد الواد، ثم انضم إليهم من ناصرهم من الأعراب، وخرجوا إلى الضاحية؛ فاتفقوا على تقديم الأمير عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ومبايعته ملكاً على بني عبد الواد.¹ وإثر عقد البيعة؛ انطلقوا نحو تلمسان؛ لاستعادة حاضرة ملكهم. وسار معهم بقية زناتة؛ فلما وصلوا إلى شلف؛ اتجه كل فريق إلى موطنه؛ بينما واصل بنو عبد الواد زحفهم نحو موطنهم تلمسان. وكانت هذه المدينة - خلال تلك الأحداث - في قبضة عثمان بن جرار بن يعلى بن تيدكسن بن طاعة الله؛ وهو ينتمي إلى فرع من فروع بني عبد الواد؛ لم يحظ أعضاؤه - في أول

¹ ((وخلص الله منهم نجياً في شأن أمرهم؛ ومن يقدمون عليهم؛ فأصفقوا - بعد الشورى - على عثمان بن عبد الرحمن، واجتمعوا عليه؛ لعهد بهم يومئذ؛ وقد خرجوا به إلى الصحراء، وأجلسوه - بباب مصلى العيد من تونس - على درقة. ثم ازدحموا عليه - بحيث توارى شخصه عن الناس - يسلمون عليه بالإمارة، ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة؛ حتى استكملوا جميعاً؛ ثم انطلقوا به إلى رجالهم)). العبر، مج: 7، ص ص: 239 - 240.

أمرهم - بالاحترام المطلوب؛ من قبل إخوانهم من بني زيان بن محمد بن زكّان. وظلّوا على حالهم؛ بعد قيام الدولة العبد الوادية. فكانوا يشعرون - نتيجة لذلك - بالتهميش والاقصاء. أما عثمان بن جرار هذا؛ فقد التحق بخدمة بني مرين في عهد أبي سعيد عثمان؛ والد أبي الحسن؛ إذ لجأ إليه هارباً من سجن أبي تاشفين؛ الذي سخط عليه بسبب اتهامه بالتطلع للرئاسة، والتطاول في طموحه. فأُسند إليه السلطان المريني قيادة ركب الحج. وبقي على ذلك؛ إلى أن حلّ عهد أبي الحسن؛ وقرر غزو إفريقيا؛ فرافقه في حملته. ولكنه طلب من السلطان العودة؛ حينما كان بالقيروان؛ فأذن له؛ فعاد إلى تلمسان؛ أين اتصل بأبي عنان؛ فأوهمه بقدراته التجيمية، وعلمه بالحدثان. وأخبره أيضاً بنكبة أبيه قبل أن يسمع بها. كما أنه هو الذي أغراه بالوثوب على العرش؛ قبل أن يسبقه غيره من الأسرة المالكة؛ ثم هوّن عليه شأن أبيه؛ وأوهمه بنهايته؛ بل بموته. لهذا؛ أراحته أقواله أبا عنان؛ فأودعه ثقته؛ وقرّر تنصيبه والياً على تلمسان من قبله. اسرتضاء لعصية بني عبد الواد من جهة؛

ومحاولة لتقسيمها إلى شقين متنافسين؛ فتضعف عصبيتهم، ويزول خطرهم.

وبوصول أبي عنان إلى هذا القرار؛ نصب ابن جرار والياً على المدينة وأحوازها، وأسكنه في القصر الملكي القديم؛ ثم نهض إلى فاس؛ حاضرة بني مرين، ومقر ملكهم. ولكن عثمان بن جرار خيب ضنه؛ إذ نقض اتفاقه معه بمجرد خروجه من تلمسان - في سنة 749هـ/1348م - إذ أعلن عن استبداده بالحكم، وجاهر بالدعوة لنفسه؛ وأعاد لبني عبد الواد دولتهم؛ ولكن في فرع آخر غير بني زيان¹. إلا أنه لم ينعم طويلاً بذلك؛ حيث انقضت عليه صقور بني زيان؛ بعد أشهر قلائل؛ قادمين من إفريقية؛ مع أنصارهم وحلفائهم؛ إثر مشاركتهم في نكبة أبي الحسن وهزيمته. ولما سمع سكان مدينة تلمسان باقتراب بني زيان وأنصارهم نحوهم؛ ثاروا بعثمان بن جرار؛ الذي استأمن السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن. فقبل توبته عن مضض؛

¹ قال ابن خلدون في هذا: ((ولما فصل [أبو عنان]؛ دعا عثمان لنفسه، وانتزى على كرسيه، واتخذ الآلة، وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم يكن لآل جرار؛ واستبد أشهراً قلائل؛ إلى أن خلص إليه من آل زيان؛ من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن؛ من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد إلى نصابه)). العبر، مج: 7، ص: 238.

ثم اعتقله عند دخوله تلمسان، والجلوس على عرش أجداده في آخر جمادى الآخرة من سنة 749هـ/1348م. وزج به في المطبق إلى أن مات في شهر رمضان من السنة نفسها.

وبدخول بني زيان إلى المدينة؛ انتصب أبو سعيد عثمان ملكاً عليها؛ وشاركه في الحكم أخوه أبو ثابت الزعيم¹؛ فبادر - من فوره - إلى تنظيم شؤون الدولة: ((فاقتعد الكرسي، وأصدر أوامره، واستوزر واستكتب، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه؛ من شؤون ملكهما، وعلى القبيل والحروب، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه؛ ولزم الدعة))². ووضح هنا؛ أن أبا عنان غرض الطرف عن كل ما جرى في تلمسان؛ لأنه انشغل بما هو أهم؛ من ذلك:

¹ ((واستشعر كل واحد منهما زي الملك، ودان له الناس بالبيعة؛ ومضت في الأحكام والجبايات أوامره؛ إلا أن السرير والمنبر والدينار للسلطان أبي سعيد، والجيوش والألوية والحروب للسلطان أبي ثابت؛ مع تعظيمه لأخيه وبروره به)). بغية الرواد ، ج: 1، ص: 241.

² العبر، مج: 7، ص ص: 243-244.

— مغالبة المنافسين من الأبناء والأحفاد على عرش بني مرين.

— المحافظة على بقاء الدولة المرينية وحمايتها من الأخطار التي تترصد بها.

— السعي لمنع والده أبي الحسن من العودة إلى سدة الحكم بأي ثمن كان.

وعليه؛ فقد اضطر أبو عنان إلى عقد اتفاق مع السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن؛ بغرض التصدي لوالده أبي الحسن ومنع رجوعه إلى فاس. وبالفعل؛ فقد بعث إلى السلطان الزياني إعانات مادية، ومدداً بشرياً؛ من فاس خلال فترات متتالية؛ لمواجهة أبيه وأخيه الناصر ومن معهما. فتولى أبو ثابت الزعيم — صاحب الجيش والحرب بدولة بني زيان — قيادة الجميع؛ حيث اشتبك أولاً مع الناصر بن أبي الحسن وأنصاره؛ ونال منهم جميعاً. ولما قدم أبو الحسن مرفوقاً بأحياء من: الثعالبية، ومليكش، وسويد، وفئة من توجين؛ بالإضافة إلى الناصر ابنه؛ الذي التحق بأبيه مع جمع من أحياء زناتة والأعراب؛ وانتهت المعركة أيضاً بهزيمة أبي الحسن ومن معه، وقتل ابنه

الناصر؛ إثر جراح أَلَمَت به. كما قبض على بناته؛ فتولى أبو ثابت الزعيم بإرسالهن معززات مكرمات إلى أبي عَنان بفاس. أما السلطان أبو الحسن؛ فقد هرب به ونزمار شيخ سويد إلى سجلماسة؛ أين استؤنفت مَاسِيه، وفراره من مكان إلى آخر؛ حتى استقرت به الأحوال عند شيخ هَنَاتَة عبد العزيز بن محمد بن علي؛ أين بقي في ذلك الجبل إلى أن حلَّ أجله بعد مرض عضال.

وبموت السلطان أبي الحسن؛ وفراغ الساحة من جميع المنافسين أمام أبي عَنان؛ حينها؛ أحس أنه لم يعد عرضة للأخطار وتقلبات الأيام، وشعر برسوخ قدميه على الأرض التي يقف عليها، وأيقن بقوة فعالة تحمي ظهره.. قوة يمثلها حجم الجيوش التي تشد أزره. حينئذ؛ أدرك أنه لم يعد في حاجة إلى بني زيان في تلمسان، ولا لغيرهم ممن وقفوا حاجزاً لمنع والده من العودة إلى فاس. عندئذ شمر على ساعديه، وهياً نفسه للانقضاض عليهم في عقر دارهم¹. ولكنه؛ بَحَثَ - كعادته - عن ذريعة تخول

¹ ((وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد، لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين [وسبعمائة]؛

له إعلان الحرب على جيرانه في تلمسان؛ فلم يجد أمامه سوى قضية مغراوة؛ القبيلة المتمردة - التابعة لسلطان الدولة الزيانية - كان أبو ثابت قد ضيق عليهم، واكتسح بلادهم؛ فشفع فيهم السلطان أبو عنان - في الوقت المناسب - بعد أن تغاضى عنهم طوال الفترة التي احتاج خلالها إلى بني زيان. ولما تراخى السلطان الزياني عن الاستجابة لمطالبه؛ وجدها حجة لغزو بلاده. وتحقق ما خطط له بالفعل. فأعلن عن التعبئة العامة، واستنفر جيوشه وقبائله التي لا تحصى؛ وبادر بالزحف حثيثاً نحو تلمسان.

- غزو أبي عنان لتلمسان:

وهكذا؛ لم يرتدع أبو عنان بمصير والده أبي الحسن؛ وما جرى له من هزيمة وانهيار لسلطانه، وتلاشي أحلامه؛ بل تحركت في داخله الجرثومة المتوارثة في أسرته؛ والتي تدفعهم دوماً للمزيد من التوسع على حساب جيرانهم. وعلى هذا؛ فبمجرد وصول الخبر بوفاة والده، والاطمئنان - حينما دفعه

نادى بالعطاء، وأزاح الغلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر، وارتحل يريد تلمسان)). العبر، مج: 7، ص: 598.

بنفسه - بادر من فوره سنة 753هـ/1352م إلى الزحف شرقاً؛ نحو تلمسان أولاً؛ ثم الانطلاق إلى إفريقيا. ويبدو أنه لم يجد صعوبة كبيرة؛ في إسقاط دولة بني زيان؛ نظراً لحداثة عهدها الجديد؛ - إذ مرّ على استرجاعها أربع سنوات فقط - فلم يستكمل أصحابها بناء مؤسساتها بالشكل المطلوب. لذا؛ فقد خسر سلطان بني زيان معاركه المتوالية مع أبي عنان سنة 753هـ/1352م؛ بل قتل هو وأخوه أبو ثابت؛ واحتل بنو مرين - من جديد - تلمسان؛ وعاد بنو عبد الواد إلى حياة التشرّد في الأقطار؛ غرباً وشرقاً. ولم يتوقف زحف أبي عنان عند حاضرة الدولة الزيانية؛ بل واصل توسعه نحو الشرق؛ حيث وصلت جيوشه إلى بجاية؛ التي فتحها صلحاً في السنة المذكورة¹. وأكمل زحفه نحو تونس؛ ولكنه نكب كما نكب والده من قبل؛ وعاد؛ فانكمش ضمن حدود تلمسان التي ضاعت منه أيضاً؛ كما ضاعت من يد أبيه من قبل. وسيأتي لاحقاً شرح ذلك.

¹ ((وفرغ السلطان من حان المغرب الأوسط؛ وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقيا)). العبر، مج: 7، ص: 601.

— العمران والثقافة:

لم يتسن للأخوين: أبي سعيد وأبي ثابت — في وقتهما — الإهتمام بالقضايا العمرانية أو الثقافية؛ إذ كان وقتهما كله مشحوناً بالحروب والفتن. كما أن فترة حكمهما كانت قصيرة جداً؛ لم تتسع للبناء، وتشجيع العلماء على الاستقرار بتلمسان. ومع هذا؛ فلم تخل تلمسان في ذلك الوقت من وجود علماء من أبنائها. وعليه فهذه أسماء بعضهم؛ ممن اهتم بالعلوم الدينية أو العقلية. على أن يترك الحديث عن الشعراء والأدباء للأجزاء الموالية من هذا الكتاب.

1 — الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق. هو ابن أبي عبد الله محمد بن مرزوق الذي دفن بقرب يغمراسن بن زيان سنة 681هـ. وقد ولد ابنه أبو العباس في 2 محرم من سنة وفاة والده؛ أي في عام 681هـ. تعلم في البداية ببلده تلمسان؛ أين أخذ العلم عن الفقيهين العالمين الأخوين: أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني الإمام الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الشهير باسم الإمام؛ وهما في ذلك الوقت قمة العلم في تلمسان. وبعدهما قرأ أيضاً على الخطيب أبي محمد عبد الله

ابن عبد الواحد المجاصي البكاء، والفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي. أما في مدينة فاس فقد أخذ عن الشيخ الولي يوسف بن يعقوب بن علي الصنهاجي؛ وأخذ الفقه عن أبي الحسن الصغير، ثم الفقيه أبي محمد خلف الله، ثم أبي إسحاق إبراهيم القاري، ثم الفقيه أبي محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي ثم الفقيه أبي عمران الزريهني، ثم الفقيه أبي عبد الله المليلي، ثم الفقيه أبي عبد الله بن عبد الرزاق. وكان أبو العباس بن مرزوق هذا من أهل الصلاح والورع والزهد والتقوى. رحل إلى الحج؛ حيث جاور رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة؛ فمات أثناء تأدية مناسك الحج بمكة في عام 741هـ/1340م؛ ودفن بمقبرة المعلى.

2 - الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بالفحام. من أهل تلمسان؛ له خبرة كبيرة بعلم الهندسة الذي يسمى آنذاك: علم الحيل". وقال عنه يحيى بن خلدون: ((أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم؛ سبط سلف صالح؛ ظهر على يديه من الأعمال الهندسية "المنجاة" المشهورة بالمغرب؛ فأثابه عنها ملوكه بألف من الذهب مقسطة على عمال

بلادهم في كل سنة))¹. ويبدو أن يحيى بن خلدون تجنب ذكر اسم الملك أو الملوك الذين منحوا ابن الفحام تلك الجائزة المالية الثمينة. والراجح - حسب بعض النصوص - أن ذلك الملك هو أبو عنان المريني. الذي اكتشف عبقرية ابن الفحام؛ أيام وجوده بتلمسان. حيث شجعه على استكمال اختراعاته. لذا فقد اخترع أول ساعة مائية مسماة بـ"المنقطة"؛ وذلك في يوم 14 جمادى الأولى سنة 758هـ/1357م. وفي هذه السنة كان أبو عنان هو سيد تلمسان؛ بعد أن انتزعها من بني زيان في عام 753هـ/1352م. ولم يستعدها أبو حمو موسى الثاني إلا في سنة 760هـ/1358م. ويبدو أن أبا حمو وجد ساعة المنجاة في بلاط تلمسان؛ بعد دخوله هذه المدينة عنوة، وهزيمة بني مرين. وسيأتي الحديث عن هذه الساعة في الأجزاء الخاصة بالشعر.

3 - الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن زاغو. وهو من كبار أولياء تلمسان المشهورين. ترك خلفا له في هذا البلد؛ وصفهم يحيى بن

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 119.

خلدون بقوله: ((أهل عدالة وثقة؛ أخيار، ديناً
وعلماً؛ بارك الله فيهم))¹. تاريخ وفاته غير معروف.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 121.

الدور الثالث

دولة أبي حمو موسى الثاني

بدأ هذا الدور بعودة دولة بني عبد الواد (الزيانية)؛ وإعلان قيامها - من جديد في عاصمتها التقليدية تلمسان سنة 760هـ/1358م - على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يفراسن: وهذا الدور؛ هو دور الأبهة والسيادة المطلقة. تولى الحكم فيه ملك واحد فقط؛ هو أبو حمو موسى الثاني، الذي حكم من عام 760هـ/1358م إلى سنة 791هـ/1389م (سنة وفاته). كما يعتبر هذا الدور؛ بمثابة الذروة من حيث النظم: السياسية، والاجتماعية، والدينية والثقافية.. الخ؛ وكذا الحال بالنسبة للسيادة المطلقة؛ التي عرفتها الدولة في هذه الفترة.

ومن الواضح أن السلطان أبا حمو الثاني؛ بذل خلال حكمه طاقة جبارة كي يصل بدولته إلى مصاف الدول المحترمة؛ بل حاول أن يجعل منها مناراً للعلم والأدب والفن؛ يسطع - بشعاعه - على المغرب

الإسلامي كله. ولو لم تكنه الأيام والأصحاب؛
لوصل بدولته إلى مراتب في منتهى الرقي والازدهار؛
ولكن عدم استقرار الأوضاع السياسية، وتقادم
الأحوال الأمنية من سييء إلى أسوأ؛ حالاً دون
تحقيق أهدافه النبيلة. ولو حظي هذا السلطان بشيء
- ولو يسير - من السلم والأمان؛ لَتَمَّ له ما
تمناه. لأنه يتمتع بكل الصفات المحققة للنجاح؛
نظراً لما يتحلى به من علم وأدب ومواهب قيادية،
وما يتصف به من حزم ثابت، وخلق سليم،
وطباع خيرة، وما لديه من طموح جامع، وحوافز
نشطة تؤهله للنجاح في مواهب كلها. ولكن: ((ما كل
ما يتمنى المرء يدره)). إذ كانت أيام حكم هذا
السلطان حافلة بالحروب والاضطرابات؛ التي فرضت
عليه، وألزمته الدفاع عن عرشه ومصيره.

فهو من جهة؛ يحارب الدول المعادية له،
ومن جهة أخرى يقاتل القبائل المتمردة عن
سلطانه؛ كما يسعى لإخضاع العمالات الخارجية عن
طوعة أيام المحنة، بالإضافة إلى أنه كان يتصدى
للفتنة التي أشعلها ابن عمه أبو زيان بن أبي
سعيد. وفي الأخير؛ عمل على معالجة عقوق ابنه
وولي عهده أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني. وكانت

نهاية أبي حمو موسى الثاني بواسطة بني مرين؛
خلال معركة دارت بينه وبينهم؛ - هم وحليفهم ابنه
العاق أبي تاشفين - في موضع يسمى الغوران في
جبل بني ورنيد المطل على تلمسان؛ وذلك في سنة
791هـ/1389م.

وقصة وصول أبي حمو موسى الثاني إلى سدة
الحكم بتلمسان؛ يمكن تلخيصها كالتالي: ظهر هذا
السلطان المنتظر - لأول مرة - في تونس بين جموع
بني عبد الواد النازحين إلى تلك الديار؛ هرباً من
بطش أبي عنان. وتقول بعض الروايات أنه كان -
في عهد عمه السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد
الرحمن - مقيماً مع أبيه في ندرومة¹؛ بعيداً عن
بلاط الدولة، وزهداً في مراقبتها، وتجاهلاً لشئون
السياسة. ولما سقطت الدولة، وقتل عمه السلطان
أبو سعيد؛ ظهر فجأة مع عمه الثاني أبي ثابت في
الجزائر؛ أين يكون قد اتجه معه نحو الشرق²؛

¹ بينما يقول عبد الرحمن بن خلدون أنهما بتلمسان: ((كان يوسف بن
عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان؛ هو وولده
أبو حمو موسى؛ وكان متكاسلاً عن مراتب الظهور، متجافياً عن التهلك
في طلب العز، جاثراً إلى السكون ومذاهب أهل الخير)). العبر، مج: 7، ص: 254.
² بغية الرواد، ج: 1، ص: 246. ج: 2، ص ص: 49 - 50. وزهر البستان
في دولة بني زيان، ورقة: 5 و. والعبر، مج: 7، ص: 254.

حيث قبض على عمه في جهات بجاية. وهنا تتضارب الروايات حول دور أبي حمو¹.

المهم؛ أنه ظهر في تونس سنة 753هـ/1352؛² بين من لجأ إليها من بني عبد الواد. وهناك عمل جاهداً - طوال خمس سنين - على تهئية الظروف لاستعادة ملك أجداده. وكان عليه - لتحقيق حلمه - أن يوفر عوامل عديدة؛ منها:

- إيجاد أنصار وأتباع للوقوف معه في حربه ضد بني مرين.

- ثم إقناع السلطان الحفصي بتقديم العون له من أجل الوصول إلى غرضه

الناشيء

¹ انفرد يحيى بن خلدون بسرد حكاية افتداء أبي حمو لعمه بنفسه؛ مفادها أنهم قبضوا عليهم بالقرب من بجاية؛ فادعى أنه السلطان؛ خوفاً عليه من نقمة العدو؛ وتحمل عنه الخطر المحدق به. وهذه القصة يمكن الرجوع إليها في بقية الرواد، ج: 1، ص: 246-247. بينما تجاهل أخوه عبد الرحمن هذه الحكاية؛ وقال: ((ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية؛ أغفل أمر أبي حمو من بينهم؛ ونبت عنه العيون؛ فنجأ إلى تونس، ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين؛ فأكرم نزله، وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه، ووفر جرايته، ونظم معه آخرين من فل قومه)). العبر، مج: 7، ص: 255.

² قال صاحب زهر البستان في دولة بني زيان: ((فكان المولى أبو حمو في جملة من خرج [من الجزائر]؛ وعاین المشقة والخرج؛ فدخل تونس في سادس شوال من عام ثلاثة وخمسين بعد سبعمائة؛ أقام بها خمسة أعوام...)). ورقة: 5 و.

وهكذا؛ فقد سمحت له السنوات الخمس - التي
قضاها في إفريقية - بعقد بعض الصلات الإيجابية
مع أعراب الدواودة؛ وضمن فرع بني سباع منهم
بالذات؛ نظراً لقدم الصلات بينهم وبين بني عبد
الواد؛ العائدة إلى عهد يغمراسن بن زيان؛ ثم أبي
حمو الأول وولده أبي تاشفين الأول. وقد وجد تفهماً
وعوناً كبيرين من قبل هذه القبيلة؛ ذات النفوذ
الواسع في إفريقية. وقد عزز موقفه مع أولئك
الأعراب عاملان اثنان:

أولهما: كرههم لحكم السلطان أبي غان؛ الذي أسقط
عنهم منافع كثيرة؛ منها: ضريبة الخفارة؛ التي
فرضوها على المارة، ثم أبطل وضع اليد على ما
تغلبوا عليه من أملاك وإقطاعات.

وثانيهما: نشر بعض الإشاعات والحكايات؛ المستمدة
من المنجمين وأهل الجفر والحدثان¹؛ الغرض منها

¹ الجفر: ضرب من التنجيم. ومعناه لغة: جلد الثور أو البعير أو ذكر
المعزى - ذات الأربع أشهر - المدبوغ والمدفون تحت سطح الأرض.
وينسب بعض الشيعة عمل الحفر إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛
زاعمين أنه وضع الحروف العربية كلها عن طريق البسط الأعظم داخل
جلد جلد الجفر؛ بغرض استخراج ما في لوح القضاء والقدر. أما المعنى
الاصطلاحي لكلمة الجفر؛ فيقصد به فرع من فروع ما يسمى بعلم
الحروف، أو علم توليد الحروف حسب قواعد معينة، فيقوم صاحب هذا
الفن باستخراج حرف مجهول بواسطة حرف معلوم. ويقولون: أن الجفر
عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل؛ بينما الجامعة لوح القدر؛

بث الوهم في صفوف تلك القبائل؛ لتتساق مع أهداف أبي حمو¹.

ويراد به نفس الكل. أما الحدثان؛ فمفرده: حديث؛ والمقصود بها هنا؛ هي حوادث الدهر. وقد اصطلح على إطلاق هذا الاسم على كل عمل أو خبر له علاقة باستكشاف حوادث غيبية؛ تعود في أصلها إلى أعمال الزيارجية، وخط الرمل، والتنجيم وغيره. وللتوسع في فهم عمل الحدثان؛ يستحسن الاطلاع على ما كتبه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته؛ ضمن (فصل في حدثان الدول والأمم وفيه كلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر). ج: 2، ص ص: 929 - 950.

¹ فمما ورد في كتاب زهر البستان: ((قال الراوي: سمعت من يحدث بظهور مولانا السلطان، وما يكون له من الرفعة والشان. قال: اتفق أن بتونس علماء بالحدثان، وآخرين يتحدثون بالجفران؛ أما أصحاب الجفرانات؛ فأجمعوا على رجوع الدولة لبني عبد الواد؛ وأما الحدثانيون؛ فيقولون في ذلك الزمن فرق الوقت أو كاد. فيروى أن المولى أبا حمو مرّ بالحدثاني المذكور؛ فجعل يتواضع ومن معه من الجمهور. ثم سأل: من هؤلاء الفرسان. فأجيبوا: هذا هو صاحب الواد الشجعان. وقال لمستره [أي لسانه]: هذا ملك هذه العصابة، وصاحب المغرب الأوسط... فانتقل الحديث من الخاص إلى العام، وتفرع على ذلك كثير الكلام. ثم أن الحدثاني طلب على حقيقة علمه، وما يقع به من معرفة حكمه. فأتاه يوماً، وجالسه، وأخذ بالتلطف معه وآتسه، وتلطف له في السؤال عن اسمه؛ ليخبره بما ظهر له في علمه. وكان المولى أبو حمو - مع غربته - مهاباً؛ جعل الناموس ديداناً، والحزم صواباً. فقال له الحدثاني المذكور: ما اسمك. قال: موسى؛ فكبر ثلاثاً. وقال: ستكون ملكاً رئيساً. ثم قال: ما كنييتك. قال: أبو حمو. فقال: أنت الملك الذي بالمغرب يسمو. ثم سألته: هل له من ولد. قال: نعم؛ واحد من العدد اسمه عبد الرحمن. قال: يملك المغرب ويسود به بنو زيان. فاستغرب الحدثاني من شانه؛ وأشاع بكما يكون من سلطانه. فالتصل الخبر بالجفراني؛ فقصد لحيته الحدثاني؛ وقال له: سمعت عنك كيت وكيت. قال: نعم؛ هو أغرب ما رأيت. فقال الجفراني: إن توفرت شروطه المذكورة؛ فله تكون الخلافة المشهورة. ثم قال: حقق نظرك في أمره لعلك تقع على بعض سره. فقال الحدثاني: والله لهو عيناً واسماً؛ وقد قطعت بذلك حكماً وعلماً. فقال الجفراني لمجالسيه من جماعته؛ حين اتضح له الأمر بنصاعته: "ومجرى الماء

وبذلك؛ تمكن هذا الأخير من كسب ثقة
أعراب الدواودة وودّهم؛ حيث انتقل للإقامة بينهم
لفترة ما. وبالفعل تمكن من إقناعهم بضرورة
مساندته، ووجوب دعم خطته؛ لاستعادة ملك أجداده.
وكان له ما أراد؛ حينما تكفل شيوخ الدواودة بإقناع
السلطان الحفصي أبي إسحاق¹ ووزيره ابن تافراكين²
بتجهيز أبي حمو للعودة إلى ملك أجداده في تلمسان؛
حتى يكون بمثابة الحاجز الفاصل بين إفريقية وبني
مريّن؛ وبعد مشاورات ومداولات اقتنع السلطان
الحفصي ووزيره بما اقترحه شيوخ الدواودة. وهكذا؛
تم لأبي حمو مبتغاه؛ بإشفاق السلطان أبي إسحاق

في العيون، العالم بما تخلق به ضمائر القنون، إنه لحق مثل ما إنكم
تنطقون". فشاع الخبر بقولهم عند أهل التوحيد [أي عند الموحدين]،
واتصل الخبر بالقریب والبعيد. ثم اتفقا على واحدة بعد الأمارات؛ إن
كانت فهي خاتمة العلامات؛ وهو أنّه يخرج من الزّاب في جماعته من
الأعراب)). زهر البستان في دولة بني زيان، وركات: 2 و- 2 ظ. وقال
يحيى بن خلدون في هذا: ((فكم ألقى إليه من كتاب في الحدّثان كريم،
وكم بشرى همس له بها أولو قرعة أو تنجيم، وكم رؤيا سمعها المعبر؛
فقرأ: ((وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم)). بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 53 - 54.
¹ هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى بن أبي زكرياء بن أبي إسحاق
ابن أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص. حكم الدولة الحفصية من
سنة 750هـ/ 1350م إلى سنة 770هـ/ 1369م
² هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن تيفراجين (تفراكين أو تفرافين)
التيمنلي. أشهر وزراء بني أبي حفص على الإطلاق. توفي بتونس في
سنة 766هـ/ 1364م.

الحفصي على مساعدته وتجهيزه بما يلزم من آلة وأسلحة ومال.

ويقول يحيى بن خلدون، أن أحاديث الناس عن أبي حمو، وتناقلهم أخباره، وما ذكره أصحاب الجفر والحدثان بخصوصه؛ وصلت كلها إلى أبي عنان؛ فحث والده أبا يعقوب - المتواجد آنذاك بفاس - على مراسلته، وإغرائه بالحضور إلى فاس؛ ولكنه أبى ذلك. ثم طلب من السلطان الحفصي إرساله إليه؛ ولكن هذا الأخير أغفل طلبه؛ بل اصطحبه معه في أواخر شعبان من سنة 758هـ/1356م إلى بلاد الجريد؛ حين استولى غان على بلد الغلاب (غابة)، وهدد أسطوله مدينة تونس¹.

ولما عاد بنو حفص إلى تونس - إثر انسحاب بني مرين إلى بلادهم - واصل أبو حمو مسعاه في تعبئة واستنفار الأعراب؛ كي يعينوه على امتلاك تلمسان. وعليه؛ فقد اختار التنقل مع الدواودة في حركاتهم المضادة لبني مرين في شمال قسنطينة سنة 758هـ/1356م. ولما قرّر بنو سباع - وهم فرع من الدواودة - التوجه إلى الزاب؛ رافقهم أبو حمو

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 53 - 55.

إلى ديارهم. وهناك؛ واصل سعيه؛ أين قابل مجموعة
من أعراب بني عامر - الحلفاء التقليديين لبني عبد
الواد - أثناء مروره بببركة. وكان بنو عامر؛ قد
هجروا ديارهم بضواحي تلمسان، ونزحوا نحو
الشرق؛ بسبب الضغط المسلط عليهم من قبل بني
مريـن وحلفائهم من أعراب سويد. فاتفق أبو حمو
معهم على التكاثر، والتحالف من أجل استرجاع
ملك أجداده من جهة، وعودتهم إلى أراضيهم
ومراعيهم المغتصبة من قبل قبيلة سويد من جهة
أخرى. فوافقوه، وقرروا الزحف معه إلى تلمسان؛
عبر الصحراء. وطبق الانطلاق؛ فاضت مشاعره،
وتحركات دخله أحاسيس الحنين إلى الأوطان
والأحباب؛ فقال قصيدته؛ التي بعثها إلى والده بفاس؛
مبشراً إياه بعودته إلى تلمسان¹. ومما جاء فيها²:

حان الفراق فكنت منه بمنزل

ودنا الرحيل فكنت فيه بأول

¹ وردت هذه القصيدة في كتاب زهر البستان فقط. ورقات: 7 ظ - 8 و. وقد
صححها عبد الحميد حاجيات؛ وأثبتها في كتابه "أبو حمو موسى الثاني
حياته وآثاره" وهي من بحر الكامل.

² ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء المخصصة للشعراء.

وَحَكَّمَ الْبَيْنَ الْمَشْتَتِ وَالنَّوَى
فِينَا بِفَتْكَ سَيْفِهِ الْمَتَكَلِّلِ
وَبَدَا غَرَابَ الْبَيْنِ فِي عَرَصَاتِهَا¹
يَرِثِي عَلَيْهَا مَنْزَلاً فِي مَنْزِلِ
وَالْوَصْلِ وَلَّى رَاحِلاً فِي إِثْرِهِ
قَاضِي الْفِرَاقِ عَلَى كَثِيبِ مَحْجَلٍ²

وكانت رحلة العودة طويلة وشاقة؛ إذ فصلوا
عن أرض الزاب إلى وادي ريغ ثم ورقلة فمزاب؛
فواذي زرقون؛ ثم تسربوا غرباً إلى أن وقعوا على
حي من أولاد عريف من سويد أنصار بني مرين؛
كانوا منتجعين في وادي ملال (أو ملول)؛ فاشتبكوا
معهم، وفكّوا بهم، واستلحموا رجالهم، وغنموا
أموالهم. فرفعت هذه الموقعة معنوياتهم وزادتهم
تصميماً على تحقيق هدفهم بفتح تلمسان. ثم قرّر
أبو حمو - هو وأصحابه - الإقامة بعض الوقت في

¹ البين: هو الفراق. وعرف عن العرب الميل إلى التشاؤم عند سماعهم
صوت الغراب ورؤيتهم شكله؛ إذ كانوا يعتقدون أن نعيق الغراب؛ يجلب
الفراق للأحبة. فعبروا عن تشاؤمهم بعبارة: " غراب البين " أي غراب
الفراق. أما العرصات: فهي الساحات القاضية بين الدور.
² محجل هنا: مشهور.

ذلك الوادي الخصب؛ فأراحوا الظهر، واستعدوا لما هو أهم وأخطر. وحلت غرة محرم سنة 760هـ/1358م - أيام إقامتهم للراحة بوادي ملال - وفي تلك الأثناء وصل إليهم خبر وفاة أبي عنان؛ فانفجرت أفراحهم، وتعاضمت آمالهم، وازدادوا إصراراً وتصميماً على فتح تلمسان؛ وإقامة الدولة الزيانية من جديد.

ويبدو هنا؛ أن أبا حمو أبقى على خطته في الاعتماد على التأثيرات الغيبية التنجيمية - بغرض تشجيع أعراب بني عامر على مواصلة دعمه في حركته. فهذا هو قد اصطحب معه الشيخ المنجم وصاحب الحدثان المدعو أبا زكرياء يحيى بن أبي بكر (سبط عبد المؤمن بن علي)؛ الذي بشره - عند مروره بجبل عياض - بفتح تلمسان والانتصار على المرينيين في حربه. لذا؛ فقد صرخ الحدثاني المذكور مهلاً ومكبراً؛ عند وصول خبر هلاك أبي عنان¹؛ موحياً للناس بأنه صادق في حدثانه.

¹ ((فكير الشيخ أبو زكرياء المذكور؛ لظهور كبرى آياته، وسر بوضوح غرة حدثانه)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 66.

ولما اقتربوا من تلمسان؛ وعلى ضفاف وادي
الصفيف بالتحديد؛ قابلهم جيش بني مرين بقيادة
يغمراسن بن عثمان الورسيفاني (مع الوصي على
الأمير محمد ابن السلطان أبي عنان)؛ وانتهت
الموقعة بهزيمة المرينيين، ومقتل فارسهم علي بن
مسعود الونجاسي. عندئذ؛ اضطر المنهزمون إلى
الاعتصام خلف أسوار المدينة؛ دفاعاً عليها؛ في
انتظار المدد من فاس. ولكن سكان تلمسان خيخوا
آمالهم؛ إذ خرج - في ليلة من ليالي شوال - من
المدينة جماعة من أهلها؛ فاجتمعوا بأبي حمو؛
ودلّوه على عورات البلد؛ ونصحوه بأن يفتحها من
جهة أغادير؛ أين سيجد من يساعده على دخول
البلد. وعلى ضوء ذلك؛ وضع أبو حمو خطته؛
التي تقتضي: أن يُشغل بني مرين بنفسه؛ حين
يتنقل مع الأعراب إلى الناحية الغربية من المدينة؛
بينما يتوجه وزيره المنتظر الحاج موسى بن علي
ابن برغوث - مع بني عبد الواد، وأحياء من
زناتة - إلى الجهة الشرقية. وبهذه الخطة؛ قد يكون
أبو حمو فضل تسبيق بني عبد الواد وزناتة
بالدخول للمدينة؛ لكي لا تتعرض للنهب والفسوق.

ولهذا اصطحب أعراب بني عامر معه إلى الجهة الأخرى. المهم؛ أن ابن برغوث ومن معه؛ دخلوا المدينة من باب العقبة، نحو أغادير بسلاسة؛ في غرة ربيع الأول من عام 760هـ/1358م؛ ففاجأ بنو مريـن، وسقط في أيديهم، ولم تعد أمامهم من وسيلة سوى الاستسلام، ووضع السلاح؛ فاستسلموا عن بكرة أبيهم. ويقول عبد الرحمن بن خلدون؛ أن الأمير الوصي استجار - رفقة الأمير المريني محمد ابن أبي عنان - بصغير بن عامر شيخ بني عامر؛ فأجارهما، وساعدهما على الرجوع إلى فاس¹. بينما يزعم يحيى بن خلدون وصاحب زهر البستان بغير هذا².

وبذلك قامت دولة بني زيان في أزهى حلها؛ بإمرة السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ الذي أبدع وتقن في تطوير نظمها، وتأسيس مؤسساتها. ولمّا استقرّ هذا السلطان على عرش أجداده؛ خفقت جوانحه، واهتزت مشاعره تحركت بذور الشعر في

¹ العبر، مج: 7، ص: 256.

² ((واعترضه [أي اعترض أبا حمو] محمد ولد السلطان أبي عنان، وكافله يغمراسن بن عثمان، وأخوه عمر، وأعلام القوم؛ فباعوا له بالخلافة. ودخل داره الكريمة في أيمن المطالع...)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 76. واتفق معه على هذا الرأي؛ صاحب زهر البستان. أنظر ورقة: 14 و.

داخله؛ فانبثقت عنها قصيدته الغراء¹؛ التي هي بمثابة الملحمة؛ إذ سجل فيها رحلته الطويلة؛ انطلاقاً من بلاد الزاب إلى تلمسان؛ حتى دخلها عنوة، وطرده بني مرين منها؛ كما سجل فيها ما وقع له من أحداث أثناء زحفه؛ ونوه أيضاً بصدق أقوال أهل الجفر والحدثان²؛ ثم أشار إلى عامل تعبوي دعوي آخر؛ أعلنه قصد كسب مزيد من الأنصار؛ ألا وهو الانتساب إلى أهل البيت؛ عبر الانتماء إلى بني القاسم الأدارسة³:

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم⁴
لما شحطتها⁵ من هبوب الرواكم

¹ هذه القصيدة - حسب ما جاء في زهر البستان - نظمها أبو حمو قبل فتح تلمسان؛ وأثناء رحلته إليها. وليس بعد الفتح كما يستوحى من قول يحيى بن خلدون. بغية الرواد، ج: 2، ص: 76. وزهر البستان ورقة: وظ.

² وهذه القصيدة من البحر الطويل؛ وردت - بالإضافة إلى بغية الرواد - في كتابي: زهر البستان وواسطة السلوك؛ ولكنها جاءت بشكل مخالف - في ترتيب أبياتها - على ما هي عليه في بغية الرواد. كما أن نسخة زهر البستان مليئة بالأخطاء وكتبت بخط رديء.

³ سنأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء المخصصة للشعراء.

⁴ الرسم جمع رسوم وأرسم: ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار. وطسم طسماً الشيء: طمسه وأخفاه.

⁵ الشَّحَطَ والشَّحَطَ: البعد.

وقفت بها مستفهما بخطابها¹
وأَي خطاب للصلاد الصلادم²
وسرت على جون أقب مضمّر³
كلمة برق أو كلمة صارم

وبمجرد دخول أبي حمو إلى تلمسان؛ واستقراره في قصره؛ أمر بخروج من بقي من بني مريد في المدينة؛ فخرجوا في اليوم نفسه؛ ولم يبق منهم أحد⁴. ثم بادر من فوره إلى ضبط إدارته، وترتيب شئون الحكم، وإحصاء ما وجد من إمكانيات ومتاع، وجمع كل ما تركه المرينيون في الخزائن والأهراء، وما احتوت عليه من نخائر وسلع وزرع؛ كما استولى على الهدية التي جهزها أبو عنان كي يرسلها إلى ملك قطلونة بالشمال الشرقي من

¹ كتبت في زهر البستان واسطة السلوك: ((الخطابها)). ويبدو أنه الأصح. أما كلمة ((مستفهما)) فكتبت في زهر البستان: ((مستخبرا)).
والراجع هي كلمة ((مستفهما)) كما جاء في بغية الرواد واسطة السلوك.

² حَجَرٌ صَلْدٌ: صَلْبٌ أَمْلَسَ. ويقولون: (جَبِينٌ صَلْدٌ)، (ورأس صَلْدٌ صُلَابٌ): الذي لا ينبت فيه الشعر.

³ في واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية): ((وسرت على جون أقب مشحب)). الجون: يقصد به الحصان الأسود اليعمومي، والأسود المشرب حمرة. والقَبُّ والقَبْبُ: دقة الخصر وضمور البطن. والخيْلُ القَبْبُ: الضواير. قال هذا البيت في وصف حصانه.

⁴ بغية الرواد، ج: 2، ص: 95. زهر البستان، ورقة: 14 و.

الأندلس¹. واستفاد أيضاً من خراج عامين كاملين بقي مجمداً لدى العمال².

ولما اطمأن على أوضاع البلد؛ نظر في تشكيل حكومته، وتصيب وزرائه. وخلال ذلك - وبالتحديد في الثالث والرابع من أيام ربيع الأول - بدأت الوفود تصل إلى تلمسان للتهنئة والمبايعة؛ من بينهم وفود: ندرومة ووجدة وهنين. ثم عقد مجلسه للتهنئة والبيعة؛ حرص فيه على مكافأة أنصاره؛ فبدأ بأعراب بني عامر الذين قدرهم يحيى بن خلدون بثمانية آلاف: ((فكسا كلا منهم على قدره، ونفل خواصهم الخيل المسومة، والسروج المرفهة، والعدد المحلاة بالعسجد أو اللجين، ثم المال المتعدد))³. وإثرها التفت إلى أهله وعصبته من بني عبد الواد؛ فجهز منهم - في يوم واحد - ألف

¹ ولكن صاحب زهر البستان قال أنها كانت موجهة إلى سلطان بني نصر. أنظر ورقة: 18 و. أحصى بعضها يحيى بن خلدون؛ فقال: ((من خيل عتيقة، وسوج مفرغة ركابها من ذوب اللجين، ولجم موشية، وأسباب مختارة)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 96.

² ((ومن العجايب أيضاً؛ أن خراج عامين عند الولاة؛ وجده عوناً على المعضلات؛ لا يخرج قائد إلا وجده بخراجه معه، ولا يعطي وال صفقة يده حتى يعطي ما جمعه؛ فأتسعت يده في الأموال، وظهرت إمارة اليمن والإقبال؛ فاستعمل بأسباب الهدية المجال الوافرة، وركب بجيوش منظافرة؛ تأمل سلطانه للحين)). زهر البستان، ورقة: 18 و.

³ بغية الرواد، ج: 2، ص: 99.

فارس: ((يكسي الرجل منهم بقدره، ويُدفع إليه فرسٌ مسرج ملجم، ومهماز، وسيف، ورمح، وثلاثة من الذهب، وعشرون برشالة¹ من القمح، وثلاثون من الشعير. على هذا مضت سنته فيهم؛ إلى أن ركبوا من عند آخرهم²)).

ثم حلت ليلة الميلاد النبوي - أثناء انهماكه في ضبط دولته، وتنظيم إدارته، وعقد سلك جيشه وأنصاره - فجهز نفسه لاستقبال تلك المناسبة الكريمة بحفاوة عظيمة؛ لم تشهدها تلمسان قبل عهده. إذ جعل كل اهتمامه في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؛ جاعلاً من هذا العيد؛ سنة ثابتة وعادة منتظمة؛ رسخت في وقته كعيد ديني بهيج؛ توالى واستمرت ذكراه في دولته؛ إذ أورث أبو حمو أولاده وأحفاده مراسيم هذا العيد عاماً بعد عام إلى أن سقطت الدولة الزيرية نهائياً³. وكان يحضر الحفل

¹ برشالة أو برجالة: وحدة قياس لكيل الحبوب. والبرشالة الواحدة تساوي - في تلمسان - 12 رطل ونصف.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 100.

³ وصف يحيى بن خلدون أحد الأعياد بمناسبة المولد النبوي في بلاط أبي حمو؛ قال فيه: ((فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ومشامع كتها الاسطوانان القائمة على مراكز الصقر المموهة؛ والخليفة أيده الله صدر مجلسها؛ مغطاً سرير ملكه؛ يسر الناظرين رواؤه، ويثلج الصدر عزه، وتحار في كمالات خلاله اللهي؛ حفافيه من التجلة من

بنفسه، ويفتح أبواب مشوره للاحتفالات، التي يجتمع فيها شعراء وأدباء تلمسان؛ إلى جانب أهل الطرب والسماع، إذ يشارك هذا السلطان أدباء المدينة في إحياء العيد، ويصوغ معهم أشعاراً تلحن وتغنى في هذه الليلة المباركة؛ فيخاد بتلك الأشعار هذه المناسبة الشريفة. ومما قاله في ليلة المولد الأولى:¹

دمع ينهل من المقل
لقبيح كان من العمل
وجوى في الصدر له حرق
فالقلب لذلك في شغل

قومه، وأعيان الطبقات - من أهل حضرة خلافته - على مقاعد عينها الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب؛ تخالهم قطع الرياض النضرات؛ قد أغضى الجلال من أبصرهم، وخفضت المهابة من أصواتهم؛ فلا تبصر إلا جمالاً، ولا تسمع إلا همساً؛ يطوف عليهم ولدان اشعروا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات بغي - دخان عنبر تلك المفعم للأناف - الجو؛ فتمطر هذا الحفل وابلًا من ماء الورد المنسوب إلى نصيبين؛ وخزانة المنقانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنوع تجاهه...)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 101 - 102.

¹ ورتت هذه القصيدة في زهر البستان بواسطة السلوك؛ ولم يذكرها صاحب بغية الرواد. وهي من بحر المتدارك (أو المحنث). نظمها أبو حمو بمناسبة إحياء أول عيد ميلاد نبوي في تلمسان أشرف عليه بنفسه. وهذا ما ذكره صاحب زهر البستان؛ أما يحيى بن خلدون؛ فأورد قصيدة أخرى نسبها إلى هذه المناسبة الأولى؛ وهي أيضاً من بحر المتدارك، ومطلعها هكذا:

نام الأحباب ولم تنم عيني بمصارعة الندم
والدمع تحدر كالديم جرح الخدين فوا ألم

بغية الرواد، ج: 2، ص: 104.

ونهيّت النفس فما ازجرت¹
وتولى الصبر فما حيّلي²
ناس ركبوا التقوى ولقد
ركبت نفسي طرق الزلل³

وبعد المولد؛ وافته أيضاً وفود المباعين
والمهثئين؛ إذ مثلت بين يديه وفود: مستغاثم،
وتمزغران، والبطحاء. أما بقية المدن والمقاطعات؛
فقد ظلت في تلك الأثناء خاضعة للمرينيين. وعليه
فقد قرّر استعادة ما ضاع من أملاك الدولة؛
بطرد ولاية بني مرين منها؛ فبدأ بوهران؛ حيث
جهّز وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث؛
بما يلزمه من عدة ورجال؛ قصد التضييق على
تلك المدينة الساحلية؛ لأخراج المرينيين منها؛ ولكن
هذا الوزير سقط أسيراً في يد الأعداء - في 8 ربيع
الثاني من سنة 760هـ - ونقل عن طريق البحر
إلى المغرب الأقصى.

¹ في واسطة السلوك: ((فما قبلت)).
² هكذا في واسطة السلوك؛ وهو الصحيح. أما زهر البستان فالشطر فيه:
((وثناء الصبر في حيل)). وهذا غير سليم.
³ في واسطة السلوك (المخطوط): ((ركبت نفسي على طرق الزلل))؛ وهذا طبعاً
يخل بالوزن؛ والصحيح ما ورد في زهر البستان وواسطة السلوك (المطبوع).

وشجعت هذه الواقعة بقية بني مرين؛ حيث استجاب وزير الدولة المستبد - الحسن بن عمر الفودودي - لتحريض أعراب أولاد عريف بن يحيى السويديين؛ فأرسل معهم ابن عمه مسعود بن رحو ابن ماساي الفودودي؛ بغرض فتح تلمسان؛ غير أنهم هزموا إثر مناورة تعبوية قام بها أبو حمو بعد خروجه من تلمسان؛ التي عاد إليها مكللاً بالنصر في يوم الإثنين غرة جمادى الآخرة؛ أي بعد 28 ليلة من الغياب¹. وبعودته غانماً؛ خافه والي وهران المريني المدعو أحمد بن أجاتا؛ فأسلمها وفرّ هارباً بمال كان في ذمته؛ فضبط وأسر؛ ثم نُقل إلى أبي حمو؛ فعفا عنه، ومنحه المال الذي وجد في حوزته، وسمح له بالعودة إلى المغرب. وبهذا الشكل أيضاً عامل قائد بني مرين على تنس؛ الذي أسر كذلك بعد فتح المدينة؛ فعفا عنه ومنحه المال الذي ضبط عنده.

ويبدو أن بني مرين مالوا إلى الصلح مع أبي حمو؛ بعد فشلهم في كسر شوكته وعجزهم عن الاحتفاظ بتلمسان؛ خاصة وأنهم كانوا يعانون من

¹ انظر تفاصيل هذه المناورة في بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 124 - 129. وزهر البستان، ورقات: 18 ط - 20 و. والعبر، مج: 7، ص ص: 256 - 258.

وهن وانقسام في صفوفهم. لذا فقد أرسلوا أبا زكرياء يحيى بن موسى الجمي (القمي) - وهو أحد أعيان الدولة العبد الوادية السابقين - أرسلوه إلى أبي حمو: ((بعقد مشهود إنلزموا فيه الصلح))¹. ونتيجة لهذا الصلح؛ سمح المرينيون لوالد أبي حمو أبي يعقوب يوسف، وابنة عبد الرحمن بالعود إلى تلمسان². فاستقبلا عند وصولهما بحفاوة عظيمة؛ وظل الاحتفال قائماً سبعة عشر يوماً³.

عندئذ؛ انتهز أبو حمو فرصة وجود والده؛ فجهزه بمحلة كبيرة؛ لتمهيد البلاد الشرقية؛ ثم أطلق يده على كل ما فُتح من تلك البلاد. فخرج إليها يوم الإثنين رابع شعبان من عام 760هـ؛ فأخضع العباد ومهد البلاد؛ ودخل لمدينة واستعد لوصولها ببقية المدن الشرقية.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 128. وجاء في زهر البستان: ((وقد كان صلحهم على من بقي في البلاد الشرقية من أناسهم؛ وخوفاً من بني عبد الواد وبأسهم)). ورقة 20 و.

² كان قد جلبهما أبو عنان من مستقرهما في ندرومه، ونقلهما إلى فاس؛ عندما احتل تلمسان في سنة 753هـ/1352م.

³ خصص صاحب زهر البستان فصلاً؛ شرح فيه هذه المناسبة. ورقات: 23 ظ - 25 ظ.

وفي أواسط شوال¹ من العام المذكور؛ وصل إلى
تلمسان القائد المحنك أبو محمد عبد الله بن
مسلم الزردالي²؛ فاستقبله أبو حمو بحفاوة كبيرة؛

¹ يرى صاحب زهر البستان أن وصول عبد الله بن مسلم إلى تلمسان كان في أواسط شهر رمضان. ورقة: 29 و.
² قال صاحب زهر البستان: ((اعلم أن عبد الله بن مسلم هذا؛ سيد بني زردال [من بني عبد الواد]، وشهم حماثم الأبطال؛ استوطن المغرب؛ حين خرج بنو عبد الواد من تلمسان؛ وأقام بالمغرب إلى أن ولاه القيادة أبو عنان. وذلك لما ظهر له من نجابته، وكفائته، وخدمته، وشهامته. ولاه وادي درعة وأنحاه، وحكمه في ذلك الإقليم، واستحسن واستوطن؛ فمهدا له أتم تمهيد، وسكن عفتها، وأنس من التشريد، واستمال قبائل تلك الجهات بإحسانه، ولاطفهم حتى عادوا كإخوانه؛ فساد على غيره بذلك الوادي، وطاوعته أهل تلك البلاد؛ فكان بها كالأمير المطاع، والرئيس ذي الاتباع. فنمت بولايته الجبايا، وصلحت بقياده الرعايا؛ فخص عند أبي عنان؛ فاقره بذلك المكان، فلم يزل به إلى أن مات [أبو عنان]؛ فولى السعيد؛ وتمادت ولايته من بني مرين؛ كما يريد؛ إلى أن فتح الله على المولى أبي حمو البلاد، وبلغه في أعداء مراده، واتصل علمه؛ أنه بحضرة تلمسان؛ وأنه تملك ما كان لأسلافه من الأوطان. كتب له - من تلك البلاد - يهنئه، ويعلمه أنه عبده وابن عبده؛ بما يأمره به يمضيه. فكتب له أبو حمو باستخدام أهل تلك البلاد؛ واستجلابهم لدعوة بني عبد الواد؛ وأن يجمع عليه قبيله، ويسير كثيره وقليله؛ وأن يضم لخدمته من يعتمد عليه، ويقرب من يصف للخدمة إليه، وأن يحض الأعراب على خدمة بني زيان، وأن يقوموا على دعوته في تلك الأوطان؛ وأنه إذا انقضى بالفتح بقية البلاد فيصرف وجهه لقبلة المغرب؛ بما تيسر من الأحشاد. فلم تزل المراسلات بينه وبين مولانا السلطان، والأوامر الزياتية تجري على يديه في تلك الأوطان؛ إلى أن استخدم كثيراً من أهل تلك الجهات، وطاعت له العرب، وركنت للموالاة. فطال أمره؛ إلى أن هم بالوثوب على سجلماسة. وذلك من الشبهات والرياسات. فبينما هو يحاول الوثوب عليها، ويتحایل في التوصل بمحاولة إليها؛ إذ أتاه آت؛ أخبره بقدم أبي سالم؛ وأنه أطاع له المغرب، وخدمته جميع الأقاليم؛ فنظر؛ أن محاولته لذلك تفررت؛ لكن تلك المقدمات قد أثرت.

وأسند إليه وزارته، وأسكنه في قصر كبير وزراء أبي تاشفين، وخصه بقيادة جيشه. وكلفه بدعم والده أبي يعقوب في تمهيد النواحي الشرقية، إلى حدود بجاية؛ ثم أطلق يده، وفوضه فيما يراه صالحاً للدولة. فخرج بدوره من تلمسان قاصداً تمهيد الجهات المشار إليها، وإخضاع المدن والقبائل التي كانت تابعة للدولة الزيانية. فبدأ بشلف ثم اتجه نحو مليانة؛ حيث تصدى له القائد المريني المدعو يحيى ابن علي؛ فهزمه عبد الله بن مسلم، وطارده إلى مليانة؛ أين التقى - عند أطرافها - أبا يعقوب؛ فحاصراها معاً؛ ودخلها عنوة في سابع ذي القعدة من عام 760هـ؛ حيث أسر من كان فيها من بني مرين؛ بالإضافة إلى يحيى بن علي المذكور؛

وسمع أن أبا سالم عزم على ملاقاته بني عبد الواد؛ فأخذته حمية الكرام الأنجاد؛ فأخذ في شأن القدوم على مولاه؛ وذلك ما نظره ورآه؛ وأنه لا عزة إلا في قومه الكرام، ولا ضرب إلا أمامه بالحسم. فجمع أمره على القدوم، وأبرمه وعقد عقده بالخلاص وأحكمه؛ فاستعمل هدية سنية كأنها لأبي سالم؛ وهو يريد بها المولى أبا حمو ذو(?) المكارم؛ أخرق في عملها المعتاد، ومد يده فيما يستحسن وزاد؛ وولف الرزق والعدد، وأخذ من ذلك الوادي أحسن ما وجد. ثم جمع عليه قبيله، وحمل كثيره وقليله؛ وارتحل حاكماً نفسه ومن معه)). ورفات: 28 و - 28 ظ. أنظر أيضاً الفصل الذي خصصه عبد الرحمن بن خلدون لعبد الله بن مسلم في كتاب العبر، مج: 7، ص ص: 258 - 260.

ثم أضافوا إليهم أسرى لمدينة؛ فأضحوا زهاء خمسمائة؛ أرسلوا بكاملهم إلى تلمسان؛ باستثناء يحيى ابن علي الذي قتل.

وبينما تجري هذه الأحداث بتلمسان؛ كانت فاس حبلى بالأحداث والتغيرات؛ إذ تغلب على الحكم فيها أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن؛ فجمع الشمل، وضبط الأمر. ولما انتهى من تمهيد الحكم في المغرب الأقصى؛ انثنى لِمَا يجري في تلمسان؛ إذ غضب لخروج عبد الله بن مسلم عن الدولة المرينية؛ وانحيازه لأبي حمو؛ حاملاً معه خراج الدولة، وساحباً خلفه بعض أحياء المعقل؛ أين التحقوا جميعاً بتلمسان؛ كما استاء أيضاً لسقوط مجموعة من بني مرين أسرى في أيدي السلطان الزياني. أضف إلى ذلك كله؛ الشكوى التي وصلتته من الجزائر.¹ وعليه؛ فقد استقاد أبو سالم - كغيره من ملوك الدولة المرينية - من هذه الذرائع الجاهزة؛ فأرسل لأبي حمو يطلب منه إطلاق سراح الأسرى، وإرجاع أحياء المعقل إلى ديارهم. ولما

¹ هذا ما أشار إليه عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى: العبر، مج: 7، ص: 260. وبغية الرواد، ج: 2، ص: 146. أما صاحب زهر البستان؛ فحصر السبب في الشكاوى المتتالية التي بعث بها المرينيون المقيمون بالجزائر. ورقة: 36 و.

رفض السلطان الزياني تلبية طلبه؛ أعلن التعبئة العامة؛ وجهز جيشه بالعدة والعدد؛ وانطلق نحو تلمسان في منتصف عام 761هـ/1359م.

ولما وصلت أخبار التعبئة التي قام بها أبو سالم للسلطان أبي حمو؛ بعث لإحضار والده أبي يعقوب ووزيره عبد الله بن مسلم من شرق البلاد؛ حيث قرّر - بعد مشاورات - الخروج من تلمسان؛ والقيام بالمنافرة المعتادة منذ يغمراسن؛ لإجبار المرينيين على العودة إلى ديارهم. وهكذا كان؛ فمجرد دخول أبي سالم إلى تلمسان؛ بادر أبو حمو باكتساح مواطن المرينيين؛ إذ نازل ووطاط، والبلاد المطلة على ملوية، وكرسيف؛ فخرّب العمران، وأشعل النيران، وأفنى الزرع، وساق الضرع¹. فذهل أبو سالم، وخاف من تعاضم الفساد، وخروج العباد؛ فسارع إلى تكليف الأمير

¹ ((وخيم إزاء أقرسيف [أقرسيف] من قرى ملوية، فأخنتها من الغد عنوة سيفه؛ واجتاح الناس ما كان بها من كراع، ومتاع، وزروع؛ ثم أحرقوها؛ فأمست رميماً؛ وأدلج نصره الله مع الوادي صعداً؛ ومر بقرى: أرجو ووطاط، وتامنصرت؛ فأغرى بها الغفاء؛ وتركها حصيداً؛ كأن لم تغن بالأمس؛ وأمّ ثنية تاغروطت المفضية إلى مدينة فاس؛ مصمماً لحصارها؛ وتنادى أهل تلك القرى بالثبور حاشرين؛ وطاروا إلى ملكهم في تلمسان بالخبر؛ فلم يسعه إلا حماية دار ملكه)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 176 - 177.

محمد (القبي)¹ بن عثمان بن أبي تاشفين المكنى
أبا زيان؛ بولاية تلمسان، وزوده بالآلة والمال،
ودعّمه بجماعة من بني توجين، ومغراوة؛ قدموا في
جملته من المغرب؛ ثم أسكنه قصر أبيه. وعاد
هو إلى فاس؛ بعد أن أقام في تلمسان خمسة أيام².

وكان أبو زيان القبي هذا مقيماً إجبارياً في
المغرب الأقصى؛ بعد سقوط دولة جدّه أبي تاشفين.
ولما عزم أبو سالم على غزو تلمسان اصطحبه
معه. وأسند إليه ولاية بلده؛ نكاية في أبي حمو.
ولكن جيش هذا الأخير؛ زحف نحو حاضرة
الدولة؛ بعد عودة أبي سالم إلى فاس. فخافه القبي،
وخرج مهزوماً ومتثقلاً بين: البطحاء، ومليانة
ووهران ووانشريس في حزن من بها من بني
مرين، ومن انحاز إليهم من مغراوة، وتوجين. ولما
خسر معاركه كلها مع جيش أبي حمو؛ عاد إلى
فاس.

وإثر ذلك؛ وضعت الحرب أوزارها بين
الطرفين؛ ومال أبو سالم وأبو حمو إلى السلم؛
فبعث هذا الأخير ولده أبا تاشفين إلى فاس سنة

¹ أي عظيم الرأس.

² زهر البستان، ورقة: 38 و.

762هـ/1360م لعقد معاهدة الصلح والاتفاق على السلام. ولكن إصرار السلطان المريني على الاحتفاظ بوهـران أفسد النوايا، وأفشـل المسعى¹. وعاد الشنئان والخلاف بين الطرفين إلى سابق عهده؛ خاصة بعد موت أبي سالم. ((ورجع السلطان أبو حمـو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين؛ فافتتح كثيرها، وغلب على مليانة والبطحاء، ثم نهض إلى وهران، ونازلها أياما واقتحمها غلاباً، واستلحم بها من بني مرين عدداً؛ ثم تغلب على المدينة والجزائر))².

وفي هذه الأثناء؛ دخلت الدولة المرينية في دوامة من الصراعات والخلافات؛ حيث انتصب على عرشها عدد من السلاطين المغلوب على أمرهم. وقد أرسل السلطان أبو حمـو دلوـه هذه المرة في تلك المياه الساخنة؛ إذ استدعى الأمير عبد الحليم ابن أبي علي بن أبي سعيد بن يوسف بن عبد الحق من غرناطة؛ وواعده بمساعدته على انتزاع العرش المريني من أيدي منافسيه. وبالفعل؛ قدم الأمير المذكور؛ فاستقبله أبو حمـو بحفاوة وإكبار في

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 197 - 198.

² العبر، مج: 7، ص: 261.

غرة ذي الحجة من عام 762هـ/1360م؛ وجهزه بما يلزم من آلة ومال وعتاد ورجال. غير أنه اشترط عليه القبض على ابن عمه أبي زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وإرساله إليه. فقبض عليه؛ ولكنه فرّ كما سيأتي ذكره. وخلال ذلك؛ وفد على باب أبي حمو؛ محمد بن السبيع بن موسى ابن إبراهيم اليربوعي؛ وهو من كبار أعيان الدولة المرينية؛ قدم لاجئاً إلى تلمسان هارباً من خصومه في فاس وكان شاعراً؛ فمدح السلطان الزياني بقصيدة طويلة؛ استلهاها بقوله¹:

تطاول ليلي فاستقز منامي

وطال سهادي فاستطال سقامي

وحرّم سبعاً ليس للنفس بعدها

مقام فطيب العيش جد حرامي

منامي وعقلي والفؤاد وسلوتي

وصبري ولبي والتذاذ طعامي

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 200 - 201. وزهر البستان، ورقات: 56 ظ - 57 و.

فأجابه السلطان أبو حمو بقصيدة غراء قال فيها¹:
تَذَكَّرْتُ أَطْلَالَ الرَّبُوعِ الطَّوَّاسِمِ
وما قد مضى من عَهْدِهَا الْمُتَقَادِمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ بُعْدِ أُنَيْسِهَا
بصبرٍ منافي² أو بشوقٍ مُلَازِمِ

وبعد انقضاء عيد الأضحى؛ وفد آخرون من
بني مرين إلى تلمسان؛ لمبايعة الأمير عبد الحليم،
والمسير في ركابه. فأحسن إليهم أبو حمو - وإلى
الأمير المريني - بالمال والكسي الثمينة، والأسلحة
الجليلة، والظهر الفاره المناسب، كما خصّ ضيفه
عبد الحليم بشارة الملك؛ وأمر المرينيين الواصلين
من الجزائر ببيعته؛ كما أُسْنِدَتْ وزارته إلى محمد
المبيع المذكور؛ ثم خرج أبو حمو بنفسه لتوديعهم؛
في يوم السبت 22 من ذي الحجة سنة 762هـ؛ وأمر

¹ سياأتي تمام هذه القصيدة في الأجزاء الخاصة بالشعراء. وهذه القصيدة
من البحر الطويل؛ وهي موجودة في بغية الرواد، ج: 2، وزهر البستان،
وواسطة السلوك في سياسة الملوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية).
والإحاطة في أخبار غرناطة.
² أي بصبر زائد وطويل.

بأن تصحبهم مفرزة من بني عبد الواد إلى تخوم بلادهم؛ فانطلقوا معهم إلى وادي ملوية؛ ثم عادوا.¹
وقد حاول أبو حمو استغلال فرصة ضعف المرينيين وميلهم إلى الهدنة ورغبتهم في وضع السلاح. فالتقت إلى بناء دولته، وتنظيم إدارته، وتعمير تلمسان بالمرافق اللازمة. كما حرص على تمهيد الديار الشرقية وتطوير قبائلها المتمرّة. فبعث وزيره عبد الله بن مسلم إلى تلك الجهات؛ فمهد البلاد، وأخضع العباد: ((فاستضاف لإيالة الخليفة - نصره الله - وطني: حمزة، وبني حسن، وجاس خلالها الوادي الكبير؛ ثم عرج ذات اليسار؛ أخذاً على ثنية تاغوزت، وببطار؛ فاستضاف أيضاً زواوة وما إليها)).²

وكان والد السلطان أبي حمو - أبو يعقوب يوسف - مقيماً في مدينة الجزائر بعد فتحها. فوافقه المنية بتلك المدينة؛ في أوائل شعبان من سنة 763هـ/1361م؛ فجُهِز، ونُقل إلى تلمسان في جنازة مهيبة. ولما وصل جثمانه استقبله أبو حمو بحزن وخشوع؛ ثم دفنه في رياض موجودة بباب إيلان؛

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 213 - 214.

² نفسه، ص ص: 226 - 227.

ونقل جثمانى أخويه: أبى سعيد وأبى ثابت إلى جواره.
وبعدها توافدت وفود العزاء من المغرب وربوع
الدولة. وبعد الدفن؛ أمر ببناء مدرسة وزاوية على
قبور والده وأعمامه؛ خصّصت لها الأوقاف اللازمة
وعيّنت لها الجرايات الكافية. وكان أبو حمو قد
نظم قصيدة في رثاء والده جاء فيها:¹

صب تذكر عهداً بالحمى سلفاً
فظل يسكب دمعاً هاطلاً وكفاً
وبات من شدة الإشراف في قلق
وخامرت عقله الأفكار فانثاقا

وبعد انتهاء مراسم الجنازة؛ تفرغ أبو حمو
لبناء دولته من جهة، ومن جهة أخرى انشغل في
إطفاء نار الفتنة التي أشعلها ابن عمه أبو زيان
محمد بن أبى سعيد عثمان بن عبد الرحمن.

¹ ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء الخاصة بالشعراء. ولم ترد هذه
القصيدة إلا في زهرالبستان؛ نظمها أبو حمو في بحر البسيط. ونقلها
حاجيات إلى كتابه ((أبو حمو موسى الثاني حياته وأثاره)). أما يحيى بن
خلدون؛ فقد انفرد بإثبات قصيدة أخرى؛ نسبها إلى هذا المناسبة؛ من بحر
الكامل؛ ومطلعها هكذا:

دنفاً تذكر حسرة التوديع وهنيّ وصل بالنوى مقطوع
ولما عرا من فقد خير أحتي ومرارة التوديع والتشييع
فبكيت من أسفٍ لذاك كما بكيت حزناً عليه منازلٍ وربوعي

وهذا الأمير هو ابن السلطان أبي سعيد عثمان؛ الذي قتله أبو عنان في عام 753هـ/1352م؛ بعد معركة أنكاد. حينها كان هذا الأمير رفقة عمّه أبي ثابت وأبي حمو والوزير يحيى بن داود بن علي بن مجن (مقن)؛ في طريقهم إلى إفريقية؛ أين قبض عليهم في نواحي بجاية؛ بينما أفلت أبو حمو - كما قال يحيى بن خلدون - واستقر بتونس. ولما مثلوا أمام أبي عنان؛ قتل أبا ثابت الزعيم، والوزير ابن داود؛ وأبقى على حياة أبي زيان؛ واكتفى بسجنه.

ولما تولى أبو سالم؛ وتطلع إلى امتلاك تلمسان؛ اختار - في البداية - أبا زيان بن عثمان ابن أبي تاشفين (القبي)؛ ولمّا فشل في مواجهة أبي حمو؛ عوّضه بأبي زيان ابن السلطان أبي سعيد؛ الذي سبق أن أخرجه من السجن، وضمه إلى جلسائه؛ بين الأعيان وكبار القوم. غير أن خطة أبي سالم ماتت بموته؛ فزُجَّ - من جديد - بأبي زيان في السجن؛ خلال الصراع على السلطة بين أمراء بني مرين؛ ولكنه انتهز غفلة المكلفين به؛ فهرب إلى بني حسين من أعراب المعقل؛ ومنها انتقل إلى

أحد أحياء بني عامر؛ أين أوقعه حسن حظه في حلة الشيخ خالد بن عامر؛ الذي كان أيامها مغاضباً لأبي حمو؛ بسبب إثارة أخاه شعيباً عليه في رئاسة قبيل بني عامر¹. وعلى هذا؛ فقد لبى طلب أبي زيان؛ وأجاره، وواعده بالحماية والمناصرة ضد ابن عمه السلطان. وبالفعل؛ حاولا التقدم مع مؤيديهما نحو تلمسان؛ ولكن خبرهم وصل إلى أبي حمو؛ فبادر بتسريح عسكر لتأديبهم؛ فشتتوا شملهم، وأبعدوهم عن حاضرة الدولة. ثم أن أبا حمو؛ استمال شيخ بني عامر، وأرضاه ببعض المال؛ طالباً منه إقصاء أبي زيان إلى بلاد رياح؛ ففعل؛ ونقله إلى ديار الدواودة. ومنئذ؛ بدأت مرحلة مؤلمة في حياة الدولة الزيانية؛ إذ غدت - خلالها - قبائل المغرب الأوسط تتاور في عصيانها ضد الدولة؛ متخذة من أبي زيان واجهة ونريعة للعصيان، والخروج عن سلطة أبي حمو. وهكذا؛ أضحى السلطان الزياني يحارب في جبهات متعدّدة: - الأولى ضد الأطماع التوسعية لبني مرين.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 243. وزهر البستان، ورقات: 77 و - 77 ظ. والعبر، مج: 7، ص ص: 262 - 263.

— والثانية ضد خصمه أبي زيان محمد.

— والثالثة ضد القبائل المختلفة؛ التي سلكت سبيل التمرد والعصيان.

وكان النصر حليف أبي حمو في السنوات الأولى؛ بفضل ما يتمتع به وزيره وقائد جيشه عبد الله ابن مسلم الزردالي؛ من دهاء، ومواهب قتالية، وحكمة سياسية. ولكن الحال تغير إثر موت هذا الوزير؛ في آخر ذي القعدة من عام 765هـ/1363م. حيث تعرض أبو حمو إلى بعض الهزائم المؤلمة؛ بسبب اعتماده الكلي على الأعراب؛ الذين يتصفون بالتقلب وعدم الثبات، وهشاشة المواقف، وسرعة الانفضاض، والجرأة في التخلي عن الحلفاء والتصل عن كل ارتباط لا يعود بالفائدة المادية عليهم.

ونتيجة لحاجة الدولة، واعتمادها الكلي على قبائل بني هلال — في زمن أبي حمو الثاني — فقد سمت تلك القبائل إلى مشاركة القبائل الزناتية في الثروة والسلطان، واقتسمت معها الأراضي التالية؛ وزاحمتها في المراعي الخصبة، والمياه الجارية؛ فكثرت أموالهم، وتعاظمت قوتهم، واتسع نفوذهم. وازدادوا قوة واستقحالاً؛ جراء الصراعات الداخلية بين أعضاء الأسرة الحاكمة في دولة بني زيان وغيرها؛

إذ استغلوا تلك الصراعات في ابتزاز الأطراف المتنازعة كلها؛ بحيث وضعوا قاعدة نفعية ثابتة؛ فمن يدفع أكثر، يحظى بودهم الأوفر، ودعمهم الأمتن.. لهذا؛ أصبحت ديار المغرب الأوسط عبارة عن ساحة واسعة للفتن والصراعات المتشعبة؛ ذات الألوان المختلفة؛ بحيث تنفجر معركة هنا بين قبيلتين شقيقتين؛ وفي الجهة الأخرى تلتهب نار الحرب بين قبيلتين متنافرتين ومتباعدتين؛ وفي الوقت ذاته تجتمع قبائل متنافرة على مقاتلة الدولة وأنصارها؛ حتى وإن كانوا أقرباء؛ لأن الفوائد المادية هي الحكم المحلل والمحرم.

ومع هذا؛ فقد استطاع أبو حمو - بفضل دهائه وإصراره وشجاعته - كسر شوكة أولئك الأعراب؛ بواسطة شن الحرب حيناً، وبواسطة الحيلة والإغراء حيناً آخر؛ ثم بواسطة النبش عن التناقضات والتضريب بينهم في كل مرة. فأنتهى الأمر به سنة 770هـ/1368م إلى مسك زمام الأمر، وضرب أعدائه في مقتل، وألجأ غريمه أبا زيان إلى

قمم الجبال المنيعه لدى قبيلة حصين في مرتفعات
لمدية¹.

هذا هو مجمل؛ ما يخص الصراع بين أبي
حمو مع القبائل المتمردة من جهة، وابن عمه أبي
زيان من جهة أخرى. أما بخصوص أعدائه
الأقوياء بني مرين؛ فقد خفت نار جذوتهم بعد
موت أبي سالم؛ جراء الخلافات الداخلية والصراعات
على سرير الحكم. ولما تعافت أحوالهم، والتأمت
صفوفهم؛ عادوا إلى أطماعهم السالفة، ورغبتهم في
التوسع شرقاً، وامتلاك تلمسان درة المغرب الأوسط.

وعلى ذلك؛ لم يفتقر السلطان المريني الجديد
- أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن - للذريعة
المناسبة؛ إذ وجد بين يديه شكوى؛ تقدم بها -
كالعادة - حليفه أبو بكر شيخ بني عريف
السويديين؛ ضد أبي حمو: ((ورغبوه في ملك تلمسان
وما وراءها؛ فوافق صاغيته إلى ذلك؛ بما كان في
نفسه من الموجددة على السلطان أبي حمو؛ بقبوله
على من ينزع إليه من عربان المعقل - أشياع
الدولة وبدوها - وما كان بعث إليه في ذلك،

¹ أنظر تفاصيل هذا في العبر، مج: 7، ص ص: 271 - 274.

وصرف عن استماعه. فاعتزم على الحركة إلى تلمسان¹)).

لذا؛ فقد بادر من فوره بالتعبئة، والتجهيز، وحشد القبائل والجيوش؛ وجلبهم من أقطار المغرب كلها؛ من السوس الأقصى ودرعة إلى بحر الزقاق؛ حيث تربض سبتة وغيرها من بلدان الساحل الشمالي ثم انطلق من فاس بعد انقضاء عيد الأضحى من سنة 771هـ/1369م.² ووصل خبر الزحف المريني إلى أبي حمو؛ حينما كان في البطحاء؛ فعاد أدراجه مسرعاً إلى تلمسان؛ أين حاول حشد أنصاره، والتحضير لملاقاة الجيش المريني؛ ولكن قبائل عبيد الله والأحلاف من المعقل؛ تهاونوا، وتراخوا عن نصرته؛ بل تهادوا فالتحقوا بعبوه ملك المغرب. وكان أبو حمو - كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون؛ الذي كان في تلمسان آنئذ - قد استعدّ لملاقاة المرينيين؛ فجمع ما تيسر له من بني عامر، وبعض الأحياء من زناتة؛ فخرج مع تلك الجموع ظاهر تلمسان؛ في غرة محرم من

¹ العبر، مج: 7، ص: 275 - 276.

² ((ونهض ميمماً تلمسان بالجراد المنتشر أو البحر الطامي أو السحاب المسخر بين السماء والأرض)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 444.

سنة 772هـ/1370م؛ استعداداً للمواجهة. فضرب معسكره، واستعرض جنوده؛ تحضيراً للزحف نحو عدوه. ولكنه تراجع؛ حينما وصلتته أخبار انحياز قبائل عبيد الله والأحلاف من المعقل إلى السلطان عبد العزيز؛ بمداخلة من ونزمار شيخ سويد¹. فأدرك - عندها - استحالة التغلب على جمع كهذا؛ وتبين له عدم التكافؤ، واستحالة الصمود أمام هذا الحشد الهائل، والمال الواسع، والسلاح الوافر؛ إذ اختلت - في هذه الحال - موازين القوى؛ نظراً لتفوق بني مرين في العدة والعدد، والمال والمدد. فلم يجد أبو حمو - حينها - بداً من ترك تلمسان، والتوجه شرقاً مع من معه من بني عامر؛ فانطلقوا بكاملهم نحو الشرق؛ وأبعدوا المسافة؛ حتى وصلوا إلى ديار رياح والدواودة.

وكان السلطان أبو فارس عبد العزيز قد دخل تلمسان بسلاسة في عاشوراء من عام 772هـ؛ بعد فترة قصيرة من خروج أبي حمو منها. ولم يكتف السلطان المريني بدخول تلمسان؛ بل استجاب

¹ ((وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو؛ فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر)). العبر، مج: 7، ص ص: 682 - 683.

لنصيحة شيخ قبيلة سويد - ونزار بن عريف -
فجهز جيشاً أسند قيادته إلى وزيره أبي بكر بن
غلازي بن الكاس؛ وأمره بمطارة أبي حمو ومن
معه، والقضاء عليهم. فخرج ذلك الوزير خلفهم؛ إلى
أن وصل البطحاء؛ أين التحق به ونزار بن
عريف بجمع كبير من الأعراب انطلقوا كلهم وراء
أبي حمو؛ الذي أبعد السفر، واستقر في الضفة
الجنوبية لوادي جدي القريب من الدوسن؛ في أرض
الدواودة. ولكنه ابتلي في تلك البقعة بنكسة شديدة؛
جاءه اكتساح بني مرين لمعسكره ليلاً؛ فانتهب
بكامله واستلحم أتباعه، واقترق جمعهم، ونجا أبو
حمو بنفسه إلى وادي مزاب؛ حيث انتظر بعض
الوقت حتى التحق به الفل من أهله وجيشه.
فانطلق بهم جنوباً نحو متليلي، ثم غرب بهم؛
متقلين من ماء إلى ماء، ومن وادٍ إلى آخر؛ حتى
اقتربوا من قصور بني عامر؛ جنوب تلمسان؛ ثم
انحرفوا نحو الجنوب. عندما تبين لهم أن جمْعاً من
بني مرين في تلك القصور.

ووقعت لأبي حمو - في تلك النواحي - حوادث ووقائع مؤلمة؛ خانه فيها الأتباع، وتخلّى عنه الحليف والمجير، ونكبه العدو والصديق؛ فصبر خلال ذلك على الشدائد، وأغضى الطرف على زلات أصحابه، وكنتم غيظه عن خيانة أتباعه وحلفائه. فأقلت من فخاخ الأعداء، وخيانة الأصدقاء والأقارب. ثم انتهى حاله بعد اشتباكه مع بني مريـن وحليفه القديم؛ المنحاز إلى أعدائه؛ خالد بن عامر إلى الهزيمة، والتسلل في ظلمة الليل؛ نحو مضارب عبد الله بن صغير بن عامر؛ حيث وجد منهم - بعد الجفوة - كل تكريم وتبجيل: ((فأرحبوا وأسهلوا وأجاروا وستروا))¹. وأخفوه عندهم يوماً وليلة؛ ثم جهّزوه بالظّهر المناسب، والزّاد الضروري، وكلفوا من يرافقه نحو الجنوب؛ فانطلق في رحلته من موضع إلى آخر؛ حتى وصل إلى تيقفورين بتوات؛ في نواحي أدلار الحالية؛ أين وجد من سكانها كل إكرام وتعظيم؛ فأسكنوه في قصر تابع لأولاد آدم؛ الرابض في الشط الشمالي من السبخة الممتدة بينهم.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 469.

ولما استقر في مقامه الجديد؛ فاضت قريحته
بقصيدة معبرة؛ ضمنها معاناته، وأحزانه، وآلامه،
واستياءه من غدر أتباعه وخيانة خدامه؛ ثم أشبعها
بالآمال والتفاؤل بالمستقبل، وشحنها بالإيمان بالله
وبقدره، وحملها بمعاني الإيمان والرجاء في النصر
والعون من الله سبحانه. نظم أبو حمو هذه
القصيدة في البحر الكامل. ولم ترد إلا في بغية
الرواد؛¹ ومطلعها:

قف بالمنازل وفقة المتردد
ما بين نؤي بالطلول وموقد
وإذا مررت على الربوع مسلماً
فاسئل عن القلب الغريب المفرد

لقد تَخَلَّى عنه الحليف والقريب والصديق في
أحلك الأيام؛ وانساقوا وراء المنافع والوعود المغرية؛
كما اختار آخرون السلامة من كل شرٍّ محتمل.
فوجد أبو حمو نفسه - في الأخير - وحيداً، شريداً؛
لا حليف ولا صديق. ولكنه لم يستسلم لليأس
والانكسار؛ فبَعَدَ أن بقي - بعض الوقت - في نواحي

¹ ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء الخاصة بالشعراء.

مزاب؛ ترقباً لمن سيلحق به من فلول قومه، وأخلص الناس إليه من بني عامر وغيرهم. ولمّا التأم جمعهم، وانضمت إليه النخبة من أنصاره؛ انطلق بهم في رحلة عجيبة؛ جاب خلالها الصحراء والسهوب الجنوبية، وتقل من ماء إلى آخر؛ إلى أن حلّ بالتخوم الجنوبية لتلمسان؛ فشن حرب استنزاف ضد المرينيين وحلفائهم من أعراب زغبة والمعلّ؛ ومن التحق بهم من بني عامر؛ الخارجين عنه. وبعد تيقنه من استحالة مواصلة المقاومة في تلك الظروف؛ عمل بنصيحة جماعة عبد الله بن شيقر ابن عامر؛ فرحل نحو الجنوب؛ إلى حيث هو في ملجئه في بتيقورارين.

لقد بقي أبو حمو - في وضع الانتظار - إلى منتصف عام 774هـ/1372م؛ حيث تكرر ما حصل لبني مرين من قبل؛ إذ تخلّوا فجأة، - وفي حالة ارتباك عن تلمسان؛ بعد موت أبي فارس عبد العزيز - وتسابقوا إلى عرش فاس؛ فلم يجد وزير السلطان المريني الهالك - أبو بكر بن غازي بن الكاس - بداً من التخلي عن تلمسان، وتعيين إبراهيم بن أبي تاشفين - الذي كان محجوراً لديهم

في فاس - والياً عليها؛ ثم انطلق مرفوقاً بولد
السلطان الميت - وكان صبيّاً في سن الخامسة من
عمره - سارع به لحاضرة الدولة؛ كي يُنصّبَ على
سدة الحكم خلفاً لأبيه. ولكن القائد عطية بن
موسى - وهو أحد موالى أبي حمو - أفضل
خططهم؛ وبادر بامتلاك تلمسان، ورفع الدعوة على
المنابر لأبي حمو: ((وفي سادس جمادى الأولى؛ ورد
على الخليفة - نصره الله - بالقصر المسمى بقصر
أولاد آدم؛ رسل عبد الله بن شيقر (صغير)
بالبشارة))¹. عندها؛ بعث أبو حمو - فوراً - ولده
أبا تاشفين أمامه؛ ثم لتحق به؛ ودخل إلى حاضرة
ملكه في الرابع والعشرين من جمادى الأولى من عام
774هـ/1372م؛ فاقتعد السرير، وباشر الحكم والتسيير.
وقد عبر عن ذلك كله عبد الرحمن بن خلدون
بقوله: ((وكانت إحدى الغرائب. وتقبض ساعتئذ على
وزرائه، واتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما
نقض من عهده، وظاهر عليه عدوّه؛ فلودعهم
السجن، وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم))².

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 486.

² العبر، مج: 7، ص: 281.

لقد سلط سيف القصاص على من خانته من
الوزراء، ومن تأمر عليه. حيث أمر بقتل: محمد
ابن عمر البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد بن
تصاليث. كما أمر بنفي الحاج موسى بن علي بن
برغوث إلى الأندلس¹. ثم انثنى لاستعادة أملاك
الدولة الشرقية؛ فجهّز وزيره الوفي عطية بن
موسى بجيش وافر العدة والعدد، وبعثه إلى الجهات
الشرقية لإخضاع القبائل الخارجة عن طاعة الدولة،
وتمهيد البلاد المغتصبة من قبل بني مرين؛ فخرج
في آخر جمادى الأولى؛ إذ بدأ بمغراوة فاستلم
أبطالهم، وشرّد رجالهم، ودمّر ديارهم؛ ثم ربح في
مركز دائرتهم المعروف بـ تيمزوغت؛ بعد أن افك
منهم - قهراً - البيعة لأبي حمو.

وللعبرة؛ هذه هي حال بني مرين في كل
مساعيهم التوسعية؛ إذ عجزوا عن الاحتفاظ بما
استولوا عليه غصباً في تلمسان، وما يتبعها شرقاً؛
منذ قيام دولتهم وإلى نهايتها. كما أن المشهد نفسه
يتكرر في كل مرة؛ حين تسارع حاشية الدولة
المرينية؛ إلى التخلي عن تلمسان، والركض نحو

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 491.

فاس؛ خوفاً على عرش الدولة من سطوة الطامعين. وقد تكرر ذلك مراراً؛ كالتالي:

— لقد حدث هذا إثر موت أبي يعقوب يوسف في معسكره المحاصر لتلمسان؛ عندما عقد حفيده الأمير أبو ثابت مع بني زيان صلحاً؛ وسارع لاقتصاص عرش فاس.

— وحدث ذلك أيضاً خلال غزوة قام بها أبو سعيد عثمان بن يعقوب المريني لتلمسان أيام أبي حمو الأول؛ فخدعه السلطان الزياني، وأوهمه أنه متفق مع بعض حاشيته على التآمر عليه؛ وبعث إليه الرسائل المتبادلة بينه وبينهم؛ فخاف على عرشه، وانثنى عائداً إلى فاس.

— كما أن ورود أخبار هزيمة أبي الحسن في القيروان؛ أجبر ولده أبو عنان على إيداع تلمسان، بين يدي عثمان بن جرار؛ الذي انتقض عليه، واستبد بالمدينة دونه، ودعا لنفسه.

— ووقع شبه ذلك أيضاً بعد وفاة أبي عنان؛ فانشغل المتنافسون على العرش، وأسلموا الحامية المتواجدة داخل مدينة تلمسان لمصيرها المحتوم؛ فسقطت بيد أبي حمو الثاني.

— وما حدث — كذلك لأبي سالم — يدخل في هذا الاعتبار؛ إذ أجبر على ترك تلمسان — بعد خمسة أيام من الإقامة بها — ووضعها في يد أبي زيان القبي، ثم سارع لنجدة مدن مملكته التي اكتسحها عدوه أبو حمو.

— وبعد موت أبي سالم؛ نشبت خلافات داخل الأسرة الحاكمة والحاشية — على من يتولى الحكم — فاضطر المتنافسون إلى تسليم تلمسان إلى أبي حمو بواسطة عقد صلح، ثم انطلقوا نحو فاس.

— وها هو يتكرر المشهد ذاته — الآن — إثر موت أبي فارس عبد العزيز؛ حيث بادر الوزير أبو بكر ابن غازي بن الكاس إلى إخلاء تلمسان، والركض نحو فاس؛ ليتسنى له الاستبداد، ووضع أحد أبناء سيده ذي الخمس سنين على العرش.

المهم؛ أن هذه الشواهد كلها؛ تثبت محدودية الدولة المرينية، وعدم قدرتها على التوسع أكثر مما تملكه. ومع هذا لم يستوعب المرينيون الدرس؛ واستمروا في غيهم إلى أن ما لانهاية.

وجملة القول؛ فإن المصادر التاريخية مليئة بما جرى للسلطان أبي حمو من معاناة، وأضرار؛ نتيجة للعوامل المذكورة. ومع ذلك، فقد استطاع التغلب

والصمود أمام الصعوبات كلها؛ ففرض على أعدائه خططه وأهدافه، وأجبرهم على تكرار مهادنته كلما وضعهم أمام الأمر الواقع. وعلى الرغم من السعي الحثيث والإصرار المبرر لبني مرين على ضم تلمسان إلى ممتلكاتهم؛ إلا أنهم أجبروا في كل مرة على التسليم بوجود دولة بني زيان في حاضرتها تلمسان. وقد تكررت غزوات المرينيين الخائبة لهذه المدينة مرات عديدة، ربما فاقت؛ العشرين غزوة؛ انتهت كلها بالفشل؛ وبالمقابل؛ بقيت تلمسان حاضرة للدولة الزيانية إلى سنة 962 هـ/1554م؛ حيث سقطت في عهد العثمانيين بيد صالح ريس. في وقت؛ كانت الدولة المرينية قد زالت واندثرت منذ زمن.

ولفهم ما جرى لأبي حمو، وأسباب هزيمته أمام المرينيين؛ يستحسن النظر للموضوع من جوانب عدة، وعوامل شتى؛ كانت قد أصابت نظام الدولة الزيانية في عهد هذا السلطان في مقتل. فبالعودة بالذاكرة إلى سياق الحديث؛ بخصوص خروج أبي حمو عن تلمسان، وتحيّزه إلى قبيلة بني عامر؛ وانطلاقهم جميعاً نحو ديار الدواودة من رياح. وبالمقابل؛ قيام

السلطان عبد العزيز بإرسال جيش كبير؛ كلفه بمطاردة السلطان الزياني ومن معه؛ والقضاء عليهم. ففي أثناء ذلك كله؛ حدثت بعض المواقف التي تستحق الإعلان عنها، والتذكير بها، والتأمل فيها:

— أولها: تحول أعرب المعقل، وفئة من أعراب بني عامر — أتباع الشيخ عبد الله بن شيقر (صغير)¹ — وانقلابهم فجأة، وخذلانهم لحاميتهم وحليفهم أبي حمو؛ الذي أبى إخبار ذمته بخصوص عشائر المعقل؛ فرفض طلب السلطان المريني؛ القاضي بطردهم من حمى الدولة الزيانية. وكان هؤلاء الأعراب من المعقل — في سابق عهدهم — ينتجعون في رحاب الدولة المرينية؛ ولما التحق عبد الله بن مسلم الزردالي — والي درعة — بلبي حمو رافقوه إلى حمى الدولة الزيانية؛ فأقطعهم أبو حمو الأراضي، ونظمهم ضمن حلفائه، وضمهم إلى دولته؛ عاملاً على الاستعانة بهم؛ ضد قبائل زغبة؛ وخاصة سويد؛ حلفاء المرينيين. وقد حرص السلطان المريني

¹ قال يحيى بن خلدون: ((ميز [أبو حمو] به بني عامر، وأعطى مراتبهم المعتادة؛ سيوى عبد الله بن شيقر [ربما صغير] ابن عامر؛ في أخلاط منهم؛ شايعوا ملك المغرب)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 449.

أبو سالم على استعادتهم؛ ولكن ضغوطه على أبي حمو فشلت. ولمّا انتصب السلطان أبو فارس عبد العزيز على عرش فاس؛ أرسل إلى أبي حمو يكرّر طلب أبي سالم؛ في إخراجهم من أراضي الدولة الزيانية؛ غير أن هذا الأخير رفض - أيضاً - التخلي عنهم. فوجد أبو فارس عبد العزيز في رفضه ذريعة لغزو تلمسان. غير أن أولئك الأعراب؛ لم يردّوا التحية بأحسن منها؛ بل خذلوا أبا حمو في محنته، وتخلّوا عنه عندما لحاج إليهم؛ فتكاسلوا عن نصرته. والأدهى والأمر؛ أنهم انضموا إلى صفوف عدوّ السلطان المريني؛ فازداد قوة وعنفواناً بهم:¹ ((وانتبذ قبيل عبّيد الله كافة إليه [أي إلى السلطان المريني]؛ خديعة، ولؤماً، وكفراً للإتعام))².

- وثانيها: تحول عبد الرحمن بن خلدون عن أبي حمو، وقبوله القيام بدور المحرّض ضده. مع أنه

¹ ((وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبّيد الله إلى السلطان عبد العزيز؛ بمدخله وإليه، ونزمار؛ واجتمعوا إليه، وسرح معهم صنائعه؛ فارتحلوا بين يديه، وسلّكوا طريق الصحراء. وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم [إلى ملك المغرب] إلى أبي حمو؛ فأجفل هو وجنوده، وأشباعه من بني عامر، وسلّكوا إلى البطحاء. ثم ارتحلوا عنها، وعاجوا على منّاس، وخرجوا إلى بلاد الديالم؛ ثم لحقوا بوطن رياح؛ ونزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى)). العبر، مج: 7، ص: 683.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 444.

لَقِيَ كُلَّ حَظْوَةٍ وَحُسْنَى فِي الْبُلَاطِ الزَّيَّانِي؛ حَيْثُ
كَانَ أَخُوهُ يَحْيَى كَاتِباً لِلسَّرِّ لَدَى السُّلْطَانِ أَبِي حَمُو؛
كَمَا وَجَدَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مِنْ هَذَا الْآخِرِ كُلَّ تَعْظِيمٍ
وَإِكْبَارٍ. وَلَكِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - رَضِيَ بِالتَّأْمَرِ عَلَيْهِ،
وَالْقَبُولِ بِتَقْمِصِ دَوْرِ الدَّاعِيَةِ لِلسُّلْطَانِ الْمُرِينِيِّ. وَفِي
هَذَا؛ يَعْتَرِفُ ابْنُ خَلْدُونٍ بِنَفْسِهِ؛ أَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَى رِيَّاحِ
وَالِدِ الْوَادَةِ؛ حَاتِئاً إِيَّاهُمْ عَلَى نَبْذِ عَهْدِ السُّلْطَانِ
الزَّيَّانِيِّ؛ وَاتِّبَاعِ السُّلْطَانِ الْمُرِينِيِّ عَبْدِ الْعَزِيزِ.¹

وَالْعَجِيبُ فِي الْأَمْرِ؛ أَنَّ الْمُرِينِيِّينَ ضَبَطُوهُ فِي
هَنِينَ؛ قَادِمِئاً مِنْ تَلْمَسَانَ؛ أَيْنَ كَانَ فِي ضِيَاةِ
السُّلْطَانِ أَبِي حَمُو؛ الَّذِي حَمَلَهُ رِسَالَةٌ إِلَى ابْنِ الْأَحْمَرِ

¹ يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلْدُونٍ فِي هَذَا السِّيَاقِ مُعْتَرِفاً: ((وَسَرَحَنِي إِلَيْهِمْ
[أَيَ الدَّوَادَةِ] يَوْمَئِذٍ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ؛ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْعَدُولِ
بِهِمْ عَنْ صَحَابَةِ بَنِي عَامِرٍ وَسُلْطَانِهِمْ؛ وَسَرَحَ فَرَجُ بْنُ عَيْسَى بْنُ عَرِيفٍ
إِلَى حَصِينٍ؛ لِاِقْتِضَاءِ طَاعَتِهِمْ، وَاسْتِدْعَاءِ أَبِي زِيَانَ إِلَى حَضْرَتِهِ أَوْ نَبْذِهِمْ
عَهْدَهُ. وَانْتَهَيْنَا جَمِيعاً إِلَى أَبِي زِيَانَ؛ فَقَارَقَهُ أَوْلِيَائِهِ، وَلَحِقَ بِأَوْلَادِ يَحْيَى
ابْنِ عَلِيِّ بْنِ سَبَاعٍ مِنَ الدَّوَادَةِ. وَانْتَهَيْتُ أَنَا إِلَيْهِمْ؛ فَحَفِظْتُ عَلَيْهِمْ
الْأَمَانَ فِي جَوَارِهِ؛ كَمَا كَانَتْ مَرْضَاةُ السُّلْطَانِ؛ وَحَذَرْتُهُمْ ثَمَّانَ أَبِي حَمُو
وَبَنِي عَامِرٍ؛ وَأَوْفَدْتُ مَشِيخَتَهُمْ عَلَى وَنَزَمَارِ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ غَازِي؛
فَدَلَّوْهُمَا عَلَى طَرِيقِهِ؛ وَأَغْذَوْا السَّيْرَ وَبَيَّتُوهُمْ بِمَنْزِلِهِمْ عَلَى الدَّوَسَنِ؛ آخِرَ
عَمَلِ الزَّابِ)). الْعَبْرُ، مَج: 7، ص: 276 - 277. 684. 936 - 940.
أَنْظُرْ أَيْضاً تَفَاصِيلَ هَذَا؛ فِي كِتَابِ التَّعْرِيفِ بِابْنِ خَلْدُونٍ وَرَحْلَتِهِ شَرْقاً
وْغَرْباً، ص: 135 - 139.

سلطان غرناطة بالأندلس¹. فقبض عليه؛ واستعمل في مهمة دعائية لصالح المرينيين، وضد مضيفه السلطان المذكور.

— وثالثها: مفارقة بني توجين وبني راشد صفوف أبي حمو — في جهات منداس — وتخليهم عنه في أهلك الأيام: ((سيوى رجال صبر منهم))².

— ورابعها: تحول يحيى بن خلدون؛ الأخ الأصغر لعبد الرحمن. عن الاستمرار في خدمة أبي حمو؛ الذي يعتبر صاحب سرّه وكاتب إنشائه المقرب لديه. لقد تخلص عن سيّده عندما ضاقت به الحال. ويقول هو بنفسه: ((ومن هنا [أي من سبخة زاغر بنواحي الجلفة حالياً] فارقتّه — أيده الله — لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي. ولا حول وقوة إلا بالله.

¹ وأشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا بقوله: ((وقضى عيد الأضحى؛ وطلبت منه [أي من أبي حمو] الإذن في الانصراف إلى الأندلس؛ لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح؛ وقد أظلم الجوّ بالفتنة، وانقطعت السبل؛ فأذن لي، وحملني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر؛ وانصرف إلى المرسى بهنين)). التعريف بابن خلدون، ورحلته غرباً وشرقاً، ص: 133 - 134.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 445.

ولولا أن أفضح مستوراً، وأخلد في بطن الأوراق
وصماً مشروحاً؛ لأبنت ما جرى، وقلت كيف كان؛
ولكن فضله [يقصد أبا حمو] ومجده محاسن السوئات،
وجلا بمنصبه العفو المحاسن. والاعتراف إتصاف،
والندم توبة؛ ولا ذنب - كما ورد - مع إقرار¹.

وربما قصد يحيى بن خلدون - بما ذكره في
الفقرة الأخيرة - أنه تعرض لضغوط أو إغراءات أو
مؤثرات من جهات معينة؛ تجنب فضحها. وقد
يكون المعنى بالأمر هو عبد الرحمن بن خلدون؛
الذي كان له تأثير عليه؛ إذ اصطحبه معه إلى
المغرب الأقصى ثم إلى بجاية؛ كما كان هو صاحب
الفضل عليه في تعيينه في منصبه ككاتب سرّ لدى
أبي حمو. وقد يكون طلب منه مفارقة أبي حمو؛
عندما اتضح له استحالة تغلبه على الجيش
المريني. وربما حاول يحيى بن خلدون إخفاء سرّ
أخيه؛ مع أن أخاه اعترف بنفسه أنه قام بدور
المحرّض ضد السلطان الزياني؛ ولم يجد حرجاً في
ذلك.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 445.

— وخامسها: تحول الواوادة، ونكتهم لأبي حمو؛ مع أنهم حلفاؤه وحلفاء أجداده؛ منذ يغمراسن بن زيان. ووصل بهم الحال إلى إفشائهم للمرينيين بموضع معسكر أبي حمو؛ ودلوهم على المكان المتواجد به في جهات الدوسن¹؛ وبالتحديد؛ في الضفة الجنوبية من وادي جدي (وادي شدي؛ كما يسمى أيضاً): ((وخيم سائرهم بوادي شدي؛ على قيد رحلتين منه قبلة²)).

— وسادسها: تحول خالد بن عامر وأتباعه من بني عامر، وانحيازهم لبني مرين أعداء أبي حمو³. وكان بنو عامر هؤلاء أتباعاً وحلفاء للدولة الزيانية منذ

¹ يقول عبد الرحمن بن خلدون: ((وأوفدت مشيختهم على ونزار والوزير أبي بكر بن غازي؛ فتلوهما على طريقه [أي طريق أبي حمو]؛ وأغذوا السير، ويبتوهم بمنزلهم على الدوسن؛ آخر عمل الزاب؛ من جانب المغرب؛ ففضوا جموعهم، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأمواله وأمتعته وظهره؛ ولحق فلهم بمصاب)). العبر، مج: 7، ص: 277. ويضيف في موضع آخر: ((فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه؛ ووافوه بمكانه من الدوسن؛ في معسكره؛ من زناتة، وحلل بني عامر؛ والوزير في العبة وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محدقة به؛ فأجهضوه عن ماله، ومعسكره؛ فاتتهب بأسره، واكتسحت أموال العرب الذين معه، ونجا بدمه إلى مصاب؛ وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة)). العبر، مج: 7، ص: 684.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 446.

³ ((ومنه غرب عنه خالد بن عامر؛ مكرأ وخيانة، وركونا إلى ملك المغرب)) بغية الرواد، ج: 2، ص: 461.

يغمراسن بن زيان؛ الذي جلبهم من مواطنهم الأولى المتاخمة للزاب ومزاب؛ وأسكنهم جنوب تلمسان ضمن السهوب المُرعة. ولما قرّر أبو حمو استعادة ملك أجداده؛ وجدهم في نواحي الزاب؛ أين نزحوا جراء طردهم من ديارهم من قبل بني مرين وحلفائهم بني سويد. فوجدوها - بدورهم - فرصة للعودة إلى أوطانهم الغربية؛ فانضموا إلى أبي حمو، وشاركوه في مهمته القاضية بإخراج بني مرين وحلفائهم سويد من تلمسان وضواحيها. وتحققت أهدافهم كلها؛ وعادوا إلى ديارهم، وانتظموا في سلك الدولة؛ إذ أضحووا في مقدمة أنصار الدولة وحماتها الأوفياء. ولكن جرت بعض الأحداث المؤلمة؛ فأفسدت النوايا، وقلبت الأوضاع. من ذلك؛ ما كان يجري في النفوس المريضة بالهلع والغيرة والحسد. إذ قال يحيى بن خلدون أن صغير بن عامر شيخ القبيلة المذكورة؛ كان قد تأمر مع سلطان بني مرين أبي سالم سنة 761هـ ضدّ أبي حمو؛ إلا أن مقتله بيد رجل من بني عامر أفشل المسعى¹.

¹ ((إزاء وطاط؛ اشتجر بنو عامر في قسم الفئام؛ وحجزهم شيقر صغير] شيخهم؛ فبقر جوفه سنان رجل منهم خطأ؛ فمات؛ وذلك من

وبموت صغير بن عامر انتقلت رئاسة القبيل المذكور - بتزكية من أبي حمو - إلى شعيب بن إبراهيم بن عامر؛ الأمر الذي شطر القبيلة إلى شقين: الأول مع شعيب المذكور، والشطر الثاني سار خلف أخيه المنافس له خالد بن إبراهيم بن عامر.¹ وقد أثر كل هذا طبعاً؛ على القدرة الدفاعية للدولة الزبانية؛ لأن تنافس وتشاحن طرفي القبيلة المذكورة؛ زاد في طمعهما وجشعهما؛ بل وصل بهما الحال إلى البحث عن يدفع أكثر من غيره؛ حتى وإن اقتضى الحال مدّ اليد إلى بني مرين. وهذا ما حدث في الأخير لأبي حمو؛ حيث تخلى عنه الطرفان - بالتوالي والتناوب - فمرة أتباع شيخهم الجديد عبد الله بن شيقر أو (صغير)؛ ومرة أتباع خالد بن عامر. ووصل بهم الحال إلى محاربتة ضمن صفوف بني مرين؛ بل ومطاربته عبر الصحراء والفيافي الجنوبية.² ومع ذلك؛ فقد

سعادة الخليفة؛ أعلى الله مقامه؛ فقد كان شايح سراً ملك المغرب)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 179 - 180.

¹ نفسه، ص: 243.

² ((ثم رحل أمير المسلمين أيده الله بقومه وعربه إلى أوماكرا؛ من تل بني راشد؛ ثم إلى تاسالة؛ فمئها انخزل عنه خالد بن عامر بطانفة من - أهل الضلال - قومه؛ أشراً وكفراً للأتعام، وإظهاراً لما أبطنه من النفاق؛

انحاز إليه - في الأخير - جماعة عبد الله بن شيقر بن عامر؛ حينما تحول خالد بن عامر وأتباعه إلى بني مرين؛ وشاركوهم في محاربة أبي حمو ومطاردته في الصحراء¹. إذ تحركت في صدورهم نار الغيرة والحمية؛ فأخفوه، أوصلوه إلى تيفورارين في نواحي أدرار الحالية.

- وسابعها: خيانة بعض الوزراء وكبار رجال الدولة الزيانية لأبي حمو: ((وقد خامر قلوب كثير من أوليائه [أي أولياء أبي حمو] الزيغ، وراى عليهم الهوى؛ ك: محمد بن عمر البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد بن تصاليت، وخالد بن عامر)).²

وانحاز إلى ملك المغرب؛ ياغراء محمد البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد ابن تصاليت المذكورين)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 464.
¹ ((وأدركه الخبر بنهضة بني مرين وخالد بن عامر في أثره...)). نفسه، ص: 465.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 447 - 448. وقد وصفهم يحيى بن خلدون - في موضع آخر - بقوله: ((فلقد كان كفار النعم وخونة الله ورسوله؛ رهط الضلال، وحزب الشيطان، ومغلبوا الهوى: محمد بن عمر البريطل، ووادفل بن عبو بن حمدان، وسعيد بن تصاليت. تكالبوا في الفساد عليه، وإعمال الحيل في ضرره؛ فتسري نزغاتهم إلى قلوب أنصاره سماً نافعاً، وتخرق نمائمهم أسماعها سهاماً مصمية، وتنساب مختلقات زورهم بين الأحياء أراقم ناهشة. والله لا يهدي كيد الخائنين. وربما فاجره - نصره الله - بهجر القول، وأفرغوا له الغش في قالب النصيحة، وأحالوا بين يديه الكريمتين قذاح الصداقة المنطوية على البغضاء؛ فيصارفهم بحسن القول، ويجازي بميدان المصانعة أهواءهم، وبغض البصر فيهم على قذاه، ويرطى قدمه منهم شوك السعدان؛ خلقاً عظيماً، وسياسة فضلى.

فبالنسبة إلى محمد بن عمر البريطل؛ يكون قد تولى الوزارة؛ وبدأت عليه علامات الظهور والشهرة بعد موت عبد الله بن مسلم الزردالي؛ ولكنه يفتقر إلى مزايا ومواهب سلفه. وقد كلفه أبو حمو بمهام عسكرية لم يبدع فيها؛ كما أسند إليه مهمة السفارة إلى السلطان المريني عبد العزيز¹. ولكنه لم ينجح في سفارته؛ بل حامت حوله الشكوك، وارتاب بعضهم فيه؛ وقد لمح إلى ذلك يحيى بن خلدون؛ حين قال في تلك السفارة: ((وفي أول هذه السنة [سنة 772هـ]؛ كان ابتداء التمحيص الأكبر، والابتلاء الأشهر... والسبب هو ما خامر رسالة محمد بن عمر البريطل إلى المغرب؛ من الغش والخديعة)).² ويبدو أن مرافقته لأبي حمو؛ لم تكن بنية حسنة؛ وربما تقمص - هو وأصحابه الذين أشار إليهم يحيى بن خلدون - دور الطابور الخامس؛ وهذا ما صرح به - مرات عديدة - صاحب بغية الرواد³.

وقد علمت - أرشدك الله - أن مصارعة العدو الظاهر أهون من مصارعة العدو الباطن؛ وأن الحذار من الصديق الخائن أو جب من حذار العدو المجاهر. ولا حول ولا قوة إلا بالله)). نفسه، ص: 454 - 455.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 422، 440.

² بغية الرواد، ج: 2، ص: 443.

³ ((إلا أن محمد بن عمر البريطل؛ كافر النعم، والخائن لله ولرسوله، ثم لمولانا الخليفة أيده الله؛ قد أوقع بتنفير الرجال، وإعراجه بالنفاق؛

هذه هي بعض العوامل المؤثرة؛ التي رجحت
كفة السلطان المريني عبد العزيز، وكلّته بالنصر
ضدّ عدوه أبي حمو. وبالمقابل؛ أفضلت خطط
السلطان الزياني في دفاعه عن حاضرة ملكه،
والصمود في حربه أمام عبد العزيز المريني. ومع
ذلك؛ لم يهنأ أبو حمو بالسلم؛ بعد انسحاب بني
مرين من تلمسان؛ إذ اشتعلت فتنة أخرى في شرق
البلاد؛ أشعلها ابن عمه الأمير أبو زيان؛ الذي
قدم من منفاه في ورجلاء (وَرْجُلَاء)؛ فساندته -
كالعادة - بعض القبائل الهلالية كحصبين والثعالبة.
ولكن أبا حمو بادرهم بحزم وشدة؛ كما أطلق يده
بالأموال لكسب القبائل. فانحازوا إليه أخيراً، وتخلّوا
عن ابن عمه الذي التجأ إلى منازل الدّواودة. ثم
نقطة، فتوزر، وأخيراً تونس؛¹ بحثاً عن مساندة
السلطان الحفصي؛ دون جدوى.

ويبدو أن أبا حمو تعود على الاضطرابات
والفتن. فهيّا هو يتحرش بالمرينيين - بعد أن أحسّ
بانفراده في الساحة - حينما رحل ابن عمه (أبو

مستعيناً على ذلك بما يخلفه من الإنك، ويزوره من الأباطيل؛ مواصلاً
بذلك ليله ونهاره)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 379.
¹ العبر، مع: 7، ص: 290.

زيان) إلى تونس، وخمود جذوة الأعراب في بلاده -
ولأول مرة يكون هو الذي استقزّ المرينين بفاس؛
حينما انساق خلف بعض حلفائه من أعراب المعقل؛
ووقوفه معهم ضد السلطان المريني أبي العباس أحمد
ابن أبي سالم؛ بل قيامه بغزو دياره، وتخريب
بلاده وإفساد عمرانه؛ الأمر الذي أغضب هذا
الأخير؛ فصمم على غزو تلمسان. إذ جهز نفسه
وزحف بجيوشه الجرارة نحوها في سنة
785هـ/1383م. ومن غرائب الأحداث ومفارقات
الأيام؛ أن أعراب المعقل الذين ساندتهم أبو حمو
ضد السلطان المريني؛ وكانوا هم السبب في فساد
الحال بينه وبين سلطان بني مرين؛ لم يرتدعوا في
الانضمام إلى هذا الأخير ومشاركته في غزو
تلمسان..¹!! ولما شعر أبو حمو بتفوق السلطان
المريني من حيث العدة والعدد؛ خرج من المدينة -
كما جرت العادة - وقصد حصن تاجحمومت في
نواحي البطحاء؛ وتحصن به؛ انتظاراً للمعركة
الحاسمة.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 294 - 295.

أما السلطان المريني فقد وجد تلمسان شاعرة؛
فدخلها؛ أين قام بتخريب قصور المدينة ذات الشهرة
الواسعة، ونسف بساكنيها الرائعة؛ حدث ذلك
بتحريض ونزمار شيخ سويد: ((ونزل [أبو العباس
ابن أبي سالم المريني] على مرحلة من تلمسان؛
بعد أن أغراه ونزمار بن عريف - أمير سويد -
بتخريب قصور الملك بتلمسان؛ وكانت لا يعبر عن
حسنها؛ اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو
تاشفين؛ واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس؛
لحضارتها وبدأوا دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث
إليهما السلطان أبو الوليد - صاحب الأندلس -
بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس؛
فاستجابوا لهم القصور والمنازل والبساتين؛ بما أعيى
على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله))¹.

ولم يطل مقام السلطان المريني بتلمسان؛
فكعادة بني مرين في كرههم وفرهم؛ فقد سارع
سلطانهم أبو العباس إلى ترك تلمسان، والعودة إلى
فاس؛ عندما علم أن أحد منافسيه على الحكم
(موسى بن أبي عنان) تغلب على فاس، واحتل

¹ العبر، مع: 7، ص: 297.

عرش بني مرين. وموسى هذا بعثه سلطان بني الأحمر المتعاطف مع أبي حمو - وكان قد ألح على السلطان المريني أبي العباس بضبط النفس، وعدم غزو تلمسان. ولما علم بمخالفته لطلبه؛ جهز الأمير موسى بن أبي عنان - الذي كان لاجئاً في بلاطه - وساعده على العبور للضفة المغربية، ودخول فاس. فانتهاز أبو حمو هذه الفرصة الذهبية؛ فسارع مع أتباعه إلى العودة، ودخول تلمسان؛ والجلوس على عرشه. ولكنه فُجع بما حصل لقصوره ومنتزهاته من دمار.

والظاهر أن المصائب لم تتخل عن أبي حمو؛ إذ تواصلت الأحداث المؤلمة في طريقه. فبعد انقباض المرينيين، وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية، وبعد تغلبه على ابن عمه أبي زيان، وبعد كسره لشوكة خالد ابن عامر ومن معه من أعراب بني عامر وغيرهم؛ انفجر الوضع - هذه المرة - داخل الأسرة المالكة. إذ دبَّت في وسطهم عاهات الغيرة والتحاسد والتنافس الأسود. لقد كان للسلطان أبي حمو عدد كبير من الأولاد. أكبرهم أبو تاشفين عبد الرحمن. وقد أحصى يحيى بن خلدون عددهم؛ حين قال:

((وجملتهم الآن بين ذكر وأنثى، وحي وميت ثمانون))¹. وأهمهم؛ كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون: ((كان لهذا السلطان أبي حمو جماعة من الولد: كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن؛ ثم بعده أربعة لأم واحدة؛ كان تزوجها بميلة من أعمال قسنطينة - أيام جولته في بلاد الموحدين - وكبيرهم المنتصر، ثم أبو زيان محمد، ثم عمر؛ ويلقب: عُمُر. ثم بعدهم أولاد كثيرون؛ أبنا علات))². لما كبر الأولاد؛ تطلَّعوا إلى مناصب الدولة؛ فاستجاب لهم أبوهم. ولكن أباً تاشفين - الذي أسندت إليه ولاية العهد؛ وكان رديفاً للسلطان - انزعج من حُوء أبيه على إخوته؛ وتقديهم في الولايات. خاصَّة؛ عندما وزَّعهم على ولايات الدولة؛ كالمنتصر؛ الذي ولَّاه على مليانة وأعمالها، وأبي زيان محمد؛ الذي عيَّنه على رأس لمدينة وما يتبعها من بلاد حصين، ويوسف بن الزَّابية؛ الذي خصَّه بتدلس وأعمالها. كلَّ هذا أغاظ أباً تاشفين؛ ولكن ما أغضبه أكثر؛ هو نقل أخيه أبي زيان من لمدينة، وتكليفه بولاية وهران. وهنا؛ أبدى أبو تاشفين تذمره، اعترضه

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 491.

² العبر، مج: 7، ص: 291.

بكل شدة؛ وطلب ولاية وهران لنفسه. ونتيجة لهذا الصراع الداخلي في الأسرة المالكة؛ ذهب يحيى بن خلدون ضحية سهلة؛ إذ اغتيل بتحريض من صاحب الشرطة موسى بن يـخلف¹، وبأمر أبي تاشفين في رمضان من سنة 780هـ/1278م.² وتبعاً لإصرار هذا الأخير اضطر أبو حمو إلى تلبية طلبه؛ فأعاد ولده أبا زيان إلى لمـدية؛ وأقطع ولاية وهران إلى أبي تاشفين. ولكن هذا لم يقنعه؛ إذ طلب ضمّ الجزائر أيضاً إليه؛ فوافقه أبوه، وأقطعه إيّاها؛ فأنزل أبو تاشفين بها أخوه يوسف بن الزاوية؛ الذي كان من شيعته.

وجملة القول؛ أن أبا حمو بدأ يضيق بمطالب ابنه أبي تاشفين؛ كما انتابته شكوك في أهدافه؛ نحوه ونحو إخوته. فتظاهر بالحركة لإصلاح حال الأعراب في الجهات الشرقية. وكانت نيته الحقيقية من ذلك؛ هي الاتصال بابنه المنتصر في ملـيانة؛ كي يمهد له الطريق للإستقرار في مدينة الجزائر، بغرض اتخاذها عاصمة للدولة الزيانية؛ على أن يترك ولده أبا

¹ أورد عبد الرحمن بن خلدون قصة مقتل أخيه يحيى؛ بوشاية مفرضة من طرف صاحب الشرطة موسى بن يـخلف. أنظر العبر، مج: 7، ص: 292-293.
² نفسه، ص: 292.

تاشفين في تلمسان لحماية الجهة الغربية. ولكن موسى بن يـخلف صاحب الشرطة - وعين أبي تاشفين على والده - اكتشف ذلك؛ وأخبره بنية والده؛ فركب من يـومه، ولحق به قبل أن يصل إلى المنتصر بـمليانة؛ فاضطر أبو حمـو عندئذ إلى العودة من حيث أتى. وهنا؛ تلاشت الثقة بين الوالد السلطان، والإبن ولي العهد؛ الذي شدد العيون على أبيه. وكان هذا الأخير يشعر باستبداد ولده عليه؛ فأراد التخلص من الطوق الذي فرضه عليه بالانتقال إلى الجزائر، والاستقرار بها، واتخاذها عاصمة للدولة.

وواضح؛ أن أبا حمـو لم يتخل عن خطته؛ وإنما أجّل تنفيذها إلى وقت آخر. وعليه؛ فقد جهز بعض الأحمال من المال؛ وكلف أحد ثقاته؛ يسمى يعلى بن عبد الرحمن بإيصالها إلى المنتصر؛ وأعطاه كتاباً ولاه فيه على الجزائر؛ فانطلق إلى وجهته. ولكن صاحب الشرطة موسى بن يـخلف؛ كشف ذلك، وأخبر أبا تاشفين بالأمر؛ فبادر بإرسال من يتعقب القافلة، ويعيدها؛ فلحقوا بها، أعادوها؛ بعد أن اغتالوا يعلى بن عبد الرحمن. وكانت هذه الحادثة هي التي فجّرت المكتوم، وكشفت ما خفي من

خلافات وشنآن بين الوالد وولده: ((فاستشاط [أبو تاشفين] وجاهر أباه، وغدا عليه بالقصر؛ فوقفه عن الكتاب، وبالف في عذله. وتحيز موسى بن خلف إلى أبي تاشفين؛ وهجر باب السلطان، وأغرى به ابنه؛ فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه، وأسكنه بعض حجر القصر، ووكل به، واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة؛ ثم بعث به إلى قصبة وهران؛ فاعتقله بها؛ واعتقل من حضر بتلمسان من اخوته. وذلك آخر ثمان وثمانين [وسبعمائة...]]¹.

ولم يقف الحال عندها هذا؛ بل تمادى أبو تاشفين في إبداء سخطه، والانتقام من أبيه وإخوته؛ بتحريض الشلة المحيطة به؛ وعلى رأسهم صاحب الشرطة. فهز جيشاً من الأعراب وزحف بهم نحو أخويه: المنتصر بمليانة، وأبي زيان بلمدية. وكانا قد سمعا بما فعله أخوهم أبو تاشفين بأبيهم؛ فالتحقوا بقبائل حصين؛ فأجاروهم، وحموهم في شواحق جبال تيطري. فدخل أبو تاشفين بجيشه مليانة ولمدية؛ ثم نزل على سفوح تيطري؛ محاصراً لأخوية. ومع

¹ العبر، مج: 7، ص: 299.

طول الحصار في تيطري؛ وسوست له شلته؛
بالتخلص من أبيه وإخوته في وهران؛ وأوهموه
باحتمال خلاصهم من أسرهم؛ فافتتح بذلك، وأرسل
ولده أبوزيان مع ابن الوزير عمران بن موسى،
وعبد الله بن الخراساني؛ مرفقين ببعض الفرسان؛
وأمرهم بقتل والده وإخوته في سجنهم بوهـران. ولما
سمع أبو حمو بقدمهم أوجس خيفة منهم؛ وصعد
إلى أسوار القصبة؛ ينادي الناس، ويستجد بأهل البلد؛
فلحقت به أفواجهم؛ فتدلى إليهم من أعالي الجدران
بواسطة حبل أوصله بعمامته؛ فساعده الناس
المجتمعون على الهبوط إليهم؛ وتجمعوا حوله. فلمّا
سمع أبوزيان بن أبي تاشفين، ومن معه الهبة،
وأدركوا التقاف أهل البلد حول أبي حمو لحمايته؛
خافوا العاقبة، وفرّوا من المدينة: ((واجتمع على
السلطان أهل البلد؛ وتولى كبر ذلك خطيبهم؛
وجدّوا له البيعة؛ وارتحل - من حينه - إلى
تلمسان؛ فدخلها في أوائل سنة تسع وثمانين
[وسبعمائة...])¹.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 300 - 301.

وكانت تلمسان في تلك الأثناء مخربة؛ بسبب ما لحقها من دمار وفساد؛ أحدثه بنو مرين. فلم تكن بها أسوار تقِيها، ولا جند تحميها. فبعث إلى من بقي من بني عامر؛ فوفدوا عليه؛ وكانوا قلة؛ لأن معظمهم كان مع ابنه أبي تاشفين. ولما سمع أبو تاشفين بما حدث في تلمسان؛ فكّ الحصار عن أخويه بجبل تيطري، وعاد أدرجه بجيشه وأعرابه إلى تلمسان. ونظراً لعدم التكافؤ في العدة والعدد بين الإبن وأبيه، وتبعاً لتعذر محاربة بني عامر لبعضهم بعضاً؛ وجد أبو حمو نفسه مضطراً للالتجاء إلى صومعة المسجد الجامع. فصعد إليه أبو تاشفين بنفسه، وأنزله من المئذنة؛ ثم اعتقله ببعض الغرف. ولكن أبا حمو رغب من ولده أن يسمح له بالرحلة إلى الحج؛ لقضاء فرضه؛ فوافقه وطلب من بعض تجار قطلونة؛ أن يوصله بحراً إلى الإسكندرية. فأركبه السفين بأهله من ميناء وهران؛ ثم عاد - بعد إبحار السفينة - إلى تلمسان؛ لمتابعة شئون دولته. غير أن أبا حمو؛ راود قبطان السفينة وألح عليه في إنزاله ببجاية؛ فأسعفه، ورسى بميناء بجاية؛ فنزل أبو حمو من السفينة بأهله، وبالموكلين

بحراسته. ثم بعث من يخبر محمد بن أبي مهدي صاحب أسطول بجاية؛ الذي كان مستبداً على أمير البلد. فرحب به، واحتفى بمقدمه، وأنزله في بجاية ببستان الملك المعروف باسم "الرفيع" وذلك في عام 789هـ/1387م. ثم بعث بالخبر إلى السلطان الحفصي بتونس؛ فشكره على موقفه تجاه أبي حمو، وطلب منه: ((الاستبلاغ في تكرمه، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمة أبي حمو إلى حدود عمله؛ متى احتاج إليها))¹.

وكان هذا متفصلاً، وفرصة ذهبية سقطت على أبي حمو؛ الذي خرج من بجاية في أبهة ووجاهة؛ حتى وصل إلى متيجة؛ أين استنفر قبائل الأعراب من متيجة، ونواحي أخرى؛ فلبوا نداءه، واجتمعوا حوله. وبعد استكمال التجمع؛ انطلق نحو تلمسان؛ حتى وصل شلف. أين تبين له أن بني عبد الواد انحازوا لولده أبي تاشفين؛ بما وزع عليهم من أموال، وما أغراهم به من خير عند الانتصار.

¹ العبر، مج: 7، ص: 302.

عندئذ؛ ترك أبو حمو ولده أبو زيان محمد في شلف؛ بما جمعه من أنصار؛ وانتقل إلى الصحراء؛ لتعبئة ما أمكن من قبائل المعقل. وكان أبو تاشفين؛ لما علم بوجود أخيه أبي زيان في شلف؛ جهّز له جيشاً بقيادة ولده أبي زيان بن أبي تاشفين وبمعونة محمد بن عبد الله بن مسلم. فالتقاهم أبو زيان بن أبي حمو؛ فانقشع غبار المعركة عن هزيمة شعاء لجيش أبي تاشفين؛ إذ قتل في المعركة ولده أبو زيان، ووزيره محمد بن عبد الله بن مسلم، وجمع من بني عبد الواد. وكان أبو تاشفين قد انتقل بجيشه نحو الجنوب؛ حيث يتواجد والده أبو حمو. ولمّا وصله خبر مهلك ولده ووزيره، وانكسار جيشه المتجه إلى شلف؛ خاف العاقبة، وعاد أدراجَه إلى تلمسان. ويعودته؛ انفض عنه بنو عبد الواد، ومن معه من الأعراب؛ فلم يجد مفرّاً من الهروب إلى أحياء سويد؛ الذين أوصلوه إلى البلاط المريني؛ حيث استجد ببني مرين. وبالمقابل؛ دخل أبو حمو تلمسان في رجب من عام 790هـ/1388م؛ أين التحق به بقية أبنائه؛

وانهمك في حل المعضلات التي تسببت فيها تلك الأحداث المؤلمة.

ولم ينته الصراع عند هذا الحد؛ بل ازداد اشتعالاً؛ بذهاب أبي تاشفين إلى فاس؛ إذ حرك المياه الراكدة؛ وحفز السلطان أبي العباس المريني إلى فتح أبواب الحنين إلى آمال الماضي، وبعث في نفسه الرغبة الجامحة للتوسع شرقاً وامتلاك تلمسان. فلم يتردد في قبول مساعدة أبي تاشفين. وبعد مدة؛ جهّز له جيشاً بقيادة ابنه أبي فارس؛ وبعثه معه إلى تلمسان؛ فالتقوا بجيش أبي حمو في المكان المسمى بالغيران؛ أين اشتبك الجيشان؛ فكبا بأبي حمو فرسه؛ فقتل قصعاً بالرماح. وذلك في آخر سنة 791هـ/1388م؛ حيث دخل أبو تاشفين تلمسان؛ واقتعد كرسي الحكم؛ داعياً على منابرهِ لسلطان المغرب أبي العباس.

مات السلطان أبو حمو، وبقيت أسطورتُهُ ماثلة بين الناس. لقد كان هذا السلطان أعجوبة بحق؛ إذ تفوق على معاصريه من ملوك المغرب كلهم، بامتلاكه لناصية الأدب، والشعر، وسعة الأفق، والقدرة على استيعاب مختلف العلوم. كما كان فارساً مغواراً، وسياسياً محنكاً. لقد حكم زهاء الثلاثين

سنة؛ عرف خلالها أصنافاً متنوعة من الشدائد
والمحن؛ فلم ييأس، ولم ينكص، ولم تخنه شجاعته
في أحلك الأيام وأمرّها. كان يستعيد مكانته في كل
مناسبة يصاب فيها بنكبة أو مصيبة. فلم تخنه
عزيمته ولا مرة. وله شبه كبير - في قوة الإرادة،
والحزم - بجده مؤسس الدولة الزيانية يغمراسن بن
زيان؛ وإن فاته بالعلم وسعة المعرفة في الآداب. ومع
هذا؛ فهو المؤسس الثاني للدولة الزيانية؛ بعد
اندثارها، وزوال أثرها. وقد بقيت دولته قائمة في
ظل أبنائه وأحفاده؛ إلى أن قدر لها الله بالزوال؛
حينما ظهر الأتراك ببلاد المغرب الأوسط وإفريقية؛
حيث وسقطت بيد صالح ريس في عام
سنة 962هـ/1554م.

– العمران والثقافة:

لم تعرف دولة بني زيان؛ منذ قيامها عهداً شبيهاً بعهد أبي حمو موسى الثاني؛ في نشر العلوم الدينية، والاعتناء بالأدب، والتباهي بالعمران. لقد تفوق أبو حمو الثاني عن أسلافه وأخلافه معاً في هذا الميدان. كما عرف في عهده علماء فطاحل، وأدباء كبار. وفي هذا المجال؛ سِيكَتْفَى بعلماء الدين وبعض المتصوفة؛ بينما يأتي الحديث عن الأدباء والشعراء في الأجزاء الأخرى.

1 – الحاج أبو عبد الله محمد المصمودي، من أولياء الله والصالحين العلماء؛ رحل إلى الحج فمات بـ صحراء خليص بين مكة والمدينة سنة 724هـ/1323م.

2 – الفقيه القاضي المبارك أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي. وهو من قضاة العدل، وعرف بالورع، ينتمي إلى بيت علم ورئاسة. إذ كان جدّه أبو الحسن بتونس، في أيام المستنصر، قاضي الجماعة وصاحب العلامة وكاتب الإنشاء، وهو من بيوتات إفريقية المشهورين. درس في بلده عن الإمام أبي الطاهر بن سرور، وآخرين.

وكان قد نزل تلمسان بعد رفع الحصار الأول عنها؛ فولي قضاء وجدة، ثم قضاء تلمسان. فكان عادلاً وفاضلاً. ومن تأليفه: ترتيب كتاب اللخمى على المدونة. وتوفي بتلمسان في حدود 745هـ/1344م.

3 - الشريف الرحالة أبو علي حسن بن أبي يعقوب يوسف بن يحيى الحسني السبتي. وهو من أهل الحديث. أخذ عن الأستاذ ابن عبيدة، وابن الشاط؛ ثم رحل إلى المشرق؛ فالتقى علماء كثيرين، وأخذ عنهم؛ منهم: ابن دقيق العيد. ثم عاد إلى تلمسان. ولي القضاء بإفريقية ثم بسواحل تلمسان. وقال عنه يحيى بن خلدون: ((واشتهر فضله، وعلم قدره، فنقل إلى تلمسان، ورأس بها الناس، وولي قضاءها، فعدل ولم تأخذه في الله لومة لائم، ثم جالس السلاطين في أعلى طبقات الحظوة. وكان حافظاً للعلم محققاً للتاريخ)). وكانت وفاته بتلمسان في سنة 753 أو 754هـ/1353م.

4 - الفقيه الرئيس الوزير الحاجب أبو عبد الله محمد التميمي؛ وهو أخو صاحب الترجمة السابقة. يتحلى بهمة وسمو ورئاسة عليا. تولى خطة الحجابة في بلاط السلطان أبي عنان. قال فيه يحيى

ابن خلدون: ((وحاز ببابه الرياستين، بما لم يعرف
لمثله في زمانه، فسلك سنن الفضلاء الأمجاد))¹.
أسندت إليه إمارة بجاية؛ فمات فيها سنة
756هـ/1355م؛ فنقل جثمانه إلى تلمسان؛ حيث دفن
بزاويته القريبة من العباد.

5 - الإمام الفقيه الشريف أبو عبد الله محمد بن
أحمد بن علي بن يحيى الحسيني العلوي. وهو
أحد العلماء الكبار في وقته؛ يتصف بالكمال والجلال؛
ويفـيـظ علماً وديناً؛ استوعب العلوم العقلية والنقلية.
أخذ بتلمسان عن ابني الإمام؛ الشيخين: أبي زيد،
وأبي موسى، وعن الشيخ الفذ أبي عبد الله الأبلـي
وعن آخرين، فبلغ بعلمه ورجاحة عقله؛ أقصى حداً
في سلامة الإدراك، والتوسع في محصول العلم، وامتلاك
الفصاحة وطلاقة اللسان. شيد له أبو حمو موسى
الثاني مدرسة بتلمسان؛ كانت معلماً جليلاً لنشر
العلم. توفي في ذي الحجة في آخر سنة
771هـ/1369م. حيث أمر السلطان أبو حمو الثاني
بدفنه بجوار قبر والده أبي يعقوب يوسف؛ تبركاً
به.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 132.

6 - أبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى الكومي الندرومي. وهو أحد علماء المذهب المالكي. له ثبت تناول فيه شيوخه؛ وما أجازوه له. توفي في حدود سنة 775هـ/1373م.

7 - الفقيه أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القيسي. عرف باسم المشوش. قال عنه يحيى بن خلدون: ((من أهل العلم والعمل. ومن بيت نباهة وشرف، معروف الدين والصلاح))¹. لم يذكر تاريخ وفاته؛ ويبدو أنه كان معاصراً له.

8 - الفقيه القاضي الأعرف أبو العباس أحمد بن أحمد القيسي بن المشوش. وهو ابن أحمد بن علي السابق الذكر. يعتبر من كبار الفقهاء، وقضاة العدل؛ هو صاحب يحيى بن خلدون؛ الذي قال عنه: ((صاحبنا رحمه الله))². إذن فقد عاصره.

9 - الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن المشوش. وهو حفيد أحمد بن علي المذكور أولاً. وكان من الفقهاء الكبار ذوي الصيت الرفيع، ومن المتمسكين بالدين والمتصفين بالورع. قال يحيى ابن خلدون: ((اختاره مولانا أمير المسلمين [أبو

¹ بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.

² نفسه؛ ص: 123.

حمو الثاني]، أيده الله، لكتب العلامة والإمامة به،
ثم للشهادة على صندوق المال، توسماً فيه للثقة
والدين، بارك الله فيه))¹.

10 - القاضي الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن علي
ابن اللجام. تولى خطة القضاء؛ فاتصف بالعدل
والصرامة في تحقيق الحق. يتميز بخط رائع. وكان
مدرساً عالي الهمة. قال يحيى بن خلدون: ((ذكر
أن رجلاً من خدام المملكة استنقصه بنسبته إلى
لجام؛ فقال: اللهم أره عزة الشرع؛ فبعد ثلاث جيء
به سكران إليه؛ فأقام عليه الحد؛ فكانت هذه من
كراماته رحمه الله))². لا يعرف تاريخ وفاته؛ ولكن
يبدو أنه عاصر يحيى بن خلدون.

11 - والفقيه أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن عبد
العزيز بن رحمون. وصفه يحيى بن خلدون بـ:
((الأستاذ الأعراف الصالح))؛ وقال أنه: ((من قضاة
العدل والدين والفضل))³. يبدو أنه معاصر له.

¹ بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.

² نفسه، ص: 118.

³ نفسه، ص: 122.

12 - الفقيه أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد الله بن عبد العزيز بن رحمون. وهو ابن أبي زكرياء المذكور سابقاً. تولى القضاء؛ عرف بالحزم والصرامة؛ والتمسك بالدين.

13 - الفقيه أبو المهدي عيسى بن عبد العزيز بن رحمون. لا يعرف عنه أكثر من هذا.

14 - الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز رحمون.

وقد أجمل يحيى بن خلّون القول بخصوص أسرة رحمون العلمية؛ فقال: ((وكل أهل هذا البيت حتى الآن أهل علم ووجاهة وعدالة وفضل، ومنهم من كتب بباب أمير المسلمين مولانا أبي حمو أيده الله))¹.

15 - الفقيه العدل أبو يوسف يعقوب بن عبد الرحمن بن أبي زيد عبد الرحمن الصنهاجي. من أهل الفضل، والمعرفة.

16 - محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيد عبد الرحمن الصنهاجي. من الفضلاء، وأهل الدين.

¹ بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.

17 - الفقيه القاضي أبو العباس أحمد. تولى القضاء؛ فاتصف بالحزم والصرامة والدين.

18 - الفقيه القاضي أبو الحسن علي المقرئ. يتصف بالعلم والدين. وهو قاضي حضرة تلمسان في زمن يحيى بن خلدون؛ قال عنه أنه: ((خير فاضل، على هدي السلف الصالح، متحرراً الصواب في أحكامه، بارك الله فيه))¹.

19 - الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد التميمي. وهو ولد أبي عبد الله المذكور أعلاه. وكان من العدول الأخيار في تلمسان وفاس. لا يعرف تاريخ وفاته.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 121.

الدور الرابع

وهو دور الضعف والانحدار. ودام 171 سنة (أي من عام 791هـ/1389م إلى سنة 962هـ/1554م)؛ سنة انهيار الدولة الزيانية وزوالها نهائياً، على يد القائد التركي باي لارباي صالح ريس.

ومن خلال النصوص التاريخية المتوفرة؛ يتبين مدى ضعف هذا الدور، واضطراب أحواله. إذ لم يفده امتداده عبر فترة زمنية طويلة - بدأت بمقتل السلطان أبي حمو الثاني، وانتصاب ولده أبي تاشفين على سدة الحكم في تلمسان؛ تحت الوصاية المرينية - حيث غدت سيادة الدولة الزيانية في معظم الأوقات - خلال هذا الدور - ناقصة وتابعة للدولة المرينية حيناً، والدولة الحفصية حيناً آخر؛ إلى أن سقطت فريسة للولاء الأتراك بصورة نهائية.

ومع ذلك؛ فقد تخللت هذا الدور فترات قصيرة؛ حظيت فيها الدولة بالاستقلال المطلق؛ بل استطاعت الدولة في عهد السلطان أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني - الذي اعتلى سرير

الحكم في تلمسان سنة 814هـ/1411م - من انتزاع المناطق الشرقية للجزائر من يد الحفصيين، وتمكن كذلك من احتلال فاس (عاصمة المرينيين)؛ أين نصب من قبله حاكماً خاضع لدولة بني زيان.

كما بذل بعض حكام في هذا الدور (كأبي مالك وابن الحمرة، والعامل) جهوداً جلية في سبيل اكتساب عوامل القوة لدولتهم؛ فاجتهدوا - بذلك - في الذود عن استقلالها وسيادتها؛ غير أن الانشقاقات والأطماع العائلية؛ أعاقت جهودهم، ونصرت الأعداء عليهم. ونتيجة لهذه الانشقاقات أضحى السلطان؛ لا يدوم في حكمه أكثر من بضعة أيام؛ ثم يسقط ويتولى الأمر غيره.

وعلى هذا؛ يتبين أن السلطان أبا زيان الثالث بقي في الحكم عدة أسابيع ثم سقط. أما أبو ثابت ابن أبي تاشفين الثاني؛ فيبدو أنه ظل على العرش مدة أربعين يوماً. بينما استطاع عبد الرحمن بن أبي محمد المعروف بابن خولة البقاء في الحكم مدة شهرين، أما السعيد بن أبي حمو الثاني؛ فقد كان محظوظاً؛ إذ تولى الحكم لمدة خمسة أشهر.. إلخ.

ملوك الدور الرابع

وملوك هذا الدور من بني زيان هم:

— أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني ابن أبي حمو الثاني (من 791هـ/1389م إلى 795هـ/1393م). ثار على أبيه، ومدّ يده إلى أعدائه بني مرين؛ عاقداً معهم حلفاً؛ أدّى إلى قتل أبي حمو الثاني، وانتصاب أبي تاشفين ملكاً على تلمسان؛ تحت ظلّ بني مرين وحمايتهم¹.

— أبو ثابت بن أبي تاشفين الثاني (حكم 40 يوماً في سنة 795هـ/1393م). ولكنه قتل — مع وزيره وكافله أحمد بن العز — بيد عمّه يوسف بن الزاوية².

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 303 - 305.

² ثمة اضطراب في خبر هذا السلطان. فبينما يتجاهل ابن خلدون ذكر اسمه؛ ويصفه بـ((صبياً من أبناء السلطان المتوفي))، ثم يسمي كافله؛ فيقول: ((وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صائهم؛ وكان يمت إليه بجزولة؛ فولّى بعده - مكانه - صبيّاً من أبنائه، وقام بكفالته)). العبر، مج: 7، ص: 307. أما التنسي فيسميه، ويقول فيه: ((ثم بويع بعده ولده المولى أبو ثابت؛ جدّ مولانا المتوكل)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 206.

— أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني المعروف بابن الزاوية (حكم من سنة 795هـ/1393م إلى 796هـ/1394م؛ فبقي في الحكم 10 أشهر). وكان — في البداية — والياً على الجزائر. ولمّا سمع بموت أخيه السلطان أبي تاشفين، ومحاولة وزيره وضع صبيٍّ صغير من أبناء هذا السلطان؛ والقيام عليه كوصيٍّ؛ نهض إليه من الجزائر؛ فدخل تلمسان؛ أين قتل الوزير والصبي ابن أخيه. ولكنه لم ينعم في مسعاه طويلاً؛ إذ دخل عليه — بعد فترة وفي سنة 796هـ — الأمير أبو فارس ابن السلطان المريني أبو العباس؛ فاحتل تلمسان، وألحقها بمملكة أبيه؛ فهرب ابن الزاوية إلى حصن تاجمومت؛ حيث بقي يترصد الفرص للعودة إلى ملك أجداده¹. ولكنه قتل من قبل أنصار أخيه أبي زيان محمد.

— أبو زيان محمد الثاني ابن أبي حمو الثاني (من 796هـ/1394م إلى 801هـ/1399م). وصل إلى سدة الحكم في تلمسان؛ بعد محاولات فاشلة؛ ضد أخيه أبي تاشفين؛ منع فيها من قبل بني مرين. ولم يتمكن من تحقيق هدفه إلا بعد هلاك السلطان أبي

¹ العبر، مج: 7، ص: 307.

العباس المريني سنة 796هـ؛ حيث أطلق سراحه أبو فارس المريني، وسمح له بالعودة إلى تلمسان؛ والترجع على عرشها في ظل بني مرين. ويتميز السلطان أبو زيان الثاني بسعة العلم¹، والتفوق في فنون الأدب، وحسن ركوب صهوة الشعر؛ وقد أوردت المصادر قصيدة طويلة غراء بعثها مع هدايا للسلطان برقوق بمصر؛ مطلعها:

لِمَنِ الرِّكَّابُ سَيَرُهُنَّ ذَمِيلُ وَالصَّبْرُ - إِلَّا بَعْدَهُنَّ - جَمِيلُ
يَا أَيُّهَا الْحَادِي رُوَيْدَكَ إِنَّهَا ظُعُنٌ يَمِيلُ الْقَلْبُ حَيْثُ تَمِيلُ
رَفِيقًا بِمَنْ حَمَلَتْهُ فَوْقَ ظُهُورِهَا فَالْحُسْنُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

- أبو محمد عبد الله الأول ابن أبي حمو الثاني (من 801هـ/1398م إلى 804هـ/1401م). حكم في ظل بني مرين؛ ولما شعروا بخطرهم على نفوذهم؛ أحضروا أخاه أبا عبد الله محمد؛ واصطحبوه معهم

¹ قال فيه التنسي: ((نسخ - رضي الله عنه - بيده الكريمة نسخاً من "القرآن" وحبسها، ونسخة من "صحيح البخاري"، ونسخاً من "الشفاء" لأبي الفضل عياض؛ حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة؛ التي هي من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل؛ ما سرت به الركبان؛ لما أوقف عليها من الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف. وصنف كتاباً؛ نحا فيه منحى التصوف؛ سماه "كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المظنة والنفس الأمارة"). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدرر)، ص: 211.

إلى تلمسان؛ أين أراحوا أبا محمد ووضعوا مكانه
أخاه أبا عبد الله¹. ثم عادوا إلى فاس بالسلطان
المخلوع أسيراً.

— أبو عبد الله محمد الثالث ابن أبي حمو الثاني
الملقب بالواثق، والمعروف بابن خولة (من
804هـ/1401م إلى يوم وفاته في 813هـ/1411م). مرت
أيامه في سكنة وسلام إلى يوم مماته. خلفه ولده
عبد الرحمن.

— عبد الرحمن الثالث ابن محمد الثالث المعروف
بابن خولة (حكم مدة شهرين تقريباً؛ من
813هـ/1411م إلى 814هـ/1411م). نشبت — بعد توليه
الحكم — فتنة هوجاء؛ جراء نساء المتنافسين،
وتأمر المرينيين؛ وختمت بوثوب عمه السعيد بن أبي
حمو الثاني على سدة الحكم؛ فخلعه، واحتل مكانه.
— السعيد بن أبي حمو الثاني (حكم 5 أشهر في سنة
814هـ/1411م). لم يستطع التوفيق بين مداخل
الدولة ومصاريفها؛ الأمر الذي أفقد الخزينة توازنها،
وفرغ مخزونها؛ فأراد معالجة ذلك الخل بفرض
الضرائب الجديدة وتحميل الرعية ثقل الطلب. الأمر

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 229.

الذي أشعل جنوة سخطهم؛ فانتهاز المرينيون الفرصة؛ فبعثوا إليه - كعانتهم - الأمير أبا مالك عبد الواحد للإطاحة بأخيه. فهرب السعيد إلى ملجأه؛ الذي توفي به في سنته.

- أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني (حكم فترتين؛ الأولى من 814هـ/1411م إلى 827هـ/1424م، وفي الثانية من 831هـ/1428م إلى 833هـ/1430م). أحيى السلطان أبو مالك عبد الواحد؛ سنن أسلافه من عظماء ملوك بني زيان¹؛ إذ تمكن من فرض استقلال ملكه عن المرينيين؛ بل تغلب عليهم، واحتل عاصمتهم فاس؛ ونصب من بين أفراد الأسرة المالكة هناك ملكاً عليهم؛ يأتّمر بأمره. كما استرجع ممتلكات أجداده في الجهات الشرقية من

¹ يقول التنسي: ((وكان يقيم ليلة مولد المصطفى، ويحتفي به غاية الاحتفاء؛ ويقيم فيها المنقانة؛ على الوجه المتقدم في رسم والده؛ ويقتفي أثره في المستحسن من عوائده. ونفق - في أيامه - سوق الأدب، وجاء بنوه إلى بابيه ينسلون من كل حذب؛ فينقلبون بجرّ الحقائب؛ ظافرين بجزيل الرغائب)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 236. أما المنقانة المذكورة هنا؛ فهي آلة لقياس الوقت؛ كانت في بلاط أبي حمو الثاني؛ ووصفها يحيى بن خلدون؛ بل نظم مقطوعات شعرية عديدة تنوه بحلول كل ساعة بها.

تلمسان¹. وقال فيه التنسي: ((وازداد في رفعة ونما؛ حتى صار فيه نسيج وحده؛ لتناهي حزمه وجده. أخذ لأهل بيته من الغرب بثأرهم، وغزا ملوكهم في عقر دارهم، ووجه إليها جيوشاً جاسوا خلالها، وتفروا ظلالتها؛ فاشتدت بذلك صولته، وامتدت له دولته))².

ولما استقحل أمر عبد الواحد، وهدد المناطق الشرقية لتلمسان - وكانت تابعة لبني أبي حفص - نهض أبو فارس عزوز الحفصي بجيش ملاً الآفاق؛ وصل تعدادة 50 ألفاً مقاتل؛ وسحب معه أعراب إفريقية في جموعهم الغفيرة. تمكن السلطان الحفصي - بعد وقائع وملاحم - من فتح تلمسان، وإخراج السلطان عبد الواحد منها؛ فاتجه نحو المغرب لاجئاً؛ ونصب أبو فارس عوضه ابن أخيه

¹ أورد التنسي (ص ص: 236 - 240) قصيدة لشاعر سماه أبا الحسن علي الشباب الفاسي؛ ما بها السلطان عبد الواحد على فتح مدينة الجزائر؛ وهي طويلة؛ جاء فيها:

شرف الفتى السمر الطوال المبد	وصواهل ترد الوغى ومهند
وكتائب معقودة بكتائب	والسمر تنظم والسيوف تبدد
ويد القسي تبث من أوتارها	رسل المنايا والقضاء يسدد
إلى أن يقول:	

هنأته فتحاً يروكك حسنه ذلت لعزته العدى والحسد

² تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 236.

محمد بن أبي تاشفين (ابن الحمرة) على عرش
بني زيان؛ على أن يلتزم بالدعاء للحفصيين.
وحاول أبو مالك - أثناء وجوده بالمغرب
الأقصى - إيجاد مخرج لاستعادة ملكه؛ ولكنه فشل.
عندها؛ أرسل أحد أبنائه إلى السلطان أبي فارس
الحفصي؛ عارضاً عليه إعادة المياه إلى مجاريها؛
فقبل السلطان الحفصي مساعدته؛ نكاية في ابن
الحمرة؛ الذي تراجع عما اتفق عليه مع أبي
فارس؛ وفضل الاستقلال بدولته.

وبالفعل؛ فقد جهّز السلطان الحفصي جيشاً
بقيادة العليج جاء الخير؛ وأمره بمرافقة أبي مالك
عبد الواحد - الذي وصل من المغرب الأقصى -
ومساعدته على استعادة ملكه في تلمسان. فتقدم
الجيش الحفصي نحو عاصمة الزيانيين؛ ولما وصل
إلى مشارف المدينة؛ اشتبكوا مع جيش محمد بن
الحمرة؛ وانتهت المعركة بانهزام الحفصيين؛ فعادوا
من حيث أتوا. ومع هذا؛ فقد عاود أبو فارس
الزحف إلى تلمسان هذه المرة بنفسه؛ مصطحباً معه
السلطان أبا مالك عبد الواحد. فحاصر حاضرة
الدولة حصاراً شديداً؛ انتهى بفتح المدينة

سنة 831هـ/1428م، وهروب ابن الحمرة إلى الجبال المجاورة؛ باحثاً عن أنصار ومرتبقة؛ فكان له ما أراد؛ إذ استطاع تجنيد بعض الأعراب والأحياء الأمازيغية المجاورة؛ فزحف بهم إلى تلمسان؛ أين دخلها، وقتل عمه أبا مالك عبد الواحد سنة 833هـ/1430م.

— أبو عبد الله محمد الرابع ابن أبي تاشفين الثاني المعروف بابن الحمرة (حكم فترتين الأولى من 827هـ/1424م إلى 831هـ/1428م والثانية حكم فيها 48 يوماً من سنة 833هـ/1430م). تمت الإشارة إلى الفترة الأولى من حكمه في الفقرة السابقة؛ المخصصة للسلطان أبي مالك عبد الواحد. أما الفترة الثانية؛ فانطلقت بدخول تلمسان سنة 833هـ؛ وقتله لعمه أبي مالك واحتلال عرش بني زيان عنوة. ولكن السلطان الحفصي لم يتركه ينعم بغنيمة أكثر من 48 يوماً؛ إذ وصل إليه بجيش مهول سنة 833هـ؛ فدخل تلمسان وأسر محمد بن الحمرة؛ ونصب في مكانه أبا العباس أحمد (العاقل).

— أبو العباس أحمد المعتصم بالله بن أبي حمو الثاني المعروف بالعاقل (من 834هـ/1431م إلى 866هـ/1461م). مرّت الأعوام الأولى من حكمه في استقرار وهدوء؛ ثم اشتعل — فجأة — فتيل الثورات الداخلية؛ ولكنه تغلب على بعضها، وكبح بعضها الآخر. هذا؛ وتميز السلطان أبو العباس أحمد بالسياسة الحسنة، وبثّ العدل في دولته وتمكين الرعية منه، ونشر العلم، وخدمة العلماء والصالحين. وقد أضفى على دولته مسحة من الهيبة والاحترام. وامتدّ حكمه — في تلمسان — إلى اثنين وثلاثين سنة. أحياناً خلالها ما اندثر من الأوقاف، وأضاف إليها أوقافاً أخرى. وبنى مدرسة جديدة في زاوية أبي علي الحسن بن مخلوف؛ وأوقف عليها أوقافاً قيمة. ويبدو أنه سلك مسلك أسلافه من ملوك بني زيان الراضين للتبعية، والمتطلعين للاستقلال عن النفوذ الخارجي؛ وبذلك استتفرّضه أبو فارس الحفصي¹؛ الذي شدّ رحاله — سنة 837هـ/1433م — بجيش سدّ الآفاق؛ قاصداً فتح تلمسان، وإسقاط أبي العباس

¹ قال الزركشي: ((وسار متوجهاً إلى تلمسان؛ لما بلغه عن صاحبها الأمير أحمد ابن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزناتي؛ من التحدّث في الاستقلال؛ كعادة أسلافه)). تاريخ الدولتين، ص: 131.

المعتصم عن عرشه. ولكن شاعت الأقدار غير ذلك؛ حيث هلك في وانشريس؛ قبل وصوله إلى هدفه؛ فعاد أتباعه من حيث أتوا. وقال التنسي في المعتصم: ((وبانت منه في ابتداء أمره شهامة ونجدة؛ توقف لها - رهبة - كل ذي صولة؛ وعرف مقداره، ولم يتجاوز حدّه. ثم عجز بعد ذلك عن النهوض وكلّ؛ وتلاشى ما كان له من الهيبة في النفوس واضمحل؛ واستولى المتغلبون على الأوطان، وكثر الثوار من الزناتية والعربان))¹. خرج عليه - في سنة 838هـ/1434م - أخوه أبو يحيى بن أبي حمو الثاني؛ وتبعه في ثورته بعض الأعراب؛ ولكنه فشل في تحقيق غرضه؛ فانثنى إلى وهران؛ التي استولى عليها سنة 840هـ/1437م. وحاول السلطان المعتصم استعادتها مراراً؛ وتم له ذلك في سنة 852هـ/1448م؛ فانهزم أبو يحيى عن طريق البحر إلى بجاية؛ ثم انتقل إلى تونس؛ موضع وفاته سنة 855هـ/1451م. وفي سنة 841هـ/1437م خرج من تونس الأمير أبو زيان محمد المستعين بن محمد أبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني؛ متوجهاً غرباً؛

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 247 - 248.

قاصداً مملكة أجداده؛ فبدأ - سنة 842هـ/1438م - باحتلال كل ما مرّ به من أوطان؛ فاستولى على: الجزائر، ومتيجة، ومليانة، ولمدية، وتنس¹. وبذلك؛ اشتدّ الأمر على السلطان المعتصم (العاقل)؛ إذ غدت المصيبة مصيبتان؛ فبعد تمرد أخيه أبي يحيى في وهران؛ ظهر في الجزائر ومحيطها خطر جديد؛ يتمثل في محمد المستعين². ويبدو أن أهل الجزائر؛ لشدّ ضيقهم من أحكام المستعين؛ فتأمروا عليه وقتلوه سنة 843هـ/1439م³. ومن بين الثورات التي أزعجت - أيضاً - السلطان أبا العباس أحمد المعتصم؛ ثورة ابن أخيه أحمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني - سنة 850هـ/1446م - ذلك الأمير الذي جمع حوله فئة من الساخطين المتمردين؛

¹ قال التنسي: ((فلما وصل وطا حمزة [البويرة حالياً]؛ بايعه أولاد بليل [من بني يزيد من زغبة]، ثم بايعته مليكش [من صنهاجة]، ثم بنو عمر بن موسى؛ أهل إيلي، ثم جمهور الثعالبة، وبعض حصين. وتوجه إلى الجزائر؛ فحاصرها مدة طويلة؛ حتى ضاق الأمر بمن فيها؛ ففر مقاتلوها، وأذعن من بقي فيها، وأسلموا البلد)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 250 - 251.

² ((وعظم سلطانه، وارتفع شأنه؛ وفرّ إليه كثير من بني عبد الواد؛ أهل تلمسان؛ وعظم أمره على صاحب تلمسان؛ حتى أنساه ذلك همّ وهران)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 251.

³ ذكر عبد الرحمن الجيلالي أن محرك الثورة ضده؛ هو أبو يحيى بن أبي حمو صاحب وهران. أنظر تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 197.

فادوا باسمه ملكاً على تلمسان؛ ولكن ثورتهم أجهضت في مهدها؛ وقتل الأمير أحمد بن الناصر. وإذا كان خطر محمد المستعين؛ قد زال بهلاكه في الجزائر؛ فإن خطر ولده أبي ثابت المتوكل بقي ماثلاً وقائماً؛ بل قادماً بتأنٍ وثبات؛ لأن هذا الأخير؛ واصل تحقيق أهداف أبيه؛ حتى احتل تلمسان في سنة 866هـ/1461م. وخلع عمّ أبيه أحمد المعتصم؛ الذي لجأ - بعد خلعهِ - إلى مقام أبي مدين شعوب؛ في قرية العباد. ولكنه لم يُترك في ملجئه؛ حيث نُفي - إثر ذلك - إلى الأندلس. فسعى منها إلى تشكيل قوة؛ انطلق بها من مدينة الجزائر؛ بغرض استعادة عرشه في تلمسان؛ ولكنه فشل في تحقيق هدفه؛ بعد حصار دام 14 يوماً؛ وانتهى عمره طبيعياً، وختم مسعاه في سنة 867هـ/1463م؛ حيث دفن في العباد.

- أبو ثابت أبو عبد الله محمد الخامس المتوكل على الله بن أبي زيان محمد المستعين بالله بن محمد أبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني بن أبي حمو الثاني (من 866هـ/1462م إلى 890هـ/1485م)¹. كان

¹ ثمة غموض في تاريخ وفاة أبو ثابن محمد الخامس؛ بسبب شح المصادر. ومع هذا فبارجيس يقول أنه بقي في الحكم مدة 21 سنة غير

في تنس عندما قتل والده المستعين في الجزائر؛ فأخطأته سهام الأعداء؛ حيث واصل مسعى والده؛ فاحتل تنس، ومستغلم، وتمزگران، ووهران؛ ثم قفز إلى تلمسان؛ التي فتحها سنة 866هـ، وخلع أحمد المعتصم؛ كما سبق ذكره. وواجهته منذ البداية فن أشعلها أفراد من الأسرة المالكة. وأولى الفن هي فتنة السلطان المخلوع أحمد المعتصم؛ الذي عاد من منفاه بالأندلس؛ ونزل بالجزائر؛ أين اجتمعت إليه بعض الأحياء من الأعراب، والأمازيغ؛ زحف بهم نحو تلمسان؛ فحاصرها - كما ذكر - 14 يوماً؛ ولكنه توفي أثناء ذلك؛ حيث دفن في العباد. وجاء في ركاب المعتصم جماعة من الأسرة المالكة؛ منهم: الأمير محمد بن عبد الرحمن بن أبي عنان ابن أبي تاشفين الثاني. واصل حصار تلمسان هو ومن معه؛ ولكنهم صُدّوا عنها؛ فانسحب مع أتباعه. وقال التنسي في أمرهم: ((فارتحلوا، وتفرقت جموعهم. فمنهم من راجع خدمة أمير المسلمين، ومنهم من تمادى في غيّه))¹. غير أن التنسي؛ يشير

شهرين. واستند في قوله على مخطوط قديم لديه؛ ولكنه لم يسمه. وأشار أيضاً محمود بوعباد في تعليق له على كتاب نظم الدر؛ أن هذا القول ورد كذلك في ملحق البغية.

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 257.

— فيما بعد — إلى ثائر آخر سماه "الأمير محمد بن غالية". واصل تمرده ضد الدولة؛ إلى عام 868هـ/1463م؛ الذي قتل فيه. ولم يذكر التنسي من نسبه سوى هذا. ولكن يفهم من بعض عباراته احتمال أن يكون هو محمد بن عبد الرحمن ابن أبي عنان بن أبي تاشفين الثاني¹ نفسه. من ذلك قوله مواصلاً حديثه السابق: ((صدر الأمير محمد بن غالية إلى وجدة)). إذن؛ فقد يكون من بين الجيش المحاصر لتلمسان؛ ثم صدر — بعد الفشل — إلى وجدة. ويواصل التنسي قوله؛ بعد مقتله: ((ثم جيء من الغد بجسده؛ فدفن مع صاحبه بالعباد))². وصاحبه طبعاً هو أحمد المعتصم. في عهد السلطان أبي ثابت محمد الخامس (المتوكل)؛ زحف الجيش الحفصي نحو تلمسان. جاء — على رأسه — السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان؛ يقال أن خروجهم من تونس وقع في سنة 866هـ/1462م؛ أي السنة التي انتصب فيها السلطان المتوكل على عرش تلمسان. ولما وصل وطن بني

¹ يكون قد عرف بابن غالية؛ مثلما عرف آخرون باسم الأم؛ كابن الزاوية، وابن الحمرة.. إلخ.

² الاقتباس الأول والثاني في ص: 258.

راشد؛ قابلته أحياء من أعراب سويد، وبني يعقوب،
وبني عامر، والدواودة؛ بالإضافة إلى بعض أعيان
بني عبد الواد؛ أبدوا جميعهم سخطهم على السلطان
الزيرياني، وبالمقابل أعربوا عن ولائهم التام
للحفصيين. ومن جهة أخرى وصل من تلمسان
وفد؛ أرسله السلطان المتوكل إلى أبي عمرو الحفصي.
ضمّ الوفد نخبة من علماء تلمسان وأعيانها
الأجلاء؛ وهم: الشيخ أبو عبد الله محمد بن
الشيخ أبي القاسم العقباني، والشيخ أحمد بن
الحسن؛ وخال السلطان أبو الحسن علي بن حمو
ابن أبي تاشفين. قدم له هذا الوفد بيعة السلطان
الزيرياني، وعرض عليه الصلح. فقبل أبو عمرو
عرضهم؛ وعاد إلى حاضرة ملكه. غير أن أبا ثابت
المتوكل؛ تراجع عن موقفه بعد عامين؛ حيث أعلن
سنة 868هـ/1463م عن إسقاط الدعوة الحفصية؛
وطرد عمالها من مملكته. ثم تراجع عن موقفه؛
وعاد عنها ساعياً للإستقلال. وفي هذا الوقت بالذات؛
شنّ أعراب بني عامر وسويد حملة تحريض ضدّه؛
لدى السلطان الحفصي أبي عمرو؛ فما كان منه
سوى تجهيز جيش، والتحرك نحو تلمسان في أواخر

سنة 870هـ/1465م. حيث استقر في المنصورة سنة 871هـ/1466م؛ جاعلاً منها منطلقاً لقتال تلمسان ومحاصرتها. وبعد جولات عديدة؛ انصبّ المطر غزيراً عليهم؛ فأنقل حركتهم؛ وفي تلك الأثناء خرج قاضي تلمسان - مع أعيان البلد - إلى السلطان الحفصي عارضين عليه الصلح، والسلام. وقدموا له كتاب البيعة؛ حرّره السلطان محمد المتوكل بيده؛ جاء فيه: ((شهد على نفسه؛ عبد الله المتوكل عليه؛ محمد لطف الله به؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وأعطى ابنته بكرًا؛ للمولى أبي زكرياء يحيى ابن المسعود¹؛ دون خطبة))². وكانت هذه الحملة؛ آخر حملات التدخل الحفصي في شؤون تلمسان. أما أبو ثابت المتوكل فقد ظل متربعا على عرشه إلى يوم وفاته بتلمسان في سنة 890هـ/1485م؛ حيث خلفه ابنه تاشفين.

- تاشفين بن أبي ثابت محمد المتوكل بن أبي زيان محمد المستعين بالله (حكم 4 أشهر في سنة 890هـ/1485م). لم يكد يجلس على العرش؛ حتى

¹ هو حفيد أبي عمرو وولي عهده؛ وسلطان بني أبي حفص بعده. تولى الحكم في تونس بعد وفاة جدّه سنة 893هـ/1488م؛ وتوفي بالطاعون في سنة 899هـ/1493م.

² تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص: 158.

واقفه المنية فجأة؛ بعد أشهر أربعة. فتولى بعده أخوه محمد السادس ابن أبي ثابت المتوكل.

— أبو عبد الله أبو ثابت الثاني محمد السادس ابن أبي ثابت المتوكل (من 890هـ/1485م إلى 902هـ/1496م). شغل — منذ توليه — بالفتن المشتعلة، وبُور الفوضى المتناوية في دولته؛ فكان ضعيف الإرادة، عليل النفس؛ فبقي هكذا إلى أن توفي سنة 902هـ/1496م؛ دون أثر ينوّه به، أو عمل يمجّد اسمه. وبموته؛ خلفه محمد الثابتي.

— أبو عبد الله محمد السابع بن أبي ثابت الثاني المعروف بالثابتي¹ (من 902هـ/1496م إلى 909هـ/1503م). اشتهر هذا السلطان بالنباهة وحسن التدبير؛ ولكنه عاش في فترة زمنية رديئة؛ انحطت فيها المجتمعات المغربية إلى أبعد الحدود؛ وفسدت أحوالها: الاجتماعية والسياسية والثقافية، وتراجعت قيمها الخلقة، وانهارت نظمها الاقتصادية، وانكمشت حياتها المعيشية، وتفككت الجيوش التابعة لدول المنطقة كلها. وفي هذا الزمن بالذات؛ وفي سنة 895هـ/1490م بالتحديد؛ سقط صرح الإسلام في

¹ سماه أحمد توفيق المدني "أبو زيان الثالث الملقب بالمسعود". انظر كتاب حرب الثلاثين سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 108.

الأندلس، ودُكَّت أسوار غرناطة، إذ اجتاحتها الجيوش النصرانية؛ ودخلتها ملوحة بألوية النصر؛ التي أذرفت دموع آخر ملوك الإسلام - من بني الأحمر - في تلك الديار. فخرج من قصره طريداً شريداً نحو وهران؛ ثم انتقل بعدها إلى حاضرة الدولة الزيانية تلمسان؛ فاستقبل من قبل السلطان محمد ابن أبي ثابت بحفاوة وإكبار. غير أن وجود السلطان أبي عبد الله محمد الزغل بن سعد في تلمسان؛ أغضب الملك الإسباني فرديناندو الخامس¹؛ خوفاً من تعاضم شأنه، ووقوف القبائل المغربية خلفه؛ من أجل نصرته، والعودة به إلى الأندلس. ولكن السلطان الزياني طمأنه، وسكّن من روعه، وأزال غضبه؛ حين سافر إليه في إسبانيا؛ مصحوباً بهدايا رفيعة القيمة؛ شملت بعض الخيول الأصيلة، والجواهر

¹ ترجم أحمد توفيق المدني نصاً؛ نقله من المجلة الإفريقية جاء فيه: ((وبعد انهيار مملكة غرناطة؛ طلب الملك أبو عبد الله أن يتسحب مع ذويه إلى بلاد المغرب؛ فتخرج فرديناندو وإيزابيلا من ذلك حرجاً كبيراً؛ خشية أن يطلب ... الملك مدداً من الشمال الإفريقي يأتي به لنجدة المسلمين. إنما تمكن الراهب خميس بعد من إقناعهما؛ بأن لا خطر البتة من وراء هذا الانسحاب إلى المغرب؛ لأن حالة الخلاف والشقاق المستحكمة الحلقات بالبلاد الإفريقية الشمالية؛ لن تسمح لأهلها البتة بالإقدام على مثل هذا العمل)). كتاب حرب الثلاثين سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 68.

الكريمة، التحف الثمينة؛ يقال أنها عبارة عن لؤلؤة ملكية التصنيف، فخمة المظهر، نادرة الوجود. ثم مجموعة من الطيور الذهبية المعدن، الخالصة التكوين، الرفيعة العيار؛ من بينها دجاجة من الذهب الخالص؛ يحيط بها ستة وثلاثون نققاً. وهذا يعطي صورة صادقة؛ لما وصل إليه البلاط الزياني من البذخ الصارخ، والتبذير الراسخ. كما يلاحظ هنا؛ أن السلطان محمد الثابتي بذهابة إلى بلاط - فردينانو الخامس - قام بخطوة غير موفقة؛ سنَّ بها عادة رديئة؛ قلَّده فيها غيره ممن جاء بعده؛ كما أوحى لكثير من رعيته أن الاتصال بالعدو أمر لا ضرر منه. وعلى هذا؛ فقد كثرت اتصالات الملوك والأعيان - فيما بعد - بالبلاط الإسباني، والقادة الإسبان؛ المحتلين لدير الإسلام. المهم؛ أن السلطان محمد بن أبي ثابت؛ واجه بعد فترة قصيرة؛ اضطرابات؛ أفقدته عرشه؛ إذ وثب عليه عمه أبو حمو الثالث؛ فأطاح به، واستولى على ملك الزيانيين بتلمسان. وزجَّ بالسلطان محمد ابن أخيه في السجن. وتعتبر الفترة القادمة أسوأ الفترات التي مرت بالدولة الزيانية؛ حيث تردّت الأوضاع السياسية، وتكككت الروابط الاجتماعية، وانهارت القيم

الأخلاقية تماماً؛ حتى أضحي التحالف مع الأعداء
الإسبانيين من الأمور العادية المألوفة؛ بحيث كان
سلاطين بني زيان يتداولون الأدوار؛ في استرضاء
الغزاة الإسبانيين، والوقوف معهم صفاً واحداً ضد
الإخوة والأبناء.

— أبو حمو الثالث المعروف بابن قلمون بن محمد
الخامس (حكم في فترتين: الأولى من 909هـ/1503م إلى
923هـ/1517م، والثانية في 924هـ/1518م سنة وفاته).
وصل إلى الحكم بانقلاب ضد ابن أخيه محمد بن
أبي ثابت في سنة 909هـ. افتتحت الفترة الأولى من
حكم هذا السلطان؛ بظهور أخطار خارجية مدمرة؛
برزت بوادرها — فيما سبق — بالمؤامرة الخطيرة
التي حكها بابا الكاثوليك؛ في مؤتمر طور ديزلاس"
TORDESILLAS؛ في سنة 899هـ/1494م؛ عندما حثّ
أتباعه على إزالت الممالك الإسلامية في الشمال
الإفريقي. فوزّعت — عندئذ — الأدوار؛ بين الإسبانيين
والبرتغاليين؛ بحيث يتولى الأولون شواطئ الجزائر؛
بينما تترك شواطئ المغرب الأقصى للبرتغاليين. وتم
التطبيق الفعلي لخطتهم — بعد حملات استطلاعية

وعملیات تجسّیة¹ - حیث تمکن جیش الأسطول البحري الإسباني سنة 911هـ/1505م - وفي عهد أبي حمو الثالث بالذات - من احتلال المرسى الكبير المجاور لوهران. غیر أنهم کُبحوا وهُزموا شرّ هزيمة في قرية مسرغین؛ حیما حاولوا التوغل داخل المنطقة. ومع هذا؛ لم تُقم هذا الهزيمة الإسبانیین؛ إذ عاودوا الكرّة؛ بتّحریض وتمویل الكاردینال کسیمنس. تمّ ذلك بانطلاق الأسطول الإسباني من قرطاجنة سنة 915هـ/1509م؛ فحلّ بالمرسی الكبير؛ وبعدها انتقل إلى وهران؛ فلم یثبت أمامهم جیش بني زیان في تلك الجهة؛ كما أن أولئك الغزاة؛ وجدوا عوناً ودعماً من قبل أعراب بني عامر²، وبني شافع، وحمیان.. وغيرهم.

¹ ترجم أحمد توفیق المدني نصاً للمؤرخ " ف. أبرودیل "؛ قال فیہ: ((أن جاسوساً من الجواسیس الذین أرسل بهم فردیناندو إلى بلاد المغرب العربی؛ قد أرسل إلى ملكه تقریراً مفصلاً؛ جاء فیہ: "أن کامل بلاد شمال إفريقيا یجتاز فترة انهیار نفسی؛ یتّهر معها؛ أن الله قد أراد أن یجعل هذه البلاد ملكاً لصاحبی الجلالة المسیحیة..)). حرب الثلاثنة سنة بین الجزائر وإسبانیة، ص: 68.

² كتب الشیخ أبو العباس أحمد بن القاضی عبد الله بن أبي محلی السجلماسی قصید فی هذا الغرض؛ جاء فیها:

فمن مبلغ عني قبائل عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد بتيجانهم مع رأسها عبد قادر
إلى أن يقول:

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازير

فاستولوا على وهران؛ بعد أن فتح أبوابها قائدان
أوثمنا على المدينة؛ فخانا الأمانة¹. وأدت هذه
الهزيمة؛ إلى خضوع واستكانة؛ أبدهما السلطان أبو
حمو الثالث؛ الذي مال إلى استرضاء الإسبانيين،
وتلبية مطالبهم؛ في مقابل بقاءه في الحكم. ومنذئذ؛
اعتلت النفوس، وانقسمت الجهود، وعميت القلوب؛
بحيث أضحت هذه البؤرة الجهنمية في وهران؛ بمثابة
الطاعون الذي يتسرب إلى الناس؛ فيقتل هذا،
ويصيب هذا؛ وينتقل من محفل إلى آخر، فينشر
العدوى، ويبت الفساد في الأعضاء السليمة؛ فتصاب
بالمرض الخبيث.

¹ حديث شريف عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوثِنَ خَانَ)). رواه البخاري ومسلم. وسجل أحمد توفيق المدني خبر هذه الخيانة بقوله: ((كان [قائد الإسبان في المرسى الكبير] قد اشترى بذهب وفير، وبوعود جمّة؛ لا حدّ لها؛ ذمة اليهودي اشطورا - من مهاجري الأندلس؛ من الذين انقضت نفس مدينة وهران من المحارق الإسبانية - وقد كان اشطورا هذا؛ قابض المكوس العام لمدينة وهران؛ واشترى هو - بنفس الوسيلة وبنفس الطريقة - ذمة اثنين من قابضي المكوس؛ الذين يعملون تحت إدارته؛ وهما القائد الخائن عيسى العربي، والقائد الخائن ابن قاتص. فبينما المسلمون على الأسوار، ووراء الأبواب؛ يستعدون للحملة الكبرى؛ تجمعت الجموع الإسبانية حول باب من أبواب المدينة؛ وقع الاتفاق من قبل عليه. وفي الساعة المعينة؛ فتح اشطورا والخونة الذين معه الباب؛ فتدفق الإسبان إلى داخل المدينة؛ كأنهم السيل الجارف...)). كتاب حرب الـثمانية سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 109 - 111.

ولم يقف الإسبانيون عند وهران؛ بل واصلوا تنفيذ مخططهم فاحتلوا مدناً شاطئية عديدة؛ كغالبية في سنة 914هـ/1510م، وبجاية سنة 915هـ/1511م، وجيجل سنة 920هـ/1514م؛ ثم دلس، وشرشال، وهنين في سنة 938هـ/1531م. وبالمقابل واجه ملوك المغرب كله؛ العدوان الخارجي بالجن والخذلان واللامبالاة؛ إذ تخلوا عن مهمتهم الأساسية في الذود عن أراضيهم، وحماية رعاياهم؛ وعجزوا عن التصدي للعدوان الخارجي؛ واكتفوا بالانكماش داخل قصورهم المرفهة، والانغماس في البذخ والنعيم الفائض، والسقوط في الملذات المعيبة؛ والحرص كل حرص على استخلاص الضرائب ونهب قوت الرعية، وتكديس الثروة في مخازنهم. ومن بين هؤلاء الملوك - طبعاً - السلطان الزياني أبو حمو الثالث. هذ السلطان الذي أحجم عن إنقاذ مدينة وهران؛ الواقعة تحت سلطانه. إذ صمت على عدوان صريح ومكشوف. فأنجر عن انخذه، وتوقعه على نفسه في قصره بتلمسان؛ أنه شجع بعض الطامعين من الأسرة الزيانية المالكة؛ على العصيان والتمرد.

وهذا الطموح الطامع؛ هو الأمير يحيى بن
الثابتى؛ وهو أخو السلطان السابق المخلوع محمد
ابن أبي ثابت. ثار ضد عمّه أبي حمو الثالث؛ ولم
يجد وسيلة أمامه؛ كي يحقق أطماعه؛ سوى الاستعانة
بالإسبانيّين المتواجدين بوهران؛ فدعموه في حربته؛
التي خسر بعضها وكسب أخرى؛ وانتهى به الأمر
بامتلاك تنس سنة 912هـ/1506م، واقتطاعها من
جسم الدولة الزيانية. وبذلك يكون هذا الأمير قد
فتح باباً آخر من أبواب جهنم؛ لم يتسنى - بعد
ذلك - له ولا لغيره أن يقفله أبداً؛ إذ غدا هذا
التصرف الشاذ وهذا السلوك الغريب؛ عادة جارية
((موضحة))؛ اتبعها السلاطين فيما بعد؛ ومنهم طبعاً؛
أبو حمو الثالث بالذات؛ الذي أحرز قصب السبق
في هذا النهج السقيم.. كل هذا أدى إلى تفكك الشعب،
وانشغال الناس بقضاياهم وهمومهم الخاصة؛ وأهملوا
ما تملّيه المصلحة العامة؛ حيث عملوا بمقتضى
الحديث الشريف ((عليك بخاصة نفسك)).. عند فساد
الناس؛ حدث كل ذلك؛ بعدما سئم الشعب الجزائري
من ملوكه وأمرائه؛ وانقطع حبل الصلة والوصاية
بين الطرفين؛ نتيجة لتخاذل أولئك السلاطين وقعودهم
عن حماية شعبهم. عندئذ قامت فئة مستتيرة من

العلماء والأعيان؛ بالتّور المنوط بأولئك الملوك؛
فَنظَمُوا أَنفُسَهُمْ ضَمَنَ مَجْمُوعَةٍ مَتَمَسَكَةٍ؛ تَكَلَّفَتْ
بِمُفَاوَضَةٍ أَهَمَّ الْقَوَى الْخَارِجِيَّةَ الْمُتَوَاجِدَةَ فِي السَّاحَةِ
آنَ ذَكَ (الإسبانيّين والأترّك والجنوبيّين والبندقيّين...
إلخ). ومع هذا؛ لم تُجَدْ مساعي أعيان الجزائر
الحميدة؛ لأنّ للإسبانيّين أهدافاً محدّدة؛ كانوا يحقّقونها
خطوة بعد خطوة. بذلك غدت معظم مدن الشاطئ
الجزائري تحت أيديهم؛ بما في ذلك مدينة الجزائر
نفسها. عندها تمّ الاتصال بالإخوة: عروج وخير
الدين؛ إذ طُلب منهم ترأس البلاد؛ مقابل حماية
العباد، ورفع لواء الجهاد؛ في سبيل الإسلام؛ دين
الحق والرشاد.

وعليه؛ فبعد اتصال أولئك الأعيان بالإسبانيّين¹؛
تبَيَّنَتْ لَهُمْ أَطْمَاعُهُمُ التَّوسُّعِيَّةُ وَأَهْدَافُهُمُ الصَّليبيَّةُ؛ لِذَا
فَقَدَ تَحَوَّلُوا نَحْوَ الْأَخْوِيَّةِ "بَارِبَارُوس" أُرُوج (عُروج)

¹ تشكّل وفدٌ من أعيان الجزائر برئاسة الشيخ سالم التومي الثعالبي؛
لمُفَاوَضَةِ الْقَائِدِ الْإِسْبَانِيِّ فِي بَجَايَةِ "بيدرو نفاري"؛ فُقَابِلُوهُ فِي شَوَالِ
مِنْ سَنَةِ 916هـ/1510م. أَيْنَ وَقَعُوا عَلَى مَعَاهِدَةٍ مَجْحَفَةٍ بِشُرُوطِهِ
التَّعْجِيزِيَّةِ. وَلَمَّا انْتَقَلُوا إِلَى إِسْبَانِيَا لِمُقَابَلَةِ مُلْكِهَا "فَرْدِيْنَانْدُ الْخَامِس"؛
اشْتَرَطَ عَلَيْهِمُ التَّنَازُلَ عَنْ إِحْدَى الصَّخْرَاتِ الْبَحْرِيَّةِ؛ مِنْ بَيْنِ الصَّخْرَاتِ
الْأَرْبَعِ؛ الْمُقَابِلَةِ لِمَدِينَةِ الْجَزَائِرِ؛ فَتَمَّ لَهُ ذَلِكَ؛ وَشَرَعَ الْإِسْبَانِيُّ فِي بِنَاءِ
حَصْنٍ بِهَا "الْبُنْيُون" سَنَةِ 915هـ/1509م.

وخير الدين¹؛ ابني يعقوب بن يوسف المدلي التركي. بعد أن ذاع صيتهما، وتناقل الناس أخبارهما الجهادية ضد الصليبيين. إذ كان هذان البحاران التركيان جولان بعمارتهما البحرية² في عرض البحر الأبيض المتوسط؛ أين قاما بإنقاذ عدد كبير من المورسكيين³ الفارين من جحيم الصليبيين في الأندلس؛ فكان عروج وأخوه ينتشلانهم من هول الأمواج التي تلتطم مراكبهم الصغيرة، وينقذانهم من مطاردة الصليبيين المميتة، ويحميانهم من مهالك الأمواج ومصائب الأيام؛ حيث ترسو عمارتهم بهم على شواطئ الجزائر وتونس. أين يجدون المأوى الأمين، والعيش الكريم. فكانت ثمار الاستجداد بهما؛ أنهما توصلا إلى تطهير أرض الإسلام من دنس الاحتلال الصليبي؛ حينما طردا الإسبانيين والجنوبيين من جيجل والجزائر وشرشال⁴؛ الأمر الذي حفّز أحمد ابن القاضي؛ أمير كوكو بزواوة؛ على الاستجداد

¹ اسمه - في الأصل - خرسوف؛ فنصح بتغييره إلى خير الدين؛ ففعل.
² العمارة تتشكل من عدة مراكب بحرية. وقد انطلقا - في البداية - بثلاثة مراكب؛ مجهزة بأسلحة ضاربة. ثم تضاعفت مع مرور الوقت.
³ اسم أطلقه نصارى إسبانيا على مسلمي الأندلس؛ بعد سقوط غرناطة.
⁴ تم فتح جيجل سنة 920هـ/1514م. والجزائر والشرشال في سنة 922هـ/1516م

بعروج؛ إذ وجه له رسالة؛ جاء فيها: ((إن بلادنا بقيت لك ولأخيك، أو للذئب))¹. كل هذه الأحداث الصاخبة كانت تجري؛ وملوك بلاد المغرب كافة في سبات عميق، ومنشغلين باللهو الصفيق. من بينهم السلطان أبي حمو الثالث.

وبعد استقرار عروج وخير الدين في الجزائر فترة قصيرة؛ بغرض تنظيم الصفوف، وترتيب شئون الحكم؛ بادرا فوراً إلى الزحف سنة 923هـ/1517م نحو تنس؛ لتأديب الأمير يحيى بن محمد بن أبي ثابت؛ الذي ارتقى في أحضان الإشبانيين؛ طمعاً في عونهم على استعادة ملك أبيه في تلمسان. واقتضت خطة الاستيلاء على تنس؛ أن يهاجها خير الدين عن طريق البحر؛ بينما ينقض عليها عروج من البر. وبالفعل نجحت خطتهما في فتح المدينة، وقتل أميرها يحيى بن الثابت.

وباحتلالهما لمدينة تنس؛ قدم إلى عروج وفد من أعيان تلمسان؛ فاشتكوا من الحالة المتردية في عاصمة الزيانيين، وعرفوه بما يجري بين أفراد الأسرة المالكة من صراعات، ومناقشات مريية؛ وما

¹ تاريخ الجزائر العام، ج: 3، ص: 15.

يحدث من اتصالات ومؤامرات بينهم وبين
الإسبانيين؛ بما فيهم السلطان أبو حمو الثالث
نفسه¹؛ الذي يستمد نفوذه وقوته من الإسبانيين في
وهران. ثم عرضوا عليه القدوم إلى حاضرة الدولة؛
ودخول المدينة؛ فاتحاً، ومحرراً. استجاب عروج
بدون تردد؛ لأنه كان يعلم حجم الفساد المتقشي في
عاصمة المغرب الأوسط. وعليه؛ فقد تقدم ثابت
الخطى نحو تلمسان؛ فدخلها سنة 923هـ/1517م؛
وأجلس على عرش الدولة السلطان أبو زيان أحمد
ابن أبي ثابت²؛ وهو الذي وثب عليه أبو حمو
الثالث - من قبل، وسجنه - بينما لجأ أبو حمو
إلى مدينة وهران؛ مستجداً بالإسبانيين فيها.

- أبو زيان أحمد الثاني ابن عبد الله الثاني
(حكم وتوفي في سنة 923هـ/1517م). لم تطل مدة
حكم هذا السلطان؛ لأنه أبى الخضوع للنفوذ التركي؛
فعمل على إخراجهم من تلمسان³، وحارب عروج

¹ تحول أبو حمو الثالث إلى مجرد تابع للملك الإسباني؛ بعد الاجتماع به
في مدينة برغوس BURGOS؛

² تضاربت الأقوال في التعريف بهذا السلطان. إذ اكتفى أحمد توفيق
المدني بتسميته بـ "أبي زيان الثالث المدعو المسعود" بينما سمّاه عبد
الرحمن الجيلالي "أبا زيان أحمد الثاني ابن عبد الله الثاني".

³ يبدو أن هذا التوجه؛ تبناه أهل تلمسان أنفسهم؛ وفي ذلك يقول أحمد
توفيق المدني: ((أن أهل تلمسان الذين استنجلوا بعروج، وفتحوا له

وأتباعه؛ ولكنه قتل أثناء المعركة الدائرة بينه وبين جيش عروج¹. وانتهاز أبو حمو الثالث فرصة نشوب الحرب بين ابن أخيه وعروج؛ فطلب عون

أبواب المدينة، وتلقوه على الرّحّب والسّعة؛ لكي ينقّذهم من الملك أبي حمو صنيعة الإسبان، ولكي يجلسوا على العرش أبا زيان؛ لم يكونوا في أغليبتهم يريدون أن يتعدى الأمر ذلك؛ لم يكونوا يريدون أن يخسروا استقلالهم، وأن يفقدوا ملكهم؛ الذي تركه لهم جدّهم يفراسن العظيم. فما كادت تنتهي فورة الجدل الأولى؛ ولم يكادوا يعلمون أن عروج يريد أن تصبح تلمسان ومملكاتها جزءاً من دولة ضخمة هي الدولة الجزائرية؛ حتى تخلوا عنه؛ بل ناصبه أكثرهم العداة)). حرب الثلاثين سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 193. ويبدو أن السبب غير هذا في نظري؛ لأن الدولة الجزائرية لا يمكن أن تُرْفَض من قبل سكان تلمسان؛ خاصة وأن الجزائر كانت تابعة - يوماً ما - للدولة الجزائرية الأم؛ وعاصمتها تلمسان. وإنما حقيقة رفضهم؛ تكمن في مسعى الأخوين عروج وخير الدين؛ لضمّ تلمسان والجزائر إلى الباب العالي في اسطنبول. وقد أشار إلى هذا ابن الضياف في كتابه إتحاف أهل الزمان؛ حينما تكلم عن ذهاب خير الدين للسلطان التركي سليم؛ حاملاً معه السكة المضروبة باسمه، ومبشراً إياه برفع الدعا باسمه على منابر الجزائر. وذكر ابن الضياف أيضاً؛ أن السلطان الحفصي محمد بن الحسن اشتدّ حذره من خير الدين بعد هذا؛ كما بعث للسلطان الزياني في تلمسان يحذره منه، أنظر إتحاف أهل الزمان، ج: 2، ص: 11.

¹ هذه رواية من الروايات. أما الرواية الأخرى؛ فأشار إليها أحمد توفيق المدني؛ حيث قال: ((فلم يستقر الوضع بتلمسان إلا قليلاً؛ حتى عادت الفتن والدسائس سيرتها الأولى؛ يغذيها الإسبان من جهة، ويغذيها صاحب العرش والطامعون في العرش من جهة أخرى. وهكذا؛ نشبت فتنة في تلمسان - والإسبان يتربصون بها الدوائر - وتولى كبر الفتنة نفس السلطان (أبو زيان)؛ وأشياع عمه أبي حمو معاً؛ فخرج عروج من تلمسان حيناً؛ ثم عاد إليها، وقتل أبا زيان، وجماعة من قرابته وأنصاره، مع رؤوس الفتنة، ورجال المشاغبة)). حرب الثلاثين سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 189.

الإسبانيين، وزحف معهم نحو تلمسان سنة 924هـ/1518م؛ فتقدموا إليها من محورين: الأول سار فيه أبو حمو مع فئة من أتباعه، وقوة من الإسبانيين؛ فتوجهوا في البداية إلى قلعة بني راشد (هواره)؛ أين يتواجد إسحاق بن يعقوب شقيق عروج؛ ففتحوها؛ ثم قتلوا إسحاق بعد خروجه منها. وبعدها انطلقوا نحو تلمسان.

أما المحور الثاني؛ فيبدأ بساحل أرشقون؛ حيث انطلق منه الجيش الإسباني نحو تلمسان؛ والتقى الجمعان أمام المدينة الزياتية؛ فشددوا عليها الحصار مدة ستة أشهر؛ اضطر بعدها عروج إلى تركها، والخروج منها؛ بعد أن يؤس من وصول المدد إليه¹. فخرج مع رفقائه يترصد المدد؛ ولكنه اصطدم بجيش الإسبان؛ فالتحم معهم في معركة غير متكافئة؛ ختمت باستشهاده في سنة 924هـ/1518م.

¹ اختلفت الروايات حول خبر هزيمة عروج من تلمسان؛ كما اختلفت في موضع استشهاده؛ حيث يرى بعضهم أنه توفي سنة 924هـ/1518م في زاوية سيدي موسى بجبل بني يزناسن. أما الرواية الأخرى فيرى أصحابها أنه استشهد في واد المالح؛ الواقع بين تلمسان ووهران. وقد أورد عبد الرحمن الجليلي خبراً أجمع عليه مصدران: الأول ما ذكره أبو راس؛ إذ جاء فيه أن المعركة بين عروج والإسبان؛ وقعت في جبل بني موسى (جبل بني يزناسن) يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/1529م. والخبر الثاني؛ ما ورد في المجلة الإفريقية؛ بتحقيق المؤرخ الفرنسي بريقجير. وجاء فيه نفس ما ذكره أبو راس.

وخلصة القول؛ أن عرش تلمسان؛ عاد إلى أبي
حمو موسى الثالث لفترة قصيرة؛ حيث شاعت
الأقذار أن يموت هذا السلطان التعيس في السنة التي
دخل فيها إلى تلمسان، وفي السنة التي استشهد فيها
عروج أيضاً. فانقل الحكم إلى أبي محمد عبد الله
الثاني ابن أبي ثابت؛ وهو الذي عرف بلقب
المتوكل على الله.

— أبو محمد عبد الله الثاني ابن أبي ثابت الثاني
المعروف بمحمد المتوكل على الله (حكم في فترتين
الأولى من 924هـ/1518م إلى 925هـ/1519م وعاد في
السنة نفسها إلى سنة وفاته في 930هـ/1524م). حاول
هذا السلطان مسك العصا من وسطها؛ ولكنه لم
يوفق؛ لأن وضع الأتراك وأنصارهم من الجزائريين لا
يمكن تسويتهم بميزان واحد، أو تثمينهم بمعيار واحد
مع الإسبانيين؛ لذا؛ كان فشل هذا السلطان حتمياً.
لأن موقفه يتناقض مع رغبة سكان تلمسان؛ الذين
يفرقون — إلى حد ما — بين الإسبانيين الصليبيين،
والأتراك المسلمين. ويبدو أن بيت الداء هنا؛ هو
جد السلطان عبد الله لأمه؛ وهو شيخ أحد أحياء
بني عامر؛ المدعو عبد الرحمن بن رضوان. فقد

أظهر هذا الشيخ جهلاً كبيراً، وأبدا عقوقاً فاضحاً؛
أودى به وبحفيده إلى مهاوي الهلاك، وساقه في طريق
جهنم. وقد استغلّ هذا الانحراف، وهذا التناقض
أخو السلطان عبد الله؛ الذي كان منفياً في المغرب
الأقصى؛ والمدعو أبا سرحان المسعود؛ فعاد طالباً
الملك؛ ولكنه صُدّ ومُنِع؛ عند ذلك لجأ إلى خير
الدين في الجزائر؛ الذي ساعده على الدخول إلى
تلمسان؛ والتربع على عرش أجداده.

— أبو سرحان المسعود بن أبي ثابت الثاني (ثار
وسقط في سنة 925هـ/1519م). لما تعذرت عليه
العودة من منفاه — بالمغرب الأقصى — إلى تلمسان؛
توجه إلى خير الدين؛ طالباً مساعدته؛ فوافق هذا
الأخير؛ ولكن بشروط خُدِّت في معاهدة اعتُمدت من
قبلهما: وتشتمل المعاهدة المذكورة على عدة بنود؛
أهمها: التزام السلطان الزياني بالانضواء ضمن
الدولة العثمانية، ثم الأمر برفع الدعوة للسلطان
التركي سليم على منابر تلمسان؛ ثم التعهد بدفع
ضريبة سنوية لخزينة الدولة. وبعدها؛ جهزه خير
الدين، وأعاناه بقوة أذخاته تلمسان سنة
925هـ/1519م. أين أخرج أخاه أبا محمد من

المدينة. وبقي - في بداية ملكه - على عهد المبرم مع خير الدين؛ غير أنه تراجع عنه بعد فترة؛ ونقض تلك المعاهدة؛ حيث أعلن استقلال دولته عن أي نفوذ أجنبي. فانهارت بذلك المعاهدة المعقودة بينه وبين الأتراك؛ الذين تهيأوا لردّ الصفة بأشدّ منها. وسرعان ما جاءت الفرصة المواتية؛ حينما ظهر أبو محمد عبد الله الثاني من جديد في سنة 930هـ/1524م؛ حينما اتصل بخير الدين؛ فاستقبله هذا الأخير بحفاوة وترحاب. والتزم باحترام المعاهدة المعقودة مع سابقه. ولكنه حاول - بعد وصوله إلى سدة الملك - نكث عهده مع خير الدين؛ ولكن الأتراك كشفوا له أنياب سخطهم؛ فتراجع عن نواياه فوراً؛ ولم يدم عهده؛ إذ توفي في السنة التي انتصب فيها؛ وهي 930هـ/1524م. فخلفه ولده محمد السابع.

- أبو عبد الله محمد السابع ابن أبي محمد عبد الله الثاني ابن أبي ثابت الثاني (حكم في فترتين: الأولى من 930هـ/1524م إلى 949هـ/1542م، الثانية في سنة 950هـ/1544م). صحيفة هذا السلطان سوداء؛ في حق أمته ووطنه. افتتح عهده؛ بالانضواء تحت مظلة الإسبانيين؛ إذ لجأ إليهم طالباً حمايتهم، وجهر

بعدها للأتراك. وقد أوردت المصادر التاريخية رسالة بعث بها هذا السلطان إلى إمبراطورة إسبانيا "لونيا إيزابيلا"؛ جاء فيها: ((... بل في صحيح علمكم؛ ما هو حالنا عليه؛ من نكابة صاحب الجزائر، وما هو يرومه من تشغيبننا في الباطن والظاهر؛ فعلمنا ذلك طمعاً منا في مهادنته، وحيلة لجلب محاسنته. لما أعيانا أمره، واشتد تنكيره وضرره. أظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته، وقابلناه بما يليق بفساد بيته، وخبث سريرته. وقد توفر الآن عزمنا في إعمال الحركة عليه، والتوجه بكل وجه يمكن إليه؛ فجميع العرب، والقبائل على حربه متفقون، وإلى تضيق حصاره شارعون. وغرضنا منكم؛ أن تبادروا بتوجيه العمارة في الحين والوقت، بالجد والعزم؛ وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، والأخذ بالحزم؛ وتكونوا عليه براً وبحراً يداً واحدة، وفئة مساعدة...))¹. ولم يتردد السلطان محمد السابع لحظة، ولم يشك في وقوف الإسبان معه ضدَّ

¹ تاريخ هذه الوثيقة يعود إلى سنة 15 جانفي 1533م الموافق لعام 940هـ. أي خلال الفترة الأولى من حكم هذا السلطان التهيس. أنظر الرسالة كاملة في كتاب تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 225 - 226. وأصلها موجود في دار المحفوظات بقلعة سيمينقا؛ القريبة من بلد الوليد في إسبانيا، وهي ضمن مجموعة الوثائق السياسية الدبلوماسية

الأترك. لذا فقد جهّز جيشه، وزحف نحو الجزائر؛ أين التقى بجيش خير الدين؛ الذي هزمه، وكسر شوكته؛ دون أن تأتية نجدة الإسبانيين. فانهزم عائداً إلى تلمسان؛ حيث طلب الهدنة، والصفح؛ فمكّنه خير الدين من ذلك، وعفا عنه. وهكذا.. لم تغنه مراسلاته للإسبانيين، ولم يفده التملق والتودّد إليهم؛ إذ هاجموا مع حلفائهم بني راشد؛ فاحتلوا تلمسان؛ أين عاثوا في الأرض فساداً؛ ونكلوا بالعباد، ونجسوا المساجد والأضرحة، وعبثوا بكتب العلم والتراث الديني. الأمر الذي أدّى إلى انقلاب حلفائهم عليهم؛ فتحول نصرهم إلى هزيمة، وانكسرت شوكتهم، وانطفأت جذوتهم؛ وقتل مقاتلوهم، وأسر من بقي منهم؛ وأولهم قائدهم "مارطان دي آكيلو". عندها؛ جنحوا للسلم؛ فعقد السلطان معهم معاهدة؛ أشعلت نار الفتنة في تلمسان. الأمر الذي حفز الأمير أبو زيان أحمد على خلع أخيه والقيام بشئون الملك دونه؛ وذلك في سنة 949هـ.

— أبو زيان أحمد الثالث بن أبي محمد عبد الله الثاني (حكم في فترتين: الأولى في سنة 949هـ/1542م والثانية في سنة 950هـ/1544م). نهض — كما سبق ذكره — ضد أخيه؛ فعزله، وتولى الحكم مكانه؛ بعد

الاضطرابات التي اجتاحت تلمسان؛ جراء انضواء أخيه تحت نفوذ الإسبانيين. ولم يجد السلطان المعزول منفذاً؛ سوى اللجوء إلى الإسبانيين في وهران؛ محرضاً إياهم على أخيه، وعلى من ناصره من التلمسانيين. ولم يكتف السلطان أبو زيان أحمد بالجلوس على عرش تلمسان؛ بل مدّ يده إلى الأتراك؛ ثم هاجم في شهر ربيع الثاني من سنة 949هـ الإسبان في وهران والمرسى الكبير. ولكنه لم يوفق بسبب الخيانة المتفشية آنئذ بين المسلمين. ولما عاد إلى مركز ملكه؛ حثّ أبو عبد الله محمد الملك شاركان على غزو تلمسان؛ فجهز هذا الأخير جيشاً تعداده عشرة آلاف من المقاتلين؛ فاقتحم تلمسان غوة سنة 950هـ/1544م؛ حيث استبيحت، وتركت لعيث وفساد جنود إسبانيا؛ كما انهزم السلطان أبو زيان أحمد؛ وتمكن من الخروج من المدينة؛ حيث بقي يتربص بأعدائه الدوائر. إلى أن ثار سكان تلمسان ضدّ أبي عبد الله محمد؛ بسبب جلبه للنصارى إلى ديار الإسلام، والسماح لهم بالعيث والإفساد في حاضرة الدولة. فانهزم خوفاً منهم، وترك المدينة؛ باحثاً عن مكان

آمن؛ ولكنه قتل أثناء فراره في ضاحية أنكلا
بالقرب من وجدة.

وما أن عاد أبو زيان أحمد إلى تلمسان،
واستعاد عرشه؛ حتى هجم عليه سلطان المغرب
محمد المهدي السعدي؛ فدخل تلمسان سنة
957هـ/1550م بدون عناء؛ إذ لم يعترض عليه أحد؛
خاصة وأنه أشاع بأنه في طريقه إلى الجزائر؛ كي
يطرد الأتراك منها. وبالفعل تقدم بجيشه لتحقيق
هدفه المعلن؛ حيث التقى بجيش الأتراك عند الوادي
المالح؛ القريب من مستغانم؛ فكانت الهزيمة
للسعديين؛ الذين انسحبوا إلى المغرب الأقصى. فكانت
حملة السعديين هذه؛ هي آخر محاولة لملوك المغرب
للتوغل في أرض الجزائر أو الاقتراب من تلمسان.
وبعد كسر جيش السعديين؛ توجه الجيش التركي
بقيادة حسن باشا إلى تلمسان؛ فدخلها بسلاسة في
السنة المذكورة؛ فعزل السلطان أبا زيان، وأقام بدلاً
منه مولاي الحسن.

— مولاي الحسن بن عبد الله الثاني؛ آخر ملوك بني زيان (حكم من 957هـ/1550م إلى سنة 962هـ/1554م). لم يحظ بالملك المطلق المستقل؛ إذ وليّ تلمسان من قبل حسن باشا؛ فغدا بمثابة الوالي التابع للجزائر. وتصفه المصادر التاريخية بالعجز في التدبير، والسوء في التسيير، والعسف في التقرير، والظلم المرير. ويقال أنه مال للإسبانيّين في بعض مواقفه؛ لذا فقد سخط عليه الشعب، وأجمع علماء تلمسان على عدم كفايته، وسوء رعايته، ووجوب عزله، وإنهاء ولايته. عندها؛ بادر بايلارباي الجزائر صالح ريس إلى عزله في سنة 962هـ/1554م؛ فذهب إلى وهران حيث توفي بها سنة 1555/963م. وبذلك انطوت صفحات الدولة الزيانية بتلمسان؛ تلك الصفحات الذهبية التي لطخت بأيدي أبنائها في آخر عهدهم. وهكذا سقطت دولة بني زيان نهائياً على يد الأتراك؛ وسقط — مع بني زيان — الدور الريادي لتلمسان؛ كعاصمة للمغرب الأوسط؛ حيث همش الأتراك دور هذه المنارة المشعة بأنوار العلم على البلاد المغربية كلها؛ وبل.. وعلى المشرق أيضاً. وفي هذا العهد الجديد أضحت الجزائر هي محط الاهتمام كعاصمة للمغرب الأوسط؛ وحتى

عندما تُطلب تخصيص مدينة تسود الجهة الغربية؛
فقد فضل الأتراك وهران على تلمسان.

— العمران والثقافة:

لم يتسن للأصحاب هذا الدور بذل مجهود عظيم في ميدان العمران والثقافة. فقد انشغلوا بالحروب والفتن القبلية. كما أن مواردهم المادية كانت محدودة؛ بالإضافة إلى الجبايات التي تفرض عليهم من الجوار. كل هذا أفقدهم روح المبادرة في ميادين الفن والأدب والعلوم المختلفة. وإذا ما استثني بعض العلماء الأفذاذ الذين ظهروا بمجهودهم الفردي؛ فإن ما يؤثر في هذا الباب ليس كثيراً. كما أن ظاهرة التصوف والدروشة ازدادت استقحالة في تلك الأيام المتصفة بالإنحدار والتخلف. وهذه مجرد عينات عما أمكن تقديمه من العلماء والمتصوفة في الدور الرابع هذا. وقد ترك أمر الشعراء والأدباء لبقية أجزاء الكتاب.

1 — أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني. عالم جليل، وولي صالح؛ وهو أحد شيوخ ابن مرزوق الحفيد. ودرس في المدرسة التاشفينية بتلمسان عن سعيد العقباني. توفي بتلمسان إما في 804هـ أو في 805هـ/1402م. ودفن في روضة ملوك بني زيان بتلمسان.

2 - الفقيه القاضي أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني. ولد بتلمسان في سنة 720هـ/1320م؛ أخذ العلم عن ولدي الإمام بمدرسة تلمسان. كما درس الأصول عن أبي عبد الله الأبلي، ودرس الفرائض عن الحافظ السطي. ويعتبر سعيد بن محمد العقباني أحد النجباء الأفاضل؛ وأول من تفوق من أسرته. تولى تدريس العلوم في المدرسة التاشفينية بتلمسان. وولي أيضاً قضاء الجماعة طوال أربعين سنة تقريباً؛ في كل من: تلمسان، وبجاية ووهران، وهنين ومراكش، وسلا. وقال فيه يحيى بن خلدون: ((فحمدت في جميعها سيره عدلاً وجزالة وهو الآن خطيب الجامع الأعظم بتلمسان))¹. لقب برئيس العلماء والعقلاء. ومن مؤلفاته: "تفسير سورة الفاتحة"، و"تفسير سورتي: الأنعام والفتح"، و"شرح الجمل للخونجي" في المنطق، و"شرح كتاب ابن الحاجب" في الأصول، و"شرح التخليص لابن البناء"، و"شرح قصيدة بن الياسمين" في علم الجبر والمقابلة، و"شرح العقيدة البرهانية" في أصول الدين، و"شرح البردة"، و"شرح الحوفي" في الفرائض. أما تلاميذه

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 123.

فمنهم ولده العلامة القاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد، وأبو الفضل بن إبراهيم المصمودي، وأبو يحيى الشريف، وأبو العباس بن زاغو، وغيرهم. توفي أبو عثمان العقباني في سنة 811هـ/1408م.

3 - أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني. توفي في حياة والده سنة 840هـ/1337م.

4 - أحمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني؛ الشهير بابن زاغو. ولد في حدود سنة 782هـ/1380م. وهو من المتصوفة الصالحين، ومن المصنفين المحققين. أخذ عن أبي عثمان سعيد العقباني، وعن الشيخ المفسر أبي يحيى الشريف، وآخرين. من مؤلفاته: تفسير الفاتحة، وشرح التلمسانية في الفرائض؛ كما اشتمل كتابا: المعيار المغرب ونوازل المازوني على كثير من فتاويه. توفي بتلمسان في سنة 845هـ/1441م؛ بفعل الوباء.

5 - أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني. ولد بتلمسان، وخلف أباه في مرتبة قاضي الجماعة. توفي في سنة 854هـ/1450م. وهو من العلماء الأجلاء بتلمسان.

6 - أبو علي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي المعروف بأبركان. ولي صالح ويلقب بالقطب والغوث. أخذ عن الإمامين: إبراهيم المصمودي، وابن مرزوق الحفيد. كما أخذ عنه الحافظ التنسي، وعلي التالوتي، وأخوه من جهة الأم الشيخ السنوسي؛ الذي كان يقول فيه: ((فما رأيت مثل سيدي الحسن أبركان؛ كان لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يضحك إلا تبسماً، وكان رحيماً بالمؤمنين، شفيقاً عليهم، يفرح لفرحهم، ويتأسف على ما يسوءهم؛ له سبحة لا تفارقه غالباً؛ لأنه كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى طرفة عين. وكان له قبول عظيم من العامة والخاصة؛ مثابراً على رسالة أبي زيد))¹. وقد تناقل الناس عنه كثير من الحكايات المثيرة. توفي في سنة 857هـ/1453م.

7 - الإمام العلامة داوود بن سليمان بن حسن البني. من أهل العلم والصلاح؛ له دراية بعلمي الحساب والفرائض؛ نقل صاحب البستان ما قاله السخاوي عنه: ((ولد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة بتلمسان؛ ونشأ بها؛ فحفظ القرآن، والعمدة،

¹ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 74.

والرسالة، والمختصر الفرعي، وألفية ابن مالك وغيرها. ومن شيوخه قاسم العقباتي، والجمال الأقفهي، والبساطي، والزين عبادة. وبرع في الفرائض، وشارك في العربية وغيرها. ونصدي للتدريس والافتاء؛ فانتفع به الطلبة؛ خصوصاً في الفرائض؛ بحيث أخذ عنه جماعة من الأكابر؛ وأملى على مجموع الكلاعي شرحاً مطولاً؛ فيه فوائد، وكتب على الرسالة شرحاً فيما أخبرني به جماعة. ودرس بالمنكوتمية، والبدرية، والبرقوقية للملكية وغيرها))¹. توفي بالقاهرة في سنة 863هـ/1458م.

8 - محمد بن أحمد بن أبي يحيى الحبّاك، (أبو عبد الله). فقيه وفرضي من أهل تلمسان؛ ولد بها وعاش فيها. وهو من علماء الفلك المشهورين. له إمام بالحساب والهندسة؛ ويعتبر شيخ الحسابيين والفلكيين. له أعمال عن آلة الإسطرلاب. ومن مؤلفاته أرجوزة: "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"؛ ثم "نيل المطلوب في العمل بربع المجيب". وهو كتاب في الأشكال الهندسية. وقام أيضاً بشرح

¹ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 101..

تلخيص ابن البناء؛ وله شرح آخر للتمسانية في
الفرائض. توفي في سنة 867هـ/1462م.

9 - محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباتي.
سار على نهج أسلافه، في الانشغال بالعلم والتدريس
وتولي القضاء. توفي في سنة 871هـ/1466م.

10 - الشيخ أحمد بن الحسن الغماري. وهو من
الأولياء والزهاد المنقطعين للعبادة وعمل الخير. تنقل
بين تلمسان والحناية وندرومة وهنين. توفي بتلمسان
سنة 874هـ/1469م.

11 - أبو سالم إبراهيم بن قاسم. توفي في سنة
880هـ/1475م.

12 - الفقيه العلامة أبو زكرياء يحيى بن أبي
عمران موسى بن عيسى بن يحيى المغربي
المازوني. تلقى العلم عن والده، وعن ابن مرزوق
الحفيد، وقاسم العقباتي، وابن زاغو، وآخرين. ولي
قضاء مزونة. ومن مؤلفاته: الدرر المكنونة في
نوازل مازونة. وتوفي بتلمسان في سنة
883هـ/1487م.

13 - الإمام السنوسي محمد بن يوسف بن عمر ابن شعيب، (أبو عبد الله السنوسي الحسني). أحد كبار الأئمة الذين جادت بهم تلمسان. ولد في سنة 832هـ/1428م، وتوفي سنة 895هـ/1489م بتلمسان.

14 - أحمد بن أبي يحيى بن محمد الشريف التلمساني. علامة ومفسر ومحقق؛ أخذ عن ابن مرزوق الحفيد؛ ولكنهما اختلفا في بعض القضايا الفقهية. نقل الونشريسي تلك القضايا في معياره. توفي أحمد بن أبي يحيى في سنة 895هـ/1489م.

15 - عبد الواحد بن أحمد بن قاسم. توفي في سنة 896هـ/1491م.

16 - أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغماري الكومي. ولد بعد عام 940هـ/1533م؛ فقيه، وتولى الخطابة بمكناسة؛ وإلى جانب الفقه فهو نحوي، ويستظهر مختصر خليل؛ وله أيضاً مشاركة في علمي: الحساب، والفرائض؛ إذ كان أستاذاً فيهما. لا يعرف تاريخ وفاته.

17 - أحمد بن محمد بن زكري؛ من كبار فقهاء المالكية، ولد بتلمسان وعاش بها حيث تولى القضاء والإفتاء واشتغل بالعلم والتدريس، توفي عام 899هـ/1493م

18 - الفقيه أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي. ولد في جبال ونشريس الجزائرية سنة 834هـ/1430م؛ ونشأ وتعلم في تلمسان. وأخذ العلم عن المفسر النحوي أبي عبد الله محمد ابن العباس، وعن قاسم بن سعيد العقباني، وولده قاضي الجماعة أبي سالم إبراهيم العقباني، وحفيده القاضي محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني؛ ثم أخذ أيضاً عن أحمد بن عيسى بن الجلاب، ومحمد بن مرزوق الكفيف؛ وأخذ أيضاً بفاس عن محمد بن محمد بن عبد الله اليفرني. تعرض في تلمسان - خلال كهولته - إلى سخط سلطانها أبي ثابت الزياني؛ الذي أمر بنهب داره؛ ففرّ إلى فاس؛ أين استقبله فقهاؤها بحفاوة وإكبار. وفي تلك الديار تولى تدريس المدونة ومختصر بن الحاجب. وللونشريسي عدد كبير من المؤلفات جلها في الفقه المالكي؛ وأهمها: كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب. توفي أحمد الونشريسي في عام 914هـ/1508م.

19 - الفقيه والولي الصالح بلقاسم بن محمد الزواوي. يعد من أكابر المقربين من الإمام السنوسي. وممن أخذ عنه: محمد بن عمر الماللي. توفي سنة 922هـ/1516م.

20 - الشريف الإنريسي أحمد بن موسى. وهو من الأولياء الصالحين؛ وتلميذ أحمد بن الحاج الورنيدي. تول تدريس القرآن الكريم، والرسالة، والعقائد، وابن الحاجب الفرعي. توفي بعد سنة 950هـ/1543م.

الحفصيون وتلمسان

دخول الحفصيين الأول لتلمسان؛ حدث في عهد السلطان أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. ثم ذلك؛ عندما راودته نفسه في التوسع نحو الغرب، وامتلاك عرش الموحدين بمراكش¹. إذ كان كغيره من سلاطين: بني عبد الواد، وبني مرين في ذلك الوقت؛ يتطلع للإستحواذ على تراث الموحدين، ووراثه تركتهم. وقد عزز تطلع السلطان الحفصي إلى هذا الأمر؛ أنه يدرك الكيفية التي نشأت بها دولته من رحم الدولة الموحدية؛ وكيف استمدت شرعيتها منها. لذا فقد سعى لهدفه المذكور؛ انطلاقاً من ولاية شرعية أسندت إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص؛ بعقد أصدره الخليفة الموحدي الناصر² سنة 603هـ/1206م³. وعليه؛ فقد بادر أبو

¹ ((كان الأمير أبو زكرياء - منذ استقل بامر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه - متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش، والاستيلاء

على كرسي الدعوة)). العبر، مج: 6، ص: 607.

² هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي. حكم من سنة 595هـ/1198م إلى سنة 610هـ/1213م. وهو الذي شهد موقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م.

³ أنظر تاريخ الدولتين، ص: 18 - 26. والعبر، مج: 6، ص: 582 - 583. 591 - 593.

زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص -
عندما تولى أمر إفريقية - إلى الاستبداد؛ وإسقاط
دعوة الخليفة الموحي المأمون سنة 626هـ/1228م¹.
ومن هنا؛ شرع في التطلع إلى الخلافة؛ والتربع على
عرش الموحدين، والاستحواذ على إرثهم؛ عوضاً
عن بني عبد المؤمن. وقد دعم موقفه؛ كونه
سليل الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي؛ صاحب
المهدي بن تومرت، وأحد الأصحاب العشرة السابقين
إلى مبايعته تحت شجرة الخرنوب؛ في سنة
515هـ/1121م. وعلى هذا؛ فقد حزّ في نفسه ما
كان يجري من وفاق وتغام بين يغمراسن بن
زيان والخليفة الموحي المأمون؛ ثم الرشيد من
بعده². وبعد التفكير، والتدبير؛ وجد أن طريقه إلى

¹ تاريخ الدولتين، ص: 23 - 24. والعبر، مج: 6، ص: 594.

² ((فاستكبر السلطان أبو زكرياء اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله؛
وهم جواره بالمحل القريب)). العبر، مج: 6، ص: 607 - 608. أنظر
أيضاً بغية الرواد، ج: 1، ص: 205. وقد انفرد التنسي برواية لم يذكرها
غيره؛ جاء فيها: ((ثم اتفق أن بعث الأمير أبو زكرياء بن عبد الواحد
ابن أبي حفص الهنتاتي هدية إلى السعيد؛ حين ظن أنه استوسق له ملك
المغرب؛ فتعرض لها يغمراسن وأخذها؛ فانتظر الأمير أبو زكرياء
انتصار السعيد لنفسه في ذلك؛ فلم يكن منه إلى ذلك نهوض؛ فخلع لذلك
طاعته، واستقل بنفسه)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدرر
والعقيان)، ص: 116. غير أن هذه الرواية لا تنسجم مع حقيقة الأحداث؛
لأن أبا زكرياء استبد بالحكم في سنة 625هـ؛ كما أسقط الدعوة الموحدية
نهائياً من منابره في سنة 627هـ؛ ونقلها إلى العباسيين في بغداد.

مراكش؛ لا بد أن تمرّ بمملكة بني عبد الواد في تلمسان؛ وبذلك؛ شعر بحتمية إخضاع عاصمة هذه الدولة؛ قبل الوصول إلى مبتغاه في مراكش. فسعى - في بداية الأمر - إلى كسب ولاء يغمراسن¹؛ ولكن هذا الأخير رفض التكرار للعهد المعقود بينه وبين الخليفة الرشيد؛ ذلك الخليفة الذي: ((ضاعف له البرّ والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعلوده بالإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا))². وعليه؛ قرّر أبو زكرياء غزو تلمسان وفرض مبتغاه بقوة السلاح. فهض إلى تلك النواحي في سنة 632هـ/1234م³. حيث استفتح حملته بفتح بجاية والجزائر، ثم أخضع بلاد مغراوة بسهولة؛ ومع أنه وجد مقاومة كبيرة من قبل بني توجين؛ إلا أنه تمكن من التغلب عليهم؛ إذ أسّر شيخهم عبد القوي ابن العباس؛ ونقله معه إلى تونس؛ أين أطلق سراحه، بمعاهدة سنّت بينهما.

¹ ((وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك؛ فكان يداخل أمراء زناتة فيه، ويرغبهم، ويراسلهم بذلك)). العبر، مج: 6، ص: 607.

² نفسه، ص: 607. أنظر أيضاً بغية الرواد، ج: 1، ص: 205.

³ نفسه، ص: 597. وفي كتاب تاريخ الدولتين: سنة: 636هـ.

وهنا؛ حقق أبو زكرياء أول أهدافه؛ بتمهيد الجهات الغربية العازلة بين إفريقية وتلمسان؛ عندها؛ لم يبق أمامه من خصم سوى بني عبد الواد. فاتخذ الإجراءات اللازمة؛ في تحقيق تعبئة مهولة، لكي يتمكن من الوصول إلى هدفه التالي؛ وهو احتلال تلمسان، وضمها لممتلكاته؛ وبذلك يجعل منها رأس جسر؛ في سبيل تحقيق هدف أسمى؛ وهو غزو مراكش حاضرة الخلافة الموحدية. وبعد فترة؛ أنجز التعبئة، وأكمل العدة؛ وكان شيوخ توجين، ومغراوة ومليكش؛ قد وفدوا إليه؛ مستجدين به، ومحرضين على حرب يغمراسن بن زيان، وامتلاك تلمسان¹. فوجدها أبو زكرياء فرصة طالما انتظرها في سبيل تحقيق حلمه؛ وعلى هذا؛ نهض فوراً إلى تلمسان سنة 639هـ/1241م²؛ محاطاً بجيش عظيم؛ جّله من أعراب بني هلال وسليم، ثم قبيلة هواراة الأمازيغية، بالإضافة إلى قبائل زناتة حلفاء دولة

¹ العبر، مج: 6، ص: 658.

² هكذا ورد في كتاب تاريخ الدولتين للزركشي، ص: 29، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون. أما صاحب الذخيرة السنية، ويحيى بن خلدون فقالا أن دخول الجيش الحفص إلى تلمسان حدث في سنة 640هـ، الذخيرة، ص: 64، وبغية الرواد؛ ج: 1، ص: 205. بينما خالف التنسي جميع الأقوال؛ حيث قال أن هذه الغزوة تمت في سنة 645هـ.

الحفصيين¹. ولما وصل أبو زكرياء بجيشه إلى أطراف تلمسان؛ تصدَّى لهم بنو عبد الواد خارج البلدة؛ فبادرهم الحفصيون برمي النبال جماعياً ودفعه واحدة، فانصبت على بني عبد الواد بكثافة كبيرة²؛ فتراجعوا خلف أسوار المدينة. ولكن الجيش الحفصي - بكثرة عدده - تمكن من الصعود إلى الأسوار

¹ ((فاستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظفهم... ونهض سنة تسع وثلاثين [وستمائة] في عساكر ضخمة، وجيوش وافرة، وسرح أمام حركته عبد القوي بن العباس، وأولاد منديل ابن محمد [الصحيح عبد الرحمن] لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة ودوزان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم من العرب؛ وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم)). (العبر، مج: 7، ص: 165). وأحصاهم صاحب الذخيرة السنية: بأربعة وعشرين ألف رام. (ص: 64). بينما عددهم الزركشي بأربعة وستين ألف فارس)). (تاريخ الدولتين: ص: 29). أما يحيى بن خلدون فقال أن الجيش الحفصي آنذاك كان به ((اثنا عشر ألف رام مترجلة سوى الركبان)). (بغية الرواد، ج: 1، ص: 205). وأشار التنسي لهذه الغزوة فقال: ((فنزلها [أي تلمسان] سنة خمس وأربعين بجيوش يضيق عنها الفضاء؛ فيها ثلاثون ألف رام)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان) ص: 117.

² ((وأمر [أبو زكرياء] رماته بالرمي دفعة واحدة. فكان الهر - على صغر جرمه - تجيء فيه العشرون سهماً وأزيد؛ فهاهنا ذلك أهل البلد من الجند وغيرهم)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 117.

واقترحوا البلد¹؛ ((وعاثوا فيه؛ بقتل النساء والصبيان، واكتساح الأموال))².

ولما أيقنَ يغمراسن من استحالة المقاومة، وتأكد من عجزه - في تلك الظروف - أمام الحفصيين؛ قرّر الخروج من تلمسان، والفرار بأهله وحماته خارجها؛ فاقتحم باب العقبة³؛ أين جندل بعض أبطال الموحدين، واخترق جموعهم، ونجا بأهله إلى الصحراء⁴ حسبما قاله الزركشي، وعبد الرحمن بن خلدون؛ وإلى جبل وبني رنيد أو تيرني كما ذكر يحيى بن خلدون، والتنسي⁵. بينما خالفهم - جميعاً - صاحب الذخيرة السنية؛ الذي زعم أن يغمراسن لجأ إلى لمدية⁶. ويبدو أن هذا القول غير معقول. لبعد لمدية عن تلمسان؛ خاصة وأن

¹ ذكر الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين أن الحفصيين اقتحموا تلمسان من باب كشوط؛ (أنظر ص: 29). بينما قال صاحب الذخيرة السنية أنهم دخلوا المدينة من باب إيلان، (ص: 64).

² العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166. أنظر أيضاً كتاب الذخيرة السنية، ص: 64.

³ هكذا في العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، 166. وبغية الرواد، ص: 205. بينما قال التنسي: أنه خرج من باب علي. أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 117.

⁴ العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166. وتاريخ الدولتين، ص: 29.

⁵ بغية الواد، ج: 1، ص: 205. ونظم الدر، ص: 117.

⁶ ((وفرّ يغمراسن ومن كان معه من قومه إلى لمدية)). ص: 65.

مفاوضات حدثت - بعد ذلك - بين يغمراسن وأبي زكرياء؛ اقتضت تولجده في مكان قريب. كما أن المصادر كلها أجمعت على شنّ يغمراسن حملات استنزافية، وانتقامية ضد الحفصيين، واختطافه لبعض مقاتليهم¹؛ الأمر الذي أجبر أبا زكرياء على مصالحته، وتسليم تلمسان له من جديد.

المهم؛ أن السلطان الحفصي وجد نفسه مضطراً لعقد صلح بينه وبين يغمراسن؛ بعد أن تمكن من الإفلات، واستعادة عاملي: المبادرة والمفاجأة، ضد الحفصيين؛ حيث شنّ عليهم حرب عصابات أنهكتهم، وبثت في نفوسهم اليأس من ضمان الاستقرار بتلمسان. ومع هذا؛ فقد حاول أبو زكرياء إيجاد بديل ليغمراسن؛ يستطيع مواجهته والتصدي لحملاته المفاجئة، وغاراته المتتابعة؛ ولكنه فشل في ذلك؛ بعد أن رفض شيوخ الموحدين ورؤساء زناتة القيام بهذا الدور الخطير². عندها قال لهم السلطان الحفصي:

¹ ((وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر؛ فاخطف الناس من حوله؛ واطلموا من المراقب عليه)). العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166.
² ((ولما تجلّى غشي تلك الهيئة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب؛ راجع الموحدون بماترم، وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها؛ لإقامة دعوته الدالة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر تلك أشرافهم،

((إنما امتنعتم من ولايتها خوفاً من شيطاتها؛
وليس لها غيره))¹. فبادر من فوره إلى الاتصال
بـيغمراسن؛ عارضاً عليه ولاية تلمسان والمغرب
الأوسط؛ مقابل الدعوة له، وترك الولاء لبني عبد
المؤمن؛ فرضي سلطان بني زيان بذلك؛ وبعث أمه
سوط النساء لعرض الشروط، وعقد الصلح مع أبي
زكرياء: ((فأكرم موصلها، وأسنى جائزتها، وأحسن
وفادتها ومنقلبها؛ وسوّغ ليغمراسن - في شروطه -
بعض الأعمال بإفريقية، وأطلق أيدي عماله على
جبايتها))². ثم رحل أبو زكرياء عائداً بجيشه إلى
إفريقية.

ولما علم الخليفة الموحي السعيد بما تم بين
يغمراسن وأبي زكرياء؛ من نقل الولاء للحفصيين،
ونبذ ما كان لبني عبد المؤمن؛ قرّر الزحف إلى
تلمسان، وإخضاع أصحابها. فحشد أمة عظيمة؛
وخرج بهم من مراكش سنة 645هـ/1247م؛ بغرض
تمهيد البلاد، والقضاء على التمرد والعصيان أينما

وتدافعوه، وتبرأ أمراء زناتة؛ ضعفاً عن مقاومة يغمراسن؛ علماً بأنه
الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته)). العبر،
مج: 6، ص: 609.

¹ الذخيرة السنية، ص: 65.

² العبر، مج: 6، ص: 610. مج: 7، ص: 166 - 167.

كان. فبدأ بالمغرب الأقصى؛ أين يتواجد الخطر الأكبر؛ المتمثل في بني مرين؛ غير أنهم سارعوا إلى تقديم الولاء والطاعة للسعيد¹. بل عرضوا عليه خدماتهم؛ والتكفل نيابة عنه بكسر شوكة بني زيان؛ ولكنه اكتفى منهم بالمشاركة وتقديم حصة من الفرسان المرينيين قدرهم بخمسمائة فارس². وبعد تمهيد المغرب الأقصى، وإخضاع أحوازه؛ سار بجيشه العظيم نحو تلمسان؛ لتأليب أهلها، وكسر شوكة يَغْمُرَاسَن. غير أن هذا الأخير؛ بادر بالخروج من المدينة، واللجوء بأهله وحاميته؛ إلى (قلعة تامزردكت)³. القرية من وجدة. حيث تحصن بها؛ وتأهب لمواجهة جيش الموحدين. فلم يجد - عندئذ - السعيد بداً من محاصرة يَغْمُرَاسَن في تلك القلعة المنيعّة.

¹ فخرج [أي السعيد] من حضرة مراكش في جيوش لا تحصى من الموحدين والعرب والروم؛ فسار حتى وصل وادي بهت؛ عرف به أمير المؤمنين أبو يحيى بن عبد الحق؛ فخرج له عن مكناسة، وأسلمها له، وسار إلى قلعة تازا... وارتحل [السعيد] إلى مدينة فاس... فأقام هناك حتى وصلته بيعة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق؛ فسُرَّ بها (الأنيس المطرب، ص: 171 - 172).

² (الأنيس المطرب، ص: 195).

³ اختلف المؤرخون في رسم هذه الكلمة؛ إذ كتبت في الأنيس المطرب: ((تامرجدية))، وفي الذخيرة السنية ((تامزجدرت)).

وتقول بعض الروايات: أن السعيد؛ خرج مع وزيره ومرافقيه؛ في اليوم الرابع - أي في صفر من سنة 646هـ/1248م - يستطلع الأرض، ويتعرف على مواطن الضعف في القلعة المذكورة؛ فسلك بعض الشعاب؛ المؤدية إليها؛ فرآه أحد حراس بني عبد الواد؛ فأعلم يغمَراسن بمكانه؛ فهجموا عليه، فقتلوه مع وزيره ومرافقيه¹. وأحدث خبر مقتل الخليفة السعيد في معسكره فوضى وهلعاً عظيمين؛ فاضطربت أحوال من فيه؛ وتسابقوا للهروب والنجاة بأرواحهم؛ حيث تحولت هزيمتهم إلى كارثة شعاء؛ قضت على هيئة الدولة بكاملها، وأخذت سطوتها نهائياً؛ ولم تقم للدولة الموحدية بعدها قائمة؛ إلى أن سقطت بصفة نهائية.

¹ ((ويقال: إنما كان يوم عاٍ الساكر، وصعد الجبل للقتال؛ وتقدم أمام الناس؛ فاقتطعت بعض الشعاب المتوعدة في طريقه؛ فتوثب به مزلاء الفرسان... ووقعت النفرة في الساكر لطائر الخبر؛ فأجفلوا؛ وبادر يغمَراسن إلى السعيد - وهو صريع في الأرض - فنزل إليه وحيّاه وفداه، وأقسم له على البراءة من هلكته؛ والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض. وانتهب المعسكر بمحلته؛ وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والفاقات؛ واختص يغمَراسن بفسطاط السلطان؛ فكان له خاصة دون قومه. واستولى على الذخيرة التي كانت فيه؛ منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه)). العبر، مج: 7، ص ص: 169 - 170.

أما يغمراسن؛ فقد انتظر إلى أن هدأت الأحوال؛
عندئذ؛ قام بتجهيز الخليفة السعيد؛ فغُسِّل، وكُفِّن؛ ثم
رُفِع على الأعواد، ودُفِن بالعباد في جوار ولي الله
أبي مدين. ((ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت
الشهيرة الذكر - بعد أن جاءها واعتذر إليها مما
وقع؛ وأصطحبهنَّ جملة من مشيخة بني عبد الواد
إلى مأمهنّ؛ ألحقوهن بدرعة؛ عند تخوم طاعتهم.
فكان له بذلك حديث جميل في الإيقاء على الحرم،
ورعي مراتب الملك))¹. ومع هذا؛ فقد أبقى يغمراسن
بعضاً من أشكال الولاء المعنوي، والاحترام
المتوارث للخليفة في مراكش، تسليماً له بإرثه
التاريخي وانتسابه الأسري لبيت الخلافة الموحدية.
وبالمقابل؛ حافظ يغمراسن أيضاً على الصلات
الحسنة مع الحفصيين؛ والتزم بالحفاظ على روابط
الودّ والاحترام؛ الواصلة بينه وبين السلطان
الحفصي. ولم يقطع الدعاء له طوال حياته. بل
سعى - بعد هلاك أبي زكرياء - إلى التودّد لابنه أبي
إسحاق إبراهيم²؛ الذي خرج عن أخيه الخليفة أبي

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 169 - 171.

² تولى حكم الحفصيين من سنة 678هـ/1279م إلى سنة 692هـ/1283م.

عبد الله محمد المستنصر¹. لذا؛ فقد استقبله بحفاوة عند قدومه إلى تلمسان؛ في طريقه إلى الأندلس. كما استضافه؛ عند عودته؛ بعد وفاة أخيه المستنصر؛ واستقبله بحفاوة سنة 677هـ/1278م؛ وواعده بالوقوف إلى جانبه لكي يستعيد ميراثه في ملك أبيه؛ بخلع ابن أخيه الواثق² ابن المستنصر: ((وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده؛ فأسغفه، وأجمل في ذلك وعده))³.

وبعد ان تحقق لأبي إسحاق هدفه، واستعاد عرش أبيه بتونس؛ أرسل يغمراسن ولده أبا عامر برهوم لإحضار عروس أخيه عثمان من تونس. بل تنقل بنفسه سنة 681هـ/1282م لاستقبالها في أطراف مليانة؛ خوفاً عليها من غدر خصومه من بني توجين ومغراوة. وفي حركته هذه؛ اشتدّ به المرض؛ ثم أدركه الأجل في وادي رهيو؛ فكتم ولده أبو عامر خبر وفاته؛ زاعماً أنه مريض؛ حتى

¹ حكم من سنة 647هـ/1249م إلى سنة 675هـ/1276م.

² هو الواثق يحيى المعروف بالملخوع. حكم من سنة 675هـ/1276م إلى سنة 678هـ/1279م.

³ العبر، مج: 7، ص: 186. أنظر هذا الخبر أيضاً في العبر، مج: 6، ص: 631 - 633. 678 - 679.

لقي ولي العهد عثمان بيسر المتآخم تلمسان. حينها أعلن عن وفاة السلطان الزيتي، فبايع الناس لخليفته عثمان بن يغمراسن¹ في السنة المذكورة أعلاه. ومنذ هذه الأحداث؛ لم يعد للحفصيين أي تأثير يذكر على تلمسان؛ بل أضحوا هدفاً لضغوط بني زيان، الذين هددوا بدار الحفصيين مراراً عديدة.

وبقي الحال هكذا؛ إلى أن حلت سنة 827هـ/1423م؛ خلال الدور الرابع (دور الضعف والتهالك) في حياة دولة بني زيان. وبالمقابل؛ ازدهرت أحوال الدولة الحفصية؛ بتولي السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي² شئونها. حيث قام هذا الأخير سنة 827هـ بفتح تلمسان عنوة³؛ وانتزعها

¹ العبر، مج: 7، ص: 189. وبغية الرواد، ج: 1، ص: 207. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص: 128 - 129.

² هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد ابن أبي يحيى أبي بكر بن أبي يحيى زكرياء بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص. تولى أبو فارس هذا الحكم في سنة 796هـ/1393م إلى سنة 837هـ/1433م؛ سنة وفاته.

³ قال الزركشي: ((افتتح المولى السلطان [أبو فارس] مدينة تلمسان في المرة الأولى، وملكها من يد صاحبها السلطان أبي حمو [؟؟] ثمة تحريف هنا؛ أو حذف؛ لأن المقصود هو أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني [الزنتي؛ لما سمع عنه؛ أن سيرته غير محمودة [؟؟]؛ وبعث إليه ونهاه؛ فلم ينته. فلما وصلها السلطان أبو فارس، وانكسر ولد السلطان عبد الواحد، وفرّ هارباً لأبيه؛ علم أبوه أن لا طاقة له على

من يد السلطان الزياني أبي مالك عبد الواحد¹؛ ثم أسند حكم المدينة وأعمالها إلى محمد الرابع ابن أبي تاشفين الثاني؛ (المعروف بابن الحمرة). وبعدها؛ واصل أبو فارس زحفه نحو فاس؛ التي استسلم صاحبها قبل وصول السلطان الحفصي إليها. وبذلك؛ تمكن هذا السلطان من توحيد بلدان المغرب الإسلامي من شرقها إلى غربها. غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً؛ إذ سرعان ما انفصلت بعد أن أعلن ابن الحمرة استقلال دولته وانفصالها عن سلطة

المقابلة؛ فخرج من تلمسان فاراً بنفسه إلى الجبال. ودخل السلطان أبو فارس تلمسان، واستقر في قصبتها، واستولى على جميع ما فيها. وذلك في ثالث عشر جمادى الأخرى من عام سبعة وعشرين [ثمانمائة] المذكور؛ فبقي بها مدة مقيماً؛ ثم نظر من يقلده أمرها؛ فاختر لها الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو الزياني؛ فعقد له عليها؛ ثم ارتحل إلى مدينة فاس)). تاريخ التولتين (الموحدية والحفصية)، ص: 125 - 126. وكما هو واضح؛ لم يوضح الزركشي السبب في غزو تلمسان؛ بينما الحقيقة تتمثل في خوفه من نمو قوة بني زيان؛ خاصة وأن السلطان أبا مالك عبد الواحد كان يتمتع بمزيا حميدة؛ فسعى إلى النهوض بدولته، وإصلاح أحوال رعيته؛ كما استرجع من الحفصيين ما استولوا عليه من بلدان في الناحية الشرقية لمملكة تلمسان؛ بالإضافة إلى أنه تمكن من التوسع غرباً على حساب الدولة المرينية؛ بل كبح جماح بني مرين واستولى على عاصمتهم فاس؛ ووضع عليها حاكماً من قبله. كل هذا؛ أخاف أبا فارس؛ فبادر بغزو تلمسان قبل أن تشتد قوتها، ويعظم أمرها.

¹ تولى الحكم - في المرة الأولى - من سنة 814هـ/1411م إلى سنة 827هـ/1423م؛ وفي المرة الثانية: من سنة 831هـ/1427م إلى 833هـ/1429م؛ سنة مقتله.

الحفصيين؛ ثم أسقط الدعاء لأبي فارس من منابر تلمسان. ولهذا؛ فقد انبرى إليه - أبو فارس سنة 832هـ/1428م؛ وبعث لإسقاطه جيشاً بإمرة جاء الخير؛ قائد قسنطينة؛ وبعث معهم سلطان تلمسان السابق أبا مالك عبد الواحد؛ ولكنهم هزموا أمام ابن الحمرة؛ وتفرق جمعهم. فاضطر أبو مالك عندئذ إلى الفرار نحو الجبال المجاورة؛ أين عبأ نفسه من جديد؛ بانضمام من فيها من الأعراب إليه؛ ثم عاود الكرة؛ وهجم على تلمسان؛ حيث حالفه الحظ هذه المرة؛ وتمكن من احتلال المدينة، وإجبار ابن الحمرة على الفرار كذلك إلى جبال المنطقة المجاورة. ولكن هذا الأخير؛ استمر في إلحاحه على سدة الملك؛ ولم يستسلم لليأس؛ حيث تمكن هو الآخر من جمع عدد لا بأس به من الأنصار؛ وهجم بهم على تلمسان؛ التي دخلها عنوة وقتل عمّه السلطان أبا ملك عبد الواحد؛ وذلك في سنة 833هـ/1429م. وفي السنة المذكورة أعلاه؛ وبعد مقتل أبي مالك بأقل من شهر؛ دخل أبو فارس الحفصي تلمسان عنوة؛ للمرة الثانية سنة 833هـ/1429م؛ إثر محاصرتها؛ وفرار سلطانها

ابن الحمرة؛ ولكن أبا فارس تمكن من مطاردته وأسرته. ثم نصب عليها سنة 834هـ أبا العباس أحمد بن أبي حمو الثاني المعروف بالعاقل. وفي سنة 837هـ/1433م؛ حاول السلطان أبو فارس العودة إلى تلمسان؛ عندما علم بانفصال تلمسان عن دولته؛ وقطع أبي العباس أحمد الدعوة للسلطان الحفصي على منابرهما. ولكنه مات في طريقة؛ قبل الوصول؛ فعادت جيوشه من حيث أتت. ولم تنته تدخلات الحفصيين في تلمسان عند هذا الحد؛ بل واصل السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان سياسة جدّه أبي فارس؛ فبادر إلى غزو تلمسان سنة 867هـ/1462م؛ ولكنه عاد أدراجه؛ بعد أن سعى إليه وفد من علماء وأعيان تلمسان؛ عارضين عليه طاعة سلطانها محمد بن محمد بن ثابت؛ فعقدوا معه عقداً بالطاعة؛ ثم عاد إلى تونس؛ قبل وصوله إلى تلمسان. غير أنه عاود الكرة سنة 870هـ/1465م؛ حين اشتكى إليه أعراب بني عامر، وسويد؛ تعسف السلطان الزياني، ونكثه بيعة الحفصيين: ((فاستخار [أبو عمرو] الله عز وجل، ونصب لهم سلطاناً؛

الأمير أبا جميل زيان¹ ابن السلطان عبد الواحد ابن أبي حمو [الثاني] الزناتي؛ وكتب له بذلك في أوائل شوال من العام المذكور، وأعطاه ما يحتاج إليه من الآلة والأخبية والجيش والأموال²). ثم بعث معه قائداً من الجيش الحفصي يدعى "محمد ابن فرح الجبائي" وفوض عليهم بالرأي والتدبير أحد الشيوخ؛ وهو الفقيه أحمد البنزرتي. كما أمر ولده عبد العزيز والي بجاية؛ بأن يرافقهم بمعسكره إلى تلمسان؛ ريثما يلحق بهم بنفسه³.

وهكذا كان؛ إذ لحق بهم - بعد فترة - فنزل بجيشه في المنصورة المحاذية لتلمسان. أين حصلت مناقشات واشتباكات ساخنة؛ فخرج إثرها إليه أعيان المدينة وقاضيهما؛ طالبين الصلح، وعارضين على أبي عمرو مصاهرة السلطان الزياني - عبد الله المتوكل - بابنته للأمير أبي زكرياء بن المسعود؛ حفيد

¹ كُتب في المصدر ذاته: مرة "زيان" ومرة أخرى "أبو زيان". انظر تاريخ الدولتين: ص: 157.

² تاريخ الدولتين (الموحدية والحفصية)، ص: 157.

³ هذا هو كل ما ورد في المصادر عن هذا الجيش المرافق للأمير أبي جميل بن عبد الواحد. ولم تات - بعدها - أي إشارة إلى مصير الجيش المرافق لأبي جميل أو إليه شخصياً. وكل ما في الأمر أن ثمة رواية شفهية يرددها بنو زيان بمدينة طولقة (ولاية بسكرة)؛ مفادها: أنهم ينتسبون إلى أبي جميل هذا.

السلطان الحفصي. فعاد أبو عمرو من حيث أتى؛
وانتهى - بعد هذه الحملة - أي تأثير الحفصيين
على تلمسان، وانتهى تحرشهم بها نهائياً.

بنو مرين وتلمسان

ينتمي بنو مرين إلى جدٍّ مشتركٍ؛ يجمعهم ببني عبد الواد؛ وهو زحيك بن واسين بن يسلتين. لأن أبناء زحيك تفرعوا - في بداية أمرهم - إلى فرعين رئيسين: بادين، وورتاجن؛ فمن بادين؛ بنو عبد الواد، ومن ورتاجن؛ بنو مرين. وكان فرع بني بادين - في البداية - أقوى وأشد من بني ورتاجن؛ لاشتراكه على أربعة بطون؛ هم: بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو زردال، وبنو مصاب؛ أضف إليهم إخوتهم من بني راشد؛ لأن راشد أخو بادين¹. غير أن الحال تغير؛ مع مرور الزمن، وتضارب المصالح القبلية. خاصة؛ حين وصل بنو عبد الواد إلى مرتبة الملك، وانفردوا بعزّه وشرفه؛ دون الأحياء الأخرى من بادين؛ فنشبت - عندئذ - الخلافات بينهم؛ من أجل المصالح الخاصة بكل حي منهم؛ فلجأوا إلى سبل التكر والعصيان؛ المؤديان إلى التفكك والانفراط. وبالمقابل؛ ظلت اللحمة بين قبائل ورتاجن

¹ العبر، مج: 7، 148. 343.

متينة، وعصبيتهم أشد قوة والتحاماً؛ فلم يطرأ عليهم ما جرى لبني بادين. لذا فقد حافظت دولة بني مرين - فيما بعد - على تماسك عشائرها؛ بفضل الأوضاع الاقتصادية المزدهرة في محيطها القبلي؛ بحيث أمكن إرضاء الأطراف كلها¹. وواضح - من خلال ما ورد في المصادر - أن صلات القربى بين قبيلتي: بني عبد الواد، وبني مرين؛ لم تنقطع إلا في زمن متأخر². وبانقطاعها؛ برزت إلى السطح علاقات أخرى بين القبيلتين.. علاقات تشوبها المنافسة الحادة، والعداوة الدائمة. وبدأت هذه الظاهرة إثر حصول بني عبد الواد على تلؤل المغرب الأوسط؛ واستحواذهم على تلك الأراضي الخصبة كإقليم من قبل الدولة الموحدية. ثم ازدادت

¹ ((كان أول شيء فعله [الأمير أبو يحيى بن عبد الحق]؛ أنه جمع أشياخ بني مرين، ورؤساء قبائلها؛ وقسم عليهم بلاد المغرب؛ فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض، وغلبت عليه من البلاد؛ طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم...)). (الذخيرة السننية في الدولة المرينية، ص: 68). وذكر هذا أيضاً ابن خلدون في العبر؛ إذ أضاف: ((فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم)). وقد ذكر هذا أيضاً ابن أبي زرع؛ وقد يكون ابن خلدون نقل عنه هذه العبارة. العبر، مج: 7، ص: 352. والأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 194.

² ذكر صاحب الذخيرة السننية أن المرينيين انفصلوا عن بني عبد الواد وبني واسين في سنة 601هـ/1204م؛ بعد أن وقعت بينهم فتنة بسبب امرأة ص: 24.

حدة الشنآن والمنافسة بينهما إلى مستويات عليا؛ نتيجة لوصول **العبد الواديين** إلى مرتبة الملك في تلمسان. كما تضاعفت الأحقاد، واشتدت العداوة بينهما أكثر فأكثر؛ جراء منافستهما المحمومة من أجل امتلاك سدة الحكم في مراكش. وانتهت هذه المنافسة الدامية بدخول **بني مرين** مدينة مراكش وسيطرتهم على عرش **الموحدين** فيها. وكسبوا — بذلك — قصب السبق، فاستحوذوا على مقدرات الدولة الموحدية؛ من: إمكانات بشرية، وثروات مادية، وقيم معنوية. فمكنت هذه العوامل جميعها **المرينيين** من الهيمنة والاستفحال في المغرب الإسلامي كله. ومن هنا؛ يمكن القول: أن دولة **بني زيان** (**بني عبد الواد**) — حتى وإن سبقت الدولة **المرينية** في التأسيس والظهور¹ — إلا أنها كانت أضعف منها عسكرياً واقتصادياً؛ وذلك بسبب امتلاك الدولة الأخيرة لأسباب القوة؛ وسيطرتها على عاصمة الخلافة **الموحدية** بمراكش؛ فاكتسبت — من جراء ذلك — القوة المادية، والقوة الروحية.

¹ تأسست دولة **بني زيان** سنة 633هـ/1235م. بينما قامت دولة **بني مرين** شكلياً؛ بعد هلاك الخليفة الموحدي السعيد سنة 646هـ/1258م؛ وترسمت شرعياً في سنة 657هـ/1258م؛ سنة استيلائهم على مراكش.

ولمّا تأكد المرينيون من هيمنة بني عبد الواد على ضواحي المغرب الأقصى - بخيراتها الوافرة؛ اعتباراً من سنة 610هـ/1213م - واكتشفوا سعة الفرق، وتباين مستوى القوة بينهم وبين بني عبد الواد؛ تحركت أطماعهم، وحثتهم روح العصبية على التقدم خطوة فخطوة نحو تحقيق الملك. ذلك الهدف الذي سعوا إليه منذ الشروع في خطوتهم الأولى؛ عندما قرروا الاستقرار في ديار المغرب الأقصى، واستدعاء أحيائهم المتبقية في الصحراء¹. ومنذئذ؛ أحس بنو مرين بأنهم متساوون مع بني عبد الواد في الثروة والمكانة والأنصار.. ولكنهم ازدادوا قوة - مع مرور الوقت - حتى فاقت قوتهم قوة الدولة العبد الوادية؛ بل تفوقوا على دولة الموحدين نفسها؛ حيث تمكنوا من إسقاطها وامتلاك حاضرتها، والاستحواذ على تراثها وثروتها في سنة 668هـ/1269م². وقد زاد في عنفوان بني مرين واستفحالهم؛ مسعاهم الجديد؛ في التطلع إلى امتلاك الأندلس؛ والاستيلاء على ما كان يمتلكه الموحدون في تلك الديار. فرفعوا شعار الجهاد لتحقيق غرضهم

¹ الأتيس المطرب، ص: 187. وقد ورد هذا أيضاً في الذخيرة السنية، ص: 24.

² الذخيرة السنية، ص: 133 - 134. أنظر أيضاً الأتيس المطرب، ص: 205.

الأسمى؛ الأمر الذي حرك العواطف الدينية لدى عامة الناس، وخاصتهم. وقد ظهر هذا جلياً من خلال عبور السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق مرات عديدة إلى العُدوة الشمالية؛ بحجة الجهاد. غير أن سلطان غرناطة تصدّى له، وكبحه.

المهم؛ أن النزعة التوسعية لم تقارق ملوك بني مرين أبداً؛ منذ قيام دولته إلى يوم سقوطها. وتبعاً لهذا؛ فقد زحفوا بجيوشهم مرات عديدة؛ بغرض احتلال تلمسان؛ ففشلوا في بعضها ونجحوا في أخرى. وكان يَغْمَراسَن قد حاول جسّ نبض المرينيين، واختبار قوتهم؛ فاشتبك معهم مرات عديدة؛ ولكن الحظ لم يحالفه أبداً؛ إذ خسر معاركه معهم كلها؛ الأمر الذي جعله يغير هدفه الاستراتيجي نهائياً؛ ويتجه نحو التوسع شرقاً؛ لابتلاع ما أمكنه من تلك الربوع. ومع ذلك لم يقلل باب التصدي للمرينيين؛ إذ تلاحت الوقائع بينه وبينهم؛ إلى أن قرّر ملكهم يعقوب بن عبد الحق؛ غزو يَغْمَراسَن في عقر داره تلمسان. سنة 670هـ/1271م¹. وكانت هذه الواقعة؛ أول المحاولات المرينية لفتح هذه المدينة

¹ العبر، مج: 7، ص: 177. ورد هذا الخبر أيضاً في الأتيس المطرب، ص: 207.

الحصينة؛ ولكن السلطان المريني فشل في تحقيق هدفه وعاد من حيث أتى¹. ويقول صاحب الذخيرة السنية؛ أن السلطان المريني حشد قوة عظيمة من بني مرين، والروم، والأغزاز، وقبائل الأعراب والمصامدة، وصنهاجة، وبني ورا، وغمارة، وغيرهم من قبائل المغرب؛ حيث زحف بهم إلى تلمسان². وعاود يعقوب بن عبد الحق - أيضاً - محاصرة تلمسان في سنة 680هـ/1281م؛ ولكنه فشل كذلك في الدخول إليها؛ نظراً لحصانتها ومنعة أسوارها³.

ولما توفي؛ خلفه ولده أبو يعقوب يوسف؛ الذي واجه - منذ اليوم الأول لولايته - اعتراضات، وحركات عصيان عديدة؛ مصدرها - في الغالب - بعض الخارجين عليه؛ من الأسرة المالكة، وفئات أخرى؛ ولكنه تغلب عليهم. غير أنه اصطدم - بعد ذلك - بعقوب وعصيان ابنه أبي عامر؛ الذي خرج عليه في سنة 687هـ/1288م؛ بمساندة عامله على مراكش محمد بن عطو البربري الجنائي⁴. فتغلب

¹ ((وحاصروا تلمسان أياماً؛ فامتنعت عليهم؛ وأفرجوا عنها؛ وولى كل إلى عمله، ومكان ملكه)). العبر، مج: 7، ص: 177 - 178.

² أنظر الذخيرة السنية: ص: 146 - 150.

³ الأنيس المطرب، ص: 228.

⁴ نفسه، ص: 360 - 361.

يوسف عليهما، واستعاد مراكش؛ فهربا إلى تلمسان سنة 688هـ/1289م؛ محتمين بسلطانها. ولكن الأمير أبا عامر ندم، وطلب الصفح؛ فعفا عنه والده، ورجع إليه. أما ابن عطو فبقي في تلمسان؛ مستجيراً بالسلطان عثمان. غير أن يوسف بن يعقوب صمّم على جلبه ومعاقبته؛ فطلب بإصرار من السلطان الزياني تسليم ابن عطو إليه؛ فأبى عثمان إخفار ذمته¹. ويقول عبد الرحمن بن خلدون؛ أن رسول السلطان المريني أغلظ في القول إلى السلطان عثمان: ((فسطأ به، واعتقله؛ فثارت من السلطان الحفاظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة والتوترات المتواترة؛ واعتزم على غزو تلمسان))². وهذه الحادثة تثير الذاكرة، وتتقلها إلى زمن مستقبلي؛ يتجلى في قصة المروحة بين داي الجزائر والقنصل الفرنسي؛ حيث يتأكد أن من أراد الحرب، ونوى الغزو؛ لن يعدم حيلة أو مسوغ يعلن به عن قراره.

¹ وقال: ((والله؛ لا أسلمه أبداً، ولا أبيع حرمتي، وأترك من استجارني حتى أموت؛ فليصنع ما بدا له)). الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 393.

² العبر، مج: 7، ص: 442.

وكانت هذه الأسباب المختلفة؛ بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب من جديد بين الدولتين: المرينية والزياتية. ويبدو أن يوسف بن يعقوب كان ينتظر الفرصة المواتية لإعادة الكرة مع بني عبد الواد؛ لذا فقد التقط هذه المناسبة الذهبية. ولو لم تتوفر؛ لحاول إيجاد مسوغ آخر لتحقيق أهدافه؛ لأن نزعة التوسع شرقاً مهيمنة على السلاطين المرينيين؛ بل تتحكم في نواياهم وأهدافهم؛ فهي استراتيجيةهم التي يتطلع إلى تحقيقها سلاطينهم كافة؛ صغيرهم وكبيرهم. ولما كان يوسف بن يعقوب المريني يتطلع دوماً إلى الاستيلاء على تلمسان؛ فقد كرّر غزواته ضدها؛ إذ قام بخمس حملات متتالية؛ فشلت بكاملها؛ الأولى سنة: 689هـ/1290م، والثانية سنة 695هـ/1295م، والثالثة سنة 696هـ/1296م، والرابعة سنة 697هـ/1297م، والخامسة سنة 698هـ/1298م. ولم يتمكن هذا السلطان المريني - بهذه الحملات كلها - تحقيق هدفه؛ المتمثل في اختراق جدران تلك المدينة الحصينة. ومع هذا فقد ألحق ببني عبد الواد ضرراً كبيراً؛ خاصة في الحصار الأخير؛ الذي لا شبهة له أبداً؛ حيث دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر؛ فانفرد بطول أمده

وضراوته، واشتهر بشدة صبر العبد الواديين،
وصرامتهم، وإيائهم، وصدق مقاومتهم، وتقانيهم في
صدّ عدوهم. فضربوا بذلك رقماً قياسيًّا في شدة
الاحتمال، وصدق النضال¹. لقد قام السلطان المريني
بتطويق مدينة تلمسان من جميع جهاتها؛ ثم شرع
في بناء مدينة محاذية لها سماها المنصورة²؛ جعلها
مستقراً له ولجيشه؛ بغرض مطاولة الحصار، وخلق
تلمسان؛ حتى تستسلم مع مرور الزمن. وخلال
إنجاز المدينة المذكورة؛ عمل على تمهيد الجهات
الشرقية، وإخضاع أتباع بني عبد الواد في تلك

¹ ويقول ابن خلدون في هذا الأمر: ((واستمر حصاره [أي يوسف بن
يعقوب المريني] إياهم إلى تمام ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزل. نالهم
فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم)). العبر، مج: 7، ص: 197.
² وصفها ابن خلدون بقوله: ((واختط بمكان فساطيط المعسكر قصراً
لسكرانه، واتخذ فيه مسجداً لمصلاته؛ وأدار عليها السور، وأمر الناس
بالبناء؛ فلبثوا الدور الواسعة، والمنازل الرحبية، والقصور الأنيقة؛
واتخذوا البساتين، وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك
سنة اثنتين وسبعائة؛ وصيرها مصرّاً. فكانت من أعظم الأمصار والمدن،
وأحفلها اتساع خطّة، وكثرة عمران، ونفاق أسواق، واحتفال بناء،
وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمراستان، وابتنى بها
مسجداً جامعاً، وشيد له مننّة رفيعة؛ فكان من أحفل مساجد الأمصار
وأعظمها. وسماها المنصورة؛ واستبحرت عمارتها، وهالت أسواقها؛
ورحل إليها التجار بالضائع من الآفاق؛ فكانت أحد مدائن المغرب.
وخربها آل يغمراسن؛ عند مهلكة، وارتحال كتابه عنها)). العبر، مج: 7،
ص ص: 458 - 459.

الديار؛ فلم يترك مدينة إلا واستسلمت له، وبلغ في زحفه إلى مشارف بجاية؛ حيث ضمن طاعة بني توجين كافة، ومغراوة كلها. وبذلك توسع حصار مدينة تلمسان؛ فتحول إلى احتلال مدن عديدة ك: ندرومة، وتامزديكت، وهنين، ووهران، والقصبات، ومزعران، ومستغانم، ومازونة، وتنس، وبرشك، وشرشال، والبطحاء، ووانشريس، ومليانة، ولمدية، والجزائر، وتافركنيت¹.

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلها يوسف بن يعقوب؛ فقد حرمه الله من تحقيق حلمه بدخول تلمسان؛ إذ هلك سنة 706هـ/1306م². أثناء الحصار؛ اغتاله عبد من عبيده؛ بطعنة خنجر؛ وهو في مخدعه. ومن غريب الصدف؛ أن السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن مات أيضاً أثناء الحصار وفي سنة 703هـ/1303م. وبموت السلطان المريني؛ تفرق جمعه؛ وانفض الحصار؛ وعادت جموع الناس إلى المغرب الأقصى؛ إذ سارع المتنافسون

¹ الأتيس المطرب، ص: 367.

² الأتيس المطرب، ص: 368. العبر، مج: 7، ص ص: 484 - 485. الحلل الموشية، ص: 229.

على العرش المريني للالتحاق بفاس؛ قصد ترتيب
شئون الحكم¹.

فتنافس بنو عبد الواد الصعداء، وانشغلوا
بإصلاح ما فسد في تلمسان، وترميم ما هدم من
أسوارها وقصورها، وإحياء ما أهمل من بساتينها
وجنائها، وتعمير مخازنها وأهراء قصورها. ثم
خرجوا لتأديب المتأمرين عليهم؛ من القبائل
والإمارات المتواجدة في نطاق الدولة وحماها؛ فبادروا
بتخريب مدينة المنصورة²؛ وبعدها اتجهوا شرقاً؛
لتهديد البلاد التي اغتصبها المرينيون.

ويقول التنسي أن أبا حمو موسى الأول هو
الذي هدم المنصورة؛ المدينة التي شيدها يوسف بن
يعقوب غرب تلمسان وبمحاذاتها. أما ابن خلدون
فذكر أنها خرّبت؛ دون ذكر اسم السلطان الزياني
الذي فعل ذلك.³ بينما يخالفهما صاحب الأليس

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 485 - 489.

² ((فلما انصرف [أبو ثابت؛ حفيد يوسف بن عبد الحق]؛ كان أول ما بدأ
الملك أبو حمو؛ هدم مدينة يوسف بن يعقوب، وإصلاح ما تنظم من
تلمسان، وبنى الأسوار والستائر، وحفر الخنادق؛ وخزن فيها الطعام،
والأدام والملح والفحم والحطب؛ ما لا حد له ولا حصر)). تاريخ دولة بني
زيان (نظم الدر)، ص ص: 135 - 136.

³ ((وغيرها آل يغمراسن؛ عند مهلكه، وارتحال كتابه عنها)). العبر، مج:
7، ص: 459.

المطرب؛ فيقول أن أبا ثابت؛ المتولي على بني مريـن - بعد جدّه يوسف بن يعقوب - اشترط على بني زيـان - في مفاوضات فكّ الحصار - أن يبقوا المنصورة على حالها، وألاّ يدخلوها، وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح¹.

وكعادة المرينيين؛ لم يطل بهم الحال؛ حتى تحركت دخالهم نزعة التوسع؛ فقتلوا - هذه المرة أيضاً - بلجوء أفراد من العائلة المالكة إلى تلمسان؛ نتيجة لخلافهم مع السلطان المريني. فطلب هذا الأخير من السلطان الزياني تسليمهم إليه؛ ولكن أبا حمو الأول رفض الطلب؛ متبعاً نهج أسلافه في هذا الأمر؛ بحجة أنه لن يكسر جواره أو يخفر ذمته. وكسابق العهد؛ أدى موقفه هذا إلى غضب السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب²؛ الذي سارع في سنة سنة 714هـ/1314م إلى غزو تلمسان، أين حاصرها؛ ولكنه فشل في مسعاه؛ بعد أن سرّب أبو حمو الأول الأموال إلى وزرائه؛ وتبادل معهم الخطابات؛ ثم أعلم السلطان المريني بمؤمراتهم

¹ أنظر هذا في ص: 369.

² هو أبو سعيد عثمان بن أبي يعقوب. حكم من سنة 710هـ/1310م إلى سنة 731هـ/1330م.

معه. فخاف أبو سعيد العاقبة؛ وانسحب عائداً إلى المغرب الأقصى.

خفت بعدها ضغوط المرينيين على تلمسان؛ بسبب الأوضاع الداخلية في دولتهم. ولكنهم؛ لم يتخلوا عما تراودهم به نفوسهم؛ إلى أن حلّ عهد السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب¹؛ هذا السلطان الذي اكتسب قوة لم يصل إليها أسلافه؛ إذ استفاد من تجاربهم؛ كما ازداد فائدة بعد لحثاكه بمجريات الأحداث في الأندلس؛ حيث التحق بالدولة المرينية بعض الخبراء في اقتحام الحصون المنيعه؛ كما كان يمتلك أيضاً أسلحة فعالة مدمر؛ قاذفة للبارود.² ولما قرّر أبو الحسن مهاجمة

¹ حكم من سنة 731هـ/1330م إلى سنة 749هـ/1348م.

² حصل على بعضها جدّه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق واستعملها في حصار سجلماسة سنة 672هـ/1273م؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون متعجباً: ((ونصب عليها [أي سجلماسة] آلات الحصار؛ من: المجانيق، والعراادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد؛ ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود؛ بطبيعة غريبة؛ تردّ الأفعال إلى قدرة باريها)). العبر، مج: 7، ص: 388. وقد أشار ابن الخطيب في الإحاطة إلى أحد المخترعين لهذه الأسلحة التدميرية؛ اسمه علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج؛ من مدجني إشبيلية. التحق بـيعقوب بن عبد الحق المريني؛ حيث بنى له دار الصنعة بسلا، وصنع له آلة الدولا؛ ثم قال عنه: ((من العارفين بالحيل الهندسية؛ بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها؛ انتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدولا بالمنفسح القطر، البعيد المدى، ولين المركز والمحيط، المتعدد الأكواب، الخفي الحركة؛ حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد - دار الملك

تلمسان؛ لم يفتقر إلى ذريعة؛ تعطيه الحق في إعلان الحرب على بني زيان؛ إذ بحث عن مسوغات العمل؛ فوجد بين يديه؛ الشكوى التي تقدم بها صهره يحيى أبو بكر الحفصي¹ ضد السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن الأول. فبادر من فوره بمراسلة هذا الأخير؛ مستقزاً إياه بطلب التخلي عن مدينة دلس للحفصيين؛ ورفع حصار الجيش الزياني عن بجاية²؛ غير أنه استقبل جواباً قاسياً من أبي تاشفين الأول. وهذا ما كان يأمله أبو الحسن، وينتظره بفارغ الصبر. لأن هذه الحركة تأخرت منذ فترة من زمن؛ إذ كانت خطتها مُعَدَّة مسبقاً؛ في عهد والده أبي سعيد؛ وأجّلت بعد موته سنة 731هـ/1330م. ثم أجّلت مرة أخرى - خلال زحفه نحو تلمسان سنة 732هـ/1331م؛ جراء تأمر أخيه ومنافسه أبي علي أمير سجلماسة مع أبي تاشفين ضده؛ فانشق نحو أخيه؛ حيث تغلب عليه وأسرّه ثم قتله. ويبدو أن أبا الحسن أجّل موضوع

بمدينة فاس - أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الركاب. وبناء دار الصنعة بسلام). الإحاطة في أخبار غرناطة، مج: 2، ص: 429.

¹ حكم الدولة الحفصية - من تونس وقسنطينة - من سنة 718هـ/1318م إلى سنة 746هـ/1345م.

² العبر، مج: 7، ص: 226.

تلمسان لبعض الوقت؛ واتجه بكل قوته نحو عدوة الأندلس؛ أين اهتم باستعادة جبل الفتاح (جبل طارق)، وانتزاعه من قبضة النصارى؛ فتحالف مع السلطان ابن الأحمر في ذلك؛ وبالفعل تم له تحقيق ذلك الفتاح سنة 733هـ/1332م. وبعمله هذا؛ ظهر له أنه أضحى في مقام رفيع لا تطاله ملوك المغرب والأندلس كافة.. حينها؛ عاودته الرغبة في امتلاك تلمسان. فبعث - من جديد - للسلطان الزياني أبي تاشفين؛ مكرراً الشروط التعجيزية نفسها؛ وهي التخلي عن مدينة تدلس (دلس) للحفصيين، والانسحاب إلى المنطلق الأول؛ الذي كانت عليه حدود دولة بني زيان. وعلى هذا؛ اتبع أبو الحسن نهج أسلافه في وضع شروط تعجيزية؛ بحيث لن يجد - معها - السلطان الزياني بداً من رفضها؛ بل تُستثار حفيظته بأسلوب مستقز عند عرض الشروط؛ الأمر الذي تتجرأ عنه ردود فعل بألفاظ قاسية؛ تفتح - حتماً - باب الحرب. وهكذا؛ زحف أبو الحسن إلى تلمسان سنة 735هـ/1334م - أي بعد سنوات ثلاث من محاولته الأولى - فوصلها يوم 11 من شوال سنة 735هـ/1334م. حيث شرع - كسلفه - في بناء

مدينة؛ سمّاها باسم المدينة التي أقامها جدّه أبو يعقوب من قبل؛ وخرّبها بنو زيان؛ وهي ((المنصورة))¹. ولكنه خالف جدّه؛ عندما تبنى خطة فعالة في حصار تلمسان، والتضييق عليها؛ سلك في البداية مسلك سلفه يوسف بن يعقوب بن عبد الحق؛ ولكنه أضاف إليها تحسينات ناجعة. وقد اتبع في خطّه تكتيكاً محكماً؛ حقق به هدفه. من ذلك:

— أنه بادر — كما سبق ذكره، مثل سلفه — إلى بناء مدينة سمّاها المنصورة (البلد الجديد)؛ الواقعة في الجهة الغربية من تلمسان؛ وهي التي اتخذها مستقراً له ولجيشه؛ أثناء الحصار؛ إذا ما طال أمده.

— أقام حول المدينة المذكورة أسواراً تحميها؛ ثم نصب المجانيق، والآلات الحربية، بجوار الخندق الذي حفر أمام الأسوار.

¹ قال فيها عبد الرحمن بن خلدون: ((واختط السلطان بقرب تلمسان البلد الجديد لسكنائه؛ ونزل عساكره؛ وسماه المنصورة؛ وأدار على البلد المخروب سياجاً من سور، ونطاقاً من الخندق...)). العبر، مج: 7، ص: 534. وقال أخوه يحيى: ((ثم ابنتى غربيّها مدينة لسكنائه؛ نسبها إلى النصر)). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 219. أما التنسي فكتب: ((وبنى عليها مدينته التي هي الآن محرّثاً)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 146. ويعتقد محمد بوعباد أن الآثار الموجودة حالياً لمدينة المنصور هي لمدينة أبي الحسن. أنظر تعليقه في الصفحة نفسها.

- وبعدها أخذ يشيد أمام كل برج من الأبراج المقامة على سور تلمسان؛ برجاً يقابله، وأحاطه بخندق لحمايته. ووضع به رماة كلفهم بمدامة رشق برج الأعداء المقابل بالنبل؛ بهدف إشغالهم بأنفسهم؛ ريثما يشيد برجاً آخر؛ أكثر قرباً من أسوار تلمسان. وهكذا تدرج في الاقتراب من سور المدينة المحاصرة؛ ببناء برج وراء برج؛ حتى لاصق خندق أعدائه المحفور بجوار أسوار البلد¹.

- وأثناء ذلك انشغل في تطويق المدينة بجيشه، وبأنصاره من جميع جهاتها. كما تولى - في الوقت نفسه - تمهيد البلاد الشرقية التابعة لتلمسان². حيث اعتمد خطة أسلافه في عزل تلمسان عن ممتلكات الدولة الشرقية؛ إذ استولى؛ خلال سنة 736هـ/1335م على عمالاتها كلها؛ ك: وجدة، وندرومة، وهنين، ووهران، بلاد مغراوة، وتوجين، وشلف، وتنس،

¹ ((ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده؛ حتى اختطها من قرب على سافة خندقهم. وتماصع المقاتلة بالسيف من أعاليها؛ وقربت المجانيق إلى رجمها ودكها؛ فنالت من ذلك فوق الغاية؛ واشتدت الحرب، وضاق نطاق الحصار)). العبر، مج: 7، ص: 535.

² ((وأحاطت بها عساكره، وضرب عليها سياج الأسوار، وسرادقت الحفائر أطبقت عليهم؛ حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم. وسرح كائبه في القاصية من كل جهة؛ فتقلب على الضواحي، وافتتح الأمصار جميعاً)). العبر، مج: 7، ص: 227 - 228.

ومليانة والجزائر، ولمدية. وبذلك قطع كل مدد
محتمل لحاضرة الدولة المحاصرة. وتمكن أبو
الحسن - بعد عامين من بدء حصاره؛ أي في يوم
الأربعاء 18 من رمضان¹ سنة 737هـ/1336م - تمكن
من اقتحام تلمسان. فحقق ما عجز عنه أسلافه
من قبل. حيث قتل السلطان أبا تاشفين مع ولديه:
عثمان ومسعود؛ ثم ألحق بهم الوزير موسى بن
علي الكردي. وبذلك تم القضاء على الدولة
الزيانية². وأضحت تلمسان ضمن ممتلكات المرينيين
لبعض الوقت.

وبعد فتح تلمسان وعمالاتها؛ أظهر أبو الحسن
ما خفي في صدره؛ من طموح ورغبة في التوسع
شرقاً. فاتخذ تلمسان منطلقاً جديداً لاحتلال إفريقيا،
وتحقيق حلم أجداده؛ في توحيد بلاد المغرب كلها
تحت سيادة المرينيين؛ خلفاء الموحدين³. وعليه؛ فقد

¹ اقتحام المدينة حدث - حسب رأي عبد الرحمن بن خلدون - في 17
رمضان سنة 737هـ، العبر، مج: 7، ص: 536.

² ((ولم يزل السلطان أبو تاشفين يقاتل هو وأولاده ووزيره بباب القصر
إلى أن استشهدوا جميعاً؛ رحمة الله عليهم. وذلك يوم الأربعاء الثامن
والعشرون من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة)). تاريخ بني زيان
ملوك تلمسان (نظم الدر). ص: 146.

³ ((كان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقيا؛ لولا مكان مولانا
السلطان أبي يحيى من ولاية صهره. وأقام يتحين لها الوفاة... فلما هلك

كان ينتظر الفرصة المواتية للإنقضاض على مملكة الحفصيين. وبعد أن انزاح المانع المعنوي المتمثل في الصّهر الواصل بين السلطان الحفصي أبي يحيى وأبي الحسن زوج ابنته. بوفاة تلك الزوجة والتحاق والدها بالملكوت الأعلى سنة 747هـ/1346م. لم يجد أمامه ما يمنع توسعه على حساب الحفصيين. وكان عليه إيجاد ذريعة تخول له غزو تلك الديار؛ التي يعتبر أصحابها - في حقيقة الأمر - من حلفائه، وأقربائه بالصهر¹. ولم يطل به الحال؛ حتى وصله خبر قتل الأمير عُمر لأخيه أحمد ولي العهد الشرعي. واغتصابه سدة الحكم في تونس. عندها قرّر أبو الحسن تنفيذ خطته المخترمة؛ فأظهر الامتناع لقتل الأمير أحمد؛ السلطان الشرعي

السلطان أبو يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين [وسمئة]؛ وكان من قيام ابنه عمر بالأمر؛ ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين منها في رمضان؛ ما ذكرناه. تحركت عزائمه لذلك؛ ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين؛ فرغب. وجاء على إثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد ولي العهد؛ وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه... فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه، وهدر من دم أخيه... فأجمع الحركة إلى إفريقية)). العبر، مج: 7، ص: 557 - 558.

¹ بعد هلاك زوجته - ابنة أبي يحيى الحفصي في موقعة طريف بالأندلس - خطب إحدى أخواتها؛ فأعطيت له. وتوفي والدها أبو يحيى أثناء رحلتها؛ وقبل أن تصل إلى عريسه. أنظر العبر، مج: 7، ص: 555 - 557.

للدولة؛ بحكم كتاب العهد؛ المحرر من قبل أبيهما
أبي يحيى.

وهكذا؛ فقد انطلق أبو الحسن سنة
747هـ/1346م بجيش عظيم؛ شمل قبائل المغرب
كافة؛ وضمّ إليهم قبيل بني عبد الواد؛ إذ جمع
قبائل زناتة كلها تحت لواء واحد؛ متوهماً أنه
أضحى زعيمها الأكبر وحامل لوائها الأوحد.. ولكن
الواقع يقول غير ذلك. وقبل أن ينطلق في حملته؛
أسند لولده أبي عنان فارس ولاية المغرب الأوسط:
(وعهد إليه بالنظر في أموره كافة؛ وجعل إليه
جبايته؛ وارتحل يريد إفريقيا)¹. تقدم أبو الحسن
زاحفاً بجيشه الجرار نحو تونس؛ ساحباً خلفه
معظم قبائل المغرب، وحاملاً في ركابه مجموعة
كبيرة من علماء المغرب؛ قصد التباهي بهم
والتعاضم، وراغباً في إضفاء مسحة من الشرعية على
غزواته؛ التي ستمنحه مرتبة خلافة المسلمين؛ بفضل
وجودهم في ركابه ومباركتهم لمسعاها. ولكن الأقدار
شاعت غير ذلك؛ حيث كان مصيرهم الموت²؛ إمّا

¹ العبر، مج: 7، ص: 558.

² ((وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب
وأعيانه؛ هنك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة

بعلة الطاعون الجارف، أو بالغرق في البحر أثناء جلاء أبي الحسن؛ منهزماً من تونس. وقد أحصى المقرئ عددهم بأربعمائة عالم¹. سارت حملة السلطان المريني - في بدايتها - على أحسن ما يرام. حيث توافدت إليه وفود أعراب إفريقية، وعمال الدولة الحفصية القائمين على المدن المختلفة². فدخل إلى: بجاية وقسنطينة وبونة وباجة بسلاسة وسلام؛ وختم نجاحه بالدخول إلى عاصمة الدولة تونس؛ التي فتحت أبوابها دون مقاومة تذكر؛ وذلك في يوم الأربعاء 18 جمادى الآخرة من عام 748هـ/1347م. حدث ذلك؛ إثر إحضار رأس السلطان الحفصي عمر بن أبي يحيى؛ المذبوح في نواحي قابس، ووضع بين يديه. ((وقد كمل الفتح، وعظمت - في الاستيلاء على الممالك والدول -

منهم في أسطوله لما غرق؛ وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا من قدر من آجالهم)). التعريف بابن خلدون. ص: 44 - 45.

¹ ((ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان؛ حين قاتل أعراب إفريقية؛ ففدده بنو عبد الواد - الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان - وانتهزوا الفرصة فيه، وهربوا إلى الأعراب عند المصافة؛ فاقتتل مصافه؛ وهُزم أقبح هزيمة؛ ورجع إلى تونس مغلوباً، وركب البحر في أساطيله - وكانت نحو السائة من السفن - فقضى الله تعالى أن غرقت جميعاً؛ ونجا على لوح؛ وهلك من كان معه من أعلام المغرب؛ وهم نحو أربعمائة عالم)). نفح الطيب، ج: 6، ص: 214 - 215.

² العبر، مج: 7، ص: 558 - 561.

المنّة. واتسعت ممالكه ما بين مسراتة والسوس الأقصى من هذه العدوّة، وإلى رندة من عدوة الأندلس¹. ومن غرائب الأحداث، وعجائب الدهر وتصاريفه؛ أن هذا الصّرح العظيم الذي شيّده أبو الحسن انهوى واندثر فجأة، وفي لحظة قصيرة. فتحول مصير هذا الملك القوي المتغلب إلى منهزم وشريد عبر البحار والآفاق؛ باحثاً عن ملجأ ومأوى آمن يسكن إليه. فتقل - في خبر طويل -² بين الجزائر، ووانشريس، وجبل بني راشد، وسجلماسة، ومراكش، وجبل هنتاتة؛ أين توفي بتلك الناحية؛ بعد مرض؛ في 23 ربيع الثاني من سنة 750هـ/1349م.

وجملة القول؛ فقد ارتكب أبو الحسن أربعة أخطاء قاتلة؛ في تقديره للموقف؛ قبل زحفه نحو تونس، وعند حلوله بها:

- أولاًهما؛ أنه اطمأن لبني عبد الواد؛ واعتقد أنهم أصبحوا في خدمته؛ وهذا تقدير غير سليم؛ لأن حقيقتهم؛ كما وصفهم يحيى بن خلدون: ((استخدم قبيل بني عبد الواد؛ فلم شعّهم، وحفظ عليهم

¹ العبر، مج: 7، ص: 563.

² أنظر العبر، مج: 7، ص: 567 - 597.

رتبتهم، وأبقى لشعوبهم وقيادتهم المراسم التي ألفوها بأيامهم؛ تفاخراً بملك القبيلتين، وتشرفاً بإمرة زناتة أجمعين... فمضت الأيام وهم بين بني مريـن لهب مكفور، وصارم مغمود، والأكباد تنفطر غيرة، والقلوب تحتم حنقاً، فالعيون شازرة، والألسن هامسة؛ إلا أن الصبر مستشعر، والخضوع والتسليم مستظهران¹)). وعليه؛ فإنهم انتهزوا فرصة خروج أعراب سليم وهلال عن صف أبي الحسن؛ في القيروان؛ فبادروا بعقد صفقة معهم ضد السلطان المريني²؛ شاركهم فيها أحياء من مغراوة وبني توجين؛ فأثمرت صفقتهم عن هزيمة نكراء لأبي الحسن؛ أسدل بعدها الستار عن دولته؛ وانتقل الحكم في الدولة المرينية لابنه أبي عنان فارس.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 234.

² فتدأمرؤا، واتفقوا على الاستماتة؛ ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين؛ فغلبوا بني مريـن، وعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم؛ ليتحيزوا إليهم بريايتهم؛ فصبحوا مهسكـر السلطان. وركب إليهم في الآلة والعبء، واحتل المصاف؛ وتحيز إليهم الكثير. ونجا السلطان إلى القيروان؛ فدخلها في الفل من عساكره... وتدافعت ساقات العرب في أثره؛ وتسابقوا إلى المهسكر؛ فانتهبوه، ودخلوا فسطاط السلطان؛ فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمة؛ وأحاطوا بالقيروان، وأحدثت حثلهم بها سياجا، وتعاوت ذنابهم بأطراف البقاع، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان)). العبر، مج: 7، ص: 573.

— أما الثاني من أخطائه؛ فيتمثل في تقديره السيء لقوة وولاء أعراب بني هلال وسليم في إفريقية¹. إذ قاسهم بمقياس المغرب الأقصى؛ في التعامل مع الأعراب هناك؛ تلك الفئة التي تكيفت مع أحكام الدولة هناك، وقبلت بسلطانها في بعض الحدود. وعلى هذا سرعان ما أبدى أعراب إفريقية سخطهم على أبي الحسن؛ بسبب تقلبته لحجم إقطاعاتهم، وإسقاط ما فرضوه من ضرائب على المارة؛ كضريبة الخفارة. وبذلك؛ أجمعوا على التمرد وإشعال الفتن. فاتصلوا ببعضهم، وأصفقوا على الخلاف والثورة. وهنا؛ تقاطعت مصالحهم مع

¹ ((كان مزلء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية؛ وكان لهم اعتزاز على الدولة؛ لا يعرفون غيره منذ أولها؛ بل وما قبله... ولما تغلب السلطان [أبو الحسن] على الوطن؛ وكان حاله في الاعتزاز على من في طاعته غير حال الموحدين [الحفصيين]، وملكنه للبدو غير ملكتهم. وحين رأى اعتزازهم على الدولة، وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي، ثم من الأمصار؛ نكره؛ وأدالهم من الأمصار التي أقطعتهم الموحدون بأعطيات فرضها لهم في الديوان. واستكثر جبايتهم؛ فنقصهم الكثير منها. وشكى إليه الرعية من البدو؛ ما ينالونهم به من الظلمات والجور؛ بفرض الإتاوة التي يسمونها الخفارة. فقبض أيديهم عنها، وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها. فارتابوا لذلك؛ وفسدت نياتهم، ونقلت وطأة الدولة عليهم؛ ففرصدوا لها. وتسلم ذوبانهم وبواديههم بذلك؛ فأغاروا على قياطين بني مرين، ومسالحتهم بثغور إفريقية وفروجها، واستاقوا أموالهم، وكثر شكايتهم، وأظلم الجو بينهم وبين الدولة...)).
العبر، مج: 7، ص ص: 567 - 570.

مصلحة بني عبد الواد؛ فاتفقوا جميعاً على كسر شوكة أبي الحسن وتقليم أظافره. وبالفعل؛ تم لهم ما سعوا إليه؛ في موقعة القيروان؛ حيث انسحب - في آخر لحظة - بنو عبد الواد من صفوف المرينيين، وانضموا لأعدائه؛ فحدثت الهزيمة الشنيعة في صفوف جيش أبي الحسن؛ الذي لم تقم له قائمة بعدها؛ حيث انتهى الأمر بهذا السلطان؛ إلى الانسحاب من تونس نفسها؛ هارباً عبر البحر؛ أين وقعت به الكارثة العظمى؛ التي توفي فيها معظم أتباعه؛ بفعل تقلبات الأمواج؛ فنجاً بنفسه؛ وحيداً طريداً إلى دياره؛ وهناك؛ وجد مفاجأة أخرى تمثلت في وثوب ولده أبي عفان على سدة الحكم؛ فلباً أبو الحسن إلى جنوب المغرب؛ هرباً من شر أعدائه، ومن غدر ولده.

¹ اضطر أبو الحسن لركوب البحر؛ بعد علمه بخروج العمالات الغربية؛ عليه. ويشرح ابن خلدون هذا الأمر بقوله: ((وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستنقلوا وطأة الإهالة؛ لما اعتادوا من الملكة الرقيقة؛ فاشترآوا إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة... فلما وصل خبر النكبة [إلى قسنطينة]؛ اشترب الفوغاء - من أهل البلد - إلى الثورة، وتحلبت شفاههم

— وخطأه الثالث؛ يتمثل في منح ابنه أبي عنان فارس صلاحيات واسعة، وتمكينه من مقدرات المغرب الأوسط الاقتصادية؛ وتنصيبه والياً مفوضاً في تلمسان. الأمر الذي منحه ثروة مادية فاعلة، وقوة بشرية ضاربة؛ فشجعه ذلك على الاستبداد، واغتصاب السلطة؛ بل مطاردة أبيه السلطان من مكان إلى آخر، وقطع السبل عليه منعاً لعودته إلى عرشه¹.

— أما الخطأ الرابع؛ فيتمثل في التوسع بشكل مبالغ فيه؛ بحيث مدّ أبو الحسن حدود مملكته إلى الحد الذي أفقده التحكم والسيطرة عليها بكاملها². ولما كانت قوة دولة بني مرين العديدة والاقتصادية؛

¹ ((لما اتصل خبر النكبة على القيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان - وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط - وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا؛ وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان؛ فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه دون الأبناء)).

² خصص ابن خلدون فصلين في مقدمته الأول بعنوان: "فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها" والثاني: "فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدتها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة"؛ شرح ضمنهما حجم الخلل الذي يطرأ على الدولة؛ حينما تتباعد ثغورها عن مركزها؛ عندئذ تأخذ قوتها في التلاشي؛ شيئاً شيئاً، وبالتدريج؛ كلما ابتعدت عن حاضرة الدولة (مركزها)؛ ثم يقول: ((لكن الأنحة والأنوار؛ إذا انبعثت من المراكز. والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه)). المقدمة، ج: 2، ص: 643.

تكفي لحماية ثغورها المعروفة؛ منذ نشأتها؛ فإنها بالمقابل عاجزة عن السيطرة على مجالات أوسع من ذلك. وقد علل ابن خلدون هذا بقوله: ((والسبب في ذلك؛ أن الملك إما يكون بالعصبية؛ وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها؛ وينقسمون عليها؛ فما كان من الدولة العامة - قبيلها وأهل عصبيتها - أكثر؛ كانت أقوى، وأكثر ممالك وأوطاناً؛ وكان ملكها أوسع لذلك))¹.

ولما وصلت أخبار نكبة أبي الحسن في القيروان إلى فاس - حيث يتولجد حفيده منصور بن أبي مالك؛ المكلف بعمل فاس والمغرب الأقصى - تجهز للأمر؛ واستعد للوثوب على العرش. ومن جهة أخرى؛ حضر ولده أبو عنان - الموجود بتملسان -

¹ ويضيف قائلاً؛ بعد أن يستشهد بما جرى لدول سبقت؛ ك: الفاطميين وصنهاجة، والموحدين: ((ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة؛ لما كان عددهم أقل من المصامدة؛ قصر ملكهم عن ملك الموحدين؛ لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم. ثم اعتبر - بعد ذلك - حال الدولتين لهذا العهد لزناطة: بني مرين، وبني عبد الواد؛ لما كان عدد بني مرين - لأول ملكهم - أكثر من بني عبد الواد؛ كانت دولتهم أقوى منها، وأوسع نطاقاً؛ وكان لهم عليهم القلب مرة بعد أخرى. يقال إن عدد بني مرين - لأول ملكهم - كان ثلاثة آلاف؛ وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً؛ إلا أن الدولة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 645.

نفسه للإقباض على فاس، وإزاحة أي منافس يظهر؛ بما فيهم منصور بن أبي مالك. وعليه؛ فقد فكر أبو عنان في الأمر ملياً؛ فأدرك استحالة السيطرة على عرش الدولة؛ دون الالتحاق بفاس؛ مركز الدولة وقلبها النابض. لذا قرّر العودة إليها؛ ليسبق غيره من الإخوة والأحفاد، وقطع الطريق أمام عودة أبيه. وقبل أن يخطو خطواته الأولى؛ تأمل جيداً في من سيخلفه بتلمسان؛ فلم يجد أفضل من صنيعتهم وتابعهم القديم عثمان بن يحيى بن جرار ابن يعلى بن تيدكسن بن طاعة الله¹؛ وهو من بني عبد الواد. لأنه محل ثقة من جهة، ومن

¹ لم يحظ بنو جرار - في أول الأمر - بالاحترام المطلوب؛ من قبل إخوانهم من بني زيان بن محمد بن زكدان. وظلوا على حالهم بعد قيام الدولة العبد الوادية. إذ كانوا يشعرون بالتهميش. وفي عهد أبي تاشفين الأول؛ اتهم شيخهم عثمان بن جرار هذا؛ لدى السلطان؛ بأنه يتطلع للرئاسة، ويتطاول في طموحه؛ فاعتقله أبو تاشفين؛ ولكنه فرّ من سجنه؛ والتحق ببني مرين؛ أيام السلطان أبي سعيد عثمان والد أبي الحسن. فألحقه بخدام دولته، وكلفه بقيادة ركب الحج. وعندما نهض أبو الحسن لفتح إفريقية؛ رافقه في حملته. ولكنه طلب من السلطان العودة؛ حينما كان بالقيروان؛ ناذن له؛ فعاد إلى تلمسان؛ حيث اتصل بأبي عنان؛ فأوهمه بقدراته التنجيمية، وعلميه بالحدثان. كما أخبره بنكبة أبيه قبل أن يسمع بها. وهو الذي حثه على الوثوب على العرش قبل أن يسبقه غيره من الأسرة المالكة؛ كما هون عليه شأن أبيه؛ وأوهمه بنهليته، بل بموته. لهذا؛ فقد استراح له أبو عنان؛ وأودعه ثقته؛ ونصبه والياً على تلمسان من قبله. غير أنه استبد بالأمر بمجرد وصول أبي عنان إلى فاس. فنهض بالدولة العبد الوادية من جديد؛ من خلال فرع آخر؛ غير فرع بني زيان.

جهة أخرى ينتمي لبني عبد الواد؛ فيسهل - بذلك - عليه القيام بأمر الولاية دون حرج أو بلبلة. وبوصوله إلى القرار هذا؛ بادر إلى تنصيب ابن جرار والياً - من قبله - على تلمسان؛ ثم أسكنه في القصر الملكي القديم؛ ونهض بعدها إلى فاس؛ حاضرة بني مرين، ومقرّ ملكهم. فتوهم - بهذا التصرف - أنه سيرضي بني عبد الواد من جهة، ومن جهة أخرى يضمن بقاء تلمسان والمغرب الأوسط ضمن أملاك بني مرين. والأهم من كل ذلك؛ هو اعتقاده بأنه سيقطع طريق العودة على أبيه أبي الحسن بواسطته. لأنه علم بنجائته من نكبته، وثبت له حرصه على العودة إلى مقر عرشه. ولكن عثمان بن جرار خيب ضنّ أبي عنان؛ إذ نقض اتفاقه معه بمجرد خروج هذا الأخير من تلمسان في سنة 749هـ/1348م. ثم ذلك؛ حين استبد بالحكم، وجاهر بالدعوة لنفسه؛ وأعاد لبني عبد الواد دولتهم؛ ولكن في فرع آخر غير بني زيان¹؛ إلا أنه لم ينعم طويلاً بذلك؛ إذ انقض

¹ قال ابن خلدون في هذا: ((ولما فصل [أبو عنان]؛ دعا عثمان لنفسه، وانتزى على كرسيه، واتخذ الآلة، وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم يكن لآل جرار؛ واستبد أشهراً قلانل؛ إلى أن خلص إليه من آل زيان؛

عليه صفور بني زيان؛ بعد أشهر قلائل؛ قادمين من إفريقية مع أنصارهم وحلفائهم؛ بعد مشاركتهم في نكبة أبي الحسن وهزيمته.

حدث ذلك؛ بعدما هُزم السلطان المريني أبي الحسن في القيروان؛ جراء تحالف بني زيان مع أعراب إفريقية ضده، وشاركوهم في كسر شوكته. عندها؛ - وبعد هزيمة السلطان المذكور - اتجهوا إلى تونس؛ حيث التأم جمع بني عبد الواد، ثم انضم إليهم من ناصرهم من الأعراب، وخرجوا إلى الضاحية؛ أين اتفقوا على تقديم الأمير عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ومبايعته ملكاً على بني عبد الواد.¹ وإثر عقد البيعة؛ انطلقوا نحو تلمسان؛ لاستعادة حاضرة ملكهم. ولما سمع سكان المدينة بتقدم بني زيان وأنصارهم نحوهم؛

من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن؛ من طمس معالمه، وخسف به وبيداره، وأعاد أمر بني عبد الواد إلى نصابه)). العبر، مج: 7، ص: 238.
¹ ((وخلص الملاء منهم نجياً في شأن أمرهم؛ ومن يقدمون عليهم؛ فأصفقوا - بعد الشورى - على عثمان بن عبد الرحمن، واجتمعوا عليه؛ لعهد بهم يومئذ؛ وقد خرجوا به إلى الصحراء، وأجلسوه - بباب مصلى العيد من تونس - على درقة. ثم ازدحموا عليه - بحيث توارى شخصه عن الناس - يسلمون عليه بالإمارة، ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة؛ حتى استكملوا جميعاً؛ ثم انطلقوا به إلى رجالهم)). العبر، مج: 7، ص: 239 - 240.

ثاروا بعثمان بن جرار؛ الذي استأمن السلطان
الزياتي عثمان بن عبد الرحمن. فقبل توبته عن
مضض؛ ثم اعتقله عند دخوله تلمسان، والجلوس
على عرش أجداده في آخر جمادى الآخرة من سنة
749هـ/1348م. وزج بعثمان بن جرار في المطبق إلى
أن مات في شهر رمضان من السنة نفسها.

بادر السلطان أبو سعيد عثمان - من فوره -
بتنظيم شئون الدولة؛ ((فاقتعد الكرسي، وأصدر
أوامره، واستوزر واستكتب، وعقد لأخيه أبي ثابت
الزعيم على ما وراء بابه؛ من شئون ملكهما،
وعلى القبيل والحروب، واقتصر هو على ألقاب
الملك وأسمائه؛ ولزم الدعوة))¹. ووضح هنا؛ أن أبا
عنان غرض الطرف عن كل ما جرى في تلمسان؛
لأنه انشغل بما هو أهم؛ من ذلك؛ مثل:
- مغالبة المنافسين من الأبناء والأحفاد على عرش
بني مرين.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 243-244.

— المحافظة على بقاء الدولة المرينية وحمايتها من الأخطار التي تترصدها.

— السعي لمنع والده أبا الحسن من العودة إلى سدة الحكم بأي ثمن كان.

وعليه؛ فقد اضطر أبو عنان لعقد اتفاق مع السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن؛ بغرض منع والده أبي الحسن من العودة إلى فاس. وبالفعل؛ فقد بعث إليه مدداً من فاس؛ لمواجهة أبيه ومن معه. فوضِعوا تحت قيادة أبي ثابت الزعيم؛ صاحب الجيش والحرب بدولة بني زيان المنبثقة من جديد. فاشتبك هذا الجيش مع جيش أبي الحسن؛ الذي ضمّ بعض أحياء من: الثعالبية، ومليكش، وسويد، وفئة من توجيين؛ بالإضافة إلى الناصر بن أبي الحسن الذي التحق بأبيه مع جمّع من أحياء زناتة والأعراب. وانتهت المعركة بهزيمة أبي الحسن ومن معه، وقتل ابنه الناصر إثر جراح ألّمت به. وقبض على بناته؛ حيث أرسلهن أبو ثابت الزعيم إلى فاس. أما السلطان أبو الحسن؛ فقد هرب به ونزمار شيخ سويد إلى سجلماسة؛ أين استؤنفت مآسيه، وفراره من مكان إلى آخر حتى استقر به

الحال عند شيخ هنتاة عبد العزيز بن محمد بن علي؛ حيث بقي في ذلك الجبل إلى أن حلَّ أجله بعد مرض عضال.

وبموت السلطان أبي الحسن؛ فرغت الساحة من جميع المنافسين أمام أبي عنان. ولم يعد عرضة للأخطار وتقلبات الأيام، وأحس بفسوخ قدميه على الأرض التي يقف عليها، وشعر بقوة فاعلة تحمي ظهره، وأعجب بحجم الجيوش التي تشد أزره. حينئذ؛ أدرك أنه لم يعد في حاجة إلى بني زيان في تلمسان، ولا لغيرهم ممن وقفوا حاجزاً لمنع والده من العودة إلى فاس. عندئذ شمر على ساعديه، وهياً نفسه للانقضاء عليهم في عقر دارهم¹. ((وعادت حليلة إلى عاداتها القديمة)). إذ لم تُثنِ الأحداث التي جرت لأبي الحسن - كانهيار سلطنة، وتلاشي أحلامه - ولده أبا عنان؛ بل تحركت في داخله الجرثومة المتوارثة في أسرته؛ والتي تدفعهم دوماً للمزيد من التوسع على حساب جيرانهم.

¹ ((وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد، لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين [وسبع مائة]؛ نادى بالعطاء، وأزاح الغل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر، وارتحل يريد تلمسان)). العبر، مج: 7، ص: 598.

وعلى هذا؛ فبمجرد وصول الخبر بوفاة والده؛ والاطمئنان بدفنه بنفسه؛ بادر إلى الزحف شرقاً؛ نحو تلمسان أولاً؛ ثم الانطلاق في اتجاه إفريقية.

لم يجد صعوبة كبيرة؛ في إسقاط دولة بني زيان، وقتل ملكها أبي سعيد، وأخيه أبي ثابت، ثم تشريد بني عبد الواد غرباً وشرقاً سنة 753هـ/1352م. ثم انتقل - بعدها - إلى بجاية التي فتحها صلحاً في السنة المذكورة أيضاً: ((وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط؛ وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية))¹. وهكذا؛ فقد استمر في تقدمه شرقاً؛ فدخل بجاية ثم قسنطينة، ودخلت جيوشه بسكرة وطولقة. واستطاع جيشه من الدخول إلى تونس سنة 758هـ/1356م. وابتهج بفتوحاته. ولكن حدث له ما وقع لأبيه أبي الحسن؛ إذ عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ وانتهت حملته بخسارة تشبه خسارة والده - من قبل - فتبخرت إنجازاته كلها في لحظة واحدة؛ ولم يبق بين يديه سوى دولته الأصلية بحدودها المعروفة. حدث ذلك؛ حينما تعرض لمصالح أعراب

¹ العبر، مج: 7، ص: 601.

رياح: ((وقبض أيدي العرب من رياح عن الإثالة
التي يسمونها الخفارة؛ فارتابوا؛ فطالبهم بالرهن؛
فأجمعوا على الخلاف))¹.

ثم أن الجيش المريني؛ ثقلت عليه المهمة،
وتململ أفرادها؛ وكرهوا مواصلة الزحف والقتال في
مناطق بعيدة عن ديارهم بالمغرب الأقصى؛
واعترضوا على نيّة السلطان أبي عنان التوجه إلى
تونس. بل تأمروا بينهم على قتله. ثم وضعوه
أمام الأمر الواقع؛ إذ شرعوا في الانسحاب فئة بعد
أخرى؛ تاركين الساحة، وعائدين إلى المغرب؛ دون إذن
السلطان؛ إذ اكتفوا بموافقة الوزير فارس بن ميمون
وبعض مشائخهم². وبذلك؛ وضعوا أبا عنان في
موقف حرج؛ حين وجد ممن كان حوله يتناقصون
شيئاً فشيئاً؛ فاضطر - عندئذ - للعودة من حيث أتى؛

¹ العبر، مج: 7، ص: 618.

² ((وضاق ذرع العساكر، بشأن النفقات والإبعاد في المذاهب، وارتكاب
الخطر في دخول إفريقية؛ فتمشت رجالهم في الانتفاض عن السلطان؛
وداخلوا الوزير فارس بن ميمون؛ فوافقهم عليه؛ وأذن المشيخة والنقباء
لمن تحت أيديهم من القبائل باللاحاق بالمغرب؛ حتى تفردوا؛ ونمي إلى
السلطان؛ أنهم تآمروا في قتله)). العبر، مج: 7، ص: 619.

إذ دخل فاس خائباً متحسراً سنة 758هـ؛ حيث انتقم من المتآمرين شرّاً انتقاماً.¹

والظاهر أنه لم يرتدع؛ بما جرى له ولأبيه، ولم يتراجع عن نزعته التوسعية²؛ حيث أسند - هذه المرة - مهمة فتح إفريقية إلى وزيره سليمان ابن داود؛ فخرج إليها من فاس بجيش عرمرم سنة 759هـ/1357م؛ فمرّ بتلمسان؛ أين ضبط أموره، ثم انطلق إلى قسنطينة؛ أين أعاد تمهيد ضواحيها، واطمأن على ولاء يوسف بن مزني أمير بسكرة والزاب. ثم استخلص ما أمكنه من جباية ومغارم؛ وعاد أدراجه إلى تلمسان؛ التي التقى بها السلطان أبي عنان.

ولم تنته معاناة السلطان المريني عند هذا الحد؛ بل جرى لدولته - في تونس - المشهد نفسه الذي وقع بعد هزيمة أبي الحسن في القيروان. حيث وقفت قبيلة بني عامر، وبعض الأحياء من النواوذة

¹ لم يغفر أبو عنان - عند عودته - للذين أجهضوا خطته، وبددوا حلمه؛ من خاصته وأتباعه؛ إذ قبض على المتآمرين - وعلى رأسهم وزيره فارس بن ميمون - الذي قتله قصعاً بالرمح؛ ثم تحول إلى مشايخ القبائل المتورطين؛ فقتل بعضهم، وسجن بعضهم الآخر. أنظر خبرهم في العبر، مج: 7، ص: 619.

² ((ولما رجع السلطان [أبو عنان] من إفريقية؛ ولم يستتم فتحها؛ بقي في نفسه منها شيء)). العبر، مج: 7، ص: 620.

خلف أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمراسن؛ وطلبوا من السلطان الحفصي مساعدته لاسترجاع ملك أجداده؛ فلبى السلطان طلبهم؛ وجهّزه بما أمكن؛ من آلة وفسطاط، وعتاد، ومركوب؛ ثم انطلقوا نحو تلمسان؛ في رحلة شاقة؛ عبر المسلك الجنوبي؛ فاصطدموا بحي من سويد بن زغبة - أولياء المرينيين - جنوب تلمسان؛ فاشتبكوا معهم؛ وهزموهم، وقتلوا عثمان ابن شيخهم ونزمار. وفي هذه الأثناء وصلهم خبر وفاة أبي عنان.

والغريب هنا؛ أن أبا عنان؛ سقط في معظم أخطاء والده أبي الحسن؛ من: اطمئنان لأعراب إفريقيا واستصغار ردود أفعالهم، وسوء تقديره لمحدودية دولته في التوسع بعيداً، والاستهانة بفاعلية بني عبد الواد وشدة عنادهم. لهذا؛ فقد زجّت به أوهامه في أتون الحرب؛ التي جرّت عليه - في الأخير - هزائم وانكسارات؛ خسر فيها كل ما كسبه؛ ومات بكمده في سنة 760هـ/1358م. السنة التي عاد فيها بنو زيان إلى تلمسان؛ حاضرتهم ومستقر ملكهم.

ولما سمع أبو حمو ومن معه من بني عامر ب وفاة أبي عنان؛ هزّهم الفرخ، وازداد تصميمهم على مواصلة زحفهم، وتضاعف أملهم في الدخول إلى تلمسان فاتحين منتصرين. وعليه فقد واصلوا تقدمهم نحو المدينة المذكورة؛ بحيث تمكنوا من الهيمنة على الضاحية المحيطة بتلمسان. عندها؛ سارع الوزير المريني الحسن بن عمر بإرسال مفرزة من الجيش لحماية تلمسان؛ أسند قيادتها إلى سعيد بن موسى العجيسي؛ الذي دخل المدينة؛ أين يتواجد محمد المهدي ابن السلطان أبي عنان الهالك في تلك السنة. ولم يستطع المرينيون مقاومة أبي حمو ومن معه؛ إذ اقتحموا عليهم تلمسان لثمان خلون من ربيع الثاني من سنة 760هـ/1358م؛ فلجأ القائد المريني سعيد بن موسى العجيسي - مع الأمير محمد المهدي بن أبي عنان - إلى مضارب شيخ بني عامر صغير بن عامر؛ فأجارهما؛ وأرسل من يؤمنهما في طريق عودتهما إلى المغرب. وهنا؛ عادت - من جديد - دولة بني عبد الوُد في ثوب قشيب؛ خلال دورها الثالث؛ بإمرة السلطان أبي حمو الثاني

موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن
يغمراسن.

ولكن الوزير الوصي الحسن بن عمر؛ لم
يهضم هزيمة المرينيين، وإجلاتهم من تلمسان؛ لذا
فقد أمر بتجهيز جيش لاستعادة المدينة؛ أسند قيادته
إلى الوزير المريني مسعود رحو بن ماساي؛ الذي
استطاع الدخول إلى المدينة بسهولة؛ نظراً لخروج أبي
حمو - مع أنصاره - منها؛ إذ اعتمد خطة؛ ناور
أعداءه بها؛ بغرض إلحاق الضرر بهم. وبالفعل؛
نجح في ذلك؛ حين ركز هجماته - بعد انسحابه
من تلمسان - على تخوم المغرب؛ وتمركز مع
أنصاره من زغبة والمقل. فانجذب إليه المرينيون؛
طلباً لكسر شوكتهم، والقضاء على أتباعه من
الأعراب. والتقى الجمعان بالقرب من وجدة؛ فانفشع
غبار المعركة عن هزيمة المرينيين؛ فاستباح
معسكرهم واستلحم مقاتلوهم: ((واستأببت مشيختهم،
وأرجلوا عن خيلهم؛ ودخلوا إلى وجدة عراة))¹.

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 629 - 630.

ولما وصل خبر هذه الموقعة الخاسرة إلى بني مريـن بتلمسان؛ قرّروا الخروج منها، والعودة إلى فاس. عندها؛ رجع أبو حمو إلى حاضرة ملكه؛ أين وفد إليه عبد الله بن مسلم الزردالي؛ من بني عبد الواد. ترك خدمة المرينيين في عمل درعة، وانضم إلى ابن عمه أبي حمو.

يبدو أن انضمّان عبد الله بن مسلم الزردالي¹ إلى أبي حمو؛ أخذاً معه أموال الجباية التي استخلصها لحساب الدولة المرينية؛ اتخذها السلطان المريني أبو سالم ذريعة جاهزة لغزو تلمسان².

¹ يعتبر عبد الله بن مسلم الزردالي؛ من مشاهير أبطال بني عبد الواد. كان في خدمة السلطان أبي تاشفين قبل سقوط دولته وهلاكه. ونظراً لكفائته وذيوع ذكره؛ استخدمه أبو الحسن؛ فسدّ به باباً أمنياً بجهات درعة؛ ثم ولّاه أبو عنان عمالة درعة؛ فأخلص لهذا الأخير، وكبح منافسيه؛ من الأسرة المالكة؛ من بينهم أخوه أبو الفضل؛ الذي قبض عليه وسلمه إلى أخيه أبي عنان؛ فقتله. ولما عادت الدولة العبد الوادية في تلمسان، وتولّى أبو سالم - منافس أبي عنان ورفيق أبي الفضل في المنفى - عرش بني مريـن؛ قرّر عبد الله بن مسلم الالتحاق بأبي حمو موسى؛ بعداً عن شرّ أبي سالم من جهة، وعودة إلى أصله وبني عمّه من جهة أخرى: ((وداخل أولاد حسين - أمراء المعقل - في النجاة به إلى تلمسان؛ فأجابوه. ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال، وعصبة من العشير، وأولياء العرب؛ فسرّ بمقدمه، وقتلده - لحينه - وزارته، وشدّ به أواخي سلطانه، وفوض إليه تدبير ملكه؛ فاستقام أمره، وجمع القلوب على طاعته؛ وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغربية؛ فأقبلوا إليه، وعكفوا على خدمته. وأقطعهم بمواطن تلمسان، وأخى بينهم وبين زغبة؛ فعلا كعبه، واستفحل أمره، واستقامت رياسته)). العبر، مج: 7، ص: 259 - 260.

² العبر، مج: 7، ص: 260 - 645 - 646.

كما أشار يحيى بن خلدون وصاحب زهر البستان إلى قضية ثانية؛ جعلها أبو سالم نريعة أخرى لغزو تلمسان؛ وهي قضية الأسرى المرينيين لدى الدولة الزيانية؛ إذ طلب من أبي حمو تسريحهم؛ فاشتراط هذا الأخير إطلاق سراح بني عبد الواد بفاس؛ مقابل ما لديه من أسرى بني مرين¹. فلم يقبل بشرطه؛ وجهاز جيشه لغزو تلمسان؛ بغرض استعادتها لمملكته. وعلى هذا؛ بادر من فوره سنة 761هـ/1359م إلى التقدم نحوها بجرّ خلفه قبائل المغرب الأقصى.

ولما سمع أبو حمو بخروجه قاصداً حربته؛ وأدرك أن قوته لا تعادل قوة المرينيين؛ قرّر اختيار الطريقة المثلى لمحاربته، واختيار الميدان الذي يحاربه فيه. لذا فقد بادر إلى الخروج من تلمسان مسطحاً معه كل قواته؛ من: قبيله، ومن أنصاره أعراب المعقل وزغبة؛ ثم اتجه نحو الصحراء؛ ولكنه تحول - بمناورة - نحو تخوم المغرب - بعد دخول أبي سالم إلى تلمسان - فاكتسح البلاد، واستلحم العباد، ونهب من المال كل طارف وتلاد، وانتسف

¹ أنظر بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 147.

الزراع والحصاد¹. فلَمَّا وصل خبر المفسدة لأبي سالم، خاف عاقبة الأمر؛ فقرّر العودة لبلاده؛ فخرج من تلمسان بعد البقاء بها خمسة أيام لا غير؛ ولكنه أحدث أمراً - نكاية في أبي حمو - وذلك؛ أنه استثمر وجود الأمير أبي زيان محمد بن عثمان ابن السلطان الزياني أبي تاشفين المدعو بالقبي في ركابه؛ فنصّبته من قبله على تلمسان؛ وخرج عائداً إلى المغرب؛ غير أن هذا الأمير الزياني؛ هرب من المدينة؛ عند سماعه بتقدم أبي حمو إليها؛ فلجأ إلى أحياء توجيين، ومن وُجد من بني مرين شرق تلمسان؛ ثم انتهى أمره بالعودة إلى فاس.

وهكذا؛ عاد أبو حمو الثاني إلى حاضرة ملكه - بعد أربعين يوماً من خروجه منها² - محفوفاً بهالة من البهجة بالانتصار؛ فاستثمرها في شحذ العزائم، وحفز الهمم لمواصلة قطف ثمار النصر؛ فخرج نحو الشرق؛ يلاحق الأمير أبا زيان القبي أينما حلّ؛ فنازل أبو حمو أولاً جبل واتشريس

¹ ((ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان؛ خلفوهم إلى المغرب؛ فنزلوا وطاط، وبلاد ملوية، وكرسيف؛ وحطموا زروعها، وانتسفوا أقاتها، وخربوا عمرانها)). العبر، مج: 7، ص ص: 260 - 261.

² بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 181.

معقل بني توجين؛ أين يتواجد ذلك الأمير. ولمّا هرب هذا الأخير إلى المغرب الأقصى؛ واصل أبو حمو تمهيد الجهات الشرقية؛ حيث استعاد: مليانة، والبطحاء، ولمدية، والجزائر.

وعندما تأكد أبو سالم من عدم جدوى حركة الأمير الزياني محمد القبي؛ وتيقن من تغلب أبي حمو على الأعمال الشرقية، ونجاحه في طرد المرينيين من معظم أعمالها؛ أمر بتتقيف أبي زيان القبي في تاوريرت؛ وأوعز إلى ونزمار شيخ سويد؛ بأن يتوسط في الصلح بينه وبين أبي حمو. وتم هذا في سنة 762هـ/1360م؛ حين ترأس وفد المصالحة الأمير أبو تشفين بن أبي حمو؛ فعقد مع أبي سالم صلحاً؛ هدأ من أوار الخصومة بين الطرفين؛ ووضعت أوزار الحرب؛ لبعض الوقت¹. وفي هذه السنة بالذات؛ هلك السلطان المريني مقتولاً؛ جراء انتفاضة أحدثها وزيره عمر بن عبد الله؛ الذي استبد بالدولة، ونصب أحد أبناء أبي الحسن المدعو تاشفين؛ ثم تلاه بآخرين.

¹ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 196. العبر، مج: 7، ص: 264.

ويبدو أن المرينيين؛ لم يستوعبوا ما جرى لهم في تلمسان؛ ولم يثتهم فشل أبي زيان القبي في الحفاظ على المدينة، والتصدي لأبي حمو؛ لذا؛ فقد استجابوا لنصيحة شيخ سويد؛ ونزمار بن عريف؛ بخصوص تسريح ذلك الأمير مرة ثانية وتمكينه من استعادة ملكه في تلمسان. خاصة وأن مستجدات ظهرت في الساحة؛ إذ نشب خلاف بين السلطان أبي حمو، وحليفه أحمد بن رحو؛ شيخ أولاد حسين (من المعقل). فكانت فرصة اغتتمها الوزير المريني عمر بن عبد الله؛ فعمل بنصيحة شيخ سويد؛ وأرسل من جديد - سنة 765هـ/1363م - الأمير أبا زيان محمد القبي حفيد أبي تاشفين. فالتحق ببعض أحياء المعقل في نواحي ملوية؛ فناصروه، وشكّوا أزره؛ ربما بإيعاز من المرينيين. كما حامت الشكوك حول شيخ بني عامر؛ خالد بن عامر؛ في تورطه بمداخلتهم؛ فتنبه لذلك أبو حمو؛ فقبض عليه، وأودعه المطبق. ثم بعث مفرزة من المقاتلين؛ بقيادة وزيره عبد الله بن مسلم إلى الجهة التي يجتمع فيها أعداؤه؛ فلحق بهم واستلحم رجالهم، وشكّتهم قبل أن يصلوا إلى تلمسان. بل طاردهم

عند انسحابهم، ومسح الأرض خلفهم في فرارهم؛ حتى
أوصلهم إلى المسيلة شرقاً. ولم يثن الوزير عبد
الله بن مسلم عن مطارتهم سوى مرضه وإصابته
بوباء الطاعون؛ الذي عاود فظهر في هذه السنة
(765هـ)؛ فتولى عندئذ ولده بإيعازته إلى تلمسان؛
ولكنه توفي أثناء الطريق؛ فواصلوا سيرهم إلى
تلمسان؛ أين دفنوه بحضور السلطان أبي حمو.

وكان حجم خسارة أبي حمو مهولاً جراء مهلك
عبد الله بن مسلم؛ الذي تكفل بمهمة الحرب؛
فأراحه، وعزز أمن الدولة. وقد تجلت الحاجة إليه
بعد موته مباشرة؛ حيث مُني أبو حمو بهزائم
عديدة¹؛ لم يشهدها في وجود وزيره المرحوم. كان

¹ من بينها الهزيمة التي لحقت به بعد دفن عبد الله بن مسلم: ((وخرج
السلطان أبو حمو لمدافعة عدوه - وقت مهلك عبد الله في عضده - ولما
نتهى إلى البطحاء، وعسكر بها؛ ناجزته جموع السلطان أبي زيان
[القبلي] الحرب، وأظلت راياته على المعسكر؛ فدخلهم العرب؛ وانفضوا،
وأعجلهم الأمر عن أفئدتهم، وأزودتهم؛ فتركوها وانفضوا؛ وتسئل أبو
حمو يبغى النجاة إلى تلمسان... وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه؛ إلى
أن نازلوا بتلمسان أياماً. وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة؛ وأسف
زغبة استبداد المعقل عليهم، وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم؛
فاغتنمها أبو حمو؛ وأطلق أميرهم خالد بن عامر من محبسه؛ وأخذ
عليه الموائق من الله؛ ليخذلن الناس عنه ما استطاع، وليرجعن بقومه
عن طاعة أبي زيان [القبلي]، وليفرقن جموعه. فوفى له بذلك، ونفس
المنخني. وتفرقت أحزابهم، ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني
مريـن)). العبر، مج: 7، ص ص: 265 - 266.

أبو سالم - قبل وفاته، وإثر فشل أبي زيان القبي في التصدي لأبي حمو - كان قد استعان أيضاً بأمر آخر من بني زيان؛ ذلك الأمير الآخر؛ هو أبو زيان محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان (عم أبي حمو) ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن. جهزه أبو سالم بالآلة، وما يلزمه لانتزاع الملك من ابن عمه؛ فخرج نحو تلمسان؛ ولكنه توقف في تازي؛ حينما أدركه الخبر بمهلك السلطان أبي سالم. وبقي أبو زيان على حاله؛ في خضم الفتنة التي اشتعلت في فاس بين المتحكمين في البلاط، والطامعين في الاستبداد والانفراد بالدولة. وبالمقابل؛ اتضح أن أبا حمو حرّض - هو الآخر - أحد الأمراء المرينيين؛ المنافسين لأبي سالم؛ اسم ذلك الأمير هو عبد الحليم بن أبي علي بن أبي الحسن. جهزه أبو حمو، ومهد له سبل الزحف نحو فاس لامتلاكها. وبالمقابل؛ طلب منه كبح ابن عمه أبي زيان. فقبض عليه عندما دخل تازي وألزمه الاعتقال؛ ثم نقله معه إلى سجلماسة. ولكنه استغل اعتراض بني حسين المعقليين لعبد الحليم؛ فاهتبل انشغال حراسه بالموقعة؛ فامتطى حصاناً، حمله راكضاً إلى حل

بني حسين؛ الذين أجاروه؛ إلى أن اتصل بخالد بن عامر - شيخ بني عامر - الذي ساعد علاقه بالسلطان أبي حمو. فوافق على نصرته، والوقوف معه ضد السلطان. غير أنهم فوجئوا بمفرزة جرّدها أبو حمو لصدهم؛ فهزموهم، وشتتوا شملهم بعيداً عن تلمسان. وبادر هذا السلطان إلى بذل بعض المال لخالد بن عامر؛ مقابل إقصاء أبي زيان محمد إلى موطن رياح؛ ففعل؛ وأوصله إلى بلاد النواودة؛ أين أقام بينهم.

المهم؛ أن الصراع استمرّ - سنوات وسنوات - بين السلطان أبي حمو وابن عمه أبي زيان؛ ونظراً لكون هذا المجال لا يسمح بالتوسع أكثر مما ذكر؛ فإن الحديث سيقصر على نشاط المرينيين، وغزوهم لتلمسان. لهذا وجبت العودة إلى موت أبي سالم؛ دون أن يحقق حلمه في الحفاظ على حاضرة المغرب الأوسط. فبعد موت هذا السلطان المريني؛ تفجرت الخصومات والمؤامرات في البلاط المريني؛ وفي عمالات الدولة؛ فانشغلوا جميعهم بما يحدث في ديار المغرب الأقصى، وتناسوا بعض الشيء تلمسان وسلطانها؛ الأمر الذي مكّن هذا الأخير من التوسع شرقاً، وتمهيد تلك الديار، وإخضاع قبائل: توجين،

ومغراوة ومليكنش وأعراب حصين وغيرهم. كما
تفرغ لحرب ابن عمه أبي زيان في خبر طويل.
ولما استقرت الأحوال بالمغرب الأقصى؛
واستعادت رتبة السلطان سطوتها - في عهد السلطان
أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن - بحث هذا
الأخير عن ذريعة؛ يرفعها في وجه أبي حمو؛ فلم
يجد سوى قضية أحياء المعقل الذين انضموا لبني
عبد الواد باختيارهم. فطلب السلطان المريني عبد
العزيز من أبي حمو التخلي عن تلك الأحياء،
وإجبارهم على العودة للدولة المرينية¹. وبهذا؛ ينجلي
السلوك شبه الغريزي لدي سلاطين بني مرين. فهم
- بكاملهم - يستعملون الأسلوب نفسه في التحرش
بدولة بني عبد الواد؛ لتحقيق حلمهم في التوسع
شرقاً. ولم يقتصر هذه المرة على فرد أو عدد
من الأفراد؛ المطلوب طردهم من تلمسان؛ إذ تطور
المطلب إلى طرد قبائل بكاملها.. يضاف إلى ذلك؛

¹ ((وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز. كان فيما
اشتراط عليه؛ التجافي عن قبول المعقل؛ عرب وطنه؛ لما فيه من
الاستكثار بهم عليه. وأبى عليهم أبو حمو؛ منها لاستظهاره بهم على
زغبة؛ من أهل وطنه وغيرهم. وكثرت التلاحى في ذلك؛ وأحفظ السلطان
[عبد العزيز]، وهم بالنهوض إليهم سنة سبعين [وسماعة]؛ وأقصر لما
أخذ بحجرته من خلاف عامر [بن محمد الهنتاتي]]). العبر، مج: 7، ص
ص: 681 - 682. أنظر أيضاً بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 440. 443.

نزوح بعض الأحياء من سويد؛ فارين من أبي
حمو؛ فأضحت كل هذه القضايا؛ ذرائع في يد
السلطان المريني لَوَّحَ بها، وضرب طبول الحرب
من أجلها حسب زعمهم. في سنة 771هـ/1369م؛
نهض السلطان أبو فارس عبد العزيز بجيش يغطي
الفضاء قاصداً فتح تلمسان. ولما سمع أبو حمو
بأمره، واستطلع شأنه؛ أدرك ألا قبل له بقوة هذا
الجيش العرمم¹. لذا؛ فقد اختار الخروج من
المدينة؛ ومطاوله المرينيين ومناوشتهم - كعادته -
غير أن مطاردة الجيش المريني له؛ أفسد خطته؛ إذ
فرضوا عليه التنقل من مكان إلى آخر هروباً
واتقاء. ولما يئس من صمود أتباعه وثباتهم، وعلم
بتحول حلفائه من الأعراب إلى صف بني مرين²؛
قرّر الإصحار في أعماق الصحراء؛ حيث استقر
لبعض الوقت في تيفورارين؛ إحدى قصور توات.

¹ وصفه يحيى بن خلدون بقوله: ((ونهض [أي عبد العزيز] ميمما
تلمسان بالجراد المنتشر، والبحر الطامي، أو السحاب المسخر بين
السماء والأرض)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 444.

² يقول عبد الرحمن بن خلدون؛ أن السلطان عبد العزيز كلفه بالاتصال
بقبيلة رياح؛ لكي يحثهم على ترك مناصرة أبي حمو، والتحول إلى صف
بني المرينيين، ومعاونتهم على مطاردة السلطان الزياني؛ فيقول:
((وجمعت رياحا على طاعة السلطان، ونكبت بهم عن صريخ أبي حمو؛
فنكبو عنه)). العبر، مج: 7، ص: 684.

فاعتكف في دار خصصها له أهل تلك البلاد:
((وعرفوا لمنصبه الملوكي قدره؛ وباعوا له من
عند آخرهم بالخلافة؛ ثم تشاحوا في إنزاله،
وخبروه؛ فارتضى قصر أولاد آدم؛ من الشط الشمالي؛
فأفرجوا له عنه، وأكرموا به مثواه))¹.

وكعادة الأعراب؛ لقد استأعوا من استقواء
السلطان عبد العزيز عليهم؛ بجيوشه الضاربة؛ حين
قرّر سلبهم ما كان أبو حمو قد أقطعهم إياه من
الأراضي. وها هو المشهد نفسه - الذي حدث لأبي
الحسن وابنه أبي عنان - يتكرر. ولكنه وقع - هذه
المرة - في ظروف مختلفة تماماً؛ لأن السلطان
المريني لم يتوغل بعيداً؛ أكثر مما تتحمله دولته؛ إذ
بقي محاطاً بحماته ورجاله الأوفياء. ومع ذلك؛ فقد
تحرك بعض الأعراب، واتصلوا بأبي حمو في
تيفورارين²؛ الأمر الذي حفز السلطان المريني

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 472.

² ((فسخطوا أحواله، ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور؛ ينالون به ما
أملوه... وأزمع رحو بن منصور بن يعقوب - أمير الخراج من عبيد الله
إحدى بطون المعقل - الخروج على السلطان. ولما خرج العرب إلى
مشاريتهم؛ لحق بأبي حمو، وأحياء بني عامر، وكاثرهم، وقادهم إلى
العيث في الأوطان؛ وأجلبوا على ممالك السلطان، ونزلوا وجدة في رجب
من سنة اثنتين وسبعين [وسعمائة]. وصمد نحوهم العساكر من تلمسان؛
فأجفلوا، وعادوا إلى البطحاء واكتسحوا أوطانها. ونهض إليهم الوزير في

على متابعته في تلك الجهات النائية؛ فأخذ في تجهيز جيش من الأعراب الموالين له؛ للزحف نحو تيفورارين؛ إلا أن الموت سبقه؛ وقضى على حلمه. وكان مهلك السلطان عبد العزيز المفاجئ ضربة قاصمة للمشروع التوسعي المريني؛ إذ سارع وزيره أبو بكر بن غازي بن الكاس إلى حمل ولد السلطان ذي الخمس سنين؛ والدخول به إلى فاس؛ بغرض تقوية انتهاز الفرصة من قبل المتنافسين من أبناء الأسرة المالكة.

وانتهز أحد المقربين من السلطان أبي حمو؛ واسمة عطية بن موسى فرصة الارتباك الحاصل بين بني مرين؛ فوثب ثائراً على الوضع، واستولى على البلد، ورفع الدعاء لأبي حمو على المنابر. وبادرت جماعة من أولاد يغمور من المعقل، وأولاد شيقر بن عامر إلى الإسراع بالبشائر إلى أبي حمو. وكانت عودة السلطان الزياني ودخوله - من جديد - إلى حاضرتة تلمسان في جمادى من سنة

العساكر؛ ففروا أمامه، وأتبع آثارهم إلى أن أصبحوا... ولما كانت سنة ثلاث وسبعين [وسعمائة]. واستمال السلطان رحو بن منصور عن أبي حمو؛ وبذل له مالا، وأقطعه ما أحب من الضواحي؛ وفعل ذلك بسائرهم، وملأ صدورهم ترغيباً)). العبر، مج: 7، ص ص: 686 - 687.

774هـ/1372م. بينما انشغل المرينيون بقضاياهم الداخلية وصراعاتهم على سدة الحكم. ولما صعد إلى سدة الحكم في فاس أبو العباس أحمد بن أبي سالم؛ كانت له وقائع مع منافسيه في الأسرة المالكة، ومع بعض الأعراب من بني حسين من المعقل؛ فقام بتخريب ديارهم بسجلماسة؛ واقتحام مراکش على منافسيه. فاتحقوا بأبي حمو مستصرخين إياه؛ فلبى دعوتهم وبعث ابنه أبا تاشفين معهم، ولحق بهم فيما بعد. فشنوا حملات دمار وإفساد على بلاد المغرب الأقصى؛ فوصلوا إلى نواحي مكناسة؛ حيث عاثوا فيها. ولما علم أبو العباس بذلك - بينما كان في مراکش - قرّر الانتقام. وكانت هذه المرة الأولى التي يحتل فيها ملك مريني تلمسان؛ بدافع مقنع، وحافز مشروع. لأن أبا حمو هنا؛ اعتدى على بني مريـن بدون مسوغ معقول؛ اللهم إلا ما قيل عن الحفاظ على عهوده مع أعراب المعقل. أولئك الأعراب الذين سارعوا إلى الانضمام إلى حملة أبي العباس المريـني في زحفه على تلمسان، وضد من كان يعتقد أنه حليفهم.

المهم؛ أن السلطان المريني قد تمكن من احتلال تلمسان؛ بعد أن خرج منها أبو حمو مع أنصاره؛ وذلك في سنة 786هـ/1384م. ولكنه اضطر إلى الخروج منها - كعادة أسلافه؛ حينما علم أن أحد منافسيه؛ بعثه ابن الأحمر ليستولي على عرش فاس. غير أن السلطان المريني استجاب لتحريض شيخ بني سويد؛ الذي حثه على تدمير قصور تلمسان الرائعة، نسف بساكنيها الياقة وأسوارها الشاهقة؛ فتركها قاعاً صفصفاً.¹ ولما عاد أبو حمو إلى تلمسان؛ فجع لما رآه من دمار وخراب. فانكب على إصلاح ما أمكن، وتقويم ما سقط وانهدم. وقد أحدث بوقوفه إلى جانب أولئك الأعراب شرخاً أفسد كل ما بني في السنين الطوال. ولم تنته حكاية المرينيين والزيايين عند هذا الحد. وإنما خمدت جذوة خلافتهما بسبب اشتعال نار الفتنة الأسرية في الجهتين: المرينية والزياينة. ويكمن الرجوع إلى ما جرى من أحداث في الأسرة الزياينة؛ ضمن الفصل المخصص لأبي حمو موسى الثاني.

¹ أنظر ذلك في الفصل المخصص لأبي حمو موسى الثاني.

أما الطرف المريني فقد تصارع الأبناء والأقارب؛ بتحريض من الوزراء المستبدين، وتشجيع سلطان غرناطة ابن الأحمر. ولم تتبع القضية الزيانية في البلاط المريني من جديد؛ إلا بعد أن لجأ إليهم أبو تاشفين بن أبي حمو؛ جراء فشله في الاستيلاء على الحكم بتلمسان. وكان - آنئذ - على رأس الدولة المرينية؛ أبو العباس أحمد؛ الذي اضطر إلى ترك تلمسان؛ والحق بفاس؛ التي سقطت في يد ابن عمه موسى بن أبي عنان. فأضحى مصيره في معتقل ابن الأحمر بجمراء غرناطة. وتمخض الصراع الطويل في البلاط المريني عن عودة أبي العباس مرة أخرى إلى سدة الحكم بمساندة ابن الأحمر أيضاً. وذلك في عام 789هـ/1387م. ولما لجأ إليه أبو تاشفين في عام 790هـ/1388م؛ تريت قليلاً ريثما يلهي ابن الأحمر الذي طلب إرسال الأمير الزياني إليه. وعندما تهيأ له ما يهدف إليه، وحينما هدأت مطالب سلطان غرناطة؛ بعثه لاسترداد تلمسان؛ وأرسل معه ابنه ووزيره في سنة 791هـ/1388م؛ في جيش مجهز أفضل تجهير؛ فحالفهم الحظ؛ إذ كبا - في المعركة - بأبي حمو فرسه؛ فسقط؛ وكانت نهايته قصعاً بالرماح. ومنئذ أضحت

تلمسان - أيام أبي تاشفين - مجرد ولاية تابعة للمرينيين؛ أقيم على رأسها هذا الأمير الذي أبى ولاية والده عليه؛ فسقط في ولاية أعداء أبيه: ((وخيم الوزير، وعساكر بني مرين بظاهر البلد؛ حتى دفع إليهم ما شرطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب. وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس أحمد صاحب المغرب، ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة؛ كما اشترط على نفسه))¹. ومع هذا؛ لم يهنأ أبو تاشفين طويلاً؛ بولايته؛ إذ خرج عليه أخوه أبو زيان محمد؛ والي الجزائر؛ بعد أن وفدت عليه أعراب بني عامر سنة 792هـ/1389م؛ طالبين منه الرحيل معهم لاستعادة ملك أبيه. والغريب في أمر أولئك الأعراب؛ أنهم بمجرد أن سرب إليهم أبو تاشفين المال؛ انفضوا عن أبي زيان الذي جاء معهم وبدعوة منهم. ولما فشل حصاره لتلمسان لجأ أبو زيان إلى أحياء المعقل؛ فوققوا معه؛ وضربوا حصاراً على تلمسان؛ فاستجد أبو تاشفين بسلطان المغرب؛ الذي أنجده

¹ العبر، مع: 7، ص: 757.

بجيش؛ فك الحصار عنه. ولما أدرك أبو زيان؛ استحالة التغلب على أخيه بواسطة الأعراب؛ اتجه إلى عدو أبيه، وحليف أخيه؛ أبي العباس سلطان المرينيين: ((فوفد عليه صرخاً؛ فتلقاه بالكرمة وبر مقدمه، ووعدته النصر على عدوه؛ وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين))¹. هذه هي السياسة المتبعة لدى معظم الحكومات في تلك المنطقة؛ الغرض منها التضريب بين أبناء الأسرة الحاكمة؛ إذ يحتفظ بأحدهم على سبيل الردع التهديد. وبالفعل؛ فقد جاءت اللحظة التي غضب حينها أبو العباس على أبي تاشفين. فجهز جيشاً في سنة 795هـ/1392م وبعثه مع أبي زيان محمد للإطاحة بأبي تاشفين. غير أنهم عادوا من حيث أتوا؛ بعد أن وصلهم خبر وفاته بمرض مزمن. وكان وزير أبي تاشفين المدعو أحمد بن العز؛ قد نصب صبيّاً من أبناء أبي تاشفين؛ ينتمي إليه بخوالة. نصبه ملكاً على تلمسان. ولما سمع بذلك يوسف بن الزاوية؛ الذي كان والياً على الجزائر؛ انتقظ ساخطاً وجهز جيشاً؛ دخل به تلمسان وقتل الصبي ابن أخيه، وكافله

¹ العبر، مج: 7، ص: 757.

الوزير أحمد بن العز. وكانت هذه الفعلة؛ مبعث خروج السلطان أبي العباس بنفسه لغزو تلمسان، والقضاء على يوسف بن الزاوية. ولما وصل إلى تازي؛ حيث توقف الجيش المرافق لأبي زيان محمد. أمر بإرجاع هذا الأخير إلى فاس. ثم أمر ابنه أبو فارس بمواصلة تنفيذ مهمته، وامتلاك تلمسان. فتم له ذلك؛ إذ دخل أبو فارس إلى تلمسان؛ وأقام الدعوة لأبيه فيها. ثم بعث العساكر إلى مليانة والجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية فأمتكوها. وكعادة المرينيين؛ في سرعة عودتهم إلى فاس عندما تقع حادثة جليلة. ففي هذه المرة؛ وصل خبر وفاة أبي العباس لابنه وهو في تلمسان؛ وذلك في سنة 796هـ/1393م؛ فبادر إلى العودة والالتحاق بفاس؛ لتولي السلطنة بدل أبيه. وبعد تربّعه على العرش؛ أسند ولاية تلمسان إلى أبي زيان محمد المقيم عندهم؛ على أن يتكفل بالدعوة له. فرحل من فوره إليها؛ وتولى مهامه. غير أن أخاه يوسف بن الزاوية؛ وقف له بالمرصاد؛ فعبأ بعض الأعراب وزحف بهم نحو تلمسان؛ ولكن أبا زيان سرب إليهم المال الوفير؛ فتخلّوا عن أخيه؛ بل قبضوا عليه،

وسلموه إلى أنصار أبي زيان؛ فقتلوه؛ بعد أن حاول بعض أنصاره إنقاذه منهم.

ويبدو أن الخلاف دب بين الأمير أبي زيان محمد، والبلاط المريني؛ حيث جهز له سلطان فاس أبو سعيد جيشاً مرفوقاً بأخيه الأمير أبي محمد عبد الله بن أبي حمو؛ فافتحموا عليه البلد وقتلوه؛ ثم نصبوا أخاه بدلاً منه. وذلك في سنة 801هـ/1398م. وبقي أخوه هذا في الحكم إلى سنة 804هـ/1401م؛ إلى أن سخطه سلطان فاس عثمان المريني؛ فبعث جيشاً بقيادة زيان بن عمر بن علي الوطاسي؛ فاعتقله، ووضع بدلاً منه أخوه أبو عبد الله محمد الشهير بابن خولة؛ فبقي إلى يوم وفاته سنة 813هـ/1411م. وتولى الحكم بعده ابنه عبد الرحمن بن محمد بن خولة. ولكنه خلع بواسطة عمه السعيد بن أبي حمو؛ الذي أفلت من قبضة المرينيين، وعاد إلى تلمسان؛ أين قبض على عبد الرحمن وجلس على سرير الحكم في سنة 814هـ/1411م. ولكنه لم يهنأ بالحكم أكثر من خمسة أشهر؛ حيث زحف إليه من فاس أخوه أبو مالك عبد الواحد؛ فاحتل تلمسان؛ وتربع على عرشها.

وعلى يد أبي مالك هذا انتهى النفوذ المريني في المنطقة تماماً؛ فلم يتجراً ملوك بني مرين بعدها على غزو تلمسان. بل أضحت فاس مهددة من قبل بني زيان وبني حفص: ((حتى صار فيه نسيج وحده؛ لتناهي حزمه وجده. أخذ لأهل بيته من الغرب بثأرهم، وغزا ملوكهم في عقر دارهم، ووجه إليها جيوشاً جاسوا خلالها، وتفيأوا ظلالها؛ فاشتدت بذلك صولته، وامتدت له دولته))¹.

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدرر)، ص: 236.

الأشراف السعديون

في تلمسان

ولم تصدر بعد ذلك من مغرب الأقصى أي محاولة للزحف نحو تلمسان؛ إلا بعد 143 سنة؛ أي في سنة 957هـ/1550م؛ وفي عهد الأشراف السعديين بالضبط. وواضح أن جرثومة التوسع المرينية تحركت داخل السعديين. فقام سلطانهم محمد المهدي السعدي بغزو تلمسان؛ فدخلها في سنة 957هـ؛ بدون مقاومة تذكر. والسبب هو أنه جاهر بعدائه للأتراك العثمانيين؛ ثم أعلن عن نيته التوجه للجزائر؛ قصد احتلالها وطرد الأتراك منها. ولهذا؛ فقد قوبل بحفاوة وترحاب من قبل التلمسانيين. ولكنه لم ينجح في هدفه؛ إذ اصطدم بالجيش التركي بقيادة حسن باشا؛ بالقرب من مستغانم؛ وعلى ضفاف وادي المالح بالتحديد؛ فحلت الهزيمة الشنعاء بالجيش المغربي؛ الذي تراجع مقلولاً؛ في انكسار شديد نحو حدود المغرب الأقصى. وبانهزام المغاربة؛ أكمل حسن باشا زحفه نحو تلمسان؛ أين دخلها بسلام

في السنة المذكورة؛ فقام بإزاحة السلطان أبي زيان
أحمد، ثم نصب بدلاً منه مولاي الحسن الزيتي.
ولم تكن هذه الخطوة من السعديين؛ آخر
الخطوات - لملوك المغرب الأقصى - الهادفة لاحتلال
تلمسان؛ بل جاءتهم فرصة أخرى؛ بعد احتلال
فرنسا لمدينة الجزائر. حينها؛ استجبت نخبة من
علماء وأشرف المغرب الأوسط بسلطان المغرب
الأقصى مولاي عبد الرحمن بن هشام؛ الذي بادر
بإرسال ابن عمه المدعو علي بن سليمان بمفرزة
من الجيش؛ استقر بتلمسان؛ ثم بعث جيشه شرقاً
حتى وصل إلى مليانة. ولكن سفير فرنسا بطنجة؛
رفع سيف التهديد والوعيد على رأس ملك المغرب؛
وطلب منه سحب ابن عمه من المغرب الأوسط؛
وإلا فالحرب هي الفاصل والحكم. فخاف ملك المغرب
العاقبة؛ وسحب جيشه وابن عمه؛ بعد أن أقام
بتلمسان سنة أشهر تقريباً.

الأتراك العثمانيون

في تلمسان:

أول اتصال للأتراك بتلمسان كان في سنة 923هـ/1517م؛ حينما وفد بعض التلمسانيين على عروج؛ مستصرخين إياه ضد الملك أبي حمو الثالث؛ الذي تحالف مع الإسبانيين، وخلع السلطان الشرعي أبا زيان. فدخل عروج تلمسان في السنة المذكورة؛ ونَصَّب أبا زيان بدلاً من أبي حمو الثالث؛ الذي فرَّ إلى وهران في حماية الإسبانيين. ومن ثم؛ أضحى زيارات الأتراك لتلمسان تحدث تباعاً؛ كلما حدث خلاف بين السلاطين؛ أو بسبب اتصالاتهم بالإسبانيين. ويتم في كل مرة خلع سلطان، وتنصيب آخر؛ إلى أن قرر صالح راييس إزالة الدولة من تلمسان نهائياً؛ فقام بخلع آخر سلاطينها مولاي الحسن في سنة 962هـ/1554م.

وجملة القول؛ فقد همش الأتراك تلمسان نهائياً؛ وجعلوها في مرتبة أقل مما أنصفها به التاريخ. إذ أنهم اتخذوا من مدينة الجزائر عاصمة للمغرب

الأوسط. وحتى عندما اقتضى الحال إقامة عواصم
جهوية؛ فقد تجنبوا تلمسان تماماً؛ إذ فضلوا عليها
مدناً أخرى في الجهة الغربية.

الامير عبد القادر

في تلمسان

دخلت تلمسان في طاعة الأمير عبد القادر طوعاً واختياراً؛ بعد انسحاب ابن عم ملك المغرب الأقصى¹؛ خوفاً من فرنسا؛ وبعد أن أجمع أهل المغرب الأوسط على بيعه الأمير عبد القادر؛ الذي خلف والده محيي الدين. وعليه؛ فقد تولى قيادة حضرة تلمسان في وقته رجل يدعى ابن نونة؛ ولكنه تطاول بعد فترة إلى الاستبداد بالمدينة؛ فنقض العهد مع الأمير عبد القادر؛ الذي بعث إليه من يعظه ويثنيه عن غيّه؛ ولكنه تمادى في عصيانه؛ بل خرج في قوة من وسط المدينة لمحاربة الأمير. وكان في مدينة تلمسان فئتان متخاصمتان؛ الأولى جماعة ابن نونة هذا؛ والثانية فئة من أنصاف الأتراك يسمون "الكول أوغلي" (الكراغلة)؛ يقودهم رجل يسمى ابن عودة. انتهز هذا الأخير؛ خروج

¹ ملك المغرب الأقصى في هذه الفترة هو مولاي عبد الرحمن بن هشام؛ الذي حكم من 1238هـ/1822م إلى 1276هـ/1859م.

خصمه ابن نونة من تلمسان؛ فأعلن تبعيته للأمير عبد القادر؛ وشنّها حرباً على أتباع ابن نونة؛ فاكتمسح دور من كان يتبعه وأعلنها حرباً عليهم؛ فنهبت أملاكهم، وشردت أهاليهم؛ ثم خرج إلى ابن نونه في ظاهر البلد؛ فألحق به وبأتباعه العصاة هزيمة منكرة؛ هرب إثرها ابن نونة إلى العباد؛ للإحتماء بضريح أبي مدين شعوب. ولما دخل الأمير عبد القادر تلمسان؛ توجه إلى العباد؛ فلقي ابن نونة متعلقاً بأستار ضريح أبي مدين؛ لائذاً به. وبما أن الأمير عبد القادر كان من الصوفية أتباع أبي مدين القادريين؛ فقد عفا عنه؛ بل أقره في قيادته؛ وأصلح بين الفئتين المتخاصمتين. ثم بقي في تلمسان فترة معتبرة؛ إلى أن أصلح أحوالها، ومهد نواحيها. ثم قرّر العودة إلى معسكر. وكان ذلك في ربيع الأول من سنة 1249هـ/1833م.¹

ثم عاد الأمير عبد القادر إلى تلمسان بغرض تمهيد نواحيها؛ وإخضاع القبائل المتمردة في تلك الجهات. وذلك في ربيع الأول من سنة 1250هـ/1834م. وبقي في قلعة المشور مدة حتى

¹ أنظر هذه التفاصيل في كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص: 169 - 170.

استكمل ما جاء إليه من تقليم أظافر العصاة، وتأهيل من أطاع واستسلم، وتنظيم الإدارة المحلية في تلمسان وأحوازها: ((وفي أثناء ذلك؛ ظهر قصور من قائد طائفة "الكول أوغلان"؛ فعزله، وولى مصطفى باي بن الباي "المقلج")¹. ولما انتهى الأمير من تمهيد النواحي الغربية؛ عاد من تلمسان إلى معسكر؛ بعد أن ولى على مقاطعة الغرب "محمد البوحميدي الولهاسي". وبقيت تلمسان في طاعة الأمير؛ إلى أن تحول عنه المدعو مصطفى بن إسماعيل؛ و"الكول أوغلي"، ونقضوا عهدهم معه؛ وانضم إليهما عرب أكاد؛ الذين وفدوا ونزلوا بالمنصورة. فناجزهم الأمير القتال؛ فانهزموا؛ ودخلوا تلمسان؛ متحصنين بقلعة المشور. فأقام الأمير عبد القادر عليها حصاراً شديداً. فما كان من ابن إسماعيل إلا الاستجداء بابن أخيه المدعو المازري حليف الفرنسيين بوهران؛ طالباً عونهم. فقام بالدور أحسن قيام.

¹ تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص: 216.

ولما علم الأمير عبد القادر بنيّة الماريشال كلوزال غزو تلمسان؛ استعدّ للقاء، وحشد ما أمكن من عدة وعدد. وكان اللقاء حامياً في شوال من سنة 1252هـ/1837م؛ ولم يتخلص كلوزال من برائث تلك المعركة في ظاهر تلمسان إلا بعد أن خرج منها المخالفون أتباع مصطفى بن إسماعيل و"الكول أوغلي"؛ فقاتلوا الأمير في صف الماريشال الفرنسي؛ وأدخلوه المدينة معهم؛ فاحتلها بجيوشه: ((ولما تمكن كلوزال من زمام البلد؛ وضع ضريبة باهظة على أوليائه؛ مثل: الكول أوغلي، وابن إسماعيل، ومن معه من قومه؛ ليسد نفقات تلك الحملة؛ التي ارتكبها من غير إذن دولته. فانتدب لجمعها رئيس الكول أوغلي "مصطفى بن المقلش"؛ فألح فيها على قومه؛ حتى أن الرجل يبيع ملبوسه وفراشه، ويؤدي ما افترض عليه؛ وأن المرأة تبيع مصاغها وثيابها، وتدفع عن نفسها ما افترضوه عليها. وشاع خبر هذه الضريبة في النواحي؛ فنفرت قلوب الناس من الفرنسيين؛ لسوء تصرفاتهم))¹.

¹ تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص: 255.

وعاد المرشال الفرنسي إلى وهران؛ في رحلة شاقة، ومكلفة. وكان قد ترك في تلمسان حامية بقيادة ضابط يسمى "كافنيك". بينما ردد الأمير عبد القادر - الذي استقر بندرومة - عمليات الحصار على تلمسان؛ حتى أنهك العدو، وضيق عليه سبل الاتصال والامداد. وظلّ الحال هكذا؛ إلى أن عقد صلحاً مع الجنرال بيجو؛ حيث كان خروج الفرنسيين من تلمسان أحد بنوده. وبالفعل؛ أمر الجنرال بيجو قائد الحامية الفرنسية كافنيك؛ بالتخلي عن تلمسان، والخروج منها. بعد أن يسلمها إلى نائب الأمير عبد القادر. وبهذا دخل إلى المدينة خليفة الأمير السيد محمد البوحميدي؛ وذلك في ربيع الأول من عام 1254هـ/1838م.

وبدخول الأمير عبد القادر إلى تلمسان؛ قال
 هذه القصيدة تمجيداً لهذه المدينة الأزلية الرائعة:
 إِلَى الصَّوْنِ مَدَّتْ تِلْمَسَانُ يَدَهَا
 وَلَبَّتْ فَهَذَا حُسْنُ صَوْتِ نِدَاهَا
 وَقَدْ رَفَعَتْ عَنْهَا الْإِزَارَ فَلُجَّ بِهِ
 وَبَرَّدَ فُؤَاداً مِنْ زُلَالِ نِدَاهَا
 وَذَا رَوْضُ خَلَّتْهَا تَقْتَقُ نَوْرُهُ
 فَلَا تَرْضُ مِنْ زَاهِي الرِّيَاضِ عِدَاهَا
 وَيَا طَالَمَا صَانَتْ نِقَابَ جَمَالِهَا
 عُدَاةَ وَهُمْ بَيْنَ الْأَنَامِ عِدَاهَا
 وَكَمْ رَأَيْتُ رَامَ الْجَمَالِ الَّذِي تَرَى
 فَأُورِدَهُ مِنْهَا لَحْظُهَا وَمُدَاهَا
 وَحَاوَلَ لَثَمَ الْخَالِ مِنْ وَرْدِ خَدِّهَا
 فَضَنَّتْ بِمَا يَبْغِي وَشَطَّ مَدَاهَا
 وَكَمْ خَاطِبٍ لَمْ يُذْغِ كُفَّأَ لَهَا وَلَمْ
 يَسْتَمْ طَرْفَا مِنْ وَشْيِ ذَيْلِ رِدَاهَا
 وَآخِرَ لَمْ يَعْقِدْ عَلَيْهَا بِعِصْمَةٍ
 وَمَا مَسَّهَا مَسّاً أَبَانَ رِضَاهَا
 وَلَمْ تَسْمَحِ الْعَذْرَا إِلَيْهِ بِعِطْفَةٍ
 وَلَمْ يَنْمَكَّنْ مِنْ جَمِيلِ سَنَاهَا

وَسَدَّتْ نِطَاقَ الصَّدِّ؛ صَوْنًا لِحُسْنِهَا
فَلَمْ يَتَمَتَّعْ مِنْ لَذِذِ لَمَاهَا
وَأُبْدَتْ لَهُ مَكْرًا وَصَدًّا وَجَفْوَةً
وَسَدَّتْ عَلَيْهِ مَا نَوَى بِنَوَاهَا
وَخَابَتْ ظُنُونُ الْمُفْسِدِينَ بِسَغِيهِمْ
وَلَمْ تَتَلِ الْأَعْدَاءُ هُنَاكَ مُنَاهَا
قَدْ انْفَصَمَتْ مِنْ يَلْمَسَانِ حِبَالُهَا
وَبَانَتْ وَآلَتْ لَا يَحُلُّ عُرَاهَا
سِوَى صَاحِبِ الْإِقْدَامِ فِي الرَّأْيِ وَالْوَعَى
وَذِي الْغَيْرَةِ الْحَامِي حُمَاةَ حِمَاهَا
وَلَمَّا عَلِمَتْ الصَّدِّقُ مِنْهَا بِأَنَّهَا
أَنَالَتَنِي الْكُرْسِيَّ وَخَزَتْ عُلَاهَا
وَلَمْ أَعْلَمْ فِي الْقَطْرِ غَيْرِي كَافِلًا
وَلَا عَارِفًا فِي حَقِّهَا وَبَيَاهَا
فَبَادَرْتُ حَزْمًا وَانْتِصَارًا بِهِمَّتِي
وَأْمَهَرْتُهَا حُبًّا شِفَاءً دَوَاهَا
فَكُنْتُ لَهَا بَعْلًا وَكَانَتْ حَلِيلَتِي
وَعَرْسِي وَمَلَكِي نَاشِرًا لِلْوَاهَا
وَوَسَّحْتُهَا ثَوْبًا مِنَ الْعِزِّ رَافِلًا
فَقَامَتْ بِإِعْجَابٍ تَجْرُ رِدَاهَا

وَنَادَتْ أَعْبَدَ الْقَادِرِ الْمُنْقِذِ الَّذِي
فَزِدْنِي أَيَا عِزِّ الْجَزَائِرِ جَاهَا
وَوَهْرَانِ وَالْمَرْسَاءُ كُلًّا بِمَنْ حَوَتْ
غَدَتْ حَائِزَاتٍ مِنْ حِمَاكَ مَنَاهَا

ظلت تلمسان في يد الأمير عبد القادر؛ إلى أن هاجمها الجنرال بيجو؛ إثر نكثه للمعاهدة التي كانت بينه وبين الأمير؛ وذلك في 15 ذي الحجة من سنة 1257هـ/1842م. لقد كان الجيش الفرنسي من القوة؛ بحيث تتعذر أي محاولة لمواجهته في تلك اللحظة؛ لذا؛ فقد أمر الأمير السكان بإخلاء المدينة. ثم رحل إلى نواحي ندرومة؛ يترصد فيها الفرصة المناسبة للإنقضاض على الفرنسيين. ولمّا تعذر عليه ذلك؛ اتجه لجهات أخرى برسم الجهاد، والدفاع عن المغرب الأوسط؛ المهدد بكامله من قبل الفرنسيين. وبذلك بقيت تلمسان في يد الفرنسيين إلى يوم الإستقلال العظيم 1662م.

فهرس الموضوعات

(جزء 1)

5مقدمة
10نقد المصادر والمراجع
43تلمسان عبر التاريخ
44تلمسان في العصور القديمة
44الفترة ما قبل الرومان
46مدينة بوماريا Pomarium Pomaria
48في العصر الروماني
50في العصر الوندالي
52في العصر البيزنطي
55العصر الإسلامي الأول
57أغادير أو أفادير أو أجادير AGADIR....
59معنى كلمة تلمسان
67تلمسان.. تاج زناتة
67في عهد أبي قررة اليفرنى
70إمارة الحسنين فى تلمسان
71بنو سليمان فى تلمسان
74تلمسان بين الفاطميين والأمويين

- 74 — بنو يفرن ومغراوة في تلمسان.....
- 77 — ظهور مكناسة واستقبالها.....
- 86 — بنو يفرن من جديد في تلمسان.....
- 90 — تلكاة الصنهاجية وزناة.....
- 95 — تلمسان حاضرة بني يعلى المغراويين.....
- 112 — العمران والثقافة.....
- 115 — عهد المرابطين.....
- 115 — تكرارت.. تلمسان المرابطية.....
- 123 — العمران والثقافة.....
- 131 — العصر الموحي.....
- 136 — العمران والثقافة.....
- 149 — بنو عبد الواد.....
- 149 — التدرج نحو الملك.....
- 155 — قيام دولة بني زيان.....
- 159 — الدور الأول.....
- 161 — دولة يغمراسن بن زيان.....
- 164 — الغزو الحفصي لتلمسان.....
- 164 — مقتل الخليفة السعيد.....
- 165 — الإنجازات العمرانية والثقافية.....
- 174 — دولة عثمان بن يغمراسن.....
- 175 — حصار تلمسان الأعظم.....

182	— العمران والثقافة.....
186	— دولة أبي زيان محمد بن عثمان.....
190	— العمران والثقافة.....
191	— دولة أبي حمو موسى الأول.....
198	— العمران والثقافة.....
204	— دولة أبي تاشفين عبد الرحمن الأول.....
206	— العمران والثقافة.....
215	— الدور الثاني.....
215	— دولة الأخوين: أبي سعيد وأبي ثابت.....
223	— غزو أبي عنان لتلمسان.....
225	— العمران والثقافة.....
229	— الدور الثالث.....
229	— دولة أبي حمو موسى الثاني.....
300	— العمران والثقافة.....
307	— الدور الرابع.....
309	— ملوك الدور الرابع.....
348	— العمران والثقافة.....
357	— الحفصيون وتلمسان.....
375	— بنو مرين وتلمسان.....
434	— الأشراف السعديون في تلمسان.....
436	— الأتراك العثمانيون في تلمسان.....

- الأمير عبد القادر في تلمسان..... 438
- فهرس الموضوعات (ج: 1)..... 446

الناشيء

بوزياني الدراجي

أدباء وشعراء من نلمسان

الجزء الثاني



دار
الأمل
للدراسات

الناشيء

أدياب وشعراء من تلمسان

بوزيانج الدراج

الجزء الثاني

(نسخة منقحة)



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار نظاهرة
تلمسن عاصمة لثقافة الإسلامية

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف السحولة (16305) الجزائر
هاتف وفاكس: 0 21 35 78 29

الإيداع القانوني: 1193 – 2011
ردمك: 2 – 46 – 858 – 9961 – 978 ISBN



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المائة السادسة هجرية

من 500 – 600 هـ

جابر بن أحمد

ابن إبراهيم القرشي الحسني النلمساني،
(أبو الحسن)¹.

فقيه ومحدث ولغوي وأديب. عبر إلى الأندلس؛ حيث سمع من بعض علماء إشبيلية. ومن شيوخه: أبو بكر بن خير وأبو القاسم السهيلي وأبو محمد ابن عبيد الله وأبو نجبة بن يحيى وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن وأبو الوليد يزيد بن بقي وأبو الحسن بن مؤمن وأبو موسى عمران بن موسى التليدي وآخرون.

وكان جابر هذا؛ من الرواة العارفين بتراجم الرجال والأنساب. ومن مصنفاته: مجموع لشيوخ ابن خير؛ وضعه على حروف المعجم. ومن تلاميذه: أبو زيد عبد الرحمن الفازلي وآخرون. له إلمام واسع باللغة والأدب؛ ورواية الحديث الشريف. قال عنه ابن الأبار: ((ورأيت السماع منه

¹¹ له ترجمة في التكملة لكتاب الصلة. ومعجم أعلام الجزائر. وذكر في نفح الطيب.

في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة [578]؛¹ الموافق لعام 1182م. وهي السنة التي ثبت أنه كان حياً فيها. وقال التجيبي في معجم مشيخته: ((جابر بن أحمد بن إبراهيم القرشي المسفر من أصحابي الآخذين عني بتلمسان عند قبومي من البلاد المشرقية؛ كتب عني كثيراً. وكان زكياً، جليلاً، نبيلاً؛ صاحب أدب ولغة؛ محباً في الحديث وتحصيله؛ وكانت له إجازات من مشايخ من أهل الحديث، وعناية بفنّه وطرقه))². وتوفي بتلمسان في تاريخ مجهول. وذكرت ترجمته هنا؛ لتسهيل البحث عن عينات من أعماله الأدبية مستقبلاً.

وذكر المقرئ في نفح الطيب؛ اسم أبي الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله الخزرجي؛ وثمة من يكتبه بأبي الفضل. وهو من أصول قرطبية. سمع بموطنه عن أبي محمد بن عتاب وآخرين. ثم قال أنه رحل إلى الحج. وهو شاعر وأديب³. كما أشار المقرئ إليه في موضع آخر من نفح الطيب؛ حين ترجم لأبي زيد الفزاري؛ فقال: ((سمع من أبي

¹ التكملة لكتاب الصلة، ج: 1، ص: 249.

² نفسه، ص: 249.

³ أنظر نفح الطيب، ج: 2، ص: 506.

الوليد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقّي القاضي،
ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي؛
وهو آخر من حدّث عنه؛ ومن أبي عبد الله
التجيبّي كثيراً؛ وهو أول من سمع عنه في حياة
الحافظ أبي الطاهر السلفي؛ إذ قدم عليهم تلمسان¹.

¹ نفح الطيب، ج: 4، ص: 468.

حسن بن إبراهيم

ابن عبد الله بن أبي سهل التلمساني المعروف
بابن ركون، (أبو علي)¹

ولد بتلمسان في شعبان من سنة 484هـ/1091م وتوفي في ليلة عيد الفطر سنة 553هـ/1158م. أديب فذ، وكاتب بارع؛ انتقل إلى فاس؛ أين تولى الكتابة لأبي موسى عيسى بن يوسف الملجوم الفاسي². ثم عبر إلى الأندلس؛ حيث سمع في قرطبة عن أبي محمد بن عتاب؛ وبمرسية عن أبي علي بن سكرة، وأبي محمد بن أبي جعفر. قال عنه ابن الأبار أنه ألف كتاباً في الرأي³. لم يُعثر - للأسف - على نصوص مما كتبه؛ مع أنه مشهود له بفن الكتابة والضلوع في ميادين الأدب. والغرض من إثباته هنا؛ هو جعله منطلقاً وعلامة؛ تساعد الباحثين على

¹ له ترجمة في التكملة لكتاب الصلة. وفي جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس.

² هو أبو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي الفاسي المعروف بابن الملجوم؛ ولد في سنة 476هـ/1083م وتوفي عام 543 هـ/1148م.

³ التكملة لكتاب الصلة، ج: 1، ص ص: 269 - 270.

استكمال هذا العمل؛ بالبحث عن عيّنات ونصوص
خطّها هذا الأديب الكاتب.

الحسن بن عبد الله ابن حسن الكاتب الأشيري، (ابو علي)¹

فقيه، وأديب، وشاعر، ولغوي؛ له دراية بالقراءات. ولد في تلمسان؛ ترعرع ونما فيها؛ أين زاول تعليمه الأولي وأخذ عن الأستاذ أبي علي الخراز. ثم عبر إلى الأندلس قبل عام 540هـ/1145م. فسمع عن علماء المرية؛ كابن يسعون وآخرين. قال عنه ابن الأبار: ((كان من أهل العلم بالقراءات، واللغة، والغريب؛ يغلب عليه الأدب. وكان ناظماً ناثراً))². توفي في سنة 569هـ/1174م. ومن مؤلفاته: مجموع في غريب الموطأ، ونظم مختصر في التاريخ؛ ومن شعره؛ هذه القصيدة التي وصف فيها معركة حربية وقعت في السبباط بين المسلمين والنصارى في سنة 569هـ/1174م.

¹ له ترجمة في التكملة لكتاب الصلة، وياقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ومعجم أعلام الجزائر. وفي كتاب المن بالإمامة على المستضعفين؛ هامش الصفحة: 524. وكتاب أخبار المهدي بن تومرت؛ هامش صفحة: 105.

² التكملة لكتاب الصلة، ج: 1، ص: 270.

دارت رحا الهلكات بالسبطاط
وسطا بها ريب الزمان الساطي
وأهين فيها الشرك أي إهانة
شفعت كربه هياطها بمياط
بأن لم تقم فيها قيامة ملكهم
فلقد رأوا جملا من الأشراف
وأصارها وطء الجياد هزيمة
سوداء معتبر العين الواطي
لولا خروج الفصل عن معتاده
لم يمهلوا مقدار سم خياط
ولعائنة من أخذهم بننوبهم
ما عاين النعمان في ساباط¹
جيش من العرب الذين إذا غزو
كوا الأعاجم في الطلا بملاط
قوم إذا شمخ العناد بأنفهم
وضعوا السيوف مواضع الأسواط
من كل زمر ينثني في درعه
فكأنه في السرب من دمياط

¹ يشير - هنا - إلى ما حدث للنعمان بن المنذر في ساباط المدائن؛ حين أمر كسرى الفرس أبرويز؛ بإعدامه.

ومن أوصافه الملقبة؛ لِمَا كان يجري في بلاط
ال خليفة عبد المؤمن بن علي؛ وصفه لشبل أسد
ينام عند رجلي الخليفة. كما وصف طائراً ناطقاً
بالكلام؛ فقال:

أَنس الشُّبْلُ ابْتِهَاجاً بِالْأَسَدِ
وَرَأَى شَيْئَهُ أَبْيَهُ فَقَصَدَ
وَدَعَا الطَّائِرُ بِالنَّصْرِ لَكُمْ
فَقَضَى حَقَّكُمْ لَمَّا وَرَدَ¹
أَنطَقَ الْخَالِقُ مَخْلُوقَاتِهِ
بِالشَّهَادَاتِ فَكُلُّ قَدْ شَهِدَ
إِنَّكَ الْقَائِمُ بِالأَمْرِ لَهُ
بَعْدَ مَا طَالَ عَلَى النَّاسِ الأَمَدُ



¹ في الحلل الموشية: ((لَمَّا وَقَدْ)). وجاء هذا الشطر في زاد المسافر
هكذا: ((وبأيدي فكل قَدْ شَهِد)).

خطاب بن أحمد

ابن عدي بن خطاب بن خليفة بن عبد الله
ابن الوليد بن أبي الوليد التلمساني. (أبو الحسن)¹

شاعر ولغوي وفقه من تلمسان. أورد خبره صاحب معجم البلدان؛ وذكر أنه رحل إلى بغداد ودخلها في سنة 520هـ/1126م.² كما قال عنه أبو سعد السمعاني³ في كتابه الأنساب: ((أبو الحسين خطاب بن أحمد بن خطاب بن خليفة بن عبد الله بن وليد بن أبي الوليد التلمساني؛ كان شاعراً جيد الشعر؛ ورد بغداد في حدود سنة عشرين وخمسائة))⁴. كما ذكره العماد الأصفهاني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر؛ وقال فيه: ((كان

¹ له ترجمة في خريدة القصر وجريدة العصر، والأنساب للسمعاني، ومعجم البلدان. ومعجم أعلام الجزائر. وبقا السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان.

² معجم البلدان، ج: 2، ص: 44.

³ هو الإمام الحافظ المحدث أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي الشافعي. ولد في مرو عام 506هـ/1112م؛ وتوفي بها في سنة 562هـ/1166م.

⁴ الأنساب، ج: 1، ص: 474 - 475.

إماماً فاضلاً؛ وله شعر حسن، ويد بأسطة في
اللغة)). وأورد من شعره هذه المقطوعة¹:

حرامٌ على نفسي لذاة عيشها
إلى أن تقرّ النفس عيناً بما تَدري
بِعلم يُزَكِّي النفسَ عندَ ملكها
وتؤنسها أنواره في دُجَى القبرِ
ويُحشِرُ إن أضحَى الأنامُ بظللها
لِواءِ علومٍ يومَ يُدعى إلى الحشرِ
فإن نلت ما أمّلتَه أُنِتَ فائزاً
وإلا ففسي قد أقمت بها عُذري

¹ خريدة القصر وجريدة العصر، ج: 2، ص: 341.

شعيب بن الحسين

الانصاري الأندلسي نزيل تلمسان المالكي¹؛

(أبو مدين)².

فقيه ومحدث صوفي؛ يسمى في عرف الصوفية بالقطب والغوث وإمام السالكين، وسيد العارفين، وقدوة السالكين، وشيخ مشائخ الإسلام، وإمام العباد والزهاد، والنجم الساطع من أرض المغرب، النقيّ النقيّ بلا منازع. وكان أبو مدين - أيضاً - أديباً فذاً، وشاعراً رقيقاً واسع الخيال. ولد في أحد الحصون الرابضة - على بعد ثمانية أميال - في الشمال الشرقي من مدينة إشبيلية بالأندلس؛ اسمه

¹ ترجمة أبي مدين موجودة في كثير من المصادر والمراجع؛ أهمها: التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، وصلة الصلة لأحمد بن الزبير، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي، وكتاب التشوف إلى رجال التصوف ليوسف بن يحيى القادلي، وأنس الفقير وعزّ الحقيّر لابن قنفذ القسنطيني، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى ابن خلدون، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم، وعنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس أحمد الغبريني، ودائرة المعارف الإسلامية.. وإلى آخره من التصنيفات القديمة

والحديث التي تتناول خبر أبي مدين ومذهبه الصوفي.

² استمد لقب أبي مدين من اسم ولده مدين المدفون بمصر.

"حصن قطنية" Cantalona¹؛ وفي قول من حصن "منتوحب"² القريب من إشبيلية. اختلفت الأقوال حول تاريخ ميلاد أبي مدين شعيب؛ فمنها من تجعل ميلاده في سنة 510هـ/1116م؛ ومنها من تجعله في سنة 514هـ/1120م، وثالثة تقول أنه ولد في سنة 509هـ/1115م. أما وفاته ف وقعت في عام 594هـ/1197م بعد أن جاوز عمره الثمانين سنة. ولكن صاحب كتاب المواد الغوثية يقول أنه توفي في سنة 573هـ/1177م³. وتقول بعض الروايات⁴؛ أنه لم يحظ بفرص التعلم في صغره⁵؛ بسبب فقره ويئمه؛ إذ زُجَّ به في مشاق العمل، والسعي وراء فرص الرزق منذ نعومة أظفاره؛ حيث أجبره إخوته - في طفولته،

¹ كتاب التشوف إلى رجال التصوف، ص: 319. بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 125. دائرة المعارف الإسلامية، ج: 1، ص: 399. وكتاب العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، ص: 16.

² عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بيجاية، ص: 22.

³ المواد الغوثية، ج: 1، ص: 17.

⁴ أورد هذا الخبر صاحب التشوف؛ نقلاً عن محمد بن إبراهيم الأنصاري؛ الذي يقول أن أبا مدين حكى له هذه القصة. ص: 320. وقد نقلها عن التادلي ابن قنفذ في أنس الفقير، ص: 11.

⁵ ذكر ألفرد بل - في دائرة المعارف الإسلامية - أنه حفظ القرآن في صغره؛ كعادة الصغار آنذاك. (ج: 1، ص: 399).

وبعد موت والده - على رعي مواشيهم¹. فكان يخرج بها إلى مرعاها كل يوم. ولكنه أخذ يضيق ذرعاً بعمله هذا؛ إذ انتابته رغبة ملحة للتعلم والعبادة؛ حين لفت نظره ما يجري حوله؛ عندما يرى بعضهم يصلي، وبعضهم الآخر يقرأ ويكتب؛ فحَنَّ إلى تعلم القراءة والكتابة، كما تشوق لمعرفة مبادئ الصلاة بقراءة القرآن. ولكن إخوته نهَوْهُ عن التفكير بذلك؛ وأمروه بمواصلة عمله في رعي مواشيهم. فلم يرتدع، ولم يَنْثَن عن سعيه من أجل تحقيق أمنيته في تعلم القراءة والكتابة. ولم يجد مخرجاً أمامه سوى الهروب، والنجاة بنفسه، والخلاص من مهنة الرعي؛ فبادر من فوره إلى الفرار؛ ولكن أحد إخوته لحق به وأعادته إلى عمله عنوة. ولكن أبامدين أعاد الكرة مرة ثانية؛ فلحق به أخ آخر؛ حاملاً سيفه؛ فهَدَّده به؛ فلم يستجب؛ فصمَّ نحوه، وضربه بذلك السيف؛ فتلقاه أبو مدين بعصاه؛ وهي عبارة عن عود كان يحمله بيده؛ فانكسر السَّيْف أطرافاً، وتناثر قطعاً أمامه؛ فاندھش

¹ ويخالف هذا الرأي ألفرد بال؛ إذ يرى أنه تعلم في حادثته صناعة النسيج. ثم تطلع إلى المزيد من العلم؛ فهاجر إلى فاس لتحقيق أمنيته. (دائرة المعارف الإسلامية، ج: 1، ص: 399).

أخوه، وخاف العاقبة؛ فقال له: "يا أخي إذهب حيث شئت".¹ ونُقِلَ عن أبي مدين قوله: ((فسرت حتى وصلت البحر؛ ووجدت خيمة فيها ناس؛ فخرج منها شيخ؛ فسألني عن أمري؛ فأخبرته؛ فجلست عنده؛ فإذا جعت رمى بخيط في طرفه مسمار؛ فأخذ حوتاً؛ ويطعمه لي مشوياً ثم قال لي: "انصرف إلى الحاضرة حتى تتعلم العلم؛ فإن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم" (...)).² فعلمت نصيحة الرجل في ذهن أبي مدين؛ فعبّر إلى العدو المغربية³؛ ودخل مدينة طنجة؛ ومنها انتقل إلى سبتة؛ أين اشتغل بعض الوقت لدى بعض الصيادين. وبعد ذلك توجه صوب مدينة مراكش مع شلّة من الأندلسيين؛ الذين سجلوه في سلك الجندية معهم؛ مستغلين طبيته؛ فأكلوا مستحقّاته المادية، وسرقوا ما خصّص له من راتب

¹ التشوف"، ص: 320. و"أنس الفقير"، ص: 12.

² كتاب أنس الفقير وزاد الحقير، ص: 12. وورد بصيغة أخرى في التشوف، ص ص: 321 - 322.

³ لم يعرف - حتى الآن - بالتحديد؛ التاريخ الذي عبر فيه أبو مدين إلى الضفة المغربية. وقد استنتج ألفرد بل تاريخ الفترة التي وصل فيها أبو مدين إلى فاس؛ حيث تكهن أن تكون في عهد بداية الموحدين؛ لأن تلك الفترة شهدت ازدهاراً في تعلم علوم الحديث. وهو مطلوب أبي مدين؛ فانصب اهتمامه عليه. (دائرة المعارف الإسلامية، ج: 1، ص: 400).

وعطاء¹. فتألم لذلك، وتركهم؛ وتوجه نحو فاس؛
بعد أن قيل له أنها أصلح مكان لتلقي العلم في
المغرب.

وهكذا؛ وجد أبو مدين ضالته في تلك المدينة
العريقة؛ فواضب على حلقات التعليم بمسجد
القرويين الشهير؛ ذي الجذور الممتدة إلى عصر
إدريس الثاني. وفي جنبات ذلك المسجد؛ تعلم أبو
مدين المبادئ الأولى في الوضوء والصلاة؛ كما تعلم
القراءة والكتابة؛ وشرع في حفظ القرآن الكريم.
ففتحت - حينها - أمامه مجالات العلوم المختلفة،
واكتسب حظوة الجلوس في حلقات العلم المتنوعة،
والتزود بمعينه الذي لا ينضب. وفي هذا يقول
بعضهم على لسان أبي مدين شعيب: ((وكنيت أجلس
إلى خلق الفقهاء والمذكرين؛ فلا أثبت على شيء
من كلامهم؛ إلى أن جلست إلى شيخ؛ ثبت كلامه في
قلبي؛ فسألت: من هو؟ ف قيل لي: "أبو الحسن بن
حرزهم (أو حرازهم"² - حرازم عند العامة)]. فأخبرته

¹ التشوف، ص: 320.

² هو الشيخ الفقيه المحدث أبو الحسن علي إسماعيل بن محمد بن عبد
الله بن حرزهم. ولد بفاس في تاريخ غير معروف، وتوفي بها في أواخر
شعبان من عام 559هـ/1163م. إمام في الحديث، وعلم التصوف؛ ومن
الرجال الصالحين. له ترجمة في كتاب التشوف. وأخرى في أنس الفقير.

أني لا أحفظ إلا ما سمعته منه خاصة. فقال لي: "هؤلاء يتكلمون بأطراف ألسنتهم؛ فلا يجاوز كلامهم الأذان؛ وقصدت الله بكلامي؛ فيخرج من القلب، ويدخل إلى القلب" (...)¹. قرأ أبو مدين على شيخه ابن حرزهم كتابي: الرعاية لحقوق الله للإمام المحاسبي، وإحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي²؛ كما تلقى عنه دروساً أخرى في علوم الشريعة والحديث؛ فأتقن تلك العلوم وتفوق فيها. ثم اهتم - بشكل أوسع - بسنن الترميذي؛ فاستوعب الجامع الصحيح بسنده؛ الذي تلقاه عن الشيخ الحافظ المحدث أبي الحسن علي بن غالب القرشي³. ولا بد أن يكون أبو مدين شغيب قد درس الأدب، واطلع على دواوينه؛ كما يفهم أنه قرأ كثيراً من أشعار العرب الغزلية الرقيقة؛ لأن ما صاغه من أشعار في الحبّ الإلهي يوحي بذلك؛ ولا يمكنه

¹ كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"، ص: 320. ورد هذا الخبر أيضاً - بتصرف - في زاد الفقير، ص: 12.

² هو حجة الإسلام الفقيه الصوفي أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسبوري الشافعي مذهباً، الأشعري عقيدة. ولد في سنة 450هـ/1058م، وتوفي في عام 505هـ/1111م.

³ فقيه وحافظ للحديث الشريف. توفي في الرابع من جمادى الآخرة من سنة 568هـ/1172م. وكان عمره 83 سنة. ورد ذكره في التشوف.

صياغة ما جادت به قريحته بتلك البراعة
والسلاسة؛ دون زائد أو ذخيرة مكتتزة في صدره.

وشرح أبو مدين شعيب الطريقة التي كان
يحفظ بها كل ما يتلقاه من علوم؛ فقال: ((وكنيت
إذا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالى؛ ومعه
حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم؛ فتعت بهما وانصرفت إلى خارج فاس؛
لموضع خال من الناس؛ اتخذته مأوى للعمل بما
يفتح عليّ من الآية والحديث؛ ثم أعود إلى فاس
فأخذ آية وحديثاً وأخرج إلى خلوتي... فكانت إذا
جلست بذلك المكان؛ تلقّيني غزالة؛ تأوي إليّ
وتشمني من قرني إلى قدمي؛ وتؤنسني)).¹ وذكر
على لسان أبي مدين أيضاً سرّاً لأول لقاء له مع
شيخه الصوفي أبي يعزى: ((ثم سمعت الناس
يتحدثون بكرامات أبي يعزى²؛ فذهبت إليه في جماعة

¹ أنس الفقير، ص: 14. أنظر أيضاً التشوف، ص: 322.

² توفي ودفن في جبل إيروجان في غرة شوال من عام 572هـ/1079م؛
عن عمر ناهز المائة سنة. قيل فيه؛ أنه: أبو يعزى يلقب بن ميمون.
وفي قول: بن عبد الله بن ميمون بن عبد الله بن عبد الرحمن الدكالي
الهزميري. له ترجمة في كتاب التشوف للتادلي. وكان أمياً لا يقرأ؛ ولكنه
يتمتع بفطنة وإدراك عجيبين. حتى أنه كان - كما قال أبو مدين: ((يقدم
الرجل للصلاة؛ فإن كان قارئاً مجيداً؛ أقره؛ وإن كان لحناً أخره)).
التشوف، ص: 323.

توجهت لزيارته؛ فلما وصلنا جبل إيروجان، ودخلنا على أبي يَغزَى؛ أقبل على القوم بوني. فلما أحضر الطعام؛ منعني من الأكل؛ فقعدت في ركن الدار؛ فكلما أحضر الطعام وقمت إليه؛ انتهرني. فأقمت على تلك الحالة ثلاثة أيام؛ وقد أجهدني الجوع، ونالني النل. فلما انقضت ثلاثة أيام؛ قام أبو يَغزَى من مكانه؛ فأتيت إلى ذلك المكان، ومرغت وجهي فيه؛ فلما رفعت رأسي؛ نظرت؛ فلم أر شيئاً، وصرت أعمى؛ فبقيت أبكي طول ليلتي. فلما أصبحت؛ استدعاني، وقال لي: "اقترب يا أدلسي؛ فدنوت منه؛ فمسح بيده على عيني؛ فأبصرت؛ ثم مسح بيده على صدري؛ وقال للحاضرين: "هذا يكون له شأن عظيم؛" أو قال كلاماً هذا معناه...))¹.

وبدو أن تلك اللحظات كانت هي مبعث تعلق أبي مدين بشيخه الصوفي أبي يَغزَى؛ فأضحى كثير التردد عليه في جبل إيروجان؛ أين شَغَف به، وأبهرت كراماته الصارخة؛ فاستسلم له طوعاً، ووضع إرادته بين يديه؛ في سبيل كسب التربية

¹ كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"، ص: 320 - 321. وكتاب أنس الفقير، ص: 15. أنظر أيضاً كتاب نفح الطيب، ج: 7، ص: 137 - 138.

الطاهرة منه، وسعيًا لما يرجوه من تهذيب ومجاهدة
لنفس. فحظي - نتيجة لذلك - بالفتح القويم، والسّر
العظيم. فنقل عنه أنه قال عن شيخه أبي يعزى:
((طالعت أخبار الأولياء من عهد أويس القرني¹ إلى
زماننا؛ فما رأيت أعجب من أبي يعزى. وطالعت
كتب التذكير؛ فما رأيت كالإحياء للغزالي²)).

وبعد الوصول إلى عتبة التصوف، واكتساب
أسرار معرفة الباطن؛ استأذن شيخه أبا يعزى في
الرحلة نحو الديار المقدسة، والحج إلى بيت الله
الحرام. ولمّا أذن له؛ خرج في رحلة التوفيق
والبركة؛ الرحلة التي قيل أنها فتحت له الحجب
المانعة والأبواب السرية نحو دروب الخلاص.

¹ هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني؛ من أهل اليمن. ومن
كبار التابعين؛ أدرك عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولكنه لم
يحظ برؤيته. قال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله يقول: ((خير
التابعين رجل يقال له أويس بن عامر))؛ كان به بياض؛ فدعا الله؛
فأذهب عنه؛ إلا موضع الدرهم في سترته. حديث صحيح. وقيل أنه
استشهد في موقعة صفين سنة 37هـ/658م.

² أنس الفقير وعز الحقيق، ص: 21. وفي معناه انظر: عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ص: 23.

وفي مكة المكرمة¹ - كما قيل - وبعرفات بالتحديد²؛ قابل أبو مدين شعيب الشيخ الغوث عبد القادر الجيلاني³ صاحب الطريقة الداعية الصيِّت؛ فكان لهذا الشيخ تأثير كبير عليه؛ إذ قيل أنه تناول منه خرقة الزهد والتصوف⁴، وأخذ عنه طريقته، ونقلها إلى بلاد المغرب. وقيل أن أبا مدين - في تلك الأثناء - كان ملازماً لشيخه طوال مقامهما في الديار المباركة؛ حيث تلقى عنه الحديث الشريف بروايات عديدة؛ كما منحه ثقته، وسرَّ

¹ تبين أن معظم المصادر المغربية؛ لم تشر بتوسع إلى رحلة أبي مدين في المشرق. ويبدو أن المعلومات عن مقامه بتلك الديار؛ صادرة عن بعض تلاميذه من الشارقة؛ كأبي العباس المرسي، والشعراني، وبعض المنتسبين للشافعية، وغيرهم. كما أن ولد عبد القادر الجيلاني وخليفته في بغداد أبا بكر عبدالرزاق بن عبد القادر (المتوفي سنة 603هـ/1206م) أشار للقاء أبي مدين مع والده في مكة. وقد نقل عنه هذا القول التاودي؛ في كتابه "قلند الجواهر، ص: 5.

² أنظر كتاب "العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني"، ص ص: 22 - 23. وجاء فيه أن الشيخ محمد أبا بكر المعصوم التلمساني (المولود في سنة 1346هـ/1927م) يرى؛ أن لقاء الشيخ أبي مدين بالشيخ عبد القادر الجيلاني؛ حدث بين سنتي: 551هـ/1156م و 556هـ/1160م. مع أن هذا القول غير مؤثق.

³ هو الشيخ الصوفي الفقيه الحنبلي عبد القادر الكيلاني. ولد بجيلان (أو كيلان) الإيرانية؛ وقيل العراقية؛ بالقرب من المدائن في سنة 470هـ/1077م وتوفي ببغداد في عام 561هـ/1165م واشتهر باسم الجيلاني. وتنسب إليه الطريقة الصوفية المعروفة بالقادرية.

⁴ والخرقة عبارة عن وشاح بسيط، مرقع يلبسه الزهاد والمتصوفة، تواضعاً لله، وبعداً عن طريق الدنيا ومباهجها. ويقال أن الخرقة الأولى تلقاها أبو مدين بفاس من الرجل الصالح أبي عبد الله الدقاق.

أسرارهِ. حتّى أن أبامدين أعلن عن تبعيته للشيخ عبد القادر الجيلاني، وافتخر بصحبته له؛ واعتبره أفضل مشائخه؛ فالدرجة العليا في الطريقة القادرية. وبذلك أضحي أبو مدين شعيب شيخ الطريقة الثاني بعد عبد القادر الجيلاني؛ هذه الطريقة التي تسلسل شيوخها بعده إلى عبد السلام ابن مشيش¹ - تلميذ أبي مدين، والرجل الثالث في تسلسلها - ثم انتقلت المشيخة بعد ابن مشيش إلى أبي الحسن الشاذلي؛ وبعده إلى أبي العباس المرسي² نزيل الإسكندرية.

وكان أبو مدين قد توجه - بعد الحجاز - إلى القدس؛ ثالث الحرمين. وهنا تختلف الأقوال حول أعماله في تلك الديار؛ فمن قائل أنه شارك في حرب الصليبيين، وفقد إحدى يديه في الجهاد؛ ومن أنكر ذلك الخبر؛ إلى جانب صمت الآخرين. أما

¹ هو الشيخ الصوفي عبد السلام بن سليمان بن أبي بكر بن علي العلمي الإدريسي؛ عرف بلقب ابن مشيش. ولد ببني عروس القرية من المرائش في سنة 559هـ/1162م، وتوفي خارج خلوته بشمال المغرب؛

مقتولا بأيدي أتباع مدعي النبوة ابن أبي الطواجين. في عام 626هـ/1228م.

² هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي. ولد بمرسية الأندلسية. في سنة 616هـ/1219م. تلميذ أبي الحسن الشاذلي. أقام بالإسكندرية 43 سنة؛ قضاه في نشر العلم وتهذيب النفوس؛ وتوفي بها في عام 686هـ/1287م؛ ودفن في مقبرة باب البحر.

وجود أبي مدين في القدس في تلك الأثناء، أو في سنة 583هـ/1187م بالتحديد؛ بعد فتح صلاح الدين تلك المدينة؛ ليس ببعيد؛ خاصة وأن جَلَّ الحجاج المغاربة؛ يتوجهون إلى زيارة بيت المقدس؛ بعد خروجهم من المدينة المنورة؛ وأثناء عودتهم إلى الديار المغربية.. وعلى هذا؛ فقد ثبت أن وقفاً باسمه وُجد بهذه المدينة؛ لفائدة أهل المغرب؛ أمر به الفضل بن صلاح الدين الأيوبي. وهو عبارة عن مساكن تُخصَّص للإقامة أو للإيجار؛ ثم خصص بعض المزارع المدرَّة بالمال الضروري لسير الوقف. وجاء في وثائق الوقف أن حائط البراق داخل ضمن الحدّ الشرقي لهذا الوقف؛ المعروف بوقف المغاربة، أو وقف أبي مدين. وتقول المصادر أيضاً أن حفيد أبي مدين قام سنة 720هـ/1320م بإعادة تقييد هذا الوقف شرعاً. وتوجد وثيقة تقييد الوقف المذكور في مكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن، كما توجد نسخة منها أيضاً في مكتبة كلية سانت أونطوني بجامعة إكسفورد. وتقول الوثيقة أن حائط البراق وقف للمغاربة تحت اسم "أوقاف أبي مدين الغوث" وأن هذا الوقف قُيِّد في سنة 666هـ/1268م؛ ثم أعيد تقييده سنة 1004هـ/1595م.

ثم أنشئت بالقدس؛ وفي حي المغاربة بالذات - سنة 730هـ/1320م - زاوية للشيخ أبي مدين شعيب.¹

عاد أبو مدين شعيب من المشرق في تاريخ غير معروف؛ فاستقر ببجاية؛ التي اختارها سكناً وأنساً له؛ فتزوج فيها بجارية حبشية، وانجب منها ابنه مدين؛ فلقب - منذئذ - باسمه؛ وراقت له تلك المدينة الساحلية الرائعة؛ وارتاح للإقامة فيها؛ إذ قال فيها: ((إنها مَعِينَةٌ عَلَى طَلَبِ الْحَلَالِ))². فلزم التدريس بجامع بجاية ومدرستها؛ إلى أن جاوز سنه الثمانين سنة. كان رحمه الله وسطياً في مواقفه وأحكامه؛ لا يغوص في الغلو، ولا يلين إلى درجة التسامح مع الخارجين عن الشرع والسنة النبوية، كما أنه لا يميل إلى التعصب والتصلب والانغلاق. ومن بين ما وقع له من أحداث، وعائشه ومن أحوال مع أصحابه وتلاميذه؛ أن صاحبه أبا علي الصباغ؛ الذي تنسب إليه حالات من المكاشفة؛ قال: ((صليت المغرب مع الشيخ أبي مدين؛ فرأيت - وأنا في الصلاة - ثلاثاً وأربعاً من الحُورِ العينِ يلعبن.

¹ أنظر تفاصيل ذلك، ونص وثيقة وقف أبي مدين؛ المعاد تقييدها في عام 720هـ/1320م في كتاب "العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمسان"؛ لمحمد الطاهر علاوي.

² نفح الطيب، ج: 7، ص: 141.

فَلَمَّا سَلَّمْنَا مِنَ الصَّلَاةِ؛ قُلْتُ لِلشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ مَا رَأَيْتَ؛ فَقَالَ: "وَهَلْ رَأَيْتَهُنَّ؟" قُلْتُ: نَعَمْ؛ قَالَ لِي: "أَعِدْ صَلَاتَكَ؛ فَإِنَّ الْمُصَلِّيَ يَنَاجِي رَبَّهُ، وَأَنْتَ إِثْمَا نَاجَيْتَ الْخُورَ الْعَيْنَ" (...)¹. وَنَقَلَ التَّادَلِي عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الصَّوَّافِ قَوْلَهُ: ((سَمِعْتُ أَبَا مَدِينٍ يَقُولُ: "الْمَلْتَفْتُ لِلْكَرَامَاتِ؛ كَعَابِدِ الْأَوْثَانِ؛ فَإِنَّهُ إِثْمَا يَصَلِّي لِيَرَى كَرَامَةً"))². وَقَالَ يَوْمًا فِي أَحَدِ مَجَالِسِهِ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْطِي الدُّنْيَا كَمَا يَعْطِي الْآخِرَةَ. فَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا؛ فَلْيَذْكُرْهَا؛ لِنَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا))³. وَقَالَ التَّادَلِي أَيْضًا أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ الصَّوَّافِ؛ قَالَ: ((لَمَّا احْتَضَرَ أَبُو مَدِينٍ؛ اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ أَوْصِيْنِي؛ فَتَلَّيْتُ بِرَبِّيبِهِ؛ وَقُلْتُ لَهُ: "هَذَا فَلَانُ؛ أَوْصِهِ". فَقَالَ لِي: "سُبْحَانَ اللَّهِ؛ وَهَلْ كَانَ عَمْرِي مَعَكُمْ كُلَّهُ إِلَّا وَصِيَّةً؟ وَأَيُّ وَصِيَّةٍ أَبْلُغُ مِنْ مَشَاهِدَةِ الْحَالِ" (...))⁴. وَلَمَّا رَأَى - يَوْمًا - صَاحِبَهُ الشَّيْخَ الْوَرَعَ الزَّاهِدَ أَبَا زَكَرِيَاءَ يَحْيَى بْنَ أَبِي عَلِيٍّ

¹ أنس الفقير وعز الحقيير، ص: 38. وهذه الحكاية أوردها التادلي؛ نقلاً عن أبي علي حسن بن محمد الغافقي؛ الذي قال أن أبا مدين هو الذي رواها له. أنظر التشوف، ص: 326.

² التشوف إلى رجال التصوف، ص: 323.

³ أنس الفقير وعز الحقيير، ص: 22.

⁴ التشوف إلى رجال التصوف، ص: 323 - 324.

الزواوي يكثر من تخويف النس بالنار، وعقاب الله؛ قال له: ((لا تُقْطِ النَّاسَ؛ وَذَكَرَهُمْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ تَعَالَى))¹. وثمة روايات لا تحصى تؤكد وسطيته وحكمته.

وقد احتل وجوده ببجاية قمة عطائه، وأفضل أوقات عمله، وأوفر إنجازاته العلمية والأدبية. فهناك ذاع صيته، وتكاثف الخلق حول حلقاته العلمية والوعظية؛ فوفدت إليه وفود الطلبة والمريدين، وتخرج على يديه جمع كبير من التلاميذ؛ قيل أن عددهم وصل حدّ الألف تلميذ²؛ لذلك لقب بشيخ مشائخ الإسلام، وإمام العباد والزهاد. وعلى هذا؛ فقد انتشرت دعوته في الأقطار كلها، وعمّ ذكره في الآفاق؛ حتى أخاف أهل السلطان الدنيوي، فَوَشَّوْا³ به إلى الخليفة الموحي أبي يوسف يعقوب المنصور؛ وقالوا له: ((إِنَّا نَخَافُ مِنْهُ عَلَى دَوْلَتِكُمْ؛ فَإِنْ لَهُ شَبَهٌ بِالْإِمَامِ الْمُهَدِيِّ؛ وَاتَّبَاعُهُ كَثِيرُونَ بِكُلِّ بَلَدٍ))⁴. فخاف العاقبة، وأمر بجلبه وأحضاره أمامه؛ بغرض امتحانه؛ ثم كتب إلى والي بجاية طالباً منه نقله

¹ أنس الفقير وعز الحقير، ص: 28.

² نفسه، ص: 16.

³ في دائرة المعارف الإسلامية: ((فبیتوا النية على اغتاليه)). ج: 1، ص: 400.

⁴ نفح الطيب، ج: 7، ص: 142.

إليه، وأوصاه بالاعتناء به: ((وَأَنْ يَحْمِلَ خَيْرَ
مَحْمَلٍ))¹. ولما حلَّ وقت سفره؛ تملَّمل تلاميذه
ورؤَّاده، وجأهروا بسخطهم واعتراضهم؛ فقال لهم: ((إِنَّ
مَيِّتِي قَرُبَتْ، وَبَغَوَّرَ هَذَا الْمَكَانَ قُدِّرَتْ، وَلَا بَدَّ لِي
منه، وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَعِيفٌ؛ لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى
الْحَرَكَةِ؛ فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَحْمِلُنِي إِلَيْهِ بِرَفْقٍ،
وَيَسُوقُنِي إِلَيْهِ أَحْسَنَ سَوْقٍ؛ وَأَنَا لَا أَرَى السُّلْطَانَ وَلَا
يُرَاتِي))². فارتاحوا لقوله، واقتنعوا بحكمه؛ الذي
اعتبروه من الكرامات.

وارتحل الرَّكْبُ - محفوفاً بمريديه - في أحسن
الظروف والأحوال، وساروا بأبي مدين في رفق
وسلاسة؛ حتى بدت لهم معالم تلمسان؛ ووطئت
قافلتهم أطراف قرية العباد؛ فقال أبو مدين
لمرافقيه: ((مَا أَصْلَحَهُ لِلرَّقَادِ))³؛ ثم بدت عليه
أعراض المرض؛ فنزلوا على ضفة وادي يسر؛
لتمريضه، وأخذ قسطاً من الراحة. ثم اشتد المرض

¹ التشوف، ص: 102. ونفع الطيب، ج: 7، ص: 142.

² نفع الطيب، ج: 7، ص: 142. جاء في التشوف: ((فقال لهم رضي الله
عنه: "شعيب رجل كبير ضعيف؛ لا قوة له للمشي؛ وميِّتته قد رت بغير
هذا المكان؛ ولا بد من الوصول إلى موضع المنيَّة. فقيض الله لي من
يحملني إلى مكن الدفن برفق، ويسوقني إلى مرام المقادير أحسن سوق.

والقوم لا أراهم، ولا يروني)). ص: 102.

³ نفع الطيب، ج: 7، ص: 142.

به؛ وكانت آخر كلمة قالها: ((الله الحق))¹. فكان تاريخ وفاته في سنة 594هـ/1197م. فنقل إلى العباد؛ أين دفن في مشهد عظيم، ومحفل جليل؛ حضره معظم سكان تلمسان وما حولها.

وبعد موته؛ أضحى مقامه مزاراً ومحجاً لكثير من أهل الصوفية، والعلماء، والحكام على مختلف أوجههم. ويقال أن الخليفة الموحي محمد الناصر قد أمر ببناء قبّة فوق ضريح أبي مدين؛ كما قام الملوك والأمراء؛ الذين حكموا تلمسان بترميم وزخرفة مقامه؛ ثم شيّدوا منشآت عديدة حول المقام؛ منها المسجد الجامع والمدرسة.

¹ ثمة أقوال أخرى ذكرت عن لحظة وفاته؛ من ذلك؛ أنه قال: "مالنا للسلطان؛ الليلة نرور الإخوان". ثم نزل وذهب إلى المسجد الجامع، واستقبل القبلة وتشهد وقال: "ها قد جنت، ها قد جنت، وعجّلت إليك ربّ لترضى". ثم قال: "الله الحى"؛ وبهذه الكلمة فاضت روحه الطاهرة، وانتقلت إلى رحاب الله سبحانه وتعالى؛ قبل أن يصل إلى بلاط السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور الموحي. وجاء في كتاب التشوف أن أبا علي الصوّاف قال: ((سمعتَه عند النّزع وهو يقول: "الله! الله! حتى رَقَّ صوته")). التشوف، ص: 324.

تلاميذ الشيخ أبي مدين

لشيخ الشيوخ أبي مدين شعيب عدد كبير من تلاميذ العلم ناهيك عن المريدين. وقال بعضهم أنه تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات¹. وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أسعد الياقعي (698 - 768هـ) في كتابه: "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان": بعض تلاميذ أبي مدين؛ فقال: ((وتخرج به جماعة من أكابر المشايخ الأصفياء؛ مثل: الشيخ أبي محمد عبد الرحيم القنادي، والشيخ أبي عبد الله القرشي، والشيخ أبي محمد عبد الله الفارسي، والشيخ أبي محمد صاحب الدكالي، والشيخ أبي غانم سالم، والشيخ أبي علي واضح، والشيخ أبي الصبر أيوب المكناسي، والشيخ أبي محمد عبد الواحد، والشيخ أبي الربيع المظفري، والشيخ أبي زبدين هبة الله وغيرهم من العلماء" اهـ))².

¹ قال التادلي: ((سمعت محمد بن إبراهيم الأنصاري يقول: "خرج أبو مدين ألف تلميذ؛ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة)). كتاب التشوف، ص: 324. أنظر أيضاً كتاب نفح الطيب، ج: 7، ص: 136. والبستان في ذكر الأولياء والعطاء بتلمسان، ص: 108.

² مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج: 3، ص: 121.

وقال محمد بن عبد الملك المراكشي: ((وروى عنه أبو أحمد التليزي، وأبو جعفر بن السراج، وأبو الصبر أيوب الفهري، وأبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني، وأبو علي بن زلال. وقال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري: خَرَجَ أَبُو مَدِين أَلْف تَلْمِذٍ؛ ظَهَرَتْ عَلَى يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَرَامَةٌ))¹. كما أورد ابن القنفذ في كتابه "أنس الفقير وعز الحقيير عددا كبيرا من العلماء والصلحاء؛ الذين صنفهم إلى: إخوان، وأصحاب. وهم من مشاهير العلماء والأولياء في بلاد المغرب.

¹ الذيل والتكملة، ج: 4، ص: 128.

ما قبل في أبي مدين

رثاه الشيخ محيي الدين بن عربي¹ بقصيدة طويلة؛ اختار منها محمد الطاهر علاوي هذه الأبيات؛ التي نشرها في كتابه "العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني". نظمت القصيدة في البحر الطويل؛ وهي كالتالي²:

¹ هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد ابن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي. من مشاهير الصوفية. ولد بمرسية سنة 558هـ/1164م، وتوفي بدمشق في عام 638هـ/1240م؛ ودفن بجبل قاسيون المطل على المدينة.

² هذه القصيدة العينية؛ تنقل القارئ إلى قصيدة الشاعر المخضرم أبي ذؤيب الهذلي الشهيرة؛ في رثاء بنية؛ وجاء فيها:

أمن المنون وريبه تتوجع	والدهر ليس بمعتبٍ من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً	منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع؟
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعاً	إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أما لجسمي إنه	أودي بني من البلاد فودعوا
أودي نبي فأعقبوني حسرة	بعد السرور وعبرة ما تقلع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم	وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها	ألقيت كل تميمة لا تنفع

ضياؤك نور الشمس بل هو أرفع
وكفك سيب الغيث بل هو أنفع
وسرك سيري في الوجود خلافة
فيحفظ قسط العدل فيه ويرفع
أبا مدين دان الوجود تواضعا
لمجدك والأسرار خرس وخشع
نظمت جواهر المعاني قلادة
فلاح إلى الأبصار سلك مرصع
وأحييت رسم الدين في الغرب فازدهى
وقدما رأته أعين وهو بلقع
وقمت بميزان الشريعة حاكما
وبيّنت منها ما يضر وينفع
دعوت الورى لله دعوة عارف
به لا يرى شيئا سوى الله يصنع
ورثت النبي الأبطحي تخلقا
فصحبك زهر بالدجنة تطلع
أبا مدين والله ما جاء شامخ
لمجدك إلا مقنع الرأس يخضع

سقى جدنا ضم المكارم والعلی
من الغیث صوب مُسَجَّمٍ لیس یقلع
فلی كبـد حرّی وعین شجیة
وقلب علی فقد الحبيب یوجع
وإني إذا ما اللیل أرخی سدوله
أنوح كما ناح الحمام المفجع
علیک سلام الله ما حن تائق
إلی الملائع الأعلی لکم ومودع
یحركه شوق فیهمی بمذمّع
فلا دمة یرقی ولا الشوق یقلعُ

كما قال الإمام السنوسي¹ في أبي مدين أيضاً²:

أبا مدين شيخ المشايخ كلها

أنت الذي قطبٌ بغير تلثم

خفير تلمسان وجيران أهلها

ونحن وكل الناس في ظل ضيعهم

فمن يقرب الأشبال والليث حاضر

يحق له خضب الأنامل بالدم

¹ هو الإمام أبو عبد الله محمد بن السيد أبي يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي المالكي مذهباً الأشعري عقيدة؛ نسبة إلى قبيلة سنوس بجهات تلمسان. ولد بعد سنة 4830/1426م؛ وأرجح الأقوال أنه ولد بتلمسان في سنة 4832/1428م.

² منقولة أيضاً من كتاب محمد الطاهر علاوي العالم الرياني أبو مدين شعيب التلمساني)).

- وقال فيه الولي الصالح الإمام بحر الأنوار أبو
محمد عبد العزيز بن أبي بكر:
شعِبَ وليُّ الله سرُّ عِادِهِ
أبو مدينٍ مُغْنِي الأَئِمَّامِ بِفَخْرِهِ
فِيَا جَنَّةَ المَأْوَى وَيَا عِلْمَ الهُدَى
وَيَا نَاشِراً عِلْمَ الإِلهِ بِأَسْرِهِ
حَضَرْتَ وَلَمْ تَحْضَرْ وَغَبْتَ وَلَمْ تَغِبْ
وَمَا كُنْتَ فِي كُلِّ جَانِبٍ طَوْرَهُ
فَنُورُكَ نُورَ اللهِ يَهْدِي لَهُ وَهَلْ
إِلَى أَحَدٍ فِي النَّاسِ إِطْفَاءُ نُورِهِ

— قصيدة في التنويه بأبي مدين؛ قالها أحدهم¹.

تَبَيَّنَتْ لَنَا ذَوْقاً أَعْلَامُ الْهُدَى صَدَقاً
فَصَارَ بِشَمْسِ الدِّينِ مَغْرِبُنَا شَرْقاً
وَأُشْرِقَ مِنْهَا كُلُّ مَا كَانَ أَفْلاً
وَأُصْبَحَ نَوْرُ السَّعْدِ قَدْ مَلَأَ الْأَفْقَا
سَقَى اللَّهُ مِنْ مَاءِ الْمَحَبَّةِ وَابِلًا
قُلُوباً بِهِ هَامَتْ فَقُلْ كَيْفَ لَا تُسْقَى
لَقَدْ زَهَدُوا فِيمَا سِوَاهُ فَأَصْبَحَتْ
نُفُوسُهُمْ طُرّاً تُتَادِي الدُّنْيَا سُحْقاً
لَقَدْ غَرِقُوا فِي بَحْرِ حُبِّ الْإِلَهِمْ
فَنَاهِيكَ مِنْ بَحْرِ وَتَاهِيكَ مِنْ غَرَقَى
إِذَا مَا سَرَتْ لِلسِّرِّ أَسْرَارُ شَوْقِهِمْ
لِسَيِّدِهِمْ زَالُوا لِرُؤْيَيْهِ شَوْقاً
قُلُوبٌ سَرَتْ نَحْوَ الْهُدَى بِمُعْسَكِرِ
فَعَادَتْ سِيَهَامُ الْحُبِّ تَرْشِقُهَا رَشْقاً

¹ تعذر معرفة قائل هذه القصيدة. وقد نقلت عن كتاب المواد الفوتية للشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، ج: 1، ص: 23.

وَجَاءَ مِنَ التَّوْحِيدِ جَيْشٌ عَرَمَرَمٌ
 فَأَفْنَى الَّذِي يَفْنَى وَأَبْقَى الَّذِي يَبْقَى
 هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِحَقِّ جَلِيسِهِمْ
 وَهَلْ أَحَدٌ يَخْطِئُ بِقُرْبِهِمْ يَشْقَى
 أَبَا مَدِينٍ دَانَتْ لِدِينِكَ عُصْبَةٌ
 فَوَالَيْتَهُمْ حُبًّا وَأَدْنَيْتَهُمْ رِفْقًا
 لَكَ اللَّهُ يَا شَمْسًا أَضَاءَ بِنُورِهَا
 مِنَ الدِّينِ مَا قَدْ كَانَ أَظْلَمَ أَغْشَا
 سَقَيْتَ قُلُوبًا طَالَمَا عَفَاَهَا الظُّلَمَا
 فَأَمْطَرْتَهَا مِنْ مَاءِ عِلْمِ الْهُدَى وَدَقَا
 فَأَحْيَيْتَ مِنْهَا كُلَّ مَا كَانَ مَيِّتًا
 وَرَقَيْتَ مِنْهَا كُلَّ مَا كَانَ لَا يُرْقَى
 فَأَخْرَجْتَهَا مِنْ كُلِّ جَهْلٍ وَظُلْمَةٍ
 فَمَهْمَا نَجَّائِلٌ أَلَحَّتْ لَهُ بَرَقَا
 وَأَدْخَلْتَهَا حِصْنَ التَّوَكُّلِ فَأَنْشَبَتْ
 وَأَمْسَكَهَا ذُو الْعِزِّ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
 شَفَيْتَ بِعِلْمٍ يَا شُعَيْبُ قُلُوبَنَا
 فَأَسْمُكَ مِنْ شُعَبِ الْقُلُوبِ قَدْ اشْتَقَا
 وَقَدْ كَانَ سُلْطَانُ الْهَوَى قَادًا أَنْفُسًا
 فَأَوْسَعَهَا ذُلًّا وَصَيَّرَهَا رِقًّا

فَأَعِيقَهَا مِنْ رِقَّةٍ يَتَلَطَّفُ
جَزَيْتُ خَيْرًا حَيْثُ مَنَحْتَ الْوَرَى عِتْقًا
إِذَا اسْتَبَقْتُ بِالْعَارِفِينَ خِيُولَهُمْ
فَخَيْلُكَ بِالتَّوْحِيدِ قَدْ حَازَتْ السَّبَقَا
وَلِنْ رَكِبُوا نَحْوَ الْمَعَارِفِ مَرْكَبًا
رَكِبْتَ إِلَيْهَا فِي بَحَارِ الْهَوَى عَشَقَا
سَمَوْتَ بِنُورِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ نَاطِرٍ
فَصِيرْتَ تَرَى فِي الْغَيْبِ مَا لَا تَرَى الزُّرْقَا
فَأَنْتَ إِمَامُ الْعَارِفِينَ وَنُورُهُمْ
وَمَنْطِقُهُمْ مَهْمَا أُرَدَّتْ بِهِمْ نُطْقَا
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا لَاحَ كَوَكَبٌ
وَمَا سَبَّحَتْ شَجْوًا لِسَيِّدِهَا وَرُقَا
وَصَلَّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
كَمَا جَاءَ فِي الْحَقِّ الَّذِي أَظْهَرَ الْحَقَّا

شعر ابي مدين شعيب

— قصيدة: تذلت في البلدان¹:

تَذَلَّتْ فِي الْبُلْدَانِ حِينَ سَبَيْتَنِي
وَيْتٌ بِأَوْجَاعِ الْهَوَى أَثَقَلْتُ
فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ
وَأَتْرَكْتُ قَلْبًا فِي هَوَاكَ يُعَذِّبُ
وَلَكِنْ لِي قَلْبًا تَمَلَّكَهُ الْهَوَى
فَلَا الْعَيْشُ يَهْنَأُ لِي وَلَا الْمَوْتُ أَقْرَبُ
كَعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَضُمُّهَا
تَذُوقُ سِيَاقِ الْمَوْتِ وَالطِّفْلِ يَلْعَبُ
فَلَا الطِّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَحْنُ لِمَا بِهَا
وَلَا الطَّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ
تَسَمَّيْتُ بِالْمَجْنُونِ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى
وَصَارَتْ بِي الْأَمْثَالُ فِي الْحَيِّ تُضْرَبُ
فَيَا مَعَشَرَ الْعُشَّاقِ مَوْتُوَا صَبَابَةً
كَمَا مَاتَ بِالْهَجْرَانِ قَيْسٌ مُعَذَّبُ

¹ هذه القصيدة الرائعة؛ تناولها العوام بالبتر والتحريف؛ خاصة عندما تَغْنَى بها أهل السماع.

— قصيدة إليك مددت الكف¹:

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ فِي كُلِّ شِدَّةٍ
وَمِنْكَ وَجَدْتُ اللَّطْفَ فِي كُلِّ نَائِبٍ
وَأَنْتَ مَلَاذِي² وَالْأَنَامُ بِمَعْزَلٍ
وَهَلْ مُسْتَحِيلٌ فِي الرَّجَاءِ كَوَاجِبِ³
فَحَقَّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا رَبِّ وَاكْفِنِي
شَمَاتٍ⁴ عَدُوٍّ أَوْ إِسَاءَةٍ صَاحِبِ
وَمِنْ أَيْنَ أَخْشَى مِنْ عَدُوٍّ إِصَابَةٍ⁵
وَسِتْرُكَ طَافَ⁶ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
فَكَمْ⁷ كُرْبَةً نَجَّيْتَنِي مِنْ غَمَارِهَا
وَكَانَتْ شَجَى بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ
فَلَا قُوَّةَ عِنْدِي وَلَا لِي حِيلَةٌ
سِوَى أَنْ فَقْرِي لِلْجَمِيلِ الْوَاهِبِ⁸

¹ هذه القصيدة؛ نسبها لسان الدين ابن الخطيب إلى الشيخ الزاهد أبي زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تغليت الفازازي. أنظر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 4، ص: 520. وسيأتي الحديث عنه لاحقاً؛ بينما يجمع غيره على إلحاق القيدة بما أنتجه أبو مدين شعب.

² في الإحاطة: ((مَلَاذٍ)).

³ في الإحاطة: ((كَرَّ آيِب)).

⁴ حُرِفَتْ فِي الْإِحَاطَةِ؛ فَكُتِبَتْ: ((شَمَاتَةٍ؛ وَهَذَا يَخِلُ بِالْوِزْنِ)).

⁵ فِي الْإِحَاطَةِ: ((إِسَاءَةٍ)).

⁶ نَفْسُهُ: ((ضَافٍ)).

⁷ نَفْسُهُ: ((وَكَمْ)).

⁸ جَاءَ هَذَا الشُّطْرُ فِي الْإِحَاطَةِ هَكَذَا: ((سِوَى حُسْنِ ظَنِّي بِالْجَمِيلِ الْوَاهِبِ)).

فَيَا مُلْجَأَ¹ الْمُضْطَرِّ عِنْدَ دُعَائِهِ
 أَغْنِنِي فَقَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي
 رَجَاؤُكَ رَأْسُ الْمَالِ عِنْدِي وَرَبِيحُهُ
 وَزُهْدِي فِي الْمَخْلُوقِ أَرْكَى مَكَاسِبِي²
 إِذَا عَجَزُوا عَنْ نَفْعِهِمْ فِي نَفْسِهِمْ
 فَتَأْمِيلُهُمْ بَعْضَ الظُّنُونِ الْكَوَائِبِ³
 وَيَا⁴ مُحْسِنًا فِي مَا مَضَى أَنْتَ قَادِرٌ
 عَلَى اللُّطْفِ بِي فِي حَالَتِي وَالْعَوَاقِبِ⁵
 وَإِنِّي لَأَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
 وَإِنْ كُنْتُ خَطَّاءَ كَثِيرٍ الْمَعَاقِبِ
 وَصَلِّ⁶ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 شَفِيعِ⁷ الْوَرَى عِنْدَ أَشَدِّ الدَّائِبِ

¹ الإحاطة: ((فيا مُلْجَأَ)).
² حرف هذا الشطر في الإحاطة؛ فكتب هكذا: ((وزهد في المخلوق أسنى مكاسبي))؛ وهذا يخل بالوزن.
³ أضيف هذا البيت من الإحاطة.
⁴ نفسه: ((فيا)).
⁵ جاء هذا الشطر في الإحاطة هكذا: ((على اللطف في حالي وحسن العواقب)).
⁶ نفسه: (فصل)).
⁷ نفسه: ((إمام)).

— موشح: كُلُّ وَاحِدٍ لَهُ نَصِيبٌ:

كُلُّ وَاحِدٍ لَهُ نَصِيبٌ يَأْتِي وَهَوَاكَ لِي نَصِيبٌ
يَا حَيَاتِي وَأَنْتِ فِي ذَاتِي حَاضِرٌ لَا تَغِيبُ

أَنْتِ أَسْكِرْتَنِي عَلَى سَكْرِي مِنْ قَدِيمِ الشَّرَابِ
ثُمَّ خَاطَبْتَنِي كَمَا تَذْرِي فَفَهَّمْتِ الْخِطَابِ
ثُمَّ شَاهَدْتِ وَجْهَكَ الْبَذْرِي عِنْدَ رَفْعِ الْحِجَابِ

ثُمَّ صَيَّرْتَنِي رَقِيبَ ذَاتِي وَأَنْتِ كُنْتَ الرَّقِيبِ
يَا حَيَاتِي وَأَنْتِ فِي ذَاتِي حَاضِرٌ لَا تَغِيبُ

أَدْخَلَ الْحَانَ وَاشْهَدَ الْمَعْنَى كَيْ تَنَالَ الْأَمَانَ
وَتُرَانِي بَيْنَ الدِّيَانِ نَفْنَى شَاخِصاً لِلدِّيَّانِ
قَدْ سَقَانِي سَاقِي الْمُدَامِ حَفْنَهُ قَبْلَ كَوْنِ الزَّمَانِ

أَنْتِ تَذْرِي مَنْ يَمْلِي طَاسَاتِي السَّمِيعُ الْمُجِيبُ
يَا حَيَاتِي وَأَنْتِ فِي ذَاتِي حَاضِرٌ لَا تَغِيبُ

أَنَا شَيْخُ الْخَلَاعَةِ عَنْ ذَاتِي وَإِمَامُ الْمُجُونِ
وَحَبِيبِي بِحُسْنِهِ الذَّاتِي حَازَ جَمْعَ الْفُنُونِ

وَلِهَذَا دَعَانِي غَايَاتِي رَاحَتِي فِي الْمُنُونِ

أَنْتَ صَيَّرْتَنِي رَقِيبَ ذَاتِي وَأَنْتَ كُنْتَ الرَّقِيبُ
يَا حَيَاتِي وَأَنْتَ فِي ذَاتِي حَاضِرٌ لَا تَغِيبُ

أَنَا مِنْ عَيْنِ فَضْلِ سَادَاتِي نَلْتُ أَعْلَى الرُّتَبِ
وَعَلَى قَدْرِ عُلُوِّ هِمَّتِي نَجْتَهِدُ فِي الطَّلَبِ
حَتَّى قَضَيْتُ سَائِرَ أَوْقَاتِي فِي الْغِنَاءِ وَالطَّرَبِ

وَسَمِعْتُ الْخُطَابَ مِنْ ذَاتِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبِ
يَا حَيَاتِي وَأَنْتَ فِي ذَاتِي حَاضِرٌ لَا تَغِيبُ

- زجل: زارني حبيبي¹:

زَارَنِي حَبِّي² طَابَتْ³ أَوْقَاتِي
وَسَمَّعَ⁴ لِي الْحَبِيبُ
وَعَفَا عَن جَمِيعِ زَلَّاتِي
عَلَى غِيْظِ الرَّقِيبِ

زَارَنِي مُنِيَّتِي وَزَالَ الْبَاسُ
وَسَمَّحَ بِالْوَصَالِ
وَحَضَرَ حَضْرَتِي وَدَارَ الْكَاسُ
وَبَلَغَتْ الْأُمَالُ
وَشَرَبْنَا وَطَابَتْ الْأَنْفَاسُ
مِنْ مُدَامِ حَالِ

إِمْلَأْ كَاسِي فَفِيهِ مَزَاتِي⁵
نَشْرَبُوا يَا لَبِيبِ

¹ ثمة من نسب هذا الزجل إلى الشاعر الصوفي الششتري. أنظر ديوان أبي الحسن الششتري، ص: 89 - 91. غير أن معظمهم ينسبونه إلى أبي مدين الغوث. خاصة وأن الششتري عاش في بجاية؛ المدينة التي سكنها أبومدين ودرس بها.

² أي: حبيبي. ويكتب في بعض النصوص: ((حبيبي)). وهذا يخل بالوزن.

³ في نص: ((وطابت)).

⁴ في نص: ((وسمع)).

⁵ في نص: ((مسراتي)).

وَحَبِيبِي أَنَسِي وَمَشْكَاةِي
مَعِي حَاضِرٌ قَرِيبٌ

أَي مَدَامَةٍ وَأَي خَمْرَةٍ¹ وَأَي خَمَّارٍ
أَي² طَرِبٍ أَي غَنَا
فِي رِيَاضٍ تَقْتَحُتِ أَزْهَارُ³
وَأُنَارَتْ لَنَا
وَالطُّيُورُ فِي مَنَابِرِ الْأَشْجَارِ
تَخْتَطُّ بِبَيْنِنَا

وَزُجَاجَاتِي⁴ مَلَأَ وَطَاسَاتِي
دُونُ عَنَبٍ دُونُ زَبِيبٍ
يَا نَدَامَى أَفْهَمُوا إِشَارَاتِي⁵
إِنَّ وَقْتِي⁶ عَجِيبٌ

¹ في نص: ((أَي مدام أَي نديم)).

² في نص: ((وأي))؛ بالواو.

³ في نص: ((تبسّمت الأزهار)).

⁴ في نص: ((وزجاجي)).

⁵ في نص: ((إشارتي)).

⁶ في نص: ((إن حالي)).

رَقَّ ذَا الْخَمْرُ رَاقَ ذَا¹ الْمَشْرُوبِ²
 فِي مَحَلٍّ سَعِيدٍ
 دَعَنِي نَشْرَبَ³ وَنَعْشَقَ الْمَحْبُوبَ
 كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدٍ
 السَّقِيَّةُ⁴ الَّذِي يَقُولُ لِي تُوْب
 إِنَّمَا أَنَا رَشِيدٌ⁵

وَنَقُولُ لِلْعَذُولِ⁶ إِذْ⁷ يَأْتِي
 إِنَّ وَقْتِي⁸ عَجِيبٌ
 عَلِمِي فِي مَا مَضَى وَمَا يَأْتِي
 مُمْرِضٍ⁹ هُوَ الطَّبِيبُ

أَنَا فِي ذَا الْهَوَى إِمَامٌ عَصْرِي
 وَمَحَبٌ¹⁰ الْمُجُونُ

¹ في نص: ((رَقَّ لِي))؛ في المرتين.
² جاء هذا الشطر في بعض النصوص: ((راق لي الخمر لذلي المشروب)).
³ في نص: ((دعني نسكر)).
⁴ في نص: ((والسقية))؛ بالواو.
⁵ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((ليس هو يرشيد)).
⁶ في نص: ((للعذول))؛ بالدال المهملة. (عامية).
⁷ في نص: ((حين)).
⁸ في نص: ((أنا حالي)).
⁹ في نص: ((ممرضي)). بالياء.
¹⁰ في نص: ((ونحب)).

وفي عَشْقِ الْمِلَاحِ فَنَيْتُ¹ عُمَرِي
 وَفَنَيْتُ² الْفُنُونِ
 فِي دُجَى اللَّيْلِ زَارَنِي بِذُرِي
 لَا تَرَاهُ³ الْعُيُونِ

وَأُضَا مَنَزَلِي وَسَاحَاتِي
 كَادَ عَقْلِي يَغِيبُ
 فِي سُكُونِي سَكَنَ⁴ وَحَرَكَاتِي
 حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ

أَنَا فِي مَذْهَبِي نَهَبْتُ نَفْسِي
 لِلَّذِي هَمَمْتُ⁵ فِيهِ
 وَحَضَرَ⁶ حَضْرَتِي حُضَرَ أَنْسِي
 وَأُضَا الْوَقْتُ بِهِ⁷

¹ في نص: ((المليح أفنيت)).

² في نص: ((وفننت)).

³ في نص: ((لم تراه)).

⁴ في نص: ((ساكن)).

⁵ في نص: ((هممت)).

⁶ في نص: ((إن حضر)).

⁷ في نص: ((به))؛ بدون الياء.

وَتَقُلْ لَوْ يَا بَذْرِي يَا شَمْسِي¹
عَنْدَمَا نَلْتَقِيهِ

زَارَنِي حَبِّي² وَطَابَتْ³ أَوْقَاتِي
وَسَمَحَ لِي الْحَبِيبُ
مُذْ عَفَا⁴ عَنْ جَمِيعِ زَلَّاتِي
عَلَى غَيْظِ الرَّقِيبِ

— قصيدة: يا صاح ليس على المحب جناح⁵:
يا صاح ليس على المُحِبِّ جُنَاحُ⁶
إِنْ لَاحَ فِي⁷ أَفْقِ الْوِصَالِ صَبَاحُ

¹ جاء هذا الشطر في بعض النصوص هكذا: ((ونقول يا بذري ويا شمسي)).

² في نص: ((حبيبي)).

³ في نص: ((طابت))؛ بدون واو.

⁴ في نص: ((وعفا)).

⁵ يجعل بعضهم هذه القصيدة ضمن قصيدة أخرى لشهاب الدين السهروردي. معتقدين أنها له. وقصيدة السهروردي تبدأ بـ:

أَبْدَأُ تَحْنُ الْيَكْمُ الْأَرْوَاحُ وَوَصَالُكُمْ رِحَالُهَا وَالرَّاحُ

فَاضَافُوا أَيْبَاتِ أَبِي مَدِينِ الَّتِي تَبْدَأُ بِـ:

يا صاح ليس على المحب جناحُ إِنْ لَاحَ مِنْ أَفْقِ الْوِصَالِ صَبَاحُ
ويبدو أن السهروردي استهوته قصيدة أبي مدين؛ فعارضها بأخرى؛ وهي التي أدمجت بقصيدة أبي مدين؛ والله أعلم.

⁶ في نص: ((ملامة)).

⁷ في نص: ((من)).

لَا ذَنْبَ لِلْعُشَّاقِ إِنْ غَلَبَ الْهَوَى
 كَتَمَانَهُمْ فَضَحَ¹ الْغَرَامَ فَبَاحُوا
 سَمَحُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا بَخِلُوا بِهَا
 لَمَّا دَرَوْا أَنَّ السَّمَاحَ رِبَاحٌ
 لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ² ذِكْرِ حَبِيبِهِمْ
 أَبْدَأَ فَكُلُّ³ زَمَانِهِمْ أَفْرَاحٌ
 وَدَعَاهُمْ دَاعِي الْمَحَبَّةِ⁴ دَعْوَةً
 فَغَدَّوْا بِهَا مُسْتَبْشِرِينَ⁵ وَرَاحُوا
 قُمْ يَا نَدِيمِ إِلَى الْمُدَامِ فَهَاتَهَا
 فِي كَأْسِهَا قَدْ دَارَتْ الْأَقْدَاحُ⁶
 أَوْ مَا تَرَى السَّاقِي الْقَدِيمَ يُدِيرُهَا
 فَكَأَنَّهَا فِي كَأْسِهَا الْمِصْبَاحُ
 هِيَ أَسْكَرَتْ فِي الْخُلْدِ آدَمَ مَرَّةً
 فَكَسَّتْهُ مِنْهَا حُلَّةً وَوَشَّاحُ

¹ في نص: ((كتمانهم فنما)).

² في نص: ((لم يطرِبوا)).

³ في نص: ((ولهم بطول)).

⁴ في نص: ((داعي الحقائق)).

⁵ في نص: ((مستأنسين)).

⁶ جاء هذا البيت في أحد النصوص هكذا:

((قُمْ يَا نَدِيمِي إِلَى الْمُدَامَةِ وَاسْقِنَا خُمراً تُنِيرُ بِشْرِيهَا الْأَرْوَاحَ)).

وَكَذَٰكَ نُوْحٌ فِي السَّفِيْنَةِ اُسْكِرَتْ
وَلَهُ بِذَٰلِكَ رِئْءٌ وَيِيَا حُ¹
وَبِشْرِبِهَا اُضْحَى الْخَلِيلُ مُنَادِمًا
فَعُودِهَا عِنْدَ الْإِلَهِ صِيَا حُ
لَمَّا دَنَى مُوسَى إِلَى تِسْمَاعِهَا
أَلْقَى عَصَاهُ وَكُسِرَتْ أَلْوَا حُ
وَكَذَا ابْنُ مَرْيَمَ فِي هَوَا هَائِمٌ
مُتَوَلِّعٌ بِشَرَابِهَا سَيَّاحُ
وَمُحَمَّدٌ فَخْرُ الْعُلَى شَرَفُ الْهُدَى
اِخْتَارَهُ لِشَرَابِهَا الْفَتَّاحُ

— مقطوعة: عیدوا إلی الوصال:

عیدوا إلی الوصال عیدوا	إِنَّ وَصْلِي بِكُمْ جَدِيدُ
وَقَرَّبُوا الْوَصْلَ وَالْتَدَانِي	فَالْقُرْبُ لِلْعَاشِقِينَ عِيدُ
خُنُوا فُؤَادِي وَفَتَّشُوهُ	وَقَلَّبُوهُ كَمَا تُرِيدُوا
فَإِنْ وَجَدْتُمْ فِيهِ سِوَاكُمْ	عَلَيَّ زِيدُوا الْبِعَادَ زِيدُوا
وَكُلْ يَوْمَ أَرَاكُمْ فِيهِ	فَذَٰكَ عِنْدِي يَوْمٌ سَعِيدُ

¹ في نص: ((نوح)).

— مقطوعة: هو الله:

فَإِذَا نَظَرْتُ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ
شَيْئاً سِوَاهُ عَلَى الذَّوَاتِ مُصَوِّراً
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ
فَبَذَلِ جَهْلَكَ لَا تَزَالُ مُعْتَرَا

— قصيدة: مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ¹:

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا
هُمُ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَا
فَاصْحَبَهُمْ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ
وَحَلَّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا
وَاسْتَغْنِمِ الْوَقْتَ وَاحْضُرْ دَائِماً مَعَهُمْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرََا

¹ قام الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي؛ بتخميس هذه القصيدة؛ وهي طويلة؛ ومطعها هكذا:

يا طالباً مِنْ لَذَائِطِ الدُّنْيَا وَطَرَا إِذَا أُرِدْتَ جَمِيعَ الْخَيْرِ فَبِكَ يُرَى
الْمُسْتَشَارُ أَمِينٌ فَاسْمَعْ الْخَبْرَا (مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا
هُمُ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَا)

وَلَا زِمَ الصَّمْتُ إِلَّا إِنْ سُئِلْتَ فَقُلْ
 لَا عِلْمَ عِنْدِي وَكُنْ بِالْجَهْلِ مُسْتَتِرًا
 وَلَا تَرِ الْعَيْبَ إِلَّا فِيكَ مُعْتَقِدًا
 عَيَّابًا بَيْنَ أَلْكِنَةِ اسْتَتَرَا
 وَحُطَّ رَأْسُكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ
 وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الْإِنصَافِ مُعْتَذِرًا
 وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِمْ
 وَجَهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرَى
 وَقُلْ عُبَيْدُكُمْ أَوْلَى بِصَفْحِكُمْ
 فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فَقَرَا
 هُمْ بِالْتَّقْضِيلِ أَوْلَى وَهُوَ شَيْمَتُهُمْ
 فَلَا تَخَفْ دَرَكًا مِنْهُمْ وَلَا ضَرَرًا
 وَبِالْتَّقَنِّي عَلَى الْإِخْوَانِ جُذْ أَبَدًا
 حَسًّا وَمَعْنَى وَغُضَّ الطَّرْفُ إِنْ عَتَرَا
 وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أحوَالِهِ فَعَسَى
 يُرَى عَلَيْكَ مِنْ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرًا
 وَقَدِّمِ الْجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ
 عَسَاهُ يَرْضَى وَحَازِرُ أَنْ تَكُنْ ضَجِرًا
 فِي رِضَاةِ رِضَا الْبَارِي وَطَاعَتِهِ
 يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهَا حَزِرًا

واعلم بأنَّ طريقَ القومِ دَارِسَةٌ مَتَى
 وَحَالُ مَنْ يَدْعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى
 مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنْتَى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ
 عَلَى مَوَارِدٍ لَمْ أَلْفَ بِهَا خَبَرًا
 مَنْ لِي وَأَنْتَى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ
 عَلَى مَوَارِدٍ لَمْ أَلْفَ بِهَا كَدْرًا¹
 أَحْيَهُمْ وَأَدَارِيهِمْ وَأُثْرُهُمْ
 بِمُهْجَتِي وَخُصُوصاً مِنْهُمْ نَقَرَا
 قَوْمٌ كَرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا
 يَبْقَى الْمَكَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطَرَا
 يُهْدِي النَّصُوفُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ طَرَفَا
 حُسْنُ التَّأْلِيفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا
 هُمْ أَهْلُ وَدِّي وَأَحْبَابِي الَّذِينَ هُمْ
 مِمَّنْ يَجُرُّ نُبُولَ الْعِزِّ مُفْتَخَرَا
 لَا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللَّهِ مُجْتَمِعَا
 وَذَنْبُنَا فِيهِ مَغْفُورَا وَمُعْتَقَرَا
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا
 مُحَمَّدٍ خَيْرٍ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ نَذَرَا

¹ سقط هذا البيت في بعض نسخ الديوان.

— قصيدة: بكت السحاب:

بَكَتِ السَّحَابُ فَأَضْحَكَتْ لِبُكَائِهَا
زَهَرَ الرِّيَاضِ وَقَاضَتْ الْأَنْهَارُ
قَدْ¹ أَقْبَلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ بِخُلَّةٍ
خَضِرَاءَ² فِي أَسْرَارِهَا أَسْرَارُ
وَأَتَى الرَّبِيعُ بِخَيْلِهِ وَجُنُودِهِ
فَتَمَتَّعَتْ فِي حُسْنِهِ الْأَبْصَارُ
وَالْوَرْدُ نَادَى بِالْوُرُودِ إِلَى الْجَنَى
فَتَسَابَقَ الْأَطْيَارُ وَالْأَشْجَارُ
وَالْكَأْسُ تَرْقُصُ وَالْعُقَارُ تَشْعُشَعُ
وَالْجَوُّ يَضْحَكُ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
وَالْعُودُ لِلْغَيْدِ الْحَسَنِ مُجَاوِبُ
وَالطَّارُ أَخْفَى صَوْتَهُ الْمَزْمَارُ
لَا تَحْسَبْ³ الزَّمْرَ الْحَرَامَ مُرَادِنَا
مِزْمَارُنَا التَّسْبِيحُ وَالْأَذْكَارُ
وَشَرَابُنَا مِنْ لُطْفِهِ وَغِنَاؤُنَا
نِعْمَ الْحَبِيبُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

¹ في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((وقد)).

² نفسيهما: ((خضرا))؛ بدون همزة.

³ في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((لا تحسبوا)).

وَالْعُودُ عَادَاتُ الْجَمِيلِ وَكَأْسُنَا
كَأْسُ الْكِيَّاسَةِ وَالْعَقَارُ وَقَارُ
فَتَأَلَّفُوا وَتَطَيَّبُوا وَاسْتَغْنَمُوا
قَبْلَ الْمَمَاتِ فَذَهْرُكُمْ¹ غَدَارُ
وَاللَّهُ أَرْحَمُ بِالْفَقِيرِ إِذَا أَتَى
مِنْ وَالِدَيْهِ فَإِنَّهُ غَفَّارُ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الشَّفِيعِ الْمُصْطَفَى
مَا غَرَّدَتْ² بِلُغَاتِهَا الْأَطْيَارُ

— مقطوعة: تحيا بكم كل أرض³:
تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا
كَأَنَّكُمْ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ أَمْطَارُ
وَتَشْتَهِي الْعَيْنُ فِيكُمْ مَنْظَرًا حَسَنًا
كَأَنَّكُمْ فِي عُيُونِ النَّاسِ أَزْهَارُ

¹ في نص: ((دهرهم)).

² في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((ما رُئِيت)).

³ ذاع صيت هذه القصيدة، وشاعت بين المتصوفة وغيرهم؛ حتى أضحي مطلعها مثلاً سائراً بين الناس؛ تضرب به الأمثال؛ فيقولون: ((تحيا بكم كل أرض تنزلون بها)). كما انتحل هذه القصيدة آخرون؛ ونسبت إلى بعضهم؛ من ذلك أن ثمة من يزعم أنها لشاعر يسمى أبا عبد الله قاضي زبيد. غير أنها - في الحقيقة - لقطب العارفين أبي مدين شعيب.

وَنُورُكُمْ يَهْدِي السَّارِيَ لِرُؤُوسِهِ
كَأَنَّكُمْ فِي ظِلِّهِ اللَّيْلِ أَقْمَارُ
لَا أُوحِشُ اللَّهَ رَبَّعَا مِنْ زِيَارَتِكُمْ
يَا مَنْ لَهُمْ فِي الْحَسَا وَالْقَلْبُ تَذَكَارُ

— قصيدة: أيا من تعالى مجده:
أَيَا مَنْ تَعَالَى مَجْدُهُ فَتَكَبَّرَا
وَجَلَّ جَلَالًا قَدْرُهُ أَنْ يُقَدَّرَا
وَمَنْ حُكْمُهُ مَاضٍ عَلَى الْخَلْقِ نَافِذٌ
بِمَا¹ خَطَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَسَطَّرَا
لَكَ الْحَمْدُ لَا مُعْطِي² لِمَا أَنْتَ مَانِعٌ
وَلَا مَانِعٌ مَا أَنْتَ تُعْطِي مُوَفَّرَا
فَضَاؤُكَ مَقْضِيٌّ وَحُكْمُكَ نَافِذٌ³
وَعِلْمُكَ فِي السَّبْعِ الطَّبَاقِ وَفِي الثَّرَى
وَأَمْرُكَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ كَائِنٌ
بِأَسْرَعٍ مِنْ لَحْظِ الْعُيُونِ وَأَيْسَرَا

¹ في نص: ((كما)).

² في نص: ((لا معط)).

³ في نص: ((وحكمك جازم)).

إِذَا قُلْتَ كُنْ كَانَ الَّذِي أَنْتَ قَائِلٌ
 وَلَمْ يَكْ مِنْكَ الْقَوْلُ فِيهِ مُكَرَّرًا
 سَبَقَتْ وَلَمْ تُسَبِّقْ وَكُنْتَ وَلَمْ يَكُنْ
 سِوَاكَ وَتَبَقَّى حِينَ يَهْلِكُ ذَا الْوَرَى
 وَدَبَّرْتَ أَمَرَ الْخَلْقِ مِنْ قَبْلِ خَلْقِهِ¹
 فَكَانَ الَّذِي دَبَّرْتَ أَمْرًا مُيَسَّرًا²
 عَلَوْتَ عَلَى السَّبْعِ السَّمَاوَاتِ قَاهِرًا
 وَأَنْتَ تَرَى مَا قَدْ خَلَقْتَ وَلَا تَرَى
 تُقِرُّ لَكَ الْأَرْبَابُ أَنَّكَ رَبُّهَا
 وَلَوْ أَنْكَرْتَ ذَاقَتْ عَذَابًا مُنْكَرًا³
 لَبَسْتَ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ وَلَمْ يَكُنْ
 لِغَيْرِكَ يَا ذَا الْمَجْدِ أَنْ يَتَكَبَّرَا
 وَأَنْتَ كَمَا سَمَّيْتَ نَفْسَكَ قَاهِرًا
 وَأَنْتَ إِلَهُ الْعَرْشِ حَقًّا بِلَا امْتِرَا
 وَأَنْتَ رَفَعْتَ السَّبْعَ فِي ذُرْوَةِ الْعُلَى
 وَأَمْسَكَتَهَا كَيْ لَا تَخِرَّ عَلَى الثَّرَى

¹ في نص: ((خلقهم)).

² في نص: ((عدلاً ميسراً)).

³ في نص: ((ذاقت عذاب من أنكر)).

وَسَخَّرَتْ فِيهَا الشَّمْسَ وَالْبَدْرَ زِينَةً
 لَهَا وَنُجُوماً طَالِعَاتٍ زَوَاهِرًا¹
 وَأَنْتَ بَسَطْتَ الْأَرْضَ ثُمَّ دَحَوْتَهَا
 وَأَجْرَيْتَ أَنْهَارًا عَلَيْهَا وَأَبْحُرًا
 وَأَرْسَيْتَ فِيهَا الرِّاسِيَّاتِ شَوَامِخًا
 وَفَجَّرْتَ مِنْهَا مَاءَهَا فَتَقَجَّرًا
 وَأَنْتَ الَّذِي أَنْشَأْتَ مِنْهَا بِقُدْرَةٍ
 مِنَ الْحَمَاءِ الْمَسْنُونِ خَلْقًا مُصَوَّرًا
 جَعَلْتَ لَهُ سَمْعًا وَعَقْلًا وَنَاطِرًا²
 وَسَوَّيْتَهُ خَلْقًا سَمِيعًا وَمُبْصِرًا
 وَزَوَّجْتَهُ زَوْجًا مِنْ أَرْضِ ضُلُوعِهِ
 وَأَنْسَلْتَ نَسْلًا مِنْهُمَا مُتَكَاثِرًا
 فَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا الْمَجْدِ وَالْعُلَى
 تَبَارَكَ رَبِّي مَا أَجَلٌّ وَأَقْدَرًا³
 لَكَ الْمِنَّةُ الْعُظْمَى عَلَى مَا هَدَيْتَنَا
 وَدَيَّيْنَتَنَا دِينًا حَنِيفًا مُطَهَّرًا

¹ في نص: ((وأنورا)).

² في نص: ((عقلا وسمعا)).

³ في نص: ((وأكبرا)).

وَأُورِثْنَا¹ بَعْدَ الْجَهَالَةِ حِكْمَةً
 وَنُورًا مُبِينًا لِلْقُلُوبِ مُنُورًا
 وَكَمْ² مِنْهُ أَلْبَسْتَاهَا جَلِيلَةً
 بِهَا قَدْ سَتَرْتُ عِلْمَهَا فَتَسْتَرَا³
 وَكَمْ كُرْبَةً فَرَجْتَهَا⁴ وَعَظِيمَةً
 دَفَعْتُ وَكَمْ يَسَّرْتُ مَا قَدْ تَعَسَّرَا⁵
 أَسَانَا وَأَنْزَبْنَا كَثِيرًا وَلَمْ تَزَلْ
 إِلَهَا رَوْفًا مُحْسِنًا وَمَيْسَّرًا⁶
 وَلَوْ⁷ لَمْ يَكُنْ مِنَّا مُسِيءٌ وَمَذْنِبٌ
 لَجِئْتُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ لَتَغْفِرَا⁸
 يَا رَبِّ هَيِّئْ تَوْبَةً لِّجَمِيعِنَا
 وَخُطَّ خَطَايَانَا بِعَفْوٍ تَقَرَّرَا
 وَصَلُّ عَلَى الْأُمِيِّ ثُمَّ سَلِّمْ عَلَى الَّذِي
 أَتَانَا رَسُولًا دَاعِيًا وَمُبَشِّرًا

¹ في نص: ((وأورثتنا)).

² في نص: ((فكم)).

³ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((سترت بها ذا عورة فتسترا)).

⁴ في نص: ((كشفتها)).

⁵ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((دفعت عن العبد الذي زل وافترا)).

⁶ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((رحيما بنا منا قريبا ومبصرا)).

⁷ في نص: ((فلو)).

⁸ في نص: ((منذنين فتغفرا)).

وَصَلَّى إِلَهُ الْعَرْشِ مَا لَاحَ كَوُكَبٌ
 عَلَى مَنْ أَتَى بِالْمُعْجَزَاتِ مُبَشِّرًا
 مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى خَيْرِ مِلَّةٍ
 وَأَفْضَلِ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا وَأَزْهَرًا
 مَعَ الْأَلِ وَالْأَصْحَابِ أَرْكَى تَحِيَّةٍ
 تَفُوحُ مَدَى الْأَيَّامِ مِسْكَاً وَعَنْبَرًا¹

— مقطوعة فلا أطلبين²:

فَلَا أَطْلُبُنْ غَيْرِي دَلِيلًا عَلَى رَبِّي
 لِأَنِّي دَلِيلٌ عِنْدَ مَنْ كَانَ ذَا لُبِّي
 فَفِي خَلْقَتِي كُلِّ الْعَجَائِبِ قَدْ بَدَتْ
 تُشَاهِدُهَا عَيْنُ الْبَصِيرَةِ وَالْقَلْبِ
 فَلَيْسَ عَلَى تَكْوِينِ كَوْنِي قَادِرًا
 سِوَى مَالِكِي رَبِّي فَلَا غَيْرُهُ رَبِّي

¹ ثمة من يكتفي بهذه الأبيات؛ ولا يستمر في الأبيات الموالية؛ معتقدين أنها مستقلة. بينما بجمعها آخرون ضمن قصيدة واحدة بعنوان: ((أيا من تعالى مجده)).

² هذه المقطوعة وردت في ذيل قصيدة "يا من تعالى مجده". ولكنني فصلت الفصل بينهما. لأسباب فنية.

وَكُونِي بِالتَّكْوِينِ قَدْ كُنْتُ كَائِنًا
أَجَلٌ دَلِيلٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ شُرْبِ

— مقطوعة يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحه¹:
يا مَنْ يَرَى مَدَّ البُعُوضِ جَنَاحَهُ²
في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى خَرِيرَ دِمَائِهَا مُتَسَلِّسًا
في جِسْمِهَا مِنْ مَفْصِلٍ فِي مَفْصِلِ

¹ يجري على هذه المقطوعة ما جرى لسابقتها. والأهم أنها نسبت إلى آخرين؛ مثل الزمخشري، والمعري. بينما يجعلها القوم؛ من المقطوعات التي قالها أبو مدين شعيب. وثبتتها هنا لكي يتسنى للباحثين - مستقبلاً - التأكد من ذلك. أما المقطوعة المنسوبة إلى المعري؛ وهي غير موجودة في ديوانه؛ فهي هكذا:

يا مَنْ يَرَى مَدَّ البُعُوضِ جَنَاحَهَا	في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
ويرى مناط عروقها في نحرها	والمخ من تلك العظام النحل
ويرى خريز الدم في أوداجها	متنقلا من مفصل في مفصل
ويرى وصول غذى الجنين ببطنها	في ظلمة الأحشا بغير تمقل
ويرى مكان الوطاء في أقدامها	في سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حس ما هو دونها	في قاع بحر مظلم متهول
أمنن عليّ بتوبة تمحو بها	ما كان مني في الزمان الأول
² في نص: ((جناحها)).	

وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي لَحْمِهَا
وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
وَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ
سُبْحَانَهُ مِنْ مَالِكٍ مُتَفَضِّلِ
أَمْنٌ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ أَمْحُو بِهَا
مَا كَانَ مِنِّي فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

— موشح: ليلى ليلى:

ليلى ليلى قد رجعت نهاري
شمسي شمسي.. شمسي وأقماري
عرشي عرشي قد حوى قراري

أخي دعني، غرامي مُجَدِّدُ
قُرَّةَ عَيْنِي..... مَوْلَايَ مُحَمَّدُ

أَيَا حُضَّارَ صَلُّوا عَلَى الْهَادِي
إِمَامِ الْأَبْرَارِ كَنْزِي وَأَعِمَّادِي
طَهَ الْمُخْتَارُ شَفِيعُ الْعِبَادِ

يُنَاجِينِي وَمِنْ حَوْضِهِ نَوْرِدُ
قُرَّةُ عَيْنِي.... حَبِيبِي مُحَمَّدٌ

السَّائِكُنُ فِي قَلْبِي حُبُّهُ يَا كِرَامُ
حُبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ.. أَحْرَمَنِي الْمَنَامُ

حَرَمَنِي مَنَامِي وَدَمْعِي يَسِيلُ
وَشَوْقِي دَعَانِي وَجِسْمِي نَحِيلُ
دَاوُ، قَلْبِي لِأَنِّي عَلِيلُ
حُبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ أَحْرَمَنِي الْمَنَامُ

— موشح: أَنْتَ بِمَا قَدْ سَقَيْتَ شَارِبًا¹:

أَنْتَ بِمَا سَقَيْتَ شَارِبًا

مِنْ رَاحِقٍ² كَانَ أَوْ كَدَرَ

سَهْمُكَ فِي الْغَيْرِ فَيْكَ صَائِبًا

مَا لَكَ عَنْ نَصْلِهِ مَفَرٌ

¹ نسب عبد الصمد بن محمد التهامي المستاري الطنجي المعروف بكنون (1290هـ - 1352هـ) قصيدة أبي مدين هذه إلى صفى الدين الحلبي؛ وهو خطأ بَيِّن. وقد صحح بعض النقاد خطأه هذا.
² في نص: ((من رائق)).

ثَمَارَ مَا قَدْ غَرَسْتَ تَجْنِي
وَهَذِهِ عَادَةُ الزَّمَانِ
خُذِ الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ مِنِّي
كَمَا يَدِينُ الْفَتَى يُدَلِّنُ
مَنْ بَاتَ مِنْهُ الْوَرَى فِي أَمْنٍ
بَاتَ مِنَ الدَّهْرِ فِي أَمَانٍ

الدَّهْرُ بَخْرٌ لَهُ عَجَائِبُ
وَهُوَ خَطِيبٌ¹ لِمَنْ نَظَرَ
فَأَطْرَحَ الْغَيْرَ² عَنْكَ وَجَانِبُ
وَخُذْ عَلَى نَفْسِكَ الْحَذَرَ

يَا ذَا الَّذِي ظَنَّ أَنْ يُصِيبَ³
بِسَهْمِهِ وَهُوَ لَا يُصَابُ

¹ في نص: ((خطوب)).

² في نص: ((الغَي)).

³ في نص: ((بصيب)).

أُبْعِدْتُ عَنْ نَفْسِكَ الْقَرِيبَ¹
أَخْطَأْتُ² فِي مَوْضِعِ الصَّوَابِ
إِنْ قُلْتُ قَوْلًا فَكُنْ لَبِيبَ³
وَكُلُّ قَوْلٍ لَهُ جَوَابُ

مَا ضَاعَ حَقٌّ وَلَهُ طَالِبُ⁴
لَوْ جَاوَزَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
مَنْ ذَكَرَ⁵ النَّاسَ بِالْمَعَائِبِ
يُذَكِّرُ فِيهِ بِمَا ذَكَرُ

يَا بَالِيَا وَهُوَ لَا يُبَالِي
وَهُوَ فِي مِيزَانِهِ يَجُولُ
يَا سَاكِنَا وَهُوَ فِي أَرْحَالِ
وَكُلُّ مَا قَدْ حَوَى يَزُولُ
تَسْرِقُ مِنْ عُمْرِكَ اللَّيَالِي
كَسِرْقَةِ الرِّاحِ لِلْعُقُولِ

¹ في نص: ((القريب)).

² في نص: ((وأخطأت)).

³ في نص: ((البيبا)).

⁴ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا:

((ما ضاع حق وراء طالب)).

⁵ في نص: ((يا ذاكر)).

بِالْقَوْمِ¹ قَدْ سَارَتْ الرِّكَائِبُ
وَمَا² تَجَهَّزْتُ لِلسَّفَرِ³
وَأَسْنَتُ تَخْشَى وَلَا تَرَأِيبُ
مِنْ يَوْمٍ تُبْلَى فِيهِ الْعِيرُ

- زجل: طابت أوقاتي بمحبوب لنا:⁴
طَابَتْ أَوْقَاتِي بِمَحْبُوبٍ لَنَا
حُبُّهُ ذُخْرِي

¹ في نص: ((فالقوم)).

² في نص: ((ولا)).

³ جاء هذا الشطر في بعض النصوص هكذا: ((ولا تجهزت يوماً للسفر)).

⁴ يعتبر هذا الزجل من بين الأزجال الواردة في ديوان أبي مدين؛ ولكن بعضهم نسبته إلى أبي الحسن الششتري؛ بل سَجَّلَ في ديوانه؛ غير أن بعض الاختلاف ظهر في أبيات الزجل؛ خاصة في مطلعها. فجاء في ديوان الششتري هكذا:

طاب وقتي في حبيب هـ لنا	ذكرى دخري
فاسألوا من لا لنا عنه غنى	في صلاح امري
أنا هـ شيخ الشراب وفي الملاح	لذلي التمزيق

إلى آخره....

نَرْغَبُ¹ مَنْ لَا لَنَا عَنْهُ الْغِنَى
فِي صَلَاحِ أَمْرِي

أَنَا هُوَ شَيْخُ الشَّرَابِ، سَاقِي² الْمَلَاخِ
لَذَّ لِي التَّمْزِيقُ
ابْسُطُوا سَجَّادَتِي رَاحاً بِرَاحِ
قَرَّبُوا الْإِبْرِيْقَ
احْمِلُوا³ تَغْرِيدِي فِي الْإِصْطِلَاحِ
يَا ذَوِي النَّحْقِيقِ

يَا أَنَا مَنْهُ⁴ أَنَا حَتَّى أَنَا
هَمَمْتُ فِي سَكْرِي
سَمَّعُونِي طَيِّبَ الْخَنَ الْغِنَا
فَعَسَى نَذْرِي

¹ في نص: ((نرغبوا)).

² في نص: ((وفي)).

³ في نص: ((اكتموا)).

⁴ تُقْرَأ: ((مَنْ هُوَ)). أي: يا أنا من هُوَ.

كَي¹ نَفِيقْ، يَا فَقْرًا مِنْ سَكْرَتِي
 نَقَّرُوا فِي الْعُودِ
 وَاحْمِلُونِي فَوْقَ عَرْشِ² كَرَمَتِي
 عَاشِقٌ مَقْقُودٌ
 وَاجْعَلُوا مِنْ مَائِهَا فِي قَبْلَتِي
 وَاعْصِرُوا الْعُنُقُودَ

وَاجْعَلُوا أَوْزَاقَهَا لِي كَفَنًا
 مَاؤُهَا طَهْرِي
 فَوْقَ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَوْ عَنْ مَيْمَنَا
 إِحْفِرُوا³ قَبْرِي

بِغْتُ نَنَفَاسِي وَدَلْقِي وَالْإِزَارَ⁴
 وَبَقِيَّتْ عُرْيَانُ

¹ في نص: ((حين)).

² في نص: ((نعش)).

³ في نص: ((واحفروا))؛ بالواو.

⁴ الإزار: سترة وملحفة، أو منزر؛ يستر الجسم. الدلق: كلمة فارسية؛ وهي عبارة عن وشاح يلبسه العلماء والمتصوفة؛ يفتح في الغالب من جهة الكتف؛ وهو سهل عند خروج الإنسان منه. أما ((دَنَفَاسِي))؛ فيبدو أنها كلمة عامية؛ لبعض الملابس المستعملة لدى الصوفية؛ وقيل أنها من المرقعات.

وَمَشَيْتُ بَيْنَ دَوْحَاتِ الدِّيارِ¹
وَأَنَا نَشْوَانٌ
بَيْنَ خِلَانٍ² وَأَكْوَاسٍ تُدَارُ
تَسْجُرُ الْأَذْهُانُ

لَيْسَ لِي أَصْلًا عَلَى الشُّرْبِ غِنَى
وَالْهَوَى سَكْرِي
وَأَنْتُمْ يَا فَقْرًا يَا أَمْنًا
أَكْتُمُوا سِرِّي

كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي نَعَشَقُهُ⁴
وَهُوَ لِي يَعْشَقُ
أَنَا نَبْعُدُ، وَهُوَ يَقْرُبُ لِي
صَارَ بِي أَرْفَقُ

¹ في نص: ((الثمار)).

² في نص: ((خلاني)).

³ في نص: ((عن)).

⁴ جاء هذا الشطر في بعض النصوص هكذا: ((قلت أني أبداً أعشقه)).

أَنَا مُغْرِبٌ وَهُوَ فِي مَشْرِقِي¹
وَهُوَ لِي² يُشْرِقُ³

تَجَلَّى الْخُبُّ تَدَلَّى فَدَنَى
سَاعَةَ الذِّكْرِ
فَمَحَتْ أَحَدَاتُنَا⁴ أَحْزَانَنَا
وَاخْتَفَى سِرِّي

فَسِهَامُ الْبَيْنِ دَعَا، تَرَشُّقُنِي
سَلِّمُوا مَالِي
أَنَا نَهَوَاهُ وَهُوَ يَعِشُّقُنِي
سَلِّمُوا حَالِي
سَاقُنِي لَمَّا بَدَى أَنْشَقَانِي
نَشُدُّهُ الْغَالِي

¹ جاء هذا الشطر في بعض النصوص هكذا: ((وأنا مغربه مشرقه)).

² في نص: ((بي)).

³ في نص: ((وهو ليس يشرق)). المهم؛ أن هذه القطعة متباينة. كما أن بعض أبياتها منسوب للششتري.

⁴ في نص: ((أزمتنا)).

هُوَ لِي رُوحٌ أَقَامَ الْبَدَنَا
هُوَ فِي سِرِّي
لَا تَعْمُ، تَغْرَقُ فِي بَحْرِنَا
ذَٰكَ هُوَ بَحْرِي

— قصيدة: لما بدا منك القبول:
لَمَّا بَدَا مِنْكَ الْقَبُولُ
أُخْرِجْتُ مِنْ سِجْنِ الْأَسَا
وَزُجَّ بِي عَيْنَ الْوُصُولِ
وَصِرْتُ بِكَ مُؤَنَسَا
وَلَسْتُ مِنْ قَلْبِي تَزُولُ
بَيْنَ¹ الصَّبَّاحِ وَالْمَسَا

بِنَظَرَةٍ² فِيكَ يَا جَمِيلُ
أَعِشْ بِهَا عَيْشاً رَغْدُ
أَنْتَ الْمَحَبَّةُ وَالِدَّائِلُ
مَنْ ذَا يُطِيقُ عَنْكَ الْبَعَاذُ

¹ في نص: ((كُلُّ)).

² في نص: ((النظرة)).

يَا رَاحَةَ الْقَلْبِ الْعَلِيلِ
فِيكَ اجْتَمَعَ كُلُّ الْمُرَادِ

أَوْقَدْتَ فِي قَلْبِي هَوَاكَ
وَقُلْتَ لِي إِيَّاكَ تَبُوحُ
أَمْ كَيْفَ لِي أَرَى سِوَاكَ
وَأَنْتَ لِي جِسْمٌ وَرُوحٌ¹
وَلَا يَخْفَى نُورُ سَنَّاكَ
وَقَدْ بَدَا لِلنَّاسِ يَكُوحُ

— قصيدة: أَتَانِي زَمَانِي:

أَتَانِي زَمَانِي بِمَا أُرْتَضِي
فَبِاللَّهِ يَا دَهْرُ لَا تَنْقُضِي
أَيَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ عُوْدِي لَنَا
لَأَنَّ الْحَبِيبَ عَلَيْنَا رَضِي

¹ تعرض هذا البيت، والذي يليه إلى التصحيف؛ فاضحيا في بعض النصوص هكذا:

وَكَيْفَ يَخْفَى نُورُ سَنَّاكَ وَقَدْ بَدَا لِلنَّاسِ يَكُوحُ
وَكَيْفَ لِي أُغْشَقُ سِوَاكَ وَأَنْتَ لِي جِسْمٌ وَرُوحُ

سَقَانِي¹ بِكَأْسِ الْهَوَى شُرْبَةً
فَشَاهَدْتُ فِي الْكَأْسِ نُوراً يُضِي²
وَنَحْنُ عَلَى الْعَهْدِ نَرْعَى الذَّمَّامَ
وَعَهْدُ الْمُحِبِّينَ لَا يَنْقُضِي
صَدَدْتُ فَكُنْتُ مَلِيحَ الصُّدُودِ
وَأَعْرَضْتُ أَفْدِيكَ مِنْ مُعْرِضِ
فَفِي³ حَالَةٍ السُّخْطِ لَا فِي الرِّضَا
بَيَّانُ⁴ الْمُحِبِّ مِنَ الْمُبْغِضِ
وَمَنْ كَانَ فِي سُخْطِهِ مُحْسِناً
فَكَيفَ يَكُونُ إِذَا مَا رَضِيَ
فَيَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُصْطَفَى
صَلَاةَ تَدْوِمٍ وَلَا تَقْضِي

¹ في نص: ((سقانا)).

² جاء هذا البيت في أحد النصوص هكذا:

((سقانا بكأس الهنا شربة فلاح من الكأس نوراً يضي)).

³ في نص: ((وفي)).

⁴ في نص: ((يبين)).

قصيدة: غوث الوري¹:

يَا مَنْ يُغِيثُ الْوَرَى مِنْ بَعْدِ مَا قَطُوا
ارْحَمْ عِبِيداً أَكْفَأَ الْفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا
وَاسْتَنْزَلُوا جُودَكَ الْمَعْهُودَ فَاسْقِهِمْ
رِيّاً يُرِيهِمْ رَضَى لَمْ يُثْبِتْهُ سَخَطُ
وَعَامِلِ الْكُلِّ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَلْفُوا
يَا عَادِلًا لَا يُرَى فِي حُكْمِهِ شَطَطُ
إِنَّ الْبَهَائِمَ أَضْحَى التُّرْبُ مَرْتَعَهَا
وَالطَّيْرُ تَغْدُو مِنَ الْحَصْبَاءِ تَلْتَقُطُ
وَالْأَرْضُ مِنْ حُلَّةِ الْأَزْهَارِ عَارِيَّةَ
كَأَنَّهَا مَا تَحَلَّتْ بِالنَّبَاتِ قَطُ
وَأَنْتَ أَكْرَمَ مِفْضَالٍ تَمُدُّ لَهُ
أَيْدِي الْعَصَاةِ وَإِنْ جَارُوا وَإِنْ قَسَطُوا

¹ قالها طلباً للإستسقاء. ويبدو أن أبا جعفر ابن خاتمة الأنصاري (707هـ/1303م - 771هـ/1369م)؛ قد اقتبس مطلع هذه القصيدة؛ حينما كتب: ((يَا مَنْ يُغِيثُ الْوَرَى مِنْ بَعْدِ مَا قَطُوا ارْحَمْ عِبَاداً أَكْفَأَ الْفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا))؛ ثم قال: ((عودتهم بسط أرزاق بلا سبب سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا)).

نَاجَوْكَ وَاللَّيْلُ حَلَاهُ بِهَاءِ سَنَا
 كَمَا يُحَلَّى سَوَادُ اللَّمَةِ الشَّمَطُ
 فَسَارِبٌ بِذَوْبِ الذَّنْبِ غُصٌّ بِهِ
 وَآخِرُونَ كَمَا أَخْبَرْتَنَا خَلَطُوا
 وَمُنْعَمٌ فِي لَذِيذِ¹ الْعَيْشِ وَهُوَ يَرَى
 فِي سَبِيلِكَ مَنْ هُوَ حَوْلَ الْعَرْشِ يَنْخَرِطُ²
 وَمُلْحِدٌ يَدْعِي رَبًّا سِوَاكَ لَهُ
 حَيْرَانٌ فِي شَرَكِ الْإِشْرَاكِ يَخْتَبِطُ
 كُلُّ يَنَالٍ مِنَ الْمَقْدُورِ قِسْمَتُهُ
 قَوْمٌ تَرَقَّوْا وَقَوْمٌ فِي الْهَوَى سَقَطُوا
 حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ عَدْلٌ فِي بَرِيَّتِهِ
 فَرَضٌ عَلَيْنَا لَهُ التَّسْلِيمُ مُشْتَرِطُ³
 وَمَنْ تَصْدَى لِحُكْمِ اللَّهِ مُعْتَرِضًا
 فَقَدْ تَصْدَى لَهُ الْخَذْلَانُ وَالْغَلَطُ
 وَمَا نُنُوبُ الْوَرَى فِي جَنْبِ رَحْمَتِهِ
 وَهَلْ يُقَاسُ بِفَيْضِ الْأَبْحَرِ النُّقْطُ

¹ في نص: ((لفيف)).

² جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((في سبيلك من حَامٍ حَوْلَ الْعَرْشِ يَنْخَرِطُ)).

³ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((فَرَضٌ عَلَيْنَا لَهُ الْخَذْلَانُ وَالْقَلْطُ)).

فَمَا لَنَا مُلْجَأٌ غَيْرُ الْكَرِيمِ وَمَنْ
يُلْقَى عَلَى الْحَوْضِ فَهُوَ السَّابِقُ الْفَرَطُ
ذَاكَ الرَّسُولُ الَّذِي كُلُّ الْأَنَامِ بِهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ
صَلَّى عَلَيْهِ صَلَاةٌ لَا نَفَادَ لَهَا
مَنْ اسْمُهُ بِاسْمِهِ فِي الذِّكْرِ مُرْتَبِطُ

— مقطوعة: أحب لقاء الأحاب¹:
أَحِبَّ لِقَاءَ الْأَحْبَابِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
لَأَنَّ لِقَاءَ الْأَحْبَابِ فِيهِ الْمَنَافِعُ
يَا قِرَّةَ الْعَيْنِ نَالَهُ² إِنِّي
عَلَى عَهْدِكُمْ بَاقٍ وَفِي الْوَصْلِ طَامِعُ
لَقَدْ نَبَتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ
كَمَا نَبَتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

¹ ثمة بيتان وردا في بعض النصوص بالمطلع. وهما:

تَوَاضَعُ لِرَبِّ الْعَرْشِ عَلَيْكَ تَرْفَعُ فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَخْضَعُ

وَدَاوَى بِذِكْرِ اللَّهِ قَلْبَكَ أَنَّهُ لِأَشْفِي دَوَاءَ لِلْقُلُوبِ وَأَنْفَعُ

² في نص: ((الْأَعْيُنُ بِاللَّهِ)).

حَرَامٌ عَلَيَّ قَلْبِي مَحَبَّةُ غَيْرِكَ¹
كَمَا حُرِّمَتْ يَوْمًا لِمُوسَى الْمَرَاضِعُ²

— قصيدة: يا من يرى ما في الضمير:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ
أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا
يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ
أَمْنٌ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَالِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسَيْلَةٌ
وَبِالْإِفْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَالِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ
فَلَنْ تُرْدِتُ³ فَأَيَّ بَابٍ أَفْرَعُ
وَمَنْ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتَفُ بِاسْمِهِ
إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرٍ يُمْنَعُ

¹ في نص: ((غيركم)).

² جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((كَمَا حُرِّمَتْ عَنْ مُوسَى تِلْكَ الْمَرَاضِعُ)).

³ في نص: ((رُدَّتْ)).

حَاشَا لِمَجْدِكَ¹ أَنْ تُقَيِّطَ عَاصِيَا
 الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ² أَوْسَعُ
 بِالذِّلِّ قَدْ وَافَيْتُ بِأَبِكَ عَالِمَا
 أَنَّ التَّذَلُّلَ عِنْدَ بَابِكَ يَنْفَعُ
 وَجَعَلْتُ مُعْتَمِدِي عَلَيْكَ تَوْكُلَا
 وَبَسَطْتُ كَفِّي سَائِلَا أَنْضَرَعُ
 وَبِحَقِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ وَبَعَثْتَهُ
 وَأَجَبْتَ دَعْوَةَ مَنْ بِهِ يَنْشَفَعُ
 اجْعَلْ لَنَا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجَا
 وَالطُّفْ بِنَا يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
 خَيْرُ الْخَلَائِقِ شَافِعُ وَمُشَفِّعُ³

— قصيدة: من الحب:

تَمَلَّكْتُمُوا عَقْلِي وَطَرْفِي وَمَسْمَعِي
 وَرُوحِي وَأَحْشَائِي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي

¹ في نص: ((لجودك)).

² في نص: ((والواهب)). والأخرى أسلم.

³ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ ثَوْرًا يَسْنُطُ)).

وَتَبَّهْتُمُونِي فِي بَيْعِ جَمَالِكُمْ
وَلَمْ أَذِرْ فِي بَحْرِ¹ الْهَوَىٰ أَيْنَ مَوْضِعِي
وَأَوْصَيْتُمُونِي لَا أَبُوحُ بِسِرِّكُمْ
فَبَاحَ بِمَا أَخْفَىٰ تَقْيِضُ أَدْمُعِي
وَلَمَّا فَنَى صَبْرِي وَقَلَّ تَجَلُّدِي
وَفَارَقَنِي نَوْمِي وَحَرِّمْتَ مَضْجِعِي
أَتَيْتُ لِقَاضِي الْحُبِّ قُلْتَ أَحْبَبْتِي
جَفَوْنِي وَقَالُوا أَنْتَ فِي الْحُبِّ مُدَّعِي
وَعِنْدِي شُهُودٌ لِلصَّبَابَةِ وَالْأَسَا
يَزْكُونَ دَعَايَ إِذَا جِئْتُ أَدَّعِي
سُهَادِي وَوَجَدِي وَاكْتِنَابِي وَلَوْعَتِي
وَشَوْقِي وَسَقَمِي وَاصْفِرَّارِي وَأَدْمُعِي
وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ شَوْقاً عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي
وَتَبْكِيهِمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا
وَيَشْكُوا النَّوَى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي
فَإِنْ طَلَبُونِي فِي حُقُوقِ هَوَاهُمْ
فَإِنِّي فَقِيرٌ لَا عَلَيَّ وَلَا مَعِي

¹ في نص: ((في مَجَرَ الْهَوَى)).

وَإِنْ سَجَنُونِي فِي سُجُونٍ جَفَّاهُمْ
نَخَلْتُ عَلَيْهِمُ بِالشَّفِيعِ الْمُشَفِّعِ

— قصيدة: جد بالوصال:

قَدْ زَادَ فِيكَ مِنَ الْغَرَامِ تَلَهْفِي
فَإِلَى مَتَى هَذَا الْجَفَا يَا مُتْلِفِي
وَلَهَيْبِ نِيرَانِ الْهَوَى ¹ قَدْ أَشْعَلْتُ
فَمَتَى بَوْصَلَكَ نَارُ قَلْبِي تَتَطْفِي
فَإِلَى مَتَى هَذَا التَّبَاعُدَ وَالْجَفَا ²
فَعَسَى الْمُعْنَى مِنْ وَصَالِكَ يَشْتَفِي
يَا مَالِكاً رَقٍّ بِحُسْنِ جَمَالِهِ ³
هَلْ لَا تَرِقُ ⁴ لِمُسْتَهَامٍ مَذِيفِ
فَبِعِزِّ عِزِّكَ فِي الْهَوَى بِتَذَلُّي ⁵
جد بالوصال فليس لي من مُسْعِفِ

¹ في نص: ((في القلب نيران الجفا)).

² جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((وإلى متى هذا التَّجَنِّي والقِلَى)).

³ في نص: ((رقبي بعقد ولايه)).

⁴ في نص: ((هلا تراق)).

⁵ في نص: ((وتذللي)).

فَالصَّبْرُ عَنى قَدْ غَدَا مَتَرَجِلًا
 وَالْوَجْدُ بَاقٍ فِى الْحَشَا¹ لَا يَخْتَفِى
 وَوَعَدَتْنِى بِالْوَصْلِ ثُمَّ هَجَرَتْنِى
 حَاشَاكَ تَوَعِدَ بِالْوَصَالِ وَلَا تَفِى²
 وَلَقَدْ كَفَى مَا قَدْ جَرَى مِن أَدْمَعِى
 يَوْمَ الْفِرَاقِ مِنَ الدَّمُوعِ الزُّرْفِ
 وَعَوَاذِلِى رَامُوا سَلَوًا³ قُلْتُ: لَا
 أَسْأَلُوا وَلَا أَصْغِى لِقَوْلٍ مُّعْتَفِى⁴
 فَأَنَا الْمَقِيمُ عَلَى الْعَهْدِ وَلَنْ أُحْلُ⁵
 عَنْ حُبِّ مَنْ فَاقَ الْجَمَالَ الْيُوسُفِى
 فَهُوَ النَّبِىُّ مُحَمَّدٌ وَهُوَ الَّذِى
 تُرَجَى شَفَاعَتُهُ غَدًا فِى الْمَوْقِفِ
 يَا خَيْرَ مَبْعُوثٍ وَأَكْرَمَ شَافِعِ
 كُنْ مُنْقِذِى مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ مُرْجِفِ
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا خَيْرَ الْوَرَى
 مَا لَاحَ بَرَقَ فِى السَّمَاءِ وَمَا خَفِى

¹ فى نص: ((فى الهوى)). والأخرى أفضل.
² جاء هذا الشطر فى أحد النصوص: ((حاشاك تُخْلِفُ مَا وَعَدْتَ وَلَا تَفِى)).
³ فى نص: ((رَامُوا سَلَوًا)).
⁴ فى نص: ((مُعْتَفٍ)).
⁵ فى نص: ((على الهوى إذ لم أحل)).

— قصيدة: الله قل¹ —

لله قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى
إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَالِ

¹ هذه القصيدة؛ نسبها يحيى بن خالدون إلى محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي. وقد أثبتتها في البغية بكاملها؛ حيث زادت أبياتها عما هي عليه هنا بخمسة أبيات في الأخير. جاء فيها:

لله قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى	إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَالِ
فَالْكُلُّ ذُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ	عَدَمَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا	لَوْلَاةٌ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلَالِ
فَالْعَارِفُونَ قَسُوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا	شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً	فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ	فَوُجُودُهُ لَوْلَاةٌ عَنِ مُحَالِ
فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرَفِكَ هَلْ تَرَى	شَيْئاً سِوَى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ
وَانْظُرْ إِلَى غُلُوِّ الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ	نَظْراً تَوَيْدَهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
تَجِدِ الْجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ	بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالِ
هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ غُلُوِّ إِلَى	سُفْلٍ وَمُبْدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالِ
وَجَبَّ الْوُجُودَ لِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ	فَرْداً عَنِ الْأَكْفَاءِ وَالْأَمْثَالِ
فَاسْكُنْ إِلَيْهِ بِهَيْمَةٍ غُلُوبِيَّةٍ	مُتَنَزِّهاً عَمَّا سِوَى الْفِعَالِ
يَبْقَى وَكُلُّ يَضْمَحِلُّ وَجُودُهُ	مَا وَاجِبٌ كَمَقْيَدٍ بِزَوَالِ
وَهُوَ الَّذِي يَرْجَى وَيُخْشَى لَا تَلْذُ	بِسِوَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
فَالشَّرْعُ جَاءَ بَدْأً وَأَنْوَارُ الْهُدَى	قَدْ أَيْدَتْهُ فَعِشْ خَلِيَّ الْبَالِ

فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ
عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا
لَوْلَاهُ فِي مَخْرٍ وَفِي اضْمِحَالٍ
مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ
فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ
فَالْعَارِفُونَ فُتُوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا
شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً
فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
فَالْمَحْ بَعْقِكَ أَوْ بِطَرَفِكَ هَلْ تَرَى
شَيْئاً سِوَى فَعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ
وَانْظُرْ إِلَى عُلُوِّ الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ
نَظَرًا تُؤَيِّدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
تَجِدُ الْجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ
بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالٍ
هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى
سُفْلٍ وَمُبْدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالٍ

— مقطوعة: مناجاة¹:

يَا مَنْ عَلَا فَرَأَى مَا فِي الوجود² وما
تَحْتَ الثَّرَى وظَلَامَ اللَّيْلِ مُنْسَدِلُ
أَنْتَ الْمُغِيثُ لِمَنْ ضَاقتْ مَذاهِبُهُ
أَنْتَ الدَّلِيلُ لِمَنْ حَارَتْ بِهِ الحِيلُ
إِنَّا قَصَدْنَاكَ وَالْأَمَالَ وَاثِقَةً
وَالْكُلَّ يَدْعُوكَ، مَلْهُوفٌ وَمُبْتَهِلُ
فَإِنْ عَفَوْتَ، فَذُو فَضْلٍ وَذُو كَرَمٍ
وَإِنْ سَطَوْتَ، فَأَنْتَ الحَاكِمُ العَدْلُ

— قصيدة: إليك مددت يد الرجى:

لِلْأَطَافِكَ الحُسْنَى مَدَدْتُ يَدَ الرَجَا
وَحَالِي كَمَا تَذَرِي، وَأَنْتَ الْمُؤَمِّلُ
قَصَدْتُكَ مَلْهُوفًا فَوَادِي لِمَا طَرَا
وَأَنْتَ رَوْفٌ مُحْسِنٌ مُتَقَضِّلُ

¹ خمسها عبد الغني النابلسي هكذا:

دَمَعِي لِحَوْفِكَ يَا مَوْلَايَ صَارَ دَمًا
وَالْقَلْبُ مِمَّا بِهِ قَدْ شَارَفَ الْعَدَمَا
فَاعْقِرْ ذُنُوبَ امْرِئٍ يَرْجُوكَ مَكْتَتِمًا

(يَا مَنْ عَلَا فَرَأَى مَا فِي الْغُيُوبِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وظَلَامَ اللَّيْلِ مُنْسَدِلُ)
² في نص: ((الغُيُوب)).

لَجَأْتُ، وَشَمَلِي يَا رَحِيمُ مُشْتَّتٌ
وَصَبْرِي مَغْلُوبٌ وَدَائِي مُعْضِلٌ
أَرُومُ تَلَاقِي الْحَالَ قَبْلَ تَلَاقِهِ
وَعَوْنًا أَيَا أُمْلِي، وَمَنْكَ أَسْأَلُ
فَجُدْ بِأَمَانٍ، وَالْأَمْالِي جَمِيعُهَا
فَأَنْتَ الَّذِي تَحْمِي وَتُعْطِي وَتُجْزِلُ
وَلِي مِنْكَ عَادَاتٌ حَسَنٌ عَلَى الْمَدَى
جَوَارٌ مِنَ النُّعْمَى بِهَا لَسْتُ أَجْهَلُ
أَبُوءُ، وَلَا أَحْصِي ثَنَاءً وَكَيْفَ لِي؟
بِشُكْرِ يُوَازِي مَا مَنَحْتَ وَيَعْدِلُ
وَإِنِّي، وَإِنْ كُنْتُ الْمُسِيءُ جَهَالَةً
فَصِدْقُ الْوَلَا وَالْحُبُّ لَا يَنْبَدِلُ
جُبْنْتُ عَلَى دِينِ الْوَلَا قَبْلَ نَشَأَتِي
وَمَذُ كُنْتُ طِفْلًا لِي عَلَيْكَ تَطَفُّلُ
وَلِي أَمَلٌ فِي جُودِكَ الْحِلْمُ لَمْ يَزَلْ
يُسَامِرُنِي فَضْلًا بِمَا مِنْكَ يَحْصُلُ
إِلَيْكَ عَنِ الْأَغْيَارِ أَلُوتَ مَطَامِعُ
فَقُمْتُ أَنَا جِي، وَالْمَدَامِعُ تَهْطُلُ

فَأَسْأَلُ مِنْكَ الْعَوْنَ، وَالْغَوْثُ مِنْهُ
بِجُودِ عَنَايَاتٍ إِلَى الْقَصْدِ تُوصِلُ
إِذَا شَمِلْتَ أَوْلَتْ وَإِنْ رَحِمْتَ حَمَتْ
وَإِنْ أَتَحَفَّتْ حَفَّتْ وَعَمَّ التَّفْضِيلُ
فَإِنِّي قَلِيلُ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَالذِّكَا
كَثِيرُ الْخَطَايَا بِالذُّنُوبِ مُعَلُّ
عَسَى رَحْمَةً فِيهَا صَلاَحُ لِحَالَتِي
عَسَى نَظْرَةً مِنْكُمْ بِهَا أَنَا هَلُّ
إِلَهِي كَمْ فَضْلٍ مَنَحْتَ وَعَقْدَةٍ
حَالَتْ، وَكَمْ بِالْفَتْحِ قَدْ زَالَ مُقْعَلُ
وَكََمْ مِحْنَةٍ فِي طَيِّبِهَا مِنْكَ مِئْنَةٌ
يُشَاهِدُهَا مَنْ لَيْسَ يَلْهُو وَيَغْفُلُ
فَيَا رَبُّ بِالسِّرِّ الْمُحَجَّبِ رَحْمَةً
بِقُدْسِ صِفَاتِ نُورِهَا يَتَهَلَّلُ
بِسِرِّ تَجَلَّى السِّرِّ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ
بِسِرِّ فِعَالٍ فِي الْوَرَى لَا يَتَعَلَّلُ
بِسَابِقِ ذَاكَ الْعَهْدِ، بِالْحَضْرَةِ الَّتِي
بِهَا لِأَهْلِي الْوُدِّ وَرَدُّ وَمَنْهَلُ
أَغْنِنَا بِأَمْنٍ مِنْ جَمِيعِ مَخَاوِفِ
وَمَنْ بَغَوْثُ بِالْمُنَى يَتَكَفَّلُ

وَمُدُّ بِفَيْضِ الْفَضْلِ قَلْبِي وَجُمَلْتِي
 وَعَافِيَةٌ تَغْشَى، فَلَا يَخْلُو مِفْصَلُ
 بِجَاهِ نَبِيٍّ لَا يُضَاهِي جَمَالَهُ
 وَيَحْظِي بِنَجْحِ مَنْ بِهِ يَتَوَسَّلُ
 عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْلَى صَلَاةَ صَلَاتُهَا
 عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ بِالسُّؤْلِ تُقْبَلُ
 وَأَرْكَى سَلَامٍ لَا يَزَالُ عَبِيرُهُ
 يَفُوقُ عَلَى الْمِسْكِ الذَّكِيِّ وَيَفْضُلُ
 وَآلٌ وَأَصْحَابُ، بِدُورٍ وَسَادَةٌ
 تَحُلُّوا فَكُلُّ فِي حُلَاةٍ مُكَمَّلُ

— قصيدة: لَوْلَاكَ مَا كَانَ وَدِّي:

لَوْلَاكَ مَا كَانَ وَدِّي	وَلَا مَنَازِلُ لَيْلَا
وَلَا حَادَا قَطُّ حَادٍ	وَلَا سَارَ الرِّكْبُ مَيْلَا
يَا حَادِي الْعَيْسِ مَهْلَا	هَلْ جُرْتُ فِي الْحَيِّ أَمْ لَا
عَشِيقَتُهُمْ فَسَبَّوْنِي	لَا تَحْسَبِ الْعِشْقُ سَهْلَا
فَأَيْنَ كُنْتُ وَجِئْتُ	حَبِيبَ لِي قَدْ تَجَلَّى
عَشِيقَتُهُ فَسَلَّبَنِي	فَصِرْتُ عِنْدَهُ أَهْلَا

فَلَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تُبْصِرْ إِلَّا هَوَاكَ لِي سَهْلًا
ظَهَرْتُ لِي بِجَمَالٍ فَشُرْبِي زَادَ وَعَلَا
فَأَنْتَ رُوحِي وَجِسْمِي لَا فَرْقَ عَنكَ وَإِلَّا
حَتَّى إِذَا مَا تَجَلَّى هَوَاكَ فِي قَلْبِي حَلًّا

— قصيدة: أهل المحبة:

أَهْلُ الْمَحَبَّةِ بِالْمَحْبُوبِ قَدْ شَغِلُوا
وَفِي مَحَبَّتِهِ أَرْوَاحُهُمْ بَذَلُوا
وَحَرَبُوا كُلَّ مَا يَفْنَى وَقَدْ عَمَرُوا
مَا كَانَ يَبْقَى فَيَا حُسْنَ الَّذِي عَمِلُوا
لَمْ تُلْهِمِهِمْ زِينَةَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفَهَا
وَلَا جَنَاهَا وَلَا حِلْيَ وَلَا حُلَّ
هَامُوا عَلَى الْكُونِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ طَرَبٍ
وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِمْ رَبْعٌ وَلَا طَلَلُ
دَاعِي التَّسَوُّفِ نَادَاهُمْ وَأَقْلَقَهُمْ
فَكَيْفَ يَهْنَوْنَ وَنَارُ الشَّوْقِ تَشْتَعِلُ
مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ قَدْ سَارَتْ عَزَائِمُهُمْ
وَفِي خِيَامِ حِمَى الْمَحْبُوبِ قَدْ نَزَلُوا

وَأَفْتْ لَهُمْ خَلْعَ التَّشْرِيفِ يَحْمِلُهَا
 عَرَفُ النَّسِيمِ الَّذِي مِنْ نَشْرِهِ تَمِلُوا
 هُمْ الْأَحْيَاءُ أَذْنَاهُمْ لِأَنَّهُمْ
 عَنْ خِدْمَةِ الصَّمَدِ الْمَحْبُوبِ مَا غَفَلُوا
 سُبْحَانَ مَنْ خَصَّهُمْ بِالْقُرْبِ حِينَ قَضَوْا
 فِي حُبِّهِ وَعَلَى مَقْصُودِهِمْ حَصَلُوا

— موشح: ركبت بحرأ:
 رَكِبْتُ بَحْرًا مِنْ الدُّمُوعِ
 وَسُفُنُهُ¹ جِسْمِي النَّحِيلُ
 فَمَزَّقَتْ رِيحُهُ قُلُوعِي
 مُدَّ² عَصَفَتْ سَاعَةُ الرَّحِيلِ

يَا جِيرَةَ³ خَلَّفُوا عِيُونِي⁴
 تَجْزِي عَلَى الْخَدِّ كَالْعِيُونِ

¹ في نص: ((سفينه)).

² في نص: ((قد)).

³ في نص: ((يا جبرتي)).

⁴ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((يا جيرة خلفت عيوني)).

خَيِّتُمُوا فِي الْهَوَىٰ ظُنُونِي
مَا هَكَذَا كَانَتْ الظُّنُونُ
مُنُوا وَلَا تَطْلُبُوا مَنُونِي
فَإِنَّ هِجْرَانَكُمْ مَنُونُ

وَجَمُّوا الدَّارَ بِالرُّجُوعِ
وَبَرُّتُوا لَوَعَةَ الْعَلِيلِ¹
وَسَامِحُوا الطَّرْفَ بِالْهُجُوعِ
وَقَصَّروا لَيْلِي الطَّوِيلِ

وَاللَّهُ وَاللَّهُ مَا سَقَانِي
كَأْسَ الرَّدَىٰ غَيْرُ هَجْرِكُمْ
أَفْنَيْتُ فِي حُبِّكُمْ زَمَانِي
وَمَا وَفَيْتُ² بِوَعْدِكُمْ
عِنْدِي مِنَ الشَّوْقِ مَا كَفَانِي
فَلَا تَزِيدُوا بِصَدِّكُمْ

¹ في نص: ((الغليل)).
² في نص: ((وما وفيت)).

فَرَّقْتُمُوهُ فِي الْهَوَىٰ جُمُوعِي
وَسَوَّيْتُمُوهُ صُحْبَةَ الدَّلِيلِ
وَمَا نَظَرْتُمْ إِلَىٰ خُضُوعِي
وَوَقَفْتِي وَقْفَةَ الدَّلِيلِ

يَا سَائِقَ الْعَيْسِ بِالْمَحَافِلِ
فِي طَلْعَةِ¹ الْبَيْدِ وَالْقِفَارِ
عَرَّجَ عَنِ الْأَرْبَعِ الْأَوَائِلِ
وَأَقْصَدَ بِهَا أَشْرَفَ الدِّيَارِ²
وَالْمَاءُ إِنْ قَلَّ فِي الْمَنَاهِلِ
أَوْ رُمَتْ عِنْدَ النُّزُولِ نَارُ

فَالْتَمَسِ الْمَاءَ مِنْ دُمُوعِي
فَكَمْ لَهَا فِي الْفَلَاسِيبِ
وَأَقْتَبَسِ النَّارَ مِنْ ضُلُوعِي
فَفِي الْحَشَا حَشْوُهَا شَعِيلُ

¹ في نص: ((في تلعة)).
² في نص: ((أشرق الديار)).

بِاللَّهِ إِن لَّاحَتِ الْقِيَابُ
 سَلَّمَ عَلَى سَاكِنِي قُبَا¹
 وَقُلْ لَهُمْ حَيْكُمُ² مُصَابُ
 وَقَلْبُهُ نَحْوَكُمْ صَبَا
 يَا قَمَرُ دُونَهُ³ حَجَابُ
 عَنِّي سَنَا الْبَذْرِ حُجْبَا

بِذْرُ إِذَا لَاحَ بِالرُّجُوعِ⁴
 أَوْ بَانَ بِالْبَانِ وَالنَّخِيلُ
 أَخْفَى سَنَا الشَّمْسِ فِي الطُّلُوعِ
 جَمَالُهُ الْبَاهِرُ الْجَمِيلُ

— قصيدة زجل دارت علينا كؤوس:
 دارت علينا كؤوس
 مِنْ خَمَرِهِ الْبَالِي

¹ في نص: ((قُب))؛ بدون ألف.

² في نص: ((صبيكم)).

³ في نص: ((دونهم)).

⁴ في نص: ((بالربوع)).

وَلَا تَطْيِيبُ النَّفُوسِ
إِلَّا بِأَمْتٍ _____إِلَيَّ

دَارَتْ عَلَيْنَا كُؤُوسُ
فِي حَضْرَةِ الْمَحْبُوبِ
وَاهِلِ الْمَعَانِي جُلُوسُ
وَمَنْ دَخَلَ يَشْرَبُ
وَلَا تَطْيِيبُ النَّفُوسِ
إِلَّا لِمَنْ يَقْرُبُ

بَحْرُ الْمَعَانِي نَغُوصُ
هَذَاكَ هُوَ حَالِي
وَلَا تَطْيِيبُ النَّفُوسِ
إِلَّا بِأَمْتٍ _____إِلَيَّ

اسْقُونِي يَا سَادَاتِي
 خَمْرَ أَلْهَا أُلُوانِ
 كَيْ تَنْقُضِي¹ حَاجَاتِي
 وَحَاجَاتِ² الْإِخْوَانِ
 وَمَنْ حَضَرَ حَضْرَتِي
 يَظْهَرْ لَهُ بُرْهَانِ³

شَرَقَتْ عَلَيْنَا شُمُوسُ
 فِي الْوَقْتِ وَالْحَالِ
 وَلَا تَطِيبُ الْنُفُوسُ
 إِلَّا بِأَمْنٍ _____ إِلَيَّ

مِنْ خَمْرِ أَهْلِ التَّقَى
 اسْقُونِي يَا نَاسُ
 مَحْفُوفَةً بِالْبَقَا
 مَمْرُوجَةً فِي الْكَاسِ
 مِنْهَا شَرِبْ وَارْتَقِ
 الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ

¹ في نص: ((لتنقضي)).

² في نص: ((واحواج)).

³ في نص: ((البرهان))؛ بالألف واللام.

مَا هِيَ بِثَمْنِ الْفُلُوسِ
وَقَدَرُهَا غَالِي¹
وَلَا تَطِيبُ النَّفُوسَ
إِلَّا بِأَمْتٍ _____ أَلِي

غَرَسْتُ فِي حَضْرَتِي
شَجَرَهُ² مِنَ التَّوْحِيدِ
الْأَصْلُ فِي قَبْضَتِي
وَالْفَرْغُ صَارَ إِزِيدَ
وَلَا جَنَى³ ثَمَرَتِي
إِلَّا ذَوِي التَّجْرِيدِ
وَعَلَّتْ⁴ فَوْقَ الرُّؤُوسِ
عِزّاً وَإِجْلَالِ
وَلَا تَطِيبُ النَّفُوسَ
إِلَّا بِأَمْتٍ _____ أَلِي

¹ في نص: ((علي)).

² في نص: ((شجراً)).

³ في نص: ((يجني)).

⁴ في نص: ((واعلت)).

أَوْصِيكَ¹ يَا مَنْ حَضَرَ
لَا تَقْرَبُوا² الشَّجَرَا
إِلَّا بِلَمَحِ الْبَصَرِ
وَصُحْبَةِ الْفُقَرَا
إِذَا³ جَنَيْتَ الثَّمَرَ
مِنْ عِلَّتِكَ تَبَرَا

وَانْجُول⁴ بَيْنَ الْغُرُوسِ
عِزّاً وَإِجْلَالِ
وَلَا تَطِيبِ النَّفُوسِ
إِلَّا بِأَمِّهِ الْي

- رجز: يَا عَيْنِي لَا زَمِي السَّهَرُ⁵:
يَا عَيْنِي لَا زَمِي السَّهَرُ
طُـوْلَ اللَّيْلِ الْي

¹ في نص: ((أوصيك)).

² في نص: ((لا تقرب)).

³ في نص: ((وإذا)). بالدارجة.

⁴ في نص: ((تجول)).

⁵ ثمة من ينسب هذا الزجل أيضاً لأبي الحسن الششتري. وهذا الزجل منشور في ديوانه؛ كما نشر في ديوان أبي مدين.

عَشَقِي فِي مَحْبُوبِي اِسْتَهَرَ
رُقُوا لِحَالِي

مَنْ نَعَشَقُهُ¹ مَالِي سِوَاهُ
وَلَا نَمَّا²
وَلَمْ نَزَلْ³ نَتَّبِعْ رِضَاهُ
الذَّهْرُ كَأَنَّ
وَمَنْ يُلُومُنِي فِي هَوَاهُ
نَبْدًا نَقُولُ لَهُ⁴

يَا لَأَيْمِي مَا تَعْتَبِرُ
مِنْ ضَعْفِ حَالِي
عَشَقِي فِي مَحْبُوبِي اِسْتَهَرَ
رُقُوا لِحَالِي

يَا لَأَيْمِي فَلَا مَلَامَ
حُبِّي مُوَاصِلُ

¹ في نص: ((من نعشق)).

² في نص: ولا نملو)).

³ في نص: ((لا نزل)).

⁴ في نص: ((نقول لو)).

اسْقِنِي يَا سَاقِيَ الْمُدَامَ
صَافِي الْمَنَاهِلِ
خَمْرًا يَهِيْجُ الْغَرَامَ
لِمَنْ هُوَ عَاقِلٌ

أَبْرُهُ¹ عَلَيْنَا فِي السَّخَرِ
وَالْجَوُّ خَالِي
عَشَقِي فِي مَحْبُوْبِي اسْتَهْرَ
رُقُّوا لِحَالِي

سَكَّرُوا جَمِيعَ أَهْلِ الْهَوَى
يَا سَاقِيَ الرَّاحِ
هَذَا انْعَكَفَ هَذَا التَّوَى
هَذَا فِي الْأَفْرَاحِ
لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
وَالسَّرُّ قَدْ بَاخَ

¹ في نص: ((برها)).

أَنَا غَرَامِي قَدْ ظَهَرَ
بَيْنَ الرَّجَالِ
عَشَقِي فِي مَحْبُوبِي لَشَتَّهَرُ
رُقُوا لِحَالِي

— قصيدة: استغفارة أبي مدين:
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مُجِرِ الْفُلْكِ فِي الظُّلَمِ
عَلَى عُبَابٍ مِنَ النَّيَّارِ مُلْتَطِمِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مُنْجِي الْمُسْتَجِيرِ بِهِ
إِذَا أَلَمَ بِهِ ضُرّاً مِنَ الْأَلَمِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ غَفَّارِ الذُّنُوبِ لِمَنْ
بِالْإِنْكَسَارِ أَتَى وَالذُّلِّ وَالنَّدَمِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ سَتَّارِ الْعُيُوبِ عَلَى
أَهْلِ الْعُيُوبِ وَمُنْجِيهِمْ مِنَ النَّقَمِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ نَطْقِي وَمَنْ خَلَقِي
وَشَيْنِ شَأْنِي وَمِنْ شَكْلِي وَمِنْ شِمِي
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ سِرِّي وَمِنْ عَلَنِي
وَمِنْ تَقَلُّبِ قَلْبِي وَابْتِسَامِ فَمِي

اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِي وَمِنْ عَمَلِي
 وَمِنْ مَجَاهِدَتِي جَهْدِي وَمِنْ سَأَمِي
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ سَمْعِي وَمِنْ بَصَرِي
 وَمِنْ ضَمِيرِي وَمِنْ فِكْرِي وَمِنْ كَلَمِي
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ جُرْمِي¹ وَمِنْ زَلَلِي
 وَمِنْ كِبَائِرِ آثَامِي وَمِنْ لَلَمِي
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا قَدْ جَنَنْتُهُ يَدِي
 مِنْ الْخَطَايَا وَمَا قَدَّمْتُ بِالْقَدَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا لَمْ تَكُنْ كَسَبْتُ
 كَفِّي وَمَا اكْتَسَبْتُ فِي مَبْلَغِ الْحُلُمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ نَفْسِي
 وَخَاطِرِي وَخُطُورِ الْوَهْمِ بِالتَّهَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ طَبْعِي وَمِنْ طَمَعِي
 وَمِنْ تَحَوُّلِ حَالِي حَالَةَ السَّقَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِي أَنَا وَمَعِي
 وَلِي وَعِزِّي وَمِنْ ظَنِّي وَمِنْ قَسَمِ²
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا لَسْتُ أَعْلَمُهُ
 وَمَا عَلِمْتُ وَمَا حَرَفْتُ بِالْقَلَمِ

¹ في نص: ((من فعلي)).
² في نص: ((زعمي)).

اسْتَغْفِرُ مِنْ يَوْمِي وَمِنْ لَيْلَتِي
 وَمِنْ غَدِي قَبْلَ أَنْ يَبْدُوا مِنْ عَدَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا لَسْتُ أَعْلَمُهُ
 وَمَا عَلِمْتُ وَمَا حَرَفْتُ بِالْقَلَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ نَوْمِي وَمِنْ سِنَتِي
 وَيَقْظَتِي وَبِهِ مَا عِشْتُ مُعْتَصِمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا كَانَ فِي صِغَرِي
 مِنَ الْخَلَافِ لِعُمْرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ مَا هَبَّتْ يَمَانِيَّةٌ
 وَسَحَّتِ السُّحُبُ فِي الْأَطَامِ وَالْأَكَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا سَارَ الْحَجِيجُ إِلَيَّ
 مَعَالِمَ شُرُفَتْ بِالْحِلِّ وَالْحَرَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا لَاحَ الصَّبَّاحُ وَمَا
 تَغَنَّتِ الطَّيْرُ¹ فِي الْأَغْصَانِ بِالنَّعَمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الْحُرُوفِ وَمَا
 فِي الذِّكْرِ مِنْ آيَةٍ تُتْلَى وَمِنْ حِكْمِ
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الْهَوَامِ وَمَا
 فِي الْأَفْقِ مِنْ عَالَمٍ وَالْأَرْضِ مِنْ عِلْمِ

¹ في نص: ((الْوَزَقُ)).

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ النَّبَاتِ وَمَا
 فِي الْبَحْرِ مِنْ نِعْمَةٍ وَالْبَرِّ مِنْ نِعَمٍ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الرِّيَّاحِ وَمَا
 تَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالنَّسَمِ¹
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الْكَوَاكِبِ فِي
 تَاجِ الْغِيَاهِبِ مِنْ بَاكِ وَمُكْتَتِمِ²
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الرِّمَالِ وَمَا
 يَنْهَلُ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا مِنَ الدِّيمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الْخَلَائِقِ مِنْ
 إِنْسٍ وَجِنٍّ وَمِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعْدَادَ الْخَوَاطِرِ فِي
 بُدُورِ أُولِي النُّهَى وَالْعِلْمِ وَالْحِكَمِ³
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ جَلَّ اللَّهُ قَابِضُنَا
 مُقْنِي الْقُرُونِ وَمُقْنِي سَائِرِ الْأُمَمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَوْلَانَا وَخَالِقُنَا
 مِنْ كُلِّ تَقْصِيرٍ بِالشُّكْرِ لِلنِّعَمِ

¹ في نص: ((من الأوقات والقسم)).

² جاء هذا البيت في أحد النصوص هكذا:

استغفر الله تعداد النجوم وما في غيب الليل من بادر ومكتتم

³ في نص: ((صدور أولي التقى والعلم والحكم)).

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ جَلَّ اللَّهُ خَالِقَنَا
 مِنْ الْبَرَايَا وَمُخِي الْأَعْظَمِ الرَّمَمِ¹
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ جَلَّ اللَّهُ رَازِقَنَا
 الْمُنْعِمُ الْمُفْضِلُ الْمَوْصُوفُ بِالْكَرَمِ²
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ جَلَّ اللَّهُ بَاعِثُنَا
 مِنْ يَوْمٍ³ مُزْدَحَمِ الْأَمْلاكِ وَالْأُمَمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً
 مِمَّا ذَكَرْتُ مِنَ الْأَجْنَاسِ وَالْقَسَمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَا تُحْصِي لَهُ نِعَمٌ
 الْمُنْعِمُ الْمُفْضِلُ الْمَوْصُوفُ بِالْكَرَمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَا أَحْصِي عَلَيْهِ ثَنِي
 أَتَنَّى عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ فِي الْقَدَمِ
 ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ⁴
 خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مِنْ بَاكِ وَمُبْتَسِمِ

¹ في نص: ((مُبْدِي الْبَرَايَا وَمُنْشُونَا مِنَ الْقَدَمِ)).

² في نص: ((قَبْلُ الْوُجُودِ وَقَبْلُ سَائِرِ الْقَسَمِ)).

³ في نص: ((الْيَوْمِ)).

⁴ في نص: ((عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا)).

— قصيدة: متى يا غريبَ الحيِّ عني تراكمُ:

زعم بعضهم — خطأ — أن هذه القصيدة لبدر الدين الجمالي (الشهير بالجيوشي)؛ وقالوا أنه كتبها في حق سيدنا الحسين. والجيوشي هذا؛ مملوك من أصل أرمني؛ وكان وزيراً للخليفة الفاطمي المستنصر؛ برع في قيادة الجيوش والتنظيم الإداري؛ ولكن؛ لم يؤثر عنه أي ولوع بالشعر. اللهم إلا إذا كان المقصود هو شريف الدين سليمان بن بليمان ابن أبي الجيش؛ (المتوفي سنة 686هـ/1287م)؛ وكان يقرض الشعر. ومع هذا فالقصيدة المنسوبة إليه أو إلى غيره — كما تبدو — لا علاقة لها بسيدنا الحسين. وربما قام بعض المنتحلين بإدماج أبيات أبي مدين مع أبيات أخرى؛ ونسبوها لهذا الوزير.. والله أعلم. المهم؛ أن جُلَّ من كتب عن هذه القصيدة؛ نسبوها لقطب الصالحين أبي مدين شعيب. أما القصيدة المنتحلة؛ فقد اشتملت على أبيات من قصيدة أبي مدين. وهي كما ترى في الهامش. أما

قصيدة أبي مدين هذه؛ فقد شاع ذكرها، وتناقلها
الناس شرقاً وغرباً، ولحنت بألحان مختلفة:¹

مَتَى يَا عُرَيْبَ الْحَيِّ عَيْنِي تَرَاكُمُ
وَأَسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ نِدَاكُمُ
وَيَجْمَعُنَا الدَّهْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا
وَيَحْظَى بِكُمُ قَلْبِي وَعَيْنِي تَرَاكُمُ

¹ متى يا كِرَامَ الْحَيِّ عَيْنِي تَرَاكُمُ
أَمَرُ عَلَى الْأَبْوَابِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
حَلَفْتُ يَمِينًا لَسْتُ أَسْأَلُ هَوَاكُمُ
سَقَائِي الْهَوَى كَأَسَا مِنَ الْحُبِّ صَافِيًا
وَإِنْ صَاحَ صَيَّاحٌ وَنَادَى بِذِكْرِكُمْ
وَيَالَيْتَ قَاضِي الْحُبِّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا
فَإِنْ تَعَلَّزْتُونِي كُنْتُ عَبْدًا لِعَبْدِكُمْ
أَيَا قُرَّتِ الْعَيْنُ يَا غَالِيَةَ الْمُنَى
وَإِنْ قِيلَ لِي مَاذَا عَلَى اللَّهِ تَشْتَهِي
مَتَى تَجْمَعُ الدُّنْيَا الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَنَا
فَإِنِّي وَإِنْ طَالَ الْمَدَى عِشْتُ بِالرَّجَا
لَعَلَّ فَتَى مِثْلِي أَبْرَبَ بِهِ الْهَوَى
وَلَا تَدْفِنُونِي تَحْتَ قَرْنٍ وَإِنَّمَا
أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ إِنْ مِتُّ فَارْتَبُوا

واسمعُ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ نِدَاكُمُ
لَعَلِّي أَرَاكُمُ أَوْ أَرَى مِنْ يَرَاكُمُ
وَقَلْبِي حَزِينٌ مُفْرَمٌ بِهَوَاكُمُ
فَيَا لَيْتَهُ لِمَا سَقَائِي سَقَاكُمُ
فَسَمِعِي لَهُ صَاغٍ يُرَاعِي نِدَاكُمُ
وَدَاعِي الْهَوَى لِمَا دَعَائِي دَعَاكُمُ
وَإِنْ تَعْلُونِي كَانَ لَمَنِّي رِضَاكُمُ
جُدْ بِالْوِصَالِ فَإِنَّ قَصْدِي لِقَاكُمُ
لَقُلْتُ رِضَى الرَّحْمَنِ ثُمَّ رِضَاكُمُ
وَيَحْظَى بِكُمُ قَلْبِي وَعَيْنِي تَرَاكُمُ
وَجَلَّ مَرَادِي بَعْدَ مَوْتِي أَرَاكُمُ
يَمُرُّ عَلَى قَبْرِي عَلَيَّ يَسْلَمُ
عَلَى جَبَلٍ عَالٍ لَعَلِّي أَرَاكُمُ
عَلَى لَوْحِ قَبْرِي إِنْ هَذَا مُتَيَّمُ

أَمْرٌ عَلَى الْأَبْوَابِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مَنْ يَرَاكُمْ¹
سَقَانِي الْهَوَى كَأْساً مِنْ الْحُبِّ صَافِياً
فِيَا لَيْتَهُ لَمَّا سَقَانِي سَقَاكُمْ
فِيَا لَيْتَ قَاضِي الْحُبِّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا
وَدَاعِي الْهَوَى لَمَّا دَعَانِي دَعَاكُمْ
أَنَا عَبْدُكُمْ بَلْ عَبْدُ عَبْدٍ لِعَبْدِكُمْ
وَمَمْلُوكُكُمْ مِنْ بَيْعِكُمْ وَشِرَاكُمْ
كَتَبْتُ لَكُمْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَدِي
وَإِنْ قَلَّتِ الْأَمْوَالُ رُوحِي فِدَاكُمْ
لِسَانِي بِمَجْدِكُمْ وَقَلْبِي بِحُبِّكُمْ
وَمَا نَظَرْتُ عَيْنِي مَلِيحاً سِوَاكُمْ

¹ المعنى العام لهذا البيت؛ مستمد من بيت قيس بن الملوح (الشهير
بمجنون ليلى)؛ وفيه يقول:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شقفت قلبي ولكن حباً من سكن الديار
ومن هنا؛ يفهم أن أبا مدين شعيب؛ يكون قد اطلع على ديوان مجنون
ليلى؛ ذلك العاشق الولهان؛ الذي فقد وعيه، بفقد حبيبته.

وَمَا شَرَّفَ الْأَكْوَانَ إِلَّا جَمَالَكُمْ
وَمَا يَقْصِدُ الْعُشَّاقُ إِلَّا سَنَاكُمْ
وَإِنْ قِيلَ لِي مَاذَا عَلَى اللَّهِ تَشْتَهِي
أَقُولُ: رَضِيَ الرَّحْمَنُ ثُمَّ رِضَاكُمْ
وَلِي مُقَلَّةٌ بِالدَّمْعِ تَجْرِي صَبِيحَةً
حَرَامٌ عَلَيْهَا النَّوْمُ حَتَّى تَرَائَكُمْ
خَذُونِي عِظَاماً مُحَمَّلاً أَيْنَ سَرْتُمْ
وَحَيْثُ حَلَلْتُمْ فَادْفُونِي حِذَاكُمْ
وَذُورُوا عَلَى قَبْرِي بِطَرْفِ نِعَالِكُمْ
فَتَحِيَا عِظَامِي حَيْثُ أَصْغِي نِدَاكُمْ
وَقُولُوا رَعَاكَ اللَّهُ يَا مَيِّتَ الْهَوَى
وَأَسْكَنَكَ الْفَرْدَوْسُ قُرْبَ حِمَاكُمْ

— مقطوعة: أنا يا مدير الراح¹:

أفْئاني الغَرامُ	أنا ² يا مُدير الرَّاحِ
يا بَذْرَ التَّمَامِ	وَيَوْمَ نَرَاكَ نَرِتاحَ
لَيْلَةَ الظَّلامِ ³	وَجْهَكَ يُعْني عَنْ مُصباحَ
نَصْبِرُ ⁴ يا صَدِيقَ	قُلْ لِي كَيْفَ نَطِيقَ
تَكُونُ ⁵ لِي رَفِيقَ	بِفَضْلِكَ يا نُورَ عَيْنِي
وَأَنْعَمَ بِالوِصالِ	مَلِيحُ الحَمَى قَدْ زارَ
يا بَذْرَ الكَمالِ	وَرُوحِي قَدْ تَعَطَّرَ
طَلَعَ الهالِ	بَعْدَ الغَيْبِ يا حُضَّارَ
مُجْلَى كُلِّ ضَيْقَ	بِوَجْهِ شَرِيقَ
تَكُونُ لِي رَفِيقَ	بِفَضْلِكَ يا نُورَ عَيْنِي
طَبِيبِي حَكِيمَ	يا مَعْشَرَ الفُقَرا

¹ هذه المقطوعة الزجلية؛ نسبها بعضهم إلى أبي الحسن الششتري. وضمها جامع ديوانه ومحققه إلى قصائده؛ ولكنه شكك فيها. بل؛ وضعها في آخر الديوان ضمن بعض القصائد المبتورة الملحقة بالديوان الأصلي؛ معتقداً أنها من المقطوعات المتداولة بين أعضاء السادة الشاذلية. ومن هنا تكون أقرب لما أنتجه أبي مدين شبيب؛ حيث أن معظم قصائده متداولة بين مريدي الطريقة الشاذلية. كما أن ما نسب إلى الششتري ناقص ومبتور؛ ولا يضاها ما ورد في مقطوعة أبي مدين.

² في نص: ((أنا)).

³ في نص: ((ليلة الظلام)).

⁴ في نص: ((أصير)).

⁵ في نص: ((تكن)).

أَطْلَعْنِي عَلَى الْحَضْرَةِ	كَانَ لِي نَدِيمٌ
سَقَانِي مَزِيدَ خَمْرِهِ	مِنْ خَمْرٍ قَدِيمٍ
سَقَانِي رَحِيقُ	أَبْيَضُ كَالشَّقِيقِ
بِفَضْلِكَ يَا نُورَ عَيْنِي	تَكُونُ لِي رَفِيقُ

— قصيدة أدرها (الشهيرة بخميرة أبي مدين):

أَدْرِهَا لَنَا صِرْفًا وَدَعْ مَرْجَهَا عَنَّا
فَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَعْرِفُ الْمَرْجَ مُذْ كُنَّا
وَعَنْ لَنَا فَالْوَقْتُ قَدْ طَابَ بِاسْمِهَا
لَأَنَّا إِلَيْهَا قَدْ رُحْنَا بِهَا عَنَّا
عَرَفْنَا بِهَا كُلَّ الْوُجُودِ وَلَمْ نَزَلْ
إِلَى أَنْ بِهَا كُلَّ الْمَعَارِفِ أَنْكَرْنَا
هِيَ الْخَمْرُ لَمْ تَعْرِفْ بِكَرَمٍ يَخْصُهَا
وَلَمْ يُجْلِهَا رَاحٌ وَلَمْ تَعْرِفِ الدُّنَا
لَهَا كُلُّ رُوحٍ تَعْرِفُ الْعَهْدَ عَهْدَهَا
وَفِي كُلِّ قَلْبٍ جَاهِلٍ لِلِسَّوَى مَعْنَى
مُشَعَّسَةً يَكْسُو الْوُجُوهَ جَمَالُهَا
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ لُطَافِهَا مَعْنَى

حَضَرْنَا وَغَيْنَا عِنْدَ تَوْرِ كُؤُوسِهَا
 وَعَدْنَا كَأَنَّا لَا حَضَرْنَا وَلَا غَيْنَا
 وَأَبَدْتُ لَنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ إِشَارَةً
 وَمَا احْتَجَبْتُ إِلَّا بِأَنْفُسِنَا عَنَّا
 فَلَمْ تُطِقِ الْأَفْهَامُ تَغْيِيرَ كُنْهَهَا
 وَلَكِنَّهَا لَادَتْ بِالْطَافِهَا الْحُسْنَى
 نَصْحَتِكَ لَا تَقْصُدْ سِوَى بَابِ حَانِهَا
 فَمَنْ وَجَدَ الْأَعْلَى فَلَا يَطْلُبُ الْأَدْنَى
 مَوَانِعُهَا مِنَّا حُظُوظُ نَفُوسِنَا
 فَإِنْ قُطِعَتْ عَنَّا إِلَيْهَا تَوَاصِلُنَا
 تَجَلَّتْ ثُنُوءًا وَاخْتَفَتْ بِمِظَاهِرِ
 وَجَلَّتْ فَمَا أَغْنَى وَدَقَّتْ فَمَا أَسْنَى
 وَمَا الْكَوْنُ إِلَّا مَظْهَرٌ لِجَمَالِهَا
 أُرْتَبَا بِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَدَأَ حُسْنًا
 لَهَا الْقَدَمُ الْمَحْضُ الَّذِي شَفَعَتْ بِهِ
 بَقَاءَ غَدَا يُفْنِي الزَّمَانَ وَلَا يُفْنَى
 يُعِيدُ وَيُنْذِي فِعْلَهَا كُلَّ مُحَدَّثٍ
 وَكُلَّ قَدِيمٍ فَهِيَ قَدْ حَازَتْ الْمَعْنَى
 فَمَا وَجَدَ الْآبَاءُ مِنْ لُطْفٍ صُنْعِهَا
 عَلَى قَدَمِ الْأَحْيَانِ مَا أَنْكَرَ الْإِنْسَانَا

أَذَاكِرُهَا قِفْ عِنْدَ حَدِّكَ وَأَقِفَا
بِعَقْلِكَ عَمَّا حَيَّرَ الْعَقْلَ وَالذِّهْنَ
أَتَزْعُمُ فِيمَا قُلْتَ أَنَّكَ عَارِفٌ
رُؤْيُكَ مَا الْعِرْفَانُ قَالُوا وَلَا قُلْنَا
لَقَدْ رُمْتَ مَا لَا تَسْتَطِيعَ مَرَامَهُ
وَأَنَّى لَهَا حَدٌّ يُكَيِّفُهَا أَنَّى
كَفَاكَ بِأَعْيَانِ الْوُجُودِ مُفَكَّرًا
بِكُلِّ مَلِيحٍ يَمْلَأُ الْعَيْنَ وَالْأَذْنَ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْعِزِّ إِنْ رُمْتَ عِزَّهَا
فَمَنْ رَامَ أَنْ يَحْيَا بِهَا دَائِمًا يَفْنَى
إِلَيْهَا جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ مَشُوقَةٌ
تُرِيدُ افْتِخَارًا وَهِيَ عَنْهُمْ مَا أُغْنَى
لَهَا مُطْلَقُ الْوَجْهِ الْحَسَنِ الَّذِي نَأَتْ
جَنَائِثُهُ لَكِنَّهَا أَبَدًا تُجْنَى
وَمَا الْعَقْلُ إِلَّا مِنْ مَوَاهِبِ جَوْدِهَا
غَدَا وَلَهَا فِي أَمْرِهَا طَائِعَا عَنْ
يَقُولُ أَنَاسٌ قَدْ تَمَلَّكَهُ الْهَوَى
أَجَلٌ، لَسْتُ فِي لَيْلَى بِأَوَّلِ مَنْ جُنَّ
جُئِنْتُ بِهَا عَنْ كُلِّ مَا عَلِمَ الْوَرَى
وَأَظْهَرَ لُبِّي وَالْمَرَادُ سِوَى لُبِّي

وَأِنِّي كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ مُوحَّدٌ
وَأِنْ مِلْتُ تَمْوِيهَا إِلَى الرُّوضَةِ الْغَنَّا
يَذْكُرُنِي مَرُّ النَّسِيمِ بِعُرْفِهَا
وَيُطْرِبُنِي الْحَادِي إِذَا بِاسْمِهَا غَنَّى
وَلَا عَجَبًا مِنِّي الْحَيْنُ، وَذُو الْهَوَى
إِذَا سَاقَهُ شَوْقٌ إِلَى قَصْدِهِ حَنَّ
فَلَلَّهِ مَا أَرْضَى فُؤَادِي لِمَا بِهِ
وَذَا الْحَالُ مَا أَحْلَى وَذَا الْعَيْشُ مَا أَهْنَا
أَوَافِقُ قَوْمًا ضَمَّهُمْ مَقْعَدُ الْهَوَى
وَأِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمْ قَاصِدًا فَنَّا
فَهَذَا يُوَارِي بِالْغَزَالَةِ غَيْرَهَا
وَهَذَا بَعَيْنِ السُّكْرِ يَسْتَلْمِحُ الْغَصْنَ
وَهَذَا بِلَيْنِ الْعُطْفِ يُبْدِي صَبَابَةً
وَهَذَا يَرَى مَيْلًا إِلَى الْمُقَلَّةِ الْوُسْنَى
وَذَا فِي سُرُورٍ بِالدُّنُوِّ وَذَالِهِ
غَرَامٌ وَهَذَا بِالنَّوَى يُظْهِرُ الْحُزْنَ
وَذَا بِاسِمٍ إِذْ نَالَ مَا كَانَ طَالِبًا
وَهَذَا يُسِيلُ الدَّمَعَ قَدْ قَرَّحَ الْجَفْنَ
وَذَا خَائِفٌ مِنْ قِطْعَةٍ بَعْدَ وَصْلَةٍ
وَذَا بِالرَّضَى مِنْ حَالِهِ وَجَدَ الْأَمْنَ

وهذا مُحِبٌّ بِالصُّدُودِ مُنْعَمٌ
 وَذَا آخِذٌ بِالصَّدِّ مِنْ قُرْبِهِ مُضْنَى
 وَهَذَا تَسَاوَى الْوَصْلُ وَالْهَجْرُ عِنْدَهُ
 فَأَنَحَا إِلَيْهَا يَقْطَعُ السَّهْلَ وَالْحَزْنَ
 وَهَذَا يَرَى بِالسَّيْفِ مِنْهَا إِشَارَةً
 فَيَسْتَأْقُ سَعِيًّا نَحْوَهَا الضَّرْبُ وَالطَّعْنُ
 وَهَذَا يَرَى كُلَّ الْجِهَاتِ مَقَاصِدًا
 وَهَذَا يَرَى مَهْدًا عَلَى مَتْنِهِ يُبْنَى
 وَمَا ضَرَّ هَذَا الْخَلْقُ وَالْقَصْدُ وَاحِدٌ
 إِذَا نَحْنُ أَخْلَصْنَا إِلَيْهِ تَوَجَّهْنَا
 دَعَا بِاسْمِهَا الْحَادِي وَنَحْنُ عَلَى الْغَضَا
 فَقُلْتُ لَهُ: "يَا اللَّهِ مِنْ ذِكْرِهَا زِدْنَا"
 فَجَادَ إِلَيَّ أَنْ أَهْدَتِ الرِّكْبُ نَشْوَةَ
 وَتَخَنُّ عَلَى الْأَكْوَارِ مِنْ طَرَبٍ مِلْنَا
 لَعُمْرِكَ حَتَّى الْعَيْسَ لَذَّ لَهَا السُّرَى
 عَجِبْتُ لَشَوْقِ يَشْمَلُ الرِّكْبَ وَالْبُذْنَا
 وَحَتَّى غُصُونُ الْبَانِ مَالَتْ تَرَنُّمًا
 وَغَنَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ صَادِحَةٍ شَجْنَا
 أَهْلَ عَائِدٍ لِي وَقْتُ كَيْ أَرَى بِهَا
 خَيَالَ سِوَى زَائِرٍ مَضْجَعِي وَهَنَا

فَإِنْ جَاعَنِي بِالْقُرْبِ مِنْهَا مُبَشِّرٌ
وَهَبْتُ لَهُ رُوحِي سُرُوراً وَمَا أُغْنِي
حَيِّينَا بِهَا دَهْرًا وَقَدْ حَكَمْتُ لَنَا
وَنَحْنُ بِهَا نَحْيًا يَقِينًا إِذَا مِتْنَا
فَلَسْتُ أَرَى عِنْدِي لِحَالِي تَغْيِيرًا
وَلَا مُطَرِّقًا فِكْرًا وَلَا قَارِعًا سِنًا
وَأِنِّي عَلَى مَا أَكَّدَ الْعَهْدُ بَيِّنًا
مَدَى الدَّهْرِ لَا خُنَا الْعُهُودَ وَلَا حُلْنَا

- قصيدة: أشواق:

تَضِيقُ بِنَا الدُّنْيَا إِذَا غَيْبْتُمْ عَنَّا
وَتَذْهَبُ بِالأَشْوَاقِ أَرْوَاحَنَا مِنَّا
فَبَعْدُكُمْ مَوْتٌ وَقُرْبُكُمْ حَيَا
فَإِنْ غَيْبْتُمُوا عَنَّا وَلَوْ نَفْسًا مُنْتَا
نَمُوتُ بِبَعْدِكُمْ وَنَحْيَا بِقُرْبِكُمْ
وَإِنْ جَاعَنَا عَنْكُمْ بِشِيرُ اللَّقَا عِشْنَا
وَنَحْيَا بِذِكْرِكُمْ إِذَا لَمْ نَرَاكُمْ
أَلَا إِنَّ تَذْكَارَ الأَحْيَةِ يُنْعِشُنَا

فَلَوْلَا مَعَانِيكُمْ تَرَاهَا قُلُوبُنَا
إِذَا نَحْنُ أَتَقَاطُ وَفِي النَّوْمِ إِنْ غِنَا
لَمَتُّنَا أَسَى مِنْ بُعْدِكُمْ وَصَبَابَةٌ
وَلَكِنْ فِي الْمَعْنَى مَعَانِيكُمْ مَعْنَا
يُحَرِّكُنَا ذِكْرُ الْأَحَالِيثِ عَنْكُمْ
وَلَوْلَا هَوَاكُمُ فِي الْحَسَا مَا تَحَرَّكْنَا
فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْوَجْدِ أَهْلُهُ
إِذَا لَمْ تَذُقْ مَعْنَى شَرَابِ الْهَوَى دَعْنَا
إِذَا اهْتَزَّتْ الْأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا
تَرَقَّصَتْ الْأَشْبَاحُ يَا جَاهِلَ الْمَعْنَى
أَمَا تَنْظُرُ الطَّيْرَ الْمُقْفَصَ يَا فَتَى
إِذَا ذَكَرَ الْأَوْطَانَ حَنًّا إِلَى الْمَعْنَى
يُفَرِّجُ بِالتَّغْرِيدِ مَا بِفُؤَادِهِ
فَتَضْطَرِبُ الْأَعْضَاءُ فِي الْحَسِّ وَالْمَعْنَى
وَيَرْقُصُ فِي الْأَقْفَاصِ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا¹
فَتَهْتَزُّ أَرْيَابُ الْعُقُولِ إِذَا غَنَى
كَذَلِكَ أَرْوَاحُ الْمُحِبِّينَ يَا فَتَى
تُهْزِزُهَا الْأَشْوَاقُ لِلْعَالَمِ الْأَسْنَى

¹ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((ويرقص في الأقفاص من فرط وجده)).

أَنْلَزِمُهَا¹ بِالصَّبْرِ وَهِيَ مَسْوَقَةٌ
 وَهَلْ² يَسْتَطِيعُ الصَّبْرُ مَنْ شَاهَدَ الْمَعْنَى
 إِذَا لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَتِ النَّاسُ فِي الْهَوَى
 فَبِاللَّهِ يَا خَالِي الْحَسَا لَا تُعَفِّئْنَا
 وَسَلِّمْ لَنَا فِيمَا ادَّعَيْنَا لِأَنَّنَا
 إِذَا غَلَبَتْ أَشْوَاقُنَا رَبُّمَا صِحْحَا
 وَتَهْتَزُّ عِنْدَ الْإِسْتِمَاعِ قُلُوبُنَا
 إِذَا لَمْ نَجِدْ كَتَمَ الْمَوَاجِدِ صِرْحَنَا
 وَفِي السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ
 تُرَلِّقُ بِيَمَانَا جَهْرَةً لِنَ بِهَا بُحْنَا
 فَيَا حَادِيَ الْعُشَّاقِ قُمْ وَاحِذُ قَائِمَا
 وَزَمَزِمِ لَنَا بِاسْمِ الْحَبِيبِ وَرَوْحَنَا
 وَصُنْ سِرَّنَا فِي سُكْرِنَا عَنْ حَسُودِنَا
 وَإِنْ أَنْكَرْتَ عَيْنَاكَ شَيْئاً فَسَامِحْنَا
 فَإِنَّا إِذَا طِينْنَا وَطَابَتْ نَفُوسُنَا³
 وَخَامَرْنَا خَمْرُ الْغَرَامِ تَهَتَّكْنَا

¹ في نص: ((أتلزمها)).

² في نص: ((هل))؛ بدون واو.

³ في نص: ((عقولنا)).

فَلَا تَلُمُ السُّكْرَانَ فِي حَالِ سُكْرِهِ
فَقَدْ رُفِعَ التَّكْلِيفُ بِسُكْرِنَا عَنَّا

— مقطوعة: جئت مستخفياً¹:

جِئْتُ مُسْتَخْفِيًّا وَقَدْ عَرَفُونِي
هَآ أَنَا² تَائِبٌ تَرَى يَقْبَلُونِي
لِي عَلَى الْبَابِ مَذْ وَقَفْتُ زَمَانًا³
كُلَّمَا رُمْتُ وَصَلِهِمْ أَبْعِدُونِي⁴
لَمْ أَكُنْ لِلْوِصَالِ أَهْلًا وَلَكِنْ
أَنْتُمْ بِالْوِصَالِ أَطْمَعْتُمُونِي
فَاجْبُرُوا كَسْرَ مُنْذِبٍ قَدْ أَتَاكُمْ
يَرْتَجِي عَفْوَكُمْ بِكُمْ فَارْحَمُونِي
فِي بَحَارِ الْهَوَى غَرِقْتُ بِوَجْدِي
طَالَ شَوْقِي لَهُمْ وَقَدْ تَرَكُونِي
يَا وِلَاةَ الْقُلُوبِ رَفَقًا بَعِيدٍ
ضَاعَ مِنْهُ فُؤَادُهُ فَاغْذُرُونِي

¹ ثمة من ينسب هذه المقطوعة لأبي حسن الشاذلي؛ مع أنها للنسيخ القطب أبي مدين شعيب؛ في رأي كثير من المهتمين بالشعر الصوفي.

² في نص: ((فأنا)).

³ جاء هذا الشطر في أحد النصوص هكذا: ((أنا بالباب واقف لي دهر)).

⁴ في نص: ((منعوني)).

أَيَّهَا النَّفْسُ سَاعِدِينِي وَنُوحِي¹
وَيَحْ قَلْبِي وَمُهْجَتِي هَجَرُونِي

— مقطوعة: طال اشتياقي:
طالَ اشْتِيَاقِي وَلَا خَلَّ يُؤَانِسُنِي
وَلَا الزَّمَانُ بِمَا نَهَوَى يُؤَافِيَنِي
هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مَسْكَنُهُ
عَلَيْهِ ذُقْتُ كُؤُوسَ الدُّلِّ وَالْمَحَنِ
عَلَيْهِ أَنْكَرَنِي مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي
حَتَّى بَقِيتُ بِلَا أَهْلٍ وَلَا وَطَنِ
قَالُوا جِئْتَ بِمَنْ تَهَوَى فَقُلْتُ لَهُمْ
مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ

— مقطوعة: الله ربي:
اللَّهُ رَبِّي لَا أُرِيدُ سِوَاهُ هَلْ فِي الْوُجُودِ الْحَيِّ إِلَّا اللَّهُ
ذَاتُ الْإِلَهِ قَوْمًا ذَوَاتِنَ هَلْ كَانَ يُوجَدُ غَيْرُهُ لَوْلَاهُ

¹ في نص: ((وجدي)).

— قصيدة: إني إذا ما ذكرت ربي أو (الله الله مالي سواه):

الله الله الله

الله الله مالي سواه

إني إذا ما ذكرت رب

يهتئز شوقي إلى لقاء

الله الله الله

الله الله مالي سواه

طابت حياتي وضاء قلبي

بذكر ربي جل ثناء

الله الله الله

الله الله مالي سواه

ما ذاق طعم الغرام إلا

من عرف الوصل أو دراه

يا فوز قوم بالله فازوا

فلم يروا في الوری سواه

الله الله الله

الله الله مالي سواه

قَرَّبَهُمْ مِنْهُ فَاجْتَبَاهُمْ
فَنَزَّهُوا الْفِكَرَ فِي عِلَاةٍ
لَيْسَ لَهُمْ لِلْسَّوَى التِّقَاتُ
كَيْفَ وَقَدْ شَاهَنُوا سَنَاهُ
اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
اللَّهُ اللَّهُ مَالِي سِوَاهُ

أَزَالَ حُجْبَ الْغِطَاءِ عَنْهُمْ
فَاسْتَشَقُّوا نَفْحَةَ هَوَاهُ
تَجَلَّى بِالنُّورِ وَالْبَهَاءِ
لَهُمْ فَقَالُوا يَا هُوَ قَالُوا يَا هُوَ¹
فَقَالَ إِنِّي لَكُمْ مُحِبٌّ
رَبِّ كَرِيمٍ نِعَمَ الْإِلَهِ
اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
اللَّهُ اللَّهُ مَالِي سِوَاهُ

الْمَلِكُ مُلْكِي وَالْأَمْرُ أَمْرِي
أَنْتُمْ عِبِيدِي وَالْجَاهُ جَاهُ

¹ في هذا الشطر خلل.

الْجُودُ جُودِي وَالْفَضْلُ فَضْلِي
أَنَا الَّذِي يُرْتَجَى عَطَاةُ
اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
اللَّهُ اللَّهُ مَالِي سِوَاهُ

أَقْبَلُ مَنْ تَابَ مِنْ عِادِي
وَلَا أَبَالِي بِمَا جَنَاهُ
الْحُبُّ حُبِّي وَالْقُرْبُ قُرْبِي
وَالْعِزُّ عِزِّي فَأَدْخُلْ حِمَاهُ
اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
اللَّهُ اللَّهُ مَالِي سِوَاهُ

قَلْبُكَ مُتَّسِعٌ بِكَأْسِ شُرْبِي
طَرَفُكَ نَزَّةٌ بِمَا تَرَاهُ
وَانْظُرْ بِهِ نَظْرَةَ اعْتِبَارٍ
فِي أَرْضِ مَوْلَاكَ أَوْ سَمَاهُ
اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ
اللَّهُ اللَّهُ مَالِي سِوَاهُ

— قصيدة: زاد الغرام:

يا قلبُ زُرْتُ وما انطوى ذاكَ الجوى
عَجَباً لقلبٍ بالنَّعيمِ قد اكْتَوَى
زادَ الغرامُ وزالَ كلُّ تَصَبُّرٍ
عَالَجَتْهُ قَبْلَ الزَّيَارَةِ فَاَنْطَوَى
ولَهيبُ وجدٍ هَيَّجَتْهُ رَوْضَةٌ
مِنْ أَجْلِهَا حُلَّتْ مِنَ الصَّبْرِ الْقُوَى
بل زادَ شَوْقي لِلْحَبِيبِ وَرَامَةٍ
وَالْأَبْرَقَيْنِ وما لِمُنْعَرِجِ اللَّوَى
تَأَلَّهَ ما شَوْقي لِطَيِّبَةٍ بَعْدَ مَا
زُرْتُ الْحَبِيبَ وَقَبْلَهُ إِلَّا سَوَى
أَرْضٌ أَحَبُّ إِلَى الْعَلِيِّ مِنَ الْعُلَى
نَزَلَ الرَّسُولُ بِهَا وَفِيهَا قَدْ نَوَى
يا تُرْبَةً ما مِثْلُهَا مِنْ تُرْبَةٍ
فِيهَا الشِّفَاءُ لِكُلِّ عَاصٍ وَالْكُؤَا
يا رَوْضَةً ما مِثْلُهَا مِنْ رَوْضَةٍ
يا سَعْدَ مَنْ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى أَوَى
كَمْ لِي أَنْوَحُ عَلَى الْوُصُولِ وَعِنْدَ مَا
أَوْصَلْتَنِي أَصْلَيْتَنِي نَارَ الْجَوَى

فَكَأَنَّنِي الظَّمَانُ صَادَفَ قَطْرَةَ
فَتَضَاعَفَ الظَّمُّ الشَّدِيدُ وَمَا ارْتَوَى
قَسَمًا بِطَّةٍ وَهُوَ يَاسِينُ الَّذِي
قَدْ جَاءَ فِي النُّجْمِ الْعَظِيمِ إِذَا هَوَى¹
وَبِقَابِ قَوْسَيْنِ الَّذِي هُوَ قَدْ دَنَا²
مِنْ رَبِّهِ ذُو مِرَّةٍ ثُمَّ اسْتَوَى³
لَأَجْدَنَّ نِيَّاحَتِي بِسِيَّاحَتِي
أَسْفًا عَلَى ذَاكَ الْمَقَامِ وَمَا حَوَى
حَتَّى أُمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ مُتَيَّرًا
فَلِكُلِّ عَبْدٍ مُسْلِمٍ مَا قَدْ نَوَى
يَا رَبُّ أَسْأَلُكَ الرِّضَى وَالْعَفْوَ عَنِ
مَا قَدْ مَضَى يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

¹ إحالة إلى أول آية من سورة النجم؛ وهي: ((وَالنُّجْمِ إِذَا هَوَى)).

² إحالة إلى قوله تعالى: ((فَكَأَنَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)). سورة النجم، الآية: 7.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ((عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى - ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى)).
الآيتان: 5 - 6 من سورة النجم.

أَعَقَّ عَيْدَكَ مِنْ لَطَى نَارِ غَدَا
 نَزَّاعَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّوَى¹
 بِمُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ خَاتِمِ رُسُلِهِ
 طَهَّ عَلَى فَضْلِ الْجَمِيعِ قَدْ احْتَوَى
 فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَى صَلَوَاتُهُ
 وَسَلَامُهُ مَا غَرَّتْ وَرَقُ اللَّوَى

قصيدة: لست أُنسى الأحباب²:
 لَسْتُ أَنْسَى الْأَحْبَابَ مَا دُمْتُ حَيًّا
 مَذْنُؤُوا لِلنَّوَى مَكَانًا قَصِيًّا
 وَتَلَّوْا آيَةَ الْوَدَاعِ فَخَرُّوا
 خِيفَةَ الْبَيْنِ سَجْدًا وَبُكْيًا
 وَلِذِكْرَاهُمْ تَسِيحُ دُمُوعِي
 كُلَّمَا اشْتَقْتُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا

¹ إحالة إلى قوله تعالى: ((كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْحَدُ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَدِّ)). الآيةان: 15 - 16 من سورة المعارج.

² استمد أبو مدين موسيقى هذه القصيدة من فيض ما جادت به موسيقى القرآن الكريم. فقد تأثر بما استوعبه من سورة مريم؛ التي تسيل عذوبة في موسيقاها، وتفيض طلاوة وسلاسة في لغتها ومعناها. لذا فقد التزم في قافية القصيدة بنهايات آيات تلك السورة الكريمة.

وَأُنَاجِي إِلَهَةَ مِنْ فَرَطٍ وَجَدِي
كَمُنَاجَاةٍ عِنْدِهِ زَكْرِيَّا
وَهَنَ الْعَظْمُ بِالْبُعَادِ فَهَبْ لِي
رَبِّ بِاللُّطْفِ مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَأَسْتَجِبْ فِي الْهَوَى دُعَائِي فَإِنِّي
لَمْ أَكُنْ بِالدُّعَاءِ رَبِّ شَقِيًّا
قَدْ فَرَى قَلْبِي الْفِرَاقَ وَحَقًّا
كَانَ يَوْمُ الْفِرَاقِ شَيْئًا فَرِيًّا
وَاخْتَفَى نُورُهُمْ فَنَادَيْتُ رَبِّي
فِي ظِلَامِ الدُّجَى نِدَاءً خَفِيًّا
لَمْ يَكُ الْبُعْدُ بِاخْتِيَارِي وَلَكِنْ
كَانَ أَمْرًا مُقَدَّارًا مُقْضِيًّا
يَا خَلِيلِي خَلِيَانِي وَوَجَدِي
أَنَا أَوْلَى بِنَارِ وَجَدِي صَلِيًّا
إِنَّ لِي فِي الْغَرَامِ دَمْعًا مُطِيعًا
وَفُوَادًا صَبَاً وَصَبْرًا عَصِيًّا
أَنَا مِنْ عَائِلِي وَصَبْرِي وَقَلْبِي
حَائِرٌ لِيَهُمْ أَشَدُّ عَيْتِيًّا

أَنَا شَيْخُ الْغَرَامِ مَنْ يَتَّبِعْنِي
أَهْدِيهِ فِي الْهَوَى صِرَاطاً سَوِيّاً
أَنَا مَيِّتُ الْهَوَى وَيَوْمَ أَرَاهُمْ
ذَلِكَ الْيَوْمِ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً

قصيدة غوثية أبي مدين

ومن الأعمال الشعرية التي تتسبب - كذلك -
إلى أبي مدين شعيب؛ المنظومة المسماة "بغوثية أبي
مدين" أو (غوثية أبي مدين) وتوجد نسخة من
مخطوطها في معهد الثقافة والدراسات الشرقية بجامعة
طوكيو باليابان. نسخت بخط مغربي متوسط الجودة،
وتتخللها بعض الكلمات المستمدة من اللهجة الدارجة؛
كما تعثر بها بعض الهنات الفنية، والإملائية؛ مما
يجعلها بعيدة عن روح أبي مدين الشعرية. على
الرغم من إمكان إلصاق الخل بالناسخ. وقد
حرصت شخصياً على إثباتها هنا بكاملها - بعد أن
قمت بنسخها من جديد، والتعليق عليها. وهي كالتالي:

باسم الإله نبتدي الغوثية

مُصَلِّياً مُسَلِّماً بِالنِّبَّةِ

على النَّبِيِّ الطَّاهِرِ الْمُقْبُولِ

مُحَمَّدٍ عَوْناً عَلَى الْمُأْمُولِ

لما رأت¹ الحال ضاق وانضح
 واشتعل الحرب لوجه وانفتح
 واقترس العدو قلب² واقترخ
 وظهر الغلب على وانضح
 إذ ذاك بالقرية نطقت
 بحر نار الوجد ثم قلت
 فلما بان العجز مني والمأل
 وبعد الصبر وقلة³ الحيل
 نذيت⁴ غوثاً يا لحزب الله
 الغالبين في العلى والجاه
 يا للنبیین، ويا للمرسلین
 غوثاً ويا لبذر يا حماة⁵ السالین
 يا للتصوف وذا البرهان
 غوثاً ويا لبيعة⁶ الرضوان

¹ هكذا. ولكي يستقيم الوزن؛ يستحسن جعلها: ((لما رأيت)).

² هكذا. للضرورة

³ كتبها الناسخ: ((وكلمة الحيل))؛ بالكاف. وجملة القول فهذا الشطر غير موزون.

⁴ هكذا. للضرورة.

⁵ في الأصل: ((حمات)). بالتاء المفتوحة.

⁶ في الأصل: ((بيعت)). بالتاء المفتوحة.

يَا خُلَفَاوَيَا تَمَامَ الْعَشْرَةِ
يَا لِعُيُونِ الْخَلْقِ يَا لِصَفَرَةٍ¹
يَا لِلْإِغَاثَةِ وَيَا لِلتَّبْطِينِ
وَيَا لِرِجَالِ اللَّهِ يَا لِلْمَانِعِينَ
يَا غَوْثُ يَا أَسْتَاذُ يَا عَيْنُ الْوَلَاةِ²
غُثْنِي إِنِّي مَعِيَ عَيْنَ الْمُهْلِكَاتِ
نَفْسِي وَنَبِيٍّ ثُمَّ إِبْلِيسُ الرَّجِيمِ
مَعَ احْتِيَاجٍ، قَدْ رَمَوْنِ³ فِي الْجَحِيمِ
سَأَلْتَكُمْ بِاللَّهِ فَانصُرُوا الْحَزِينَ
وَقَرَّحُونَ⁴ وَاهْزُمُوا جُنْدَ اللَّعِينِ
يَا قُطْبَا يَا نَجَبَا⁵ يَا أُوْتَاذُ
يَا نُقْبَا يَا بُدَلَا⁶ يَا زُهَّادُ
يَا فَقَهَا يَا خُطْبَا يَا أَمْرَا⁷
يَا تَابِعِينَ شَرَعَ سَيِّدِ الْوَرَى

¹ هكذا رسمها الناسخ. ولعلها الصفوة.

² في الأصل: ((الولات)).

³ هكذا للضرورة.

⁴ أي: وفرحوني. اضطرر لكتابتها بدون ياء.

⁵ أي: يا قطباء؛ ، يا نجباء؛ ألغيت الهمزة للضرورة.

⁶ أي: يا نُقْبَاءَ يَا بُدَلَا؛ بالهمزة.

⁷ هكذا بدون همزة للضرورة.

يَا بُهْلَا يَا عُدَلَا¹ يَا فُرَادِ
يَا مَنْ لَهُمْ فِي الْكَوْنِ شَانٌ² يَزْدَادُ
يَا مَنْ لَهُمْ تُطْوَى فُجُوجُ الْكَوْنِ
يَا سَادَتِي بِاللَّهِ كُونُوا عَوْنِي
يَا أُمَمَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ الدَّوَالِ³
غَوْتًا لِمُذْنِبٍ مِنْ قَيْدٍ مَنْ كَسَلَ
يَا فِي مَعِينِ الشَّرْعِ وَالْحَقِيقَةِ
يَا سَالِكِينَ مَسَلَكِ الطَّرِيقَةِ
بِحَقِّكُمْ ذُلَّانِي يَا مَوَالِي
نَذَهْتُكُمْ كُلَّ⁴ عَلَى التَّوَالِي
لَأَنْتِي عَلَى طَرِيقٍ تَأْلَفِ
غَيْثٌ⁵ خَدِيمُكُمْ يَا هَلْ⁶ الْمَعَارِفِ
فَأَنْقِذُونِي وَاصْلِحُوا فَسَادِي
إِنِّي بِبَابِ فَضْلِكُمْ نُنَادِي⁷

¹ أي: يَا فَقَهَاءَ يَا خُطَبَاءَ يَا أَمْرًا؛ وحذفت الهمزة للضرورة.

² أي: شَان.

³ هكذا.

⁴ هكذا.

⁵ أي: غَيْثُوا (أَغِيثُوا). ولكن الضرورة سمحت بما ورد.

⁶ رسمت هكذا. أي: يَا أَهْلَ الْمَعَارِفِ.

⁷ هكذا.

يَا أَوْلِيَاءَ¹ اللَّهُ طُرّاً بَدَرُوا
لِنَصْرَتِي فِي كُلِّ وَقْتٍ وَاحْضَرُوا
كَأَنِّي مَغْلُوبٌ وَضَاقَ حَالِي
كُونُوا شَفِيعاً عِنْدَ ذِي الْجَلَالِ
عَسَى يَمُنَّ بِالرُّضَى وَالْقُرْبِ
وَتَوْبَةً تَمْحُو جَمِيعَ الذَّنْبِ
يَا لِرِجَالِ الْغَوْثِ وَالْإِغَاثَةِ
يَا لِرِجَالِ الصَّبْرِ وَالْعَفَافَةِ
يَا لِحِمَاةِ² الدِّينِ يَا لِلْمَشُورَةِ
غَوْثاً لِلْقَلْبِ إِنِّي فِي الْغَمْرِ
نَدَهْتُ مِنْ تَحْتِ أَطْبَاقِ الثَّرَى
شُفُولِي حَالِي وَانْظُرُوا كَيْفَ جَرَى
يَا لِلتَّقَى وَالْخُرِّ يَا أَهْلَ الْعَدَدِّ
يَا لِلنُّهَى وَالنَّصْرِ يَا أَهْلَ الْمَدَدِّ
يَا لِلتَّجَاهِدِ وَيَا لِلْأَذْكَارِ
يَا لِلتَّبَتُّلِ وَيَا لِلْأَسْهَارِ³

¹ رسمت هكذا: ((ياولياء))

² رسمت هكذا: ((حمات))؛ بالتاء المفتوحة

³ رسمت هكذا: ((لأصهار))؛ بالصاد.

الصَّائِمُونَ الْفَاتِحُونَ الْخَاشِعُونَ
 الْهَارِعُونَ الْفَائِزُونَ الْوَاصِلُونَ¹
 التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
 السَّائِحُونَ الرُّكَّعُونَ السَّاجِدُونَ
 الْأَمْرُونَ النَّاسَ بِالْمَعْرُوفِ
 تَعَالَوْا فِي نُصْرَةِ الْمُنْهَوِّفِ
 يَا سَانَّتِي عُبَيْدُكُمْ كَايِبٌ²
 وَمَالُهُ سِوَاكُمْ طَبِيبٌ
 قَوْمُوا مَعِيَ لِرَبِّي يُجَلِّي كَرْبِي
 وَيَشْفِي قَلْبِي مِنْ غُيُوبِ الذَّنْبِ
 يُصْلِحْ حَالِي بِحَلَالِ الرِّزْقِ
 وَيَكْتُبْ اسْمِي فِي مَحَلِّ الصَّدَقِ
 لِلَّهِ غَوْتًا يَا رَجَالَ الْحَقِّ
 لِمُذْنِبٍ ذُلٌّ مَا بَيْنَ الْخَلْقِ
 ضَاقَتْ مَذَاهِبٌ وَاشْتَدَّتْ الْكَرْبُ
 وَجِئْتُكُمْ حَيْرَانَ الْقَلْبِ مُلْتَهَبٌ
 فِي سَاعَةِ الْحُوجِ وَضَاقَتْ حِمْلِي
 حُيُّوا عَلَيَّ بِالْغِنَى وَالْفَضْلِ

¹ كتبت: ((الوصلون))؛ بدون الف المد.

² أي: كنيب.

يَا وَرَثُونَ¹ الْعِلْمِ يَا أَهْلَ الْحِكْمِ
يَا لِلْسَخَا² وَالْحِلْمِ يَا أَهْلَ الْكَرَمِ
يَا سَانَتِي عُبَيْدُكُمْ عَسِيرُ
جُذِّعَلِي إِنِّي فَقِيرُ
إِنِّي سَقِيمُ الْقَلْبِ مِنْ ذَوِي الْعَرَجِ
غِيْثُوا الْعَلِيلَ بِدَوَاءٍ وَقَرِّجْ
رِقُوا لِحَالِي إِنِّي طَرِيدُ
مُسْتَوْحِشٌ فِي غُرْبَةٍ فَرِيدُ
يَا لِرَسُولِ اللَّهِ يَا لِلْأَصْحَابِ
غِيْثُوا الْحَزِينَ وَأَقْفَأْ عَلَى الْبَابِ
قَصْدُكُمْ يَا لِلْجَنَابِ الْعَالِي
فُكُّوا وَثَاقِي وَانْظُرُوا لِحَالِي
فَحَقُّكُمْ عَلَيَّكُمْ، قَوْمٌ كُلُّكُمْ³
بَجَبَرٍ كَسْرِي وَآكُتُبُونَ⁴ بَيْنَكُمْ
وَاجْتُنِبُونَ جَنْبَةَ رَبِّي
بِتَوْبَةٍ وَنَفْحَةٍ لِقَائِي

¹ هكذا كتبت للضرورة.

² حذفت الهمزة للضرورة.

³ هذا الشطر مختل الوزن؛ ولا يقرأ إلا بالقراءة الدارجة العامية. وكلمة ((قَوْم))؛ التي حذفت منها الواو والألف؛ كتبت هكذا لكي تساير الوزن.

⁴ هكذا كتبت. تقرأ كأنها دارجة.

واشْهَدُونِ النَّظْرَةَ الْعَالِيَةَ¹

كَيْ نَسْتَرِيحَ مَعَ نَوِي الصُّوفِيَّةِ

يَا كَاتِباً فِي الدِّيْوَانِ الرَّبَّانِي

بِاللَّهِ فَاكْتُبْنِي وَلَا تَنْسَانِي

خُونِي² عِنْدَكُمْ خَدِيماً يَا كِرَامَ

وَتَوَلُّونَ³ شُرْبَةً تُحْلِلِ الْعِظَامَ

يَا لَلِّي خَذَاتُ⁴ الرِّكَبِ يَا أَهْلَ⁵ النَّجْوَةِ

خَلَقْتُمُونِي مُسْتَغِيثاً فِي الْحَلَاتِ⁶

عَارٌّ عَلَيْكُمْ يَا رِجَالَ الْبَارِي

تَرَكَتُمُونِي تَالِفَ الْقَقَّارِي⁷

يَا نُصْرَتِي الْإِمَامَ السَّيِّفَ الْغَالِبَ

الْمُرْتَضَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

¹ هذا الشطر مختل الوزن. ولو كانت كلمة ((العالية))، بالتاء المربوطة؛ وقُرأت: ((العالية))؛ لأضحى صدر البيت أسلم. غير أن ذلك لا ينسجم مع قافية عجز البيت.

² هكذا.

³ هكذا.

⁴ كتبت: ((بالخذات)).

⁵ كتبت: ((ياهل)).

⁶ هكذا. وهذا البيت استدركه الناسخ؛ فكتبه في الهامش؛ موضحاً موضعه.

⁷ كتبت الياء في الهامش استدراكاً من الناسخ.

قَلْبٌ نَدِيهَكَ مُحِبٌّ فِىكَ
 غُنِي بِفَوْزٍ إِنِّي أُرْتَجِيكَ
 بِالْحَسَنَيْنِ غَوَّثَا يَا نِعَمَ الْإِمَامِ
 وَاحِمِ جَانِبِ¹ نَاصِرًا عَلَى الدَّوَامِ
 لِلَّهِ غَوَّثَا يَا رِجَالَ النَّصْرِ
 إِنِّي عَمِيمٌ فِي قُيُودِ الْعُسْرِ
 يَا لِمُلُوكِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ
 يَا لِرُؤُوسِ الْخَلْقِ وَالْمُرُوءَاتِ
 نَادَهُتُكُمْ بِالذُّلِّ وَافْتَقَارِ
 غِيثُوا عِبِيدَكُمْ بِأَخْذِ ثَارِي
 مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ وَكُلِّ ظَالِمَةٍ
 وَزَمِّلُونِي فِي الْمَرُورِ وَالْبَسْمَلَةِ
 أَنَا وَأَهْلٍ² ثُمَّ أَوْلَادِ الصُّغَارِ
 بِحِفْظِ بِاسْمِ اللَّهِ عِزُّ وَافْتِخَارُ
 لِلَّهِ غَوَّثَا يَا رِجَالَ اللَّهِ
 سَأَلْتُكُمْ بِالْمُصْطَفَى الْأَوَّاهِ

¹ أي: جانيبي.
² أي: أهلي.

يَا رَبَّ يَا رَبَّ بِجَاهِ الْقُرْآنِ
أَجِبْ دُعَاءَ¹ يَا عَظِيمَ السُّلْطَانِ
هُوَ عَلَى حَالٍ² وَمَا جَرَى لِي
عُمْرِي مَضَى وَقَبَحَتْ فِعَالِي
ضَاو....³ وَيَا مُغِيثَ اغْنِنِي
وَمِنْكَ فَضْلاً كَمَلًا⁴ أُرِثْنِي
أَجِرْنِي مِنْ فَقْرٍ يُورِثُ الْفُجُورَ
وَمِنْ غِنَا يَطْفِئُ وَيَطْمِسُ الصُّوْرَ
وَاجْعَلْ مَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ حَالَتِي
إِنِّي مِنْكَ نَرْتَجِي قَضَاتِي⁵
يَا سَيِّدِي بِذَاتِكَ الْعَلِيَّةِ
أَجِبْ دُعَاءَ وَأَقْبَلِ الشَّكَايَةَ

¹ هكذا للضرورة.

² هكذا.

³ كلمة تعذر استجلاؤها.

⁴ هكذا.

⁵ هكذا كتبت.

الأعمال

النثرية لأبي مدين شعيب

يدخل - في هذا الإطار - كل ما نسب إلى أبي مدين من رسائل خطية، وأقوال شفوية. إذ كان مريدوه يسجلون ما يقوله من مآثور القول، وجوامع الكلم؛ يُستفاد بها في مجالات عديدة تخصهم؛ منها أقوال في الحكمة والوصايا والدعوة والوعظ والإرشاد. والذي يهمنا هنا؛ لا يخرج عن الجانب الأدبي المحض. لذا فأهم ما يستخلص من أقوال أبي مدين في هذا المجال؛ هي مجموع الكتب والرسائل التي ألفها. وكل ما اكتشف - حتى الآن - هي:

- الرسالة المسماة بعقيدة أبي مدين. وتدخل ضمن تراث أهل السنة من الأشعرية؛ قام بشرحها شمس الدين محمد بن أبي اللطف (توفي سنة 992هـ/1584م)؛ ونشرها ضمن كتاب سماه: "عقد

المتقن والعقد المثلث بشرح عقيدة العارف أبي مدين¹.

- ثم الرسالة المسماة: أنس الوحيد ونزهة المرید؛ في علم التوحيد والحكم. ويسمى أيضاً بـ "الحكم"؛ شرحه - في البداية - شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الشهير باسم باعشن؛ ونشرها ضمن كتاب عنوانه بـ: "البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد"؛ قام بطبع المتن مع الشرح في سنة 1300هـ/1882م. ثم شرحه كذلك شمس الدين بن هلال الدمشقي (توفي سنة 1004هـ/1595م)؛ وأدمجه في كتاب له سماه: "فتح الملك المجيد في شرح رسالة أنس التوحيد"². وقام أيضاً أحمد المشن - في القاهرة - بشرح هذه الرسالة وطبعها مرات عديدة في سنوات³: 1297 - 1300 - 1306 هجرية. وشرحها أيضاً شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الصديقي الشهير بابن علان (توفي سنة 1044هـ/1634م)؛ ونشرها تحت عنوان شرح

¹ جاء في هامش الصفحة 31؛ من كتاب العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني؛ أن نسخة من مخطوط هذه الرسالة موجودة في دار الكتب الظاهرية تحت رقم: 1346 تصوف 20.

² العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، ص: 30.

³ الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص: 346.

حكم أبي مدين. وتوجد نسخة منها في المكتبة
الظاهرية؛ تحت رقم: 10045. كما تولى - حديثاً -
خالد زهري؛ من المغرب الأقصى بتحقيق رسالة أبي
مدين المذكورة، ونشرها في بيروت؛ بواسطة دار
الكتب العلمية؛ سنة 2004م؛ ملحقاً برسالة عنوانها
"التوفيق في آداب الطريق لابن عطاء الله السكندري"؛
وهي عبارة عن شرح لرائية أبي مدين التي يقول
فيها:

مالذة العيش إلا صحبة الفقرا

هم السلاطين والسادات والأمراء

وقد اختار الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي
معظم الحكم الواردة في رسالة أبي مدين هذه؛ فذكر
أنها 170 حكمة؛ قام بنظمها وشرحها بشكل موسع؛
ومبوبة حسب دلالاتها ومقتضى الحال. ثم نشرها
ضمن كتاب سماه "المواد الغيثة". وهكذا؛ فكتاب
أنس الوحيد ونزهة المريد؛ عبارة عن تحقيق،
لمجموعة من الحكم التي قالها أبو مدين شعيب؛
فاصطلح على تسميتها فيما بعد؛ بالأقوال الغويثة أو
الغيثة أو المواد الغيثة. فاشتملها هذا الكتاب.

— ثم رسالة مفاتيح الغيب لإزالة الريب. قال محمد الطاهر علاوي¹ أن الزركلي في كتاب الأعلام ذكر هذا الكتاب؛ غير أن النسخة التي اطلعت عليها لا تشير إليه. كما أشار أيضاً إلى وجود نسخة أصلية من هذه الرسالة في شستربتي؛ وهي في 92 صفحة.

— تحفة الأريب ونزهة اللبيب. ذكره ألفرد بال؛ ضمن مراجعه الأوربية. حيث أورد عنوان ترجمة لهذه الرسالة؛ ضمن كتاب **LES MARABOUTS** المنشور ببباريس سنة 1900م؛ من قبل؛ **E. Douité**

— رسالة أبي مدين. وهي عبارة عن توجيهات تخص آداب المريد؛ مع بعض الحكم. أشار محمد الطاهر علاوي² أن نسخة من مخطوطها موجودة في دار الكتب الظاهرية؛ تحت رقم: 123.

— وفي الختام؛ خطاب مبتور كتبه أبو مدين لأحد أصدقائه من الأولياء الصالحين بمنستير إفريقية. نشرت فقرتان منه في كتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن القنفذ.

¹ العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، ص: 31؛ الهامش.
² نفسه، ص: 31؛ الهامش.

عقيدة

الشيخ العوث أبي مدين شعيب

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَنَزَّاهُ عَنِ الْحَدِّ وَالْأَيْنِ وَالْكَيفِ
وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامٍ قَلِيمٍ أَزَلِيٍّ¹. صِفَةٌ¹ مِنْ
صِفَاتِهِ، قَائِمٌ بِذَاتِهِ. لَا مُنْفَصِلٌ عَنْهُ² وَلَا عَائِدٌ إِلَيْهِ، لَا يَحِلُّ
فِي الْمُحَدَّثَاتِ، وَلَا يُجَانِسُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يُوصَفُ

¹ في بعض النصوص: ((صِفَةٌ (بالكسر مع التنوين) مِنْ صِفَاتِهِ، قَائِمٌ بِذَاتِهِ)). وتقدير ما جاء أعلاه هكذا: هُوَ صِفَةٌ (بالرفع مع التنوين) مِنْ صِفَاتِهِ، قَائِمٌ بِذَاتِهِ. لابتداء الجملة بذلك.

² في نص: ((لَا مُنْفَصِلٌ عَنْهُ، وَلَا عَائِدٌ إِلَيْهِ)). بينما التزم صاحب الجملة أعلاه بالرفع لابتداء الجملة؛ فاعتبرت أنها: هُوَ لَا مُنْفَصِلٌ وَلَا عَائِدٌ إِلَيْهِ.

بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ، تَنْزَّهَتْ صِفَاتُ رَبِّنَا عَنِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نُوحِّدُكَ وَلَا نَحِدُكَ¹، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَلَا
نُكْفِيكَ، وَنَعْبُدُكَ وَلَا نُشَبِّهُكَ، وَنَعْتَقِدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ
بِخَلْقِكَ لَمْ يَعْلَمْ² الْخَالِقَ مِنَ الْمَخْلُوقِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
* اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ﴾³؛ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ؛ الَّذِي تَقَدَّسَتْ عَنْ سِمَةِ
الْحُدُوثِ ذَاتُهُ، وَتَنْزَّهَتْ عَنِ التَّشْبِيهِ بِصِفَاتِ⁴ الْجُثْثِ
صِفَاتُهُ، [وَدَلَّتْ عَلَى وَجُودِهِ مُحَدَّثَاتُهُ]⁵، وَشَهِدَتْ
بِوَحْدَانِيَّتِهِ آيَاتُهُ.

الْأَوَّلُ الَّذِي لَا بَدَايَةَ لِأَوَّلِيَّتِهِ، الْآخِرُ الَّذِي لَا نِهَايَةَ
لِسَرْمَدِيَّتِهِ⁶، الظَّاهِرُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، الْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ
لَهُ شَبِيهٌ، الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يَفْنَى، الْقَادِرُ الَّذِي لَا

¹ سقطت هذه الكلمة في بعض النصوص.

² في بعض النصوص: ((لم يعرف)).

³ سورة الإخلاص؛ الآيات: 1 - 2 - 3 - 4.

⁴ في نص: ((بصفة)).

⁵ سقطت هذه الجملة في بعض النصوص.

⁶ في نص: ((لأبديته)).

يَعْجُزُ وَلَا يَعْيَى¹، الْمُرِيدُ الَّذِي أَضَلَّ وَهَدَى وَأَفْقَرَ وَأَغْنَى،
السَّمِيعُ الَّذِي يَسْمَعُ السِّرَّ وَأَخْفَى²، الْبَصِيرُ الَّذِي يُنْصِرُ³
دَبِيبَ التَّمَلُّ عَلَى السُّفْلَى⁴، الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَضِلُّ وَلَا
يَنْسَى، الْمُتَكَلِّمُ الَّذِي لَا يُشْبِهُ كَلَامَهُ كَلَامَ مُوسَى [عَلَيْهِ
السَّلَامُ]⁵ كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الْقَلِيمِ؛ الْمُنْزَهُ عَنِ التَّأْخِيرِ⁶
التَّأْخِيرِ⁶ وَالتَّقْلِيمِ، لَا بِصَوْتٍ يُقْرَعُ، وَلَا نِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَلَا
وَلَا حُرُوفٍ تُرْجَعُ، كُلُّ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ وَالنِّدَاءِ
مُحْدَثَةٌ بِالنِّهَايَةِ وَالْإِبْتِدَاءِ، جَلَّ رَبُّنَا وَعَلَا وَتَبَارَكَ وَتَعَالَى.
لَهُ الْعَظَمَةُ وَالْكِيرَاءُ، [وَلَهُ الْمُلْكُ]⁷ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّنَاءُ،
وَالسَّنَاءُ، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى⁸، حَيَاتُهُ
لَيْسَ لَهَا بَدَايَةٌ؛ فَالْبَدَايَةُ بِالْعَدَمِ مَسْبُوقَةٌ. قُدْرَتُهُ لَيْسَ لَهَا

¹ في نص: ((ولا يعنى)).

² في نص: ((والأخفى)).

³ في نص: ((يدرك)).

⁴ في نص: ((الصفاء)).

⁵ سقطت هذه العبارة في بعض النصوص.

⁶ جاءت العبارة في بعض النصوص هكذا: ((هو المنزّه (بالرفع) عن

التأخر والتقديم)).

⁷ سقطت هذه العبارة في بعض النصوص.

⁸ في بعض النصوص: ((العليا)).

نَهَايَةً؛ فَالْنَّهَايَةُ بِالتَّخْصِيصِ مَلْحُوقَةٌ. إِرَادَتُهُ لَيْسَتْ بِحَادِثَةٍ؛
 فَالْحَوَادِثُ بِالْأَضْدَادِ مَطْرُوقَةٌ. سَمْعُهُ لَيْسَ بِحَارِحَةٍ؛
 فَالْحَارِحَةُ مَخْرُوقَةٌ. بَصَرُهُ لَيْسَ بِحَدَقَةٍ؛ فَالْحَدَقَةُ مَشْقُوقَةٌ
 عِلْمُهُ لَيْسَ بِكَسْبِيٍّ؛ فَالْكَسْبُ¹ بِالتَّأْمُلِ وَالِاسْتِدْلَالِ يُعْلَمُ.
 وَلَا بِضُرُورِيٍّ؛ فَالضَّرُورَةُ² عَلَى الْإِرَادَةِ وَالْإِكْرَاهِ تَلْزَمُ³
 كَلَامُهُ لَيْسَ بِصَوْتٍ؛ فَالْأَصْوَاتُ تُوجَدُ وَتُعْدَمُ. وَلَا
 بِحُرُوفٍ⁴؛ فَالْحُرُوفُ تُؤَخَّرُ وَتُقَدَّمُ. جَلَّ رَبُّنَا عَنِ التَّشْبِيهِ
 بِخَلْقِهِ، وَعَنْ كُلِّ خَلْقِهِ⁵ وَعَنِ الْقِيَامِ بِكُنْهِ حَقِّهِ. بَلْ هُوَ
 الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ الدَّائِمُ الْأَبَدِيُّ، الَّذِي لَيْسَ لِدَاتِهِ قَدْ [وَلَا
 لِيَدِهِ زَنْدٌ]⁶ وَلَا لَوَجْهِهِ خَدٌّ⁷، وَلَا لَهُ قَبْلٌ وَلَا بَعْدٌ
 لَيْسَ بِجَوْهَرٍ⁸؛ فَالْجَوْهَرُ بِالتَّحْيِيزِ مَعْرُوفٌ، وَلَا
 بَعَرَضٍ؛ فَالْعَرَضُ بِاسْتِحَالَةِ الْبَقَاءِ مَوْصُوفٌ. وَلَا بِجِسْمٍ

¹ في نص: ((فالكسبي)).

² في نص: ((فالضروري)).

³ جاء في نص: ((على الإرادة والانحراف والإكراه يلزم)).

⁴ في نص: ((ولا بحرف)).

⁵ في نص: ((عن التشبيه بخلقه، وكل خلقه)).

⁶ وردت هذه العبارة بعد كلمة "خَدَّ" الآتية؛ في بعض النصوص.

⁷ في نص: ((خلل)).

⁸ في نص: ((لا بجوهر)).

فَالْجِسْمُ بِالْجِهَاتِ¹ مَحْفُوفٌ. بَلْ هُوَ خَالِقُ الْأَجْسَامِ
وَالنُّفُوسِ، وَرَازِقُ أَهْلِ الْجُودِ وَالْبُؤْسِ، وَمُقَدِّرُ السُّعُودِ
وَالنُّحُوسِ، وَمُدَبِّرُ الْأَفْلَاقِ وَالشُّمُوسِ، هُوَ اللَّهُ [الَّذِي]² لَا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى مِنْ غَيْرِ
تَمَكُّنٍ وَلَا جُلُوسٍ، لَا الْعَرْشَ لَهُ مِنْ قَبِيلِ³ الْقَرَارِ، وَلَا
الاسْتِواءَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ الاسْتِقْرَارِ⁴ الْعَرْشُ لَهُ حَدٌّ
وَمِقْدَارٌ، وَالرَّبُّ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. [مَخْلُوقٌ مِنْ
مَخْلُوقَاتِهِ أَظْهَرَ فِيهِ بَعْضَ مَقْدُورَاتِهِ]⁵، الْعَرْشُ تُكَيِّفُهُ
خَوَاطِرُ الْعُقُولِ وَتَصِفُهُ بِالْعَرَضِ وَالطُّولِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ
مَحْمُولٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَ [الْقَدِيمُ]⁶ لَا يَحُولُ وَلَا
يَزُولُ، كَيْفَ وَالْعَرْشُ بِنَفْسِهِ هُوَ الْمَكَانُ، وَلَهُ جَوَانِبُ
وَأَرْكَانُ، وَكَانَ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُكُونَ [لَا]⁷ مَكَانٌ وَلَا عَرْشٌ

¹ في نص: ((بالجهة)).

² سقطت هذه الكلمة في بعض النصوص.

³ في نص: ((من قبله)).

⁴ جاءت العبارة في بعض النصوص هكذا: ((وَلَا التَّمَكُّنُ لَهُ مِنْ جِهَةٍ جِهَةٍ
وَلَا الاسْتِقْرَارَ)).

⁵ سقطت هذه العبارة في بعض النصوص.

⁶ سقطت هذه الكلمة في بعض النصوص.

⁷ سقطت ((لا)) في بعض النصوص.

وَلَا زَمَانٌ؟! خَلَقَ الْمَكَانَ وَالْعَرْشَ وَالزَّمَانَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى
مَا عَلَيْهِ كَانَ

لَيْسَ لَهُ تَحْتَ فَيْقُلُهُ، وَلَا فَوْقَ فَيُظِلُّهُ، وَلَا خَلْفَ
فَيَسْنُدُهُ، وَلَا جَوَانِبَ فَتَعْدِلُهُ، وَلَا أَمَامَ فَيَحُدُّهُ، لَوْ كَانَ
عَلَى شَيْءٍ لَكَانَ مَحْمُولًا، وَلَوْ كَانَ فِي شَيْءٍ لَكَانَ
مَحْصُورًا، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ لَكَانَ مَخْلُوقًا، جَلَّ رَبُّنَا عَنِ
التَّحْدِيدِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّكْيِيفِ وَالتَّأْلِيفِ وَالتَّصْوِيرِ
وَالشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾¹

¹ من الآية 11، من سورة الشورى.

الأقوال العينية (نثراً)

كانت معظم أقوال القطب الغوث أبي مدين شبيب عبارة عن جوامع للكلم، وأمثال سائرة، وحكم ذات دلالات وعبر مؤثرة. وكان مريدوه يجمعون ويسجلون ما أمكن من أقواله؛ فوصل منها - إلى الآن - عدد يسير. وقد اعتنى بها كثير من المتصوفة، وبعض الباحثين في التصوف. ويبدو أن ما عرف - حتى يومنا هذا - لا يتعدى ما اشتمله كتاب أنس الوحيد ونزهة المريد؛ الذي ضم 177 قول.

وفي هذا الكتاب؛ المخصص والمحصور في النصوص الأدبية والشعرية؛ سيتم عرضها؛ بغرض قراءتها، والتأمل فيها؛ من زاوية أدبية لا غير. كما تم تحريرها وعزلها عن التصنيفات الداخلة عليها؛ التي لم تذكر أيام أبي مدين. ثم عرضت على القراء الكرام بطريقة سهلة؛ تعتمد في الأساس على ترتيب يلتزم بحروف المعجم. من الألف إلى الياء.

ولا بد من الإشارة هنا؛ أن بعض هذه الحكم موجودة في كتاب ابن القنفذ "أنس الفقير وعزّ الحقيّر"¹؛ فقورنت بما ورد في: كتاب "أنس الوحيد لأبي مدين شعيب، وكتاب "العالم الرباني أبو شعيب التلمسان" لمحمد الطاهر علاوي. بالإضافة إلى نصوص أخرى اشتملها مواقع ومندائات في الأنترنت.

¹ سجل ابن القنفذ في كتابه "أنس الفقير وعزّ الحقيّر"؛ جملة من الأقوال المأثورة عن الشيخ أبي مدين شعيب؛ ووصل عدد من ذكره من أقوال إلى أربعة أربعين كلمة. وقد ذكرها ابن القنفذ بدون ترتيب أو تصنيف كما عمل به - في هذا الزمن - شيخ الطريقة العلوية بمستغانم الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي؛ الذي جمع أقوال أبي مدين المأثورة؛ التي وصل تعدادها 170 قولاً؛ ثم صنفها طبقاً للمواضيع المعبرة عنها. انظر أنس الفقير ، ص ص: 17 - 19.

أقوال العوء أبي مدين¹

- أ -

- آفة الخلق، سوء الظنّ. وآفة الصوفية اتباع الهوى.
- أبناء الدنيا يخدمهم² العبيد والإماء، وأبناء الآخرة يخدمهم³ الأحرار والكرماء⁴.
- إخنر صُحبة المُبتدعة اتقاء على دينك، ولحذر صحبة النساء اتقاء على قلبك.
- أحرص أن تصبح وتمسي مفوضاً مستسلماً لعله ينظر إليك فيرحمك⁵.
- أحرص أن لا يكون⁶ لك شيء، تعرف به كل شيء.
- الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم⁷، ومملوكة لأهل النهايات فهم يصرفونها.
- الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس.

¹ مرتبة حسب ترتيب حروف الهجاء. ألف ولام التعريف خارج الاعتبار.

² في نص: ((تخدمهم)).

³ سقطت هذه الكلمة في بعض النصوص.

⁴ في نص: ((وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والكرماء)).

⁵ في نص: ((ويرحمك)).

⁶ في بعض النصوص: ((أن يكون)).

⁷ في نص: ((لأهل البداية في تصرفتهم)).

- إجعل الصبر زادك والرضى مطيتك، والحق مقصدك¹ ووجهتك.
- الإخلاص ما خفي عن النفس درأيته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته وعن الهوى إمالته.
- إذا أراد الله بعبد خيرا أنسه بذكره ووفقه لشكره.
- إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات، وتخرق له العادات؛ فلا تلتفتوا إليه؛ ولكن انظروا كيف هو؛ عند امتثال الأمر والنهي.
- إذا سلا القلب عن الشهوات؛ فهو معافى.
- إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره.
- استلذاذك² بالبلاء تحقيق الرضا.
- الأسرى³ المقيدون ثلاثة⁴: أسير نفس، وأسير شهوة، وأسير هوى.
- أسس هذا الشأن على الجد والاجتهاد، وقطع المألوف والاعتياد⁵.

¹ في نص: ((مقصودي)). وهو لا يستقيم.

² في نص: ((التذاذك)).

³ في نص: ((الأسارى)).

⁴ سقطت عبارة ((المقيدون ثلاثة)) في بعض النصوص.

⁵ في نص: ((أسس هذا الشأن على الزهد والاجتهاد)).

- أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق وتحقق.
- فالتعلق الشعور بمعنى الاسم. والتخلق أن يقوم بك معنى الاسم. والتحقق أن تفنى في معنى الاسم.
- أضر الأشياء على العبد مخالطة من لا يرى حب ربه في أفعاله، وأقواله، وعقائده.
- أضر الأشياء صحبة عالم غافل، أو صوفي جاهل، أو واعظ مداهن¹.
- اضمحلال الرسوم، وفناء العلوم²؛ لتحقيق العلوم؛ منته عز وجل..
- اطرح الدنيا على³ من أقبل عليها⁴ وأقبل على مولاك.
- أغنى الأغنياء من أبدى له الحق حقيقة من حقه، وأفقر الفقراء من ستر الحق حقه عنه.
- أفضل الطاعات عمارة الأوقات⁵ بالموافقات.
- أفقر الفقراء من ستر الحق عنه.

¹ وردت في نص هكذا: ((من أضر الأشياء على المرید صحبة عالم غافل عن مراعاة ربه بقلبه، أو صوفي جاهل بأحكام الشريعة، أو واعظ يداهن الناس ويرخص لهم طلبا لميلهم إليه)).

² في نص: ((الأعمال)).

³ في نص: ((إلى)).

⁴ في نص: ((إليها)).

⁵ في نص: ((الوقت)).

- إن أقامك الحق¹ ثَبَّتَ²، وإن أقمت بنفسك سقطت.
- انزعاج القلب لروعة الانتباه، أرجح من أعمال³ الثقيلين.
- أنصف للناس⁴ من نفسك، وأقبل النصيحة ممن هو دونك⁵، تدرك أشرف⁶ المنازل.
- أنفع العلوم العلم بأحكام العبيد⁷، وأرفع علم⁸ التوحيد⁹.
- أنفع الكلام ما كان إشارة عن مشاهدة، أو نبأ عن حضور.
- انكسار العاصي خير من صولة المطيع.
- إنما حرموا الوصول بترك¹⁰ الإقْداء بالدليل، وسلوكهم إلى الهوى¹¹.

¹ سقطت كلمة ((الحق)) في عدد من النصوص.

² في نص: ((ثَبَّتَ))، وآخر: ((ثَبَّت)).

³ في نص: ((عمل)).

⁴ في نص: ((الناس)).

⁵ في بعض النصوص: ((واقبل في النصيحة ممن دونك)).

⁶ في نص: ((شرف)).

⁷ في نص: ((العبودية)).

⁸ في نص: ((معرفة)).

⁹ في نص: ((وأرفع العلوم علم التوحيد)).

¹⁰ في نص: ((لترك)).

¹¹ في نص: ((بالهوى)).

- أهل الرياضة في المعاملة مع الالتفات إلى الأعمال إنما¹ حُجِبُوا بالأعمال عن المعمول له، ولو حصل² المعمول له. لاشتغلوا به عن رؤية أعمالهم.
- أهل الصدق قليل في أهل الصلاح.
- أهل الغفلة والنفوس الدنسة، هم أقل أن يذكروا بأمر ونهى.
- الإياس راحة، والقناعة غنى.
- إياك أن تميل إلى غير الله؛ فيسلبك³ لذة مناجاته.
- إياكم وصحبة الأحداث.
- إياكم والمحاكاة قبل إحكام الطريق، وتمكن الأحوال، فإنها تقطع بكم عن درجات الكمال⁴.

- ب -

- بأعمالكم وأحوالكم؛ فالشهيد يشاهد حاله؛ فيظن به، والميت يشاهد أعماله؛ فتقلقه وتكربه؛ فهذا بالقبول والردّ مُخَوِّفٌ؛ وهذا بالرحمة والغفران مُبَشِّرٌ ومُشَرِّفٌ. وقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾⁵.

¹ سقطت هذه الكلمة في أحد النصوص.

² في بعض النصوص: ((ولو لا حصول)).

³ في نص: ((فيسلبك الله)).

⁴ ((عن درجات الكمال)) ساقطة في بعض النصوص.

⁵ من الآية: 2 من سورة الفتح.

فقال رضي الله عنه: الاستماع منه، والتبليغ عنه؛
وقال تعالى أيضاً: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾¹. الدلالة عليه،
والتبليغ من الحول والقوة إليه².

— البصيرة تحقيق الانتفاع.

— بالغفلة تنال الشهوات.

— بفساد العامة³ تظهر ولادة الجور، وبفساد الخاصة
تظهر الدجاجة الفتنون في الدين.

— بقاء الأبد⁴ في فنائك عنك.

— بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة.

- ت -

— ترك الدنيا للدنيا؛ شر من أخذها.

— التسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام، وترك
الشفقة عليها من الطوارق والآلام.

— التعظيم امتلاء القلب بإجلال الرب.

¹ من الآية 53 من سورة الشورى.

² قال كل هذا ردّاً على سؤال طرح عليه؛ لتفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ

أَوْ قَتَلْتُمْ لِلَّهِ لُحُوتُونَ﴾. آل عمران الآية 158.

³ في نص: ((العارف)).

⁴ في نص: ((بنازك الأبد)).

- التوكل وُثوق¹ بالمضمون واستبدال² الحركة بالسكون.
- توكل على الله حتى يكون الغالب عليك ذكره³
- على ذكرك⁴؛ فإن الخلق لن يغنوا عنك من الله شيئاً.

- ث -

- ثبات الإقدام سلوك طريق الإتياع، والائتمام بالرسل الكرام.
- ثمرة⁵ التصوف تسليم كلك.

- ج -

- جعل الله قلوب أهل الدنيا محلاً للخفلة والوسواس؛ وقلوب⁶ العارفين محلاً⁷ للذكر والاستئناس.
- الجمع ما أسقط⁸ تفرقاتك⁹، ومَحَى إشاراتك.
- الجمع استغراق أوصافك¹⁰، وتلاشي نعوتك.

¹ في نص: ((توكل)).

² في نص: ((استبدل)).

³ عبارة ((عليك ذكره)) سقطت في بعض النصوص.

⁴ في نص: ((سرك)).

⁵ في نص: ((ثمن)).

⁶ في نص: ((وجعل قلوب...)).

⁷ في نص: ((مكاناً)).

⁸ في نص: ((سقط)).

⁹ في نص: ((تفرقاتك)).

¹⁰ في نص: ((صفاتك)).

- ح -

- الحب أوله دوام الذكر، ووسطه الأئس بالمذكور، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه.
- حب العلو على الناس، سبب الانتكاس.
- الحدث¹ هو المستقبل للأمر، المبتدئ في الطريق؛ الذي لم يجب الأمور، ولم يثبت له فيها قدم؛ وإن كان ابن سبعين سنة. قال سهل² رحمه الله ونفع به: ((أمر أن لا يطلع الأحداث على الأسرار قبل تمكينهم؛ أما أهل الغفلة، والنفوس الدنسة فهم أقل أن يذكروا بأمر أو نهى)). وقيل: ((الإشارة بالأحداث ما سوى الله تعالى من المحدثات)).
- الحديث ما استدعيت من الجواب، والكلام ما صدقت³ من الخطاب.
- حسن الخلق معاملة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه⁴.
- الحق تعالى لا يراه أحدٌ إلا إذا مات⁵، ومن لم يمت لم ير الحق.

¹ قال هذا القول؛ بعد أن سأله بعضهم بخصوص النهي عن صحبة الأحداث.
² هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (توفي في 273 هـ أو 283 هـ).
³ 283 هـ).

³ في بعض النصوص: ((صدمك)).

⁴ ورد هذا القول في بعض النصوص بعد القول: ((أثار نوره مع الفقراء بالأمس....)).

⁵ في نص: ((إلا من مات))، وفي آخر ((الأمات)).

- الحق تعالى¹ مطلع على السرائر والضمائر² في كل نفس وحال؛ فأَي قلب رآه³ مؤثراً له؛ حفظه من الطوارئ والمحن،⁴ ومُضِلَاتِ الفتن.
- الحق سبحانه مُمِدُّ، والوجود مستمد، والمادة من عين الجود، فإذا انقطعت المادة (أي) مادة المعنى انْهَدَّ الوجود.⁵
- الحق سبحانه وتعالى يجري على ألسنة علماء كل زمان ما يليق بأهله.
- الحق سوط يسوق ويعوق؛ يسوق إلى الطاعة⁶، ويعوق عن المعصية⁷.
- حلية العارف الخشية والهيبة.

¹ في نص: ((الحق سبحانه)).

² في النص: ((والظواهر)).

³ في نص: ((فأَي قلب يراه)).

⁴ في نص: ((من طوارئ المحسن)).

⁵ ورد هذا القول في رسالة أنس الوحيد - مبتورة - هكذا: ((الحق تعالى مستبد، والوجود مستمد، والمادة عين الوجود.... فلو انقطعت المادة.... الوجود)). ص: 71.

⁶ في نص: ((إلى الجنة)).

⁷ في نص: ((النار)).

— الحمية¹ في الأبدان ترك المخالفة بالجوارح،
والحمية² في القلوب ترك الركون إلى الأغيار،
والحمية³ في النفوس ترك الدعوى.

- خ -

— الخالي من الأنس والشوق فاقد للمحبة.
— الخمول نعمة على العبد لو عرف شكره⁴.
— الخوف إذا سكن القلب أورثه المراقبة.
— الخوف سوط يسوق ويعوق، يسوق إلى الطاعة،
ويعوق عن المعصية.

- د -

— الدعوى من رعونة⁵ النفس.
— داييل تخليطك صحبتك للمخاطبين⁶، وكونك للبطاين
دايل قربك للمبطلين.
— الدنيا جرادة ورأسها حلها فإذا قطع رأس الجرادة حلت.



¹ في نص: ((الحجة)).

² في نص: ((الحجة)).

³ في نص: ((الحجة)).

⁴ في نص: ((شكرها)).

⁵ في نص: ((رعونات)).

⁶ في نص: ((حبك للمخاطبين)).

- ذ -

- الذكر شهود الحقيقة وخمود الخليفة.
- الذكر شهود المذكور ودوام الحضور.
- الذكر ما غيبك عنك بوجوده¹، وأخذك² منك بشهوده.

- ز -

- الزاهد في راحة.
- الزهد أعم من الورع اتقاء، والزهد إبقاء قطع الكل.
- الزهد فضيلة، وفريضة، وقربة. فالفضل في المتشابه، والفرض في الحرام، والقربة في الحلال.
- الزهد العزوف عن الدنيا، والإعراض عنها لحقارتها، وتركها لاستصغارها، ورؤية هوانها.
- الزهد فريضة وفضيلة وقربة؛ فالفرض في الحرام، والفضل في المتشابه، والقربة في الحلال.³

- س -

- السالك ذاهب إليه، والعارف ذاهب فيه.

¹ في نص: ((بوجوده)).

² في نص: ((وأخذ)).

³ جاء في نص آخر؛ بترتيب مغاير؛ كالتالي: ((الزهد فضيلة وفريضة وقربة؛ ففضيلة في المتشابه، وفريضة في الحرام، وقربة في الحلال)).

— سنته¹ عز وجل؛ استدعاء العباد لعبادته بسعة
الأرزاق، ودوام المعافاة؛ ليرجعوا إليه بنعمته؛ فإن لم
يفعلوا؛ ابتلاهم بالسراء والضراء؛ لعلهم يرجعون؛ لأن
مراده عز وجل؛ رجوع العبد² إليه طوعاً أو كرهاً.

- ش -

— شاهده بمشاهدته³ لك⁴ ولا تشاهده⁵ بمشاهدتك له.
— شتان ما بين⁶ من همته الحور والقصور، وبين
من همته رفع الستور ودوام الحضور.
— الشيخ من جمعك بحضوره، وحفظك في مغيبه.
— الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك
بالاحترام والتعظيم.
— الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأثار
باطنك بإشراقه.

¹ في نص: ((لسنته)).

² في نص: ((الخلق)).

³ في بعض النصوص: ((شاهد مشاهدته)).

⁴ كلمة ((لك)) سقطت في أحد النصوص.

⁵ في أحد النصوص: ((ولا تشهد)).

⁶ في بعض النصوص: ((شتان بين)).

- ص -

- صحبتك للمُخْلِطِينَ، وركونك للمُبْطِلِينَ؛ دليل وحشتك بالمستوحشين.
- الصحو والمروءة موافقة الأخوة إلا ما يحذرهُ العلم.
- صراط الله المستقيم الدلالة عليه، والتبري من الحول والقوة.
- الصمت نجاة.

- ط -

- طالبك الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة.
- الطالب المريد الصادق مشغول عن محادثة إخوانه من أهل الطريق، فكيف بأبناء الدنيا؟
- الطمع في الخلق شك في الخالق.

- ع -

- العبادة تتجيك من طغيان العلم والزهادة.
- العبد من انقطعت آماله إلا من عند مولاه.
- العبد ييأس من الفرج إلا من عند مولاه¹.
- علامة الإخلاص أن يغيب² عنك الخلق في مشاهدة الحق.

¹ سقطت كلمة عنده في بعض النصوص:
² في نص: ((ثَغِيب)).

- العلم غنم.
- عمرك نفس واحد؛ فاحرص أن يكون لك؛ لا عليك.
- عيش الأولياء في الدنيا عيش أهل الجنة؛ أبدانهم تتنعم بآثاره¹، وأرواحهم تتنعم بشهوده ونظره.

- غ -

- الغيبة عن الحق خيبة.
- الغيرة أن لا تُعرف ولا تُعرف.

- ف -

- الفترة الاشتغال بالخلق عن الخالق.
- فتوة² العارف بمعرفته، وفتوة الغني بمُعْتَادِهِ³ ومألوفه.
- الفتون أن لا تشغل بالخلق عن الحق.
- الفتون رؤية⁴ محاسن العبيد، والغيبة عن مساوئهم.
- فقد الأسف والبكاء في مقام السلوك، علّم من أعلام الخذلان.
- الفقر أمانة⁵ على التوحيد، ودلالة على التفريد.
- الفقر ألا تشهد عين سواه.

¹ في نص: ((تتمتع بآثاره)).

² في نص: ((عليك فتوة)).

³ في نص: ((وقوة الفر بمعناه)). وفي آخر: ((وقوة الفر بمعناه)).

⁴ سقطت كلمة ((رؤية)) في أحد النصوص.

⁵ في نص: ((الفقر أمان)).

— الفقر فَخْرٌ، والعلم غُنْمٌ، والصمت¹ نِجاةٌ، والإيَّاس
راحةٌ، والقرآن² والإيمان غنى، والزهد عافية،
والغيبة عن الحق خيبة.
— الفقر فقر ما دمت تسترّه؛ فإذا أظهرته ذهب نوره.

- ق -

— القرآن نزول وتنزيل، فالنزول قد مضى، والتنزيل
باق إلى يوم القيامة.
— القرب منه لذة، والبعد عنه حسرة، والأنس به
حياة، والايحاش منه موت.
— القريب مسرور بقربه، والمحب معذب بحبه.
— قوة³ العارف بمعرفه وقوة الغير بمعتاده⁴ ومألوفه.
— قيد نفسك بقيود الورع، وأطلق غيرك في ميدان العلم.

- ك -

— كثرة الطعام، المنام، الكلام تقسي القلب.
— كل حقيقة لا تمحو أثر⁵ العبد ورسمه¹ فليست² بحقيقة.
بحقيقة.

¹ في بعض النصوص: ((الصحة)).

² في بعض النصوص: ((العلم)).

³ في نص: ((قوت)).

⁴ في نص: ((وقوت الغني بمغناه...)).

⁵ في نص: ((كل حقيقة لا توافر)).

— كل فقير الأخذ إليه أحب من العطاء لم يشم للفقير رائحة.
— كما³ لم يصلحوا لمعرفته؛ شغلهم برؤية الأعمال.

ـلـ

— لا تصح للمريد حقيقة الإرادة إلا بغض البصر،
وحفظ الفرج، وترك الحرام، والخروج من الرياء
والسمعة والشهوات، والدوام على الصلوات في
الجماعة، وترك ما لا يعني، ولزوم الخلوة عن
الناس، والزهد في الدنيا.

— لا تَعْمَ⁴ عن نقصان نفسك، فتطغى.
— لا تكون له عبداً ولغيره فيك شائبة رق⁵.
— لا طريق أوصل إلى الحق إلا متابعة الرسول
صلى الله عليه وسلم في أحكامه.
— اللهم فهمنا عنك، فإننا⁶ لا نفهم عنك إلا بك.
— لا يجلس على رتبة البيعة إلا من تمسك بآثني
عشر وصفاً: من عيسى عليه السلام بإيدام الحزن
والسياحة، ومن يوسف عليه السلام بالعفو والأمانة،

¹ في نص: ((ورسومه)).

² في نص: ((فليس)).

³ في بعض النصوص: ((لما)).

⁴ في نص: ((لا تَعْمَ بالدنيا)).

⁵ في نص آخر: ((لا تكن عبداً ولغيره فيك بقية رق)).

⁶ في نص: ((فإننا)).

ومن يعقوب عليه السلام بالشوق والصبابة، ومن
أيوب عليه السلام بالتفكر والصبر، ومن موسى
عليه السلام بالإخلاص والمناجاة، ومن محمد صلى
الله عليه وسلم بالعلم والخلق الحسن. فمتى عجز
الشيخ عن هذه الأوصاف فبيعتة حرام محض.

— لا يصلح سماع هذا العلم إلا لمن¹ صلحت له
أربعة: الزهد، والعلم، والتوكل، واليقين.

— لا يكمل العمل إلا بالإخلاص والمراقبة.

— لا ينال الفقير مراده إلا بثلاثة أشياء: العمل
بالقرآن، والسنة، واتخاذ الأستاذ.

— لا ينفع مع الكبر عمل، ولا يضر مع التواضع بطالة.

— لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات، ولسان
التعبد يدعو الدوام بالاجتهاد، ولسان المحبة يدعو
إلى الذوبان والهيمنان، ولسان المعرفة يدعو إلى
الفناء والمحو والإثبات، والصحو.

— لكل شيء آفة، وآفة الصوفية متابعة الهوى.

— للأرواح² الرعاية، وللأشباح³ الوقاية.

¹ في نص: ((بمن)).

² في بعض النصوص: ((وللأرواح)).

³ في بعض النصوص: ((وللأشباح)).

— ليس للقلب إلا وجهة واحدة، فمهما توجه إليها
حجب عن غيرها.

— ليس من ألبس ذلَّ العَجَزِ كمن ألبس عزَّ الافتقار¹.

- هـ -

— ما بان عنه أحد، ولا اتصل به أحد،

— ما بان عنه من حيث العلم، ولا اتصل به من حيث الذات².

— ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الباء مكتوبة عليها.

— ما عرف الحق من لم يؤثره، وما أطاعه من لم يشكره.

— ما فات لا يُستذكر، لأن الوقت الثاني غير الأول.

— ما وصل إلى صريح الحرية، من عليه من نفسه بقية رق³.

— المحبة: الأنس بالله والشوق إليه.

— المحفوظون على الطبقات: محفوظ⁴ عن الكفر

والشرك⁵ بالهداية⁶؛ ومحفوظ عن الكبائر والصغائر

بالعناية⁷، ومحفوظ⁸ عن¹ الخطرات والغفلات بالرعاية².

¹ في نص: ((الاقتدار)).

² في أحد النصوص هكذا: ((ما بان عنه من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به من حيث الذات والصفات)).

³ كلمة ((رق)) سقطت في عدد من النصوص.

⁴ في بعض النصوص: محفوظون.

⁵ في نص: ((من الشكر والكفر)).

⁶ في نص: ((بالهدى)).

⁷ في نص: ((بالعيان)).

⁸ في نص: ((محفوظون)).

- مخالطة أهل البدع تميت القلب،
- المدعي منازع للربوبية.
- المدعي من أشار إلى نفسه.
- مروءتك إغضاؤك³ عن تقصير غيرك.
- المروءة موافقة الإخوان فيما لا يحضره الشرع⁴ عليك⁵.
- المريـد: آثار نوره مع الفقراء بالأنس والانبساط، ويكون مع المشايخ بالخدمة والاعطاء، ويكون مع العارفين بالتواضع والانخفاض، ومع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار.
- المريـد من يجد في القرآن ما يريد.
- من أخلص لله في معاملته⁶، تخلص من الدعوى الكاذبة.
- من أراد الصفاء فليُلْزم الوفاء⁷. فالمُقَرَّب مَسْرُورٌ بقربه، والمحب معذب بحبه.

¹ في بعض النصوص: ((من)).

² في نص: بالعناية).

³ في نص: ((إعطائك)).

⁴ في نص: ((فيما لا يحذه العلم)).

⁵ جاء في أحد النصوص : ((الصحوة والمروءة؛ موافقة الإخوة إلا ما يُحَذَرُ العلم)).

⁶ في نص: ((معاملة)).

⁷ في نص: ((من أراد الصفي فليين من الوفاء)).

— من استكن¹ لغير الله تعالى نزع الله الرحمة من قلبه.

¹ في نص: ((من سَكَنَ سِرَّةَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ)).

- من اشتغل بطلب الدنيا¹ ابتلي بالذل² فيها².
- من أعرض عن الأعراض أدباً فهو الحكيم المتأدب.
- من أعرض عن تحقيق³ النظر؛ لم يجب عليه تغيير المنكر؛ لأنه لم يتحققه⁴.
- من اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته؛ فقد⁵ تزدق، وانقطع. ومن اكتفى بالتعبد دون فقه؛ خرج وابتدع. ومن اكتفى بالفقه دون ورع؛ اغتر، وانخدع. ومن قام بما يجب عليه من الأحكام؛ تخلص وارتفع.
- من أنس بالخلق استوحش من الحق.
- من أهمل⁶ الفرائض فقد ضيع نفسه.
- من تحقق بالعبودية، نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الافتراء.
- من ترك التدبير والاختيار طاب عيشه.
- من تزين بزائل فهو مغرور.
- من تفرغ⁷ من اشغال الدنيا أقامه الحق في خدمته.

¹ في نص: ((من اشتغل بالدنيا...))

² في نص: ((ابتلي فيها بالذل)).

³ في نص: ((تحقق)).

⁴ في نص: ((لم يتيقنه)).

⁵ سقطت ((فقد)) ببعض النصوص.

⁶ في نص: ((ضيع)).

⁷ في بعض النصوص: ((ومن يتفرغ)).

- من تعلق بدعوى¹ الأمانى لا يفارق التواني.
- من جالس الذاكرين انتبه من غفلته.
- من حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالمُقْت من خلقه.
- من خدم الصالحين انتفع بخدمته².
- من خرج إلى الخلق قبل حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون.
- من خصال الفقير أربعة أشياء: قطع العلائق، وهجر عن الخلّاق، والأخذ في الحقائق، والكلام في الرقائق.
- من دامت أذكّاره صفت أسرارهِ، ومن صفت أسرارهِ كان في حضرة الله تعالى قرارهِ.
- من رأيتهُ يدعي مع الله تعالى³ حالاً؛ لا يكون على ظاهرهِ منه⁴ شاهد؛ فاحذره.
- من رزق حلوة المناجاة؛ زال عنه النوم.
- من سكن إلى غير الله بسرهِ، نزع الله الرحمة من قلوب العباد عليهِ، وألبسه لباس الطمع فيهِم.
- من سمع عنه⁵ بلغ عنه.

¹ في نص: ((بوعد)).

² جاء في أحد النصوص: ((ارتفع)).

³ ((تعالى)) سقطت في أحد النصوص.

⁴ ((منه)) سقطت في أحد النصوص.

⁵ في نص: ((منه)).

- من سمع¹ العلم ليعلم به الناس أعطاه الله تعالى فهما² يعرف به الناس. ومن تعلم العلم ليعامل³ به الحق أعطاه الله تعالى فهما⁴ يعرفه به.
- من سمع عنه⁵ بلغ عنه.
- من شرط المرید أن يعرف زيادته ونقصه، وذلك ليجد في العمل كلما طرقه الكسل.
- من ضيع حقوق إخوانه، ابتلي بتضييع حقوق الله تعالى.
- من ضيع حكمة وقته فهو جاهل، ومن قصر عنها فهو عاجز⁶.
- من طلب الحق من جهة الفضل وصل إليه.
- من ظهر له نقص في شيخه لم ينتفع به.
- من عرف أحداً لم يعرف الأحد سبحانه.
- من عرف الله استعان به⁷ في اليقظة والنوم.
- من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه.

¹ في نص: ((تعلم)).

² في نص: ((فيما)).

³ في نص: ((ليعرف)).

⁴ في نص: ((فيما)).

⁵ في نص: ((منه)).

⁶ جاء هذا القول في نص هكذا: ((من ضيع حكم وقته فهو عاجز، ومن قصر عنه فهو جاهل)).

⁷ في نص: ((استفاد منه)).

— من علامات الفقير الصادق محبته للعلماء،
وخدمته للفقهاء، وصحبته للفقراء، وتقلبه في صيامه
وقيامه، لباسه ما خرق، وطعامه ما خشن، إن نظر
اعتبر، وإن تكلم ذكر، وإن سكت تفكر.

— من علامة صدق المريد في إرادته فراره عن
الخلق، ومن علامة صدق فراره عنهم وجوده
للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى
الخلق، فهذا هو حال الوارث للنبي صلى الله
عليه وسلم فإنه كان يخلو بغار حراء، وينقطع
إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله، ويفر إلى ربه
حتى فجأه الحق فبعثه الله رسولا مرشدا لعباده،
فهذه حالات ثلاث ورثته فيها من اعتنى الله به
من أمته، ومثله يسمى وارثا، فالوارث الكامل هو
من ورثه علما وعملا وحالا.

— من قطع موصولا بربه قطع به. ومن شغل¹
مشغولا بربه أدركه المقت من حينه.

— من كان الأخذ أحب إليه من الإخراج؛ فليس بفقير.
— من كان فيه أدنى بدعة، فاحذر مجالسته، لئلا
يعود عليك شؤمها ولو بعد حين.

¹ في نص: ((أشغل)).

- من لم¹ يأخذ الأدب من المأدبين² أفسد من يتبعه³.
- من لم يجد في قلبه⁴ زاجراً فهو خراب.
- من لم يخلع العذار لم ترفع عنه الأستار⁵.
- من لم يستعن بالله على نفسه صرعه.
- من لم يصبر على صحبة مولاه، ابتلاه الله بصحبة العبيد.
- من لم يصلح لخدمته شغله بالدنيا، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة
- من لم يصلح للمعرفة شغل برؤية الأعمال.
- من لم يغفل عن ذكرك فلا تغفل عن ذكره،
- من لم يغفل عن شكرك فلا تغفل عن شكره.
- من لم يقم بآداب⁶ البداية⁷، كيف تستقيم له دعوى مقامات أهل النهاية؟.
- من لم يكن بالأحد لم يكن بأحد.

¹ في بعض النصوص: ((لا)).

² في بعض النصوص: ((المتأدبين)).

³ في بعض النصوص: ((من اتبعه)).

⁴ في نص: ((نفسه)).

⁵ في بعض النصوص: ((لم يرفع الأستار)).

⁶ في نص: ((بآداب)).

⁷ في نص: ((البدايات)).

- من نسب¹ لنفسه حالاً أو مقاماً²، فهو بعيد عن طرق³ المعارف.
- من نظر إلى المكونات نظر إرادة وشهوة، حجب عن العبرة فيها والانتفاع بها.
- مَنْ هَيَّأَ أثر النظر، وأقلقه سماع الخبر، تقطع في مفاوز المخاطر ولم يلتفت إلى الآفات يقول في هيمانه: "يحيف السبيل إلى وصل أعيش به؟"
- المهمل في الأحوال والأعمال؛ لا يصلح لبساط الحق.
- الموت كرامة، والفتور حسرة وندامة،
- الموت انقطاع عن الخلق، واتصال بالحق، والفتور انقطاع عن الحق.

- ن -

- نافخ الكير إن لم يحرقك بناره آذاك بشرره.
- وحامل المسك⁴ إن لم يحذك عطره متعك بنشره.
- نسيان الحق خيانة، والاشتغال عنه دناءة، الحضور معه جنة، والغيبة عنه نار.

¹ في نص: ((طلب)).

² في نص: ((مقالاً)).

³ في نص: ((طريقات)).

⁴ في بعض النصوص: ((العطر)).

- ٨ -

- همم العارفين لا تسمو لغير معروفهم.
- همم العارفين لم تزل¹ عاكفة على مولاها.
- الهوى قليل في أهل الصلاح².

- ٩ -

- الوجد³: حضرة تلهب⁴، ثم نظرة تسلب.
- الوقوف محادثة السر⁵ عند اصطلام العبد بشاهد⁶
- الحضور؛ واستغراق القلب بالذكر⁷ لغلبة شهود المذكور.
- الوصول استغراق أوصافك وتلاشى نعوتك.

- ي -

- يا نفس هذه موعظة لك إن اتعظت.

¹ في نص: ((لا تزال)).
² جاء في أحد النصوص: ((أهل الصدق قليل في أهل الصلاح)).
³ في بعض النصوص: ((الوحدة)).
⁴ في تنص: ((تلهف)).
⁵ في نص: ((النفس)).
⁶ في نص: بشهادة)).
⁷ في نص: ((في الذكر)).

قطعة من خطابه

— هذه فقرتان من خطاب أبي مدين للشيخ الولي
الصالح أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر بمنستير
إفريقية: ((أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ اتَّقَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ
وَقَاهُ؛ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ كَفَاهُ؛ وَمَنْ
اسْتَعَاذَ بِهِ نَجَّاهُ؛ وَمَنْ شَكَرَهُ وَالَاهُ؛ وَمَنْ أَقْرَضَهُ
جَازَاهُ؛ وَاجْعَلِ التَّقْوَى عِمَادَ قَلْبِكَ وَجَلَاءَ بَصْرِكَ؛
فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ
لَهُ))... وقال أيضاً: ((ضاق صدري حين أتت
المراكب؛ وَلَمْ نَرِ فِيهَا لَكَ كِتَابًا؛ فَرَأَيْتُكَ فِي النَّوْمِ
وَأَنْتَ تَقُولُ لِي: "إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِسَلَامِكَ عَلَى الدُّنْيَا؛
فَلَا تُسَلِّمْ عَلَيَّ، وَلَا نُسَلِّمْ عَلَيْكَ؛ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ
الْآخِرَةَ؛ فَسَلِّمْ عَلَيَّ، وَبَلِّغْنِي؛ وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تُكَاتِبْنِي؛
وَسَلِّمْ عَلَيَّ، وَبَلِّغْنِي؛ وَإِنْ لَمْ أَكَاتِبْكَ. فَزَالَ عَنِ قَلْبِي مَا
كُنْتُ أَجِدُهُ مِنَ الْقَبْضِ. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَقْطَعُكَ عَنِّي
يَقْطَعَةُ، وَلَا نَوْمًا وَالسَّلَامُ))¹.

¹ أنس الفقير وعز الحقيير، ص: 99.

عبد المؤمن

ابن علي بن مخلوف بن علي¹ بن مروان الكومي،
(أبو محمد).

فقيه وأديب وشاعر. أمير المؤمنين وال خليفة
الأول للموحدين، والمؤسس الفعلي لدولتهم ببلاد
المغرب. ولد في سنة 487هـ/1094م بضبعة تابعة
لتلمسان تدعى تاجراً (أو تاجرة) - التي تبعد عن
مرسى هنين بثلاثة أميال - نشأ فيها وترعرع بين
أسرة بسيطة الحال؛ امتهن والده صناعة الفخار.
وينتمي إلى قبيلة كومية الأمازيغية الزناتية.

وقد زاول عبد المؤمن تعليمه الأولي في كتائب
القرآن ببلدته تاجرا. ولمّا شبّ؛ خرج من بلدته
سعيّاً وراء المزيد من العلم؛ فانتقل إلى تلمسان؛ أين

¹ في المعجب: ((عبد المؤمن بن علي بن علويّ الكومي)). ص: 196.
وتخيل صاحب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية هذا: ((عبد
المؤمن بن علي بن علوي بن علي بن مروان بن نصر بن علي بن
عامر ابن الأمير أبي موسى بن عبد الله بن يحيى بن وزايغ بن
صطفور بن ينور بن ممطاط بن خزرج بن قيس بن عيلان بن مضر)).
ص: 175. أما ترجمته؛ فمتوفرة في مصادر كثيرة؛ من بينها: المعجب في
تلخيص أخبار المغرب للمراكشي، وأخبار المهدي لليدق، والحل
الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، وغيرها من كتب التراجم.

واظب على حلقات العلم الخاصة بابن عبد السلام التونسي، والقاضي ابن صاحب الصلاة. ولم يفتتح بما تحصل عليه من العلم في رحاب تلمسان؛ فرغب في المزيد؛ إذ تطلع إلى تحقيق ذلك في بلدان المشرق¹. وعليه فقد قرر الرحيل نحو مقصده؛ فرافقه عمه يعلو² في رحلته؛ حيث التقى بابن تومرت المهدي في نواحي بجاية³: ((وسأله عن اسمه فقال له: "عبد المؤمن بن علي". وسأله عن بلاده؛ فقال له: "من قطر تلمسان"؛ فقال له:

¹ ثمة روايات متضاربة بخصوص موضع لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن؛ وظروف ذلك اللقاء. من ذلك رواية ابن القطان في نظم الجمان التي تخالف ما جاء أعلاه؛ إذ يقول أن عبد المؤمن كان يزاول تعليمه بتلمسان؛ في مسجد العباد؛ فتأثر بحبب شيخه أبي محمد التونسي لابن تومرت؛ الذي وصلت أخباره إليه. ولما مات أبو محمد التونسي؛ قرر عبد المؤمن اللحاق بابن تومرت - حيث كان بملاحة في نواحي بجاية - فرحل إليه طالباً المزيد من العلم على يديه. وهذه الرواية مخالفة لما ورد في كتاب البيذقي: "أخبار المهدي بن تومرت"؛ الذي يقول أن عبد المؤمن كان متجهاً إلى بلاد المشرق رفقة عمه؛ ليتزود بالعلم؛ ولما وصل إلى بجاية؛ سمع الناس يذكرون ابن تومرت، وينوّهون بوفرة زاده من العلم؛ فاتجه إليه، ولازمه. وقد تم الاعتماد على ما قاله البيذقي؛ لأنه عايش الأحداث وشهدها بنفسه.

² كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص: 38.

³ ثمة رواية؛ تقول أنه التقى بابن تومرت بموضع في متيجة يسمى "فنزارة"؛ أين كان عبد المؤمن يعلم الصبيان. أنظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 182.

"أتكون من تاجرا؟" قال: "نعم؛ وأنا أريد الرحلة - في طلب العلم - لبلاد المشرق". فقال له المهدي: "العلم الذي تطالبه بالشرق قد وجدته بالمغرب"¹. وبعد حوار بينهما؛ أُنْعِمَ بملازمته، والبقاء معه؛ فركَنَ إليه، وأبهره بعلمه؛ فتحالفوا على الإطاحة بالدولة اللتونوية. ثم قرّر عبد المؤمن العودة مع ابن تومرت نحو المغرب؛ أين أشعل الثورة على المرابطين، وأنهكا دولتهم بالصبر والمطاوله. وكان ابن تومرت يثق في عبد المؤمن ثقة تامة، ويرى فيه ابنه البار، وسيفه البتار، ولسانه اللوذعي الحار. ولَمَّا شرع المهدي في تنظيم أتباعه؛ أسند قيادة الجيش إلى عبد المؤمن بن علي؛ وقال لأنصاره: ((أنتم المؤمنون، وهذا أميركم))². وبعد انهزام الموحدين في إحدى معاركهم أمام المرابطين. تأسف ابن تومرت؛ وقال لأبي بكر بن علي الصنهاجي (البليّذق)؛ حسبما ذكر في كتابه: ((فأسرعت حتى وصلت المعصوم؛ فأعلمته. فقال لي: "عبد المؤمن في الحياة؟" قلت: "نعم. قال لي: "الحمد لله

¹ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص: 129-130.

² المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 192.

رب العالمين؛ قد بقي أمركم¹)). وكان ابن تومرت
يردّد ببينين في عبد المؤمن كلما رآه²؛
تكاملت فيك أخلاق خصصت بها³
فكلنا بك مسرور ومغتبـط
فالسن ضاحكة والكف مانحة
والصدر منشـرح⁴ والوجه منبسط

ولما شعر ابن تومرت بقرب أجله؛ استدعى
الطبقة الأولى من الموحدين؛ المشكـالين من الجماعة،
وأهل الخمسين؛ وقال لهم في بعد كلمة وموعظة:
((وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم؛
هذا بعد أن بَلَّوْناه في جميع أحواله؛ من ليله
ونهاره، ومدخله ومخرجه؛ واختبرنا سريره
وعلاتيته؛ فرأينا في ذلك كله ثبُتاً في دينه؛ متبصراً
في أمره؛ وإنني لأرجوا ألا يُخْلِفَ الظَّنَّ فيه؛ وهذا

¹ كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص: 74. ورد هذا الخبر في مصادر كثيرة؛ كالمن بالإمامة، والمعجب، والحلل الموشية، وغيره. غير أن ما جاء في كتاب أخبار المهدي بن تومرت؛ أوثق؛ لأن حديث المهدي كان موجهاً لصاحب هذا الكتاب؛ المدعو البيذق.

² المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 197. والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص: 145.

³ جاء هذا الشطر في الحلل الموشية هكذا: ((تَجَمَّعَتْ فيك أشياء خصصت بها)).

⁴ في الحلل الموشية: ((متسع)).

المشار إليه هو عبد المؤمن؛ فاسمعوا له وأطيعوا؛ ما دام سامعاً مطيعاً لرَّبِّه؛ فإن بدَّلَ أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره؛ ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير كثير؛ والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده¹)).

وبموت ابن تومرت²؛ أسند الموحدون مهام الخلافة - من بعده - إلى عبد المؤمن بن علي؛ فأظهر قدرة فائقة، وشدة كافية، وحزماً وافٍ، وعزماً شافٍ؛ فواصل الكفاح ضد المرابطين، وتمكن بالمطاوله من إسقاط دولتهم؛ بعد تآكل أطرافها، وتمزق رقعتها؛ إذ دخل حاضرتهم مراكش دخول الفاتحين الغالبين، وتربع على العرش فيها تربع الخلفاء المتمكنين؛ فنظم سلك الدولة الموحدية، ورتب خططها ومناصبها، وشكل مؤسساتها ودولويتها، وعين وزراءها وقضاها وكتابها، ونصب قادة جيشها وأمرأه أعمالها. وكان عبد المؤمن بن علي - إلى

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 196.

² تضاربت الروايات حول يوم وفاة المهدي؛ فمن قائل أنها حدثت في يوم الأربعاء أو يوم الخميس شهر رمضان من عام 524هـ/1129م؛ إلى قائل أنها تمت في يوم الخميس 25 من شهر رمضان؛ بينما يقول آخرون أنها وقعت في 13 رمضان أو 14 رمضان أو 17 رمضان وكلها تجمع على سنة 524هـ؛ ما عدا عيد الرحمن بن خلدون الذي زعم أن موت المهدي وقعت في سنة 522هـ/1128م.

جانب كفاءته الحربية، وصفاته العسكرية - يتحلى بمزايا أخرى؛ تضعه في مراتب العلماء والأدباء والشعراء؛ كما كان محباً للعلماء والأدباء: ((وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم، محباً لهم، محسناً إليهم؛ يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده، والجوار بحضرته؛ ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم، والإعظام لهم. وقسم الطلبة طائفتين: طلبة الموحدين، وطلبة الحضر))¹. وقد تمكن عبد المؤمن من تشييد إمبراطوية واسعة الأطراف؛ تحدها شرقاً ديار مصر؛ وفي الغرب المحيط الأطلسي؛ كما تمتد شمالاً من الثغور الشمالية لبلاد الأندلس؛ إلى المفازة الصحراوية جنوباً. وبعد وفاة عبد المؤمن ابن علي برباط سلا سنة 558هـ/1162م - أثناء زحفه نحو الأندلس للجهاد - تولى الخلافة بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وانحصرت مرتبة الخلافة بالدولة الموحدية في يديه الذين تداولوا على الحكم إلى أن سقطت دولتهم بواسطة المرينيين سنة 668هـ/1269م.

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 200 - 201.

ولم تقتصر مناقب عبد المؤمن على براعته في الحكم وإدارة الدولة، وقيادة الجيوش فحسب؛ بل يعتبر من العلماء في الفقه والشريعة، وكان ضليعاً في فنون الأدب. وقد أوردت المصادر قصيدة له يستحث فيها أعراب بني هلال، ويرغبهم في الجهاد. قال عبد الواحد المراكشي - وآخرون - أنها من نظم الخليفة عبد المؤمن؛ بينما ينسبها ابن صاحب الصلاة إلى كاتب الخليفة ابن عياش. المهم أن إثباتها هنا مفيد وضروري؛ خاصة إذا عُلِمَ أن لا شك في شاعرية عبد المؤمن بن علي؛ وقد تجلّى ذلك في مواقف أخرى¹.

أَقِيمُوا إِلَى الْعَلْيَاءِ هُوجَ¹ الرِّوَا حِلِ
وَقُودُوا إِلَى الْهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ تَائِرِ
وَشَكُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةَ صَائِلِ
وَأَسْرُوا بَنِي قَيْسٍ إِلَى نَيْلِ غَايَةِ
مِنَ الْمَجْدِ تَجْنَى عِنْدَ بَرْدِ الْأَصَائِلِ²

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 225. تاريخ المن بالإمامة، ص: 415.

¹ في المن بالإمامة: ((غوج)).

² سقط هذا البيت في المعجب.

فَمَا الْعِزُّ إِلَّا ظَهَرُ أَجْرَدَ سَابِحٍ
يَقُوتُ¹ الصَّبَا فِي شِدَّةِ الْمُتَوَاصِلِ
وَأَبْيَضُ مَأْثُورٍ كَأَنَّ فِرْنَدَهُ
عَلَى الْمَاءِ مَنَسُوجٌ² وَلَيْسَ بِسَائِلِ
بَنِي الْعَمِّ مِنْ عَلِيٍّ هِلَالِ بْنِ عَامِرٍ
وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلِ بْنِ بَاسِلِ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةٌ
عَوَاقِبُهَا مَنصُورَةٌ³ بِالْأَوَائِلِ
هِيَ الْغَزْوَةُ الْغَرَاءُ وَالْمَوْعِدُ الَّذِي
تَنْجَزُ مِنْ بَعْدِ⁴ الْمَدَى الْمُتَطَاوِلِ
بِهَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا، بِهَا تُبْلَغُ الْمُنَى
بِهَا يُنْصَفُ التَّحْقِيقُ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ
عَرَمْنَا وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بُدَّ وَأَقْعُ
عَلَى وَقْعَةٍ تُودِي بِدِينِ الْفَوَاصِلِ
بِجَيْشٍ يَضِلُّ الطَّيْرُ فِي حُجْرَاتِهِ
وَتُخْجَبُ عَنْهُ الشَّمْسُ سُحْبُ الْقَسَاطِلِ

¹ فِي الْمَنِّ بِالْإِمَامَةِ: ((تَمُوت)).

² نَفْسُهُ: ((مَحْبُوكٌ)).

³ نَفْسُهُ: ((مَقْصُورَةٌ)).

⁴ نَفْسُهُ: ((تَنْجَزُ فِي أَفْقٍ)).

وَتَحْسِرُ فِيهِ الطَّرْفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
بُحُورٌ دِلَاصٌ عَادِمَاتُ السَّوَاهِلِ
وَيُطْلَعُ لَيْلُ النَّقَعِ فِيهِ كَوَاكِأُ
مِنَ الْبَيْضِ أَوْ مِنْ مُرْهَفَاتِ الْمَنَاصِلِ
وَيُضْحِي بِهِ بَحْرُ الدِّمَاءِ مُفَجَّرًا
بِأَسْمَرِ عَسَّالٍ وَأَبْيَضِ نَاصِلِ
بِأَيْدِي رِجَالٍ قَدُوا وَقَوَا بَعُودَهُمْ
وَخَاضُوا لِنَصْرِ الدِّينِ أَمْوَاجَ هَائِلِ
فَمَا وَهَنُوا يَوْمًا وَلَا فَلَ عَزَمُهُمْ
وَلَا حَيَّرَتْهُمْ مُغْضِلَاتُ النَّوَازِلِ
فَطِيرُوا إِلَيْهَا يَا هِلَالَ بَنِي عَامِرٍ
ثَقَالًا خِفَافًا بَيْنَ حَافٍ وَنَاعِلِ
وَلَا تَخْذَعُوا عَنْ حَظِّكُمْ مِنْ إِبَابَةٍ
تُبَوِّتُكُمْ فِي الْمَجْدِ أَسْنَى الْمَنَازِلِ
وَتَقْطِعُكُمْ صَنْدَرُ النَّدَى إِذَا نَبَتْ
بِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ صُدُورُ الْمَحَافِلِ
أَهْبَتَا بِكُمْ لِلْخَيْرِ وَاللَّهُ حَسْبُنَا
وَحَسْبُكُمْ وَاللَّهُ أَعْدَلُ عَادِلِ

فَمَا هَمُّنَا إِلَّا صَلَاحُ جَمِيعِكُمْ
وَتَسْرِيحُكُمْ فِي ظِلِّ أَخْضَرَ هَاطِلٍ
وَتَسْوِيغُكُمْ نِعْمَى تَرِفُ ظِلَالُهَا¹
عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
فَلَا تَتَوَانَوْا فَالْبِدَارُ غَنِيمَةٌ
وَلِلْمُدْلَجِ السَّارِي صَفَاءُ الْمَنَاهِلِ

ومع حبّ عبد المؤمن للعلم والعلماء،
ومشاركاته الشعرية، والأدبية؛ إلاّ أنّ عشقه للحرب،
وفنونها ملّك عليه مشاعره. وفي هذا أورد عبد
الواحد المراكشي خبراً عن أبي جعفر أحمد بن
عطية؛ وزير عبد المؤمن؛ قال: ((دخلت على عبد
المؤمن؛ وهو في بستان له؛ قد أينعت ثماره،
وتفتحت أزهاره، وتجلّوت على أغصانها أطياره،
وتكامل في كلّ جهة حسنه؛ وهو قاعد في قبة
مشرفة على البستان؛ فسلمت، وجلست، وجعلت
أنظر يمنة، وشمأة؛ متعجباً ممّا أرى من حسن ذلك
البستان؛ فقال لي: يا أبا جعفر؛ أراك كثير النّظر إلى
هذا البستان؛ قلت: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين؛

¹ في المن بالإمامة: ((يرفّ تضيئها)).

والله إنّ هذا لمنظر حسن... فسكت عني؛ فلما كان
بعد يومين أو ثلاثة؛ أمر بعرض العسكر؛ آخذي
أسلحتهم؛ وجلس في مكان مطل؛ وجعلت العسكر
تمرّ عليه؛ قبيلة بعد قبيلة، وكتيبة إثر كتيبة...
فلما رأى ذلك التفت إليّ وقال: يا أبا جعفر؛ هذا
هو المنظر الحسن؛ لا ثمارك، وأشجارك¹).

ويقال أنهم وجدوا على ظهر كتاب الحماسة؛
الذي كان يطالعه؛ أبياتاً بخط يده جاء فيها:
وَحَكْمُ السَّيْفِ لَا تَعْبَأُ بِعَاقِبَةٍ
وَحَلَّهَا سِيرَةٌ تَبْقَى عَلَى الْحَقْبِ
فَمَا تَنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنَزَلَةً
وَلَا تُرَدُّ صُدُورُ الْخَيْلِ بِالْكَتُبِ

ومن شعره قصيدة بعث بها – ضمن رسالة –
مبشراً ابنه بانتصاره على النصاري، وفتح للمهدية؛
قال فيها:

وَلَمَّا قَضَيْنَا بِالْمَشَارِقِ أَمْرَنَا
وَتَمَّ مُرَادُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 201 – 202.

وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَنَا
وَأَصْبَحَ وَجْهُ الْحَقِّ غَيْرَ مُحَجَّبٍ
وَطَهَّرَ هَذَا الصَّقْعَ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ
وَعَادَ بِهَا الْإِسْلَامَ بَعْدَ تَغْيِبِ
وَكُسِّرَتِ الصُّلْبَانُ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ
وَنَادَى مُنَادِي الْحَقِّ فِي كُلِّ مَرَقَبٍ
أَشْرَنَّا بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ إِلَيْكُمْ
فَطَارَ بِهَا شَأْوُ السُّرُورِ بِمَغْرِبِ
فَابْشِرُوا أَبَا حَفْصٍ بِنَصْرِ مُؤَزَّرٍ
كَفِيلٍ بِمَا تَبْغِيهِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
وَلَا بُدَّ فِي يَوْمٍ أَغْرَى مُحَجَّلٍ
يُسِيلُ دِمَاءَ الْكُفْرِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
وَتَشْفَى صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ بِغَزْوَةٍ
تَكُونُ عَلَى حُكْمِ الْحُسَامِ الْمُدْرَبِ
وَيَغْزَوُ بِلَادَ الرُّومِ جَيْشٌ عَرْمَرَمٌ
تُخَيِّرُ مِنْ قَيْسٍ وَأَبْنَاءِ يَغْرُبِ
تَصُولُ بِهِ مِنْ عَصْبَةِ الْحَقِّ مَعَشَرٌ
بِجُمْلَةٍ مَا يَلْقَاهُ خَيْرٌ مُجَرَّبِ
فَيُذَمِّغُ بِالصَّمْصَامِ كُلَّ مُجَاهِدٍ
وَيَقْطَعُ بِالْبُرْهَانِ كُلَّ مُشْغَبِ

فَطُوبَى لِأَهْلِ الْغَرْبِ مَاذَا يَرَوْنَهُ
مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ الْمُقَرَّبِ

ولم يقتصر في معاناته الشعرية على أغراض
الحماسة فحسب؛ بل يقال أنه خرج يوماً؛ مع
وزيره **أبي جعفر بن عطية** في نزهة؛ وشاهد أثناء
عودتهما جارية في منتهى الجمال؛ خلف شبّاك من
الخشب؛ تنظر إليه؛ فقال مرتجلاً:
قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرْتُ

فأجاز **أبو جعفر** بقوله:
حَوْرَاءُ تَرْنُو إِلَى الْعُشَّاقِ بِالمَقْلِ

فقال **عبد المؤمن**:
كَأَنَّ لَحْظَهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا

فقال **أبو جعفر**:
سَيْفُ الْمُؤَيَّدِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

كما أورد صاحب الحل الموشية أبياتاً؛ نسبها
إلى عبد المؤمن بن علي؛ قالها في جوابه على
تهنئة شعريه أتحفه بها أبو محمد عبد الله الجباني؛
جاء في مطلعها:

أَضَاعَتْ لَنَا الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ النَّجْحُ
كَأَنَّ وُجُوهَ الدَّهْرِ مُسْوَدَّةٌ كُلُّهُ

فأجابه الخليفة عبد المؤمن بقوله:

هُوَ الْفَتْحُ لَا يَجْلُو غَرَائِبُهُ الشَّرْحُ
أَصَابَ بَنِي التَّجْسِيمِ¹ مِنْ بَاسِهِ تَرْحُ
أُنْتَبَأَ بِهِ الْبُشْرَى عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ
بِمَهْلِكِ قَوْمٍ كَانَ مَوْعِدُهُمْ² الصَّبْحُ

وثمة حكايات لها عِزٌّ حسنة؛ من مآثر عبد
المؤمن الجليّة. من ذلك أنه حين عاد بجيشه من
جبل الفتح؛ قاصداً حاضرة ملكه مراکش؛ نزل
بجيشه على إحدى ضفاف النهر الذي يصب في
بحر المحيط؛ عند مدينة سلا. فنُصِيت القباب،
وضُرِبَتِ الخيام على شاطئ ذلك النهر؛ ثم أخذ

¹ وهذه التسمية ينبز به الموحدون المرابطون.
² في نص: موعدها

يتأمل في عبور جيشه الجرار لذلك النهر، ويشاهد القبائل تترى واحدة بعد أخرى؛ فتأثر؛ واستقبل القبلة ثم خرّ ساجداً لله، حامداً فضله وإنعامه؛ ولما رفع رأسه؛ شاهد أصحابه دموعه تهمي على لحيته. ولكي يبدد تعجبهم؛ قال لهم: ((أعرف ثلاثة أشخاص؛ وردو هذه المدينة؛ لا شيء لهم إلا رغيف واحد؛ فراموا عبور هذا النهر؛ فأتوا صاحب القارب؛ وبذلوا له الرغيف؛ على أن يعبروا ثلاثتهم؛ فقال: "لا آخذه إلا على اثنين خاصة"؛ فقال لهم أحدهم؛ وكان شاباً جلدًا: "خذا ثيابي معكما، وأعبر أنا سباحة؛ فأخذا ثيابه معهما، وصعدا القارب؛ فجعل الشاب يسبح؛ فكلما أعيا، ننا من القارب، ووضع يديه عليه ليستريح؛ فضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه؛ فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد))¹. وعرف السامعون أن المقصود بذلك الشاب الذي قطع النهر سباحاً هو عبد المؤمن نفسه، وأن رفيقاه هما: ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي. وأراد بذلك بذل الشكر لله وحمله على نعمه. وثمة قصة مؤثرة أخرى جرت أحداثها

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 226 - 227.

بين البطحاء وتلمسان؛ أثناء عودته من فتح إفريقيا. ففي طريق عودته مع جيشه العرمرم؛ توقف عند موضع كثير الأشجار؛ فاختار دوحة عظيمة في وسط الأشجار؛ فأمر أن يضرب خبأؤه بجوارها. فنزلت العساكر لنزوله، وضربوا خيامهم للإقامة بعض الوقت. ثم التفت إلى خاصته؛ وقال لهم: ((أتدرون لم آثرت النزول بهذا المكان؟)) قالوا: "لا؛ قال: "ذلك لأني بتُّ بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً؛ وكانت ليلة ممطرة؛ فما زال هذا الدوح وقائي حتى أصبحت؛ فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرق ما بين المنزلين، والفصل ما بين المبيتين" ¹. قال ذلك؛ ثم نهض فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى. ولما مرَّ أثناء عودته بالقرب من تاجرا؛ القرية التي وُلِدَ فيها ونشأ بها؛ قرّر الدخول إليها كي يزور قبر والدته؛ ويصل الموجودين من أهله وذوي رحمه. فأطلَّ على البلدة بجيشه الجرّار الذي سد الآفاق، ورفرفت رايّاته التي يناهز عددها ثلاثمائة راية على رؤوس

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 232.

عساكره، وفيالقه، ودوت طبوله كالرعد في سماء
القرية؛ واستقبل أهل القرية قدومه بحفاوة واندھاش؛
فقالَت امرأة عجوز بصوت مرتع - كانت واقفة
بين الجموع؛ وهي صديقة لوالدة عبد المؤمن: ((هكذا
يعود الغريب إلى بلده))¹.

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 232.

عيسى بن عمران

ابن دافال الزناني (ابو موسى) الورد هبشي.

ولي قضاء إشبيلية ومراكش. قال فيه ابن الزبير: ((من حوز رباط تَلَى، وبها قبيله؛ يكنى أبا موسى. نشأ بتلمسان، وبها تفقه، وبمدينة فاس؛ رحل إلى الأندلس؛ فروى بالمريّة عن أبي القاسم بن ورد، وغيره. كان حافظاً متصرفاً في علوم جامعاً لها؛ خطيباً مصقّعا، أديباً لودعياً؛ ولي قضاء إشبيلية مدة؛ ثم قضاء الخلافة إلى أن توفي))¹. واختاره أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قاضياً له²؛ فقيه متبحر، وخطيب مصقع، واسع الدراية بالأدب وفنونه؛ ونظم قصيدة ذاتعة الصيت في الوصايا والحكم. ما زالت تحت الركाम، أو تبخرت مع الزمن. توفي في سنة 578هـ/1182م. قال عنه عبد الواحد المراكشي: ((كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهاتهم؛ وكان خطيباً

¹ صلة الصلة، ص: 53، رقم الترجمة: 94.

² المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 254.

مصقعاً، وبليغاً، ولسناً، وشاعراً مُفلقاً؛ مشاركاً في كثير من العلوم؛ ونال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة؛ كان يتكلم عن الوفود، ويخطب في النوازل؛ فيأتي بكل عجيب¹. وله أولاد؛ قال فيهم عبد الواحد المراكشي: ((ما منهم إلا من ولي القضاء؛ وهم عليّ. وكان عليّ هذا رجلاً صالحاً؛ ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية؛ ثم عزل عنها، ولي مدينة تلمسان؛ وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبذل في دينه، وممن لا تأخذه هوادة في الحق. ومن أولاده: طلحة؛ ولي قضاء تلمسان. ويوسف؛ تركته قاضياً بمدينة فاس؛ بلغتني وفاته؛ وأنا بمكة سنة 620هـ. وأبو عمران موسى؛ قاضي الجماعة في وقتنا هذا²). وذكره هنا واجب؛ كي يبقى علامة تسهل للباحثين اكتشاف المزيد من إنتاجه.

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 245 - 246.
² نفسه، ص: 246.

محمد بن عبد الله

ابن مروان التلمساني، (ابو عبد الله)¹

قال ابن سعيد في الغصون اليانعة؛ نقلاً عن رحلة ابن حمويه الدمشقي: أنه من ألمرية بالأندلس في أصوله الأولى. وأجمعت المصادر أنه ولد بوهران؛ في تاريخ غير معروف. وكان والده قد امتهن الجندية؛ فولي مدينة وهران. أما نشأته وترعرعه؛ فتمت بتلمسان؛ مرتع صباه وشبابه؛ أين

¹ له ترجمة في الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ومعجم أعلام الجزائر، وياقة السوسان في التعريف بإحضرة تلمسان. وثمة أيضاً إشارة إليه في المعجب؛ ضمن فترتي حكم المنصور وابنه الناصر. ويبدو أن خطأ ما وقع فيه يحيى بن خلدون؛ حين سمّاه بأي عبد الله محمد ابن علي بن مروان بن جبل؛ ونسبه إلى حصن شلوبيين (القريب من غرناطة). ثم سرد المعلومات نفسها التي تنطبق على صاحب هذه الترجمة. قالاً أنه ((ولي قضاء تلمسان، ثم استقدمه المنصور لقضاء الجماعة بمراكش؛ عند حركته إلى قفصة. فكان بها حميد السير، عادلاً في الأحكام. قيل: لم يجلد أحداً بسوط أيام قضاؤه؛ مع كونه شديد الهيبة، بصيراً بالأحكام، حظياً عند المنصور. توفي ليلة الأحد تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وستمائة)). وثمة ترجمة أخرى أوردها يحيى بن خلدون أيضاً؛ تخص ابن محمد هذا؛ وسمّاه: مروان بن محمد بن علي ابن مروان. ولي بدوره قضاء تلمسان؛ ثم سبّته، وغرناطة، ومرسية. وتوفي في هذه المدينة الأخيرة؛ دون معرفة تاريخ وفاته.

نمت معارفه ومداركه في رحاب هذه المدينة التي زاول تعليمه بها؛ فتحصل في حلقاتها العلمية على ذخيرة جيدة من العلوم الشرعية، والفقهية والأدبية¹. وقد انصب اهتمامه - فيما بعد - على المذهب الظاهري؛ حيث شغف بكتب علي بن أحمد بن حزم. وكانت هذه هي فرصته الذهبية؛ إذ توافقت مع اللحظة التي تحول - خلالها - الخليفة الموحي أبو يعقوب يوسف عن كتب الفروع، وأبدى ميله إلى أهل الحديث؛ فقربه إليه، وولاه خطة قاضي الجماعة (قاضي القضاء) في سنة 583هـ/1187م. ثم عزله في سنة 592هـ/1195م.

وسرد ابن سعيد الكيفية التي وصل بها صاحب هذه الترجمة إلى مرتبة قاضي القضاء؛ فقال: ((ومن نادر الحكايات أنه كان قد لزم أبا جعفر ابن مضاء²؛ قاضي القضاء مدة؛ وكان يُثقل عليه

¹ في الترجمة التي أعدها يحيى بن خلدون - حتى وإن حصل اختلاف في اسم الأب - ذكر أنه أخذ العظم عن عيسى بن عمران؛ بينما قال أن من تلاميذه: أبو جعفر بن ثعبان.

² قاضي الجماعة آنذا. واسمه بالكامل: أبو جعفر أحمد (أبو العباس أيضاً) ابن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء؛ يعد بين أعلام القرن السادس.

بالطبع، ويخف عليه بالتصنيع؛ فسأله في بعض
الأوقات عن حاله؛ فارتجل هذه الأبيات:

يَا مَنْ مَضَى وَتَسَمَّى
وَلَمْ يَخُنْهُ زَمَانُهُ
سَأَلْتَنِي كَيْفَ حَالِي
وَقَدْ كَفَاكَ عِيَانُهُ
إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ
يُرْجَى فَهَذَا أَوَانُهُ

فقال: يكون خيراً إن شاء الله، ولأسعَيْنَ فيه
جهدي. ثم جعل يستنبيه، ويرشحه لما هو أهله.
فقال له بعض أصدقائه: "أراك تقدم هذا الرجل،
وتعينه على نفسك". فضحك ابن مضاء، وقال:
"الرأي ما ظننته؛ إنه غير رأيي. هذا رجل لاحت
فيه بوارق السعادة؛ ولا بد أن يتقدم؛ رضيت أم
سخطت. والأولى أن أظهر أن تقديمه بترشيحي، وسعيي
له؛ فإن وفي اشتركنا في حمد الناس؛ وإن لم يف؛
انفرد باللائمة". ثم أن ابن مضاء مرض في سفره
المنصور إلى إفريقية سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة؛
فاشتغل ابن مروان بالحكم بين الناس؛ فظهر منه

من حسن الخلق والسياسة ما اشتهر به اسمه،
ونسى معه ابن مضاء. فما استقل ابن مضاء من
مرضه؛ إلا وقد حاك في قلب المنصور أن يجعله
قاضي الجماعة؛ فكان ذلك. وصار ابن مضاء إذا رآه
والناس مقبلون عليه؛ أنشد¹:

وَمَا يَسْتَوِي الثَّوْبَانِ: ثَوْبٌ بِهِ الْبِلَى
وَتَوْبٌ بِأَيْدِي الْبَائِعِينَ جَدِيدٌ

أما حكاية عزله؛ فقد حدثت جراء خلاف
وخصومة نشبت بينه وبين أبي القاسم أحمد بن
محمد بن بقي؛ وتقول الرواية أن كلاماً جرى
بينهما؛ فتفوق ابن مروان على ابن بقي؛ فقال هذا
الأخير:

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالِهِ لَكِنَّهُ يُقْبِلُ أَوْ يُدْبِرُ
فَلِنْ تَلَقَّاكَ بِمَكْرُوهِهِ فَاصْبِرْ فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا يَصْبِرُ

ومنئذ؛ أخذ ابن بقي في رصد المناسبة
المواتية لتسديد ضربته؛ وجاء يوم التشهير به في
قضية إخراج الصدقات؛ حيث نسب إليه التقصير في

¹ الفصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص ص: 31 - 32.

توزيعها. عندها؛ عزله المنصور في سنة 592هـ/1195م؛ وولّى ابن بَقِيّ بدلاً منه: ((فلقية ابن مروان في إثر ذلك - وكان مفاكهاً، حسن الخلق، طيب النفس؛ فقال له: أَفْتَرَى؟ لقد أَقْبَل وأُبْر؛ ونحن نصبر كما صبرت))¹. فبدا الحياء على وجه ابن بَقِيّ، ولم يجبه. ومن عجائب الأحداث أن الحال لم يطل به كثيراً؛ إذ عاد إلى منصبه بعد صبره - كما تكهّن - وذلك بعد وفاة المنصور، وانتصاب خلفه الناصر؛ الذي بادر إلى عزل ابن بَقِيّ، وتعيين ابن مروان في مرتبة قاضي القضاة؛ حيث ظلّ في منصبه إلى أن وافته المنية سنة 601هـ/1204م.

ومن الروايات التي نشرها خصومه ضده للتشجيع به؛ أنهم زعموا أنه قَبِلَ ضيافة يهودي في تلمسان؛ فنزل بداره؛ فأكرمه ذلك اليهودي أيّما إكرام، ووفّر له كل ما استطاع. فزعموا أنه اختلّى به؛ وحاوره في أمور دينه؛ ثم ادّعوا أنه قال له: ((يا إسرائيلي؛ دياركم نظيفة، وطعامكم طيب، وشرابكم رائق؛ ما أظنكم إلا على الحق))².

¹ الفصوص الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص: 33.

² نفسه، ص: 33.

ومن شعره قوله واصفاً دعوة صنعها بعض
أصدقائه؛ كان هو المتصرف بين أيديهم:
يَا حَبْدًا دَعَوْتُكَ الْمُرْتَضَى جَمِيعُهَا مِنْ كُلِّ فَضْلٍ عَمِيمٍ
كَأَنَّا الْأَغْصَانُ سُكْرًا بِهَا وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَنَا كَالنَّسِيمِ
وَجَاعًا خُبْرُ رَأْيَابِهِ فِي هَالَةِ الْخَيْرِ وَجُوهَ النَّعِيمِ

وعَلَّقَ ابن سعيد على هذ البيت الأخير فقال:
((وقوله؛ وهو في غايَةِ الحسن؛ ولم أسمع في معناه
مثله))¹. وأشار أيضاً إلى أحد أولاد صاحب الترجمة؛
ولقبه بلبي زكرياء؛ وقال إنه كاتب وحافظ للأدب
وشاعر. وتولى قضاء ألمرية. ولكنه وصفه بالبخل.
ثم أضاف: ((وهو شاعر تقف على ترجمته في
سنة اثنين وخمسين وستائة))². ولعلَّ هذا الشخص
هو ابنه الذي ذكره يحيى بن خلدون في بغية
الرواد؛ مع تغيير في اسم الأب؛ وسماه: أبا علي
مروان بن محمد بن علي بن مروان بن جيل.
وقد يكون أحد أبنائه الآخرين.

¹ الفصوص الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص: 34.
² نفسه، ص: 34.

يوسف بن محمد، ابن يوسف. الشهير بابن النحوي (أبو الفضل).¹

فقيه مجتهد، وداعية مؤثر، وأديب لبيب وشاعر مفلق. ولد بتوزر - وفي قول ببسكرة - في حدود سنة 433هـ/1041م. نشأ وتلقى تعليمه في مسقط رأسه؛ ثم رحل إلى تلمسان؛ أين استقر بها، وشبَّ في أحضانها؛ وفي رحابها انشغل بالتدريس ونشر العلم؛ ثم انتقل - بعدها - إلى فاس، ثم سجلماسة؛ التي رحل منها إلى مصر؛ ولكنه قرَّر العودة إلى بلاد المغرب؛ حيث استوطن قلعة بني حماد؛ أين توفي ودفن سنة 513هـ/1119م. قال عنه القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي²: ((هو في بلادنا بمنزلة الغزالي؛ في

¹ له ترجمة في: التشوف إلى رجال التصوف. والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. وجذوة الاقتباس. ونيل الابتهاج على هامش الديباج. والإعلام. وبقاة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان. وله بعض المقطوعات في خريدة القصر وخريدة العصر. ووردت مقطوعة عن فاس في الأتيس المطرب بروض القرطاس؛ مع نبذة عنه؛ ص: 16.
² صاحب كتابي: النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية، وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ولد في حدود عام 548هـ/1105م، وتوفي في سنة 628هـ/1231م.

العلم والعمل))¹. وقال فيه القاضي عياض: ((أخذ هو والمازري عن اللخمي؛ وكان من أهل العلم والفضل؛ شديد الخوف من الله تعالى في غالب أحواله؛ كثير الحضور من الله تعالى؛ لا يقبل من أحد شيئاً؛ إنما يأكل ما يأتيه من توزر))². أخذ العلم عن أبي عبد الله المازري، وأبي زكرياء الشقرطيسي، وعبد الجليل الربيعي. ومن تلاميذه: أبو عبد الله محمد بن علي الشهير بابن الرمامة، وأبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي. وذكر من أصحاب أبو الفضل؛ أبو موسى اللخمي.

¹ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 300.

² نفسه، ص: 300 - 301.

وقال التادلي: ((ولما أفتى فقهاء أهل المغرب بإحراق كتب الغزالي، وأمر السلطان بإحراقها؛ انتصر لأبي حامد رحمه الله تعالى؛ وكتب إلى السلطان في ذلك))¹.

قال أحمد بن القاضي: ((وكان أبو الفضل من أهل العلم والعمل؛ وكان ممن انتصر لعدم إحراق الإحياء للغزالي؛ وكتب علي بن يوسف إلى مدينة فاس بالتحرج على الناس في كتاب الإحياء؛ وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة؛ أن الإحياء ليس عندهم؛ فقال أبو الحسن بن حرزهم: لَمَّا وقع هذا؛ ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الأيمان؛ فأفتاني بأنها لا تلزم. وكانت عل محمله أسفار؛ فقال لي هي من الإحياء؛ ووددت أني لا أنظر في عمري سواها))².

¹ التشوف، ص: 96.

² جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام فاس، ص: 552.

من شعره

ومن شعر أبي الفضل؛ القصيدة الشهيرة باسم
((المنفرجة))¹؛ وجاء فيها²:

اشَدِّي أزيمةً تَتَفَرِّجِي
قَدْ آذَنَ لَيْلُكَ بِالْبَلَجِ
وَوَظْلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ
حَتَّى يَعْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ
وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ
فَإِذَا جَاءَ الْإِبَانُ تَجِي
وَفَوَائِدُ مَوْلَانَا جُمْلٌ
لِسُرُوحِ الْأَنْفُسِ وَالْمَهَجِ
وَلَهَا أَرْجٌ مُحْيٍ أَبَدًا
فَاقْصُدْ مَحِيَا ذَلِكَ الْأَرْجِ

¹ نظمها جراء ما وقع له؛ حين أخذ واحد من أهل السلطان ماله؛ ولكن ذلك المتسلط رأى في منامه رجلاً؛ هدَّده بحربة في يده؛ وقال له: إن لم ترد أموال من اغتصبته قتلتك؛ فاستيقظ مذعوراً؛ وردّها.

² قام بعض العلماء والأدباء بشرحها وتخمسها؛ منهم: الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي (ت: 636هـ/1236م)؛ الذي خمس قصيدة المنفرجة؛ وتخميسه منشور في "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"؛ ص: 326 - 332.

فَلَرُبَّمَا فَاضَ الْمَحِيَا
 بِيخُورِ الْمَوْجِ مِنَ اللَّجَجِ
 وَالْخَلْقُ جَمِيعاً فِي يَدِهِ
 فَذَوُوا سِيعَةً وَتَوَوُ حَرَاجَ
 وَنَزُولَهُمْ وَطَلُّوعَهُمْ
 فَعَلَى دَرَكٍ وَعَلَى دَرَجِ
 وَمَعَائِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ
 لَيْسَتْ فِي الْمَشْيِ عَلَى عَوَجِ
 حَكَمٌ نَسِجَتْ بِيَدِ حَكَمَتِ
 ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسَجِ
 فَإِذَا اقْتَصَدَتْ ثُمَّ انْعَرَجَتْ
 فَبِمَقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرَجِ
 شَهِدَتْ بِعَجَائِبِهَا حُجَجٌ
 قَامَتْ بِالْأَمْرِ عَلَى الْحَجَجِ
 وَرِضاً بِقَضَاءِ اللَّهِ حَاجِي
 فَعَلَى مَرَكُوزَيْهِ فَعُجِ
 وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدَى
 فَاعْجِلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ
 وَإِذَا حَاوَلْتَ نِهَائَتَهَا
 فَاحْذَرِ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْعَرَجِ

لَتَكُونَ مِنَ السُّبَّاقِ إِذَا
مَا جِئْتَ إِلَى تِلْكَ الْفُرَجِ
فَهَئَاكَ الْعِيشَ وَبَهْجَتُهُ
فَلِمُبْتَهِّجٍ وَلِمُنْتَهِّجٍ
فَهِجِ الْأَعْمَالَ إِذَا رَكَدْتَ
فَإِذَا مَا هَجْتَ إِذَا تَهَجَّجَ
وَمَعَاصِي اللَّهِ سَمَّاجَتُهَا
تَزْدَانُ لَذِي الْخُلُقِ السَّمِجِ
وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتُهَا
أَنْوَارُ صَبَاحِ مُنْبَلِّجِ
مَنْ يَخْطُبُ حُورَ الْخُلْدِ بِهَا
يَضْفَرُ بِالْخُورِ وَبِالْغُنْجِ
فَكُنِ الْمَرْضِيَّ لَهَا بِتَقَى
تَرْضَاهُ غَدًا وَتَكُونُ نَجِي
وَاتْلُ الْقُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي
حَزْنٍ وَبِصَوْتٍ فِيهِ شَجِي
وَصَلَاةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا
فَاذْهَبْ فِيهَا بِالْفَهْمِ وَجِي
وَتَأْمَلْهَا وَمَعَانِيَهَا
تَأْتِ الْفَرْدُوسَ وَتَتَفَرِّجُ

وَاشْرَبَ تَسْنِيمَ مَفْجَرِهَا
 لَا مُمْتَرِجاً وَبِمَمْتَرِجٍ
 مُدَحَ الْعَقْلُ الْآتِيهِ هُدًى
 وَهَوًى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجًى
 وَكِتَابُ اللَّهِ رِيَاضَتُهُ
 لِيَقُولَ الْخَلْقُ بِمُنْتَرِجٍ
 وَخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاتُهُمْ
 وَسَوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ
 وَإِذَا كُنْتَ الْمِقْدَامُ فَلَا
 تَجْزَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ
 وَإِذَا أَبْصَرْتَ مَنَارَ هُدًى
 فَاطْهَرِ فَرْدًا فَوْقَ الثَّبَجِ
 وَإِذَا اشْتَاقَتْ نَفْسٌ وَجَدَتْ
 أَلَمًا بِالشَّقِّ الْمُعْتَلِجِ
 وَتَنَایَا الْحَسَنَا ضَاكِكَةً
 وَتَمَامُ الضَّحْكِ عَلَى الْفَلَجِ
 وَعِيَابُ الْأَسْرَارِ قَدْ اجْتَمَعَتْ
 بِأَمَانَتِهَا تَحْتَ الشَّرَجِ
 وَالرَّفَقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ
 وَالْخَرَقُ يَصِيرُ إِلَى الْهَرَجِ

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الْمَهْدِيِّ
الْهَادِي النَّاسِ إِلَى النَّهْجِ
وَأَبِي بَكْرٍ فِي سِيرَتِهِ
وَلِسَانِ مَقَالَتِهِ الْهَاجِ
وَأَبِي حَفْصٍ وَكَرَامَتِهِ
فِي قِصَّةِ سَارِيَةِ الْخُلُجِ
وَأَبِي عَمْرِو وَذِي النُّورَيْنِ
السُّتَحْيِي الْمُسْتَحْيَا الْبَهْجِ
وَأَبِي حَسَنِ فِي الْعِلْمِ إِذَا
وَافَى بِسَحَائِبِهِ الْخُلُجِ

— وله أيضاً:

أَصْبَحْتُ فِيمَنْ لَهُمْ¹ دِينَ بِلَا أَدَبٍ
وَمِنْ لَهُ أَدَبٌ عَارٍ مِنَ الدِّينِ

¹ في جذوة الاقتباس: ((له)).

أَصْبَحْتُ فِيهِمْ غَرِيبًا¹ الشَّكْلِ مُنْفَرِدًا²
كَبَيْتِ حَسَّانَ فِي دِيْوَانِ سَحْنُونِ³

— وقوله كذلك في مدينة فاس:
يَا فَاَسَ مِنْكَ جَمِيعُ الْحُسْنِ مُسْتَرْقُ
وَالسَّاكِنُوكَ أَهْنِيهِمْ لَقَدْ رَزَقُوا⁴

هَذَا نَسِيمِكَ أُمِّ رَاحِ⁵ لِرَاحَتِنَا
مَلَاوُكَ السَّلْسَبِيلِ⁶ الصَّافِي أُمِّ وَرَقِ⁷
أَرْضُ تَخَلَّلَتْهَا⁸ الْأَنْهَارُ دَاخِلُهَا
حَتَّى الْمَجَالِسِ وَالْأَسْوَاقِ وَالطَّرِيقِ⁹

¹ في التشوف: ((فقيد)).
² جاء هذا الشطر في جذوة الاقتباس هكذا: ((وقد غدوت لفقد الشكل منفرداً)).
³ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 301. والتشوف إلى رجال التصوف، ص: 97. وقد أشار ابن النحوي هنا؛ إلى بيت حسان بن نعمان في حرق نخيل بني نضير؛ إذ اقتبس في باب الجهاد بمدونة الإمام سحنون. وجاء بيت حسان هكذا:
"وهان على سراه بني لؤي حريق بالبويرة مستطير"
⁴ جاء هذا الشطر في جذوة الاقتباس هكذا: ((وساكُنوكَ أَهْنِيهِمْ بِمَا رَزَقُوا)).
⁵ في جذوة الاقتباس: ((روح)).
⁶ نفسه: ((السلس)).
⁷ جاء هذا الشطر في جذوة الاقتباس هكذا: ((ومَاوُكَ السَّلْسِ الصَّافِي أُمِّ الْوَرَق)).
⁸ نفسه: ((تخلَّلها)). وهذا أفضل.
⁹ الأتيس المطرب بروض القرطاس، ص: 16.

— وقال في مدح مصر¹:

أَيْنَ مِصْرُ وَأَيْنَ سَكَّانُ مِصْرٍ
بَيْنَنَا شُقَّةُ النَّوَى وَالْبَعَادِ
حَتَّانِي عَنْ نَيْلِ مِصْرٍ فَإِنِّي
مُنْذُ فَارَقْتُهُ إِلَى الْمَاءِ صَادٍ
وَالرِّيَاضِ الَّتِي عَلَى جَانِبَيْهِ
وَأَجْعَلُهُ مِنَ الْأَحَابِيثِ زَادِي
رَقَّ قَلْبِي حَتَّى لَقَدْ خِلْتُ أَنِّي
بَيْنَ أَيْدِي الزُّوَارِ وَالْعُودِ
مَا تَرَانِي أَبْكِي عَلَى كُلِّ رُبْعٍ
مَا تَرَانِي أَهْيِمُ فِي كُلِّ وَادِي
رَوْشَنٌ مِنْ رَوَاشِينِ النَّيْلِ خَيْرٌ
بَعْدُ مِنْ نَجْلَةٍ وَمِنْ بَغْدَادِ
وَمِنْ الْقَصْرِ قَصْرُ شَدَّادِ ذَلِكَ الـ
مُشْرِفِ الْمُرْتَقِي عَلَى سِنْدَادِ
إِنَّ مِصْرَ لَهَا مَعَانٍ لَعَمْرِي
قَدْ تَأَبَّتْ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ

¹ خريدة القصر في جريدة العصر، ج: 1، ص: 325.

هَذِهِ الْأَرْضُ إِنَّمَا هِيَ نَادٍ
مِصْرُ مِنْ بَيْنِهَا سِرَاجُ النَّادِي
أَسْعَدْتَنِي يَا صَاحِبِي عَلَى هَـ
ذَا الْبُكََا حَاجَتِي إِلَى الْإِسْعَادِ

— وقال في حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي¹:
أَبُو حَامِدٍ أَحْيَا مِنَ الدِّينِ عِلْمَهُ
وَجَدَّدَ مِنْهُ مَا تَقَادَمَ مِنْ عَهْدِ
وَوَفَّقَهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا آتَى بِهِ
وَأَلْهَمَهُ فِي مَا أَرَادَ إِلَى الرُّشْدِ
فَفَصَّلَهَا تَفْصِيلَهَا فَأَتَى بِهَا
فَجَاءَتْ كَأَمْثَالِ النُّجُومِ الَّتِي تَهْدِي

— وطلب منه بعض أقاربه أن يتشفع له عند ظالم
من أهل السلطان؛ كي يسمح له بالعودة إلى دياره
بعد فراره منها. فأجابه أبو الفضل: سأفعل،
وأتضرع إلى الله تعالى؛ ثم قال في تجرده:

¹ خريدة القصر في جريدة العصر، ج: 1، ص: 326.

لبست ثوب الرجا والناس وقد رقدوا
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا سيدي يا منتهى أمني
يا من عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أمورا أنت تعلمها
مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مدت يدي للضر مشتكيًا
إليك يا خير من مدت إليه يد

المائة السابعة هجرية

من 600 – 700 هـ

ابراهيم بن ابي بكر

ابن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني،
(ابو اسحاق)¹.

وهو فقيه وأديب وشاعر؛ ولد بتلمسان في عهد الموحدين - ليلة غرة رجب من سنة 609هـ/1213م - ثم عبر به والده؛ وهو ابن تسع سنين إلى الأندلس؛ حيث سكن معه في غرناطة مدة ثلاث سنين؛ ثم تحول إلى مالقة أين استقر بها وتلقى فيها دروس العلم؛ واتسعت في حضانها معارفه؛ وتوعدت مداركه في علوم شتى. ثم عاد إلى الضقة المغربية؛ فعبّر إلى سبتة؛ فنزّج بها أخت مالك ابن المرحل²؛ وكانت وفاته بهذه المدينة العريقة بعد عام 690هـ/1291م³.

¹ له ترجمة في الإحاطة في أخبار غرناطة، وفي بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، والبستان في ذكر الأولياء والطماء بتلمسان. وكتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة.

² هو أديب وشاعر بارز، ولد بمالقة سنة 604هـ/1207م وتوفي في سنة 699هـ/1299م. وتلقى تعليمه في إشبيلية وسبتة وفاس. تميّز في نظمه في وزن الدوبيت.

³ جاء في الإحاطة؛ أنه توفي بسبتة سنة تسعين وثمانية.

ويعرف به ابن الخطيب أيضاً فيقول: ((وهذا الشيخ جدّ صاحبنا وشيخنا أبي الحسين التلمساني لأبيه، وهو ممن يطرز به التأليف، ويشار إليه في فنون لشهرته))¹. كما نسب إليه لسان الدين ابن الخطيب حسن المعرفة بعقد الشروط؛ والتفوق في علمي: العدد والحساب والفرائض. وقال: ((كان فقيهاً ماهراً، عارفاً بعقد الشروط، مبرزاً في العدّد والفرائض، شاعراً محسناً، ماهراً في كلّ ما يحاول))². وقد نظم أرجوزة في الفرائض أيام شبابه؛ وفي سن 28 سنة³ بالتّحديد. وصف ابن الخطيب تلك المنظومة بقوله: ((أرجوزة محكمة بعلمها، ضابطة، عجيبة الوضع))⁴. وقال عنها أيضاً: ((الأرجوزة الشهيرة في الفرائض لم يُصنّف في فنّها أحسن منها))⁵. وإلى جانب تلك الأرجوزة في الفرائض؛ أنجز أبو إسحاق إبراهيم التلمساني - كذلك - منظومات أخرى في: السّير وأمداح النّبيّ صلى الله عليه

¹ الإحاطة، قسم: 1؛ ص: 666.

² نفسه، ص: 663.

³ جاء في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: أن عمره - حينما نظم أرجوزة الفرائض -

كان عشرين سنة. ص: 56.

⁴ الإحاطة، قسم: 1، ص: 663.

⁵ نفسه، ص: 664.

وسلم. ومن ذلك المعشّرات على أوزان العرب، كما نظم قصيدة في التتويه بالمولد النبوي الشريف وتمجيد ذكره؛ ثم ألف بعض الرسائل في العروض؛ من بينها عروض الدوبيّتي¹. ومن مؤلفاته أيضاً نتيجة الخير ومزيلة الضيّر. وذكره أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي في كتاب الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة؛ فقال: ((وخبّرت منه في تكراري عليه؛ تيقظاً، وحضور ذهن، وتواضعاً، حسن إقبال وبرّ، وجميل ولقاء ومعشّرة، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر فيه من التواضع، واشتغالاً بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاملاً في هيئته ولباسه؛ يكاد ينحط عن الاقتصاد؛ حسب المألوف والمعروف بسبّة))². أما أحمد بن الزبير فقال عنه: ((كان أديباً لغوياً، فاضلاً، إماماً في الفرائض))³.

¹ يقصد بعلم العروض الدوبييت: القالب الشعري الفارسي الأصل؛ اقتبسه العرب من فارس. والدوبييت بالفارسية تعني (بيتين). واصطلح عليه بالرباعية. وكمثال على ذلك؛ يقول الصوفي الشهير عفيف الدين التلمساني:

الدَّهْرُ رِياضٌ، نَحْنُ فِيهَا الزَّهْرُ وَالْكَوْنُ غُصُونٌ، نَحْنُ فِيهَا الثَّمَرُ
وَالْمُلْكُ لَنَا، وَمَا عَلَيْنَا حَرَجٌ وَالْعَيْشُ صَفَا، فَمَا الَّذِي نَنْتَظِرُ؟

² الإحاطة، قسم: 1، ص: 663.

³ نفسه، ص: 664.

شعره

شعره وافر وغزير؛ غير أن ما وصل إلينا منه لا يشكل إلاّ الفتات. ووصف ابن الخطيب مكانته الشعرية بقوله: ((مبرز الطبقة؛ بين العالي والوسط؛ منحازاً أكثر إلى الإجادة؛ وتقع له الأمور العجيبة فيه؛ كقوله:))¹.

الغدر في الناس شيمة سلفت

قد طأل بين النوري تصرفها

ما كل من سرق له نعم

من النوري قدرها ويعرفها

بل ربما أعقب الجزاء بها

مضرة عنك عز مصرفها

أما ترى الشمس تعطف بالنُّـ

ور على البدر وهو يكسفها

¹ الإحاطة، قسم: 1، ص: 665.

وله مطولات وصفها ابن الخطيب بـ((مجيدة،
وأمدح مبدية في الإحسان معيدة))¹. فمن قوله
يمدح الفقيه أبا القاسم العزفي أمير سبتة:
أرأيت من رحلوا وزموا العيسا²
ولا نزلوا على الطلول حسيماً
أحسبت سوف يعود نفس ترابها
[يوماً]³ بما يشفي لدرك نسيماً
هل مؤنسٍ ناراً بجانب طورها
لأنسها أم هل تحس حسيماً

الناشيء

¹ الإحاطة، قسم: 1، ص: 666.

² زموا: ربطوا بالخطام؛ وهو الحبل الذي يربط به عنق البعير ويشد إلى أنفه ليقاد. ويقصد هنا: ربطوا خطام الإبل بغرض الرحيل.
³ أضيفت هذه الكلمة من الملكية.

أحمد بن أحمد

البرشاني أصلاً التلمساني داراً وموطناً

(أبو العباس)¹

قال ابن سعيد؛ نقلاً عن والده: ((أنه من صدور الكتاب. كتب بن أبي زيد بن يوجان "يوقان" ملك تلمسان. وله رسالة يخاطب بها ابن عياش² المذكور: "يا سيدي؛ ولا ينادى غيرُ الكرام، وعمادي ولا يُعتمدُ إلا على مَنْ يَصرفُ صُروف الأيَّام؛ نداء من يمتُّ بالجوار القديم، ويشفعُ بنسبِ الأدب الذي لا يرعاه إلا كريم؛ مع ولاءٍ لوْ والى به الصُّباح ما غرَبَ عن ناظره، وصفاءٍ لوْ صافى به الدَّهر؛ ما كَدَّرَ من خاطره"))³. كما أورد ابن سعيد هذي المقطوعة الشعرية التي نظمها أبو العباس البرشاني:

¹ خبره في كتاب المغرب في حلى المغرب، وكتاب باقة السوسان في التعريف بإحضرة تلمسان.

² هو أحد كتاب الدولة الموحدية المخضرمين. كتب عن المنصور يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن، وكتب أيضاً لولده محمد الناصر، ثم ليوسف المستنصر. وتوفي في عام 619هـ/1222م.

³ المغرب، في حلى المغرب، ج: 2، ص: 82.

قُمْ هَاتِهَا ذَهَبِيَّةً
تَجْلُو دُجَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
تُجَلَى كَمَا تُجَلَى الْعَرُوءُ
سُ وَفَوْقَهَا عَقْدٌ نَظِيمٌ
حَلَبُ الْكُرُومِ وَمَا يُخِـ
صُّ بِشَرِبِهَا إِلَّا كَرِيمٌ
مَا زِلْتُ فِيهَا بِإِذْلًا
نَشَبِي الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ
وَأَعْدُّهَا ذُخْرًا لِمَا
أَلْقَى مِنَ الْأَلَمِ الْأَلِيمِ
عَجَبًا لَهَا تَشْفِي السَّقَا
مَ وَلَوْ نَهَا لَوْنُ السَّقِيمِ

هذا كل ما ذكر بخصوصه من معلومات؛
ولم يشر ابن سعيد إلى تاريخ ميلاده أو وفاته. غير
أن عمله ككاتب لأبي زيد بن يوجان (يوقان)
الهنثلي؛ يفيد أن صاحب هذه الترجمة من أعلام
القرن السابع الهجري؛ لأن ابن يوجان المذكور؛ وُلِّيَ
على تلمسان في سنة 605هـ/1208م؛ وانتهت ولايته
في عام 613هـ/1216م. وهذه الفترة؛ هي التي كتب
فيها أحمد البرشاني عن ابن يوجان. بالإضافة أن

هذا الأخير قتل في عام 626هـ/1228م. كما أن رسالة البرشاني المذكورة سابقاً؛ والتي وجهها إلى ابن عياش تدل أنه عاصره. وابن عياش - كما هو معلوم - توفي في سنة 619هـ/1222م.¹

¹ أنظر المغرب في حلى المغرب، ج: 2، ص: 81.

أدريس بن يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي (أبو العلاء - المامون)¹

أجمعت المصادر التاريخية؛ أن هذا الأمير؛ يتميز بالشهامة والحزم، والشجاعة، والجرأة، والإقدام، وبعد الهمة، ونفاذ العزيمة، وشدة الشكيمة، والنباهة، والجود، والإباء، وسعة المعرفة، والفصاحة، والبلاغة، والشاعرية؛ والتمكن من العلوم الشرعية والأدبية. وله إلمام ومعرفة بالقراءات، وضبط الروايات؛ وحسن التلاوة، وله أيضاً قدرة متميزة على الحفظ، بالإضافة إلى حسن استيعابه لكتب الحديث النبوي الشريف؛ إذ كان خلال أيام حكمه؛ يُقَرَأُ كتبها؛ مثل: الموطأ، وصحيح البخاري، وسنن أبي داود. كما أشاد المختصون ببلاغته، وجودة إنشائه، وامتلاكه مفاتيح علوم اللغة العربية وآدابها.

¹ له ترجمة في الإحاطة في أخبار غرناطة، والبيان المغرب (قسم الموحدين)، والحلل الموشية، والأنيس المطب بروض القرطاس، وتاريخ الدولتين، وكتاب العبر، ورايات المبرزين، والأعلام، والاستقصا. وعند كبير من كتب التاريخ والتراجم.

ونقل لسان الدين بن الخطيب عن ابن
عسكر؛ حين وصف إدريس بن يعقوب في كتابه
عن تاريخ مالقة؛ قوله: ((دخل مالقة - من قبل
أخيه - فوصل إليها في الحادي عشر من محرم؛
وهو شاب حدث؛ فكان منه من نباهة القدر،
وجلالة النفس، وأبهة الملك؛ ما يعجز عنه كثير
من الملوك. ولحين وصوله؛ عقد مجلس مذاكرة؛
استظهر له نبهاء الطلبة. وكان الشيخ علي بن
عبد المجيد يحضره؛ وكان يبدو منه - مع حداثة
سنه - من الذكاء، والنبيل، والتفطن؛ ما كان يبهت
الحاضرين))¹.

ومقابل هذه الصفات الحميدة التي يتحلى بها؛
فثمة صفات أخرى تعكس له صورة مغايرة
ومتناقضة مع الأولى. إذ عرف عنه - فيما بعد -
الميل إلى الشدة والجبروت، والتعطش لسفك الدماء.
كما تميّز - من بين أسلافه - بأنه أول من أدخل
الفرنجة إلى البلاد المغربية. قام بذلك تحت شدة
الحاجة إليهم؛ من أجل قمع شيوخ الموحدين؛ الذين
نقضوا عهده، ورجعوا عن بيعتهم له. حدث هذا؛

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 1، ص ص: 822 - 823.

نتيجة لما كانت تعانيه الدولة الموحدية من الضعف والاضطراب. حيث غاب الاستقرار والاطمئنان في قمة الدولة؛ حتى أنهم ثاروا على أخيه العادل وخلعوه. وفي هذه الأثناء؛ كان الأمير أبو العلاء إدريس والياً على إشبيلية؛ فلما وصله خبر خلع أخيه؛ دعا لنفسه؛ فأجابته أكثر أهل الأندلس. ولما علم الموحدون بمراكش وقوف أهل الأندلس خلف الأمير إدريس؛ بعثوا ببيعتهم إليه. ولكنهم تراجعوا وخلعوا البيعة؛ نتيجة لتخبطهم واضطراب أحوالهم؛ ثم أسندوا مقاليد الحكم إلى عمه أبي زكرياء ابن الخليفة الناصر. فلما تبينت له خيانتهم؛ صمّم على كسر شوكتهم، وتأديبهم. وعمل من فوره على العبور إليهم، والتكامل بهم. ولكنه أترك تفاوت القوة بينه وبين أعدائه؛ لذا فقد شكل قوة عسكرية من أبناء إمارته في إشبيلية بالأندلس؛ جعل عمودها الفقري فرقة من فرسان الفرنجة؛ الذين اشتهروا باسم الروم؛ استعان بهم؛ لكي يكونوا بمثابة القوة الفعالة لوحداته الأندلسية. ولكنه - في المقابل - تنازل لهم عن قضايا جلية، ومواقع ثمينة؛ إذ خضع لشروطهم الثقيلة؛ ومن تلك الشروط: تنازله عن عددٍ من الحصون والقلاع بالأندلس، ثم السماح لهم

ببناء كنيسة للنصارى بمراكش. وهكذا؛ فقد رضي
بمطالبهم؛ ثم عبر بهم بحر الزقاق، أين اشتبك
بجيش أعدائه؛ فشئت شمله، وقتل أبطاله؛ ثم زحف
إلى مراكش حاضرة الدولة؛ أين دخلها عنوة؛ فنكل
بأعدائه شرّ تنكيل. ثم أمر بالقبض على شيوخ
الموحدين؛ وعقد محاكمة سريعة لهم؛ انتهت بقتلهم
شرّ قتل. قال ابن الخطيب أن عدد من أعدمهم
مائة¹ بينما ترى مصادر أخرى أن من أعدموا
تجاوز عشرة ألفاً².

¹ الإحاطة، قسم: 1، ص: 824.

² يقول ابن عذاري في كتاب البيان المغرب؛ أن الذين قتلوا أمم لا تحصى.
بينما يقدر صاحب الطل الموشية عددهم فيرى أنهم تجاوزوا أربعة
عشر ألف فارس. أما صاحب الأنيس المطرب فيقول: ((فأمر بقتل جميع
أشياخ الموحدين، وأشرافهم؛ فقتلوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد، ولم
يراع والدأ ولا ولدأ؛ حتى أنه أوتي بولد أخته وهو صبي صغير ابن
ثلاث عشرة سنة، وكان قد حفظ القرآن؛ فلما قدم ليقتل قال له يا أمير
المؤمنين أعف عني لثلاث؛ قال ما هي؟ فقال: صغر سني، وقرب رحمي
منك، وحفظي لكتاب الله العزيز؛ فنظر إلى القاضي المكدي كالمستشير
له؛ ثم قال له: كيف رأيت قوة جاش هذا الغلام، وإقدامه على الكلام في
هذا المقام؟ فقال له القاضي: يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلوا عبادك،
ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً؛ فأمر به فقتل. ثم أمر بتطبيق الرؤوس على
أسوار المدينة؛ فعلقت بدارها؛ فكانت حسبتها أربعة آلاف رأس وستمئة
رأس؛ كان زمان الصيف؛ فنتنت منها المدينة؛ وتآذى الناس من روائحها؛
فرُفِعَ إليه ذلك؛ فكان من جوابه أن قال: هنا مجانين، وتلك رؤس لهم
أحراز؛ لا يصلح حالهم إلا بها؛ وإنما لعطيرة عند المحيين، وثينة عند
المبغضين)). ص: 168.

ولم يقف عند ذلك الحد؛ بل غير مذهب الدولة الموحدية، وعطل مراسيمها الممجة للمهدي؛ كما غير رموز الدولة المُنوّهة بالإمام المهدي؛ من: سَكَّة، وخطبة وأذان؛ إذ حذف منه العبارات المضافة لها؛ مثل: ((تأصّلت الإسلام))، و((منسوب رب))، و((بادري)).

وفي عهد إدريس المأمون؛ ازدادت محن الدولة الموحدية نمواً تعقيداً، وأضيفت إليها أمراض على أمراضها التي أصابته من قبل؛ فدبّت في أوصالها عاهة الانشقاق والتفكك والاتحلال؛ حيث تتهاهل حالها في الداخل، وسقطت أطرافها في الخارج. وعليه؛ فقد سمحت هذه الفتنة المشتعلة بين إدريس المأمون والموحدين في بلاد المغرب؛ بظهور انشقاقات وتصدعات في رحاب الدولة الموحدية بالأندلس وإفريقية؛ إذ تغول في الأولى ابن هود الناصر ضد الدولة؛ بالإضافة إلى ازدياد تحرشات النصارى في تلك الديار. ومن جهة أخرى تصدعت الدولة الموحدية ببلاد المغرب؛ فانقسمت إلى دولتين؛ الأولى في مراكش؛ وعلى رأسها بني عبد المؤمن، والثانية في تونس بقيادة أبي زكرياء الحفصي.

أعماله النثرية والشعرية

أورد لسان الدين بن الخطيب عينات من نثره. مثل ذلك الخطاب الذي وجهه إدريس المأمون إلى أهل الأندلس آخذاً إياهم ببيعته، صادعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حضاً الناس على الالتزام بالصلوات، وإيتاء الزكاة، وإعطاء الصدقات؛ بالإضافة إلى النهي عن شرب الخمر وكل المسكرات. ومما قاله في خطابه؛ وهو طويل؛ وقد اختار ابن الخطيب فقرات منه؛ هي كالتالي¹:

((الحمد لله الذي جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصليين يتفرع منهما مصالح الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان، إرشاداً إلى الحق المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، المبعوث بالشرعية التي ظهرت الجيوب من الأدران، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان، طوراً بالشدة، وتارة باللين، القائل، ولا عدول عن قوله: "ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه" تنبيهاً على ترك الشك لليقين، وعلى آله أعلام الإسلام،

¹ أنظر الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 1، ص ص: 826 - 829.

الملقين راية الإسلام باليمين، الذين مكنهم الله في الأرض، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر¹، وفاء بالواجب لذلك التمكين)). ثم أضاف: ((وإذا كنا نوفي الأمة تمهيد دنياها، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها، فالدين أهم وأولى، والتَّهْمُ، بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها، أحق أن يقدم وأحرى، وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع ونُدع، ونتبع السنن المشروعة ونذر البدع. ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة، ولا نغبنها أداة من الأدوات مريحة، ولنا عليها أن تطيع وتسمع)). وأضاف أيضاً: ((وأول ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان في جماعتها. فقد قال عليه الصلاة والسلام: "أحب الأعمال إليّ الصلاة لأوقاتها". وقال: "أول ما ينظر فيه من أعمال العيد الصلاة". وقال عمر: إن أهم أموركم عندي الصلاة؛ فمن حفظها وحافظ عليها

¹ إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. سورة الحج؛ الآية: 41.

حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع)). وقال أيضاً: ((لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة وهي الركن الأعظم من أركان الإيمان، والسور الأوثق لأعمال الإنسان، والمواظبة على حضورها في المساجد، وإيثار ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد، أمر لا يضيعه المفlechون، ولا يحافظ عليها إلا المؤمنون. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد رأينا، وما يتخلف عنها إلا المنافق، معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى يتهدى بين الرجلين، حتى يقام في الصف. وشهود الصبح، وعشاء الآخرة شاهد بمحضر الإيمان. ولقد جاء: حضور الصبح في جماعة يعدل قيام ليلة، وحسبكم بهذا الرجحان. ومن الواجب أن يعتنى بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الدين، ويأخذ بها في جميع الأمصار الصغير والكبير من المسلمين، ونيط في إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام: "مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر سنين").

وكتب بخط يده كاتباً لأهل أندوجرا¹ بالأندلس قال فيه²: ((إلى الجماعة والكافة من أهل فلاة، وقاهم الله عثرات الألسنة، وأرشدكم إلى محو السيئة بالحسنة، أما بعد؛ فإنه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي جدد لكم أسهم الانتقاد، ورماكم من السهاد، بالداهية السّاد، أتعذرون من المحال بضعف الحال، وقلة الرجال؛ إذاً نلحقكم برّبات الحجال، كأنا لا نعرف مناحي أقوالكم، وسوء منقلبكم وأحوالكم، لا جرم أنكم ستمتع بالعدو قصمه الله، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله، فطاشت قلوبكم خوراً، وعاد صفوكم كدراً، وشمتم ربح الموت ورداً وصدراً، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب، وأن الفضاء قد غص بالتفاف القنا واصطفاف المناكب، ورأيتم غير شيء فتخيّلتموه طلائع الكتائب، تباً لهمتكم المنحطة، وشيمتكم الراضية، بأذنّ خطّة، أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار

¹ اندوجر: بلدة في الأندلس تسمى بالإسبانية Andujar؛ تتواجد شمال شرقي قرطبة؛ على ضفاف النهر الكبير. والرسالة المذكورة موجودة أيضاً في البيان المغرب (قسم الموحدين).

² أنظر مقتطفات منها في الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 1، ص ص: 830 - 832.

وهي بالباطل مشوبة. لقد آن لكم أن تبدلوا جِلَّ
الْخُرْصَان¹، إلى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات
الخيول؛ وإنما على الغانيات جر الذبول. أظهرون
العناد تخريصاً، بل تصريحاً وتلويحاً، ونظن أن لا
يجمع لكم شتاً، ولا يدني منكم نزوحاً. أين المفر
وأمر الله يدرككم، وطلبنا الحثيث لا يترككم، فأزبلوا
هذه النزعة النفاقية من خواطرهم، قبل أن نمحو
بالسيف أقوالكم وأفعالكم، ونستبدل قوماً غيركم ثم لا
يكونوا أمثالكم². ونحن نقسم بالله لو اعتسفتم كل
بيداء سملق³، واعتصمتم بأمنع معقل، وأحفل فيلق،
ما ونيينا عنكم زماتاً، ولا ثنيينا عن استيصال العزم
منكم عناناً فلا يغرنكم الإمهال، أيها الجهال)).

¹ الخرصان: هي الرماح الدقيقة والقصيرة السنان.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ حَوَالِي كُفْرَتُمْ لِتُفْقَهُوا فِج سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغُلُ وَمَنْ يَبْغُلْ فَلْيَأْمُرْ يَبْغُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾. سورة محمد، من الآية: 38. وقال سبحانه وتعالى في سورة التوبة أيضاً: ﴿إِذَا تَفَرَّقُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَعْرِفُوهُمْ شَيْئًا وَاللَّهُ عَالِمُ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآية: 39.

³ السملق: القاع الصفصف، والأرض المستوية.

ومن توقيعاته الموجزة الشهيرة؛ ما أورده ابن
عسكر؛ حين قال: ((وكانت تصدر منه توقيعات
نبيلة. فمنها أن امرأة رفعت رقعتها بأحد من
الأجناد ممن نزل دارها، وصدر لها أمر يُنكر؛
فوقع على رقعتها: "يُخرج هذا النازل، ولا يعوض
بشيء من المنازل")¹. وتوقيع آخر ورد ذكره في
المغرب في حُلَى المغرب؛ ردّ فيه أبو العلاء المأمون
على أحد كتابه²؛ كان قد تركه ثم عاد إليه؛
ولكنه أكثر عليه في الطلب والشكوى. وجاء في نص
المغرب: ((وتسبب إلى المأمون؛ وأشده قصيدة؛
منها:

مَوْلَايَ إِنَّ بَلَّيْتُ مَعَ خِدْمَتِي

خَصَمَانٍ فَاحْكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْدَمُ

ثم أكثر عليه في الرّقاع في ذلك. فوجه له المأمون:
"يا هذا؛ قد أكثرت علينا من الرّقاع؛ وقد أمضينا
لك حكم ابن الرّقاع")³.

وجاء في الأنيس المطرب بروض القرطاس؛ أنه
اعتلى منبر جامع المنصور في مراكش؛ بعد إخماده

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 1، ص: 834.

² اسمه أبو يحيى أبو بكر بن هشام.

³ المغرب في حُلَى المغرب، ج: 1، ص: 74.

لفتنة الموحدين، والقضاء على خصومه؛ فقال بعد أن
لعن المهدي: ((أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم
وادعوه بالغوي المذموم؛ أنه لا مهدي إلا عيسى؛
وأنا قد نبأنا أمره النحيس))¹. ثم أمر - من
يومها - أن يسقط اسم المهدي من الخطبة؛ كما
قرر تغيير هيئة الدرهم من الشكل المربع المعمول
به في الدولة الموحدية الأولى؛ إلى الشكل الدائري.
- ومن شعره هذه المقطوعة التي ارتجلها في ختام
خطبته:

أَهْلُ الْحَرَابَةِ وَالْفَسَادِ مِنَ الْوَرَى
يُعْزَوْنَ فِي الشَّيْبِ لِلذُّكْرِ
فَفَسَادُهُ فِيهِ الصَّلَاحُ لِغَيْرِهِ
بِالْقَطْعِ وَالتَّعْلِيقِ بِالشَّجَارِ
مَرَأَهُمْ ذَكَرَى إِذَا مَا أَبْصَرُوا
فَوْقَ الْجُنُوعِ وَفِي ذُرَى الْأَسْوَارِ
وَكَذَا الْقِصَاصُ حَيَاةَ أَرْبَابِ النَّهْيِ
وَالْعَدْلُ مَأْلُوفٌ بِكُلِّ جَوَارِ
لَوْ عَمَّ حِلْمُ اللَّهِ كَافَّةً خَلْقَهُ
مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ

وتوفي أبو العلاء المأمون في ليلة الخامس
عشر لمحرم سنة 630هـ/1232م¹ في وادي أم الربيع
أثناء عودته من نواحي سبتة إلى مراكش؛ فكتمت
زوجه حباة الرومية - أم ابنه وخليفته الرشيد -
خبر وفاته؛ وادعت مرضه. ولما دخلو حاضرة
الدولة، واستقروا في بلاط الحكم؛ أظهرت وفاته؛
وقدم ابنه الرشيد لخلافته.

¹ ورد في البيان المغرب (قسم الموحدين): ((توفي يوم السبت منسلخ ذي
الحجة من سنة تسع وعشرين وثمانية؛ فكانت دولته خمسة أعوام
وثلاثة أشهر)). ويتفق صاحب الحل الموشية مع هذا القول.

سليمان بن عبد الله

ابن عبد المؤمن بن علي، (ابو الربيع)¹

هو الأمير الأديب الشاعر أبو الربيع الموحدي؛ حفيد الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي. ويعود في أصوله الأولى إلى أحواز تلمسان، وينتمي إلى قبيلة كومية الأمازيغية. وربما يكون والده عبد الله، هو أكبر أبناء عبد المؤمن²؛ وتقول المصادر أنه قام بمحاصرة مدينة تونس سنة 553هـ/1158م دون جدوى. فعاد من حيث أتى. ولمّا توفي عبد المؤمن؛ اتفق أخواه: أبو حفص وأبو يعقوب - وهما من أم واحدة - على تجاوزه، ونقل الخلافة إلى أبي يعقوب. وتقول بعض الروايات أنهما دسّاه السُّمَّ بواسطة جارية له³.

¹ له ترجمة في نفح الطيب، وفي المعجب في تلخيص أخبار المغرب، والفصون اليانية في محاسن شعراء المائة السابعة، وباقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، والأعلام، ومعجم أعلام الجزائر، والقبائل الأمازيغية.

² قال هذا ابن سعيد في كتاب الفصون اليانية. بينما قال عبد الواحد المراكشي في المعجب: أن أكبر أولاد عبد المؤمن هو محمد.

³ الفصون اليانية في محاسن شعراء المائة السابعة، ص: 131.

وكان أبو الربيع - في البداية - والياً على بجاية؛ أين انشغل في مواجهة الفتنة التي أشعلها علي بن إسحاق بن غانية المسوفي؛ فانتهى الأمر بتغلب ذلك الثائر على المدينة، وخروج أبي الربيع منها. ولكن الخليفة أبا يعقوب استعادها بعد فترة قصيرة. وبعد ذلك؛ تنقل أبو الربيع إلى ولايات أخرى؛ كبلمسية بالأندلس، وسجلماسة في جنوب المغرب؛ أين سهر على مطاردة قُطَاع الطُّرُق، وناهبي القوافل التجارية، ولصوص الصحراء؛ حيث اعتنى بتمهيد السُّبُل، وتأمين التجارة من وإلى إفريقيا السوداء. ونقل المقرري عن كتاب رحلة ابن حمويه السرخسي الدمشقي؛ خَبَرَ لِقَاءَ صاحب الرحلة بالأمير أبي الربيع؛ جاء فيه: ((وكان - في تلك المدة - يلي مدينة سجلماسة وأعمالها؛ اجتمعت به حين قدم إلى مراكش؛ بعد وفاة المنصور يعقوب؛ لمبايعة ولده محمد. فرأيتُه شيخاً بهيَّ المنظر، حسن المخبر، فصيح العبارة باللغتين: العربية، والبربرية))¹.

¹ نفح الطيب، ج: 3، ص: 105.

ثم نقل المقرئ نصاً لخطاب بعث به الأمير أبو الربيع إلى أحد ملوك غانة؛ يستكر فيها المضايقات التي يتعرض لها التجار الوافدين إلى دياره من بلاد المغرب. ثم نقل ذلك الخطاب أيضاً من رحلة السرخسي؛ وجاء فيه: ((نحن نتجاوز بالإحسان؛ وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونألف على الرفق بالرعية؛ ومعلوم أن العدل من لوازم الملك في حكم السياسة الفاضلة؛ والجور لا تعانیه إلا النفوس الشريرة الجاهلة؛ وقد بلغنا احتباس مساكين التجار، ومنعهم من التصرف فيما هم بصدد؛ وتردد الجلابة إلى بلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها؛ ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية؛ لكننا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله؛ والسلام))¹.

ولأبي الربيع مختصر كتاب الأغاني، وديوان شعر. ويزعم المراكشي؛ في معجبه؛ أن بعض شعره قد يكون منحولاً. ونسب ذلك العمل إلى كاتبه أبي عبد الله محمد بن عبد ربه. وهو حفيد أبي عمر

¹ نفح الطيب ، ص: 105.

ابن عبد ربه الأندلسي. ولكن ما شهد به الشُّقْدِي
 - في معجمه - يخالف هذا المزعم. وقال فيه أبو
 الحسن علي بن موسى الأندلسي (ابن سعيد):
 ((وذكره الشُّقْدِي في مُعْجَمِهِ؛ فأُظْهِرَ في الثَّأِءِ عَلَيْهِ؛
 وقال: هو من مفاخر بني عبد المؤمن؛ وأحلّه
 منهم محلّ ابن المُعْتَز من بني العبّاس، وابن
 المُعِزّ من العبّديين. وقال: كان قديراً على النظم،
 حافظاً لآداب، جواداً لمن يتعلّق بأننى سببُ يجبٍ
 رَغِيهِ. وخبرته؛ فوجدته وجود في أكثر الأوقات بما
 لا يساعد عليه الزّمان. قال: "ولقد قلت له يوماً:
 يا سيدنا؛ تكلفون أنفسكم ما لا يساعد عليه
 الوقت". فضحك، وقال: "إنا نغالب الزّمان فيما
 نتكلف، ونرجو من فضل الله ألا يغلبنا")¹.

ومن شعر أبي الربيع؛ هذه المقطوعة التي
 أرسلها لابن عمه؛ الخليفة يعقوب المنصور؛ بعد
 جفوة حدث بينهما؛ فانتهاز مناسبة قدوم وفد من
 العرب، والغزّ؛ من بلاد الشّام؛ فاستأذنوا المثل
 بين يدي الخليفة؛ فكتب إليه أبي الربيع هذه
 الأبيات:

¹ الفصون اليتاعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص: 132.

يَا كَعْبَةَ الْجُودِ الَّتِي حَبَّتْ لَهَا
عَرَبُ الشَّامِ وَغَزَاهَا وَالْدَّيْلَمُ
طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى يَطُوفُ بِهَا غَدًا
وَيَحِلُّ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَيُحْرِمُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَفُوزَ بِنَظَرَةٍ
مَنْ بِالشَّامِ وَمَنْ بِمَكَّةَ يُحْرَمُ

فاستحسن المنصور قوله، وعفا عنه. وطلب
منه أن يتولى أمر استقبالهم، والدخول بهم عليه؛ وأن
يكون هو من يرافقهم أثناء الخروج من عنده.

— وفي مناسبة أخرى قال يخاطب المنصور:

فَلَأْمَلَنَّ الْخَافِينَ بِذِكْرِكُمْ
مَا كُنتُمْ حَيًّا نَاطِقِينَ وَمُرْسَلًا
وَلَا بُدْلَنَ نَصْحِي لَكُمْ جَهْدِي وَذَا
جَهْدَ الْمُقْلِ وَمَا عَسَى أَنْ أَفْعَلَ
وَلَأُخْلِصَنَّ لَكَ الدُّعَاءَ، وَمَا أَنَا
أَهْلٌ لَهُ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُقْبَلَ

— ولما فتحت قفصة؛ قال هذه القصيدة؛ مهناً بها
ال خليفة المنصور:

هَبَّتْ بِبَصَرِكُمْ الرِّيحُ الْأَرْبَعُ
وَجَرَتْ بِسَعْدِكُمْ النُّجُومُ الطُّلُعُ
وَأَسْتَبْشَرَ الْفَلَكَ الْأَثِيرُ تَيْقُنًا
إِنَّ الْأُمُورَ إِلَى مُرَادِكَ تَرْجِعُ
وَأَمَدَكَ الرَّحْمَنُ بِالْفَتْحِ الَّذِي
مَلَأَ الْبَسِيطَةَ نُورُهُ الْمُتَشَعِّشُ
لَمْ لَا وَأَنْتَ بَذَلْتَ فِي مَرْضَاتِهِ
نَفْسًا تُقَدِّئُهَا الْخَلَائِقُ أَجْمَعُ
وَمَضَيْتَ فِي نَصْرِ الْإِلَهِ مُصَمِّمًا
بِعَزِيمَةٍ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَعُ
لِلْهِ جَيْشُكَ وَالصَّوَارِمُ تُنْتَضِي
وَالْخَيْلُ تَجْرِي وَالْأَسِنَّةُ تَلْمَعُ
مِنْ كُلِّ مَنْ تَقْوَى الْإِلَهِ سِلَاحُهُ
مَا إِنَّ لَهُ غَيْرُ التَّوَكُّلِ مَفْزَعُ
لَا يُسَلِّمُونَ إِلَى النَّوَازِلِ جَارَهُمْ
يَوْمًا إِذَا أَضْحَى الْجَوَارُ يُضَيِّعُ

— إلى أن يقول في وصف انهزام الأعداء:

إِنْ ظَنَّ أَنَّ فِرَارَهُ مُنْجٍ لَهُ
فَبَجْهَلِهِ قَدْ ظَنَّ مَا لَا يَنْفَعُ
أَيْنَ الْمَقَرِّ وَلَا فِرَارَ لِهَارِبٍ
وَالْأَرْضُ تُتَشَرُّ فِي يَدَيْكَ وَتُجْمَعُ
أَخْلِيْفَةُ اللَّهِ الرُّضَى هُنَيْيَةً
فَتَحَّ يَمَدُّ بِمَا سِوَاهُ وَيُشْفَعُ
فَلَقَدْ كَسَوْتَ الدِّينَ عِزًّا شَامِخًا
وَلَبَسْتَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لَا يُخْلَعُ
هَيْهَاتَ سِرِّ اللَّهِ أُوْدِعَ فِيكُمْ
وَاللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
لَكُمْ الْهُدَى لَا يَدَّعِيهِ سِوَاكُمْ
وَمَنْ ادَّعَاهُ يَقُولُ مَا لَا يُسْمَعُ
إِنْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
فَإِلَيْكَ يَا يَعْقُوبُ تَوَمَّى الْإِصْبَعُ
إِنْ كُنْتَ تَتَلَوُ السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا
أَنْتَ الْمُقَدَّمُ وَالْخَلَائِقُ تَبْعُ
خُذْهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَدِيحَةَ
مَنْ قَلْبٍ صِدْقٍ لَمْ يَشِينُهُ تَصْنَعُ

وَاسْلَمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّةٍ
أَنْتَ الْمَلَأْتَ لَهَا وَأَنْتَ الْمَفْرَعُ
فَالْمَدْحُ مِنِّي فِي عُلَاكَ طَبِيعَةً
وَالْمَدْحُ مِنْ غَيْرِي إِلَيْكَ تَطَبُّعُ
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةُ
يَفْنَى الزَّمَانُ وَعَرَفَهَا يَتَضَوُّعُ

— وله أيضا هذه الأبيات الغزلية الشهيرة:

أَقُولُ لِرِكَابٍ أَدْلَجُوا بِسُحَيْرَةٍ
قَفُّوا سَاعَةً حَتَّى أَزُورَ رِكَابَهَا
وَأَمْلَأُ عَيْنِي مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا
وَأَشْكُو إِلَيْهَا أَنْ أَطَالَتْ عِتَابَهَا
فَإِنْ هِيَ جَاءَتْ بِالْوِصَالِ وَأَنْعَمَتْ
وَالْإِلَّا فَحَسْبِي أَنْ رَأَيْتُ قِيَابَهَا
قَبْلَتَهَا فَوْقَ اللَّثَامِ فَقَالَ لِي
هِيَ الْخَمْرُ أُرْشِفْتُ الْغَدَاةَ حَبَابُهَا

- ومن ألغازه الشعرية؛ قوله في جارية اسمها
ألوف:

خَالِيَّ قَوْلًا أَيْنَ قَلْبِي وَمَنْ بِهِ
وَكَيْفَ بَقَاءُ الْمَرْءِ مِنْ بَعْدِ قَلْبِهِ
وَلَوْ شِئْتُمَا إِسْمَ الَّذِي قَدْ هَوَيْتُهُ
لَصَحَّفْتُ أَمْرِي لَكُمْ بَعْدَ قَلْبِهِ¹

ويشير صاحب الغصون الياضعة إلى ولوع أبي
الربيع بنظم الألغاز الشعرية؛ ومن تلك الألغاز؛
قوله في الدَّوَاةِ والقلم:

وَمَيِّتْ بِرَمْسٍ طُعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ
فَإِنْ ذَاقَ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَ
يَمُوتُ فَيَحْيَا نَمَّ يَفْرُغُ زَادُهُ
فَيَرْجِعُ لِلْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ يُنَمَّا

¹ جاء هذا البيت في الغصون الياضعة هكذا:
((قُلْنَ شَيْئًا إِظْهَارَ سِرِّ كَتْمَتُهُ فَقَدْ بَانَ فِي أَمْرِي لَكُمْ بَعْدَ قَلْبِهِ)).
وواضح أن ما ورد أعلاه - في نفح الطيب - هو الأصح؛ لأنه يفسر منطق
اللغز الذي يقصد منه أن تصحف كلمة الأمر ((قولا))؛ بعد قلب حروفها؛
فتكون بعد ذلك هي كلمة: ((ألوف)). فالتصحيف هنا مس حرف القاف؛
الذي أضحي فاء. بعد قلب حروف كلمة الأمر كلها.

فَلَا هُوَ حَيٌّ يَسْتَحِقُّ كَرَامَةً
وَلَا هُوَ مَيِّتٌ يَسْتَحِقُّ تَرْحُمًا

— وقال في مقطوعة أخرى عن الصابون:
وَأَسْمَرَ يَصْرِفُ السُّودَانَ بِيضًا
وَيَخْشَى الشَّمْسُ أَنْ تَغْدُو عَلَيْهِ
لَهُ فِي صُنْعِهِ سِرٌّ مَلِيحٌ
وَكُلُّ النَّاسِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

— وقال ملفزاً في موضوع العين:
وَطَائِرَةٌ تَطِيرُ بِلَا جَنَاحٍ
تَقُوتُ الطَّائِرِينَ وَمَا تَطِيرُ
إِذَا مَا مَسَّهَا الْحَجَرُ اطمَأْنَنْتِ
وَتَأْلَمُ أَنْ يُلَامِسَهَا الْحَرِيرُ

— وقال أيضاً في القمر والنجوم:
وَمَا سَابِقٌ لَا يُرَى صَاعِدًا
تُرَاهُ إِذَا مَا سَقَامَ انْحَدَرَ
لَهُ مِنْكَ رُبْعٌ وَمِنْهُ الْحَيَاةُ
وَذَلِكَ حَظٌّ جَمِيعِ الْبَشَرِ

إِذَا مَا جَلَسَتْ لَهُ لَيْلَةٌ
حَكَى لَكَ أَنْجُمَهَا وَالْقَمَرَ

— وشفع له في أحد الأشخاص؛ ممن يجيدون الكلام؛ فأحسن إليه، وولاه في إحدى الخطط. ولكنه أظهر رداءة وقبحاً في الأفعال. فنقل الشُّنْدِي في معجمه ما شاهده بنفسه؛ فقال: ((فَذَكِّرْ أَمْرَهُ وَأَنَا حَاضِرٌ؛ ثُمَّ قَال:

لَا تَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَّا لِمَنْ
رَأَيْتَهُ أَهْلًا لِشُكْرِ الصَّانِعِ
كَمْ مِنْ شَرِيفِ الْقَوْلِ قَدْ غَرَّنِي
بِقَوْلِهِ وَالْفِعْلُ مِنْهُ وَضِيعُ
وَلَمْ أَكُنْ أَغْلِطُ فِي مِثْلِهِ
لَكِنْ رَمَتْنِي ثِقَاتِي بِالشَّفِيعِ

وكتب أبو الربيع توقيعاً إلى عاملٍ لديه؛ كثرت
شكاوى الناس منه: ((قد كثرت فيك الأقوال،
وإغضائي عنك رجاء أن تتيقض؛ فتتصلح الحال؛ وفي
مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك؛ نسبة إلى شرِّ
الاختيار، وعدم الاختبار؛ فاحذر فإنك على شفا

جرف هار))¹. وكانت وفاته - كما جاء في الغصون
اليانعة - في سنة 604هـ/1207م. أما كتاب جنوة
الاقتباس؛ فجاء فيه أنه توفي في سنة 610هـ.

¹ نفح الطيب، ج: 3، ص: 105.

سليمان بن علي

ابن عبد الله بن علي التلمساني الكوفي العابدي،
(أبو الربيع عفيف الدين)

هو من كبار المتصوفة؛ ومن أبناء قبيلة كومية الزناتية - التي ينتمي إليها خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي - وديار هذه القبيلة في أحواز تلمسان؛ وتابعة للمملكتها آنئذ. ولد سليمان بن علي هذا في العباد - سنة 610هـ/1213م؛ وفي قول سنة 613هـ/1216م - أين يتواجد ضريح ولي الله أبي مدين شعيب. وعلى هذا لقب عفيف الدين بالعبدي؛ نسبة إلى العباد. وتقول المصادر أن صاحب الترجمة رحل إلى بجاية ثم القاهرة فدمشق الشام. وكان قد أقام مدة بأسيا الصغرى: ((قال الجزري في تاريخه: إنه عمل ببلاد الروم أربعين خلوة؛ يخرج من واحدة ويدخل في أخرى. وله في كل علم تصنيف؛ وشرح "الأسماء الحسنى"، وشرح "منازل السالكين"، وشرح "مواقف النفزي". وحكى بعضهم؛ قال: طلعت يوم قبض؛ فقلت له: كيف

حالك؟ قال: بخير؛ من عرف الله كيف يخافه؟
والله منذ عرفتة ما خفتة؛ وأنا فرحان بقلقه¹.
ولما حلّ بالقاهرة نزل في خانقاه سعيد السعداء. في
ضيافة صديقه شمس الدين الأيكي. أما طريقته
الصوفية؛ فهي الطريقة التي اتبعها سلفه محمد بن
علي بن عربي؛. ومن هنا؛ وجهت إليه بعض
الانتقادات والمآخذ؛ حيث اتهموه أحياناً بالزندقة،
وأحياناً أخرى برقة الدين. وكان قد التقى في آسيا
الصغرى بصدر الدين الرومي؛ محمد بن إسحاق
ابن يوسف بن علي (ت: في سنة 673هـ/1274م)؛
وهو الذي قرّبه من فكر ابن عربي؛ الذي تزوج
أمه ورباه.

ويعتبر سليمان بن علي الكومي (عفيف الدين)
من أبرز الكتاب والشعراء المتصوفين. إذ تأثر
بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة. وقد تجلّى ذلك في
شعره؛ الأمر الذي فتح عليه باب الاعتراض
والاستكثار. كما حفز شيوخ السلفية وأئمتهم إلى
اتهامه بالزندقة؛ بل بالكفر أحياناً. وكان من أشدهم
نقداً لأقواله وأفعاله: الإمام ابن تيمية.

¹ فوات الوفيات، ج: 2، ص: 72.

ولعفيف الدين مؤلفات عديدة؛ منها: شرح
مواقف النفزي، وشرح الفصوص لابن عربي،
وكتاب في العروض، وديوان شعر كبير.
توفي عفيف بدمشق في سنة 690هـ/1291م.

شعر عفيف الدين

— مقطوعة: شَهِدْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ:
شَهِدْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ
كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءِ
وَنَحْنُ فِيكَ شَهِدْنَا بَعْدَ كَثْرَتِنَا
عَيْنًا بِهَا اتَّحَدَ الْمَرْتِيُّ وَالرَّائِي
فَأَوَّلُ أَنْتَ مِنْ قَبْلِ الظُّهُورِ لَنَا
وَأَخْرُ أَنْتَ عِنْدَ النَّازِحِ النَّائِي
وَبَاطِنُ فِي شُهُودِ الْعَيْنِ وَاحِدُهُ
وَزَاهِرٌ لَامْتِيَازَاتٍ بِأَسْمَاءِ
أَنْتَ الْمَلْفَنُ سِرًّا لَا أَفْوَهُ بِهِ
وَأَنْتَ نَطْقِي وَالْمُصْنَعِي لِنَجْوَائِي

— قصيدة: عَيْنَاكَ إِنْ سَلَبْتَ نَوْمِي بِلَا سَبَبٍ:
عَيْنَاكَ إِنْ سَلَبْتَ نَوْمِي بِلَا سَبَبٍ
فَالنَّهْبُ يَا أُخْتَ سَعْدِ شَيْمَةِ الْعَرَبِ
وَقَدْ سَلَبْتَ رُقَادَ النَّاسِ كُلَّهُمْ لِذَاكَ
جَفْنُكَ كَسَلَانٌ مِنَ التَّعَبِ

هَلْ ذَاكَ لَامِعُ بَرَقٍ لَاحٍ مِنْ إِضْمٍ
 أَمْ ابْتَسَمَتْ فَهَذَا بَارِقُ الشَّيْبِ
 وَتِلْكَ نَارُكَ بِالْجَرَعَاءِ سَاطِعَةٌ أَمْ
 ذَاكَ خَذْلُكَ وَهَاجُ مِنَ اللَّهَبِ
 لَا أَنْقَذَ اللَّهُ مِنْ نَارِ الْجَوَى أَبَدًا قَلْبِي
 الَّذِي عَنْ هَوَاكُمُ غَيْرُ مُنْقَلَبِ
 إِنْ عَذَّبْتُهُ بِنَارٍ مِنْ مَحَبَّتِهَا
 نَعَمْ فَذَاكَ نَعِيمٌ غَيْرُ مُحْتَجِبِ
 مَنْ رَامَ ذِكْرَ سِوَاهَا يَلْتَمِسُ أَحَدًا
 غَيْرِي فَذِكْرُ سِوَاهَا لَيْسَ مِنْ أَرَبِي
 إِنْ حَثَّيْتُهُ الْأَمَانِي أَنَّنِي أَبَدًا أَسْلُؤَا
 هَوَاهَا فَقَدْ أَصْغَى إِلَى الْكَذِبِ

- مقطوعة: يَا حَبَذَا الْكَأْسِ بِكَفِّ الْحَبِيبِ:
 يَا حَبَذَا الْكَأْسِ بِكَفِّ الْحَبِيبِ
 أَذَابْتَ الْأَنْوَارَ وَسَطَ اللَّهِيْبِ
 وَحَبَذَا الرَّاحُ الَّتِي لَمْ تَزَلْ
 تَصْرِفْنِي بِالسُّكْرِ حَتَّى أَغِيبُ
 يَا غُصْنِ الْبَانِ أَدِرْ وَرَدَّهُ
 وَالْوَرْدُ فِي الْبَانِ لِعَمْرِي عَجِيبُ

وَنَاولِ الْأَقْمَارَ شُهْبَ الدُّجَى
يَا شَمْسُ وَالْأَمْرُ أَيْضاً غَرِيبٌ
أَفْدِيكَ مَا فِي صَبَوَتِي رِيَّةً
وَلَا لِسُلْوَانِي بِقَلْبٍ تَصِيبُ
فَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ سِوَى جَفَوَتِي
فِعْلُ حَبِيبِي كُلُّهُ لِي حَبِيبٌ

— قصيدة: أَفِي وَلَهِي بِاسْمِ الْمَلِيحَةِ تَعْتَبُ:

أَفِي وَلَهِي بِاسْمِ الْمَلِيحَةِ تَعْتَبُ
وَتُعْرِضُ إِنِ وَحَدَّثَهَا نُمُ تَغْضَبُ
وَلَوْ فَرَّتْ مِنْ ذَاكَ الْجَمَالِ بِنَظَرَةٍ
لَأَصْبَحَ مِنْكَ الْعَقْلُ يُسْبَى وَيُسَلَبُ
وَهَبْتُكَ سُلْوَانِي وَصَبْرِي كِلَاهُمَا
وَأَمَّا غَرَامِي فَهُوَ مَا لَيْسَ يُوهَبُ
وَقَدِّدْتُ أَشْوَاقِي بِإِطْلَاقِ صَبْوَةٍ
إِلَيْهَا صَبَابَاتُ الْمُحِبِّينَ تَنْسَبُ
فَهَا أَنَا وَالسَّاقِي يُنَاولُ كَأْسَهَا
فَأَشْرَبُ صِرْفًا أَوْ يُغْنِي فَأَطْرَبُ
فَإِنْ لَمْ فِيهَا الشَّيْخُ طِفْلَ غَرَامِهَا
عَلَى سُكْرِهِ فَالشَّيْخُ كَالطِّفْلِ يَلْعَبُ

تَذَكَّرُنِي الْحَلَّاجَ وَالْكَاسُ تُجَتَّلَى
وَلَكِنَّهَا عَنْهُ تُصَانُ وَتُحْجَبُ
وَلَوْ لَمْ يَرَوْا رَاوَوْقَهَا كَصَلْبِهِ
لَمَا عَذَرُوا حَالَجَهَا حِينَ يُصَلَّبُ

— مقطوعة: لِمَعْنَايَ قَلْبِي نَحْوَكُمْ أَبَدًا يَصْبُؤُ:
لِمَعْنَايَ قَلْبِي نَحْوَكُمْ أَبَدًا يَصْبُؤُ
وَعِنْدِي لَكُمْ وَجْدٌ جَمِيعِي لَهُ نَهْبُ
وَمَا زَالَ سَلَبُ فَيْكُمُ وَاجِبًا لَكُمْ
وَفِي حُبِّكُمْ يَا سَادَتِي يَجِبُ السَّلَبُ
غَدًا وَصَفْكُمْ لِلْحُسْنِ ذَاتًا فَشَمْسُكُمْ
بَكُمْ مِنْكُمْ فَيْكُمُ لَهَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ
تُحَرِّكُهَا الْأَسْوَاقُ نَحْوَ جَمَالِكُمْ
فَتَمْنَعُهَا تِلْكَ الْمَهَابَةُ وَالْحُجُبُ
فَلَا هِيَ يَغْشَاهَا سُكُونٌ وَلَا تَرَى
سَبِيلًا لِذَاحَارَتِ فِدَارَتِ فَلَا تَتَّبِعُوا
تَدْوِرُ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْمَرَكَزِ الَّذِي
بِهِ أَنْتُمْ إِذْ كَانَ شَخْصُكُمْ الْقُطْبُ
فَلَوْ قِيسَتِ الْأَبْعَادُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
تَسَاوَتْ فَلَا بُعْدَ يَرَامُ وَلَا قُرْبُ

— مقطوعة: لي في هَوَاكُم مَذْهَبٌ مَذْهَبٌ:

لي في هَوَاكُم مَذْهَبٌ مَذْهَبٌ وَمَطْلَبٌ مَا مِثْلُهُ مَطْلَبٌ
أَصْبَحْتُ عَبْدًا رَاضِيًا بِالَّذِي تَرْضُونَنِي لَا أَرْجُو وَلَا أَرْهَبُ
إِذَا تَجَلَّى كَاسُ سَاقِيكُم كُنْتُ لَهُ أَوَّلَ مَنْ يَشْرَبُ
وَلِنْ تَغْنَى بِاسْمِكُمْ مُنْشِدٌ فَإِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَطْرَبُ
يَا قَمْرًا فِي مُهْجَتِي لَمْ يَزَلْ مَطْلَعُهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
وَيَا غَزَالًا فِي فُؤَادِي لَهُ مَرَعَى وَمِنْ دَمْعِي لَهُ مَشْرَبُ
مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي هَوَاكَ الَّذِي كُلُّ نَعِيمٍ فَلَهُ يُنْسَبُ

— قصيدة: عُيُونُ الْحَيَا جُودِي لِتُرْبَةٍ يَثْرِبُ:

عُيُونُ الْحَيَا جُودِي لِتُرْبَةٍ يَثْرِبُ
بِدَمْعِ هَتُونٍ وَدَقَّةِ مُتَصَوِّبٍ
وَعُودِي بِطِيبٍ مِنْ سَلَامِي طِيبُهُ
نَسِيمُ الصَّبَا النَّجْدِيَّ يَا خَيْرَ طَيْبٍ
بِلَادَ بِهَا لِلْوَحْيِ مَرْبَاً وَمَرْبَعُ
وَمَنْتَجَعُ الْغُفْرَانِ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ
وَحَيْثُ الْكَمَالُ الطَّلُقُ وَالْمَرْكَزُ الَّذِي
إِلَيْهِ انْتَهَى دَوْرُ الْمُحِيطِ الْمُكَوَّنِ
أَفَاضَتُهُ أَنْوَارُ الْغُيُوبِ عَلَى الْوَرَى
إِفَاضَةً وَهَبِ خَارِجَ عَنْ تَكْسُبِ

فَأَخْبَرَ عَمَّا غَابَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي
يُبْرِهِنُ بِالْإِعْجَازِ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ
إِذَا نَظَرْتَ عَيْنًا بِصِيرَتِهِ إِلَى
حَقِيقَتِهِ الْمُتَلَى فَأَحْسِنْ وَأَطِيبِ
يَرَى بَرَزَخَ الْبَحْرَيْنِ كَوْنًا مُكَوَّنًا
وَمَطْلَعَهُ فِي حَدِّهِ الْمُتَرْتَّبِ
فَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا لِهُذَا بِحَقِّهِ
عَلَى نِسْبَةِ مَحْفُوظَةِ الْأُمِّ وَالْأَبِ
عَلَى يَدٍ مَعْنَاهُ يَمُرُّ وَجُوبُهُ
لِإِمْكَانِهِ مَرَّةَ السَّحَابِ الْمُصَوَّبِ
فَيَقْبَلُ مِنْهُ قَابِلٌ حُكْمُ فَاعِلٍ
بِمَضْمُونِ مِيرَاثِ الْكَمَالِ الْمُهَذَّبِ
وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا التَّوَسُّطِ مُنْتَبِأً
عَلَى النَّاسِ حَقًّا أَوْ تَمَيِّزَ مَنْصِبِ
وَمَا ذَاكَ أَنْ لَيْسَ حَوْلُ وَقُوَّةُ
بِغَيْرِ الْجَوَادِ الْمُطْلَقِ الْجُودِ فَاعْجَبِ
وَلَكِنْ يَرَى إِلَّا أَنْ نُكْتَبَ قَلْبُهُ
أُزِيلَ بِهَا دَاعِي الْهَوَى وَالتَّحَوُّبِ
فَهَذَا لَهُ مَعْنَى الْمَقَامِ مُغَيَّبٌ
وَلَمْ يَكُ عَنْهَا أَهْلُهُ بِمُغَيَّبِ

إِذَا صُفِّتِ الْأَقْدَامُ مِنَّا وَأُْمِنَّا
 صَلَاةَ شُهُودٍ لَا صَلَاةَ تَحْجُبِ
 مَضَى لَمْ يُعَقَّبْ دَانِيَا مِنْ شُهُودِهِ
 بِنَا وَمَضَيْنَا خَلْفَهُ لَمْ نَعُقَّبِ
 أَوْلَاكَ وَرَأَتْ النَّبِيَّ شَهَادَةَ
 وَغَيْبًا وَلَيْسَ الْبَرُّ مِثْلَ الْمُقَرَّبِ
 وَتِلْكَ سَبِيلٌ قَدْ دَعَا بِبَصِيرَةٍ
 لَهَا وَدَعَوْنَا كُلَّ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ
 فَذَلِكَ دَاعِي اللَّهِ بِالْمَنْهَجِ الَّذِي
 بِهِ صُورَةُ التَّكْمِيلِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ
 شَرِيعَةٌ حَقٌّ كُلُّ شَرِيعَةٍ
 مَقَامٌ خُصُوصٍ عَنْ عُمُومٍ مُرْتَبِ
 مُشَاراً إِلَيْهِ صُورَةٌ مِنْ جِهَاتِهَا
 جَمِيعاً وَمَعْنَى مِنْ حَقَائِقِ غَيْبِ

- قصيدة: أُنْكَرُ الْوَجْدُ أَنِّي فِي الْهَوَى شَحْبُ:
 أُنْكَرُ الْوَجْدُ أَنِّي فِي الْهَوَى شَحْبُ
 وَدُونَ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لِهَبُ
 وَمَا سَلَوْتُ كَمَا ظَنَّ الْوَشَاةُ وَلَا
 أَسْلُو كَمَا يَتَرَجَّى الْعَاذِلُ التَّعَبُ

فَإِنْ بَكَى لِصَبَابَاتِي عَزُولُ هَوَى
فَلْيَ بِمَا مِنْهُ يَبْكِي عَازِلِي طَرْبُ
نَاشِدُكَ اللَّهُ يَا رُوحِي اذْهَبِي كَلَفَا
بِحُبِّ قَوْمٍ عَنِ الْجَرَءَاءِ قَدْ ذَهَبُوا
لَا تَسْأَلِيهِمْ ذِمَاماً فِي مَحَبَّتِهِمْ
فَطَالَمَا قَدْ وَقَا بِالذِّمَّةِ الْعَرَبُ
هُمْ أَهْلُ وَدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمْ
وَإِنَّمَا وَدُهُمْ لِي فَهُوَ لَا يَجِبُ
هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَاماً مِنْ جُفُونِهِمْ
أَصْبَحْتُ أَرْقُلُ فِيهِ وَهُوَ يَنْسَحِبُ
وَصَيَّرْتَ أَدْمُعِي حُمُراً خُذُوهُمْ
فَكَيْفَ أَجِدُ مَا مَنُّوا وَمَا وَهَبُوا
هَلِ السَّلَامَةُ إِلَّا أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ
وَجِداً وَإِلَّا فَبُقَيَايَ هُوَ الْعَطْبُ
إِنْ يَسْتَلْبُوا الْبَعْضَ مِنِّي فَالْجَمِيعُ لَهُمْ
وَإِنْ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا
لَوْ تَعَلَّمُ الْعَذَبَاتُ الْمَائِسَاتُ بِمَنْ
قَدْ بَانَ عَنْهَا إِنَّ مَا اخْضَرَّتِ الْعَذَبُ
وَلَوْ دَرَى مِنْهَلُ الْوَادِي الَّذِي وَرَنُوا
مَنْ وَارِدُوا مَائِهِ لَاهْتَزَّهُ الطَّرْبُ

إِنِّي لَأَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا
 كَلِيلًا يُحَرِّقُهُمْ مِنْ زَفَرَتِي اللَّهَبُ
 وَتُرْسِلُ الدَّمَعَ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ
 كَيْلًا تُسَابِقُهَا فِي سَحَّهَا السُّحُبُ
 كَذَا لِكُلِّ مُحِبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمْ
 وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ
 أَسْأَلُ الْبَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ
 سُؤَالَ مَنْ لَيْسَ يُدْرَى فِيهِ مَا السَّبَبُ
 وَبَلِّغْ أَثَارَ لَيْلٍ مِنْ قُدُودِهِمْ
 مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا الْقَضْبُ

— مقطوعة: قُمْ فَاسْقِنِي مِنْ يَدَيْكَ صَافِيَةً:

قُمْ فَاسْقِنِي مِنْ يَدَيْكَ صَافِيَةً خَذْكَ يَكْسُو شُعَاعَهَا لَهَبًا
 كَأَنَّ مَاءَ الصَّقَاءِ قَابَلَهَا مِنْكَ ابْتِسَامٌ فَمَثَلَ الْحَبِيبَا
 فَهَا أَنَا فِي الْخُضُورِ مُنْتَهَزٌ يَا مُنِيَّةَ النَّفْسِ غَيْبَةَ الرَّقِيبَا
 مِنْ عَجَبٍ أَنَّنِي أَرِيدُكَ مِنْ شُرْبِي وَسُكْرِي عَلَى قَدْ غَلَبَ

— قصيدة: مَا هَبَّ مِنْ نَحْوِكُمْ نَسِيمٌ صَبَا:

مَا هَبَّ مِنْ نَحْوِكُمْ نَسِيمٌ صَبَا إِلَّا وَأَذَكَى بِمُهْجَتِي هَبَا
 وَلَا شَدَا مُطْرَبٌ بِذِكْرِكُمْ إِلَّا وَنَادَى الْمَشُوقُ وَاطْرَبَا

وَلَا تَذْكُرْتُ عَيْشَةَ سَلَفَتْ بِالْخَيْفِ إِلَّا وَقَلْتُ وَاحْرَبَا
لَا نَالَ مِنْكَ الْمَشُوقُ بُغْيَتَهُ إِنْ كَانَ يَوْمًا إِلَى سِوَاكَ صَبَا
يَا حَبْدَا لَوْ عَتَى عَلَيْكَ وَيَا بُشْرَايَ إِنْ مِتُّ فَبِكْ مَكْتَبَا
أَحْبَابِنَا هَلْ بِقُرْبِكُمْ أَمَلُ أَمْ هَلْ بَوَصْلِكُمْ أَرَى سَبَبَا
أَهَا لِأَيَّامِنَا بِقُرْبِكُمْ وَطِيبِ عَيْشِ بَوَصْلِكُمْ ذَهَبَا
يَا سَائِقِ الْعَيْسِ نَحْوَ كَاطِمَةِ أَتْلُغْ سَلَامِي لِإِنَارِلِينَ قَبَا
وَقُلْ قَضَى ذَلِكَ الْمَشُوقُ بِكُمْ وَمَا قَضَى مِنْ وَصَالِكُمْ أَرْبَا

— قصيدة: بَدَا عَلَّمَ لِلْحُبِّ يَمَّمْتُ نَحْوَهُ:

بَدَا عَلَّمَ لِلْحُبِّ يَمَّمْتُ نَحْوَهُ
فَلَمْ أَتَقَلَّبْ حَتَّى احْتَسَبْتُ بِهِ قَلْبِي
بَلَوْتُ الْهَوَى قَبْلَ الْهَوَى فَوَجَدْتُهُ
إِسَارًا بِلَا فَكَّ سَقَامًا بِلَا طِبِّ
بِرُوحِي حَبِيبٌ لَا أَصْرَحُ بِاسْمِهِ
وَكُلُّ مُحِبٍّ فَهَوٍ يُكْنِ عَنِ الْحُبِّ
بِرَانِي هَوَاهُ ظَاهِرًا بَعْدَ بَاطِنِ
فَجِسْمِي بِلَا رُوحٍ وَقَلْبِي بِلَا لُبِّ
بِحُبِّكَ هَلْ لِي فِي لِقَائِكَ مَطْمَعٌ
فَإِنِّي مِنْ كَرْبٍ عَلَيْكَ إِلَى كَرْبٍ

بِكُلِّ طَرِيقٍ لِي إِلَيْكَ مَنِيَّةٌ
 كَأَنِّي مَعَ الْأَيَّامِ بَعْدَكَ فِي حَرْبٍ
 بَكَيْتُ فَقَالُوا أَنْتَ بِالْحُبِّ بَائِحٌ
 صَمَتُ فَقَالُوا أَنْتَ خُلُوْ مِنْ الْحُبِّ
 بَوَارِقُ لَاحَتْ لِلْوِصَالِ فَتَمَّهَا
 فَيَا بَعْدَ بَعْدٍ قَدْ دَنَا زَمَنُ الْقُرْبِ
 بَقِيْتُ وَهَلْ يَبْقَى صَبٌّ بِهِ لَوْعَةٌ
 تُقَلِّبُهُ الْأَسْوَاقُ جَنْبًا إِلَى جَنْبِ
 بَلَغْتَ الْمُنَى مِمَّنْ أَحَبُّ بِحُبِّهِ
 وَلَا بُدَّ لِلْمَرْثُوبِ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ

— قصيدة: تَرَى يَا جِرَّةَ الشَّعْبِ:

تَرَى يَا جِرَّةَ الشَّعْبِ	يُسْرُ بَوَصْلِكُمْ قَلْبِي
وَتَجْمَعُ بَيْنَنَا دَارًا	عَلَى الْإِكْرَامِ وَالرَّحْبِ
أُهَيْلَ الْحَيِّ وَآ عَطَشِي	لِذَاكَ الْمَنْهَلِ الْعَذْبِ
وَيَا شَوْقِي إِلَى عَيْشِ	مَضَى فِي ظِلِّهِ الرَّحْبِ
وَأَيَّامِ بِلَا عُنْبِ	تَقَضَّتْ فِي هَوَى عُنْبِ
إِذَا ذُكِرْتَ لِيَالِيهِ	تَهِيحُ لَوَاعِجُ الصَّبِّ
وَيُحْيِي قَلْبَ عَاشِقِيهِ	حَدِيثُ نَسِيمِهِ الرُّطْبِ
وَمُحْتَجِبِ تَبَسُّمِهِ	يُمَزَّقُ ظُلْمَةُ الْحُجْبِ

يُصَانُ حِمَاهُ بِالْإِجْلَالِ لَا بِالسُّمْرِ وَالْقَضْبِ
 مِنَ الْأَقْمَارِ مَنْزِلَتَاهُ فِي طَرْفِي وَفِي قَلْبِي
 وَطَنِي نَقَاً وَبِالْأَسْرَارِ يَأْنِسُ لَيْسَ بِالسَّرْبِ

— قصيدة: نَدَى فِي الْأَقْحَوَانَةِ أُمِ رِضَابُ:

نَدَى فِي الْأَقْحَوَانَةِ أُمِ رِضَابُ وَطَلُّ فِي الشَّقِيقَةِ أُمِ سَرَابُ
 فِتْلِكَ وَهَذِهِ ثَغْرٌ وَكَأْسٌ بِذَا ظَلَمَ وَفِي هَذِي شَرَابُ
 وَخَضِرُ خَمَائِلٍ كَسَجُومٍ غِيدٍ قَدْ انْتَقَشَتْ وَرَقٌ بِهَا الْخِطَابُ
 يُرِيكُ بِهَا الشَّقِيقُ سَوَادَ هُذْبٍ وَحُمْرَةً وَجَنَّةً فِيهَا التَّهَابُ
 وَوَرَقٌ حَمَائِمٍ فِي كُلِّ فَنٍ إِذَا نَطَقَتْ لَهَا لَحْنٌ صَوَابُ
 لَهَا بِالظِّلِّ أَزْرَارٌ حَسَانٌ وَأَطْوَاقٌ وَمِنْ وَرَقٍ ثِيَابُ
 كَانَ النَّهْرُ سَيْفٌ مَشْرِفِيٌّ لَهُ فِي كَفٍّ صَيْقَلُهُ اضْطِرَابُ
 تُجَرِّدُهُ يَمِينُ الشَّمْسِ طَوْرًا وَطَوْرًا بِالظَّلَالِ لَهُ قِرَابُ
 يُعَابُ السَّيْفُ إِذْ فِي جَانِبِيهِ فُلُولٌ وَهُوَ مِنْهَا لَا يُعَابُ
 فَإِنْ قُلْتَ الْحَبَابُ أَنْسَابُ دُعْرًا وَرُمْتَ الرَّقْشَ صَدَقَكَ الْحَبَابُ
 وَلِلْأَغْصَانِ هَيْئَمَةٌ تُحَاكِي حَبَائِبَ رَقٍّ بَيْنَهُمُ الْعِيَابُ
 تَنَتَّتْ وَالْحَمَامُ لَهَا يُغْنِي كَشْرَبٍ مَدَامَةٌ شَرِبُوا وَطَابُوا

— قصيدة: أَحْكُمْ فَبَيْنَكَ الْعَذَابُ عَذْبُ:

أَحْكُمْ فَبَيْنَكَ الْعَذَابُ عَذْبُ مَا بَعْدَ حُلُوِّ الْخِطَابِ خُطْبُ

لِي وَلَهُ فِي هَوَاكَ فَارَ وَدَمْعُ صَبٍّ عَلَيْكَ صَبُّ
وَمَا تَنْزَهَتْ فِيكَ حَتَّى فِيكَ نَزَهَتْ حِينَ أَصْبُو
وَأَمَكْنِي مِنْ لَمَاكَ بَرَقَ مِنَ الْحَيَا لَا يَكَادُ يَخْبُو
يَا سَائِلِي عَنْ شَذَا نَسِيمٍ قَمِيصُهُ بِالْوِصَالِ رَطْبُ
ذَلِكَ سَلَامُ الْحَبِيبِ وَاقَى فِي عَهْدِهِ لِلنَّامِ قُرْبُ
إِذَا تَجَلَّى عَلَى النَّدَامَى فَهُوَ لَهُمْ خُضْرَةٌ وَشَرْبُ
وَعَادِلِي عَادَ لِي بِلُطْفٍ تَكَادُ مِنْهُ الصَّبَا تَهَبُ
أَضْمَرَ غُذْرًا فَعَادَ غُذْرًا إِذْ رُفِعَتْ لِلْمُحِبِّ حُجْبُ

— قصيدة: أَمَاكَ رَقِي لَا تَلُمَّ عَاشِقًا صَبَا:

أَمَاكَ رَقِي لَا تَلُمَّ عَاشِقًا صَبَا
فَحُسْنُكَ لِلْأَبَابِ يَا مُنِيَّتِي سَبَا
وَإِنْ يَكُ ذَنْبِي فَرَطَ عَشْقِي فَطَاعَنِي
هَوَاكَ شَفِيعٌ لِي إِذَا مِتُّ مُذْنِبَا
وَهَبْ أَنْ ذَاكَ الْحُسْنَ عَنِّي مُحَجَّبُ
أَلَيْسَ بَرِيَّاهُ سَرَتْ نَسَمَةَ الصَّبَا
فَدَيْتُ حَبِيبًا رَنَحَ السُّكْرُ عِطْفُهُ
فَمَاسَ بَغْضَنٍ مَا رَأَتْ مِثْلَهُ الرُّبَا
يُجَرِّدُ مِنْ أَجْفَانِهِ السُّودَ أَبْيَضَا
أَرَاكَ دِيمَا الْعُشَّاقِ طُرًّا وَمَانَبَا

جَلَا خَدُّهُ لِي كَاسَ رَاحٍ وَإِنَّمَا
 بِئْرُ اللَّمَى الْمَغْسُولِ حُسْنًا تَحِيَّيَا
 تَسْتَرْتُ بِالْأَسْقَامِ فِيهِ فَمُذْ بَدَا
 ظَهَرْتُ كَمَا فِي الشَّمْسِ قَدْ يَظْهَرُ الْهَبَا
 وَأَكْسَبَنِي حُسْنًا وَلَا غُرُورَ إِنَّمَا
 لِكُلِّ مَلِيحٍ مِنْهُ مَا قَدْ تَكَسَّبَا
 وَإِنِّي لَذَاكَ الْمُغْرَمُ الْعَاشِقُ الَّذِي
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ الْمُطْلَقِ الْحُسْنِ مَا صَبَا
 يُرْنَحُهُ بِالْأَبْرَقِ الْفَرْدِ بَارِقُ
 وَيُصْبِيهِ فِي نَعْمَانٍ مِنْ عُلُوَّةٍ نَبَا
 إِذَا رُمْتَ أَنْ تَبْذِي مَصُونَاتِ سِرِّهِ
 فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ الْحَيِّ عَنْ ذَلِكَ الْخِيَا

— قصيدة: أَيَا عَرَبَ الْجَرَعَاءِ مَنْ أَيْمَنَ الشُّعْبِ:

أَيَا عَرَبَ الْجَرَعَاءِ مَنْ أَيْمَنَ الشُّعْبِ
 بِكُمْ لَا يَشِيءُ غَيْرِكُمْ شَغْفُ الصَّبِّ
 أَلَمْ تَعِدُونَا أَنْ نَرَاكُمْ بِذِي الْفَضَا
 أَظَنُّكُمْ تَعْنُونَ أَنَّ الْغَضَا قَلْبِي
 غَرَامًا بِكُمْ وَالنَّارُ يَضْرُمُهَا الصَّبَا
 أَقُولُ عَلَى نَارِي بِكُمْ لِلصَّبَا هُبِّي

وَوَجَدَا إِذَا مِلْتُمْ إِلَيَّ مَعَ الْهَوَى
أَقُولُ اعْتَذَاراً يَحْسُنُ الْمِيلَ لِلْقَضْبِ
وَإِنْ تَوَقَّدُوا نَارَ الْحَرِيقِ فَكَمْ أَضَا
وَنَارُ فُؤَادِي فِي حَشَا الْوَالِدِ الصَّبِّ
وَإِنْ تَجِدُوا بِالشُّعْبِ سَيْلاً وَلُجَّةً
فَأَنْتُمْ بِمَجْرَى الدَّمْعِ يَا سَاكِنِي قَلْبِي
سَبَبْنَا الْجُفُونَ الْبَابِلِيَّاتُ مِنْكُمْ
وَإِنَّ لُبَانَاتِ اللَّبَاءَةِ فِي الْحَبِّ
نَصِيصٌ فَهَلَّا لِلرَّقِيبِ وَعَانِلِ
لَكَيْمَا يَبِينَا فِي عَذَابٍ وَفِي نَصَبِ
غَزَالِكُمْ ذَاكَ الْمُمْنَعُ وَصَلُّهُ
أَبَاحَ حِمَى نَمْعِي وَبَالَغَ فِي نَهْيِ
هُوَ الظَّنُّ لَا بَلَّ صَائِدِ الظَّنِّ لَحْظُهُ
وَيَا مَا أُحْيَلَا الصَّيِّدَ فِي شَرَكِ الْهُدْبِ
حَلَا لَحْظُهُ وَالْمَرْءُ فِي الْحُبِّ وَصَلُّهُ
وَلَمْ تَحُلْ حَتَّى مَرٌّ فِي رَيْقِهِ الْعَذْبِ
عَلَى عِطْفِهِ حَتَّى مِنَ الْوُرْقِ غَيْرَتِي
أَلَمْ تَرَهَا هَاجَتَ عَلَى الْغُصْنِ الرُّطْبِ
فَإِنْ ذَبَلَتْ أَجْفَانُهَا وَهِيَ نَرْجِسُ
فَمِنْ طَوْلٍ مَا أُنْمَتُ فِيهِنَّ مِنْ شُرْبِ

وَمِنْ عَجَبٍ وَهِيَ الْكُؤُوسُ فَمَا لَهَا
إِذَا كُسِّرَتْ صَحَّتْ وَدَارَتْ عَلَى الشَّرْبِ
فَهَلْ عَوْدَةٌ فِي لَيْلَةٍ مِنْ ذَوَابَّةِ
عَنِ الْبَذْرِ مِنْ ظَلَمَائِهَا دَائِمًا تُنْبِئِي
تَرْقَى بِهَا قَلْبِي إِلَى سِرٍّ وَقَدِهِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ تَحْتَهُ سُبْحُ الرُّطْبِ
أَرَادَ تَوَلَّى الْحَلَّ وَالْعَقْدَ عِنْدَهُ
فَجَارَ عَلَى الْمَسْجُونِ مَنْ مُقْتَضَى الْجَذْبِ
دَعَانِي انْكِسَارُ الْجَفْنِ مِنْهُ لُضْمَةٌ
فَجَاوَبَنِي مَا لِلْغُصُونِ سِوَى الْهُضْبِ
وَعَرِدْتُ تُغْرِيدَ الْحَمَامِ تَوْصُلًا
إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَ الْحَمَائِمِ وَالْقَضْبِ
وَقُلْتُ زَكَاةَ الْحُسْنِ فَرَضًا فَقَالَ مَا
تَمِيلُ الْغُصُونُ الْوُرُقُ إِلَّا عَلَى النَّدْبِ

— مقطوعة: لِمَعْنَايَ قَلْبِي نَحْوَكُمْ أَبَدًا يَصْبُو:
لِمَعْنَايَ قَلْبِي نَحْوَكُمْ أَبَدًا يَصْبُو
وَعِنْدِي لَكُمْ وَجْدٌ جَمِيعِي لَهُ نَهْبٌ

وَمَا زَالَ سَلَبَ فَيْكُمُ وَاجِباً لَكُمْ
وَفِي حُبِّكُمْ يَا سَادَتِي يَجِبُ السَّلَبُ
غَدَا وَصَفَّكُمْ لِلْحُسْنِ ذَاتَا فَشَمْسُكُمْ
بَكُمْ مِنْكُمْ فَيْكُمْ لَهَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ
تُحَرِّكُهَا الْأَشْوَاقُ نَحْوَ جَمَالِكُمْ
فَتَمْنَعُهَا تِلْكَ الْمَهَابَةُ وَالْحُجُبُ
فَلَا هِيَ يَغْشَاهَا سُكُونٌ وَلَا تَرَى
سَبِيلاً لِذَا حَارَتْ فَذَارَتْ فَلَا تَنْبُو
تَدُورُ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْمَرْكَزِ الَّذِي
بِهِ أَنْتُمْ إِذْ كَانَ شَخْصُكُمْ الْقُطْبُ
فَلَوْ فَيَسَتْ الْأَبْعَادُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
تَسَاوَتْ فَلَا بُعْدَ يُرَامُ وَلَا قُرْبُ

— قصيدة: أفي ولهي باسم المليحة تعجب:

أفي ولهي باسم المليحة تعجب
وتعرض إن وحثتها ثم تغضب
ولو فزت من ذاك الجمال بنظرة
لأصبح منك العقل يسبى ويسلب

وَهَبْتُكَ سَلَوَانِي وَصَبْرِي كِلَاهُمَا
 وَأَمَّا غَرَامِي فَهُوَ مَا لَيْسَ يُوهَبُ
 وَقَيِّدْتُ أَشْوَاقِي بِإِطْلَاقِ صَبْوَةٍ
 إِلَيْهَا صَبَابَاتُ الْمُحِبِّينَ تُتَسَبَّبُ
 فَهِيَ أَنَا وَالسَّاقِي يُنَاولُ كَأْسَهَا
 فَأَشْرَبُ صِرْفًا أَوْ يُعْنِي فَأَطْرَبُ
 فَإِنْ لَمْ فِيهَا الشَّيْخُ طِفْلٌ غَرَامِهَا
 عَلَى سُكْرِهِ فَالشَّيْخُ كَالطِّفْلِ يَلْعَبُ
 تُذَكِّرُنِي الْحَلَّاجَ وَالْكَأْسُ تُجْتَلَى
 وَلَكِنَّهَا عَنْهُ تُصَانُ وَتُحْجَبُ
 وَلَوْ لَمْ يَرَوْا رَأَوْقَهَا كَصَلْبِهِ
 لَمَا عَذَرُوا حَلَّاجَهَا حِينَ يُصَلَّبُ

— قصيدة: لَوْلَا الْحِمَى وَصَبَايَا بِالْحِمَى عُرْبُ:

لَوْلَا الْحِمَى وَصَبَايَا بِالْحِمَى عُرْبُ
 مَا كَانَ فِي الْبَارِقِ النَّجْدِيُّ لِي أَرْبُ
 حَلَّتْ عَقُودَ اصْطِيَارِي دُونَهُ حُلٌّ
 حُقُوقُهَا كَارْتِيَا حَاتِي لَهَا تَجِبُ
 وَفِي رِيَاضِ بِيوْتِ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ
 وَرَدَّ جَنِيٍّ وَفِي أَكْمَامِهَا الْقَضْبُ

يَسْقِي الْأَفَاحِي مِنْهَا قُرْفُفًا فَإِذَا
لَا حَ حَبَابٌ عَلَيْهَا فَاسْمُهُ الشَّيْبُ
يَقْضِي بِهَا لِعَيْنِ النَّاطِرِينَ عَلَى
كُلِّ الْقُلُوبِ قَضَاءً مَا لَهُ سَبَبُ
إِلَّا تَمَارُضَ أَجْفَانٍ إِذَا سَلَبَتْ
فَمُقْتَضَى هَمِّهَا الْمَسْلُوبُ لَا السَّلْبُ
وَلِي لَدَى الْحِلَّةِ الْفَيْحَاءِ غُصْنٌ نَقَا
يَهْفُو فَيَجْذِبُهُ خَفَقٌ فَيَنْجَذِبُ
لَا يَقْدِرُ الْحَبُّ أَنْ يُخْفِيَ مَحَاسِنَهُ
وَإِنَّمَا فِي سَنَاءِ الْحُجْبِ تَحْتَجِبُ
أَعَاهِدُ الرِّاحِ أَنَّى لَا أَفَارِقُهَا
مِنْ أَجْلِ أَنَّ الثَّنَائِيَا شَيْهَهَا الْحَبُّ
وَأَرْقُبُ الْبَرْقَ لِأَسْقِيَاءِهِ مِنْ أَرْبَى
لَكِنَّهُ مِثْلُ خَدْيِهِ لَهُ لَهَبُ
يَا سَالِمًا فِي الْهَوَى مِمَّا أَكَابِدُهُ
رِفْقًا بِأَحْشَاءِ صَبٍّ شَفَّهَا الْوَصَبُ
فَالْأَجْرُ يَا أَمَلِي إِنْ كُنْتُ تَكْسِيهِ
مِنْ كُلِّ ذِي كِبَرٍ حَرَاءٌ تَكْتَسِبُ
يَا بَدْرَ نَمِّ مُحَاقِي فِي زِيَادَتِهِ
مَا أَنْ تَتَجَلَّى عَنْ أَفْئِكَ السُّحْبُ

صَحَا السُّكَارَى وَسُكِرِي فِيكَ دَامَ وَمَا
 لِلسُّكْرِ مِنْ سَبَبٍ يُرَوَى وَلَا نَسَبُ
 قَدْ أَيْسَ الصَّبْرَ وَالسَّلْوَانَ أَيْسَرُهُ
 وَعَاقِبَ الصَّبِّ عَنْ آمَالِهِ الْوَصَبُ
 وَكَلَّمَا لَاحَ يَا دَمْعِي وَمَيْضُ سَنَى
 تَهْمِي وَإِنْ هَبَّ يَا قَلْبِي صَبَا تَجِبُ

— مقطوعة: لَوْ سَقَيْنَا الرُّبُوعَ مَاءَ الشَّبَابِ:

لَوْ سَقَيْنَا الرُّبُوعَ مَاءَ الشَّبَابِ مَا وَفَيْنَا فَكَيْفَ مَاءَ التَّصَابِي
 فَاسْقِنِي مِنْ مَنَازِلِ الْحَيِّ وَجَدَا يَا رُبُوعَ دُمُوعِ السَّحَابِ
 يَا تُغُورِ الْأَفَاحِ كُونِي رِضَابًا إِنَّ أَشْهَى الْأَفَاحِ ذَاتُ الرِّضَابِ
 وَبِكَأْسِ الشَّقِيقِ كُونِي شَرَابًا أَنْتِ فِي حُمْرَةِ كُلِّ شَرَابِ
 أَوْتَقْنَا بِالنَّرْجِسِ الْغَضُّ مِنْهَا أَعَيْنٌ لَا كَأَعَيْنِ الْأَحْبَابِ
 تِلْكَ فِيهَا مِنْ فِتْرَةِ الْحُسْنِ جَمْعٌ فَارِقٌ لِلْجُسُومِ وَالْأَلْبَابِ

— مقطوعة: رَوَتْ نَفَحَاتُ الطَّيِّبِ عَنْ نَسِيمَةِ الصَّبَا:

رَوَتْ نَفَحَاتُ الطَّيِّبِ عَنْ نَسِيمَةِ الصَّبَا
حَدِيثَ غَرَامٍ عَنْ سُوَيْكِنَةَ الْخَبَا
وَأَهْدَى النَّسِيمُ الْحَاجِرِيَّ سَلَامَهَا
فِيَا لُطْفَ مَا أَهْدَى النَّسِيمُ وَمَا حَبَا
أَيَا صَاحِبِي مَا لِلْحَمَى فَاحَ نَشْرُهُ
فَهَلْ سَحَبَتْ لَيْلَى نِيُولًا عَلَى الرَّبَا
فَمَاذَا الشَّدَا إِلَّا وَقَدْ زَارَ طَيْقُهَا
فَأَهْلًا بِطَيْفِ زَارٍ مِنْهَا وَمَرْحَبَا
فِيَا طَيْبَ عَيْشٍ مَرَّ لِي بِفَنَائِهَا
وَلَوْ عَادَ يَوْمًا كَأَنَّ عِنْدِي أَطْيَا
لِيَالِيَّ أَنْسُ كُلُّهَا سَحَرٌ بِهَا
وَأَيَّامُ وَصَلٍ كُلُّهَا زَمَنُ الصَّبَا
مُمْنَعَةٌ رَفَعُ الْحِجَابِ وَضَوْعُهَا
كَفَاهَا فَمَا نَحْتَاجُ أَنْ نَنْقَبَا
هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنْ نُورَ جَمَالِهَا
يُنْزِلُهَا فِي الْحُسْنِ أَنْ تَتَحَبَّبَا
لَنْ أَخْلَفَ الْوَسْمِيَّ مَا حَلَّ تَرْبِهَا
فَقَدْ رَاحَ مِنْ دَمْعِ الْمُحِينِ يَخْصِيَا

— قصيدة: تَذَكَّرَ بِالْحِمَى قَلْبِي الطَّرُوبُ:

تَذَكَّرَ بِالْحِمَى قَلْبِي الطَّرُوبُ لَيْالِي غَابَ عَنْهُنَّ الرَّقِيبُ
وَأَيَّاماً صَفَا عَيْشُ النَّصَابِي وَمَنْ أَهْوَى نَدِيمِي وَالْحَبِيبُ
غَرِيبُ الْحَيِّ قَلْبِي فِي حِمَاكُمْ نَزِيلٌ فِي دِيَارِكُمْ غَرِيبُ
رَحَلْتُمْ عَنْ حِمَى الْوَادِي سَحِيراً وَسِرْتُمْ وَهوَ خَلَفَكُمْ جَنِيبُ
عَجِبْتُ لِنَارِكُمْ بَرِّبَا الْمُصَلَّى وَمِنْهَا الصَّبُّ فِي نَجْدٍ يَنْوُبُ
وَنَشْرُكُكُمْ عَلَى بُعْدٍ وَقُرْبُ إِلَى الْمُشْتَاقِ تَحْمِلُهُ الْجَنُوبُ
وَلِنْ أَرْجُوكُمْ وَأَخِيبُ كُلًّا سِوَاكُمْ قَصْدُ رَاجِيهِ يَخِيبُ
وَبِي مَنْ لَا أَسْمِيهِ حَيَاءٌ بِحُكْمِ حُضُورِهِ فَهُوَ الرَّقِيبُ
يَمِيسُ قَوَامُهُ فَيَكَادُ قَلْبِي يَطِيرُ مِنَ اللَّذَازَةِ إِذَا يَطِيبُ

— قصيدة: أَيَا عَرَبَ الْجَرَعَاءِ مَنْ أَيْمَنَ الشُّعْبِ:

أَيَا عَرَبَ الْجَرَعَاءِ مَنْ أَيْمَنَ الشُّعْبِ
بِكُمْ لَا بِشَيْءٍ غَيْرِكُمْ شَغَفُ الصَّبِّ
أَلَمْ تَعِدُونَا أَنْ نَرَاكُمْ بِذِي الْفَضَا
أَطْنُكُمُ تَعْنَوْنَ أَنَّ الْغَضَا قَلْبِي
غَرَاماً بِكُمْ وَالنَّارُ يَضْرُمُهَا الصَّبَا
أَقُولُ عَلَى نَارِي بِكُمْ لِلصَّبَا هُبِّي

وَوَجَدَا إِذَا مِلْتُمْ إِلَيَّ مَعَ الْهَوَى
أَقُولُ اعْتَذَاراً يَحْسُنُ الْمِيلَ لِلْقَضْبِ
وَإِنْ تَوَقَّدُوا نَارَ الْحَرِيقِ فَكَمْ أَضَا
وَنَارُ فُؤَادِي فِي حَشَا الْوَالِدِ الصَّبِّ
وَإِنْ تَجِدُوا بِالشُّعْبِ سَيْلاً وَجَعَةً
فَأَنْتُمْ بِمَجْرَى الدَّمْعِ يَا سَاكِنِي قَلْبِي
سَبَبَتَا الْجُفُونُ الْبَابِلِيَّاتُ مِنْكُمْ
وَإِنَّ لُبَانَاتِ اللَّبَاءَةِ فِي الْحَبِّ
نَصِيصٌ فَهَلَّا لِلرَّقِيبِ وَعَانِلِ
لَكَيْمَا يَبِينَا فِي عَذَابٍ وَفِي نَصَبِ
غَزَالِكُمْ ذَاكَ الْمُمْنَعُ وَصَلُّهُ
أَبَاحَ حِمَى نَمْعِي وَبَالَغَ فِي نَهْيِ
هُوَ الظَّنُّ لَا بَلَّ صَائِدِ الظَّنِّ لَحْظُهُ
وَيَا مَا أُحْيَلَا الصَّيِّدَ فِي شَرَكِ الْهُدْبِ
حَلَا لَحْظُهُ وَالْمَرْءُ فِي الْحُبِّ وَصَلُّهُ
وَلَمْ تَحُلْ حَتَّى مَرَّ فِي رَيْقِهِ الْعَذْبِ
عَلَى عِطْفِهِ حَتَّى مِنَ الْوُرْقِ غَيْرَتِي
أَلَمْ تَرَهَا هَاجَتَ عَلَى الْغُصْنِ الرُّطْبِ
فَإِنْ ذَبَلَتْ أَجْفَانُهَا وَهِيَ نَرْجِسُ
فَمَنْ طَوَّلَ مَا أُنْمَتُ فِيهِنَّ مِنْ شُرْبِ

وَمِنْ عَجَبٍ وَهِيَ الْكُؤُوسُ فَمَا لَهَا
إِذَا كُسِّرَتْ صَحَّتْ وَدَارَتْ عَلَى الشَّرْبِ
فَهَلْ عَوْدَةٌ فِي لَيْلَةٍ مِنْ ذَوَابَّةٍ
عَنِ الْبَذْرِ مِنْ ظِلْمَائِهَا دَائِمًا تُتْبِى
تَرْقَى بِهَا قَلْبِي إِلَى سِرٍّ وَقَدِهِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ تَحْتَهُ سُبْحُ الرُّطْبِ
أَرَادَ تَوَلَّى الْحَلَّ وَالْعَقْدَ عِنْدَهُ
فَجَارَ عَلَى الْمَسْجُونِ مَنْ مُقْتَضَى الْجَذْبِ
دَعَانِي انْكِسَارُ الْجَفْنِ مِنْهُ لُضْمَةٌ
فَجَاوَبَنِي مَا لِلْغُصُونِ سِوَى الْهُضْبِ
وَعَرِدْتُ تَغْرِيدَ الْحَمَامِ تَوْصُلًا
إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَ الْحَمَائِمِ وَالْقُضْبِ
وَقُلْتُ زَكَاةُ الْحُسْنِ فَرَضًا فَقَالَ مَا
تَمِيلُ الْغُصُونُ الْوُرْقُ إِلَّا عَلَى النَّدْبِ

— قصيدة: هَذَا الْمُصَلَّى وَهَذِهِ الْكُتُبُ:

هَذَا الْمُصَلَّى وَهَذِهِ الْكُتُبُ

بِمِثْلِ هَذَا يَهْزُكُ الطَّرْبُ

فَالْحَيُّ قَدْ شَرِيعَتْ مَضْرِبُهُ
وَحُسْنُهُ عَنْهُ زَالَتْ الْحُجُبُ
وَكُلُّ صَبٍّ صَبًّا لِسَاكِنِهِ
يَسْجُدُ شَوْقًا لَهُ وَيَقْتَرِبُ
أَنْيَحُ مَطَايَاكَ عِنْدَ رَبِّعِهِمْ
كَيْ لَا تَطَاكَ الرَّحَالُ وَالنُّجُبُ
وَأَسْعِ عَلَى الْجَفْنِ خَاضِعًا فَعَسَى
يَشْفَعُ فِيكَ الْخُضُوعُ وَالْأَكْبُ
وَارْجِ قَرَاهُمُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ
فَأَنْتَ ضَيْفٌ لَهُمْ وَهُمْ عُرْبُ
وَأَسْجُدْ لَهُمْ وَأَقْتَرِبْ فَعَاشِقُهُمْ
يَسْجُدُ شَوْقًا لَهُمْ وَيَقْتَرِبُ
عِنْدِي لَكُمْ يَا أَهْيَلْ كَاطِمَةٍ
أَسْرَارُ وَجَدِ حَدِيثُهَا عَجَبُ
أَرَى بِكُمْ خَاطِرِي يُلَاحِظُنِي
مَنْ أَيْنَ هَذَا الْإِخَاءُ وَالنَّسَبُ
وَإِنْ تَشَوَّقْتُمْ بَعَثْتُ لَكُمْ
كُتُبَ غَرَامِي وَمِنْكُمْ الْكُتُبُ
وَأَشْرَبُ الرَّاحَ حِينَ أَشْرَبَهَا
صِرْقًا وَأَصْنَحُوبَهَا فَمَا السَّبَبُ

خَمَرْتُهَا مِنْ دَمِي وَعَاصِرُهَا
ذَاتِي وَمَنْ أَدْمَعِي لَهَا الْحَبَبُ
إِنْ كُنْتُ أَصْحُو بِشْرِبِهَا فَلَقَدْ
عَرَبَدَ قَوْمُ بِهَا وَمَا شَرِبُوا
هِيَ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ فِي خَلْدِي
وَإِنْ غَدَتُ فِي الْكُؤُوسِ تَلْتَهَبُ
فَعَنْ لِي إِنْ سَقَيْتُ يَا أَمَلِي
بِاسْمِ التِّي بِي عَلَيَّ تَحْتَجِبُ
عَيْنَاكَ إِنْ سَلَبْتَ نَوْمِي بِلَا سَبَبِ
فَالنَّهْبُ يَا أُخْتُ سَعْدِ شَيْمَةِ الْعَرَبِ
وَقَدْ سَلَبْتَ رُقَادَ النَّاسِ كُلَّهُمْ
لِذَاكَ جَفْنَاكَ كَسْلَانٍ مِنَ التَّعَبِ
هَلْ ذَاكَ لَامِعُ بَرَقٍ لَاحٍ مِنْ إِضْمٍ
أَمْ ابْتَسَمْتَ فَهَذَا بَارِقُ الشَّنَبِ
وَيْلَكَ نَارُكَ بِالْجَرَعَاءِ سَاطِعَةً
أَمْ ذَاكَ خَذَاكَ وَهَّاجُ مِنَ اللَّهَبِ
لَا تُقَدِّدُ اللَّهُ مِنْ نَارِ الْجَوَى أَبَدًا
قَلْبِي الَّذِي عَنْ هَوَاكُمُ غَيْرُ مُنْقَلَبِ
إِنْ عَذَّبْتُهُ بِنَارٍ مِنْ مَحَبَّتِهَا
نُعَمَ فَذَاكَ نَعِيمٌ غَيْرُ مُحْتَجِبِ

مَنْ رَامَ ذِكْرَ سِوَاهَا يَلْتَمِسْ أَحَدًا
غَيْرِي فَذِكْرُ سِوَاهَا لَيْسَ مِنْ أَرَبِي
إِنْ حَدَّثْتَهُ الْأَمَانِي أَنَّنِي أَبَدًا
أَسْلُوا هَوَاهَا فَقَدْ أَصْغَى إِلَى الْكَذِبِ

— مقطوعة: بَعَثَتْ فِي طَيِّ أَنْفَاسِ الْجُنُوبِ:
بَعَثَتْ فِي طَيِّ أَنْفَاسِ الْجُنُوبِ
لَيْنَ عَطْفِهَا إِلَى بَانَ الْكَيْبِ
فَغَدَتِ أَكْمَامُ أَزْهَارِ الرُّبَى
طَرَبًا تَقْتُقُ أَزْرَارَ الْجُيُوبِ
فَعُمُومُ الْكَوْنِ يَهْوَى حُسْنَهَا
وَحُصُوصًا صَاحِبُ الْقَلْبِ الطَّرُوبِ
وَإِذَا يَاسَعْدُ جَاوَزْتَ النَّقَا
فَاحْبِسْ الْعَيْسَ تَرَى نَهَبَ الْقُلُوبِ
فَبِذَاكَ الْحَيِّ كَمْ مَيَّتَ هَوَى
قَدْ بَرَأَهُ السُّقْمُ عَنْ عَيْنِ الطَّبِيبِ
يَا بَرُوحِي أَنَا أَفْدِي شَايِنَا
فَاتَيَّا أُمْسَى نَدِيمِي وَحَبِيبِي

— قصيدة: لَا تَلُمَّ صَبَوْتِي فَمَنْ حَبَّ يَصْبُو:

لَا تَلُمَّ صَبَوْتِي فَمَنْ حَبَّ يَصْبُو
إِنَّمَا يَرْحَمُ الْمُحِبُّ الْمُحِبَّ
كَيْفَ لَا يُوقِدُ النَّسِيمُ غَرَامِي
وَلَهُ فِي خِيَامِ لَيْلَى مَهَبٌ
مَا اعْتَذَارِي إِذَا خَبَتْ لِي نَارٌ
وَحَبِيبِي أُنُورُهُ لَيْسَ تَخْبُو
هَذِهِ الْحُلَّةُ الَّتِي حُلَّ فِيهَا
عَقْدُ صَبْرِي وَحَلَّهَا لِي حُبٌ
مَلَأَ الْكَوْنَ حُسْنَهُ فَلِهَذَا
كُلُّ قَلْبٍ إِلَى مَعَانِيهِ يَصْبُو
عَايَنْتُ حُسْنَهُ الْقُلُوبُ فَأَمْسَى
وَلَهُ فِي الْقُلُوبِ سَلْبٌ وَتَهَبٌ
نَصَبُوا حَانَ حُبِّهِ ثُمَّ نَادُوا
يَا نِيَامَ الْقُلُوبِ لِلرَّاحِ هُبُوا
بِنْتُ كَرَمٍ زُقَّتْ لِكُلِّ كَرِيمٍ
مَا عَلَى نَفْسِهِ النَّفِيسَةِ صَعَبٌ

— قصيدة: يَا نَسْمَةَ الْبَانَ هُبِّي:

يَا نَسْمَةَ الْبَانَ هُبِّي عَلَى رُسُومِ الْمُحِبِّ

وَمَا عَلَيْكَ إِذَا مَا وَقَدْتَ نِيرَانَ قَلْبِي
 إِنْ تَكْتُمِي سِرّاً لَيْلَى فَطِيبُهَا عَنْهَا يُنْيِي
 أَوْ لَا فَمَا لَشَذَاهَا يُسْبِي الْعُقُولَ وَيُصْنِي
 أَهْدَتْ إِلَيَّ حَدِيثاً فَهَمَّتْهُ دُونَ صَحْبِي
 فَحَلَّ فِي الْحَالِ سَلْبِي دُونَ الْجَمِيعِ وَنَهْبِي
 يَاطْلِبَا حَيَّ لَيْلَى ذَاتِي جَمَاهَا فَطُفْ بِي
 وَنَادِ بِاسْمِي تَجِدْهَا عَلَى لِسَانِي تَلْبِي

— قصيدة: يَا سَاكِنِينَ بِقَلْبِي:

يَا سَاكِنِينَ بِقَلْبِي مَتَى أَفُوزُ بِقُرْبِ
 سَلَبْتُمُونِي وَلَكِنْ أَنَا السَّعِيدُ بِسَلْبِي
 يَا عَرَبَ وَادِي الْمُصَلَّأِ لَأَنْتُمْ خَيْرُ عَرَبِ
 نَزِيلِكُمْ مُسْتَهَامٌ مُوَلِّهُ الْقَلْبِ مَسْنِي
 وَلَسْتُ أَسْأَلُو هَوَاكُمُ حَاشَا غَرَامِي وَحَبِّي
 إِذَا رَضِيتُمْ تَلَافِي فَذَاكَ مَطْلُوبُ قَلْبِي
 رُوحِي لَكُمْ إِنْ قَبِلْتُمْ وَالرُّوحُ جَهْدُ الْمُحِبِّ
 أَنْتُمْ ذَخِيرَةُ قَلْبِي يَوْمَ الْمَعَادِ وَحَسْبِي
 عَشَقْتُكُمْ وَبِحَقِّي إِنْ تَهْتُ مِنْ فَرَطِ عُجْبِي
 وَمِلْتُ سُكْراً وَلَمْ لَا وَمِنْكُمْ كَانَ شُرْبِي

وَقَدْ سَقَانِي حَبِيبِي وَخَصَّنِي ثُونٌ صَحْبِي
وَأَسْتُ بَعْدَ عَيَانِي جَهْرًا سَنَا وَجْهَ رَبِّي
أَصْبُو لِرَنْدٍ وَبَانٍ وَذَكَرٍ غَارٍ وَكُتُبِ

— مقطوعة: نَعَمْ هَذِهِ الدَّارُ الَّتِي أَنْتَ تَطْلُبُ:

نَعَمْ هَذِهِ الدَّارُ الَّتِي أَنْتَ تَطْلُبُ
إِلَى أَيْنَ عَنْهَا يَالِكَ الْخَيْرُ تَذْهَبُ
أَعَنْ دَارٍ لَيْلَى بَعْدَ مَا بَانَ بَانُهَا
وَفَاحَ شَذَا أَنْفَاسِهَا تَتَحَجَّبُ
لَقَدْ سَمَحَتْ رُوحِي بِقُرْبِ مَزَارِهَا
بِفُرْقَةٍ جِسْمٍ لَمْ تَزَلْ فِيهِ تَرْغَبُ
وَهَلْ كَانَتْ الْأَجْسَادُ إِلَّا مَطِينًا
تُقَرِّبُهَا مَعْنَى لَهَا حِينَ تَقْرَبُ
نَعَمْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ
بُدُورُ سَنَاهَا بَعْدَمَا عَاكَ تَغْرِبُ
وَلَا حَتَّ وَهَلْ يَوْمًا تَوَارَتْ وَإِنَّمَا
بِتَنْزِيهِهَا عَنْ ذَاكَ طَرْفِي يُكَذِّبُ

— قصيدة: عَلَى حُبِّكُمْ أَنْفَقْتُ حَاصِلَ أَدْمُعِي:

عَلَى حُبِّكُمْ أَنْفَقْتُ حَاصِلَ أَدْمُعِي
وَعَزَّيْزَ وَلَاكُمُ عَبْدُكُمْ مَا تَكْسِبُوا
وَحَاشَكُمْ أَنْ تُبْعِدُوا عَنْ جَنَابِكُمْ
حَلِيفَ هَوَى بِالرُّوحِ فِيكُمْ تَقَرَّبَا
وَأَنْ تَهْجُرُوا مَنْ وَاصَلَ السُّهُدَ جَفَنَهُ
وَهَذَبَ فِيكُمْ عِشْقَهُ فَتَهَذَّبَا
وَأَحْسَنْتُمْ تَأْدِيبَهُ بِصُنُودِكُمْ
فَلَا تَهْجُرُوهُ بَعْدَ مَا قَدْ تَأَدَّبَا
وَلِي مُهْجَةٌ بَيْنَ الصَّبَابَةِ نَيْتُهَا
فَكَيْفَ تَرَى عَنْكُمْ مَدَى الدَّهْرِ مَذْهَبَا
وَلِي فِي ظِلَالِ السَّرْحَتَيْنِ تَنْزِلٌ
لَبِسْنَا بِهِ بُرْدًا مِنَ الْوَصْلِ مَذْهَبَا
يَرُوقُ أَنْ يَرُويَ أَحَادِيثَ وَرُقَاهِ
وَتَصَبُّوا إِلَى الْأَلْحَانِ شَجْوًا فَتَطْرَبَا
وَتَسْتَنْشِقُ الْأَنْفَاسَ مِنْ نَسَمَائِهِ
فَتَفْهَمُ مَعْنَى الزَّهْرِ مِنْ مَنْطِقِ الصَّبَا

— وله هذان البيتان:

وفي الحي هيفاء المعاطف لو بدت
مع البان كان الورق فيها تغنت
عجبت لها في حسنها إذ تفردت
لأية معنى بعد ذاك تثنت

— مقطوعة: أيا طلعة القمر المبهج:

أيا طلعة القمر المبهج
ويَا فِتْنَةَ الْمُسْتَهَامِ الشَّجِي
بِمَا بَيْنَنَا مِنْ عُهودِ الْهَوَى
إِذَا جُزْتَ جِرُوتُ بِي عَرَجٍ
بِنَفْسِجٍ صُدْغِيكَ قَدْ لَاحَ لِي
فَبَشَّرَنِي بِالَّذِي أَرْتَجِي
فَإِنَّ الْبِنَفْسِجَ تَفْسِيرُهُ
كَمَا قَدْ عَلِمْتُ بِنَفْسِي أَجِي
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَتُّ أَطْوِي يَدِي
عَلَى كِبْدِي مِنْ جَوَى مُنْضِجٍ
فَلَا تَمْرِجَنْ بِدَمِي عَبْرَتِي
وَرَيْقُكَ لِي بِالْكُؤُوسِ امْرِجْ

— قصيدة: عَسَى لَيْلُ أَمَالِي بِوَجْهِكَ يُصْبِحُ:

عَسَى لَيْلُ أَمَالِي بِوَجْهِكَ يُصْبِحُ
وَيَسْعِفُنِي الدَّهْرُ الْبَخِيلُ وَيَسْمَحُ
وَيَسْكُنُ قَلْبٌ قَدْ تَمَادَى خُفُوقُهُ
وَيَخْلُصُ طَرْفٌ رَاحَ لِلدَّمْعِ يَسْفَحُ
أَوْ مِلَّ أَنْ يَنْدُو لِعَيْنِي جَمَالُهَا
عَسَى لَحْظُهَا فِي رَوْضَةِ الْحُسْنِ يَسْرَحُ
فَلَمَّا بَدَتْ أَطْرَفْتُ فِي الْحَيْنِ هَيْبَةً
وَمَنْ ذَا لِعَيْنِ الشَّمْسِ بِالْعَيْنِ يَلْمَحُ
تَعَرَّضُ لَأَرَامِ الصَّرِيمِ لَعَلَّهَا
بِالْحَاطِظِهَا تَرْمِي حَشَاكَ وَتَجْرَحُ
فَمَا عَاشَ إِلَّا مَيِّتٌ فِي حِمَاهُمْ
وَمَا مَاتَ إِلَّا مَنْ لِأَهْلِيهِ يَصْلَحُ
إِذَا أَسْرَتْ قَلْبِي عُيُونُ أَهْلِيهِ
فَلَا عِشْتُ إِنْ أَمَلْتُ أَنِّي أُسْرَحُ
وَأَيْنَ جَمِيلٌ مِنْ غَرَامِي وَقَدْ غَدَا
لَدِيهِ جَمِيلُ الصَّبْرِ فِي الْحُبِّ يَقْبَحُ

— مقطوعة: مُحَيَّاكَ يَهْوَاهُ الْمُحَيَّا أَمَا تَرَى:

مُحَيَّاكَ يَهْوَاهُ الْمُحَيَّا أَمَا تَرَى
حَسَا الكَاسِ فِيهِ جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ
وَلَوْ لَا بُكَاهَا مَا بَدَا فَوْقَ خَدَّهَا
دُمُوعٌ حَكَاهَا اللُّلُؤُ الْمُتَقَرَّدُ
وَمَا كُنْتُ أَنْزِي فِتْنَةَ الْفِسْقِ فِعْلَهَا
إِلَى أَنْ رَأَتْ عَيْنَايَ حُسْنُكَ يَتَعَدُّ
إِنَّمَا ارْتَشَفْتُ الرَّاحَ مِنْ ثَغْرِ كَاسِهَا
أَلَسْتُ تَرَاهَا نَحْوَ وَجْهِكَ تَسْجُدُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَاكَ فِي الْكَوْنِ مُطْلَقاً
لَدَلَّ عَلَيْهِ مِنْكَ حُسْنٌ مُقَيَّدُ
لَمَّا أَبْصَرْتَ عَيْنِي جَمَالَكَ جَهْرَةً
وَمَنْ لَمْ تُشَاهِدْ عَيْنُهُ كَيْفَ يَشْهَدُ
عَجِبْتُ لِكَاسٍ قَدْ صَحَوْتُ بِشْرِبِهَا
أَبْرَأُ صَخَواً عَلَيَّ يُعْرَبُ

— وقال في رثاء ولده شمس الدين؛ الذي توفي

قبله. وأثناء ذلك أشار إلى أخيه الميت أيضاً:

مَالِي بِفَقْدِ الْمُحَمَّدَيْنِ يَدُ
مَضَى أَخِي ثُمَّ بَعْدَهُ الْوَلَدُ

يَا نَارَ قَلْبِي وَأَيْنَ قَلْبِي أَوْ
يَا كَبْدِي لَوْ يَكُونُ لِي كَبْدُ
يَا بَائِعَ الْمَوْتِ مُشْتَرِيهِ أَنَا
فَالصَّبْرُ مَا لَا يُصَابُ وَالْجَلْدُ
أَيْنَ الْبَنَانِ الَّتِي إِذَا كَتَبْتُ
وَعَايَنَ النَّاسُ خَطَّهَا سَجَدُوا
أَيْنَ الثَّنَائِيَا الَّتِي إِذَا ابْتَسَمْتُ
أَوْ نَطَقْتُ لَأَحْ لَوْلُو نَضَدُ
مَا فَقَدْتُكَ الْإِخْوَانُ يَا وَلَدِي
وَإِنَّمَا شَمْسُ أَنْسِهِمْ فَقَدُوا
مُحَمَّدٌ يَا مُحَمَّدٌ عَدَدًا
وَمَا لِمَا لَيْسَ يَنْتَهِي عَدَدُ

إلى أن يقول:

مَاذَا عَلَى الْغَاسِلِينَ إِذْ قَرُبَ الْأَمُّ
لَاكُ مِنْهُ لَوْ أَنَّهُمْ بَعَدُوا
قَدْ حَمَلَتْ نَفْسُهُ الْعُلُومَ إِلَى الْـ
فِرْدَوْسِ وَالنَّعْشِ فَوْقَهُ الْجَسَدُ
أُبْكَيْتَ خَالَاتِكَ الضَّوْاحِكِ مِنْ
قَبْلُ وَمَا مِنْ صِفَاتِكَ النَّكَدُ

بِي كَيْرٍ مَسْنِي وَأُمُّكَ قَدْ
شَاخَتْ فَمِنْ أَيْنَ لِي يُرَى وَلَدُ
وَهْبَةٍ قَدْ كَانَ لِي فَمِثْلِكَ لَا
يُرجَى وَأَيْنَ الزَّمَانُ وَالْأَمَدُ

— مقطوعة: بِذِمَامِ الْخُبِّ يَا أَهْلَ زُرُودِ:

بِذِمَامِ الْخُبِّ يَا أَهْلَ زُرُودِ
مَنْ تَرَى عَلَّمَكُمْ نَقْضَ الْعُهُودِ
أَتَرَأَكُمُ قَدْ مَلَأْتُمْ عَبْدَكُمْ
أَمْ سَمِعْتُمْ فِيهِ أَقْوَالَ الْحَسُودِ
هَكَذَا كُلُّ مُحِبٍّ لَكُمْ
أَمْ أَنَا الْمَخْصُوصُ وَخِذِي بِالصُّدُودِ
كَيْفَ مَا شِئْتُ فَكُونُوا سَادَتِي
أَنَا فِي حُبِّي لَكُمْ بَعْضُ الْعَبِيدِ
وَلَكُمْ عَهْدَةٌ رَقِي كُتِيتُ
بِمِدَادِ الدَّمْعِ فِي رَقِّ الْخُدُودِ
كَلَّمَا رُمْتُ تَقَاضِي وَصَلَّيْتُكُمْ
وَقَفَ الْإِجْلَالُ بِي دُونَ وَرُودِ

— مقطوعة: لَوْلَاكَ يَا غَايَتِي وَقَصْدِي:

لَوْلَاكَ يَا غَايَتِي وَقَصْدِي
مَا هِمْتُ وَجْداً بَرَبِّعَ نَجْدِ
أَسْقَيْتَنِي فِي الْهَوَى حَذِيثاً
يُسْكِرُ لِلْعَاشِقِينَ بَعْدِي
وَمَذْكُرِي لِلسُّلُو عَهْداً
بِذِكْرِ غَيْرِي نَسِيتَ عَهْدِي
وَرُبَّ مُهْدِي الصَّبَا سَحِيراً
أَغْنَتْهُ عَنْ نَشْرِهَا بِئُرْدِ
لَا تَذْكُرُوا لِلنَّسِيمِ سُكْرِي
فَقَدْ أَتَى مُبَشِّراً بِوَجْدِي

— قصيدة: نَسِيمَ الصَّبَا أَذْكَرْتَنِي الْعَهْدَ بِالْوَادِي:

نَسِيمَ الصَّبَا أَذْكَرْتَنِي الْعَهْدَ بِالْوَادِي
وَهَيَّجْتَ أَشْوَاقاً شَقَقْنَ فُؤَادِي
فَإِنْ كُنْتُ تُحْيِي مَيِّتَ الْهَجْرِ وَالْجَوَى
بِقَتْلِ الْهَوَى أَحْيَيْتَنِي بِمُرَادِي
فَإِنِّي مَذْ فَارَقْتُ أَحْبَابَ مُهْجَتِي
وَعُوضْتُ مِنْ قُرْبٍ لَهُمْ بِبَعَادِ

جُفُونِي جَفَتْ نَوْمَ الدُّجَى لِمَضَاجِعِي
 وَصِرْتُ جَلِيسًا لِلْسَّهَا بِسَهَادِي
 فَيَا ذَلِكَ الدَّانِي إِلَى ذَلِكَ الْحَمَى
 إِذَا مَا أَنْخَتَ الْعَيْسُ فِي ذَلِكَ الْوَادِي
 فَادِّبِ السَّكَانَ أَسْكَنْتُمُ الْحَشَا
 وَقَوْدَ لَظَى فَالْجَمْرُ صَارَ مِهَادِي
 فَلَمْ أَسْتَطِعْ فِي اللَّيْلِ مَيْلًا لِمَضْجَعِي
 أَأَهْجَعُ وَالنَّيْرَانُ حَشَوُ وَسَادِي
 رَعَى اللَّهُ أَيَّامًا بِمُنْعَرِجِ اللَّوَى
 وَلَيْلًا نَفَى فِيهِ الْوِصَالُ رُقَادِي

— مقطوعة: قِمْرِيَّةُ الْأَسْحَارِ لِي تَسْعِدُ:

قِمْرِيَّةُ الْأَسْحَارِ لِي تَسْعِدُ
 أَنْشِدُ فِي غُصْنِي كَمَا تُنْشِدُ
 بِي شَادِنُ قَلْبِي شَقِيٌّ بِهِ
 وَجْدًا وَطَرْفِي نَظْرًا يَسْعِدُ
 وَاعْجَبَا مِنْ رَمْدٍ نَالَهُ
 وَخِلْتُ أَنَّ الْبَذْرَ لَا يَرْمَدُ
 كَيْفَ اكْتَسَتْ مَقْلَتُهُ حُمْرَةً
 وَالنَّرْجِسُ الْأَخْمَرُ لَا يُعْهَدُ

هَارُوتُهَا أَضْحَى وَمَارُوتُهَا
عِلْمَهُمَا بِالسَّخْرِ لَا يُجْعَدُ

— مقطوعة: يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ ذَاكَ الْحِمَى:

يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ ذَاكَ الْحِمَى
أَنْتُمْ الْمَقْصُودُ مِنْ كُلِّ الْوُجُودِ
ظَبْنِي أَبْيَاتِكُمْ ذَاكَ الَّذِي
لَا تَسْلُ مَا حَلَّ مِنْهُ بِالْأَسُودِ
وَسَقِيمُ الْجَفْنِ قَدْ صَحَّ لَهُ
سُنَّةُ الْمَنْعِ وَإِنِّطَالَ الْوَعُودِ

— قصيدة: لَوْ كُنْتُ فِيهِ هَائِمًا وَخَدِي:

لَوْ كُنْتُ فِيهِ هَائِمًا وَخَدِي
لَعَذَرْتُ عَذَّالِي عَلَى وَجْدِي
أَمَّا وَكُلُّ الْكَوْنِ يَعْتِيقُهُ
فَعَلَّامٌ أَخْفَى فِيهِ مَا عِنْدِي
هَامَ النَّسِيمُ بِلُطْفِهِ فَلِذَا
ظَهَرَ أَعْيَالٌ فِي صَبَا نَجْدِ
وَلَهُ عَيُونُ الزَّهْرِ رَامِقَةٌ
بِنَوَاطِرٍ مَلَّتْ مِنَ السُّهْدِ

وَأَبِيكَ لَوْلَا لَيْنٌ قَامَتْهُ
مَا اسْتَقْتُ لَيْنَ مَعَاطِفِ الرَّئِدِ
يَا قَاتِلِي وَجَوَانِحِي أَبْدَا
تَشْتَاقُهُ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
لَكَ أَنْ تَجُورَ عَلَيَّ يَا أَمَلِي
وَعَلَيَّ أَنْ أَرْضَى بِمَا تُبْذِرِي
وَلَنْ أَرَاكَ دَمِي هَوَاكَ فَيَا
شَرَفِي وَيَا حَظِّي وَيَا سَعْدِي
أَخْفَيْتُ حُبَّكَ إِذْ خَفَيْتُ ضَنْأً
فَكَأَنَّنَا كُنَّا عَلَى وَعْدِ
لَكَ نَاطِرٌ أَبْدَا لِحَاجِبِهِ
يَشْكُو ظِلَامَةَ عَامِلِ الْغَدِ
لَكَ عَارِضٌ لَمَّا أُعْتَرِضْتُ رَأْيِي
إِطْلَاقَ جَارِي الدَّمْعِ فِي نَفْثِي

— قصيدة: وَحَقَّكَ مَا الْجُفُونُ السُّودُ رُمْدُ:

وَحَقَّكَ مَا الْجُفُونُ السُّودُ رُمْدُ
وَلَا سَلَّتْ بِهَا الْهِنْدِي هِنْدُ
وَلَكِنَّ الْفُتُورَ بِهَا قُتُونُ
وَفِي الْوَسَنِ الَّذِي تُبْذِرُهُ سُهْدُ

لَقَدْ أَطْرَبْتَ سَمْعِي يَا عَذُولِي
بِذِكْرَاهَا كَأَنَّكَ كُنْتَ تَشْدُو
وَسَقَتْ رِكَابَ أَشْوَاقِي وَتَمْنَعِي
فَعَذْلٌ ذَاكَ لِي أَمْ أَنْتَ تَحْدُو
وَأُعِيدَ فِي الْمَنَاطِقِ مِنْهُ غَوْرٌ
أَهْلِمُ بِهِ وَفِي الْأَعْطَافِ نَجْدٌ
شَهِدْتُ بِوَجْهِهِ بَذْرًا وَأَنْتَى
وَقَائِمٌ لَحْظُهُ بَذْرٌ وَأُخَذُ
وَقَالُوا خُدَّةً مَاءً وَخَمَرٌ
وَكُلُّ مِنْهَا لِأَخِيهِ ضَرْدٌ
فَقُلْتُ وَمَقْصِدِي بِالْقَوْلِ خَالٌ
هُنَاكَ نَعَمْ وَفَوْقَ الضُّدِّ نَدٌ
وَأَعْجَبُ مِنْهُمَا وَرَدٌّ وَأَسٌ
وَلَيْسَ بِكَائِنٍ فِي الْأَسِ وَرَدٌ
سَقَى عِلْمُ غَدَائِرِهِ دُمُوعِي
فَحُسْنُ الطَّلِّ فَوْقَ الْأَسِ يَعْدُو
وَحَيًّا الْأَبْرَقَيْنِ وَلَيْسَ إِلَّا
تَنَازُلُهُ وَجِيدٌ فِيهِ عِقْدُ

حَلَّتْ أَلْفَافُهُ لِمِ لَا وَتَغْرُ
الْمَلِيحَةَ سُكَّرَ وَالرَّيْقُ شَهْدُ

— قصيدة: أترغب في الحياة ولحظ هندی:

أترغب في الحياة ولحظ هندی
علينا منه سلت أي هندی
تعرضنا لمقلتها إلى أن
تراضعنا كؤوس هوى ووجد
فهايت على اسمها كاسي فأنى
تعدى الكأس مع ظمان بعد
ووال كؤوسها حتى تراني
وعيني لا تراك وأنت عندي
مداما ما الحباب بها سواها
لها منها عليها أي عقد
أناولها نديمي فهو مثلي
وفيت بعهديه ووفى بعهدي
كتوم السر لا ألقاه غيري
إذا ما كان عندي كنت وحدي
تفرقنا نوى فأمر حلوي
وكذر بالتفرق صفو وودي

فَلَمْ أَرِ ذَا تَهْوِيرٍ مِثْلَ طَرْفِي
 عَصَرْتُ الدَّمَاعَ مِنْهُ فَجَاءَ وَرْدِي
 وَلَا كَحْشَايَ تُقَدِّحُ فِيهِ نَارُ
 تُذَكِّرُ مَا لِكِهِ بِغَيْرِ زَنْدٍ
 أَمَا مِنْ مُسْعِدٍ يَا سَعْدُ أَشْكُو
 صَبَابَاتِي إِلَيْهِ وَقَرِطَ وَجْدِي
 شَرِبْتُ مُدَامَ نَعْمَى مِنْ قَلِيمٍ
 مُرَوِّقَةً وَلَيْسَتْ ذَاتُ رُودِي
 فَأَعْجَزَ بَعْضُ أَيْسَرِهَا بَنَانِي
 عَلَى بَذْلِي لَهَا مَا فَوْقَ جُهْدِي
 فَدَيْتُكَ جَامِعاً لِلْفَضْلِ فِيهِ
 يُؤَنِّدُ دَائِماً مَنَحِي وَحَمْدِي
 وَمُسْتَقًا ذَكَرْتُ لَهُ اسْمَ لَيْلَى
 فَهَامَ بِهَا وَذِكْرُ الْحُبِّ يُعْدِي
 عَلَيَّ لَهُ وَعِنْدِي مَا يُرْجَى
 وَبُشْرَى مِنْ عَلَيَّ لَهُ وَعِنْدِي
 لِأَنِّي قَبْلُ مَنْ قَدْ جَاءَ قَبْلِي
 هُنَاكَ وَبَعْدُ مَنْ قَدْ جَاءَ بَعْدِي
 وَلِي فِي مَا يُقَالُ كَلَامٌ حُرٌّ
 وَفِي مَا لَا يُقَالُ سُكُونٌ عَبْدِي

— قصيدة: لَمَاهُ وَحُمْرَةُ الْخَدِّ:

بَيْنَ لَمَاهُ وَحُمْرَةِ الْخَدِّ
خَالَ حَكَى نَحْلَةً عَلَى شَهْدِ
عَجِبْتُ مِنْهُ وَالتَّرْكُ تُشْبِهُهُ
كَيْفَ اعْتَرَى لَحْظُهُ إِلَى الْهِنْدِ
نَابِغَةً صِرْتُ فِي مَحَبَّتِهِ
مِنْ فَرْطِ وَجْدِي بِصَنْدَعِهِ الْجَعْدِ
دُونَ وَصَالِي لِلثَّمِ وَجَنَّتِهِ
بِرِغْ عِذَارٍ مُقَدَّرِ السَّرْدِ
هَبْ أَنَّهَا لِاخْضِرَارِهِ مَنَعَتْ
كَمْ جُهْدٍ مَنَعَ الرَّبِيعَ لِلْوَرْدِ
سَأَلْتُهُ وَالرَّيْحُ يَعْبِقُ مِنْ
وَجَنَّتِهِ تَارَةً وَمِنْ رَنْدِ
ذَا الطَّيِّبُ مِنْ أَيْنَ لِلشَّقِيقِ أَتَى
فَقَالَ مِنْ نَدَا خَالِي النَّدِّ
يَا لَأَمِي فِي مَدَامِيعِ سُكَيْتِ
قَدْ نَثَرْتُ دُرَّهَا عَلَى الْعِقْدِ
أَضْيَعْتُ شَيْءَ مَلَامَةٍ بِذَلَّتِ
لِحَاضِرِ الْغَيِّ غَائِبِ الرُّشْدِ

فَأَيْنَ عَقْلِي يَا قَاتِلِي خَطَاً
أَوْ دِيَّتِي إِنْ قَتَلْتَ بِالْعَمْدِ
لِي مُقَلَّةٌ سَمَحَةُ الْفِيَارِ لَهَا
مَدَامِيعٌ قَصَرُهَا عَلَى الْمَدِّ
زِيَادَةُ النَّيْلِ بَغْضُ نَاقِصِهَا
فَهَلْ أُمِدَّتْ مِنَ النَّدَى السَّعْدِي

— قصيدة: لَكَ الْخَيْرُ دَاعِي الْخَيْرِ أَسْعِدِ يَا سَعْدُ:

لَكَ الْخَيْرُ دَاعِي الْخَيْرِ أَسْعِدِ يَا سَعْدُ
إِذَا مَا نَهَى عَنْهُ النَّهْيُ وَدَعَا الْوَجْدُ
فَإِنَّ عِقَالَ الْعَقْلِ يَدْعُو إِلَى السُّوَى
وَوَصَلَ السُّوَى قَصَلَ وَوَجَدَانُهُ فَقَدْ
إِلَى الذِّكْرِ فَارْجِعْ وَاتْرِكِ الْفِكْرَ فِي السُّوَى
إِذَا كُنْتَ مِمَّنْ قَصَدَهُ الْعِلْمُ الْفَرْدُ
وَلَا تَكُ غَيْرَانَا إِذَا ذَكَرَ أَسْمُهَا
فَذَاكِرُهَا حَادٍ إِلَى حُبِّهَا يَخْدُو
تَجَلَّى مُحْيَاهَا لِغَيْرِ بَنِي الْهَوَى
فَصْنُتُوا كَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْأَعْيُنُ الرُّمْدُ
وَلَا حَظَّهَا لِحَظِّ الْمُحِبِّ فَإِنْ بَكَى
سِرُوراً فَرَأَى الشَّمْسُ أَدْمَعُهُ تَبْدُو

فَدَعِ ثَمَنَ النَّفْسِ النَّفْسَةَ عِنْدَهَا
 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا بِلَا ثَمَنِ عِنْدُ
 قَرِيبَةٍ وَصَلٍ لِلْمُحِبِّ وَإِنَّمَا
 إِذَا وَصَلْتَ لَمْ يَبْقَ قُرْبٌ وَلَا بُعْدُ
 تَنَبَّتْ فَظَنُّوا أَنَّهَا تَنَوَّيَّةٌ
 وَقَدْ يَتَنَنَّى قَدُّهَا وَهُوَ الْفَرْدُ
 وَقَدْ نَطَقَتْ حُسْنًا مَنَاطِقُ خَصَرِهَا
 فَظَنُّوا حَمَامًا فَوْقَ بَانَتِهِ يَشْدُو
 وَقَالُوا لَهَا خَالٌ مِنَ النَّدِّ فَاتَيْنَ
 صَدَقْتُمْ لَهَا خَالٌ بَلَى مَالَهَا نِدُ
 فَإِنْ كُنْتُ ذَا وَعْدٍ بَوْصَلٍ جَمَالِهَا
 فَبَعْضُ مُحِيطِهَا لَدَيْكَ لَهُ عَدُ
 فَلَا تَقُلِ الدُّنْيَا اسْتَمَالَتْهُ إِنَّمَا
 تَجَلَّتْ مِنَ الدُّنْيَا لِمَقَالَتِهِ هُنْدُ
 يُذَادُ عَنِ الْوَرْدِ الْعَذِيبِ سِوَى امْرِئٍ
 غَرِيبٍ لَهُ فِي كُلِّ مَهْلَةٍ وَرْدُ

— قصيدة: سَلَبْتُمْ رُقَادِي فِي الْهَوَى وَتَجَلَّدِي:

سَلَبْتُمْ رُقَادِي فِي الْهَوَى وَتَجَلَّدِي
 وَرَدْتُمْ بِدَمْعِي فِي ظَمَأِ قَلْبِي الصَّدْي

وَالْبَسْتُمُونِي مِنْ جُفُونِكُمْ ضَنْأً
فَوَا عَجَباً مِنْ لَابِسٍ مُتَجَرِّدٍ
أَحْبَابَنَا لَا وَالْغَرَامِ الَّذِي لَهُ
وَرُودِي وَمَالِي مَصْنَرٌ بَعْدَ مَوْرِدِي
لَنْ كُنْتُمْ أَنْبَتُمْ رَسْمِي الَّذِي
مِنْ السَّقَمِ لَوْلَا الْوَصْلُ لَمْ يَتَجَسَّدِ
فَمَا نَبَتَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ بِغَيْرِكُمْ
وَلَوْلَاكُمْ كَانَ الْفَنَاءُ بِمَرْصِدِ
دَعُوا أَدْمُعِي تَسْقِي مَعَاهِدَ أَرْضِكُمْ
فَفِي غَيْثِهَا الْهَامِي رِضاً كُلُّ مَعْهَدِ
وَلَا تَسْأَمُوا مِنْ نَاحِلِ أَشْبَةِ الضَّنَا
سِقَاماً وَأَنْفَاساً وَقَرِطَ تَرْدُدِ
فَمَا حَقَّ أَنْفَاسِ الصَّبَا أَنْ تَمْلَهَا
غُصُونُ النَّقَا مَعَ لَيْنِهَا وَالتَّأَوُّدِ
وَلَا تَسْأَمُوا مِنْ نَاحِلِ أَشْبَةِ الضَّنَا
سِقَاماً وَأَنْفَاساً وَقَرِطَ تَرْدُدِ
فَمَا حَقَّ أَنْفَاسِ الصَّبَا أَنْ تَمْلَهَا
غُصُونُ النَّقَا مَعَ لَيْنِهَا وَالتَّأَوُّدِ
وَلَا تَعْيُوا فِي النَّوْحِ كُلِّ مُطَوَّقِ
عَلَى هَيْفٍ أَعْطَافِ الْغُصُونِ مُغَرَّدِ

لَأَنْكُمُ طَوْقُكُمْ كُلَّ عَاشِقٍ
بِدَمْعٍ فَرَّاحُوا بَيْنَ بَاكِ وَمُنْشِدٍ
فِيَا سَاقِي الْأَجْفَانِ خَمْرَكَ عَاطِنِي
وَيَا سَكْرَتِي مِنْهَا عَلَى الصَّخْرِ عَرَبِدِي

— مقطوعة: أَسْكَرْتُ بَانَ الْحَمَى يَا نَسْمَةَ السَّحَرِ:

أَسْكَرْتُ بَانَ الْحَمَى يَا نَسْمَةَ السَّحَرِ
فَهَلْ أَتَيْتِ عَنِ الْأَحْبَابِ بِالْخَبَرِ
نَعَمْ مَرَرْتُ بِذَلِكَ الْحَيِّ فَالْتَبَسَتْ
ذِيُولَ بَرْدِكَ رِيًّا نَشْرَهُ الْعَطَرِ
يَا نَوْقَ رُوحِي بِرُوحِي لِلْحَمَى وَقَفِي
بِهِ فَدَيْتُكَ بَيْنَ الضَّالِّ وَالسَّامِرِ
فَفِي بَيْوتِ الْحَمَى سَمَاءٌ قَدْ حُجِبَتْ
بِالسَّمْرِ عَنَا وَبِالْهَنْدِيَةِ الْبَتْرِ
شَمْسٌ وَمَطْلَعُهَا ذَاتِي وَمَغْرِبُهَا
بَيْنَ السَّوَادِينِ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ بَصْرِي
تَبْدِي مَعَالِمَ مَغْنَاهَا مُحَسَّنَهَا
فِيكَتْسِي الرُّوضِ بِالْغَدْرَانِ وَالزَّهْرِ

— وقال في مدح بعض بني الزبير الوزراء:

وَبَنُو الزُّبَيْرِ كَمَا عَلِمْتَ حَدِيثُهُمْ
وَقَلِيمُهُمْ سَادَ الْأَنَامَ وَطَالُوا
أَوْلَادُ عَمَّاتِ النَّبِيِّ أَمَا تَرَى
أَخْلَافَهُمْ لَا يَعْتَرِيهَا الْحَالُ
أَقْعَدَهُمْ شُغْلُوا بِنِيرَانَ الْقَرَى
وَلَهُمْ بِنِيرَانَ الْوَعَى أَشْغَالُ

— مقطوعة: رياض بكاه المزن فهي بواسم:

رياض بكاه المزن فهي بواسم
وناحت لغير الحزن فيها الحمائم
وأودعت الأنواء فيهن سرها
فمّت عليهن الرياح النواسم
يبيت الندى في أفقها وهو نائرٌ
ويضحى على أجيادها وهو ناظم
كأن الأفاحي والشقيق تقابلا
خدودٌ جلاهن الصبا ومباسم
كأن بها للنرجس الغض أعينا
تنبه منها البعض والبعض نائم

كأن ظلال القضب فوق غديرها
إذا اضطربت تحت الرياح أراقم
كأن غناء الورق ألحان مَعْبَدٍ
إنل رقصت تلك القدود النواعم
كأن نثار الشمس تحت غصونها
دنائير في وقتٍ ووقت دارهم
كأن ثماراً في غصون توسوست
لعارض خفاق النسيم تائم
كأن القطوف الدانيات مواهب
ففي كل غصن ماس في الدوح حاتم

— قصيدة: وقفنا على المعنى قديماً فما أغنى:

وقفنا على المعنى قديماً فما أغنى
ولا دلت الألفاظ منه على معنى
وكم فيه أمسينا وبتنا بربعه
حيارى وأصبحنا حيارى كما بتنا
ثملنا وملنا والدموع مدامنا
ولولا التصابي ما ثملنا ولا ملنا
فلم نر للغيد الحسان بهم سنا
وهم من بدور التَّم في حسنها أسنى

نسائل بانات الحمى عن قودهم
ولا سيما في لينها البانة الغنا
ونلثم ترب الأرض أن قد مشت بها
سليمى ولبنى؛ لا سليمى ولا لبنى
فوا أسفا فيه على يوسف الحمى
ويعقوبه تبيضُ أعينه حزنا
وليس الشجي مثل الخلي لأجل ذا
به نحن نحنا والحمام به عنى
ينادي مناديهم ويصغي إلى الصدى
فيسألنا عنهم بمثل الذي قلنا

— مقطوعة: أفدي التي ابتسمت وهنا بكازمة:

أفدي التي ابتسمت وهنا بكازمة
فكان منها هدى الساري بنعمان
وواجهتها ظباء الرمل فاكتسبت
منها محاسن أجياد وأجفان
يسري النسيم بعطفيها فيصعبه
لطفاً يميل غصون الزند والبان
مرت على جانب الوادي وليس به
ماء ففاض بدمعي الجانب الثاني

موهت عنها بسلمى واستعرت لها
من وصفها فاهتدى الشاني إلى شاني
تجنى عليّ وما ألقى أليم هوى
في حبها حين أجاني إلى الجاني

— قصيدة: إِنْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى يَتَعَيَّنُ:
إِنْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى يَتَعَيَّنُ
يَا قَاتِلِي فَبَسِيفِ طَرَفِكَ أَهْوَنُ
حَسْبِي وَحَسْبُكَ أَنْ تَكُونَ مَدَامِعِي
غُسْلِي وَفِي ثَوْبِ السَّقَامِ أَكْفَنُ
عَجَباً لِحَدِّكَ وَرَدَّةٌ فِي بَانَةٍ
وَالْوَرْدُ فَوْقَ الْبَانِ مَا لَا يُمَكِّنُ
أَدْنَتْهُ لِي سِنَّةُ الْكَرَى فَلْتَمْتُهُ
حَتَّى تَبَدَّلَ بِالشَّقِيقِ السَّوْسَنُ
وَوَرَدْتُ كَوَثَرَ ثَغْرِهِ فَحَسَبْتُ نِي
فِي جَنَّةٍ مِنْ وَجْهَتَيْهِ أَسْكُنُ
مَا رَاعَنِي إِلَّا بِلَالُ الْخَالِ فَوْ
قَ الْخَدِّ فِي صُبْحِ الْجَبِينِ يُؤْذَنُ
فَفَشَرْتُ مِنْ خَوْفِ الصَّبَاحِ ذُوَابَةً
هِيَ كَالدُّجَى وَظَلَلْتُ فِيهَا أَكْمُنُ

يا نظرة كم رمت أسرق أختها
من مقلّة هي للنعاس معيدن

— مقطوعة: اشتاق من ساكني ذاك الحمى سكنا:

أشتاق من ساكني ذاك الحمى سكنا
عليه خفق فؤادي قطّ ما سكنا
ولي غرام وصبر في محبته
هذا أقام بأحشائي وذا ظعنا
أطلعتم يا أهيل المنحني قمراً
بدا على الكون منه بهجةً وسنا
سبى عيون محبيه الكرى فلذا
أجفانه لم تزل مملوءة وسنا
إن قلت غصنٌ تجلّى وجهه قمراً
أو قلت بدراً تنثى قدّه غصناً
نادى ضنى خصره من يشتري سقماً
مني ليفنى به في الحب قلت أنا
فيا غنيّ جمال بات مفتقراً
لحسنه البدر ما لي عن هواك غنى

— قصيدة: هَلُمُّوا فَعِنْدِي لِلْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى:

هَلُمُّوا فَعِنْدِي لِلْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى
سِقَامُ غَرَامٍ لَسْتُ أَحْسِنُ طِبَّهُ
هَيُّوا لِي جَفْنَا يَمْلِكُ الْعَقْلُ دَمْعُهُ
وَالْأَفْئِدَةُ يَحْكُمُ الصَّبْرُ لُبَّهُ
هَوَتْ قَدَمِي فِي الْحُبِّ عَنْ غَيْرِ خَبْرَةٍ
فَالْفَيْتَةُ حُلُو التَّجَرُّعِ عَذْبُهُ
هُوَ الشَّهْدُ مَمْرُوجاً بِسَمِّ وَعَلَقَمِ
أَوْ مَلَّ عَبَاهُ وَأَخَذَرُ عَذْبُهُ
هَوَيْتُ حَبِيباً لَسْتُ أَهْلاً لِحُبِّهِ
وَأَتَّى لِمِثْلِي أَنْ يَكُونَ مُحِبَّهُ
هَالِكُ فُؤَادِي كُلَّمَا ذُقْتُ غَفْوَةً
وَصُبْحُ عَيَانِي كُلَّمَا اتَّبَعَهُ
هَمَمْتُ بِإِذْرَاكِ فَقَصَّصْتُ هَيْبَةً
وَعَجَزِي عَنِ الْإِذْرَاكِ أَوْلَى وَأَشْبَهُ
هَفَا بِكَ قَلْبٌ أَنْتَ أَوْزَيْتَ زُنْدَهُ
وَنَالِكَ طَرْفٌ أَنْتَ أَهْمَلْتَ سَحْبَهُ
هَنِيئاً لِهَذِي النَّفْسِ إِنْ كُنْتُ حَيْهَا
وَطُوبَى لِهَذَا الْقَلْبِ إِنْ كُنْتُ حَيْهَ

— قصيدة: لَا تَخْذَعَنَّ بِرِقَّةٍ فِي خَدِّهِ:

لَا تَخْذَعَنَّ بِرِقَّةٍ فِي خَدِّهِ
فَالسَّيْفُ قَتَلُ بِرِقَّةٍ خَدَّهُ
وَدَعَ الْجُفُونَ فَإِنَّمَا وَسَّانُهَا
أَضْحَى سِنَاناً فِي مُنْقَفٍ قَدَّهُ
ظَنِّي حَكِي نَوْمِي دَوَامُ نَفَارِهِ
عَنَى فَوَاصِلَ ضِدَّةٍ مَعَ صَدِّهِ
وَسَرَى إِلَى جِسْمِي الضَّنَّاءُ مِنْ خَصَرِهِ
فَهَوَيْتُ ذَاكَ لِإِنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ
عَجَبَ الْحَسُودُ وَقَدْ رَأَى سُكْرِي بِلَا
حَدٍّ وَقَلْبِي فِي عُقُوبَةِ خَدِّهِ
خَفَضَ عَلَيْكَ أَلَيْسَ خَفَقُ وَشَاحِهِ
يَحْكِي فُؤَادِي أَوْ تَلْهُبُ خَدِّهِ
هِيَ نِسْبَةٌ لَوْ أَنَّ قَلْبِي نَالَهَا
مُتَوَقِّداً لَعَذْرَتُهُ فِي وَقْدِهِ
شُكْرِي لِصَبْرِي عَنْهُ إِذْ هُوَ خَانَنِي
وَرَأَى الْخِيَانَةَ كَالْوَفَاءِ بَعْدِهِ
وَلَمْدَمَ عِي بُعْداً وَسَحَقاً إِنَّهُ
نُرٌّ لَدَيَّ وَلَمْ يَكُنْ فِي عَقْدِهِ

مَنْ مُنْصِفِي مَنْ قُرْبِهِ فَلَقَدْ أَبَى
 قُرْبِي وَمَنْ ذَا مُنْقِذِي مِنْ بُعْدِهِ
 يَا بَانَةَ الْوَادِي وَيَا وَرَقَاءَهُ
 نُوحِي لِعَصْنِكَ إِذْ أَنْوَحُ لِفَقْدِهِ
 أَنْتِ الْحَزِينَةُ وَالْحَزِينُ أَنَا كِلَانَا
 الْيَوْمَ مَعْدُورٌ يَنْوَحُ بِوَجْدِهِ
 حَالِي كَحَالِكِ وَالْمُجَاوِرُ كَفُّهُ
 لِلْمَاءِ يَعْرِفُ حَرَّهُ مِنْ بَرْدِهِ

— قصيدة: لَمَّا انْتَهَتْ عَيْنِي إِلَى أَحْبَابِهَا:

لَمَّا انْتَهَتْ عَيْنِي إِلَى أَحْبَابِهَا
 شَاهَدْتُ صِرْفَ الرَّاحِ عَيْنَ حَبَابِهَا
 أَرَى سِوَى لَيْلَى إِذَا حَكَمَ الْجَفَا
 مِنْهَا عَلَيَّ بِيُعْذَهَا وَحِجَابِهَا
 وَالْكَوْنُ مِنْ عُشَاقِهَا وَيَفُوتُنِي
 أَدَبُ يَرَاهُ الْخُبُّ مِنْ آدَابِهَا
 لَا وَالَّذِي جَعَلَ الضَّنَّ وَالْحُزْنَ
 جِلْبَابِي بِهَا وَالْحُسْنَ مِنْ جِلْبَابِهَا
 وَنَعِمْتُ مِنْ أَكْوَانِهَا وَرَأَى السَّوَى
 غَيْرِي فَأَصْبَحَ قَلْبُهُ يُكْوَى بِهَا

وَلَقَدْ طَرَفْتُ الْحَيَّ بَيْنَ خِيَامِهِ
فَكَأَنَّنِي لِلسُّقْمِ مِنْ أَطْنَابِهَا
وَقَرَأْتُ هَاتِيكَ الْبُيُوتَ تَصْفَحًا
فَكَأَنَّنِي الْمَسْئُولُ عَنْ إِعْرَابِهَا
حَتَّى إِذَا جَذَبَ الصَّبَاحُ لِنَامَهُ
وَرَمَتْ مَلِيحَةُ شَمْسِهِ بَنَقَابِهَا
رَأْتُ الدُّجَيْنَةَ أَنَّنِي مِنْ بَعْضِهَا
فَذَهَبْتُ بِالْأَنْوَارِ عِنْدَ ذَهَابِهَا
وَشَهِنْتُ لَيْلَى لَا يَرَاهَا غَيْرُهَا
وَجَمَالَهَا قَدْ شَفَّ مِنْ جِلْبَابِهَا
وَطَلَبْتُهَا فَوَجَدْتُ أَسْبَابَ الْمُنَى
مَوْصُولَةً بِالْيَأْسِ مِنْ أَسْبَابِهَا
إِلَّا لِمَنْ أُعْطِيَ الصَّبَابَةَ حَقَّهَا
وَأَتَى بِيُوتَ الْحَيِّ مِنْ أَبْوَابِهَا
وَوَفَى بِعَهْدِ رَسُولِهَا فِي أَمْرِهِ
عَنْهَا فَقَامَ مَقَامَهُ فِي بَابِهَا

— مقطوعة: هَاكَ قَلْبِ فَسِرْ بِهِ:

هَاكَ قَلْبِ فَسِرْ بِهِ لِلْحَمَى ثُونَ سَرَبِهِ
فَلَاكُمُ فِي خِيَامِهِ مِنْ فَقِيدِ لِقَابِهِ

وَتَعَرَّضُ بِذِي النِّقَا لِلصَّبَا فِي مَهَبِهِ
فَهُوَ نَشْرٌ مُعْطَرٌ بِشَذَا نَشْرِ عُرْبِهِ
وَإِذَا مَا دَعَاكَ دَاعِي هَوَاهُمْ فَلَبَّهِ

— مقطوعة: قِفَا بِالْمَطَايَا بَيْنَ نَجْدٍ وَشِعْبِهِ:

قِفَا بِالْمَطَايَا بَيْنَ نَجْدٍ وَشِعْبِهِ
نُودِي تَحِيَّاتِ الْغَرَامِ لِصَبِّهِ
فَبَيْنَ رَبَّا تِلْكَ الرَّبُّوعِ مَنَازِلُ
لِعَلْوَةِ مَاءِ الدَّمْعِ أَكْثَرُ شَرْبِهِ
إِذَا مَا التَّثْمَانَا بِالنَّوَاطِرِ تَرْبَةً
تَمَسَّكَتِ الْأَجْفَانُ مِنَّا بِتَرْبِهِ
أَحْنُ إِلَيْهَا وَهِيَ قَلْبِي وَهَلْ تَرَى
سِوَايَ أَخُو وَجْدٍ يَحْنُ لِقَلْبِهِ
وَيُحْجَبُ طَرْفِي عَنْهُ إِذْ هُوَ نَاطِرِي
فَمَا بُغْدُهُ إِلَّا لِإِفْرَاطِ قُرْبِهِ

— قصيدة: خُذُوا عَنْ تَتْنِي الْغُصْنِ أَخْبَارَ قَدِّهِ:

خُذُوا عَنْ تَتْنِي الْغُصْنِ أَخْبَارَ قَدِّهِ
وَلَا سِيَمًا عَنْ بَانَ نَجْدٍ وَرَنْدِهِ

وَلَا تَسْأَلُوا عَنْ فَاتِكَاتٍ لِحَاطِهِ
وَأَسْيَافِهَا إِلَّا حُشَّاشَةً عَبْدِهِ
تَعَشَّقَتْهُ عِشْقُ السَّقَامِ لِحَفْنِهِ
وَعِشْقُ الصَّدْيِ الطَّمَانِ مِنْهَلٍ وَرَدِهِ
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي قَبْلَ وَسْنَانِ جَفْنِهِ
بِأَنَّ كَلَالَ السَّيْفِ أَمْضَى لِحَدِّهِ
وَلَا لَذَّةَ لِلْسُّكْرِ مِنْ قَبْلِ عِشْقِهِ
إِلَى أَنْ سَقَانِي نَاطِرِي كَاسَ خَدِّهِ
وَدَانٍ وَلَكِنْ بَيْنَ نَوْمِي وَنَاطِرِي
مِنْ الْبُعْدِ مَا بَيْنَ الْوَفَاءِ وَوَعْدِهِ
وَكَيْفَ تَدَانِيهِ وَبَيِّنِي وَبَيِّنَهُ
مَسَافَةً هَجَرٍ وَأَصْلَتُ نَقْضَ عَهْدِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ طَرَفِي يُطِيعُنِي
إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الْقَلْبَ مِنْ بَعْضِ جُنْدِهِ
فَلَا طَرَفَ إِلَّا تَحْتَ رَايَةِ شَعْرِهِ
وَلَا قَلْبَ إِلَّا تَحْتَ مَعْقُودِ بَنْدِهِ

الشودي الاشبيلي

المعروف بالحلوى، (الشيخ الولي ابو عبد الله)¹

يعتبر من كبار الصوفية، ومن أعلام العارفين العابدين. استوطن تلمسان، ودفن بها. اشتهر باسم الحلوي؛ لأنه كان يصنع الحلوى، ويبيعها؛ ثم يتصدق بثمرتها. كان قد ولي القضاء بإشبيلية؛ في أواخر الدولة الموحدية؛ غير أنه ترك منصبه، ونأى بنفسه عن وظائف الدولة، وفرّ إلى تلمسان؛ أين سلك طريقاً آخر؛ مغائراً لما نشأ عليه؛ حيث اتخذ زِي الدراويش سَاراً له. وكانت وفاته بتلمسان في تاريخ غير معروف؛ إلا أنه يدخل في عداد رجال المائة السابعة هجرية؛ لأنه عاش في أواخر الدولة الموحدية.

¹ له ترجمة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. وبقاة السوسان في التهريف بحاضرة تلمسان.

وثمة من يرى أنه مات بعد سنة 737هـ/1337م؛ دون توثيق¹. غير أن هذا التاريخ يتعارض مع تاريخ وفاة تلميذه أبي إسحاق إبراهيم ابن يوسف بن محمد بن دهاق (سنة 611هـ/1314م)؛ خاصة وأن عبارة كتبها يحيى بن خلدون؛ تفيد أن موته سبقت وفاة ابن دهاق؛ إذ قال: ((فكنا بأوليان [أي الحلوي وابن دهاق] تبتلاً إلى كهف؛ خارج باب كشوط؛ إلى أن مات الشيخ؛ ودفن خارج باب علي؛ وقبره الآن هناك مزاراً مقصوداً))². كما وصف ابن دهاق ما تعلمه من الحلوي؛ فقال: ((كل ما تسمعونه من أدبي؛ فمنه استفدته، وعنه أخذته في مدة حولين كاملين؛ لم ينتقل فيها عما عهدته))³. كل هذا يوحي بأن موته سبقت موت تلميذه. وكان أبو عبد الله الشوزي (الحلوي) يدرك جيداً - حسبما يبدو - ما يقوم به. ولم يكن يضيره جري الأطفال خلفه، والتطويل له؛ بل كان يرقص على إقاعاتهم؛ لبعث السعادة في نفوسهم. ويعتبر ذلك من الأهمية بمكان؛

¹ باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ص: 486.

² بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 128.

³ نفسه، ج: 1، ص: 128.

حتى أنه انتقد في أحد المرات تلميذه ابن دهاق؛ حين رآه يدرس في المسجد باب الطَّهارة. ولما اقتنع التلميذ بمكانة الحلوي، ورضي بالتلمذ عليه واتباع نهجه؛ طلب منه تقليده في حركاته الغريبة؛ كأن ركب قسبة وجرى بها؛ فكسر ابن دهاق مزراقه، وركب على ما بقي منه، ولحق به.¹ وقد استطاع الحلوي الشوزي - من خلال تلاميذه - أن ينشر فكره؛ بحيث أضحت منهجه في الحياة؛ طريقة صوفية؛ اتبعها جملة من تلاميذه؛ وأولهم أبو إسحاق إبراهيم بن دهاق الأوسي؛ الشهير بابن المرأة (الذي توفي سنة 611هـ/1314م)، وأبي عبد الله بن محمد بن علي بن أحلى اللورقي؛ كما أن عبد الحق بن سبعين (المتوفي سنة 669هـ/1270م)؛ قد التحق بالطريقة الشوزية التي جاهر بها ابن دهاق. وقال المحققون؛ أن الطريقة الشوزية؛ عبارة عن امتداد لفكر ابن مسرة؛ القائل أصحابها بوحدة الوجود.

¹ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 128.

وإدراج ترجمة الحوي هنا؛ لا علاقة لها بمذهبه
الصوفي؛ وإنما أخذ بالإعتبار؛ كونه من الأبناء
والشعراء. ومن شعره هذه الأبيات:

إِذَا نَطَقَ الْوُجُودُ أَصَاخَ قَوْمٍ
بِأَذَانٍ إِلَى نَطَقِ الْوُجُودِ
وَذَاكَ النُّطْقُ لَيْسَ بِهِ انْعِجَامٌ
وَلَكِنْ نَقٌّ عَنْ فَهْمِ الْبَلِيدِ
فَكُنْ فَطِنًا تَنَادَى مِنْ قَرِيبٍ
وَلَا تَكُ مَنْ يُنَادَى مِنْ بَعِيدِ

عبد الرحمن بن يخلفتن

ابن احمد البجنشي الفازاري،

(ابوريد)¹

وهو من مواليد مدينة قرطبة؛ ثم هاجر إلى تلمسان أين استقر بها. ويعتبر من علماء الحديث المتمكنين بمسائله؛ وله مشاركة في أصول الفقه؛ إلى جانب سعة اطلاع بعلم الكلام؛ كما يتسم بالكفاءة العالية في ميدان الأدب، وله شعر بديع. وكان له التفوق في شعر التصوف والزهد. قام بالتجوال والسياحة عبر البلدان الأندلسية والمغربية. ذكره ابن الأبار في التكملة لكتاب الصلاة؛ فقال: أنه ولد ونشأ بقرطبة؛ ثم سكن تلمسان. ثم أشار إلى أساتذته؛ وهم: أبو الوليد بن بقّي، والسهيلي، وأبو عبد الله ابن الفخار، وأبو عبد الله التجيبي وغيرهم. أما وفاته فوُجعت بمراكش سنة 627هـ/1229م.

¹ له ترجمة في التكملة لكتاب الصلاة، والإحاطة في أخبار غرناطة، ونفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، والمقتضب من كتاب تحفة القادم، وبغية الوعاة، واختصار الفتوح المعلى؛ أين حرف على أنه ((الفازاري))؛ بالراء المهملة. ونيل الابتهاج، والأعلام.

وذكره المقرئ أيضاً؛ فقال: أنه الأخ الأصغر
لمحمد بن يخلفتن الفازاري؛ ستأتي ترجمته. ثم
أضاف. ((وهو؛ كما قال فيه بعضهم: صاحب القلم
الأعلى، والقدر المعلى، أبرع من ألف وصنف،
وأبدع من قرط وشنف؛ فقد طاع القلم لبناته،
والنظم والنثر لبينته؛ كان نسيج وحده رواية
وأخباراً؛ وصدر عصره إيراداً وإصداراً؛ صاحب
فهوم، ورافه ألوية علوم؛ أما الأدب فلا يسبق فيه
مضماره، ولا يشق غباره؛ إن شاء إنشاء أنشى
ووشى؛ سائل الطبع، عذب النبع؛ له في مدح النبي
صلى الله عليه وسلم بدائع قد خضع لها البيان
وسلم؛ أعجاز بتلك المعجزات نظماً ونثراً، وأوجز في
تحرير تلك الآيات البينات فجلا سحراً؛ ورفع
للقوافي راية استظهار؛ فعجم، وعشر، وشفع،
وأوتر. وأما الأصول فهي من فروعها في متفق
منظومه ومنثور مجموعته؛ وأما النسب؛ فإلى حفظه
انتسب، وأما الأيام والدول؛ ففي تاريخه الأواخر
والأول؛ وقد سبك من هذه العلوم في منثوره
وموزونه؛ ما يشهد بإضافتها إلى فنونه؛ وله سماع
في الحديث ورواية، وفهم بقوانينه ودراية؛ سمع من

أبي الوليد يزيد بن عبد الرحمن بن بقي القاضي،
ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي؛
وهو آخر من حدث عنه، ومن أبي عبد الله
التجيبى كثيراً؛ وهو أول من سمع عنه في حياة
الحافظ أبي الطاهر السلفي؛ إذ قدم عليهم تلمسان؛
وأجازه الحافظ السهيلي، وابن خلف الحافظ،
وغيرهما. وولد بعد الخمسين والخمسة، وتوفي
بمراكش سنة 627هـ رحمه الله¹.

وخصص له لسان الدين بن الخطيب ترجمة
في كتاب الإحاطة؛ فقال عنه: ((كان حافظاً نظاراً
ذكياً ذا حظ وافر من معرفة أصول الفقه وعلم
الكلام، وغاية بشأن الرواية، متبذلاً في هيئته
ولباسه، قلما يرى راكباً في حضر إلا لضرورة،
فاضلاً، سنياً، شديد الإنكار والإنحاء على أهل
البدع، مبالغاً في التحذير منهم، عامر الإتياء، يطلب
العلم شغفاً به، وانطباعاً إليه، وحباً فيه، وحرصاً
عليه، آية من آيات الله في سرعة البديهة،
وارتجال النظم والنثر وفور ماده، وموالاته استعمال،
لا يكاد يقيد، ولا يصرفه عنه، إلا نسخ أو مطالعة

¹ نفح الطيب، ج: 4، ص ص: 468 - 469.

علم، أو مذاكرة فيه، حتى صار له ملكة، لا يتكلف معها الإنشاء، مع الإجادة، وتمكن البراعة. وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأمراء، ملتزماً بذلك، كارهاً له، حريصاً على الانقطاع عنه، واختص بالسيد أبي إسحاق بن المنصور، وبأخيه أبي العلاء، وبملازمتهما¹.

وصف ابن الخطيب مؤلفات عبد الرحمن الفازاني؛ فقال: ((له: "المعشرات الزهدية"؛ التي ترجمها بقوله: المعشرات الزهدية والمذكرات الحقيقية الجديدة، ناطقة بالأسنة الوجالين المشفقين، شايقة إلى مناهج السالكين المستبقرين. نظمها متبركاً بعبادتهم متيمناً بأغراضهم وإشاراتهم، قابضاً عنان الدعوى عن مدائنتهم ومجاراتهم، مهتدياً إهداء السنن الخمس، بالأشعة الواضحة من إشاراتهم، مخلداً دون أفقهم العالي، إلى حضيضه، جامعاً لحسن أقواله، وقبح أفعاله، بين الشيء ونقضيه... وله المعشرات الحبية، وترجمتها النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على أسنة الذاهبين وجداً، الذاييين كمدأً وجهداً، الذين غربوا، وبقيت أنوارهم، واحتجبوا

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 4، ص ص: 513 - 514.

وظهرت آثارهم، ونطقوا وصمتت أخبارهم، ووفوا
العبودية حقها، ومحضوا المحبة مستحقها، نظم من
نسج على منوالهم، ولم يشاركهم إلا في أقوالهم
فلان. والقصاريد، في مدح النبي صلى الله عليه
وسلم، التي كل قصيدة منها عشرون بيتاً،
وترجمتها الوسائل المتقبلة، والآثار المسلمة المقبلة،
مودعة في العشرنية النبوية، والحقايق اللفظية
والمعنوية، نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال،
وأعدها لما يستقبله من مدهش الأحوال، وفرع
خاطره لها، على توالي القواطع، وتتابع الأشغال،
ورجال بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة،
محو ما لسلفه من خطأ في الفعل، وزلل في
المقال، والله سبحانه ولي القبول للتوبة، والمنان
بتسوية هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب
قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته¹.

¹ الإحاطة، قسم: 4، ص ص: 515 - 516.

شعره¹

— قصيدة: إذا أملت في مولاك قُرباً:
إذا أملت من مولاك قُرباً
فَجَدَّدَ ذِكْرَ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
وَصَلَّ عَلَيْهِ أَوَّلَ كُلِّ قَوْلٍ
وَأَخَّرَهُ بِصُبْحِ وَالْمَسَاءِ
فَإِنَّ مُحَمَّداً أَعْلَى الْبَرَائِيَا
مَحَلّاً فِي السِّيَادَةِ وَالْعِلَاءِ
لُؤَاءُ الْحَمْدِ فِي يُمْنَى يَدَيْهِ
وَكُلُّ النَّاسِ مِنْ نُونِ اللَّوَاءِ
فَحَدَّثَ عَنْ دَلَالَتِهِ فِيهَا
شِفَاءً لِلنُّهَى مِنْ كُلِّ دَاءٍ
وَلَسْتُ بِنَاقِلٍ لِلْعَشْرِ مِنْهَا
وَهَلْ تَفْنَى الزُّوَاجِرُ بِالْذَّلَالِ
فَقُلْ لِلْسَّامِعِينَ قُفُّوا فَهَذَا
مُحَالٌ لَيْسَ يُحْصَرُ بِانْتِهَاءِ

¹ توجد هذه الأشعاره في الإحاطة؛ قسم: 4، ص ص: 517 - 523. ونفح الطيب، ج: 7، ص ص: 507 - 512.

بَرَاهِينُ الْبَسِيطَةِ لَيْسَ تُخْصَى
فَذُوكُمْ بَرَاهِينَ السَّمَاءِ

— قصيدة: أَمَّا يَمِينُ مُحَمَّدٍ:

أَمَّا يَمِينُ مُحَمَّدٍ
وَيَسَارُهُ فَهَمَا سَمَاءُ
كِلْتَاهُمَا إِنْ صَوَّحَ الـ
مَرَعَى لَنَا طَعْمٌ وَمَاءُ
وَإِذَا أَضَرَّ بِنَا السَّقَا
مُ وَغَيْرُهُ فَهَمَا شِفَاءُ
فَاعْجَبْ لِكَفِّ فِي الْوَرَى
فِيهَا عَنِ الْمُزْنِ اكْتِفَاءُ
فَاقْطَعْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا
فِي الْخَلْقِ لَيْسَ لَهُ كَفَاءُ
فَإِذَا أَصْخَتْ لَآيَةٌ
فَالنُّورُ فِيهَا وَالضِّيَاءُ
هَذَا الصَّبَّاحُ الْهَاشِمِ
يُ بَدَا فَلَيْسَ بِهِ خَفَاءُ
فَالْأَرْضُ قَدْ فُتِحَتْ بِمَبِّ
عَنْهُ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ

سَبَقَ الْقَضَاءُ بِسَبْقِهِ
وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

— قصيدة: عَجَبًا لِمَنْ تَرَكَ الْحَقِيقَةَ جَانِبًا:

عَجَبًا لِمَنْ تَرَكَ الْحَقِيقَةَ جَانِبًا
وَعَدًا لَأَرْتَابِ الصَّوَابِ مُجَانِبًا
وَابْتِغَاءَ بِالْحَقِّ الْمُصَحِّحِ حَاضِرًا
مَا شَاءَ لِلزُّورِ الْمُعَلَّلِ عَائِبًا
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ صَارَ أَنْفَذَ أَسْهُمَا
وَأَشَدَّ عَادِيَةً وَأَمْضَى قَاضِيًا
لَا تَخْذَعُكَ سَوَابِقُ مَنْ سَابِقُ
حَتَّى تَرَى الْإِحْضَارَ مِنْهُ عَوَاقِبًا
فَلَرَبَّمَا اشْتَدَّ الْخِيَالُ وَعَاقَهُ
ثُونُ الصَّوَابِ هَوًى وَأَصْبَحَ غَالِبًا
وَلَكُمْ إِمَامٌ قَدْ أَضَرَّ بِفَهْمِهِ
كُتِبَ تَعَبٌ مِنَ الضَّلَالِ كَتَائِبًا
فَانْحَرْفِ بِأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطَا
طَالَيْسَ وَدُونَهُمَا تَسْلُكُ طَرِيقًا لَاحِيًا¹

¹ أي: تسلك طريقاً واضحاً. وهذا البيت مختل الوزن.

وَدَعَ الْفَلَاسِفَةَ الذَّمِيمَ جَمِيعَهُمْ
وَمَقَالَهُمْ تَأْتِي الْأَحَقُّ الْوَاجِبَا
يَا طَالِبَ الْبُرْهَانِ فِي أَوْضَاعِهِمْ
أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنْ تُعَمِّرَ جَانِبَا
أَعَرَضْتَ عَنْ شَطِّ النَّجَاةِ مُلْجَبَا
فِي بَحْرِ هَلْكَ لَيْسَ يُنْجِي عَاطِبَا
وَصَفَا الدَّلِيلُ فَمَا نَفَعَتْ بِصَفْوِهِ
حَتَّى جَعَلْتَ لَهُ الْخَبَرَ شَايِبَا
فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ هَلْ تَرَى مُتَقَلِّسِفَا
فِي مَنْ تَرَى إِلَّا دَعِيَا كَاذِبَا
أَعْيَتْهُ أَعْبَاءُ الشَّرِيعَةِ شِدَّةَ
فَارْتَدَّ مَسْلُوبَا وَيَحْسَبُ سَالِبَا
وَاللَّهِ أَسْأَلُ عِوَضَمَةً وَكَفَايَةً
مَنْ أَنْ أَكُونَ عَنِ الْمَحَجَّةِ نَاكِبَا

— أما قصيدة "إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ"؛ فقد نسبها بعضهم إلى أبي مدين شعيب؛ بينما جعلها ابن الخطيب ضمن قصائد عبد الرحمن الفازاري وسيكتفى هنا بمطلعها؛ وسجدها القارئ كاملة فيما سبق؛ ضمن شعر أبي مدين:

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ فِي كُلِّ شِدَّةٍ
وَمِنْكَ وَجَدْتُ اللَّطْفَ فِي كُلِّ نَائِبٍ
وَأَنْتَ مَلَاذٌ¹ وَالْأَنَامُ بِمَعْزَلٍ
وَهَلْ مُسْتَحِيلٌ فِي الرَّجَاءِ كَرُّ آيِبٍ²
فَحَقِّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا رَبِّ وَاكْفِنِي
شَمَاتَ عَدُوٍّ أَوْ إِسَاءَةَ صَاحِبٍ
وَمَنْ أَيْنَ أَخْشَى مِنْ عَدُوِّ إِسَاءَةٍ³
وَسَيَّرَكَ طَافٍ⁴ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
إِلَخ

¹ في نص: ((وأنت ملاذي)).

² في نص: ((كواجب)).

³ في نص: ((إصابة)).

⁴ في الإحاطة: ((ضافي)).

— قصيدة: نَعْمُ الْإِلَٰهَ بِشُكْرِهِ تَتَقَيَّدُ¹:

نَعْمُ الْإِلَٰهَ بِشُكْرِهِ تَتَقَيَّدُ
فَاللَّهُ يُشْكِرُ فِي النُّوَالِ وَيُحْمَدُ
مُنَّتْ إِلَيْهِ أَكْفَانَا مُحْتَاجَةً
فَأَنَالَهَا مِنْ جُودِهِ مَا نَعْهَدُ
وَأَغَانَنَا بِغَمَائِمٍ وَكَافَةٍ
بِالْبُشْرِ تَشْرُقُ وَالْبَشَائِرِ تَرَعْدُ
حَمَلَتْ إِلَى ظَمَأِ الْبَسِيطَةِ رِيَّةً
فَلَهَا عَلَيْهِ مِنَّةٌ لَا تُجْحَدُ
فَالجَوُّ بَرَّاقٌ وَالشُّعَاعُ مُفَضِّضٌ
وَالْمَاءُ فَيَاضٌ الْأَثِيرُ مُعْسَجَدُ
وَالْأَرْضُ فِي حُلِيِّ الْأَتَى كَأَنَّمَا
نُطَفُ الْغَمَامِ وَلَوْلُوٌّ وَزَبَرَجَدُ
وَالرَّوْضُ مَطْلُولُ الْخَمَائِلِ بِأَسْمٍ
الْقُضْبُ لِيْنُهُ الْحَمَائِلُ مَدُّ

¹ قال شاكراً الله سبحانه وتعالى، بعد غيث هطل؛ فأزال القحط:

تَاهَتْ¹ عُقُولُ النَّاسِ فِي حَرَكَاتِهَا
الشُّكْرِهَا أَمْ سُكْرِهَا تَتَأَوَّدُ²
فَيَقُولُ أَرْبَابُ الْبَطَالَةِ تَنْتَنِي
وَيَقُولُ أَرْبَابُ الْحَقِيقَةِ تَسْجُدُ³
وَإِذَا اهْتَدَيْتَ إِلَى الصَّوَابِ فَإِنَّهَا
فِي شُكْرِ خَالِقِهَا تَقُومُ وَتَقَعْدُ
هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الَّذِي لَا يَنْقُضِي
هَذَا هُوَ الْجُودُ الَّذِي لَا يَنْفَدُ
أَحْضِرْ فَوَادِكَ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِهِ
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ قَدْرَ مَا تَنْقَلَدُ
وَأَنْفُضْ يَدَيَّكَ مِنَ الْعِبَادِ فَكُلُّهُمْ
عَجْزُ الْحَلِّ وَأَنْتَ جَهْلًا تَعْقُدُ
وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى سِوَاهُ فَإِنَّمَا إِلَهُ
ذِي بِخَاطِرِكَ الْمَجَالُ الْأَبْعَدُ

¹ في الديوان: ((تَاهَتْ)).
² هذا البيت، والبيت الذي يليه مباشرة؛ انتحلها أبو العباس بن مكنون.
وتصدى لذلك ابن رَشِيد؛ مُكَدِّبًا إِيَّاهُ؛ وقال؛ أَنَّهُمَا مِنْ نَظْمِ أَبِي زَيْدِ
الْفَازَزِيِّ؛ وَهُمَا فِي دِيْوَانِهِ. أَنْظَرِ نَفْحَ الطَّيِّبِ، ج: 4، ص: 122.
³ ثمة بيت سقط من هذه القصيدة؛ يقول المقرئ (نفع الطيب، ج: 4،
ص: 122): أَنَّ ابْنَ الْخَطِيبِ اثْبَتَهُ فِي كِتَابِ رَوْضَةِ التَّعْرِيفِ؛ وَهُوَ:
وَإِذَا أُرِدْتَ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا فَقُلْ فِي شُكْرِ خَالِقِهَا تَقُومُ وَتَقَعْدُ

نِعْمَ الْإِلَهُ كَمَا تُشَاهِدُ حُجَّةً
وَالْغَائِبَاتُ أَجَلٌ مِمَّا يُشْهَدُ
فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِهِ الَّتِي
لَا يُمْتَرَى فِيهَا وَلَا يُتَرَدَّدُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالِدَّيْلُ مُبْلَغُ
مَنْ أَيُّ وَجْهِ يَسْتَرْيِبُ الْمُحْدُ
مَنْ ذَا الَّذِي يَرْتَابُ أَنَّ إِلَهَهُ
أَحَدٌ وَالسَّيْنَةُ الْجَمَادُ تَوْحَّدُ
كُلُّ يُصْرِّحُ حَالَهُ وَمَقَالَهُ
أَنْ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ يُعْبَدُ

— قصيدة: تَأْدَبَ إِذَا ذَكَرَ الْمُصْطَفَى:

تَأْدَبَ إِذَا ذَكَرَ الْمُصْطَفَى
بَصَمَتِ اللِّسَانَ وَغَضُّ الْبَصَرِ
فَإِنَّ التَّأْدَبَ عِنْدَ السَّمَاعِ
يُفْهَمُ فِي النُّطْقِ أَوْ فِي النَّظَرِ
وَرَدَّدَ أَحَادِيثَهَا إِنَّهَا
لَكَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ خَيْرِ الْبَشَرِ
وَصَلَّ عَلَيْهِ مَدَى ذِكْرِهِ
فَذَلِكَ أَفْضَلُ مَا يُدْخَرُ

وَلَا تَسْتَرْبِ فِي بَرَاهِينِهِ
فَتَسْلُكَ مَسْلَكَ قَوْمٍ آخَرَ
فَكَمْ آيَةٌ ظَهَرَتْ لِلنَّبِيِّ
وَكَمْ أَثَرٌ عِنْدَهُ قَدْ ظَهَرَ
وَمَنْ شَكَّ فِي نُورِ بُرْهَانِهِ
عَلَى أَنْ بُرْهَانَهُ قَدْ بَهَرَ
فَكَبِّرْ عَلَى عَقْلِهِ أَرْبَعًا
وَقُلْ فَوْقَ طُورِكَ هَذَا الْخَبَرُ

— قصيدة: اصْنَحْ فَلِخَيْرِ الْعَالَمِينَ مَنَاقِبُ:

اصْنَحْ فَلِخَيْرِ الْعَالَمِينَ مَنَاقِبُ
تَذُلُّ عَلَى التَّمَكِينِ وَالشَّرَفِ الْأَسْرَى
أَتَى وَالْوَرَى أَسْرَى فَكَانَ غِيَاثُهُمْ
بِنُورِ سَمَاءٍ يَنْقُلُوهُ عَنِ الْإِسْرَا
وَعَفَى رُسُومَ الْكَافِرِينَ وَأَهْلَهَا
فَلَا يَنْصُرُ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَلَا كَيْسَرَى
تَقْدَمُ كُلُّ الْعَالَمِينَ إِلَى مَدَى
تَظِلُّ بِهِ الْأَوْهَامَ ظَالِمَةَ حَسْرَى
وُخْصَ بِتَشْرِيفٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَمَنْ لَمْ يَقُلْ هَذَا تَقُولُهُ قَسْرَا

تَرْقَى إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ تَرْقِيًا
 حَقِيقًا وَلَمْ يَغْبِرْ سَفِينًا وَلَا جِسْرًا
 وَبِالْجِسْمِ أَسْرَى اللَّهُ وَهُوَ دِلَالَةٌ
 يُمَحِّلُهَا مَنْ لَا يُبْسِرُ لِلْإِنْسَرَى
 فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بِعَبْدِهِ¹
 وَبُورِكَ فِي السَّارِي وَبُورِكَ فِي الْمَسْرَى
 وَكَمْ عَجَبٌ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ بِهِ
 فَذُنُوكَ تَجْمِيلًا وَلَا تَطْلُبِ الْفَسْرَا

— قصيدة: قَبَّحَ إِلَهُ الْمُلْحِدِينَ:

قَبَّحَ إِلَهُ الْمُلْحِدِينَ
 فَإِنَّهُمْ جَحَدُوا الضَّرُورَةَ
 وَالْمُعْجَزَاتُ تَوَاتَرَتْ
 عَنْ أَحْمَدٍ فِي كُلِّ صُورَةٍ
 وَاللَّهُ أَعْلَى كَعْبَةٍ
 فِي خَلْقِهِ وَأَمَّ نُورَةٍ

¹ إحالته إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. سورة الإسراء، الآية: 1.

كَثُرَ الطَّعَامُ مَعَ الشَّرِّ
 بِ بِكَفِّهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ
 وَتَكَفَّفَهُ عِنَايَةً
 مِنْ رَبِّهِ أَغْلَتْ أُمُورُهُ
 نَادَى الْبَرِيَّةَ فَالْقُلُوبُ
 بُ إِلَى إِجَابَتِهِ مَصُورَةٌ
 وَحَمَى الشَّرِيعَةَ بِالْأَدْلَى
 ل فَدَعَّ مُعَانِدَهَا وَزُورَةَ
 قُلْ لِلْمُشْكِكِ حِينَ يُبْ—
 لِي فِي تَشْكُكِهِ قُصُورَةٌ
 بَيَّنِّي وَبَيَّنَّكُمْ الْكِتَابُ
 بُ فَذُونَكُمْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ¹

— وَقَالَ فِي مَنْ ادَّعَى قِرَاءَةَ الْخَطِّ دُونَ نَظَرٍ:
 وَأَدُورَ مَيَّاسِ الْعَوَاطِفِ أَصْبَحَتْ
 مَحَاسِنُهُ فِي النَّاسِ كَالنَّوْعِ فِي الْجِنْسِ

¹ إحالة إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِيْ ذَنْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ حَادِقِينَ﴾. سورة البقرة، الآية: 23.

يُدَبِّرُ عَلَى الْقِرطَاسِ أَنْمُلَ كَفِّهِ
فَيَذَرُكَ أَخْفَى الْخَطِّ فِي أَيْسَرِ اللَّمَسِ
فَقَالَ فَرِيقٌ سِحْرُ بَابِلَ عِنْدَهُ
وَقَالَ فَرِيقٌ لَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِنْسِ
فَقَالَتْ لَهُمْ لَمْ تَفْهَمُوا سِرَّ دَرْكِهِ
عَلَى أَنَّهُ لِلْعَقْلِ أَجْلَى مِنَ الشَّمْسِ
سَتَكْفِيهِ حُبُّ الْقُلُوبِ فَأَصْبَحَتْ
مَذَارِكُهَا أَجْقَانِ أَنْمُلِهِ الْخَمْسُ

— مقطوعة: يَا ذَا الْمَعْنَى بِهِذَا الذِّكْرِ تَسْمَعُهُ:

يَا ذَا الْمَعْنَى بِهِذَا الذِّكْرِ تَسْمَعُهُ
فِي الْمَدْحِ تَأَثُّرُهُ فِي سَيِّدِ النَّاسِ
هَذَا النَّبِيُّ وَمِنْ آيَاتِ ثَوَرَتِهِ
فِي الطَّيِّبِ وَالطُّولِ لَا تَجْرِي بِمِقْيَاسِ
قَدْ أَنْقَضَتْ مُعْجِزَاتُ الْغَيْبِ وَافِيَّةٌ
صَحِيحَةٌ بِاسْتِقَاضَاتِ وَإِحْسَاسِ
وَهَاكَ نَوْعًا مِنَ الْإِعْجَازِ مُنْتَزَهَا
عَنْ نَقْدِ مُنْتَقِدٍ أَوْ صَفْحِ قِرطَاسِ

لَا نَعْدَمُ النَّقْلَ عَنْ أَثَارِ سَيِّدِنَا
فَإِنَّمَا نَحْنُ فِيهَا بَيْنَ أَعْرَاسِ
تَقُلُّ الْأَنْفَ فِي النَّوْرِ يُنْشِقُّهُ
مَنْ يَأْسَمِينِ إِلَى وَرْدٍ إِلَى آسِ
إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا اعْتَلَّتْ خَوَاطِرُهَا
فَذِكْرُ أَحْمَدَ فِيهَا الْمُبْرَىءُ الْأَسِي

— مقطوعة: هَاكَ عَنْ هَذَا النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى:

هَاكَ عَنْ هَذَا النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
خَبَرًا يَقْبَلُهُ مَنْ سَمِعَهُ
سَبَّحَتْ صُغْمُ الْحَصَى فِي كَفِّهِ
ثُمَّ فِي كَفِّ الْهُدَاةِ الْأَرْبَعَةِ
وَإِذَا بُدِيَ نَبِيٌّ عِزَّةً
فَهُوَ لَا يَنْكُرُ فِيمَنْ تَبِعَهُ
أَيُّ نَطْقٍ قَدْ رَوَى إِعْجَازَهُ
عَنْ سَمَاعِ كُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ
حُجَجُ الرُّسُلِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ
أَصْبَحَتْ فِي أَحْمَدٍ مُجْتَمِعَةً
فَاعْتَوِدْ صِيحَّتَهَا وَاعْمَلْ بِهَا
فَدَعَاوَى ضِدَّهَا مُنْقَطِعَةً

مُكِنَاتُ الْعَقْلِ لَا يَجْحَدُهَا
غَيْرُ أَهْلِ الطَّبَعِ وَالْمُبْتَدِعَةِ

— مقطوعة: بَرَكَاتُ رُسُلِ اللَّهِ غَيْرُ خَفِيَّةٍ:

بَرَكَاتُ رُسُلِ اللَّهِ غَيْرُ خَفِيَّةٍ
وَمُحَمَّدٌ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَبْرَكَ
هَذَا النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ هُوَ الَّذِي
هُدِيَ الْأَنَامُ بِهِ وَبَانَ الْمَسْأَلُ
كَمْ آيَةٍ لِمُحَمَّدٍ كَمْ حُجَّةٍ
عَزَّ الْوَلِيُّ بِهَا وَذُلَّ الْمُشْرِكُ
دَعَوَاتُهُ مَسْمُوعَةٌ مَرْفُوعَةٌ
وَالْحَسُّ لَيْسَ يَصِحُّ فِيهِ تَشَكُّكُ
لَا شَيْءٌ أَعْجَبَ مِنْ ذَلِيلٍ وَاضِحٍ
يَحْيَا بِهِ بَعْضٌ وَبَعْضٌ يَهْلِكُ
أَمْسِكْ بِحَبْلِ مُحَمَّدٍ خَيْرَ الْوَرَى
تَظْفَرُ بِقَصْدِكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمْسِكُ
وَإِذَا عَجِبْتَ لِغَايَةٍ فِي رَفْعَةٍ
فَمَحَلُّ أَحْمَدَ غَايَةٍ لَا تُدْرِكُ

— مقطوعة: إِذَا بَهَرَتْ لِلْهَاشِمِيِّ دَلَالَةٌ:

إِذَا بَهَرَتْ لِلْهَاشِمِيِّ دَلَالَةٌ

فَكَمْ حُجَجٌ فِي طَيْبِهَا وَدَلَائِلِ

فَكَمْ مَرَّةً أَتَى الْغِنَى كَفَّ سَائِلِ

وَكَمْ مَرَّةً أُعْطِيَ الْمُنَى فِكْرَ سَائِلِ

لَهُ تَحْتَ أَسْتَارِ الْغُيُوبِ شَهَادَةٌ

مُعَدَّلَةٌ لَمْ تَبْقَ قَوْلًا لِقَائِلِ

يَحْدُثُ عَمَّا كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ

فَقِسْ آخِرًا مِنْ صِدْقِهِ بِالْأَوَائِلِ

إِذَا الصَّدَقُ لَمْ يُغْزِزْكَ فِي غَدَوَاتِهِ

فَلَا شَكَّ فِي تَصْنِيقِهِ بِالْأَصَائِلِ

وَحَسْبُكَ فِي الْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ

سَتَسْمَعُهَا بِالنَّقْلِ مِنْ قَوْلِ قَائِلِ

— قصيدة: أَيُّ نُورٍ كَشَفَ اللَّهُ بِهِ:

أَيُّ نُورٍ كَشَفَ اللَّهُ بِهِ

سُدُّفَ الْبَاطِلِ عَنَّا أَجْمَعِينَ

خَتَمَ اللَّهُ بِهِ أَنْوَارَهُ

عِنْدَمَا أَكْمَلَ سِنَّ الْأَرْبَعِينَ

وَأَتَانَا بِذِلِيلٍ بَيِّنٍ
عَجَزَتْ عَنْهُ دُضْوَاعِي الْمُدَّعِينَ
فَهُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً مُرْتَشِداً
وَهُوَ بِاللَّهِ تَعَالَى مُسْتَعِينٌ
تَرَكْتَ دَعْوَتَهُ وَهُوَ الرُّضَى
سَائِرِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا مُهْطِعِينَ
فَاعِذْ أَنْبَاءَهُ فَهُوَ مُنَى
أَنْفُسِ الْقَاتِلِ وَالْمُسْتَمْعِينَ
وَالَّذِي يُهْدِي إِلَى شِرْعَتِهِ
فَهُوَ مَجَاجٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمَعِينِ
وَالَّذِي يَرْغَبُ عَنْ سُنَّتِهِ
فَهُوَ مِنْ شِيعَةِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ

— قصيدة: اَعْمَلْ بِأَثَارِ النَّبِيِّ:

اَعْمَلْ بِأَثَارِ النَّبِ
يَ فَإِنَّهَا النُّورُ الْمُبِينُ
وَأَقْبِلْ نَصِيحَتَهَا فَفِي
هََا الْعِزُّ وَالشَّرَفُ الْمَكِينُ
وَأَشْدُدْ يَمِينَكَ بِالشَّرِّ—
عَةِ إِنَّهَا السَّبَبُ الْمَتِينُ

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدُ
 وَالْحَقُّ يَصْحَبُهُ الْيَقِينُ
 ذُو قُوَّةٍ عِنْدَ الْإِلَـ
 هِ مُقَرَّبٌ مِنْهُ مَكِينُ
 زَانَ النَّبِيِّونَ الْوَرَى
 وَمُحَمَّدٌ لَهُمْ مَزِينُ
 هَادٍ إِلَى طُرُقِ النَّجَا
 وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فِيهَا أَمِينُ
 وَالْهَجْجُ بِمَدْحِ الْهَاشِمِـ
 يُّ فَإِنَّهُ الْحِصْنُ الْحَصِينُ
 وَلَكِنَّ فَعَلَتْ فَلَنْ تَقُو
 تَكَ بَعْدَ ذَا دُنْيَا وَيَمِينُ

— مقطوعة: كَمَلَتْ بِنِعْمَتِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى:

كَمَلَتْ بِنِعْمَتِ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى
 غُرَّرَ الْقَصَائِدِ كُلُّهَا وَحُجُولِهَا
 وَاخْتَصَّ ذُونَ الْأَنْبِيَاءِ بِدَعْوَةٍ
 وَسِعَ الْعِبَادُ عُمُومُهَا وَشَمُولِهَا
 فَاصْتَبَتْ عَلَى الثَّقَلَيْنِ مِنْهُ أَشْيَعَةٌ
 طَلَعَتْ وَمَا عَقَبَ الطُّلُوعَ أَفْوَلُهَا

فَالْإِنْسُ تَعْلَمُ أَنَّه مَقْصُودُهَا
 وَالْجِنُّ تُوَقِّنُ أَنَّه مَأْمُولُهَا
 كَمْ آيَةٍ بِالصِّدْقِ كَانَ ظُهُورُهَا
 كَمْ آيَةٍ بِالسَّبْقِ كَانَ نَزُولُهَا
 وَكَفَاكَ هَذَا الْوَحْيُ فَهُوَ شَهَادَةٌ
 لِمُحَمَّدٍ لَزِمَ الْعِبَادُ قَبُولُهَا
 جَمَعَ إِلَهُ الْمَكْرُمَاتِ لِأُمَّةٍ
 هَذَا النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ رَسُولُهَا

أما وفاة أبي زيد عبد الرحمن الفازاري؛ فكانت
 بمراكش؛ في ذي القعدة من سنة 627هـ/1229م. إثر
 قدومه إليها؛ تلبية لطلب الخليفة الموحي المأمون؛
 الذي كان مستاء منه. وبموته دفن بجانبة الشيوخ
 بجوار أخيه.



علي بن سعد¹
ابن مسعود بن سهل الأنصاري القلي²
(أبو الحسن)³

يُعتبر من أعلام المائة السابعة؛ بحكم أنه درس على أبي الحسن بن قنّون (قنّون)، الذي توفي سنة 557هـ/1161م؛ وأبي عبد الله التجيبي المتوفي سنة 610هـ/1213م. تنقل بين مراكش وإشبيلية. وكان فقيهاً متمكناً، وشيخاً في الإقراء؛ تولى الإقراء بجامع قرطبة مدة. ومما يؤسف له؛ أن ما عرف عنه لا يعدو ما قدم للقراء في هذا المجال. ولعل ما سيأتي من أقلام شابة، صابرة، ومواضبة؛ يوصل إلى البقية من تراث هذا الأديب الشاعر. ومن مؤلفاته: "مختصر لاشراف ابن المنذر وله إمام بالأدب ودراية بنظم الشعر. ومن شعره:

¹ في نسخة: ((سعيد)).

² في نسخة: ((القلي)).

³ له ترجمة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

ورائعة للشيب راع طلوعها
فأنزلتها بالقص في المنزل الأقصى
فنادى لسان الحال مهلا فإنها
بريد لجمع خلفها جاء لا يحصى



علي بن عمر

ابن عبد المؤمن الكومي (أبو الحسن)¹

هو أمير وشاعر أيضاً. كان معاصراً للأمير السيد أبي الربيع؛ وهو - كذلك - حفيداً لخليفة الموحدين؛ عبد المؤمن بن علي. ولي - هو الآخر - بجاية؛ ولكنه عزل عنها؛ بسبب ما اتهم به من إهمال، وغفلة، وميله إلى الملاذ والشهوات، ومجالس الطرب. فنقل إلى ولايات أخرى؛ منها تلمسان. وكان السيد أبو الحسن هذا أديباً، وشاعراً. قال فيه ابن سعيد صاحب كتاب الغصون الياضعة: ((السيد أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن؛ وقفت على ترجمته في معجم الشَّقْنَدِي، ومعجم والدي، ورحلة ابن حَمَّوِيهِ الدَّمَشْقِي. وتلخيص أمره؛ أنه كان من أجل بيته قدراً، وأطيبهم ذكراً، وأسفحهم يداً، وأمنعهم سندا. وكان مؤلفاً للشعر والأدباء))².

¹ له ترجمة في نفح الطيب، والقبائل الأمازيغية.

² الغصون الياضعة: ص: 150.

ولما ولي إمارة بجاية؛ طال بقاؤه بها؛ إلى أن حصل خلاف بينه وبين قاضيهَا أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن بن عثمان التميمي الخطيب؛ فخلع القاضي جراء تلك الخصومة؛ الأمر الذي شحنه ضد الأمير؛ فنهض إلى مراكش؛ شاكياً ومظلاً.

ويقول ابن سعيد: ((فجمع القاضي جميع ماله - اثني عشر ألف دينار - فأخذه معه وطلع إلى مراكش؛ فنزل في جوار ابن مثنى؛ فأراه أنه لم يقصد سواه؛ وهو حينئذ يجر الدنيا جراً. فقال له فيما جئت؟ أطلب أن ترجع إلى ولايتك؟ قل: لا؛ ولكن جئت في أن أعزل الذي عزلني، وأغلب من غلبني. قل: وبأي شيء تفعل ذلك؟ قل: بك، وبإثني عشر ألف دينار جئت بها معي. قال: الآن حصص الحق. فسمى ابن مثنى في عزل السيد واستعان بالمال في الحاشية؛ إلى أن كتب للسيد بالعزل)). ولما وصل إلى السيد أبي الحسن كتاب عزله عن بجاية؛ قال شعراً:

لَا تَحْقِرَنَّ حَقِيرًا وَتَهْمِلَنَّ غَمُوضَةً¹

¹ غموضة: خامل نليل.

فَرُبَّ سَيِّدٍ قَوْمٍ أَوْدَى بِسَعْيِ بَعُوضَةٍ
إِنِّي خَمَرٌ وَلَكِنْ قَدْ أَعْقَبَتْهَا حُمُوضَةٌ

ولم تدم فترة عزله طويلاً؛ لأن الخليفة الناصر
ولاه من جديد على تلمسان. وهي - كما هو
معروف - لا تقل من حيث الأهمية عن بجاية.
وقد بذل أبو الحسن جهداً معتبراً في نشر العمران
بتلمسان، وبناء الدور، وغرس البساتين، وريّ
الزروع. وكان لهذا الأمير ولوع بالبناء وشئون
الرّي. وقد ترك بصماته في هذا المجال أينما حلّ.
لذلك اختاره الخليفة المنصور - بعد رجوعه من
بجاية - لتدبير مباتيه في مراكش؛ أثناء سفره.

وذكر ابن سعيد بعض مزايا أبي الحسن؛ فقال:
(ومما يعدّ من محسنه؛ حمايته لأصحابه، وخدامه،
ومن انقطع إليه. وكان لا يسمع فيهم قول ساع؛
ويقول: "إنّ الواحد منهم يخدمنا في الرخاء، ويصحبنا
في الشدة؛ حين لا نرى أحداً، ولا نجده لأمر يعنّ
لنا؛ فإذا عاد الله بالخير، وأسهمناهم فيه؛ حُصِنُوا،
ويُسْعَى بِهِمْ))¹.

¹ الفصون اليناعة: ص: 152.

كما اشتهر أبو الحسن بالكرم والحلم. وقد أشار ابن سعيد إلى عفوّه عن شاعر بجاية أبي طاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني لمّا هجاه. وقد اعترف قاضي بجاية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النهري الشهير بالأصولي؛ بسخاء أبي الحسن؛ وقدّر ما وصله منه - أيام خدمته معه - بأربعين ألفاً.

كتب يوماً إلى الخليفة يعقوب المنصور يمدحه، ويطلب عونه؛ لتسديد ديونه؛ فقال:

وَجُوءُ الْأَمَانِي بِكُمْ مُسْقِرَةٌ
وَضَاحِكَةٌ لِي مُسْتَبْشِرَةٌ
وَلِي أَمَلٌ فِيكُمْ صَادِقٌ
قَرِيبٌ عَسَى اللَّهُ قَدْ يَسَّرَهُ
عَلَيَّ دُيُونٌ وَتَصَحِّفُهَا
وَعِنْدَكُمْ الْجُودُ وَالْمَغْفِرَةُ

ونقل صاحب نفح الطيب² عن السرخسي:
(كان هذا السيد أبو الحسن قد ولي مملكة تلمسان، وبجاية؛ وله حكايات في الجود برمكية،

² نفح الطيب، ج: 3، ص: 109. أنظر أيضاً الفصول اليانعة، ص: 154.

ونفس عالية زكية؛ كتب إليه السيد أبو الربيع يوماً:

الْيَوْمُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمُ سُرُورٍ وَدَعَةٍ
وَشَمْلُنَا مُفْتَرَقٌ فَهَلْ تَرَى أَنْ نَجْمَعَهُ

فأجابه بقوله:

الْيَوْمُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَرَبُّنَا قَدْ رَفَعَهُ
وَالشَّرْبُ فِيهِ بَذَعَةٌ فَهَلْ تَرَى أَنْ نَدَعَهُ

— ومما قاله أيضاً في فتى أرسله لقضاء بعض الحاجات؛ ولكنه فشل في مهمته:

أَنْعَمَ اللَّهُ صَبَاحاً لِلَّذِي عَادَ إِلَيْنَا
وَأَقَرَّ اللَّهُ فِيهِ لِلَّذِي يَهْوَاهُ عَيْنَا
لَا رَأَيْنَا بَيْنَنَا يَا مَجْمَعَ الْأَمَالِ بَيْنَنَا

وأشار ابن سعيد إلى نهاية السيد أبي الحسن علي بن عمر بقوله: ((ثم ولده الناصر بعد ذلك تلمسان؛ وبنى بها المباني المشهورة. ثم اشتد مرضه؛ فاستغفر؛ ورغب في أن يصل إلى الحضرة؛ فأسعف. فوصل إليها؛ ونزل بها داره المشهورة

بعظم النباهة، وعلو الهمم في التدبير؛ إلى أن مات
هناك في سنة خمس وستمائة¹.

¹ الغصون اليناعة، ص: 151.

عيسى بن يوسف

ابن أبي بكر الصنهاجي المعروف بابن تاممجلت،

(أبو موسى)¹

كاتب وأديب وشاعر وراويّة. تولى خطة الكتابة لدى الأمير أبي زيد بن يوثان الهنتاتي، وابنه محمد بن يوثان؛ ثم انتقل إلى الأندلس؛ أين تولى الكتابة لدى السلطان النصري محمد بن يوسف بن نصر². ولكنه عاد إلى مراكش؛ أين كانت وفاته ومدفنه في عام 641هـ/1244م. من أساتذته: أبو عبد الله التجيبي، وأبو عبد الله بن عبد الحق. قال عنه يحيى بن خلدون: ((كان ذا حظ نبيه في: الرواية، والأدب، والكتابة، وقرض

¹ له ترجمة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.
² هو أول ملوك بني الأحمر؛ ومؤسس دولتهم. واسمه بالكامل: الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري. انتصب ملكاً على مدينة غرناطة في رمضان من عام 635هـ/1237م؛ ووافته المنية في سنة 671هـ/1272م. لم يشر ابن الخطيب إلى أبي موسى عيسى بن يوسف بن تاممجلت؛ عندما سرد أسماء كتاب هذا السلطان في كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية، ولا في الإحاطة في أخبار غرناطة. وربما يكون قد اهتم بمشاهير الكتاب منهم.

الشعر؛ جيد الخط ضابطاً¹). والأمر المؤسف؛ هو غياب نصوص له: نثراً أم شعراً. وإثباته هنا؛ ربما ساعد على تذكره من قبل الباحثين؛ وحفزهم على النبش في المكتبات ومخازن الكتب في سبيل إيجاد شيء من إنتاج هذا الأديب الشاعر التلمساني المغمور.

¹ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 102.

محمد بن إبراهيم العساني¹

(ابو عبد الله)

ولد بتمسان في تاريخ مجهول؛ وتعلم بها، ثم بسببة وإشبيلية. من شيوخه في تلمسان: أبو عبد الله التجيبي، وابن عبد الحق، وآخرون. أما شيخه في سببة؛ فهو: أبو العباس أحمد العزفي، وفي إشبيلية: أبو بكر بن طلحة، وأبو علي الشلوين. ولكنه اختار في الأخير الاستقرار في آسفي بالمغرب الأقصى. أين تعاطى مهنة التجارة. له اهتمام ومشاركة في علوم شتى؛ مثل: الفقه والحديث واللغة والأدب والتاريخ والأنساب. وله أيضاً حظ وافر في قرض الشعر. ويتصف بمئانة الدين؛ كما اشتهر بالانقباض عن أهل الحكم السلطان.

قال فيه يحيى بن خلدون: ((كان ذا خط حسن، عدلاً في رواية الحديث، ضابطاً للغة، ذاكرة بالأدب والتاريخ، عالماً بالأنساب، مشاركاً في الفقه، ضارباً في قرض الشعر بخط وافر))². ومع هذا لم

¹ له ترجمة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وتعريف الخلف برجال السلف.

² بغية الرواد، ج: 1، ص: 103.

يصل إلينا شيء من إنتاجه الأبي أو الديني. لذا؛
فقد أثبتت ترجمته هنا؛ بغرض التذكير به، وتحفيز
الباحثين على السبر والتقيب عن أعماله النثرية
والشعرية. توفي محمد بن إبراهيم الغساني رحمه
الله في عام 663هـ/1264م.

محمد بن أحمد

ابن محمد اللامي المعروف بلقب أبيه،

ابن الحجام، (ابو عبد الله)¹

أديب وشاعر وواعظ. ولد بتلمسان سنة 558هـ/1162م. اشتهر بالزهد والصلاح؛ وله حظ وافر في فنون الأدب. استدعاه الخليفة الموحي يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاطه بمراكش؛ فقدم إليه؛ أين حظي عنده وعند ابنه الناصر ثم المستنصر بمقام رفيع. له مكانة عالية في الوعظ. وله تأثير عظيم على الناس. قال يحيى بن خلدون أنه توفي بمراكش في يوم الجمعة² في منتصف شعبان من سنة 614هـ/1217م.

قال فيه التادلي: ((كان حسن الوعظ، طيب النغمة، دائم العبرة؛ وكان مجلسه كهفاً للمريدين؛ وأهل الخير يأوون إليه. وكان إذا أشد بحسن صوته بديع الشعر؛ شاق وراق، وأثار كامن الأشواق. إذا نص صحيح الخبر؛ لم يبق ولم يذر.

¹ له ترجمة في: التشوف، وبغية الرواد.

² في التشوف: يوم السبت.

وكان وعظه بجامع القصر في أيام الجمع؛ فتاب على يديه من أراد الله به خيراً، وانتفع به. ومات يوم السبت السادس عشر من شهر شعبان من عام أربعة عشر وستمائة. فطوي بموته بساط التذكير، وأوحشت عرصات التخويف والتحذير¹.

ألف ابن الحجام كتاباً في الوعظ عنوانه بـ: حجة الحافظين ومحبة الواعظين. اختصره فيما بعد أبو زكرياء يحيى بن محمد بن طفيل؛ ضمن سفر واحد عنوانه: مجالس الأذكار وأبكار عرائس الأفكار. هذا ما أمكن الوصول إليه من أخباره؛ وقد أرد صاحب التشوف، ويحيى بن خلدون هذه المقطوعة من شعر صاحب الترجمة؛ قال فيها:

غَرِيبُ الْوَصْفِ نَوْ عِلْمٍ غَرِيبٍ
عَلِيلُ الْقَلْبِ مِنْ حُبِّ الْحَبِيبِ
إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ قَامَ يَنِيكِي
وَيَشْكُو مَا يَكُنُ مِنَ الْوَجِيبِ
يَقْطَعُ لَيْلَهُ فِكْراً وَذِكْراً
وَيَنْطِقُ فِيَّ بِالْعُجْبِ الْعَجِيبِ

¹ التشوف إلى رجال التصوف، ص ص: 439 - 440.

بِهْ مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِ غَرَامٌ
يَجِلُّ عَنِ التَّطَبُّبِ وَالطَّبَّابِ
وَمَنْ يَكُ هَكَذَا عَبْدًا مُحِبًّا
يَطِيبُ تَرَابُهُ مِنْ غَيْرِ طِيبِ

محمد بن عبد الرحيم ابن محمد بن ابي العيش الخزرجي (ابو العيش)

فقيه، أصولي، ضليع في فنون الأدب؛ وشاعر جيد. يعود في أصوله الأولى إلى إشبيلية؛ ثم استوطن تلمسان، وأنجب فيها ذرية نجباء. روى في إشبيلية عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة، وأبي عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي، وأبي عبد الله بن عبد الحق، وأبي محمد بن حوط الله. وصفه يحيى بن خلدون فقال: ((وكان رحمه الله أديباً بارع الكتابة، شاعراً مجيداً، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفاً متقناً، فسر الكتاب العزيز، وشرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتباً في أصول الفقه؛ وله في التصوف نظم حسن كثير؛ في الزهد وسبل الخير والوعظ))¹.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 103.

ومن شعره في الزهد الذي أورده يحيى بن خلون
في بغية الرواد¹:

لله قُلْ وَذِرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى
إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَالِ
فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ
عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنْتَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا
لَوْلَاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحَالِ
فَالْعَارِفُونَ فَنَوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا
شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً
فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
مَنْ لَا وُجُودَ لِدَايَتِهِ مِنْ دَايَتِهِ
فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ
فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرَفِكَ هَلْ تَرَى
شَيْئاً سِوَى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ

¹ وردت هذه القصيدة مبتورة في ديوان أبي مدين شعيب إذ سقط منها
خمسة أبيات في آخرها. وبما أنها وجدت كاملة ضمن ما نُسب إلى أبي
العيش؛ فهذا يرجح ويعزز احتمال نسبتها إلى هذا الأخير. خاصة وأن
كثير المقطوعات الشعرية؛ نسبها مريدوا أبي مدين وبعض الشاذلية إليه؛
دون سند.

وَأَنْظُرْ إِلَى عُلُوِّ الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ
نَظَرًا تُؤَيِّدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
تَجِدِ الْجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ
بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالِ
هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى
سُفْلٍ وَمُبْدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالِ
وَجَبَّ الْوُجُودُ لِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ
فَرَدًّا عَنِ الْأَكْفَاءِ وَالْأَمْثَالِ
فَاسْكُنْ إِلَيْهِ بِهَمَّةٍ عُلْوِيَّةٍ
مُنْتَزِعًا عَمَّا سِوَى الْفَعَالِ
يَبْقَى وَكُلٌّ يَضْمَحِلُّ وَجُودُهُ
مَا وَاجِبٌ كَمُقَيَّدٍ بِزَوَالِ
وَهُوَ الَّذِي يُرْجَى وَيُخْشَى لَا تَلَذُّ
بِسِوَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
فَالشَّرْعُ جَاءَ بِذَا وَأَنْوَارُ الْهُدَى
قَدْ أَيْدَتْهُ فَعِشْ خَلِيَّ الْبَالِ

ومن شعره أيضاً هذه المقطوعة التي يصف فيها
اعتزاله، واختياره الانقطاع إلى خالقه سبحانه وتعالى:

فَنَعَتُ بِمَا رَزَقْتُ فَلَسْتُ أَسْعَى
لِدَارِ أَبِي فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ
وَأَثَرْتُ الْمَقَامَ بِكُسْرِ بَيْتِي
وَلَا أَحَدٌ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي
وَلَا أَلْفِي خَلِيلاً غَيْرَ حَبْرٍ
مُعِينٍ فِي الْمَعَارِفِ أَوْ مُعَانٍ
وَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنَّ الرِّزْقَ آتٍ
وَإِنْ لَمْ أَتِهِ سَعِيّاً أَتَانِي
وَقَدْ حَقَّقْتُهُ فَهَمًّا وَعِلْماً
وَقَدْ شَاهَدْتُهُ رَأْيَ الْعَيَانِ
فَلَا زِمَ ذَا بِإِخْلَاصٍ تَمَكَّنَ
هَنَا وَهَنَّاكَ مِنْ أَسْنَى مَكَانٍ

أما وفاة محمد بن عبد الرحيم أبي العيش فقد
اختلف فيها؛ بينما صمت عنها آخرون.

محمد بن (خميس)¹

ابن محمد بن عمر بن محمد عمر بن محمد
الحجري بن خميس التلمساني،
(ابو عبد الله).

هو أحد فحول الشعراء في المائة السابعة. فقيه ومتصوف؛ عارف بأسرار اللغة العربية وغريبها. يقال أنه اشتغل بالسيمياء والتنجيم. ولي كتابة السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 681هـ/1282م؛ ولكنه فرّ إلى الأندلس لأسباب قال عنها لسان الدين ابن الخطيب: ((كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان؛ ثم فرّ عنهم؛ وقد أوجس منهم خيفة؛ ليعض ما يجري بأبواب الملوك)).²

¹ في نصوص كثيرة: ((محمد بن عمر بن محمد...)). وكتب هنا هكذا؛ اعتباراً لشهرته الواسعة باسم (ابن خميس) وقد جعل - في هذا المجال - من شعراء المائة السابعة؛ لأن معظم وأهم ما أنتجه يدخل في هذا الاعتبار زمنياً. توجد ترجمة محمد بن خميس التلمساني في: الإحاطة في أخبار غرناطة، وبغية الوعاة، وأزهار الرياض، ونفح الطيب. وبغية الرواد، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. وكتاب المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس؛ لعبد الوهاب بن منصور (تلمسان 1965م).

² الإحاطة، قسم: 3، ص ص: 318 - 319.

ويقول ابن الخطيب أنه استقبل في غرناطة بحفاوة عظيمة، وإجلال كبير، وترحيب واضح؛ من قبل ذي الوزارتين الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ابن الحكيم) اللخمي الرندي. ثم أضاف: ((فاهتز الوزير ابن الحكيم لتلقيه، ومث إليه بالوسيلة العلمية، واجتذبه بخطبة التلميذ، واستفزه بتأنيسه وبرّه، وأقعه للإقراء بجواره)). ولما سمع بنيته في الرحلة من جديد، والانطلاق سائحاً في أرض الله؛ شق عليه فراقه؛ فأوصى بعض الوزراء ببداية الإشارة إلى ذلك والتصريح به في مجلسه؛ كي يتدخل ويثنيه عن السفر؛ ولكن ابن خميس أجابه بقوله: ((أنا كالدّم بطبعي، أتحرّك في كل ربيع))¹. ولكن شاعت الأقدار أن يموت قبل سفره.

ومن خلال ما ثبت عن وصول ابن خميس إلى غرناطة سنة 703هـ/1303م² يجعل الفترة التي هرب خلالها من تلمسان؛ تنحصر في بداية عهد أبي زيان محمد بن عثمان بن يغماسن (الذي حكم من سنة 703هـ إلى سنة 707هـ)؛ وبالتحديد؛ أثناء

¹ الإحاطة؛ مج: 2، ص: 529.

² الإحاطة، قسم: 3، ص: 391. وأزهار الرياض، ج: 2، ص: 302.

حصار يوسف بن يعقوب المريني لتلمسان؛ ذلك الحصار الذي انفض سنة 706هـ. وقد قام - بعد خروجه من تلمسان - بزيارة مدينة سبتة؛ وأقام بها بعض الوقت؛ أين مدح رؤساءها من بني العزفي؛ بقصائد تناقلها الناس.

ولم يرد - حتى الآن - ما يشير إلى تاريخ ميلاده؛ أما وفاته فوُجعت بغرناطة؛ إذ قتل في الفتنة التي حدثت ببلاط الدولة النصرية في عيد الفطر من سنة 708هـ/1308م. قتل - عن عمر يناهز الستين سنة - مع صديقه ذي الوزارتين الأديب الشاعر أبي عبد الله محمد بن الحكيم. أما قاتله فهو الرئيس علي بن نصر المعروف بالأبكم؛ قتله بسبب حقه على صديقه ذي الوزارتين. وقد ورد في المصادر أن ابن خميس قال له: أنا دخيل رسول الله عليه السلام؛ ومع ذلك؛ لم يرتدع؛ وطعنه برمح في يده. فقال له ابن خميس: لم لم تقبل الدخيل بيني وبينك..؟ وآخر ما نطق به ابن خميس قوله تعالى: ((أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ))¹؛ ثم فاضت روحه. ويقال أن قاتله أصيب -

¹ من الآية: 28 من سورة غافر.

فيما بعد - بعاهة أرهقته حتى مات بعد أيام فقط.
إذ أنه حين طعن ابن خميس برمح؛ شعر - هو
الآخر - بطعنة معاكسة سدّت إليه فجأة. ويقول
يحيى بن خلّون: ((أصابته من يد قدرة الله
سبحانه؛ بالمكان الذي طعن فيه ابن خميس؛ حرم
لأجلها النوم والأكل؛ ولم يزل يتأوه، ويقول: "ابن
خميس طعنني" إلى أن مات. وذلك من أكبر البراهين
على عظم قدر ابن خميس رحمة الله عليه))¹.

ووصف لسان الدين ابن الخطيب؛ ابن خميس
بقوله: ((حسن الشبيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر،
قليل التصنع، بعيد عن الرّيا والهوادة² عاملاً على
السياحة والعزلة، عالماً³ بالمعارف القديمة. مضطجاً
بتفاريق النّحل، قائماً على صناعة العربية والأصليين،
طبقة الوقت في الشعر، وفحل الألوان في النظم
المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج

¹ بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 109. ذكر هذا أيضاً ابن الخطيب حين قال:
((وساء بأثر قتله إياه حال تلك الرجل وفسد فكره، وشرّد نومه،
وأصابته علة ردية، فكان يثب المرّة بعد الأخرى؛ يقول: ابن خميس
يقتلني؛ حتى مات لأيام من مقتل المذكور)). الإحاطة؛ قسم: 3، ص:
392. وذكر المقرئ أنه أصيب بفالج شديد: ((فكان يصيح ويستغيث: ابن
خميس يطلبني، ابن خميس يعذبني، ابن خميس يقتلني؛ وما زال الأمر
يشدّ به حتى قضى نحبه على تلك الحال)). أزهار الرياض، ج" 2، ص: 304.

² في أزهار الرياض: ((والهوى)).

³ في النفح وأزهار الرياض: ((عارفاً)).

الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البياتية مواضعها¹)). وقال فيه أحمد بن علي (ابن خاتمة)²: ((إنه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حلت بها لَبّات الآفاق، وتنفست عنها صدور الرفاق. وكان من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء؛ يصرف العويس، ويرتكب مستعصيات القوافي، ويطير في القريض مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي؛ حافظاً لأشعار العرب وأخبارها؛ وله مشاركة في العقليات، واستشراف على الطلب³)).

وكان السلطان أبو عنان المريني شديد الإعجاب بابن خميس، ويعتني بشعره، ويحفظه، ويرويّه. ونقل في مرويّاته؛ عن العلامة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلّي خبراً يخص الشيخ أبي إسحاق التّنسي. ومفاد الخبر أن هذا الشيخ قابل - في رحلته إلى المشرق - قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد؛ فسأله: ((كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله بن خميس))؟ ثم واصل حديثه واصفا إياه بأوصاف جليلة، ورافعاً من شأنه. فبهت الشيخ

¹ الإحاطة؛ قسم: 3، ص: 318.

² نقلها المقرئ من كتاب "مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية" لابن خاتمة.

³ نفح الطيب، ج: 5، ص: 360.

أبو إسحاق وتعجب؛ ثم أجابه: ((من يكون هذا الذي حلّتموه بهذا الحلّي؛ ولا أعرفه في بلدي؟!))؛ فقال له تقي الدي: هو القائل: "عجباً لها أينوق طعم وصالها" فقال أبو إسحاق: ((إن هذا الرجل؛ ليس هو عندنا بهذه الحالة التي وصفتم؛ إنما هو عندنا شاعر فقط)). فقال تقي الدين: ((إنكم لم تنصفوه؛ وإنه لحقيق بما وصفناه))¹.

ونقل أبو عنان عن الأبلي أيضاً: أن قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد؛ عندما وصلته قصيدة ابن خميس المذكورة، نهض واقفاً ليقرأها. وكان يحتفظ بها في خزانة قريبة من موضع جلوسه للمطالعة؛ فكان يخرجها في كل مرة ويتأملها.

¹ أنظر هذا الخبر في أزهار الرياض، ج: 2، ص: 322.

عِينَاء من شعره

قال القصيدة التالية في مدح صديقه ذي
الوزارتين أبي عبد الله حمد بن الحكيم¹. وقد
تعرض فيها لما جرى في تلمسان من حصار قاتل
أليم؛ وبث في قصيدته أمنياته بانجلاء الكرب والفرج
السريع، والخير العميم؛ فجاء الفرج بعد أشهر أربعة:
سلِّ الرِّيحَ إنْ لم تُسعدِ السفنَ أنواءُ

فَعِنْدَ صِيهاها من تَلْمسان أنباءُ
وفي خفقان البرق منها إشارةٌ
إليك بما تنمي إليها² وإيماء
تمر الليالي ليلة بعد ليلة
وللأنن إصغاء وللعين إكلاء³
وإني لأصبو للصبأ كلما سرت
واللنجم مهما كان للنجم أصباء⁴

¹ توجد هذه القصيدة في: الإحاطة، ونفح الطيب، وأزهار الرياض.
واعترها ابن الخطيب؛ من مشاهير أمداحه.

² في أزهار الرياض: ((إليك)).

³ أكلأ عينه: أسهرها. وأكلأ إكلأ بصره في الشيء: رده فيه مصوباً ومصعداً.

⁴ في أزهار الرياض: ((إسراء)).

وأهدي إليها كل حين¹ تحية
 وفي ردّ إهداء التحية إهداء
 واستجلب النوم الغرار ومضجعي
 فتأذ كما شأنت نواها² وسلاء³
 لعلّ خيالاً من لديها³ يمر بي
 ففي مرّة بي من جوى الشوق إبراء
 وكيف خلوص الطيف منها وحولها⁴
 عيون لها في كل طالع راء
 وإني لمشتاق إليها ومُنْبِيّ
 ببعض اشتياقي لو تمكّن إنباء
 وكم قابل تَفَنّي غراماً بحبّها
 وقد أخلفت⁵ منها ملاء وأملاء
 لعشرة أعوام عليها تَجَرَّمَتْ
 إذا مضى قَيْظٌ بها جاء إهراء

¹ في النفح، وأزهار الرياض: ((كل يوم)).
² القتاد: نبات على شكل أشجار صلبة؛ ذات أشواك حادة. والسلاء؛ مفردها سلاءة: شوك النخل.
³ في أزهار الرياض: ((من لديها)).
⁴ في النفح، وأزهار الرياض: ((ودونها)).
⁵ في الإحاطة ونفح الطيب: ((وقد أخلفت))؛ بالفاء الموحدة الفوقية. ومعنى أخلفت: تغيرت. والأملاء: النبلاء والأشراف.

يُطَنَّبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَخُرَّبٌ¹
وَيَرْحَلُ عَنْهَا قَاطِنُونَ وَأَحْيَاءُ²
كَأَنَّ رِمَاحَ النَّاهِبِينَ³ لَمَلَكَهَا
قِدَاحٌ وَأَمْوَالُ الْمَنَازِلِ أَبْدَاءُ
فَلَا تَبْغَيْنَ فِيهَا مُنَاحَاً لِرَاكِبٍ
فَقَدْ قَلَّصَتْ مِنْهَا ظِلَالٌ وَأَفْيَاءُ
وَمَنْ عَجَبِي⁴ أَنْ طَالَ سَقَمِي وَنَزَعُهَا
وَقُسِّمَ أَضْنَاءُ عَلَيْنَا وَإِطْنَاءُ⁵
وَكَمْ أَرْجَفُوا غِيظاً بِهَا ثُمَّ أَرْجَأُوا
فَيَكْذِبُ إِرْجَافٌ وَيَصْنُقُ إِرْجَاءُ
يَرُدُّهَا عِيّاً بِهَا⁶ الدَّهْرُ مِثْلَمَا
يَرُدُّ حَرْفَ الْفَاءِ فِي النَّطْقِ فَأَفَاءُ
فِيَا مَنْزَلاً نَالَ الرَّدَى مِنْهُ مَا اسْتَهَى
تَرَى هَلْ لَعُمُرِ الْأَنْسِ بَعْدَكَ إِنْسَاءُ⁷

¹ في الإحاطة: ((عائثون وخرَّب)).

² في أزهار الرياض: ((وتئاء)).

³ في الإحاطة: ((الذاهبين)).

⁴ في الإحاطة ونفح الطيب: ((ومن عجب)).

⁵ أي استحياء وانقباضاً.

⁶ في النفح، والأزهار: ((عياؤها)).

⁷ أي تأخيراً.

وهل للظَى الحرب التي فيك تَلْتَظِي
 إذا ما انقضت أَيَّامُ بُؤْسِكَ إطفاءُ
 وهل لي زمانٌ أرْتَجِي فيه عودةً
 إليك ووجه البشرِ أزهَرُ وُضَاءُ¹
 فَيَا هَيَّ مَالِي² إن هلكْتُ ولم أَقُلْ
 لصحبِي بها الغُرُّ الكرامُ أَلَا هَاؤُا
 ولم أَطْرُقَ الدَّيْرُ³ الذي كنت طارِقاً
 كعادي⁴ وبَذَرُ الأفقِ أَسْلَعُ مِشْنَاءُ⁵
 أَطِيفُ بِهِ حَتَّى تَهَرَّ كِلَابُهُ
 وقد نام عُسَّاسٌ وَهَوَمَ سُبَّاءُ
 ولا صاحبُ الآحْصَامِ وَلَهْذَمَ
 وطَرْفٌ لَخَذَ اللَّيْلَ مَذَّ كَانَ وَطَاءُ

¹ هنا انتهى الاقتباس في نفح الطيب؛ حيث تواصل بعد ذلك عند ((أحن لها ما أطت النيب حولها...)).

² في الإحاطة: ((فواسيء حالي))، وفي نسخة أخرى: ((فواجر بالي)). وفي أزهار الرياض: ((فيما هي مالي)).

³ نفسه: ((الدين))؛ فجعله المحقق: ((الدرب))؛ لاعتقاده في التحريف.

⁴ نفسه: ((لعادي)). كتب في نص أشار إليه عنان: ((بليل)).

⁵ والأسلَعُ بالعين المهملة: نعت للمصاب بالبرص؛ الأحمر اللون. أما المِشْنَاءُ: فهو الذي يفيضه الناس. وكتب في الإحاطة: ((أسلعُ مسناء)). والمنساء: المتباعد.

وَأَسْحَمُ قَارِيُ كَشَعَرِي حُلْكَهٗ
 تَلَّأَلَا فِيهِ مِنْ سَنَى الصُّبْحِ أَضْوَاءُ
 فَمَا لِشِرَابِي فِي سِوَاكَ مَرَارَةٌ¹
 وَلَا لِطَعَامِي دُونَ مَائِكَ² إِمْرَاءُ
 وَيَا دَارِي الْأُولَى بِدَرْبِ مَغِيلَةٍ³
 وَقَدْ جَدَّ عَيْثُ فِي بِلَاهَا وَإِرْدَاءُ
 أَمَا أَنْ أَنْ يُحْمَى حِمَاكَ كَعَهْدِهِ
 وَتَجْتَازَ أَحْمَاسُ عَلَيْكَ وَأَحْمَاءُ⁴
 أَمَا أَنْ أَنْ يَعْشَوْ لِنَارِكَ طَارِقُ
 جَنِيبٌ لَهُ رَفَعٌ إِلَيْكَ وَيَنْدَاءُ⁵
 يُرْجَى نَوَالًا أَوْ يُؤَمَّلَ دَعْوَةٌ
 فَمَا زَالِ قَارِي فِي ذُرَاكَ وَقُرَاءُ

¹ في الأزهار: ((مزاظة)).

² في الإحاطة: ((بابك)).

³ نفسه: ((حلاوة)).

⁴ كتب هذا الشطر في أزهار الرياض هكذا:

((ويجتال أحماس عليه وأحماء)).

⁵ أي له سرعة فائقة، وعدو حثيث شديد.

أحن لها ما أطَّت النِّيبُ¹ حولها
وما عاقها عن مورد الماء أظاء²
فما فاتها منِّي نَزاعٌ على النَّوى
ولا فاتني منها على القرب إجشاء³
كذلك جدِّي في صِحابي وأسرَّتي
ومن لي به من⁴ أهل وُدِّي إنْ فاءوا⁵
ولولا جوارُ ابنِ الحكيمِ محمدٍ
لما فات نفسي من بني الدَّهرِ إقماءُ
حَماني فلمْ تَنْتَبْ⁶ مَحَلِّي نوائِبَ
بسوءٍ ولم تَرزَأْ فؤادي لُرزاءِ
وأكفأ⁷ بيتي في كفالَةِ جاهِهِ
فصاروا عبيداً لي وهم لي أكفاءُ

¹ أي ما صوتت الإبل.

² اعتباراً من هذا البيت؛ عاد الاقتباس في نفع الطيب. الإظماء: هي المدة التي تنقطع فيها الإبل عن ورود الماء.

³ أي شوقاً.

⁴ في النفع: ((في)).

⁵ في الأزهار: ((من أهل وُدِّي إرفاء)).

⁶ نفسه: ((تنبَّت)).

⁷ في الإحاطة: ((وأكفاء)). وأكفا البيت: ستره بكامله من أعلاه إلى أسفله.

يَوْمُونَ قَصْدِي طَاعَةً وَمَحَبَّةً
 فَمَا عَفْتُهُ عَافُوا وَمَا شِئْتُهُ شَاعُوا¹
 دَعَانِي إِلَى الْمَجْدِ الَّذِي كُنْتُ أَمَلًا
 فَلَمْ يَكُ لِي عَنْ دَعْوَةِ الْمَجْدِ إِنْطَاءً
 وَبَوَّأَنِي مِنْ هَضْبَةِ الْعِزِّ تَلْعَةً
 يُنَاجِي السُّهَاءَ مِنْهَا² صَعُودًا وَطَأْطَاءً³
 يُشَيِّعُنِي مِنْهَا⁴ إِذَا سِرْتُ حَافِظًا
 وَيَكْلُؤُنِي مِنْهَا إِذَا نِمْتُ كَلَاءً⁵
 وَلَا مِثْلَ نَوْمِي فِي كِفَالَةِ غَيْرِهِ
 وَلِلذُّبِ الْإِمَامَ وَاللِّصْلِ إِيْمَاءً⁶
 بَغِيضَةً لَيْثٍ أَوْ بِمِرْقَبٍ خَالِبٍ⁷
 تَبَزَّ⁸ كُسًا فِيهِ وَتُقَطَّعُ أَكْسَاءُ
 إِذَا كَانَ لِي مِنْ نَائِبِ الْمُلْكِ كَافِلٌ
 فَفِي حَيْثُمَا هَوَّمْتُ كِنٌ وَإِدْقَاءُ

¹ فِي الْإِحَاطَةِ ((شَاءَ)). وَمَا جَاءَ أَعْلَاهُ أَسْلَمَ.

² نَفْسُهُ: ((مِنْهُ)).

³ الطَّائِبُ: الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

⁴ فِي الْإِحَاطَةِ: ((يُشَايِعُنِي فِيهَا)).

⁵ أَيِ الْحَافِظِ.

⁶ فِي أَزْهَارِ الرِّيَاضِ: ((الْمَاءَ)).

⁷ نَفْسُهُ: ((خَارِبٍ)).

⁸ فِي الْإِحَاطَةِ: ((تَنْدُّ)).

وإخوانُ صِنْتِجٍ جَاهِهِ
 يُبَادِرُنِي مِنْهُمْ قِيَامٌ وَإِيْلَاءٌ
 سِرَاعٌ لَمَّا يُرْجَى مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَهُمْ
 وَمَنْ كُلِّ مَا يُخْشَى مِنَ الشَّرِّ أَنْبِرَاءُ¹
 إِلَيْكَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ صَنَعْتُهَا
 لُزُومِيَّةٌ فِيهَا لَوْجَدِي إِفْشَاءٌ
 مُبَرَّاةٌ مِمَّا يَعِيبُ لُزُومَهَا
 إِذَا عَابَ إِكْفَاءٌ سِوَاهَا وَإِيطَاءُ²
 أَذَعَتْ بِهَا السَّرَّ الَّذِي كَانَ قَبْلَهَا
 عَلَيْهِ لِأَحْنَاءِ الْجَوَانِحِ إِضْنَاءٌ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ الَّذِي كُنْتَ أَمَلًا
 وَأَعْوَرَ إِكْلَاءٌ فَمَا عَازَ إِكْمَاءُ³
 وَمَنْ يَتَكَلَّفُ مُفَحِّمًا شُكْرَ مِنَّةٍ
 فَمَا لِي إِلَى ذَاكَ التَّكَلُّفِ إِجَاءٌ
 إِذَا مُشِيدٌ لَمْ يَكُنْ عَنْكَ وَمُنْشَى
 فَلَا كَانَ إِنْشَادٌ وَلَا كَانَ إِنْشَاءٌ

¹ أي في حكم البراءة.

² الإكفاء، والإيطاء: عيبان من عيوب القافية في علم العروض.

³ أكما إكماء المكان: كثر به الكمء. والكماء ضرب من الفطر؛ يكمن تحت الأرض؛ فيستخرج في فصل الأمطار. يسمى بالعلمية الجزائرية ((الترفاس)).

ومن شعره أيضاً¹:

أُنبت ولكن بعد أي عتاب²
وطول³ لجاج ضاع فيه شبابي
وما زلت والعليا تُعني غريمها
أعلل نفسي دائماً بمتاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه
يلذ طعامي أو يسوغ شرابي
خدعت بهذا العيش قبل بلائه
كما يُخدع الصّادي بلمع سراب
تقول هو الشهد المشور جهالة
وما هو إلا السّم شيب بصاب
وما صحب الدنيا كبر وتغلب
ولأ ككليب ريء فحل ضراب
إذا كعت الأبطال عنها تقدّموا
أعريب غراً في متون عراب

¹ هذه القصيدة من نظم ابن خميس؛ رواها السلطان أبو عنان المريني؛ نقلًا عن الشيخ القاضي الخطيب الراوية أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن بن عبد الرزاق. وقد وردت في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1. ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. وأزهار الرياض في أخبار عياض، ج: 2.

² في النفح والأزهار: ((أنبت ولكن بعد طول عتاب)).

³ في النفح والأزهار: ((وفرط)).

وَإِنْ نَابَ خُطْبٌ أَوْ تَفَاقَمَ مُعْضِلٌ
 تَلَقَّاهُ مِنْهُمْ كُلُّ أُنْيَدَنَابٍ
 تَرَاءَتْ لِحَسَّاسٍ مَخِيلَةٌ فُرْصَةً
 تَأْتَتْ لَهُ فِي جَيْئَةٍ وَذَهَابِ
 فَجَاءَ بِهَا شَنْعَاءُ¹ تُنْذِرُ قَوْمَهَا
 بِتَشْيِيدِ أَرْجَامٍ وَهَدْمِ قُبَابِ
 وَكَانَ رُغَاءُ السَّقْبِ² فِي قَوْمٍ صَالِحٍ
 حَدِيثاً فَأَنْسَاهُ حَدِيثُ³ سَرَابٍ
 فَمَا تَسْمَعُ الْآذَانُ فِي عِرْصَانِهِمْ
 سَوَى نَوْحِ نُكْلَى أَوْ نَعَابِ غَرَابِ⁴
 وَهَلْ عُرُوَّةَ الرَّحَّالِ عَنْ صَدَقِ بَأْسِهِ
 وَعَنْ بَيْتِهِ فِي جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ
 وَكَانَتْ عَلَى الْأَمْلَاقِ مِنْهُ وَفَادَةٌ
 إِذَا آبَ مِنْهَا آبَ خَيْرِ مَآبٍ
 يَجِيرُ عَلَى الْحَيِّينِ قَيْسٍ وَخَنْدِفٍ
 بِفَضْلِ يَسَارٍ أَوْ بِفَضْلِ خُطَابِ

¹ في النفخ، والأزهار: ((شَوْهَاء))؛ وهي صفة للطعنة.
² السقب بالسین معناه: ولد الناقة. في بغية الرواد كتب ((الصقب))
 بالصَّلا. بمعنى قرب الدار أو صوت الطائر.
³ في النفخ، والأزهار: ((رغاء سراب)).
⁴ في النفخ، والأزهار: ((أو نعيب غراب)).

زعامة مَرْجُو النِّوَالِ مُؤَمَّلٍ
 ودَعْوَةُ¹ مسموعِ الدَّعَاءِ مُجَابٍ
 فمن ذا يَزْجِيهَا² حَوَاسِرَ ضُلْعَاءٍ
 بما حَمَلُوهَا مِنْ مُنَى وَرِغَابٍ
 إِلَى فَذَكِ وَالْمَوْتِ أَقْرَبُ³ غَايَةٍ
 وَهَذَا الْمُنَى يَأْتِي بِكُلِّ عُجَابٍ
 تَبَرُّضَ صَفْوِ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَشْفَاهُ
 فَدَافَ لَهُ الْبَرَّاضُ قَشْبَ حُبَابٍ
 فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْمَعَاطِفِ نَهْزَةً
 لِنَهَبِ ضِيَاعٍ أَوْ لِنَهَشِ ذِيَابٍ
 وَمَا سَهْمُهُ عِنْدَ النَّضَالِ بِأَهْزَعِ
 وَلَا سَيْفُهُ عِنْدَ الْمِصَاعِ⁴ بِنَابِي
 وَلَكِنهَا الدُّنْيَا تَمُرُّ⁵ عَلَى الْفَتَى
 وَإِنْ كَانَ مِنْهَا فِي أَعَزِّ نِصَابٍ
 وَعَادَتَهَا أَلَّا تَوْسُطَ عِنْدَهَا
 فَأِمَّا سَمَاءً أَوْ تُخُومُ تُرَابٍ

¹ في النفخ، والأزهار: ((وَعَزْمَةٌ)).

² في النفخ، والأزهار: ((فَمَرَّ يَزْجِيهَا)).

³ في النفخ: ((أَعْرَبَ)).

⁴ المصاع: المجالدة بالسيوف. وكتب في النفخ: ((الصراع)).

⁵ في النفخ، والأزهار: ((تَكْرُرَ)).

فلا تَرْجُ من دُنْيَاكَ وُدًّا وَإِنْ يَكُنْ
 فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ سَحَابِ
 وَمَا الْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ إِلَّا اجْتِنَابُهَا
 فَأَشَقَّى الْوَرَى مَنْ تَصْنُفِي وَتُحَابِي
 أَبَيْتُ لَهَا مَا دَامَ شَخْصِي أَنْ تُرَى
 تَمُرُّ بِيَابِي¹ أَوْ تَطُورُ² جَنَابِي
 فَكَمْ عَطَّلْتُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبِ
 وَكَمْ فَرَّقْتُ مِنْ أَسْرَةٍ وَصِحَابِ
 وَكَمْ عَفَّرْتُ مِنْ حَاسِرٍ وَمُدَجَّجِ
 وَكَمْ أَكَلَّتْ مِنْ مُعْصِرٍ وَكَعَابِ
 مَثَالِبُ مِثْلُ الرَّمْلِ لَا تَقْلُ لَهَا
 تَعَدُّ فَتُخْصِيهَا غُرُوبُ حِسَابِ³
 إِلَيْكُمْ بَنِي الدُّنْيَا نَصِيحَةٌ مُشْفِقِ
 عَلَيْكُمْ بِصِيرٍ بِالْأُمُورِ نِقَابِ⁴

¹ في بغية الرواد: ((تمرّ بيالي)).

² أي تقترب.

³ هذا البيت وارد في بغية الرواد، وساقط في نفح الطيب وأزهار الرياض.

⁴ أي العلامة.

طويلٍ مِرَاسٍ الدَّهْرِ جَذْلٍ¹ مُمَاحِكٍ
 عَرِيضٍ مَجَالٍ الهَمِّ حُلَسٍ رِكَابٍ
 تَأْتَتْ لَهُ الْأَهْوَالُ² أَذْهَمَ سَابِقاً³
 وَغَصَّتْ بِهِ الْأَيَّامُ أَشْهَبَ كَابِي
 وَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي عَلَى الدَّهْرِ عَائِبٌ
 فَأَعْظُمُ مَا بِي مِنْهُ أَيْسَرُ مَا بِي
 وَمَا أَسْفَى إِلَّا شَبَابٌ خَلَعْتُهُ
 وَشَيْبٌ أَبَى إِلَّا نُصُولَ خِضَابٍ
 وَعُمْرٌ مَضَى لَمْ أَحْلَ مِنْهُ بِطَائِلٍ
 سِوَى مَا خَلَا⁴ مِنْ لَوْعَةٍ وَتَصَابٍ
 لِيَالِي شَيْطَانِي عَلَى الْغَيِّ قَادِرٌ
 وَأَعَذَّبُ مَا عِنْدِي أَلِيمٌ عَذَابِي
 عَكَسْنَا قَضَائِنَا عَلَى حَكْمٍ عَادِنَا
 وَمَا عَكَسُهَا عِنْدَ النَّهْيِ بِصَوَابٍ

¹ في أزهار الرياض: ((جزل)) بالزاي.

² في بقية الرواد: ((الأهواء)).

³ نفسه: ((سابقاً)).

⁴ في أزهار الرياض: ((حلا)) بالحاء المهملة.

على المُنْطَفَى الْمُخْتَارِ أَرْكَى تَحِيَّةً¹
 فَمَثَلُكَ الَّتِي أُعْتَدْتُ يَوْمَ حَسَابِي²
 فَذَلِكَ³ عَادِي أَوْ ثَنَاءً أَصَوغُهُ
 كَدَرٌ سَحَابٍ أَوْ كَدَرٌ سَخَابٍ⁴

وقال في قصيدة أخرى مدح بها ابن الحكيم⁵:
 كَبَتَ الْعِدَى إِنْعَامَكَ الْبَغْتُ
 فَلِي الْهِنَاءُ وَلِلْعِدَى الْكِبْتُ
 يَا مَنْ إِلَى جَدْوَى أَنَامَلُهُ
 يُزَجِّي⁶ السَّفِينِ وَتَزْجُرُ الْبُخْتُ⁷
 لَوْلَاكَ لَمْ يُوَصِّلْ بِنَاحِيَةِ
 وَخَذْتُ وَلَمْ يَقْطَعْ بِهَا دَشْتُ⁸
 لَوْلَاكَ لَمْ يَطْلِعْ بِهَا نَشْرٌ
 مِنْهُ وَلَمْ يَهْبِطْ بِهَا خَبْتُ

¹ نفسه: ((أزكى تحيتي)).
² في بقية الرواد، ونفح الطيب: ((حساب)) بدون الياء.
³ في النفح والأزهار: ((فمَثَلُكَ)).
⁴ السخاب: هي القلادة. وما زالت إلى الآن هذه الكلمة تطلق في الجزائر على العقد الذي تتحلى به المرأة.
⁵ هذي القصيدة موجودة في الإحاطة، قسم 3.
⁶ في نص: ((يرجي)).
⁷ البُخْتُ: هي الإبل الخراسانية.
⁸ الدشت هنا هي الصحراء.

خَوَّلْتَنِي مَا لَمْ تَسِعْهُ يَدِي
 فَأَصَابَنِي مِنْ كَثْرِهِ غَمْتُ¹
 شَتَّى أَيَادٍ كَلَّمَا عَظُمْتُ
 عِنْدِي تَلَكَّأُ خَاطِرِي الْهَتُّ²
 يَغْيَا لِسَانِي عَنْ إِذَاعَتِهَا
 وَيَضِيقُ عَنْ شُكْرِي لَهَا الْوَقْتُ
 وَطَأْتُ لِي الدُّنْيَا فَلَا عِوَجُ
 فِيمَا أَرَى مِنْهَا وَلَا أُمْتُ
 أَمَكَّنْتَنِي مِنْهَا فَمَا لِي يَدِي
 رِذَّةٌ وَلَا لِمَقَالَتِي عَتُّ
 بِالْغَتِّ فِي بَرِّي وَلَا نَسَبُ
 أُدْلِي إِلَيْكَ بِهِ وَلَا حَسَبُ³
 لَكِنْ حَسْبِي إِنْ مَتَّ بِهِ
 يَوْمًا إِلَيْكَ وَدَادِي الْبَحْتُ
 بَوْرَكَتْ مِنْ رَجُلٍ بِرُؤْيَتِهِ
 يُوسَى الضَّنَّا وَيُعَالِجُ الْغَتُّ⁴

¹ أي تخمة.

² أي خاطري المكسور.

³ هذا البيت مختلف في رويته عن بقية أبيات القصيدة.

⁴ أي يعالج الحزن والغم.

لو سار في بهماء مُقْفَرَةٍ
 في حيث لا ماء ولا نبتُ
 لتَقْجُرَ الماءَ النَّمِيرَ بها
 ولا عَشَبَتُ أَرْجَاؤُهَا¹ المَرْتُ
 لا تحسبنَ البَخْتَ نَيْلُ غَنَى
 نَيْلُ الرِّضَا منه هو البَخْتُ
 آلتُ جلالته وحقَّ لها
 أن لا يحيطَ بِكُنْهَها نَعْتُ
 أَظْهَرَتْ دِينَ الله في زَمَنِ
 ما زالَ يَغْلِبُ حَقُّه البَهْتُ
 شَيْئَتُهُ وَهَدَّتْ مُمْتَعِضاً
 لضِياعِهِ ما شَيَّدَ الجِبْتُ²
 أُمْنَتْ أَرْضُ الْمُسْلِمِينَ فلا
 ذَيْبٌ يُخَافُ بها ولا لِصْتُ³
 وَحَفَظَتْهَا مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ
 تُخْشَى فَأَنْتَ حَفِظْتُهَا الثَّبْتُ

¹ في موضع هذه الكلمة؛ ترك بياض في الأصول. وقد نقل عنا كلمة ((أرجاؤها)) من المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس.
² أي من لا خير فيه.
³ أي: ولا لص.

وَنَهَجَتْ سُبُلَ الْمَكْرُمَاتِ فَمَا
 لِمُؤَمِّلٍ عَنْ غَايَةِ أَلْتِ¹
 لَمْ تُبْقِ غَفْلًا مِنْ مَتَالِعِهَا
 إِلَّا وَفِيهِ لِحَائِرٍ بُرْتُ²
 هَادِنُ طُغَاةَ الْكُفْرِ مَا هَدَّاتُ
 حَتَّى يَجِيءَ نَهَارُهَا الْمَخْتُ³
 دَعَهَا تُودِّعُ فِي مَعَاقِلِهَا
 مَا لَمْ تَعُدْ جُفَاتِهَا الْعَفْتُ⁴
 كَمْ ذَدَّتْهَا عَنَّا وَقَدْ هَبْرْتُ
 لِهَرِاشِنَا أَشْدَاقَهَا الْهَرْتُ⁵
 بِوَقُوفٍ طَرَفِكَ عِنْدَ شِدَّتِهِ
 يَبْأَى وَيَفْخَرُ مَلِكُهَا الرَّتْ⁶
 وَالشُّكْرُ⁷ مَا أَظْهَرْتَ مِنْ كَرَمٍ
 فِي ذَاكَ تَقْصِحُ عَجْمَهَا الْمَرْتُ

¹ الألت، وألته: حبسه وصرفه.

² البُرْتُ: هو الدليل الماهر.

³ أي: نهارها الحار.

⁴ أي: في حال الالتواء والانكسار.

⁵ أي: أشداقها الواسعة.

⁶ أي: ملكها الرئيس.

⁷ جعلها د. طويل: ((والشكر)).

لك من ممالكها وإن رغمت
 ما جال فيه جوادك الحَت¹
 ولكل أصيد من بطارقتها
 في كل أري له دَعْتُ
 لولا لباك البيض ما أرقّت
 للقائهما أفراسنا الكُمْتُ
 عندي لمن ينتابه مَقَّة
 ولمن ينيب لغيره مَقْتُ²
 وكَوَّ أنَّ بيضك لم تسَل لما
 ذلت أنوف طغاتها السَلّت
 يا ابن الحكيم أمنت صرف ردى
 أبداً له في أثَلتي نَحْتُ³
 وبيمينه أنست من أُملي
 ما لم يكن يوماً له عَرْتُ⁴
 مثنى الوزارة موئلي وله
 ما دمت أملك قدرتي أَقْتُ⁵

¹ أي: الساقط.

² في نص: ((المقت)).

³ أي: أبداً له في أصلي طعن.

⁴ أي: شدة واضطراب.

⁵ الأقت: الوقت المعين.

وبأسه أطفئ شرارة من
يعثو وأقدح أنف من يعثو
عمّ الوري جوداً وفضل غنى
حتى تساوى العد والغلت¹
وهمى على عال ومنخفض
لم يبق فوق ولا تحت
ظلّ إذا نصطاف معتدل
عطر الشذا وحيأ إذا نشئو
يتضاعل الصبّح المئير إذا
لاقى سناه جبينك الصلت
حتى كأن شمس الضحى قمر
وكان ضوء شعاعها فخت²
وغريبة في لطف صنعها
يمضي الزمان وما لها أخت
ينأى الندى بها إذا لبست
ويتيه إن طويت بها التخت

¹ أي: غلط.

² القخت: ضوء القمر في أول مبدئه.

زَنْجِيَّةٌ لَكِنْ لِمَحْتَدِّهَا
 فِي الرُّومِ يَعْنُو الْقِسَّ وَالشَّنْتُ¹
 مِثْلُ الْعَرُوسِ عَلَى مِئْصَتِهَا
 مِنْ شَأْنِهَا التَّزْيِينُ وَالزَّتُ²
 لِأَكُونَ أَنْحَلَ مَا أَكُونُ هُدًى
 فِيهَا فَيَغْبِلُ جِسْمِي الشَّخْتُ
 وَبِمِثْلِ شَيْئِي فَوْقَ حِلْكَتِهَا
 يَبْدُو الْوَقَارُ وَيَحْفَظُ السَّمْتُ
 تُظْهِرُنِي بِلْيَاسِهَا وَبِهِ
 عِنْدِي لَهَا الْإِثَارُ مَا عِشْتُ
 لَا زِلْتُ تُؤَثِّرُنِي بِهَا أَبَدًا
 وَلَا تَفٍ مِنْ يَشْقَى³ بَذَا السَّلْتُ
 وَبَقِيَتْ تُدْرِكُ مَا تُرِيدُ وَمَا
 تَهْوَى بَقَاءَ مَا لَهُ فَتُ

¹ كلمت ((شنت)) أو ((سنت))؛ ترمز إلى القداسة؛ مثل: شنت مريّة.

وبالإسبانية: Santo.

² زتّ العروس: تزيينها.

³ في نص: ((يشقى)).

ومن أمداحه - كذلك - هذه القصيدة التي افتخر
فيها بأصوله اليمانية¹:

طَرَقَكَ وَهَذَا أَخْتُ آلَ عِلَاجٍ
وَالرَّكْبُ بَيْنَ دَكَادِكِ وَحِرَاجٍ
فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءَ لَمْ يَنْبَجْ بِهَا
كَلْبٌ وَلَمْ يَصْرُخْ أُنَيْنُ دَجَاجٍ
أَنْى اهْتَدَتْ لِمُضَلِّلِينَ تَوَهَّنُوا
مِنْهَا لَهَاتِكَ دِيَاجِرُ وَدِيَاغٍ
مُتَسَرِّبِلِي بُرْدِ الظَّلَامِ كَأَنَّهُمْ
فِيهِ قِدَاحٌ فِي رِمَايَةِ سَاجٍ
وَيَقُوا بِمَحْمُودِ السَّرَى وَتَسَلَّمُوا
لِمَخَارِمِ مَجْهُولَةٍ وَفَجَاجٍ
وَمَنَازِلِ دَرَسِ الرُّسُومِ بِلَاقِعِ
أَخَوَيْنِ مِنْ هَيْجٍ وَمِنْ هَجْهَاجِ
مَحْتِ مَعَالِمِينَ غَيْرِ مَثْلِمِ
كِسْوَارِ تَاجٍ أَوْ كَدَمَلِجِ عَاجِ
وَمَوَائِلِ مِثْلِ الْحَمَامِ جَوَائِمِ
وُرُقٍ وَأَسْمَجِ دَائِمِ التَّشْحَاجِ

¹ توجد هذه القصيدة في الإحاطة.

ومشجج ما زال منهل الحيا
 يبكي صداه بدمعه النَّجَّاجِ
 حتى أعاد لعوده أوراقه
 خُضِرَ الظُّلَالِ ذَكِيَّةُ الْأَرَاكِ
 وكسا عُرَاةَ عِراصيه من وشيه
 حُلَا تَبَوَّرُ صَنَعَةُ الدِّيَّاجِ
 لا مثل لَيَّلاتٍ مَضِينَ سَرِيعَةٍ
 بَرَدَتْ حَرَارَةُ قَلْبِي الْمُهْتَاجِ
 أذْرَكْتُ مِنْهَا فِي صَيَايَ مَطَالِبِي
 وَقَضَيْتُ مِنْهَا فِي شَبَابِي حَاجِي
 كَمْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا
 غَيْرِي وَغَيْرَ مُنَادِمِي وَسِرَاجِي
 بِنْتًا نَذِيرُ إِلَى انْبِلَاجِ صَبَاحِهَا
 كَأَسَ الْهَوَى صِرْفًا بِغَيْرِ مَزَاجِ
 وَتَذِيرُ أَعْيُنُنَا حَدِيثَ غَرَامِنَا
 بِمَرَامِيزٍ مِنْ فِضْهَاتٍ¹ وَأَحَاجِ
 بِمَارِجٍ² النَّفَّاحَاتِ مِنْ دَارَيْنِ أَوْ
 بِمَدَارِجِ النَّسَمَاتِ مِنْ دَرَجِ

¹ في نص: ((فضة)).

² في نص: ((بمؤرج)).

وَخُلُوصٍ وَدِّ فِي نَقَاءِ سَرِيرَةٍ
 كَسْلَافٍ رَاحٍ فِي صَفَاءِ زُجَاجٍ
 أَمْحَضَتْهُ حَظِيٌّ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي
 أُعْيِيَ مِرَاسِي أَهْلُهُ وَعِلَاجِي
 وَاخْتَرْتُ قُرْبَ جِوَارِهِ لَخُلُوصِهِ
 وَتَرَكْتُ كُلَّ مُمَازِقٍ¹ مَرَاكِ
 مَا فِي زَمَانِكَ غَيْرُهُ فَاخْلُصْ لَهُ
 غَيْباً وَدَاهِنَ مَنْ أُرَنْتَ وَدَاجٍ
 لَا تَحْلِفَنَّ بِغَيْرِهِ وَاسْتَعْفَيْنَ
 بِوَقَارِهِ عَنْ كُلِّ غَمَرٍ مَاجٍ
 أَتْرُكُ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
 فَعَسَاكَ تُطْعَمُ لَذَّةَ الْإِثْلَاجِ
 نَزَهْتَ نَفْسِي عَنْهُمْ بِنَوَالِهِ
 وَحَفِظْتُهَا مِنْ جَاهِهِ بِسِيَاجِ
 أَصْبَحْتُ مِنْ آلَائِهِ وَوَلَائِهِ
 فِي عِزَّةٍ ضَحِيًّا وَعِزًّا دَاجٍ
 وَلَوْ أَنَّنِي عَجْتُ الرُّكَّابَ مُيَمَّمًا
 أَحَدًا سِوَاهُ مَا حَمَدْتُ مَعَاجِي

¹ أي غير مخلص.

طَلَقَ إِذَا احْتَلَكَ الزَّمَانُ أَنْارَ فِي
 ظُلُمَائِهِ كَالْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ
 طَوْدُ الرِّصَانَةِ وَالرَّرَّانَةِ وَالْحَجَا
 بَحْرُ النَّدَى الْمُتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ
 وَغَمَامُهُ الْهَامِي عَلَى أَمَالِهِ
 مِنْ غَيْرِ إِرْعَادٍ وَلَا إِرْعَاجِ
 وَهَزَبُ أَجَامِ الْقَتَى الضَّارِي إِذَا
 سَقَطَتْ عَوَاتِمُهَا عَلَى الْأَرْجَاجِ
 ضَمِنَ الْإِلَهَ لَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ
 مَا شَاءَ مِنْ ظَفَرٍ وَمِنْ إِفْلَاجِ
 أَبْقَى أَبُو عَبْدِ الْإِلَهِ مُحَمَّدٌ¹
 مَا شَادَ وَالِدُهُ أَبُو الْحَجَّاجِ
 وَبَنَى أَبُو إِسْحَاقَ قَبْلُ وَصِنُوهُ
 رَكْنَا الضَّعِيفَ وَمَعْدَنَا² الْمُحْتَاجِ

¹ قد يكون هو محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر النصرى؛ وهو ثالث ملوك بني الأحمر؛ الذي عاصره ابن خيمس. حكم من سنة 701هـ/1301م إلى سنة 708هـ/1308م. وربما كان المقصود هو أحد رؤساء بني إشبيلية؛ لأن الأبيات الموالية تفيد بذلك. منها ذكر اسم أبي إسحاق. الذي يكون هو أبو إسحاق إبراهيم بن إشبيلية. ثم ورود ما جرى في موقعة العقاب.

² في نص: ((مولا)).

وَجَرَى عَلَى آثَارِ أَسْلَافٍ لَهُمْ
تَرَجَّوْا وَكَلَّهْمُ عَلَى مِنْهَاجِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا أَعَزُّ مُبَارِكِ
مَصْنَاهُ لَيْلٍ أَوْ صَبَاحُ عَجَاجِ
بَيْتُ بَنُوهُ مِنْ سَرَاوَةِ حَمِيرِ
فِي الذُّرَّةِ الْعَلْيَاءِ مِنْ صَنْهَاجِ
كَمْ كَانَ فِي الْمَاضِينَ مِنْ أَسْلَافِهِمْ
مَنْ رَبَّ إِكْلِيلٍ وَصَاحِبَ تَاجِ
أَسَاسُ كُلِّ رِيَّاسَةٍ وَرُؤُسُ كُلِّ
لِ سِيَاسَةٍ وَلُيُوثُ كُلِّ هِجَاجِ
أُعِيَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ مِنْ سَهَرٍ وَمَا
أَعْيَا أَبُو مُوسَى مِنَ الْإِدْلَاجِ
حَتَّى أَصَارَتْهُ لِرَحْمَةِ رَبِّهِ
يَوْمَ الْعَقَابِ وَقِيَعَةِ الْأَعْلَاجِ
وَأَقِيمَ نَجْلُ أَخِيهِ بَعْدَ مَقَامِهِ
فِيهِمْ يُطَاعِنْ مِثْلَهُ وَيُوَاجِ
فَرْدًا يَلْفُ كِتَائِبًا بِكِتَائِبِ
وَيَكْبُ أَفْوَاجًا عَلَى أَفْوَاجِ

حَتَّى تَجَلَّى دَجْنُ كُلِّ عَجَاجَةٍ
 عَنْهُمْ وَأَمْسَكَ رِعْدَ كُلِّ ضِجَاجٍ
 مَنْ مِثْلُ يَوْسُفَ فِي قِرَاعٍ¹ كِتَابٍ
 وَلِقَاءِ أَعْدَاءِ وَخَوْضِ أُجَاجٍ
 أَوْ مَنْ يَشُقُّ مِنَ الْأَنَامِ غُبَارَهُ
 فِي رَدِّ آرَاءِ وَنَقْضِ حِجَاجٍ
 إِنْ خَاضَ يَوْمًا فِي بَيَانِ حَقِيقَةٍ
 أَنْهَى عَنِ الثَّوْرِيِّ² وَالْحَلَّاجِ³
 وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي الْغَرِيبِ وَضَبَّطَهُ
 لَمْ يَعْزَبَ بِالْعُتْبِيِّ⁴ وَالزَّجَّاجِ⁵

¹ في نص: ((نزال)).

² في نص: ((أربى على)).

³ هو الإمام المحدث سفيان بن سعيد الثوري (توفي سنة 161هـ/777م).

⁴ في نص: ((الحجاج)). والحلاج هو الزاهد المتصوف الحسين بن منصور. المتوفي سنة 309هـ/921م.

⁵ هو محمد بن عبد الله بن عمرو العتبي؛ اشتهر بفصحانة اللسان. توفي سنة 228هـ/842م.

⁶ هو إبراهيم بن محمد بن السري؛ نحوي. توفي سنة 310هـ/922م.

أَنْسَتْ قَصَائِدَ جَرُولٍ¹ أَشْعَارُهُ
 وَأَرْلَزَجَ الْعَجَلِيَّ وَالْعَجَّاجَ²
 جَمَعَ الْفَصَاحَةَ وَالصَّبَّاحَةَ وَالتَّقَى
 وَالْجُودَ فِي وَجْدٍ وَفِي إِخْرَاجٍ
 تَخْشَاهُ أَسَدُ الْغَابِ فِي أَجْمَاتِهَا
 وَالرُّومُ فِي الْأَسْوَارِ وَالْأَبْرَاجِ
 إِنَّا بَنِي قَحْطَانَ لَمْ نَخْلُقْ لِغَيْهِ
 رِغْيَانٍ مَلْهُوفٍ وَمَنْعَةٍ لَاجٍ
 نَبْرِي طَلَى³ الْأَغْرَابِ فِي الْهَيْجَا وَفِي اللَّـ
 أَوَاءِ⁴ سَوَفَ نَمَارِي⁵ الْأَعْرَاجِي
 بِسُيُوفِنَا الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةِ الَّتِي
 طَبِعَتْ لِحَزِّ غَلَاصِمٍ وَوَدَاجِ

¹ جرول: هو الحطينة؛ واسمه بالكامل هو جرول بن أوس بن مالك؛ شاعر الهجاء الشهير. توفي سنة 30هـ/650م.

² والعجلي: هو أبو النجم الفضل بن قدامة العجلي؛ من شعراء العصر الأموي؛ يقال أنه أول من كتب الرجز. أما العجاج فهو عبد الله بن ربيعة بن لبيد بن صخر. من كتاب الرجز أيضاً. توفي في حدود

1193هـ/1193م.

³ الطلى مفرداً؛ طلية: وهي العنق.

⁴ الأواء: الشدة والمحنة.

⁵ أي نجادل.

تَأْتِي لَنَا الْإِحْجَامُ عَنْ أَعْدَائِنَا
يَوْمَ اللَّقَاءِ طَهَارَةَ الْأَمْشَاجِ
أَنْصَارُ خَيْرِ الْعَالَمِينَ¹ وَحِزْبُهُ
وَحُمَاتُهُ فِي الْجَحْلِ الرَّجْرَاجِ
وَفِدَائُهُ بِنَفْسِهِمْ وَنَفْسِهِمْ
مَنْ غَدِرَ مُغْتَالٍ وَسَبَّهَ هَاجِ
هُمْ صَفْوَةُ الْخَلْقِ الَّتِي اخْتِيرَتْ لَهُ
وَسِوَاهُمْ هَمَجٌ مِنَ الْأَهْمَاجِ
إِلَّا الْأَكْلَى سَبَقُوا بِبَاهِرِ فَضْلِهِمْ
مَنْ سَائِرِ الْأَصْحَابِ وَالْأَزْوَاجِ
وَكَفَى بِحُكْمَتِنَا إِقَامَةَ حُجَّةٍ
وَبِرُكْنِنَا مِنْ كَعْبَةِ الْحُجَّاجِ²
وَلَنَا مَقَاخِرُ فِي الْقَدِيمِ شَهِيرَةٌ
كَالصُّبْحِ فِي وَضَحٍ وَفِي إِبْلَاجِ
مِنَّا التَّبَاعَةُ الَّذِينَ بِيَابِهِمْ
كَانَتْ تَتِيخُ جِبَاةُ كُلِّ خَرَجِ
وَلَأَمْرِهِمْ كَانَتْ تُدِينُ مَمَالِكُ الْـ
دُنْيَا بِلَا قَهْرٍ وَلَا إِخْرَاجِ

¹ ورد في نص: ((دين الهاشمي)).

² يقصد به الركن اليماني في الكعبة المشرفة.

مَنْ يَفْتَدِ زَنْدًا فَإِنَّ زَنْدَهُمْ
في الجودِ واريّة بلا إخراج
أبوابُهُمْ مَفْتُوحَةٌ لِضُيُوفِهِمْ
أَبَدًا بلا قُفْلٍ ولا مِزْلَاجٍ

ومن شعره أيضاً هذه القصيدة التي ضمنها
معانيه، وما جرى له من أحداث؛ وتعرض فيها
لمدح الشيخ الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن
رُشَيْد السبتي¹:

أطار فُؤادي برقُ أَلحَا
رَقَمَ ضم بعد لو كر جناحَا
كَأَنَّ تَأَلَّقَهُ فِي الدُّجَى
حُسَامُ جَبَانِ يَهَابِ الْكِفَاخَا
أَضَاءَ وَلِيعِينَ إِخْفَاءَ
تَلَذُّ إِذَا مَا سَنَى الْفَجْرُ لَحَا
كَمَعْنَى خَفِيٍّ بَدَأَ بَعْضُهُ
وَزَيْدَ بَيَانًا فَزَادَ اتِّضَاخَا

¹ هذه القصيدة موجودة في الإحاطة.

كَأَنَّ النُّجُومَ وَقَدْ غَرُبَتْ
 نَوَاهِلُ مَاءٍ صَدَرْنَ قُمَاحًا¹
 لَوَاغِبٌ بَاتَتْ تَجِدُ السَّرَى
 فَأَذْرَكَهَا الصُّبْحُ رُوحِي طِلَاحًا²
 وَقَدْ لَبَسَ اللَّيْلُ أَسْمَالَهُ
 فَمَحَتْ عَلَيْهِ بِلَاءً وَانْصِيَاخًا³
 وَأَيَّظَ رَوْضَ الرُّبَا زَهْرَهُ
 فَحَيًّا نَسِيمُ صِيَاهِ الصَّبَاحَا
 كَأَنَّ النَّهَارَ وَقَدْ غَالَهَا
 مُبَيَّتٌ مَالِ حَوَاهِ اجْتِيَاخَا
 أَتَى يَسْتَفِيضُ دُمُوعِي امْتِيَاخًا
 وَيُلْهَبُ نَارِ ضُلُوعِي اقْتِدَاخَا
 فَلَمْ يَلْقَ جَنْنَ انْتِحَابِي شَحِيحًا
 وَلَمْ يَلَفْ زَنْدَ اسْتِيقَايِ شِاحَا
 وَلَوْلَا تَوَقُّدُ نَارِ الْحَشَا
 لَأَنْفَذْتُ مَاءَ جُفُونِي امْتِيَاخَا

¹ قمع البعير: إذا رفع رأسه وامتنع عن الشرب.

² لواغب. روعي. طلاحا؛ كل ذلك بمعنى: أعياء.

³ مع الثوب إذا بلي؛ وانصاح الثوب: إذا انشقق.

وَمِمَّا يُشَرِّدُ عَنِّي الْكَرَى
هَدِيلُ حَمَامٍ إِذَا نِمْتُ صَاحَا
يَنُوحُ عَلَيَّ وَأُبْكِي لَهُ
فَأَقْطَعُ لَيْلِي بُكَاءً أَوْ نِيَاحَا
أَعَيْنَ أُرِيحِي أَطْلَتِ الْأَسَى
عَلَيْكَ وَمَا زِنْتُ إِلَّا أَنْتِزَاحَا
دَعِينِي أَرْضَ مَاءٍ تَمْعِي¹ فَلَمْ
أَرْضَ بَعْدَ مَائِكَ مَاءَ قُرَاحَا
أَحِنُّ إِلَيْكَ إِذَا سَفَتَ رِيحَا
وَأُبْكِي عَلَيْكَ إِذَا ذُقْتَ رَاحَا
وَأَفْنِي التَّيَاحَا إِلَيْكَ وَكَمْ
أَشْخْتُ بِوَجْهِ عَاكِ اتِّسَاحَا
وَلَوْلَا سَخَايِمُ قَوْمٍ أَبَوَا
إِيَابِي رَكِيتُ إِلَيْكَ الرِّيَاحَا
أَبَاخُوا حِمَايَ وَكَمْ مَرَّةً
حَمَيْتُ حِمَى عَرَضِهِمْ أَنْ يُيَاحَا
وَدَافَعْتُ عَنْهُمْ بِشِعْرِي أَنْتِصَارَا
فَكَانَ الْجَزَاءُ جَلَايَ الْمُتَاَحَا

¹ كُتِبَ فِي نَصِّ: ((عِينِي)).

أَبَاغُوا وَذَادِي بَخْسًا فَسَلْ
أَكَانَ سَمَاحَهُمْ بِي رِبَاحًا
وَأَغُرُوا بِنَفْسِي طُلَابَهَا
سِرَارًا فَجَاغُوا لِقَتْلِي صَرَاحًا
وَأَلَوْ يَمِينًا عَلَى أَنْ مَا
تَوَهَّمْتُ لَمْ يَكْ إِلَّا مِزَاحًا
فَشَاوَرْتُ نَفْسِي فِي ذَا فَمَا
رَأْتُ لِي بَغِيرِ الْفَلَاةِ فَلَاخًا
فَبِتُّ أَنَاغِي نُجُومَ الدُّجَى
نَجَاءً فَلَمْ أَلْقَ¹ إِلَّا نَجَاحًا
أُجُوبُ الدِّيَاجِيرَ وَخُدِي وَلَا
مُؤَانِسَ إِلَّا الْقَطَا وَالسُّرَاحَا²
وَاللَّاعِبَ تَحْتَسُّ فِي
مَبِيتِي فَتَمَلُّ سَمْعِي ضُبَاحَا³
أُجُوزُ الْأَفَاحِيصَ⁴ فَيَحَا قِفَارًا
وَأَغُرُّ الْأَدَاحِي⁵ غُبْرًا فِسَاحًا

¹ كتب في نص: ((ألف)).

² مفردها سرحان: وهو الذئب.

³ الضباح: هو صوت الثعلب.

⁴ الأفاحيص: مفردها: أفحوص: وهو المكان الذي تبيض فيه القطا.

⁵ الأداحي: مفردها أدحي: وهو المكان الذي تبيض فيه النعام.

فَأَعْيِي شَوَارِدَ هَذِي عَدَاءَ
وَأَعْلُو لَوَاغِي تِلْكَ صِيَاخَا
وَجَوَابُ بَنُو إِذَا اسْتَبَحُوا
أَجَابُوا عَوَاءَ وَأُمُوا النَّبَاخَا
يَرُونَ قِتَالِي فِي الْحَجْرِ حَلَا
وَإِذْ هَابُ نَفْسِي فِيهِ مُبَاخَا
قَصَنْتُ هَنَاهُمْ¹ فَلَمْ أُخْطِهِمْ
أَعَاجِمُ شَوْسِ الْعُيُونِ قِيَاخَا
فَسَلَّ كَيْفَ كَانَ خَلَاصِي مِنْ
أَسَارِهِمْ أَسْرَى أَمْ سَرَاخَا
وَلَا مِثْلَ بَيْتِ تَيْمَمُتُهُ
فَلَمْ أَلْفِ إِلَّا الْغِنَا وَالسَّمَاحَا
عِيَابًا² مِلَاءَ وَنِيَاءَ سِمَانًا³
وَعِيدًا خِدَالًا⁴ وَعُودًا أَقَاخَا
وَالْأَعَارِيبَ شَمَّ الْأَنْوَفِ
كِرَامِ الْجُدُودِ فِصَاخَا صَبَاخَا

¹ كتب في نص: ((سناهم)).

² العِيَاب؛ مفردها: عَيْبَةٌ؛ عبارة عن وعاء يوضع فيه الثياب.

³ أي نوق مسنة وسمينة.

⁴ كتب أيضاً في نص: ((حساناً)). وعيداً خدالاً: ممتلات ضخام.

وَإِلَّا يَعْفِيرِ سُودَ الْغُيُونِ
 يَرَيْنَ فَسَادَ الْمُحِبِّ صَلَاحًا
 يُرَدِّدْنَ فِينَا لِحَاطَا مِرَاضًا
 يُمَرِّضُنَّ مِنَّا الْقُلُوبَ الصَّحَاحَا
 وَتُخْتِ الْوَجَاجَ طَلَارِبِ رَبِّ¹
 لَوْ أَنَّ التَّيَّانَ رَفَعْنَ الْوَجَاحَا
 أَرَانِي مُحَاسِنَ مِنْهُ فَلَمْ
 أَطُقْ عَنْ حِمَاهُ بِقَلْبِي بَرَاَحَا
 مُحَيَّا وَسِيمًا وَفَرَعًا أَثْنَا
 وَقَدَّا قَوِيمًا وَرَدَفًا رَدَاَحَا
 وَأُبْدَى لِعَيْنِي بَدَائِعَ لَمْ
 يَدْعُ لِي عَقْلًا بِهَا حِينَ رَاَحَا
 إِذَا لَمْ يُرِدْ غَيْرَ سَفَاكَ دَمِي
 فَحُلْ وَبِلْ² لَهُ مَا اسْتَبَاحَا
 وَمَا زِلْتُ سَمَحًا بِنَفْسِي كَذَا
 مَتَى مَا رَأَيْتُ الْوُجُوهَ الْمِلَاحَا

¹ الطلي؛ جمعها أطلاء: ولد الظبية. ورَبِّ: قطع من بقر الوحش.
² أي حلال ومباح.

وَبَابِنِ رُشَيْدٍ¹ تَعَوَّنْتُ مِنْ
 هَوَاهُ فَقَدْ زِدْتُ فِيهِ افْتِضَاخًا
 وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي عَنْ كَتْمِهِ
 وَأَوْدَعَتْهُ جَفَنَ عَيْنِي فَبَاخًا
 وَبَابِنِ رُشَيْدٍ تَعَوَّنْتُ مِنْ
 خُطُوبِ أَجْلَنَ عَلَيَّ الْقِدَاخًا
 أَلَحَّ الزَّمَانُ بِأَحْدَاثِهِ
 فَأَلْقَيْتُ طَوْعًا إِلَيْهِ السَّلَاخًا
 أَعَادَ شَبَابِي مَشِيئًا كَمَا
 سَمِعْتُ وَصِيرَ نُسْكِ طَلَاخًا²
 وَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَهْلِيلِ
 وَلَمْ يَرِذَا عَلَيْهِ جَنَاحًا³
 أَخِي وَسَمِيئِي أَصِيخُ مُسْعِدًا⁴
 لَشَجْوِ حَزِينٍ إِلَيْكَ اسْتَرَاخًا

¹ هو الشيخ الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن عمر الفهرري السبتي المعروف بابن رشيد. ولد بسبته سنة 657هـ/1258م. وتوفي بفاس سنة 721هـ/1321م.

² في نص: ((صلاخا)). والطلاخ: الفساد؛ وهو ضد الصلاح.

³ هذا الشطر غير مستقيم. ويبدو أن حرفاً بعد ((ذا)) سقط. والأفضل أن تكتب ((ذاك))؛ فيغدو الشطر هكذا: ((ولم ير ذاك عليه جناحاً)).

⁴ في نص أيضاً: ((مسمعاً)).

فَقَدْ جَبَّ¹ ظَهْرِي عَلَى ضَعْفِهِ
كُدَامَا² وَأَذْهَى شَوَاتِي نَطَاحًا
وَطَوَّحَ بِي عَنْ تِلْمِزَانِ مَا
ظَنَنْتُ فَرَأَقِي لَهَا أَنْ يُتَاحَا
وَأَعْجَلَ سَيْرِي عَنْهُ وَلَمْ
يَدْعُنِي أَوْدَعُ تِلْكَ الْبَطَاحَا
نَأَى بِصَدِيقِكَ عَنْ رَبِّعِهِ
فَكَانَ لَهُ النَّأْيُ مَوْتًا³ صَرَاحًا
وَكَانَ عَزِيزًا عَلَى قَوْمِهِ
إِذَا هَاجَ خَاضُوا إِلَيْهِ الرَّمَاحَا
فَهَا هُوَ إِنْ قَالَ لَمْ يَلْتَفِتْ
إِلَيْهِ امْتِهَانًا لَهُ وَاطَّرَاحَا
عَجِبْتُ لِذَهْرِي هَذَا وَمَا
أَلَاقِي مَسَاءً بِهِ وَصَبَاحَا
لَقَدْ هَدَمْنِي رُكْنًا شَيْدَا
وَذَلَّلَ مِنِّي حَيَاءً لُقَاحَا

¹ أي قطع.

² أقدام: نبات في المراعي يتكسر على الأرض.

³ أي موتًا خالصًا.

وَقِيْتُ الرَّدَى مِنْ أَخٍ مُخْلِصٍ
لَوْ اسْطَغْتُ طَرْتُ إِلَيْهِ ارْتِيَاخًا
وَأِنِّي عَلَى فَيْحٍ مَا بَيْنَنَا
لَأَتَّبِعُ ذَاكَ الشَّدَا حَيْثُ فَاحَا
أَجْنُ إِلَيْهِ حَتَيْنَ الْفُحُولِ¹
وَنَوْحِ الْحَمَامِ إِذَا هُوَ نَاخَا
وَأَسْأَلُ عَنْهُ هُبُوبَ النَّسِيمِ
وَخَفَقِ الْوَمِيضِ إِذَا مَا أَلَاخَا
إِنْ شِئْتُ عَرَفَانِ حَالِي وَمَا
يُعَانِيهِ جِسْمِي ضُنًى أَوْ صِحَاخًا
فَقَلْبٌ يَذُوبُ إِلَيْكَ اشْتِيَاقًا
وَصَدْرٌ يُفَاحُ إِلَيْكَ انْشِرَاحًا
وَعَرْسٌ وَدَادٍ أَصَابَ فَضَاءَ
نَدِيًّا وَصَادَفَ أَرْضًا بَرَاخًا
كَرَاسِيخٍ مَجْدٍ تَأْتُلْتُهُ
فَلَمْ تَخْشَ بَعْدُ عَلَيْهِ امْتِصَاخًا
وَعَلِيَاءَ بَوَيْتِهَا لَوْ بَغَى
سُمُوءًا إِلَيْهَا السَّمَاءُ لَطَاخَا

¹ في نص: ((العجول)).

مَكَارِمِ جَمَعَتْ أَفْذَاذَهَا
فَكَانَتْ لِعَظْفٍ¹ عُلَاكَ وَشَاخَا
وَدَرَسَ عُلُومَ تَهْيِمْ بِهَا
عَمِرْتَ الْغُؤُوبَهُ وَالرُّوَاخَا
نَشَأْتَ عَنِ الْخَيْرِ وَاعْتَدَّتْهُ
فَلَمْ تَدْرِ إِلَّا النَّقَى وَالصَّلَاخَا
وَقُمْتَ لَهَا أَيْمًا رِحْلَةً
كَسَخَتْ الْمَعَارِفَ فِيهَا اكْتِسَاخَا
بَهَرْتَ رِجَالَ الْحَدِيثِ اقْتِدَاءً
وَقُفْتَ رِجَالَ الْكَمَالِ اقْتِرَاخَا
فَمَا إِنَّ جَلِيسًا إِذَا قُلْتَ قَالَ
أَوْ أَنَّ الْخَطِيبَ إِذَا أُخْتُ لَاحَا
وَلَوْ لَمْ تَحِجَّ بِهَا مَكَّةَ
لَحِجَّ الْمَلَائِكُ عَنْكَ صَرَاخَا
وَأَمَّا أَنَا بَعْدَ نَهْيِ النَّهَى
فَمَا زَانِي الطَّبَعُ إِلَّا جِمَاخَا
أَيِّرُ كُؤُوسَ هَوَايَ اغْتِيَاقَا
وَأَشْرَبُ مَاءَ دُمُوعِي اصْطِيبَاخَا

¹ في نص أيضاً: ((العضب)).

فَبَرْدُ جَوَايَ بِرْدَ جَوَابِ
تَوَبَّخُ فِيهِ مَشْيَ الْوَقَا
وَهُنَّ بُنَيَّاتٌ فِكْرِي وَقَدْ
أَتَيْتُكَ فَاخْفُضْ لَهْنُ الْجَنَاحَا

وهذه القصيدة الشهيرة؛ كتبها ابن خميس في بلده
تلمسان؛ جاء فيها¹:

تَلْمَسَانُ جَادَتَكَ السَّحَابُ النَّوَالِحُ
وَأَرْسَتْ بُوَادِيكَ الرِّيحُ اللَّوَالِحُ²
وَسَحَّ عَلَى سَاحَاتِ بَابِ جِيَادَهَا
مِلْتُ يُصَافِي تَرْبَهَا وَيُصَافِحُ
يَطِيرُ فَوَادِي كُلَّمَا لَاحَ لَامِعُ
وَيَنْهَلُ دَمْعِي كُلَّمَا نَاحَ صَادِحُ³

¹ هذه القصيدة موجودة بكاملها في بغية الرواد، ج: 1، ونفع الطيب، ج: 6. بينما اكتفى المقرئ - في كتابه أزهار الرياض - بثلاث أبيات الأولى. معلل ذلك بأنه ترك مخطوطها في تلمسان؛ ولم يعد يذكر منها سوى تلك الأبيات الثلاث؛ التي رواها محرفة.

² جاء هذا البيت في أزهار الرياض هكذا:
تلمسان جادتكَ الفوادي الروانح وأرست بواديها الرياح اللواقح
وفي نفع الطيب:

تلمسان جادتكَ السحاب الروانح وأرست بواديها الرياح اللواقح
³ جاء هذا البيت في أزهار الرياض هكذا:
يَطِيرُ فَوَادِي كُلَّمَا لَاحَ بَارِقٌ وَيَزْدَادُ شَوْقِي كُلَّمَا مَرَّ سَانِحٌ

فَفِي كُلِّ شَفَرٍ مِنْ جُفُونِي مَائِحٌ
وَفِي كُلِّ شَطْرِ مِنْ فُؤَادِي قَادِحٌ
فَمَا الْمَاءُ إِلَّا مَا تَسُحُّ مَدَامِعِي
وَلَا النَّارُ إِلَّا مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ
خَالِيًّا لَا طَيْفَ لِعُلُوَّةٍ طَارِقُ
بَلِيلٌ وَلَا وَجْهَ لِصُبْحِي لَائِحُ
نَظَرْتُ فَلَا ضَوْءَ مِنَ الصُّبْحِ ظَاهِرُ
لِعَيْنِي وَلَا نَجْمٌ إِلَى الْغَرْبِ جَانِحُ
بِحَقِّكُمْ مَا كُفَّا الْمَلَامَ وَسَامِحَا
فَمَا الْخُلُ كُلُّ الْخُلِّ إِلَّا الْمُسَامِحُ
وَلَا تَعْذِلَانِي وَأَعْذِرَانِي فَقَلَمَا
يَرُدُّ عَنَانِي عَنْ عَلِيَّةٍ نَاصِحُ
كَتَمْتُ هَوَاهَا ثُمَّ بَرَّحَ بِي الْأَسَى
وَكَيْفَ أَطِيقُ الْكَتْمَ وَالْدَّمَعُ فَاضِحُ
لِسَاقِيَةِ الرُّومِيِّ عِنْدِي مَزِيَّةُ
وَإِنْ رَغَمْتَ إِلَيْكَ الرُّوَاسِي الرُّوَاشِحُ
فَكَمْ لِي عَلَيْهَا مِنْ غُدُوٍّ وَرَوْحَةٍ
تُسَاعِدُنِي فِيهَا الْمُنَى وَالْمَنَائِحُ

فَطَرَفٌ عَلَى تِلْكَ الْبَسَاتِينَ سَابِحٌ
 وَطَرَفٌ إِلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ جَامِحٌ
 تَحَارُ بِهَا الْأَذْهَانُ وَهِيَ ثَوَاقِبٌ
 وَتَهْفُوا بِهَا الْأَخْلَامُ وَهِيَ رَوَاجِحٌ¹
 ظُبَاءٌ مَغَانِيهَا عَوَاطِ عَوَاطِفُ
 وَطَيْرٌ مُحَانِيهَا شَوَادٍ صَوَادِخُ
 تَقْتَلُهُمْ فِيهَا عُيُونٌ نَوَاطِرُ
 وَتُبْكِيهِمْ مِنْهَا² عُيُونٌ نَوَاضِحُ
 عَلَى قَرِيَّةِ الْعَبَّادِ مِنْي تَحِيَّةٌ
 كَمَا فَاحَ مِنْ مِسْكِ اللَّطِيْمَةِ فَائِحُ
 وَجَادَ ثَرَى تَاجِ الْمَعَارِفِ دِيْمَةٌ
 تَغْصُ بِهَا تِلْكَ الرَّبَى وَالْأَبَاطِحُ
 إِلَيْكَ³ شَعِيْبُ بْنُ الْحُسَيْنِ قُلُوبُنَا
 نَوَازِغُ لَكِنَّ الْجُسُومَ نَوَازِحُ
 سَعَيْتُ فَمَا قَصَّرْتُ عَنْ نَيْلِ غَايَةٍ
 فَسَعَيْتُكَ مَشْكُورٌ تَجْرُكَ رَابِحُ

¹ في نفع الطيب: ((وهي بوارخ)).

² نفسه: ((منهم)).

³ في بغية الرواد: ((اليها)).

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى الْوَرِيطَ وَوَقْفَةً
أَنَافِحُ فِيهَا رَوْضَةٌ وَأَفَاوِحُ
مُطْلَأٌ عَلَى ذَاكَ الْغَدِيرِ وَقَدْ بَدَّتْ
لِإِنْسَانٍ عَيْنِي مِنْ صَفَاهُ صَفَائِحُ¹
أَمَّاؤُكَ أَمْ دَمْعِي عَشِيَّةٌ صَدَّقْتُ
عَلِيَّةٌ فِينَا مَا يَقُولُ الْمُكَاشِحُ²
لَئِنْ كُنْتُ مَلَأْتُ بِدَمْعِي طَافِحاً
فَإِنِّي سَكْرَانٌ بِحُبِّكَ طَافِحُ
وَإِنْ كَانَ مُهْرِي فِي تِلَاعُكَ سَائِحاً³
فَذَاكَ غَزَالِي فِي عُبَابِكَ سَابِحُ
قِرَاحٌ أَتَى يَنْصَبُ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ
بِمِثْلِ حَالَةٍ⁴ تُسْتَحَثُّ الْقَرَائِحُ
أَرْقُ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي أَنَا كَاتِمٌ
وَأَصْفَى مِنَ الدَّمْعِ الَّذِي أَنَا سَافِحُ

¹ في بغية الرواد: (((طفافح))) بالطاء.

² جاء هذا الشطر في بغية الرواد هكذا: ((عَلِيَّةٌ مَا قَالَ الْعَذُولُ الْمُكَاشِحُ))

³ نفسه: ((سابقاً)).

⁴ نفسه: ((جلاه)).

أما وهَوَى من لا أَسْمِيَهُ إِنّني
لِعَرْضِي كما قال النَّصِيحُ لِنَاصِحُ
أَبْعَدَ صِيامي واعتكافي وخلوتي
يُقَالُ فلانٌ ضَيِّقُ الصَّدْرِ بَائِحُ
لِبَعْتِ رَشادي فِيهِ بِالغِيّ ضَلَّةٌ
وكم صالِحٍ مثلي غداً وهو طالِحُ
وأَيُّ مَقامٍ لَيْسَ لي فِيهِ حاسِدٌ
وأَيُّ مَقالٍ لَيْسَ لي فِيهِ مَادِحُ
أَلَا قُلْ لِفِرْسَانِ البَلَاغَةِ أَسْرِجُوا
فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنِّي المُكَافِي المُكَافِحُ
أَيُخْمَلُ ذِكْري عِنْدَهُمْ وَهُوَ نَابِةٌ
وَيُغْمَطُ شَجْوِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ شَائِحٌ¹
بُدُورٌ إِذا جَنَّ الظَّلَامُ كَوَامِلُ
وَأَسْنَدٌ إِذا لَاحَ الصَّبَّاحُ كَوَالِحُ
تَرَكَتُكَ سُوقَ البَزِّ لا عَنْ تَهاوُنٍ
وَكَيفَ وَظَنِّي سَانِحٌ فَيْكَ بَارِحُ
وَإِنِّي وَقَلْبِي فِي وَلائِكَ طَامِعُ
وَنَاطِرُ وَهْمِي فِي سِمَاطِكَ طَامِحُ

¹ جاء هذا الشطر في بغية الرواد هكذا: ((وَيُغْمَضُ شَبْحي عِنْدَهُمْ وَهُوَ شَابِحُ)).

أَيَا أَهْلَ وَدِّيَ وَالْعَشِيرِ¹ مُؤَمَّنْ
أَتَقَضَى دُيُونِي أَمْ غَرِيمِي فَالِحُ
وَهَلْ ذَلِكَ الظَّنِّي النَّصَاحِي لِلَّذِي
يُقَطِّعُ مِنْ قَلْبِي بَعِثَتْهُ نَاصِحُ
كُنَيْتُ بِهَا عَنْهُ حَيَاءٌ وَحِشْمَةٌ
وَوَجْهُهُ اعْتَذَارِي فِي الْقَضِيَّةِ وَاضِحُ

ومما قاله أيضاً ابن خميس في تلمسان وأشواقه
إليها وحنينه لمعالمها ومغناها؛ هذه القصيدة²：
تلمسان لو أن الزَّمانَ بها يَسْخُو
مُنَى النَّفْسِ لَا دَارُ السَّلَامِ وَلَا الْكَرْخُ
وداري بها الأولى التي حِلَّ دُونَهَا
مَنَارُ الْأَسَى لو أَمَكْنَ الْحَنَقُ اللَّبَّخُ³
وعهدي بها والعُمُرُ في عُنْفَوَانِهِ
وماءُ شَبَابِي لَا أَجِينُ وَلَا مَطَخُ⁴
قَرَارَةٌ تَهَيِّمُ وَمَغْنَى صَبَابَةٍ
ومَغْهَدُ أَنْسٍ لَا يَلْذِبُهُ لَطَخُ

¹ في بغية الرواد: ((المشير)).

² هذه القصيدة موجودة في نفح الطيب، ج: 5. وأزهار الرياض، ج: 2.

³ اللَّبَّخُ: الاحتبال.

⁴ المَطَخُ: هي الرواسب الباقية في حوض الماء أو الغدير.

إِذِ الدَّهْرُ مَنِيَّ الْعَيْنِ مُنْهَنَةً
 وَلَا رَدْعَ يُثْنِي مِنْ عِنَائِي وَلَا رَدْعُ¹
 لِيَالِي لَا أَصْغِي إِلَى عَذْلِ عَاذِلِ
 كَأَنَّ وَقُوعَ الْعَذْلِ فِي أُذُنِي صَمَخُ²
 مَعَاهِدُ أَنْسٍ عَطَلْتُ فَكَأَنَّهَا
 ظَوَاهِرُ أَلْفَاظٍ تَعَمَّدَهَا النَّسْخُ
 وَأَرْبَعُ أَلْفٍ عَفَا بَعْضُ آيَهَا
 كَمَا كَانَ يَغْرُو بَعْضَ أُلُوحِنَا اللَّطَخُ³
 فَمَنْ يَكُ سَكَرَاناً مِنَ الْوَجْدِ مَرَّةً
 فَإِنِّي مِنْهُ طَوَّلَ دَهْرِي لَمَلَخُ⁴
 وَمَنْ يَقْتَدِحْ زَنْدًا لِمَوْقِدِ جَذْوَةٍ
 فَزَنْدُ اسْتِيقَايَ لَا عَفَارٌ وَلَا مَرَخُ⁵
 أَنْسَى وَقُوفِي لَاهِيَا فِي عِرَاصِهَا
 وَلَا شَاغِلٌ إِلَّا التَّوَدُّعُ وَالسَّبَخُ⁶

¹ أي: لا يلذ به ردع.

² الصمخ: خراج الأذن.

³ أي: ما يعلوا الألواح من الأوساخ.

⁴ الملتخ: هو الذي يختلط عقله، بحيث لا يفهم شيئاً كالسكير مثلاً.

⁵ أي: لا شجر العفار ولا شجر المرخ. وقد عرفا بسرعة اشتعالهما.

⁶ السبخ: هو الفراغ.

وَإِلَّا اخْتِيَالِي مَاشِيًا فِي سِمَاطِهَا
 رَحِيًّا كَمَا يَمْشِي بِطَرَّتِهِ الرُّخُ¹
 وَإِلَّا فَعَدَوِي مِثْلَمَا يَنْفِرُ الطَّلَا
 وَلِيدًا وَحَجَلِي مِثْلَمَا يَنْهَضُ الْفَرَخُ²
 كَأَنِّي فِيهَا أُرْتَشِيرُ بَنُ بَابِكِ
 وَلَا مُلْكَ لِي إِلَّا الشَّيْبَةُ وَالشَّرْخُ³
 وَإِخْوَانُ صِدْقٍ مِنْ لِدَاتِي كَأَنَّهُمْ
 جَاذِرُ رَمْلٍ لَا عِجَافٌ وَلَا بُزْخُ⁴
 وَعَاةٌ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْهُدَى
 وَعَنْ كُلِّ فَحْشَاءٍ وَمُنْكَرَةٍ صَلَخُ⁵
 هُمْ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ سَيَّانٌ فِي الْعُلَا
 شَبَابُهُمُ الْفَرْعَانُ وَالشَّيْخَةُ السَّلَخُ⁶
 مَضَوْا وَمَضَى ذَاكَ الزَّمَانُ وَأُنْسُهُ
 وَمَرَّ الصَّبَا وَالْمَالُ وَالْأَهْلُ وَالْبَذْخُ⁷

¹ اسم خرافي لأحد الطيور الضخمة.
² الفرخ؛ جمعها فراخ؛ وهو ولد الطائر. وكل صغير من النبات أو الحيوان.
³ الشرخ؛ أول الشباب وريعانه.
⁴ البزخ؛ تشوهه في الجسم؛ يكون فيه الظهر غائراً والصدر خارجاً.
⁵ صلخ؛ مفردا أصلخ؛ أي منتهى البكم والطرش.
⁶ السلخ؛ شديد الصلغ والحمرة.
⁷ البذخ؛ الشموخ والعلو والتفاخر والتكبر.

كَأَن لَّمْ يَكُنْ يَوْمًا لِأَقْلَامِهِمْ بِهَا
صَرِيرٌ وَلَمْ يُسْمَعْ لَأَكْعِبِهِمْ جَبْخُ¹
وَلَمْ يَكُ فِي أَرْوَاحِهَا مِنْ ثَنَائِهِمْ
شَمِيمٌ وَلَا فِي الْقَضَبِ مِنْ لِينِهِمْ مَلْخُ²
وَلَا فِي مُحَيَّا الشَّمْسِ مِنْ هَدْيِهِمْ سَنَأُ
وَلَا فِي جَبِينِ الْبَذْرِ مِنْ طَيِّبِهِمْ ضَمْنُخُ³
سَعْيَتُهُمْ بَنَى عَمُورٍ فِي شَتِّ شَمَانَا
فَمَا تَجْرُكُمُ رَبِخٌ وَلَا عَيْشُنَا رَبِخُ⁴
دُعَيْتُمْ إِلَى مَا يُرْتَجَى مِنْ صِلَاحِكُمْ
فَرَدَّكُمْ عَنْهُ التَّعَجُّرُفُ وَالْجَمْنُخُ⁵
تَعَالَيْتُمْ عُجْبًا فَطَمَّ عَلَيْكُمْ
عُبَابٌ لَهُ فِي رَأْسِ عَلَيَائِكُمْ جَلْخُ⁶
وَأَوْغَلْتُمْ فِي الْعُجْبِ حَتَّى هَلَكَتُمْ
جَمَاحَ غَوَاةٍ مَا يُنْهَنَّهُهُمْ قَفْخُ⁷

¹ أي لم يسمع لأكعبهم جولة في الميسر.

² المَلْخ: اللين والتثني والتفتيح بانكسار.

³ الضمْنُخ: المبالغة في تلطيخ الجسم بالطيب؛

⁴ رَبِخ: وقع في الشدائد.

⁵ أي التعجرف والتكبر.

⁶ جَلْخُ جَلَخًا السيل: اكتسح وكسر حرفيه. وعند هذا البيت انفقطع

الافتباس في أزهار الرياض؛ أين علق المقرئ قاللاً: ((وهي طويلة جداً؛

ألم فيها بمدح سبئة وملوكها من بني العزفي)).

⁷ أي: ضرب على الرأس.

كَفَاكُمْ بِهَا سَجْنًا طَوِيلًا وَإِنْ يَكُنْ
 هَلَاكُ لَكُمْ فِيهَا فَهِيَ لَكُمْ فَخٌ¹
 فَكُمْ قِتَّةٌ مِّنَّا ظَفَرْتُمْ بِنَيْلِهَا
 بِأَبْشَارِهَا مِنْ حُجْنٍ أَظْفَارِكُمْ بَرخٌ²
 كَأَنَّكُمْ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا
 أَسْوَدُ غِيَاضٍ وَهِيَ مَا بَيْنَكُمْ أَرْخٌ³
 فَلِلْسُوقِ مِنْهَا الْقَيْدُ إِنْ هِيَ أَغْرَبَتْ
 وَلِلْهَامِ إِنْ لَمْ تُعْطَ مَا رَعَتْ النَّقْخُ⁴
 كَأَنَّ تَحْتَهَا مِنْ شِدَّةِ الْقَلْقِ الْقَطَا
 وَمِنْ فَوْقِهَا مِنْ شِدَّةِ الْحُذْرِ الْفُنْخُ⁵
 وَأَقْرَبُ مَا تَهْذِي بِهِ الْهَلَاكُ وَالتَّوَى
 وَأَيْسَرُ مَا تَشْكُو بِهِ الذُّلُّ وَالْفَنْخُ⁶
 فَمَاذَا عَسَى نَرْجُوهُ مِنْ لَمٍّ شَعَثَهَا
 وَقَدْ حُزَّ مِنْهَا الْفَرْعُ وَأَقْتُلِعَ الشَّلْخُ⁷

¹ أي كمين أو جهاز للصيد.

² البرخ: قطع اللحم.

³ الأرخ: فتي البقر.

⁴ النقخ: الضرب على الهام.

⁵ الفتخ: جمع فتحاء: وهي صفة من صفات العقاب.

⁶ الفنخ: شج الرأس بالعصا.

⁷ أي الأصل.

وما يُطْمَعُ الرَّاجُونَ مِنْ حِفْظِ آيَهَا
وقَدْ عَصَفَتْ فِيهَا رِيَا حُهُمُ النَّبَّخُ¹
زَعَانِفٌ أَنْكَادٌ لِيَامٍ عَنَّا كِلْ
مَتَى قَبَضُوا كَفَاً عَلَى إِثْرِهِ طُخُوا²
وَلَمَّا اسْتَقَلُّوا مِنْ مَهَاوِي ضَلَالِهِمْ
وَأَوْمَوْا إِلَى أَعْلَامِ رُشْدِهِمْ زَخُوا³
دَعَاهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ لِلشَّرَفِ الَّذِي
يُنْذِلُ لَهُ رِضْوَى وَيَعْتُولُ لَهُ دِمَخُ⁴
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوهُ فَذَاقُوا وَبِالْهَمِ
وَمَا لِأَمْرِي عَنْ أَمْرِ خَالِقِهِ نَخُ⁵
وَمَا زِلْتُ أَدْعُو لِلْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ
وَقَدْ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا أَصْخُوا⁶
وَأَبْذُلُ فِي اسْتِئْصَالِهِمْ جَهْدَ طَاقَتِي
وَمَا لِظَنَابِيْبِ ابْنِ سَابِحَةٍ قَفْخُ⁷

¹ أي الغليظة.

² طخ الشيء: رماه بعيداً من يده.

³ أي: باتدفاع.

⁴ دمخ: اسم جبل يتواجد بنجد. وكذلك رضوى المتواجد في الحجاز.

⁵ النخ: السير العنيف.

⁶ أي إذا صوتوا بصوت شديد.

⁷ الظنابيب؛ مفردا ظنبوب: وهو عظم الساق. والقفخ: هو الكسر والشدخ.

تَرَكْتُ لِمِينَا سَبَبَةً كُلَّ نَجْعَةٍ
 كَمَا تَرَكْتُ لِلْعِزِّ أَهْضَابَهَا الشُّمُخُ¹
 وَآلَيْتُ أَنْ لَا أُرْتَوِي غَيْرَ مَائِهَا
 وَلَوْ حَلَّ لِي فِي غَيْرِهِ الْمَنُّ وَالْمَذْخُ²
 وَأَنْ لَا أُحْطَّ الدَّهْرُ إِلَّا بِعُقْرِهَا
 وَلَوْ بَوَّأْتَنِي دَلَارَ إِمْرَتِهَا بَلْخُ³
 فَكَمْ نَقَعَتْ مِنْ غَلَّةٍ تِلْكَ الْأَضَا
 وَكَمْ أَبْرَأْتُ مِنْ غَلَّةٍ تِلْكَ اللَّبْخُ⁴
 وَحَسْبِي مِنْهَا عَدْلُهَا وَاعْدَالُهَا
 وَأُبْحَرُهَا الْعُظْمَى وَأُرِيافُهَا النُّفْخُ⁵
 وَأَمْلَاكُهَا الصَّيْدُ الْمُقَاوِلَةُ الْأَلَى
 لِعِزَّتِهِمْ تَعْنُو الطَّرَاخِمَةُ الْبُلْخُ⁶
 كَوَاكِبُ هَذِي فِي سَمَاءِ رِئَاسَةٍ
 تُضِيءُ فَمَا يَدْجُو ضَلَالٌ وَلَا يَطْخُو⁷

¹ في نفح الطيب. ((أهضامها شمخ)). وهنا استمر الاقتباس في أزهار الرياض بعد الانقطاع.

² ضرب من العسل يمتصه الناس من جلتار الرمان البري.

³ بلخ مدينة، بالقرب من مزار شريف بأفغانستان. وهي اليوم ولاية.

⁴ الطراخنة: هم المتكبرون. واللبخ: ضرب من الشجر ذي المنفعة الطبية.

⁵ أي: أريافها الخصبة. يقال: نفخة الربيه: بمعنى خصبه وازدهاره وإعشابه.

⁶ أي: المتكبرون والمتعجرفون.

⁷ يقولون: طخا الضلال: أي اشتدت ظلمته.

تَوَاقِبُ أَنْوَارِ تُرِّي كُلَّ غَامِضٍ
إِذَا النَّاسُ فِي طَخْيَاءِ غِيْهِمُ النَّخْوِ¹
وَرَوَّضَاتُ آدَابٍ إِذَا مَا تَأَرَّجَتْ
تَضَاعَلْ فِي أَفْيَاءِ أَفْنَانِهَا الرَّمْخُ²
مَجَامِرُ نَدٍّ فِي حَدَائِقِ نَرْجَسٍ
تَتَمُّ وَلَا لَفْحٌ يُصِيبُ وَلَا دَخٌ³
وَأُبْحُرُ عِلْمٍ لَا حِيَاضُ رِوَايَةٍ
فَيَكْبُرُ مِنْهَا النَّضْحُ أَوْ يَعْظُمُ النَّضْحُ⁴
بَنُو الْعَرْفِيِّينَ الْأَلَى مِنْ صُدُورِهِمْ
وَأَيْدِيهِمْ تَمَلَّأَ الْقَرَاطِيسُ وَالطُّرُخُ⁵
إِذَا مَا فَتَى مِنْهُمْ تَصَدَّى لِغَايَةٍ
تَأْخَرُ مِنْ يَنْخُو وَأَقْصَرُ مِنْ يَنْخُو⁶
رِئَاسَةً أَخْيَارٍ وَمُلْكُ أَفَاضِلٍ
كَرَامَ لَهُمْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ رَضْنُ⁷

¹ أي في ظلمة غيهم الشديدة اضطربوا

² أي: في ظلال أفنانها الملتفة.

³ الدخ: الدخان.

⁴ النضخ: أثر الطيب العالق في الثوب وغيره.

⁵ الطُّرُخ؛ مفردا طرخة: الأحواض.

⁶ أي: من يتعاطم ويفتخر.

⁷ أي عطاء نوال.

إِذَا مَا بَدَا مِنَّا جَفَاءً تَعَطَّفُوا
 عَلَيْنَا وَإِنْ حَلَّتْ بِنَاشِدَةٍ رَخُوا¹
 نَزورُهُمْ حُذًّا² نَحَافًا فَتَنَّنِي
 وَأَجْمَأْنَا ذُلْحَ³ وَأَبْدَأْنَا ذُلْخَ⁴
 يُرْبُونَنَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنُّهَى
 فَمَا خَرَجْنَا بَزًّا وَلَا حَدَّنَا بَرَخُ⁵
 وَمَا الزُّهْدُ فِي أَمْلَاكِ لَخْمٍ وَلَا التُّقَى
 بِيَذْعٍ وَلِلدُّنْيَا لَزُوقٌ بِمَنْ يَرْخُو⁶
 وَإِلَّا فَفِي رَبِّ الْخَوَرْنَقِ⁷ غُيَّةٌ
 فَمَا يَوْمُهُ سِرٌّ وَلَا صِيَّتُهُ رَضِخُ⁸
 تَطَّلَعَ يَوْمًا وَالسَّيِّرُ أَمَامَهُ
 وَقَدْ نَالَ مِنْهُ الْعُجْبُ مَا شَاءَ وَالْجَفْخُ⁹

¹ أي لانوا.

² أي ضمير.

³ الدلح؛ مفرداها اللوح؛ وهو المتثاقل بسبب نقل حمليه.

⁴ أي سمين.

⁵ البز؛ هو الابتزاز. والبرخ؛ القهر.

⁶ يرخو؛ يلين.

⁷ الخورنق؛ قصر أسطوري بني للنعمان بن امرئ القيس اللخمي

⁸ الرضخ هنا؛ خبر غير مؤكد.

⁹ الجفخ؛ الفخر والتكبر.

وَعَنْ لَه مِنْ شِيعَةِ الْحَقِّ قَائِمٌ
بِحُجَّةٍ صِدْقٍ لَا عِبَامٌ وَلَا وَشْخٌ¹
فَأَصْبَحَ يَجْتَابُ الْمُسْوَحَ² زَهَادَةً
وَقَدْ كَانَ يُؤْذِي بَطْنَ أَمْصِهِ النَّخَ³
وَفِي وَاحِدِ الدُّنْيَا أَبِي حَاتِمٍ لَنَا
دَوَاءٌ وَلَكِنْ مَا لَأَدْوَانِنَا نَتَخُ⁴
تَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا تَخَلَّى عَارِفٍ
يَرَى أَنَّهَُا فِي ثَوْبٍ نَخْوَةٍ لَتَخُ⁵
وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُسْتَهِينًا بِقَدْرِهَا⁶
فَلَمْ يُثْنِهِ عَنْهَا⁷ اجْتِذَابٌ وَلَا مَصْنُخٌ⁸
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهَا الْخُبُّ وَالْهَوَى
وَكَانَ لَهَا مِنْ كَفِّهِ الطَّرْحُ وَالطَّخُ⁹

1 العِلم: العيِّ الثقيل. الوشخ. الرديء الضعيف
2 المسووح: ضرب من ثياب الزهاد الغليظة؛ تصنع من الشعر.
3 النخ: ضرب من البسط.
4 النتح: الانتزاع.
5 أي لطخة أو بقعة في ثوبه.
6 في نفح الطيب: ((لقدرها)).
7 في أزهار الرياض: ((منها)).
8 المصنخ: شد ونزع أي شيء وجذبه من من داخل أي شيء.
9 الطخ: قذف الشيء ورميه بعيداً.

وما مُعْرَضٌ عَنْهَا وَهِيَ فِي طِلَابِهِ
كَمَنْ فِي يَدَيْهِ مِنْ مُعَانَاتِهَا نَبْخٌ¹
ولا مُدْرِكٌ مَا شَاءَ مِنْ شَهَوَاتِهَا
كَمَنْ حَظُّهُ مِنْهَا التَّمَجُّعُ وَالنَّجْخُ²
ولكنَّا نَعْمَى مِرَاراً عَنِ الْهُدَى
وَنَصْلِحُ حَتَّى مَا لِأَذَانِنَا صُمْخٌ³
وما لِأَمْرِي عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلٌ
ولا لِقَضَاءِ اللَّهِ نَقْضٌ وَلَا فَسْخُ
أَبَا طَالِبٍ لَمْ تَبْقَ شِيْمَةٌ سُودُودٌ
يُسَادُّ بِهَا إِلَّا وَأَنْتَ لَهَا سِنْخٌ⁴
لِسَوْغَتِ أُنْبَاءِ الزَّمَانِ أَيْدِيَا
لِدِرَّتِهَا فِي كُلِّ سَامِعَةٍ شَخٌ⁵
وَأَجْرِيَّتِهَا فِيهِمْ عَوَائِدُ سُودُودٌ
فَمَا لَهُمْ كَسَبٌ سِوَاهَا وَلَا نَخٌ⁶

¹ النبخ: قروح تصيب اليد جراء العمل.

² التمجع: الاكتفاء بأكل خفيف كالتمر واللبن. والنجخ: التخمّة والسأم.

³ أي: نصاب بالصمم حتى تفقد أذاننا صماخها.

⁴ أي أصل.

⁵ الشخ: صوت اللبن (الشخب) عند خروجه من الضرع.

⁶ النخ: السير العنيف. وسق الإبل وزجرها.

غَدَّتْهُمْ غَوَابِيهَا فَهِيَ فِي عُرُوقِهِمْ
 دِمَاءٌ وَفِي أَعْمَاقِ أَعْظَمِهِمْ مُخٌ¹
 وَعَمَّتْهُمْ حَزَنًا وَسَهْلًا فَأَصْبَحُوا
 وَمَرَعَاهُمْ وَرَزَخٌ وَمَرَعِيَّهُمْ وَلَنَخٌ²
 بَنَى الْعَزَفِيُّينَ ابْلُغُوا مَا أُرْتَثُمْ
 فَمَا دُونَ مَا تَبْغُونَ وَحُلٌّ وَلَا زَلْخٌ³
 وَلَا تَقْعُتُوا عَمَّنْ أَرَادَ سِجَالَكُمْ
 فَمَا غَرَبُكُمْ جُفٌ وَلَا غَرْقُكُمْ وَضَنخٌ⁴
 وَخُلُّوْا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةٍ
 وَتِيَهُوا عَلَى مَنْ رَامَ شَأْوَكُمْ وَأَنْخُوا⁵
 وَلَا تَذَرُوا الْجَوَزَاءَ تَعْلُوا عَلَيْكُمْ
 فَفِي رَأْسِهَا مِنْ وَطْءِ أَسْلَافِكُمْ شَذَخٌ⁶
 لَأَفْوَاهِ أَعْدَائِي وَأَعْيُنِ حُسْدِي
 إِذَا جَلَيْتِ خَائِيَتِي الْغَضُ⁷ وَالْفَضْنُخُ⁸

¹ المخ: (النخاع).

² الوزخ: ضرب من الشجر. والولخ: العشب الطويل.

³ الزلخ: المزلفة بسبب الوحل والطين وغيره..

⁴ الغرب، والجف: الدلو العظيمة. والغرف: انتشار الماء. وضخ: قليل.

⁵ أي: افتخروا وتعاطموا.

⁶ أي: كسر.

⁷ في أزهار الرياض: ((الغصن))؛ بالصاد المهملة.

⁸ أي: الكسر والشذخ

دَعَوْهَا تَهَادَى فِي مُلَاعَاةٍ حُسْنِهَا
فَفِي نَفْسِهَا مِنْ مَدْحِ أَمْلَاقِهَا مَدْحٌ¹
يَمَانِيَّةٌ زَارَتْ يَمَانِيْنَ فَانْتَبَتْ
وَقَدْ جَدَّ فِيهَا الزَّهْوُ وَاسْتَحْكَمَ الزَّمْخُ²

وقال في قصيدة أخرى³:

إِنْ كُنْتُ تَجْهَلُ أَنَّنِي لَا أَرْقُدُ
فَاسْأَلْ يُخْبِرُكَ السُّهَى وَالْفَرَاقُ⁴
وَإِنْ اتَّهَمْتَهُمَا لِبَعْضِ تَنَاسُبِ
بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا فَطَيْفُكَ يَشْهَدُ
وَلَقَدْ أَبَيْتُ اللَّيْلَ لَا أَذْري بِهِ
نَوْمًا كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ الْأَرْمَدُ
أَرْعى كَوَاكِبَهُ وَأَرْقُبُ صُبْحَهُ
وَالصُّبْحُ أَنْأَى مِنْ هَوَايَ وَأَبْعَدُ
فَرْدًا أَكَابِدُ لَوْعَتِي وَظِلَامَهُ
حَتَّى يَقُومَ لِوَرْدِهِ الْمُتَهَجِّدُ

¹ أي: عظمة.

² أي استحكم الكبر والشموخ.

³ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1.

¹.

⁴ السُّهَى: كوكب من بنات نعش الصغرى. والفرقد: نجم قريب من القطب القطب الشمالي. وثمة نجم آخر بجانبه خفي؛ فسميا: الفرقدان.

بَانَ الْخَلِيطُ وَبَانَ قَلْبِي إِثْرَهُ
 سَحَرَا كَمَا زَعَمَ الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ
 وَتَبَايَنْتَ أَغْرَاضُنَا وَجُسُومُنَا
 فَالْجِسْمُ يُتْهِمُ وَالْعَزِيمَةُ تُتَجَدُّ
 وَكَذَلِكَ مَا صَحْبِي الَّذِينَ أَلْفَتْهُمْ
 إِلَّا سُرَايَ وَعَزَمَتِي وَالْفَرَقْدُ
 وَنَهَضْتُ لَوْ وَافَى نُهْوضِي قُوَّةً
 مِنِّي وَسَاعَدَنِي الشَّبَابُ الْمُسْعِدُ
 لَا تَعْجَبَنَّ لِعِزَمَتِي وَتَنْبُطِي
 فَالشَّوْقُ يُنْهَضُ وَالزَّمَانَةُ تُقْعَدُ
 أَوْدَى صِيَايَ وَغَاضَ مَاءُ نَعِيمِهِ
 وَذَوَى قَضِيبُ قَوَامِي الْمَتَأَوِّدُ
 وَآتَى الْمَشِيبُ يَزُورُنِي مُتَقَقِّدَا
 وَالشَّيْبُ أَبْغَضُ زَائِرٍ يَتَفَقَّدُ
 وَلَّى الشَّبَابُ وَشَرَّخُهُ، لَمْ يَبْقَ لِي
 بَعْدَ الشَّبَابِ وَشَرَّخِهِ مَا أَفْقَدُ

خَلَّتْ شَوَاتِي رُبْدَةُ الشَّعْرِ¹ الَّتِي
وَلَّتْ كَمَا خَلَّى لَبِيداً أُرْبُدُ²
وَتَكَاءَ دَنَنِي رَيْثَةً لَمْ أَدْرِهَا
فِي نَهَضَتِي، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَوْعِدُ

وقال أيضاً³:

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنِي جُوْدَرٍ
وَتَبَسَّمتُ عَنْ مِثْلِ سِمْطِي جَوْهَرٍ
عَنْ نَاصِيحٍ كَالدُّرِّ أَوْ كَالْبَرْقِ أَوْ
كَالطَّلَعِ أَوْ كَالْأَفْحْوَانِ مُؤَشِّرٍ
تَجْرِي عَلَيْهَا⁴ مِنْ لَمَاهَا نُظْفَةٌ
بَلْ خَمْرَةٌ لَكِنَّهَا لَمْ تَغْصُرِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ خَمِراً سُلَافاً رِيْقُهَا
تُزْرِي وَتَلْعَبُ بِالنَّهْيِ لَمْ تُحْظَرْ

¹ رُبْدَةُ الشَّعْرِ: غبرته وميله إلى لون الرماد.

² لَبِيد: أحد شعراء المعلقات؛ دخل الإسلام في شيخوخته. أما أُرْبُد فهو أخوه؛ هلك بصاعقة؛ أحرقتة بعد يوم أو يومين من الخطبة التي هاجم فيها لبيد الإسلام. فاعتبر ذلك سخطاً من الله؛ فرحل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل الإسلام.

³ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1. ونفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 5. وأزهار الرياض في أخبار عياض، ج: 2.

⁴ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((عليه)).

وَكَذَلِكَ سَاجِي جَفْنِهَا لَوْلَمْ يَكُنْ
فِيهِ مُهَنَّدٌ لَحْظُهَا لَمْ يُخْذَرْ
لَوْ عُجْتُ طَرَفَكَ فِي حَذِيقَةِ خَدِّهَا
وَأَمِنْتُ سَطْوَةَ صُدْغِهَا الْمُتَمَّـرِ
لَرَتَعْتَ مِنْ ذَلِكَ الْحِمَى فِي جَنَّةٍ
وَكَرَعْتَ مِنْ ذَلِكَ اللَّـمَى فِي كَوْثَرِ
طَرَفَتِكَ وَهَنَاءِ وَالنُّجُومِ كَأَنَّهَا
حَصْبَاءُ دُرٍّ فِي بَسَاطِ أَخْضَرِ
وَالرَّكْبُ بَيْنَ مُصْعَدٍ وَمُصَوِّبٍ
وَالنَّوْمُ بَيْنَ مُسْكِنٍ وَمُنْفَرٍ
بَيَاضاً إِذَا اعْتَكَرَتْ ذَوَائِبُ شَعْرِهَا
سَفَرَتْ فَأَزْرَتْ بِالصَّبَاحِ الْمُسْفَرِ
طَرَحَتْ¹ غَلَائِلَهَا فَقُلْتُ سَبِيكَهُ
مِنْ فِضَّةٍ أَوْ دُمِيَّةٍ مِنْ مَرْمَرِ
مَنَحَتِكَ مَا مَنَعَتْكَ يَقْظَانَا فَلَمْ
تُخْلِفْ مَوَاعِدَهَا وَلَمْ تَتَغَيَّرِ
وَكَأَنَّمَا خَافَتْ بُغَاةَ وَشَاتِهَا
فَأَتَتْكَ مِنْ أَرْدَافِهَا فِي عَسْكَرِ

¹ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((سرحت)).

وَبِجَزَعِ ذَاكَ الْمُحَنَّى أَدْمَانَةً
تَغْطُو فَتَسْطُو بِالْهَزْبِ الْقَسُورَ
وَتَحِيَّةُ جَاعَتِكَ فِي طَيِّ الصَّبَا
أَذْكَى¹ وَأَعْطَرُ مِنْ شَمِيمِ الْعَبْرِ
جَرَّتْ عَلَى وَادِيكَ فَضْلَ رِدَائِهَا
فَعَرَفْتَ فِيهِ عَرَفَ ذَاكَ الْإِذْخِرِ
هَاجَتْ بَلَابِلُ نَازِحٍ عَنْ الْفِيهِ
مَتَشَوِّقٌ ذَاكِي الْحَشَا مُتَسَعِّرِ
وَإِذَا نَسِيتَ لِيَالِي الْعَدِّ الَّتِي
سَلَفَتْ لَنَا فَتَذَكَّرِيهَا تَذَكَّرِي
رُحْنَا تُغْنِينَا وَنَرُشِفُ نُضْغَرَهَا
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِثْلَ عَيْنِ الْأَخْزَرِ
وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُفَضِّضٍ وَمُعَسَّجِدِ
الْجَوُّ بَيْنَ مُمَسَّكٍ وَمُعَصِّقِرِ

ومن شعره أيضاً قوله²:
سَحَّتْ بِسَاحِكَ يَا مَحَلَّ الْأَذْمَعِ
وَتَصَرَّمَتْ سَفَاً عَلَيْكَ الْأَضْلَعُ

¹ في أزهار الرياض: ((أزوكي))؛ بالزاي.
² هذه القصيدة موجودة في الإحاطة.

وَلَطَالَمَا جَانَتْ نَرَى الْأَمَالَ مِنْ
جَاوِي مُؤَمَّلِكِ الْغِيُوثِ الْهَمُّعُ
لِلَّهِ أَيْامٌ بِهَا قَضِيَّتْهَا¹
قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَرْجِعُ
فَلَقَدْ رَشَفْتُ بِهَا رُضَابَ مُدَامَةٍ
بِنَسِيمِ أَنْفَاسِ الْبَدِيعِ تُشَعِّشِعُ
فِي رَوْضَةٍ يُرْضِيكَ مِنْهَا أَنَّهَا
مَرْعَى لِأَفْكَارِ النَّدَامِ² وَمَشْرِعُ
تَجْرِي بِهَا فَقْرٌ سَكَنْتُ³ رَهَانَهَا
أَجْدَى بِمِيدَانِ الْكَلَامِ وَأَسْرَعُ
فَقْرٌ كَرِيعَانِ الشَّبَابِ وَعَهْدُنَا
بِجَنَابِهَا وَهُوَ الْجَنَابُ الْأَمْنَعُ
نَفَائِةُ الْأَنْوَاءِ فِي عَقْدِ الثَّرَى
وَالنَّفْثُ فِي عَقْدِ الثَّرَى لَا يَمْنَعُ
حَتَّى إِذَا حَاكَ الرَّبِيعُ بُرُودَهَا
وَكَسَا رُبَاهَا وَشَيْءُ الْمُتَوَّعِ

¹ لعلها: ((فقضيتها)).

² في نص: ((الندامي)).

³ في نص: ((كميت)).

بَدَأَتْ كَمَا تُمْ زَهْرَهَا تُبْدِي بِهَا
 بَدْعًا تَفَرِّقُ تَارَةً وَتَجْمَعُ
 قَدْ صُمَّ مِنْهَا مَا تَجْمَعُ مُغْلَقِ
 إِذْ بُتَّ مِنْهَا مَا تَفَرِّقُ مُصَوِّعِ
 وَكِلَاهُمَا مَهْمَا أَرَنْتِ مُسَالِمِ
 وَمُحَارِبِ وَمُؤْمِنِ وَمُرَوِّعِ
 كُلُّ لَهْ شَرَعَ الْبَيَانِ مُحَلِّ
 الْمُنْكَرِ فِي مِثْلِ هَذَا مُدَقِّعِ
 حَيْثُ ازْدَهَتْ أَنْوَارُ كُلِّ حَدِيقَةٍ
 أَبَا يُنْظِمُ تَارَةً وَيُسْجَعُ
 فَمُرْجَلٌ مِنْ رَقْمِهَا وَمُهَلَّلٌ
 وَمُسَمَّطٌ مِنْ نَظْمِهَا وَمُصَرَّعُ
 أَبْدَى الْبَدِيعِ بِهَا بَدَائِعَ صُنْعِهِ
 فَمُجَنَّسٌ وَمُبَدَّلٌ وَمُرَصَّعُ
 وَمُوشَّحٌ وَمُرَشَّحٌ وَمُصَدَّرٌ
 وَمُكَرَّرٌ وَمُفَرَّعٌ وَمُتَبَّعُ
 كُلُّ بَرُوقٍ بِهَا حُسْنٌ¹ رُؤَائِي
 وَإِذَا تُرِينُ بِهِ كَلَامَكَ تَبْرَعُ

¹ في طبعة عنان من الإحاطة: ((بحسن)).

وَلَقَدْ غَدَوْتَ بِهَا وَفِي وَكَنَاتِهَا
 طَنَزَ لَهَا فَوْقَ الْغُصُونِ تَرْجَعُ
 بِمُطَهَّمِ الْفِكْرِ الَّذِي مَا إِنَّ لَهُ
 إِلَّا بِمُسْتَنِّ الْأَدْلَاءِ مَرْتَعُ¹
 قَيْدُ الْمَطَالِبِ لَا نَزَالَ نُحْيُهُ
 بَيِّنَ الْجِيَادِ لِعَتَقِهِ أَوْ يُوضَعُ
 أَرْمِي بِهِ الْأَمَدَ الْبَعِيدَ وَإِنَّهُ
 حَمْلٌ يَضِلُّ بِهِ الدَّلِيلُ الْأَصْنَمُ
 مِنْ بَعْدِ مَا عَفَتِ السَّوَارِي سُبُلُهُ
 وَمَحَتْ مَعَالِمَهُ الرِّيَّاحُ الْأَرْبَعُ²
 لَكِنِّي جَدَدْتُ دَائِرَ رَسْمِهِ
 فَطَرِيقُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَهْيَعُ³

¹ في نص: ((مصرع)).

² هي رياح: الشمال والجنوب والصباء والديبور. والرياح الأربع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي: ﴿وَأَمَّا عَاتُ فَأُمْلِكُوا بِرِيحِ مَازِنٍ غَابِيَةٍ﴾ سورة الحاقة، الآية: 6. ثم: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيرَ﴾. سورة الذاريات، الآية: 41. ثم: ﴿وَالسَّيْلَانِ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَهِ الْأَرْضِ الْجَدِ بَارِكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. سورة الأنبياء الآية: 81. ثم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغِيَا قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّهُ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنِ نَحْنُ قَاتِلُونَ﴾. سورة يوسف؛ الآية 94.

³ المهيع؛ جمعه مهايغ: الطريق الواسع الواضح.

أَوْضَحْتَ فَهَمَ حُدُودِهِ وَضُرُوبِهِ
وَالْكُلُّ فِي كُلِّ الْمَسَالِكِ يَنْفَعُ
حَتَّى وَرَرْتُ مِنَ السَّمَاعِ مَوَارِدًا
فِيهَا لِظَمَانِ الْمَبَاحِثِ مَكْرَعُ
مَعَ كُلِّ مَصْقُولِ الذِّكَاءِ فَحَدَسُهُ
لِذِّكَاءِ أَسْرَارِ الطَّبَائِعِ مَطْلَعُ
يَرْتَادُ مِنْ نَجْعِ الْعَنَاصِرِ نَجْعَةً
فِيهَا مَصِيفٌ لِلْعُقُولِ وَمَرْبَعُ
لَأَشْيَاءٍ أَبْدَعَ مِنْ تَجَاوُرِهَا وَمَا
يُنْدَى بِهَا ذَاكَ التَّجَاوُرُ أَبْدَعُ
فَإِذَا تَشَعَّشَعَ مَرْجُهَا أَوْرِي بِهَا
نَارَ الْحَبَابِ مَرْجَهَا الْمُتَشَعَّشَعُ
فَمَكِينُ سِرِّ حَيَاتِهِ بِحُبَابِهَا
مَنْ بَعْدَ قَدْحِ زِنَادِهَا مُسْتَوْدَعُ
وَهُنَا تُقَاضُ عَلَيْهِ صُورَتُهُ الَّتِي
لِبَهَائِهَا شَمُّ الطَّبَائِعِ تَخْضَعُ
مِنْ وَاهِبِ الصُّورِ الَّتِي قَدْ خَصَّهَا
بِبَدِيعِ حِكْمَتِهِ الْحَكِيمُ الْمُبْدِعُ
رَبَّ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَةٌ
يَقْضِي بِهَا الْبَدْعِيَّ وَالْمُتَشَرِّعُ

وَحَلَّلْتُ مِنْ أَرْضِ الرِّيَاضَةِ أَرْبَعاً
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَهَا وَهَذِي الْأَرْبَعُ
قَامَتْ زَوَايَاهَا فَمَا أَوْتَاذُهَا
إِلَّا تَقْوَمُ مَا تُقِيمُ الْأَضْلَعُ
وَتَنَاسُبُ أَقْدَارُهَا نِسْباً لَهَا
لَوْ كُنْتُ تُبْصِرُهَا فُروغُ فُرْعُ
فَأَجَلٌ مَا قَدْ سَمَتُهُ بِحُلُولِهَا
مَنْ بَارِقَ لَجَنَابِ رُشْدِي يَلْمَعُ
لَا شَكَّ أَنَّ وَرَاءَهُ مَطَرٌ أَلَهُ
فِي كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ قِيَاسِي مَوْقِعُ
بَحْرُ رَوِيٍّ مُتَرَعٍّ مَلَأَهُ
مَنْ فَيْضِهِ هَذَا الرَّوْيُ الْمُتَرَعُ
لَمْ لَا أَضْيَعُ بِهَا عَهَادَ مَدَامِعِي
إِنِّي إِذَا لِعُهودِهَا لَمْضِيٌّ عُمُ
خَلِيٍّ لَوْ لَمْ تُسْعِدَانِي فِي الْبُكََا
لَقَطَعْتُ مِنْ حَبْلَيْكُمَا مَا يَقْطَعُ
أَرَأَيْتُمَا نَفْساً تَفَارِقُ جِسْمَهَا
وَبِهِ تَتَعَمَّهَا وَلَا تَتَوَجَّعُ
عَظُمَتْ رَزِيَّتُهَا وَأَيَّ رَزِيَّةٍ
ظَلَّتْ لَهَا أَكْبَادُنَا تَتَصَدَّعُ

هَٰذِي حَمَامُكَ يَا عَلِيُّ سَوَاجِعُ
وَأَخَالُهَا أَسْفَاً عَلَيْهَا تُسَجِّعُ
إِنْ طَارَحْتَنِي وَرَقُهَا فَبِأَضْلَعِي
شَوْقٌ يُطَارِحُهُ ادِّكَارٌ مُّوجِعُ
أَوْ عَلَى جِسْمِي الَّذِي فَارَقْتَهُ
لَا كُنْتُ مِمَّنْ جِسْمُهُ لَا يَرْجِعُ
وَمِنَ الْعُجَابِ رُجُوعٌ مَا أُوْدَى بِهِ
دَهْرٌ بِنَشْتٍ¹ الْأَحْيَاءِ مُوَلِّعُ
الْجُورُ مِنْهُ إِذَا اسْتَمَرَ طَبِيعَةً
وَالْعَدْلُ مِنْهُ إِذَا اسْتَقَامَ تَطْبَعُ
هَٰذِي عُقُوبَةُ زَلَّةٍ سَلَفَتْ بِهَا
مِنْ أَكْلِ طُعْمَتِهِ الَّتِي لَا تُشْبَعُ
قَدْ كُنْتُ أَمْتَعُ رَسَخَ نَفْسِي قَضَبُهَا
وَالْيَوْمَ أَوْجِبُ أَنَّهُ لَا يُمْتَعُ
لَمْ لَا وَقَدْ أَصْبَحْتُ بَعْدَ مَحَلَّةٍ
فِيهَا السَّحَائِبُ بِالرَّغَائِبِ تَهْمَعُ
دَارٌ يَدْرُ الرَّرْزُقُ مِنْ أَخْلَاقِهَا
وَلَكُمْ دَعَا دَاعٍ بِهَا مِنْ يُوضَعُ

¹ في نص: ((بِنَشْتٍ)).

وَكَأَنَّ مَجْلِسَهَا الْبَيْهَ بِصَدْرِهَا
 مَلِكٌ بِأَعْلَى دَسْتِهِ¹ مُتَرَبِّعٌ
 وَكَأَنَّ مَجْمَرَ عَضْنَبٍ بِفِنَائِهَا
 يُذَكِّي مَا قَدْ ضَاعَ² مِنْهُ يَسْطَعُ
 وَكَأَنَّهَا الْمُتَوَكِّلِيَّةُ³ بِهَجَّةٍ
 وَعَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ فِيهَا يُبْدِعُ⁴
 فِي حَجَرٍ ضَبٍّ خَافِضٍ بِجِوَارِهِ
 مَنْ كَانَ قَبْلَ لَهُ الْعَوَامِلُ تُرْقِعُ
 يَا نَفْثَةَ الْمَصْدُورِ كَمْ لَكَ قَضْبَلُهَا
 مِنْ زَفَرَةٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ تَسْقَعُ
 وَعَسَاكَ تَتَّقِعُ غُلَّةً بِكَ إِنِّهَا
 بِجَحِيمٍ مَا أَسْبَأَتْهُ لَا تُتَّقِعُ
 لِلَّهِ أَنْتَ مَذَاعَةً أَوْدَعْتَهَا
 مِنْ كُلِّ سِرٍّ بِالضَّمَائِرِ يُودَعُ

¹ في نص: ((دستها)).

² في نص: ((سيف)).

³ نسبة إلى الخليفة العباسي المتوكل.

⁴ هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر القرشي السامي؛ شاعر مبدع؛ له اختصاص بالخليفة العباسي جعفر المتوكل. ولد في سنة 188هـ/803م وتوفي في سنة 249هـ/863م.

بَدْوِيَّةٌ فِي لَفْظِهَا وَنِظَامِهَا
حَضَرِيَّةٌ فِيمَا بِهِ يُرْجَعُ
لَمْ لَا تَشْفَعُ فِي الَّذِي أَشْكُو بِهَا
وَمِثْلُهَا فِي مِثْلِهِ يُشْفَعُ
كَمَلْتُ وَمَا افْتَرَعْتُ فَأَيَّ خَرِيدَةٍ
لَوْ كَانَ يَفْرَعُهَا هُمَامٌ أَرْوَعُ
بَارَتْ عَلَيَّ فَأَصْبَحْتُ لِحَيَائِهَا
مِنْ بِيضَافِي مِرْطِهَا تَتَلَفَعُ

ومن بديع ما نظم أيضاً هذه القصيدة الرائعة¹:
تُرَاجِعُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ تَارِكُ
وَتَسْأَلُهَا الْعُتْبَى وَهِيَ فَارِكُ²
تَوَمَّلْ بَعْدَ التَّرْكِ رَجَعَ وَدَادُهَا
وَشَرُّ وَدَادٍ مَا تَوَدُّ التَّرَائِكُ

¹ الأبيات الأربعة الأولى وردت في نفح الطيب، وأزهار الرياض؛ ثم قفز المقرئ بعدها إلى الأبيات الستة الأخيرة؛ معللاً ذلك بقوله: أزهار الرياض: ((وهي من القصائد الطناتية؛ وتركها لطولها)). (ج: 2، ص: 305) ومن حسن الحظ أن ابن الخطيب قد أثبتها بكاملها في الإحاطة، قسم: 3.
² العُتْبَى: الاسترخاء. أما كلمة ((فارِك))؛ فمن الفرق: أي بغض المرأة زوجها. وقد فرقته تفرقه فهو فارِك.

حَلَّكَ مِنْهَا مَا حَلَّ¹ لَكَ فِي الصَّبَا
 فَأَنْتَ عَلَى حُلَاوِيهِ مُتْهَالِك
 تَظَاهَرُ بِالسَّلْوَانِ عَنْهَا تَجْمُلًا
 فَقَلْبُكَ مَحْزُونٌ وَتَغْرُكَ ضَاكِ
 تَنْزَهَتْ عَنْهَا نَضْوَةٌ لَا زَهَادَةَ
 وَشَعْرُ عِذَارِي أَسْوَدُ اللَّوْنِ حَالِك²
 لِيَالِي تُغْرِي بِي وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ
 زَنَايِبُ مِنْ ضَوَائِهَا وَعَوَاتِك
 غُصُونُ قُدُودٍ فِي حِقَافِ رَوَافِدِ
 تَمَائِلُ مِنْ ثِقَلِ بَيْنِ الْأَرَائِكِ
 تُطَاعِنُنِي مِنْهُنَّ فِي كُلِّ مَلْعَبِ
 تُدِي كَأْسُنَانِ الرِّمَاحِ فَوَاتِكِ
 وَكَمْ كِلَّةٍ فِيهَا هَتَكَتُ وَدُونَهَا
 صُنُورُ الْعَوَالِي وَالسُّيُوفِ الْبَوَاتِكِ
 وَلَا خِذْنِي إِلَّا مَا أَعَدَّتْ رَبِّيَنَهُ
 لِطَالِبِهَا أَوْ مَا تَحْيَّرَ هَالِكِ
 تُضِلُّ فَوَادَ الْمَرْءِ عَنْ قَصْدِ رُشْدِهِ
 فَوَاتِرُ الْخَاطِ لِلظُّبَا الْفَوَاتِكِ

¹ في الإحاطة: ((ما خلا لك)).

² عند هذا البيت انقطع اقتباس المقرئ في نفح الطيب وأزهار الرياض.

وفي كُلِّ سِنٍّ لَابِنِ آدَمَ وَإِنْ تَطْلُ
 سِنُوهُ طَيَّاعَ جَمَّةٍ وَعَوَائِكَ
 وَإِلَّا فَمَالِي بَعْدَ مَا شَابَ مَفَرِّقِي
 وَأَعْجَزَ رَأْيِي عَجَزٌ مِنَ الرِّكَارِكِ¹
 أَجُوبُ إِلَيْهَا كُلَّ بَيْدَاءٍ سَمَلَقَ
 تَرَأَفْتُنِي فِيهَا الرَّجَالُ الْحَوَاتِكِ²
 وَاسْتَرْتَدَّ الشَّهْبُ الشَّوَابِكُ جَارِ
 إِذَا اسْتَبَهَتْ فِيهَا عَلَيَّ الْمَسَالِكُ
 نَهَازِرُ أَمْثَالِ الْجِيَادِ تَوُودَةَ
 أَغْوَارِبُ أَمْثَالِ الْهَضَابِ تَوَامِكِ
 ظَمًا وَمَا غَيْرُ السَّمَاءِ مَوْرِدِ
 وَيَنْحَى وَمَا دُونَ الصَّوَاةِ مَبَارِكِ
 نَوَاهِلُ³ عَنْ عَضِّ الرَّجَالِ ظُهُورَهَا
 إِذَا مَا اسْتَكْتَتْ عَضُّ السُّرُوجِ الْمَوَارِكِ
 إِذَا مَا نَبَا عَنْ سُبُكِ الْأَرْضِ سُبُكِ
 هَلَعْنَ فَلَانَتْ تَحْتَهُنَّ السَّنَابِكُ

¹ هكذا ورد النص الذي حققه عنان في الإحاطة؛ بينما تصرف د. طويل؛ في طبيعته؛ فصوب هذا الشطر؛ حيث أضحي هكذا:

((وَأَعْجَزَ رَأْيِي عَجَزَهُنَّ الرِّكَارِكِ)). وذلك بحجة سلامة الوزن.

² أي الرجال المسرعون في السير.

³ حرقت في نسخة عنان؛ فكتبت: ((نَوَاهِلُ)).

تَقْدُ بِنَا فِي كُلِّ قَاعٍ وَفَدَقِدِ
بَوَائِكُهَا وَالْمُنْغِيَاتُ الدَّرَاهِكُ
فَأَمَامُهَا رَيٌّ كَالسَّحَابِ مَوَالِغِ
وَأَمَامُهَا رِكَأٌ كَالرِّيَّاحِ بَوَاشِكِ
قِلَاصٌ بِأَطْوَافِ الْجُدِيلِ بَوَالِغِ
وَجُرْدٌ لَأَوْسَاطِ الشَّكِيمِ عَوَالِكِ
تَرَامِي بِهَا لَيْدُ النُّوقِ كُلِّ مُرْتَمَى
فَهَنْ نَوَاحٍ لِلرَّدَى أَوْ هَوَالِكِ
وَكَمْ مَنْزِلٍ خَلَيْتُهُ لِطُلَّابِهَا
تُعْفِيهِ تَعْدِّي السَّافِيَاتِ السَّوَاهِكِ
يَمُرُّ بِهِ زُورُهُ وَعُقَاتُهُ
وَمَا إِنْ بِهِ إِلَّا لُصُوقُ الْحَبَائِكِ¹
وَأَثَارَتُنَا تُقَادِمُ عَهْدِهِمْ
وَهَنْ عَلَيْهِ جَائِثَاتُ بَوَارِكِ
لَوَارِبُ أَفْرَاسٍ وَنُؤَى حَذَاةِ
ثَلَاثُ أَثَافٍ كَالْحَمَامِ سَوَايِكِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ نَسْمَةُ الْفَجْرِ مِثْلَمَا
تَمُرُّ عَلَى طَيْبِ الْعَرُوسِ الْمَدَاوِكِ

¹ في نسخة عنان: ((وما أن به إلا الصُّوق الحَبَائِك)).

وَأَرْكَبُ كَالشَّهْدِ يَنْفَحُ بُرْدَهُ
لِمَجْهُولِ حَسِيٍّ مَا لَهُ لِلدَّهْرِ مُبَانِكِ
يَطْلُبُهَا مِنِّي غَرِيمٌ مُمَاحِكٌ
وَيَمْطُلُّنِي مِنْهَا عَدِيمٌ مُمَاعِكٌ¹
أَحْوَلُ مِنْهَا لِمَا تَعَذَّرَ فِي الصَّبَا
وَمِنْ دُونِهِ وَقَعُ الْحَمَامِ الْمُوَاشِكِ
يَسْلَى الْفَتَى مِنْهَا وَإِنْ رَاقَ حُسْنُهَا
حَسَائِفُ لَا تُحْصَى وَمَبَارِكِ
فَمِنْهَا مَلَلٌ دَائِمٌ لَا تَمَلُّهُ
وَتُرَوِّرُ إِفْكَ عَنْ رِضَى الْحَقِّ أَفْكَ
تَهَاوَنَ بِالْإِفْكِ الرَّجَالُ جَهَالَةً
وَمَا أَهْلَكَ الْأَحْيَاءَ إِلَّا الْأَفَائِكِ
تَزِنُ طُولَ تَسْهَادِي وَقُنْزِي تَمَلُّمِي
طَوَالَ اللَّيَالِي وَالنُّجُومِ النَّوَابِكِ
تَغْيِرُ عَلَى الدَّهْرِ مِنْهُ جَحَافِلُ
كَأَنَّ مُدَوِّمَ الرَّجْمِ فِيهَا نَبَارِكِ
فَلَيْتَ الَّذِي سَوَّدَتْ فِيهَا مُعَوِّضٌ
بِمَا بَيَّضَتْ مِنِّي نُجَاهَا الْحَوَالِكِ

¹ مماعك: المماطل؛ والمعك: اللجاج؛ ومعك: أي مطلقه، ودافعه.

أَلَا لَا تُذَكِّرُنِي تِلْمَسَانَ وَالْهَوَى
وَمَا دَهَكَتْ مِنَّا الْخُطُوبُ الدَّوَاهِكُ
فَإِنَّ ادِّكَارَ مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهَا
لِجِسْمِي وَلِلصَّبْرِ الْجَمِيلِ لِنَاهِكُ
وَلَا تَصِفَنَّ أُمُوهَا لِي فَإِنَّهَا
لِنِيرَانِ أَشْوَاقِي إِلَيْهَا مَحَارِكُ
وَمَنْ حَالَ عَنْ عَهْدٍ أَوْ أَخْفَرَ زِمَّةً
فَإِنِّي عَلَى تِلْكَ الْعُهُودِ لَرَامِكُ
سَقَى مَنْزِلِي فِيهَا وَإِنْ مَحَّ رَسْمُهُ
عَهْدُ الْغَوَادِي وَالذُّمُوعُ السَّوَافِكُ
وَجَاءَتْ ثَرَى قَبْرِ بِمَسْجِدٍ صَالِحٍ
رَوَاعِدُهَا وَالْمُنْخِمَاتُ الْحَوَاشِكُ
وَلَا أَقْلَعْتُ عَنْ دَارِ يُونُسَ مُزْنَةً
يُرْوَى صَدَاهُ لِقَطْرِهَا الْمُتَدَارِكُ
إِلَى أَنْ يَرُوقَ النَّاطِرِينَ رُؤُوهَا
وَيَرْضِي الرُّعَاوَى نَبْتَهَا الْمُتَلَاكِ
وَيُصْبِحُ مِنْ حَوْلِ الْحَيَا فِي عِرَاصِهَا
زُرَّاقٌ تَحْكِي بُسْطَهَا وَدِرَازِكُ¹

¹الدرانك: ضرب من البسط.

وَلَا بَرَحَتْ مِنْهُ مَلَائِكَةُ الرِّضَى
 تُصَلِّي عَلَى ذَاكَ الصَّدَى وَتُبَارِك
 وَطُوبَى لِمَنْ رَوَى مَنَازِلَهُ الْحَيَا
 وَبُشْرَى لِمَنْ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكُ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُقَضِّي لُبَانِي
 إِذَا مَا تُقَضَّتْ عَشْرٌ عَلَيْهَا نَكَابُكَ
 وَهَلْ تَمَكَّنَ الطِّيفُ الْمَغِيبُ زِيَارَةَ
 فَيَرْقُبُ أَوْ تُلْقَى إِلَيْهِ الرُّوَامُكَ
 وَهَلْ تَغْفُلُ الْإَيَّامُ عَنْهَا بِقَدْرِ مَا
 تُودِي إِلَيْهَا بِالْعِتَابِ الْحَالِكِ
 وَيَا لَيْتَ شِعْرَايَ أَرْضٌ تُقَلِّنِي
 إِذَا كَلَّ عَنْ رَحْطِي الْجَلَالُ اللَّكَّالِكِ
 وَأَيُّ غُرَارٍ مِنْ صَفَاهَا يَحْتُثِّي
 إِذَا فَقَدْتَنِي مَسَّهَا وَالذَّكَادِكِ
 إِذَا جَهَلَ النَّاسُ الزَّمَانَ فَإِنِّي
 بِدُونِهِمْ دُونَ الْأَنَامِ لَحَاكِ
 تَنَبَّأْتُ إِذَا مَا قُمْتُ تَعْمَلُ خُطْوَةً
 فَإِنَّ بَقَاعَ الْأَرْضِ طُرّاً شَوَائِكِ
 وَلَا تَبْذِلَنَّ وَجْهَهَا لِصَاحِبِ نِعْمَةٍ
 فَمَا مِثْلُ بَذْلِ الْوَجْهِ لِلِسِتْرِ هَائِكِ

تَجَشَّمُ مَا اسْتَطَعْتَ وَاحْذَرْ أَذَاهُمْ
وَلَا تَلْفَهُمْ إِلَّا وَهَرَكْ شَانِكَ
فَكُلْ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ حَاسِدٌ
وَكُلْ إِذَا لَمْ يَعْصِمِ اللَّهُ حَاسِكَ
وَلَا تَأْسَ رِيْبَةَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
بِمَنْ فَاتَ مِنَّا لَا مَحَالَةَ فَاتِكَ
تَمَنَّى مُصَابَ بَرِّبِرٍ وَأَعَارَهُ
وَتَرَضَى نَكَامَى فَارِسٍ وَالْهَنَادِكَ
وَبَدَرْتُ اللَّيْلَ¹ الْجَوْنَ حَوْضِي لِحَاجِهَا
وَتَعْرِفُ إِقْدَامِي عَلَيْهَا الْمُهَالِكِ
فَمَا أَدْعَاةَ إِلَّا إِلَيَّ عُشَارِ
وَلَا أَصْفَقْتُ إِلَّا عَلَيَّ الشَّكَاشِكِ
وَلَا قَصَدْتُ إِلَّا فَنَائِي وَقُودُهَا
وَلَنْ أُمَلْتُ إِلَّا قَتَامَى الضَّرَارِكِ
بِهِ شَرُفْتُ أَنْوَاؤُهَا وَمُلُوكَهَا
كَمَا شَرُفْتُ بِالنَّوْيَهَارِ الْبَرَامِكِ

¹ في نسخة عنان: ((وبدرت الليالي))

فَلَا تَدْعُونَ غَيْرِي لِذَفْعِ مُلِمَّةٍ
 إِذَا مَا دَهَى مِنْ حَابِثِ الدَّهْرِ دَاهِك¹
 فَمَا إِنْ لَذَاكَ الصَّوْتِ غَيْرِي سَامِعُ
 وَمَا إِنْ لَبِيتَ الْمَجْدَ بَعْدِي سَامِك²
 يَغْصُ وَيَسْجَى نَهْشَلٌ وَمُجَاشِع³
 بِمَا أَوْزَنْتَنِي حِمِيرٌ وَالسَّكَاسِك⁴
 تُفَارِقُنِي الرُّوحُ⁵ الَّتِي لَسْتُ غَيْرَهَا
 وَطِيبُ ثَنَائِي لِأَصِقْ بِي صَائِك⁶
 وَمَاذَا عَسَى تَرْجُو لِدَائِي وَأَرْتَجِي
 وَقَدْ شَمِطْتَ مِنِّي⁷ اللَّحَى وَالْأَفَانِك⁸

¹ في نفح الطيب: ((داعك)). والداهك: هو الكاسر الطاحن؛ من دَهَكَ الشيء؛ أي طحنه وكسره. وهنا استمر المقري في الاقتباس؛ وأثبت ذلك في كتابيه: نفح الطيب، وأزهار الرياض.

² السَامِك: هو الرافع لقواعد البناء. من ذلك؛ قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَطْأً

أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَبْكَهَا فَسَوَاهَا﴾. سورة النازعات؛ الآيتان: 27 - 28.

³ نهشل بن مرهبة: بطن من قبيلة همدان القحطانية. أما مُجَاشِع بن دارم: فبطن من قبيلة حنظلة العدنانية.

⁴ حِمِير بن سبأ: قبيلة قحطانية عظيمة. أما السَّكَاسِك؛ فهم بطن من قبيلة حمير.

⁵ في الإحاطة: ((روحي)).

⁶ أي لاحق بي.

⁷ في الإحاطة: ((منا)).

⁸ الأفاتك؛ مفردا إفيك: وهو مجمع اللحين. وقد كتبت هذه الكلمة في النفح: ((الأفانك)).

يَعُودُ لَنَا شَرَحُ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى
إِذَا عَادَ لِلدُّنْيَا عَقِيلٌ وَمَالِكٌ

ومن شعره الشهير قوله¹:
أَرْقَ عَيْنِي بَارِقٌ مِنْ أَثَالٍ
كَأَنَّهُ فِي جُنْحٍ لَيْلِي ذُبَالٌ
أَثَارَ شَوْقاً فِي ضَمِيرٍ² الْحَشَا
وَعَبَّرَتِي فِي صَحْنٍ خَدِّي أَسَالٌ
حَكَى فُؤَادِي قَلَقاً وَاشْتِعَالَ
وَجَفَنَ عَيْنِي أَرْقاً وَانْهَمَالَ
جَوَانِحُ تَفَاحٍ نِيرَانُهَا
وَأَذْمَعُ تَهْلُ مِثْلَ الْعَزَالِ³
قُولُوا وَشَاةَ الْحُبِّ مَا شِئْتُمْ
مَا لَذَّةَ الْحُبِّ سِوَى أَنْ يُقَالَ
عُذْرًا لِلْوَامِي⁴ وَلَا عُذْرَ لِي
فَزَلَّةُ الْعَالِمِ مَا إِنَّ تُقَالَ

¹ هذه القصيدة توجد في الإحاطة، قسم: 3. ونفح الطيب، ج: 5. وأزهار الرياض ج: 2.

² في أزهار الرياض: ((من صميم)).

³ يقصد بكلمة ((العزال))؛ العزالي: وهو مصب الماء من الراوية.

⁴ في أزهار الرياض: ((أعذر لوامي)).

قُمْ نَطْرُدُ الْهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ
 تَقْصُرُ اللَّيْلَ إِذَا اللَّيْلُ طَالَ
 وَعَاطَهَا صَفْرَاءَ ذِمِّيَّةٍ
 تَمْنَعُهَا الذِّمَّةُ مِنْ أَنْ تُتَالَ
 كَالْمِسْكِ رِيحاً وَاللِّمَى مَطْعِماً
 وَالتَّبَرُّ لَوْناً وَالْهَوَا فِي اعْتِدَالٍ
 عَقَّهَا فِي الدَّنِّ خَمَّارُهَا
 وَالْبَكْرُ لَا تَعْرِفُ غَيْرَ الْحِجَالِ
 لَا تُثْقِبِ الْمِصْبَاحُ¹ لَا وَاسْقِنِي
 عَلَى سَنَى الْبَرْقِ وَضُوءِ الْهَلَالِ
 فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالرَّدَى يَقْطَعُ
 وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَهُمَا كَالْخِيَالِ
 خُذْهَا عَلَى تَنْغِيمِ مِسْطَارِهَا²
 بَيْنَ خَوَابِيهَا وَبَيْنَ الدَّوَالِ
 فِي رَوْضَةِ بَاكِرٍ وَسَمِيَّهَا³
 أَخْمَلَ دَارَيْنِ وَأَنْسَى أَوَالَ⁴

¹ أي لا تجعل ضوء المصباح ساطعاً.

² أي خمرها المؤثرة؛ التي تصرع شاربها.

³ الوسمي: هي مطر الربيع الأول.

⁴ أوال: هو الاسم القديم للبحرين.

كَأَنَّ فَارَ الْمِسْكِ مَغْبُوقَةٌ¹
فِيهَا إِذَا هَبَّتْ صَبَاً أَوْ شَمَالَ
مِنْ كَفٍّ² سَاجِي الطَّرْفِ أَلْحَاطُهُ
مُفَوَّقَاتٌ أَبَدًا لِلنُّضَالِ
مَنْ عَانِدِي وَالْكُلُّ لِي عَازِرٌ³
مِنْ حَسَنَ الْوَجْهِ قَبِيحُ الْفِعَالِ
مِنْ خُلْبِي الْوَعْدِ كَذَابُهُ
لَيَّانَ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْمِطَالِ
كَأَنَّهُ الدَّهْرُ وَأَيُّ امْرِئٍ
يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ⁴ إِذَا الدَّهْرُ حَالَ
أَمَّا تَرَانِي أَخِذَاً نَاقِضاً
عَلَيْهِ مَا سَوَّغَنِي مِنْ مُحَالٍ
وَلَمْ أَكُنْ قَطُّ لَهُ عَائِباً
كَمِثْلِ مَا عَابَتْهُ قَبْلِي رِجَالُ
يَأْبَى ثَرَاءَ الْمَالِ عِلْمِي وَهَلْ
يَجْتَمِعُ الضُّدَانِ عِلْمٌ وَمَالٌ

¹ في النفع والأزهار: ((مفتوقة)).

² في الإحاطة: ((مِنْ كُلِّ)).

³ نفسه: ((عاذل)).

⁴ في الإحاطة: ((على حال)).

وَتَأْنَفُ الْأَرْضُ مَقَامِي بِهَا
 حَتَّى تَهَادَانِي ظُهُورُ الرَّحَالِ
 لَوْلَا بَنُو زَيْانَ مَا لَذَلِّي الْـ
 عَيْشُ وَلَا هَانَتْ عَلَيَّ اللَّيَالِ
 هُمْ خَوَّفُوا الدَّهْرَ وَهُمْ خَفَّفُوا
 عَلَى بَنِي الدُّنْيَا¹ خُطَاهُ النَّقَالِ
 وَرِثْتُ² مِنْ عَامِرِهِمْ سَيِّدًا
 غَمَرَ رِذَاءَ الْحَمْدِ جَمَّ³ النَّوَالِ
 وَكَعْبَةَ الْجُودِ مَنْصُوبَةً
 يَسْعَى إِلَيْهَا النَّاسُ مِنْ⁴ كُلِّ حَالِ⁵
 خُذَهَا أَبَا زَيْانَ مِنْ شَاعِرٍ
 مُسْتَمْلِحٍ⁶ النَّزْعَةَ عَذْبِ الْمَقَالِ
 يَلْتَقِظُ الْأَلْفَافَ لَفْظِ النَّوَى⁷
 وَيَنْظِمُ الْأَلَاءَ نَظْمَ اللَّالِ

¹ في الإحاطة: ((الدَّهْرُ)).

² في النفح: ((لَقِيتَ))، وفي الأزهار: ((أَلْقَيْتَ)).

³ في الإحاطة: ((غَمَرَ)).

⁴ في الأزهار: ((فِي)).

⁵ في النفح: ((بِال)).

⁶ في الأزهار: ((مُسْتَعْذِبٍ)).

⁷ جاء هذا الشطر في نفح الطيب هكذا: ((يَلْتَقِظُ الْأَلْفَافَ لَفْظِ النَّوَى)).

مُجَارِيًا مَهْيَارًا¹ فِي قَوْلِهِ
(مَا كُنْتُ لَوْلَا طَمَعِي فِي الْخَيَالِ)²

قال في مدحه لأبي سعيد بن عامر؛ هذه القصيدة؛
التي اعتبرت من غرر القصائد؛ حيث تعرض
أيضاً فيها إلى الوحشة الواقعة بينه وبين كاتب
البلاط الزيّاتي أيام يغمراسن؛ الشاعر الأديب أبو
بكر بن خطّاب³:

مَشُوقٌ زَارَ رَبْعَكَ يَا إِمَامَا
مَحَا آثَارَ دِمْنَتِهَا النَّتَامَا⁴
تَتَّبَعَ رِيقَةَ الطَّلِّ ارْتِشَافَا
فَمَا نَفَعَتْ وَلَا نَفَعَتْ أُوَامَا
وَقَبْلَ خَذِّ وَرَدَّتِهَا جِهَارَا
وَمَا رَاعَى لِضُرَّتِهَا ذِمَامَا

¹ هو أبو الحسن مهيار بن مروزيّة الديلمي. كاتب وشاعر فارسي؛ كان
ماجوسياً فأسلم سنة 494هـ/1100م؛ على يد شيخه الشريف الرضي. ولد
بوطنه الديلم في حدود 428هـ/1036م وتوفي ببغداد.

² مطلع قصيدة مهيار التي عارضها ابن خميس جاء هكذا:
مَا كُنْتُ لَوْلَا طَمَعِي فِي الْخَيَالِ أَنَسُدُ لَيْلِي بَيْنَ طُولِ اللَّيَالِ

³ ورد في أزهار الرياض البيتان: الأول والثاني فقط من هذه القصيدة.
بيمنا وردت القصيدة كلها في الإحاطة.

⁴ في أزهار الرياض: ((الشأما)).

وما لحريم بيترك أن يداني
ولا لعل¹ قذك أن يساما
ولكن عاش في رسم لمغنى
تجشمه سلاماً واستلاماً
تنفس روضة المطول وهنا
فحن وشم ريّاه فهاما
تلقى طيباً بـ....ته² حديثاً
روت مسنداً عنه النعاما
فيا نفس الصبا إن جيت ساحا
ولم تعرف لساكنها مقاما
وأخطأت الطريق إلى حماها
فردتك العرادة والخزّاما
فلا تبصر بسرحتها قضيباً
ولا تذعر بمسرحها سواما
وعانق قربانتها ارتباطاً
وصافح كف سوسنها التزاما
ونافح عرف زهرتها كباً
تعاطك ماء ريقها مداما

¹ جعلها د. طويل: ((لعلّي))؛ من أجل الوزن.
² كلمة ممحاة بعض أحرفها في الأصول.

ويا برقاً أضاء على أوال
يمانياً متى جيت الشامأ
أنغر إمامة أنت ابتساماً
أم الدر الأوامى انتظاما
خفقت ببطن واديها لوأ
ولحت على ثبيتها حساما
أمشبه قلبي المضنى احتداما
على مَ ذنت عن عيني المناما
ولم أسهرتني وطردت عني
خيالاً كان يأتيني لماما
وأبلغ منه تأريقاً لجفني
كلام أثخن الأحشا كلاما
تعرض لي فأيقظت القوافي
ولو ترك القطا يوماً لناما
وقيل وما أرى يومي كأمسي
جدعت رواطباً وقلبت هاماً
وجرعت العدو سماً زعافاً
فكان لحسد موتاً زواما
دعوت زعيمهم ذاك ابتياسا
ورعت خميسهم ذاك اللماما

نزعـت شـواهـ كـبـشـهـم نطـاحـا
ولـم أـتـرك لـقـرمـهـم سـنـامـا
أضـام وفـي يـدي قـلـبي لـمـاذا
أضـام أبـا سـعـيـد أو عـلامـا
بـه وبـما أذـلق مـن لـسانـي
أقل الصارم العضب انهزاما
وغرام الوزير أبي سعيد
أصرفه إذا شئت انتقاما
بـه وبـنـجـله البـر انتـصـاري
لـمـا أكلـوه مـن لـحمـي حـرامـا
أعثـمان بـن عـامـر لا تـكـلـني
لـدهـر عـلم الشـح الغـمام
وربت فلم أرد إلا سرايا
وشمت فلم أشم إلا جهاما
قطعت الأرض طولاً ثم عرضاً
أزور بني ممالكها الكراما
وجا جانبي على كرم ندامهم
وأعجلت الخوافي والقداما
وذلت المطامع من إياي
وقبلت البراجم والسلاما

ومن أدبي نصبت لهم حبالا
أصيد بها النعام ولا النعاما
فلم أر مثل ربعي دار أنس
ولم أر مثل عثمان إماما
ولا كأبيه أو كنى أبيه
أبي يحيى غيوثاً أو رهاما
كفاني بابت عامر خفض عيش
ورفع مكاتبي إلا أضاما
وإني من ولايك في يفاع
أقابل منهم بدرهم التمام

وقال ابن الخطيب في تقديم مقامة لابن خميس؛
مستهلة بالقصيدة الموالية؛ فعلق قائلاً: ((وهذا الرجل
مغرب النزعة، في شغوف نظمه على نثره))¹؛
عجباً لها أيدوق طعم وصالها
من ليس يطمأن² يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تلة ساعة
منها وتمنعني زكاة جمالها

¹ هذه القصيدة موجودة في الإحاطة، والنفح، والأزهار.
² في النفح، والأزهار: ((يأمل)).

كم ذا وعن¹ عيني الكرى متأنف
 يبدو ويخفى في خفي مطالها
 يسمو لها بدر الدجا متضايلاً
 كتضائل الحسناء في أسماها²
 وابن السبيل يجيء يقبس نارها
 ليلاً فتمنحه عقيلة مالها³
 يعتادني في النوم طيف خيالها
 فتصيبني ألحاضها بنبالها
 كم ليلة جادت به فكأنما
 زُفَّت عليّ ذكاء⁴ وقت زوالها
 أسرى فَعَطْرُهَا وَعَطْلُ شَهْبَهَا
 يَأْبَى شذا المعطار من معطالها⁵
 وسواد طرته كجرح ظلامها
 وبياض غرته كضوء هلالها

¹ كتبت نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((كم زاد عن)).

² اقتبس هذا الشطر بتصريف عن أبي تمام؛ الذي قال:

((كسيت سبائب لؤمه فتضائلت كتضائل الحسناء في الأطمار)).

³ عقيلة المال: أكرمه.

⁴ ذكاء: اسم الشمس.

⁵ ورد هذا البيت في نفع الطيب وأزهار الرياض هكذا:

((أسرى فَعَطْلُهَا وَعَطْلُ شَهْبَهَا بلبي شذا المعطار من معطالها)).

دعني أشم بالوهم أننى لمحّة¹
 من ثغرها وأشم مسكة خالها
 ما راد طرفي في حديقة خدها
 إلا لفتنته بحسن دلالها
 أنسيب شعري رق مثل نسيمها
 فشمول راحك مثل ريح شمالها
 وانقل أحايث الهوى وأشرح غريب
 بب لغاتها وأذكر ثقات رجالها
 وإذا مررت برامة فتوق من
 أطلالها² وتمش في أطلالها
 وانصب لمغزلها حباله قانص
 ودع الكرى شركا للصيد غزالها
 وأسل جداولها بفيض دموعها
 وانضح جوانحها بفضل سجالتها
 أنا من بقية معشر عركتهم³
 هذي النوى عرك الرّحى بثقالها³

¹ في النفخ، والأزهار: ((لمعة)).

² الأطلال؛ مفرد لها: طلاء؛ وهو ولد الظبية.

³ في النفخ والأزهار: ((بثقالها)). وهو أصح؛ لأنه اقتبس هذا عن زهير ابن أبي سلمى في قوله:

((فتعركم عرك الرّحى بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتنتم)).

أكرم بها فئة أريق نجيعها
بغياً فراق العين حسن جمالها¹
حلت مدامة وصلها وحلت لهم
فإن انتشوا فجلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالها
أحد وناء بها لبعده منالها
وعنت على سقراط² صورة³ كأسها
فهريق ما في الدن من جريالها
وسرت إلى فاراب منها نفحة
قدسية جاءت بنخبة آلهة⁴
ليصوغ من ألعانه في حانها
ما سوغ القسيس من أرمالها

¹ في النفح، والأزهار: ((مآلها)).

² هو الفيلسوف اليوناني الأول؛ (469-399)؛ لم يترك كتابات تعرف بفلسفته؛ وإنما نقل تلاميذه أفكاره؛ ومن أهم تلاميذه أفلاطون.

³ في النفح، والأزهار: ((سورة)).

⁴ فاراب: مدينة تتواجد في بلاد ما وراء النهر؛ وتعرف اليوم بتركستان. وينسب إليها الفيلسوف المعظم الثاني؛ شارح أريسطو أبو نصر محمد الفارابي؛ ولد سنة 257هـ/870م؛ وتوفي سنة 339هـ/950م. ويلمح الشاعر هنا إلى الفارابي؛ كونه ألف في الموسيقى؛ بل طور الآلة المسماة بالقتون؛ كما أنه أول من قدم وصفاً لآلة الرباب ذات الوتر الواحد، والوترين المتساويين في القلظة، بالإضافة إلى أنه أول من عرف الموسيقى ومصطلحها، إلى جانب أنه قد ابتكر بعض المصطلحات الموسيقية؛ وأسماء الأصوات التي بقيت مستعملة إلى الآن.

وتعلقت¹ في سَهَرَوَرْدَ² فأَسْهَرَتْ
 عينا يُورَقُهَا طروقُ خيالها
 فخبأ شهاب الدين لما أشرقَتْ
 وخبأ³ فلم يثبت أنور جلالها
 ما جن مثل جنونه أحد ولا
 سمحت يد بيضاء بمثل نوالها
 وبدت على الشُّوْذِي⁴ منها نفحة⁵
 ما لاح منها غير لمعة ألها
 بطلت حقيقة وحالت حاله
 فيما يعبر عن حقيقة⁶ حالها

¹ في النفح والأزهار: ((وتغلقت)).

² هي بلدة تقع في الجبال القريبة من زنجان؛ شمال غرب إيران. ينسب إليها الشيخ الصوفي شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي؛ يكون قد ولد في حدود سنة 554هـ/1150م أو 550هـ/1155م. وقتل في عام 587هـ/1190م؛ بأمر من الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين. وهو مؤسس حكمة الإشراق؛ التي يتضمنها كتابه الشهير "حكمة الإشراق"؛ وهو الذي يشير إليه الشاعر في البيت الموالي.

³ في النفح والأزهار: ((وخوى)).

⁴ هو الشيخ الولي الصالح الزاهد أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي؛ لأنه كان يبيع الحلوى للصبيان. ويقال أنه تولى القضاء في إشبيلية أيام الدولة الموحدية؛ فترك ذلك وهاجر إلى تلمسان؛ التي استوطنها، ودفن بها. سبق الحديث عنه.

⁵ في النفح، والأزهار: ((نشوة)).

⁶ نفسيهما: ((حقيقة))؛ وهو أسلم.

هذي صبابتهم ترق صباية
فيروق شاربها صفاء زلالها
إعلم أبا الفضل بن يحيى أنني
من بعدها أجري على آسالتها¹
فإذا رأيت مؤلّها² مثلي فخذ
في عدله إن كنت من عدالها
لا تعجبن لما ترى من شأنها
في حلها إن كان أو ترحالها
فصلاحها بفسادها ونعيمها
بعذابها ورشادها بضلالها
ومن العجايب أن أقيم ببلدة
يوماً وأسلم من أذى جهالها
شغلوا بدنياهم أما شغلّتهم
عني فكم ضيعت من أشغالها
حببوا بجهلهم فإن لاحت لهم
شمس الهدى عشوا³ بضوء ذبالها

¹ في أزهار الرياض: ((أحرى على آمالها)). ومن هنا؛ وحتى آخر القصيدة غير وارد في نفح الطيب؛ بينما هو موجود في أزهار الرياض.
² في الأزهار: ((مؤلّها)).
³ في أزهار الرياض: ((عشوا)).

وإن انتسبت فأني من نوحه
 تتقيل الأقيال برد¹ ظلها
 من حمير من ذي رعين من ذرى²
 حَجَرٍ من العظماء من أقيالها
 وإذا رجعت لطينتي معني فما
 سَلَسَالُهُمْ³ بأرق من صلصالها
 لله درك أي نجل كريمه
 ولدته فاس منك بعد حبالها⁴
 ولأنت لا عمتك والد فخرها
 وسماك سوددها وبدر كمالها
 أغظ على من عاث من أنذالها
 واخشع لمن تلقاه من أبدالها
 والبس بما أوليتها من نعمة
 حل الثناء وجر من أذيالها
 خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة
 جاعتك لم ينسج على منوالها

¹ ورد هذا الشطر في أزهار الرياض هكذا: ((بغيا الإنسان بردَ ظلها)).

² في الأزهار: ((ذوي)).

³ نفسه: ((سلساله)).

⁴ نفسه: ((حبالها)).

ما جال في مضمارها شعر ولا
سمحت¹ قريحة شاعر بمثالها
واتل أبا البركات من بركاتها
وادفع محال شكوكه بمحالها²

¹ في الأزهار: ((سحت)).
² نفسه: ((من آله)).

نثر ابن خميس

هذه أمتع الله ببقايتك، وأسعد ببقايتك. وأراها
بما تؤمله من شريف اعتنايك، وترجوه من جميل
لحتفايك، ما تعرف به من احتذايك، وتعترف له
ببركة اعتفايك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات
والأحياء، بنت الأنواء والأقيال، ومقصورة الأسيرة
والحجال؛ بل أسيرة الأساوير والأحجال. على أنها
حليفة آلام وأوصاب، وأليفة أشجان وأطراب، صباية
أغراب وصباية أعراب، جاورت سيف بن ذي يزن
في رأس غمدان، وجاوزت مسلمة بن مخلد يوم
جابية الجولان، وذلت لسان ابن أخته حسان،
فتضاءلت لركة حده جسوم بني عبد المदान، وقربه
وماشيم من غمده قيد ابن الإطنابة بين يدي
النعمان، قربت ببني جفنة مزار جلق، وسعرت
لبني تميم نار محلق؛ ومرت على معناد غالب،
فما أنست ناره، وطافت ببيت عبد الله بن دارم،
فلم ترض جواره، ولو حلت بفناية، واستحلت ما
أحل لها من مبذول حبائه، لاغفر لها ما جنته
ببطن أواره، ولحلت لها حبواً مجاشع وزرارة، مزقت

على مزيقيا حلاً، وأذهبت يوم حليلة مثلاً،
وأركبت عنزاً شر يومها يجدع¹ جملاً، وناطت
بأن مارية قرطها، وجرت على أثر الكندي
مرطها، وقفها بين الدخول فحومل فوقفت، وأنفها
يوم دارة جلجل فأنفت منه ومنا ألفت، عقر ناقته
وانتهس عبطها، ودخل خدر عنيزة وأمال غبطها،
وأغرت أبا قابوس بزياد، واسرجت للزبيدي فرس
أبي داود²، ونافرت بحاتم طي كعب إباد، وساورت
للمساور بمثل جوده السائر. ولئن بلت الجعفري
ليبدأ، فالقد استعبدت الأسدي عبيداً، وقطعت به في
أثر سليمان الأسدي³ يبدأ، أرته المنية على حربة
هندها الملحوب، وما حال قريضه دون جريضه،
وأقفر من أهله ملحوب، وما زالت تخبط في
شعاب الأنساب، فترشد، وتنشد ضالتها اليمانية، فتشد:

إن كنت من سيف بن ذي يزن
فانزل بسيف البحر من عدن

¹ في نص كما ذكر عنان دون تحديد: ((يحدج)).

² في نص أيضاً: ((أدو اد)).

³ في نص أيضاً: ((الأمهرية)).

وذر الشام وما بناه به الر
رومي من قصر ومن فدن

تعلف سيل العرم، وترد غسان، وتمهد لها
أهضام تبالة، فتقول (مرعى ولا كالسعدان)¹، تساجل
عن سميحة بابن خرام، وتتاضل بسمير يوم خزام،
وتتسى قاتل ستة آلاف، وكاسي بيت الله الحرام
ثلاثة الأفواف، فلو ساجلت بنبعها أبا كرب، وأرته
ضراعة خدها الترب، لساجلت به أخضر الجلدة في
بيت العرب، ماجداً يملا الدلو إلى عقد الكرب، بل
لو حطت بفناء بيتها الحجري رحلها²، وساجلت
بفناء حدها ذي رعين، لاستوفت سجلها. كم عانت
بسيفها اليزني، فأدركت ذلها، ولانت بركنها اليمنى
فأجزل محلها. ولو استسقت بأوديتها، لأذهبت محلها.
كافحت عن دينها الحنيفي، فما كههم حسامها،
ونافحت عن نبيها الأمي، فأيدت بروح القدس
سهامها. سدت باب الدرب نون بني الأصفر، وشدت

¹ مرعى ولا كالسعدان: والسعدان عشب جيد للرعي؛ إذ يخثر اللبن،
ويكثر دسمه. وهذا المثل يضرب للشبي الذي يفضل أقرانه وأشباهه.
وأول من قال هذا المثل هي الخنساء بنت عمرو. والمراد هو: هذا مرعى
جيد؛ ولكنه ليس كالسعدان في جودته.
² في نص: ((رجلها)).

لموته ثوب موت أحمر، وما شغلها كسر تاج
كسرى عن قرع هامة قيصر. ولقد حلت من
سنام نسبها اليعربي باسمك ذروة، وتعلقت من نمام
نبيها العربي بأوثق عروة. تقرد صاحب تيماء
بأبلقه الفرد فعز، وتمرد ربُّ نومة الجنل لما كان
من مارد في حرز، فما ظنك، أعزك الله، بمن
حل من قدسي عقله، بمعقل قدس، يطار إليه فلا
يطار، وراد من فردوس أدبه، في جنة لا يضام
رايدها ولا يضار. زها بمجاورة الملك فازدهى
رؤساء الممالك، وشغف بمجاورة الملك، فاشتغل عن
مطالعة المسالك، أيشق غباره، وعلى جبين المرزم
مثاره، أو ينتهك ذماره، وقلب الأسد بيته، ودار أخيه
أسامة زاره. ولما قضت من أنديتها العربية
أوطارها، واستوفت على أشرف منازعها الأدبية
أطوارها، وعطرت بنوافح أنفاسها الذكية آثارها،
وأطلعت في ظلم أنفاسها الدجوجية كواكبها النيرة
وأقمارها، عطف على معقاتها الشاذلية فحلت
عقالها، وأمر لها فراق الوطن. فلما استمر لها
حلالها، استودعت بطنان تباله آلهاء، وتركت أهضامها
المخصبة وحلالها. أطلت على دارات العرب فحيت
أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية، أنواء حمير

وأقيالها. أطمعنها بلمعية ألمعيتها الأعجمية، ومثلها يطمع، وجاء بها من قدماء الحكماء كل أوحدي الأحونية، فبانت تخب إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارتهم¹ الفيثاغورية؛ أخذة في إصلاح هيئتهم الإنكساغورية²، مؤثرة لما تدل عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقاييسهم البراهانية، وتشير إليه رموز كنوز وصايا علماء نواميسهم الكلدانية، من ماثور تأثير لاهوتية قواهم السيمالوية، راغبة فيما يفاض على مادتها الجسمانية، ويطرأ على عاقليتها الهيولانية، من علويات آثار مواهبها الربانية، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقة لما وافق من شوارد آرايهم الموفقة أحسن موافقة. وتحت هذه الأستار محذرات أسرار أضرب بها الأسرار، وطالما نكر معارفها الإنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور، إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق. وفي تلك المغاني، أبكار معاني، سكن الجوانح والصدور، بدل الأرايك والخدور، ولحن في دياجي ظلم هذه الأحاجي، كأقمار في أطمار، بهرن وما ظهرن،

¹ في نص لم يحدده عنان: ((دانتهم)).

² في نص: ((الإنكسارية)).

وسطعن وما لمعن، فعشقن وما رمقن، واستملحن
وما ملحن؛ أدرن خمور أجفانهن على ما خوريات
ألحانهن، فهيجت البلابل نغم هذه البلابل، واستقرغته
الأكياس، مترعات تلك الأكواس. ما سحر بابل،
كخمر بابل، ولا منتقى أغانيهن الأوائل، كحمائمكم
الهوادل، إن وصلت هديلها بحفيف، وصلن ثقلهن
بخفيف. إيه أيها الشمري المشمعل، دعنا من حديثك
المضمحل، سر بنا أيها الفارس النَّدس¹، من
حظيرة النفس، إلى حضرة القدس، صرح بإطلاق
الجمال، وجل من عالميتك الملوثة في أفسح
مجال، تمش بين مقاصر قصورها، ومعاصر
خمورها، رخي البال، مرخي السربال، فما ينسج
لك على منوال، نادم عليها من شغف دن سقراط،
إن استحسنات لها حسان، فما يصلح لك، صالح بن
علاط. بت صريع محياها، فقد أوصت بمعالجة
عقير معاقرة عقارها بقراط، لا تخش صاحب
شرطتها، فلا شرط له عليك ولا اشتراط، مالك
غير مبديك الأول، من قال امثل الأمر، وما عليك
من أمر وال؛ على رسلك ما هذا العجل، لا خطأ

¹ أي الفارس السريع في الطعن.

تتوقعه ولا خطل، أمكره أنت في هذه الكريهة، أم بطل. لو علم أنك ضبارية هذا الخميس، وخبثة ذلك الخميس، لما عانى اليم رسيس، شوقاً إليك محمد بن خميس، على أن لا غالب اليوم لأنني غالب، ولا طالب يدرك شأو هذا الطالب، فقه بلا تفهيق، وحنق في تحذلق. أقسم أبا الفضل بمالك على أبي البركات من الفضل، ذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفارس الجرثومة، وإن يك ذلك، إسرائيلي الأصل، وهذا إسمعيلي الجنس، علوي الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدم لي غالبنا المذكور، من بأسه الغر لأرفع، وأسمى من مقعد، وقوطيهم المشهور، من إغرناطة الحمراء، ومن متبواً أبي أميتهم المرحوم، من جنات جزيرتهم الخضراء، فيما أنت أبا الفضل من هذه العرجة¹، وألوك². رأيت في عمرك، مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبرا. فأي شيء هذا المنزع إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل،

¹ في نص: ((العجرتة)).

² في نص: ((والدك)).

أخمار بك أم ثمل، إرجع إلى ما كنت بصدده،
وقيت الزل، خذ في الجد فما يليق بك الهزل.
رق عن ذلك فحك لنا منه أرق غزل، ماذا أقول،
وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول. أفحمتني والله
عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم،
ما لكم علي في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت
كلمت، وإذا استعجمت عجمت. أما لهذه العلة آس، أم
على هذه الفيلة مواس؛ ما حيلتي في طبع بلدكم
الجابي. أما يلين لضعفي أما يرق قلب زمانكم
القباسي. ما هذه الدمن يا بني خضروات الدمن،
أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر المجن¹؛ إن مر بكم
الولي حمقتموه، وإن زجركم العالم فجرتم عليه
ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم، غصصتم به،
فكفرتموه وزندقتموه، كونوا فوضى، فما لكم اليوم
مسراً سواه واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث
سئتم، فقد أهلكم الرعاة. ضيعتم النص والشرائع،
وأظهرتم في بدعكم العجايب والبدائع. نفقتم النفاق،
وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استصغرتكم الكباير،
وأبحتم الصغاير. أين غنيكم الشاكر، يتفق فقيركم

¹ قلب له ظهر المجن: مثل يضرب لمن كان مع صاحبه على حال من
المودة؛ ثم تغير حاله، وانقلب عليه.

الصابر، أين عالمكم الماهر، يرشد متعلمكم الحابر.
مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر
الحكماء. جرد لنا شريعتك يا أفضل الشارعين. أتم
فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا والله ما
يوقظكم من هذا الوسن، وعظ الحسن، ولا ينقذكم
من فتن هذا الزمن، إلا سيف معلمه أبي الحسن
والسلام.

— مقتطفات من روضة ابن خميس:

قيل أنه صنع قدحاً من الشمع؛ بديع الشكل،
جيد الصنعة، له رونق ولطافة. ثم كتب على
حافته؛ وفي الموضع الذي تلامس شفنا الشارب ذلك القدح:
وَمَا كُنْتُ إِلَّا زَهْرَةً فِي حَدِيقَةٍ تَبَسَّمَ عَلَيَّ ضَاحِكَاتِ الْكَمَائِمِ
فَقَلَّبْتُ مِنْ طَوْرِ لَطَوْرِ فَهَا أَنَا أَقْبَلُ أَقْوَاهُ الْمُلُوكِ الْأَعَاطِمِ
ثم أهدى ذلك القدح إلى صديقه الوزير ابن الحكيم.
كما كتب على ظهر كتاب لابن سبعين
وعنوانه "الفقرية":

الْفَقْرُ عِنْدِي لَفْظٌ دَقٌّ مَعْنَاهُ مَنْ رَامَهُ ذَوِي الْغَايَاتِ عَنَاهُ
كَمْ مِنْ غَيٍّ بَعِيدٍ عَنْ تَصَوُّرِهِ أَرَادَ كَشْفَ مَعْمَاهُ فَعَمَاهُ

وهذان البيتان اختلف الناس حولهما؛ فمن قائل
أنهما لابن الرومي؛ وقائل أنهما لابن خميس:
رب قوم في منازلهم عرر صاروا بها غررا
ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما سترأ

وهذه أبيات من القصائد الطويلة التي كتبها لوالي
ألمرية أبي الحسن ابن كماشة:
العشي تعيبا والنوابغ عن شكر أنعمك السوابغ

ثم قال:

ودسائع ابن كماشة مع كل بازغة وبازغ
تأتي بما تهوى النغانع من شهيات اللغائع

ومنها أيضاً:

ما ذاق طعم بلاغة من ليس للحوشي ماضغ

وقيل أن الوزير ابن الحكيم طلب منه نظم قصيدة
هائية؛ فبدأ بطمطالعها؛ ولكنه لم يكملها؛ إذ مات قد
إكمالها. ومطلعها هكذا:

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها وصم صداها

فهرس الموضوعاء

(الجزء الثاني)

- 4 _ المائة السادسة هجرية:.....
- 3 _ جابر بن أحمد بن إبراهيم القرشي الحسني
- 5 _ التلمساني؛ (أبو الحسن).....
- 1 _ حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي سهل
- 8 _ التلمساني المعروف بابن زكون؛ (أبو علي).....
- 2 _ الحسن بن عبد الله بن حسن الكاتب الأسييري؛
- 10 _ (أبو علي).....
- 4 _ خطاب بن أحمد بن عدي بن خطاب بن خليفة
- 13 _ ابن عبد الله بن الوليد التلمساني. (أبو الحسن).....
- 5 _ شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي؛
- 15 _ نزيل تلمسان المالكي؛ (أبو مدين).....
- 32 _ تلاميذ الشيخ أبي مدين.....
- 34 _ ما قيل في أبي مدين.....
- 42 _ شعر أبي مدين شعيب.....
- 130 _ قصيدة غوثية أبي مدين.....
- 140 _ الأعمال النثرية لأبي مدين شعيب.....

- عقيدة الشيخ الغوث أبي مدين شعيب..... 144
- الأقوال الغيثية (نثراً)..... 150
- قطعة من خطاب..... 178
- 6 — عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى
- ابن مروان الكومي؛ (أبو محمد)..... 179
- 7 — عيسى بن عمران بن دافال الزناتي (أبو موسى)
- الورد ميثي..... 196
- 8 — محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني؛
- (أبو عبد الله)..... 198
- 9 — يوسف بن محمد بن يوسف. الشهير بأبن النحوي
- (أبو الفضل)..... 204
- المائة السابعة هجرية:..... 216
- 1 — إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى
- الأنصاري التلمساني؛ (أبو إسحاق)..... 217
- 2 — أحمد بن أحمد البرشاني أصلاً التلمساني
- داراً وموطناً (أبو العباس)..... 222
- 3 — إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
- الكومي (أبو العلاء — المأمون)..... 225
- 4 — سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي؛
- (أبو الربيع)..... 238

- 5 — سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني
- 250 الكومي؛ (أبو الربيع عفيف الدين)
- 312 6 — الشوزي الأثبيلي (أبو عبد الله الحلوي)
- 7 — عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اللجنشي
- 316 الفازاري؛ (أبو زيد)
- 8 — علي بن سعد بن مسعود بن سهل الأنصاري القلي
- 339 (أبو الحسن)
- 9 — علي بن عمر بن عبد المؤمن الكومي
- 341 (أبو الحسن)
- 10 — عيسى بن يوسف بن أبي بكر الصنهاجي؛
- 347 المعروف بابن تامجلت؛ (أبو موسى)
- 349 11 — محمد بن إبراهيم الغساني
- 351 12 — محمد بن أحمد بن محمد اللخمي (ابن الحجام)
- محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي
- 354 (أبو العيش)
- 13 — محمد بن عمر (خميس) بن محمد بن عمر بن
- محمد بن عمر بن محمد الحجري بن خميس التلمساني
- 358 (أبو عبد الله)
- 466 — فهرس الموضوعات

الناشيء

بوزياني الدراجي

أدباء وشعراء من نلمسان

الجزء الثالث



دار
الأمل
للدراسات

الناشيء

أدياب وشعراء من تلمسان

بوزيانج الدراجي

الجزء الثالث

(نسخة منقحة)



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار نظاهرة
تلمسان عصمة الثقافة الإسلامية

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف المسحولة (16305) الجزائر
هاتف وفاكس: 0 21 35 78 29

الإيداع القانوني: 1193 – 2011
ردمك: 2 – 46 – 858 – 9961 – 978 ISBN



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمد بن سليمان

ابن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الكوفي،
الشهير بابن العفيف التلمساني، وبالشهاب الظريف،
(شمس الدين)¹.

ينتمي هذا الشاعر المبدع الرقيق إلى القبيلة
الأمازيغية الزناتية المعروفة بكومية؛ المتواجدة في
أعمال تلمسان الجزائرية. أما مولده فحصل بالقاهرة
في 10 جمادى الآخرة من عام 661هـ/1262م. بينما
توفي بدمشق - قبل موت والده سليمان - في سنة
688هـ/1289م عن عمر لا يتجاوز الثلاثين سنة؛
ودفن في مقبرة للصوفييين؛ بحكم انتماء والده إلى هذه
الفئة. ويعتبر الشاب الظريف هذا - كما كان يطلق
عليه - من بين الشعراء المشاهير في عصره. وكان
يمتاز برقة شعره، ورونق طبعه، وسلاسة ألفاظه؛
وجمال نظمه، ورهافة حسه، ولطافة معانيه، وأناقته
سبكه. أشار إلى وفاته ابن تغري بردي الأتابكي في

¹ له ترجمة في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات، وتعريف الخلف، والنجوم
الزاهرة، وشذرات الذهب، والبداية والنهاية، وكشف الظنون، والأعلام.

كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛ فقال:
(وفيها [أي سنة 688هـ] توفي الشيخ الأديب البارع
المتفنن شمس الدين محمد بن سليمان بن علي
التمساني؛ الشاعر المشهور؛ كان شاباً فاضلاً،
ظريفاً؛ شعره في غاية الحسن والجودة؛ وديوان
شعره مشهوراً بأيدي الناس))¹. اهتم هذا الشاعر
الكومي؛ ذي الأصول التلمسانية – في نظمه – بصياغة
الأبيات القصيرة؛ ذات المنحى الغنائي الجميل. ولم
يبالغ في نظم المطولات؛ فما عرف منها – حتى
الآن – يمكن عدّه على الأصابع. والظاهر أن هذا
السلوك؛ أملاه عليه واقعه ومحيطه. وهذا الشاعر
الظريف هو ابن الأديب الشاعر الصوفي سليمان
ابن علي التلمساني الكومي؛ الشهير باسم عفيف
الدين التلمساني. توفي في حياة والده. وقد رثاه
والده عفيف الدين بقصيدة مطلعها:

مالي بفقد المحمدين يد

مضى أخي ثم بعده الولد

¹ النجوم الزاهرة، ج: 7، ص: 381. وقال فيه صاحب شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ((كان ظريفاً، لعباً، معاشرأ؛ وشعره في غاية الحسن)). ج: 5، ص: 405.

يا نار قلبي وأين قلبي أو
يا كبدي لو يكون لي كبد
يا بائع الموت مشتريه أنا
فالصبر ما لا يصاب والجلد

وجاء في كتاب فوات الوفيات؛ نقلاً عن
القاضي شهاب الدين بن الفضل؛ قوله في محمد بن
سليمان العفيف التلمسان: ((نسيم سرى، ونعيم
جرى، وطيف؛ بل أخف موقعاً منه في الكرى. لم
يأت إلا ما خف على القلوب، وبريء من العيوب؛
رق شعره فكاد أن يشرب، وبق فلا غرو للقضب أن
ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها
بلا استئذان، وولج القلوب ولم يقرع باب الأذان.
وكان لأهل عصره، ومن جاء على آثارهم افتتان
بشعره؛ وخاصة أهل دمشق؛ فإنه بين غنائم
حياضهم ربي؛ وفي كمائم رياضهم حبي؛ حتى تدفق
نهره، وأنع زهره. وقد أركت جماعة من
خلطائه؛ لا يرون عليه تفضيل شاعر، ولا يروون له
شعراً إلا وهم يعظمونه كالمشاعر؛ لا ينظرون له بيتاً
إلا كالبيت، ولا يقدمون عليه سابقاً؛ حتى لو قلت،

ولا امرأ القيس لما باليت؛ ومرت له ولهم بالحمى
أوقات؛ لم يبق من زمتها إلا تذكُّرُهُ، ولا من
إحسانها إلا تشكره. وأكثر شعره - لا بل كله -
رشيقي الألفاظ، سهل على الحفاظ؛ لا يخلو من
الألفاظ العامية، وما تحلو به المذاهب الكلامية؛
فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر¹)).

وقال عنه خليل الصفدي صاحب كتاب الوافي
بالوفيات: ((شمس الدين بن عفيف الدين التلمساني
محمد بن سليمان بن علي شمس الدين بن
عفيف التلمساني؛ شاعر مجيد بن شاعر مجيد؛
تعانى الكتابة؛ وولي عمالة الخزائن بدمشق؛ ومات
شاباً سنة ثمان وثمانين وستمائة. وكان فيه لعب
وانخلاع ومجون. ولد بالقاهرة فيما أخبرني به
الشيخ أثير الدين أبو حيان. قال: ولد في عاشر
جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة؛ لما
كان والده صوفياً في خانقاه سعيد السعداء²)).

هذا؛ وللشاب الظريف ديوان شعر؛ تم نشره
مرات عديدة، كما أخرج له حجي خليفة مقامات
العشاق في ورقتين. وهذه عينات من شعره:

¹ فوات الوفيات ج: 3، ص: 373.

² الوافي بالوفيات، ج: 3، ص: 109.

— قصيدة ياراقد الطرف ما للطرف إعفاء:

يَا رَاقِدَ الطَّرْفِ مَا لِلطَّرْفِ إِغْفَاءُ
حَدَّثَ بِذَلِكَ فَمَا فِي الْحُبِّ إِخْفَاءُ
إِنَّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ مِنْ غَزَلِي
فِي الْحَسَنِ وَالْحُبِّ أَبْنَاءُ وَأَنْبَاءُ
إِذْ كُلُّ نَافِرَةٍ فِي الْحُبِّ آئِسَةٌ
وَكُلُّ مَائِسَةٍ فِي الْحَيِّ خَضِرَاءُ
وَصَفْوَةُ الدَّهْرِ بَحْرٌ وَالصَّبَا سَفْنٌ
وَاللِّخْلَاعَةُ لِرِسَاءٍ وَإِسْرَاءُ
يَا سَاكِنِي مِصْرَ شَمْلِ الشَّوْقِ مُجْتَمِعٌ
بَعْدَ الْفِرَاقِ وَشَوْلُ الْوَصْلِ أَجْزَاءُ
كَأَنَّ عَصْرَ الصَّبَا مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِكُمْ
عَصْرُ التَّصَابِي بِهِ لِلْهُوَ إِطْءَاءُ
نَارَ الْهَوَى لَيْسَ يَخْشَى مِنْكَ قُلُوبُ فَتَى
يَكُونُ فِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ أَرْجَاءُ
نَنْبٌ يَرَى جُودَةَ الرَّاجِي مُسَافَهَةً
وَالْجُودُ مِنْ غَيْرِهِ رَمَزٌ وَلِيْمَاءُ
نُوهْمَةٌ لَوْ غَدَتْ لِلْأُفُقِ مَا رَحَلَتْ
لَهُ ثَرِيًّا وَلَا جَارَتُهُ جُوزَاءُ

لَوْلَا أُخُوكَ وَلَا أَلْفَى مَكَارِمَهُ
لَمْ تَحْوِ غَيْرَ الَّذِي تَحْوِيهِ بَطْحَاءُ
لَكِنْ تَعَوَّضْتُ عَنْ سُحْبٍ بِمُشَبِّهِهِ
إِذْ سُحِبَ هَذَا وَهَذَا فِيهِمَا الْمَاءُ
وَعِنْدَ ذَلِكَ ظِلٌّ بَارِدٌ شَبِمْ
وَعِنْدَ ذَلِكَ مِنْهَلٌّ صَافٍ وَأَهْوَاءُ
إِلَيْكَ أَرْسَلْتُ أَلْبَاءًا لِمَدْحِكُمَا
فِي سَاحَتَيْهِنِ إِسْرَاءُ وَإِرْسَاءُ
لَمْ يَقْوِ مِنْهُنَّ إِقْوَاءٌ لِقَافِيَةٍ
وَلَمْ يَطْأُوهُنَّ فِي التَّرْتِيبِ إِيطَاءُ
فَإِنْ نَظَمِي أَفْرَادًا مُعَدَّةً
وَتَنَظَّمُ غَيْرِي رُعَاعَاتٌ وَغَوَافُ
فَلَا يُقَاسُ بِدُرٍّ مِنْهُ مُخْشَلَبٌ
هَذَا دَوَاءٌ وَقَوْلُ الْجَاهِلِ الدَّاءُ
عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامٌ مَا سَرَتْ سَحْرًا
نُسَيْمَةٌ عِطْرُهَا فِي الْكَوْنِ دِرَّاءُ

— مقطوعة: يَوْمَ أَتَانَا بَرْدُهُ فِي بَرْدَةِ:

يَوْمَ أَتَانَا بَرْدُهُ فِي بَرْدَةِ
أَضْحَى بِهَا مِثْلَ الْحَدِيدِ الْمَاءُ

وَالْأَرْضُ قَدْ بُسِطَتْ لِحُسْنِ صَنِيْعِهِ
بِالْتَّلَجِ فِي الْأَرْضِ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
فَاحْضُرْ فَتَحْنُ كَمَا تُحِبُّ بِمَجْلِسٍ
لَوْ لَمْ تَغِبْ تَمَتْ بِهِ السَّرَّاءُ

— مقطوعة: لَا خَلَّتْ مِنْ سَنَاكُمُ الْأَحْيَاءُ:

لَا خَلَّتْ مِنْ سَنَاكُمُ الْأَحْيَاءُ
فَبِكُمْ تَتَجَلَّى بِهَا الظُّلُمَاءُ
كَانَ دَمْعُ الْحَيَا عَلَيْهِنَّ سَقِيًّا
فَهُوَ مُذْ غِيَّتُمْ بِهِنَّ بُكَاءُ
مَنْ تَلَّتْ مِنْكُمْ عَلَيْهِ مَعَانٍ
كَيْفَ تَحْوِي قِيَادَهُ أَسْمَاءُ
مَا مُرَّادِي بِالرَّبْعِ أَسْمَاءُ أَنْ تَسَّ
خَوْ بَوَصْلٍ لَوْ أَنْ يَدُومَ لِقَاءُ
بَيْنَمَا نَحْنُ بِالذِّيَارِ وَقَدْ طَا
لَ وَقُوفٌ مِنَّا وَطَالَ رَجَاءُ
إِذْ سَرَتْ مِنْ دِيَارِهِمْ نَسَمَاتُ
بَسَمَاتٍ فِي إِثْرِهَا إِرْضَاءُ
مَرْحَبًا مَرْحَبًا عَلَيْهَا سُتُورُ
مِنْ وَدَادٍ أُنْيَالُهُنَّ الْوَفَاءُ

— مقطوعة: وافى الحبيب بطلعة غراء:

وافى الحبيب بطلعة غراء

من فوق قائمة صعدة سمر
وبمقلة خفق الفؤاد وقد أتت
إن الجنون يكون في السّوداء

— مقطوعة: منعت جفوني لذة الإغفاء:

منعت جفوني لذة الإغفاء

علق المني وتقسم الأهواء
عجل الزمان عليّ في شرخ الصبا
بتشتت القرناء والقرباء
وسواد عيشي لم يدع لي لذة
افتضها باللمّة السّوداء
يا صاحبي توجّعاً لهوى فتى
ألف الضنى ولواعج البرحاء
هل غيبت ربع الحي بعد مدامعي
أم أمسكت عنه يد الأنواء
أحبّابنا قضى الفراق ولي يد
لفراقكم لكن على أحشائي

فمروا الرِّيحَ بأنْ تَقصُّ حَديثَكُمْ
عندي فما بيدي الكتابُ شِفائي
ودليلُ ذلك أنَّ طرفي غاسِلٌ
قَبْلَ القِرَاءَةِ نَقْشُهُ بِبُكَائِي

— مقطوعة: قُلْتُ وَقَدْ أَقْبَلَ فِي حُلَّة:
قُلْتُ وَقَدْ أَقْبَلَ فِي حُلَّة
سَوْدَاءَ مِنْ حَلٍّ بِأَحْشَائِي
عَرَفْتُ كُلَّ النَّاسِ يَا سَيِّدِي
أَنْكَأَ أَصْبَحْتَ بِسَوْدَائِي

— مقطوعة: وافي بأحمر كالشقيق وقد غدا:
وافي بأحمر كالشقيق وقد غدا
يَهْتَزُّ فِيهِ بِقَامَةٍ هَيْفَاءَ
فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقَدْ غَدَا فِي حُلَّة
حَمْرَاءَ إِذْ مَا زَالَ فِي سَوْدَائِي

— مقطوعة: وافي بوجهٍ قد زهى بالطلعة:
وافي بوجهٍ قد زهى بالطلعة
الغُرَاءَ فَوْقَ الْقَامَةِ الْهَيْفَاءَ

وبمقلة خفق الفؤادُ وقد رنتُ
إنَّ الخُفوقَ يَكُونُ عَنْ سَوْدَاءِ

مقطوعة: وافي بوجه كالهلالِ مرَّكبٍ:
وافي بوجه كالهلالِ مرَّكبٍ
في قامَةِ غَضِيَّةٍ هَيَّاءِ
وبمقلة خفق الفؤادُ وقد رنتُ
وكذا الجنونُ يَكُونُ عَنْ سَوْدَاءِ

— مقطوعة: لهفي على شادين في حُسنِ طَلَعَتِهِ:
لهفي على شادين في حُسنِ طَلَعَتِهِ
وشعرُهُ صارَ إصباحي وإمساوي
قدَّ بَرَدَ القلبَ في تَمُوزَ مَرَشِفُهُ
وظلَّ يحرقُ في كانونَ أحشائي

— قصيدة: وافي الربيعَ فسِرْ إلى السَرَّاءِ:
وافي الربيعَ فسِرْ إلى السَرَّاءِ
واسقِ النَّدِيمَ سُلَافَةَ الصَّهْبَاءِ
هاتِ المشعَّعةَ التي أنوارها
تمحو ظلامَ اللَّيلةِ الظُّلَمَاءِ

راحاً تروحُ بجسمِ نارٍ لابسٍ
 في راحة السَّاقِي قَمِيصَ هَوَاءٍ
 ودَعَ الهُمومَ إذا هَمَمْتَ بِوَصْلِهَا
 عَذْرَاءَ مِنْ يَدِ غَادَةٍ عَذْرَاءٍ
 في حَيْثُ قَيْنَاتِ الغُصُونِ سَوَاجِعُ
 فَعِنَاؤُهُنَّ لَنَا بِغَيْرِ غِنَاءٍ
 وَعَرَائِسُ الأشْجَارِ تُجَلَّى فِي حُلَى
 صِيغَتِ مِنَ البِيضَاءِ وَالصَّفْرَاءِ
 وَغَلَائِلُ الأَوْرَاقِ فَوْقَ قُودِهَا
 تَتَقَدُّ عِنْدَ تَطَرُّبِ الورْقَاءِ
 والأَرْضُ يَضْحَكُ ثَغْرُهَا عَجَباً إِذَا
 مَزَجَ الغَمَامُ تَبَسُّماً بِبُكَاءٍ
 والعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ مُسَاعِدٌ
 وَالشَّمْلُ مُشْتَمِلٌ عَلَى السَّرَّاءِ

— مقطوعة: تَبْدِيحُ حُسْنِكَ يَا حَبِيبِي قَدْ غَدَا:

تَبْدِيحُ حُسْنِكَ يَا حَبِيبِي قَدْ غَدَا
 فِي النَّاسِ أَصْلَ بَلِيَّتِي وَيَلَاتِي
 بِالطَّرَةِ السَّوْدَاءِ فَوْقَ الْغُرَّةِ الـ
 بَبِيضَاءِ فَوْقَ الْوَجْنَةِ الْحَمْرَاءِ

— قصيدة: صدودك هل له أمد قريب:

صدودك هل له أمد قريب
ووصلك هل يكون ولا رقيب
قضاة الحسن ما صنعي بطرف
تمنى مثله الرשא الربيب
رمى فأصاب قلبي باجتهاد
صدقتكم كل مجتهد مصيب
بأي حشاشة وبأي طرف
أحاول في الهوى عيشاً طيب
وهذي فيك ليس لها نصير
وهذا منك ليس له نصيب
وفي تلك الهودج ظاعنات
سرين وكل ذي وله حبيب
إذا أسفرن فانكسرت عيون
لهن فكن فانكسرت قلوب
فيا تلك الذوائب هل صباح
فلي في ليكن أسى مريب
ويا تلك اللحاظ أرى عجيباً
سهماً كلما كسرت نصيب

ويا تلك المعاطف خبرينا
متى يتعطف الغصن الرطيب
فيا قاضي القضاة متى يُوفي
حقوق صفاتك اللسن الأريب
فتى رقت خلائقه كشعري
حوى وصفين كلهما عجب
ففي كرم لأشرفه مديح
وفي حسن لأطفه نسب

— قصيدة: أضحى له في اكتتابه سبب:

أضحى له في اكتتابه سبب
بمبسم في رضابه شنب
قلب كما يفهم السلو جرى
فيه كما يعلم الهوى لهب
لا يدعي العاشقون مرتبتي
متى تساوى التراب والذهب
أبكي إذا ما شكوا وأندب إن
بكوا وأقضي نحبي إذا انتحبوا
فيمن بأعطافه وأعينه
جر قضيب وجردت قضب

مُنْتَقِمٌ بِالصُّدُودِ مُنْتَقِلٌ
عَنْ وَدَّهِ بِالْجَمَالِ مُنْتَقِبٌ
مُعْرِضٌ بِالْوِدَادِ مُعْتَرِضٌ
مُحْتَجِرٌ فِي الْغَرَامِ مُحْتَجِبٌ
يَا حَبِذَا دَارُهُ وَإِنْ بَعْدَتْ
وَحَبِذَا أَهْلُهُ وَإِنْ غَضِبُوا
وَحَبِذَا الشَّامُ إِنْ سَمَتْ بِحُسَا
مِ الدِّينِ مِنْهَا الْبِطَاحُ وَالْكُتُبُ
لَا أُخَشِي الْحَادِثَاتِ وَالْحَسَنُ الْمُـ
حَسَنٌ لِي فِي جَنَابِهِ أَرْبُ
مِنْ مَعَشَرٍ قَدْ سَمَوْا وَقَدْ كَرُمُوا
فَعَلًا وَطَابُوا أَصْلًا إِذَا انْتَسَبُوا
إِنْ أَظْلَمَ الدَّهْرُ ضَاءَ حُسْنِهِمْ
وَإِنْ أَمَرَتْ أَيْمَانُنَا عَذُبُوا
وَإِنْ أَرَادُوا مَكَارِمًا بَلَّغُوا
وَإِنْ أَرَادُوا مَكَارِهًا غَلَبُوا
مَا إِنْ سَعَوْا فِي مَحَامِدٍ رَفَعُوا
لَهَا بِنَاءً فَعَاقَهُمْ نَصَبُ
قَوْمٍ يَشْقُونَ كُلَّمَا شَعَبَ الـ
خَطْبُ وَمَنْ ذَا يَشْقُ مَا شَعَبُوا

وَتَسْتَقِرُّ الْعُيُونُ إِنْ نَزَلُوا
وَتَسْتَقِرُّ الْقُلُوبُ إِنْ رَكِبُوا
وَتَخْجَلُ السُّحُبُ مِنْ أَكْفِهِمْ
مِنْ أَجْلِ هَذَا تُبْدِي الْحَيَا السُّحُبُ
مِنْ فِضَّةٍ عَرَضُهُمْ وَنَشْرُهُمْ
يُعْطَرُ الْكَوْنُ آيَةً ذَهَبُوا
مَا أَشْرَقُوا فِي ذِكَاءٍ مَعْرِفَةٍ
إِلَّا ذِكَا مِنْ ذِكَائِهِمْ غُرُبُ
إِنْ حَضَرُوا فِي مَجَالِسٍ خُطِبُوا
وَإِنْ نَأَوْا عَنْ مَجَالِسٍ خُطِبُوا
وَكَمْ عُدَاةٍ أَقْوَالِهِمْ كَتَبُوا
وَكَمْ عِدَاةٍ وَقَوْا بِهَا كَتَبُوا
سَابِقَهُمْ فِي عُلُومِهِمْ نَفَرٌ
فَمَا لَقَوْا شَأْوَهُمْ وَلَا قَرُبُوا
قُلْ لِأَجَلٍ الْوَرَى إِذَا انْتَسَبُوا
حَسْبُكَ مَا يَقْتَضِي لَكَ الْحَسَبُ
يَا ضَاكِحاً وَالْحَيَاةُ عَابِسَةً
وَنَابِتاً وَالْجِبَالُ تَضْطَرِبُ
الدَّهْرُ دَوَّحٌ وَأَنْتَ فِيهِ قَاضٍ
بُ الْبَانَ غُصْنًا وَغَيْرُكَ الْحَطَبُ

خذ مِدْحاً لَمْ أَرَدْ بِهَا مِئْخَافاً
حَسْبِي أَنِّي إِلَيْكَ أُنْتَسِبُ

— قصيدة: دَعَاهُ وَرَقَمُ اللَّيْلِ بِالْبَرْقِ مُذْهَبُ:
دَعَاهُ وَرَقَمُ اللَّيْلِ بِالْبَرْقِ مُذْهَبُ
هوى بك لبَّاهُ الفؤادُ المعذبُ
لطيفٍ لطيفٍ من خيالكِ طارقِ
بليلٍ بليلٍ فيه للسُّحبِ مسحُ
برُوحِي يا طيفَ الحبيبِ مُحَافِظاً
على العهدِ يدنو كيف شئتَ ويقربُ
ومن كُلمًا عاتبته رَقَّ قَلْبُهُ
وأقسم لا يجني ولا يتجنبُ
يُعلمُهُ فرطُ القساوةِ أهْلُهُ
فيعطفه الخُلُقُ الجميلُ فيغلبُ
يشقُّ جلايبِ الدُّجْنَةِ زائري
على رغمِ مَنْ يلحى وَمَنْ يترقبُ
فأُخْجِلُهُ مِمَّا أَبَتْ عِتَابُهُ
ويُخْجِلُنِي مِنْ فَرَطِ مَا يَتَأَدَّبُ
فلو رمتُ أَنِي عَنْهُ أَثْنِي أُعْطِي
لَشَوْقِي يُنَادِي لُطْفُهُ أَيْنَ تَذْهَبُ

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ يَأْتِي مُحِبِّباً
وَلَا سِيَّماً ذَاكَ الرُّضَابُ الْمُحِبِّبُ
عَلَى أَنَّي مَا الْوَجْدُ يَوْمًا بِشَاغِلِي
عَنِ الْمَجْدِ لَكِنِّي أَمْرٌ مُتَطَرِّبُ
وَمَا أَنَا إِلَّا شَمْسُ كُلِّ فَضِيلَةٍ
لَهَا مَشْرِقٌ لَكِنَّ أَصْلِي مَغْرِبُ
وَكُلَّ كَلَامٍ فِيهِ ذِكْرَايَ طِيبُ
وَكُلَّ مَكَانٍ فِيهِ شَخْصِي أَطِيبُ
وَلَمْ يُغْنِ عَنِّي أَنِّي السَّيِّفُ مَاضِياً
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ بَحْدِي يَضْرِبُ
أَمَّا وَالْمَعَالِي وَالْأَمِيرُ وَإِنِّي
لَأُقْسِمُ فِيهِ صَادِقاً لَسْتُ أَكْذِبُ
لَقَدْ قَلَّدُونِي فَوْقَ مَا لَا أُطِيقُهُ
وَقَدْ قَلَّدُونِي فَوْقَ مَا أُتَطَلَّبُ

— قصيدة: لحاظُ الطُّبَا تَحْكِي الطُّبِي فِي الْمَضَارِبِ:

لِحَاطِطِ الطُّبَا تَحْكِي الطُّبِي فِي الْمَضَارِبِ
عَلَى أَنَّهَا أَمْضَى يَقْطَعِ الضَّرَائِبِ
فَنَاهِيكَ مِنْ رَوْضِ ثُغُورِ أَقَاخِهِ
لَهُنَّ ابْتِسَامٌ فِي وَجْهِهِ الْغِيَاهِبِ

طُيِّبِ مُقَلِّ سَالِمَتَهِنَّ لَدَى الْهَوَى
 وَأَفْعَالُهَا فِي الْقَلْبِ فِعْلَ الْمُحَارِبِ
 وَقَدْ جَرَّتْ لِفَتْكِ فِينَا فَلَا تَرَى
 سَوَى دَمٍ مُضْرُوبٍ عَلَى خَدِّ ضَارِبِ
 فَلَا تَحْذَرُوا بَيِضَ الْقَوَاضِبِ وَاحْذَرُوا
 قَوَاضِبَ سُودٍ فِي جُفُونِ الْكَوَاعِبِ
 وَلَيْلٍ شَرَبْنَا فِيهِ كَأْساً مِنَ اللَّامِ
 عَلَى جُلُنَّارٍ مِنْ خُدُودِ الْحَبَائِبِ
 تُرِيكَ بِهِ ضَحْكَاً بُرُوقُ ثُغُورِهِ
 إِذَا مَا بَكَتْ فِيهِ عُيُونُ السَّحَائِبِ
 وَدُوحٍ كَسَا عَارِيَهُ مِنْبَجَسُ الْحَيَا
 مُحَاسِنَ نُورٍ لَمْ تَرَغْ بِمَعَائِبِ
 فَأَبْدَى مِنَ النُّوَارِ بَيِضَ مِبَاسِمِ
 وَأَرْخَى مِنَ الْأَغْصَانِ خُضَرَ ذَوَائِبِ
 لَدَى وَجَنَاتٍ مِنْ شَقِيقٍ يَزِينُهَا
 مِنَ الْمِسْكِ أَمْثَالَ اللَّحَى وَالشَّوَارِبِ

— بيت منفرد:

أَجْمَلُ سُلُوكِي إِذَا هَجَرَ الْحُبُّ
 أَمْ الصَّبْرُ أَوْلَى بِي إِذَا وَلَّهَ الْحُبُّ

— قصيدة: تَحَرَّشَ الطَّرْفُ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ:

تَحَرَّشَ الطَّرْفُ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

أَفْنَى الْمَدَامِيعِ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالطَّرَبِ

إِلَى مَتَى أَنَا أَدْعُو كُلَّ مُقْتَرَبٍ

دَانِي الْمَزَارِ وَأَبْكِي كُلَّ مُعْتَرَبٍ

وَكَمْ أَرَدَّدْتُ فِي أَرْضِ الْحِمَى قَدَمِي

تَرَدَّدَ الشُّكُّ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

لَوْ أَنْكَرْتَنِي بَيُوتُ الْحَيِّ لَاعْتَرَفَتْ

مَوَاطِئُ الْعَيْسِ لِي فِي رُبْعِهَا الْيَبِّ

كَأَنَّنِي لَمْ أَعْرِسْ فِي مَضَارِبِهَا

وَلَمْ أُحْطَّ بِهَا رَحْلِي وَلَا قَتْبِي

وَلَمْ أَغَازِلْ فَتَاةَ الْحَيِّ مَائِسَةً

فِي رَوْضِهَا بَيْنَ ذَاكَ الْحَلِيِّ وَالذَّهَبِ

تَبْدِي النَّفَارَ دَلَالًا وَهِيَ أَنْسَةُ

يَا حُسْنَ مَعْنَى الرُّضَا فِي صُورَةِ الْغَضَبِ

لَيْتَ الْيَالِي الَّتِي أَوْلَتْ بِشَاشَتِهَا

إِنْ لَمْ تُدَمْ هَبَةُ اللَّذَاتِ لَمْ تَهَبِ

مَا بِأَلْهَا غَلَبَتْ حُزْنِي عَلَى فَرَحِي

وَأَلْقَيْتُ الْحَدَّ بَيْنَ النَّجْحِ وَالطَّلَبِ

ما اختَصَّ بي حادثٌ مِنْهَا فَاغْبُنْهَا
 كَذَاكَ شِمْتُهَا فِي كُلِّ ذِي أَدَبٍ
 وَقَائِلَ وَالْمَطَايَا قَدْ أَخَذَ بِهَا
 سِيرَ الدَّلِيلِ بَجْدٍ غَيْرِ ذِي لَعَبٍ
 حَتَامٌ تُنْضِي وَتُقْنِي الْعَيْسُ قُلْتُ لَهُ
 نِيلُ الْمَنَاضِبِ مَوْقُوفٌ عَلَى النَّصَبِ
 مَالِي وَلِلشُعْرَاءِ الْمُنْكَرِي شَرْفِي
 وَفَوْقُ دُرِّهِمْ مَا تَحْتَ مُخْشَلَبِي
 إِنْ غَبْتُ عَنْهُمْ تَبَاهَوْا فِي قَصَائِدِهِمْ
 بِغَيَّةِ الشَّمْسِ تَبْدُو زِينَةُ الشُّهُبِ

— مقطوعة: وَلَقَدْ وَقَفْتُ ضُحَى بِيَابِكَ قَاضِيًا:
 وَلَقَدْ وَقَفْتُ ضُحَى بِيَابِكَ قَاضِيًا¹
 بِاللَّئِمِّ لِلْعَتَبَاتِ بَعْضُ الْوَاجِبِ
 وَأَتَيْتُ أَطْلُبُ² زَوْرَةً أَحْظَى بِهَا
 فَرَدَدْتُ — يَا عَيْنِي — هُنَاكَ بِحَاجِبِ

¹ جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات هكذا: ((وَلَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى جَنَابِكَ قَاضِيًا)).
² في الوافي بالوفيات: ((أَقْصِدْ)).

— قصيدة: كيف يلحى على هوائك الكئيب:

كيف يلحى على هوائك الكئيبُ
لَكَ حُسْنٌ وَلِلْأَنَامِ قُلُوبُ
كَمْ تَجَنَّبْتُ وَالْمُحِبُّ مَعَ الْوَجْدِ
— دُوَيْنٌ لَمْ يَجِدْ لِقَاكَ حَبِيبُ
كَانَ يُرْجَى السُّلُوكُ لَوْ كَانَ غَيْرِي
وَسِوَاكَ الْمُحِبُّ وَالْمَحْبُوبُ
عَجَبِي مَنْ قَوِيمَ قَامَتِكَ الْهَيْدِ—
فَاءَ قَاسٍ وَقِيلَ عَنْهُ رَطِيبُ
وَكَذَا الْحُسْنُ كُلُّ مَنْ فِي الْوَرَى بَعْدِ
ضُرِّ رَعَايَاهُ وَهُوَ فِيهِمْ غَرِيبُ
سَلَبْتَنِي الرُّقَادَ أَغْنَيْكَ السُّو
دُ وَتَحَلُّوْا فِعَالُهَا وَتَطِيبُ
يَا أَخَا الظَّبْيِ هَكَذَا يَحْسُنُ السَّلْ—
بُ إِذَا مَا ارْتَضَى بِهِ الْمَسْلُوبُ
وَأَخَا الْغُصْنِ لَا عَرَكَ ذُبُولُ
وَأَخَا الْبَنْزِ لَا دَعَاكَ غُرُوبُ

— قصيدة: عَذَابِي مِنْ ثَنَائِكَ الْعَذَابِ:

عَذَابِي مِنْ ثَنَائِكَ الْعَذَابِ
فَهَلْ شَفَعَ الرُّضَا عِنْدَ الرُّضَابِ
تَكْلُفُ مَنْ تَكْلَفُ مِنْكَ وَدَا
طِلَابُ لِلشَّرَابِ مِنَ السَّرَابِ
نَشِبَتْ إِلَى الْجَمَالِ وَفِيكَ بَعْدُ
أَضَافَ لَكَ الْجَمَالَ إِلَى الْحَبَابِ
أَمَّا وَهَوَايَ فِيكَ لَغَيْرِ عَارٍ
كَمَا زَعَمَ الْوُشَاةُ وَلَا بَعَابِ
وَمَا يُوحِيهِ صَبُّكَ لِاجْتِنَاءِ

ومدحي حاكماً في الجود أنهى
وأدنى في السخاء من السحاب
لأنت وإن هَجَرْتَ فَدَتْكَ رُوحِي
الَّذِي إِلَيَّ مِنْ صِلَةِ الشَّبَابِ
فَتَى فِيهِ الْمَعَارِفُ وَالْمَعَالِي
جمعن له العراب إلى الغراب
فيطرب حين يضرب في خطوب
ويعرب حين يغرب في خطاب

أوضح ثغر غامض كل علم
إذا ما عنه أُغلق كل باب
وكأشِف كل مظلمة وظلم
بآراء خلقن من الصواب
رَمِيتِ عِداكَ في حربٍ بِبرح
بأمثال البحار من الحراب
فطارت أنفُسٌ فوق الثريا
وغارتِ أروُسٌ تحت التراب
وحسبي أن تطلبني المعالي
بأنَّ إلى محبَّتِكَ انتسابي

— قصيدة: إن دَامَ هَذَا التَّجَنِّي مِنْكَ والغَضَبُ:

إن دَامَ هَذَا التَّجَنِّي مِنْكَ والغَضَبُ
فَلَا تَسَلْ عَنْ فُؤَادِي كَيْفَ يَلْتَهِبُ
جَعَلْتَ فَرْطَ غَرَامِي فِيكَ لِي نَسْبًا
فِي الْهَجْرِ قُلْ لِي فَدَتَكَ النَّفْسُ مَا السَّبَبُ
يَا شَعْرَهُ كَمْ دُمُوعٍ فِيكَ أَنْثَرُهَا
وَهَكَذَا اللَّيْلُ فِيهِ تَظْهَرُ الشُّهُبُ
تَرَاهُ عَيْنِي فَتُخْفِيهِ مَدَامِعُهَا
كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو حِينَ يَحْتَجِبُ

وَمَا بَدَأَ قَطُّ يَوْمًا وَهُوَ مُقْتَرَبٌ
إِلَّا وَمِنْ دُونِهِ وَاشْرِبْ وَمَرْتَقِبٌ
يَا لَيْلُ مَنْ لِي يَصْبِحُ بَتُّ أَرْقَبِهِ
تَاللَّهِ قَدْ فَتَيْتُ مَنْ دُونِهِ الْحَقْبُ
إِنَّ الَّذِينَ فُؤَادِي فِي الْهَوَى نَهَبُوا
لِنَاطِرِي سُهَادِي فِي الدُّجَى وَهَبُوا
لِللَّهِ جَارُهُمْ فِي أَيْةٍ سَلَكُوا
إِنْ اعْتَبُوا عَاشِقًا فِي الْحُبِّ أَوْ اعْتَبُوا

— مقطوعة: فما أنا في الحضورِ منتَهزٌ:

فَمَا أَنَا فِي الْحُضُورِ مُنْتَهَزٌ
أَمِينَةُ النَّفْسِ غِيبةُ الرُّقْبَا
وَمِنْ عَجِيبٍ أَنْ أَسْتَزِيدَكَ مِنْ
شَرْبٍ وَسُكْرِي عَلَيَّ قَدْ غَلَبَا

— قصيدة: غَرَامِي فِيكُمْ مَا أَلَذُّ وَأَطْيَبَا:

غَرَامِي فِيكُمْ مَا أَلَذُّ وَأَطْيَبَا
وَأَهْلًا بِسُقْمِي مِنْ هَوَاكُمُ وَمَرْحَبَا
غَزَاكُمُ ذَاكَ الْمَصُونُ جَمَالُهُ
إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُبِّ قَلْبِي مَا صَبَا

تَجَلَّى عَلَى كُلِّ الْقُلُوبِ فَعِنْدَمَا
سَبَى حُسْنُهُ كُلَّ الْقُلُوبِ تَحَبَّبَا
أَحْبَابِنَا هَلْ عَائِدٌ فِي حِمَاكُمْ
أَوْيَاقَاتِ أَنْسِ كُلِّهَا زَمَنُ الصَّبَا
عَلَى حُبِّكُمْ أَفْنَيْتُ حَاصِلَ مَدْمَعِي
وغير ولاكمْ عبدكم ما تكسبَا
وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَبْعُدُوا عَنْ جُمَالِكُمْ
حَلِيفَ هَوَى بِالرَّوْحِ مِنْكُمْ مُعَذِّبَا
وإن تهجروا مَنْ وَاصَلَ السَّهْدَ جَفْنُهُ
وَهَذَّبَ فِيكُمْ عَشْقَهُ فَتَهَذَّبَا
وَأَحْسَنْتُمْ تَأْدِيَةَ بِصُودُوكُمْ
فَلَا تَهْجُرُوهُ بَعْدَمَا قَدْ تَأَذَّبَا
وَلِي مُهْجَةٌ دِينَ الصَّبَابَةِ بَيْنَهَا
فَكَيْفَ تَرَى عَنْكُمْ مَدَى الدَّهْرِ مَذْهَبَا

— مقطوعة: لما درت أن المحب بغيرها:

لما درت أن المحب بغيره
وبغير ذكرى حبها لم يطرب
هَجَرْتُهُ حِينَ أَنْتُمْ لَمَّا أَنْعَمْتُ
جَاعَتُهُ فِي رَمَضَانَ قَبْلَ الْمَغْرَبِ

— مقطوعة: هُوَ الصَّبْرُ أَوْلَى مَا اسْتَعَانَ بِهِ الصَّبُّ:

هُوَ الصَّبْرُ أَوْلَى مَا اسْتَعَانَ بِهِ الصَّبُّ
لَوْلَا تَجَنِّي الْحُبِّ مَا عَذَبَ الْحُبُّ
إِذَا كُنْتُ لَا أَهْوَى لِغَيْرِ تَوَاصُلِ
فَعَشَقِي لِرُوحِي لَا لِمَنْ قَلَتْ ذَا الْحُبِّ
وَمَا أَنَا إِلَّا مَغْرَمُ الْقَلْبِ لَوْ بَقِيَ
عَلَى مَا أُعَانِيهِ مِنَ الْوَجْدِ لِي قَلْبُ
يَدُومُ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ بِحَالِهِ
غَرَامِي وَيَقْوَى إِنْ تَدَانَى بِهِ الْقُرْبُ
كَذَا شِيمَتِي فَلَيْقَتَدِ الْعَاشِقُونَ بِي
وَالْأَفْدَعَوَاهُمْ — وَحَاشَاهُمْ — كَذِبُ
أَجِيبُ الْجَوَابِ السَّهْلَ عَمَّا سُئِلْتَهُ
وَإِنْ الَّذِي يُشْكِي إِلَيْهِ الْهَوَى صَعْبُ

— مقطوعة: تسلطن في الملاح بُخَا نقي:

تَسْلُطُنْ فِي الْمَلَاكِ بُخَا نَقِي فَلَمْ يَرْضَ بِيَدْرِ التَّمَّ نَائِبُ
وَقَدْ صَفَّتْ لَهُ الْأَتْرَاكُ جُنْدًا وَأَصْبَحَ رَاكِبًا تَحْتَ الْعَصَائِبِ

— قصيدة: أَكْذَا بِلَا سَبَبٍ وَلَا ذَنْبٍ:

أَكْذَا بِلَا سَبَبٍ وَلَا ذَنْبٍ تُبْدِي الصُّدُودَ لِمَغْرَمِ صَبِّ
أَصْبَحْتُ بِالْهَجْرَانِ تَقَلُّهُ أَوْ مَا اكْتَفَيْتُ بِلَوْعَةِ الْحُبِّ

لَا بَتَّ مِثْلَ مَبِيتٍ مُهَجَّتِهِ مَأْوَى الْهُمُومِ وَمَجْمَعِ الْكُرْبِ
صَبَّ يُقْلِبُهُ الْجَوَى فِكْرًا وَيُدِيرُهُ جَنبًا إِلَى جَنَبِ
مَا زِلْتَ تَتَدَبُّ بِالْبَعَادِ وَمَا تَتَفَكُّ بِالتَّفَنُّيدِ وَالْعَتَبِ
وَأَرَاكَ يَا أُمْلِي مَلَأْتَ وَمَا طَالَتْ - فِدَيْتِكَ - مُدَّةُ الْقُرْبِ
يَا عَاذِلِي فِيمَنْ كَلَفْتُ بِهِ عِدَّ الْمَلَامِ وَعَدُّ عَنْ عَتَبِ
هُوَ مَنْ عَلِمْتَ وَقَدْ رَضِيتُ بِهِ اللَّهُ يَحْفَظُهُ عَلَى قَلْبِي

— مقطوعة: اسْمُ حَبِيبِي وَمَا يُعَانِي:

اسْمُ حَبِيبِي وَمَا يُعَانِي قَدْ شَغَلَا خَاطِرِي وَلَبِي
قَالُوا عَلِي فَقُلْتُ قَدْرًا قَالُوا كَوَافِي فَقُلْتُ قَلْبِي

— مقطوعة: مَنْ شَاءَ بَعْدَ رَضَى الْأَحْبَةِ يَغْضَبُ:

مَنْ شَاءَ بَعْدَ رَضَى الْأَحْبَةِ يَغْضَبُ
مَا بَعْدَ بَهْجَةِ ذَا السُّفُورِ تَحْجُبُ
أُنْسٌ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَوْقِعٌ
وَرَضَى لَدَيْهِ كُلُّ عَيْشٍ طَيِّبٍ
لَا يَصْدُقُ التَّخْوِيفُ مَنْ وَاشَّ سَعَى
حَسَدًا وَلَا قَوْلُ الْأَمَانِي يَكْذِبُ

فَالْيَوْمَ أَيُّ مَنَازِلَ لَا تُشْتَهَى
سُكْنَى وَأَيُّ مِيَاهَهَا لَا تَعَذَّبُ
وَبِمُهْجَتِي الْقَمَرُ الَّذِي الْقَمَرُ الَّذِي
بِتَمَامِهِ لِتَمَامِهِ لَا يُحْجَبُ
مُتَمَنِّعٌ مِنْ أَنْ يُرَى مُتَمَنِّعاً
مُتَجَنِّبٌ عَنْ أَنَّهُ مُتَجَنِّبُ

— قصيدة: لا غرور إن هزَّ عِطْفِي نَحْوَكَ الطَّرْبُ:

لا غرور إن هزَّ عِطْفِي نَحْوَكَ الطَّرْبُ
قَدْ قَامَ حُسْنُكَ عَنْ عُذْرِي بِمَا يَجِبُ
مَا كَانَ عَهْدُكَ إِلَّا ضَوْءَ بَارِقَةٍ
لَا حَتَّ لَنَا وَطُوتْ أَنْوَارَهَا الْحُجُبُ
تَمِيلُ عَنِّي مَلَالاً مَالَهُ سَبَبُ
سِوَى اعْتِرَافِي بِأَنِّي فِيكَ مُكْتَتِبُ
فَرَاعَنِي فِي وَدَادٍ كُنْتُ رَاعِيَهُ
أَنِّي بَعُدْتُ وَغَيْرِي مِنْكَ مُقْتَرِبُ
لِلْعَيْنِ عِنْدَكَ رَاحَاتٌ مُوقَّرةٌ
وَالْفُؤَادِ نَصِيبٌ كُلُّهُ نَصَبُ
فَإِنْ عَشِيقْتُ فَهَذَا الْحُسْنُ لِي وَطَرُ
وَإِنْ سَلَوْتُ فَهَذَا الْهَجْرُ لِي سَبَبُ

وَإِنْ سَلَوْتُ فَهَذَا الْهَجْرُ لِي سَبَبٌ
 ذَاكَ الْحَيَاءُ وَذَاكَ الْفَضْلُ وَالْأَدَبُ
 وَبَيْنَنَا مِنْ عِلَاقَاتِ الْهَوَى ذِمَّةٌ
 وَمِنْ رِضَاعَةِ أَخْلَاقِ الصَّبَا نَسَبُ
 قِسْمِي وَكُفَاً وَقَيْساً مَنْطِقاً وَهَوَى
 وَأَنْصِفْ تَجِدْ رُبَّتِي مِنْ دُونِهَا الرُّتَبُ
 وَلَا يَغْرُنْكَ مِنْ فُودِي شَيْبُهُمَا
 فَصُبْحُ عَزَمِي بَادٍ لَيْسَ يَحْتَجِبُ
 كَمْ مَهْمَةٍ جُبَّتْهُ وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
 وَوَجْهُ بَدْرِ الدَّجَى بِالْغَنِيمِ مُنْتَقِبُ
 أَقُولُ وَالْبَارِقُ الْعُلُويُّ مُبْتَسِمٌ
 وَالرَّيْحُ مُعْتَلَّةٌ وَالْغَيْثُ مُنْسَكِبُ
 إِذَا سَقَى حَلَبٌ مِنْ مُزْنٍ غَادِيَةٍ
 أَرْضاً فَخُصَّتْ بِأَوْقَى قَطْرِهِ حَلَبُ
 أَرْضٌ إِذَا قُلْتُ مَنْ سَكَّانَ أَرْبُعَهَا
 أَجَابَكَ الْأَشْرَفَانِ الْجُودُ وَالْحَسَبُ
 قَوْمٌ إِذَا زُرْتَهُمْ أَصْفُوكَ وَدَّهَمُ
 كَأَنَّمَا لَكَ أُمَّ مِنْهُمْ وَأَبُ

— قصيدة: قف بالركائب أو سقها بترتيب:

قف بالركائب أو سقها بترتيب
عسى تسير إلى الحيّ الأعراب
واسأل نسима ثنت أعطافنا سحراً
من أين جاءت ففيها نفحة الطيب
وفي الركائب مطويّ على حرق
يلحقن مُرد الهوى العذري بالشيب
يلقى الفراق بصبرٍ غير مُنتصرٍ
على النوى وبوجدٍ غير مغلوب
يا ربة الهودج المحميّ جانبه
إلام حُبّك يُغرّيني ويُغرّي بي
ظننتُ إنّ شبابي فيك يصفعُ لي
وإنّ جُود يدي يقضي بتقريب
وقعت بي وبأمالي على خدع
من المُنَى بينَ تصديقٍ وتكذيبٍ
وأنّ أبعدَ حالاتِ المحبّة أنْ
يلقى الوفاءَ مُحِبّاً عندَ محبّوبٍ
كمْ قد شقيتُ بعدّالي عليك وكمْ
شقوا بصدي وإعراضي وتقطيبي

أَسْعَى إِلَيْكَ وَيَسْعَى بِي مَلَامُهُمْ
فَأَيُّنِي بَيْنَ تَأْوِيلٍ وَتَأْنِيْبٍ
صَدَّتْ بِلَا سَبَبٍ عَنِّي فَقُلْتُ لَهَا
يَا أُخْتُ يُوسُفَ مَالِي صَبَرَ أَيُّوبُ
تَرْحَلِي أَوْ أَقِمِي أَنْتَ لِي سَكَنٌ
وَأَنْتِ غَايَةُ أَمَالِي وَمَطْلُوبِي
شَيْئَانِ قَدْ أَتَيْنَا مِنْ ثَالِثٍ لَهُمَا
وَجَدِي عَلَيْكَ وَاحْسَانُ ابْنُ يَعْقُوبَ
أَغْرَ لَا الْوَعْدُ مَمْطُولٌ لَدَيْهِ وَلَا
أُسْلُوبُهُ فِي النَّدَى عَنِّي بِمَسْلُوبٍ
إِذَا سَطَا قُلْتُ يَا أَسَدَ الْعَرِينِ قَفِي
وَإِنْ بَدَأَ قُلْتُ يَا شَمْسَ الضُّحَى غِيْبِي
يَبِيتُ بِالْبَاسِ مِنْهُ الْبَشَرُ مَبْتَسِمًا
وَالسَّيْفُ غَيْرُ صَقِيلٍ غَيْرُ مَرْهُوبٍ
صَمَّ الْمَسَائِلِ فِي يَوْمِ الْجِدَالِ لَهُ
أَمْضَى وَأَنْفَذَ مِنْ صَمِّ الْأَنْبَايِبِ
يَا مَنْ لَهُ الْوَدَّ مِنْ سَرِيٍّ وَمَنْ عَلَنِي
وَمَنْ إِلَى بَابِهِ شَدَيٌّ وَتَقَرِّيْبِي
كَمْ رُمْتُ لَوْلَا اسْتِثْنَايَايَ أَنْ تَبَاعَنْدِي
لَكِي تَرَى صَدَقَ وَدِّي بَعْدَ تَجَرِّيْبِي

بك انتصرتُ على الأيام مُقْتَدِرًا
 فَبِتَنَ مِنِّي بَحْدَ جِدِّ مَرْهُوبِ
 وَأَنْتَ أَتَقَنْتَ بِالْإِحْسَانِ تَرْبِيَتِي
 وَأَنْتَ أَحْسَنْتَ بِالْإِتْقَانِ تَأْدِيبِي
 وَأَنْتَ اكسبتني رأياً غنيتُ به
 عَنْ أَنْ أُكَابِدَ مِنْ هَوْلِ التَّجَارِيبِ
 فَاسْأَلْ مَعَانِيكَ عَنِّي فَهِيَ تَخْبِرُنِي
 تَخْبِيرُكَ عَنْ كَرَمِ مِنْهُنَّ مَوْهُوبِ
 مِنْ سِيرِ الشَّهَبِ مِنْ نَظْمِي الشُّمُوسِ ضُحَى
 أَضَاءَ مَا بَيْنَ تَشْرِيقِ وَتَغْرِيبِ
 قَدْ جَرَّدَ الْبَيْضَ مِنْ ذِهْنِي وَمِنْ هِمَمِي
 وَقُلَّدَ الْبَيْضَ مِنْ مَذْحِي وَتَشْبِيبِي
 وَمِنْ مُحَمَّدٍ إِقْدَامِي وَمَعْرِفَتِي
 وَمِنْ مُحَمَّدٍ إِعْرَامِي وَتَهْذِيبِي
 لَا رَأْيَ لِي فِي جِيَادِ الْخَيْلِ أَرْكَبُهَا
 إِذَا نَهَضْتُ فَعَزَمِي خَيْرُ مَرْكُوبِ
 أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ هَمٍّ أُكَابِدُهُ
 أَقُولُ كَرِهًا لِأَحْشَائِي بِهِ ذُوبِي
 مَلَأْتُ بِالذَّهْرِ عِلْمًا وَهُوَ يَمْلَأُ بِي
 جَهْلًا وَيَحْسَبُ مِنِّي غَيْرَ مَحْسُوبِ

إِحْدَى الْأَعْجِيبِ عِنْدِي مِنْهُ لَوْ وُصِفَتْ
 لَكَانَ وَصْفِي لَهَا إِحْدَى الْأَعْجِيبِ
 لَكَانَ وَصْفِي لَهَا إِحْدَى الْأَعْجِيبِ
 وَلَا يَسِيرُ بِعَرَضٍ غَيْرِ مَثْلُوبِ
 وَلَا يَبِيتُ لَهُ جَارٌ بِلَا فَرْقِ
 وَلَا يُسَرُّ لَهُ ضَيْفٌ بِتَرْحِيبِ
 يَصِدُّ عَنِّي إِذَا قَابَلْتُهُ غَضَبًا
 كَكَافِرٍ صَدَّ عَنْ بَعْضِ الْمَحَارِيبِ
 وَلَوْ ضَرَبْتُ بِأَدْنَى الْفِكْرِ قُلْتُ لَهُ
 قَتَلْتُ فِي شَرِّ ضَرْبٍ شَرَّ مَضْرُوبِ
 فِدَا نِعَالِكَ مَا ضَمَمْتُ أَسْرُسُهُ
 وَإِنْ فُذِينَ بِمَمْقُوتٍ وَمَسْبُوبِ
 إِنْ الْمَعَالِي بَرَاءٌ مِنْ تَجَشُّمِهَا
 تَلَبَّسَ الْمَجْحَدُ فِيهَا بِالْأَكَاذِيبِ
 فَلَيْتَ كُلِّ مُرِيبٍ غَابَ عَائِيَهُ
 فِدَاءُ كُلِّ بَرِيءٍ الْعَرَضِ مَعْتُوبِ
 وَلَيْتَ أَنِّي لَمْ أُدْفَعْ إِلَى زَمَنِ
 أَلْقَى الْأَسْوَدَ بِهِ طَوْعَ الْأَرَانِيبِ
 إِنْ يَحْجُبُ الْأَضْعَفُ الْأَقْوَى فَلَا عَجَبُ
 فَرُبَّ عَقْلٍ بِسِتْرِ الْوَهْمِ مَحْجُوبِ

والدهرُ ليسِ بمأمونٍ على بشرٍ
يُدِيرُهُ بَيْنَ تَعِيمٍ وَتَعْزِيبِ
فلا يرقُ مسكنٌ فيه لساكنه
ولا يثقُ صاحبٌ فيه بمصحوبِ
وإنما الناسُ إلا أنتَ في سِنَةٍ
معللين بترغيبٍ وترهيبِ
أَلَسْتُ مَنْ نَفَرٍ لَمْ يُثْنِ دُونَهُمْ
عادٍ بنتجحٍ ولا عافٍ بتخييبِ
عالينَ في رُتَبٍ عافينَ عَنْ رِيبِ
دانينَ من شرفٍ نائينَ عن حُوبِ
كريمٍ ما أظهروه مِنْ شَمَائِلِهِمْ
كريمٍ ما سَتَرُوهُ فِي الْجَلَابِيبِ
صَاغَتْ عِيَارَتُهُمْ حُسْنَ الْبَدِيعِ بِهَا
مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي أَسْنَى الْقَوَالِيبِ
مِنْ كُلِّ مُنْتَهَجٍ جُوداً وَمُبْتَهَجٍ
بَشِراً إِلَى حَلَبِ الْفَيْحَاءِ مَنْسُوبِ
عَفَّ كَرِيمُ السَّجَايَا مُحْسَنٌ عَلَّمَ
مِنَ الْهُدَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْصُوبِ
فِيهِمْ لِكُلِّ فَتًى يَغْشَاهُمْ أَبْداً
إِنْصَافٌ مَعْدَلَةٌ فِي كُلِّ أَسْلُوبِ

لَكَ ذِي كَبَرٍ إِبْرَارُ تَكْرُمَةٍ
وَكُلُّ ذِي صِغَرٍ تَصْغِيرُ تَحْيِيْبِ
فَاهِنًا بِذَا الْعِيْدِ يَا عِيْدًا ثَقْلًا
وَابْشِيرِ بِسَعْدٍ وَأَجْرٍ فِيهِ مَجْلُوبِ
وَأَسْلَمَ عَلَى مَا بِهِذِي النَّاسِ مِنْ عَطْبِ
فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي الْحِجَى أَوْ فِي التَّرَاتِيْبِ
فَلَيْسَ مَجْدُكَ فِي مَجْدٍ بِمُحْتَجَبِ
وَلَيْسَ مَذْحُكٌ فِي مَذْحٍ بِمَكْنُوبِ
وَلَيْسَ تَلْقَى اللَّيَالِي غَيْرَ مُنْصَرَفِ
وَلَيْسَ تَرْقَى الْمَعَالِي غَيْرَ مَخْطُوبِ
دَعْنِي وَشَعْرِي وَمَنْ فِي جَفْنِهِ مَرَضٌ
نُونِي يُزِلُّ مَرَضُ الْأَجْفَانِ تَطْبِيْبِي
وَحُذْ شَوَاهِدَ مَا أُمْلِيتُ مِنْ فِكْرِ
تُنْثَنِي عَلَيْكَ بِمَلْفُوظٍ وَمَكْتُوبِ
فَالدُّرُّ يَحْسُنُ مَثْقُوبًا لِنَاظِمِهِ
وَحُسْنُ لَفْظِي دَرٌّ غَيْرُ مَثْقُوبِ
وَكُلَّمَا قِيلَ شِعْرٌ أَوْ يُقَالُ فَمَا
أَرَاهُ إِلَّا رَدَاذًا مِنْ شَابِيْبِي

— مقطوعة: هجرت فتىً أدنى الأنام محبةً:

هجرت فتىً أدنى الأنام محبةً
إليك وأوفى من إلى العهد يُنسبُ
وأقيتُ من لا يرتضي حينَ ترتضي
ولاً هو غضبانٌ إذا أنت تغضبُ

— مقطوعة: يا زائراً جعلَ الدُّجَّةَ مَرَكِباً:

يا زائراً جعلَ الدُّجَّةَ مَرَكِباً
أهلاً على رُغمِ الوُشاةِ ومَرَحَباً
أط اللثامَ وألق بُردك يتضح
وجهٌ وعطفٌ كالصَّبَّاحِ كالصَّبَّاءِ
وكفترٌ مُبْتَسِماً فَدَمْعِي ضامنٌ
أن لا يكنُ بريقُ ثغرك خُلباً
أفنى هواك تمسُّكي ببتسُّكي
فَخَلَعْتُ فِيكَ عِذارَ عِلْمِي أَشْيَا
فأدرُ عليَّ شبيهَ ثغرك رَقَةً
تَهْدِي إِلَيَّ شَذَا كَعَرْفِكَ طَيِّباً
صَهْبَاءَ كَمْ نَهَبْتَ نَهْيَ وَصِيَانَةٍ
منا وأعطتُ صَبْوَةً وَطَرْباً

في حلبة ما جال في أرجائها
طرف الحَجَى مُتَأْنِياً إلا كَبَا

— قصيدة: يا حَبَّذا نَهْرَ الْقَصِيرِ وَمَغْرِبَا:

يا حَبَّذا نَهْرَ الْقَصِيرِ وَمَغْرِبَا
ونسيمَ هَاتِكَ الْمَعَالِمِ وَالرُّبَا
وسقى زماناً مَرَّ بي في ظلها
ما كَانَ أُعَذِّبُهُ لَدِيٍّ وَأُطْيِيَا
أَيَّامَ أَوْلَعُ بِالْخُدُودِ نَقِيَّةً
وَالْقَدُّ أَهْيَفُ وَالْمَقْبَلُ أَشْنَبَا
وَأزورُ حاناتِ المدامِ ولا أرى
غَيْرَ الَّذِي قَضَتِ الْخَلَاعَةُ مَذْهَبَا
مَالِي — وَمَا قَاتَتْ سِنِيَّ أَصَابِعِي —
لَمْ أَقْضِ بِاللَّذَاتِ أَوَاطَارِ الصَّبَا
فَلأَهْجُرَنَّ أَخَا الْوَقَارِ وَشَأْنِهِ
وَلأَرْكَبَنَّ مِنَ الْغَوَايَةِ مَرْكَبَا
وَلأُطْلَعَنَّ شُمُوسَ كُلِّ مَسْرَةٍ
وَأَكُونَ مَشْرِقَ أَفْقِهَا وَالْمَغْرِبَا
يَا صَاحِبِي — جُعِلْتُمَا بَعْدِي — خُذَا
قَوْلِ امْرِئٍ عَرَفَ الْأُمُورَ وَجَرَّبَا

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ شَيْئاً عَابِثاً
فَالْحَمَرُ مَا خُلِقَتْ لَأَنْ تَتَجَبَّأَ
وَتَغْنِيَا لَا بِالْحَطِيمِ وَرَمَزَمِ
بَلْ بِالْحِمَى وَبِسَاكِنِهِ وَرَيْنَبَا

— مقطوعة: هَوَيْتُ مَنْ رِيقَتُهُ قَرَقَفَ:

هَوَيْتُ مَنْ رِيقَتُهُ قَرَقَفَ
وَمَالَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ شَارِبِ
قَلَنْدَرِيًّا حَلَقُوا حَاجِباً
منه كنون الخط من كاتب
سلطان حسن زاد في عدله
واختارَ أَنْ يَبْقَى بِلاَ حَاجِبِ

— مقطوعة: أَضْرِمِ لِمِنْ رَامَ وَصْلاً مِنْكَ أَوْ خَطْبَا:

أَضْرِمِ لِمِنْ رَامَ وَصْلاً مِنْكَ أَوْ خَطْبَا
نَاراً جَعَلْتَ لَهَا أَحْشَاءَهُ حَطْبَا
وَأْمُرْ غُصُونِ النَّقَا أَنْ تَنْتَشِي خَجَلاً
وقل لشمس الضحى أَنْ تَبْتَغِي حُجْبَا
واطلبِ مِنَ الْحُسْنِ شُكْرَاناً فَوَجْهَكَ قَدْ
أَعْطَاهُ مِنْبَعُضِهِ كُلِّ الَّذِي طَلَبَا

— قصيدة: صَبَا وَهَزَّتْهُ أَيْدِي شَوْقِهِ طَرَبَا:

صَبَا وَهَزَّتْهُ أَيْدِي شَوْقِهِ طَرَبَا

وَجَدَّ مِنْ بَعْدَمَا مَانَ الْهَوَى لَعِبَا

لَا تَعْتَبُوهُ فَمَا أَبْقَى الْغَرَامُ لَهُ

مِنْ سَمْعِهِ مَا بِهِ يُصْغِي لِمَنْ عَتَبَا

وَلَا ثَنَاهُ وَأَمْرُ الْحُبِّ فِي يَدِهِ

عَذْلٌ فَكَيْفَ وَأَمْرُ الْحُبِّ قَدْ غَلَبَا

يَهْوَى بَرُوقَ الْحِمَى لَكِنْ يُخَالِفُهَا

فَكَلِمَا ابْتَسَمَتْ مِنْ جَوْهَا انْتَحَبَا

يَا قَلْبُ حَتَّامُ تَهْوَى مَنْ سَلَكَ وَبَا

جَفَنِيَّ كَمْ تَبْكِيَانِ الْجِيرَةَ الْغَيْبَا

أَعِذْ قَلْبًا ثَوَى حُبِّ الْأَمِيرِ بِهِ

مَنْ أَنْ يَرَى بِسَوَى حُبِّيهِ مَلْتَهَبَا

لَا تَنْظُرِ الْعَيْنُ مِنْهُ السَّيْفَ مُنْصَلِتَا

إِنْ فَارَقَ الْغِمْدَ حَلَّ الْهَامَ فَاحْتَجَبَا

لَوْ أَقْسَمَ الْمُدْلِجُ السَّارِي عَلَى قَمَرِ

بِاسْمِ الْأَمِيرِ دَعَاهُ قَطُّ مَا غَرَبَا

وَلَوْ وَضَعْتَ عَلَى الْهِنْدِيِّ سَطَوْتَهُ

طَاحَتْ رُؤُوسُ الْأَعَادِي وَهُوَ مَا ضَرَبَا

ولو وضعت الذي تُبدي فكاهته
 للعلقم المرّ أضحى طعمه ضرباً
 ولوّ تلوّت على مَيّتٍ مناقه
 ردّ الآله له الرّوح التي سلبا
 ولو مزجت بماء المزن ما اكتسبت
 من لطفه شيمي ما غصّ من شرباً
 من الأكارم أبناء الأكارم آ
 باء شيمي لا زوراً ولا كذباً
 يسعى لنيل العلى من معشرٍ وهُم
 تسعى المعالي إلى أبوابهم أدبا
 يعلمون الورى آدابهم ولهُم
 بيضٌ إذا غضيّوا لا تعرف الأذبا
 لو لقّبوا بالغصون السمر صدقهم
 جعل الرؤوس لها يوم الوغى كئيباً
 المنجدين أخوا الموجدين سخاً
 والماجدين أباً والواجدين إيا
 لما انتسبت إلى أبوابه كبرت
 بي همّة صغرت في عيني الرئبا
 لو رمت أسحب أذيلي على فلك
 لمدّ لي سبب من جوده سبباً

— قصيدة: بِعَيْنِكَ هَذِي الْفَاتِرَاتُ الَّتِي تَسْبِي:

بِعَيْنِكَ هَذِي الْفَاتِرَاتُ الَّتِي تَسْبِي
يَهُونُ عَلَيَّ الْيَوْمَ قَتْلِي يَا حُبِّي
إِذَا مَا رَأَتْ عَيْنِي جَمَالَكَ مُقْبِلًا
وَحَقَّكَ يَا رَوْحِي سَكْرَتُ بِلَا شُرْبِ
وَإِنْ هَزَّ عَطْفِيكَ الصَّبَا مُتَمَايَلًا
أَضَاعَ الْهَوَى نُسْكَي وَغِيَّبَتْ مِنْ لُبِّي
فَدَعْنِي وَهَذَا الْخَدَّ أَعْصِرُ فِي فَمِي
عَنَاقِيدَ صُدُغَيْهِ وَحَسْبِي بِهِ حَسْبِي
لَوْ أَنَّ تَجَارَ اللَّوْلُو الرُّطْبَ شَاهَلُوا
ثَنَائِيكَ مَا عَنُوا عَلَى اللَّوْلُو الرُّطْبِ
أَيَا سَاقِي الْكَاسِ الَّذِي زَادَ خَدُّهُ
عَلَيْهَا احْمِرَارًا عَدَّ بِالْكَاسِ عَنْ صَحْبِي
وَمَا ذَاكَ بُخْلًا بِالْمُدَامِ وَإِنَّمَا
إِذَا لُحْتُ لَمْ أَمِنْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّلْبِ
وَبِاللَّهِ قُلْ لِي أَيُّهَا الظَّنِّي كَيْفَ قَدْ
تَعَلَّمْتُ صَيْدَ الْأَسَدِ فِي شَرْكِ الْهَذَبِ
وَمَا الَّذِي قَدْ بَعْتُ فَاسْتَرْهَنْتُ بِهِ
لَدَيْكَ الرَّبَى رَهْنًا كَثِيرًا مِنَ الْكُثْبِ

فَخَذُ قِصَّةَ الشَّكْوَى مِنَ الْأَعْيُنِ الَّتِي
نَفَيْتَ لَنَيْذِ النَّوْمِ عَنْهَا بِلَا ذَنْبٍ
وَلَا تَعْتَبِنِ صَبًّا تَهْتَكَ سِتْرَهُ
عَلَيْكَ فَهَتْكَ السِّتْرُ الْيَقُ بِالصَّبِّ

— مقطوعة: أُحِبُّ عَلَيْأَ وَهُوَ سُؤْلِي وَبَغَيْتِي:
أُحِبُّ عَلَيْأَ وَهُوَ سُؤْلِي وَبَغَيْتِي وَمَا زَارَ إِلَّا قُلْتُ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي عِنْدَمَا رَاحَ مُغْرَمًا بِقَتْلِي مَغْرَى ظَنَنْتَنِي فِيهِ مَرْحَبًا

— مقطوعة: يَا رَبِّ نَحْوِي لَهُ مَبْسَمٌ:
يَا رَبِّ نَحْوِي لَهُ مَبْسَمٌ تَقْبِيلُهُ غَايَةُ مَطْلُوبِي
قَدْ صَغَرَ الْجَوْهَرُ مِنْ ثَغْرِهِ لَكِنَّهُ تَصْغِيرُ تَحْبِيبِ

— مقطوعة: شَدَا حَالِي لِيطْرِبَهُمْ:
شَدَا حَالِي لِيطْرِبَهُ بَلْفِظِ لِلْهُوَى يَعْرِبُ
فَقَالَ لِسَانُ حَالَهُمْ مُغْنِي الْحَيِّ مَا يُطْرِبُ

— مقطوعة: أَهْلًا بِمَعْتَلِّ النَّسِيمِ وَمَرْحَبًا:
أَهْلًا بِمَعْتَلِّ النَّسِيمِ وَمَرْحَبًا
وَمَذْكُرِي عَهْدَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا

حملَ النَّحِيَّةَ من أهيل المنحني
وأبان عنهم بالمقال وأعربا
فعرفتُ عرفهمُ به لكنني
أُنكَّرتُ صَبْرًا عَنْ عُهودي نَكَبًا
يا عاذلي كن عاذري في حبهم
لم ألق للسلوان عنهم مذهبًا
لا تَلَحُ فيهم بَعْدَمَا أَلَفَ الضَّنَى
يجدُ الغرام بهم لذيذًا طيبًا
عَبْتُمْ وَأَنْتُمْ حَاضِرُونَ بِمُهْجَتِي
فبمهجتي أفدي الحضور الغيبًا

— مقطوعة: يا فاضِحَ البَدْرِ حُسْنًا:

يا فاضِحَ البَدْرِ حُسْنًا ومخجلًا للقضيبِ
ويَا غَزَالًا شَرُودًا مرعاهُ حُضْبَ القلوبِ
ويا هَلَالًا تَبَدَّى على قضيبِ رَطِيبِ
عليك لَجَّ عذولي وفيك لَجَّ رَقِيبِي
قد زدتُ والله عُجْبًا على مُحِبِّ كَثِيبِ

— قصيدة: صدقتم قده يحكي القضيبي:

صدقتم قده يحكي القضيبي

ألم تره حوى زهراً وطيباً

ولكن تحمل الكثمان باناً

ولم أر بانه حملت كثيلاً

ولمّا أن تلاقينا وأبدي

لنا شفق الضحى كفا خضيباً

ملأت يديه من ياقوت دمعى

وكنت محقت لؤلؤة نحيباً

ذهلت عن النسب به فباتت

محاسنه تعلمني النسيباً

وبت أهلب سود الأسد لمّا

تنا وعهده ظنّياً ربّياً

فيا لله لحظك من عدوّ

أراك لأجله أبدأ حبيباً

أيا قمرأ أعد عدي طلوعاً

وإلا فاتخذ عدي مغيباً

ويّا ليل الذوائب طلت فاقصّر

وكن من تحت أخصيه قرياً

— قصيدة: حياك الجمال وأوفى النصيبا:

حياك الجمال وأوفى النصيبا
فصيرت إلى كل قلب حبيباً
وردّ جلالك عنك العيون
فكنت الحبيب وكنت الرقيباً
منعت دموعي أن لا تصوب
وأسهم عنيك أن لا تصيباً
وأقسمت أن لا يراك امرؤ
سوى نظرة ثم يدعو الطبيباً
وحسنت أقبل في جحقل
فلم فيك أضحى فريداً غريباً
حبيب القلوب أذبت العيون
حبيب الفؤاد أذبت القلوباً
أيا كعبة الحسن إني جعلت
على سلوة الحب مني صلياً
أجابت فلم تلق مني ندا
ونادت فلم تلق مني مجيباً

— مقطوعة: يا من هجر المحب من غير سبب:

يا من هجر المحب من غير سبب
واستبدل بالوصلِ صدوداً وغضب
إن مت من الهجر فما ذاك عجب
بل إن سلمت روعي فهذا عجب

— قصيدة: تُرى باجيرة الشعب:

تُرى باجيرة الشعب
يُسَرُّ بِوَصْلِكُمْ قَلْبِي؟
وَتَجَمَّعُ بَيْنَنَا دَارٌ
عَلَى الْأَكْرَامِ وَالرُّخْبِ
أَهْلِلَ الْحَيِّ وَاَعْطَشِي
لِذَاكَ الْمَنْهَلِ الْعَذْبِ
وَيَا شَوْقِي إِلَى عَيْشِ
مَضَى فِي ظِلِّهِ الرَّحْبِ
وَأَيَّامِ بَلَا عَتَبِ
تَقَضَّتْ فِي ذِرَا عَتَبِ
إِذَا ذُكِرَتْ لَيَالِيهِ
تَهَيَّجُ لَاعِجُ الْقَلْبِ

ويحكي قلبُ عاشقه
حديثَ نَسيمِهِ الرِّطْبِ
فغنَّ بِذِكْرِهَا سَعْدٌ
وأثنى مَعَاطِفِ الرِّكْبِ
ومحتجبٍ بمبتسمٍ
يمزق ظلمةَ الحجبِ
مِنَ الأَقْمَارِ مَنْزِلَتَا
هُ فِي طَرْفِي وَفِي قَلْبِي
وظبي نفار بالأسرارِ
يأنسُ ليس بالتَّربِ

— مقطوعة: بَعَثْتُ إِلَيْكَ مَا يَجْلِيكَ نَغْرًا:
بَعَثْتُ إِلَيْكَ مَا يَجْلِيكَ نَغْرًا
وَأَفْظًا إِذْ تَهْنَى بِالرَّغَائِبِ
ولستبقانِعِ إِن لَمْ تَزِرْنِي
لَأَنِّي لَسْتُ أَمَلُ بِالرَّغَائِبِ

— قصيدة: أَرْضُ الأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُتُبٍ:
أَرْضُ الأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُتُبٍ
سَقَاكَ مُنْهَمِرُ الأَنْوَاءِ مِنْ كُتُبِ

وَلَا عَنَتُ أَهْلَكَ النَّائِنِينَ مِنْ نَفْسٍ أَلَا
صَيًّا تَحِيَّةً عَانِي الْقَلْبِ مُكْتَتِبٍ
قَوْمٌ هُمُ الْعَرَبِ الْمَحْمِي جَارُهُمْ
فَلَا رَعَى اللَّهُ إِلَّا أَوْجُهُ الْعَرَبِ
أَعَزَّ عِنْدِي مَنْ سَمِعِي وَمِنْ بَصَرِي
وَمِنْ فُؤَادِي وَمِنْ أَهْلِي وَمِنْ نَشْبِي
لَهُمْ عَلَيَّ حُقُوقٌ مُذْ عَرَفْتُهُمْ
كَأَنَّنِي بَيِّنٌ أَمْ مِنْهُمْ وَأَبِ
إِنْ كَانَ أَحْسَنُ مَا فِي الشَّعْرِ أَكْذَبُهُ
فَحَسَنُ شَعْرِي فِيهِمْ غَيْرُ ذِي كَذِبِ
حَيَّاكَ يَا تَرْبَةَ الْهَادِي الشَّفِيعِ حَيًّا
بِمَنْطِقِ الرَّعْدِ بَادٍ مِنْ فَمِ السُّحْبِ
يَا سَاكِنِي طَيِّبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمَنْ
يُنْدِنِي الْمَحَبِّ لَنَيْلِ السُّؤْلِ وَالْأَرْبِ
ضَمَمْتَ أَعْظَمَ مَنْ يَدْعِي بِأَعْظَمَ مَنْ
يَسْعَى إِلَيْهِ أَخُو صِدْقٍ فَلَمْ يَخْبِ
وَحُزْتُ أَفْصَحَ مَنْ يَهْدِي وَأَوْضَحَ مَنْ
يُنْدِي وَأَرْجَحَ مَنْ يُعْزَى إِلَى نَسَبِ
تَحْذُوا النَّيَاقُ كِرَامَ نَحْوِ تَرْبِيهِ
فَتَمْلَأُ الْأَرْضَ مِنْ نَجْبٍ وَمِنْ نَجْبِ

يَسْعَوْنَ نَحْوَ هِضَابٍ طَابَ مَوْرِدُهَا
كَأَنَّمَا الْعَذْبُ مُشَقٌّ مِنَ الْعَذْبِ
أَرْضٌ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا
فَإِنْ تَغَبَّ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشَّهْبِ
يَا خَيْرَ سَاعٍ بِبَاعٍ لَا يُرَدُّ وَيَا
أَجَلَ دَاعٍ مُطَاعٍ طَاهِرِ الْحَسَبِ
مَا كَانَ يَرْضَى لَكَ الرَّحْمَنُ مَنْزِلَةً
يَا أَشْرَفَ الْخَلْقِ إِلَّا أَشْرَفُ الرَّتَبِ
لِي مِنْ ذُنُوبِي ذَنْبٌ وَافِرٌ فَعَسَى
شَفَاعَةٌ مِنْكَ تُتَجِينِي مِنَ اللَّهَبِ
جَعَلْتُ حُبَّكَ لِي ذَخْرًا وَمَعْتَمِدًا
فَكَانَ لِي نَازِرًا مِنْ نَازِرِ النُّوبِ
إِلَيْكَ وَجَّهْتُ أَمَالِي فَلَا حُجْبَتُ
عَنْ بَابِ جُودِكَ إِنْ الْمَوْتُ فِي الْحُجْبِ
وَقَدْ دَعَوْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرَمَةً
حَاشَاكَ أَنْ تُدْعِيَ فَلَمْ تُجِبْ

— قصيدة: حَمُوا بِكُغُوبِ السَّمْرِ بِيضَ الْكَوَاعِبِ:
حَمُوا بِكُغُوبِ السَّمْرِ بِيضَ الْكَوَاعِبِ
وصانُوا مِنَ الْأَتْرَابِ دُرَّ التَّرَائِبِ

وَهَزُّوا الْعَوَالِي مِنْ أَكْفٍ قَوَابِضٍ
رَقَابَ الْمَعَالِي بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
فَكَمْ حَاجِبٍ يَلْقَاكَ مِنْ دُونِ أَعْيُنٍ
وَكَمْ أَعْيُنٍ تَلْقَاكَ مِنْ دُونِ حَاجِبٍ
وَكَمْ بَتٍّ أَرَعَى مِنْ بُدُورٍ طَوَالِغٍ
وَأَرَعَى عُهْوداً مِنْ شُمُوسٍ غَوَارِبِ
وَسَارُوا فِيَا اللَّهِ كَمِ مِنْ حَبَائِلِ
تَصِيدُ قُلُوباً مِنْ عُيُونِ الْحَبَائِبِ
جَلَوْنَ عَلَى الْأَحْدَاقِ خَيْرَ سَوَالِفِ
وَكُنَّ عَلَى الْعُشَاقِ شَرَّ سَوَالِبِ
بَحْمَرَةٌ خَدٍ لَا تَصَابُ بِعَارِضِ
وَخَمْرَةٌ ثَغْرِ لَا تَعَافُ لِشَارِبِ
أَلَا فِي سَبِيلِ الْحُبِّ يَا عَلُوْ مَهْجَةً
عَلَيْهَا لَكَ الْأَسْوَاقُ ضَرْبَةٌ لِازْبِ
قَفِي وَدَعِينَا قَدْ بَدَتْ غَرْبَةُ النُّوَى
وَأَذِنَّا بِالْبَيِّنِ سَيْرُ الرِّكَائِبِ

— مقطوعة: لَوْ لَمْ تَكُنْ ابْنَةُ الْعُنُقُودِ فِي فَمِهِ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ ابْنَةُ الْعُنُقُودِ فِي فَمِهِ

ما كان في خده القاني أبو لهب

تبت يدارِ عادلي فيه فوجنته
حَمَالَةُ الْوَرْدِ لَا حَمَالَةَ الْحَطَبِ

— مقطوعة: تهيم بدرٍ ثم ترجو له قربا:
تهيم بدرٍ ثم ترجو له قربا
لَعَمْرِي لَقَدْ حَاوَلْتُ مُمْتَعًا صَعْبًا
إِذَا كُنْتَ تَهْوَى الْبَدْرَ فَاقْنَعُ بِأَنْ تَرَى
سَنَاهُ عَلَى بُعْدٍ وَإِلَّا فَمِتْ كَرَبًا
وإن لم يدعك الدمع فانظرْ جماله
بِقَلْبِكَ إِنْ أَبْقَى الْغَرَامُ لَكَ الْقَلْبَا
وإِلَّا فَيَكْفِيكَ الْخِيَالُ مُسْلِمًا
وإن كنت من تجفو مضاجعه الجَنَابَا
وَكُنْ قَانِعًا مِنْهُ وَحَسْبُكَ مَفْخَرًا
بِأَنَّكَ تَضْحَى مُسْتَهَامًا بِهِ صَبَا

— موشح: بَذَرٌ عَنِ الْوَصْلِ فِي الْهَوَى عَدْلًا:
بَذَرٌ عَنِ الْوَصْلِ فِي الْهَوَى عَدْلًا * مَالِي عَنْهُ إِنْ جَارَ أَوْ عَدْلًا مَذْهَبُ
مُتْرَكِ اللَّحْظِ لَفْظُهُ خَبَثُ
إِلَيْهِ تُصْبُو الْحَشَا وَتَتْبَعُثُ
أَشْكُو إِلَيْهِ وَلَيْسَ يَكْتَرِثُ

دعا فؤادي بأن يذوب قلبي * الموت والله إذ دعا وقلبي أقرب
 لم يبق لي مقلّة ولا كبّد
 والقلب فيه أودى به الكمّد
 وليس يلقى لهجره أمد
 لا تعجبوا أن غوت مُحتملاً * لكن قلبي إن كان عنه سلاً أعجب
 بالحسن كلّ العقول قد نهبا
 والحزن كلّ القلوب قد وهبا
 شمس ولكنني لذيّه هبا
 فانظر لذاك القوام كيف جلا * غصن وكم بالجمال منه جلا غيب

— مقطوعة: أنتم لعبدكم أحبه:

أنتم لعبدكم أحبه وله عليكم حقّ صبحه
 يا نائمين عن المسهد فارغين عن المحبة
 والله ما عندي من السلوان عنكم وزن حبه
 قد كنتم أنسي فهنا أنا بعدكم في دار غربه
 لا فرجت عن مهجتي إن ملت للسلوان كربه

— مقطوعة: عذار فيه قد عبتوا:

عذار فيه قد عبتوا محيوه وقد عبتوا
 يخاف عيون وأشيه فيمشي ثم يلتفت

— مقطوعة: يا أَهْلَ نَجْدٍ عَلَى هَوَائِي:

يا أَهْلَ نَجْدٍ عَلَى هَوَائِي سَدَنْتُمْ سَائِرَ الْجِهَاتِ
واعجباً تَرْضَوْنَ قَتْلِي وَأَنْتُمْ فِي الْهَوَى حَيَاتِي

— مقطوعة: وَحَقُّ هَذِي الْأَعْيُنِ السَّاحِرَةِ:

وَحَقُّ¹ هَذِي الْأَعْيُنِ السَّاحِرَةِ وَحُسْنُ هَذِي الْوَجَنَةِ الزَّاهِرَةِ
لَوْ² وَاصِلْتَنِي فِي الدُّجَى لَمْ يَبْتَ³ قَلْبِي مِنْهَا وَهُوَ بِالْهَاجِرَةِ³
بِاللَّهِ خَفَ⁴ إِنْجَمِي يَا قَاتِلِي⁴ فَالْيَوْمُ دُنْيَا وَغَدًا آخِرَةٌ
قَلْبِي مِصْرٌ لَكَ مَا بَالُهُ قَدْ ذَابَ مِنْ أَخْلَاقِكَ الْقَاهِرَةِ
خِيْلَانِ ذَلِكَ الْخَدِّ مِنْ مَقْلَتِي فَهِيَ لَذَا فِي حُسْنِهِ حَائِرَةٌ⁵

— مقطوعة: عَلِقَ الْقَلْبُ بِسَمَلٍ:

عَلِقَ الْقَلْبُ بِسَمَلٍ لِي رَشِيقَ الْحَرَكَاتِ
بِرَدِّي النَّعْرُ يَقْتَرُ عَنِ الْعَذْبِ الْفُرَاتِ

¹ في فوات الوفيات: ((بحق)).

² جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات هكذا: ((لَوْ أَنَّهُا وَاصِلْتَنِي لَمْ يَبْتَ)).

³ سقط هذا البيت في فوات الوفيات.

⁴ جاء هذا الشطر في فوات الوفيات هكذا: ((خَفَ فِي الْهَوَى إِنْجَمِي يَا قَاتِلِي)).

⁵ سقط هذا البيت في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

— مقطوعة: وَحَرَمَةَ الذَّاهِبِ مِنْ عَيْشِنَا:

وَحَرَمَةَ الذَّاهِبِ مِنْ عَيْشِنَا وَطِيبِ أَيْامِي الَّتِي وَلَّتْ
إِنِّي عَلَى مَا تَعْهَدُونِي وَفِيَّ وَعَقْدَةُ الْمِيثَاقِ مَا حُلَّتْ

— مقطوعة: عُودِي إِلَى حُسْنِ التَّائِي:

عُودِي إِلَى حُسْنِ التَّائِي فَلَقَدْ جَهَلْتُ مِنْ اجْتَنَبْتُ
كَمْ تَظْهَرِينَ مُحَجَّبًا مَهْلًا فَمَا هِيَ عَيْنُ بِنْتِ
فَلَقَدْ عَلِمْنَا بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنْكَ وَقَدْ عَلِمْتُ
قَالَتْ أَلَسْتُ مِنَ الْحَرَائِرِ قُلْتُ بَلْ يَا سَتِي كُنْتُ
مَا أَنْتِ ذَاكَ السَّمْهَرِيَّ قَوَامُهُ فَلَمْ احْتَجَبْتُ
وَجْهًا إِذَا مَا لَاحَ قُلْتُ لَقُبْنِي مَا بُلْتُ تَحْتِي

— مقطوعة: وَأَقْوَامٍ لَهُمْ فِي الْعَشِقِ:

وَأَقْوَامٍ لَهُمْ فِي الْعَشِقِ حُكْمُ الْقَطْعِ وَالْبَتِّ
يَلُوطُونَ عَلَى الْإِبْنِ وَيَزْنُونَ مَعَ الْبِنْتِ
وَمَنْ يَسْلُمُ مِنْ قَوْمٍ يَذْبُونَ عَلَى الْكَفِيِّ

— قصيدة: أَبْدَأُ بِذِكْرِكَ تَنْقِضِي أَوْقَاتِي:

أَبْدَأُ بِذِكْرِكَ تَنْقِضِي أَوْقَاتِي

مَا بَيْنَ سَمَّارِي وَفِي خُلُواتِي

يَا وَاحِدَ الْحُسْنِ الْبَدِيعِ لِذَاتِهِ
أنا واحد الأحزان فيك لذاتي
وَبِحُبِّكَ اسْتَغَلْتُ حَوَاسِي مِثْلَمَا
بِجَمَالِكَ امْتَلَأْتُ جَمِيعُ جِهَاتِي
حسبي من اللذات فيك صَبَابَةٌ
عندي شَغِلْتُ بها عن اللذاتِ
ورضاي أني فاعلٌ برضاك ما
تَخْتَارُ مِنْ مَحْوِي وَمِنْ إِبْثَاتِي
يَا حَاضِرًا غَابَتْ بِهِ عُشَاؤُهُ
عن كلِّ ماضٍ في الزَّمانِ وآتٍ
حَاسِبْتُ أَنْفَاسِي فَلَمْ أَرَ وَاحِدًا
مِنْهَا خَلَا وَقْتًا مِنَ الْأَوْقَاتِ
ومدَّهِينَ حَبِبتِ عنك عقولهم
فَهُمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ كَالْأَمْوَاتِ
تَتَلَوُّ عَلَى الْهَضْبَاتِ تَطْلُبُ نَاشِدًا
مِنْهُمْ كَأَنَّكَ فِي ذُرَى الْهَضْبَاتِ
لَمَّا بَكَوا وَضَحَكَتِ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ
شَأْنِي وَقَالُوا: الْوَجْدُ بِالْعِبْرَاتِ
فَأَظْنُهُمْ ظَنُّوا طَرِيقَكَ وَاحِدًا
وَنَسُوا بِأَنَّكَ جَامِعُ الْأَشْيَاتِ

ما تَسْتَعِدُّ لِمَا تَقِيضُ نَفْسُهُمْ
 فَتَغِيضُ مِنْ كَمَدٍ وَمِنْ حَسَرَاتٍ
 يَا قَطْرُ غَمٍّ يَمْشِقُ وَاحْصُصْ مَنْزِلًا
 فِي قَاسِيُونَ وَحَلِّهِ بَنَاتٍ
 وَتَرْتَمِي يَا وَرْقُ فِيهِ وَيَا صَبَا
 مُرِّي عَلَيْهِ بِأَطْيَبِ النَّفَّاتِ
 فِيهِ الرِّضَى فِيهِ الْمُنَى فِيهِ الْهُدَى
 فِيهِ أُصُولُ سَعَادَتِي وَحَيَاتِي
 فِيهِ الَّذِي كَشَفَ الْعَمَى عَن نَاطِرِي
 وَجَلَا شُمُوسَ الْحَقِّ فِي مِرَاتِي
 فِيهِ الْأَبُّ الْبَرُّ الشَّفُوقُ فِدَيْتُهُ
 مِنْ سَائِرِ الْأَسْوَءِ وَالْآفَاتِ
 كَفْتُ تُمَدُّ بِجُودِهِ نَحْوِي وَأُخْ
 رَى لِلسَّمَاءِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ
 وَإِذَا جَنَيْتُ بِسَيِّئَاتِي عَذَّهَا
 - كَرَمًا وَإِحْسَانًا - مِنْ الْحَسَنَاتِ
 وَإِذَا وَقَيْتُ بِوَجَنَتِي نِعَالَهُ
 عَدَّنتُ تَقْصِيرِي مِنَ الزَّلَّاتِ
 لَمْ يَرْضَ بِالنَّقْلِيدِ حَتَّى جَاءَ فِي
 التَّوْحِيدِ بِالْبُرْهَانِ وَالْآيَاتِ

نَفْسٌ زَكَتْ وَزَكَتْ بِهَا أَنْوَارُهَا
فِي صُورَةٍ نَسَخَتْ صَفَاءَ صِفَاتِي
بَهْرَتْ - وَقَدْ طَهَّرَتْ - سَنَا وَتَقَشَّتْ
شُرْفًا عَنِ التَّشْبِيهِ وَالشُّبُهَاتِ
فِي كُلِّ أَرْضٍ لِلتَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا
يُرَوَّى بِأَنْفَاسِ الصَّبَا الْعَبَقَاتِ
أَلْبَى وَإِنْ جَلَّ النَّدَاءُ وَقَلَّ مَقْدَرُ
دَارِي نِدَاءُ الْعَبْدِ لِلْسَّادَاتِ
أَنَّى التَّقَاتُ رَأَيْتُ مِنْكَ مُحَاسِنًا
إِنْ مِلْتُ نَشْوَانًا فَهَنْ سُقَاتِي
وَبِسِرِّكَ اسْتَأْنَسْتُ حَتَّى أَنَّنِي
لَمْ أَشْكُ عَنْكَ تَغْرُبِي وَشَتَاتِي
وَإِذَا ادَّخَرْتُكَ لِلشَّدَائِدِ لَمْ تَكُنْ
يَوْمًا لِيْغَمَزِ الْحَاضَاتِ قَنَاتِي
وَإِذَا التَّقِيْتُ أَوْ اتَّقَيْتُ بِبِأْسِكَ الْ-
خُطْبَ الْمَلَمِّ وَجَدْتُ فِيهِ نَجَاتِي
وَأَرَى الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ رَجَعَ الصَّدَى
وَأَرَى وَجُودَكَ مَنَشَأَ الْأَصْوَاتِ
فَعَلَيْكَ مِنْكَ مَعَ الْأَصَائِلِ وَالضُّحَى
تُتْلَى أَجَلٌ تَحْيَةٍ وَصَلَاةِ

— مقطوعة: بأبي أهيْفَ لَدُنْ قَدُّهُ:

بأبي أهيْفَ لَدُنْ قَدُّهُ

قَامَ يَسْعَى لِلنَّدَامَى بِالمُدَامَةِ

جَاءَ بِالكَاسِ وَفِي وَجْنَتِهِ

شَامَةٌ مِنْ أَجْلِهَا قُلْنَا بِشَامَةٍ

— مقطوعة: قَامَتِ حُرُوبُ الزَّهْرِ:

قَامَتِ حُرُوبُ الزَّهْرِ مَا

بَيْنَ الرِّيَاضِ السُّنْدُسِيَّةِ

وَأَتَتْ جُيُوشُ الْأَسْرِ تَغْ

زُو رَوْضَةِ الْوَرْدِ الْجَنِّيَّةِ

لَكِنَّهَا كُسِرَتْ لِأَ

نَّ الْوَرْدِ شَوْكَتُهُ قَوِيَّةِ

— مقطوعة: أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مِنْ هَوَيْتِ وَكَمْ:

أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مِنْ هَوَيْتِ وَكَمْ

شَقَّتْ¹ بِهِ فِي الْهَوَى مَرَارَاتُ

¹ في الوافي بالوفيات: ((فُتَّتْ)).

وَكَيْفَ لَا تُسْتَطَابَ رِيْقُهُ
وَتَغْرُهُ سَكْرٌ سُيْنَاتُ

— مقطوعة: يَا نَاتِفًا شَعْرَاتِ عَارِضِهِ الَّتِي:

يَا نَاتِفًا شَعْرَاتِ عَارِضِهِ الـ
تِي سَاقَتْ وَشَقَّتْ
أَخْشَيْتَ طُولَ حَلِيْثِهَا
فَقَطَعَتْهَا مِنْ حَيْثُ رَقَّتْ

— مقطوعة: مِنْ حِينَ جَلَا الْعِذَارُ فِي الْخَدِّ نَبَاتُ:

مِنْ حِينَ جَلَا الْعِذَارُ فِي الْخَدِّ نَبَاتُ
أَحْيَا بُوَصَالِهِ وَبِالْهَجْرِ أَمَاتُ
وَحْيَاةٌ هَوَاكَ طَلَّقَ النَّوْمُ ثَلَاثَ كَذَا
مَنْ تَهْجُرُهُ فَلَا تَسْلُ كَيْفَ يِيَاتُ

— مقطوعة: قَلْبِي بِحُبِّ سِوَاكُمْ لَا يَعْثُ:

قَلْبِي بِحُبِّ سِوَاكُمْ لَا يَعْثُ
وَفَمِي بِغَيْرِ الْحُبِّ لَيْسَ يُحَدِّثُ
وَحَيَاتِكُمْ لَا حَلَّتْ عَنْكُمْ فِي الْهَوَى
وَإِذَا حَلَفْتُ بِحَقِّكُمْ لَا أَحْنُتُ

يا نازحينَ ونازِلينَ بِمُهْجَتِي
لهواكُم سِحْرٌ بقلبي يَنْفَتُ
إِنْ لَمْ تَجُودُوا بِالْوَصَالِ فَعَلُّوا
بالوعدِ قلبي ثُمَّ مِنْ بَعْدِ انكثُوا
لَا مَ الْعَذُولُ عَلَى هَوَاكُم جَاهِلًا
ما طابَ سَمْعِي بِالَّذِي يَتَحَدَّثُ
وَأَعْرَتُهُ أَذْنِي لِلذَّةِ ذِكْرُكُمْ
لَا لِلَّذِي بِالصَّدِّ فِيهِ يَنْحَثُ
أَنْتُمْ أَحِبَّائِي وَأَنْتُمْ غَايَتِي
إِنْ شِئْتُمْ حُنُوا الرِّكَابَ أَوْ الْبِثُوا

— مقطوعة: يا سَاكِنِي مُهْجَتِي وَقَلْبِي:

يا سَاكِنِي مُهْجَتِي وَقَلْبِي
أَقْسَمَ قَلْبِي وَلَيْسَ يَحْنَثُ
إِنْ مِتُّ فِي حَبِّكُمْ فَلِإِنِّي
أَحْيَا عَلَى عَشْقِكُمْ وَأُبْعَثُ

— مقطوعة: قَدْ قُلْتُ لَمَّا مَرَّ بِي مُعْرِضًا:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا مَرَّ بِي مُعْرِضًا
كَالْبَدْرِ تَحْتَ الْغَسَقِ الدَّاجِي

يَهْتَزُّ فِي مَشْيِهِ مُتَعَباً
مِنْ كَفَلِ كَالْمَوْجِ رَجَّاجٍ
وَيَلِي عَلَى حُلٍّ سَرَائِيلَهُ
فَإِنَّهُ شُدَّ عَلَى عَاجٍ

— قصيدة: قافية الجيم من كحل المقلّة السّوداء بالدّعج:
قافية الجيم من كحل المقلّة السّوداء بالدّعج
وَخَضَّبَ الْوَجْنَةَ الْحَمْرَاءَ بِالضَّرَجِ
وَمَنْ عَلَى ذَلِكَ الْوَرْدِ الْجَنِيَّ جَنَى
وَمَنْ بِسَيْفِ التَّجَنِّي خَاضَ فِي الْمُهْجِ
كَأَنَّمَا قَلَمٌ أَجْرَاهُ كَاتِبُهُ
فَخَطَّ لَاماً عَلَى الْيَاقُوتِ بِالسَّبَجِ
يَا عَاذِلِي كُنْ عَذِيرِي فِي مُحَبَّتِهِ
فَمَا عَلَى الْعَاشِقِ الْمَفْتُونِ مِنْ حَرَجِ
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَحْلَاكَ فِي نَظَرِي
وَجَلَّ خَالِقُ هَذَا الْمَنْظَرِ الْبَهْجِ
وَإِنْ بَدَأَ رَوْضَ خَدْيِهِ وَوَجْنَتِهِ
أَغْنَتْ بِأَزْهَارِهَا عَنْ سَائِرِ الْفُرَجِ
بِوَجْنَتَيْكَ الَّتِي خَضَّبْتُهَا بِدَمِي
وَأَشْرَقَتْ بِأَحْمَرَارٍ مِنْ دَمِ الْمُهْجِ

لَا تَقْتُلِ الصَّبَّ بِالْهَجْرَانِ يَا أَمَلِي
وَارْفُقْ بِقَلْبٍ مُحِبٍّ فِي هَوَاكَ شَجِي

— مقطوعة: مرّت على طولِ المَدَى حَجَجِي:

مرّت على طولِ المَدَى حَجَجِي
وَكَمْ شَكُوتُ فَلَمْ تُصْغُوا إِلَى حُجَجِي
يَا سَاكِنِي جَلَّقَ قَدْ طَابَ عِنْدَكُمْ
نَشْرُ الْفَرَايسِ فَأَتُوا الصَّبَّ بِالْفَرَجِ
بَابُ السَّلَامَةِ مَرْبُودٌ لِعَاشِقِكُمْ
وَالنَّصْرُ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فِي الْهَوَى الْحَرَجِ
خَطَبْتُ وَصَلَكُمُ فِي جَامِعٍ لِهَوَى
وَقَمْتُ مَبْتَدِرُ السَّاعَاتِ وَالدرَجِ
طَابَتْ بِذِكْرِكُمُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
لَمَّا تَحَمَّلَ مِنْكُمْ عَاطِرُ الْأَرْجِ
أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ مَسْمَعِي نَظَرِي
قَلْبِي فَإِنْ تَرْتَضُوا مَا قَلْتُ يَا فَرَجِي

— مقطوعة: كَسَاهُ ثَوْبُ الْجَمَالِ حُسْن:

كَسَاهُ ثَوْبُ الْجَمَالِ حُسْنُ
لَطَرَزَ خَدَّتَيْهِ لَمْ يَبْهَرْجِ

وَحُسْنُ ذَاكَ الْعِذَارِ نَادَى
إِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْلَمًا فَدَحْرِجْ

— مقطوعة: دَبَّ نَمْلُ الْعِذَارِ فِي الْخَدِّ يَبْغِي:

دَبَّ نَمْلُ الْعِذَارِ فِي الْخَدِّ يَبْغِي
شَهْدَ رِيْقٍ يَجْلُو بِهِ مَا تَأَجَّجُ
كَانَ يَمْشِي بِخَدِّهِ مُسْتَقِيمًا
مُذْ رَأَى فِي خُنُودِهِ النَّارَ عَرَجَ

— قصيدة: ناوليني الكأس في الصُّبْح:

ناوليني الكأس في الصُّبْحِ
ثُمَّ غَنِّ لِي عَلَى قَدَحِي
وَأُدِيرِ شَمْسَ وَجْهِكَ لِي
فَضِيَاءُ الشَّمْسِ لَمْ يُلْحِ
وَاشْغَلِي كَفِّكَ فِي وَتْرِ
لَا تَمُدِّيْهَا إِلَى السُّبْحِ
وَإِذَا أَطْرَبْتِي وَبَدَا
بِائْتِشَائِي حَالَ مُفْتَضَحِ
عَانِقْنِي بِالْيَدَيْنِ كَمَا
يَفْعَلُ الْأَحْبَابُ مِنْ فَرَحِ

وَإِذَا عَانَقْتُ مِنْ طَرْبٍ
غُصْنٌ قَدْ مِنْكَ مُتَّسِحٍ
فَضْعِي أَزْزَارَ أَطْوَأَفِكَ عَنْ
صَنْدُكِ الْفَتَّانِ بِالْمُلْحِ
وَإِذَا مَا الْأَمْرُ كَانَ كَذَا
فَانْزِعِي السُّرُوَالَ وَاطْرَحِي
وَخُذِي ذَا... أَجْمَعُهُ
وَاطْلُبِي مَا شِئْتُ وَاقْتَرَحِي
ثُمَّ رُوحِي بِالْأَمَانِ فَمِثْ
لِي بِسَرٍّ قَطْلٌ لَمْ يَبْجِ

— مقطوعة: وَبَيْنَ الْخَدِّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ:
وَبَيْنَ الْخَدِّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ
كَزُنْجِيٍّ أَتَى رَوْضًا صَبَاحًا
تَحِيرُ فِي الرِّيَاضِ فَلَيْسَ يَذَرِي
أَيُّجْنِي الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الْأَقْلَحَا

— مقطوعة: مَوْلَايَ إِنَّا فِي جُورَاكَ خَمْسَةٌ:
مَوْلَايَ إِنَّا فِي جُورَاكَ خَمْسَةٌ
بِتْنَا بَبِيْتٍ مَا بِهِ مِصْبَاحُ

مَا فِيهِ لَا لَحْمٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا
مَاءٌ وَلَا شَيْءٌ لَهُ نَرْتَاخُ
كُلُّ تَرَاهٍ مِنَ الْكَابَةِ وَالطَّوَى
شَبْحاً فَنَحْنُ الْخَمْسَةُ الْأَشْبَاخُ
مَا فَاتَتَا إِلَّا التَّجَلُّلَ بِالْعَبَا
فَجُسُومُنَا لَعِبَتْ بِهَا الْأَرِيَاخُ

— مقطوعة: بَدَا وَجْهُهُ مِنْ فَوْقِ أَسْمَرِ قَدِّهِ:
بَدَا وَجْهُهُ مِنْ فَوْقِ أَسْمَرِ قَدِّهِ
وَقَدْ لَاحَ مِنْ لَيْلِ الذَّوَاتِبِ فِي جُنْحٍ
فَقُلْتُ عَجِيباً كَيْفَ لَمْ يَذْهَبِ الدُّجَى
وَقَدْ طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ عَلَى رُمْحٍ

— مقطوعة: أَخْجَلْتُ بِالثَّغْرِ ثَنَائِيَا الْأَقَاخِ:
أَخْجَلْتُ بِالثَّغْرِ ثَنَائِيَا الْأَقَاخِ
يَا طُرَّةَ اللَّيْلِ وَوَجْهَ الصَّبَاخِ
وَأَعْجَمْتَ أَعْيُنَكَ السَّحَرِ مُذْ
أَعْرَبْتَ مِنْهُنَّ صِفَاخاً فِصَاخُ
فِيَا لَهَا سُوداً مَرَاضاً غَدَتْ
تَسَلُّ لِلْعَاشِقِ بَيْضاً صِحَاخُ

يا للهوى مَنْ مُسْعِدٌ مُغْرَمًا
رأى حَمَامَ الْأَيْكِ غَنَى فَنَاحَ
يا بَانَةَ مَالَتْ بِأَعْطَافِهِ
ها قَدْ عَرَفْنَا مِنْكَ هَزَّ الرِّمَاحِ¹
وَأَنْتِ يَا أَسْهُمَ الْحَاضِلِ
أَتَخَنَّتِ وَاللَّهِ فُؤَادِي جِرَاحَ

— مقطوعة: صَاحِي الْجَوَائِحِ لَسْتُ مِنْهُ بِصَاحِي:

صَاحِي الْجَوَائِحِ لَسْتُ مِنْهُ بِصَاحِي
سَلَبَ الْجُسُومِ وَهَمَّ بِالْأَرْوَاحِ
يا بَدْرُ قَدْ سَدَّ الْعِزَامُ مَسَالِكِي
فَأَنْزِ بَوَاجِهُكَ مَسْرَحِي وَمَرَّاحِي
قَدْ حَرْتُ فِيكَ بِمَنْ أُرُومُ تَشْفَعَا
حَتَّى تَقُوزَ مَقَاصِدِي بِنَجَاحِ
بِفُؤَادِي الْمُرْتَّاحِ أَمْ بِسُهَادِي الْ—
فَضَّاحِ أَمْ بِوِدَادِي الْوَضَّاحِ
فَبِعِرْفَاكِ الْفَيَّاحِ أَوْ فَبِطَرْفَاكِ الْ—
سَفَّاحِ أَوْ فَبِعِطْفُوكِ الرَّمَّاحِ

¹ جاء هذا الشطر في النجوم الزاهرة هكذا: ((عَلَّمَنِي كَيْفَ تَهْزُ الرِّمَاحُ)).

لَا تَرْقُدَنَّ عَنْ سَاهِرٍ فِي لَيْلَةٍ
مُذْ غَابَ وَجْهَكَ لَمْ يَقْزَ بِصَبَاحٍ

— مقطوعة: إِيَّاكَ يَا طَائِرَ قَلْبِي فَنِي:

إِيَّاكَ يَا طَائِرَ قَلْبِي فَنِي وَجَنَّتِهِ مَعْنَى الْجَمَالِ نَسَخَ
كَمْ حَائِمَ حَوْلَ الْحِمَى صَادَهُ فَخَالَهُ الْحَبَّةُ وَالصَّدُغُ فَخَ

— مقطوعة: كَتَبَ الْجَمَالُ بِخَدِّهِ نَسَخًا:

كَتَبَ الْجَمَالُ بِخَدِّهِ نَسَخًا بِمُحَقِّقِ حُسْنِ الْوَرَى نَسَخًا
لَوْ عَايَنْتُهُ الْعَابِدَاتُ صَبَّتْ أَوْ بَاخِلَ صَانَ اللَّهِى لَسَخًا

— مقطوعة: يَا مَنْ أَطَالَ التَّجَنِّي:

يَا مَنْ أَطَالَ التَّجَنِّي وَقَدْ أَسَا فِي التَّوْحَى
أَسْرَفَتْ نَيْهَا وَعَجَبًا وَكَثْرَةَ الشَّدِّ يُرْخِي¹

— قصيدة: وَصَالِكَ أُنْهَى مَطْلَبِي وَمُرَادِي:

وَصَالِكَ أُنْهَى مَطْلَبِي وَمُرَادِي
وَحُسْنُكَ أَبْهَى مَرْتَعِي وَمَزَادِي

¹ في الوافي: ((ترخي)).

وَدُونَكَ لَوْ وَافَيْتُ رَبَّكَ زَائِرًا
 خُطَابُ جِدَالٍ فِي خُطُوبِ جِلَادٍ
 حَبِيبِي لَقَدْ رَوَّيْتَ عَيْنِي بِدَمْعِهَا
 وَغَادَرْتَ قَلْبِي لِلتَّصَبُّرِ صَادِي
 وَنُصِّتَ فِي حُظِّي كَمَا زِلْتَ فِي الْهَوَى
 صُدُودِي — يَا كُلَّ الْمَنَى — وَبُعَادِي
 فَوَ اللَّهِ لَمْ أَطْلُقْ لَغِيرِكَ مَهْجَتِي
 غَرَامًا وَلَمْ أَمْنَحْ سِوَاكَ وَدَادِي
 بَعِيشَاكَ نَبَّةَ نَاطِرِيَاكَ لَعَلَّهَا
 تَرُدُّ عَلَيَّ طَرْفِي لَنِيذَرُ رُقَادِي
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فِي الْغَرَامِ مُحَجَّبًا
 بِقَلْبِي فَلَا تَلْقَاهُ عَيْنِي بَِادِي
 أَحَازِرُ طَوْلًا مِنْ نَوَابَةِ شَعْرِهِ
 فَقَدْ وَصَلْتُ مِنْ قَدِّهِ لِفُؤَادِي

— قصيدة: أَمَّا وَلَالٍ مِنْ شَتَّيْتِ ابْتِسَامِهِ:

أَمَّا وَلَالٍ مِنْ شَتَّيْتِ ابْتِسَامِهِ
 وَمَا خُطٌّ فِي يَاقُوتِهِ مِنْ زَبَرَجَدٍ
 لَقَدْ يُجْرِي لَوْلَا فَوْقَ عَنَدَمٍ
 كَمَا بَتَ أُجْرِي عِنْدَمَا فَوْقَ عَسَجَدٍ

فهذا عقيقٌ ذائبٌ في مُعَصِفٍ
 وهذا جُمانٌ سائلٌ في مُورِدٍ
 فَيَا فَرَقْدَ الحَيِّ الَّذِي مُذْ هَوَيْتُهُ
 تَكْفَلُ طَرْفِي رَعِي نَسْرِ وَفَرَقْدِ
 تَأَنَّ فَلَوْ أُرْسِلْتَ سَهْمَكَ فِي الصَّفَا
 غدا مارِقاً من كل صمَاء جلمدٍ
 لو بسوى سهم الفِرَاقِ رمتني
 حنانيك لم ينفذْ بدرعِ تجلُدي
 صَدَدْتَ فَلَمْ تَبْعَثْ رُقَاداً لَسَاهِرٍ
 وصدت فلم تتركِ فؤاداً لمكمدٍ
 نصبتِ حبالَ الكَرَى لاقتناصِهِ
 فَعَاقَبْتَ جَفَنِي بالسُّهَادِ الْمُؤَبَّدِ
 وَأَقْبَلَ تَحْتَ الشَّعْرِ كَالْبِدْرِ فِي الدُّجَى
 عَلَى مِثْلِ غَصَنِ البَانَةِ الْمُتَأَوِّدِ

— مقطوعة: إِنْ صَدَّ وَأَضْحَى لِلْجَفَا يَعْتَمِدُ:

إِنْ صَدَّ وَأَضْحَى¹ لِلْجَفَا يَعْتَمِدُ
 أَوْ زَالَ وَدَادُهُ الَّذِي أَعْتَقَدُ

¹ في فوات الوفيات: ((وراح)).

فَالْأَمْرُ لَهُ وَمَا عَلَيْهِ حَرَجٌ
لَا يَنْخُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنِي أَحَدٌ

— قصيدة: فَضَحْتُ جِدَّ الْغَزَالِ بِالْجِدِّ:

فَضَحْتُ جِدَّ الْغَزَالِ بِالْجِدِّ
وَفُقَّتْهُ بِالْذَّلَالِ وَالْغَيْدِ
وَكُنْتُ أَوْلَى مِنَ الْغُصُونِ بِمَا
يُغْزَى لِأَعْطَافِهَا مِنَ الْمَيْدِ
لَسْتُ أَطِيعُ الْعَذُولَ فَيْكَ عَلَى
غَيٍّ لَدَيْهِ وَلَا عَلَى رَشْدِ
لَا أَنْتَ مِمَّنْ يَدِي عَلَى كَبْدِ
أَتْلَفَهَا بَلْ يَدِي عَلَى كَبْدِي
يَا سَاقِيَا مُهْجَتِي كُؤُوسَ هَوَى
وَسَائِقَا مُقْلَتِي إِلَى السَّهْدِ
وَمُودِعِي صَبْوَةَ أَوَائِلِهَا
يُقْصِّرُ عَنْهَا أَوَاخِرُ الْعَدَدِ
عِنْدِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بِهِ أَجَلِي
يَفْنَى وَلَمْ أَبْدِهِ إِلَى أَحَدِ
قَدْ نَضَجَتْ مُهْجَتِي هَوَى فَإِذَا
قَالَتْ قَدْ لِلْغَرَامِ قَالَ قُدِّي

وَجَدْتُ مِنْكَ الْقَلَى بِلَا طَلَبٍ
فَكَمْ طَلَبْتُ الْلَقَا فَلَمْ أَجِدْ
أَوَّلُ عَهْدِي بِالْحُبِّ فِيكَ غَدَا
آخِرُ عَهْدِي بِالصَّبْرِ وَالْجَدِ
يَا شَعْرُهُ قَدْ أَعْنَتَ لَيْلِي فِي الطَّوِ
لِ عَلَى نَاضِرِي فَاتَّقِدْ
وَأَنْتَ يَا خَدَّةَ نَسِيتَ إِلَى الْـ
رَقَّةَ إِلَّا عَلَى أَخِي الْكَمَدِ
وَأَنْتَ يَا طَرْفَةَ السَّقِيمِ أَمَا
تَرْحَمُ مَا قَدْ حَكَكَ مِنْ جَسَدِي
يَمِيلُ قَلْبِي لِرَشْفِ رِيْقَتِهِ
مَنْ أَيْنَ لِلنَّارِ نَسْبَةُ الْبَرْدِ
هَلْ لِقَتِيلِ الْخُدُودِ مِنْ نِيَّةٍ
أَوْ لَطَعِينَ الْقُدُودِ مِنْ قَوْدِ
يَا مَنْ لَحْظِي مَا رَاحَ مِنْعَكُوساً
إِلَّا بِهَجْرٍ فِي الْخُبِّ مُطَرِّدِ
تَاللهِ يَا لَيْلِي الطَّوِيلَ لَقَدْ
قَصَّرْتُ فَلَمْ يَعْدُ يُؤَدِ
حَسْبِي وَحَسْبُ الْهَوَى وَحَسْبُكَ مَا
يَفْعَلُهُ الْهَجْرُ بِي فَلَا تَزِدْ

يَا نَاسِيَا عَهْدِي الْقَدِيمَ وَمَا
غَيْرُ هَوَاهُ يَمُرُّ فِي خَلْدِي
أَيْنَ اللَّيَالِي وَأَنْتِ عِنْدِي قَدْ
حَوَاكَ طَرْفِي وَأَنْتِ طَوْعُ يَدِي
حَيْثُ أَنْادِي وَأَنْتِ مُبْتَسِمٌ
يَا عَيْنُ رُودِي وَيَا شِفَاهُ رِدِي
وَالْيَوْمَ لِي أَدْمَعٌ تَسْرَبُ فِي الْـ
خَدِّ كَوَرَقٍ فِي كَفٍّ مُنْتَقِدٍ
لَقَدْ نَوَى الْعَاذِلُ الْمُسِيءُ بِنَا
بِظَاهِرِ النُّصْحِ وَبَاطِنِ الْحَسَدِ

— مقطوعة: شَكَوْتُ إِلَى الْحَبِيبَةِ مَا أَلَاقي:

شَكَوْتُ إِلَى الْحَبِيبَةِ مَا أَلَاقي
لِسُوءِ الْحَظِّ مِنْ أَلَمِ الْبُعَادِ
فَقَالَتْ إِنَّ حَظَّكَ مِثْلُ عَيْنِي
فَقُلْتُ نَعَمْ وَلَكِنْ فِي السَّوَادِ

— مقطوعة: مَسْكٌ وَخُمْرٌ وَبَرْدٌ:

مَسْكٌ وَخُمْرٌ وَبَرْدٌ رِضَابُهُ لَذَارِفٌ
فَلَوْ رَأَى بَدْرُ الدَّجَى ضِيَاءَ خَدَّيْهِ سَجَدَ

والحسن لو أبصره لمات من فرط الحسنة
يَقْتُلُ بِاللَّحْظِ وَمَا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ
أَعِذُّهُ مِنْ نَاطِرِي بَقْلٌ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

— مقطوعة: هل جابرٌ جائرٌ بالوصلِ لم يجد:

هل جابرٌ جائرٌ بالوصلِ لم يجد
أَمْ نَاصِرٌ نَاصِرٌ جَفَنِي عَلَى السَّهْدِ
مَنْعُمُ الْبَالِ لَا تُثْنِي مَعَاظِفَهُ
يَدُ الْغَرَامِ وَتُثْنِيهَا يَدُ الْمَيْدِ
فِي جِسْمِهِ تَرْفٌ يَنْدَى بِهِ صَافٍ
إِنْ هَزَّةٌ هَيْفٌ هَزَّ الضُّنَى جَسَدِي
تَقَسَّمَ اسْمُكَ تَقْسِيماً أَرَدْتَ بِهِ
الصَّادُ عَيْنَكَ وَالْبَاقِي عَلَى كَبَدِي

— قصيدة: حُبِّيتْ يَا رَبِّعَ الْحِمَى بِزُرُودِ:

حُبِّيتْ يَا رَبِّعَ الْحِمَى بِزُرُودِ
مِنْ مُغْرَمٍ دَنَفِ الْحَشَا مَعْمُودِ
يَا نَزْهَتِي الْكِبْرَى وَمَعْدَن لَنْتِي
وَمَحَلَّ أَهْلِ مَوْتَتِي وَعُهُودِي

عَوْجُوا عَلَيْهِ فَلَسْتُ أَبْرُدُ غَلَّةً
 حَتَّى أُعْفَرَ فِي ثَرَاهُ خُثُودِي
 وَلَوْ كُنْتُ إِذْ أَدْعُو أُجَابُ لَقُلْتُ يَا
 أَيَّامَ وَصَلِي بِالْأَحْبَةِ عُودِي
 أَيَّامُ ذَاتِ الْخَالِ لَيْسَ تَخُلُّ فِي
 وَعْدِ وَذَاتِ الْجِدِّ ذَاتِ الْجُودِ
 وَرَسِيْقَةُ الْأَعْطَافِ ذَاتُ مُقَبَّلِ
 يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ الرِّضَابِ بَرُودِ
 نَادِيَتُهَا وَالرَّكْبُ بَيْنَ مَوَدِّعِ
 يَهْدِي الْجَوَى وَمُودِّعِ مَكْمُودِ
 يَا ظَبِيَّةَ الْوَعْسَاءِ مَا ضَرَّ الْهُوَى
 لَوْ كُنْتُ مِنْ قَنْصِي وَبَعْضِ صَيُّودِي
 لَوْ كُنْتُ مِنْ قَنْصِي وَبَعْضِ صَيُّودِي
 مَالِي رَجَعْتُ بِشَافِعِ مَرْدُودِ
 قَالُوا الثَّرَاءُ يَزِينُهُ فَاعْمَدْ إِلَى
 ظِلِّ ابْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ الْمَمْدُودِ
 فَخَرَجْتُ أَظْهَرُ هِمَّتِي وَمَحَبَّتِي
 وَمَطِيَّتِي وَمَقَاصِدِي وَقَصِيدِي
 وَسَرِيَّتْ مُدْلَجًا إِلَيْهِ وَمَدْلَحًا
 وَالشَّوْقُ يُدْنِي مِنْهُ كُلَّ بَعِيدِ

لَا وَعْرُ أَهْلِ الشَّامِ يُبْعِدُنِي وَلَا
 الرَّمْلُ الْمَدِيدُ وَلَا اتِّسَاعُ الْبِيدِ
 حَتَّى أَنْخْتُ بَيْنَ بَيْتَيْهِ اتَّضَحَتْ لَنَا
 طُرُقُ الْهُدَى وَأَدَلَّةُ التَّوْحِيدِ
 عَظُمَ وَمَجَّدَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ
 أَعْلَى مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّجِيدِ
 لَا تَنْقُضِي أَوْصَافَهُ الْحُسْنَى وَلَا
 أَوْصَافُ آبَاءٍ لَهُ وَجُدُودِ
 خُلِقَ النَّدَى خَلْقًا لَهُ وَكَذَا لَهُمْ
 طَيِّبُ الثَّمَارِ دَلِيلُ طَيِّبِ الْعُودِ
 عَشَقْتَهُمُ الْعِلْيَاءَ إِلَّا أَنَّهَا
 أَمَنْتُ جَنَازَةً هَجَرَهُمْ وَصُدُودِ
 رَفَعْتَهُمْ وَازْدَانَ مَنْظَرُهَا بِهِمْ
 فَهِيَ السَّمَاءُ وَهُمْ بُدُوءُ سُعُودِ
 أَوْقَالَهُمْ لِلصِّدْقِ وَالْأَفْعَالِ إِلَى
 تَأْيِيدِ وَالْآرَاءِ لِلتَّسْدِيدِ

— مقطوعة: فَكَمْ جَمَعَ الْحُسْنَ النَّفِيسُ مِنَ الْعُلَى:
 فَكَمْ جَمَعَ الْحُسْنَ النَّفِيسُ مِنَ الْعُلَى
 وَكَمْ فَرَّقَ الْجَيْشُ الْخَمِيسُ مِنَ الْعَدَى

وَكَمْ قَدْ نَصَا سَيْفًا بِكَفٍّ كَرِيمَةٍ
فَأَحْسَنَ وَضَعَ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ الذِّدَى

— مقطوعة: قالوا: حبيبك فيه:

قالوا: حبيبك فيه حبٌ يلوحُ بخدٍّ
فقلتُ ما هو حبٌّ لكنَّه زِرٌّ ورد

— مقطوعة: رأى المسيحيون منه ذمية:

رأى المسيحيون منه ذميةً تعطو كبراً فوق غصنٍ مايدٍ
فَبَرَّهَنُوا تَلَايَهُمْ بِشَكْلِهِ لَمَّا رَأَوْا ثَلَاثَةً فِي وَاحِدٍ

— مقطوعة: ماست فقيل هي القضيبي الأמיד:

ماست فقيل هي القضيبي الأמידُ
ورنت فقيل هي الغزال الأعيدُ
ورأت بديع جمالها فتبسمتُ
عن لؤلؤٍ بمثاله تتقلدُ
بيضاءَ رَوْضِ الحُسْنِ فيها أَخْضَرُ
ومَدَامِعي حُمْرٌ وَعَيْشي أَسْوَدُ
فعلت السيوف السحر من أجفانها
ما يفعلُ الهنديُّ وهو مجردُ

— مقطوعة: أنفقت كنز مدائحي في ثغره:

أنفقتُ كنز مدائحي في ثغره وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبتُ منه جزاء ذلك قُبلة فأبى وراح تغزلي في البارِد

— قصيدة: عذارك من نَدِ يَجُلُّ عَنِ النِّدِّ

عِذارُكَ مِنْ نَدٍ يَجُلُّ عَنِ النِّدِّ

وريقك شهد لا كرامة للشهد

ولحظك سيفٌ كيف أصبح قاطعاً

وليس له والله في الحسن من حدٍّ

حبيبي شرفني بكتبك مُنعماً

فَقَدْ حَسَنْتَ شَرْعاً مُكَاتِبَةَ الْعَبْدِ

رَعَى اللهُ بَذْراً زَارَ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

سَأَشْكُرُ مُحَبُّوباً يَزُورُ بِلَا وَعْدِ

وَيُصْبِحُ لِلْإِخْلَاصِ قَلْبِي تَالِيَاً

ويمسي لسانِي تالِياً سورة الحمدِ

والله جيرانٌ على أيمن الحمى

لهم أبداً مني حنوٌّ على بدي

لقد حملت ريحُ الصبا من ديارهم

أَحَابِيثَ تَرْوِيهِنَّ عَنْ عَذَبِ الرُّنْدِ

فَأَهَذْتُ إِلَى قَلْبِي سُرُوراً عَلَى النَّوَى
فِيَا حُسْنَ مَا تُمَلِّي وَيَا طَيْبَ مَا تُهْدِي
أَيَا سَادَةَ مَلَّوْا فَمِلْتُ إِلَيْهِمْ
وَخَانُوا وَلِي قَلْبٌ مُقِيمٌ عَلَى الْعَهْدِ
تَرَى يَسْمَحُ الدَّهْرُ الضَّئِينَ بِقُرْبِكُمْ
وَأَحْظَى بِكُمْ يَا جَبْرَةَ الْعِلْمِ الْفَرْدِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي عِنْدَكُمْ يَا احْبَتِي
مَحَلٌّ وَلَا قَدْرٌ فَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي

— مقطوعة: سَيُوفٌ مُوَاضٍ مُرْهَفَاتٌ قَوَاطِعُ:
سَيُوفٌ مُوَاضٍ مُرْهَفَاتٌ قَوَاطِعُ
قَوَاضٍ يَرُوحُ الْمَوْتُ فِيهَا وَيَغْتَدِي
إِذَا جُرِّدَتْ فِي الْحَرْبِ صَالَتْ كَأَنَّهَا
عُيُونٌ عَلَيَّ فِي فُؤَادِ مُحَمَّدٍ

— مقطوعة: كَلِفْتُ بِحُبِّ مُسْتَوْفِي:
كَلِفْتُ بِحُبِّ مُسْتَوْفِي فَهَلْ مِنْ أَخَذِ بِيَدِي
إِذَا اسْتَدْعَى عَلَى تَلْفِي تَجْهِيهِ عَلَى كَبْدِي كَذَا

— مقطوعة: له مِنِّي المَحَبَّةُ والوِدَادُ:

له مِنِّي المَحَبَّةُ والوِدَادُ وَلِي مِنْهُ القَطِيعَةُ والبُعَادُ
فقلبي لا يُلَاقِيهِ اصْطِيارٌ وجَفَنِي لا يُفَارِقُهُ السُّهَادُ
كَلِّفْتُ بِحَبِّهِ صُوفِيَّ وَصَلِّ فَمَاضِيهِ إِلَيْهِ لا يُعَادُ

— مقطوعة: كَلِّفْتُ بِمَحْبُوبٍ كَثِيرٍ حَيَاؤُهُ:

كَلِّفْتُ بِمَحْبُوبٍ كَثِيرٍ حَيَاؤُهُ
لَهُ وَجَنَةٌ مِنْ حُسْنِهَا خَجَلُ الوردِ
فَأَوَّلُ مَا تَلَقَّاهُ يَحْمَرُّ وَجْهُهُ
كَذَاكَ تَكُونُ الشَّمْسُ أَوَّلَ مَا تَبْدُو

— مقطوعة: بِنَفْسِجُ جَاءَتْ وَحَيَّتْ بِهِ:

بِنَفْسِجُ جَاءَتْ وَحَيَّتْ بِهِ مِنْ قَدْهَا يَحْكِي القَنَا الأَمْلَدَا
كَأَنَّهُ فِي كَفِّهَا أَدْمَعٌ مِنْ أَعْيُنٍ قَدْ مَلَأَتْ إِثْمَدَا

— مقطوعة: عَرِيبٌ كَانَ لِي مَعَهُمْ عُهُودٌ:

عَرِيبٌ كَانَ لِي مَعَهُمْ عُهُودٌ
ظَنَنْتُ بَقَاءَهَا وَلَهُمْ وَدَادُ
عَهْدْتُ لَدَيْهِمْ خُلُقًا جَمِيلًا
وَقَدْ غَضِبُوا وَلَوْ رُدُّوا لَعَانُوا

— مقطوعة: وما فيه من حسن سوى أن طرفه:

وما فيه من حسن سوى أن طرفه¹

لكل فؤاد في البرية صائد

وأن محياه إذا قابل الدجى

أنار² به جنح من الليل راكد

وأن ثناياه نجوم لبدره

وهن لعقد الحسن فيه فرائد³

فكم يتجافى خصره وهو ناجل

وكم يتحالي ريقه وهو بارد

وكم يدعي صونا وهذي جفونه

بفترتها للعاشقين تواعد⁴

— مقطوعة: أهدى لنا بنفسجاً منثوراً:

أهدى لنا بنفسجاً منثوراً

يروقنا من كفه الغض الندي

¹ جاء صدر البيت في فوات الوفيات هكذا:

((وهن فيه من شيء سوى أن طرفه)).

² في فوات الوفيات: ((أضاء)).

³ سقط هذا البيت في فوات الوفيات.

⁴ في فوات الوفيات: ((مواعد)).

كَأَنَّهُ مَدَامَعٌ مِنْ أَعْيُنٍ
قَدْ كُحِلَتْ جُفُونُهَا بِإِثْمِدٍ

— قصيدة: أَلَيْنُ فَيَقْسُو ثُمَّ أَرْضَى فَيَحْقِدُ:

أَلَيْنُ فَيَقْسُو ثُمَّ أَرْضَى فَيَحْقِدُ
وَأَشْكُو فَلَا يُشْكِي وَأَذْنُو فَيَعِيدُ
يَهْزُ قَوَامًا نَاضِرًا وَهُوَ ذَابِلٌ
إِذَا مَا تَنَنَّى فَهَوَ فِي الْحُسْنِ مُفْرَدُ
يَقُولُ لِي الْوَاشِي تَعَدُّ عَنِ الَّذِي
تَبَيَّتُ بِهِ مُضْنَى الْفُؤَادِ وَيَرْقُدُ
وَدَعِ عَنْكَ ذِكْرِي مِنْ غَدَا لَكَ نَاسِيًا
مَلُولًا فَكَمْ فِي الْعَالَمِينَ مُحَمَّدُ
نَقَلْتُ لَتَدَّ يَا عَاذِلِي لَيْسَ فِي الْوَرَى
يُرَى مِثْلُ مَنْ قَدْ هَمَّتْ فِيهِ وَيُوجَدُ
فَمَا كُلُّ زَهْرٍ يُنْبِتُ الرِّوَضُ طَيِّبُ
وَلَا كُلُّ كَحْلٍ لِلنَّوَظِرِ إِثْمِدُ
وَزَوْرُوا قَوْلَهُمْ وَمَا صَدَقُوا
فِي نَقْلِ شَيْءٍ ضُرِّي بِهِ قَصَوُوا
حَاشَا لِمِثْلِ الْأَمِيرِ يَسْمَعُ مَا
قَالُوهُ عَنِّي وَمَا بِهِ شَهَدُوا

مالي إلا بيتي أُقيمُ به
فلا يراني من بعدها أحدُ
أو أنني أحرف الفيافي من
خلفي ولا يستقرُّ بي بلدُ
والأرضُ إلا دِمَشْقُ لي وَطَنُ
والنَّاسُ إلا الأميرُ لي سَنَدُ

— مقطوعة: كَيْفَ خَلَّصِي مِنَ الَّذِي أَجِدُ:

كَيْفَ خَلَّصِي مِنَ الَّذِي أَجِدُ
قد أعوزَ الصَّبْرُ عَنْهُ وَالْجَلْدُ
ما قُلْتُ يوماً قد انقضى عَدَدُ
مِنَ الْأَعَادِي إِلَّا أَتَى عَدَدُ
قد عَرَفُوا مِن أَنَا وَعَاقَهُمْ
عَنْ اعْتِرَافِي بِفَضْلِي الْحَسَدُ
ما بَلَّغُوا مَا حَوَّيْتُ مِنْ أَدَبٍ
فَبَالِغُوا فِي أَذَايَ واجْتَهَدُوا

— مقطوعة: أَيُّهَا الْمُودِعُ قَلْبِي:

أَيُّهَا الْمُودِعُ قَلْبِي نَارَ وَجْدٍ تَتَوَقَّدُ
كَيْفَ تَسْأَلُ نَاراً مُهْجَةً تَهْوَى مُحَمَّدَ

نَجْمٌ حَسَنٌ لِفُؤَادِي فِيهِ وَجْدٌ يَتَجَدَّدُ
نَوَّوُهُ بِالطَّرْفِ وَالنَّأَى رُ بَقَلْبِي لَيْسَ تَحْمَدُ

— مقطوعة: مَا عَذْلَكَ فِي الْهَوَى لَهُ مُسْتَنَدٌ:

مَا عَذْلَكَ فِي الْهَوَى لَهُ مُسْتَنَدٌ
هِيَهَاتَ يَرَى لِي سُلُوءَةً أَوْ جَلَدٌ
فِي قَلْبِي مَا تَلَنَّثَهُ تَعْرِفُهُمْ
اللَّهُ وَمَنْ أَحْبَبُهُ وَالْكَمَدُ

— مقطوعة: يَا مَنْ لَجَمَالٍ وَجْهَهُ الْبَدْرُ سَجَدُ:

يَا مَنْ لَجَمَالٍ وَجْهَهُ الْبَدْرُ سَجَدُ
مَا تَرَحَّمُ مَنْ يَرْحَمُهُ كُلُّ أَحَدُ
إِنْ قِيلَ بَأْنٍ لِي عَلَى الْهَجْرِ جَلَدُ
مَا أَنْ صَدَّقُوا قَدْ قِيلَ لِلَّهِ وَلَدُ

— مقطوعة: حَكَى وَجْهَهُ النَّقْدَيْنِ وَالْجَوْهَرَ الَّذِي:

حَكَى وَجْهَهُ النَّقْدَيْنِ وَالْجَوْهَرَ الَّذِي
بِمَنْظَرِهِ قَلْبُ الشَّجِي يَتَلَدُّ
لُجَيْنٌ ثَنَائِيَهُ عَقِيقٌ شِفَاهُهُ
وَحَدَّاهُ تَبَرُّ وَالْعِذَارُ زُمَرُدُ

— مقطوعة: ربّ قاضٍ لَنَا مليح:

ربّ قاضٍ لَنَا مليح يُعْرِبُ عَنْ مَنْطِقِ لَذِيذِ
إِذَا رَنَّا لِي بِسَهْمِ لَحْظٍ قُلْنَا لَهُ دَائِمَ النَّفُودِ

— مقطوعة: لي فودٌ وفؤادٌ يرتجي:

لي فودٌ وفؤادٌ يرتجي طيب وصلٍ مِنْكُمْ بالهجرِ لا ذَا
فَاعْجَبُوا بِاللّهِ مِنْ أَمْرِيهِمَا شَابَ هَذَاكَ وَمَا أَدْرَكَ ذَا

— مقطوعة: بِحَقِّكَ لَا تَهْجُرْ فَهَجْرُكَ قَاتِلٌ:

بِحَقِّكَ لَا تَهْجُرْ فَهَجْرُكَ قَاتِلٌ
وَإِنِّي مِنْ جَوْرِ النَّوَى بِكَ عَائِدُ
وَكَنْزُ اصْطِيَارِي عِنْدَ فَقْدِكَ نَافِذُ
كَمَا أَنَّ سَهْمَ اللَّحْظِ فِي الْقَلْبِ نَافِذُ

— مقطوعة: دمعي وقلبي مطلقٌ وأسيرُ:

دمعي وقلبي مطلقٌ وأسيرُ
وعَظِيمُ مَطْلُوبِي عَلَيْكَ يَسِيرُ
يَا مَنْ لَهُ فِي الْحَسَنِ غُرَّةٌ عَزَّةٌ
شَوْقِي — وَحَقِّكَ — فِي هَوَاكَ كَثِيرُ

— مقطوعة: لَعَمْرُكَ مَا الْفَخْرُ الْعِرَاقِيُّ مَيِّتٌ:

لَعَمْرُكَ مَا الْفَخْرُ الْعِرَاقِيُّ مَيِّتٌ

وإِنْ كَانَ مَا بَيْنَ الْقُبُورِ لَهُ قَبْرٌ

ولكنها الأخرى أَتَتْ وَتَزَيَّنَتْ

وفاخرت الدنيا وكان لها الفخرُ

— مقطوعة: قالوا غداً يندم من لثمه:

قالوا غداً يندم من لثمه في ثغره إذ يغلب السكرُ

فقال لي مبسمه دَعَهُمْ (اليومَ خَمَزَ وَغداً أَمْرٌ)¹

— مقطوعة: منيرٌ وجدي به:

منيرٌ وجدي به أَكْتُمُهُ وَيَظْهَرُ

وَكَيْفَ تَخْفَى لَوْعَتِي وَقَدْ غدا يُنِيرُ

— مقطوعة: أراكَ فَيَمْتَلِي قلبي سُرُوراً:

أراكَ فَيَمْتَلِي قلبي سُرُوراً

وَأَخْشَى أَنْ تَشُطَّ بِنَا الدِّيارُ

¹ مقتبس عن امرئ القيس.

أَقِمْ وَاهْجُرْ وَصُدَّ وَلَا تَصِلْنِي
رَضِيْتُ بِأَنْ تَجُورَ وَأَنْتَ جَارُ

— مقطوعة: أَقْلَبُ قَلْبِي شَوْقاً إِلَيْهِ:

أَقْلَبُ قَلْبِي شَوْقاً إِلَيْهِ
وَأَذْرِي عَلَيْهِ دُمُوعاً غِزَاراً
وَأَرْعَى الْكَوَكِبَ أَنَّى سَرَيْنَ
وَأَرْقُبُ بَذَرَ الدُّجَى حَيْثُ سَارَا
وَالْغَيْتُ مِنْ نَاطِرِي السُّهَادَ
وَأَلْقَيْتُ فِي الْقَلْبِ نَوْراً وَنَارَا

— قصيدة: لَمَّا حَدَا بِالْأَيْمَنِينَ يَسَارُ:

لَمَّا حَدَا بِالْأَيْمَنِينَ يَسَارُ
وَسَرَى الْيَمَانُونَ الْعَشِيَّ وَسَارُوا
طَلَبْتُ عُيُونُكَ دَمْعَهَا فَأَجَابَهَا
قَانٍ وَالْحَزَنُ الدَّمَاءُ تَعَارُ
وَدَمٌّ وَدَمْعٌ حِينَ يَخْتَلِطَانِ فِي
إِثْرِ الْخَلِيطِ فَجُرْحُهُنَّ جُبَارُ
وَتَغَيَّرَ الرَّسْمَانِ جِسْمُكَ وَالْجَمَى
لَا أَنتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ

وَعَنُوتَ يُسْعِنُكَ الْحَمَامُ وَكَيْفَ لَا
وَحَشَاكَ وَهِيَ كِلَاهُمَا أَطْيَارُ
وَحَشَاكَ وَهِيَ كِلَاهُمَا أَطْيَارُ
فِيهِمْ وَمَا مِنْ شَأْنِكَ الْإِسْعَارُ
تَضَعُ الْخُدُودَ عَلَى مَوَاضِعَ قَدْ
سَقَتَهَا الْعَيْنُ وَهِيَ جَمِيعُهَا آثَارُ
وَيَرِقُ جُنْحُ اللَّيْلِ مِنْكَ عَلَى فَتَى
فِي إِثْرَهَا يَفْسُو عَلَيْكَ نَهَارُ
إِنْ غَبْتَ وَجَدَا لَا أَذَى هَذَا وَلَا
تَدْرِي بَرَقَّةَ ذَا فَمَا هُوَ عَارُ
مَا فِيكَ بَعْدَهُمْ لَصَحْوٍ فَضْلَةٌ
هَيْهَاتَ أَفْقَى صَحْوِكَ الْإِسْكَارُ
مَا زِلْتَ تُلْقِي مَا تَقُولُ عَوَائِلُ
حَتَّى اسْتَوَى الْإِقْلَالُ وَالْإِكْثَارُ

— مقطوعة: أَنَا لِلْمَجَالِسِ وَالْجَلِيسِ أُنَيْسَةٌ:

أَنَا لِلْمَجَالِسِ وَالْجَلِيسِ أُنَيْسَةٌ
أَزْهَى بِحُسْنِ نَاضِرٍ لِلنَّاضِرِ
أَصْفَوْ فَأُظْهِرُ مَا أُجِنُّ وَلَمْ يَكُنْ
فِي بَاطِنِي شَيْءٌ يَخَالِفُ ظَاهِرِي

— مقطوعة: لا تنكروا إحراقه في الهوى:

لا تنكروا إحراقه في الهوى

قلبي فما في ذاك من عارٍ

قلت له أنت له مالكٌ

فكان فيه خازن النارِ

— مقطوعة: يوم تكاثف غيمُه فكأنَّه:

يوم تكاثف غيمُه فكأنَّه

نُونُ السَّمَاءِ دُخَانُ غَيْمٍ أَخْضَرِ

والطلُّ مثلُ برادةٍ مِنْ فِضَّةٍ

منثورةٍ فِي تَرْبَةٍ مِنْ عَنَبَرِ

والشَّمْسُ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ كَأَنَّهَا

أَمَةٌ تُعَرِّضُ نَفْسَهَا لِلْمُشْتَرِي

ولديَّ صِرْفُ مُدَامَةٍ مَشْمُولَةٍ

تَلْقَى الظَّلَامَ بِوَجْهِ صُبْحٍ مُسْفَرِ

فَكَأَنَّهَا مِمَّا تُحِبُّكَ أَقْسَمْتُ

أَنْ لَا تَطِيبَ لَنَا إِذَا لَمْ تَحْضُرِ

— قصيدة: أوائل حُبِّ ما لَهْنٌ أوَاخِرُ:

أوائل حُبِّ ما لَهْنٌ أوَاخِرُ
خَوَاطِرُ لا تَنفَكُ عَنْهَا خَوَاطِرُ
فَفِي الحُبِّ مَعْنَى يَنْتَنِي عَنْكَ فِكْرُهُ
وَفِي القَلْبِ مَأْوَى يَلْتَوِي عَنْكَ نَاطِرُ
فَقَلْبِي فِي بحر الصَّبَابَةِ وَاقِعٌ
غَرِيقٌ وَلُبِّي فِي فُضَا الوَجْدِ طَائِرُ
وَلِي نَفْسٌ مِنْ لَوْعَتِي مُتَصَاعِدٌ
وَدَمْعِي عَلَى شَطِّ النَّوَى مُتَحَادِرُ
وَمَعْتَدِلٌ قَدْ أَنْصَفَ الحُسْنَ خَلْقَهُ
وَلَكِنَّهُ فِي مَذْهَبِ الحُبِّ جَائِرُ
يُبْرِدُ قَلْبِي خَدُّهُ وَهُوَ جَمْرَةٌ
وَيَحْرِقُ قَلْبِي طَرْفُهُ وَهُوَ فَاتِرُ
أَبُوخٌ وَأَخْفِي هَكَذَا سِنَّةُ الهَوَى
وَالصَّبِّ فِي الشَّكْوَى عَذُولٌ وَعَانِرُ
وَالْوَجْدِ مَا أَنْشَأَ لِسَانِي وَمَذْمَعِي
وَالْوَدِّ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ السَّرَائِرُ

— مقطوعة: إليكم خمركم عني مع الوتر:

إليكم خمركم عني مع الوتر
ليس المدامة والألحان من وطري
فَمَا يَعْقُرُ سُورَ عِنْدَ ذِي حُزْنٍ
وَلَا يَسِرُّ قَرَارًا عِنْدَ ذِي فِكْرٍ
لو أن بالأفق ما لاقيت من حرق
إِذَا لَفَرَّقَ شَمْلَ الْأَنْجُمِ الزُّهْرُ
إن رمتوني نديماً فارفعوا كمدي
واستنجبوا جلدي واستوقفوا سهري
لَا أَسْتَلِذُ كُؤُوسَ الْخَمْرِ دَائِرَةً
حَتَّى أَرَى كَأْسَ خَمْرِ الْهَجْرِ لَمْ يَذُرْ

— مقطوعة: يا غُصْنِ نَقَا عَلَيْهِ طَائِرُ:

يا غُصْنِ نَقَا عَلَيْهِ طَائِرُ
مَهْجُورُكَ يَا حَبِيبَ قَلْبِي صَابِرُ
فَارْحَمْ وَاغْطِفْ عَلَيَّ قَدْ مِتُّ
بِاللَّهِ أَمَا إِذَا الْجَفَا مِنْ آخِرِ جَوَى

— مقطوعة: يَا مَنْ بِصُدُودِهِ أَلْفَتْ الْفِكْرَا:

يَا مَنْ بِصُدُودِهِ أَلْفَتْ الْفِكْرَا
فِي حُبِّكَ مُذْ نَأَيْتَ لَمْ أَلْفَ كَرَى
كَمْ أَحْتَمِلُ الْغَرَامَ وَالْهَجَرَ تُرَى
يَا بَدْرُ بِدَارِي بَعْدَ ذَا الْبُعْدِ تُرَى

— مقطوعة: أَسِيرُ لِحَاطِ كَيْفَ يَنْجُو مِنَ الْأَسْرِ:

أَسِيرُ لِحَاطِ كَيْفَ يَنْجُو مِنَ الْأَسْرِ
وَعَاشِقُ نَعْرِ كَيْفَ يَصْنُو مِنَ السُّكْرِ
وَلَا سِيَّما صَبَّ يَذُوبُ صَبَابَةً
بِمَا جَلَّ عَنْ حَصْرِ بِمَا تَقَّ مِنْ خَصْرِ
يُهْدِدُهُ الْوَاشِي وَيَبْكِي صَبَابَةً
فَيَفْرِقُ مِنْ نَهْرٍ وَيَغْرُقُ فِي نَهْرٍ
تَأْلُقُ فِي أَفْقِ الْمَلَا حَةَ كَوْكَباً
تَأْلُقُ تُرَى وَضَاحِكٍ عَنْ تُرَى
فَفِي كُلِّ جَوْ مِنْهُ نَقْعٌ مِنَ الْهَوَى
وَفِي كُلِّ قَطْرِ مِنْهُ وَقْعٌ مِنَ الْقَطْرِ

— مقطوعة: قُولُوا لِرِجَالِكُمْ ذَا الَّذِي:

قُولُوا لِرِجَالِكُمْ ذَا الَّذِي
لَهُ مَحْيَا بِالسَّنَا مَسْفَرُ

إِنْ كُنْتَ فِي الصَّنْعَةِ ذَا خَيْرَةٍ
وَكَانَ مَعْرُوفَكَ لَا يَنْكُرُ
فَمَا لِأَحْدَاقِكَ أَقْدَاحُهَا
فِي صَحَّةٍ مِنْ حُسْنِهَا تُكْسَرُ

— مقطوعة: يَا بَاعِثًا شَعْرَهُ انْتِشَارًا:
يَا بَاعِثًا شَعْرَهُ انْتِشَارًا
بِقَامَةٍ مَالَهَا نَظِيرُ
الْمَوْتُ مِنْ نَاضِرِكَ لَكِنْ
مِنْ شَعْرِكَ الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ

— مقطوعة: أَمَّا وَتَمَاوِيلُ الْغُصْنِ النَّضِيرِ:
أَمَّا وَتَمَاوِيلُ الْغُصْنِ النَّضِيرِ
وَحُسْنٌ تَلَفَّتِ الظُّبْيُ الْغَرِيرِ
وَحَالٍ عَمَّهُ فِي الْخَدِّ حُسْنٌ
يَجُولُ بِصَفْحَةِ الْخَدِّ الْحَرِيرِ
وَصُدُغٌ قَدْ حَكَى لَمَّا تَبَدَّى
خِيَالَ الرُّوْضِ فِي صَفْوِ الْغَدِيرِ
لَقَدْ نَشَطَتْ لَوَاحِظُهُ لِقَتْلِي
بِعِزْمٍ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْفُتُورِ

كَمَا جَهَلْتُ ذَوَاتِيهِ غَرَامِي
عَلَيْهِ وَهِيَ تَنْسَبُ لِلشُّعُورِ
هَلَالٌ فِي النَّبَاطِ وَالْتِدَانِي
غَزَالٌ فِي التَّلَفُّتِ وَالنُّفُورِ
أَعَايِنُ مِنْ مُحَاسِنِهِ وَدَمْعِي
طُلُوعُ الشَّمْسِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ

— مقطوعة: زَارَ وَجَنَحُ الظَّلَامِ مُنْسَدَلٌ:

زَارَ وَجَنَحُ الظَّلَامِ مُنْسَدَلٌ
فَانْشَقَّ ثَوْبُ النُّجَى عَنِ الْفَجْرِ
وَبَتْ مِنْ صَدْعِهِ وَمِبْسَمِهِ
أَجْمَعُ بَيْنَ الْحَشِيشِ وَالْخَمْرِ

— قصيدة: خَذَ مِنْ حَدِيثِي مَا يُغْنِيكَ عَنْ نَظْرِي:

خَذَ مِنْ حَدِيثِي مَا يُغْنِيكَ عَنْ نَظْرِي
فَإِنَّهُ سَمَرٌ نَاهِيكَ مِنْ سَمَرِ
كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ غَدَا أُمًّا لِمَعْشَرِهِ
فَأَعْجَبَ لِإِعْطَاءِ لَفْظِ الْأُمِّ لِلذَّكْرِ
وَنَاطِحِ بَقَرُونَ لَا قُرُونِ لَهُ
وَكَبِشَ قَوْمَ بَنَقْلِ الْعِلْمِ مُشْتَهَرِ

وَرَبِّ حَامِلٍ وَزِرٍ غَيْرٍ مُجْتَرِمٍ
وَلَانِطٍ وَهُوَ عَفِ الذَّلِيلِ وَالنَّظَرِ
يَدْبُ لِلْفَرْجِ أحياناً وَأَوْنَةً
مَنْ التَّخَلُّفِ يَأْتِي المُرْدَ فِي الدُّبْرِ
وَضَارِبٍ لِي أَهْوَاهُ وَأَكْرَمُهُ
أَرَاهُ يَحْضُرُ عِنْدِي وَهُوَ فِي السَّقَرِ
وَكَمْ بَلِيدٍ بظَهْرِ الغَيْبِ حَدَّثَنَا
وَذِي ذَكَاءٍ رَأَيْنَاهُ مِنَ الحُمُرِ
وَكَمْ بَدَا عَاقِلٌ يَوْمًا وَلَيْسَ لَهُ
فِكْرٌ وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إِلَى البَشَرِ
وَكَمْ نَظَرْتُ لَوَجْهِ لَيْسَ فِي بَدَنِ
وَكَمْ سَمِعْتُ بِصَخْرٍ لَيْسَ مِنْ حَجَرٍ
وَرَبَّ نَاطِمٍ أَشْعَارٍ وَلَيْسَ لَهُ
شِعْرٌ فَهَلْ مِثْلُ هَذَا سَارَ فِي السَّيْرِ
وَمُمْسِكٍ بِيَدَيْهِ النُّجُومَ يَقْلَعُهُ
وَلَيْسَ لِلْمَرْءِ نِيلُ الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَلَابِسٍ وَهُوَ عَارٍ لَا رِداءَ لَهُ
كَسَوْتَهُ أَطْلَسًا مِنْ أَحْسَنِ الشَّعْرِ
وَعَابِدِينَ مِنَ المِحْرَابِ قَدْ هَرَبُوا
تَرَى المَسِيحُ يُؤَافِيهِمْ عَلَى قَدَرٍ

وَمُنْبِرِينَ وَمَا وَلُّوا وَلَا اجْتَرَمُوا
وَيُنْسَبُونَ بِلا شَكٍّ إِلَى دَبْرِ
وَصَالِحِينَ رَأَيْتُ الْخَمَرَ عِنْدَهُمْ
قَدْ حَلَّلُوهُ بِلا خَوْفٍ وَلَا حَذَرٍ
وَسَالِحِينَ وَمَا زَالَتْ طَهَارَتُهُمْ
وَأَمْنِينَ وَقَدْ أَمْسُوا ذَوِي خَطَرٍ
وَتَارِكٍ كَرَشًا فِي الْبَيْتِ مُنْفَرِدًا
مَنْ بَطْنِهِ وَهُوَ لَا يَخْشَى مِنَ الضَّرَرِ
وَجَالِسِينَ عَلَى ظَهْرِ الْهَرِيسَةِ قَدْ
وَأَفَاهُمُ السَّمْنُ مَا فِيهَا مِنَ الشَّجَرِ
وَنَازِلِينَ بِأَرْضٍ قَدْ أَصَابَهُمْ
غَيْمٌ بِلا بَلَلٍ وَالْقَوْمُ فِي مَطَرٍ
وَتَابِعِينَ إِمَامًا وَهُوَ مِنْ خَشَبٍ
وَقَدْ يُؤْنَثُ فِي وَصْفٍ وَفِي خَبَرٍ
عَجَائِبُ مَا لَهَا حَدٌّ فَقُلْ وَأَطِلْ
إِنْ شِئْتَ أَوْ فَاقْتَصِدْ فِي الْقَوْلِ وَاقْتَصِرْ
كَأَنَّهَا لِابْنِ يَعْقُوبٍ صِفَاتٌ عَلَا
لِذَلِكَ إِحْصَاؤُهَا أَعْيَا عَلَى الْبَشَرِ

— قصيدة: أهلاً بوجهك لا حُجبت عن نظري:

أهلاً بوجهك لا حُجبت عن نظري
يا فتنة القلب بل يا نزهة البصر
أهني المحبة أن ترضى بلا عتب
وأطيب العيش أن يصفو بلا كدر
لا تخفرن عهداً قد نطقت بها
تكفل الصدق فيها شاهد الحضر
في ليلية بك وافتي على قدر
فما نقيمت على حكم من القدر
فلا نهذد بالإنصار من حرس
ولا نروغ بالإسفار من سحر
ولائم فيك ما أعطيتُه أنني
ولا شغلت بشيء قاله فكري
إن الحياء على ترك الحجي خلق
أثبت ما قيل فيه عذر معتذر
لا سیر إلا بليّات الشباب على
مضي عزم للهو غير مختصر

ولا مَدَايِحَ إِلَّا فِي مُحَمَّدٍ بَنٍ
 الْاِفْتِخَارِ الْمُرْجَى دَافِعِ الضَّرَرِ
 مَعْنَى لِمُبْتَكِرٍ أَنْسَ لِمُفْتَكِرٍ
 فَجَرَ لِمُعْتَكِرٍ بِالنَّقْعِ مُعْتَكِرِ
 أَكْرَمَ بِهِ مُنْصِفٍ بِالْعَدْلِ مُتَّصِفِ
 لِلذِّينِ مُنْتَصِفٍ لِلْحَقِّ مُنْتَصِرِ
 أَنْرَكْتَ فِي عَصْرِكَ الْعِلْيَاءَ ذَا صِغَرِ
 وَفَتْ أَسْبَقَهَا إِذْ أَنْتَ ذَا كِبَرِ
 شَكَأَ لِأَسْيَافِهِ قَلْبُ الْوَعَى لَهَباً
 فَجَاوَبَتْهُ اسْتِعْرُ بَرْدَا أَوْ اسْتَعْرِ
 يَا خَيْرَ مُنْتَسِبٍ لِلْمَجْدِ مُحْتَسِبِ
 بِالْعَزَمِ مُكْتَئِبٍ مَدْحاً مِنَ الْبَشَرِ
 فِي حَيْثُ تَشْتَغِلُ الْبِكْرَانِ عَنْ وَلَدِ
 بِكْرٍ وَيَذْهَلُ نُورُ الْعَيْنِ عَنْ بَصَرِ

— مقطوعة: لِعَمْرُكَ لَمْ أَدْرِ بِالشَّرْبِ إِلَّا:

لِعَمْرُكَ لَمْ أَدْرِ بِالشَّرْبِ إِلَّا
 عَلَى كَلْفِي بِتَقْبِيلِ الثُّغُورِ

وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِمْ غُمَّ فَإِنِّي
أُبَدِّلُهَا سَرِيعاً بِالسُّرُورِ

— قصيدة: يَا رَاقِداً لَمْ يَدْرِ عُمْرَ الدُّجَى:

يَا رَاقِداً لَمْ يَدْرِ عُمْرَ الدُّجَى
دری — وحاشاك — به السَّاهِرُ
غِبتَ فَلَا وَاللهِ لَمْ يَنْقُ لِي
قَلْبٌ وَلَا سَمْعٌ وَلَا نَاطِرُ
يَا زَهْرَةَ الْأَدَابِ مِنْ لُطْفِهِ
وَجَدِي فِيكَ الْمَثَلُ السَّائِرُ
رَفَقاً بَعَانِ فِيكَ طَاوٍ عَلَى الْـ
جَمْرِ حَشَا فِيهَا الْجَوَى نَاشِرُ
اللَّهِ فِي قَتْلِي ظُلماً أَمَا
آمَنْتَ أَنْ يَظْهَرَ لِي ثَائِرُ
يَا طَرْفُهُ الْحَامِي حَمَى خَدَّهُ
بِمُهْجَتِي ذَا الْحَارِسُ السَّاحِرُ
إِنْ قِيلَ مَضْفُوراً غداً شَعْرُهُ
فَهُوَ يَقْتُلِي فِي الْهَوَى ظَافِرُ

- قصيدة: جَيْشُ الْمَلَاخَةِ مَقْرُونٌ بِهِ الظَّفَرُ:
 جَيْشُ الْمَلَاخَةِ مَقْرُونٌ بِهِ الظَّفَرُ
 كَذَاكَ قَالَتْ لَنَا الْأَحْدَاقُ وَالطَّرَرُ
 فَاذْهَبْ إِذَا أَرَاكَ الْحُسْنَ بَارِقَةً
 فَإِنَّ دَمْعَكَ إِنْ تَسْتَسْقِهَا الْمَطَرُ
 وَتَادِ ظَنِّي النَّقَا إِنْ عَنَّا مُلْتَقَاً
 يَا نَزْهَةَ الْعَيْنِ لَوْلَا الدَّمْعُ وَالسَّهَرُ
 إِنِّي أَبْتُكَ مِنْ شَرْحِ الْهَوَى طَرْفَاً
 فَبَعْضُ أَيْسَرِهِ عِنْدِي لَهُ سَيْرُ
 سَهْلٍ وَقَوْعُ الْفَتَى لَكِنْ تَخْلُصُهُ
 صَعْبُ الْمَرَامِ بِطِيءٍ سَيْرُهُ عَسِيرُ
 حَتَّى إِذَا لَمْ يَفْزَ بِالصَّبْرِ حَامِلُهُ
 رَامَ السَّلْوَ وَقَدْ لَا يَسْعُدُ الْقَدْرُ
 فَإِنْ يَفْتَهُ يَمِتْ وَجِداً وَإِنْ ظَفَرَتْ
 بِهِ يَدَاهُ تَبْقَى عَنْهُ أَثَرُ
 إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَنْهَى النَّاسَ عَنْ كَلْفِ
 فَإِنَّ لِي فِي الْهَوَى شَأْنًا لَهُ خَبَرُ
 وَنَاضِرًا بَتُّ فِي تَسْهِيدِهِ قَلْقَاً
 أَلُومُهُ ثُمَّ أَسْتَحْيِي فَاغْتَنَرُ

يَا حَبْدًا مَعَهُدٌ لِلْحَسَنِ مَا دَرَسَتْ
 رُسُومُهُ وَسَقَاهُ الدَّلُّ وَالْخَفَرُ
 يَرُوقُ لِلْحَسَنِ حَتَّى تُجْتَلَى غُرَرٌ
 بِسُوقِهِ وَهُوَ لَوْ يَذْرِي بِهَا غُرَرُ
 سَاقَتُهُ نَحْوَ أَبَاطِيلِ الْمُنَى صَوَرٌ
 مِنْ حُسْنِهَا تُلَيَّتْ فِي حُبِّهِ سُورُ
 لَا ذَنْبَ لِلْعَيْنِ بَلْ لِلْقَلْبِ مَا خُلِقَتْ
 إِلَّا لِتُذْرِكَ مَا يُبْدِي لَهُ الْبَصَرُ
 فَالْقَدُّ فَالْجِيدُ فَالْخَدُّ الْمُرَدُّ
 فَالْأَصْدَاغُ فَالْتَّغَرُّ فَالْأَجْفَانُ فَالْحَوَرُ
 مَنَازِلُ مَا سَرَتْ فِي حَيِّهَا مُهَجٌ
 إِلَّا وَأَوْقَفَهَا فِي حُبِّهِ الْفِكْرُ
 وَأَهْيَفُ كُلِّ قَلْبٍ فِي مَحَبَّتِهِ
 عَانٍ وَكُلُّ دَمٍ فِي حُبِّهِ هَدَرُ
 أَفْكَرْتُ مَذْ غَابَ عَنِي وَجْهُهُ سَهْرِي
 حَيْثُ الْكَرَى مَذْ تَغَيَّبُ الشَّمْسُ يُنْتَظَرُ
 سَهْلُ الْعَرِيكَهْ مِثْلُ الْبَدْرِ فِي عُمُرٍ
 فَمَا أَلَمَ بِهِ كَيْنَرٌ وَلَا كَيْرُ
 لَوْ لَا النَّهْيُ وَظَنُّونَ الْكَاشِحِينَ بِنَا
 لَكَانَ وَرَدُّ الْهَوَى مَا عَنْهُ لِي صَدْرُ

لَيْسَ السِّيَادَةُ فِي سُودِ الْعُيُونِ وَلَا
بِالْخَمْرِ يَرْفَعُ عَنْ وَجْهِ النَّهْيِ الْخُمْرُ
يَا سَاقِيَ الشَّرْبِ عَطَّلَهَا فَقَدْ جَلَبَتُ
بَغِيرِ ذَاتِ الْحَبَابِ النَّفْسُ وَالْفَكْرُ
وَيَا ظِبَاءَ الْحِمَى لَا السَّرْبُ يُطْمَعُنِي
مِنْهُ السَّرَابُ وَلَا مِنْ جَبْرِ الْحَوْرِ
وَيَا غُصُونِ النَّقَا لَا أَصْلُكُنَّ هُوَ الْـ
ظُلُّ الظَّلِيلُ وَلَا الْحَلْوُ الْجَنَى النَّمْرُ
وَيَا دِيَارِ الْحِمَى شُطِّي أَوْ اقْتَرَبِي
إِنْ شَاءَ أَوْ لَا جَادَكَ الْمَطَرُ
لِي هِمَّةٌ فِي الْعُلَى لَا طَالَ لِي عُمُرُ
إِنْ كَانَ فِي سَاعِدِي عَنْ نِيلِهَا قِصَرُ
وَلَيْسَ تَضْمُرُ لِي خَيْلٌ وَلَا إِيْلُ
مَا تَضْمُرُ الْمُعْزَمَاتِ الْبَيْضُ وَالسَّمَرُ
قَالُوا الشَّيْئَةُ عَنْ دَعْوَاهُ تَزْجُرُهُ
لَقَدْ صَدَقْتُمْ وَلَكِنْ لَيْسَ يَزْدَجِرُ
إِنَّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي عَزْمِهِ كَيْبَرُ
مَا ضَرَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي سَنَةِ صِغَرُ
لِي بِالْأَمِيرِ أَدَامَ اللَّهُ رَفِيعَتَهُ
عِزُّ مَنْيَفٍ بِهِ أَسْطُو وَأَقْدِرُ

وَإِنَّكَ ابْنُ جَلَا لَكِنْ عُرِفْتَ فَلَا
تُلْقِ الْعِمَامَةَ أَنِّي يُجْهَلُ الْقَمَرُ

— مقطوعة: رَبِّ طَبَّاخٍ مَلِيحٍ:

رَبِّ طَبَّاخٍ مَلِيحٍ فَاتِرِ¹ الطَّرْفِ غَرِيرِ
مَالِكِي أَصْبَحَ لَكِنْ شَغَلُوهُ بِالْقُدُورِ

— مقطوعة: وَكَأَنَّ سَوَسَنَهَا سَبَائِكَ فِضَّةٍ:

وَكَأَنَّ سَوَسَنَهَا سَبَائِكَ فِضَّةٍ
وَكَأَنَّ نَرَجِسَهَا عِيُونَ تَنْظُرُ
حَمَلَتْ سُقُوطَ الطَّلِّ مِنْهُ عِيُونُهُ
فَكَأَنَّهَا عَنْ جَوْهَرٍ تَسْتَعْبِرُ

— مقطوعة: قَالَ الْحَبِيبُ مُعَاتِبًا لِي فِي الْهَوَى:

قَالَ الْحَبِيبُ مُعَاتِبًا لِي فِي الْهَوَى
صَبَّرْتُ قَلْبَكَ إِذْ صَدُّوا وَإِذْ هَجَرُوا
فَأَجَبْتُهُ قَلْبِي بِحُبِّكَ مَيِّتٌ
وَلِذَاكَ بَعْضُ الْمَيِّتِينَ يُصَبِّرُ

¹ في الوافي بالوفيات: ((فاتن)).

— مقطوعة: يَا خَالَهُ خُضْرَةَ بَعَارِضِهِ:

يَا خَالَهُ خُضْرَةَ بَعَارِضِهِ
حَرَسَتْهَا¹ عَنْ مُنَيِّمٍ مُغْرَى
كُفَّ عَنِ الْعَاشِقِينَ مُقْتَصِرًا
هَلْ أَنْتَ إِلَّا حُوَيْرِسُ الْخُضْرَا

— مقطوعة: يَا مَنْ بِفُؤَادِي نَارٌ وَجَدِي غَادِرٌ:

يَا مَنْ بِفُؤَادِي نَارٌ وَجَدِي غَادِرٌ
مَنْ قَاسَ إِلَيْكَ حُسْنَهُ مَنْ فَاخِرُ
لَا تَخْشَ إِذَا مَا قِيلَ هَذَا حَسَنٌ
عَنْ غَيْرِكَ فَالْشَيْخُ غَدَا شَيْءٌ آخِرُ

— مقطوعة: لَا أَسْهَرَ اللَّهُ طَرْقًا نَامَ عَنْ سَهْرِي:

لَا أَسْهَرَ اللَّهُ طَرْقًا نَامَ عَنْ سَهْرِي
وَعَذَّبَ الْقَلْبَ بِالْأَسْجَانِ وَالْفِكْرِ
وَلَا سَقَى دَارَهُ يَوْمًا — إِذَا سُقِيتُ
دَارِي بِدَمْعِي — إِلَّا وَابِلُ الْمَطَرِ
يَا وَقَوْمُ قَدْ شَفَّنِي وَجَدِي بِبَدْرِ نُجَى
عَلَى قَضِيبِ أُرَاكِ نَاعِمٍ نَضِيرِ

¹ فِي الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ: ((حَبَسَتْهَا)).

ظَنَيْتُ مِنَ الْإِنْسِ لَوْلَا سِحْرُ مُقَلَّتِهِ
مَا بَتُ فِيهِ بَلِيلٌ غَيْرُ ذِي سَحَرٍ
فِي حَاجِبِيهِ وَعَيْنِيهِ وَمَنْطِقِهِ
شَيْئَةٌ مِنَ الْقَسْنَى وَالْأَسْهَامِ وَالْوَتْرِ
رَوْضُ الْجَمَالِ وَأَفْقُ الْحُسْنِ فَهُوَ لَذَا
قَدْ رَاحَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْغُصْنِ وَالْقَمَرِ

— قصيدة: رَأَى الْحُسْنَ فِي الْعُشَّاقِ مُمَثَّلَ الْأَمْرِ:

رَأَى الْحُسْنَ فِي الْعُشَّاقِ مُمَثَّلَ الْأَمْرِ
فَجَارَ وَتَابَتْ عَنْهُ عَيْنَاهُ فِي الْغَدْرِ
وَقَالَ خُذِ الْهَجَرَ الْمُبْرَّحَ بِالْحَشَا
فَقُلْتُ خُذِ الصَّبْرَ الْمُبْرَّحَ بِالْهَجْرِ
وَلِي فِيكَ بَيْنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مَشْهُدٌ
يُرِينِي صَدَقَ الْهَجْرُ فِي كَذِبِ السَّرِّ
أُمَثِّلُ مَا اخْتَارُ مِنْكَ بِخَاطِرِي
فَيَمْنَحُنِي وَصلاً وَإِنْ كُنْتُ لَا تَدْرِي
الْحَبَابِنَا بِنْتُكُمْ وَخَلَفْتُمْ الْهَوَى
يُمَلِّحُ حَرَّ الشَّوْقِ مِنَّا عَلَى الْجَمْرِ
هَلُمَّ إِلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ نُجِدُّهُ
وَنَنْشِي بِهِ مَيْتَ الْهَوَى طَيْبَ النَّشْرِ

فَنَحْنُ قَبْلَانَاكُمْ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
أَحْبَاءَ لَا نَسْتُلُوكُمْ آخِرَ الدَّهْرِ
وَنَحْنُ فَعَلْنَا مَا يَلِيقُ مِنَ الْوَقَا
فَلَا تَفْعَلُوا مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْغَدْرِ
وَإِنَّا وَإِنْ أَغْرَى بِنَا الْحُسْنُ عَامِدًا
نُؤْمَلُ أَنْ يُجْرِيَ بِنَا الْيُسْرُ مَا يُجْرِي
أَسْأَلُكُمْ هَلْ رَوَّضَ الشَّعْبُ بَعْدَنَا
وَهَلْ سَحَّ فِي سَاحَاتِهِ وَابِلُ الْقَطْرِ
وَهَلْ سَنَحَتْ فِيهِ جَاذِرُهُ الَّتِي
تُعَوِّضُ بِالْأَلْبَابِ مَرَعَى عَنِ الزَّهْرِ
كَوَاعِبُ قَالَ النَّاسُ هُنَّ كَوَاعِبُ
تَقْلَدْنَ بِالْأَحْدَاقِ مَنَا وَبِالدُّرِّ
نَحْرَنَ جُفُونِي بِالدُّمُوعِ وَإِنَّمَا
سَلَبْنِ عُقُودَ الدُّرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّحْرِ
رَعَى اللَّهُ نَفْسًا كَمْ أَكَلَّفَهَا الْهَوَى
وَأَجْنِي بِهَا حُلُوَ الْأُمُورِ مِنَ الْمُرِّ
وَأَلْقَى صُرُوفَ الدَّهْرِ مُسْتَقْبَلًا لَهَا
فَلَسْتُ تَرَى تَأْثِيرَهَا فِي سَوَى صَنْدَرِي
وَقَدْ شَابَ فُودِي قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِي لَهُ
سَوَى الْخَمْسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ مُدَّةِ الْعُمْرِ

أحبُّ ورودَ الماءِ يُخرسُ بالطُّبى
وأهوى ازديارِ الحيِّ يُمنعُ بالسُّمْرِ
ولي بابن عبد الظَّاهرِ الهُمَّةُ التي
أَجَادَ بِهَا جَدِّي وَأَعْلَى بِهَا قَدْرِي
هُوَ البرُّ إِلَّا أَنَّهُ إِنِّ قَصَدْتُهُ
تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْبَحْرَ مِنْ ذَلِكَ الْبَرِّ
يُقَاسِمُنِي قَلْبِي إِلَيْهِ اسْتِيقَافُهُ
فَيَرْجَحُ شَطْرَ الشُّوقِ مِنْهُ عَلَى الشُّطْرِ

— مقطوعة: حتى متى أنا صابرٌ يا هاجرُ:

حتى متى أنا صابرٌ يا هاجرُ
أُتْرَى لِهَذَا الْهَجْرِ عِنْدَكَ آخِرُ
مَا كُنْتُ لَوْلَا نَظْمُ ثَغْرِكَ نَاطِمًا
وَبوصفِ ثَغْرِكَ صَحَّ أَنِّي شَاعِرُ
وَلَقَدْ عَلَانِي لَاحِمِرَّارِ خُدُودِهِ
فَرَطَ اصْفَرَارِ حَارِ مِنْهُ النَّاضِرُ
فَاعْجَبْ لَهُ عَرَضًا يَقُومُ بِذَاتِهِ
إِذْ لَيْسَ لِي جَسَدٌ بِسُقْمِي ظَاهِرُ
قَلْبِي إِلَيْكَ يَمِيلُ طَبْعًا فِي الْهَوَى
فَالَامَ يَتَّيْهِ الْعُزُولِ الْقَاسِرُ

ولقد عهدتُ النارَ شيمتها الهدى
وبنارِ خَدِّكَ كُلُّ قَلْبٍ حَائِرُ
لا تَخْشَ مِنْ نَارٍ بِخَدِّكَ أُضْرِمْتُ
فالبدرُ للفلَكِ الأثيرِ مجاورُ

— مقطوعة: فَرَّقْ بَيْنِي وَبَيْنَ مُصْطَبَّرِي:

فَرَّقْ بَيْنِي وَبَيْنَ مُصْطَبَّرِي
بالجمع بينَ الجُفُونِ والسَّهَرِ
أَسْمَرَ قَدْ بَاتَ فِي مَحَبَّتِهِ
وجدي سميري وذكره سَمَرِي
أَقْلُ مَا فِي جَمَالِ طَلْعَتِهِ
أَجَلُ مَا فِي مُحَاسِنِ الْقَمَرِ
منطقه في الهوى وناظره
أَرْقَنِي بِالْحَوَارِ وَالْحَوَرِ
كَمْ قُلْتُ لِلْقَلْبِ عَنْهُ حِينَ رَنَا
لِيَاكَ مِنْ كَاسِرٍ بِمُنْكَسِرِ

— مقطوعة: أَأَحْبَابُنَا إِنِّي وَإِنْ رُمْتُ سَلْوَةٌ:

أَأَحْبَابُنَا إِنِّي وَإِنْ رُمْتُ سَلْوَةٌ
وَقَامَ بِهَا مِنْ جُورِكُمْ لِي إِعْذَارُ

لَعَنَدِي التَّقَاتُ نَحْوَكُمْ وَتَشَوُّقُ
إِلَيْكُمْ وَمِنْكُمْ بَعْدُ فِي الْقَلْبِ آثَارُ

— مقطوعة: أُنْعِمْ إِلَيَّ سَرِيعاً:

أُنْعِمْ إِلَيَّ سَرِيعاً مِنْ غَيْرِ مَظَلٍ وَزُورٍ
فَإِنَّ أَمْرَ مُهِمٍّ وَثَمَّ شُغْلٍ ضَرُورِي

— مقطوعة: بَيْنَ بَانَ الْحِمَى وَبَانَ الْمُصَلَّى:

بَيْنَ بَانَ الْحِمَى وَبَانَ الْمُصَلَّى
فَانْتَابَ مِنَ الظُّبَاءِ الْجَوَازِي
كُلَّ هَيْفَاءٍ رَدِفُهَا فِي ارْتِجَاجٍ
حِينَ تَمْشِي وَعَظْفُهَا فِي اهْتِزَازٍ
غَادَةً وَعُذْهَا مَجَازٌ وَمَنْ ذَا
يَتَرَجَّى حَقِيقَةً مِنْ مَجَازٍ
هَتَكْتُكِ مِنْ بَعْدِ طَوْلٍ اسْتَبَارٍ
ذَلَّلْتُكِ مِنْ بَعْدِ طَوْلٍ اعْتَزَازٍ
أَسْلَبْتُ دَمْعِي كَجُودِ الْمُقَرَّى الـ
عَالَمِ الْعَادِلِ الْكَبِيرِ الْمُغَازِي

— مقطوعة: سَلَوِي عَنْ هَوَاكُم لَا يَجُوزُ:

سَلَوِي عَنْ هَوَاكُم لَا يَجُوزُ
وَبَعْضُ هَوَاكُم كُلِّي يَحُوزُ
وَلَوْ عَوَاذِلِي فِي الْحُبِّ فَيْكُمْ
وَحَقُّكُمْ بَأْنِي لَا يَجُوزُ
وَلِي ظَبِي غَرِيرٌ فِي حَمَاكُم
لَهُ حُسْنٌ عَلَى قَلْبِي عَزِيزُ
فَمَيَّتْ حُبُّهُ يَرْجُو نَشُوراً
إِذَا لَمْ يَأْتِ مِنْ خَلْقِ نَشُورُ
وَكُلُّ هَوَى الْبَرَايَا مُسْتَعَارُ
وَلَكِنْ حُبُّكُمْ عِنْدِي غَرِيزُ

— مقطوعة: أَهْوَى قَمراً مَرّاً بِنَا مُجْتَازَا:

أَهْوَى قَمراً مَرّاً بِنَا مُجْتَازَا
بِاللُّطْفِ لَكَ مَهْجَةٌ قَدْ حَازَا
مَا اسْتَعْرِضَ جَيْشَ حُسْنِهِ عَارِضُهُ
حَتَّى جَعَلَ الطَّرْفَ لَهُ غَمَّازَا

— مقطوعة: أهبب وأطبب يا ريح وادي القدس:

أهبب وأطبب يا ريح وادي القدس
عن جبرئك الحلول في نابلس
بالله عليك هل لعهدي ذكروا
أم طال به طول التماذي فئسي

— مقطوعة: من يعطف نحو قلب هذا القاسي:

من يعطف نحو قلب هذا القاسي
كم أذكره وهو لعهدي ناسي
أشكو لعذاره سقامي وكذا
يشكو ذنبي سقامه لئاس

— مقطوعة: ينور الطرف كيسا:

ينور الطرف كيسا إن ناول الكف كاسا
وإن تقدم حيا وإن تحدثت كاس

— مقطوعة: صفا باطني حسنا كما رقت ظاهري:

صفا باطني حسنا كما رقت ظاهري
وصاحبت فتيانا من الشراب أكياسا

إِذَا نَهَضُوا كُنْتُ الرَّفِيقَ لَهُمْ وَإِنْ
هُمُوا جَلَسُوا أُمْسَيْتُ فِي الْوَسْطِ جَلِيسًا

— مقطوعة: قالوا سمعنا في البلاد قضية:

قالوا سمعنا في البلاد قضية
مضمونها أَنْ قَدْ قَضَى الْقَسِيسُ
فَأَجَبْتُ قَدْ كَانَ الَّذِي خَبَرْتُمُوا
عَنْهُ وَخَرَّبَ رُبْعَهُ إِبْلِيسُ

— مقطوعة: ساق يريني قلبه في الهوى:

ساق يريني قلبه في الهوى قساوة شاب لها راسي
وليس بدعا ذلك من مثله فكل ساق قلبه قاس

— مقطوعة: لما عتبت فلانا حين وليته كذا:

لما عتبت فلانا حين وليته كذا
... في أحشائه مئسوس
أومى بمبعره وقال بنفرة
من ههنا يتعوج الفقوس

— مقطوعة: أسكرني باللفظ والمقالة الـ:

أسكرني باللفظ والمقالة الـ

كحلاء والوجنة والكاس

ساق يريني قلبه قسوة

وكل ساق قلبه قاسي

— مقطوعة: أدر لتقبيل الثأيا ولم أزل:

أدر لتقبيل الثأيا ولم أزل

أجود بنفسي للندامي وأنفاسي

وأكسو كف الشرب ثوباً مذهباً

فمن أجل هذا لقبوني بالكاس

— مقطوعة: من خد أهيف كالقضيب المايس:

من خد أهيف كالقضيب المايس

يرئو بطرف كالعزالة ناعس

متباعدي بدلاله متقرب

مستوحش بنفاره مستأنس

يؤدي لنا من حسنه وحديثه

أنهى وأبهج مجلس ومجالس

وَعَدَا بَدِيعاً فِي الْجَمَالِ بِمَا بَدَا
مِنْ حُسْنِهِ الْمُتَطَابِقِ الْمُتَجَانِسِ

— مقطوعة: فديت مؤذناً تصبو إليه:

فديت مؤذناً تصبو إليه
بجامع خلق منا النفوسُ
بطيرُ النسْرِ من شوقٍ إليه
وتَهَوَّى أَنْ تُعَانِقَهُ العُرُوسُ

— مقطوعة: قُلْتُ وَقَدْ أُبْرِزْتَ بِنَعَشٍ:

قُلْتُ وَقَدْ أُبْرِزْتَ بِنَعَشٍ
فَوْقَ رِقَابِ الْأَنَامِ تَمْشِي
مِنَ الْبُذُورِ التَّمَامِ كَانَتْ
فَلَمْ غَدَتْ مِنْ بَنَاتِ نَعَشٍ

— مقطوعة: مَذْ سَيِّجِ الْوَرْدِ مِنْهُ آسٌ:

مَذْ سَيِّجِ الْوَرْدِ مِنْهُ آسٌ
طَارَ فَوَادِي لَهُ وَعَشَّشَ
فَصَادَهُ فُخٌّ عَارِضَتِهِ
بِحَبَّةِ الْخَالِ حِينَ أَذْهَشَ

والذنبُ لي في الهوىِ جَهْلِي
لأنَّ قلبي بهِ تَحَرَّشَ

— مقطوعة: قلتُ لهُ لما اتثنى وانتشا:

قلتُ لهُ لما اتثنى وانتشا
جُذُ بُوِصَالٍ مِنْكَ لِي إِنْ تَشَا
فَقَالَ لِي تَبْغِي وَصَالَ الرَّشَا
وأنت لا تَبْذُلُ مِنْكَ الرَّشَا
فقلتُ هُذِي مَهْجَتِي وَالْحَشَا
قَالَ انْظُرُوا بِالْجَهْلِ كَيْفَ انْحَشَا

— مقطوعة: في الرَّاحِ والزَّهْرِ قَدْ رَأَيْنَا:

في الرَّاحِ والزَّهْرِ قَدْ رَأَيْنَا
مَعْنَى لَدَيْهِ الْعُقُولُ تُدْهَشُ
فَسَاقُ كَأْسِي غَدَا خُضِيْبًا
وَمِعْصَمُ الدَّوْحِ قَدْ تَنْقَشُ

— مقطوعة: هَذَا الْفَقِيرُ الَّذِي تَرَاهُ:

هَذَا الْفَقِيرُ الَّذِي تَرَاهُ
كَالْفَرَخِ مَلَقَى بِغَيْرِ رِيَشٍ

قَدْ قَتَلْتُهُ الْحَشِيشَ سُكْرًا
وَالْقَتْلُ مِنْ عَادَةِ الْحَشِيشِ

— مقطوعة: فِي الرَّاحِ سِرٌّ بِالسُّرُورِ يُحْصَصُ:
فِي الرَّاحِ سِرٌّ بِالسُّرُورِ يُحْصَصُ
فَلَذَا الْحَبَابُ إِذَا تَبَدَّتْ يَرْقُصُ
فَمَ هَاتِيهَا مِنْ عَيْنِ دَارِا قَهْوَةٍ
أَقْوَالُهُمْ فِيهَا تَزِيدُ وَتَنْقُصُ
لَمْ يُغْلَهَا ثَمَنٌ لَدَى خُطَابِهَا
إِذْ كُلُّ غَالٍ فِي اللَّذَاذَةِ يَرْخُصُ
وَاسْتَجْلَهَا مِنْ كَفِّ مَعْسُولِ اللَّمَى
حُلُوُ الْفُكَاهَةِ لِلتَّوَدُّدِ يُخْلِصُ
وَاعْنَمِ لَذَاذَةِ عَيْشِكَ الْفَانِي فَطُر
فِ الدَّهْرِ نَحْوَ الْغَدْرِ طَرْفٌ أَخُوصُ

— مقطوعة: وَدِّي لَكُمْ سَادَتِي بِالْبُعْدِ مَا نَقَّصَا:
وَدِّي لَكُمْ سَادَتِي بِالْبُعْدِ مَا نَقَّصَا
وَالْقَلْبُ فِي حُبِّكُمْ بِالْحَبِّ قَدْ قُصَّصَا
غَالِيَتْ فَيْكُمْ وَعَاصِيَتْ الْعُذُولَ وَقَدْ
أَطْعَمْتُمْ وَأَشْبِيَا قَدْرِي بِهِ رَخَّصَا

متى أرى النّصرَ منكم مُقبلاً وأرى
شيطانَ ضِدِّي على أَعقابِهِ نَكْصاً

— مقطوعة: يا من لهم عَلَيَّ وَحْدِي فرضُ:

يا من لهم عَلَيَّ وَحْدِي فرضُ
لم يبقَ تهتُكي بكم لي عرضُ
أحبابي مُدْ نَأَيْتُمْ عَن بَصْرِي
ضَاقَتْ وَحْيَاتِكُمْ عَلَيَّ الأَرْضُ

— مقطوعة: أَحْبَابَنَا أَيْنَ ذَاكَ الْعَهْدُ قَدْ نَقِضَا:

أَحْبَابَنَا أَيْنَ ذَاكَ الْعَهْدُ قَدْ نَقِضَا
وَأَيْنَ عَصْرٌ بِأَيَّامِ الْوِصَالِ مَضَى
وَأَيْنَ أَيْمَانُكُمْ بِاللَّهِ أَنْكَمُوا
لَا تَمزُجُونَ بِسَخَطِ فِي الْغَرَامِ رِضَا
عُودُوا فَقَدْ أَوْحَشَ النَّادِي لَغِيْبَتِكُمْ
عَنْهُ وَأَظْلَمَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ أَضَا
لَمَّا رَمَيْتُمْ سِهَامَ الْبَيِّنِ عَن مَلَلِ
صَيَّرْتُمُوا كُلَّ قَلْبٍ فِي الْهَوَى غَرَضَا
أَشْكُو إِلَيْكُمْ سَقَامِي مِنْ فِرَاقِكُمْ
تَاللَّهِ لَا جَوْهَرًا أَبْقَى وَلَا عَرَضَا

حسبي محافظة اني أموت بكم
وجداً ولست أرجي عنكم عوضاً

— مقطوعة: للعاشقين بأحكام الغرام رضا:

للعاشقين بأحكام الغرام رضا
فَلَا تَكُنْ يَا فَتَى بِالْعَدْلِ مُعْزِضًا¹
روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا
عهد المحب² الذي للعهد ما نقضاً
قِفْ وَاسْتَمِعْ سِيرَةَ الصَّبِّ الَّذِي قَتَلُوا
فمات في حبهم لم يبلغ الغرضاً
رَأَى فَحَبَّ فَسَامَ³ الْوَصْلَ فَاُمْتَنَعُوا
فَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلُهُ فَقَضَى

— مقطوعة: يَا مَنْ بِبُعَادِهِ لِقَلْبِي قَرَضَا:

يَا مَنْ بِبُعَادِهِ لِقَلْبِي قَرَضَا
ظُلماً وَحَبَّهِ لِقَتْلِي قَرَضَا

¹ جاء هذا الشطر في فوات الوفيات هكذا:

((فَلَا تَكُنْ فِي الْهَوَى بِالْعَدْلِ مُعْزِضًا))

² في فوات الوفيات: ((الوَفَى)).

³ في فوات الوفيات: ((فَرَامَ)).

مَذْغِيَتْ مَدَامَعِي بِخَدِّي انْكَسَبَتْ
وَاللّٰهُ وَجَفْنُ مُقْلَتِي مَا غَمَضَا

— مقطوعة: خَلِيلِيَّ هَلْ مِنْ حَامِلٍ لِي تَحِيَّة:

خَلِيلِيَّ هَلْ مِنْ حَامِلٍ لِي تَحِيَّةٍ
إِلَى قَمَرٍ نَجْمِ الثُّرَيَّا لَهُ قُرْطُ
أَتَى بَيْنَ حَقْفٍ مَائِجٍ وَأَرَاكَةِ
مُنْعَمَةٍ أَوْرَاقَهَا الشَّعَرُ السَّبْطُ
فَأَبْدَى عَلَى كَافُورٍ خَدٍ سَوَالِفَا
عَلَى الْجَلَنَارِ الْغَضُّ مِنْ مِسْكِيهَا نَقْطُ
وَنَارُ شِفَاهِ حَوْلَ جَنَّةٍ مَبْسَمِ
مِزَاجُهُمَا شَهْدٌ جَنِيٍّ وَإِسْفَاطُ
فَلَا وَلِمَاهُ الْعَذْبُ لَا كُنْتُ نَاقِضَا
عَهْدَ هَوَاهُ لَا وَلَا نَاسِيَا قَطُ

— مقطوعة: يَا دَايَةَ فِي حُسْنِهَا أَرْتَضِي:

يَا دَايَةَ فِي حُسْنِهَا أَرْتَضِي
أَنْ عَزُولِي دَائِمًا يَسْخُطُ
تَدَارِكِي مِنْ مَهْجَتِي حَامِلَا
حُبِّكَ مِنْ خَوْفِ النَّوَى تُسْقِطُ

— مقطوعة: غدا نافرأ يدني وهو ساحطُ:

غدا نافرأ يدني وهو ساحطُ
وَكَمْ جَهْدَ مَا أَرْضَى الْهَوَى وَهُوَ سَاخِطُ
تَرَحَّلْ عَنَا وَصَلُّهُ وَهُوَ عَادِلُ
وَخَيْمَ فِينَا هَجَرُهُ وَهُوَ قَاسِطُ
يُغَالِطُنِي بِالْبَدْرِ عَنْهُ عَوَانِلِي
وَعَنْ مِثْلِهِ بِالْبَدْرِ كَيْفَ أُغَالِطُ
غَزَالٌ يَبِيتُ الصَّبُّ فِي لَيْلِ صَدِّهِ
يَخْبُ اعْتِسَافاً وَهُوَ حِيرَانُ خَابِطُ
شَرَائِطُهُ فِي الْحُبِّ غَيْرُ وَفِيَّةٍ
وَكَيْفَ تُوفِي مَنْ حَبِيبِ شَرَائِطُ
يَسْلُ عَلَيْنَا مُرَهَفَاتٍ لَوَاحِظُ
لَهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ يَدِ السَّحْرِ خَارِطُ

— مقطوعة: قَمَرٌ يُحَجِّبُهُ دَلَالٌ مُفْرِطُ:

قَمَرٌ يُحَجِّبُهُ دَلَالٌ مُفْرِطُ
سُلْطَانُهُ أَبْدَأُ عَلَيَّ مُسْلُطُ
عَهْدِي بِهِ مُتْنَاهِيَاً فِي حُسْنِهِ
لَكِنَّهُ فِي قَتْلَتِي مُتَوَسِّطُ

— مقطوعة: وظبي قد سبى عقلي ولبي:

وظبي قد سبى عقلي ولبي
بِكَاسَاتِ الْمُدَامِ وَبِاللَّوْاحِظِ
أَطَعْتُ الْعِشْقَ فِي وَجْدِي عَلَيْهِ
وَقَلْبِي قَدْ عَصَى فِيهِ الْمَوَاعِظُ

— قصيدة: ما كنت أندب رامةً وطويلعاً:

ما كنت أندب رامةً وطويلعاً
لَوْ كُنْتُ يَا قَمَرِي عَلِيَّ طَوِيلِعَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِرَامَةٍ بَيْنَ النَّقَا
فَمَنْعْتُ طَرْفِي مِنْهُ أَنْ يَتَمَتَّعَا
مَا ذَاكَ مِنْ رُوعٍ وَلَكِنْ مِنْ رَأْيِ
أَشْبَاهِ عِطْفِكَ حُقَّ أَنْ يَتَوَرَّعَا
يَا سَاكِنِي نُعْمَانَ لَا اصْطَنَعَ الْهَوَى
صَبًا يَكُونُ بِكُمْ هَوَاهُ تَصْنَعَا
قَدْ أَرْعَجَ الْقَلْبَ الْغَرَامُ وَأَعْجَزَ الْـ
طَرْفَ الْمَنَامِ فَحَقَّ لِي أَنْ أَجْزَعَا
أَضْمَرْتُمُوهُ هَجْرًا وَأَمْرَضْتُمْ حَشَى
مَنِّي وَأَضْرَمْتُمْ بِنَارٍ أَضْلَعَا

وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى حِمَاكُمْ مُجْدِيَاً
فَجَرَى بِهِ دَمْعِي إِلَى أَنْ أَمْرَعَا
وَحَفِظْتُ عَهْدَكُمْ وَضَيَّعْتُمْ فَلَا
أَدْعُو لِأَجْلِكُمْ عَلَى مَنْ ضَيَّعَا
قَالَ الْعَوَازِلُ إِنَّ مَنْ أَحْبَبْتَهُمْ
لَمْ يَتْرُكُوا لَكَ فِي وَصَالٍ مَطْمَعَا
أَنَا قَدْ رَضِيتُ بِمَا ارْتَضَوْهُ فَمَا عَسَى
أَنْ يَبْلُغَ الْوَاشِي لَدَيَّ بِمَا سَعَى
مَنْ أَنْتَ يَا طَبِي الصَّرِيمَ دَعْوَتُهُ
هِيَ هَاتِ عَنْكَ بَسْلُوةً أَنْ يَرْجِعَا
لأَبْدًا يَا قَمَرِ الْمَلَاةِ بَعْدَ أَنْ
تُبْدِيَ السَّرَارَ وَتَحْتَفِي أَنْ تَطْلُعَا
وَلَرُبَّمَا يَا ظَبْيُ تَرْتَاغُ الظُّبَا
مِثْلَ ارْتِيَاعِكَ ثُمَّ تَأْنَسُ مَرْتَعَا
مَا سِحْرُ هَارُونَ الْمُفَرَّقِ غَيْرُ مَا
فِي مُقْلَتِكَ مِنَ الْفُتُورِ تَجْمَعَا
أَخْلَيْتُ مَرْبِعَ كُلِّ قَلْبٍ فِي الْهَوَى
مَنْ صَبَّرَهُ وَجَعَلْتَهُ لَكَ مَرْبَعَا
وَهِيَ الْقُلُوبُ الطَّائِرَاتُ فَمَا لَهَا
أَبْدًا نَرَاهَا فِي حَيَالِكَ وَقَعَا

ما صدّ عني في الغرام فديته
لَمَّا بذلتُ له دمي فتمنّعا
لكن رأى قلبي يزيدُ بقربه
صدعاً فأشفقَ إن دنا أن يُصدعاً
يا عاذلي دَعني وعَلِّم مُقلّتي
لترى خيالَ مُعذّبي إن تهجعا
مَنْ كانَ مدمعُهُ نجيعاً في الهوى
هيهاتَ عذلكَ عنده أن ينجعاً
أم كيف ريقكَ التي أرقّت لها
عيني وما راقّت تُكفّف أدمعاً

— مقطوعة: رَكائبُ سُهدي مِنْ قَراها المَدامعُ:

رَكائبُ سُهدي مِنْ قَراها المَدامعُ
هَذاها لَهيبٌ أَضرمتهُ الأضالِعُ
أبيتُ أبيتُ اللَّيْلَ إلا بلوعةٍ
أَقضتُ بِها وَجداً عليّ المَضاجِعُ
كأنَّ الدُّجى يبيكي لِحالي رَحمةً
فتلكَ النُّجومُ الزَّاهراتُ مَدامِعُ
يا ربَّ هَلْ طيفُ الحبيبةِ زائرٌ
وهَلْ عَهْدُ لَيْلى بِالأَجِيرِ عَراجِعُ

وَيَا رَبَّةَ الْخَالِ الْخَلِيَّةِ مِنْ جَوَى
مُحِبٍّ لَهُ دُونَ التَّصَبُّرِ مَانِعُ
هَجَرَتِ فَلَمْ يَسْتَعْرِقِ الطَّرْفَ هَجَعَةً
فَنَظَرُهُ صَادِرٌ وَهَجْرُكَ صَادِعُ
وَمَا ذَنْبٌ مِنْ لَا عِنْدَهُ الْحُبُّ ذَائِعُ
وَلَا السِّرُّ مَبْذُولٌ وَلَا الْعَهْدُ ضَائِعُ

— قصيدة: طرف تعرض بعدكم لهجوع:

طرف تعرض بعدكم لهجوع
لا زال شرق بفيضِ نُمُوعِ
وَجَوَانِحُ جَنَحَتْ لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ
لا بُشِّرَتْ مِنْ عَوْدِكُمْ بِرُجُوعِ
يَا غَائِبُونَ وَهَمُّ بُدُورٍ هَلْ لَكُمْ
أَنْ تَسْمَحُوا لِطَوِيلِ بَطْلُوعِ
أُوطَانُهُ لَيْسَتْ بِأُوطَانٍ إِذَا
غَيْبَتْمْ وَلَيْسَ رُبُّوعُهُ بِرُبُوعِ
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فِي مَحَلٍّ مُحَلٍّ
كُسِيتْ مَحَاسِنُهُ بِكُلِّ رَبِيعِ
مَنْ لِي بِهَا قَمْرِيَّةٌ قَمْرِيَّةٌ
تَسْبِيكََ بِالْمَنْظُورِ وَالْمَسْمُوعِ

زانت بطرّة شعرها المفروق فو
ق جبينها في حُسْنِهَا المَجْمُوع
فَعَجِبْتُ مِنْ تِلْكَ الذَّوَائِبِ بَعْضُهَا
الْمَحْمُولُ جَاذِبُ بَعْضُهَا الْمَوْضُوع
قَدْ نَزَّهَ الْبَذْرُ الْمُنِيرُ وَوَجَّهَهَا
وَالشَّمْسُ بِالتَّثْلِيثِ عَنْ تَرْبِيعِ
بَخْلِ الْخِيَالِ بِهَا وَزَارَتْ يَقْطَعُ
فَحَظِي بِهَا سَهْرِي وَخَابَ هُجُوعِي
وَأَلْذُ مَا كَانَ الْوِصَالُ إِذَا أَتَى
شَفَعَا كَمَا تَهْوَى بَغْيَرِ شَفِيعِ
فَرَفَعْتُ عَنْ تِلْكَ الْعُقُودِ قِنَاعَهَا
شَرَهَا وَلَمْ أَكْ دُونَهُ بِقَنُوعِ
فَتَبَسَمْتُ عَنْ مِثْلِ مَا فِي جِيدِهَا
لُطْفًا فَفَاضَتْ لِلْسُرُورِ دُمُوعِي
فَتَوَهَّمْتُ أَنِّي بِكَيْتُ تَخَضُّعًا
فَتَوَاضَعْتُ جِيرًا لِفَرْطِ خُضُوعِي
فَضَمَمْتُهَا ضَمَّ اللَّامِ لَوَرْدِهَا
أَخْنُو عَلَى مَجْمُوعِهَا بِجَمِيعِي
لَوْلَا الضُّلُوعُ - عَرِمَتْنِي - مَنَعْنِي
لَجَعَلْتُهَا بِالضَّمِّ تَحْتَ ضُلُوعِي

مَا كَانَ أَحْلَى فِي الْمَزَارِ نُوْهَا
لَوْ لَمْ تَشْبُهُ مَرَارَةَ التَّوْبِيعِ
كَالرُّوحِ فِيهَا لِلنَّفُوسِ حَيَاتُهَا
وَنِزَاعُهَا إِنْ آذَنْتَ بِنُزُوعِ
كَمْ مَيِّتَ بَعْدَ الْفِرَاقِ حَيَاتُهُ
فِي قُرْبٍ حَيٍّ بِالْعَقِيقِ جَمِيعِ
فِي مَنْزِلِ كَهْلِ الثَّمَارِ مَرَاهِقِ الْأَزْرِ
هَارٍ مِنْ ثَدْيِ الْغَمَامِ رَضِيعِ
عَاقَتْ سَرِيعَ نَسِيمِهِ عَذَابَتُهُ
بِالْمِيلِ فَهُوَ بِهِنَّ غَيْرُ سَرِيعِ
عُرْبٌ أَعَاجِمُ وَرَقُهُمْ تَشْدُوا عَلَى
أَسْمَاعِهِمْ بِالْمَنْطِقِ الْمَسْجُوعِ
يَحْمُونَ سُمْرَهُمْ بِسُمْرِ مِثْلِهَا
فِي كُلِّ ضَنْكٍ لِلْكَمَاءِ وَسِيعِ
مُزَجَّتْ دُمُوعُ الْعَاشِقِينَ بِأَرْضِهِمْ
نَادَى الْعَوَازِلُ فَيْكَ غَيْرَ مُجَآوِبِ
بَابِي بِدِيْعٍ رَاقِنِي مِنْ قَدِّهِ
وَالثَّغَرِ بِالتَّوْشِيحِ وَالتَّوْشِيْعِ
وَدَعُوا إِلَى السَّلْوَانِ غَيْرِ سَمِيعِ

كَمْ مِنْ مَعِينٍ لِلدُّمُوعِ بِذَلَّتُهُ
بِمَصُونِ رُبْعٍ مِنْ حِمَاكَ مَنِيعِ
لَمْ أَنْزِ كَيْفَ كَسَرَتْ قَلْبِي وَهُوَ بَيْنِي
تُ هَوَاكَ حَتَّى بَاتَ فِي التَّقْطِيعِ

— قصيدة: خَافَتْ مِنَ الرُّقْبَاءِ يَوْمَ وِدَاعِي:

خَافَتْ مِنَ الرُّقْبَاءِ يَوْمَ وِدَاعِي
لَمَّا دَعَا بَنَوِي الْأَحْيَاءِ دَاعِ
قَامَتْ تَوَدِّعُنِي بِقَلْبٍ أَمِنِ
مِمَّا أَجُنُّ وَتَنَظِّرُ مُرْتَاعِ
لِلَّهِ رَكْبٌ لَيْسَ عَهْدُ وِدَادِهِمْ
عِنْدَ الْمُحِبِّ وَإِنْ نَأَى بِمُضَاعِ
مَنَحُوا النَّوَظِرَ بَهْجَةً وَمَلَا حَةَ
وَجَنَّتْ خُدَاتُهُمْ عَلَى الْأَسْمَاعِ
بَانُوا فِغْصَنُ الْبَانِ فَوْقَ هَوَادِجِ
وَسَرُوا بِبَدْرِ التَّمِّ تَحْتَ قِنَاعِ
كَمْ كَادَ يَقْضِي عَاشِقٌ لِفِرَاقِهِمْ
لَوْلَا الرَّجَا وَتَعَلَّقَ الْأَطْمَاعِ
أَعْنُولُ مِنْ عِلْقِ الْهَوَى بِي عَادَةِ
فَلَقَدْ أُمِرْتُ بِأَمْرِ غَيْرِ مُطَاعِ

أَوْ مَا كَفَاهُ نَزَاعُهُ مِمَّا بِهِ
فَأَتَيْتُهُ مِنْ عَذْلِهِ بِنَزَاعٍ

— مقطوعة: إِنَّ الَّذِي مَنَزَلُهُ:

إِنَّ الَّذِي مَنَزَلُهُ مِنْ سُحْبِ دَمْعِي أَمْرَعَا
لَمْ أَدْرِ مِنْ بَعْدِي هَلْ ضَيَّعَ عَهْدِي أَمْ رَعَى

— مقطوعة: يَا جَامِعَ الْمَالِ وَهُوَ يَمْنَعُهُ:

يَا جَامِعَ الْمَالِ وَهُوَ يَمْنَعُهُ عَنْ رَاغِبٍ فِي نَوَالِهِ طَامِعُ
أَصْبَحْتَ فِي الْبُخْلِ إِذْ عُرِفْتَ بِهِ كَأَنَّكَ الْحَدُّ جَامِعُ مَانِعُ

— قصيدة: أَرَأَيْكَ الْحِمَى لِمَا شَدَّتْهُ السَّوَاجِعُ:

أَرَأَيْكَ الْحِمَى لِمَا شَدَّتْهُ السَّوَاجِعُ
تَنَّتَى كَمَا هَبَّتْ عَلَيْهِ الزُّعَارِغُ
فَأَطْرَبَهُ مِنْ شَدْوِهَا لَحْنُ سَاجِعِ
يَنُوحُ عَلَى أَحْبَابِهِ فَهُوَ سَاجِعُ
فَسِرُّ الْهَوَى لِلصَّبِّ بِالدَّمْعِ ذَائِعُ
كَمَا قَلْبُهُ بَيْنَ الْمَحَامِلِ ضَائِعُ
عَلَى أَنَّ أَيَّامَ الْوِصَالِ وَدَائِعُ
وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وَلَيْلٍ جَلَا فِيهِ الطَّلَا أَنْجُمُ الطَّلَا
 وَهُنَّ أَقُولُ بَيْنَنَا وَطَوَالِغُ
 وَقَدْ غَابَ وَاشِينَا وَنَامَ رَقِيبُنَا
 وَقَدْ صَدَقْتَنَا بِاللِّقَاءِ الْمَطَالِغُ
 وَنَحْنُ سُجُودٌ فِي جَوَامِعِ لَذَّةٍ
 مِنَ الْأُنْسِ وَالْإِبْرِيْقِ لِلْكَأْسِ رَاكِعُ
 وَطَرْفُ الصَّبَا فِي حُلْبَةِ الرُّوضِ رَاكِضُ
 وَطَرْفُ الذُّدَى فِي وَجْنَةِ الْوَرْدِ دَامِغُ
 إِلَى أَنْ تَجَلَّى صُبْحُهُ فَكَأَنَّهُ
 وَجُوهُ الْعَذَارَى أَبْرَزَتْهَا الْبَرَاقِعُ
 فَوَدَّعْنَا لَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا قِلَى
 وَقُلْنَا دَنَا التَّقْرِيقُ وَالشَّمْلُ جَامِعُ

— مقطوعة: يَا أَيُّهَا الصَّدُّ الَّذِي وَجْهَ الْعَلَى:

يَا أَيُّهَا الصَّدُّ الَّذِي وَجْهَ الْعَلَى
 مِنْهُ يَزَانُ بِمَنْظَرٍ مَطْبُوعٍ
 لَا تَعْتَقِدْ قَلْبِي يُحِبُّكَ وَحْدَهُ
 هَا قَدْ بَعَثْتُ لِسَيِّدِي مَجْمُوعِي

— مقطوعة: رَأَتْ شَغْفِي عِنْدَ ارْتِشَافِ رِضَابِهَا:

رَأَتْ شَغْفِي عِنْدَ ارْتِشَافِ رِضَابِهَا
وتقبلها الشافي لما في الأضالع
فَقَالَتْ تَرَى مَاذَا الَّذِي كُنْتُ قَانِعًا
بِهِ مِنْ هَوَانَا قُلْتُ مَقْلُوبَ قَانِع

— مقطوعة: لِلْمَنْطِقِيِّينَ أَشْتَكِي أَبَدًا¹:

لِلْمَنْطِقِيِّينَ أَشْتَكِي أَبَدًا
عَيْنِي رَقِيبِي فَلَيْتَهُ هَجَعَا
حَاذَرَهَا مِنْ أَحْيَاهُ فَلَأبَى
إِنْ نَخْتَلِي سَاعَةً وَتَجْتَمِعَا
كَيْفَ غَدَتْ دَائِمًا وَمَا انْفَصَلَتْ
مَانِعَةَ الْجَمْعِ وَالْخُلُوءِ مَعَا

— مقطوعة: قُولُوا لِمَنْ صَدَّ وَمَنْ حَظَّنَا:

قُولُوا لِمَنْ صَدَّ وَمَنْ حَظَّنَا
فِي الْحُبِّ أَضْحَى عِنْدَهُ مُلْغَى

¹ لم تعجب هذه المقطوعة صاحب الوافي بالوفيات؛ إذ رأى فيها خلافا في المعنى. أنظر ج: 3، ص: 110.

نَحْنُ سَلَوْنَا عَنْكَ لَكِنَّا
نُبْصِرُ مِنْ يَدَمٍ يَابِغَا

— مقطوعة: وَأَلْتَفَّ زَارَ لَكِنْ:

وَأَلْتَفَّ زَارَ لَكِنْ رَأَى رَهْبِي أَصْغَى
فَقَالَ ادْخُلْ أَوْ امْضِي إِلَى مَتَى أَنْتَ بَغَا

— مقطوعة: مَوْلَايَ كَيْفَ انْتَنَى عَنْكَ الرَّسُولُ وَلَمْ:

مَوْلَايَ كَيْفَ انْتَنَى عَنْكَ الرَّسُولُ وَلَمْ
تَكُنْ لَوْرْدَةَ خَدَّيْهِ بِمُرْتَشِفِ
جَاءَتْكَ مِنْ بَحْرِ ذَاكَ الْحُسْنِ لَوْلُوءُ
فَكَيْفَ رُدَّتْ بِلَا ثَقْبٍ إِلَى الصَّدَفِ

— قصيدة: كَفَى شَرْفًا أَنِّي بِحُبِّكَ أَعْرِفُ:

كَفَى شَرْفًا أَنِّي بِحُبِّكَ أَعْرِفُ
فَمَا أَنْ تَحْنُو عَلَيَّ وَتَغْطِفُ
عَمَرْتُ جِهَاتِي فِي هَوَاكَ وَلَا أَرَى
سَوَاكَ وَمَالِي عَنْكَ مَا عَشْتُ مُصْرَفُ
فَزِدْ فِي التَّجَنِّي حَيْثُ شِئْتُ فَإِنَّهُ
وَحَقُّكَ أَنْتَ الْمَالِكُ الْمَتَصَرِّفُ

وَمِثْلِي أُولَى مَنْ يَمُوتُ صَبَابَةً
 وَمِثْلَكَ أُولَى مَنْ يَحْنُ وَيُسْعِفُ
 أَيَا مَنْ لَهُ الْحُسْنِ الَّذِي بَهَرَ الْوَرَى
 وَمَنْ حَازَ مَعْنَى لَا يُحَدُّ وَيُوصَفُ
 تَجَلَّيْتُ لِي فِي كُلِّ شَيْءٍ تَكَرُّمًا
 فَلَسْتُ لِهَجْرٍ وَاقِعٍ أَتَخَوَّفُ
 وَحُزْتُ جَمَالًا لَيْسَ فِي الْخَلْقِ مِثْلُهُ
 بِهِ دَائِمًا قَلْبِي يَهِيْمُ وَيُسْغَفُ
 فَخَذِّكَ وَرَدَّ وَاللَّوَا حِظُّ نَرْجِسٍ
 وَشَخْصُكَ نِدْمَانٌ وَرَيْفُكَ قَرْقَفُ
 وَجَفْنُكَ نَبَالٌ وَشَعْرُكَ مُسْبَلٌ
 وَقَدْكَ حِظِّي وَلِحْظُكَ مُرْهَفُ

— قصيدة: بالغت بالإعراض في إتلافي:

بالغت بالإعراض في إتلافي
 ووصلت بين قطيعةٍ وتجافي
 لست الملوَمَ بما اجتنبت فإنَّ منْ
 شَرَطِ الْمَحَبَّةِ قَلَّةُ الْإِنْصَافِ
 أَشْكُوكَ أَمْ أَشْكُو إِلَيْكَ صَبَابَةً
 مَا مِثْلَهَا عَنْ عِلْمِ مِثْلِكَ خَافِي

حَمَلْتَنِي بِهَوَاكَ أَضْعَافَ الَّذِي
يَكْفِيكَ مِنْهُ الْبَعْضُ فِي إِضْعَافِي
وَطَلَبْتُ مِنْكَ السُّخْطَ أَطْمَعُ فِي الرِّضَا
عِلْمًا بِأَنَّكَ آخِذٌ بِخِلَافِي
هَلَّا تَرِقُ كَوَجْنَتَيْكَ عَلَى فَتْيِ
يَجِدُ الْمُنَى فِي الْوَجْدِ وَهَوَ مُنَافٍ
أَسْرَفْتُ فِي هَجْرِي وَلَيْتَكَ حَيْثُ قَدْ
أَسْرَفْتُ لَا أَسْرَفْتُ فِي الْإِسْرَافِ
يَا طَالِبَا قَتْلِي وَلَسْتُ بِوَاجِدٍ
أَنْتِي وَعَنْهُ حَمَى التَّصَبُّرِ عَافِي

— مقطوعة: أرى نارَ وجدي أطفأْتُني ولا تُطفئُ:

أرى نارَ وجدي أطفأْتُني ولا تُطفئُ
وَسِرَّ غَرَامِي قَدْ خَفَيْتُ وَلَا يَخْفَى
كَأَنَّ الصَّبَا أَهْدَتْ إِلَيَّ تَحِيَّةَ
تُعَرِّفُهَا نَشْرًا وَتَنْشُرُهَا عَرَفَا
وَبَيْنَ بُيُوتِ النَّازِلِينَ عَلَى الْحِمَى
غَزَالٌ أَبَى أَنْ يَعْرِفَ الْوَصْلَ وَالْعَطْفَا

— مقطوعة: إذا انتقدَ الدينارَ شبهتُ كفه:

إذا انتقدَ الدينارَ شبهتُ كفه

لدى واضح الدينار في وضح الكف

بنرجسة صفراء قد ظلها الندى

يخاف عليها مجتئوها من القطفِ

— مقطوعة: تَبَسَّمَ زَهْرُ اللَّوْزِ عَنْ دُرٍّ مَبْسَمٍ:

تَبَسَّمَ زَهْرُ اللَّوْزِ عَنْ دُرٍّ مَبْسَمٍ

وأصبح في حُسنٍ يَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ

هَلُمَّ إِلَيْهِ بَيْنَ قِصْفٍ وَلَذَّةٍ

فإِنَّ غُصُونِ الزَّهْرِ تَصْلُحُ لِلْقِصْفِ

— مقطوعة: قَبَّلَ المَحْبُوبَ مِنْ قَبْلِ:

قَبَّلَ المَحْبُوبَ مِنْ قَبْلِ تَرَى للذَّهْرِ حَيْفَ

فَأَكْمَ قَالَتْ لَنَا يَلُوكَ العُيُونُ: الوَقْتُ سَيُفِ

وَعَدَا الحُبُّ يُنَادِي يَا كِرَامَ الوَرْدِ ضَيْفَ

— مقطوعة: يَا مَنْ بِقَلْبِي غَرَامٌ:

يَا مَنْ بِقَلْبِي غَرَامٌ عَلَيْهِ لَيْسَ بِخَافِي

أُضْحَى هَوَاكَ وَفَائِي فَكَيْفَ أَنْتَ خِلَافِي

— مقطوعة: يَا رَبِّ قَدْ عَلَّقْتُهُ:

يَا رَبِّ قَدْ عَلَّقْتُهُ لَدُنِ الْمَعَاطِفِ أَهْيَفَا
وَالنَّرْجِسُ الْغَضُّ الَّذِي فِي نَاطِرِيهِ تَأَلَّفَا
هُوَ مُضْعَفٌ لَكِنْ بِكْسٍ — رِ الْعَيْنِ أَصْبَحَ مُضْعَفَا
إِنْ كَانَ أَذْنِبُ بِالصُّدُودِ دِ فَإِنَّ صَبْرِي قَدْ عَفَا
كَمْ رُمْتُ رِقَّةَ خُضْرِهِ فَأَبَانَ لِي مِنْهَا جَفَا
وَطَلَبْتُ مِنْ ذَاكَ الْعِذَا رِ تَعَطُّفًا فَتَوَقَّفَا

— مقطوعة: كَأَنَّ عُيُونَهَا لَمَّا اسْتَدَارَتْ:

كَأَنَّ عُيُونَهَا لَمَّا اسْتَدَارَتْ
بِحَرْفِ الْكَاسِ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ
وَصَائِفٍ حَوْلَ جَارِيَةٍ عُرُوسٍ
عَقَنْ — مَلَاةً — كَفَا بِكَفٍ

— مقطوعة: شَكَوْتُ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ صَبَابَةً:

شَكَوْتُ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ صَبَابَةً
تُكَلِّفُ جَفَنِي أَنَّهُ قَطُّ لَا يَغْفُو
فَلَانْتُ لِي الْأَعْطَافَ وَالْخَصْرُ رَقَّ لِي
وَلَكِنْ تَجَافَى الشَّعْرُ وَاتَّاقَلَ الرَّدْفُ

— مقطوعة: لا عذر للصَّبِّ إن لم يَأْلَفِ التَّلْفَا:

لا عذر للصَّبِّ إن لم يَأْلَفِ التَّلْفَا

وللأَحْبَةِ إن لم يَأْلَفُوا الصَّلْفَا

من أين لي نسبةٌ للعزِّ عندهمُ

أُبْغِي بِهَا شَرْفًا فِي الْحُبِّ أَوْ شَغْفَا

— مقطوعة: وَلَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْكَ لَمَّا جَدَّ بِي:

وَلَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْكَ لَمَّا جَدَّ بِي

وجدي عليك وزادتِ الأَشْوَاقُ

وشكوت ما أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى

فَبَكَى الْيَرَاغُ وَرَقَّتِ الْأَوْزَاقُ

— قصيدة: بَتْنِي قِوَامَكَ الْمَمْشُوقُ:

بَتْنِي قِوَامَكَ الْمَمْشُوقُ

وَبِأَنْوَارِ وَجْهِكَ الْمَعْشُوقُ

وَبِمَعْنَى الْحَسَنِ مَبْتَكَّرٌ فِي—

كَ وَخَصِرُ كَفَلْبِي الْمَسْرُوقُ

صِلْ مُحِبًّا مِنْ نَاطِرِيكَ وَمِنْ

قَدِّكَ يُرْمَى بِرَأْسِي وَرَشِيْقُ

ومن الخال والمقبل ما بين
حَرِيقُ يُفْنِي وَيَبْنِي رَحِيقُ
جُدْ بَوَصْلٍ أَوْ زَوْرَةٍ أَوْ بَوَعْدٍ
أَوْ كَلَامٍ أَوْ وَقْفَةٍ فِي الطَّرِيقِ
أَوْ بِإِرسَالِكَ السَّلَامِ مِنَ الرِّيحِ
وإِلَّا فَبِالْخِيَالِ الطُّرُوقِ
أَتَمَنَّائِكَ كُلَّمَا سَارَ بَرْقٌ
لَيْسَ مِثْلِي وَجَدًا عَلَى التَّحْقِيقِ
بَيْنُنَا فِي الْهَوَى اخْتِلَافٌ وَإِنْ كَا
نِ اتِّفَاقٌ فَرُبَّمَا فِي الْخَفِيقِ
يَا عَرِيبَ الْعَقِيقِ مِنْ لِي وَهِيهَا
تِ بِأَيَّامِنَا بِوَادِي الْعَقِيقِ
حَيْثُ غُصْنُ الْوَصَالِ رَطْبٌ وَرَوْضُ
وَرَوْضِ الْحَبِّ زَاهٍ وَبِدْرُهُ فِي شُرُوقِ
وَحَبِيبٍ قَدْ لَانَ عَطْفًا وَعَطْفًا
فَهُوَ يَزْرِي بِكُلِّ غُصْنٍ وَرِيقِ
يَمْلَأُ الْكَأْسَ لِي بِمُزٍّ قَدِيمٍ
وَحَدِيثٍ حُلُوٍّ وَلَخْظٍ وَرِيقِ
وَإِذَا نَقَطْتَ دُمُوعِي غِنَى
مَا عَهَدْنَا كَذَا بِكَاءَ الْمَشُوقِ

— مقطوعة: يا غصن نقاً يمسُ في الأوراق:

يا غصن نقاً يمسُ في الأوراق

يا بدر جى يطلعُ في الأطواق

إن تهجر أو تصد يا بدر أفل

ذا هجرك محمولٌ على الاحداق

— مقطوعة: مُذْ مَالٌ دَلَالاً قَدْ كَ الْمَمْشُوقُ:

مُذْ مَالٌ دَلَالاً قَدْ كَ الْمَمْشُوقُ

لم يبق بلا صبايةٍ مخلوقُ

قَدْ حُزْتُ مَلَا حَةً وَلُطْفًا وَحَيَا

ما أسعدَ من أنتَ له معشوقُ

— مقطوعة: أنظر إلى الأفق تبدى بدره:

أنظر إلى الأفق تبدى بدره

وحولُه من كلِّ نجمٍ شارقُ

كرقعة الشطرنج إلا أنها

لم يبق إلا النقش والبيادقُ

— مقطوعة: جدد عهدٍ تواصلٍ وتلاق:

جدد عهدٍ تواصلٍ وتلاق
واستبق لي رمقاً فليس بيباق
وأشفع إلى ما رقاً من ترف الصبا
في وجنتك برقة الاخلاق

— مقطوعة: ومجتمعين ما اجتماعاً لإثم:

ومجتمعين ما اجتماعاً لإثم
وإن وصفاً بضم واعتناق
لعمز أبيك ما اجتماعاً لمعنى
سوى معنى القطيعة والفراق

— مقطوعة: يا ذا القمر المنير في الآفاق:

يا ذا القمر المنير في الآفاق
الصبر فني فيك وجدي باقي
كم تأسعني عقرُب صُدغيك عسى
أن تسمح لي من فيك بالدرّياق

— مقطوعة: ما عهدنا كذا تكون الرفاق:

ما عهدنا كذا تكون الرفاقُ
كُلَّ يَوْمٍ تَجُنَّبُ وَفِرَاقُ
يا قَضِيْباً تَهْزُهُ نَشْوَاتُ
زُرٍّ مُحِبّاً تَهْزُهُ الْأَشْوَاقُ
ليس يصبو إلى سِوَاكَ وَأَنْي
وَلَهُ فِي الْهَوَى بِكَ اسْتِغْرَاقُ
لَكَ يَا فِتْنَةَ الْعُقُولِ النَّجْنِي
وَالْتَّجَافِي وَتَصْبِرُ الْعُشَّاقُ
غيرَ أَنِّي أَرَى الْجَفَا مِنْكَ بَدْعاً
حَيْثُ تِلْكَ الْأَعْطَافُ مِنْكَ رِقَاقُ
يا أَمِيرَآلَهُ لِيَوَاءَ مِنْ الشَّعْـ
رِ عَلَيْهِ وَكُلِّ قَلْبٍ وَطَاقُ

— قصيدة: لَمَّا رَأَتْ عُشَّاقَهَا قَدْ أَخَذَقُوا:

لَمَّا رَأَتْ عُشَّاقَهَا قَدْ أَخَذَقُوا
مِنْ حُسْنِهَا بِحَدَائِقِ الْأَخْدَاقِ
شغلت سواد عيونهم في شعرها
وتوشحت بياضهن الباقي

وارجع إلى حسن الوفاء فإن قُبـ
حَ الغنرِ حجةً سلوةً المشتاق
والحسنُ ليسَ بحافظٍ لَكَ ذمةً
إلا بحفظك ذمة العشاق
يا عاجلاً بالهجر منه وجاعلاً
بَيْنَ الجَوَانِحِ لَاعِجَ الْأَسْوَاقِ
ما حقَّ قلبٍ قد صفا لك وده
تَقْطِيعُهُ بِقَطِيعَةٍ وَفِرَاقِ
مَعَ ذَا وَذَا كَيْفَ اشْتَهَيْتَ فَكُنْ أَنَا
الموثوقُ بي في صحة الميثاقِ
وَعَلَى مَذَاقِ الْمُرِّ مِنْ ثَمَرِ الْجَفَا
يَبْلَى الصَّحِيحُ هَوَى مِنْ الْمَذَاقِ

— مقطوعة: يا قلبُ كمُ ذا الخفوق والقلقُ:

يا قلبُ كمُ ذا الخفوق والقلقُ
ها قد رثوا رحمةً وقد رفقوا
نِلْتَ أَمَانِيكَ وَالْأَمَانَ بِهِمْ
وزال ذاك الفراقُ والفرقُ
فادعُ إلى الله يدومُ لك الـ
— وودُ وما شاءَ بعدُ يتفوقُ

وأنت يا طرفي القريح أسي
بشراك زال البكاء والأرق
قد غفرت زلة الزمان وقد
لأن لنا منه ذلك الخلق
وقد صفا ود من كلفت به
ولاح برق الوصال ياتلق
وظلت إذ زارني أقبلة
وأجتلي حسنه وأعتق

— مقطوعة: لَمَّا حَكَمَ الزَّمانُ بالتَّفريقِ:

لَمَّا حَكَمَ الزَّمانُ بالتَّفريقِ
واستبطنَ ناديمَ ظهورِ النوقِ
أطلقتُ دُموعي إثرَهُم في قَبسٍ
من نارٍ زفيرِ خَشيةِ التَّغريقِ

— مقطوعة: لَم تَجْرَحِ السَّكِينُ كَفَّ مُعَذِّبِي:

لَم تَجْرَحِ السَّكِينُ كَفَّ مُعَذِّبِي
إِلَّا لِمَعْنَى حُسْنِهِ مُتَحَقِّقُ
هي مثل ما قد قيل جارحة له
ولكل جارحة إليه تشوقُ

— مقطوعة: أَوْحَشْتُمُوا نَظْرِي فَكَمْ مِنْ عَبْرَةٍ:

أَوْحَشْتُمُوا نَظْرِي فَكَمْ مِنْ عَبْرَةٍ

سَمَحَتْ بِهَا الْأَجْفَانُ وَالْأَمَاقُ

لَا اخْضَرَ بَعْدَكُمْ الْعَقِيقُ وَلَا حَلَا

مِنْ مَائِهِ لِلوَارِدِينَ مَذَاقُ

حَتَّى يَرَاكُمْ نَاطِرِي وَتَضْمُنَا

بِكُمْ الدِّيَارُ وَيَسْعَدُ الْمُشْتَاقُ

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا مَذْ عَرَفْتُ هَوَاكُمُ

فَعَلَّامَ كَاسَاتِ الصُّدُودِ أَذَاقُ

— قصيدة: لَا تَخْفِ مَا صَنَعْتَ بِكَ الْأَشْوَاقُ:

لَا تَخْفِ مَا صَنَعْتَ بِكَ الْأَشْوَاقُ

وَأَشْرَحَ هَوَاكَ فَكُنَّا عُشَّاقُ

قَدْ كَانَ يَخْفِي الْحُبُّ لَوْ لَا دَمْعُكَ الـ

جَارِي وَلَوْ لَا قَلْبُكَ الْخَفَّاقُ

فَعَسَى يُعِينُكَ مَنْ شَكَّوْتَ لَهُ الْهَوَى

فِي حَمْلِهِ فَالْعَاشِقُونَ رِفَاقُ

لَا تَجْزَعَنَّ فَلَسْتَ أَوَّلَ مُغْرَمِ

فَتَكَّتْ بِهِ الْوَجَنَاتُ وَالْأَخْدَاقُ

واصبر على هجر الحبيبِ فَرُبَّمَا
 عَادَ الْوِصَالُ وَلِلْهُوَى أَخْلَاقُ
 كَمْ لَيْلَةٍ أَسْهَرْتُ أَحْدَاقِي بِهَا
 مَلَقَى وَلِلْأَفْكَارِ بِي إِحْدَاقُ
 يَا رَبَّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ
 عَنِّي وَقَدْ أَلِفَ الرَّفَاقُ فِرَاقُ
 وَاسْوَدَّ حَظِّي عِنْدَهُمْ لَمَّا سَرَى
 فِيهِ بِنَارِ صَبَابَتِي إِحْرَاقُ
 عَرَبٌ رَأَيْتُ أَصَحَّ مِيثَاقَ لَهُمْ
 أَنْ لَا يَصِحَّ لَدِيهِمْ مِيثَاقُ
 وَعَلَى النَّيَاقِ وَفِي الْأَكَلَةِ مَعْرِضٌ
 فِيهِ نِفَارٌ دَائِمٌ وَنِفَاقُ
 مَا نَاءَ إِلَّا حَارَبْتُ أُرْدَافَهُ
 خَصْرًا عَلَيْهِ مِنَ الْعُيُونِ نِطَاقُ
 تَرْنُو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِي إِطْرَاقِهِ
 فَإِذَا رَنَا فَلِكُلِّهَا إِطْرَاقُ

- مقطوعة: الشَّيْخُ قَالُوا قَدْ غَدَا سَالِكَا:
 الشَّيْخُ قَالُوا قَدْ غَدَا سَالِكَا فَقُلْتُ لِلنَّارِ غَدَا سَالِكَا
 لَا تَغْتَرَّرْ بِالزُّورِ مِنْ فَعْلِهِ كَمْ فَأَتَيْكَ تَحْسِبُهُ نَاسِكَا

— مقطوعة: أيها الهاجر حدثني:

أيها الهاجر حدثني ما أوجبَ هجرَكَ
ما الذي لَوَّجْتُ بِالْوَصْدِ لِحَبِيبِي كَانَ ضَرْكَ
أَيْهَا الصَّابِرُ عَنِّي لَيْتَنِي أُعْطِيتُ صَبْرَكَ
أَيْهَا الْجَاهِلُ قَدْرِي أَنَا لَا أَجْهَلُ قَدْرَكَ
أَيْهَا الشَّاعِلُ أَسْرَا رِي مَا أَفْرَغَ سِرَكَ
يَا مُحْيَاهُ أَنْارَ اللَّـهِ فِي الْعَالَمِ بِدْرَكَ
قَدْ يَسْتَأْ مِنْكَ خَيْرًا فَكفانا الله شرَكَ

— مقطوعة: أَحْبَابُنَا إِن بَاحَ فِيكُمْ بِالْهَوَى:

أَحْبَابُنَا إِن بَاحَ فِيكُمْ بِالْهَوَى
صَبُّ بَكَى وَجْداً بِكُمْ وَتَهَتَّكَ
قَدْ كَانَ يَسْتَحْيِي فَيُخْفِيهِ وَقَدْ
نَزَحَ الْحَيَا مِنْ عَيْنِهِ لَمَّا بَكَى

— مقطوعة: قَدْ مَالَ سَمْعِي إِلَى عَذَالِهِ فَيَكَا:

قَدْ مَالَ سَمْعِي إِلَى عَذَالِهِ فَيَكَا
يَكْفِيكَ تَلْوِيحُ هَذَا الْقَوْلِ يَكْفِيكَ
كَمْ بَتَّ تَفَكَّرُ بُغْضاً كَيْفَ تُسْخِطُنِي
وَبَتَّ أَفْكَرُ حُبًّا كَيْفَ أَرْضِيكَ

يَا نَاطِرِيَّ ارْقُدَا لَا لِلْخِيَالِ وَيَا
قَلْبِي اسْتَرِحْ مِنْ هَوَى مَنْ كَادَ يُفْنِكَ
وَكَيْفَ أَرْضَى لِنَفْسِي أَنْ أَسْوَدَ مَنْ
لَمْ يَرْضَ أَنِّي لَهُ أَصْبَحْتُ مَمْلُوكًا

— مقطوعة: يَا مَالِكُ رَقِّ الصَّبِّ بِاللَّهِ عَلَيْكَ:

يَا مَالِكُ رَقِّ الصَّبِّ بِاللَّهِ عَلَيْكَ
ارْحَمْ حَائِرًا يُسَايِلُ الدَّمْعَ عَلَيْكَ
وَاسْمَحْ بِخِيَالٍ فِي الدَّجَى يَطْرُقُ مِنْ
أَضْحَى دَنَفًا أَذَابَهُ الشَّوْقُ إِلَيْكَ

— مقطوعة: خِيَالِي أَخَافُ الْهَجْرَ مِنْهُ:

خِيَالِي أَخَافُ الْهَجْرَ مِنْهُ
وَلَسْتُ أَرَاهُ يَرْغَبُ فِي وَصَالِي
وَكُنْتُ عَهْدَتَنِي قَدَمًا شَجَاعًا
فَمَا لِي الْيَوْمَ أَفْزَعُ مِنْ خِيَالِي

— مقطوعة: قَدْ كَانَ مَا عَلِمَ اللَّاحِي وَمَا جَهْلًا:

قَدْ كَانَ مَا عَلِمَ اللَّاحِي وَمَا جَهْلًا
وَصَارَ مَا كَتَمَ الْوَاشِي وَمَا نَقْلًا

كَانَ النَّكْتُ يُرْجَى قَبْلَ بَيْنِكُمْ
أَمَّا وَقَدْ حَكَمْتَ أَيْدِي الْفِرَاقِ فَلَا
وَفِي الرِّكَائِبِ مِنْ زَوْدَتِهِ نَظَرًا
وَلَوْ أَمِنْتُ الْعِدَى زَوْدَتَهُ قَبْلًا
أُودِيَ بِقَلْبِي عَذَارُ زَارَ وَجَنَّتِهِ
حُسْنًا وَمِنْ بَعْضِ نَبْتِ الرُّوْضِ مَا قَتَلَا

— مقطوعة: أسرفت في اللوم ولم تقتصر:

أسرفت في اللوم ولم تقتصر
وَرَزِدْتُ فِي لَوْمِكَ يَا ذَا الْعَذُولِ
قَدْ رَضِيتَ نَفْسِي بِمَحْبُوبِهَا
وَإِنَّمَا الْمَوْلَى كَثِيرُ الْفُضُولِ

— قصيدة: بلا غيبة للبدر وجهك أجمل:

بَلَا غِيَبَةَ لِلْبَدْرِ، وَجْهُكَ أَجْمَلُ
وَمَا أَنَا فِيمَا قَلْتَهُ مُتَجَمِّلُ
وَلَا عَيْبَ عِنْدِي فِيكَ لَوْلَا صِيَانَةٌ
لَدَيْكَ بِهَا كُلُّ امْرِئٍ يَتَبَذَلُ¹

¹ سقط هذا البيت في الوافي بالوفيات.

وَحَبَّكَ حَتَّى لَوْ عَنِ الْحَبِّ تَنَقَّى
حَابَاباً وَلَا تَبْدُو لَهَا كُنْتَ تَفْعَلُ¹
لِحَاضَتِكَ أَسْيَافٌ ذُكُورٌ فَمَا لَهَا
كَمَا زَعَمُوا مِثْلَ الْأَرَامِلِ تَغْزِلُ
وَمَا بَالُ بُرْهَانِ الْعَذَارِ مُسَلِّماً
وَيَلْزَمُهُ دُورٌ وَفِيهِ تَسْلُسُلُ²
وَعَهْدِي أَنَّ الشَّمْسَ بِالصَّحْوِ آذَنْتُ
فَمَا بَالُ سُكْرِي مِنْ مُحْيَاكَ يُقْبِلُ³
كَأَنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ لِغَيْرِ نَوَاطِرِ
تُسَهِّدُهَا وَجْداً وَقَلْباً تُعَلِّلُ
عَلَيَّ ضَمَاناً أَنَّ طَرَفَكَ لَا يَرَى
مِنْ الْحُسْنِ شَيْئاً عِنْدَ غَيْرِكَ يَجْمَلُ⁴
وَإِنَّ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ وَإِنْ تَجُرُ
عَلَيْهَا إِلَى سُلُوكِهَا لَيْسَ تَعْدِلُ

¹ سقط هذا البيت في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

² سقط هذا البيت في الوافي بالوفيات.

³ جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات هكذا: ((وسُكْرِي أَرَاهُ فِي مُحْيَاكَ يُقْبِلُ)).

⁴ هذا البيت، والبيت الذي يليه؛ سقطا في فوات الوفيات. بينما سقطت الأبيات الأخيرة كلها في الوافي بالوفيات.

حَبِيبِي لِيَهْنِ الْحُسْنَ أَنْكَ حُزْنُهُ
وَيَهْنِ فُؤَادِي أَنَّهُ لَكَ مَنْزِلُ
إِذَا كُنْتَ ذَا وَدٍّ صَحِيحٍ فَلَمْ يَكُنْ
يَضُرُّنِي¹ الْعُذَالُ حَيْثُ تَقَوَّلُوا
رَأَوْا مِنْكَ حَظِّي فِي الْمَحَبَّةِ آخِرًا
لِذَا حَرَّفُوا عَنِّي الْحَدِيثَ وَأَوَّلُوا

— مقطوعة: تعدُّ عن الغرامِ فُلست تقوى:

تعدُّ عن الغرامِ فُلست تقوى
على ما فيه من كمدٍ وذلٍّ
فَكَمْ مِنْ مُغْرَمٍ قَدْ مَاتَ عِشْقًا
بِمَنْ تَعْنِي وَلَمْ يَظْفَرْ بِدَلٍّ

— مقطوعة: أدام الله أيام الوصال:

أدام الله أيام الوصال
وخلدَ عُمُرَ هَاتِيكَ اللَّيَالِي
وَأَسْبَغَ ظِلَّ أَغْصَانِ التَّدَانِي
وَزَادَ قُدُودَهَا حُسْنَ اعْتِدَالِ

¹ في نص: ((يضر بي)).

ولا زالت ثمارُ الأُنسِ فيها
تزيد لطافةً في كُلِّ حالٍ
ولا برحتُ لنا فيها عيونٌ
تغازلُ مقلتي خشفِ الغزالِ
لَقَدْ مَرَّتْ لَنَا فِيهَا لَيَالٍ
كَأَنَّ نِظَامَهَا عَقْدُ الْآلِي
أَقَمْنَا فِي جَنَابِ أَمِيرِ حُسْنٍ
عَقْنِ عَلَيْهِ أَلْوِيَةُ الْجَمَالِ

— قصيدة: مَلَأْتُكَ لَا رِبْطَ لَدَيْهِ وَلَا حَلَّ:

مَلَأْتُكَ لَا رِبْطَ لَدَيْهِ وَلَا حَلَّ
دَمِي لِلْهَوَى إِنْ كَانَ يَرْضَى الْهَوَى حَلَّ
إِلَيْكَ وَمَا مَوَّهَتْ عَنِّي فَإِنَّمَا الـ
تَجَاهَلُ عِنْدَ الْعَارِفِينَ بِهِ جَهْلُ
بِرُوحِي وَأَهْلِي مَنْ إِذَا عَرَضُوا لَهَا
بِذِكْرِي قَالَتْ ذُوْنَهُ الرُّوحُ وَالْأَهْلُ
تُحَدِّثُ فِي النَّادِي بِذِكْرِي وَذِكْرِهَا
وَصَارَ لِأَهْلِ الْحَيِّ مِنْ ذِكْرِنَا شُغْلُ
وَمَا الْحُبُّ إِلَّا أَنْ يُقْلُوا وَيُكْثِرُوا
بِنَا وَيَصْحَوْا فِي الظُّنُونِ وَيَعْتَلُوا

أَبْتُ رِقَّتِي إِلَّا الَّذِي يَقْتَضِي الْهَوَى
وَعَزَمِي إِلَّا مَا اقْتَضَى الرَّأْيُ وَالْعَقْلُ
فَوَاعَجَبًا أَنِّي خَفِيتُ وَكَمْ أَبْنُ
وَقَدْ رَاحَ مَمْلُوءَ بِي الْحَزَنُ وَالسَّهْلُ
طَرِيدٌ وَلِي مَأْوَى مَبَاحٌ وَلِي حِمَى
وَحِيدٌ وَلِي صَحْبٌ غَرِيبٌ وَلِي أَهْلُ
سَاجَّهَدُ إِمَّا لِلْمَنَآيَا أَوْ الْمُنَى
فَصَارَايَ إِمَّا النَّصْرُ أَوْ مَا جَنَى النَّصْلُ
فَإِنْ لَمْ تَصِلْ بِي هِمَّتِي بِمَطَالِبِي
وَلَمْ يَنْتَسِجْ لِلشَّيْبِ فِي لِمَّتِي غَزْلُ
فَلَا نَظَرْتُ عَيْنِي وَلَا فَاهَ مِقْوَلِي
وَلَا بَطَشْتُ كَفِّي وَلَا سَعَتِ الرَّجْلُ
وَمَنْ عَرَفَ الْأَمْرَ الَّذِي أَنَا عَارِفٌ
رَأَى كُلَّ صَعْبٍ كُلَّ إِذْرَاكِهِ سَهْلُ
خُذِ الْعِزَّ مِنْ أَيِّ الْوُجُوهِ رَأَيْتُهُ
فَلَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ يَكُونُ بِهِ الذَّلُّ
وَالْمَرءُ مِنْ دَاعِي الطَّبِيعَةِ قَائِدٌ
إِذَا لَمْ يَذْهَبْ دُونَهُ الْحِلْمُ وَالنُّبْلُ
مِنْ التُّرْبِ هَذَا الطَّبَعُ وَالنَّفْسُ مِنْ عَلَا
فَلِلْمَرءِ أَنْ يَذْنُو وَلِلْمَرءِ أَنْ يَعْلُو

— قصيدة: فديتك كم عليّ عليك عدل:

فديتك كم عليّ عليك عدل
وليسَ لَدَيْكَ للعُشَّاقَ عدلُ
وكم أطوي إذا وافيت شوقاً
كأنِّي عِنْدَ شَمْسٍ سَنَّاكَ ظِلُّ
وَصَالِكَ مُضْمِرٍ لِلْعَبْدِ هَجْرُ
وَهَجْرُكَ مُظْهِرٌ لِلْوَدِّ وَصَلُ
حبيبي كيف قيلَ الشَّعرُ فرغُ
وشعركَ للملاحة فيك أصلُ
برُوحِي مَنْ عَلَى خَدَّيْهِ وَرَدُّ
سَقَاهُ بِأَدْمُعِي وَبَلُّ وَطَلُّ
شَبِيهُ الرِّيمِ ضَنَّ بِطَيْبٍ وَصَلِ
فَحَدَّثَ عَنْ كَرِيمٍ فِيهِ بُخْلُ
إِذَا حَاوَلْتُ حَلَّ الْبَنْدِ قَالَتْ¹
مَعَاظِفُهُ حِمَانَا لَا يُحَلُّ
وَإِنْ جُلَيْتَ بِوَجْنَتَيْهِ مُدَامُ
يُرى لِعِذَارِهِ دَوْرٌ وَنَزْلُ

¹ هذا البيت، والبيت الذي يليه؛ وردا وحدهما في الوافي بالوفيات. أين جاء صدر البيت الأول هكذا: ((إِذَا مَا رُمْتُ حَلَّ الْبَنْدِ قَالَتْ)).

وَأَرْسَلَ صُدْعُهُ عَرَفًا نَثَارًا
بِخَذِّ مَالِهِ فِي الْوَرْدِ مِثْلُ
فَلَيْسِ الْفَضْلُ وَالْحَسَنُ بِنُ سَهْلٍ
وَإِنْ يَكُ فِيهِمَا مَنْحٌ وَبَذْلُ
كُجُودِكَ أَوْ كَخُلُقِكَ يَوْمَ سِلْمٍ
فَذَا فَضْلٌ وَذَا حَسَنٌ وَسَهْلٌ

— مقطوعة: فِي غَزَلِي مِنْ لَحْظِ ذَاكَ الْغَزَالِ:

فِي غَزَلِي مِنْ لَحْظِ ذَاكَ الْغَزَالِ
أَخْبَارُ صَبٍّ قَتَلَتْهُ النَّبَالُ
غَصْنٌ سَقَتْهُ أَدْمَعِي نُمْ مَا
أَثْمَرَ لَمَّا مَالَ إِلَّا الْمَلَالُ
وَهَبَّتْهُ يَأْقُوتَ دَمْعِي وَلَا
يَسْمَحُ لِي مِبْسَمُهُ بِاللَّالِ¹
حَلَّ ثَلَاثًا يَوْمَ حَمَّامِهِ
ذَوَائِبًا تَعْبِقُ مِنْهَا الْغَوَالُ

¹ سقط هذا البيت في فوات الوفيات.

فَقُلْتُ وَالْقَصْدُ ذُوَابُهُ

يا سهري¹ في ذي الليالِ الطوالِ²

— مقطوعة: عَنْ لِي دُمْنَةٍ وَلَا حَ هِلَالًا:

عَنْ لِي دُمْنَةٍ وَلَا حَ هِلَالًا

وَأَنْشَى صُعْدَةً وَفَرَّ غَزَالًا

فَنَذَلَّتْ حِينَ أَبْدَى دَلَالًا

وَرَأَى رُخْصًا أَدْمَعِي فَتَغَالَا

يَا غَنِيًّا بِالْحُسْنِ أَسْأَلُكَ الْوَصْنَ

لَ وَحَاشَاكَ أَنْ تَرُدَّ السُّؤَالَ

رَشَاءً قَدْ أَطَعْتُ فِيهِ غِرَامِي

وَعَصَيْتُ اللَّوَامَ وَالْعُدَالَ

قَتَلْتَنِي جُفُونُهُ وَهِيَ مَرْضَى

سَلَبْتَنِي قَوَائِي وَهِيَ كَسَالًا

— مقطوعة: كَانَ مَا كَانَ وَزَالًا:

كَانَ مَا كَانَ وَزَالًا فَاطْرَحُ قِيلَ وَقَالَ

أَيُّهَا الْعَاثِبُ ظَلَمًا حَسْبُكَ اللَّهُ تَعَالَى

¹ في الوافي بالوفيات: ((وا سهري)).

² لم يرد من هذه المقطوعة في الوافي بالوفيات سوى هذين البيتين الأخيرين.

— مقطوعة: أَرَاكَ تَشُمُّ الخَلَّ في زَمَنِ الوَبَا:

أَرَاكَ تَشُمُّ الخَلَّ في زَمَنِ الوَبَا
فَخَلُّ حَديثاً لِلأَطْبَاءِ يَا خِلي
فإن يَكُ بالطاعونِ رَبَكَ قد قَضَى
تَمُوتُ إِذَا رَغِماً وَأَنفَكَ في الخَلِّ

— مقطوعة: العاذِلُ في هَوَاكَ قد زادَ وقال:

العاذِلُ في هَوَاكَ قد زادَ وقال
والصَّبُّ لَمَّا يَقُولُ مُلقِيهِ وقال
لَا تَحَسَبْ أَنَّ الحُسْنَ في وَجْهِكَ حَالٌ
قَدْ عَمَّ جَمَالَ خَدَّكَ الـوَرْدُ بِحَالٍ

— قصيدة: متى بالقُربِ يُخبرني الرُّسُولُ:

متى بالقُربِ يُخبرني الرُّسُولُ
وَيَسْمَعُ بالَّلِقَا ذَهراً بِخيلُ
وَيَرْجِعُ فِيكَ سِتْرُ الحُبِّ جَهراً
وَيَشْفِي مِنْكَ بالوصلِ الغَليْلُ
ودادُ لَا تُغَيِّرُهُ اللِّيالِي
وَحُبٌّ لَا يُنْهِنُهُ العَذُولُ

وَعَهْدٌ كُنْتُ تَعَهْدُهُ صَحِيحٌ
وَقَلْبٌ كُنْتُ تَسْكُنُهُ عَلِيلٌ
وَمَا بَيْنَ الضَّلُوعِ إِلَيْكَ شَوْقٌ
تَزُولُ الرَّاسِيَاتُ وَلَا يَزُولُ
أَلَا يَا ظَاعِنًا هَلْ مِنْ رُجُوعٍ
فَتَجْمَعُنَا الْمَنَازِلُ وَالطَّلُولُ
فَقَدْ فَقَدَ الْكَرَى جَفَنٌ قَرِيحٌ
وَقَدْ أَلَفَ الضَّنَّ جِسْمٌ نَحِيلٌ
وَصَبَبُكَ قَدْ قَضَى سَوْقًا وَوَجْدًا
يَكُونُ لَوَجْهِكَ الْعُمُرُ الطَّوِيلُ

— قصيدة: أرح يمينك مما أنت معتقل:

أرح يمينك مما أنت معتقل
أَمْضَى الْأَسِنَّةِ مَا فُولَاذُهُ الْكَحَلُ
يَا مَنْ يُرِينِي الْمَنَآيَا وَاسْمُهَا نَظَرٌ
مِنَ السُّيُوفِ الْمَوَاضِي وَاسْمُهَا مَقْلُ
مَا بَالُ الْخَاطِئِ الْمَرَضَى تُحَارِبُنِي
كَأَنَّمَا كُلُّ لَحْظٍ فَارِسٌ بَطْلُ
وَمَا لِقَوْمِكَ سَاعَتٌ بِي ظَنُّونُهُمْ
فَلَيْتَهُمْ عَلِمُوا مِنِّي الَّذِي جَهِلُوا

فِي ذِمَّةِ اللَّهِ نَاءِ حُسْنُهُ أَمَمٌ
 وَقَارِغُ الْقَلْبِ فِي قَلْبِي بِهِ شُغْلُ
 مِنْ دُونِهِ كُتِبَ مِنْ دُونِهَا حَرَسٌ
 مِنْ دُونِهِ قُضِبَ مِنْ دُونِهَا الْأَسْلُ
 وَمَعَشَرٍ لَمْ تَزَلْ فِي الْحَرْبِ بِيضُهُمْ
 حُمْرُ الْخُودِ وَمَا مِنْ شَأْنِهَا الْخَجَلُ
 إِذَا انْتَضَوْهَا بَرَوْقًا رَدَّهَا سُحْبًا
 بِهَا دَمٌ سَالَ مِنْهَا عَارِضٌ هَطَلُ
 بِهَا دَمٌ سَالَ مِنْهَا عَارِضٌ هَطَلُ
 كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَآيَا بَيْنَهُمْ غَزَلُ
 كَمْ نَارِ حَرْبٍ بِهِمْ شَبَّتْ وَهُمْ سُحْبٌ
 وَأَرْضٍ قَوْمٍ بِهِمْ فَاضَتْ وَهُمْ شُعْلُ
 مِنْ كُلِّ ذِي طَرَّةٍ سُودَاءُ يَلْبِسُهَا
 غَيْمٌ بِهَا مِنْ عُبَابِ النَّقَعِ مُتَّصِلُ
 ضَاعَتْ بِحَسَنِهِمْ تِلْكَ الْخِيَامُ كَمَا
 ضَاعَتْ بَوَجْهِ ابْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ الدُّوْلُ
 كَأَنَّمَا كَفَّ فَتْحُ الدِّينِ وَجْهُهُ
 لِذَاكَ يَحْسَنُ فِي سَاحَاتِهَا الْقَبْلُ
 أَغْرُ مَا أَبْدَتْ السُّحُبُ الْحَيَا لِسَوَى
 تَقْصِيرُهَا عَنْ نِدَاهِ حِينَ يَنْهَمِلُ

إِنَّ قُلْتُ يُمْنَاهُ مِثْلُ الْبَحْرِ صَدَّقَنِي
 بِهَا مَنَاهِلُ مِنْهَا تَشْرَبُ الْقُبُلُ
 يَدٌ لَهَا كَمِ يَدٍ مِنْ قَبْلِهَا سَبَقَتْ
 يَدٌ وَكَمْ مِنْ يَدٍ مِنْ بَعْدِهَا تَصِلُ
 تُوْحِي إِلَى كُلِّ قِرْطَاسٍ بِلَاغُهُ
 سَحَرُ الْبَيَانِ وَمِنْ أَقْلَامِهِ الرُّسُلُ
 سُمْرٌ تَرُوقُكَ رَأْيِ الْعَيْنِ عَارِيَةٌ
 وَمِنْ بَدِيعِ مَعَانِيهِ لَهَا حُلُلُ
 مِنَ الْأَسْنَةِ فِي أَطْرَافِهَا سَنَةٌ
 لَوْلَا النَّضَارَةُ قُلْنَا إِنَّهَا ذَبُلُ
 مِنْ كُلِّ مَعْتَدِلٍ كَالْمِيلِ إِنْ رَمَدَتْ
 عَيْنُ الْمَعَالِي فَفِيهَا نَفْسُهُ كَحُلُ
 فَالْعِدَاةُ لَدَيْهِ كُلُّ مَا حَذَرُوا
 وَلِلْعَفَاةِ عَلَيْهِ كُلُّ مَا سَأَلُوا
 أَضَحَّتْ يَدَاهُ لِعَقْدِ الْجُودِ وَاسْطَةَ
 فَلَيْسَ يُدْرِي لَجُودٍ بَعْدَهَا عَطَلُ
 يَجُودُ حَتَّى يَمِلَ النَّاسُ أَنْعَمَهُ
 وَلَيْسَ يُدْرِكُهُ مِنْ بَذْلِهَا مَلُ
 سَادَتْ وَسَارَتْ بِهَا الْأَفْوَاهُ مُعْلِنَةً
 فَقَدْ غَدَتْ مَثَلًا يَغْدُو بِهَا الْمَثَلُ

بَنَى لِأَبْنَائِهِ بَيْتَ الْعُلَى وَتَوَى
 فِيمَا بَنَاهُ لَهُ أَبَاؤُهُ الْأَوَّلُ
 كَانُوا أَتَمَّ الْوَرَى جُوداً وَإِنْ صَمَتُوا
 وَأَعْظَمَ النَّاسِ أَحْلَاماً وَإِنْ جَهِلُوا
 زَالُوا فَأَوْدَعَ فِي الْأَسْمَاعِ ذِكْرَهُمْ
 مَحَاسِناً أَوْدَعَتْهَا قَبْلَهَا الْمُقْلُ
 اَمْدَحْ وَقُلْ فِي مَعَانِيهِ فَقَدْ كَرُمْتَ
 لَا يَحْسُنُ الْقَوْلُ حَتَّى يُحْسِنَ الْعَمَلُ
 يَا مَعْنِينَ الْجُودِ لَا أَبْغِي سِوَاكَ وَلَوْ
 فَعَلْتَ ذَلِكَ سُدَّتْ عَنِّي السُّبُلُ
 إِنْ ابْنُ بَابِكَ مَحْسُوبٌ عَلَيْكَ وَلِي
 حَقُّ الْعِبَادَةِ مَشْفُوعٌ بِهِ الْأَمَلُ

— قصيدة: خُذُوا قُودِي مِنْ أَسِيرِ الْكِلِّ:

خُذُوا قُودِي مِنْ أَسِيرِ الْكِلِّ
 فَوَاعَجِبَا لِأَسِيرِ قَتْلُ
 وَقُولُوا عَلَيَّ إِذَا نَحْتَمُ
 قَتِيلَ الْعَيُونِ جَرِيحَ الْمُقْلِ
 وَلِي جِلْدٌ عِنْدَ بَيْضِ الطُّبَى
 وَيَلْأَعِينُ النَّجْلُ مَا لِي قَبْلُ

ولي قمرٌ ما بدا في الدجى
 وأبصره البدرُ إلا أفلُ
 فيا خجلة الطَّيِّ لما بدا
 شبيهاً له في اللَّمَى والكَلِ
 ويا خجلة الشَّمْسِ لما بدتْ
 ألم ترَ فيها احمرارَ الخجلِ
 يضلُّ بطرَّتِه من يشا
 ويهدي بغرَّتِه من أضلُّ
 وقد عدلَ الحسنُ في خلقه
 على أنه جارَ لما عدلُ
 فعَمَّتْ معاطِفُه بالنِّشاطِ
 وخصَّتْ روادِفُه بالكسلِ
 وقد علمَ النَّاسُ أنَّي امرؤٌ
 أحبُّ الغزالِ وأهوى الغزلِ
 فلا تنكرُ اليومَ يا عاذلي
 فلستُ أميلُ إلى من عدلُ
 فألحقتُ قامَتَه بالعناقِ
 وأنبئتُ مرشِفَه بالقَبْلِ
 وكم تهتُ في غورِ خصرِ له
 وأشرفتُ من فوقِ ذاكِ الكَفْلِ

وَأَنْتَ حِينَ تَجْلَى الصَّبَاحُ
بِحِيٍّ عَلَى خَيْرِ هَذَا الْعَمَلِ
وَهَا أَثَرُ الْمِسْكِ فِي رَاحَتِي
هَدَاهُ فَمِي فِيهِ طَعْمُ الْعَسَلِ
دَعَانِي إِلَى رَشْفِ تِلْكَ الْقُبْلِ
غَرَامٌ صَحِيحٌ وَمَالِي قَبْلُ
إِذَا فَتَكَتْ فِيَّ الْحَاضَةُ
بِقَدِّ يَقْدُ فَكَيْفَ الْعَمَلُ
هُنَاكَ تَرَى أَدْمَعِي الْمُنْحَنِي
وَقَلْبِي بِرَمِي الْجِمَارِ اشْتَعَلَ
وَدْمَعِي مِنَ الشَّوْقِ يَا مَا جَرَى
عَقِيقًا وَبِاللَّهِ عَقْلِي ذَهَلُ
فَمَا ضَرَّةٌ لَوْ سَمَحَ بِالْكَرَى
وَلَوْ سَاعَةً بَعْدَ مَا قَدْ فَعَلَ
وَسَكَّنَتْهُ فِي لَطَى مَهْجَتِي
وَذَاكَ لَعَمْرِي جَرَا مَنْ قَتَلَ
وَمَنْ عَجَبَ زَارَ فِي لَيْلَةٍ
وَعَمَّا جَرَى بَيْنَنَا لَا تَسَلُ
فَصِرْتُ أَشَاهِدُ تِلْكَ الرِّيَاضِ
عَلَى وَجْنَتِيهِ أَنَا فِي خَجَلٍ كَذَا

واقطفُ ورداً بأغصانه
ولم يكُ هذا بغيرِ المُقلِ
فللهِ دُرُكٌ من لَيْلَةٍ
تَعَادُلُ أرواحنا بَلْ أَجَلُ
تُرِيكَ إِذَا أَسْقَرْتَ بِهِجَةً
وروض السُّرُورِ بها قد حَصَلَ
ولا عَيْبَ فِيهَا سِوَى أَنَّهَا
خَلَّتْ مِنْ رَقِيبٍ لَنَا أَوْ عَذْلُ
أَلَا قَلَّ اللهُ سَيْفُ الْمُقَلِّ
فَكَمْ ذَا تَعَدَّى وَكَمْ ذَا قَتَلَ
وَمَا مِنْ قَتِيلٍ لِأَهْلِ الْهَوَى
سِوَى أَلْفِ رَاضٍ بِمَا قَدْ فَعَلَ
لَقَدْ نَصَرَ اللهُ جَيْشَ الْمَلَاكِ
بِبَدْرِ لَنَا حُسْنُهُ قَدْ كَمَلَ
وَمَا بَطُلٌ فِي الْوَعَى فَارِسُ
إِذَا قَابَلَ الْغِيْدَ إِلَّا بَطُلُ
إِذَا قَاتَلْتَنِي عُيُونُ الظُّبَا
فُوا فَرَحِي لَوْ بَلَغَتْ الْأَمْلُ
رَعَى اللهُ لَيْلَةَ زَارِ الْحَبِيبِ
وَغَابَ الرَّقِيبُ إِلَى حَيْثُ أَلُ

فَخَبَّأَتْهُ فِي سَوَادِ الْعَيْنِ
وَقَدْ غَسَلَ الدَّمَغُ ذَاكَ الْمَحَلَّ
وَالصَّقْتُ خَدِّي بِأَقْدَامِهِ
وَأَنْبَلْتُ أَخْمَصَهُ بِالْقَبْلِ
فَرَّقَ وَمَالَ بِأَعْطَافِهِ
فَدَبَّتْ بِرُوحِي ذَاكَ الْمَيْلَ
وَعَانَقَتْهُ وَخَلَعْتُ الْعِذَارَ
وَمَزَقْتُ ثَوْبَ الْحَيَا وَالْخَجَلِ
وَمَا زِلْتُ أَشْغَلُهُ بِالْحَدِيثِ
وَسَتَرُ الظَّلَامِ عَلَيْنَا انْسَدَلِ
إِلَى أَنْ غَفَا جَفْنُهُ بِالْمَنَامِ
وَعَنِّي تَغَافَلُ أَوْ قَدْ غَفَلَ
وَخَلَّيْتُ عَنْ خَصْرِهِ بَنَدَهُ
وَأَجْفَيْتُ عَنْ مِعْطَفِيهِ الْحُلَّ
وَبَتُّ أَشَاهِدُ صُنْعَ الْإِلَهِ
تَبَارَكَ رَبُّ الْبَرَالِيَا وَجَلَّ
فَظُنُّ بِنَا الْخَيْرِ أَوْ لَا تَظُنُّ
فَلَا تَسْأَلِ الْيَوْمَ عَمَّا حَصَلَ

— مقطوعة: وَفَقِيهِ كَالْبَذْرِ زَارَ بِلَيْلٍ:

وَفَقِيهِ كَالْبَذْرِ زَارَ بِلَيْلٍ
فَجَلَّ نُورُهُ الدُّجَى إِذْ تَجَلَّى
مَا دَرَى مَوْضِعِي وَلَكِنْ قَلْبِي
بِضْرَامِ الْحَسَا هِدَاهُ وَدَلَّ
وَعَجِيبٍ مِنْهُ فَقِيهٌ ذَكِيٌّ
بِمَحَلِّ النَّزَاعِ كَيْفَ اسْتَدَلَّ

— مقطوعة: كُنَّا حُرُوفاً عَالِيَاتٍ لَمْ نُقَلْ:

كُنَّا حُرُوفاً عَالِيَاتٍ لَمْ نُقَلْ
مُتَعَلِّقَاتٍ فِي ذُرَى أَعْلَى الْقَلْلِ
أَنَا أَنْتَ فِيهِ وَنَحْنُ أَنْتَ وَأَنْتَ هُوَ
وَالْكُلُّ فِي هُوَ هُوَ فَسَلْ عَمَّنْ وَصَلْ

— مقطوعة: وَيَحْمَرُّ شَقِيقُهَا خَجَلًا:

وَيَحْمَرُّ شَقِيقُهَا خَجَلًا
وَيَصْفَرُّ بَهَارُهَا وَجَلًا
وَيَيِّدُو حُسْنَهَا خَضِرًا
وَيَيِّدُو زَهْرَهَا خَضِلًا

إِذَا مَا الصَّبُّ شَاهَدَهُ
صَبَا وَاسْتَأْنَفَ الْغَزْلَا
وَتَحَسَبُ جَنَّةَ الْفَرْدُو
سِ عَنْهُ حُسْنَهَا نُقْلَا

— قصيدة: أَطْلُبُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ يَوْوَلَا:
أَطْلُبُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ يَوْوَلَا
لِغَيْرِكَ وَدُّ قَلْبِي أَوْ يَمِيلَا
وَأَرْجُو غَيْرَ بَابِكَ لِي مَرَامَا
وَأَقْصِدُ غَيْرَ رَبْعِكَ لِي مَقِيلَا
وَاخْطُبْ شَمْسَكَ أَنْ تُجَلَّى
وَأَسْأَلُ غَيْرَ مَائِكَ أَنْ يَسِيلَا
وَقَدْ أَنْجَحْتَ لِي بِنْدَاكَ مَسْعَى
وَقَدْ حَقَّقْتَ لِي أَمَلًا وَسُؤْلَا
جَعَلْتَ بِجَاهِكَ الْعَلْيَاءَ دُونِي
وَرُعْتَ بِبَاسِكَ الْخُطْبَ الْمَهُولَا
وَمَا أَنَا مُنْكَرٌ تِلْكَ الْعَطَايَا
وَمَا أَنَا جَاوِدٌ ذَاكَ الْجَمِيلَا
وَلَا أَنَا قَانِعٌ لَكَ مِنْ وَدَادِ
بِأَنْ أُتْنِي عَلَيْكَ وَأَنْ أَقُولَا

عَلَى أَنِّي فَتَى فَطِنٌ بَلِيغٌ
 بِلَوْغٍ مَا سَلَكْتُ لَهُ سَبِيلًا
 بِالْفَاطِطِ تَخَرُّ لَهَا الْقَوَافِي
 وَيَنْقَادُ الْقَرِيضُ لَهَا ذُلُّوْلًا
 إِذَا مَرَّتْ عَلَى أُذُنِي فَصِيحٌ
 سِوَاكَ يَعْضُ إِصْبَعَهُ طَوِيلًا
 وَمَا أَنَا بِالْغِ بِكَثِيرٍ مَدْحِي
 مِنَ الْكَرَمِ الَّذِي تَحْوِي قَلِيلًا
 وَأَنْتَ أَعَزُّ أَنْ تُدْعَى عَزِيزًا
 وَأَنْتَ أَجَلُّ أَنْ تُدْعَى جَلِيلًا
 وَأَنْتَ أَخْلَلُ كُلَّ غَرِيبٍ دَارٍ
 إِذَا عَدِمَ الْقَرَابَةَ وَالْخَلِيلًا
 يُسَلِّي لَفْظَكَ الصَّبَّ الْمُعَنَّى
 وَيَشْفِي ذِكْرُكَ الدَّنْفَ الْعَلِيلًا
 إِذَا وَهَبَ الْإِلَهُ لَنَا عُقُولًا
 وَهَبْتَ لِمَا وَهَيْئَاهُ عُقُولًا
 فِدَاؤُكَ مَنْ مِنْ تَدِينُ لَهُ الْأَمَانُ
 بِأَنْ يَلْقَى إِلَيْكَ لَهُ وَصُولًا
 وَمَنْ هُوَ نُونٌ أَنْ يَرْنُو بِطَرْفٍ
 إِلَيْكَ فَكَيْفَ تَنْظُرُهُ عَدِيلًا

تُرى شمسُ الضُّحَى إِيَّانَ تَبْدُو
وَتُنْظَرُ حِينَ تَنْتَسِبُ الْأَصُولَا
فَمَنْ وَافَى يَعِيبُ الشَّمْسُ يَوْمًا
كفاهُ على جهالتهِ دليلاً

— قصيدة: أسيرُ الحَاظِ بِخَدِّ أُسَيْلٍ:

أُسَيْرُ الْحَاظِ¹ بِخَدِّ² أُسَيْلٍ
كَلِيمُ أَحْشَاءِ بَطْرِفٍ³ كَلِيلُ
فِي حُبِّ مَنْ حَظِّي مِنْ شِعْرِهِ⁴
لَكِنْ قَصِيرٌ ذَا وَهَذَا طَوِيلُ
لَيْسَ خَلِيلًا لِي وَلَكِنَّهُ
أَضْرَمَ فِي الْأَحْشَاءِ نَارَ الْخَلِيلِ
ظَبْيٌ مِنَ التُّرُكِ هَضِيمُ الْحَشَا⁵
يَهْزُ عَطْفِيهِ دَلَالًا جَمِيلُ

¹ في الوافي بالوفيات: ((أجفان)).

² في فوات الوفيات: ((لِخَدِّ)).

³ في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات: ((لِطَرْف)).

⁴ جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات هكذا:

((فِي حُبِّ مَنْ حَظِّي كَشَعْرَةٍ)).

⁵ هذا البيت؛ والأبيات الثلاثة الموالية؛ لم ترد في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

ذُو وَجَنَّةٍ تَوَرِّدُهَا شَاهِدٌ
 إِنَّ أَنْكَرَتْ قَتْلِي بِطَرْفِ كَحِيلٍ
 تَلَاعَبُ الشَّعْرَ عَلَى رِدْفِهِ
 أَوْقَعَ قَلْبِي فِي الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ
 كَمْ قُلْتُ مِنْ وَجْدِي بِهِ مَشْفَقاً
 وَلِي حِشَا مِنْ هَجْرَةٍ فِي غَلِيلٍ
 يَا رَدْفَهُ جُرْتُ عَلَى خَصْرِهِ
 رَفَقاً بِهِ مَا أَنْتَ إِلَّا ثَقِيلٌ

— قصيدة: بِمَنْ أَبَاكَ قَتْلِي:

بِمَنْ أَبَاكَ قَتْلِي عِلَامَ حَرَمْتِ وَصَلِي
 فَكَيْفَ أَقْوَى لِهَجْرٍ وَكَيْفَ أَصْنَعِي لِعَذْلِ
 أَنَا لَكَ الْمُتَمَنِّي وَغَيْرِي الْمُتَمَلِّي
 يَا أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدِي قَدْ لَذَّيْ فِيكَ نَلِّي
 مَلَكَتْ يَا نُورَ عَيْنِي قَلْبِي وَلَبِّي وَكُلِّي
 يَا نَافِراً مُتَجَنِّ كُنْ سَافِراً مُتَجَلِّي
 يَا أَحْسَنَ النَّاسِ طُوراً فِي حُسْنِ خُلُقٍ وَشَكْلِ
 فِي كُلِّ نَوْعٍ وَجِنْسٍ مِنْ الْجَمَالِ وَفَضْلِ
 أَرَى مَعَانِيكَ تَبْدُو حُسْنًا فَتَحْبُبُ عَقْلِي
 وَلَيْسَ مِثْلَكَ تَهْوَى فَوَاصِلُ فِي الْحَبِّ هِجْرَانٍ مِثْلِي

مَا دُمْتَ تَهْوَى فَوَاصِلُ فَذَا رَبِيعُ مُوَلِّي
حَسْبِي وَحَسْبُكَ ذَقْنٌ تَأْتِي بِفَرْقَةٍ شَمْلِي
وَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا مَا رَأَيْتُ وَجْهِي فَوَلُّ

— قصيدة: قُلْ لِي بِعَيْشِكَ هَلْ عَلَى هَذَا الْجَفَا:

قُلْ لِي بِعَيْشِكَ هَلْ عَلَى هَذَا الْجَفَا
تَبْقَى قُلُوبٌ أَوْ تَكُونُ عُقُولُ
مَا بَالُ خَذْلِكَ جَارَ فِي تَقْسِيمِهِ
لِي نَارُهُ وَلِغَيْرِي النَّقْبِيلُ
يَا طَرْفُهُ وَالرُّمُحُ فِيهِ نَضَارَةٌ
فَعَلَامَ فِي حَدِّ السَّنَانِ ذُبُولُ
يَا مَنْ جَعَلْتَ إِخَاءَهُ لِي عِدَّةً
فِي يَوْمٍ يَذْخَرُ الْخَلِيلَ خَلِيلُ
مَا بَالُ قَلْبِكَ مَا دَعَتْهُ صَبَابَةٌ
مَا بَالُ دَمْعِكَ مَا عَرَاهُ هُمُولُ
أَيْنَ الْمَوَدَّةُ إِنَّهَا لَعَزِيزَةٌ
أَيْنَ التَّوَدُّدُ إِنَّهُ لَقَلِيلُ
أَيْنَ الْمَعِينُ عَلَى الصَّبَابَةِ أَهْلُهَا
لِيَخِفَّ حَبَاءُ الْوَجْدِ فَهُوَ ثَقِيلُ

أَيْنَ الَّذِي يَحْوِي صِفَاتِ مُحَمَّدٍ
هَيْهَاتَ عَزَّ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

— قصيدة: سَرَى لَأَرْضِ الْكَرَى فَمَا وَصَلَا:
سَرَى لَأَرْضِ الْكَرَى فَمَا وَصَلَا
وَرَامَ كَتَمَ الْهَوَى فَمَا حَصَلَا
مُسْتَغْرَقُ الْحَالِ بِالصَّبَابَةِ لَوْ
أَرَادَ نَطْقًا بِغَيْرِهَا جَهَلَا
النَّاسُ فِيمَا تُحِبُّهُ فِرَقٌ
مَا مِنْهُمْ مِنْ لَشَأْنِهِ عَقَلَا
فَكَمْ يُرَاعِي وَكَمْ يُرَاعِ لَقَدْ
جَارَ عَلَيْهِ الْغَرَامُ مُذْ عَدَلَا
طَالَ نَزَاغُ الْعُزُولِ فِيهِ كَمَا
طَالَ نَزَاغُ الْفُؤَادِ فَاعْتَدَلَا
مَا بَالُ قَلْبِي وَشَأْنُهُ عَجَبٌ
أَمَالُهُ الْوَجْدُ حِينَ قُلْتُ سَلَا
إِنَّ مِنَ الْعَذْلِ دَائِمًا جَدَلَا
لَيْسَ يَرَى فِي الْهَوَى بِهِ جَدَلَا
يَا صَاحِبَ الصَّدَقِ نَهْضَةً عَرِفْتُ
مِنْكَ فَقَدْ رُمْتُ حَادِثًا جَلَلَا

يا بن عُبَيْدِ عَيْبِكَ الدَّنْفُ الـ
 مُشْتاقٌ حَقَّقَ لَهُ بِكَ الْأَمَلَا
 مَا لِي عِزٌّ إِلَّا بِجُودِ يَدِ
 مِنْكَ كَحَالِ السَّحَابِ إِنْ هَطَلَا
 يَا مَنْ غَدَا بِاهْتِمَامِهِ بَطَلَا
 بِغَيْرِ مَا حَقُّ مِنْهُ أَوْ بَطَلَا
 مَذْ عُدِمَتْ عَيْنِي لَهُ مَثَلَا
 أُرْسَلْتُ مَدْحِي بِجُودِهِ مَثَلَا
 لِأَنْظُمِ الْمَدِيحَ مِنْ دُرِّ
 لَمْ تَدْرِ عَلَيْكَ بَعْدَهُ عَطَلَا
 الْيَوْمَ يَقْضِي الْكَرِيمُ مَوْعِدَهُ
 وَالْحَرَّ لَوْ قَالَ مَا عَسَى فَعَلَا

- مقطوعة: مِنْ سِحْرِ طَرَفِكَ يَا عَلِي:

مِنْ سِحْرِ طَرَفِكَ يَا عَلِي قَلْبُ الْمَتَيِّمِ قَدْ بُلِيَ
 يَا زَهْرَةَ يَا نُزْهَةً لِلْمُجْتَنِيِ وَالْمُجْتَلِيِ
 يَا مَنْ يَرُوقُ جَمَالُهُ لِنَوَاطِرِ الْمَتَأَمِّلِ
 إِنْ لَمْ تَجِدْ لِي بِاللِّقَا كُنْ بِالْوُعُودِ مُعْتَلِيِ
 يَا سَاكِنَا طُولَ الْمَدَى فِي الْقَلْبِ لَمْ يَتَحَوَّلِ
 أَهْلًا بِأَكْرَمِ نَازِلٍ قَدْ حَلَّ أَشْرَفَ مَنْزِلِ

— مقطوعة: عجباً وطرفك للدماء محلل:

عجباً وطرفك للدماء محلل
لِدَوَامِ تَوَلَّكَ الَّتِي لَا تَعْدِلُ
وَإِذَا أَتَى خَطُّ الْعِذَارِ مُجَدِّدًا
لَكَ فِي الْوَلَايَةِ يَا ثَرَى مِنْ يَعْزِلُ
لَا مَ الْعَذُولُ عَلَى هَوَاكَ جَهَالَةً
تَبَّأَ لَهُ أَعْلَى مِثَالِكَ يَعْزِلُ
فَعَلَيْهِ أَنْ يُبْذِيَ الْمَلَامَةَ جَاهِدًا
وَعَلَى الْمُحِبِّ بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ
يَا طَلْعَةَ الْقَمَرِ الَّذِي لَا أَتْنَنِي
عَنْ حُبِّهِ أَبَدًا وَلَا أَتَبَدَّلُ
شَخِصَ الْأَنَامِ إِلَى جَمَالِكَ وَأَنْتُنَا
عَنْهُ وَقَدْ أَتْنُو عَلَيْهِ وَأَجْمَلُوا
فَحَدِيثُهُمْ عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مُسْنَدٌ
وَحَدِيثُهُمْ عَنْ طَيْبِ رَيْفِكَ مُرْسَلٌ

— مقطوعة: يَقُولُ وَقَدْ رَأَى عَنْ لَحْظِ ظَنِّي:

يَقُولُ وَقَدْ رَأَى عَنْ لَحْظِ ظَنِّي
وَهَزَّ الْغَصْنَ فِي وَرْقِ الْغُلَّائِلِ

أَقْتُلْكُمْ بِطَرْفِي أَمْ بِعِطْ فِي
فَقُلْتُ بِمَا تَشَاءُ فَالْكُلَّ ذَابِلَ
سَلَامُ اللَّهِ مَا هَبَّتْ شِمَالُ
عَلَى تِلْكَ الْمَعَاطِفِ وَالشَّمَائِلِ

— قصيدة: بَانَ الْخَيْالُ وَإِنْ أَبَانَ نَزِيلًا:

بَانَ الْخَيْالُ وَإِنْ أَبَانَ نَزِيلًا
وسرى شذاك وإن منعت رسولاً
فهممتُ أَنْ أَجْفُو خِيَالَكَ غَيْرَةً
فَمَنَحْتُهُ قُبْلًا لَهُ وَقُبُولًا
وَحَفِظْتُ نِسْبَتَهُ إِلَيْكَ مَحَبَّةً
مِنْ ظَنِّهِ أَنِّي أُرَاكَ بَدِيلًا
وزعمتُ أَنَّ الْعَهْدَ لَيْسَ بِضَائِعٍ
وَأَرَى الصُّدُودَ لِضِدِّ ذَاكَ دَلِيلًا
وَوَعَدْتَنِي بِاللَّحْظِ مِنْكَ زِيَارَةً
فَوَجَدْتُ مِيعَادَ الْعَلِيلِ عَلِيلًا
لِلَّهِ عَيْسُكَ يَوْمَ حَنَّتْ لِلنَّوَى
لَمْ يُبْقِ مَطْلَقَهَا لَنَا مَعْقُولًا
بِنْتُمْ بِكُلِّ حَمُولَةٍ قَدْ أَوْدَعَتْ
قَلْبًا كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ حَمُولًا

كَمْ لَفْظَةٌ خَفَّتْ عَلَى الْحَادِي وَقَدْ
أَلْقَتْ جَوَى بَيْنِ الضَّلُوعِ ثَقِيلًا
يَا هَذَا لَمْ تَتْرُكْ جُفُونَكَ بِالْحِمَى
إِلَّا جَرِيحًا مِنْكَ أَوْ مَقْتُولًا
هَلْ أُوَدِّعْتُ لِأَبِي الْمَحَاسِنِ يُوسُفَ
فِيهِنَّ أَحْكَامٌ قُسِمْنَ فُصُولًا

— قصيدة: قَابَلْتُ عِزَّ هَوَاكُمُ بِتَذَلُّلٍ:

قَابَلْتُ عِزَّ هَوَاكُمُ بِتَذَلُّلٍ
مَعَ أَنَّنِي فِي ذَاكَ لَسْتُ بِأَوَّلِ
يَا جَائِرِينَ وَعَادِلِينَ إِلَى النَّوَى
مَا تُؤْنِ مَعْدِلِ حُسْنِكُمْ مِنْ مَعْدِلِ
وَحْيَاتِكُمْ أَنْتُمْ عَلَى إِعْرَاضِ
عِنْدِي أَعَزَّ مِنَ الشَّبَابِ الْمَقْبَلِ
إِنْ تَذَكَّرُونَ فَإِنِّي لَمْ أَنْسِكُمْ
أَوْ تَسْمَحُونَ فَإِنِّي لَمْ أَبْخُلِ
يَا عَلُوْا أَيْنَ زَمَانُنَا إِذَا جَارَكُمْ
جَارِي وَمَنْزَلَكُمْ بِرَامَةٍ مَنَزَلِي
مَا كَانَ أَسْرَعَ مَا تَقَشَّعَ غَيْمُكُمْ
وَمَنْعَتُمُ الْوَسْمِي عَنِّي وَالْوَلِي

كَمْ كُنْتُ أَخْشَى الْبَيْنَ قَبْلَ وَقُوعِهِ
فَأَتَى الَّذِي حَازَرْتُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ
وحذرتُ سهمَ فراقكم حتى إذا
أرسلتموه أصابني في مقتل
اليومَ لَسْتُ أَجَابُ بَعْدَ سُؤَالِكُمْ
كَمْ كُنْتُ قَبْلُ أَجَابُ إِذْ لَمْ أَسْأَلِ
فَالذَّارُ لَمْ تَبْعُدْ وفودي لَمْ يَشِبْ
والمالُ لَمْ يَنْفَدْ وَحُبُّكَ مَا سَلِيَ

— مقطوعة: كَمْ يَشَمْتُ بِي فِي حُبِّكَ الْعُدَّالُ:
كَمْ يَشَمْتُ بِي فِي حُبِّكَ الْعُدَّالُ
كم يكثرُ فيكَ القيلُ بي والقَالُ
الصَّبْرُ بِكُلِّ حَالَةٍ أَلْيَقُ بِي
أحتاجُ أداريكَ ويمشي الحالُ

— مقطوعة: هَاتِ قُلْ لِي كَمِ الْجَفَا وَالذَّلَالُ:
هَاتِ قُلْ لِي كَمِ الْجَفَا وَالذَّلَالُ
لَسْتُ مِمَّنْ يُمَسِّي لَدَيْهِ مُحَالُ
لو أردت الوصالَ ما صدَّكَ الوا
شي ولا رَدَّ عَزَمَكَ الْعُدَّالُ

أنا لي منك قسوةٌ وصدودٌ
ولغيري تعطفٌ ووصلُ
دع دلال الجمال وانصف وقل لي
أي شيءٍ من الصدودِ حلالُ
أنا ذاك الذي عهدت وإن حَا
لَ تجنيك بيننا والمَلالُ
يا كحيلَ الجفونِ لي فيكَ جفنُ
ما لهُ من سِوَى السُّهادِ اكْتَحَالُ

— مقطوعة: بأبي وما ملكت يدي من سمتهُ:
بأبي وما ملكت يدي من سمتهُ
وصلاً فلم يك لي إليه وُصولُ
يهوى الخلاف وقد هويتُ مقالَ لا
إذ لم يزلَ أبداً بفيه يَجُولُ

— قصيدة: حلت بإحشاء لها منك قاتِلُ:
حلت بإحشاء لها منك قاتِلُ
فهل أنت فيها نازلٍ أو مُنَازِلُ
أرى الليلَ مذ حُجبت ما حالَ لَوْنُهُ
على أنه بيني وبينك حائلُ

وَمَا كُنْتُ مَجْنُونًا هَوَى قَبْلَ أَنْ يُرَى
لِقَلْبِي مِنْ صُدْغَيْكَ فِي الْأَسْرِ عَاقِلٌ¹
وَلَوْلَا سِنَانٌ مِنْ لِحَاطِكَ قَاتِلٌ
لَمَا كُنْتُ أُنْذِرِي أَنْ طَرَفَكَ ذَابِلٌ
وَلَمْ لَا يَصِحُّ الْوَجْدُ فِيكَ وَنَاطِرِي
لِنَسْخَةِ حُسْنٍ مِنْ سَنَّاكَ يُقَابِلُ
وَلِي مَنْطِقٌ مِنْ نَحْوِ شَوْقِي أَطُولُهُ
بِعِلْمِ الْمَعَانِي مِنْ خِلَافِكَ شَاغِلُ
أَيْسَعِدْنِي يَا طَلْعَةَ الْبَرْ طَالِعُ
وَمِنْ شَقَوْتِي خَطٌّ بِخَدِّكَ نَازِلُ
بَخِلْتُ وَلَمْ تَسْمَعْ فَمَا مِنْكَ نَائِلُ
وَصَانَكَ إِعْرَاضٌ فَمَا لَكَ نَائِلُ²
وَلَوْ أَنَّ قِسَاً وَاصِفاً مِنْكَ وَجَنَةً
لَأَعْجَزَهُ نَبْتُ بِهَا وَهُوَ بَاقِلُ
وَلِي مِنْكَ عَرَفٌ مِنْ وَدَائِكَ عَاطِرُ
وَحَالِي مِنْ عِرْقَانٍ وَصَلِكَ عَاطِلُ³

¹ هذا البيت، والأبيات الثلاثة الموالية سقطت في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

² سقط هذا البيت في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

³ سقط هذا البيت في فوات الوفيات. بينما سقطت بقية الأبيات كلها في الوافي بالوفيات.

على كلِّ أمرٍ مِنْكَ عَوْنٌ فَرُبَّمَا
 يُعِينُ الَّذِي أُبْلِيَ بِمَا أَنْتَ فَاعِلٌ
 وَبِي سَاحِرٌ فِي اللَّحْظِ¹ لِلْخَدِّ حَارِسٌ
 وَذَائِلُ أَعْطَافٍ لِدَمْعِي بَازِلٌ²
 وَشَعْرٌ كَلِيلِي كَانَ طَوْلًا فَمَا لَهُ
 قَصِيرًا³ كَحَظِّي هَلْ لِدَاكَ دَلَالٌ
 نَعْمَ قَدْ تَنَاهَى فِي الظَّلَامِ⁴ تَطَاوُلًا
 ((وَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ))⁵

— مقطوعة: يَا أَقْتَلَ النَّاسِ الْحَاطَأَ وَأَعَذَّبَهُمْ:

يَا أَقْتَلَ النَّاسِ الْحَاطَأَ وَأَعَذَّبَهُمْ
 رِبْقًا مَتَى كَانَ فِيكَ الصَّابُّ وَالْعَسَلُ
 فِي صَحْنِ خَدِّكَ وَهِيَ الشَّمْسُ طَالَعَةٌ
 وَرَدُّ يَزِيدُكَ فِيهِ الرَّاحُ وَالْخَجَلُ

¹ في فوات الوفيات: ((باللحظ)).

² نفسه: ((بازل)).

³ نفسه: ((قصير)).

⁴ نفسه: ((في الغرام)).

⁵ عجز البيت هذا لأبي العلاء المعري؛ جاء فيه:
فَبَانَ كُنْتُ تَبْقَى الْعِزَّ فَايَغُ تَوْسَطًا فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ

إِيْمَانُ حُبِّكَ فِي قَلْبِي تُجَدِّدُهُ
مِنْ خَذِّكَ الْكَتَبُ أَوْ مِنْ لَحْظِكَ الرَّسُلُ
إِنْ كُنْتَ تَتَكَرَّرُ أَنِّي عَبْدُ دَوْلَتِكُمْ
مُرْنِي بِمَا شِئْتَ آتِيهِ وَأُمْتَثِلْ
لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَى قَلْبِي وَجَدْتَ بِهِ
مِنْ فِعْلِ عَيْنَيْكَ جُرْحًا لَيْسَ يَنْدَمِلُ

— مقطوعة: لِي مِنْ جَمَالِكَ شَاهِدٌ وَكَفِيلُ:

لِي مِنْ جَمَالِكَ شَاهِدٌ وَكَفِيلُ
أَنِّي عَنْ الْأَشْوَاقِ لَسْتُ أَحُولُ
يَا مَنْ تَقَاصَرَ لَيْلُهُ لِسُرُورِهِ
لَيْلِي كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ طَوِيلُ
غَادَرْتَنِي بِحَشَى تَذُوبٍ وَمَقْلَةٍ
عَبْرَى وَقَلْبٍ حَظُّهُ التَّعْلِيلُ
فِي كُلِّ جَفْنٍ لِلتَّسَهُدِ مَوْطِنُ
وَبِكُلِّ خَذٍّ لِلدُّمُوعِ مَسِيلُ

— مقطوعة: تَهْ كَيْفَ شِئْتَ فَلِلْحَبِيبِ تَدْلُلُ:

تَهْ كَيْفَ شِئْتَ فَلِلْحَبِيبِ تَدْلُلُ
وَلِصَبِّهِ الْمُضْنَى إِلَيْهِ تَدْلُلُ

واحكم بما ترضى فأنت أحق من
ملك الفؤاد يجوز فيه ويعدل
إني وإن عدلوا عليك وأطنبوا
لتزيد أشواقي إليك العذل
لكنني أبدي السلو تجملاً
للعاذلين وللمحب تجملاً
واليك أول ما انتنيت مع الهوى
إن الحبيب هو الحبيب الأول
يا من يصون عن العيون تحرزاً
حسناً عليه كل روح تبذل
كم ذا ألين وتعتريك قساوة
والأم أسمح بالوصال وتبخل
يا معين الآمال أين لعاشق
كلف بحبك عن جمالك معدل

— مقطوعة: مذ رأته الشمس في الحمل:

مذ رأته الشمس في الحمل
لم تكذبو من الخجل
غصن بان مثمر قمرأ
يخجل الأغصان بالميل

وَرَدُّ خَدَّتَيْهِ يُضَرِّجُهُ
خَجَلٌ مِّنْ نَّرَجَسِ الْمَقْلِ
وَسَوَى ذَا أَنْ مَبْسَمُهُ
جَامِعٌ لِلْخَمْرِ وَالْعَسَلِ
مَنْ مُجِيرِي مَنْ لَوَاحِظُهُ
إِنِّي مِنْهَا عَلَى وَجَلِ
كُلَّمَا سَلَّتْ صَوَارِمُهَا
قَالَ قَلْبِي قَدْ دَنَا أَجَلِي

— مقطوعة: طالت إليك رسائلي ووسائلي:

طالت إليك رسائلي ووسائلي
يا ذا الملاحاة والعذار السائلِ
أنجز بوصلي منك لي فإلى متى
يَا نُورَ عَيْنِي بِالْوُعُودِ مُمَاطِلِي

— مقطوعة: يا ذا الذي نام عن جفوني:

يا ذا الذي نام عن جفوني ونبه الوجد والجوى لي
جَفُونِي¹ خَرَّاجِيَّةُ دُمُوعٍ شَوْقاً إِلَى وَجْهِكَ الْهَلَالِي

¹ في نص: ((جفني)).

— مقطوعة: بِمُهْجَتِي سُلْطَانَ حُسْنِ غَدَا:

بِمُهْجَتِي سُلْطَانَ حُسْنِ غَدَا يَجُورُ فِي الْحَبِّ وَلَا يَعْدِلُ
يَا عَاشِقِيهِ إِحْذَرُوا¹ صُدْغِيهِ فَهُوَ الْحَشِيشِيُّ الَّذِي يَقْتُلُ

— مقطوعة: قُلْتُ لِلْإِثْمِ فِي الدَّمْعِ:

قُلْتُ لِلْإِثْمِ فِي الدَّمْعِ عِ وَقَدْ نَمَّ بِحَالِي
مَنْذُ أَحْبَبْتَ عَلِيًّا صَارَ دَمْعِي مُتَوَالِي

— مقطوعة: مَا نَاحَ عَلَى الْغُصُونِ فِي الدُّوْحِ حَمَامٌ:

مَا نَاحَ عَلَى الْغُصُونِ فِي الدُّوْحِ حَمَامٌ
إِلَّا وَلَقِيتُ مِنْكَ بِالشَّوْقِ حَمَامٌ
فَارْحَمْ دَنِفًا قَدْ زَادَهُ الْبُعْدُ سِقَامٌ
لَا يَعْرِفُ مَذْ هَجْرَتُهُ طَعْمَ مَنَامٍ

— مقطوعة: صَبَوْتُ إِلَى الصَّبَابَةِ وَالْغَرَامِ:

صَبَوْتُ إِلَى الصَّبَابَةِ وَالْغَرَامِ
وَوَدَّعَ نَاطِرِي طَيْبَ الْمَنَامِ

¹ فِي الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ: ((حَازِرُوا)).

وَسَامَ الْقَلْبَ مِنْ أَوْلَادِ سَامٍ
غَزَالَ طَرْفَهُ مِنْ آلِ حَامٍ
يَرِينِي الْمَوْتَ فِي سَيْفٍ وَرَمَحٍ
مُقِيمٍ فِي اللَّوَاظِظِ وَالْقَوَامِ
جَعَلْتُ تَصْبُرِي عَنْهُ وَرَائِي
وَصَيَّرْتُ الْغَرَامَ بِهِ أَمَامِي
فَهَلْ لِي مُسْعِدٌ فِي الْحُبِّ يَرْتِي
لَمَّا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمِ السَّقَامِ

— مقطوعة: العاذل قد عنف في الحب ولام:

العاذل قد عنف في الحب ولام مذ عاين قد بدا على خدك لام
يا بدر دجى قدمت في عشقه الهجر حلال منك والوصل حرام

— مقطوعة: أيرعى في محبتكم ذمام:

أيرعى في محبتكم ذمام ويغفل في رعيته الغرام
وينصف ظالمنا ومنكم ولا قلنا ولا سمع الأنام
ويرجع عيشنا الماضي وتدنو خيانم للوصل لها ختام
ويصدق منكم وعد مقالا ويحوي من له ... مقامد
ويسفر عن ثأيا الدرر ظلم يرى حسا - وحبك - المدام
فإننا خبرتنا عن رضاكم أمانينا بأنكم كرام

وأقمارٌ تضيءُ لكلِّ سارٍ لَهَا من نُورِ حُسْنِكُمْ تَمَامُ

— مقطوعة: ولي واحدٌ ما زالَ باثنين مغرماً:

ولي واحدٌ ما زالَ باثنين مغرماً

على واحدٍ ما زالَ باثنينِ مُغرَماً

رأى جسدي والدَّمْعَ وَالْقَلْبَ والحسَى

فأضنى وأفنى واستَمَالَ وتيمَّما

— مقطوعة: وذِي ثَنَاءٍ لم تَدَعْ عاشِقاً:

وذِي ثَنَاءٍ لم تَدَعْ عاشِقاً

إلا عصى في حبها من يُلوم

كم بت أرعى في لَمَى ثغرها

وشيمةُ العاشقِ رعى النجوم

— مقطوعة: بأبي أفدي حبيباً:

بأبي أفدي حبيباً تيمَّ القلبَ غراماً

عَذَرَ العاذِلُ فيه مُذْ رأى العارضَ لاما

— قصيدة: أحلى الهوى أن يطول الوجدُ والسقمُ:

أحلى الهوى أن يطول الوجدُ والسقمُ
وأصدق الحب ما جلت به التهمُ
ليت الليالي أحلاماً تعودُ لنا
فربُّما قد شفى داء الهوى الحلمُ
لا آخذ الله جيران النقا بدمي
هم أسلموني لوجدٍ منه قد سلموا
وحرّموا في الهوى وصلي وما عطفوا
وحلّلوا بالنوى قتلي وما رحموا
وفيتهم حقّ حفظ العهد مغتبطاً
بهم وما رعى لي عندهم ذممُ
يا غائبين ووجدي حاضرٌ بهم
وعائنين وذنبي في الغرام همُ
لا أوحشت منكم داراً بكم شرفتُ
ولا خلّت من معالي حُسْنِكُمْ خيمُ
بنتم فلا طرف إلا وهو مضطربُ
شوقاً ولا قلب إلا وهو مضطربُ
فكلُّ أرضٍ وطنتُم تربّها فلكُ
وكلُّ وادٍ حلتُم ربّعه حرمُ

هل عائدٌ - والأمانى قلما صدقتُ -

دَهْرٌ مَضَى وَمَغَانِي حُسْنِكُمْ أُمَمٌ

فَالجِسْمُ مَذْغِبْتُمْ بِالسَّحْرِ مُتَشَحٌّ

وَالْقَلْبُ مُضْطَرَبٌ بِالشَّوْقِ مُضْطَرِمٌ

لَمْ يُنْسِنَا سَالِفًا مِنْ عَهْدِكُمْ قَدَمٌ

وَلَا سَعَتٌ بِالتَّسْلِي نَحُونَا قَدَمٌ

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ رَكْبًا فِي هَوَاجِهِمْ

مُحَجَّبٌ لَيْسَ تُرْعَى عِنْدَهُ الذَّمُّ

لَهُ مِنَ الْغَصَنِ قَدْ زَانَهُ هَيْفٌ

وَمِنْ غَزَالِ الْحَمَى طَرَفٌ بِهِ سَقَمٌ

يَبِيتُ قَلْبِي عَلَيْهِ حَرْقَةٌ وَجَوَى

وَقَلْبُهُ بَارِدٌ مِنْ لَوْعَتِي شَبِمٌ

ظَلَلْتُ فِيهِ وَأَمْسَى قَلْبُهُ حَجْرًا

لَمْ يَشْفِ قَطُّ مُحِيًّا شَفَاءُ أَلَمٌ

فَوَا الَّذِي زَانَهُ مِنْ طَرَفِهِ سَقَمٌ

وَأودَعَ السَّحَرَ فِيهِ أَنَّهُ قَسَمٌ

لَوْلَا تَنَنِي رَدِينِي الْقَوَامُ بِهِ

حَلَفْتُ أَلْفَ يَمِينٍ أَنَّهُ صَنَمٌ

— مقطوعة: لله كِفْتِي أَطَاعَ صَبَابَتِي:

لله كِفْتِي أَطَاعَ صَبَابَتِي
فيه الفؤادُ وَخَالَفَ اللُّوَامَا
مَدَّ الشَّرِيطَ عَلَى الْحَدِيدِ فَخِلْتُهُ
قَمَرًا يُطَرِّزُ بِالْبُرُوقِ غَمَامَا

— مقطوعة: مَا رَأَيْنَا ضَرْبَةَ مَنْ صَارِمٍ:

مَا رَأَيْنَا ضَرْبَةَ مَنْ صَارِمٍ
يَوْمَ حَرْبٍ نَكَسَتْ أَلْفَ عِلْمٍ
بَلْ رَأَيْنَا مَشَقَّةَ مَنْ كَاتِبٍ
فِي سِجِلٍّ كَسَرَتْ أَلْفَ قَلَمٍ

— مقطوعة: مِنَ الْخِلَافِ وَاللُّوْفَاقِ مَسَائِلًا:

مِنَ الْخِلَافِ وَاللُّوْفَاقِ مَسَائِلًا
وِخْصَائِلًا أَوْ لِلْعُلَى لَوْلَاكُمْ
حَسْبُ الْمُرْجِي فِي الْمَعَادِ شَفَاعَةٌ
مِنْكُمْ وَمِنْ قَبْلِ الْمَعَادِ نَدَاكُمْ
لَوْ أُطْلِقَ اسْمُ النَّيِّرَاتِ مَا سَرَى
ذَهْنُ الَّذِي هُوَ سَامِعٌ لِسِوَاكُمْ

أَوْ كَانَ وَحْيٌ بَعْدَ أَحْمَدَ مَرْسَلٌ
لَبَدْتُ لَكُمْ آيٍ بِهِ وَعَلائِمُ
تَتَسَابِقُ الْأُذْهَانُ فِي إِدْرَاكِكُمْ
وَيَفُوتُ أَسْبَقُهَا أَقْلٌ مَدَاكُمْ
عُثْمَانُ جَدَّكُمْ وَذَلِكَ حَسْبُهُ
وَكَفَى وَذَلِكَ حَسْبُكُمْ وَكَفَاكُمْ
لَا أُوحِشَتْ شَمْسُ الشَّرِيعَةِ مِنْكُمْ
فَبَقَاوُهَا مُتَعَلِّقٌ بِبِقَاكُمْ

— قصيدة: لَوْ أَنَّ قَلْبَكَ لِي يَرْقُ وَيَرْحَمُ:
لَوْ أَنَّ قَلْبَكَ لِي يَرْقُ وَيَرْحَمُ
مَا بَتُّ مِنْ خَوْفِ الْهَوَى أَتَأَلَّمُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّنِي وَالسُّهُمُ لِي
مِنْ نَاطِرِيكَ وَفِي فُؤَادِي أَسْهُمُ
ذَارَيْتُ أَهْلَكَ فِي هَوَاكَ وَهُمْ عَدَى
وَلَأَجَلَ عَيْنٍ أَلْفَ عَيْنٍ تُكْرَمُ
يَا جَامِعَ الضَّئِينَ فِي وَجَنَاتِهِ
مَاءٌ يَشْفُ عَلَيْهِ نَارٌ تُضْرَمُ
عَجَبِي لَطَرَفِكَ وَهُوَ مَاضٍ لَمْ يَزَلْ
فَعَلَامَ يَكْسُرُ عِنْدَمَا تَتَكَلَّمُ

أَمِنَ المَرْوَةَ وَالتَّوَاصِلَ مُمَكِّنٌ
وَالدَّهْرُ يَسْمَحُ وَالْحَوَادِثُ نُومٌ
أَنِي أَرْوَحُ وَسَلْبُ رَدِّي فِي الْهَوَى
قَدْ حَلَّ وَالْإِجَابُ مِنْكَ مُحَرَّمٌ
وَابَيْتُ مَبْذُولَ الدُّمُوعِ مُعَذِّباً
كَلِيفاً وَأَنْتَ مُنْعَعٌ وَمُنْعَمٌ
يَا مُتَهَمًا قَلْبِي بِسَلْوَةٍ حُبِّهِ
هِيَهَاتَ يَنْجِذُهُ وَأَنْتَ الْمُتَهَمُ

— مقطوعة: قُولُوا لِرِسَالِكُمْ:

قُولُوا لِرِسَالِكُمْ بِكَ الْفُؤَادُ مُغْرَمٌ
قَالُوا مَتَى تُذِيبُهُ فَقُلْتُ حَتَّى يَرْسُمُ

— قصيدة: حَدِيثُ غَرَامِي فِي هَوَاكَ قَدِيمٌ:

حَدِيثُ غَرَامِي فِي هَوَاكَ قَدِيمٌ
وَفَرَطُ عَذَابِي فِي هَوَاكَ نَعِيمٌ
بِمَتِ شَيْتُ عَذْبٍ غَيْرِ سُخْطِكَ إِنَّهُ
— وَصَدَّقْ وَلَائِي فِي هَوَاكَ — أَلِيمٌ
تَمَنَّاكَ الْأَسْوَاقُ وَهَمًّا لَخَاطِرِي
فَيُنْزِكُنِي بِالْخَوْفِ مِنْكَ وَجُومٌ

وَتَقْنَعُ مِنْكَ الرُّوحُ لِمَحْ تَوْهَمُ
 فَتَحْيَا بِهَا الْأَعْضَاءُ وَهِيَ رَمِيمُ
 هَنِيئًا لَطَرَفٍ فِيكَ لَا يَعْرِفُ الْكَرَى
 وَتَبَّأَ لِقَلْبٍ فِيكَ لَيْسَ يَهِيْمُ
 وَلَمَّا جَلَاكَ الْفُكْرُ - يَا غَايَةَ الْمُنَى -
 فَظَلَّ بِقَلْبِي مُقْعِدٌ وَمُقِيمُ
 وَمَا الْكَوْنُ إِلَّا صُورَةٌ أَنْتَ رُوحُهَا
 وَجِسْمٌ بَغِيرِ الرُّوحِ كَيْفَ يَقُومُ
 تَوْهَمَ صَحْبِي أَنْ بِي مَسُّ جِنَّةٍ
 وَأُنْكَرُ حَالِي صَاحِبٌ وَحَمِيمُ
 فَبُخْتُ بِمَا أَلْقَاهُ مِنْكَ مُصْرَحًا
 وَمَا نَالَ لَذَاتِ الْغَرَامِ كَثُومُ
 أَغْصَنَ النَّقَا إِنِّي أَغَارُ إِذَا غَدَا
 يُلَاعِبُ عَطْفِيكَ الرَّشَاقَ نَسِيمُ
 وَلَمَّا بَدَّتْ فِي طَوْرِ خَدِّكَ جَنُودُ
 وَلاَحَتْ لِقَلْبِي عَادَ وَهُوَ كَلِيمُ
 يَلْذُ لِقَلْبِي فِي هَوَاكَ عَذَابُهُ
 وَلَمْ لَا وَبِالْأَحْوَالِ أَنْتَ عَلِيمُ
 يَمِينًا بِأَصْوَاتِ الْحَجِيحِ عَلَى مَنَى
 وَصَحْبٍ لَهُمْ بِالْمَازَمِينَ زَمِيمُ

لَأَنْتَ وَإِنْ أَصْبَحْتَ بِالْوَصْلِ بِاخِلًا
عَلَيَّ احْتِقَارًا بِي لَدَيَّ كَرِيمٌ
وَيَا شَرْفِي لَمَّا غَدَوْتَ وَلِلْهَوَى
عَلَى جَسَدِي الْمُضْنَى النَّحِيلِ رُسُومٌ
وَيَا سَائِقًا يُضْنِي الرِّكَائِبَ طَلْحًا
لَهَا فِي الرُّسُومِ الْمُقْفَرَاتِ رَسِيمٌ
إِذَا عَايَنْتُ عَيْنَاكَ بَارِقَ أَبْرِقِ
يَلُوحُ كَمَا فِي الْأَفُقِ لَاحُ نُجُومٍ
وَبَاحَتْ بِأَسْرَارِ الرُّبَا نَسْمَةُ الصَّبَا
وَعَطَّرَ أَقْطَارَ الْفَقَارِ شَمِيمٌ
وَعَايَنْتُ سَلْعًا قِفَ وَسَائِلَ أَحْيَايَ
فَهَذَا الَّذِي أَصْبَحْتُ مِنْكَ أَرُومٌ
فَتَمَّ رَشَاءُ شَوْقِي إِلَيْهِ مُبْرَحٌ
وَرِيمُ فُؤَادِي عَنْهُ لَيْسَ يَرِيمُ
أَغَالِطُ عَنْهُ بِالْكَلامِ مُجَالِيسِي
وَفِي الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِي سِوَاهُ كُلُّومٌ
لَهُ مِنْ سُودَاءِ الْفُؤَادِ مَعَاهِدٌ
وَبَيْنَ سَوَادِ الْمُقْلَتَيْنِ رُسُومٌ
وَقُلْ يَا غَرِيبَ الْحُسْنِ رِقَّ لِنَارِحِ
غَرِيبَ لَهُ قَلْبٌ لَدَيْكَ مُقِيمٌ

تَرَحَّلَ عَنْهُ مُذْ تَرَحَّلْتَ نَافِرًا
فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى الْقُدُومِ قُدُومٌ
عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ كَتِيبِ مُتَيَّمٍ
تَظَلُّ سَلِيمًا وَهُوَ مِنْكَ سَلِيمٌ

— مقطوعة: ما ذاب سقاماً في الهوى لولاكم:

ما ذاب سقاماً في الهوى لو لاكم
ما أتلَفَ قلبه جوى إِلَّا كُمْ
مَا أَعْتَبَكُمُ مَا الذَّنْبُ وَاللَّهُ لَكُمْ
الذَّنْبُ لِإِنْسَانٍ غَدَا يَهْوَاكُمْ

— مقطوعة: يَا مَنْ شَغَلْتُ بِهِ سِرِّي وَأَوْهَامِي:

يَا مَنْ شَغَلْتُ بِهِ سِرِّي وَأَوْهَامِي
وَمَنْ لَمَغْنَاهُ إِنْجَادِي وَإِتهَامِي
وَمَنْ أَلْفَتْ رِضَاهُ الرَّحْبَ جَانِبُهُ
وَفُزْتُ مِنْهُ بِإِحْسَانٍ وَإِنْعَامٍ
لَمْ أُنْسَ أَقْدَامَكَ اللَّاتِي سَعَتْ وَمَشَتْ
بِهَنْ حِينًا عَلَى الْعُلْيَاءِ أَقْدَامِي
وَحَسَنَ أَيَّامَكَ الْغُرَّ الَّتِي حَسُنْتُ
بِهَا لَيَالِي مِنْ دَهْرِي أَيَّامِي

فما المدارسُ حتَّى كدَّرتْ نهلاً
وركتُهُ صافياً من بحرِ الطامي
وغيرت خلقاً ما زالَ يمنحني
بضاحكٍ من ثأيا الودِّ بسام
كن كيف شئت فداك الناسُ كلُّهم
فالناسُ كلُّهم في ظلك السَّامي

— مقطوعة: لا أجازي حبيبَ قلبي بظلمة:
لا أجازي حبيبَ قلبي بظلمة
أنا أحنى عليه من قلبِ أمّة
جوره مثل عدله عند من به—
واه ميّلي وظلمه مثل ظلمة

— مقطوعة: فيا شعرة هل فيك ليلى ينقضي:
فيا شعرة هل فيك ليلى ينقضي
ويّا صُبْحَهُ هل فيك صُبْحِي بِاسْمٍ
ويّا طَرْفَهُ كَيْفَ السَّبِيلُ لِمُغْرَمٍ
عليك إلى وصلٍ وسفكٍ صارمٍ
تحكم بما تهوى فما أنا مائلٌ
ولا عنك يُثْنيني من الوجدِ لائمٌ

وَلِي مُقَلَّةٌ قَدْ أَمْطَرَ الشُّوقُ سَحْبَهَا
فَفِي دَمْعِهَا حَتَّى تَرَائِمْ تَرَائِمْ

— مقطوعة: لَاعَبْتُ بِالْخَاتِمِ إِنْسَانَةً:

لَاعَبْتُ بِالْخَاتِمِ إِنْسَانَةً
كَالْبَدْرِ فِي جُحِ الدُّجَى الْفَاحِمِ
حَتَّى إِذَا مَا رُمْتُ أَخَذِي لَهُ
مَنْ الْبَنَانِ التَّرْفِ النَّاعِمِ
خَبْتُهُ فِي فِيهَا فَقُلْتُ انْظُرُوا
قَدْ خَبَّتِ الْخَاتِمُ بِالْخَاتِمِ

— مقطوعة: أَنَا مِنْ لَطْفِ مَزَاجِي:

أَنَا مِنْ لَطْفِ مَزَاجِي وَصَفَا رُوحِي وَجِسْمِي
دَائِرٌ بَيْنَ النَّدَامَى وَالتَّثَامِ الثَّغْرِ رَسْمِي

— مقطوعة: لَمَّا سَمِعْتُ بِفَضْلِ جُودِكُمْ:

لَمَّا سَمِعْتُ بِفَضْلِ جُودِكُمْ
وَبِمَا يَرَامُ مِنَ النَّدَى مِنْكُمْ
وَأَفَيْتُ أَطْرُقُ بَابَ فَضْلِكُمْ
فَتَصَدَّقُوا دُفْعَ الْبَلَاءِ عَنْكُمْ

— مقطوعة: وافى وواصلَ عِنْدَمَا:

وافى وواصلَ عِنْدَمَا

أَجْرَى المَدَامِيعَ عِنْدَمَا

وَرَنَا إِلَيَّ فَسَلِّمًا

لِلوَجْدِ قَلْبِي سَلِّمًا

وَتَنَى القَوَامَ فَهَزَمًا

لجِيُوشِ صَبْرِي هَزَمًا

وَحَمَى مَرَّاشِفِ ثَغْرِهِ

أَرَأَيْتُمْ بَرَقَ الحِمَى

— قصيدة: عَفَا اللهُ عَنْ قَوْمٍ عَفَا الصَّبْرُ مِنْهُمْ:

عَفَا اللهُ عَنْ قَوْمٍ عَفَا الصَّبْرُ مِنْهُمْ

فَلَوْ زُمتْ نَكَرَى غَيْرَهُم خَانَنِي الْفَمُ

تَجَنُّوا كَأَن لَّا وَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُم

قَدِيمًا وَحَتَّى مَا كَانَهُمْ هُمُ

فَأَعْظَمُ وَصَلًا مَنْ يُشِيرُ بِطَرْفِهِ

إِلَيَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مَنْ يَسْلَمُ

وَبِالْجَزَعِ أَحْبَابٌ إِذَا مَا نَكَرْتَهُم

شَرِقتْ بِدَمْعٍ فِي أَوَاخِرِهِ دَمُ

أَلَمْ وَمَا فِي الرَّكْبِ مِنْ مُتَيَّمٍ
وَعَادَ وَمَا فِي الرَّكْبِ إِلَّا مُتَيَّمٌ
وَلَيْسَ الْهَوَى إِلَّا التَّفَاتَةُ طَامِحٍ
يُرُوقُ لِعَيْنِيهِ الْجَمَالُ الْمُنْعَمُ
خَالِيٍّ مَا لِلْقَلْبِ هَاجَتِ شُجُونُهُ
وَعَاوَدَهُ دَاءٌ مِنَ الشَّوْقِ مُؤْلَمٍ
وَمَا رَاعَهُ إِلَّا لِأَمْرِ غَرَامِهِ
وَلَا اعْتَادَهُ إِلَّا هَوَى مُتَقَدِّمٍ
أَظُنُّ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْهَا قَرِيبَةً
وَالْإِفْمِنْهَا نَفْحَةً تَنْتَسِمُ

— مقطوعة: يَا حَبَّذَا طَيْفُكَ مِنْ قَادِمٍ:

يَا حَبَّذَا طَيْفُكَ مِنْ قَادِمٍ
يَا أَحْسَنَ الْعَالَمِ فِي الْعَالَمِ
طَيْفٌ تَجَلَّى نُورُهُ سَاطِعاً
حَتَّى رَأَتْهُ مَقْلَةً النَّائِمِ
يَا غَائِباً يَحْكُمُ فِي مُهْجَتِي
عَلَيَّ طَالَتْ غَيْبَةُ الْحَاكِمِ
عَارِزٌ عَلَى حُسْنِكَ أَنْ أَشْكِي
حَظِي مِنْهُ أَنَّهُ ظَالِمِي

— مقطوعة: هذا الذي أنا قد سمحتُ لحبه:

هَذَا الَّذِي أَنَا قَدْ سَمَحْتُ لِحُبِّهِ

كِرْمًا بِلَوْلُؤِ دَمْعِي الْمُنْتَظَمِ

لَا تَحَرِّمُونِي ضَمًّا أَسْمَرَ قَدَّهُ

لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَّا بِمُحَرَّمٍ

— مقطوعة: يا ذا الذي يروي الحديث:

يَا ذَا الَّذِي يَرْوِي الْحَدِيثَ — تَ وَلَيْسَ يُرْوَى بِالْقَدِيمِ

عِنْدِي مُدَامُ نَهَارِهَا عِنْدِي كَجَنَّاتِ النَّعِيمِ

وَلَقَدْ شَرِبْتُ حَبَابَهَا فِي عَقْدِ كَاسَاتِ النُّظِيمِ

فَانْهَضْ إِلَيَّ بِهِمَّةٍ نَخْلِي حَشَاكَ مِنَ الْهُمُومِ

أَحْلَى مُدَامٍ قَدْ طَلَبَ — تَ لَشْرِبِهَا أَحْلَى نَدِيمِ

— قصيدة: الدَّمْعُ هَامٌ وَالْحَشَا هَائِمٌ:

الدَّمْعُ هَامٌ وَالْحَشَا هَائِمٌ

وَالْجَفْنُ دَامٌ وَالْجَوَى دَائِمٌ

يَا مَنْ خَلَا مِنْ حُسْنِهِمْ نَاطِرِي

فِي الْقَلْبِ مَغْنَاكُمْ وَمَعْنَاكُمْ

وَاللَّهُ مَا سَارَتْ بِأَرْضِ الْحَمَى

رَكَابُنَا إِلَّا ذَكَرْنَاكُمْ

ولا سرت من نحوهِ نَسْمَةً
 إِلَّا عَرَفَاهَا بَرِيًّاكُمْ
 سَقَى لِيَالَيْنَا عَلَى حَاجِرٍ
 غَيْثٌ وَحَيَّاهَا وَحَيَّاكُمْ
 لِيَالِيَا بِالْوَصْلِ قَضَيْتُهَا
 مَا كَانَ أَخْلَاهَا وَأَخْلَاكُمْ
 أَحْبَابُنَا مَا الْجَزَعُ مَا الْمُنْحَى
 مَا رَامَهُ مَا الشَّعْبُ لَوْلَاكُمْ
 مَا قَامَ هَذَا الْكَوْنُ إِلَّا بِكُمْ
 وَلَا الْوُجُودُ الْمَحْضُ إِلَّا كُمْ
 وَلِي بِجَرَءِ الْحِمَى شَادِنٌ
 بِقَتْلِ أَرْبَابِ الْهَوَى عَالِمٌ
 مَا الْقَلْبُ عَنْهُ فِي الْهَوَى مَائِلٌ
 وَلَا لَهُ فِي حُبِّهِ لَائِمٌ
 يَصْرُمُ حَبْلَ الْوَدِّ مَنْ مُنْصِيفِي
 مَنْ صَارِمٍ فِي لَحْظِهِ صَارِمٌ
 أَشْكُو إِلَيْهِ مِنْهُ مَا أَلْتَقِي
 وَيَلَاهُ مِنْ خَصْمٍ هُوَ الْحَاكِمُ

— قصيدة: وافى وأرواح العذيب نواسم:

وافى وأرواح العذيب نواسم
والليل فيه من الصباح مباسم
أهلاً بمن أسرى به وعدّ له
متأخراً وهوى لنا متقادِم
قد كنت أقنع عند رؤيته بما
يَهْنِيهِ في التأويب طيف قادم
غض الشبيبة والملاحة يغذُر الـ
مُضني به ويلام فيه اللائم
النضر من أعطافه وكنانة
بلحاظه ولمهجتي هو هاشم
فرع به أصل الصبابة هل ترى
بالقرب منه لجمع شمل ناظم
وتواظِر هُنَّ الذوايل لو ترى
من قال حين فتكن هُنَّ صوارِم
أمعنين على الغرام وقَلَّما
يُصْنَعِي لأوهام العواذل هائم
هو ناظِر متعشّق وجوانح
فيها مواطن للجوى ومعالِم

وَهَوَىٰ لِقَلْبِي غَارِمٌ أَنَا غَارِمٌ
صَبْرِي بِهِ وَأَخُو الْمَلَامَةِ رَاغِمٌ
هَيْهَاتَ أَنْ أَتِي عَنَانِي وَالصَّبَا
غَضَّ وَغَضَّنُ الْعُمُرِ رَطْبٌ نَاعِمٌ
أَوْ اشْتَكِي حَالِي وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ
أَبْدَأَ لِإِخْلَافِ الْقُبُولِ مُلَازِمٌ
أَوْ أَخْتَشِي خُطْبًا أَرَاهُ بَيِّنَةً
وَبَهَا بِهَاءِ الدِّينِ يُوسُفُ حَاكِمٌ
يَا خَيْرَ مَنْ نِيَطَتْ عَلَيْهِ لِلْعُلَى
وَمَنْ الْمَهَابَةِ وَالْجَلَالِ تَمَائِمٌ
مَا كَانَ قَبْلَكَ مِنْ كَرِيمٍ يُرْتَجَى
سِوَى مِنْهُ وَلَا وَلَدَتْ سِوَاكَ أَكَارِمٌ
لَكِنْ تَجَسَّمْ قَبْلَ خَلْقِكَ جُودَكَ الْـ
بَادِي وَسَمَاءُ الْبَرِّيَّةِ حَاتِمٌ
حَاشَا لِعِزْمِكَ أَنْ تَقُومَ لِهَمَّةٍ
وَالدَّهْرُ عَنْ إِيْتَامِهَا لَكَ نَائِمٌ
أَوْ أَنْ تُلَوِّحَ وَلَيْسَ يَخْفَى عَاقِلٌ
أَوْ أَنْ تَقُولَ وَلَيْسَ يَخْرُسُ عَالَمٌ
أَوْ أَنْ تَجُودَ وَلَيْسَ يَثْرَى مَمْلُوقٌ
أَوْ أَنْ تُشِيرَ وَلَيْسَ يَعْدِلُ ظَالِمٌ

أَبْنَى الزَّكِيِّ سُقَيْتُمْ وَوَقَيْتُمْ
وَبَقَيْتُمْ وَالْأَكْرَمُونَ فِدَاكُمْ
نَسَبٌ إِذَا مَا قِيلَ مَنْ هُوَ أَعْرَبْتُ
أَحْسَابُ أَعْرَابٍ لَكُمْ وَأَكَارِمُ

— قصيدة: إِذَا بَعْنُوا وَأَفُوكَ أَسْرَى وَإِنْ دَنُوا:

إِذَا بَعْنُوا وَأَفُوكَ أَسْرَى وَإِنْ دَنُوا
لِغَزْوِكَ وَافْتَهُمُ قَنًا وَصَوَارِمُ
وَلَا غَائِبٌ إِلَّا أَتَى وَهُوَ تَائِبٌ
وَلَا قَادِمٌ إِلَّا أَتَى وَهُوَ نَادِمُ
لَأَعْقَابِهِمُ بِالْبَيْضِ مِنْكَ مَعَانِقُ
لِغَيْرِ هَوَى فِيهِمْ وَبِالسُّمْرِ لَاتِمُ
تَقْتَحُ مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ شَقَائِقًا
عَلَيْهَا الدُّرُوعُ الضَّافِيَاتُ كَمَائِمُ
بِحَرْبٍ تَكُونُ الْبَيْضُ مِنْهَا بَوَارِقًا
نَجِيعُهُمْ فِيهَا الْغَيُومُ السَّوَاجِمُ
قَتْلُهُمْ بِالذُّعْرِ حَتَّى كَأَنَّمَا
تُحَارِبُهُمْ فِيهِ وَأَنْتَ مُسَالِمُ
وَقَدْ عَلِمَ الْأَعْدَاءُ أَنَّكَ إِنْ تَقَمُ
بِقَائِمٍ سَيَفِ فَهُوَ بِالنَّصْرِ قَائِمُ

إِذَا رُمْتُ أَنْ تَرْقَى إِلَى الْمَجْدِ سَلَامًا
صَعَدْتَ إِلَيْهِ وَصَعَا وَسَلَامًا
وَحَفَّ بِكَ الْجَيْشُ الَّذِي بِكَ نَصْرُهُ
وَمِنْكَ لَهُ إِقْدَامُهُ وَالْعَزَائِمُ
وَسَارَ بِبَيْدِرٍ مِنْ سَنَا وَجْهِكَ الَّذِي
بِهِ ظُلُمَاتٌ تَتَجَلَّى وَمِظَالُكُمْ
عَلَى الْأَعْوَجِيَّاتِ الْعِتَاقِ الَّتِي لَهَا
خَوَافِرُ لِلْهَامَاتِ مِنْهَا عَمَائِمُ
تَمْدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَجْيَادُهَا الَّتِي
كَأَنَّ لِحَى الْأَعْدَاءِ فِيهَا بَرَاكِمُ
سِهَامٌ عَلَى مِثْلِ السَّهَامِ تَبَسَّمَتْ
سَيُوفُهُمْ حَيْثُ الْوَجُوهُ سَوَاهِمُ
وَلَيْسَ بِنَاجٍ مِنْكَ جَانٍ بِجَرَمِهِ
إِذَا أُعْزِزْتُهُ مِنْ يَدَيْكَ الْمَرَاحِمُ
يَكْرَهُ بِمَا تَهْوَى الْجَدِيدَانِ فِي الْوَرَى
وَتَسْرِي بِمَا تَرْضِي الرِّيَّاحُ النَّوَاسِمُ
وَتَحْتَقِرُ الْفُرْسَانَ حَتَّى كَانَهُمْ
وَهُمْ بِهِمْ يَوْمَ الْهَيَاجِ بَهَائِمُ
وَتُعْطِي أَيْدِيكَ الَّتِي يَدُكَ احْتَوَتْ
وَلَوْ جَمَعْتَ فِي رَا حَتَيْكَ الْأَقَالِمُ

كَأَنَّكَ أُمٌّ وَالْأَنَامُ بِأَسْرِهِمْ
يَتَامَى وَبِعَلِّ وَالْأَنَامُ أَيْتَامُ
تَوْمُ رِمَاحُ الْخَطِّ بِيضُكَ فِي الْوَعَى
كَمَا قَابَلْتَ بِيضَ الْوُجُوهِ الْمَعَاصِمُ
وَتَغْضِي عَنِ الْفَحْشَاءِ لَا عَنْ جِهَالَةٍ
وَلَكِنْ لِمَعْنَى آثَرْتَهُ الْمَكَارِمُ
وَلِي مُدَحٌّ بِالْغَتِّ فِيهَا بِلَاغَةٌ
وَأُتْنِيتُ فِيهَا بِالَّذِي أَنَا عَالِمُ
وَلِي فِيكَ آمَالٌ عَلَيْكَ بُلُوغُهَا
فَلَا دَافِعَ دُونَ الَّذِي أَنْتَ حَاكِمُ
أَبْعَدُكَ يَحْوِي الْمَجْدُ مَنْ هُوَ فَاحِرٌ
وَبَعْدِي يَقُولُ الشُّعْرُ مَنْ هُوَ نَازِمُ
وَإِنَّ لِسَانِي ذُو الْفِقَارِ عَلَيْهِ
عَلَاكَ فَمَنْ مِثْلِي وَمِثْلَكَ غَانِمُ
أَجْرٌ وَأُجْزٌ وَاعْطِفْ وَأَعْطِ فَإِنَّمَا
يَخْصُ كَرِيماً بِالنَّوَالِ الْأَكَارِمُ

— مقطوعة: أَنَا كَاسٌ فِي كَيْسٍ:

أَنَا كَاسٌ فِي كَيْسٍ لِحَدِيثٍ أَوْ قَدِيمٍ
لَمَا أَزَلَ فِي كَفِّ سَاقٍ أَوْ عَلَى ثَغْرِ نَدِيمٍ

— قصيدة: لَيْتَ شِعْرِي مَنْ قَدْ أَحَلَّ الْخِيَامَا:

لَيْتَ شِعْرِي مَنْ قَدْ أَحَلَّ الْخِيَامَا

حَفِظَ الْعَهْدَ أَمْ أَضَاعَ الذَّمَامَا

عَرَبٌ بِالْحِمَى حَمُوا أَنْ يُسَامَ الْـ

وَوَصَلُ مِنْهُمْ وَعِزُّهُمْ أَنْ يُسَامَى

رَحَلُوا بِالْفُؤَادِ وَالطَّرْفِ لَكِنْ

رَجَعَ الطَّرْفُ وَالْفُؤَادُ أَقَامَا

حَمَلُوا بِالْبُعَادِ إِثْمًا وَزُورًا

وَحَمَلْنَا صَبَابَةً وَهِيَامَا

وَرَأَيْنَا تِلْكَ الْخُدُودَ رِيَاضًا

فَجَعَلْنَا لَهَا الْجُفُونَ غَمَامَا

وَأَطَعْنَا دَوَاعِي الْوَجْدِ فِيهِمْ

وَعَصَيْنَا الْوُشَاةَ وَاللُّوَامَا

أَيُّ صَبٍّ قَدْ غَادَرَ الْوَجْدُ مِنْهُ

مُسْتَقَرًّا بِقَلْبِهِ وَمَقَامَا

رَشَقَتُهُ الْعُيُونُ مِنْ أَسْهَمِ السَّخْـ

رٍ فَأَصْنَمَتْ فُؤَادَهُ الْمُسْتَهَامَا

فَهُوَ مِنْهُمْ بِابْنِ مُصْنَعٍ أَضْحَى

مُسْتَجِيرًا بِعَدْلِهِ أَنْ يُضَامَا

— مقطوعة: أفي مثلِ هذا الحُسنِ يُغذَّلُ مُغْرَمَ:

أفي مثلِ هذا الحُسنِ يُغذَّلُ مُغْرَمَ
لَقَدْ تَعِيبَ اللَّاحِي بِهِ وَالْمُنَيَّمُ
أَعِذْ نَظْرًا فِيهِ عَسَاكَ جَهْلَتُهُ
تَجِدْ مَا بِهِ تَشْقَى الْعُيُونُ وَتَتَنَعَّمُ
أَعِذْ مُحْيَاهُ إِذَا رُمْتُ إِنِّي
أُعِيدُ إِلَيْهِ نَاطِرًا يَتَوَسَّمُ
وَأَلْقَى سَنًا لَوْ كَانَ قَلْبُ حُرُوفِهِ
لِعَيْنِي بِهِ لَمْ يَشْكُ وَحُشَّتُهُ فَمُ

— مقطوعة: يَا مَنْ دَعَوْتُ لَهُ غَدَاةَ دَعْوَتِهِ:

يَا مَنْ دَعَوْتُ لَهُ غَدَاةَ دَعْوَتِهِ
فَأَبَى يُجِيبُ وَالصُّدُودِ عَلَائِمُ
قَصْدِي أَرَاكَ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّمَا
قَصْدِي أَخْبِرْ عَنَّا أَنْكَ سَالِمُ

— مقطوعة: إِمْنَعْ جُفُونَكَ أَنْ تُرِيقَ دَمِي:

إِمْنَعْ جُفُونَكَ أَنْ تُرِيقَ دَمِي
إِنْ الْجُفُونُ مِطْنَةٌ التَّهَمُ

وَأَيْنَ جَبِينِكَ تَتَّضِحُ طُرُقِي
وَأَمِطْ لِنَاثَمَكَ تَتَكَشِّفُ ظُلُمِي
يَا رَوْضَةَ أَجْنِي أَزَاهِرَهَا
بِاللَّحْظِ لَا بِيَدِي وَلَا بِفَمِي
مَالِي حُرْمَتٌ لَدَيْكَ وَصَلَاكَ فِي
أَيَّامِ هَذَا الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
لَوْ أَنَّ قُرْبَكَ يُبْتَغَى بِشِرَا
بَالِغَتْ فِيهِ بَأَنفَسِ الْقِيمِ

— مقطوعة: كَأَنَّنِي وَاللَّوَاحِي فِي مَحَبَّتِهِ:

كَأَنَّنِي وَاللَّوَاحِي فِي مَحَبَّتِهِ
فِي يَوْمِ صَفِينٍ قَدْ قَمْنَا بِصَفِينِ
وَكَيْفَ يَطْلُبُ صُلْحاً أَوْ مُوَافَقَةً
وَلَحْظُهُ بَيْنَنَا يَسْعَى بِسِيفَيْنِ

— مقطوعة: مُلْبِسِي مِنْ هَجَرِهِ ثَوْبَ الضَّنَى:

مُلْبِسِي مِنْ هَجَرِهِ ثَوْبَ الضَّنَى
وَمَذِيبِ الْقَلْبِ حُزْناً وَعَنَاءَ
فَبِمَنْ أَعْطَاكَ يَا كُلَّ الْمُنَى
قَامَةً تَزْرِي بِأَعْطَافِ الْقَنَا

ومحياً جلاً مَنْ صورهُ
مُجَلَّ البَذْرِ سَنَاءً وَسَنَاءً
يا مَلِيكَ الحَسَنِ كُن لي مُحَسِّناً
لا يَراكَ اللهُ إِلَّا مُحَسِّناً

— مقطوعة: يَا سَاكِنَا قَلْبِي الْمُعْنَى:
يَا سَاكِنَا قَلْبِي الْمُعْنَى
وَلَيْسَ فِيهِ سِوَاهُ¹ ثَانِي
لَأَيِّ مَعْنَى كَسَرْتُ قَلْبِي
وَمَا التَّقَى فِيهِ سَاكِنَانِ

— قصيدة: حَتَّامَ حَظِّي لَدَيْكَ حِرْمَانُ:
حَتَّامَ حَظِّي لَدَيْكَ حِرْمَانُ
وَكَمْ كَذَا جَفْوَةً وَهَجْرَانُ
وَأَيْنَ لَيَالٍ مَضَتْ وَنَحْنُ بِهَا
أَحِبَّةٌ فِي الْهَوَى وَجِيرَانُ
وَأَيْنَ وَدِّ عَهْدَتْ صِحَّتَهُ
وَأَيْنَ عَهْدٌ وَأَيْنَ أَيْمَانُ

¹ في النجوم الزاهرة: ((سواك)).

أَعَانَكَ الْهَجْرُ وَالصُّدُودُ عَلَى
قَتْلِي وَمَالِي عَلَيْكَ أَعْوَانُ
يَا غَائِباً عَاتِباً تَطَاوَلَ هـ
ذَا الْهَجْرُ هَلْ لِلدُّنُو إِمْكَانُ
قَدْ رَضِيَ الدَّهْرُ وَالْعَوَازِلُ
وَالْحَسَادُ عَنِّي وَأَنْتَ غَضْبَانُ
فَاسْتَلَمَ وَلَا تَلْتَقِيتَ إِلَى مُهَاجِرٍ
بِهَا جَوَى قَاتِلٍ وَأَشْجَانُ
وَنَمَ خَلِيَا وَقُلْ كَذَا وَكَذَا
مِنْ كُلِّ مَا أَطْلَعْتَ تِلْمِسَانُ

— مقطوعة: إِنَّ شَكُونَنَا لَهُ ظَمَانَا وَجَدْنَا:
إِنَّ شَكُونَنَا لَهُ ظَمَانَا وَجَدْنَا
مِنْهُ بِالرِّيِّ الْحَدِيثِ ضَمَانَا
مَا سَبَانَا لِيْنِ الْمَعَاطِفِ مِنْهُ
مُدُّ تَنْثَى إِلَّا وَقَدْ مَاسَ بَانَا

— مقطوعة: وَخَوِيٌّ لَهُ نَغَمٌ:
وَخَوِيٌّ لَهُ نَغَمٌ
يَحَارُ بِوَصْفِهِ الذَّهْنُ

فَيَا إِلَهَ نَحْوِي
جميعُ حديثه لحنٌ

— قصيدة: إِنْ تَبَيَّنُوا أَوْ تَثْنُوا:

إِنْ تَبَيَّنُوا أَوْ تَثْنُوا فُبُورٌ فِي غُصُونِ
أَوْ رَنُوا ظَنِّي كِنَاسٍ أَوْ سَطُولِيثَ عَرِينِ
مَزَجُوا الْوَصْلَ بِهَجْرٍ لِمَنَآيَا وَمُنُونِ
وَلَكُم بِالْهَجْرِ أَجْرُوا لَعِينٍ مِنْ عَيْوَنِي
حُبُّهُمْ رُوحِي وَرَاحِي وَهُوَ ثَنِيَايَ وَدِينِي
أَنَا لَا أَسْمَعُ عَذْلًا فِيهِمْ إِنْ عَذَلُونِي
الْأَمَانِي خَبَّرْتَنِي بِرَاهِمٍ عَنْ يَقِينِ
إِنَّهُمْ عَرَبٌ كَرَامٌ فِي هَوَاهِمٍ يُنْصَفُونِي
كَمْ أَضَلُّونِي بِشَعْرِ وَمَدُونِي بِجَبِينِ

— مقطوعة: لَا تَعْتَقِدُوا عِذَارُهُ الْفَتَّانِ:

لَا تَعْتَقِدُوا عِذَارُهُ الْفَتَّانِ
قَدْ وَشَحَّ وَرَدَّ الْخَدَّ بِالرَّيْحَانِ
ذَا خَالِقُهُ قَدْ خَطَّ فِي وَجْنَتِهِ
لَا مَا كَتَبْتَ بِالْقَلَمِ الرَّيْحَانِي

— مقطوعة: تَمْشَى بِصَحْنِ الْجَامِعِ الْيَوْمَ شَادِنٌ:

تَمْشَى بِصَحْنِ الْجَامِعِ الْيَوْمَ شَادِنٌ
عَلَى قَدِّهِ أَغْصَانُ بَانَ النَّقَا تُثْنِي
فَقُلْتُ وَقَدْ لَاحَتْ عَلَيْهِ حَلَاوَةٌ
أَلَا فَانْظُرُوا هَذِي الْحَلَاوَةُ فِي الصُّحْنِ

— مقطوعة: كَانَ بَعِيْثَيْنِ فَلَمَّا طَغَى:

كَانَ بَعِيْثَيْنِ فَلَمَّا طَغَى
بِسُخْرِهِ رُدُّ إِلَى عَيْنِ
وَذَاكَ مِنْ لَطْفٍ لِعِشَاقِهِ
مَا يَضْرِبُ اللَّهَ بِسَيْفَيْنِ

— مقطوعة: لَا طَلَّ صَوْبَ الْغَوَاذِي سَاحَتِي قَطْنَا:

لَا طَلَّ صَوْبَ الْغَوَاذِي سَاحَتِي قَطْنَا
وَلَا رَعَى اللَّهُ مَنْ فِي أَرْضِهَا قَطْنَا
مَا أَنْصَفُوا الْخَضِرَ الْبَانِي جَارَهُمْ
لَمَّا أَرَادَ بَأْنُ يَنْقُضَ حِينَ بَنَى
فَاسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا مُوسَى وَصَاحِبُهُ
فَلَمْ يَضِيفُوهُمَا شَيْئاً فَكَيْفَ إِنَّا

هجاهم الله في القرآن فاهجهم
والعنهم الذَّهْرَ واشكرْ كل من لعنا

— مقطوعة: ما نأح حمام الأيك في الأغضان:

ما نأح حمام الأيك في الأغضان¹
إلا وتزايدت بكم أشجاني
عودوا المعنى هجركم أسقمه
فالصَّبَّ بكم مضى كئيب عاني

— مقطوعة: بدوي كم جدلت مقاتلاه:

بدوي كم جدلت مقاتلاه
عاشقاً في مقاتل الفرسان
ذو محياً يصيح يا لِهلال
ولحافظ تقول يا لِسنان

¹ ((الأغضان))؛ بالضاد الموحدة الفوقية. ويبدو أن الشاعر تعمد وضعها هكذا؛ لإبراز قدراته اللغوية، وميلاً للغرابة والغموض. وإلا لكان من السهل عليه جعلها: "في الأغضان": بالصاد المهملة؛ وربما أعطت معنى أوضح وأجمل. و((الأغضان))؛ بالضاد: مفردها: الغِضَان؛ وجمعها: غِضُون؛ وليس أغضان كما ورد. وتعني: كل تجعد، أو تثني.

— مقطوعة: يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ الْوِصَالَ لِمُغْرَمٍ:

يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ الْوِصَالَ لِمُغْرَمٍ

يلوي ويقني موضعَ الهجرانِ

لا تظهرنَّ لي الودادَ تكلفاً

مَا الْآلُ مِثْلُ الْمَاءِ لِلظَّمَانِ

— مقطوعة: إِنِّي لَفِي كَنَفِ مَوْلَى جُودٍ رَاحِيهِ:

إِنِّي لَفِي كَنَفِ مَوْلَى جُودٍ رَاحِيهِ

كَمْ رَاحَةٌ وَصَلَتْ مِنْهُ لِإِنْسَانٍ

مَا أَسْكَنْتَنِي بِالْمَعْرُوفِ مِنْهُ يَدٌ

إِلَّا وَسَرَّحَ تَسْرِيحاً بِإِحْسَانٍ

— دوبيت: قَاسَيْتُ بِكَ الْغَرَامَ وَالْوَجْدَ سِنِينَ:

قَاسَيْتُ بِكَ الْغَرَامَ وَالْوَجْدَ¹ سِنِينَ

مَا بَيْنَ بُكَاءٍ وَحَنِينٍ وَأُنِينٍ²

أَرْضِيكَ وَمَا³ تَزْدَادُ إِلَّا غَضَباً

اللَّهُ كَمَا أَبْلَى بِكَ الْقَلْبَ يُعِينُ

¹ في فوات الوفيات: ((والهجر)).

² جاء هذا الشطر في فوات الوفيات هكذا: ((ما بين بُكاءٍ وأنينٍ وحنينٍ))

³ في فوات الوفيات: ((ولا)).

— مقطوعة: سَمَحْتَ بَيْنَعاً لِمَمْلُوكٍ يُعَانِدُنِي:

سَمَحْتَ بَيْنَعاً لِمَمْلُوكٍ يُعَانِدُنِي

وَلَوْ تَعَدَّى عِنَادِي مَا تَعَدَّانِي

قَالُوا: أَيْنَسَبُ لِلْعِلَانِ قُلْتَ لَهُمْ:

مَا كُنْتُ بَائِعَةً لَوْ كَانَ عَلَانِي

— مقطوعة: حَتَّامٌ يَلْحَى عَلَيْكَ مَنْ خَلَّتْ:

حَتَّامٌ يَلْحَى عَلَيْكَ مَنْ خَلَّتْ

الْأَحْشَاءُ مِنْهُ مِنْ لَاعِجِ الْحُزَنِ

هَبْهُ أَطَالَ الْمَلَامَ فِيكَ فَهَلْ

يَدْخُلُ مَا قَالَ قَطُّ فِي أُذُنِي

كَمْ جَهْدَ مَا تَقْعَلُ الْمَوَاشِيطُ فِي

وَجْهِ قَبِيحٍ مِنْ آلَةِ الْحُسْنِ

— قصيدة: يَمِيناً بِطَيْبِ شَبَابِ الزَّمَانِ:

يَمِيناً بِطَيْبِ شَبَابِ الزَّمَانِ

غَدَاةَ الشَّبَابِ وَنَيْلَ الْأَمَانِ

وَبَرْدَ الشَّبَابِ وَبَرْدَ الشَّرَابِ

وَوَصَلَ الْكِعَابِ وَظِلَّ الْأَمَانِ

وَرُوحِ الْجِنَانِ وَرَاحِ الدَّنَانِ
غَدَاةَ التَّعَطُّفِ مِنْ خَيْرُزَانِ
وَمَا رَقَّ مِنْ نَسَمَاتِ الصَّبَا
وَمَا رَاقَ مِنْ نَعَمَاتِ الْمَنَانِ
وَكُلُّ رَشَاءٍ فَاتِرِ الْمُقَلَّتَيْنِ
تَكُونُ بَذْرًا عَلَى غُصْنِ بَانَ
أَلْيَةِ بَرٍّ قَشِيبِ الْعُلَى
رَحِيبِ الْفَنَاءِ خَصِيبِ الْمَجَانِي
أَبَى الْأَبَاءِ وَفِيَّ الْوَفَاءِ
سَنَى السَّنَاءِ مُبِينِ الْبَيَانِ
لَأَسْعَى إِلَى الْمَجْدِ أَسْمُو بِهِ
عَلَى رَوْقِ عَزٍّ مَكِينِ الْمَكَانِ

— مقطوعة: يَا طَائِرًا إِذْ طَاحَ الْحَمَامُ بِهِ:
يَا طَائِرًا إِذْ طَاحَ الْحَمَامُ بِهِ
هَيَّجَتْ لِلصَّبِّ يَوْمَ الْحُزَنِ أَحْزَانًا
فَبَاتَ بِالْبَانِ مَشْغُوفًا وَلَيْسَ بِهِ
شَوْقٌ إِلَيْهِ وَلَكِنْ مِنْ حَكِي الْبَانَا
يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ إِذْ يَهْتَزُّ نَاعِمُهُ
لِينًا وَيُوسِعُ مَنْ نَهَوَاهُ إِلَيْنَا

لو لآك ما هاجت الورقاء لي فنناً
وَلَا أَرَقْتُ لِطَبِي بَاتَ وَسَنَانَا
وَرُبَّ لَيْلٍ صَحَبْنَا فِي نُجُتِّهِ
مِنْ الْكَوَاكِبِ أَقْمَاراً وَأَغْصَانَا
بِحَيْثُ نَلْتُمُ تَفَاحَ الْخُدُودِ عَلَى
بَابِ الْقُدُودِ وَنَجْنِي مِنْهُ رُمَانَا
بِكُلِّ صَافٍ لَدَى صَافٍ يَرِيكَ عَلَى
لَجِينِهِ مِنْ سَقِيطِ النُّورِ عَقِيَانَا

— مقطوعة: مِثْلُ الْغَزَالِ نَظْرَةً وَاقْفَةً:

مِثْلُ الْغَزَالِ نَظْرَةً وَاقْفَةً
مَنْ ذَا رَأَاهُ مَقْبَلاً وَلَا اقْفَتَنُ
أَحْسَنُ¹ خَلَقَ اللَّهُ وَجْهًا وَفَمَا²
إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْحُسْنِ فَمَنْ
فِي جِسْمِهِ وَصُدْغُهُ وَشَكْلُهُ³
الْمَاءُ وَالْخَضِرَةُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ

¹ في فوات الوفيات: ((أعذب)).

² جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات هكذا: ((أعذب خلق الله ثغراً وفماً)).

³ جاء هذا الشطر في فوات الوفيات هكذا: ((في ثغره وخده وشكله)). وهي أحسن. وفي الوافي بالوفيات: ((في ثغره وخده وصُدْغُهُ)).

— مقطوعة: أعزَّ اللهُ أنصارَ العُيونِ:

أعزَّ اللهُ أنصارَ العُيونِ
وَحَلَدَ مَلَكُ هَاتِيكَ الْجُفُونِ
وَضَاعَفَ بِالْفُتُورِ لَهَا اقْتِدَاراً
وَجَدَّدَ نِعْمَةَ الْحُسْنِ الْمَصُونِ¹
وَأَبْقَى دَوْلَةَ الْأَعْطَافِ فِينَا
وَإِنْ جَارَتْ عَلَى الْقَلْبِ² الطَّعِينِ
وَأَسْبَغَ ظِلَّ ذَاكَ الشَّعْرِ مِنْهُ³
عَلَى قَدِّ بِهِ هَيْفُ الْغُصُونِ
وَصَانَ حِجَابَ هَاتِيكَ النَّثَايَا
وَإِنْ ثَنَّتِ الْفُؤَادَ إِلَى الشُّجُونِ⁴
فَكَمْ فِي الْحُبِّ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي
وَإِنْ جَعَلْتَ دُمُوعِي كَالْمَعِينِ
حَمَلْتُ تَسْهُدِي وَالشَّيْبُ هَذَا
عَلَى رَأْسِي وَذَاكَ عَلَى عُيُونِي⁵

¹ جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات هكذا: ((وَإِنْ تَكُ أَضْنَعْتَ عَقْلِي وَدِينِي)).

² في نص: ((قَلْبِي)).

³ في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات: ((يَوْمًا)). وهو أسلم.

⁴ في فوات الوفيات: ((شُجُون))؛ بدون الألف واللام.

⁵ البيتان الأخيران لم يردا في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات.

— مقطوعة: فَعَدَا كُلُّ مُحِبٍّ فِي الْهَوَى:

فَعَدَا كُلُّ مُحِبٍّ فِي الْهَوَى
وَلَهُ قَلْبٌ مِّنَ الْوَجْدِ طَعِينُ
يَا لَهُ مَعْرِكُ حَرْبٍ عَجَبُ
كُسِرَتْ فَاثْتَصَرَتْ فِيهِ الْجُفُونُ

— مقطوعة: يَا قَمْرًا رَأَيْتُهُ فِي مَاتَمٍ:

يَا قَمْرًا رَأَيْتُهُ فِي مَاتَمٍ
مِنْ حَزْنِهِ شَقٌّ عَلَى شَقِيقِهِ
لَا تَلْطُمُ الْخَدَّ عَلَيْهِ أَسْفَاً
فَرُبَّمَا شَقٌّ عَلَى شَقِيقِهِ

— مقطوعة: يَا مَنْ غَدَتِ الْقُلُوبُ فِي طَوْعِ يَدَيْهِ:

يَا مَنْ غَدَتِ الْقُلُوبُ فِي طَوْعِ يَدَيْهِ
ذَا صَبَّكَ كَمْ تَهْدِي تَجْنِيكَ إِلَيْهِ
عَذْلٌ وَتَسْهِيْدٌ² وَوَجْدٌ وَقِلَى
مَا تَمَّ عَلَى الْعُشَّاقِ³ مَا تَمَّ عَلَيْهِ

¹ في فوات الوفيات: ((في حُكْم)).

² في نص: ((وَتَسْهِيْدٌ)).

³ في فوات الوفيات: ((على الكلاب)).

— مقطوعة: يَا رَبَّ عَطَّارِ بِسُكَّرِ ثَغْرِهِ:

يَا رَبَّ عَطَّارِ بِسُكَّرِ ثَغْرِهِ
سَكِرَ الْمُحِبُّ وَلَمْ يَفِقْ مِنْ سُكْرِهِ
عَقَدَ الشَّرَابَ لِذِي السَّقَامِ وَكَيْفَ مَا
عَقَدَ الشَّرَابَ لِجَفْنِهِ مِنْ ثَغْرِهِ

— قصيدة: لَوْ رُمْتُ إِبْقَاءَ الْوِدَادِ بِحَالِهِ:

لَوْ رُمْتُ إِبْقَاءَ الْوِدَادِ بِحَالِهِ
لَمْ تُغْرِ طَرْفَكَ بَارِئِيَادِ نِيَالِهِ
أَمَّا وَقَدْ سَلَّمْتَ نَفْسَكَ لِلْهَوَى
فَأَنْتَ بِمَا تَلْقَاهُ مِنْ أَهْوَالِهِ
حَدَقَ الْجَادِرِ كُنَّ أَوَّلَ شَافِعِ
لِلْعَقْلِ حَتَّى فَكَّ أَسْرُ عِقَالِهِ
يَا مَنْ يُلَوِّمُ الصَّبَّ فِي بَرَحَائِهِ
يُغِي السَّلَامَةَ لَا بُلَيْتَ بِحَالِهِ
مَنْ شَغَلَهُ بِالْحُبِّ عَنْ مَحْبُوبِهِ
كَيْفَ الْفِرَاقُ لَهُ إِلَى عَذَالِهِ
هُوَ ذَلِكَ الْقَمَرُ الَّذِي الْقَمَرُ الَّذِي
مُتَنَاقِصٌ بَدْرُ الدُّجَى لِكَمَالِهِ

لَوْ كُنتُ أَمْلِكُ خَدَّهُ أَفْنَيْتُهُ
بِاللَّثَمِ أَوْ أَنْبَلْتُ وَرْدَ جَمَالِهِ
الْحَرْبُ بَيْنَ عُهُودِهِ وَوَفَائِهِ
كَالسَّلْمِ بَيْنَ وُعُودِهِ وَمُطَالِهِ
طَالَتْ مَسَافَةُ هَجْرِهِ فَكَأَنَّهَا
مِنْ لَيْلٍ عَاشِقِهِ وَمِنْ أَمَالِهِ
دَانِي الْمَزَارِ يَرُوعُ قَلْبِي صَدُّهُ
يَا قُرْبَ شُقَّتِهِ وَبُعْدَ مَنَالِهِ
كَيْفَ الْخَلَاصُ لِمَنْ تَقَسَّمَ قَلْبُهُ
مَا بَيْنَ بَدْرِ الْمُنْحَنِ وَغَزَالِهِ
بِاللهِ يَا رِيحَ الشَّمَالِ رِسَالَةً
فَسَوَاكِ لَمْ أُرْكَنْ إِلَى إِرْسَالِهِ
قَوْلِي لِنَتِيَّاهِ الشَّمَائِلِ لَمْ يَزَلْ
بِيَدِي لَنَا مَلَأَ بِشَرِّهِ مَطَالِهِ
عَانَ التَّعَطُّفَ حِينَ تَبْصُرَ عَانِيًا
وَإِذَا ظَفَرْتَ بِوَالِهِ بِكَ وَالِهِ
يَجْنِي عَلَيَّ كَمَا جَنَى الْأَثْمَارَ مَنْ
أَمَّ ابْنَ يَعْقُوبَ عَلَى إِقْلَالِهِ
لَوْلَا النَّقِيُّ وَهُوَ الَّذِي وَهَبَ النَّقْيَ
لَعَبَثَتْهُ وَعَبَدَتْ حُسْنَ خِلَالِهِ

وَجَهَ تَغَارُ الشَّمْسُ مِنْهُ إِذَا بَدَا
 وَتَوَدُّ لَوْ طَبَعَتْ عَلَى أَمْثَالِهِ
 مَتَهَلَّ الْقِسَمَاتُ يُوْذَنُ بِالرِّضَا
 وَجَهَ الْكَرِيمُ يَبِينُ عَنْ أَفْعَالِهِ
 سَمَتِ الْعُلَى عِشْقًا لَهُ وَدَنَا لَهَا
 مَتَوَاضِعًا فَتَمْنَعَتْ بِوَصَالِهِ
 إِنْ رَمَتْ مَجْدًا فَاسْتَدَلَّ بِفَعْلِهِ
 أَوْ رُمَتْ رُشْدًا فَاسْتَقْدَّ بِمَقَالِهِ
 أَوْ حَارَبَتْكَ صُرُوفُ دَهْرِكَ فَاسْتَرِ
 بِحِمَاهِ مِنْهَا وَاعْتَصِمْ بِحِبَالِهِ
 أَوْ شِئْتَ تَلْقَى الْبَحْرَ عِنْدَ هِيَاجِهِ
 فَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدُهُ يَوْمَ جِدَالِهِ
 يَذَرِي مَقَالَ الْخَصْمِ قَبْلَ سَمَاعِهِ
 لِكَلَامِهِ فَيَجِيبُ قَبْلَ سَوَالِهِ
 لِمُحَمَّدٍ فِي الْمَجْدِ مُعْجَزٌ سُودِدَ
 عَجَزَتْ بِهِ الْأَيَّامُ عَنْ أَمْثَالِهِ
 بِمَبْخَلٍ فِي عَرْضِهِ وَذِمَامِهِ
 سَمَحَ الْيَدَيْنِ بِجَاهِهِ وَبِمَالِهِ
 مَغْضٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ يَشْفَعُ حِلْمُهُ
 حَنِقُ الذَّكِيِّ بِغَفْلَةِ الْمُتَبَالِهِ

وَيَمَارِسُ الدُّنْيَا بِهِمَّةٍ مَنْ يَرَى
أَيَّامَهَا - شَرْفًا - لَوْ قَعِ نَصَالُهُ
أَنَّى التَّقْتُ رَأَيْتُ مِنْ إِحْسَانِهِ
أَثَرًا مُشَاهِدَةً وَمِنْ إِجْمَالِهِ
مَنْ مُقْتَدِرٌ بِكَمَالِهِ أَوْ مُهْتَدٍ
بِجَلَالِهِ أَوْ مُجْتَدٍ لِسُؤَالِهِ
اللَّيْثُ بَيْنَ أَمَامِهِ وَوَرَائِهِ
وَالْبَحْرُ بَيْنَ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
أَعْطَى بَنِيهِ حُسْنَ سِيرَتِهِ الَّتِي
عَنْ وَالِدَيْهِ فَاعْتَجِبَ لِفَعَالِهِ
شَهَدَتْ مَنَاقِبُ آلِهِ فِي مَجْدِهِ
مَعْنَى مَنَاقِبِ مَجْدِهِ فِي آلِهِ
مِنْ مَعَشَرٍ يُهْدَى الدَّلِيلُ بِنُورِهِمْ
وَيَضِلُّ رُشْدًا عَنْ طَرِيقِ ضَلَالِهِ
وَإِذَا اسْتَعْنَتْ بِهِمْ عَلَى كَيْدِ الْعِدَا
نَهَضُوا بِأَبْطَالٍ عَلَى إِيْطَالِهِ
جَلَسُوا عَلَى الْفَلَكَ الْمَحِيطِ وَتَوَنَّهُمْ
هَذَا الزَّمَانُ بِشَمْسِهِ وَهَيْلَالِهِ
مِنْ كُلِّ مَنْ يَلْقَاكَ قَبْلَ لِقَائِهِ
مَا شَاءَ بَلْ مَا شِئْتَ مِنْ أَفْضَالِهِ

تَتَأَخَّرُ الْقُبُلَاتُ عَنْ أَقْدَامِهِ
مِنْ هَيْبَةٍ فَتَوْمُ تَرْبَ نَعَالِهِ
مُسْتَغْرَقٌ بِاللَّهِ يَظْهَرُ بَعْضُهُ
لِلْعَالَمِينَ ظُهُورَ طَيْفِ خَيَالِهِ
لَوْلَا مَهَابَتُهُ الَّتِي تَنْتَبِهُ الْوَرَى
عَنْ قُرْبِهِ صَلُّوا عَلَى أُنْيَالِهِ
لَا يَعْرِفُ الْفَحْشَاءُ لَا عَنْ رَكَّةٍ
بَلْ عَنْ تَكْرَمِهِ وَعَنْ إِهْمَالِهِ
أَغْنَاهُ عَنْ وَصْفِ الشَّجَاعَةِ نُبْلُهُ
لَا عَاجِزٌ مَا رَامَ فِي إِهْمَالِهِ
وَلَمَنْ يَحَارِبُ فِي الْأَنَامِ بِأَسْرِهِمْ
عِتْقَاءُ رَأْفَتِهِ وَبَعْضُ عِيَالِهِ
هَيْهَاتَ يَبْلُغُ وَصْفَهُ مَدْحٌ وَلَوْ
أَفْنَى الْبَلِيغِ الْجُهْدَ فِي أَفْعَالِهِ
يَا مَنْ لَهُمْ هَمٌّ تَقْلُ شَبَابِ الطُّبِيِّ
ظُبَّةُ الْحَسَامِ بِحَدِّهِ وَصْقَالِهِ
خُذْ شَهْرَكَ الْآتِي بِهَجَةٍ عَالِمٍ
بِنَهَايَةِ الْأَقْبَالِ فِي إِقْبَالِهِ
شَهْرًا حَوِيَتْ ثَوَابَهُ وَحَكِيمَتْ مَا
فِي حُسْنِ مَقْدَمِهِ وَشَيْنِهِ هِلَالِهِ

وقرنته بالبر في شعبانه
 وبه يكون الزاد في شواله
 لو لم يؤمل عوده لك ثانياً
 لم يرض منك ببنيه وزواله
 خذ بنت ليلتها ومهد عذر من
 لم يستفق للنظم من أشغاله
 مصفي الوداد يعد بأسك قوة
 ويعد ذكرك فرصة في فاله
 بصفاتك العليا محط رجائه
 وببابك الأعلى محط رجاله

— قصيدة: هذا الذي أحبه:

هذا الذي أحبه قاس علي قلبه
 نام ولم يعلم بما بات يقاسي صبه
 واعجباً كم عاج بي دلاله وعجبه
 أهأ لمضني واله لم يدرك كيف ذنبه
 سار به ميمماً من العقيق سربه
 إن لاح برق ظل ير جو اين يلوح قلبه
 أو أسعدت أو أعبت سعادته وععبه
 قد بات ظماناً وما سوى الدموغ شربه

مَا سَارَ وَهَنًا رَكْبُهُ إِلَّا وَزَادَ رَبُّهُ
 بِوَالْحَمَى سَقَى الْحَمَى عَنْ كُتُبٍ وَكُتُبُهُ
 غَيْثٌ غَدَتْ تَسْحَبُ فِي أَذْيَالِهَا سَحْبُهُ
 مِنْ عَفْثِي وَصَوْنُهُ مِنْ دُونِهِ وَحُجْبُهُ
 فِي ثَغَرِهِ وَنَاطِرِهِ هِ عَذْبُهُ عَضْبُهُ
 فَمَنْ بَصَبٌ دَمَعُهُ يَفْقِضُ وَجَدًا صَبُّهُ
 قُطِّعَ إِرْبَاءُ دُونَ أَنْ يَقْضَى بِوَصْلِ أَرْبِهِ
 يُحِبُّ مَنْ أَجَلَ الْحَبِيبِ بِ كُلِّ مَنْ يُحِبُّهُ
 فَقَصْدُهُ مُحَمَّدٌ وَآلُهُ وَصَحْبُهُ

— قصيدة: أَمَلٌ سَعَيْتُ أَجْدُ فِي إِيْمَامِهِ:

أَمَلٌ سَعَيْتُ أَجْدُ فِي إِيْمَامِهِ

فَعَلَامَ حُلِّ الدَّهْرِ عَقْدَ نِظَامِهِ

وَأِلَى مَتَى يَسْعَى الزَّمَانُ لِنَقْضِ مَا

أَسْعَى بِكُلِّ الْجُهِدِ فِي إِيْرَامِهِ

وَإِذَا الْفَتَى قَعَدَتْ قَوَائِمُ حَظِّهِ

قَامَ الرَّدَى مِنْ خَلْفِهِ وَأَمَامِهِ

دَامَ الْوَزِيرُ مَمْتَعًا بِخُلُودِهِ

فَدَوَامُ تَشْيِيدِ الْعُلَى بِدَوَامِهِ

السعد في أبوابه والأمن في
إقليمه والرزق في أقالمه
والشمس من قسماته والجود في
تقسيمه والبر في أقسامه
والبأس في يقظاته والحلم في
غفلاته والعلم ملء كلامه
والصدق في أقواله والحق في
أفعاله والعدل في أحكامه
والله من حفائظه والنصر من
أعوانه والدَّهرُ من خُدَّامِهِ
ملكتْ سَجِيَّتَهُ الْجَمِيلَ بجيمه
وَبِمِيمِهِ وَبَيَائِهِ وَبِلَامِهِ
جاءَ الكرامُ بِبَدْعِ جُودِهِمْ وَقَدْ
جاءَ الوزيرُ بِبَدَائِهِ وَخَتَامِهِ
مُسْتَعْصِمٌ بِاللَّهِ فِي حَرَكَاتِهِ
وسكونه وقعوده وقيامه
مغرى باعطاء المكارم حقها
في حال يقظته وحال منامه
ما بال حَظِّي كُلَّمَا قَدَّمْتَهُ
دفعته أيامي إلى إحجامه

أُذِّلُّ فِي أَيَّامٍ مَنَ قَدْ كَانَ لِي
ظَنُّ بَنِيْلِ الْعِزِّ فِي أَيَّامِهِ
حَاشَا الرِّيَاسَةَ وَالسِّيَادَةَ وَالنَّدَى
حَاشَا الَّذِي عَوْدَتُهُ مِنْ أَنْعَامِهِ
يَا ابْنَ الْعَلَى وَأَبَا الْعَلَى وَأَخَا الْعَلَى
وَمَنْ النُّجُومِ الزُّهْرُ ثُونُ مَقَامِهِ
أَيَكُونُ مِثْلِي فِي الْهَوَى مُتَظَلِّمًا
يَشْكُو الزَّمَانَ وَأَنْتَ مِنْ حُكَّامِهِ
أَيْنَ الْمَرْوُوءَةُ وَالْقِيَامُ بِحَقٍّ مِنْ
أَلْقَى إِلَيْكَ ذِمَامَهُ بِزِمَامِهِ
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَ قَوْمٍ رُبَّمَا
كَبُرَتْ فُضَائِلُهُ عَلَى أَقْوَامِهِ
تَعَسَ الشَّبَابُ فَمَا سَعَدَتْ بَشْرُخُهُ
وَلَقَدْ شَقِيتَ بِظُلْمِهِ وَظُلَامِهِ
أَمْكَلَنِي ذَنْبَ الزَّمَانِ وَلَيْسَ لِي
ذَنْبٌ يُؤَاخِذُنِي عَلَى إِجْرَامِهِ
الرِّزْقُ أَحَقُّ أَنْ أُضَيِّعَ مُدَّتِي
بِالْعَذْرِ عِنْدَ سَوَاكُمُ وَمَلَامِهِ

— مقطوعة: مَلِيحٌ كَانَ الْحَسَنَ أَصْبَحَ حَادِيًا:

مَلِيحٌ كَانَ الْحَسَنَ أَصْبَحَ حَادِيًا
يَسُوقُ إِلَيْهِ كُلَّ صَبٍّ يَشُوقُهُ
تَحْمَلُ مِنْهُ الْخَصْرُ رِدْفًا يَقْلَهُ
وَحَمَلَ مِنْهُ الصَّبُّ مَا لَا يَطِيقُهُ
وَحَكَمَ فِيهِ طَرْفُهُ وَقَوَامُهُ
فَرَأَشِقُهُ يُودِي بِهِ وَرَشِيقُهُ

— مقطوعة: مَلِيحٌ حَكَاهُ الْبَذْرُ عِنْدَ طُلُوعِهِ:

مَلِيحٌ حَكَاهُ الْبَذْرُ عِنْدَ طُلُوعِهِ
فَلَا سِرَّ أَنْ يَحْكِيهِ عِنْدَ سِرَارِهِ
أَغْرُ غَرَارُ الْجَفْنِ مِنْهُ إِذَا سَطَا
جَفَا فِيهِ جَفْنُ الصَّبِّ طَيْبُ غَرَارِهِ
أَبَيْتَ وَلِي جَفْنٌ غَرِيقٌ بِمَائِهِ
عَلَيْهِ وَلِي قَلْبٌ حَرِيقٌ بِنَارِهِ

— مقطوعة: لَوْ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُ:

لَوْ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُ قَرَّبَ مِنِّي بَدَنَهُ
قَرِبتُ شُكْرًا لِلَّهِ أَلْفَ أَلْفِ بَدَنِهِ

— قصيدة: رَشِيقُ الْقَامَةِ النَّضِيرَةِ:

رَشِيقُ الْقَامَةِ النَّضِيرَةِ

لَقَدْ أَصْنَيْتِ بِالنَّظْرِ¹

وَقَدْ سَوَّدْتَ حَظِّي مِنْ

لَكَ يَا أَبْهَى الْوَرَى غُرَّة

سَوَادُ الْخَالِ الْمُقْلِ

لِـ وَالْعَارِضِ وَالطَّرَةِ²

قَدِيمَ الْهَجْرِ مَنْ لِفَتَى

قَدِيمٍ فِي الْهَوَى هَجْرَةَ

فَكَمْ تَلَقَّاهُ بِالْإِنْعَاءِ

دِ الْإِيعَادِ وَالنَّفَرَةِ

وَكَمْ³ يَشْكُو وَلَا تُطْر

حُ فِي قَفَّهِ كَسْرِهِ

رَأَيْتَا مَنْ جَنَى وَجَعًا

وَلَكِنْ زَيْتٌ فِي كَرَّة

¹ هذا البيت الذي أتى كمطلع للقصيدة هنا؛ لم يرد في الوافي بالوفيات. كما أن هذا الشطر ورد في ذلك المصدر هكذا: ((وقد سَوَّدَ حَظِّي مِنْ...)).

² جاء هذا البيت في الوافي بالوفيات هكذا: ((سَوَادُ الْخَالِ وَالْعَارِضِ وَالْمُقْلَةِ وَالطَّرَةِ)).

³ في الوافي: ((ولا)).

فَقَدْ أَصْبَحْتُ لَا أَمَلِ
لَكَ مِنْ صَبْرِي وَلَا ذَرَّةَ
وَقَدْ صَيَّرَنِي هَجْرُ
كَ فِي...¹ أُخْتُ مَا أُكْرَهُ
عَذِيرِي فِيهِ مِنْ قَمَرٍ
يُرِيكَ بِخَدِّهِ الزُّهْرَةَ
إِذَا قَارَنَ بِالْأَكْوِ
سِ إِذْ يَمْزِجُهَا² ثَغْرَةَ
أَرَاكَ الذَّهَبَ الْمَصْنُوعَ
يَّ فَوْقَ الْفِضَّةِ النَّقْرَةَ

— قصيدة: غَادَرْتِي بِغَدْرِهِ:

غَادَرْتِي بِغَدْرِهِ عَلَى هَجِيرِ هَجْرِهِ
غَنِيَّ حُسْنٍ مَا رَأَيْتُ لَذِي الْهَوَى وَفَقْرِهِ
صَبُّ كَثِيبٍ بَحْرُهُ مِنْ ثَغْرِهِ وَنَحْرِهِ
غَدَا وَحِظُّ شَعْرِهِ فِيهِ كَلَوْنُ شَعْرِهِ
أَفْنَى هَوَاهُ صَبْرُهُ لَمَّا نَأَى بِصَدْرِهِ
فَلَمْ يُحَرِّكْ فِي الْهَوَى لِسَانَهُ بِذِكْرِهِ

¹ كلمة نابية.

² في الوافي: ((يشربها)).

كَيْفَ يَذُوقُ عَاشِقٌ حَلَاوَةَ فِي صَبْرِهِ
 أَفْئِدِيهِ مِنْ غُصْنِ نَقَا غَضِّ الْقَوَامِ نَضْرِهِ
 يَمِيسُ فِي مَلَوْنٍ مَبْتَسِماً عَنْ ثَغْرِهِ
 فاعجبْ لنورِ زَهْرِهِ واعجبْ لنورِ زَهْرِهِ
 يَا عاشقُونَ حَانُوا¹ مِنْ غَدْرِهِ وَمَكْرِهِ
 وَطَرَفِهِ السَّاجِرِ مُذْ شَكَّكُمْ فِي أَمْرِهِ
 يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ²

— مقطوعة: جَرَحَتْ فُؤَادَ الْمُسْتَهَامِ فِدَاؤِهِ:

جَرَحَتْ فُؤَادَ الْمُسْتَهَامِ فِدَاؤِهِ
 وَمَائِلُهُ فِي حِفْظِ الْوِدَادِ وَسَاؤِهِ
 وَأَوْصٍ بِهِ ضَعْفَ الْجُفُونِ فَإِنَّهُ
 يُقَاوِي مِنَ الْعُشَاقِ مَنْ لَمْ يُقَاوِهِ
 غَرِيبٌ هَوَى يَأْوِي إِلَى الْوَجْدِ قَلْبُهُ
 فَأَنْزَلُهُ فِي مَعْنَى رِضَاكَ وَأَوِهِ
 وَبِي مَبْتَسَمٌ أَلْمَى فُتِنْتُ بِمِيمِهِ
 غَرَاماً وَصُدِّغْتُ قَدْ فُتِنْتُ بَوَاوِهِ

¹ هكذا:

² اقتباس من القرآن الكريم؛ إذ جاء في قوله تعالى: «يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَبَاطِلٌ تَأْمُرُونَ». الآية: 35 من سورة الشعراء.

— مقطوعة: لَعَيْتُ بِالشَّطَرْنَجِ مَعَ شَاوِنَ:

لَعَيْتُ بِالشَّطَرْنَجِ مَعَ شَاوِنَ
رَشَاقَةُ الْأَغْصَانِ مِنْ قَدِّهِ
أَحْلُ عَقْدَ الْبَنْدِ مِنْ خَصْرِهِ
وَأَلْتُمُ الشَّامَاتِ مِنْ خَدِّهِ

— مقطوعة: بَعَثَ الْكِتَابَ بِرُقْعَةٍ مُحْمَرَّةٍ:

بَعَثَ الْكِتَابَ بِرُقْعَةٍ مُحْمَرَّةٍ
جَاءَتْ تُهَدِّدُنَا بِفَرْطِ جَفَائِهِ
فَسَأَلْنَاهَا عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ
نَبَحَ الْوَدَادَ فَكَنْتُ بَعْضَ دِمَائِهِ

— مقطوعة: أَسْرِعْ وَسِرْ طَالِبَ الْمَعَالِي:

أَسْرِعْ وَسِرْ طَالِبَ الْمَعَالِي
بِكُلِّ وَادٍ وَكُلِّ مَهْمَةٍ
وَإِنْ لَحَى عَاذِلٌ جَهُولٌ
فَقُلْ لَهُ يَا عَذُولُ مَهْ مَهْ

— مقطوعة: كَتَبْتُ وَلَوْ أَنِّي مِنَ الشَّوْقِ قَادِرٌ:

كَتَبْتُ وَلَوْ أَنِّي مِنَ الشَّوْقِ قَادِرٌ

لَسَارَعْتُ فِيهِ نَحْوَ مَنْ أَنَا رِقَّةُ

ولو أنني أسعى إلى ذلك الحمى

على الرأسِ ما أَتَيْتُ ما تَسَحُّقُهُ

— مقطوعة: لَنَا صَاحِبٌ لَا يَرْعَوِي لِفَضِيلَةٍ:

لَنَا صَاحِبٌ لَا يَرْعَوِي لِفَضِيلَةٍ

فَلِي لَهُ عَقْلٌ وَلَا لَدُونِهِ

أَلَسْتُ تَرَى مِنْ عَظَمِ مَا هُوَ جَاهِلٌ

يُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَيَطْعُنُ فِيهِ

— قصيدة: مَنْ لِي بِهِ كَالْبَدْرِ فِي إِسْفَارِهِ:

مَنْ لِي بِهِ كَالْبَدْرِ فِي إِسْفَارِهِ

نَفَرَ الْمُحِبُّ عَنِ الْكَرَى بِإِسْفَارِهِ

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو جَنَّةَ بِمُحَمَّدٍ

وَالْيَوْمَ أَخْشَى فِي الْهَوَى مِنْ نَارِهِ

يَا نَجْمُ بَلْ يَا بَدْرُ يَا شَمْسُ بَلْ

كُلُّ أَرَاهُ يَلُوحُ مِنْ أَزْرَارِهِ

ما في صُدُودِكَ رَحْمَةً لِمَتَّيِّمٍ
إِلَّا احْتِمَالَكَ عَنْهُ مِنْ أَوْزَارِهِ
فَارْفُقْ بِهِ وَاحْذَرْ فِدْيَتَكَ أَهْلَهُ
فِي الْحُبِّ أَنْ يَتَطَلَّبُوكَ بِشَارِهِ
وَافِي هَوَاكَ فَلَمْ يَزَلْ عَنْ قَلْبِهِ
جَلَدٌ وَزَالَ الصَّوْنُ عَنْ أَسْرَارِهِ
هِيَهَاتَ يَطْمَعُ فِي لِقَاكَ وَتُونَهُ
خَطَرُ الْقَنَاءِ الْمَيَّادِ مِنْ خُطَّارِهِ
حَاشَاهُ يَا أَمَلَ النُّفُوسِ بِأَنْ يُرَى
مُتَعِدِيًا فِي الْحُبِّ عَنْ مِقْدَارِهِ

— مقطوعة: يَا ثَغْرَةَ الْمَحْمِيِّ مِنْهُ بِنَابِلِ:

يَا ثَغْرَةَ الْمَحْمِيِّ مِنْهُ بِنَابِلِ
مِنْ طَرَفِهِ وَبِسَائِفٍ مِنْ خَدِّهِ
وَبِمَتَرَفٍ مِنْ صَدْغِهِ وَبِنَاصِرٍ
مِنْ خَالِهِ وَبِعَامِلٍ مِنْ قَدِّهِ
أَرْقُقْ بِمَا فَعَلَ الْغَرَامُ فَقَدْ أَتَى
حِظُّ الْعِذَارِ مَوْقِعًا فِي رَدِّهِ

— مقطوعة (أ): الصبُّ بحبِّه عليه ولَهُ:

الصبُّ بحبِّه عليه ولَهُ
والعاذلُ في هَواكَ ما لي ولَهُ
إيضاحُ غَرامِهِ لهُ تَكْمِلُهُ
إن كانَ مفصَّلَ الهوى مُجْمَلُهُ

— مقطوعة (ب): يا مَنْ أَمْرُ الغرامِ والقلبُ لهُ:

يا مَنْ أَمْرُ الغرامِ والقلبُ لهُ
قَدْ أَسَقَمَ جِسْمِي فِي هَواهُ وَلَهُ
كَمْ يَعْذِلُنِي اللَّائِمُ فِيهِ سَفَهًا
اللَّائِمُ فِي هَواكَ مَالِي وَلَهُ

— مقطوعة (ج): قد أصبح آخر الهوى أوله¹:

قد أصبح آخر الهوى أوله
فالعاذلُ في هَواكَ ما لي ولَهُ
بِاللهِ عَلَيْكَ خَلٌّ ما أوله
وَارْحَمْ دَنفًا حَسَوُ حِشَاهُ وَلَهُ

¹ هذه المقطوعات الثلاث: (أ - ب - ج) قريبة من بعضها. لعل بدأ أدخلت عليها تلك التغييرات.

— مقطوعة: حَيَّ غَزَالاً سَلَّ مِنْ أَجْفَانِهِ:

حَيَّ غَزَالاً سَلَّ مِنْ أَجْفَانِهِ
غَضِباً عَدَا يَقْتُلُ فِي أَجْفَانِهِ
فَالسَّحَرُ مَا اسْتَبْطَ مِنْ لِحَاطِهِ
وَالدُّرُّ مَا سَاتُودَعُ فِي مَرْجَانِهِ
كَمْ بَتَّ أَجْنِي مِنْ جَنَى خَدِّهِ
وَرَدَا نَمَا فَوْقَ غُصُونِ بَانِهِ
حَيْثُ أَسُوغُ الْعَذَبِ مِنْ مَرَشِفِهِ
وَأَرْشَفُ الْوَاضِحِ مِنْ جُمَانِهِ
مَنَازِلًا كُنْتُ بِهَا مُصْرِقاً
أَعْنَةً اللَّهُ وَلَدَى مِيدَانِهِ
فِيَا رَعَى اللَّهِ زَمَاناً قَدْ مَضَى
وَالْعَيْشُ مَتَسُوبٌ لِذِي زَمَانِهِ

— مقطوعة: قَمَرٌ رَأَيْتُ الْكَوْنَ ضَاءَ بِيْشْرِهِ:

قَمَرٌ رَأَيْتُ الْكَوْنَ ضَاءَ بِيْشْرِهِ
لَمَّا سَرَى حُسْنًا وَضَاعَ بِنَشْرِهِ
ظَنِّيَّ وَمَا لِلظَّنِّي لَفْتَةً يَدِهِ
غُصْنٌ وَمَا لِلْغُصْنِ يَقَّةُ خَصْرِهِ

يبدو اعتدال قوامه في مثله
وتبين صحة جفنه في كسره

— مقطوعة: ظَنَنْيَ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ هَوَى:
ظَنَنْيَ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ هَوَى
قَدْ حَكَمَ اللَّهُ بِتَخَايُرِهِ
قلده الحسن الذي يشتهي
وهذه نسخة تقايدِهِ

— قصيدة: مَا لَامَهُ عَلَيْكُمْ عُدُولُهُ:
مَا لَامَهُ عَلَيْكُمْ عُدُولُهُ
إِلَّا وَرَأَى نَحْوَكُمْ عُدُولُهُ
مَغْرَى الْفَوَادِصِ عَانِي الْحَشَا
أَسِيرُهُ مُضْنَى الْهَوَى عَلَيْهِ
قَدْ أَوْقَعَتْ عُيُونُهُ فَوَادُهُ
فِي عَثْرَةٍ فَمَنْ لَهُ يُقِيلُهُ
وَافِي بِشَوْقِ نَحْوِكُمْ مَدِيدُهُ
سَرِيعُ وَجْدٍ فِيكُمْ طَوِيلُهُ
فَمَا الَّذِي يُضِيرُ قُدُسَ وَصْلِكُمْ
أَنْ الَّذِي هَامَ بِكُمْ خَلِيلُهُ

واعجبا والقلبُ يشكو وحشةً
إليكم وأنتم حلولهُ
وبِي رَشِيقُ القَد لا يَعْطِفُه
تَعْطِفُ نحوي ولا يُمِيلُهُ
لا واخذ الله بدمعي خَدَّهُ
فَهُوَ الَّذِي أَسْأَلُهُ أَسِيلُهُ
فَلَلَقْنَا وَلَلْنَقَا قَوَامُهُ
وَاللَّطْبَى وَاللَّطْبَى كَحِيلُهُ
عَجِبْتُ مِنْهُ إِذْ بَدَا جَمَالُهُ
لِنَظَرِي كَيْفَ اخْتَفَى جَمِيلُهُ
إِنْ نَاضَرُوا نَاضَرُوا فِي قَلْبِي
يَقُومُ مِنْ دَلَالِهِ دَلِيلُهُ

— قصيدة: لي من هواك بعيدة وقريبة:

لي من هواك بعيدة وقريبة
وَلَكَ الجَمالَ بَدِيعُهُ وَغَرِيبُهُ
يَا مَنْ أُعِيدُ جَمالُهُ بِجَلالِهِ
حَذَرًا عَلَيْهِ مِنَ العُيُونِ تُصِيبُهُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي فَإِنَّكَ نُورُهَا
أَوْ لَمْ تَكُنْ قَلْبِي فَأَنْتَ حَبِيبُهُ

هل حُرمةٌ¹ أو رحمةٌ² لِمُتِّمٍ³
 قَدْ قَلَّ فِيكَ⁴ نَصِيرُهُ وَنَصِيْبُهُ
 أَلِفَ الْقَصَائِدِ فِي هَوَاكَ تَغْزِلًا
 حَتَّى كَأَنَّ بَكَ النَّسِيبَ نَسِيبُهُ
 هَبْ لِي فَوَادًا بِالْغَرَامِ تُشِيْهُ
 وَاسْتَبِقْ فَوْدًا بِالصَّدُودِ تُشِيْهُ⁵
 لَمْ يَبْقَ لِي سِرٌّ أَقُولُ تَذِيْعُهُ⁴
 عَنِّي وَلَا قَلْبٌ أَقُولُ تَذِيْعُهُ
 كَمْ لَيْلَةٍ قَضَيْتَهَا مَتْسَهِّدًا
 وَالذَّمْعُ يَجْرَحُ مَقَلَّتِي مَسْكُوبُهُ
 وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ مِنَ الْعَالَمِ مَالِيَةِ
 عِنْدِي وَأَبْدُ مِنْ رِضَاكَ مَغِيْبُهُ
 وَالْجَوْ قَدْ رَفَّتْ عَلَيَّ عُنُونُهُ⁵
 وَجُفُونُهُ وَشِمَالُهُ وَجَنُوبُهُ
 هِيَ مَقْلَةٌ سَهْمُ الْفِرَاقِ يُصِيبُهَا
 وَيَسِيحُ وَأَبِلُ دَمْعُهَا فَيَصُوبُهَا

¹ في النجوم الزاهرة: ((هل رحمةٌ أو حُرمةٌ لِمُتِّمٍ)).

² نفسه: ((منك)).

³ سقط هذا البيت في النجوم الزاهرة.

⁴ في النجوم الزاهرة: ((لم يبق لي سرًّا أقول تذيعه)).

⁵ نفسه: ((عليَّ شماله)).

وجوى تَضَرَّمْ جَمْرُهُ لَوْلَا نَدَى
قَاضِي الْقَضَاةِ قَضَى عَلَيَّ لَهيبُهُ

— مقطوعة: وَلَمَّا التَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ وَالْجَوَى:

وَلَمَّا التَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ وَالْجَوَى
بِقَلْبِي سَكُونٌ طَالَ مِنْهُ خَفْوُهُ
لَثَمْتُ ثَنَائِيَّاهُ وَقَبَّلْتُ فَرْقَهُ
وَقَدْ جَدَّ وَجَدٌ بِالْفَوَادِ يَشْوِقُهُ
فَقَدْ رَاقَنِي يَوْمَ الْوَدَاعِ وَرَاعَنِي

بِحَسَنِ وَحْزَنِ فَرْقِهِ وَفَرِيقِهِ

— مقطوعة: هَيْهَاتَ أَنْ يَسْخُو وَلَوْ بِسَلَامِهِ:

هَيْهَاتَ أَنْ يَسْخُو وَلَوْ بِسَلَامِهِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ لِلْحَرْبِ لَابِسَ لَامِهِ
مَتَعَرِّضٌ لِلْعَاشِقِينَ بِلَحْظِهِ
نَظَرَ الْكَمِيِّ إِلَى مُحِطِ سَهَامِهِ
قَمَرٌ جَنَيْتُ الْوَرْدَ أَوَّلَ بَدْتِهِ
وَجَنَى عَلَيَّ الْوَجْدُ عِنْدَ تَمَامِهِ
وَأَلْفَتُهُ مَذْكَانَ بِأَلْفِ مَهْدِهِ
وَرَضَعْتُ ثَدْيِي هَوَاهُ قَبْلَ فِطَامِهِ

تَسْنِدُ أَمْرِي سَدَّ فِيهِ بِلْثَمَةٍ
وَقَوَامُ حَالِي ضَمَّ غُصْنُ قَوَامِهِ
وَمُنِيمٌ ذَهَبَ الْغَرَامُ بِحِلْمِهِ
وَجَنَّتْ صِبَابَتُهُ عَلَى أَحْلَامِهِ
أَخَذَ الْهَوَى بِبِيمِينِهِ وَشِمَالِهِ
وَإِغْتَالَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَأَمَامِهِ

— مقطوعة: ما إن رأى رُوحِي تَحَنُّ لِقُرْبِهِ:

ما إن رأى رُوحِي تَحَنُّ لِقُرْبِهِ
حَتَّى تَعْجَلَ بِالْبَعَادِ فِرَاقَهَا
تَالَهُ مَا نَظَرْتُ عَوْنِي مَدْنَاهُ
أَبْدَأَ سِوَاهُ مِنَ الْأَنَامِ فِرَاقَهَا

— مقطوعة: خُذُوا خَبَرًا عَنْ نَظْمِ دَمْعِي وَنَثَرِهِ:

خُذُوا خَبَرًا عَنْ نَظْمِ دَمْعِي وَنَثَرِهِ
عَنِ الْحَبِّ يُنْدِيكُم بِغَامِضِ سِرِّهِ
وَلَا تَسْأَلُوا عَمَّنْ هَوَيْتُ فَإِنِّي
أَغَارُ عَلَيْهِ أَنْ أَبُوحَ بِذِكْرِهِ
وَإِنْ رُمْتُمْ وَصَفِي بِدِيْعِ جَمَالِهِ
فَأَيْسَرُ مَا فِيهِ الْجَمَالُ بِأَسْرِهِ

مليحٌ جلا لي ضوء بدرٍ كماله
ولكن أراني يومَ بدرٍ بهجره
أميرُ جمالٍ ما انتضى سيفَ ناظرٍ
على عاشقٍ إلا وقام بنصره
غزالٌ غزا قلبي بفاترٍ طرفه
وأحرقَ أحشائي بباردِ ثغره
وقد كان عهدي الثرُ في البحرِ قبلما
رأيتُ رضاها منه يجري بدره

— مقطوعة: يا مُمرضِ جنبيه يا متلفه¹:

يا مُمرضِ جنبيه يا متلفه
كم تتلفُ حجراً ولا تتصفه
رقوا إني بكم حلف لسي
في حبكم المنام لا يعرفه

¹ جاءت هذه المقطوعة في فوات الوفيات هكذا:

يا مُمرضِ جسمٍ وصيه بالتيه أوردت فواده بحار التيه
لا يطلب مضنى مغرم فيه سوى إبلاغ حويجة له في فيه

— مقطوعة: وما اسمٌ بلا جسمٍ وتُمنِّكه يدٌ:

وما اسمٌ بلا جسمٍ وتُمنِّكه يدٌ
وأحقرُ شيءٍ فيه أشرفُ ما فيه
يُقابِلُهُ بالكسرِ مَنْ رَامَ جَبْرَهُ
ويُضعِفُهُ بالضربِ حينَ يُقوِّيه

— مقطوعة: أشدُّ الهوى العذريِّ عِنْدِي أَلَذُّهُ:

أشدُّ الهوى العذريِّ عِنْدِي أَلَذُّهُ
ووقدُ الهوى سهلٌ لَدَيَّ ووقدُ
وقفتُ بطرفي والدموعُ تَنْبِيهُ
أشأفتُ قلبي والغرامُ يَجْدُهُ
وذي قامةٍ كالرُمحِ تقفُ قَبْلَهُ
لَهُ ناظرٌ كالسيفِ أحمِ شَحْدَهُ
يُنَابِذُ فِي حَرْبِ الهوى بِصُنُودِهِ
وأسرُعُ شيءٍ في المواعيدِ نَبْدُهُ
تَفَرَّدْتُ حُبًّا مَذْ تَقَرَّدُ فِي الهوى
جَمَالًا كِلَانًا وَاحِدُ الدَّهْرِ فَذُهُ
سَقَتِ رُبْعَهُ وَطَفَاءُ رَخْوٍ مِلَاطُهَا
تَجُودُ بِهِ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرْدُهُ

— مقطوعة: غَنَيْتُ بِالْمَحْبُوبِ عَمَّا يُشْتَهَى:

غَنَيْتُ بِالْمَحْبُوبِ عَمَّا يُشْتَهَى
وَالدَّهْرُ قَدْ آمَنَنِي مِنْ نَزْعِهِ
فَحَمَرُهُ وَوَرْدُهُ وَأَسُهُ
مِنْ رِيْقِهِ وَخَدُّهُ وَصُدْغِهِ

— مقطوعة: وَشَايِنِ يَسْلُبُ الْعُقُولَ وَلَا:

وَشَايِنِ يَسْلُبُ الْعُقُولَ وَلَا
يُفْهِمُهَا فِي الْهَوَى فَيَهْمُهَا
تَغْزِلُ الْحَاطَّةُ وَكَمْ فَتَكَتْ
جَدِيدَةُ السَّحْرِ لَمْ تَزَلْ أَبَدًا
حَدِيثُهَا فِي الْهَوَى وَمَغْزَلُهَا

— مقطوعة: غَنَيْنَا بِهِ عَنْ كُلِّ لَهْوٍ وَلَذَّةٍ:

غَنَيْنَا بِهِ عَنْ كُلِّ لَهْوٍ وَلَذَّةٍ
وَقَدْ كَمَلَتْ أَوْصَافُهُ وَنَعْوَتُهُ
فَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَسْبُهُ الصَّدُّ وَالْقَلَى
وَمَنْ فَاتَنَّا يَكْفِيهِ أَنَا نَفْوَتُهُ

— مقطوعة: جَفَنِي بِكُمْ مَنَامُهُ طَلَّقَهُ:

جَفَنِي بِكُمْ مَنَامُهُ طَلَّقَهُ

كم أرفو فؤاداً هجركم مزقه

يا من هجروا طرفي محبوبه كرى

بالله عسى الخيال أن يطرقه

— مقطوعة: يا ذا الذي صدَّ عن مُحبٍّ:

يا ذا الذي صدَّ عن مُحبٍّ

به أذاب الغرام قَلْبَهُ¹

مَالِكٌ فِي الْهَجْرِ مِنْ دَلِيلٍ

أَكْثَرُ مَذَلٍّ عُلُوُّ قُبَّةِ

— مقطوعة: لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِ عَاشِقٍ رَمَقًا:

لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِ عَاشِقٍ رَمَقًا

لما بدا والعيونُ ترمقه

وكان عزمي عن السلو إذا

عنفني العاذلون يوثقه

¹ جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات هكذا: ((أذاب فيه الغرام قَلْبَهُ)).

وَكَيْفَ يَسْأَلُوهُ مُغْرَمٌ دَنَفٌ
يَرَى جَمِيعَ الْوُجُودِ يَعْتَسِفُهُ

— مقطوعة: أَتَرَاهُ لَمَّا جَارَ فِي أَخْلَاقِهِ:

أَتَرَاهُ لَمَّا جَارَ فِي أَخْلَاقِهِ
عَلِمَ الَّذِي يَجْرِي عَلَى مُسْتَأَقِهِ
طَبِيٍّ يَزِيدُ عَلَى الطَّبِيِّ فِي فَتْكَهَا
وَعَلَى هِلَالِ الْأَفْقِ فِي إِسْرَاقِهِ
كَمْ حَيٍّ صَبَّ مُغْرَمٌ فِي حُبِّهِ
وَمَحَبَّةٌ قَدْ مَاتَ فِي أَشْوَاقِهِ
أَسْرَ الْقُلُوبِ بِأَسْرَاقِهِ
فَاللَّهُ يَحْكُمُهُ عَلَى عِشَاقِهِ

— مقطوعة: كَمْ قُلْتُ مُغَالِطاً لَكِي أَسْأَلُهُ:

كَمْ قُلْتُ مُغَالِطاً لَكِي أَسْأَلُهُ
بِإِلَهِ دَمِ الْمُحِبِّ مَنْ حَلَّلَهُ
قَتَلِي لَكَ بِالصُّدُورِ مِنْ سَبَلِهِ
مَنْ يَعْذِلُنِي عَلَيْكَ فَالْسَّبُّ لَهُ

— مقطوعة: قُلْتُ وَقَدْ أَقْبَلَ يَسْعَى بِهَا:

قُلْتُ وَقَدْ أَقْبَلَ يَسْعَى بِهَا

صَفَرَاءَ تَحْكِي فِعْلَ عَيْنِي

إِنْ قِسْتَهُ بِالشَّمْسِ فِي حُسْنِهِ

فَالشَّمْسُ فِي قَبْضَةٍ كَفَيْتَهُ

— مقطوعة: قَلِقَ يَحْنُ إِلَى الْأَجِيرِ قَلْبُهُ:

قَلِقَ يَحْنُ إِلَى الْأَجِيرِ قَلْبُهُ

وَتَشَوْفُهُ مِنْ حُبِّهِ هَضْبَانُهُ

أَخْفَى الْهَوَى فُخْفَاهُ دَمْعُ جَفُونِهِ

وَالْحُبُّ تَظْهَرُ سِرُّهُ آيَاتُهُ

صَبُّ يَحْنُ بِحَيِّ أَهْلِ وَدَادِهِ

وَيَلْذُقُ فِيهِمْ حَيْفَهُ وَمَمَاتُهُ

مَا قَيْسُ قَيْسٍ فِي الْغَرَامِ بِهِ وَلَا

عَبْرَتُ بَطْرِفٍ كَثِيرٍ عِبْرَاتُهُ

— مقطوعة: خَطُّ الْعِذَارِ إِنْ بَدَا:

خَطُّ الْعِذَارِ إِنْ بَدَا أَسْعَدُ مِنْهُ حَظُّهُ

مِنْ بَذْرِ تَمِّ زَاهِرٍ يَسْبِي الْعُقُولَ لَحْظُهُ

لَمَّا جَلَا الْحُسْنَ حَلَا مَرَشْفُهُ وَلَفْظُهُ

لَا مَ عَلَيْهِ عَازِلِي فَلَمْ يَرْقُ لِي وَعَظُهُ

— مقطوعة: كَمْ شَمَلُ صَبْرٍ هَجْرُكُمْ فَرَقَهُ:

كَمْ شَمَلُ صَبْرٍ هَجْرُكُمْ فَرَقَهُ

وناظرٍ بعدكم أرقه

فكم رنا طرفُ عليلٍ بكم

وكم تركتم مهجةً شيقه

طوراً تجودون بوصلٍ أرى

أيامه من قريكم مشرقه

وتارة تبذون هجراً فيها

وليس حشًى نحوكم سيقه

نشفتموني في هواكم وفي

لخنتموا رأسي في جردقه

— قصيدة: لَا وَلَيْنِ الْمَعَاطِفِ الْمِيَالَةُ:

لَا وَلَيْنِ الْمَعَاطِفِ الْمِيَالَةُ

وحبيبٍ حكى الهلالُ جماله

ليس هنكُ المحبُّ في الحبِّ عاراً

حينَ ترنُّو اللواحظُ القتالة

وبروحى ظبىّ أطاع فؤادي
 وجذّه فيه إذ عصى عذالّة
 قمر زادة العذار جَمالاً
 فلهذا أمسى به بدر هالة
 صنمّ ناطق هُداي غرامي
 في هواه والعذلّ عندي ظلّله
 عبد النَّاسُ خالَهُ فَأَتَتْهُ
 أنبياءٌ من صُدُغِهِ برسالة
 إن رنا مِنْهُ طرفه فغزالٌ
 لو بدا مِنْهُ وَجْهُهُ فغزالّة
 قالَ لَمَّا دَنَا الرَّحِيلُ وَفَاضَتْ
 مِنْ جُفُوفِي سَوَابِقُ الدَّمْعِ، مَالَهُ؟
 أرْتِراه بِمَا أَلْفَيْهِ غُرٌّ
 أَمْ دَرَى ما أَجْنُهُ وَتَبالَه

— مقطوعة: دَمْعٌ تَنَأَثَرَ عِقْدُهُ:

دَمْعٌ تَنَأَثَرَ عِقْدُهُ وَهَوَى تَحَكَّمَ عِقْدُهُ
 يا للهوى من معرضٍ يصلُ التَّعُتُّبُ صَدُّهُ
 لَوْلاً مُدَامَةُ رِيْقِهِ ما مَالَ سُكْرًا قَدُّهُ
 ثَغْرٌ يَبَاحُ شَهِيدُهُ فَعَلَامَ يُحْمَى شَهِدُهُ

لَمْ يَكْسِنِي بُرْدُ الضَّنَا وَأَبْيَكَ إِلَّا بَرْدُهُ
إِنِّي لَأَشْكُو فِي الْهَوَى¹ مَارَاحُ يَفْعَلُ خُدُّهُ
مَا كَانَ يَعْرِفُ مَا الْجَفَا حَتَّى تَفْقَحَ وَرْدُهُ

— مقطوعة: فِدَتِكَ نَفُوسٌ قَدْ حَلَا بِكَ حَالُهَا:

فِدَتِكَ نَفُوسٌ قَدْ حَلَا بِكَ حَالُهَا
وَأَضْحَى صَحِيحاً فِي هَوَاكَ اعْتِلَالُهَا
مَلَكَتْ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ بِطَلْعَةِ
بِرُوقِ جَمِيعِ النَّاظِرِينَ جَمَالُهَا
وَرَّادَ بِكَ الْحُسْنَ الْبَدِيعُ نَضَارَةَ
كَانَكَ فِي وَجْهِ الْمَلَاةِ خَالُهَا
سَلَبَتْ قُودَ الصَّبِّ مِنْكَ بِقَاتِلَةِ
حَكَى الْقُصْنِ مِنْهَا مِثْلُهَا وَاعْدَالُهَا
فَصِيلٌ مُغْرَماً حَمَلْتَهُ مِنْكَ فِي الْهَوَى
بَلَابِلٌ وَجَدَ لَا يُطَاقُ احْتِمَالُهَا

¹ هذان البيتان الأخيران وردا لوحدهما في شذرات الذهب.

— قصيدة: يَا دَهْرُ قَدْ سَمَحَ الْحَبِيبُ بِقُرْبِهِ:

يَا دَهْرُ قَدْ سَمَحَ الْحَبِيبُ بِقُرْبِهِ
بَعْدَ النَّوَى وَأَمِنْتُ عَذَبَ مُحِبِّهِ
تَالله لَا آخَذْتُ صَرْفَكَ بَعْنَمَا
صُرِفَ الْبُعَادُ وَلَا جَنَحْتُ لِعَتْبِهِ
أَبْدَى النَّوَى غَدْرًا فَأَبْدَى الْمَلْتَقَى
إِحْسَانَ صَفْحِي عَنْ إِسَاءَةِ ذَنْبِهِ
بِتَنَا وَكُلُّ يَشْتَكِي لِرَفِيقِهِ
بَعْضَ الَّذِي فَعَلَ الْهَوَى فِي قَلْبِهِ
لَفْظٌ يَرِقُ كَمَا تَرَقُّ مُدَامَةً
ذُو غُرَّةٍ وَدَ الزَّمَانُ لَوَانِهِ
يَجْلُو بَنِيرَهَا جَنَّةَ خُطْبِهِ
وَمَنَاقِبُ غُلُوبَةٍ لَمَّا بَدَّتْ
فَرَحَ الظَّلَامِكِ وَظَنَهَا مِنْ شَهْبِهِ
مَوْلَايَ دَعْوَةٌ مَنْ لَوْ اقْتَرَحَ الْمُنَى
وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْتَ غَايَةُ إِرْبِهِ
وَافِي إِلَى حِفْظِ الْوُدَادِ فَوْفِهِ
وَدَعَا يُرْجِي الْعَهْدَ مِنْكَ فَلَبَّهِ

— مقطوعة: سَلَامٌ مَشُوقٍ مُغْرَمٍ الْقَلْبِ صَبَّهِ:

سَلَامٌ مَشُوقٍ مُغْرَمٍ الْقَلْبِ صَبَّهِ

إلى حرم القدس الشريف فقربه

سلام محب كلما هب طارق

مِنَ الرِّيحِ يَلْقَى نَشْرَكُمْ فِي مَهَبِهِ

تَذَكَّرَكُمْ وَالشَّوْقُ يَجْرِي بِدَمْعِهِ

على خده والوجد يسري بقلبه

لقد كان يرجو أن يبيت اشتياقه

شِفَاهَا فَلَمْ يَقْدِرْ فَبِثَّ بِإِلَّهِ

وقد كان يهديه من النجم نوره

فَمَذَّ غَابَ عَنْهُ ضَلَّ مَا بَيْنَ صَحْبِهِ

— مقطوعة: سَكَنَ الزِّيَادَةَ وَهُوَ بَدْرٌ كَامِلٌ:

سَكَنَ الزِّيَادَةَ وَهُوَ بَدْرٌ كَامِلٌ

يَسْبِي عُقُولَ الْعَاشِقِينَ بِحَرْصِهِ

كَمَلَتْ مُحَاسِنُهُ بِخَطِّ عِذَارِهِ

وَبِهِ الْأَمَانُ لِحُسْنِهِ مِنْ نَقْصِهِ

— قصيدة: مَنْ لِي بِهِ رَقٌّ مُعْنَى فِيهِ رَوْنَقُهُ:

مَنْ لِي بِهِ رَقٌّ مُعْنَى فِيهِ رَوْنَقُهُ

ما كان أكملهُ لو صحَّ موثَقُهُ

لَدُنْ القَوَامِ حَلَّتْ أَلْفَاظُهُ فُسبَى

قَلْبِي مَمْنُوقَةُ الزَاهِي وَمَنْطَقُهُ

اسْتَنْظَرُ الدَّهْرُ يَغْفُو عَنْ مَمَانَعَتِي

فِيهِ كَأَنِّي مِنَ الْإِيَّامِ أُسْرِقُهُ

يَا حُسْنَهُ أَنْتَ تَنْزِيهِ فَرْطَ جَفَوَتِهِ

فَلَمْ أَمْرَتْ قُلُوبَ النَّاسِ تَعَشَّقُهُ

بِاللهِ يَا رَاهِقَ الْأَجْفَانِ رَقَعَ عَلَى

نُفُوسِ النَّاسِ لَمْ يَزَلْ هُمْ يُورِقُهُ

مَجْدُ مَطْلٍ مِيعَادِي وَمُخْلَفُهُ

مُجَرَّدُ ثَوْبٍ سَلَوَالِي وَمُخْلَقُهُ

مَا ضَنَّ بِالْأَمْعِ يَوْمَ الْبَيِّنِ فَيْكَ فَهَلْ

إِنْ ظَنَّ مِنْكَ لَهُ وَصْلًا تَحَقَّقُهُ

يَا أَخْذَ الْقَلْبِ أَرَدَهُ عَلَى جَسَدِي

أَوْ حَاذِرُ اللهِ فِيهِ أَنْ تُحَرِّقُهُ

لَا أُسْتَكِي مِنْكَ فِي وَجْدٍ تَخْصُ بِهِ

يَا رَبِّ قَدْ ضَاعَ قَلْبِي فِي مَحَبَّتِهِ

فإن لي بعضُ صبرٍ أَسْتَعِينُ بِهِ
تَرْفُوهُ كَفُّ التَّأْسِي إِذَا تَمَزَّقَهُ
مَا بَيَّنَّ غَدْرٍ وَغَدْرٍ لِي الْفَقُّهُ

— مقطوعة: يَا اللَّهِ، يَا ذَا النُّفُورِ رِقَّ عَلَى:

يَا اللَّهِ، يَا ذَا النُّفُورِ رِقَّ عَلَى
مُغْرَى الْحِشَا فِي هَوَاكَ مُضْنَاهَا
وَعَامِلِ اللَّهِ فِي مَوَاصِلَتِي
مَا خَابَ عِنْدَ يُعَامِلِ اللَّهِ

— مقطوعة: قَامَتْ حُرُوبُ الزَّهْرِ مَا:

قَامَتْ حُرُوبُ الزَّهْرِ مَا بَيْنَ الرِّيَاضِ السُّنْدُسِيَّةِ
وَأَتَتْ جُيُوشُ الْأَسْتَفْ زَوْرُودَةِ الْوَرْدِ الْجَنِيَّةِ
لَكِنَّهَا كُسِرَتْ لِأَنَّ الْوَرْدَ شَوَّطَتْهُ قُوَّةُ

— مقطوعة: لَا تَطْلُبَنَّ الْقُوتَ مِنْ مَعْشَرٍ:

لَا تَطْلُبَنَّ الْقُوتَ مِنْ مَعْشَرٍ
مَا عِنْدَهُمْ لَطْفٌ وَلَا رَحْمَةٌ
مَنْ لَيْسَ فِي لَحْمِهِمْ فَضْلَةٌ
فَلَيْسَ فِي فَضْلِهِمْ لَحْمَةٌ

— مقطوعة: يَا مُدَّعِ أَنْ الْغَرَامَ بِقَلْبِهِ:

يَا مُدَّعِ أَنْ الْغَرَامَ بِقَلْبِهِ
أَفْنَى تَجْلُدُهُ وَطَارَ بِلَبِّهِ
مَنْ كَانَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ صَادِقًا
أَخْفَى الْحَبِيبَ وَلَنْ يَبُوحَ بِحُبِّهِ
أُيُورِمُ وَصَلَ مُحِبٍّ مِنْ دُونِهِ
بَيْضٌ تُسَلُّ بِأَسْوَدٍ مِنْ هُدْبِهِ
هِيَهَاتَ مُتْ كَمَدًا بِمَا قَدْ ضَمَّ
مِنْكَ الْحُشَا وَخَفِيَ الْهُوَى أَوْ ذَعَبَهُ

— قصيدة: مَا شَيْتَ مِنْ عِبَاءِ الْغَرَامِ وَحَمَلِهِ:

مَا شَيْتَ مِنْ عِبَاءِ الْغَرَامِ وَحَمَلِهِ
دَغَّ عَنْكَ وَيْلًا لَا يَقُومُ بِطَلِّهِ
يَا مُسْعِدِي فِي حَمْلِ أَثْقَالِ الْهُوَى
مُتَجَمِّلًا تَبْغِي مَعُونَةَ حَمَلِهِ
هُوْنٌ عَلَيْكَ مِنَ التَّكَلُّفِ وَاسْتَرْخِ
لَيْسَ الْفَقِيدُ كَمَنْ يَبُوحُ بِجُوعِهِ
يَا مَنْ لَهُ سَوْقُ الْجَمَالِ يَدْلُهُ
فِي حُبِّ مَعْشُوقِ الْفُؤَادِ بَدْلُهُ

مُحَكَّمٌ أَعْطَاهُ مُلْكَ جَوَانِحِي
مَلِكُ الْجَمَالِ أَقْلُهُ وَأَجْلُهُ
يَا بَدْرَ رُقٍ لَذِي وَدَادٍ صَادِقٍ
لَمْ تَبْلُهُ الْأَشْجَانُ لَوْ لَمْ تُبْلِهِ
فَبِمَاءِ حُسْنٍ قَدْ عَزَزْتَ بِصَوْنِهِ
وَبِمَاءِ دَمْعٍ قَدْ ذَلَلْتَ بِمَذَلِهِ
جَدُّ لِي بَعِيشٍ بِالرِّضَا مِنْكَ لِنَقْضِي
وَإِذَا اسْتَحَالَ بَعِيشُهُ فَبِمِثْلِهِ
قَدْ كُنْتُ أَشْكُو مِنْ صُدُودِكَ بَغْضَهُ
فَالآنَ كَيْفَ وَقَدْ بَلَّيْتُ بِكُلِّهِ
يَا مَوْقِفَ الْبَيْنِ الَّذِي قَدْ كَانَ لِي
عِلْمًا بِنَارَاتِ الْهَوَى مِنْ قَبْلِهِ
كَمْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا بِشَكَايَةٍ
أَخَذْتُ عَلَى لَيْلِي مَجَامِعَ سَبْلِهِ
مُتَوَصِّلًا مِنْ ذَا الزَّمَانِ وَجَوْرِهِ
مُتَوَصِّلًا لِابْنِ الْأَثِيرِ وَعَدْلِهِ
حَتَّى نَفَى ظَلَمَ الضَّلَالِ بِشَمْسِيهِ
عَنِّي وَحَرَّ الْحَادِثَاتِ بِظُلْمِهِ
عَرَّفَ بِهِ الشَّرَفُ الْمُئِنِّفُ بِيَابِهِ
لَتَكُونَ جُنْتُ بَجْنَسِهِ وَبِفَضْلِهِ

المُحْسِنِينَ لِمَنْ أَسَاءَ زَمَانُهُ
وَتَغَرَّبَتْ أَوْطَانُهُ عَنْ أَهْلِهِ
فِي الْفِرْعَ مَا فِي أَصْلِهِ وَزِيَادَةُ
كَالْغُصْنِ خُصًّا بِمَا جَنَى مِنْ أَكْلِهِ
وَالسَّهْمِ يَرْسِلُهُ الَّذِي يَرْمِي بِهِ
فَإِذَا أَصَابَ رَمِيَّةً فَبِنَصْلِهِ

— مقطوعة: أُمْسَى الْفُؤَادُ عَلَى تَلْهُبِ جَمْرِهِ:
أُمْسَى الْفُؤَادُ عَلَى تَلْهُبِ جَمْرِهِ
كَلِفًا يَمِنْ فِتْنِ الْأَنَامِ بِسِحْرِهِ
قَمَرٌ غَيَّبَ بِرَبِّهِ عَنْ قَرْفِ
وَكَذَا غَيَّبَ بِنُورِهِ عَنْ بَدْرِهِ
أَفْنَى الْفُؤَادُ بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ
فَالْعَاشِقُونَ بِأَسْرِهِمْ فِي أَسْرِهِ
فَكَانَ ضَوْءُ الصُّبْحِ نُورُ جَبِينِهِ
وَكَأَنَّ ظِلْمَةَ لَيْلِهِ مِنْ شَعْرِهِ

— قصيدة: مَتَى يَعْطِفُ الْجَانِي وَتُقْضَى وَعْدُهُ:
مَتَى يَعْطِفُ الْجَانِي وَتُقْضَى وَعْدُهُ
فَقَدْ طَالَ مِنْهُ هَجْرُهُ وَصُدُودُهُ

أَشَدُّ نِفَاراً مِنْ مَنَامِي عَطْفُهُ
وَأَكْذَبُ مِنْ طَيْفِ الْخِيَالِ وَغُودُهُ
هَلَالٌ بَعِيدٌ النَّيْلِ مِنْ ذَا يِرُومِهِ
وَمَرْعَى خَصِيبِ الرُّوْضِ مَنْ ذَا يِرُودُهُ
يَسْلُ سَيُوفَ اللَّحْظِ مِنْهُ فَبَيْضُهُ
إِذَا رَامَ فَتْكَاً فِي الْمُحِبِّينَ سُودُهُ
إِذَا أَسْرَتِ صَبّاً سَلَاسِلُ شَعْرِهِ
فَذَاكَ الَّذِي مَا أَنْ تَقَفَ قُبُودُهُ
يَسُوقُ إِلَى قَلْبِي الضَّنَّ وَيَقُودُهُ
وَيُطْرَدُ عَنْ جَفْنِي الْكَرَى وَيُذَوِّدُهُ
يَرِينِي قَضِيبُ الْيَانِ مِنْهُ نَوْاضُهُ
وَيُحْكِي كَثِيبَ الرَّمْلِ مِنْهُ قُعُودُهُ
وَإِنْ جِئْتُ أَبْغِي وَصْلَهُ زَادَ صَدَّهُ
كَأَنِّي مِنْ هَجْرَانِهِ اسْتَزِيدُهُ
كَأَنَا قَسَمْنَا نَصْفَ شُعْبَانِ بَيْنَنَا
عَلَى حُكْمٍ مَا يُرْضِي الْهَوَى وَيُرِيدُهُ
حَلَاوَتُهُ فِي ثَغْرِهِ وَكَلَامِهِ
وَنِيرَانُهُ فِي مُهْجَتِي وَوَقِيدُهُ

— مقطوعة: مَالِكٌ قَدْ أَحَلَّ قَتْلِي بِرُمَحِ الْقَدِّ:
مَالِكٌ قَدْ أَحَلَّ قَتْلِي بِرُمَحِ الْ—
قَدْ مِنْهُ وَرَاحَ قَلْبِي طَعِينَةً
ليس يفتي سواه في قتلٍ صَبًّا
كيف يفتي ومالكٌ في المدينة¹

— مقطوعة: لَوْ رَقَّ فُؤَادُهُ عَلَى مُغْرَمَةٍ:
لَوْ رَقَّ فُؤَادُهُ عَلَى مُغْرَمَةٍ
ما ضَنَّ بنظم الدُرِّ مِنْ مَبْسَمَةٍ
ما قصدي لثمة ولكن غرضي
بِالْأَشْيَاءِ حَوِيلَهُ فِي فَمَةٍ

— قصيدة: أَلْخَافُ صَرْفَ الدَّهْرِ أَمْ حِذَانِيهِ:
أَلْخَافُ صَرْفَ الدَّهْرِ أَمْ حِذَانِيهِ
والدَّهْرُ لِلْمَنْصُورِ بَعْضُ عَبِيدِهِ
مَلِكٌ نَدَاهُ فَكَّنِي وَانْتَشَانِي
مِنْ مِخْلَبِيهِ وَمِنْ أَسَارِ قُيُودِهِ

¹ المأثور هو: ((لا يفتي ومالك في المدينة)). قالوا هذا؛ في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حين قال: "يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْبَابِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَلَا يَجِدُونَ عَالِمًا أَكْثَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ". رواه الترمذي. وقد رأى كثير من أئمة المسلمين؛ أن المقصود هو الإمام مالك.

مَلِكٌ إِذَا حَدَّثَتْ عَنْ إِحْسَانِهِ
 حَدَّثَتْ عَنْ مُبْدِي النَّدَى وَمُعِيدِهِ
 سَادَ الْمُلُوكَ بِفَضْلِهِ وَبِنَفْسِهِ
 وَالْغُرَّ مِنْ آبَائِهِ وَجُدُودِهِ
 وَإِذَا تَرَنَّمْتَ الرُّوَاةُ بِمَدْحِهِ
 وَثَنَانُهُ اهْتَزَّتْ مَعَاطِفُ جُودِهِ
 لِأَبِي الْمَعَالِي رَاحَةً وَكَافَةً
 كَالْغَيْثِ يَوْمَ بَرُوقِهِ وَرُعُودِهِ
 صَبَّ بِتَحْصِيلِ الشَّاءِ وَجَمْعِهِ
 كَلَّفَ بِتَذَلِّ الْمَالِ أَوْ تَبْدِيدِهِ
 مَا زَالَ يَسْتَمِلُ حُسْنَهُ نَوَالِهِ
 حَتَّى أَقْرَبَ لِسَانُ حُسْنُودِهِ
 سَلَ عَفْوُهُ وَحُسَامُهُ فِي غَمْدِهِ
 وَحَذَارٍ ثُمَّ حَذَارٍ مِنْ تَجْرِيدِهِ
 يَغْشَى الْوَعَى مُتَلَفِّعًا بِرِدَائِهِ
 وَيَخُوضُهَا مَتَسَرِّبِلًا بِحَدِيدِهِ
 فَتَرَى الشُّجَاعَ يَفِرُّ مِنْهُ مَهَابَةً
 وَالْمَوْتَ بَيْنَ لَهَايَةٍ وَوَرِيدِهِ
 يَتَقَهَّرُ الْجَيْشُ اللَّهَامَ مَخَافَةً
 مِنْهُ إِذَا وَافَى أَمَامَ جُنُودِهِ

وَتَعُودُ مُخَفِّقَةً الرَّجَاءَ عِدَّتُهُ
وَقُلُوبَهَا خَفَافَةً كِبُودِهِ
فِي مَعْرَكٍ إِنْ كَسُرَتْ فِيهِ الْقَنَا
وَصَلَ الْحُسَامُ رُكُوعَهُ بِسُجُودِهِ
جَارَى الْغَمَامَ فَفَاتَهُ بِنَوَالِهِ
كَرَمًا وَفَاقَ كَثِيرَهُ بِزَهِيدِهِ
وَالدِّينُ أَثْلُهُ وَشَادَ مَنَارَهُ
حِينَ اعْتَنَى بِحَقُوقِهِ وَحُدُودِهِ
وَالْمَلَائِكُ لَمْ يَنْفَكْ يُعْمَلُ عَزَمَهُ
فِي نَصْرِ ظَاهِرِهِ وَنُصْحِ سَعِيدِهِ
إِنَّ الْمَتَابَ وَالْأَمَلِ الْمُنْزِلَ
طَوَّعَا لِسَانِي وَعَدِهِ وَوَعِيدِهِ
وَأَرَى الْحَيَاةَ لَذِيذَةً بِحَيَاتِهِ
وَأَرَى الْوُجُودَ مَشْرِقًا بِوُجُودِهِ
هَاجَرْتُ نَحْوَ مُحَمَّدٍ لَمَّا رَأَيْتُ
سِتَّ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ فِي تَأْيِيدِهِ
سِتَّ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ فِي تَأْيِيدِهِ
وَنَظَّمْتُ دُرَّ مَدَائِحِي فِي جِيدِهِ
وَنَظَرْتُ نُورَ جَلَالِهِ وَوَرَدْتُ بَخْ
رَ نَوَالِهِ وَلِبَسْتُ وَشِي بُرُودِهِ

وَمَلَأْتُ عَيْنِي مِنْ مَحَاسِنِهِ الَّتِي
مَلَأَتْ عُيُونَ عَدُوِّهِ وَحَسُودِهِ
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْ أَجَلٍ زَمَانِهِ
قَدْرًا وَوَاحِدٍ عَصْرِهِ وَفَرِيدِهِ
وَأَفَدْتُ سَمْعِي مِنْ فَكَاهَةِ مُمْتَعٍ
الْأَلْفَاطِ مَقْبُولِ الْكَلَامِ مُفِيدِهِ
فَصَدَرْتُ عَنْ صِنَقَاتِ مَشْكُورِ النَّدَى
وَالْجُودِ مَشْكُورِ الْفِعَالِ حَمِيدِهِ
فَلَوْ أَنَّنِي خَيْرْتُ مِنْ دَهْرِي الْمُنَى
لَاخْتَرْتُ طَوْلَ بَقَائِهِ وَخُلُودِهِ
يَا آلَ أَيُّوبَ جَزِيلِ الْخَاشِيَةِ
عَنْ مُحْسِنٍ مَدَحِ الْمُلُوكِ مُجِيدِهِ
وَنِعْمَتُمْ مَا أَفْتَرُ عَنْ ثَغْرِ الضُّحَى
صُبْحُ وَمَا فَضَحَ الدُّجَى بِعَمُودِهِ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَازَ الْعُلَى
فَتَنَى عِنَانَ الْفِكْرِ عَنْ تَحْدِيدِهِ
أَمَّا الزَّمَانُ فَأَنْتَ نُرَّةٌ عَقْدِهِ
وَسَنَانُ صَعْدَتِهِ وَبَيْتُ قَصِيدِهِ
وَالشَّعْرُ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ يَهْتَزُّ عَنْهُ
دَسْمَاعِهِ وَيَمِيلُ عِنْدَ تَشِيدِهِ

فاسلمَ لِمَلِكٍ بَلْ لِمَجْدٍ أَنْتَ فِي
تَأْسِيسِهِ وَاللَّهِ فِي تَأْيِيدِهِ

— مقطوعة: يَشْكُو إِلَيْكَ مُتَّيِّمٌ:

يَشْكُو إِلَيْكَ مُتَّيِّمٌ صَبًّا جَفَاهُ هُجُوعُهُ
يَعْصِي الْعَزُولَ عَلَى هَوَى بَيْتِكَ لَا يَزَالُ يُطِيعُهُ
يَكْفِيكَ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى مَا ضُمَّنَتْهُ ضُلُوعُهُ
إِنْ لَمْ تَرْقَ لَهُ فَقَدْ رَقَّتْ عَلَيْهِ دُمُوعُهُ

— قصيدة: تَدَارَكُهُ قَبْلَ الْبَيْنِ فَالْيَوْمَ عَهْدُهُ:

تَدَارَكُهُ قَبْلَ الْبَيْنِ فَالْيَوْمَ عَهْدُهُ
وَجَدَ مَعَهُ بِالذَّمْعِ فَالذَّمْعُ جَهْدُهُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْوَدَاعِ مَوَاقِفُ
يَذُوبُ لَهَا رِخْوُ الْجَمَادِ وَصَلْدُهُ
خَلِيلِي مِنْ بَانَ الْمُصَلَّى وَرَنْدُهُ
سُقِيَ بِالْحَيَا بَانَ الْمُصَلَّى وَرَنْدُهُ
عَلَامَ رَمَتْ قَلْبِي هُنَاكَ ظِلَاوُهُ
وَقَدْ كُنْتُ قَدَمًا تَتَّقِينِي أَسَدُهُ
بُلَيْتُ بِحَظٍّ كُلَّمَا رُمْتُ مَقْصِدًا
يَسَاقُ مِنْ جَانِبِ الدَّهْرِ ضِدُّهُ

أَجِيرَانَنَا إِنَّا وَإِنْ بَرَّحَ الْهَوَى
وَعَزَّ عَلَيْنَا بَعْدَ مَنْ طَالَ بَعْدُهُ
لِنَأْسُو جَرَاحَاتِ الْهَوَى بِتَعْلُلِ
يُشَارُ بِأَطْرَافِ الْأَمَانِي شَهْدُهُ
يَلْذَّ بِكُمْ سَهْلُ الْغَرَامِ وَصَعْبُهُ
وَيَحْلُو بِكُمْ هَزْلُ الْعِتَابِ وَجِدُهُ
تَعَالَوْا تَعِيدُوا الْوَصْلَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ
فَلَا رَأْيَ مِنَّا عِنْدَ مَنْ دَامَ صَدُّهُ
وَلَا تَقْتَحُوا لِلْعِتَبِ بَابَ فَرْبَمَا
يَعَزُّ عَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ سَدُّهُ
وَمُنْتَقِمٌ مِنِّي وَتَنْبِي عِنْدَهُ
مَقَالِي: وَهَذَا الْحُرُّ قَلْبِي عَبْدُهُ
وَلَوْ كَانَ لِي عَقْلٌ كَتَمْتُ فَإِنَّمَا
بَلْبٌ الْفَتَى يُدْرَى وَيُذْرَكُ رُسْدُهُ
سَكِرْتُ بِأَقْدَاحِ وَعَيْنَاهُ خَمْرُهَا
وَهَمْتُ بِبَيْسْتَانِ وَخَدَّاهُ وَرْدُهُ
رَعَى اللَّهُ لَيْلًا زَارَنِي فِيهِ وَاللَّجَى
يَكْتُمُهُ لَوْلَا تَضَوُّعُ نَدُّهُ
وَقَدْ نَظَّمْتُ صَدْرِي عِنَاقًا وَصَدْرَهُ
عُقُودَ الرِّضَا حَتَّى تَتَأَثَّرَ عِقْدُهُ

فَقَابَلْتُ وَجْهًا مُجْتَلَى الْعَيْنِ بَذَرُهُ
وَقَبَلْتُ نَعْرًا مُسْتَهْمَى النَّفْسِ بَرْدُهُ
تَرْقُقُ دُرُ الدَّمْعِ مِنْ مَتْنِ لِحْظِهِ
فَحَقَّقْتُ أَنَّ السَّيْفَ فِيهِ فَرْنُدُهُ
فَمَا بَالُهُ مِنْ بَعْدِ عُرْفٍ تَنَكَّرَتْ
خَلَاتُكُهُ حَتَّى تَغَيِّرَ عَهْدُهُ
كَذَلِكَ رَأَيْتُ الدَّهْرَ إِنْ يَصْنَفُ مِنْهَلًا
تَكَثَّرَ مِنْ حَوْضِ الْحَوَادِثِ وَرْدُهُ
أَقُولُ لِقَلْبِي وَالْغِرَامِ يَقُودُهُ
وَسَيْفُ التَّجَنِّيِ وَالتَّمَنِّيِ يَقْدُهُ
لَكَ اللَّهُ دَعَا قَوْلَ الْأَمَانِيِ وَخَلَّهُ
فَمَا كُلُّ مَقْدُوحٍ يُرَى لَكَ زِينَدُهُ
إِذَا لَمْ تَنْمِ لِلرُّوحِ وَالْجِسْمِ صُحْبَةً
فَأَيُّ حَبِيبٍ دَائِمٌ لَكَ وَدُهُ
سَأُسْرِي وَجَنُحُ اللَّيْلِ يَسْطُو ظِلَامُهُ
وَأَسْعَى وَقَلْبُ الشَّمْسِ يَلْفَحُ وَقَدُهُ
أَعْنِي عَلَى نَيْلِ الْعُلَى إِنَّنِي بِهَا
أَخُو كَلْفٍ لَا شَيْءَ عَنْهَا يَصُدُّهُ
أَرُومُ بِعَزَمِي فَوْقَ مَا دُونَ نَيْلِهِ
لِوَاءِ الْمَنَآيَا خَافِقُ الظِّلِّ بَنْدُهُ

وما شرفي إلا بنفسي وإن يكن
لقومي فخارٌ طاول النجم مجده
ولو كان تحصيلُ الفخارِ بنسبةٍ
تساوى إذا حدَّ الحُسامِ وغمده
ولا ذنب لي إلا الكمال على الصبا
فمن لي بعيبٍ أو بشيبٍ يردّه

— مقطوعة: المغمرم من ذكراكم يُقلقه:

المغمرم من ذكراكم يُقلقه
والعاني من أشواقكم تحرقه
والعاني من أشواقكم تحرقه
والعاشق فيك بلة تخنقه

— مقطوعة: ما للحشيش فضل عند أكلها:

ما للحشيشة فضل عند أكلها
لكنه غير مصروفٍ إلى رُشدِه
صفراء في وجهه خضراء في فيه
حمراء في عينيه سوداء في كبده¹

¹ جاء هذا البيت في شذرات الذهب هكذا:
((حمراء في عينه خضراء في يده * صفراء في وجهه سوداء في كبده)).

— مقطوعة: يَا رَبُّ أَخْوَى أَخْوَى لَمْ يَزَلْ:

يَا رَبُّ أَخْوَى أَخْوَى لَمْ يَزَلْ
يَعْطِفُنِي الْحُبُّ عَلَى عَطْفِهِ
كَأَنَّ رَوْضَ النَّيِّرَيْنِ انْتَبَتْ
تَرَوِي كَمَالَ الْحُسْنِ عَنْ وَصْفِهِ
مَنْ عَايَنَ الدَّهْشَةَ فِي وَجْهِهِ
دَرَى بِأَنَّ السَّهْمَ مِنْ طَرَفِهِ

— مقطوعة: لَوْ كُنْتُ فِينَا وَلِهَاءَ مُغْرَمًا:

لَوْ كُنْتُ فِينَا وَلِهَاءَ مُغْرَمًا
شَغِلْتُ بِالْحُبِّ عَنِ الشَّكْوَى
حَتَّى تَرَى أَيْسَرَ مَا نَلْتَقِي
أَعْظَمَ مَا تَحْكِي مِنَ الْبَلْوَى
مَا عَزَّ صَبُّ قَطُّ فِي صَبْوَةٍ
إِلَّا إِذَا ذَلَّ لِمَنْ يَهْوَى

— مقطوعة: لَنَا سَكْرَةٌ مِنْ خَمْرِ مُقْلَتِكَ النَّشْوَى:

لَنَا سَكْرَةٌ مِنْ خَمْرِ مُقْلَتِكَ النَّشْوَى
تَحَوِّذُ عَلَى ضَعْفِ الْعُقُولِ فَلَا تَقْوَى

بها العقلُ معقولٌ وحَالِي تحوَّلْتُ
ومالِكَ مِنْ مَنْ فسلْ لَهُ سَلَوِي

— مقطوعة: مَا بَيْنَ هَجْرِكَ وَالنَّوَى:

مَا بَيْنَ هَجْرِكَ وَالنَّوَى
قَدْ ذُبْتُ فِيكَ مِنَ الْجَوَى
يَا فَاتِنِي بِمَعَاطِفِ
سَجَدْتُ لَهَا قُضِبُ اللَّوَى¹
وَحَيَاةَ وَجْهِكَ لَا سَلَا
عَنْكَ الْمُحِبُّ وَلَا نَوَى
يَا مَنْ حَكَى بِقَوَائِمِهِ
قَدْ الْقَضِيبُ مُذْ² التَّوَى³
مَا أَنْتَ عِنْدِي وَالْقَضِيبُ
بِ اللَّذْنِ فِي حَدِّ سَوَى⁴

¹ سقط هذا البيت في فوات الوفيات.

² في شذرات الذهب: ((إذا)).

³ جاء في شذرات الذهب - بعد هذا البيت مباشرة - بيت كما يلي:

((ماذا أثرت على القلبي * ب من الصباية والجوى)).

⁴ جاء هذا البيت في فوات الوفيات، وشذرات الذهب هكذا:

((ما أَنْتَ عِنْدِي وَالْقَضِيبُ بِ اللَّذْنِ فِي حَالِ سَوَا)).

هَذَاكَ حَرَكُهُ الْهَوَا
ءُ وَأَنْتَ حَرَكْتُ الْهَوَى¹

— مقطوعة: لَمْ أَنْسَهُ لَمَّا أَتَى مُقْبِلًا:
لَمْ أَنْسَهُ لَمَّا أَتَى مُقْبِلًا²
أُولَانِي الْوَصْلَ وَمَا أَلَوَى
وَقَعْتُ بِالرَّشْفِ عَلَى ثَغْرِهِ
وَقَعَ الْمَسَاطِيلُ عَلَى الْخَلَوَى³

— مقطوعة: رَأَى رُضَابًا عَنْ تَسْلِيهِ:
رَأَى رُضَابًا عَنْ تَسْلِيهِ أُولُو الْعِشْقِ سَلَوُ
مَا ذَاقَهُ وَشَاقَهُ هَذَا وَمَا وَكَيْفَ وَلَوُ

— مقطوعة: قَامَ يَسْعَى لَيْلًا بِكَأْسِ الْحُمَيَّا:
قَامَ يَسْعَى لَيْلًا بِكَأْسِ الْحُمَيَّا
شَادِنٌ أَحْوَرَ جَمِيلٌ الْمُحَيَّا

¹ جاء هذا البيت في شذرات الذهب هكذا: ((هَذَاكَ حَرَكُهُ النَّسِيمَ وَأَنْتَ حَرَكْتَ الْهَوَى)).
² جاء هذا الشطر في الوافي بالوفيات، وفوات الوفيات هكذا: ((لَمْ أَنْسَ لَمَّا زَارْتَنِي مُقْبِلًا))؛ والآخر أسلم.
³ في الوافي بالوفيات: ((خَلَوَى))؛ بدون ألف ولام.

بَذْرُ عِزٍّ فِي كَفِّهِ شَمْسُ رَاحٍ
نُقِطَتْ مِنْ حَبَابِهَا بِالْثُرَيَّا
مَلَكَ الْقَلْبَ مِنْهُ ظَرْفٌ وَظَرْفٌ
وَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيًّا

— مقطوعة: يَا قَلْبُ صَبْرًا لِنَارِ:
يَا قَلْبُ صَبْرًا لِنَارٍ كَوْتُكَ فِي الْحُبِّ كَيًّا
هِيَئَاتَ تَأْمَنُ مِنْهَا وَأَنْتَ طَالِبُ دُنْيَا

— مقطوعة: جَلَا ثَغْرًا وَأَطْلَعَ لِي ثَنِيًّا:
جَلَا ثَغْرًا وَأَطْلَعَ لِي ثَنِيًّا
يَسُوقُ إِلَى الْمُحِبِّ بِهَا الْمَنَآيَا
وَأُنْشَدَ ثَغْرَهُ يَبْغِي افْتِخَارًا
أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَّلَعَ الثَّنِيَا

— مقطوعة: وَمُسْتَتِرٍ مِنْ سَنَا وَجْهِهِ:
وَمُسْتَتِرٍ مِنْ سَنَا وَجْهِهِ
بِشَّمْسٍ لَهَا ذَلِكَ الصُّدْعُ فِي
كَوَى الْقَلْبِ مِنِّي بِلَامِ الْعِذَا
رِ فَعَرَّفَنِي أَنَّهَا لَامُ كَيِّ

— مقطوعة: وخمري الخُودُ يُريدُ بُعدي:

وخمري الخُودُ يُريدُ بُعدي

وقلبي بالصُّدودِ كواه كَيَّا

فَقَالَ الْوَجْدُ يَا نَارُ اسْتَرِيدِي

وَقَالَ الشَّوْقُ لِلْأَجْفَانِ هَيَّا

محمد بن عبد الحق

ابن سليمان البعري الكومي، وبقال البطوي،

(ابو عبد الله)¹

كان فقيهاً، وحافظاً، ومتكلماً، وراويّة محصلاً. له براعة في العلوم، وتقنن في الخط الجميل؛ وهو قويّم الضبط سليم النظر؛ عُرف بحسن الخلق، وأناقة الملبس، وطيب النفس؛ له حظوة لدى الأمراء والسلاطين؛ وولي قضاء تلمسان مرتين. قال عنه ابن الأبار: ((دخل الأندلس؛ وولي قضاء بلده؛ وكان حميد السيرة؛ مشاركاً في الفقه، وعلم الكلام، معتنياً بالحديث وروايته؛ معظماً عند الخاصة والعامة))². وله مصنفات عديدة؛ منها: "المختار في الجمع بين المتنقي والإستذكار قال عنه ابن الأبار أنه في عشرين سفرأ، وتتراوح عدد ورقائه نحو ثلاثة آلاف ورقة. و"كتاب في غريب الموطأ"، "التسلي عن الرزيّة والتحلي برضا باري البريّة"، و"نظم العقود في رقم الحل والبرود"، و"الفصل الجازم في

¹ له ترجمة في التكملة لكتاب الصلة، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

² التكملة لكتاب الصلة، ج: 2، ص: 623.

فضيلة العلم والعالم". كما صنف - في علوم القرآن - كتابين؛ هما: "الإفناع في كيفية الإسماع"، و"فرقان الفرقان وميزان القرآن". ولد أبو عبد الله بتلمسان سنة 536هـ أو 537هـ/1142م؛ أي في زمن احتلالها من قبل الموحدين. وتوفي بها عام 625هـ/1227م. عن سن تجاوزت الثمانين. ومن شيوخه: والده أبو محمد، ثم عمران التليدي، وأبو بكر بن صفور، وأبو بكر اللقنتي، وأبو الحسن جابر بن محمد، وأبو الحسن ابن أبي قنون، وأبو علي الحسن بن الخراز. كما صاحب الوليين الزاهدين: أبا مدين شعيب بن الحسين، وأبا عبد الله محمد بن محيو الهوري؛ وقد تلقى منهم علماً غزيراً، وزهداً فائضاً، وورعاً صادقاً؛ أخذ عنهم بفلس ومراكش وسبتة وإشبيلية. ومما وصل إلى الآن من نظمه؛ هذان البيتان؛ شملت عدد حديث البخاري:

جَمِيعُ أَحَادِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَى
 الْبَخَارِيُّ خَمْسَةَ وَسَبْعُونَ فِي الْعَدِّ
 وَسَبْعَةَ آلَافٍ تُضَافُ وَمَا بَقِيَ
 إِلَى مَائَتَيْنِ عَدَّ ذَلِكَ أَوَّلُ الْجِدِّ

محمد بن عبد الله ابن داود بن خطاب الغافقي¹، (ابو بكر).

أديب وكاتب من أئمة الأدب والكتابة. وهو من أصول نبيلة في مرسية بشرق الأندلس. انتصب أخوه أبو بكر عزيز والياً على تلك المدينة سنة 636هـ/1238م؛ ولكنه خلع وقُتل في ثورة قام بها العامة؛ فخرج أخوه محمد هذا لاجئاً إلى تلمسان؛ التي استوطنها واستقر بها نهائياً إلى يوم وفاته. من شيوخه: أبو بكر بن جهور، وأبو بكر بن محرز، وأبو بكر الغافقي، وأبو علي الحسن بن عبد الرحمن بن الرفاء. وأبو عيسى محمد بن محمد ابن أبي السداد، وأبو المطرق بن عميرة، وآخرون؛ كما أجازَه أبو الربيع بن سالم. ذكره أحمد بن الزبير في كتاب **صلة الصلة**؛ فوصفه بالكاتب البارِع والشاعر المجيد. وقال أن له مشاركة في علوم عديدة ذكر منها: أصول الفقه وعلم الكلام. كما وصفه

¹ ورد ذكره في: العبر، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان.

بخلل عديدة منها: النباهة، وحسن الإدراك، والفهم،
والتعقل؛ بالإضافة إلى حسن السميت. خرج - في بداية
الأمر - من بلده الأول إلى غرناطة؛ حيث خدم في
بلاط سلطانها مدة؛ فاحتل مرتبة بين الكتاب
والمحررين؛ إذ كان فيهم: ((معلوم القدر، معظماً عند
الكافة))¹. ولكنه أنف عن ذلك؛ بعد خلاف بينه
وبين كبير الكتاب آنذاك الفقيه عمر اللوشي.

ونقل لسان الدين ابن الخطيب هذا الخبر عن
أستاذه أبي الحسن الجياني؛ الذي وصفه بصعوبة
الخلق، والمشاكسة، وأخذ عليه حب الذات، والزهو
بالنفس. ثم سرد ما حدث بينه وبين كبير الكتاب:
ومجمل قوله: أن محمد بن خطّاب كلف بكتابة
خطّاب؛ فصاغ خطبته؛ ثم تركه؛ لقضاء ما عن
له من حاجة. وفي غيابه؛ نظر الفقيه عمر اللوشي
- كاتب السلطان - إلى ما خطه ابن خطّاب؛ فرأى
عبارة "عفو العفو"² التي وصف بها صحابة
رسول الله صلى عليه وسلم؛ فتوهم أن ذلك زلة
قلم أو خطأ عارض؛ فأصلح العبارة؛ وجعلها: "صفوة
الصفوة". ولمّا عاد ابن خطّاب، واطلع على ما

¹ الإحاطة؛ قسم: 3، ص: 88.

² أي خيرة الخيرة.

غَيَّرَهُ عَمْرُ اللُّوشِي؛ غَضَبَ، وَمَزَقَ الْخَطَّابَ، وَكَسَرَ الْقَلَمَ؛ وَقَالَ: ((لَا أَقِيمُ بِمَوْضِعٍ بَلَغَ فِيهِ الْجَهْلُ إِلَى هَذَا الْقَدْرِ)). وَفِي الْحَيْنِ تَرَكَ الْخِدْمَةَ؛ ثُمَّ عَادَ إِلَى بِلَنْسِيَّةَ؛ وَمِنْ هُنَاكَ سَافَرَ إِلَى تَلْمَسَانَ مَعَ ابْنِ وَضَاحٍ؛ حَيْثُ اسْتَقْبَلَهُمَا السُّلْطَانُ يَغْمَرَا سِنَ بَحْفَاوَةَ وَإِكْرَامٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خُلْدُونٍ فِي هَذَا: ((وَوَفَدَ فِي جَمَلَتِهِ¹ أَبُو بَكْرٍ بْنُ خَطَّابٍ؛ الْمُبَايَعُ لِأَخِيهِ بِمَرْسِيَّةَ. وَكَانَ مَرْسَلًا بَلِيغًا، وَكَاتِبًا مَجِيدًا، وَشَاعِرًا مَحْسَنًا)).² وَذَكَرَهُ التَّنْسِي أَيْضًا؛ فَقَالَ: ((وَلَمَّا اشْتَهَرَ اعْتَلَاؤُهُ بِالْعِلْمِ وَأَهْلُهُ³؛ وَفَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ؛ خَاتِمَةُ أَهْلِ الْأَدَبِ، الْمُبَرِّزُ فِي عَصْرِهِ عَلَى سَائِرِ الْكُتَّابِ؛ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَاوُدَ ابْنِ خَطَّابٍ؛ فَأَحْسَنَ نَزْلَهُ وَمَثْوَاهُ، وَقَرِيبَهُ مِنْ بَسَاطَةِ الْعِزِّ وَأَدْنَاهُ، وَجَعَلَهُ صَاحِبَ الْقَلَمِ الْأَعْلَى. وَمَقَامُ ابْنِ خَطَّابٍ هَذَا فِي الْعِلْمِ شَهِيرٌ؛ لَا سِوَا الْأَدَبِيَّاتِ؛ وَاسْتَوْفَى التَّعْرِيفَ بِهِ بْنُ رُشَيْدٍ. قَالَ: وَبُوفَاتِهِ انْقَرَضَ عِلْمُ الْكِتَابَةِ)).⁴

¹ أي في جملة ابن وضاح.

² العبر، مج: 7، ص: 163.

³ المقصود هنا هو السلطان يغمراسن بن زيان.

⁴ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدرر)، ص ص: 127 - 128.

ونظراً لنيوع ذكره، وشيوع نشره وشعره، واشتهار مخاطباته السلطانية؛ سعى سلطان إفريقية بتونس إلى إغرائه ليلتحق ببلاطه؛ واعدأ إياه بأسمى المناصب؛ ولكنه رفض عرضه؛ وأعاد إليه هديته. وهذا منتهى الوفاء لسلطانه الزياني. وقد علق ابن الخطيب على هذا بقوله: ((وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه - على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير، والعلماء - وبعث إليه ألف دينار من الذهب العيين؛ فاعتذر وردَّ عليه المال. وكانت، أشقَّ ما مرَّ على المستنصر، وظهَّر له علُو شأنه، وبعد همَّته¹)).

أما وفاته؛ فقد وقعت بتلمسان؛ في تاريخ اختلف فيه. فبينما يقول لسان الدين ابن الخطيب؛ أنه توفي بتلمسان؛ يوم عاشوراء؛ سنة 686هـ/1287م². يرى يحيى بن خلدون؛ أنه توفي في يوم عاشوراء 636هـ/1338م³. واتفق معه في هذا ابن مريم؛ صاحب كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. لأنه - كما يبدو - نقل عنه.

¹ الإحاطة؛ مج: 2 ح ص: 427.

² الموافق لـ 1287م.

³ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد؛ ج: 1، ص: 129. والراجع أن قول ابن الخطيب أقرب للواقع.

غير أن قول ابن الخطيب أقرب للصحة؛ على اعتبار أن رفض محمد بن خطاب لخدمة المستنصر الحفصي؛ وقعت بعد تولي هذا الأخير للحكم؛ سلطاناً بالدولة الحفصية؛ وهذا الأمر لم يحدث إلا في سنة 646هـ/1249م. أي بعد موت والده أبي زكرياء مباشرة. إذن؛ في هذا التاريخ؛ وما بعده؛ ما زال ابن خطاب على قيد الحياة. أما تاريخ مولده فغير معروف حتى الآن.

شعره

- أجاب أبا عبد الله بن خميس عن قصيدة بعث بها إليه أولها:

رد في حدائق مائها مرثاد¹
قد لذ مورود وطاب مراد
زرق الأسنة دون زرق حمامها
وظبى كما رنت العيون حداد

- ثم هذه الأبيات:

نعم المراد لمن غدى يرتاد²
مرعى يرف نباته ومهاد
صالت على العافي جدوله كما
صالت على العادي ظبى تتاد
فشددت رحل مطيتي منه إلى
حيث السيادة تُبَنَّى وتشاد

¹ هنا خلل في الوزن؛ بسقوط سبب خفيف (0/)؛ إذ يبدو أن الناسخ حَرَف كلمة ((مرثاده))؛ بحذفه لحرف ((الهاء)).

² يجري على هذا الشطر ما جرى في التطبيق السابق مباشرة.

وركبت ناجية مبارية الصبا
خضراء فوق خضارة تعاد
يغتادها سكانها قُلَّب على
من كان من سكانها استبداد
عجبالهم أحلامهم عادية
تمضي عليهم حكمها أعواد
خبر تلمساناً بأنِّي جيتها
لمادعاني نحوها الرواد
وأعاقها سمعاً ولم أر حسنها
إلا أناساً حدثوا فأجادوا
ولرب حسن لا ثواه ناظر
ويراه لا يخفى عليه فؤاد
ودخلتها فدخلت منها جنة
سكَّانها لا تخفى ولا حياء¹
ورأيت فضلاً باهراً ومكارماً
وعلاً تغاضر دونها التعداد
أهل الرواية والدراية والندا
في نورهم أبداً لنا استمداد

¹ هذا الشطر مختل الوزن ومضطرب المعنى.

فهم إذا سئلوا بحار معارف
 ولدى السكينة والنهى أطواد
 درجاتها ينحط عنها غيرهم
 ومن الورى قتر ومنه وهاد
 فأجلهم وأحلهم من مهجتي
 بمكانة ما فوقها مزداد
 وأود حين أخط أطيب ذكرهم
 لو أن أسود مقلتي مداد

— ومن قوله كذلك:

أفزع بما أوتيته تَلِ الغنى
 وإذا ذهبتك مُلِمَّةٌ فَتَصَبَّرِ
 واعلم بأن الرزق مقسومٌ فلو
 رُمنا زيادة ذرة لم نقدر
 والله أرحم بالعباد فلا تسَلْ
 أحداً تعيش عيش الكرام وتوَجَّرِ
 وإذا سخطت لبؤس حالِكِ مرَّةً
 ورأيت نفسك قد غوت فلنُبْصِرِ¹

¹ في نص: ((قد ثبت فاستغفر)).

وَانْظُرْ إِلَى مَنْ كَانَ دُونَكَ¹ تَذَكَّرْ
لِعَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَتَشْكُرْ

— وَقَالَ يَخَاطَبُ ابْنَ خُمَيْسٍ أَيْضاً؛ وَقَدْ وَقَفَ عَلَى
مَا جَاءَ فِي قَصِيدَةِ لَهُ²:

رَقَّتْ حَوَاشِي طَبْعِكَ ابْنَ خُمَيْسٍ
فَهَفَا قَرِيضُكَ لِي³ وَهَاجَ رَاسِي
وَلِمِثْلِهِ يَصْبُو الْحَلِيمُ وَيَمْتَرِي
مَا لِلشُّنُونِ⁴ بِهِ وَسَيَرُ الْعَيْسِ
لَكَ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَلَاغَةُ بَعْضُ مَا
تَحْوِيهِ مِنْ أَثَرٍ مَحَلٌّ رِئَاسِي
نَظْمٌ وَنَثْرٌ لَا تُبَارَى فِيهِمَا
عَزَزْتُ⁵ ذَاكَ وَذَا بَعْلَمِ الطُّوسِ⁶

¹ في نص: ((إلى من دون حالك)).

² هذه الأبيات موجودة في الإحاطة، قسم: 3. ونفع الطيب، ج: 5.

³ في الإحاطة: ((بي)).

⁴ نفسه: ((ما للشروق)).

⁵ نفسه: ((تمهذت)).

⁶ قصد بالطوسي: الإمام أبا حامد الغزالي.

— وهذه القصيدة؛ قالها في صباه:

يَا دَعْوَةَ شَاكِ¹

مَا قَدْ دَهَاهُ مِنْ لِحَاطِ رَشَاكِ

ظَنَنْتُ تَصَدَّى لِلْقُلُوبِ بِصَيْدِهَا

مَنْ نَاطِرِيهِ فِي سِلَاحِ شَاكِ

وَرَمَى وَإِنْ قَالُوا رَنَّا عَنْ فَاتِرِ

سَاحٍ عَلَيْهِ سِيْمَةُ النُّسَاكِ

قَدْ كُنْتُ أَحْذِرُ بَطْشَهُ لَوْ أَنَّنِي

أَبْصَرْتُ مِنْهُ مَخَايِلَ الْفَتَاكِ

أَوْ مَا عَلَيْهِ وَلَا عَلَيْهِ حَاكِمٌ

يَحْمِي ثُغُورَكَ أَوْ يَحُوطُ حِمَاكِ

أَوْ مَا لِجَارِكَ ذِمَّةٌ مَرْعِيَّةٌ

أَبْذَا يَظْلُ دَمُ الْغَرِيبِ طِلَاكِ

إِنِّي اسْتَمْتُ إِلَى ظِلَالِكَ ضَلَّةً

فَإِذَا ظَبَاؤُكَ مَاضِيَاتِ ظَبَاكِ

مَا لِي أَخَاطِبُ بَانَةً مَا أَنْ تَعِي

قَوْلًا وَلَا تَرْتِي لِذِمَّةٍ بَاكِ

¹ جاء هذا الشطر في نسخة الإحاطة المحققة من قبل عنان هكذا: ((يا دعوة شاك ما قد)). وهو غير سليم في الوزن، وقاصر في المعنى. كما أن بعض الأبيات في القصيدة انتابها بعض الخل؛ لذا فقد تم الاعتماد هنا على ما جاء في النسخة التي صححها د. طویل.

أكريمة الحيين هل لمتيم
رحمى لديك فأرتجي رحماك
أصبتني بعد المشيب وليس من
عذر لمن لم يصبه ثراك
ولولاك ما جذبت عناني لوعة
والله يشهد أنني لولاك
لما دعا داعي هواك أجبتة
من لا يجيب إذا دعت عيناك
أصليتني نار الصدود وإنني
راض بأن أصلى ولا أسلاك
وأبحت ما منع النشعر من دمي
بالله من أفتاك قتل فتاك
وتركت قلبي طائراً متخبطاً
بشباك ختلك أو بطعن سباك
ومنعت أجفاني لنيد منامها
كي لا يتيح لي الكرى لقياك
ولقد عجبت وأنت جد بخيلة
كأن أعرت الشمس بعض حلاك
إني لأياس من وصلك تارة
لكن أعلل مطمعي بعلاك

أسماك أنك قد خففت مكانتي
هلاً خلعت علي من سيماك
إني مُعَنَّاك المتيم فليكن
حظي لديك مناسباً مغناك
تثني معاطفك الصبا خوطية
وكذا الصبا فصباك مثل حماك
أبعدتني منها بطعنة رامح
ألذاك سمَّك الورى بسماك
أموت من عطش وثرعك مورد
فيه الحياة استودعتها فاك
هلا تني عن حلوة فلعلَّة
وضعت أداة النفي في اسم لماك

وقال أيضاً:

رب أنت الحليم فاغفر ننبوي
ليس يغفو عن الذنوب سواكا
رب بُبَّت عند السؤال لساني
وأقمني على طريق هداكا
رب كن لي إذا وقفت ذليلاً
ناكسَ الرأي أستحي أن أراكا

رب من لي والنار قد قربت لي
وأنا قد أبحت عهد حماكا
رب مالي من عدة لمالي
غير أنني أعددت صدق رجاكا
رب أقررت أنني عبد سوء
حلمك الجم غره فعصاكا
رب أنت الجواد بالخير دوماً
لم تزل راحماً فهب لي رضاكا
رب إن لم أكن لفضلك أهلاً
باجترائي فأنت أهل لذاكا

نثره

أشاد عبد الرحمن بن خلدون بقلم وترسل ابن خطاب، ونوه بمكانته الأدبية؛ فقال: ((وكان مرسلًا بليغاً، وكاتباً مجيداً، وشاعراً محسناً؛ فاستكتبه [أي يغمراسن]. صدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوّل وحفظ)). ومع هذا؛ لم يبق من آثاره الإنشائية ومراسلاته الذائعة الصيت آنذاك؛ سوى بعض الفقرات القليلة. وقد أورد لسان الدين ابن الخطيب في كتاب الإحاطة عيّنة من نثر محمد بن خطاب؛ الذي قال عنه: ((كان كاتباً بارعاً، وشاعراً مجيداً؛ له مشاركة في أصول الفقه، وعلم الكلام، وغير ذلك؛ مع نباهة، وحسن فهم؛ ذو فضل، وتعقل، وحسن سمع))¹.

وقد أثبت في كتابه قطعة من ترسل محمد بن خطاب؛ بعث بها حينما كان بمدينة إشبيلية إلى صديقين له في مرسية؛ جاء فيها: ((كتبته؛ كتب الله لكما فوزاً بالحسنَى، وأجناكما من ثمرات

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم 3، ص: 88.

لِحسانه أكثر ما يُجنى. من إشبيلية؛ وحالي بحمد
الله حسنة، ونفسي بحبّ قريكما مُرتَهنة، وعليّ بما
لديكما من السّراوة التي جُبِلتما على فطرتيها،
وامتزمتما في الاجتلاء بغرّتها، علم لا يدخله الشكّ،
ونسبتي إلى ودكما الذي لبسته معلماً وتقلدته
محزماً، لا يُعبّر عن معناها إلّا بما لا يزال، ولا
يَنفك. فلئن عان القلم عن مداده، ونأخذ في
حديث سواه. وصّانا إشبيلية ضخوة يوم الثلاثاء
خامس ربيع الآخر، وأقينا الإفانت¹ على ميلين،
وفزنا بما ظهر من بشره واعتائيه بقرار الخاطر،
وقرة العين، ونزلنا في الأخبية؛ خارج البلد؛
موضِعاً يُعرف بالقنب²؛ قد تقجّر عُيوناً، وجمّع
ماؤه وهولؤه من المحاسن فوناً، وعرض علينا
النزول في الدّيار داخل المدينة، فرأينا المُقام فيه؛
لحد الأسباب المُسعدة على حفظ الصّحة المعينة،
ورغينا عن المدينة لحرّها الوهاج، وغبارها العجاج،
ومائها الأجاج. ولما ثاب من النّشاط البارح،

¹ يقصد الإفانتي Infante؛ وهو لقب يطلق على وليّ العهد في مملكة
قشتالة. وكان ابن خطاب قد زار إشبيلية في زمن احتلالها من قبل
القشتاليين. إذ أنها سقطت في قبضتهم في شهر شعبان من سنة
1248م/646هـ. وغدت عاصمة لدولتهم.

² يسمى بالإسبانية: El Campo؛ أي الحقل أو الميدان.

وَاسْتَقْلَّ مِنَ الْمَطِيِّ الرَّازِحِ. طُفَّتْ فِي خَارِجِهَا
 وَدَاخِلِهَا، وَوَقَفَتْ عَلَى مَبَانِيهَا الْمُشَيَّدَةِ وَمَنَازِلِهَا؛
 وَرَأَيْتُ انْسِيَابَ أَرَاقِشِهَا¹؛ وَتَقَصَّيْتُ آثَارَ طُرَيَانَتِهَا²
 وَبَرَاقِشِهَا؛ فَشَاهَدْتُ مِنَ الْمَبَانِي الْعَتِيقَةِ، وَالْمَنَارَةِ³
 الْأَيْقَةِ، مَا يَمَلَأُ أَعْيْنَ النَّظَّارِ، وَيَنْفَسِحُ فِيهِ مَجَالُ
 الْاِعْتِبَارِ. عَلَى أَنِّي مَا رَأَيْتُهَا إِلَّا بَعْدَ مَا اسْتَوَلَى
 عَلَيْهَا الْخُسْفُ؛ وَبَانَ عَنْهَا الظَّرْفُ، وَنَبَا عَنْهَا
 الطَّرْفُ؛ فَلَا تَرَى مِنْ مَغَانِيهَا إِلَّا طَلَّالاً دَارِساً، وَلَا
 تَلَمَحُ مِنْ بَدَائِعِهَا إِلَّا مُحِيّاً عَابِساً. لَكِنِ الرَّائِي إِذَا
 قَدَّرَ وَضَعَهَا الْأَوَّلَ، وَرَكِبَ وَهَمَّهُ مِنْ مَبَائِنِهَا مَا
 تَحَلَّلَ، وَتَخَيَّلَ فِي ذَهْنِهِ حُسْنَهَا وَتَمَثَّلَ؛ تَصَوَّرَ حُسْنَ
 يَدْعُو إِلَى الْمُجَوْنِ، وَيُسْلِي عَنِ الشُّجُونِ. لَوْلَا أَنَّهَا
 عُرِضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ؛ لَمَا دَانَ إِلَّا بِدَنٍ، وَلَا تَقَرَّبَ
 بِغَيْرِ قَارِبٍ. وَحَسْبِي أَنْ أَصِفَهَا بِمَا يَبْقِيهَا مِنْ
 الْقَبُولِ، وَأَقُولُ إِنَّهَا فِي الْبِلَادِ بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ

¹ أي ألوان نقوشها. ويرقش معناه: تزين بألوان مختلفة.

² المقصود بها: طريانة Triana؛ وهي ضاحية إشبيلية الجميلة؛ الممتدة على الضفة الغربية من نهر الوادي الكبير.

³ يقصد منارة الجامع الأعظم الشهيرة؛ التي شرع في بنائها أيام الخليفة الموحيدي أبي يعقوب يوسف سنة 584هـ/ 1188م، ودُشِّنَتْ فِي عَهْدِ ابْنِهِ الْمَنْصُورِ عَامَ 593هـ/ 1196م. وَتَعْتَبَرُ الْآنَ مِنْ أَهَمِّ الْمَعَالِمِ السِّيَاحِيَّةِ فِي إِشْبِيلِيَّةٍ؛ وَتَسْمَى عِنْدَهُمْ La Giralda؛ أَي الْخَيْرَالْدَا؛ بَعْدَ أَنْ حَوَّلَ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ إِلَى كَنِيسَةٍ، وَاسْتَعْمَلَتْ الْمَنَارَةُ كِبْرَجَ لِلْأَجْرَاسِ.

الفصول، وَلَوْلَا أَنَّ خَاطِرِي مُقَسَّمٌ وَفِكْرِي حَدَّ مُتَلَمٍّ،
لَقَضَيْتُ مِنَ الْإِطْنَابِ وَطَرَأَ، وَلَمْ أَدْعُ مِنْ مَعَاهِدِهَا
عَيْناً إِلَّا وَصَفْتُهَا وَلَا أَثَرًا¹.

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، قسم: 3، ص ص: 99 - 102.

محمد بن عبد الله

ابن عبد العزيز بن عمر الزناني

جمال الدين التلمساني - محي الدين النحوي

المعروف بحافي رأسه

ينتمي إلى قبيلة زناتة الأمازيغية. هو إمام وعلماء بارز في العربية. ولد بتلمسان في سنة 606هـ/1209م؛ ونشأ بها، وتعلم في مدارسها. درس في البداية على الشيخ محمد بن المنداسي، وعبد الرحمن الزياني؛ وبالإسكندرية على تاج الدين الفاكهاني. وذلك بعدما رحل إلى المشرق؛ فاستقر بالإسكندرية. وكان يعتبر في وقته من كبار أئمة اللغة؛ حيث يقال أنه ثالث ثلاثة من المحمدين المالكيين لزماد اللغة والنحو في عصره؛ وهم: محمد ابن النحاسي في مصر، ومحمد بن مالك في دمشق، ومحمد حافي رأسه في الإسكندرية. أما لقبه: ((حافي رأسه))؛ فقد تضاربت الآراء حوله؛ فمن قائل: أن السبب في ذلك؛ وجود حفرة في رأسه، وقائل: أنه سمي بذلك؛ لكونه مكشوف الرأس، وقول ثالث يرى فيه أصحابه: أنه مثّل أمام بعض الحكام؛

فمنحه ثياباً دون غطاء للرأس؛ فقال له: ((هذا
لبدني؛ ورأسي حافي))¹؛ فأعطاه عمامة؛ ومن يومها
لقب بحافي الرأس.

أما وفاته فقد ذكر صاحب فوات الوفيات؛
أنها حدثت في سنة 680هـ/1281م بينما جعلها
صاحب البدر السافر في سنة 691هـ/1291م.

¹ فوات الوفيات، ج: 3، ص: 410.

شعره

— هذه المقطوعة؛ كتبها إلى الأمير نور الدين بن مسعود الصوابي:

شَكَوْتُ إِلَيْكَ نُورَ الدِّينِ حَالِي
وَحَسْبِي أَنْ أَرَى وَجْهَ الصَّوَابِ
وَكُتُبِي بَعَثَهَا وَرَهْنْتُ حَتَّى
بَقِيَتْ مِنَ الْمَجُوسِ بِلَا كِتَابِ

— وله أيضاً هذه المقطوعة:

وَمُعْتَقِدٍ أَنَّ الرِّيَّاسَةَ فِي الْكِبَرِ
فَأَصْبَحَ مَمْقُوتاً بِهَا وَهُوَ لَا يَذَرِي
يَجُرُّ ذُيُولَ الْكِبَرِ طَالِبَ رِفْعَةٍ
أَلَا فَاغْجَبُوا مِنْ طَالِبِ الرِّفْعِ بِالْجَرِّ

— ومن شعره أيضاً هذه المقطوعة:

يَا مُنْكَرًا مِنْ بُخْلِ أَهْلِ الثَّغْرِ مَا
عُرِفَ الْوَرَى أَنْكَرَتْ مَا لَا يُنْكَرُ

أَقْصِرْ فَقَدْ صَحَّتْ نَتَانَةُ أَهْلِهِ
وَمِنْ الثُّغُورِ كَمَا عَلِمْتَ الْأُبْخَرُ

— وَلَهُ كَذَلِكَ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ:
وَمُعَلِّمِي الصَّبْرِ الْجَمِيلِ بِهِجْرِهِ
فَتَنَى فَوَادَا عَنْهُ لَمْ يَأْكُ يَنْثَنِي
لَا بُدَّ مِنْ أَجْرِ كُلِّ مُعَلِّمٍ
وَأَلَى السُّلُوكِ ثَوَابُ مَا عَلَّمْتَنِي

محمد بن يخلفن

ابن احمد بن بنفلت الفاززي، ثم البجعشي
النلمساني، (ابو عبد الله)¹

ينتمي إلى أسرة علم وفضل ونباهة. أخوه الأصغر هو شاعر الزُهد والتَّصوُّف أبو زيد عبد الرحمن الفاززي. وكان محمد هذا فقيهاً ومحدثاً، ومؤرخاً، ولغوياً، وشاعراً جيد الشعر، وكاتباً بليغاً؛ له خط جميل، وهياة راقية. انتقل إلى قرطبة ومراكش. إذ كان كاتباً لدى الخليفة الموحي محمد الناصر؛ ثم نقله من خطة الكتابة وأسند إليه ولاية القضاء بقرطبة ثم بمرسية ثم بغرناطة؛ على التوالي. وقال المقرئ: ((وهذا الفاززي؛ أخو الشاعر الشهير والكاتب الكبير أبي زيد عبد الرحمن الفاززي؛ صاحب الأمداح في سيد الوجود صلى الله عليه وسلم))². توفي سنة 621هـ/1224م³. ذكره

¹ له ترجمة في بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ونفح الطيب، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، والأعلام، كما تمت الإشارة إليه في المعجب ككاتب للخليفة الموحي محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن.

² نفح الطيب، ج: 4، ص: 468.

³ قال الزركلي أنه توفي بقرطبة - حيث كان قاضياً بها - وذلك في عام 621هـ.

عبد الحي بن العماد؛ بين من مات في سنة 621هـ؛ فقال: ((وفيها الفازاري محمد بن خلفتن ابن أحمد البربري التلمساني؛ الفقيه المالكي؛ الأديب الشاعر؛ ولي قضاء قرطبة))¹. ولكن؛ الذي يؤسف له أن أعمال هذا الفقيه الأديب الشعرية والنثرية غير متوفرة الآن؛ ما عدا الأبيات الموالية. ولعل بقية أعماله الشعرية والنثرية تظهر مستقبلاً؛ بفضل جهود الباحثين الصابرين. وكل ما وصل من شعره؛ عبارة عن مقطوعة شعرية؛ يقال أنها وجدت في جيبه حين وفاته؛ جاء فيها:

الرُّومُ تَضْرِبُ فِي الْبِلَادِ وَتَغْنَمُ وَالْجُورُ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ وَالْمَغْرَمُ
وَالْمَالُ يُورَدُ كُلُّهُ فَشَتَّالَةٌ وَالْجُدُّ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّةُ تَسْلَمُ
وَذَوُو التَّعْنِينِ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلِمٌ إِلَّا مُعِينٌ فِي الْفَسَادِ مُسْلِمٌ
أُسْفَى عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا اللَّهُ يَلْطِيفُ بِالْجَمِيعِ وَيَرْحَمُ²

¹ شذرات الذهب، ج: 5، ص: 96.

² قال المقرئ في هذه الأبيات: ((وقيل: أن هذه الأبيات رفعت إلى سلطان بلده؛ فلما وقف عليها؛ قال - بعدما بكى -: "صدق رحمه الله تعالى؛ ولو كان حياً ضربت عنقه")). نفح الطيب، ج: 4، ص: 467.

المائة الثامنة هجرية

من 700 – 800 هـ

أحمد بن شعبان (أبو العباس)

لا يعرف عن صاحب هذه الترجمة الكثير؛ وكل ما توفر حتى الآن؛ هو ما ورد في كتاب زهر البستان في دولة بني زيان. إذ سمي فيه: ((الطالب أبو العباس أحمد بن شعبان)). وقد أثبت له صاحب الكتاب قصيدة؛ قالها هذا الشاعر في سنة 762هـ/1360م؛ بمناسبة الحفل المنعقد ببلاط السلطان أبي حمو الثاني بتلمسان؛ إحياء لذكرى المولد النبوي الكريم. وفي ما يلي بعض المقاطع منها:

حاز المكانة في الشهور ربيع
وتأسست للدين فيه ربوع
فليلتين به وعشر قد خلت
منه لأحمد مولد وطلوع
في ليلة الإثنين حسبك ليلة
فحلوها فخر الرشاد صديق¹

¹ الصديق: الصبح. وصدع الأمر: كشفه وبينه. وصدع بالحق: تكلم به جهاراً.

جاءت بإكرام منتقى من هاشم
وهُم الذين لبّيتهم ترفع
كبر المزايما الإله أناله
وله المدى في المعجزات وسيع
سطعت كما ومضت بوارق أو بدا
للشمس في زاد النهار منوع
كإعادة الشمس التي عن أمره
عادت وأنى بالضحي سيطيع
وسعى له نخل وعاد مكانه
فكأنه ما كان منه فروغ¹
وبنّبع عذب الماء بين بنائه
عمّ الجيوش من المياه نبوغ
وبتقله² عاد الأجاج سلاسل³
فانساغ منه مورد وشروع
وله نراع الشاة كَلَم معلما
بالسّم وهو لأكله موضوع

¹ فرع فروعا الأرض: جول فيها.

² تقل تفلأ: بصق.

³ السلسل والسلسل والسلاسل: الماء العذب.

وكمـد(د)¹ يمناه الكريمة سهمه²
 فاض الزلال وطاب فيه كـروغ
 وكرده في الحين عين قتادة
 فاحتل منها في المكان رجوع
 وبلمسه شاة تمنع رسلها
 عادت ومنها في الشياع ضريع
 [وتقوتوا لبنا بها جمعا سقا]³
 فكفى الجميع [ملاءة]⁴ وقنوع
 ودعاؤه أسمى المواطن فارتقى
 [وهدي بهدي للسماء رضيع]⁵

¹ هذه الدال زائدة.

² هكذا.

³ هذا الشطر مختل الوزن ومضطرب المعنى؛ فجاء بزهر البستان هكذا: ((وبقوت مرثهم شبا كثرة))؛ ولتسهيل الفهم؛ وضعنا شطراً بدلاً منه؛ كما ورد أعلاه.
⁴ في الأصل: ((تملوا))؛ وهذا يخل بالوزن. فوجب التصويب؛ بوضع الكلمة الواردة بين حاصرتين.

⁵ هذا الشطر غامض في معناه، رديء النسخ، مختل الوزن؛ ونسخ؛ هكذا: ((وهـد بعنان السماء وريع)). وعليه؛ فقد عوضناه بما ورد أعلاه؛ بين حاصرتين؛ لكي يوضح سياق البيت.

ومن الذي كفَّ الإله عذابه
 [ولواضع من منهم المرفوع¹]
 ومن الذي حاز الفضائل جملة
 ومن الذي هو في العباد شفيع
 إلا محمد الذي فاق الورى
 [و]بحقه للعالمين نجوع²
 صلى الإله عليه ما بحر طما
 [وبدت بروق³ في السماء] سطوع⁴
 وأدام مولانا أبو⁵ حمو الذي
 بقيام مولده لديه ولوع
 لله فيه قيامه ودعاؤه
 وتلاوة وتبّـل وخضوع

¹ جاء هذا الشطر في الأصل بزهر البستان هكذا: ((عنه ولواضع منهم المرفوع))؛ فاختلف وزنه؛ حيث زادت كلمة: ((عنه)) في بدايته؛ كما وضعت في غير محلها. كما سقط سبب خفيف (0/)؛ في بداية التفعيلة الثانية. وعليه فقد وضعنا شطراً بدلاً منه - بين حاصرتين - أعلاه.

² أضفنا الواو؛ من أجل تصويب الوزن؛ لأن التفعيلة الأولى في الأصل ينقصها حرف متحرك.

³ البرق جمعه: بروق؛ ومضة نور تلمع في غيم السماء.

⁴ جاء هذا الشطر - في الأصل - محل الوزن هكذا:

((وبدا البرق في السماء سطوع)). وعليه فقد عوضناه بما ورد أعلاه بين حاصرتين.

⁵ هكذا.

وإقامة لشعائر وإنابة
فرضى الإله مكانها وخشوع
كفّ العداة بسعده وبسيفه
ففرأ وفرق منهم المجموع
أعداؤه شرب وشرب [في إفكهم]¹
سم تفجره الحروف نقيع
يختار في النظر الجميل الشهادة
فله علينا منة وصنيع
ويبيد كل معاند بحروبه
فيشيب منها الطفل وهو رضيع
فمن الجيوش على العداة حماسة
وسنانة وجيوشه وهلوع
[لولا أبو حمو تلمسان انمحت
في ظل عدوان بلاه فضيع]²
لكنه حفظ الأفاصي فاعتري³
أملا بمن المرء وهو بديع

¹ الكلمة هنا غير واضحة في الأصل؛ فعوضت بما ورد بين حاصرتين أعلاه.
² هذا البيت بالكامل غير مفهوم؛ بسبب النسخ الرديء؛ إذ كتب هكذا:
(لولا بوا حبه تلمسان خلت سلبا * ولم يكن بالديار كيغ)). وبذلك يظهر الخلل في
المعنى والوزن معاً. وعليه فقد نظمنا بيتاً يعوضه؛ وورد أعلاه بين حاصرتين.
³ إعتري إعتراء فلاناً: غشيه طالباً معروفاً.

بالحزم فاق على الملوك تفاضلا
والجيش فيه من الأسود جموع
فمن اقتقى طرف الرشاد كمثل
فله القصي يطيع وهو منيع
في وصفه عظم يقص مسهم¹
ولو انتقاه إلى الزمان بديع
دامت له نجم العداة سواجدا
وعلى طلائعهم للسيوف ركوع
ودماؤهم أفواهها نجاة
بدوي الضلالة والرشاد مريع
ثم السلام عليك ما هبت صبا
وأتى ربيع أول وربيع

¹ هكذا.

أحمد بن يحيى
ابن أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني
الشهير بابن أبي حجلة
(أبو العباس - شهاب الدين)

هو عالم في اللغة والأدب، وشاعر جيد النظم. ينتمي إلى أسرة متصوفة من تلمسان؛ كان لجده عبد الواحد بن أبي حجلة زاوية في تلمسان. كني بأبي حجلة؛ نظراً لتعلق الحيوانات بأذياله؛ ومنها أن حجلة باضت على كُمِّه؛ فلقب بها. ولد صاحب هذه الترجمة في تلمسان سنة 725هـ/1325م؛ ودرس بمسقط رأسه مبادئ الفقه واللغة، والمنطق. ثم رحل مع والديه وإخوته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ثم رحل بعدها إلى دمشق؛ أين بقي لبعض الوقت لدراسة الأدب. ومنها انتقل إلى مصر؛ حيث استقر في القاهرة. كان يميل إلى المذهب الحنبلي؛ وربما للمذهب الحنفي في قول آخر. وعليه فقد شدّد الحملة على القائلين بـ(وحدة الوجود)؛ ومنهم بصفة خاصة ابن الفارض. ويقال أنه امتحن بسببه.

وفي مصر؛ ولَّى ابن أبي حجلة مشيخة الصوفية بصهريج منجك؛ خارج القاهرة. وكانت اهتماماته محصورة في: الفقه، والحديث، والطب. ثم الشعر الصوفي ذي الاتجاه السني المعتدل؛ وبهذا تولَّى الدفاع عن معتقده؛ والهجوم على القائلين بوحدة الوجود.

— مؤلفاته:

أما مؤلفاته فقد تجاوزت الثمانين مصنفاً في مختلف الفنون؛ كالأدب، والتاريخ، والطب، والتصوف، والفقه؛ منها:

- 1 — "المقامات".
- 2 — "ديوان الصباية".
- 3 — "سكردان السلطان"¹ الناصر حسن بن قلاوون؛ في أسرار الرقم سبعة.
- 4 — "الطارئ على السكردان".
- 5 — "الأدب الغض".
- 6 — "ديوان شعر".

¹ سكردان السلطان الناصر حسن بن قلاوون. أنظر عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي، ج: 1؛ ص: 62.

- 7 - "حاطب الليل"؛ في الألب؛ ضمن مجلدات عديدة.
- 8 - "سلوة الحزين في موت البنين".
- 9 - "طوق الحمامة".
- 10 - "الطب المسنون في دفع الطاعون".
- 11 - "منطق الطير".
- 12 - "السجع الجليل فيما جرى في النيل".
- 13 - "غرائب العجائب، وعجائب الغرائب"؛ الذي استوحاه من تأمله في أبي الهول.
- 14 - "مغطيس الدر النفيس".
- 15 - "أطيب الطيب".
- 16 - "أسنى المقاصد في مدح المجاهد".
- 17 - "أنموذج القتال في نقل العوال"؛ شرح فيه منصوبات الشطرنج.
- 18 - "تسليّة الحزين في موت البنين".
- 19 - "جوار الأخبار في دار القرار".
- 20 - "دفع النعمة وقيل رفع النعمة في الصلاة على نبي الرحمة".
- 21 - "رسالة الهدد".
- 22 - زهر الكمام وسجع الحمام.
- 23 - "سلوك السنن إلى وصف السكن".

- 24 - "عنوان السعادة ودليل الموت على الشهادة".
- 25 - "قصيرات الحبال".
- 26 - "مجتبي الأدباء".
- 27 - "مواصل".
- 28 - "المقاطيع".
- 29 - "النحر في أعمدة البحر
- 30 - "النعمة الشاملة في العشرة الكاملة".
- 31 - "هرج الفرنج".
- 32 - نقل الكرام في مدح المقام.
- إلى غيره من الكتب النادرة في محتواها المبتكرة
في معناها. ومات ابن حجلة في القاهرة بوباء
الطاعون في سنة 776هـ/1375م.
- وورد في مطلع كتابه المعنون بـ " غرائب
العجائب، وعجائب الغرائب؛ الذي خطه بعد تأمل
وتعجب من تمثال ((أبو الهول)) الضخم:
- هذا الكتاب ذكرت فيه عجائبا
تغني النديم عن المدامة والطرب
يهتز سامعها لطيب حديثها
إلا حسوداً ليس يعجبه العجب

وأشهر كتب ابن أبي حجلة على الإطلاق؛ هو كتاب "ديوان الصبابة". وقد حظي هذا الكتاب بعناية وافرة في بلاد الأندلس؛ فتناقله الناس، وشغفوا به إلى أبعد الحدود. فطلب سلطان غرناطة من وزيره الأديب الشاعر لسان الدين بن الخطيب؛ تأليف كتاب؛ يسلك فيه مسلك ابن حجلة؛ بحيث ينقده ويعارضه. فقام بذلك على أحسن وجه؛ فألف كتاباً سماه "روضة التعريف بالحب الشريف". قال في مستهله:

((أما بعد: فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة - بحود سيوف الله تعالى؛ حدودها الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها، وصل الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - "ديوان الصبابة؛ وهو الموضوع الذي اشتمل - من أبطال العشاق - على الكثير، واستوعب - من أقوالهم القديمة والحديثة - كل نظم ونثر، وأسدى في غزل غزلهم وألحم، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحم؛ فصديق الخبر المخبر... فعمر المحافل والمجالس، واستجلس

الراكب، واستركب الجالس؛ يدعو الأدباء إلى مآذبه؛
فلا تتوقف، ويلقي عصا سحره المصري؛ فتلقف؛
ما شئت من ترتيب غريب، وتطريب من بيان
أريب؛ يشير إلى الشعر فتتقاد إليه عيونه، ويصبح
بالأدب النثر؛ فتلبيه فنونه؛ ويلمّ بالحديث العذب؛
فتثير الشجون شجونه؛ وألهى خبره للعلوم الشريفة
المقدّسة، ومدارك العز الموطّدة المؤسسة. وسما به
الجد صعودا إلى المجلس السلطاني؛ مقرر الكمال،
ومطمح الأبصار والآمال؛ حيث رفاف العز قد
انسلت، وموازين القسط قد عدلت، وفصول الفضل
قد اعتدلت، وورق أوراق المحامد والممادح قد هدلت
مجلس السلطان المجاهد، الفاتح الماهد، المتحلي في
ريعان العمر الجديد، والملك السعيد... أمير
المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا السلطان الإمام
المجاهد المقدّس أبي الحجاج ابن مولانا السلطان
الإمام المجاهد المقدّس أبي الوليد إسماعيل بن فرج
ابن نصر الأنصاري الخزرجي... فخصته عين
استحسانه - أبقاء الله - بلحظة لحظ؛ وما يلقاها إلا ذو
حظ؛ فصدرت إليّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في
فنه، والمنادمة على بنت دنّه، وحسب الشحم. والله

(سبحانه) يجعلني عند حسن ظنه... لكنني امتثلت، ورشت ونثلت؛ ومكرهاً لا بطلاً مثلت. وكيف يتفرغ للتأليف، ويتبرع بالوفاء بهذا التكليف؛ من حمل الدنيا في سن الكهولة على كاهله؟ وحمى طير الكرى عن مناهله، وركض طرف الهوى بين معارفه ومجاهله، واشترى السهر بالنوم، واستنفد سواد الليل وبياض اليوم؛ في بعث يجهّز، وفرصة تنتهز، وثغر للدين يسدّ، وأزر للملك يشدّ، وقصة ترفع، ووساطة تنفع، وعدل يحرص على بذله، وهوى يجهد في عذله، وكريم قوم ينصف من نذله، ودين تزاح الشوائب عن سبله، وسياسة تشهد للسلطان بنبله، وإصابة نبّله؛ ما بين سيف وقلم، وراحة وألم، وحرب وسلم، ونشر علم أو علم، وجيش يعرض، وعطاء يفرض، وقرض حسن لله (تعالى) يقرض، في وطن توفر العدو على حصره، ودار به دور السوار على خصره، وملك قصر الصبر والتوكل على قصره، وعدد نسبته من العدو العظيم الإطاقة، الشديد الإضاقة؛ نسبة الشعرة من جلد الناقة. وبالله نستدفع المكروه، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه. وسألت منه - أيده الله -

القنوع بما يسره الوقت، مما لا يناله المقت،
والذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترتيب والسن،
ويؤمن من اعتراض الإيس والجن... وقلت معذراً
أخاطب مؤلف كتاب الصباية، بما يعتمده جانب
إتصافه، ويفضى عن نقص إن وقع فيه كمال
أوصافه:

يا من أدار من الصباية بيننا
قدحا ينم المسك من رياه
وأتى بريحان الحديث فكلمنا
صبح النديم براحه حياه
أنا لا أهيم بذكر من قتل الهوى
لكن أهيم بذكر من أحياه ((¹.

وكلام ابن الخطيب - هنا - طويل؛ لا يسعه
مجال كهذا؛ وعليه؛ يمكن الرجوع إليه في كتاب
روضة التعريف بالحب الشريف.

¹ روضة التعريف بالحب الشريف، ص ص: 4 - 11.

المهم؛ أن كتاب ديوان الصببة لابن حجلة؛ قد أحدث حركة واسعة في ميادين الأدب مشرقاً ومغرباً. وفي ما يلي عرض لهذا الكتاب؛ الذي يدرس قضايا العشق، وأحوال الحب. ويشتمل على أبواب وفروع كثيرة؛ تمثلها: مقدمة وخمسة فصول؛ ثم ثلاثين باباً بفصولها المختلفة. ومضمون الفصول تجليبه العناوين؛ مثل:

- الفصل الأول: رسم العشق ورسمه وما قيل في اسمه.
- الفصل الثاني: أسبابه وعلاماته.
- الفصل الثالث: مراتبه وأسمائه.
- الفصل الرابع: مدحه وذمه.
- الفصل الخامس: اختلاف الناس فيه؛ هل هو اضطراري أو اختياري؟

أما الأبواب؛ فتشتمل على ما يلي:

- الباب الأول: ذكر الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيلي وإجمالي.

— الباب الثاني: ذكر المحبين الظرفاء من الملوك والخلفاء.

الباب الثالث: ذكر من عشق على السماع ووقع مع الحبيب في النزاع. ثم: ذكر ما ينخرط في سلك العشق على السماع والشهاه على الغائب.

الباب الرابع: ذكر من نظر أول نظرة فاحترق من خد الحبيب بجمرة. ثم: ذكر سحر الجفون ونبل العيون. ثم: وصف العيون الضيقة وغيرها.

الباب الخامس: ذكر تغير الألوان عند العيان من صفرة وجَل وحمرة وجل وما في معنى ذلك من عقد اللسان وسحر البيان. ثم: التفضيل بين البيض والسود والسمر ذوات النهود. ثم: ذكر ما يعتري الحب من اصفار لونه عند رؤية محبوبه وخفقان قلبه وطيران عقله.

— الباب السادس: ذكر الغيرة وما فيها من الحيرة وقرع من نيك الجن.

— الباب السابع: إفشاء السر والكتمان عند عدم الإمكان.

- الباب الثامن: مغالطة الحبيب واستعطافه وتلافي غيظه وانحرافه.
- الباب التاسع: الرسل والرسائل والتلطف في الوسائل.
- الباب العاشر: الاحتيال على طيف الخيال وغير ذلك مما قيل فيه على اختلاف معانيه.
- الباب الحادي عشر: قصر الليل وطوله وخضاب شفقته ونصوله وما في معنى ذلك.
- الباب الثاني عشر: قلة عقل العذول وما عنده من كثرة الفضول.
- الباب الثالث عشر: ذكر الإشارة إلى الوصول والزيارة. ثم: نم الطيب على الحبيب.
- الباب الرابع عشر: الرقيب النمام والواشي الكثير الكلام. ثم النمام والواشي وما أظرف ما سمعت في ذلك.
- الباب الخامس عشر: العتاب عند اجتماع الأحاب وما في معنى ذلك من الرضى والعفو. ثم: فصل في العفو والرضى والصفح عما مضى.
- الباب السادس عشر: إغاثة العاشق المسكين إذا وصلت العظم السكين.

- الباب السابع عشر: ذكر دواء علة الجوى.
- الباب الثامن عشر: تعنت المعشوق على الصب المشوق وغير ذلك من أقسام الهجر وصبر القابض فيه على الجمر.
- الباب التاسع عشر: الدعاء على المحبوب وما فيه من الفقه المقلوب.
- الباب العشرون: الخضوع وانسكاب الدموع.
- الباب الحادي والعشرون: الوعد والأمانى وما فيهما من راحة المعانى.
- الباب الثاني والعشرون: الرضا من المحبوب بأيسر المطلوب.
- الباب الثالث والعشرون: اختلاط الأشباح اختلاط الماء بالراح.
- الباب الرابع والعشرون: عود المحب كالخلال وطيف الخيال وما فى معنى ذلك من رقة خصر الحبيب وتشبيهه الردف بالكثير.
- الباب الخامس والعشرون: ذكر ما يكابده الأحباب من الأمور الصعاب وغير ذلك مما يقاسونه من تحمل المشاق وألم الفراق.

- الباب السادس والعشرون: طيب ذكر الحبيب.
- الباب السابع والعشرون: طرف يسير من المقاطع الرائقة والأغزال الفائقة مما اشتمل على ورد الخدود ورمان النهود وغير ذلك.
- الباب الثامن والعشرون: ذكر طرف يسير من أخبار المطربين المجيدين؛ من الرجال ونوات الحبال، وما في معنى ذلك؛ من تلك موالاتهم، ووصف آلاتهم.
- الباب التاسع والعشرون: ذكر من ابتلي من أهل الزمان بحب النساء والغلمان. ثم: النظر إلى وجه الأمر. ثم: ذكر الحافظ محمد بن ناصر.
- الباب الثلاثون: ذكر من اتصف بالعفاف وبأحسن الأوصاف ومنهم شهيد، ومنهم قتيل.

توضيح لابد منه

وفيما يلي: سيتم عرض أهم ما جاء في كتاب ديوان الصبابة؛ إذ يختصر إلى الحد الذي يسمح به المجال هنا. بحيث يُقْطَع ما فاض وزاد عن الحد. وعليه؛ سترد في هذا الحيز؛ كل الشروح التي صاغها ابن أبي حجلة بقلمه؛ ثم الاكتفاء بعدد محدود من الشواهد الشعرية الشائعة؛ التي نظمها مختلف الشعراء العرب؛ على أن يثبت كل ما نظمه ابن أبي حجلة بنفسه. وهكذا؛ فقد افتتح ابن أبي حجلة ديوان الصبابة بقوله:

مختاراء من ديوان الصبابة

((الحمد لله الذي جعل للعاشقين بأحكام الغرام
رضاً، وحبب إليهم الموت في حب من يهوونه؛ فلا
تكن يا فتى بالعدل معترضاً؛ فكم فيهم من عاشق
ومحب صادق:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا
فسام صبراً فاعياً نيله فقضا

أحمد من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى، وشبب يذكر محبوبه إن كان تهامياً في
حجازاً وشامياً في نوى:

طور إيمان إذا لاقيت ذا يمن
وإن لقيت معدياً فعدناني

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحميد
المجيد؛ شهادة من أصبح موته لبعده أقرب من
حبل الوريد؛ وقال لعاذله: لقد علمت ما لنا في
بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد¹:

ولو أن ما بي من حبيب مقنع

عنرت ولكن من حبيب معمم

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ شهادة من
أخلص في موالاته وتبرأ من الإثم؛ حين تولى عنه
محبوبه بخاتم ربه وبراعته صلى الله عليه وعلى
آله وأصحابه؛ الذين يحبهم ويحبونه ويقيمون عند ما
أمرهم، ولا يتعدونه؛ ما نر شارق، وهام عاشق.

أما بعد: فإن كتابنا هذا كما قيل: كتاب
حوى أخبار من قتل الهوى، وسار بهم في الحب
في كل مذهب مقاطعيه؛ مثل المواصيل؛ لم تزل
تشبب فيه بالرباب، وزينب؛ فهم ما هم؛ تعرفهم
بسيماهم؛ قد تركهم الهوى كهشيم عقال المحتظر؛
وأصبحوا من علة الجوى على قسمين: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ

¹ إقتباس من قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَفَطَعَلِمْتَ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِهِ مِنْ حَقٍّ وَإِلَٰهٍ
لَعَلَّكُمْ مَا تُرِيدُ﴾. سورة هود، الآية: 79.

قَضَهُ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ¹. فهم ما بين قتيل
وشهيد، وشقي وسعيد؛ على اختلاف طبقاتهم
وأشكالهم، وتباين مراتبهم وأحوالهم؛ وغير ذلك مما
تصبح به أوراقه يانعة الثمر؛ وتُمتسي به صفحاته
في كل ناحية من وجهها قمر؛ فإذا نظرت إلى
الوجود بأسره؛ شاهدت كل الكائنات ملاحاً على أن
جماعة من العصريين غلبوا من تقدم بالتأليف في
هذا الباب؛ ولم يفرق غالبهم في التشبيب بين زينب
والرباب:

وكل يدعى وصلاً بليلي

وليلي لا تقر لهم بذاكا

فربيع كتابنا هذا بذكر العامرية مغمور؛ وهو
بالنسبة إلى ما ألفه الشهاب محمود² مشكور ومن
وقف عليه علم صحة هذا الكلام وأنشدني تصديق
هذه الدعوى - إذا قالت حذام -³ مؤلف طوق

¹ من الآية: 23، من سورة الأحزاب.

² هو الشهاب محمد بن سليمان بن فهد الحلبي توفي في سنة 1324/هـ 1725م.

³ البيت هكذا: ((إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام)).

وهذا القول لجيم بن مصعب؛ الذي أيد زوجته حذام حين حذرت قومها قائلة:

((ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما)).

الحمامة بالنسبة إلى حجلته يحجل، وصاحب منازل
الأحباب ممن عرف المحل؛ فبات دون المنزل.
وعنرت طيفك في الجفاء
يسري فيصبح نوننا بمراحل...))

((... فإن قلت: الفضل للمتقدم "وهل غادر
الشعراء من متردم"¹. قلت نعم؛ في الخمر معني
ليس في العنب، وأحسن ما في الطاوس الذنب؛ فدع
كل صوت بعد صوتي؛ فأني أنا الصائح المحكي؛
والآخر الصدا؛ فكم ترك الأول للآخر؛ ولا اعتبار
بقول الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

فقد سقط في يديه وقيل في الرد عليه:
أفخر بآخر من كلفت بحبه
لاخير في الحبيب الأول

¹ هذا صد بيت (ومطلع) لمطقة عنترة بن شداد العسبي. والبيت كاملاً هكذا:
((هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم))

أَتَشْكُ فِي أَنْ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا

سَادَ الْبَرِيَّةِ وَهُوَ آخِرُ مَرْسَلٍ...))

((على أنني لم أجحد ما في منازل الأحاب
من ذكر حبيب ومنزل، ولا تحملت على منصفه؛
فوا عجباً من قلبي المتحمل؛ ولكن قصدت التتبيه
على أن حسن التأليف مواهب، وأن للناس فيما يعشقون
مذاهب. ومعلوم أن الجنون فنون، و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾¹ ولم يزل كتابنا هذا في مسوداته منذ
حجج²؛ وبيوته من بحورها في لجج؛ لا أبيع ما
فيه - من منازل الأحاب - لساكن، ولا أمكن عاشقاً
من المرور بتلك الأماكن:

أغار إذا آنست في الحي أنه

حذاراً وخوفاً أن تكون لحبه

¹ من الآية: 32؛ من سورة الروم.

² كتب في الأصل: ((حجج)). ويبدو أنه تحريف؛ فلخترنا كلمة: ((حَجَجَ))؛ التي تعني: الإمساك عن الكلام، أو الإقامة في المكان، أو الرجوع على العقب والنكوص. وهي كلها أقرب إلى المعنى؛ بخلاف كلمة: ((حجج))؛ التي لا تعني شيئاً.

حتى برز لطلابه المرسوم الشريف الملكي
الناصرى؛ أدام الله نشر أعلامه، ولا أخلى كنانة من
سهامه؛ ما نفذت مراسيم سهام المقل، وتثنى قوام
الحبيب الذي طاب به الزمان، واعتدل؛ فبادرت إلى
تجهيزه، وسبك إبريزه؛ حسب المرسوم، والمعدن
الشريف؛ من غير تسويف، ولا تكليف؛ ولم أبح
زهر منثوره لغير حضرته الشريفة من الأنام؛ لأنه
كان يقال: كل ما يصلح للمولى على العبد حرام؛
لا جرم؛ أنه جاء بنظره السعيد نزهة للنظر؛ وقال
الواقف على عتبة بابه: إن السعادة لتلحظ الحجر؛
فهو للسلطان بستان، وللعاشق سلوان، وللمحب
الصادق جيب موافق، وللمهجور نجوة، وللنديم قهوة،
وللناسي تذكرة، وللأعمى تبصرة، وللشاعر المجيد
بيت القصيد، وللأديب الماهر مثل سائر، وللحدث
قصص، وللحاسد غصص، وللفقيه تنبيه، وللحبيب
بالقمر تشبيه¹:

تبادره بالبدر منه بوادره
وتحلوه عند المرور نوارده

¹ القصيدة الموالية من نظم ابن أبي حجلة؛ وهي في 45 بيتاً:

ففيه له في كل يوم وليلة
حبيب ملم أو نديم يسامرة
ولي فيه نظم أن تضوع نشره
ففي طيه حلو الكلام ونادرة
ولي فيه منثور غدا في مقامه
وعرف سناه مشرق الروض عاطرة
ولي فيه من سحر البيان رسائل
إذا ما جفاني أحور الطرف ساحرة
ولي فيه أسرار الحروف لأنه
ينقطه دمعي فتبدو سرائره
فنثور دمعي مثل نظيم سطوره
خدودي إذا ما خط فيها دقاته
تمد مداد الدمع أقلام هديه
فدمعي حبري والسواد محابره
خدمت بديوان الصبابة عاملا
فباشر قتلي من سباتي ناظرة
فلولا الهوى ما مات مثلي عاشق
ولا عمرت بالعامري مقابرة
وفي غزلي ذكر الغزال ومربع
تطار حتى فيه الحديث جاذرة

أُنزّهه عن وصف خدر عنيزة
ومنزل قفر سرن عنه أباعره
تجر قوافيه معال غدا بها
جرير كعبداً وثقته جرائره
يشيب بها فود الوليد لأنه
يسير وجنح الليل سود ضفائره
ولست أرى يوماً بدارة جلجل
سوى شاعر دارت عليه دوائره
إذا ما نسي ذكر حبيب ومنزل
فإني لمن أهواه ما عشت ذاكرة
أجاور في سفح المقطم جيرة
فيا حبذا المحبوب حين تجاوره
فيا طيف من أهواه طرفي إن غفا
أتهمجره بالله أم أنت زائرة
وحقك لو سائرته بعض ليلة
لسايرت صيامات في الحب سائرة
ويا تيه طيف من خيالك طارق
فيطرق إجلالاً كأنك حاضرة
وبي من يحج الغصن رمح قوامها
إذا بات في الروض النضير بناظره

إذا قبلت في الحلي والطيب قيل لي
حبيبك بستان توضع أزاهرة
وإن رمت منها وهي غضبي التفاتة
ثنت عواطفها نحو الغزال تشاورة
أيبرد ما ألقاه من حر هجرها
وقد حميت يوماً علي هواجرة
تحصنت في حصن الهوى من عواذلي
وبات لقلبي جيش هم يحاصره
ولو لم يكن أعمى البصيرة عاذلي
لما عميت عمن هويت نواظرة
يشبهها بالغصن والغصن عندها
يشاهدها يغضي ويطرق ناظرة
ألغصن خد كالشقيق إذا بدا
وشعر كجناح الليل سود غدائره
لئن طاب ذلي في هواها فإنني
وحقك ممن عز في مصر ناصره
ملك يهز الرمح أعطاف قده
كما اهتز غصن طار في الحب طائره
ملك تريه قبل ما صار هو كائن
بصيرته أضعاف ما هو ناظرة

ملك إذا ما جنته حسن اللقا
جميل المحيا بارع الحسن باهرة
ملك إذا صار كالبدر في الدجى
فأولاده مثل النجوم تسائرة
ملك أرى من حوله كل عالم
يذكره في العلم ما هو ذاكرة
ملك له في كل يوم ولية
بشير توالى بالهناء بشائرة
ملك أسود الغاب تحذر بأسه
لأن ملوك الأرض طراً تحاذره
تروعهم شهب السماء وبروقه
وما هي إلا سمره وبوائرة
إذا افتترعت أشكال حال اجتماعهم
فأي ضمير لم يدس فيه ضامرة
أي كماء لم بحرها يرعهم نزاله
وأي مكان ما علته منابرة
وأي قصيد بخرها لم يرق له
وغائص فكري ناظم الدر نائرة
ولي فيه من غر التصانيف خمسة
وهذا الذي طوق الحمامة عاشرة

يضوع به المنثور كالزهر عندما
تراوحه ريح الصبا وتباكراً
فكم فيه لي من مرقص حول مطرب
بتشبيبه في الحي يطرب زامرة
ولو لم يكن مثل السكر دان ما غدا
بحضرته يوماً تطيب حواضره

نعم؛ ألقته باسم مولانا السلطان على الوجه
المشروح، وتوليت - لأجله - عمله بنفسه؛ فجاء
كما قيل: عمل الروح للروح:
أهيم بمن هام الحبيب بحبه
ألا فاعجبوا من ذا الغرام المسلسل

وسلكت في تأليفه الاختصار والاقتصار على
النوادر القصار؛ لأنه كان يقال: الوضع وضعان:
وضع له افتخار ووضع له نجار. وقال يحيى بن
خالد¹ لولده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا
أحسن ما تكتبون، وحدثوا بأحسن ما تحفظون،

¹ هو يحيى بن خالد بن برمك؛ وزير الخليفة العباسي ومربيه هارون
الرشيد. انتهى عهده بالهلاك في سجن الرقة - عن عمر بلغ السبعين.
وذلك في سنة 190هـ/805م.

وخذوا من كل شيء طرفاً؛ فإنه من جهل شيئاً
عاداه. وسميته "ديوان الصبابة"؛ ليصبح الواقف عليه
مولهاً؛ ويعلم أنه إن لم أكن أنا للصبابة من لها:
ما يعلم الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيتها

أي والله

قلما يبرح المطيع هواه
كافاً ذا صبابة وجنون

— رسم العشق، ورسمه، وما قيل في اسمه:¹

أقول: هذا الفصل؛ عقدناه لذكر رسم العشق
وحده، وجزر بحره المتلاطم ومده؛ وما للناس فيه
من الكلام البايّن، والقول المتباين؛ إذ فيهم مَن
التبس عليه؛ فسماه باسم سبيه، أو باسم ما يؤول
لغيره؛ وغير ذلك؛ مما التبس عليهم فيه الجواب،
وإصابة الصواب؛ وعذرهم الظاهر؛ قول الشاعر:

¹ اكثفني بما سبق من مقدمة الكتاب؛ وفيما يلي المباحث التمهيدية؛ وهو
أول فصولها.

يقول أناس لو نعت لنا الهوى
والله ما أدري لهم كيف أنعت
فليس لشيء منه حد أحد
وليس لشيء منه وقت مؤقت

فمن حدود المليحة ورسومه الصحيحة؛ قول
فيثاغورث¹؛ الذي أخذ عن أصحاب سليمان بن داود
عليهما الصلاة والسلام؛ فيما ذكره صاعد² في كتاب
الطبقات: "العشق طمع يتولد في القلب، ويحرك،
وينمو، ثم يتربى؛ وتجمع إليه مواد من الحرص.
وكلما قوي؛ زاد صاحبه في الاهتياج، واللجاج،
والتماذي في الطمع، والفكر، والأمانى، والحرص على
الطلب؛ حتى يؤديه ذلك إلى الغم المقلق؛ ويكون
لحترق الدم - عند ذلك - باستحالة السوداء، أو

¹ يسمونه: فيثاغورث أو فيثاغورس أو فيثاغورس الساموسي. وهو من
فلاسفة الإغريق؛ عالم في الرياضيات. عاش في القرن السادس قبل
الميلاد. وتنسب إليه براهين فيثاغورث في الرياضيات. ومفادها: ((في
مثلث قائم الزاوية، مربع طول الوتر يساوي مجموع مربعي طولي
الضلعين المحاذيين للزاوية القائمة))؛ تم ذلك عن طريق حساب مساحة
المربعات التي تقابل كل ضلع من أضلاع المثلث قائم الزاوية. ربما تكون
وفاته حدثت في سنة 500 قبل الميلاد.

² هو أبو القاسم صاعد بن أحمد القرطبي الأندلسي. توفي في عام
462هـ/1070م. اشتهر بكتابه المعنون بـ "طبقات الأمم".

التهاب الصفراء، وانقلابها إليها. ومن طبع السوداء
إفساد الفكر؛ يكون زوال العقل، ورجاء ما لا يكون؛
وتمني ما لا يتم؛ حتى يؤدي ذلك إلى الجنون؛
فحينئذ؛ ربما قتل العاشق نفسه؛ وربما مات غماً؛
وربما نظر إلى معشوقه؛ فمات فرحاً؛ وربما شهق
شهقة؛ فتخلى روحه؛ فبقى أربعاً وعشرين ساعة؛
فيظنون أنه مات؛ فيدفنونه؛ وهو حي؛ وربما تنفس
الصعداء؛ فتخلى نفسه في تأمور قلبه؛ وينضم إليها
القلب؛ ولا ينفرج حتى يموت. وتراه إذا أذكر من
يهواه؛ هرب دمه؛ واستحال لونه".

قال الإمام ابن الإمام محمد بن داود
الظاهري¹: وتكرار وإذا كان ذلك كذلك؛ فإن زوال
المكروه عن هذه حالته؛ لا سبيل إليه بتدبير
الأدوية، ولا شفاء له في نسخة. وقال فزاري إلا
بإطفاء رب العالمين. وذلك إن المكروه العارض من
سبب واحد قائم بنفسه؛ يتهيأ التلطف فيه؛ بزوال
سببه. فأما إذا وقع السببان؛ وكان كل واحد منهما
سبباً؛ فإذا كانت السوداء² سبباً لاتصال الفكر،

¹ هو أبو بكر محمد بن داود بن علي. ولد ببغداد في سنة 255هـ/868م،
وتوفي بها في عام 297هـ: 909م. وهو ابن الإمام داود بن علي
الظاهري؛ مؤسس المذهب المنسوب إليه.

² في الأصل: ((الصوداء))؛ وهو تحريف.

وكان اتصال الفكر سبباً لاحتراق الدم، والصفراء، وقلبهما إلى تقوية السوداء؛ فهذا هو الداء العضال؛ الذي يعجز عن معالجته الأطباء. ومنها قول أفلاطون¹؛ الآخذ للحكمة عن فيثاغورس؛ المتقدم ذكره: العشق قوة غريزية متولدة من وسواس الطامع، وأشباح التخيل؛ نام بإيصال الهيكل الطبيعي؛ محدث للشجاع جنناً²، وللجبان شجاعة؛ يكسو كل إنسان عكس طباعه؛ حتى يبلغ به المرض النفساني والجنون الشوقي؛ فيؤديانه إلى الداء العضال؛ الذي لا دواء له. ومنها قول أرسطاطاليس³؛ الآخذ للحكمة عن أفلاطون؛ المتقدم ذكره: العشق عَمى العاشق عن عيوب المعشوق. وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: (حبك الشيء؛ يعمي، ويصم)؛ وقول الشاعر:

¹ أفلاطون Plato؛ وترجمتها "واسع الأفق": هو الفيلسوف اليوناني الشهير. ولد في أثينا سنة 427 أو 428 قبل الميلاد، ومات بها في عام 347 أو 348 قبل الميلاد.

² في الأصل: ((جنبا))؛ وهو تحريف.

³ أرسطاطاليس أو أرسطوطاليس أو أرسطو: فيلسوف يوناني؛ تلميذ أفلاطون، وأستاذ الأسكندر المقدوني. ولد في 322 قبل الميلاد وتوفي في سنة 384 قبل الميلاد. شاع ذكره بين المفكرين المسلمين؛ وكان يسمى "المعلم الأول".

فلست براء عيب ذي الود كله
ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً
وعين الرضا عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدي المساويا...))

((ومنها؛ ما مشى عليه أبو علي بن سينا¹
وغيره من الأطباء؛ العشق مرض وسواسي شبيهه
بالماليخوليا²؛ يجلبه المرء إلى نفسه؛ بتسلط فكرته
على استحسان بعض الصور والتماثيل؛ وقد يكون
معه شهوة جماع؛ وقد لا يكون. وقال بعض الأدباء
الظرفاء: العشق عبارة عن طلب ذلك الفعل
المخصوص من شخص مخصوص. وهذا ظريف.

¹ هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا. ولد ببغداد "أفشنة؛ القريبة من بخارى؛ في أوزبكستان الحالية؛ ووالده من مدينة بلخ بأفغانستان الحالية؛ أما أمه فقروية من الأرياف. ولد في سنة 370هـ/980م. وتوفي بمدينة همدان الإيرانية في عام 427هـ/1037م. وهو من أبرز الفلاسفة الأطباء. بحيث لقب بالشيخ الرئيس، وأمير الأطباء، وأبي الطب الحديث. ألف زهاء 200 كتاباً في مختلف الأغراض.

² الماناخوليا أو الماليخوليا: مرض نفسي؛ يصاب صاحبه بقلق شديد، وتشاؤم حاد، وانقباض مفرط. يسميه بعضهم: "الانكوصية" و"السوداء". يؤدي بالمرضى إلى الصرع.

وقال الجنيد¹: العشق ألفة رحمانية، وإلهام شوقي،
أوجبها كرم الله تعالى على كل ذي روح؛ لتحصل به
اللذة العظمى؛ التي لا يقدر على مثلها إلا بتلك
الألفه؛ وهي موجودة في الأنفس؛ بقدر مراتبها عند
أربابها؛ فما أحد إلا عاشق لأمر يستدل به على
قدر طبقة من الخلق. ولأجل ذلك؛ كان أشرف
المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها؛ مع
كونها معانية؛ ومالوا إلى الآخرة²؛ مع كونها مخبراً
لهم عنها بصورة اللفظ. وقال الأصمعي: سألت
إعرابية عن العشق؛ فقالت: جل الله عن أن يرى،
وخفي عن أبصار الوري؛ فهو في الصدور كامن؛
ككمون النار في الحجر؛ إن قدحتَه أوري، وإن تركته
تواري. وقال بعضهم: إن الجنون فنون؛ والعشق فن
من فنونه؛ واحتج بقول قيس:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم

العشق أعظم مما بالمجانين

¹ هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري؛ أحد الأئمة السنيين
الكبار، ومن المتصوفة الأوائل؛ عاش في القرن الثالث الهجري؛ ولد
ونشأ وتوفي ببغداد في سنة 297هـ/909م.
² في الأصل: ((الآخر)).

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون في الحين
إني جننت فهاتوا من جننت به
إن كان ينفي جنوني لا تلوموني

وقيل لأبي زهير المدايني: ما العشق؟ فقال:
الجنون، والذل؛ وهو داء أهل الظرف. وقيل لأبي
وائل الأوضاحي: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم
يكن طرفاً من الجنون؛ فهو عصارة من السحر.
وقالت إعرابية: هو تحريك الساكن، وتسكين
المتحرك. وقال المأمون¹ ليحيى بن أكرم²؛ ما
العشق؟ فقال: سوانح تسرح للمرء؛ فيهيّم بها قلبه،

¹ هو الخليفة العباسي عبد الله المأمون بن هارون الرشيد. ولد في سنة 170هـ/786م. وتوفي في سنة 218هـ/833م.

² هو الفقيه العلامة أبو محمد يحيى بن أكرم بن محمد بن قطن التميمي المروزي؛ قاضي القضاة في الدولة العباسية؛ ولد في عهد الخليفة العباسي المهدي. ولاء المأمون خطة قاضي القضاة؛ وكان له تأثير كبير على المأمون؛ بحيث أقنعه بنبذ كثير من القضايا التي سنّها قاضي الدولة قبله؛ مثل زواج المتعة، وبعض الشعار الشيعة. وقد تعرض لحملات دعائية ضده؛ غرضها تشويه صورته، والإساءة إليه. وتوفي في سنة 242هـ/856م؛ بعد أن فاق الثمانين من عمره.

وتؤثر بها نفسه. فقال له ثمامة¹: أسكت يا يحيى؛
لنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق، أو محرم صاد
صيداً؛ فأما هذه فمن مسائلنا نحن. فقال له
المأمون: قل يا ثمامة؛ قال: العشق جليس ممتع،
وألief مؤنس، وصاحب مالك، ومالك قاهر؛ ملك
مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة؛
ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون
ونواظرها، والعقول وآراءها؛ قد أعطي عنان
طاعتها، وقوة تصرفها، وقياد ملكها؛ وتوارى عن
الأبصار مدخله، وعمي عن القلوب مسلكه. فقال له
المأمون: أحسنت يا ثمامة؛ وأمر له بألف دينار.
وهذا القدر كافٍ في معرفة العشق ورسمه.



¹ هو ثمامة - بالثاء المثناة الفوقية - وليس بالثاء كما حرفت في الأصل -
ابن أشرس النميري؛ من المعتزلة المؤثرين على المأمون. وتدعى طائفته
((التمامية)). ونسبت إليه الخلاعة، وقلة الدين، توفي سنة 213هـ/828م.

— أسبابه وعلاماته¹ —

أقول: هذا الفصل عقدناه للكلام على أسباب العشق النفسانية، وعلاماته الجسمانية؛ على أن هذا النوع الأخير كثير؛ والمتصف به من المحبين جمٌ غفير. وسنورد من ذلك ما يعذب وروده، وتخفق — كقلب العاشق — بنوده؛ إن شاء الله تعالى.

قال بعض الأطباء: سبب العشق النفساني الاستحسان والفكر؛ وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ؛ عن مَنِي مُحَقَّن؛ ولذلك؛ أكثر ما يعتري العزاب؛ وكثرة الجماع تزيله بسرعة. وقال ابن الأكفاني² في كتابه غيبة اللبيب عن غيبة الطبيب: إن أكل الطيور المسموعة يورث العشق. وقال أيضاً في الخلاصة: علامته نحافة البدن وخلاء الجفن للسهر؛ وكثرة ما يتصعد إليه من الأبخرة، وغور العين، وجفافها؛ إلا عند البكاء، وحركة الجفن ضاحكة؛ كأنه ينظر إلى شيء لذيق؛ ونفس كثير الانقطاع والاسترداد؛ والصعداء، ونبض غير منتظم؛

¹ يتبع للفصل الثاني من التمهيد.

² هو أبو محمد هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله ابن الأكفاني الأمين الأتصاري الدمشقي، ولد في سنة 1052/444م. من أهل الحديث، وله مشاركة في كتابة التاريخ. توفي بدمشق في عام 1129/524م.

لا سيما عند ذكرِ أسماء وصفات مختلفة؛ فأيهما اشتد
عنده اختلاف النبض، وتغير الوجه؛ فهو.
وقال أرسطاطاليس: الفلكي للعشق من النجوم:
زحل، وعطارد، والزهرة؛ جميعاً؛ ولذلك؛ إذا اشتركوا
في أصل المولد، أو اجتمعوا وتناظروا في أشكال
محمودة؛ وقع بينهم العشق والمحبة في بيت أحدهم،
أو في حده؛ وكان رب البيت، أو صاحب الحد ناظراً
إليه، أو كانت الكواكب المذكورة ناظرة في أشكال
محمودة، أو متقارنة؛ فزحل يهيئ الفكرة، والتمني،
والطمع، والهم، والهيجان، والأحزان، والوسوسة،
والجنون. وعطارد يهيئ قول الشعر، ونظم الرسائل،
والملق، والخلاعة، وتتميق الكلام، والتذلل، والتلطّف.
والزهرة تهيئ للعشق، والولّه، والهيّمان، والرقّة؛
وتبعث في النفس التلذذ بالنظر، والمؤانسة بالحديث،
والمغازلة التي؛ تبعث على الشبق، والغلّة، وتدعو
إلى الطرب، وسماع الأغاني، وما شابهه.

وقال بطليموس¹: سببه أن تكون الشمس والقمر في برج واحد، أو متناظرين؛ من تثليث، أو تسديس؛ فمتى كان كذلك؛ كانا مطبوعين على مودة كل واحد منهما؛ لكون سهمي سعادتهما في مولديهما في برج واحد، أو يتناظر السهمان من تثليث، أو تسديس؛ بعد أن يكون نظر صاحب سهم المحبة والصدقة؛ فذلك يدل على أن هذين المولودين محبتهما من جهة المنفعة؛ ومنفعتهما من جهة واحدة؛ وإن أحدهما ينتفع بمودة صاحبه؛ فتجلبب المنفعة ما بينهما المحبة، والمودة؛ ويمتزجان، ويؤيد هذا؛ قول الخيزلرزي:

ولكن أرواح المحبين تلتقي
إذا كانت الأجساد عنهن نوما
وأحسب روحينا من الأصل واحداً
ولكنه ما بيننا منقسما

¹ ثمة 15 بطليموس حكموا مصر: فالأول هو (سوستر أو المنقذ)؛ ولد في سنة 367 قبل الميلاد ومات في عام 283 قبل الميلاد. وهو أو ملوك البطالمة في مصر. ولكن المقصود هنا غير هؤلاء؛ بل المقصود هو بطليموس الفلكي اليوناني الذي ولد في عام 90م وتوفي في سنة 168م.

ولو لم يكن هذا كذا ما تألمت
له مهجتي بالغيب لما تألما

ومن علاماته؛ إغضاء المحب عند نظر
محبوبه إليه، ورميه بطرفه نحو الأرض؛ وذلك من
مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره؛ ولهذا
يستهجن الملوك من يخاطبهم؛ وهو يحدّ النظر
إليهم؛ بل يكون خافض الطرف إلى الأرض. قال الله
تعالى؛ مخبراً عن كمال أدب نبيه صلى الله عليه
وسلم؛ في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾¹.
وهذا غاية الأدب فإنّ البصر لم يزغ يميناً، ولا
شمالاً، ولا طمح متجاوزاً إلى ما وراء. ومنها
اضطراب يبدو للمحب عند رؤية من يشبه محبوبه،
أو عند سماع اسمه؛ كما قيل:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيج أشجان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أطار بليلي طائراً كان في صدري

¹ سورة النجم؛ الآية: 17.

دعا باسم ليلى أسخن الله عينه
وليلى بأرض الشام في بلدٍ قفر

ومنها؛ أنه يستدعي سماع اسم محبوبه، ويستلذ
الكلام في أخباره، ويحب أهل محبوبه، وقرابته،
وغلمانه، وجيرانه، ومن ساكنه؛ كما قال الشاعر: ((
وقال آخر:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

ومنها؛ كثرة غيرته عليه، ومحبة القتل والموت
ليبلغ رضاه؛ والإنصات¹ لحديثه إذا حدث؛ واستغراب
كل ما يأتي به؛ ولو أنه عين المحال؛ وتصديقه
وإن كذب؛ وموافقته وإن ظلم؛ والشهادة له وإن جار،
واتباعه كيف يسلك؛ والإسراع بالسير نحو المكان
الذي يكون فيه؛ والتعمد للقاء بقربه، والدنو منه؛
وإطراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهد فيها، والرغبة
عنها؛ والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها؛
والتباطؤ في المشي عند القيام عنه؛ وجوده بكل ما
يقدر عليه؛ مما كان يتمتع به قبل ذلك؛ حتى

¹ في الأصل: ((الإنصاف))؛ وهو تحريف.

كأنه هو الموهوب له؛ وهذا قبل استعمار نار
الحب؛ فإذا تمكن؛ أعرض عن ذلك كله؛ وبدله
سؤالاً، وتضرعاً؛ كأنه يأخذه من المحبوب؛ حتى
أنه يبذل نفسه؛ دون محبوبه؛ كما كانت الصحابة
يفدون النبي صلى الله عليه وسلم؛ في الحرب
بنفوسهم؛ حتى يُصنّروا حوله؛ كما قيل:

بفديك بالنفس صب لو يكون له

أعز من نفسه شيء فذاك به

ومنها؛ الانبساط الكثير الزائد؛ والتضاييق في
المكان الواسع؛ والمحاربة على الشيء؛ يأخذه
أحدهما؛ وكثرة الغمز الخفي؛ والميل والتعمد للمس
اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء
الظاهرة؛ وشرب ما أبقي المحبوب في الإناء. قلت:
ومنها تقبيل نعله في غيبته. وقد رأيت من فعل
هذا؛ فعنفته على ذلك؛ فقال: أسكت يا فلان؛ ما
تعلم ما في هذا من اللذة. ثم إنني وجدت هذا
المذكور بمكة؛ وأرسل معي كتاباً إلى محبوبه
المذكور؛ لأنه جاور. فقلت له: كيف أمكن الصبر
يا زيد عن عمرو. فأشدد:

ولله مني جانب لا أضيعه
وللهو مني والخلاعة جانب

ومنها تقبيل جدار الدار كما قيل:
أمر على الديار ديار ليلى
أقبّل ذا الجدار وذا الجدار¹
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

ومنها؛ الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب؛ ولا سيما إذا كانت المحبة محبة مشاكلة، ومناسبة؛ فكثيراً ما يتكلم المحبوب بكلام، أو يريد أن يتكلم به؛ فيتكلم المحب به بعينه؛ وكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه. قلت: وقد اتفق هذا غير مرة للسلطان الملك الناصر أحمد؛ لما كان بالكرك مع محبوبه الشهيد؛ فإنه كان يمرض لمرضه، ويصح لصحته. أخبرني بذلك من لا أرتاب في قوله؛ ممن كان في خدمته ملازماً له؛ وأما وقوع ذلك للمتقدمين فكثير...))

¹ قَلْبَ هذا البيت في الأصل؛ فكان الصدر في موضع العجز؛ فصوبناه.

((... ومنها؛ أنه إذا سئل عن أمر؛ أجاب بخلافه؛ وكثرة التناؤب، والتمطي، والتكسل؛ إذا نظر إلى محبوبه؛ ونكثه في الأرض بإبهام رجله. وهذا كثير ما يقع للنساء؛ وعضها على شفتها السفلى، وضربها على عضديها، أو ثدييها؛ وإظهار محاسنها لمن تهواه؛ توهمه أنها تري ذلك لبعض أهلها؛ ونظرها إلى أعطافها؛ ووضعها الحديث في غير موضعه (إياك أعني واسمعي يا جارة)¹. ومنها الانقياد للمحبوب في جميع ما يختاره؛ من خير وشر؛ فإن كان المحبوب مشغوفاً بالعلم؛ اجتهد المحب في طلبه، أشد من اجتهاده؛ وإن كان مشغوفاً بالنوادر، والحكايات الحسان، والأخبار المليحة المستحسنة؛ بالغ المحب في طلبها، وحفظها؛ وإن كان

¹ هذا مثل قاله سهل بن مالك الفزاري. قيل أنه قصد أحد معارفه؛ أثناء رحلته؛ فنزل بخيمته؛ فوجده غائباً؛ فرحبت به أخته وأضافته. ولما رأى جمالها انبهر بها؛ ولم يستطع صبراً؛ فقال شعراً؛ أراد أن تسمعه بصورة غير مباشرة:

يا أخت أهل البدو والحضارة
 ماذا ترين في فتى فزاره
 أصبح يهوى حرة معطارة
 إياك أعني واسمعي يا جارة!!!
 فأضحى عجز هذا البيت الأخير مثلاً سائراً.

مشغولاً بحرفة، أو صناعة؛ اجتهد في تعلمها؛ إن أمكنه ذلك.

فالمحبة النافعة أن يقع الإنسان على عشق كامل؛ يحمله عشقه على طلب الكمال. والبليّة كل البليّة؛ أن يُبتلى الإنسان بمحبة فارغ بطل؛ صفر من كل خير؛ فيحمله حبه على التشبُّه به. وفي أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقته؛ فوجد في تركته اثناً عشر حملاً وفردة من السراويلات. ذكره الصيمري¹. وعشق آخر الهاونات؛ من أجل صوت هاون² محبوبته؛ فوجد في تركته عشرة آلاف منها. وقد وقفت من هذا على أشياء كثيرة؛ والجنون فنون.

¹ هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن جعفر، الحنفي. ولد في سنة 351هـ/962م، وتوفي في عام 436هـ/1045م. ولي قضاء بغداد.

² الهاون: إناء نحاسي أو معدني لطحن مواد الطعام الصلبة بواسطة الدك. اسمه في الجزائر: المهراس.

ـ مراتبه وأسمائه:¹

أقول: هذا الفصل عقدناه لذكر مراتب الحب، وسياقه، وأسمائه، واشتقاقه؛ على اختلاف لغاته، وإنفاق رواته. ومن المعلوم أن الشيء إذا كان عند العرب عظيماً، وخطره جسيماً - ك: الهزبر، والرمح، والخمر، والسيف، والداهية، والمحبة المحرقة؛ ﴿وَمَا أَظْرَاكَ مَا هِيَهٗ﴾² - وضعوا له أسماء كثيرة؛ وكانت عنايتهم به شهيرة؛ ولا شيء يعدل اعتناءهم بالحب؛ الذي يسلب اللب.

فأول مراتبه الهوى: وهو ميل النفس؛ وقد يطلق؛ ويراد به نفس المحبوب. قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملها

خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ثم العلاقة؛ وهي الحب اللازم للقلب؛ كما قال الشاعر:

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني

علق بقلبي من هواك قديم

¹ من الفصل التمهيدي.

² سورة القارعة؛ الآية: 10.

وسميت علاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب. ثم الكلف: وهو شدة الحب؛ وأصله من الكلفة؛ وهي المشقة. يقال: كلفة، تكليفاً؛ إذا أمره بما يشق عليه؛ فكان الحبيب يكلف المحب ما لا يطيق؛ ويتغافل عن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾¹؛ وقيل: هو مأخوذ من الأثر؛ وهو شيء يعلو الوجه؛ كالسمسم؛ والكلف² أيضاً لون بين السَّواد³ والحمرة؛ وهي حمرة كدرة. ثم العشق: وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب. وفي الصحاح⁴: العشق فرط الحب؛ وهو عند الأطباء: من جملة⁵ أنواع المايلخوليا. والمراد بالمايلخوليا: تغير الظنون، والفكر؛ عن المجرى الطبيعي؛ إلى الفساد؛ وهو أمر هذه الأسماء. وقلما نطقت به العرب؛ وكأنهم ستروا اسمه؛ وكنوا عنه بهذه الأسماء؛ فلم يكادوا يفحصون به؛ ولا تكاد تجده في شعرهم القديم؛ وإنما أُلِيعَ به المتأخرون. ولم يقع هذا اللفظ في القرآن،

¹ من الآية 286؛ من سورة البقرة.

² في الأصل: ((الكف))؛ وهو تحريف؛ فصوبناه.

³ في الأصل: ((المواد))؛ وهو تحريف بين؛ فصوبناه.

⁴ هو معجم في اللغة العربية. يسمى: "تاج اللغة وصحاح العربية"؛ ألفه أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي؛ المتوفي سنة 400هـ/1009م.

⁵ في الأصل: ((جلة))؛ وهو تحريف فصوبناه.

ولا في السنة؛ إلا في حديث ابن داود الظاهري؛ كما يأتي بيانه. وقال ابن سيده¹: العشق عُجِبُ الْمُحِبِّ بالمحبوب؛ يكون في عناف الحب وذعارته. وقيل: العِشْقُ الاسم، والعِشْقُ المصدر، وعشيق كثير العشق، وامرأة عاشق. وشجرة يقال لها العِشْقَةُ²؛ وقيل عشقة³؛ تَخْضَرُ، ثُمَّ تَبْقُ، وتَصْفَرُ⁴؛ قال الزجاجي: واشتقاق العاشق؛ من ذلك. وقال الفراء: العشق نبت لزج؛ فسمي العشق الذي يكون بالإنسان للزوجته⁵ ولصوقه بالقلب. وقال ابن الأعرابي⁶: العاشقة اللبابة؛ تخضر⁷، وتصفّر؛ وتعلق وتعلق بالذي يليها من الشجرة؛ فاشتق من ذلك العاشق؛ ذكره في ديوان العاشقين. والعشيق يكون للفاعل والمفعول؛ وجمع العاشق: عشق وعشاق.

¹ هو علي بن إسماعيل؛ الشهير باسم ابن سيده. ولد في مرسية بالأندلس سنة 398هـ/1007م، وتوفي بها في عام 458هـ/1065م. وهو من أئمة اللغة؛ وكان كفيف النظر؛ أخذ العلم عن أبيه الذي كان كفيفاً أيضاً.
² يبدو أن كلمة سقطت هنا. وقد تكون ((العشقة))؛ التي أضفناها من لسان العرب.

³ في الأصل: ((عاشقة))؛ وهو تحريف فصوب.

⁴ في الأصل: ((تصفّر))؛ بالغين الفوقية الموحدة؛ وهو تحريف؛ فصوب.

⁵ في الأصل: ((لزوجته))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

⁶ هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي. توفي بسامرا في عام 231هـ/942م. يعتبر من أئمة اللغة؛ وله مؤلفات أدبية عديدة.

⁷ في الأصل: ((تحضر))؛ بالحاء المهملة؛ وهو تحريف فصوب.

ويقال في المرأة: عاشقة، وامرأة عاشق أيضاً؛ وقد تقدم ذكر ذلك والله أعلم. ثم الشغف: قال العزيزي¹ في غريب القرآن: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾²؛ أصاب حبه شغاف قلبها؛ والشغاف: غلاف القلب؛ ويقال: هو حبة القلب؛ وهي علقة سوداء في صميمه؛ وشغفها حُبًّا: ارتفع حُبُّه إلى أعلى موضع في قلبها؛ مشتق من شغاف الجبال: أي رؤوسها؛ وقولهم: فلان مشغوف؛ أي ذهب به الحب أقصى المذاهب؛ وأما الشغف - بالعين المهملة - فهو: إحراق الحب القلب. قال: في الصحاح: شغفه الحب؛ أي أحرق قلبه؛ وقد قرئ³ بهما جميعاً ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ وشغفها وكذلك: اللوعة. واللاعج: أعني مثل الشغف في الإحراق؛ فاللاعج: اسم فاعل؛ من قولهم: الضرب لعجه؛ إذا ألمه، وأحرق جلده. ويقال: هوى لاعج؛ لحرقة الفؤاد من الحب. وفي الصحاح لوعة الحب: حرقة؛ فهذا هو الهوى المحرق. ثم الجوى: وهو الهوى الباطن. وفي الصحاح: الجوى: الحرقة، وشدة الوجد؛ من عشق أو

¹ هو أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني العزيزي. ولد ببغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وتوفي في عام 330هـ/941م. اشتهر بكتابه غريب القرآن.

² من الآية: 30؛ من سورة يوسف.

³ في الأصل: ((قرئ))؛ وهو تحريف.

حزن. ثم التيم: وهو أن يستعبد الحب؛ ومنه
سمي: تيم الله؛ أي عبد الله؛ ومنه قيل: رجل متيم.
ثم التيل: وهو أن يسقمه الهوى؛ ومنه: رجل
متبول. وفي الصحاح: تبلهم الدهر، وتبلهم: إذا أفناهم.
ثم التيلة: وهو ذهاب العقل من الهوى؛ ويقال:
دلهه الحب؛ أي حيره. ثم الهيام: وهو أن يذهب
على وجهه؛ لغلبة الهوى عليه؛ ومنه: رجل هائم؛
والهيام - بالكسر - الأبل العطاش؛ وقوم هيم: أي
عطاش. والصبابة: رقة الشوق وحرارته. والمقّة:
المحبة؛ والوأمق: المّحب. والوجد والحسران: الحزن؛
وأكثر ما يستعمل في الحزن. والدنف: لا تكاد
تستعمله العرب في الحب؛ وإنما وُلِعَ به المتأخرون؛
وإنما استعملته العرب في المرض. والشجو: حب
يتبعه هم وحزن. الشوق: سفر القلب إلى المحبوب.
قال في الصحاح: الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى
الشيء. وقد جاء في السنة: "وأسألك النظر إلى
وجهك الكريم، والشوق إلى لقاءك". واختلف في الشوق؛
هل يزول بالوصال، أو يزيد؟ فقالت طائفة: يزول؛
لأنه سفر القلب إلى المحبوب؛ فإذا وصل إليه
انتهى السفر؛ فألقت عصاها، واستقر بها النوى.

كما قرّ عيناً - بالإياب - المسافرين. وقالت طائفة:
بل يزيد؛ واستدلوا بقول الشاعر:
وأعظم ما يكون العشق يوماً
إذا نبت الخيام من الخيام

قالوا الآن: الشوق هو حرقّة المحبة، والتهاب
نارها¹ في قلب المحب؛ وذلك مما يزيد القرب
والمواصلة. والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء؛
والمواصلة غير النوع الذي كان عند الغيبة عن
المحب؛ قال ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوكة
إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول صبابتي
فيشتد ما بقي من الهيمان
كان فؤادي ليس يشفى غليله
سوى أن ترى الروحين يمتزجان

¹ وقع اضطراب، وزيادة في الكلام؛ فحذفت العبارة الزائدة: ((في حرقّة
المحبة، والتهاب نارها)). فأضحت هكذا: ((... والتهاب نارها في قلب
المحب)).

والبلابل: الهم؛ ووسواس الصدر، والبلابل: جمع بليلة. يقال: بلابل الشوق؛ وهي وساوسه. **والتباريح:** الشدائد والدواهي. يقال: برح به الحب، والشوق إذا أصابه؛ منه البرح: وهو الشدة. **والغمرة:** ما يغمر القلب من حب، أو سكر، أو غفلة. **والشجن:** الحاجة حيث كانت؛ وحاجة المحب أشد إلى محبوبه. **وقال الراجز: (...))**

((...)) تحمل أصحابي ولم يجدوا وجدي

وللناس أشجان ولي شجن وحدي

والوصب: ألم الحب، ومرضه؛ فإن أصل الوصب المرض، والكمد، الحزن المكتوم. **والكمد:** تغير اللون، والأرق: والسهر؛ وهو من لوازم المحبة. **والحنيفي:** الشوق؛ أصل مادته الستر. والحب المفرط يستر العقل فلا يعقل المحب ما ينفعه، ولا ما يضره؛ فهو شعبة من الجنون؛ ومن الحب ما يكون جنوناً. **والود:** خالص الحب، وأطفه، وأرقه؛ وهو من الحب؛ بمنزلة الرأفة من الرحمة. **والخلة:** توحيد المحبة؛ فالخيل¹ هو الذي

¹ في الأصل: ((الخيـل))؛ وهو تحريف يـيّن.

يوجد حبه لمحبيه؛ وهي مرتبة لا تقبل المشاركة؛
ولهذا اختص بها من العالم الخيلان: إبراهيم،
ومحمد؛ صلوات الله عليهما؛ كما قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾¹؛ وصح عن النبي صلى الله عليه
وسلم؛ أنه قال: ((إن الله اتخذني خليلًا؛ كما اتخذ
إبراهيم خليلًا)). وفي الصحيح؛ عنه: ((لو كنت
متخذًا من أهل الأرض خليلًا؛ لاتخذت أبا بكر
خليلًا)). وقيل: إنما سميت خلة؛ لتخلل المحبة
جميع أجزاء الروح. قال الشاعر:

قد تخللت موضع الروح مني

وبذا سمي الخليل خليلًا

زعم من لا علم عنده؛ أن الحبيب أفضل من
الخليل؛ وقال محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله؛
وهذا الزعم باطل؛ لأن الخلة خاصة؛ وهي توحيد
المحبة كما تقدم؛ والمحبة عامة. قال الله تعالى ﴿إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾². وقد صح أن الله

¹ من الآية: 125؛ من سورة النساء.

² من الآية: 222؛ من سورة البقرة.

تعالى اتخذ نبياً خليلاً؛ فحصل من أنعام الحب
العام على الخاص والعام:
حالت بهذا حلة ثم حلة
بهذا فطاب الواديان كلاهما

والغرام: الحب اللازم. يقال: رجل مغرم
بالحب؛ وقد لزمه الحب. وفي الصحاح: الغرام
الولوع؛ والغريم: الذي يكون عليه الدين؛ وقد يكون
الذي له الدين. قال كثير:
قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

والوله: ذهاب العقل، والتحير من شدة الوجد؛
وله أسماء غير هذه؛ أضربت عنها خوف الإطالة
والمحبة: أم باب هذه الأسماء كلها. وقيل الشوق
جنس؛ والمحبة نوع منه. ألا ترى أن كل محبة
شوق؟ وليس كل شوق محبة. وخالف ذلك صاحب
المنظوم والمنثور؛ فقال: زعموا أن العشق، والوجد،
والهوى؛ أن يهوى الشيء؛ فيتبعه؛ غياً كان، أو
رشدأ. والحب حرف؛ تتنظم هذه الثلاثة فيه. وقد
يقال للعاشق، والواجد والذي يهوى: الأمر محب.

وللناس في حد المحبة كلام كثير. فقل: هي الميل
الدائم بالقلب الهائم. وقيل: هي قيامك لمحبوبك بكل
ما يحبه منك. وقيل: ذكر المحبوب على عدد
الأنفاس؛ كما قال المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل...))

((... وفي اشتقاقها أيضاً أقوال: فقل هي مشتقة
من حبة القلب؛ وهي سويداؤه. ويقال: ثمرته؛ فسميت
المحبة بذلك؛ لوصولها إلى حبة القلب. وقيل: هي
مشتقة من اللزوم، والثبات؛ ومنه: أحب البعير؛ إذا
برك؛ فلم يقم. وقيل من حباب الماء - فتح الحاء
وهو معظمه - أو يعلو الماء عند المطر الشديد؛
فعلى هذا: المحبة غليان القلب. وقيل: من حب
الماء الذي يوضع فيه؛ لأنه يمسك ما فيه من
الماء؛ ولا يسع غيره إذا امتلأ به؛ كذلك إذا امتلأ
القلب من الحب؛ فلا اتساع فيه لغير المحبوب.
وعلى ذكر حب الماء؛ الذي يسميه المصريون
الزير؛ ما أحسن قول القاضي محيي الدين عبد
الظاهر ملغزاً في كوز الزير؛ وفيه اعتراض يشينه،
وحسن نظم يزينه:

وذي أنن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

— مدحه وذمه¹:

أقول: هذا الفصل عقدناه لمدح العشق وذمه؛
وترياقه وسمه؛ فكم مدحه عاقل، وذمه متعاقل؛
هيهات؛ فات من ذمه المظلوم، ومن أي للوجه
المليح ذنوب؛ فمن خصاله المحموده، وفضائله
الموجودة؛ ما قاله العلامة قدامة²: العشق فضيلة
تتج الحيلة، وتشجع الجبان، وتسخي كف البخيل،
وتصفي ذهن الغبي، وتطلق بالشعر لسان العجم،
وتبعث حزم العاجز وهو عزيز؛ يدل له عز
الملوك، وتضرع له صولة الشجاع؛ وهو داعية
الأدب، وأول باب تتفق به الأذهان والفطن، وتستخرج
به دقائق المكائد والحيل؛ وإليه تستريح الهمم،
وتسكن نوافر الأخلاق والشيم؛ يمتع جلسه، ويؤنس

¹ من الفصل التمهيدي.

² هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي. ترك النصرانية في عهد المكتفي بالله ودخل الإسلام. وهو من الفلاسفة، وعلماء البلاغة والأدب. توفي ببغداد سنة 337هـ/948م.

أليفه؛ وله سرور يجول في النفوس، وفرح يسكن في
القلوب. وقيل لبعض العلماء: أن ابنك قد عشق؛
فقال: الحمد لله؛ الآن رقت¹ حواشيه، ولطفت معانيه،
وملحت إشاراته، وظرفت حركاته، وحسنت عباراته،
وجادت رسائله، وجلت شمائله؛ فواظب على المליح،
 واجتنب القبيح. وقيل لآخر كذلك: فقال: لا بأس إذا
عشق؛ لطف، وظرف، ودق، ورق. وقيل للبزرجمهر:
مَتَى يَكُونُ الْفَتَى بَلِيغاً؛ فقال: إذا صنف كتاباً، أو
وصف هوى، أو حبيباً. وقد صدق فيما قال العباس
ابن الأحنف:

وما الناس إلا العاشقون نوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق...))
(.. وقال المتنبي:

وعذلت أهل العشق حتى ذقتَه فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وقلت أنا؛ مضمناً لقول المتنبي هذا؛ مع
زيادة التورية:

إن تسألوا عما لقيت من الهوى

فأنا الذي مارسته وعرفته

¹ في الأصل: ((وقت))؛ وهو تحريف.

خالفت في رشف الرضاب وطعمه
وعذلت أهل العشق حتى ذقته

حُكيَ: أن الملك بهرام جور كان له ولد
واحد؛ فأراد ترشيحه للملك بعده؛ فوجد ساقط
الهمة دنيء النفس؛ فسلط عليه الجواري، والقيمان؛
فعشق منهن واحدة؛ فأعلم الملك بهرام بذلك؛ ففرح،
وأرسل إلى التي قيل أنه عشقها؛ أن تجني عليه،
وقولي أني لا أصلح إلا لشريف النفس عالي الهمة؛
ملك، أو عالم؛ فلما قالت ذلك؛ راجع العلم، وما
عليه الملوك؛ من شرف الهمة؛ حتى برع في ذلك؛
وتولى الملك؛ فكان من خيرهم، وأثبت ذلك في
حكمة إلى كسرى؛ إن الملك لا يكمل؛ إلا بعد عشقه؛
وكذلك العالم. قالوا والعشق المباح؛ مما يؤجر عليه
العاشق؛ كما قال شريك؛ وقد سئل عن العشاق؛
فقال: أشدهم حباً؛ أعظمهم أجراً. قالوا: وأرواح
العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم ضعيفة، وأرواحهم
بطيئة الانقياد لمن قادها؛ حاشى سكنها الذي سكنت
إليه، وعقدت حبها عليه. وكلام العشاق ومناذمتهم؛
تزيد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح،
وتجلب الأفراح، وتشوق إلى مساع أخبارهم الملوك

فمن دونهم؛ ويكفي العاشق المسكين - الذي لم يذكر مع الملوك، ومع الشجعان الأبطال - أنه يعشق، ويشتهر بالعشق؛ فيذكر في مجالس الملوك، والخلفاء فمن دونهم؛ تدور أخباره، وتروى أشعاره؛ ويُنقى له العشقُ ذكراً مخلداً؛ ولولا العشق لم يُذكر له اسم، ولا جرى له رسم، ولا رُفِع له رأس ولا ذكر مع الناس. وقال المرزباني¹: سئل أبو نوفل: هل سلم أحد من العشق؛ فقال: نعم؛ الجلف الجافي؛ الذي ليس له فضل، ولا عنده فهم؛ فأما من في طبعه أدنى ظرف، أو معه دماثة² أهل الحجاز، وظرف أهل العراق؛ فلا يسلم منه. وقال بعضهم: لا يخلو أحد من صبوة؛ إلا أن يكون جافي الخلق، ناقصاً، أو منقوص البنية، أو على خلاف تركيب الاعتدال: (...))

((... وقال أبو النجائب: رأيت في الطواف فتى نحيف الجسم؛ بين الضعف؛ يلوذ، ويتعوذ؛ ويقول:

¹ هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبيد الله، الكاتب المرزباني الخراساني، ولد ببغداد وتوفي بها في سنة 385هـ/995م.

² في الأصل: ((مالة))؛ وهو خطأ مطبعي.

وددت بأن الحب يجمع كله فيقذف في قلبي وينفلق الصدر
لا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

فقلت: يا فتى؛ أما لهذه البنية حرمة؛ تمنعك
من هذا الكلام. فقال: بلى والله؛ ولكن الحب ملاء
قلبي؛ فتمنيت المنى؛ والله ما سرني ما بقلبي منه؛
ما فيه أمير المؤمنين من الملك؛ وإنني أدعو أن
يثبته الله في قلبي عمري، ويجعله ضجيعي في قبوري؛
دريت به أم لا أدري؛ هذا دعائي؛ وله قصدت؛ وفيه
ترغبت مما يعطي الله سائر خلقه. ثم مضى. قلت:
ذكرت - هنا - ما قاله الأخطل؛ وقد لامه عبد
الملك على الخمر؛ فقال:

ليت شعري ما يعجبك فيها وأولها مراراً وآخرها خمار

فقال: لكن بينهما - والله - نشوة لا أبيعهما
بخلافك يا أمير المؤمنين؛ أخذ الشعر¹ فقال:
إن يكن أول المدام كريهاً أو يكن آخر المدام صداً
فلها بين ذا وذاك هنات وصفها بالسرور لن يستطاعا..))

¹ في الأصل: ((الشاعر))؛ فصوبت.

((... قالوا: وكم عاشق هرب من الحب إلى مواقف
التلف؛ ليتخلص من التلف بالتلف. وعلى هذا حكاية
دعبل الشاعر؛ قال: كنت بالثغر؛ فبودي بالنفير؛
فخرجت مع الناس؛ فإذا أنا بفتى يجر رمحاً بين
يديه¹. فالتفت؛ فنظر إليّ؛ فقال: أنت دعبل؛ قلت:
نعم؛ قال: اسمع مني؛ ثم أنشد:

أنا في أمري رشاد بين حب وجهاد
بدني يغزو عدوي² والهوى يغزو فؤادي

ثم قال: كيف ترى؛ قلت: جيد والله؛ قال:
فوالله ما خرجت إلّا هارباً من الحب؛ ثم قاتل
حتى قُتل...)) ((... تنبيهه، الهوى أكثر ما يستعمل
في الحب المذموم. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَىٰ﴾³. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً
مقيداً؛ ومنه الحديث: ((لا يؤمن أحدكم؛ حتى يكون
هواه تبعاً لما جئت به)). وقال ابن عباس: الهوى

¹ في الأصل: ((بني يدي))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

² في الأصل: ((وعدوي))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

³ سورة النازعات؛ الآيتان: 40 - 41.

إِلَهَ مَعْبُودٍ؛ وَقَرَأَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾¹
فَتَلَخَّصَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ؛ أَنَّ
الْهَوَى يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: هَوَى مُحَمَّدٍ؛ وَهُوَ فِي
الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَهُوَ مَذْمُومٌ؛ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَالْفُسَادِ.
وَفِي كِتَابِ السَّهْلِ الْمَوَاتِي فِي فِضَائِلِ ابْنِ مِمَاتِي: أَنَّ
بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ قَالَ: إِنَّمَا سَمِيَ الْهَوَى هَوَى؛ لِأَنَّهُ
يَهْوِي بِصَاحِبِهِ إِلَى النَّارِ. قُلْتُ: لَوْ قَالَ: يَهْوِي
بِصَاحِبِهِ إِلَى الْهَآوِيَةِ لَكَانَ أَنْسَبَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ:
الْهَوَى الْهَوَانُ؛ زِيدَتْ فِيهِ النُّونُ كَمَا قِيلَ:

فَسَأَلْتُهَا بِإِشَارَةِ عَنْ حَالِهَا
وَعَلَيَّ فِيهَا لِلْوَشَاةِ عِيُونُ
فَتَفَسَّتْ صَعْدًا وَقَالَتْ مَا الْهَوَى
إِلَّا الْهَوَانُ أَزِيلُ عَنْهُ النُّونُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَخْلَقَ إِلَهُ الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾².
قِيلَ: أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ؛ أَيِ: سَكَنَ إِلَيْهَا، وَنَزَلَ - بِطَبْعِهِ
- عَلَيْهَا؛ وَكَانَتْ نَفْسُهُ أَرْضِيَّةً سَفَلِيَّةً؛ لَا سَمَاوِيَّةً
عُلَوِيَّةً؛ وَبِحَسَبِ مَا يَخْلُدُ الْعَبْدَ إِلَى الْأَرْضِ؛ يَهْبِطُ مِنْ

¹ مِنَ الْآيَةِ: 23؛ مِنْ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ.

² مِنَ الْآيَةِ: 176؛ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

السماء. قال سهل: قسم الله للأعضاء - من الهوى -
لكل عضو حظاً؛ فإذا مال عضو منها إلى الهوى؛
رجع ضَرْرُهُ إلى القلب. وللنفس سبع حجب سماوية،
وسبع حجب أرضية؛ فكلما دفن العبد نفسه أرضاً
أرضاً؛ سما قلبه سماء سماء؛ فإذا دفن النفس
تحت الثرى؛ وصل قلبه إلى العرش. وحاصل
القضية؛ أن العشق والهوى؛ أصل كل بلية؛ وفيه ذل
كل نفس أبية. وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم: ((لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه)). قال الإمام
أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق؛
وهذا مطابق لحال العاشق؛ فإنه أذل نفسه لمعشوقه؛
كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب فليس فيّ شرع الهوى أنف يشال ويعقد
وقال آخر:

مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

وعش خالياً فالحب راحتَه عنا
فأولُه سقم وآخره قتل

— الفصل الخامس¹:

اختلاف الناس فيه: هل هو اضطراري، أو
لختياري. أقول: هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره،
وأسفر كالصباح سفره؛ إذ للناس فيه كلام من
الطرفين، وتختار بين الصفيين. فقائل: بأنه
اضطراري، وقائل: بأنه اختياري؛ ولكل من القوانين
وجه مליح، وقدرٌ رجيحٌ. ونحن نذكر من ذلك ما
يعم به الانتقاع؛ ونتكلم في طوله، وعرضه؛ بالباع،
والذراع. فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمر،
ومحمد بن أحمد النوفاني؛ في كتابه تحفة الظراف:
العشاق معذرون على كل حال؛ مغفور لهم جميع
الأقوال والأفعال؛ إذ العشاق إنما دهاهم على غير
لختياري؛ بل اعتراهم على جبر واضطرار؛ والمرء
إنما يلام على ما يستطيع من الأمور؛ لا في
المقضي...)) ((... وجاء في تفسير قوله تعالى

¹ من الفصل التمهيدي.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾¹. أي رأيناه في أعينهن كبيراً... ((... وقال وهب: كن أربعين امرأة؛ فمات منهن تسع؛ وجدأ بيوسف، وكمدأ عليه. وما أحسن قول بعض بني عذرة؛ وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقاً في هوى امرأة يألّفها؟ إنما ذلك ضعف نفس، ورقّة، وخور تجوّنه فيكم يا بني عذرة. فقال: أما والله؛ لو رأيتم الحواجب الزج فوق النواظر الدعج؛ تحتها المباسم الفلج؛ لأتخذتموها اللات والعزى. وقال الفضيل بن عياض: لو رزقني الله دعوى مجابة؛ لدعوت الله بها؛ أن يغفر للعشاق؛ لأنّ حركاتهم اضطرارية؛ لا اختيارية. ورؤي أبو السائب المخزومي - وكان من أهل العلم والدين بـمكان - متعلقاً بأسّار الكعبة؛ وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين، وقوّي قلوبهم، واعطف عليهم قلوب المعشوقين. ففيل له ذلك؛ فقال: والله للدعاء لهم أفضل من عمرة من الجفرانة؛ ثم أنشد:

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى
للعاشقين يطيب يا هجر

¹ من الآية: 31؛ من سورة يوسف.

ماذا تريد من الذين جفونهم
 قرحى وحشو قلوبهم جمر
 متذبليين من الهوى ألوانهم
 مما تجن قلوبهم صفر
 وسوابق العبرات فوق خدودهم
 درر تقيض كأنها قطر..))

((... والظاهر أن الحامل له على هذا ما ذهب
 إليه الشافعي؛ في أن الميت عشقاً من الشهداء.
 للحديث الولد في ذلك؛ وسيأتي ذكره في باب
 العفاف؛ إن شاء الله تعالى...)) ((... وقال أبو
 محمد بن حزم: قال رجل لعمر بن الخطاب: يا
 أمير المؤمنين؛ إنني رأيت امرأة فعشقتها؛ فقال عمر:
 ذلك مما لا يملك. وقال كامل في سلمى:

يلومونني في حب سلمى كأنما
 يرون الهوى تمنيته عمداً
 ألا إنما الحب الذي صدع الحشا
 قضاء من الرحمن يبلو به العباد

وقال الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية: وقد
فسر كثير من السلف قوله تعالى: ﴿وَبَنَّا وَلَدًا نَحْمَلُنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾¹؛ بالعشق؛ وهذا لم يريدوا به
التخصيص؛ وإنما أرادوا به التمثيل؛ وأن العشق من
تحميل ما لا يطاق؛ والمراد بالتحميل - ههنا -
التحميل القدرى؛ لا الشرعى الأمري. انتهى كلامه.
وقال عبيد الله بن طاووس في قوله تعالى: ﴿وَوَخَّلِقَ
الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾²؛ قال: إذا نظر إلى النساء؛ لم يصبر.
نقله عنه سفيان بن سعيد؛ في تفسيره. وقالوا قد
رأينا جماعة من العشاق يطوفون على من يدعو
لهم؛ أن يعافيه الله من العشق؛ ولو كان اختيارياً؛
لأزالوه من نفوسهم. ومن هنا؛ يتبين خطأ كثير
من العاذلين؛ ويظهر أن عزلهم - من هذا الحال -
بمنزلة عذل المريض في مرضه...)) ...)) وذهب
جماعة من الأطباء - وغيرهم - إلى أنه اختياري؛ لا
اضطراري. وقد تقدم في حد العشق الذي ذكره ابن
سينا، وغيره؛ أنه مرض وسواسي؛ يجلبه المرء إلى
نفسه؛ بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور

¹ من الآية: 286؛ من سورة البقرة.

² من الآية: 28؛ من سورة النساء.

والشمائل. فهذا تصريح منهم؛ بأن الإنسان هو المختار في العشق؛ بتسليط فكرته الواقع؛ في بحار سكرته. قالوا: ولأن المحبة إرادة قوية؛ والعبد يحمّد ويذم على إرادته؛ ولهذا يحمّد مريد الخير؛ وإن لم يفعله. وقد ذمّ الله تعالى الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ وأخبر أن عذابهم أليم؛ ولو كانت المحبة لا تملك؛ لم يتوعدهم بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾¹؛ ومحال أن ينهى الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته. قالوا: والعقلاء قاطبةً مُطبقون على لوم من يحب ما يتضررُ بمحبته؛ وهذه فطرة فطر الله عليها الخلق؛ فلو اعتُذر بأيّ لا أملك قلبي؛ لم يقبلوا له عذراً.

قلت: والقول الصحيح؛ الذي ليس فيه ردّ، ولا عن محبوبة صدّ؛ التفصيل في ذلك؛ وهو: أن العشق يختلف باختلاف بني آدم؛ وما جبلوا عليه من اللطافة، ورقة الحاشية؛ وغلظ الكبد، وقساوة القلب، ونفور الطباع، وغير ذلك. منهم من إذا رأى الصورة الحسنة؛ مات من شدة ما يرد على قلبه من

¹ من الآية: 40؛ من سورة النازعات.

الدهش؛ كما تقدم في حق النسوة اللاتي متن؛ لما
رأين يوسف عليه الصلاة. وقد كان مصعب بن
الزبير إذا رآته المرأة خاضت¹؛ لحسنه. وفيه يقول
الشاعر:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت بنوره الظلماء...))
((... فهذا وأمثاله؛ عشقه اضطراري؛ والمخالفة فيه
مكابرة في المحسوس. ومنهم من يكون أول عشقه
الاستحسان للشخص؛ ثم تحدث له إرادة القرب منه؛
ثم المودة؛ وهو أن يود لو ملكه؛ ثم يقوى الود
فيصير محبة؛ ثم يصير خلة؛ ثم يصير هوى؛ ثم
يصير عشقاً؛ ثم يصير تنيماً؛ والتَّيْمُ حالة يصير
بها المعشوق مالكا للعاشق؛ ثم يزيد التَّيْمُ² فيصير
ولها؛ والولاء: الخروج³ عن حدِّ الترتيب، والتعطّل
عن التمييز. فهذا وأمثاله؛ مبدأ عشقه اختياري؛
لأنه كان يمكنه دفع ذلك، وحسم مادته. على أن
هذا النوع - أيضاً - إذا انتهى بصاحبه إلى ما
ذكرناه؛ صار اضطرارياً. كما قال الشاعر:

¹ ربما: ((خارت)).

² في الأصل: ((التقيم))؛ وهو تحريف بَيْن؛ فصوب.

³ في الأصل: ((والخروج))؛ فالواو هنا في غير محلها؛ فحذفت.

العشق أول ما يكون مجانية فإذا تمكن صار شغلاً شاغلاً
ولهذا؛ قال بعض الفلاسفة: لم أرَ حقاً أشبهه بباطل،
ولا باطلاً أشبهه بحق؛ من العشق؛ هزله جد، وجده
هزل، أوله لعب وآخره عطب. قال الشاعر:
تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

قال صاحب روضة المحبين: وهذا بمنزلة
السكر مع شرب الخمر؛ فإن تناول المسكر
لختياري؛ وما يتولد عنه من السكر اضطراري؛
فمتى كان السبب واقعاً باختياره؛ لم يكن معذوراً
فيما تولد عنه بغير اختياره. ولا ريب أن متابعة
النظر واستدامة الفكر؛ بمنزلة شرب المسكر؛ فهو
يلام على السبب. ولهذا إذا حصل العشق بسبب
غير محذور؛ لم يلم عليه صاحبه؛ كمن كان
يعشق امرأته، أو جاريته؛ ثم فارقها؛ وبقي عشقها
غير مفارق له؛ فهذا لا يلام على ذلك. كما في
قصة مغيث وبريرة¹ المشهورة. وقد ظهر بهذا أن

¹ في الأصل: ((مغيث - بالتاء المثناة الفوقية - وبريرة - بالباء الموحدة
التحتية)) وهو تحريف بين؛ فصوب. وقصة مغيث - بالتاء المثناة الفوقية
- مع بريرة - بالياء المثناة التحتية؛ تلخص كالتالي: في أنهما من
الصحاب؛ وقد وردت حكايتهما في صحيح البخاري: ومفادها أن مغيثاً

العشق يكون اضطرارياً تارة؛ وتارة اختيارياً؛ وذلك بحسب كماله العاشق؛ كما تقدم؛ فحينئذ يكون ادعاء من قال: أنه اضطراري مطلقاً، أو اختياري مطلقاً؛ غير مقبول عند نوي العقول. والله تعالى أعلم. أقول: وإلى هنا؛ انتهى الكلام على هذه الفصول؛ التي طاب زمانها، واعتدل، وظهر بها في جنة الورد حمرة الخجل؛ وما بقي إلا الدخول في الأبواب؛ على الوجه المقترح، والإتيان بما فتح الله سبحانه؛ ومن دق باب كريم فتح.



وبريرة تزوجا في ظل العبودية؛ ولما تحررت بريرة؛ تحررت من زواجها بمغيث شرعاً؛ بينما كان هذا الأخير يحبها حباً شديداً؛ فكان يسير خلفها ودموعه تنزل على لحيته؛ مستعطفاً إياها؛ ولكنها أبت الرجوع إليه. ولما شفع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ قالت له: أنها تكرهه؛ فقال لها عليه السلام: "اتق الله في مغيث يا بريرة"؛ فأجابت: "أمرني يا رسول الله"؛ فقال: "لا"؛ ولكن أشفع"؛ فقالت: "لا أحبه" ورفضت العودة إليه.

الباء الأول

ذكر الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيلي وإجمالي

أقول: هذا باب عقدناه للكلام على الحسن وأقسامه، والحبیب وكلامه. ولا سيما إذا ابتسم عن حجب. واضطرب في ثغره الصرب؛ فعذب مقبله، وتسأوى من حسنه في الحالين: ماضيه ومستقبله. هنالك يحتوي من الجمال على القسمين الذين هما الظاهر والباطن، والظاعن والقاطن. فالجمال الباطن المحمود لذاته كالعلم والبراعة، والجود والشجاعة. والجمال الظاهر ما ظهر من غصن قوامه الرطيب، ووجهه الذي فاق البدر بلا غيبة للشمس عند المغيب. فعند ذلك يشمت بالبدر بشاماته، ويقول لخدمة الذي ازداد بها حسناً؛ من زاد زاد الله في حسناته. فلذلك قيل: الحسن الصريح ما استنطق الآفواه بالتسبيح. وقيل: بل هو كما قيل: شيء به فتن الوري؛ غير الذي يدعي الجمال؛ ولست أدري ما هو. قلت: وهو الصحيح؛ لأنه لا يدري كنهه، ولا يعرف شبهه؛ حتى كأنه فكرة لا تتعرف، ومجهول لا يعرف. ولذلك قال بعضهم: للحسن معنى لا تتاله العبارة، ولا يحيط به الوصف. وقيل: الحسن مشتق من الحسنة. قلت: والذي يظهر أنه لهذا المعنى؛ قيل: للشامات حسنات...))... ((... وقيل الحسن أمر مركب من أشياء وضاعة،

وصباحة، وحسن تشكيل، وتخطيط، ودموية في البشرة. وقيل الحسن تناسب الخلقة، واعتدالها، واستوائها؛ ورب صورة متناصفة الخلقة؛ وليست في الحسن بذاك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها؛ فقد تم حسننها. وقالت عائشة رضي الله عنها: البياض شطر الحسن. وقالوا في الجارية: جميلة من بعيد، ملحية من قريب؛ فالجميلة التي تأخذ جملة بصرك؛ فإذا دنت منك؛ لم تكن كذلك؛ والملحية التي كلما كررت بصرك فيها؛ زادتك حسناً. وقيل الجميلة السمينة؛ من الجمال؛ وهو أشحم؛ والملحية — أيضاً — من الملحة؛ وهي البياض؛ والصبيحة — كذلك — من الصبح لبياضه. وقال بعضهم: الظرف في القدر، والبراعة في الجيد، والرقعة في الأطراف والخصر؛ والشأن كله في الكلام وأحسن الحسن؛ ما لم يجلب بتزيين. وقال امرؤ القيس:

((وجدت بها طيباً وإن لم تطب))

وقال آخر:

إن الملحية من تزين حليها لا من غدت بحليها تتزين

وقال بعض أهل اللغة: العرب تقول: الحلاوة في العيون، والملاحاة في الفم، والجمال في الأنف، والظرف في اللسان. ومنه قول الحسن رضي الله عنه: إذا كان اللص ظريفاً؛ لا يقطع. أي: إذا وقع؛ دفع عن نفسه بطلاقة لسانه ومنطقه. وما أحسن قول بعضهم: البدن فيه الوجه، والأطراف؛ وفي الوجه المحاسن وإليها

الاستشراف. وفي المحاسن النكت؛ التي هي الغاية في الاستحسان والاستطراف. كالملاحة في العين، ونكتة الملاحة: **الدعج**؛ وكالحسن في الفم؛ ونكتة الحسن: **الفلج**؛ وكالطلاوة في الجبين؛ ونكتة الطلاوة: **البلج**؛ وكالرونق في الخد؛ ونكتة الخد: **الضريح**. وما يستحسن في المرأة؛ طوال أربعة وهي: أطرافها، وقامتها، وشعرها، وعنقها. وقصر أربعة: يديها، ورجليها، ولسانها، وعينيها؛ والمراد بهذا القصر المعنوي: فلا تبذر ما في بيت زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيع بلسانها، ولا تطمع بعينها. وبياض أربعة: لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عيناها؛ وسواد أربعة: أهدابها، وحاجبها، وعينيها، وشعرها. وحمرة أربعة: لسانها، وخذاها، وشفتيها؛ مع لعس، وإشراب بياضها بحمرة. وغلظ أربعة: ساقها، معصمها، وعجيزتها؛ وما هنالك. وسعة أربعة: جبهاتها، وجبينها، وعيناها، وصدرها؛ وضيق أربعة: فمها، ومنخرها، ومنفذ أذنيها، وما هنالك؛ وهو المقصود الأعظم من المرأة...)) (...فصل: قال روضة المحبين: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن؛ بجمال الظاهر. كما قال جرير بن عبد الله؛ وكان عمر بن الخطاب يسميه يوسف هذه الأمة؛ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنت امرؤ حسن الله خلقك" وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرأة؛ فإن رأى صورته حسنة؛ فلا يشنها بقبح فعله؛ وإن

راها قبيحة؛ فلا يجمع بين قبح الصورة والفعل. وقد نظم بعضهم هذا فقال:

يا حسن الوجه ثوق الحنا لا تفسدنّ الزين بالشين
ويا قبيح الوجه كن محسناً لا تجمعن بين قبيحين

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظماً في القلوب؛ لم يبعث الله نبياً إلا¹ جميل الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت. كما قال علي بن أبي طالب؛ وقد سئل: أكان وجه الرسول صلى الله عليه وسلم مثل السيف؟ قال: لا؛ بل مثل القمر وفي صفته صلى الله عليه وسلم؛ كأن الشمس تجري في وجهه؛ فكان كما قال شاعرة حسان بن ثابت: ((...)) وقال أيضاً:

فأجمل منه لم تر قط عيني وأكمل منه لم تلد النساء
خلقت مبراء من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء...))

((...)) وفي الجملة؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن في الذروة العليا. وروى بعض الصحابة؛ لقي راهباً فقال: صف لي محمداً؛ كأني أنظر إليه؛ فأني رأيت صفته في التوراة والإنجيل. فقال: لم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصر فوق الربعة، أبيض اللون مشرباً بالجمرة، جعد الشعر؛ ليس بالقطط

¹ في الأصل: ((لا جميل))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

جمته إلى شحمة أذنه؛ صلب الجبين؛ واضح الحد؛ أدعج العينين؛
أقنى الأنف؛ مفلج الثنايا؛ كأن عنقه إبريق فضة، وجهه كدائرة
القمر؛ فأسلم الراهب. وكان صلى الله عليه وسلم — مع هذا الحسن
— قد ألفت عليه المحبة، والمهابة؛ فمن وقعت عليه عيناه أحبه
وهابه؛ وقد كمل الله سبحانه له مراتب الكمال؛ ظاهراً وباطناً؛ فكان
أحسن خلق الله خلقاً وخلقاً، وصورة ومعنى. وهكذا كان يوسف
عليه الصلاة والسلام. قال ربعة: قسم الحسن¹ نصفين؛ فبين سارة
ويوسف نصف الحسن؛ ونصف الحسن بين سائر الناس. وفي
الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: أنه رأى يوسف ليلة الإسراء
وقد أعطى شطر الحسن. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستحسن
أن يكون الرسول حسن الوجه، حسن الاسم؛ وكان يقول: إذا أبرد
تم بريداً؛ فليكن حسن الوجه، حسن الاسم. وقد روى الخرائطي من
حديث ابن جريج عن أبي مليكة؛ يرفعه من آتاه الله وجهاً حسناً،
واسماً حسناً؛ وجعله في موضع غير شائن له؛ فهو من صفوة الله
من خلقه. وقال وهب: قال داود: يا رب أي عبادك أحب إليك؟ قال:
مؤمن حسن الصورة. فقال: أي عبادك أبغض إليك؟ قال: كافر قبيح
الصورة. ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم؛ كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب؛ فجعل ينظر
في المرأة، ويسوي شعره، ولحيته؛ ثم خرج إليهم؛ فقالت: يا رسول

¹ في الأصل: ((الحسين))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

الله؛ وأنت تفعل هذا؛ فقال: نعم: "إذا خرج الرجل إلى إخوانه؛ فليجملن نفسه؛ فإن الله جميل يحب الجمال". وقال معاوية لرجل دخل عليه؛ فرأى في وجه ما يكرهه؛ مما يمكن إزالته: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله؛ أن يتعاهد أديم وجهه.

— فصل: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾²؛ أي في أحسن تعديل لقامته، وصورته، وحسن شأنته؛ منتصباً؛ يتناول مأكوله بيده؛ مزيناً بالعقل؛ لا كالبهائم. وعلى هذا؛ حكاية الرشيد؛ لما خلا بزوجته؛ في ليلة مقمرة؛ فقال لها: إن لم تكوني أحسن³ من هذا القمر؛ فأنت طالق؛ فأفتى علماء زمانه بالحنث؛ إلا يحيى بن أكنم؛ فإنه قال: لا يقع عليه الطلاق؛ فقيل له: خالفت شيوذك؛ فقال: الفتوى بالعلم؛ ولقد أفتى به من هو أعلم منا؛ وهو الله سبحانه وتعالى؛ حيث قال: لقد خلقت الإنسان في أحسن تقويم. وجاء تفسير قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾⁴؛ أنه الصوت الحسن، والوجه الحسن، ولهذا قال أبو فراس:

¹ حرفت في الأصل؛ فكتب: ((ولقد))؛ فصوبت.

² سورة التين؛ الآية: 4.

³ في الأصل: ((أحسن))؛ بالميم؛ وهو تحريف؛ فصوب.

⁴ من الآية: 1؛ من سورة فاطر.

قد فاق بدر السماء حسناً والناس في حبه سواء
فزاده ربه عذاراً تم به الحسن والبهاء
لا تعجبوا ربنا قدير يزيد في الخلق ما يشاء...))

((... وحكي أن المأمون استعرض جيشاً؛ فمر رجل قبيح؛ فاستنطقه؛ فراه أكن؛ فأمر بإسقاطه؛ وقال: إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر؛ كانت صبّاحة؛ وإذا وقع أثرها في الباطن؛ كانت فصّاحة؛ وهذا الرجل؛ لا ظاهر له، ولا باطن؛ ولكنه¹ شخص له حُكمان: أحدهما من جهة جسمه؛ وهو منظره، والآخر من جهة نفسه؛ وهو مخبره؛ وكثيراً ما يتلازمان؛ ولذلك فرغ أصحاب² الفراسة من معرفة أحوال النفس — الهيئة البدنية — حتى قال بعض الحكماء: قلما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة. وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((أطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه)). فهذا كله يدل على أن الحسن، وكمال الجسم من الفضائل؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾³. والحسن أول سعادة الإنسان؛ لأن الله تعالى — بلطف حكمته — لم يخلق الصورة مختارة الصفات، سليمة من الآفات؛ إلّا وأضاف إليها ما يناسبها من العقل، والصفات. وقلما تجد الخلق؛ إلّا تبعاً للخلق؛ تناسباً،

¹ في الأصل: ((ولكن))؛ وهو تحريف؛ فصوب

² في الأصل: ((أصحابه))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

³ من الآية: 247؛ من سورة البقرة.

مطرداً؛ وأصلاً لا ينعكس، وإجماعاً لا ينفرد؛ وما خلق الله نبياً قط؛ إلا وقد بهر أهل زمانه؛ بحسنه، وإحسانه؛ فإذا نظرته أول مرة؛ رأيته أحسنهم صورة، وأتقنهم بنية؛ فهو أولاهم مرتبة، وأعلاهم منقبة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يعذب الله حسان الوجوه سود الحق)). قال الإمام فخر الدين الرازي في أسرار التنزيل ما ملخصه: حسن الصورة — وإن كان أمراً مرغوباً فيه — فإن حسن السيرة من مطالب الحكمة؛ ولا شك أن الحكمة أفضل من الشهوة؛ فكان حسن السيرة؛ أفضل من حسن الصورة لا محالة. ومنها أن يوسف عليه الصلاة والسلام؛ اجتمع له حسن الصورة، وحسن السيرة؛ ثم إنه بسبب حسن الصورة؛ وقع في أنواع من البلايا؛ منها أن أباه كان يحبه أزيد من أخوته؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَهُ آيِنَا مِنَّا﴾¹؛ فهذا² قصدوا قتله بدليل حكايته عنهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾³. ومنها أنه وقع بسبب الحسن في أسر الرق؛ ومرادة امرأة العزيز، وإدخاله السجن بسبب ذلك؛ فلما علم الملك — بعد ذلك — حسن سيرته؛ اصطفاه لنفسه؛ وقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ

¹ من الآية: 8؛ من سورة يوسف.

² في الأصل: ((فهذا))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

³ من الآية: 9؛ من سورة يوسف.

لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ¹؛ ولم يقل صبيح مليح؛ فدل ذلك على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة. ومعلوم أن حسن الصورة لا يبقى إلا أياماً قلائل؛ وأما حسن السيرة؛ فإنه لا يزول أثره، ولا تبطل نتيجته. قلت وممن حصل له الأذى بسبب حسن صورته؛ نصر بن حجاج²؛ وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ ليلاً فسمع امرأة³ تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فدعا نصر بن حجاج - وهو من بني سليم - فرآه أحسن الناس وجهاً، وله شعر حسن؛ فخلق شعره؛ فكان أحسن منه بشعر؛ فقال: لا تُسَاكِنِي في بلد؛ فَتَشْفَعَ نصر إليه؛ أن لا يخرجَه من المدينة؛ فلم يقبل عمر رضي الله عنه؛ فلما ودَّعه نصر؛ قال له: يا أمير المؤمنين؛ لقد سمتني قتل نفسي؛ فقال عمر: كيف ذلك؛ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ

¹ من الآية: 54؛ من سورة يوسف.

² نصر بن حجاج السلمي؛ من بني سليم؛ عاش في المدينة المنورة في عهد عمر بن الخطاب؛ فنفاه إلى البصرة؛ سداً لباب الفتنة؛ خاصة - كما قيل - أنه كان نصر بن حجاج يقول في تلك المرأة هو الآخر:

ليتني في المؤذن نهاراً إنهم يبصرون ما في السطوح

فيشرون أو يشار إليهم حبذا كل ذات دل مليح

³ قيل أنها أم الحجاج بن يوسف الثقفي؛ والله أعلم.

اَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ¹؛ فقرن هذا بهذا. فقال عمر: ما أبعدت؛ لكن أقول ما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِطْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ²؛ ولقد أضعفت لك يا نصر عطاءك؛ ليكون ذلك عوضاً لك. أقول ذكرت بحلقة شعره فكان أحسن منه بشعر قول بعضهم في ذلك³:

حلّقوا رأسه ليزداد قبحاً
غيرة منهم عليه وشحا
كان صباحاً عليه ليل بهيم
فمحوا ليله وأبقوه صباحاً...))

((... - فصل: قد تقدم ذكر ما يستحسن من المرأة؛ فلنذكر هنا ما قالت الشعراء في تشبيه الأعضاء بالحروف؛ لأنهم أكثروا من ذلك؛ فشبهوا الحاجب بالنون، والعين بالصدغ بالواو، والفم بالميمي والصاد، والثنايا بالسنين، والطرة المضفورة بالشين...))
((... وقول ابن مطروح:

قالت لنا ألف العذار بخده

في ميم مبسمه شفاء الصادي

وقول ابن نقاده:

ضم الجمال فصاده من عينها

والنون حاجبها بخال ينقط

¹ من الآية: 66؛ من سورة النساء.

² من الآية: 88؛ من سورة هود.

³ صاحبة هذا الشعر هي نفسها؛ قائل الأبيات الأولى؛ ويقال أنها أم الحجاج بن يوسف الثقفي.

والميم فوهاً فالحروف تألفت
مكتوبة والصبر عنها يكشط...))

((... وقلت أنا:

حبيب تعالي قد حين سمته
وقال قوامي رحمه ما يقوم
وخط عذاري أعجم الخال لامه
ولم أدر أن اللام في الخط يعجم
وقلت أيضاً:

يرنو إليّ بعين نون حاجبها
كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

وقلت أيضاً: في عكس هذا المعنى¹؛ وهو تشبيه الحروف
بالأعضاء؛ في تقريظ قصيدة؛ مدحت بها مولانا السلطان الملك
الناصر حسن.

فكم ألف بها أمسى	رشيق القامة النضره
وكم شين بحاشية الـ	كتاب تخالها طره
وعين أصبحت في العين	مثل العيز والنقرة

¹ كتب هنا كلمة مبهمه: ((أشارة))؛ فحذفت.

وقلت أيضاً: في تقرّظ كتاب ورد على بعض الأحاب؛ من رسالة
افتتحها بقصيدة منها:

رفضت النوم بعدك يا علي
فلا تعجب لدمعي أن توالا
ووافاني كتاب منك عال
حكّت الفاتّه السمر الطوالا
وكم شاهدت من خطأ ولكن
مثالك ما رأيت له مثالا
لين أمست به الفات قطع
فكم وصل به ضمن الوصالا
وكم ألف به للوصل لاحت
كغصن البان ليناً واعتدالا
تعانق لامها طوراً يميناً
وأونة تعانقه شمالا
ظننت اللام فيه عذار خدّ
وخلت النقط فوق الخدخالا
وامسى طالع الطآآت فيه
يعلم لينه غصن الكمالا

وقال القاضي الفاضل؛ من رسالة كتب بها إلى موفق الدين
خالد القيرواني؛ وقد وقف له على رسالة كتبها بالذهب؛ جاء منها:
فمن ألفات ألفت الهمزات؛ غصونها حمائم؛ ومن لامات بعدها؛
يحسدها المحب على عناق قدودها النواعم؛ ومن صادات نقعت غلة
القلوب الصوادي، والعيون الحوائم؛ ومن واوات ذكرت ما في
وجنة الأصداغ من العطفات؛ ومن ميمات دنت الأفواه من ثغرها
لتتال جنى الرشفات؛ ومن سينات كأنها الثنايا في تلك الثغور؛ ومن
دالات على الطاعية لكانتها بانحناء الظهور؛ ومن جيمات كالمناسر
تصيد القلوب؛ التي تخفق لروعات الاستحسان كالطيور؛ وفيها ما
تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين؛ وخالد فيها خالد؛ وتحيته فيها المحامد،
ويده تضرب في ذهب ذائب؛ والناس تضرب من حدي بارد.

الباب الثاني

ذكر المحبين الظرفاء من الملوك والخلفاء

أقول: هذا باب عقنائه لذكر أحسن الملوك طباعاً، وأطولهم باعاً، وأطيبهم عيشاً، وأكثرهم طيشاً، وأرقهم شعراً، وأدقهم فكراً، وأقربهم مرجوعاً، وأكثرهم بالحبیب ولوعاً؛ إذ هم في الحقيقة أولى الناس بذلك، وأحقهم بالنوم على تلك الأرائك؛ وذلك بحسب ما سولته لهم نفوسهم، وزينه لهم جليسهم... ((.. ومنهم من نال بالراح اللذة المحظورة، وأخرج بها وجنة الحبيب من صورة إلى صورة؛ فجارى التديم في الجريال¹، وسما إلى الحبيب سمو حباب الماء حالاً على حال؛ فأفضى به ذلك إلى هلكه، وفساد ملكه؛ كما اتفق للأمين بن الرشيد، وغيره. قال الربيع: قعد الأمين يوماً للناس؛ وعليه طيلسان أزرق، وتحت له أبيض؛ فوقع في ثمانمائة قصة؛ فوالله لقد أصاب وما أخطأ، وأسرع فما أبطأ؛ ثم قال يا ربيع أتراني لا أحسن التدبير والسياسة؟ ولكن وجدت شم الآس، وشرب الكاس، والاستلقاء من غير نعاس؛ أشهى إلى مقابلة الناس. وكذلك؛ خلع قبله الوليد بن يزيد، وبعده المتوكل، وغيرهم من الخلفاء، والأمراء؛ ممن أثر راحة النفس؛ على تعب السياسة. والذي آراه؛ إطلاق ما ذهبوا إليه بالصريح، ومفارقة الجميع على وجه مليح؛ كما قيل:

¹ الجريال: الخمرة.

لو رأى وجه حبيب عاذلي
ولتقارنا على وجه مليح
وما أحسن قول أبي الفتح البستي:
إذا غدا ملك باللّهُو مشغلاً
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
لما ترى الشمس في الميزان هابطة
لما غدا وهو برج اللّهُو والطرب

ومن هنا؛ نشرع في ذكر من ذل لمحبيه من الملوك؛ فصَبَّحَ
مع كونه مالكا له كالملوك؛ وهم — في ذلك — لشدة البأس على
خلاف ما عليه الناس. وهذا، وذلك؛ لأنّ العشق، وأصحابه طبقات؛
فمنهم من لا يطيب له العشق إلا بالذل؛ هو الغالب على العشاق
الصادقين في المحبة؛ كما قال الشيخ شرف الدين بن الفارض:
ولو عز فيها الحب ما لذ لي الهوى ولم يك لولا الذل في الحب عزتي (...))
(... وقال الرشيد وقد عشق ثلاث جوار:

ملك الثلاث الآتسات عناني
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلّها
وأطيعهنّ وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
وبه قوين أعزّ من سلطاني

وقال المستعين بالله بن الحكم الأموي؛ أحد خلفاء المغرب وأجاد:

عجباً يهاب الليث حدّ سناني
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيّباً
منها سوى الأعراض والهجران
وتملكّت نفسي ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان
حاكمت فيهنّ السلو إلى الصبا
فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني
في عزّ ملكي كالأسير العاني
لا تعنلوا ملكاً تذلل للهوى
ذلّ الهوى عزّ وملك ثاني
ما ضرّ أنّي عبدهنّ صبايةً
وبنو الزمان وهن من عبداني

وحكى عن المأمون؛ أنه غضب على جاريته عريب
المغنية¹؛ وكان كلفا بها؛ فأعرض عنها، وأعرضت عنه؛ ثم أسلمه
الغرام، وقلقه الشوق؛ حتى أرسل إليها يطلب مراجعتها؛ فلما
اجتمعا؛ لم تلتفت إليه؛ وكلمها فلم ترد عليه؛ فأنشأ يقول:

تكلم ليس يوجعك الكلام ولا يزري محاسنك السلام
أنا المأمون والملك الهمام ولكني بحبك مستهام
بحق عليك أن لا تقتليني فيبقى الناس ليس لهم إمام

فقالت له: يا أمير المؤمنين؛ والدك أمير المؤمنين هارون
الرشيد أعشق منك؛ حيث يقول: "ملك الثلاث الأنسات" الأبيات
المتقدمة...))... ((... ومن غريب ما يحكى؛ أن يزيد بن عبد الله
بن مروان كان صبياً بحبابة جاريته؛ فخلاً — يوماً — في لهو معها؛
وقل: لا كذب قول من قال: أن الدهر لا يصفو لأحد يوماً؛ وأحضر
حاجبه، وقال له: لا تأذن لأحد يدخل علي، ولا تعلمني بخبر؛ ولو
كان فيه ذهاب ملكي مدة هذا اليوم. وأقام معها في أتم حال؛
فتناولت رماناً فشرقت فماتت لوقتها؛ فعرض له عليها طرف من
الوله؛ فحال بينه وبين الصبر؛ ومنع من دفنها؛ حتى سألها جماعة
من بني أمية في دفنها، ولاطفوه في ذلك؛ فأمر بدفنها، وقال:

¹ في الأصل: ((المغنية))؛ بالعين المهملة؛ وهو تحريف؛ فصوب.

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وقيل: أنه لم يقم بعدها إلا سبعة أيام، ومات أسفاً عليها.
ومثل فعله هذا؛ في عدم دفنه لمحبيته؛ ما حكته في نقل الكرام في
مدح المقام؛ في الباب الرابع؛ عن السلطان جلال الدين خوارزم
شاه؛ لما مات مملوكه؛ فلج؛ منع من دفنه؛ فكان يحمل معه في
محفة؛ وكلما حضر بين يديه طعام. قال: احملوا هذا إلى فلج. فقال
له بعض الأمراء: أيها الملك؛ قد مات فلج. فضرب عنقه. فلا حول
ولا قوة إلا بالله. وتما حكايته ذكرتها في الكتاب المذكور.

الباب الثالث

ذكر من عشق على السماع ووقع مع المبيب في النزاع

أقول هذا باب عقدناه لذكر من عشق قبل أن يرى؛ فتم عليه ما تم لما جرى؛ من دمه ما جرى؛ فأصبح لا يقر له قرار؛ بعد أن كان قرير العين؛ وشهد على عينيه بما لم تريا؛ فكان كمن كلف أن يعقد بين شعيرتين؛ كم ليلة رقص فيها على السماع، وجمعة سهر من ليااليها؛ مثى وثلاث ورباع؛ فها على طبقة ممن عشق؛ باللمس أو غيرها من بقية الحواس الخمس؛ والظاهر أن ذلك لمشاكله بينه وبين المحبوب في نفيس الأمر، أو تعارف سابق في عالم الذر...))... ((... وقال أبو الهذيل العلاف: لا يجوز في دور الفلك، ولا في تركيب الطبيعة، ولا في القياس، ولا في الحس، ولا في الممكن، ولا في الواجب؛ أن يكون محب ليس لمحبوبه إليه ميل؛ والظاهر أن هذا للسر؛ الذي ذكرناه من وجود¹ ما بينهما من المشاكلة، فإن قلت: فقد رأينا من أحب من لا يحبه، ولا يلتفت إليه. قلت: ذكر عن ذلك أجوبة؛ أحسنها أن يقال: المحبة على قسمين: القسم الأول: محبة غرضية؛ فهذه لا يجب الاشتراك فيها؛ بل يقابلها مقت المحبوب، وبغضه للمحب كثيراً؛ إلا إذا كان له معه غرض نظير غرضه؛ فإنه يحبه لغرضه منه؛ كما يكون بين الرجل

¹ في الأصل: ((وجود))؛ وهو تحريف.

والمرأة؛ لأن لكل منهما غرضاً مع صاحبه. القسم الثاني: محبة روحانية؛ سببها المشاكلة، والاتفاق بين الروحين؛ فهذه لا تكون إلاً من الجانبين...)) ((... وذكر بعضهم: أن سبب المحبة ثلاثة أشياء أما رؤية صورة، أو سماع نغمة، أو سماع صفة؛ فهذه الثلاثة هي أصل ينبوع المحبة؛ إذ لا يخلو حب أحد من أن يستند إلى شيء منها. وقد قيل: ثلاث محبات: فحب علاقة، وحب تملق، وحب هو القتل...)) ((... وقال بعض الحكماء: أن الله عز وجل؛ جعل القلب أمير الجسد، وملك الأعضاء؛ فجميع الجوارح تنقاد له؛ كل الحواس تطيعه؛ وهو مديرها؛ وإرادته تتبعه؛ ووزيره العقل، وعاضده الفهم، ورائده العيان، وطليعته الأنان؛ وهما في باب النقل سنان؛ لا يكتمانه شيئاً، ولا يطويان عنه سراً؛ يعني العين والأذن. وقيل لأفلاطون: أيهما أشد ضرراً؛ السمع أم البصر؛ فقال: هما للقلب كالجنّاحين للطائر؛ لا ينهض إلاً بهما، ولا يستقل إلاً بقوتهما؛ وربما قص أحدهما؛ فتحامل بالآخر على تعب ومشقة. قيل: فما بال الأعمى يحب وما رأى، والأصم يحب وما سمع. فقال له: لذلك قلت: أن الطائر قد ينهض بإحدى جناحيه؛ ولا يستقل طيراناً؛ فإذا اجتمعاً كان ذهابه أمضى، وطيرانه قوي. وكان يقال الحب أوله السماع، ثم النظر؛ كما أن أول الحريق الدخان، ثم الشرر...)) ((... وما أحسن قول المهنّب بن الشحنة؛ من قصيدة مدح بها مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين أيوب مطلعها:

وإني امرؤ أحببتكم لما رم سمعت بها والأذن كالعين تعشق
وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب أنت الموفق

وقلت أنا من قصيدة أمدح بها مولانا السلطان الملك الناصر حسن
وفيه زيادة حسنة مطلعها:

وحياة وجهك وهو بدر مشرق قلبي عليك كما عملت واشفق
يا من إذا لاح آس عذاره أمسي ولي بالعيش غصن مورك
ما لاح خذك بالعذار مكاتباً إلا ظننت بأنه معتك
ومنها:

كم ذا رقصت على السماع بذكره والأذن قبل العين قالوا تعشق

وحاصل القضية؛ أن من الناس من يعشق على السماع،
ويفني في محبة من لا رآه؛ لكن وصف له؛ ولهذا نهى النبي صلى
الله عليه وسلم؛ أن تتعت المرأة لغير زوجها؛ حتى كأنه ينظر إليها؛
والحديث في الصحيح؛ قال في الواضح المبين: ومنهم من يعشق
أثراً رآه. يحكى أن رجلاً عشق أثر كف امرأة؛ رآه في حائط؛ فلما
آيس أهله من صلاحه؛ تركوه حتى مات. ومنهم من يحب في النوم
شكلاً لا يعرفه فيهم به...))...))... ومنهم من يعشق باللمس؛ قيل
وهو رأس الشهوة. ومنهم من يعشق بالشم؛ كما قيل:

والعين تعشق ما تهوى وتبصره كذلك يعشق فيك الأنف والأنن
ومنهم من أخبرني؛ أنه دخل إلى حمام؛ فرأى فيه شعرة
طويلة سوداء لبعض النساء؛ ولم يعلم لمن هي؛ فأخذها، وأقامت
عنده زماناً؛ وأصابه من حب صاحبها ما أشرف به على التلف؛
كما قيل:

تلفت بشعرة وسمعت غيري يقول سملت من تلفى بشعره
ومنهم من يعشق جنية رآها في نومه، ووصفت نفسها له،
وجاعته غير مرة؛ على زعمه. كما حكى أبو الفرج الأموي: أن
جعفر المنصور كان يتعشق من الجن؛ حتى كثر ولعه بذلك؛
فصار يصرع في النوم مرات؛ حتى مات من ذلك؛ فحزن عليه أبو
جعفر حزناً شديداً. وكان جعفر خليعاً، ماجناً؛ ولما نهى المنصور
مطيع بن أياس عن صحبة ابنه جعفر؛ قال: وأي مستصلح فيه؛
وأي غاية لم يبلغها في الفساد؛ فقال ويلك!! وبأي شيء هذا؟ قال
يزعم أنه يعشق امرأة من الجن؛ وهو مجتهد في خطبتها؛ ودأبه
جمع أصحاب العزائم عليها؛ وهم يعدونه ويمنونه؛ فوالله ما فيه
فضل لغير ذلك؛ جد ولا هزل، ولا كفر، ولا إيمان...)) ((... قلت:
هذا الذي يقال في حقه: "الجنون فنون". ومثل هذا ما أخبرني به
صاحبنا جمال بن عبد الله قال: قال الثعالبي في فقه اللغة: زعموا
أن التناكح قد وقع بين الأنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَشَاوَرَكُهُمْ

فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ¹؛ لأن الجنيات إنما تصرع الرجال من الأنس؛ على العشق؛ وطلب² الفساد؛ وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم... ((...)) قلت: وبقي هنا حكاية تتعلق بمن عشق على السماع؛ من الحمقى والمغفلين؛ وهي ما حكاها الجاحظ. قال: عبرت يوماً على معلم؛ فوجدته في هيئة حسنة، وقماش مليح؛ فقام إليّ، وأجلسني معه؛ ففاتحته في القرآن؛ فإذا هو فيها ماهر؛ ففاتحته في شيء من النحو؛ فوجدته فيه ماهراً؛ ثم في أشعار العرب واللغة؛ فإذا به كامل في جميع ما يراد منه. فقلت: والله قوي عزمي على تقطيع دفتر المعلمين؛ فكنت كل يوم أجالسه، وأزوره. قال: فأتييت في بعض الأيام إلى زيارته؛ فوجدت الكتاب مغلقاً؛ فسألت عنه جيرانه؛ فقالوا: مات عنده ميت؛ فقلت: أروح أعزيه؛ فجئت إلى بابه؛ فطرقتة؛ فخرجت إليّ جاريته؛ فقالت: ما تريد؛ فقلت: أريد مولاك؛ فقالت: مولاي جالس وحده في العزاء؛ ما يعطي لأحد الطريق إليه؛ فقلت: قل لي له صديقك فلان يطلبك؛ فدخلت وخرجت إلي وقال: بسم الله؛ فعبرت إليه؛ فإذا هو جالس وحده. فقلت: أعظم الله أجرك: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. وهذا سبيل لا بد منه؛ فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ابنك؟ قال: لا؛ قلت: فوالدك؟ قال: لا؛ قلت: فأخوك؟ قال: لا؛ قلت: فمن؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس؛ ثم قلت: سبحان

¹ من الآية: 64؛ من سورة الإسراء.

² في الأصل: ((وطاب))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

الله النساء كثر؛ وتجد غيرها، وتقع عينك على أحسن منها؛ فقال:
وكأنني بك قد ظننت أنني رأيته. فقلت في نفسي: هذه منحسة
ثانية؛ ثم قلت: وكيف عشقت من لا رأيته؟ فقال: أعلم أنني كنت في
الطارمة؛ وإذا برجل عابر وهو يغني ويقول:

يا أم عمر جزاك الله مكرمة ردي علي فؤادي أينما كانا
فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها؛ ما
قيل فيها هذا الشعر؛ فهويتها؛ فلما كان بعد يومين؛ عبر ذلك الرجل
وهو يغني، ويقول:

إذا ذهب الحمار بأم عمر فلا رجعت ولا رجع الحمار
فعلمت أنها ماتت؛ فحزنت وقعدت في العزاء ثلاثة أيام بهذا
اليوم. قال الجاحظ: فعادت عزيمتي...¹

¹ وقع اضطراب وخط في العبارة التالية؛ وهي هكذا فيما ذكره الجاحظ:
(قد قويت عزمي على إبقائه؛ وأول ما أبدا؛ أبدا بك إن شاء الله
تعالى)).

الباب الرابع

ذكر من نظر أول نظرة فاحترق من شه الحبيب بجمره

أقول: هذا باب عقنناه؛ لذكر من أوقعه النظر في الضرر المؤدي إلى السهر؛ إذ هو داعية الأرق، وزناد الحرق؛ كم دعا إلى الجماع المحرم بالإجماع. فهو سهم مسموم، وفعل مدموم، وفي مبدئه يمكن استدراكه، وأسيره يرجى فكاهه؛ فإذا تكرر؛ أدى إلى ما صورته كيت وكيت؛ أما ترى الحبل بتكراره البيت؛ كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر

ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها

فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها

في أعين موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضرّ مهجته

لا مرحباً بسر ورجاء بالضرر

قولي: وفي مبدئه؛ يمكن استدراكه إلى آخره؛ وذلك أن الرجل؛ تمر به المرأة؛ فيكون ظاهر هيئتها، وشكلها، وصورتها؛ مشاكلاً لطبعه؛ فتتحرك نفسه، وتتبعث همته من أول نظرة؛ فإذا

تكرر نظره إليها؛ ازداد حبه لها؛ وإن جلس حتى يراها؛ صار الذي به أضعاف ما كان؛ فإن نظرت إليه نظرة؛ افتتن بجمالها، ووقع في أسر حبالها، ودخل في عدد العاشقين؛ وهذا مما يؤيد قول من ذهب إلى أن العشق اختياري؛ لأنه لم يصير عاشقاً إلا بعد وقوع هذه المقدمات. وكان يمكنه حسم مادة ذلك؛ بعد النظرة الأولى؛ اللهم إلا فيما ندر؛ كما تقدم في ذكر النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام؛ ففتنَّ من أول نظرة؛ وكان يقال: النظر من المحب؛ موت عاجل، ومن المحبوب سهم قاتل. وكان يقال: رب عشق غرس من لحظه، وحرب جنى من لفظه. وكان يقال: من أطلق طرفه¹؛ كثر أسفه. وكان يقال: من كثرت لحظاته دامت حسراته. وقال إعرابي: العشق نبت بذرہ النظر، وماؤه المزاورة، ونماؤه الوصل، وقتله الهجر، وحصاده التجني. وقال الصوري:

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته

وأهملته مستأنساً متسامحاً

ولم تدر حتى أينعت شجراته

وهبت رياح الوجد فيه لواحقاً

فأمسيت تستنني من الصبر عازباً

عليك وتستدعي من النوم نازحاً..))

¹ في الأصل: ((طرفة))؛ بالتاء المربوطة.

((... - فصل: ذكر سحر الجفون ونبل العيون:))

فمن ذلك؛ قول بشاره؛ وهو أغزل أغزل بيت قالته الشعراء؛ فيما
حكاه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان:
أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق.

ونقل شيخنا الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي؛ في تاريخ
الإسلام؛ عن ابن حيوس؛ أنه قال من أغزل ما أعلم قول عبد
المحسن الصوري:

بالذي ألهم تعذيبي ثايبك العذابا
ما الذي قالته عيناك لقلبي فأجابا

قلت: وهما من قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور يقتلننا ثم لا يحيين قتلتنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا..))

((... - فصل: وصف العيون الضيقة وغيرها))

وقال محمد بن العفيف التلمساني:
لحاظك أسياف ذكور فما لها
كما زعموا مثل الأرامل

وله أيضاً:

يا عاشقين حاذروا مبتسماً عن ثغره
فطرفه الساحر مذ شككتم في أمره
يريدان أن يخرجكم من أرضكم بسحره...))

((...)) قلت أنا من قصيد:

حبيب نازل في كل قلب
وسيف لحاظه يهوى النزالا
يرى قتل المحب بلا دليل
ولا سيما إذا أبدى الدلالا
إذا استقبلت سيف اللحظ منه
رأيت الموت من ماضيه حالا

وقلت أيضاً من قصيد:

تغار الشمس منها حين تبدو كغصن البان في خضر البرود
بأطراف من الحناء حمر وألحاظ كبيض الهند سود

وقلت أيضاً من قصيد:

ألت لواظظه على أهل الهوى إن لا ترى قتلاً بغير مهند
يرنو وصارم لحظه في جفنه ماضي الغرار ولم يمسي بأئمد

فإذا تجرد للمحب فلا تسل عن سيف جفن كالحسام مجرد

وقلت أيضاً من قصيدة:

غزالي غزاني باللاحظ لأنه إذا ما بدا في حومة الحرب ضيغم
تكلمني ألاحظه بسيوفها ولم ترى قبلي ميتاً يتكلم

وقلت من قصيدة:

تسل سيوفاً من لواظ طرفها ولكن من عادة الجفن غامد
تجردها والدمع كالنيل سائح فما تنثني إلا وسيحان جامد..))

((... الباب الخامس

ذكر تغير الألوان عند العيان من صفرة وجه وحمرة
فجل وما في معنى ذلك من عقد اللسان وسحر البيان

أقول: هذا باب عقده لذكر تغير لوني المحبين؛ إذا وقعت العين في العين، وهرب الدم إلى شبكة الدماغ. فقال له الحاجر: إلى أين؟ وقد نصت الأطباء على السبب في ذلك، وجلو من اصفرار المحب، واحمرار المحبوب؛ سواد كل حال. وأنا أورد هنا؛ ما قالوه بنصه، وأصوغه كالخاتم بفصه، وأعقبه بذكر ألوان الحسان؛ بأحسن بيان، وأوضح تبيان. هذا مع ما ينجر في ذيل ذلك؛ من التفصيل بين السمر، والبيض؛ ووقوع محب السماء، من الشعور والأرداف، في الطويل والعريض؛ واختتم ذلك؛ بفصل في ذكر ما يعتري المحب من خفقان قلبه، وطيران عقله ولبه؛ فأقول وبالله التوفيق: قال بعض الأطباء: سبب اصفرار وجه العاشق؛ الفزع؛ فإن الدم لا يأوي مع الفزع؛ وربما نظر المعشوق إلى العاشق فجأة؛ فيضطرب قلبه، وتشتعل الحرارة ثم تخمد؛ فإذا خمدت؛ برد التامور¹؛ فإذا برد التامور؛ جمد الدم، واستحال اللون إلى السواد، والخضرة؛ ثم يستقر؛ فيصفر. وأما احمرار وجه المعشوق؛ فمن

¹ أي الإنسان.

الخبجل؛ والخبجل عرض؛ من حركة تامور القلب؛ فتحيل الدم وتلطفه؛ فيظهر في أرق مكان في الوجه؛ وذلك عند معالجة الحرارة العرضية، ومجاهنتها الدم؛ لما يندفع؛ فيطلب الخلاص؛ حتى ينتهي إلى تحت الرأس؛ فيمنعه الحاجز من النفود؛ فيهبط إلى الوجه؛ فيحمر الوجه. قالوا والوجه الرقيق البشرة، الصافي الأديم؛ إذا خجل يحمر، وإذا فزع يصفر. ومنه قولهم: "ديياج الوجه" يريدون تلونه، من رفته. قال الشاعر:

حمرة خلط صفرة في بياض مثل ما حاك حائك ديباجاً

وقالوا حمرة لون الإنسان؛ يولدها الفرح، والصحة، والنعمة. وصفرة لونه؛ يولدها الفزع، والبؤس، والغم، والسقم. وأما أحسن الألوان؛ فإنه الأحمر؛ بدليل أن الدم صديق الروح، والحمرة لونه. وأفضل الياقوت وأفخره الأحمر، وأجود الذهب أحمره، وأفضل العسل الذهبي والياقوتي؛ وتمدح الأرض بحمرة التربة؛ وأكرم الخليل أشقرها، وهب ديباجها. وأكرم الأبل حمرها؛ وهي التي قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهو يعظم مقدار ذلك: ((لو أن لي حمر النعم، ولو أن لي طلاع الأرض ذهباً)). وأحسن الأنوار الورد والشفائق والجنار. وأحسن الحلل المصبوغة المعصفرة؛ وأحسنها ما كان صبغة القرمز؛ وأحسن الخمر الحمراء؛ ولذلك وصفتها الشعراء بلون النار، والعندم، والعصفر، والياقوت، والعبقر. وأحسن الألوان المخلوطة النار؛ ومن أجل ذلك اكتنى عبد العزى بن عبد

المطالب باللهب؛ وكان يكنى قبل ذلك أبا عتبة؛ لأنه كان من أحسن
الناس وجهاً؛ وكانوا يشبهون احمرار وجهه بلهب النار؛ لأنه كان
مشرق الوجه ملتهباً. كما كنى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
أهلك الرجال الأحمران، وأهلك النساء الأحامرة. والأحمران الخمر
اللحم، والأحامرة الذهب والزعفران..))

((...الباب السادس

ذكر الغيرة وما فيها من الحيرة وقرع من ديك الجن

أقول: هذا باب عقدناه؛ لذكر غيرة المحب على المحبوب؛ حتى من نفسه، وأبناء جنسه. والمحبون فيها نوعان، والمضروبون بسوطها ضربان: فالأول يحبه الله ورسوله؛ ويتم به للعاشق رسوله، والثاني مذموم؛ وصاحبه ملوم. فالنوع المحبوب منها أن يغار عند قيام الريبة؛ والنوع المذموم أن يغار من غير ريبة؛ بل من مجرد سوء الظن؛ وهذه الغيرة تفسد المحبة، ولا تترك منها حبة؛ لأنها توقع العداوة بين المحب والمحبوب؛ وربما حملته على الوقوع فيما اتهمه به؛ ويترتب عليها مفسد كثيرة؛ مما يؤدي إلى فساد الصورة. والحكايات في هذا الباب مشهورة. وقد روى النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح: ((أن من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يكره الله. فالغيرة التي يحبها الله؛ أن تكون في ريبة، والغيرة التي يكرهها الله؛ الغيرة في غير ريبة)). وقال عبد الله بن شداد: الغيرة غيرتان: غيرة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخل النار. وقال صاحب روضة المحبين: الذي يحب الله ورسوله يغار لله ورسوله؛ على قدر محبته وإجلاله؛ وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله؛ فهو من المحبين؛ فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس؛ وهو يرى غيره ينتهك حرمة، ويسعى في إذائه ومساخطه،

ويستخف بأمره؛ وهو لا يغار لذلك؛ بل قلبه بارد؛ فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله؛ وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت؟ ولا لحقوقه إذا ضيعت؟ وأقول الأحوال؛ أن يغار له من نفسه؛ يترك ارتكاب معاصيه، والتقريط في حقه. وأما الغيرة على المحبوب؛ فإنما تحمد حيث يحمد الاختصاص به؛ ويذم الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً؛ كغيرة الإنسان على زوجته، وأمه، والشيء الذي هو يختص به. وهذه الغيرة تختص بالمخلوقين؛ ولا تتصور في حق الخالق؛ لأنه سبحانه وتعالى يجب على جميع المخلوقين أن يحبوه، ويذكروه، ويعبدوه، ويحمدوه؛ خلافاً لبعض¹ جهلة الصوفية؛ ممن كان إذا رأى من يذكر الله، أو يحبه؛ يغار منه. وربما سكته؛ إن أمكنه. ويقول: غيره: الحب تحملني على هذا؛ وإنما ذلك حسد وبغى، وعدوان، ونوع معاداة الله، ومراغمة لطريق رسله؛ أخرجوها في قالب الغيرة؛ وشبهوا محبته بمحبة الصورة. وهذه الغيرة إنما تحسن في محبة من لا تحسن المشاركة في محبته؛ كغيرة الإنسان على محبوبه من الآدميين؛ كما تقدم ذكره. قال القشيري: قيل لبعضهم: أحب أن تراه؟ قال: لا؛ قيل: ولم؟ قال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي. قال الشيخ شمس² الدين بن قيم الجوزية: وهذه أيضاً غيرة فاسدة؛ وغاية صاحبها أن يعفى عنه، وأن يُعَدَّ³ ذلك من سطحاته⁴

¹ في الأصل: ((خلفاً فالبعض))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

² في الأصل: ((شسم))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

³ في الأصل: ((بعد))؛ بالياء الموحدة التحتية؛ وهو تحريف؛ فصوب.

⁴ في الأصل: ((سطحاته))؛ بالسين المهملة؛ وهو تحريف؛ فصوب.

المذمومة؛ وأن يُعد في مناقبه وفضائله؛ أن يقال له: أتحب أن ترى حبيبك؛ فيقول: لا؛ فلا؛ ورؤيته أعلى نعيم الجنة؛ وهو سبحانه وتعالى؛ يحب من عبده أن يسأله النظر إليه. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه كان من دعائه: ((اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك)). وقول هذا القائل: نُزِّهَ ذلك الجمال عن نظري¹؛ مثل من خدع الشيطان، والنفس؛ وهو شبه ما يحكى عن بعضهم: أنه قيل ألا تذكره²؟ فقال: أنزهه أن يجري ذكره على لساني. وقد وقع بعضهم في شيء من ذلك؛ فلاموه فأُنشد³:

يقولون زرنا واقض واجب حقنا
وقد أسقطت حالي حقوقهم عني
إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا إليها⁴
ولم يأنفوا مني⁵ أنفت لهم مني

وبعضهم من ترك الحج؛ غيرة على بيته أن يزوره مثله. وقد لمت شخصاً على ترك الصلاة؛ فقال لي: أني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته. فأنظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء. وأما الغيرة على

¹ في الأصل: ((نظر))؛ بدون الياء؛ فصوب.

² أي: ألا تذكر الله؟

³ هي للقاضي أبو العباس أحمد بن محمد البدجاني البصري.

⁴ في نص آخر: ((لها))؛ وهو أسلم.

⁵ في نص آخر: ((منها))؛ وهو أصح.

المحبيب؛ من الآدميين فلنا فيها ضروب، وحسنات؛ غالبها
ذنوب...))

((..الباء السابع

إفشاء السر والكنمان عنه عدم الإمكان

أقول: هذا باب عقنائه لذكر إفشاء السر وضده، وهزل كل منهما وجده؛ إذ للمحبين فيهما مذهبان: فمنهم من أباح إباحته، ورأى في إفشائه راحته؛ ومنهم من رأى كتمانته من الديانة؛ فحل من مراتب الحب في أعز مكانة؛ حيث قال:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمت بوجدي
فإذا كان في القيامة نوذي من قتيل الهوى تقدمت وحدي

نعم؛ من الناس من كتمه؛ فأراه كتمانته عدمه؛ ومنهم من أفشاه؛ فوقع فيما يخشاه. ولكل من المذهبين شاهد، وبحر دمع زائد؛ لا ينجو غريقه، ولا تسلك طريقه؛ فالعاشق منهما بين داعين؛ كلاهما الأخطر، وسيفين؛ لا بد من قتله بإحدهما؛ على الصحيح الأشهر. كما قال شهاب الدين السهروردي:

وارحمنا للعاشقين تحملوا سر المحبة والهوى فضأح
بالسر إن باحوا تباح دمائهم وكذا دماء العاشقين تبأح
وإذا هم كنتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفأح..))

((...الباء الثامن

مغالطة الحبيب واستعطافه وتلافي غيظه وانحرافه

أقول: هذا باب عقنائه لذكر مغالطة الحبيب في نفسه، وإلحاق يومه بأمسه؛ وهو من أعظم الأبواب حشوة، وأكثرها رشوة، وأحسنها اختراعاً، وأكثرها خداعاً، وأبلغها خطابة، وأكثرها إصابة، وسنورد من ذلك ما يعذب إirاده، ويحسن عند أهل الإنشاء إنشاده؛ ليعلموا أن الأديب على الحبيب يحتال، ويجاري برقة ألفاظه الجريال؛ فمن ذلك؛ وهو من أحسن ما سمعته في مغالطة الحبيب:

قم بنا يا نور عيني نجعل الشك يقينا
فإلى كم يا حبيبي يأثم القاتل فينا

ومثله قول الآخر:

ما أنس لا أنس قولها بمنى ويحك إن الوشاة قد عملوا
ونمّ واش بنا فقلت لها هل لك يا هند في الذي زعموا
قالت لماذا ترى فقلت لها كي لاتضيع الظنون والتهم...))

((...الباء التاسع

الرسالة والرسائل والتلطف في الوسائل

أقول: هذا باب عقدنا لذكر مراسلة الأحباب، وشكوى الجوى في الجواب؛ وهو باب مطروق؛ نافق السوق؛ طالما عرض فيه المحب على الرسول سلعة النحول؛ لا سيما من عيل صبره، واشتهر أمره؛ فأصبح - وهو في البيت - طريح، واستعمل في مراسلة الحبيب حتى الريح؛ كما قيل:

فيا نسيم الصبا أنت الرسول له والله يعلم أنني منك غيران
بلغ سلامي إلى من لا أكلمه إني على ذاك الغضبان غضبان
لا يا رسول لا تذكر له غضبي فذاك مني تمويه وبهتان
وكيف أغضب لا والله لا غضب إني لما رام من قتلي تفرحان
أكل يوم لنا رسل مرردة وكل يوم لنا في العتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصر سليمان

فهو من الهوى على شطر، ومن إقامة الهجر على سفر؛ لا يقر له قرار، ولا يصلي لوجنة محبوه بنار؛ لا جرم أنه يتعلل بالنسيم العليل؛ ويقول: لاستشاق اليسير منه قليلك؛ لا يقال له قليل. ومن أحسن ما سمعته في هذا الباب قول الواو الدمشقي:

بإله ربكما عوجا على سكتي وعائباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولا في حديثكما مابال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولاً في ملاطفة ما ضر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضب فغالطاً وقولا ليس نعرفه..))
((... وقد ذكرْتُ؛ في النسيم أشياء مليحة؛ في كتابي "سلوك
السنن" المذكور؛ واقتصرت منها على هذا القدر — هنا — خوف
الإطالة. ويجب أن يكون الرسول من أهل الصيانة، وممن يرجع
إلى ديانة؛ لئلا يطمع؛ فيصير خليلاً، بعد أن كان رسولاً؛ كما اتفق
لرسول ابن سناء الملك؛ الذي قال فيه:

راح رسولاً وجاعني عاشق وعاقه عن رسالتي عائق
وعاد لالي بالجواب بل بجوى أخرسه والهوى به ناطق

وقال المتنبي:

مالنا كلنا جو يا رسول أنا أهوى وقلبك المتبول
وكلما عاد من بعثت إليها غار مني وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأمانى عينا ها وخانت قلوبهن العقول..))

((...الباء العاشر))

الاحتيان على طيف الثيان وغير ذلك مما قيل

فيه على اختلاف معانيه

أقول: هذا باب عقدناه لذكر طيف الخيال الزائر، وما قيل في سيره من المثل¹ السائر؛ الحلوب إذاً للشعراء في اقتناصة تحيل، وحسن نحيل طالما كثروا من ذكره، واستخرجوه من وكره؛ فقرّبوا عليه بعد المسافة، ولم يعافوا إلحاق زجره بالعيافة. ومن المشهورين فيه بالإجادة: أبو عبادة - وغيره: ((...))

((... وقال البحتري: وهو من المكثرين في وصف الخيال؛ المجيدين فيه؛ ولكثرة ولوعه به واشتهاره ضرب به المثل؛ فقل: "خيال البحتري". ومن ذلك قوله:

إذا ما الكرى أهدى إلي خيالها

شقى قربه التبريح أو نقع الصدى

إذا انتزعته من يدي انتباهة

ظننت حبيباً راح مني أو عدا

فلم أر مثلياً ولا مثل شائناً

نعذب أيقاظاً وننعم هجداً...))

¹ في الأصل: ((ممثل))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

((... وقال عبد الصمد بن المعدل:

واصل النوم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيباً فطوت سرها عن الأبدان
منظر كان لذة القلب إلا أنه منظر بغير عيان...))
((.. وأول من طرد الطيف طرفة بن العبد حيث قال:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها فإني واصل سبل من وصل
وتبعه جرير فقال:

طرقك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فأرجعي بسلام
وأعجب من جرير في طرد الخيال الراعي حيث هجاء؛ فقال:
طاف الخيال بأصحابي فقلت لهم أئتلك ليلي أئت ليلاً أم الغول...))
وقلت أنا:

واخجلتنا لك يا جرير في المحافل والمشاهد
طرقك صائدة الفؤاد فكنت صباً غير صائد
فرددت طيف خيالها هذا خيال منك فاسد
الطيف أعشق منك إذ وافى إليك وأنت راقد
فلا عاد مثلك ما بقى في الناس للعشاق عائد
وقلت أيضاً من قصيدة:

يطالبني قلبي به فكأنني غريم وقلبي في تقاضيه مغرم
ولي منه في ليل الكرى ونهاره خيال ملم أو حبيب مسلم...))

((...الباب الحادي عشر))

قصر الليل وطوله وفضاء شفه ونصوله وما

في معنى ذلك

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من طال سهاد جفنه القصير؛
فأمس وما له إلا إسفار الصباح سفير؛ فهو ينشد من شدة الحرق؛
وكثرة الأرق:

يا ليل ظل ولا تطل لا بد لي من أن أسهرك
لو بات عندي قمري ما بت أرعى قمرك

ولم تزل العشاق تشكو من الليل وطوله، ويصفونه بسواد
الوجه عند حلوله؛ وعذره في ذلك ظاهر؛ وكيف لا؟ وقد قال فيه
الشاعر:

مات الظلام بليل أحبيته حين عسعس

أحبيته حين عسعس يعيش كان تنفس..))

((... قلت: وقبل الشروع في إيراد مقاطيع هذا الباب؛ نذكر هنا
حكاية لطيفة؛ تتعلق بطول الليل وقصره؛ وهي ما حكاها أبو محمد
إسماعيل بن منصور الجواليقي؛ قال: وقف على والذي — وهو
جالس في حلقة يقرأ فيها عليه الطلبة — شاب؛ فقال يا سيدي؛ قد
سمعت بيتين من الشعر؛ ولم أفهم معناهما.

فقال له: قل؛ فأنشد:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها وهجرة النار يصلينا به النار
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة إن لم يزرنى وبالجوزاء إن زارا

قال: فلما سمعها¹ والدي؛ قال له: يا ولدي؛ هذا شيء من
معرفة النجوم، وتسييرها؛ لا من صنعة أهل الأدب؛ فانصرف
الشاب من غير حصول فائدة؛ فاستحيا والدي؛ لكونه سأل عن شيء
ليس عنده منه علم؛ وآلى على نفسه أن لا يجلس في حلقة؛ حتى
ينظر في علم النجوم... ((.. قال الشيخ فتح الدين بن سيد
الناس: قال لي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد: قل لهؤلاء علماء
المعاني والبيان والبديع: أتحسنون أن تقولوا مثل قول المتنبي؟
"أزورهم وسواد الليل" البيت؛ فإذا قالوا لا؛ قل فأني فائدة فيما
تصنعونه؟ يريد بذلك؛ أن العمل غير العلم؛ والمباشرة دون
الوصف. ومثل قوله — هذا — ما حكاه بعضهم عن بعض الوعاظ؛
أنه كان على منبره يتكلم في المحبة، وأمور العشق، وأحواله،
ومديد أطناب الأطناب في ذلك؛ فقام إليه بعض الجماعة؛ فقال:

بعيشك هل ضمنت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل زفت عليك فروع ليلي زفاف الأفحوانة في نداها

¹ في الأصل: ((سمعهما))؛ وهو تحريف؛ فصوب.

فقال الواعظ لا والله؛ فقال له فابشر؛ وقال المتنبى:
وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري إليهم وزارك فيه نو الدلال المحجب

المانوية؛ قوم يعتقدون أن الخير كله من النور، والشر كله
من الظلام؛ فكذبهم؛ بأنه وجد الخير في الظلام؛ حيث ستره عن
أعدائه، ووقاه شرهم، وكان عوناً له على زيارة من يحبه..))

((..الباء الثاني عشر))

قلة عقل العذول وما عنده من كثرة الفضول

أقول: هذا باب عقنائه لذكر من أكثر القيل والقال من العذال؛ واستحق بإمساك لحيته — عند عذله — نتف السبال؛ وكيف لا؟ وهو لكثرة فضوله، وقلة محصوله؛ يدخل الروح والجسد، والوالد والولد؛ طالما أصبح بين المحبين؛ قفا بين صفا عين؛ لا يفتح له باب، ولا يرد عليه جواب:

وأتعب من ناداك من لا تحبيه وأغيط من عاداك من لا تشاكل
وما آتته خلقي في الهوى غير أنني بغيض إلي الجاهل المتعائل..))

((..وما أحسن قول شهاب الدين ابن الخيمي رحمه الله:

وعذول رابني في نصحه كلما زدت إيا زاد لجاجا

ما عذولي قط إلا عاشقاً ستر الغيرة بالعذل وداجى..))

((..وقال أبو العتاهية: لقيت أبا نواس في المسجد الجامع؛ فعذلته؛

وقلت له: ما أن لك أن ترعوي، وتزدجر؛ فرفع رأسه إلي؛ وقال:

أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي

أتراني مفسد بال — نسك عند القوم جاهي

فلما ألححت عليه في العذل؛ أنشأ يقول:
لاترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

فوددت أني قلت هذا البيت؛ بكل شيء قلته...)) ((... قلت:
والذي أقوله أنا — في هذا المقام — أن صاحب هذا الكلام؛ غريم
الغرام ونديم كؤوس المدام؛ ألا تراه كيف بالغ؟ حتى جعل للعذول
جعاله؛ فأصبحت حالته كما قيل ضغث على أباله؛ فهو كما قال
بعض السادات من أهل الولايات: لو لم تعلم العوام ما في قلوبنا؛
من حلاوة العفو؛ لتقربوا إلينا بالجنايات. ومثل قوله هددت بالسلطان
قول الآخر:

وإن نذرت فيك العشيّة قتلتني فللموت عندي في هواك سلام
فللموت عندي في هواك سلام ولي كل يوم في حماك حمام
وقلت أنا:

عاذل بالغ في عذله وقال لما هاج بابالي
بعارض المحبوب ما تنتهي قلت ولا بالشيب والوالي
وقلت أيضاً:

عذلوا على من رام قتلي في الهوى
فكلامهم ضرب من الهذيان
جهلوا وما علموا بأن الطعن في المح
بوب غير الطعن في الميدان...))

((... وقلت:

أقول لطبي قلبه يشتكي الأسى

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

نصحتك علماً بالهوى والذي أرى

مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

وقلت من قصيدة:

وازنت ميلي للعدول وقده

فرأيت ميلي للقوام رجحاً

يا عاذلي لا صافحتك يد النوى

حتى توسد في التراب صفيحاً

ولقد نصحت بني الصبابة في الهوى

لكنهم لا يقبلون نصيحاً

وقلت من قصيدة مدحت بها مولانا السلطان الملك الناصر.

فيا من جاء يعدل مستهما على حلو الشمائل ما أمرك

وقلت: أيضاً من قصيدة أمدحه بها خلد الله ملكه مطلعها.

لك من حبيبك ما تحب وتشتهي

فاجعل مدامك من مقبله الشهى

وإذا بدا لك ثغره متبسماً

فاضحك على ذقن العذول وقهقه..))

((... الباب الثالث عشر ذكر الإشارة إلى الوصل والزبارة

أقول: هذا باب عقدناه لذكر الزائر والمزور؛ وما قيل فيهما من منظوم ومنثور، وغير ذلك من عيادة الحبيب؛ وما يستدل به عليه من روائع الطيب؛ كما قيل:

لو أن ركباً يمموك لقادهم نسيك حتى يستدل بك الركب

نعم؛ طالما أهدى الحبيب بزيارته سروراً، وأمسى¹ له الفضل؛ زائراً ومزوراً؛ كما قيل: فلفضله فالفضل في الحالين له؛ فالزيارة من الحبيب لا تمل؛ ولو ألحق فيها الوابل بالطل؛ ومن أحسن ما قيل في زيارة الحبيب، وعوده من قريب؛ قول العكوك:

بأبي من زارني مكتئباً خائفاً من كل شيء جزعاً
زائراً ثم عليه حسنه كيف يخفي الليل بدرأ طلعاً
رصد الغفلة حتى أمكنت ورعى السامر حتى هجعاً
ركب الأهوال في زورته ثم ما سلم حتى ودعاً..))

¹ في الأصل: ((أمس))؛ وهو تحريف. فصوب.

— فصل نم الطيب على الحبيب:

ما أحلى قول ابن سكرة:

أهلاً وسلهاً بمن زارت بلا عدة تحت الظلام ولم تحذر من العس
تسترت بالدجى عمداً فما استترت وناب إشراقها ليلاً عن القبس
ولو طواها الدجى عنا لأظهرها برق اللثام وعطر النحر والنفس..))

...)) — فصل

ومن أحسن ما سمعته في العيادة قول الطغرائي:

خبروها أنني مرضت فقالت أضنى طار فاشكا أم تليدا
وأشاروا بأن تعود وسادي فأبّت وهي تشتهي أن تعودا
ولتتني في خفية وهي تشكو ألم الشوق والمزار البعيدا
ورأيتني كذا فلم تتمالك أن أمالت علي عطفاً وجيدا

أنشدني من لفظه لنفسه الشيخ جمال الدين بن نباتة:

وملولة في الحب لما أن رأّت أثر السقام بعظمي المنهاض
قالت تغيرنا فقلت لها نعم أنا بالسقام وأنت بالإمراض..))

((... الباب الرابع عشر)) الرقيب النمام والواشي الكثير الكلام

أقول: هذا باب عقدناه لذكر كل رقيب غائر العين، كثير المين؛ يرى المحب بعين المقت في كل وقت؛ ويرميه في الحضرة والمغيب بكل سهم مصيب؛ فكم ترك المحب مضنى، وأفقره فيمن أحب وما أستغنى؛ فهو كالصبح قاطع اللذات، تعيس الحركات، قبيح المنظر، سيء المخبر، كثير اللجاج، حجر في دكان زجاج؛ فهو والنمام في الأذى فرسا رهان، رضيعا لبان؛ ومن أبلغ ما سمعته في الرقيب:

أنا والحب ما خلونا ولا طر
فة عين إلا علينا رقيب
ما خلونا بحيث أن يمكن الدهر
بأن أقول أنت الحبيب
بل خلونا بقدر ما قلت أنت
ألح فراقى فقلت كيم الطبيب

وقول ابن المعتز:

وإيلائي في محضر ومغيب

لم تر دماء وجهه العين إلا

لم تر دماء وجهه العين إلا

شرقت قبل شربها برقيب...))

((... وقلت أنا من قصيدة:

فديتك قد غاب الرقيب فغن لي وقل في ثقل نحسه متغيب

رقيب نفى عن أرض ليلي عشية وأخرج منها خائفاً يترقب

وقلت أيضاً:

عاذلي في الحبيب دعني فأني برحت بي في حبه البرحاء

راقب الله في محب حبيب من نجوم السمالة رقباء

وقلت أيضاً من قصيدة:

فبت ولي شغل عن العذل شاغل

يزود الكري عني من السهد ذائد

وقلت أيضاً من رسالة:

وأما الرقيب فأمره عجيب

وغلق الباب في وجهه؛ ﴿تَصْرُوفٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾¹؛
فهو بالنهار من الذين يراؤون، وبالليل ابن فاعلة؛ لا ينام، ولا
يخلي الناس ينامون؛ فأذاه إذا ورد من بعيد أقرب من حبل
الوريد؛ والعاشق بينه وبين العذول ما يلفظ من قول؛ إلا لديه رقيب
عتيد؛ فهو إن قعد قامت القيامة، وإن راح؛ لا كتب الله عليه سلامة.

— فصل: المنام والواشي وما أظرف ما سمعت في ذلك:

قال لي عودي غداة رأوني ما الذي تشتهييه واجتهدوا بي
قلت مقلي به لسان وشاة قطعوه فيه بصنع عجيب
وأضافوا إليه كبد ح سود ففتئت فوقها عيون رقيب

وهذا مأخوذ من كلام بعض العشاق؛ وقد قيل له: ما الذي
تشتهييه؟ فقال أعين الرقباء، وألسن الوشاة، وأكباد الحساد.

¹ من الآية: 13؛ من سورة الفتح.

وقال آخر:

لي عندهم يوم التواصل دعوة يا معشر الجلساء والندماء
أشوي بها قلوب الحاسدين بها وألسنة الوشاة وأعين الرقباء

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أبغضكم إلي المشاءون
بالنميمة؛ المفرقون بين الأحبة)). وقال صلى الله عليه وسلم:
((أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى؛ منهم: رجل يأكل
لحوم الناس، ويمشي بالنميمة))...))



((... الباب الخامس عشر))

العناء عند اجتماع الإعباء وما في معنى ذلك من الرضى والعفو

عن ما مضى أقول: هذا باب عقدناه لذكر معاتبة الذم¹
الأمانى، وبث هوى؛ أرق من النسيم المتواني. نعم في العتاب فوائد
جمّة، وإزالة كرب؛ فلا يكن أمركم عليكم غمة؛ وهو على أقسام:
عتاب هو في تأكيد المودة؛ يحصل الحاصل؛ وعتاب لتكذيب الناقل،
وعتاب التمييز؛ الحق من الباطل؛ ومن المعلوم:² أن للعتاب بين
الأحاب أصلًا، وفضلاً، وقطعاً، ووصلاً؛ لا بد منه، ولا غناء عنه؛
اللهم إلا عند من لا يراه البتة، ولا يعاتب الحبيب إلا فلتة؛
كالبحثري حيث يقول:

أعاتب الحب فيما جاء واحدة ثم السلام عليه لا أعاتبه

وفي أمثال العرب أسوأ الآداب كثرة العتاب: وقال الأحنف: العتاب
مفتاح التقالي والعتاب خير من الحقد.

¹ كلمة غير مفهومة.

² في الأصل: ((العلوم)).

وقد قال بشار في تقليل العتاب:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
إذا كنت لم تشرب مراراً على القذي ظمئت وأي الناس راقت مشاربه..))

— فصل في العفو والرضى والصفح عما مضى:

جاء عن علي رضي الله عنه؛ في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ
الطُّفَحَ الْجَمِيلَ﴾¹: إنه الرضا بغير عتاب. وقال تعالى:
(وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم)). وقال
صلى الله عليه وسلم: ((من لم يقبل من معتذر صادق وكاذب لم
يرد على الحوض)). وقال الشاعر:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولاً فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

¹ من الآية: 85؛ من سورة الحجر.

وقال آخر:

ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذي ناصر
يا غاية القصد وأقصى المنى وخير مرعى مقلّة الناظر
إن كان لي ذنب ولا ذنب لي فما له غيرك من غافر
أعوذ بالود الذي بيننا أن تقسد الأول بالآخر

كان أبو محمد اليزيدي؛ ينادم المأمون؛ فغلب عليه الشراب
ذات ليلة؛ فعربد؛ فأمر المأمون بحمله إلى منزله برفق؛ فلما أفاق
استحيا، وانقطع عن الركوب أياماً؛ فلما طال عليه ذلك؛ كتب إلى
المأمون أبياتاً منها.

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فأبدت مني الكأس بعض ما كرهت وما إن يستوي السكر والصحو
ولا سيما أن كنت عند خليفة وفي مجلس ما أن يجوز به اللغو

فلما قرأها المأمون؛ وقع في الرقعة "سر إلينا فقد عفونا عنك؛ فلا
عتب عليك؛ وبساط النبيذ يطوي معه. أخذه الشاعر فقال:
إنما مجلس الشراب بساط فإذا ما انقضى طوينا بساطه..."

((... الباب السادس عشر))

إغاثة العاشق المسكين إذا وصلت العظم السكين

أقول: هذا باب عقدناه لذكر أكثر الناس فتوة، وأغزرهم مروة، وأرقهم قلباً، وأحسنهم مربى؛ ممن أصبح بين المحبين؛ قديم هجر وهجرة؛ وأمسى¹ له — بكؤس المحبة — ألف سكرة؛ لا جرم أنه أعان ذوي المحبة، ووازن بنفسه؛ من في قلبه من الغرام مثقال حبة؛ فسعى في إصلاح حاله، وساواه بنفسه وماله؛ والله القائل² في هذا المعنى: قف مشوقاً، أو مسعداً، أو حزيناً، أو معيناً، أو عاذراً، أو عدولاً؛ فإن كنت خالياً من ذلك كله — أعني بأطماع كذوب على النوى — إذا لم تقا تل يا جبان فشجع. قلت أولاً؛ أقل من ذلك؛ يا لبنة مالك؛ والله³ القائل في ذلك:

لو تعلم الناس من شوقي ومن كافي ما بت أعلمه استسقوا بميعاد
واستشفعوا لي إلى إلفي بأجمعهم وجاء عائداهم في ذي قواد

¹ في الأصل: ((أمسى)).

² في الأصل: ((والله القائل))؛ وهو تحريف.

³ في الأصل: ((والهل القائل))؛ وهو تحريف بين.

ومن أعجب ما سمعته في إغاثة العاشق، والأخذ بنأره؛ ما¹
 حكاه الجاحظ؛ قال: بلغني أن عاشقاً مات بالهند عشقاً؛ فبعث ملك
 الهند إلى المعشوق فقتله. وقال الخرائطي كان رجل نخاس² عنده
 جارية؛ لم يكن له سلوة غيرها؛ وكان يعرضها في المواسم فتغالي
 الناس فيها؛ حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال؛ وهو يطلب الزيادة؛
 فعلقها رجل فقير؛ فكاد عقله أن يذهب. فلما بلغه ذلك وهبها له؛
 فعوتب في ذلك؛ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا
 فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾³؛ أفلا أحيي الناس جميعاً؟
 وحكى الخرائطي: أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية؛ من غلمانه
 وجواريه متحابين؛ فكتب الغلام إليها يوماً:

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطيتني من ريق فيك البارد
 وكأن كفك في يدي وكأننا بتنا جميعاً في فراش واحد
 فطفقت نومي كله متراقدا لأراك في نومي ولست براقدا

فأجابته الجارية:

خيراً رأيت وكل ما أبصرته ستأله مني برغم الحاسد

¹ في الأصل: ((وما)).

² في الأصل: ((نحاس))؛ بالحاء المهملة؛ وهو تحريف.

³ من الآية: 32، من سورة المائدة.

إنني لأرجو أن تكون معانقي فتيبت مني فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ الخليفة خبرهما؛ فأنكحهما وأحسن إليهما؛ على شدة
غيرته. وقال أبو الفرج بن الجوزي: سمع المهلب فتى يتغنى في
جارية له؛ فقال المهلب:

لعمري إني للمحبين راحم وإني ببر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل ودّ مبدّد وإنني بما قد ترجوان خليق

ثم وهبها له؛ ومعها خمسة آلاف دينار. وروى عن عثمان
بن عفان رضي الله عنه؛ أنه جاعته جارية تستعدي على رجل من
الأنصار؛ فقال لها عثمان: ما قصتك؛ فقالت: يا مير المؤمنين؛
أحب ابن أخيه؛ فما أنفك أراعيه؛ فقال له عثمان: أما أن تهبها لابن
أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي؛ فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين؛
أنها لابن أخي. وأتى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بغلام من
العرب؛ وجد في دار قوم بالليل؛ فقال له: لست بسارق؛ ولكني
أصدقك:

تعلقت في دار الرياحي خودة ينزل لها من حسنها الشمس والبر
لها في بنات الروم حسن ومنصب إذا افتخرت بالحسن صدقها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجة أببت وفيها من توقدها جمر

تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع علي شعره؛ رق له؛ وقال للمهلب: اسمح له بها؛
ونعوضك عنها؛ فقال يا أمير المؤمنين إسأله لنعرف نسبه؛ فقال
النهаш بن عتبة العجلي؛ فقال: خذها فهي لك. وحكى التميمي في
كتابه "امتزاج النفوس" أن معاوية بن أبي سفيان؛ اشترى جارية من
البحرين؛ فأعجب بها إعجاباً شديداً؛ فسمعها — يوماً — تتشد أبياتاً
منها:

وفارقت كالغصن يهتز في الثرى طريراً وسيما بعدما طر شاربه

فسألها؛ فقالت له هو ابن عم لي؛ فردها إليه؛ وفي قلبه منها
شرر النيران...))

((... الباب السابع عشر))

ذكر دواء علة الجوى

أقول: هذا باب عقدناه لذكر دواء الحب؛ الذي أعجز أهل الطب؛ فهم فيه حيارى سكارى؛ وما هم بسكارى؛ على أن الذي أجمعوا عليه، وأشاروا إليه؛ أنه لا شفاء من هذا الداء العضال؛ إلا بطيب الوصال؛ مثل غمز النهدين، وقرع الشفتين، والتصاق البدنين.

رأيت الحب ليس له دواء سوى وضع الصدور على الصدور

ولا سيما ممن بدت نهوده وتوردت خدوده وعذب مذاقه وطاب عناقه.

اعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تداني
وألثم فاه كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن ترى الروحان يمتزجان

وقال الآخر:

شفاء الحب تقبيل وشم ووضع للبطون على البطون
ورهب تذرّف العينان منه وأخذ بالمناكب والقرون

وقال آخر:

أسقم قلبي ثم لم يبره
عاقد زنار على خصره
لا تلتقي روعي مع جسمه
حتى أرى صدري على بطنه...))

وأما نكاح الطيف؛ فاختلفوا فيه؛ فذهب أبو تمام الطائي إلى أنه لا يفسد الحب؛ بخلاف نكاح الحقيقة؛ وخالفه في ذلك جماعة؛ ومنهم من إذا أفضى إلى معشوقه؛ اقتصر على الرشف، وعفة النفس، وخوف الوقوع في الكبيرة؛ إذا كان محبوبه ممن لا يجوز له نكاحه؛ كما قيل:

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها بحلالها مدفوع

وقال آخر:

أتأذنون لصب في زيارتكم
فعندكم شهوات القلب والبصر
لا يضر السوء إن طال الوقوف به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

وقال آخر:

خود حرائر ما هممن بريية

كظباء مكة صيدهن حرام

يحبس من لين الحديث زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام
وسياتي ما ورد في هذا المعنى؛ في باب العفاف؛ والثاني ما قاله
العلماء في أسباب الباه؛ وهو أن شهوة القلب ممتزجة بلذة العين،
وحب النفس معقودة باختيار الطبائع؛ إلا أن يكون الحب تكلفاً؛
لاستقراغ ماء الشهوة؛ فيصير الحرص على الجماع؛ على قدر
الهوى؛ والهوى على قدر المؤانسة؛ فيمن وافقت عينه قلبه، ونفسه
طباعه؛ ممن يحب تمكن حبه، وارتفعت عنه شهوة الجماع؛ فوقع
فيما تكره المرأة من الرجل...))

((...- فصل:))

اختلف الفقهاء؛ هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة لا يجب عليه ذلك؛ لأنه حق له؛ فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه؛ بمنزلة من استأجر داراً¹؛ إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال؛ لأن القرآن، والسنة، والعرف، والقياس؛ يرده. قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ² بِالْمَعْرُوفِ³﴾. فإذا كان الجماع حق الزوج عليها؛ فهو حق لها على الزوج؛ بنص القرآن؛ وقال الله تعالى: ((وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ⁴)). ومن ضد المعروف؛ أن يكون عنده شابة؛ شهوتها تعدل شهوته، أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة؛ ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة. ومن زعم أن هذا من المعروف؛ كفاه طبعه في الرد عليه. وقالت طائفة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر؛ وتخير المرأة - بعد ذلك - إن شاعت تقيم معه، وإن شاعت تفارقه؛ فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك؛ لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة؛ وهو أمثل القولين؛ مع ما فيه. وقالت طائفة: يجب عليه أن يطأها بالمعروف؛ كما ينفق عليها ويكسوها، ويعاشروها بالمعروف. قالوا: وعليه أن يشبعها وطاً إذا أمكنه؛ كما

¹ في الأصل: ((دار))؛ بدون الألف؛ وهو تحريف.

² في الأصل: ((علين))؛ وهو تحريف بَيِّن.

³ من الآية: 228؛ من سورة البقرة.

⁴ من الآية: 19؛ من سورة النساء.

عليه أن يشبعها قوتاً. وكان ابن تيمية يرجح هذا القول ويختاره. قال تلميذه ابن قيم الجوزية: وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم على استعمال هذا، ورغب فيه، وعلق عليه الأجر، وجعله صدقة لفاعله. فقال: وفي بضع أحدكم صدقة؛ ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان، وحصول الأجر، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلب الصحة، ودفع المواد الرديئة؛ فإن صادف¹ ذلك وجهاً حسناً، وخلقاً دمثاً — أي سهلاً — وعشاقاً وافراً، ورغبة تامة، واحتساء بالثواب²؛ فذاك اللذة التي لا يعادلها شيء؛ ولا سيما إذا وافقت كمالها؛ فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسطه من اللذة؛ فتأخذ العين بالنظر إلى المحبوب، والأذن بسماع كلامه، والأنف بشم رائحته، والفم بتقبيله، واليد بلمسه؛ وتنعكف كل جراحة على ما تطلبه من لذاتها؛ ويقابله المحبوب بنظير ذلك؛ فإن فقد من ذلك شيء؛ لم تزل النفس متطلعة إليه، متقاضية له؛ فلا تسكن كل السكون؛ ولذلك تسمى المرأة سكناً؛ لسكون النفس إليها؛ ولذلك فضل جماع النهار على جماع الليل؛ وله سبب آخر طبيعي؛ وهو أن الليل وقت تبرد فيه الحواس، وتطلب حظها من السكون. والنهار محل انتشار الحركات؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَيُّ

¹ في الأصل: ((صاف)).

² في الأصل: ((بالثواب)).

جَمَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ
نُشُوراً¹. وكان محمد بن المنكدر يدعو في صلاته ويقول: "اللهم
قوم لي ذكرى؛ فإن فيه صلاحاً لأهلي". وقال عبد الله بن صالح:
كان الليث بن سعد؛ إذا غشي أهله؛ يقول "اللهم شد لي أصله،
وارفع لي صدره، وسهل علي مدخله ومخرجه، وارزقني لذته،
وهب لي ذرية صالحة؛ تقبل في سبيلك". قال وكان جهورياً؛ فكان
يسمع ذلك منه. وقال علي بن عاصم: حدثنا خالد الحذاء؛ قال: لما
خلق الله آدم، وخلق حواء؛ قال: يا آدم أسكن إلى زوجك؛ فقالت
حواء: يا آدم؛ ما أطيب هذا؛ زدنا منه.

¹ سورة الفرقان؛ الآية: 47.

الباب الثامن عشر

تعنت المعشوق على الصب المشوق وغير ذلك
من اقسام الهجر وصبر القابض فيه على الجمر

أقول: هذا باب عقدناه لذكر الجني، وقول المحبوب إليك
عني؛ فهو باب — لمن مرّ به — حلو المذاق، عطر الخلاق
بالاتفاق؛ لا يعرف طعمه إلا من ذاقه، وعرف وصل الحبيب،
وفرقه. ولم تزل العشاق تستحلي تجني الحبيب، وتقول:
ضرب الحبيب زبيب شرط المحبة عند أرباب الهوى

إن المليح على التجني يعشق؛ لا يصدّهم حد، ولا يقفون من
سيوف اللحاظ عند حد. فكم رأوا جور الحبيب عدلاً؛ وقالوا لذه
إذا أقبل أهلاً وسهلاً؛ لا يأخذهم فيه لومة لائم، ولا يعدون جور
بارد الظلم من المظالم:

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلواً فقد جهل المحبة وادعى
والعلم المشهور في هذا الباب؛ قول عليّة بنت المهدي:
جُبِلَ الحب على الجور فلو أنصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج...))

((...)) وقد قسموا الهجر على أربعة أقسام؛ فقالوا: هجر دلال وهجر ملال وهجر مكافأة على الذنب وهجر يوجبه البغض المتمكن في الصدور فأما هجر الدلال فهو ألد كثير من الوصال وعليه عقدت هذا الباب قال كشاجم:

لولا أطراد الصيد لم تك لذة فتطاردني لي بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وما له من لذة حتى تصيب غليلا

وأما هجر الملal؛ فيثبطه مرور الأيام والليالي؛ إما بتئاني الدار، أو بطول الاختبار. حكى أن منيم الهاشمية؛ لما اشتراها على ابن هشام؛ حظيت عنده وأحبها حباً شديداً؛ فاتفق أنها غضبت عليه في وقت من الأوقات، وتمادت في غضبها؛ فترضّاها؛ فلم ترض؛ فكتب إليها: الإدلال يدعو إلى الملal؛ ورب هجر دعا إلى الصبر؛ وإنما سمي القلب قلباً؛ لتقلبه. وقد صدق عندي قول العباس بن الأحنف:

ما أراني إلا سأهجر من ليس يراني أقوى على الهجران
ملني واتقى بحسن إخاء ما أضر الإخاء بالإنسان

فلما قرأت الرقعة؛ خرجت إليه من وقتها، ورضيت. وأما الهجر الذي يتولد عن الذنب؛ فالتوبة تزيله من القلب؛ عند الاعتراف بالذنب؛ ولا سيما إذا كان المحبوب:

ملكه ملك رحمة ليس فيه
جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في المحب وقد أفل
ح من كان همه الاتقاء

وأما الهجر الذي يوجبه البغض الطبيعي؛ فهو الذي لا دواء
له. قال الحصري: وهذا لا يصح بين ذوي الإخلاص، وذوي
الاختصاص؛ إذ حقيقة المشاكلة؛ تمنعه وصحة المناسبة تدفعه؛
والذي أقوله أنا أيضاً: أن هذا القسم؛ مرضه مما لا يمكن علاجه؛
ولا يعذب أجابه؛ فالمحبيب فيه لا يلام، ومحبته كمن يرقص في
الظلام، ويسلم على من لا يرد عليه السلام:
أحبابه كم يفعلون بقلبه ما ليس يفعله به أعداؤه

...)) الباب التاسع عشر

الدعاء على المحبوب وما فيه من الله المقلوب

كقولي:

دعوت من الحبيب بعشق ظبي أقاسي منه أنواع الجفاء
فواصله وبالغ في صدودي فكان إذاً على نفسي دعائي

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من قارب حلول رmse، وأراد أن يدعو على روحه؛ فدعا على نفسه. فهو يتشهى ويشتكى، ويتشفى وينتكي؛ لا يثبت على حال، ولا يفرق — بسيف اللحظ — بين الماضي والحال. فبينما هو يشكو من محبوبه؛ إذا هو يشكو إليه. وبينما هو يدعو له؛ إذا هو يدعو عليه. فمن أحسن ما قبل في الدعاء للمحبيب؛ قول بلدينا محمد بن العفيف التلمساني؛ رحم الله شبابه، وجعل من الرحيق المختوم شرابه. "أعز الله أنصار العيون"¹...))

¹ لقد كتبت هنا بشكل قلب أبياتها. ومع هذا يمكن مراجعتها في الباب المخصص بالشاب الظريف؛ في هذا الجزء من كتابنا.

...)) الباء العشرون الضموع وانسكاب الدموع

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من أصبح دمه مسكوباً على مسكوب؛ فبات وهو من جريانه كالرمح؛ كما قيل: أنبوب على أنبوب؛ وإلا إذا تمادى الهجر، أو كان عليه بعض حجر؛ هنالك يرى من انسكاب عبرته العبر، وينشد إذا عزم الخليط على السفر:

ومفارق سكن القلوب فلا خلت منه الربوع
بعث الرسول وقال لي وأنا السميع له المطيع
بأن الله قل لي ما جرى بعدي فقلت له الدموع

وقال الآخر:

قال لي من أحببت والبين قد جدَّ
وفي مهجتي لهيب الحريق
ما الذي في الطريق تصنع بعدي
قلت ابكي عليك طول الطريق...))

((...)) وقلت من قصيدة حجازية:

خليلي روض الرقمتين طرازه
إذا لمع البرق الحجازي مذهب
فلا تعجبا من سحب دمعي إذا همت
فما كل برق لاح للعين خلب

وقلت من أخرى حجازية:

ترنى جفني القريح على الخدين قد وكفا
فحسبه ما جرى من أدمعي وكفا
إن عز نظم دموعي حين أنثر
فالدر ما عز حتى جاوز الصدف
لا تعجبوا من وقا دمعي غداة جرى
من عينيه ما جرى فالبحر فيه وفا
ما زلت أبكي على وادي العقيق إلى
أن قيل هذاك من عينيه قد رعا

وقلت أيضاً من قصيدة:

بكيت على أرض بها كنت ماشياً
فأشبهت في دمعي صخرها الخنسا

تجرات يا دمعي فلم تجراً دائماً
فيا دمع ما أجرى ويا قلب ما أفسى

وقلت أيضاً من قصيدة:
إن عيني على العقيق إذا لم
يحك دمعي بلونه حمراء
منذ أمسى لجين دمعي نضارا
صح عندي لعيني الكمياء
لا تسلم ما جرى من الدمع لما
صار من عاذلي على اجتراء
أطلع الليل أدمعي فوق خدي
مثل ما تطلع النجوم للسماء

وقلت من قصيدة:
لأن فترت عيني بحر دموعها
فتغر الذي أهوى كما قيل بارد
وإن حل طرفي بالدموع وكاءه
فنهذ الذي حيت بطرفي عاقد

وقلت من قصيد:

سقيت ببحر الدمع بارد أرضها
وأرسلتها فيها على حين فترة
فيا طرف إن لم تسعف الصب بالبكى
قطعت حبال الدمع من حيث رقت

وقلت من قصيدة:

خالفت فرك معنفاً ونصيحا
وأطعت جفناً بالدموع قريحاً
فاعمل لقتلي محضراً فمدامعي
كتبت لقلبي بالدماء مشروحاً
صب على سفح المقطم دمه
تجري العيون به دماً مسفوحاً
لو شاهدت عيناك أحمر دمه
زكيت شاهد قلبه المجروحاً

وقلت أيضاً:

الطرف من فقد الكرى يشكو الأسى إليه
والخد من فرط البكى يا ماجرى عليه

وقلت:

ومن أرحم لوعتي وابعث خيالاً في الكرى
ودمع عيني لا تسل عن حاله يا ما جرى...))

((... الباب الحادي والعشرون الوعد والأمني وما فيهما من راحة المعاني

أقول: هذا باب؛ عقدناه لذكر الأمني؛ التي لا بد منها، ولا غنى عنها؛ فلا أقل منها:

أعلل بالمني قلبي لعلي
أروح بالأمني الهم عني
وأعلم أن وصلك لا يرجى
ولكن لا أقل من التمني

ولم يزل المحبون يعللون بالأمني نفوسهم، ويترعون براح راحتها كؤوسهم؛ فمنهم من فاز بالأمنية قبل حلولمنية، ومنهم من مات بأعظم غصة، وما وقع له الحبيب على قصة: ((...))
((...)) قلت أنا من قصيدة حجازية:

يهددني بالهجر في كل ليلة
أصدق فيها وصله وأكذب...))
((...)) قلت أنا:

رقي لصب غدا مما يكايده
من دمه الصب يجري في مجاريه

لم يبق فيه سوى روح يرددها
لولا المني مات يا أقصى أمانيه

وقلت أيضاً:

يا طيب ريح سرى من نحوهم سحرا
لولا تلافيه قلبي في الهوى تلقا
كم ذا أعلل قلبي بالنسيم وما
أرى لداء غرامي في هواء شفا

وقال ابن زيدون:

لأسرحن نواظري في ذلك الروض النضير
ولآكلنأك بالمني ولأشربنك بالضمير

وقال آخر:

عليني بموعد وامطلي ما حييت به
ودعيني أفوز منك بنجوى تطلبه
فعسى يعثر الزمان بحظي فينتبه...))

((... الباب الثاني والعشرون الرضا من المحبوب بأيسر مطلوب

أقول: هذا باب عقدناه لذكر المحب المطبوع، والعاشق القنوع؛ ممن يقنع الحبيب بالنظر إذا حضر، ويرضى منه بالسلام؛ ولو مرة في العام؛ فهو في الرضا منه بالنظر اليسير؛ كما قيل: "قليلك لا يقال له قليل":

أنا راض منكم بأيسر شيء
يرتضيه من عاشق معشوق
بسلام على الطريق إذا ما
جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال المعري:

لافاك في العام الذي ولى ولم
يسألك إلا قبله في القابل
إن البخيل إذا تمد له المدى
في الجود هان عليه بذل الباذل

وقال جميل:

أقلب طرفي في السماء لعله
يوافق طرفي طرفه حين ينظر

وقال أيضاً:

وإني لأرضى من بشينة بالذي
لو استقين الواشي لقرت بلبله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمني
وبالآمل المرجو فد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي
أو آخره لا تلتقي وأوائله

قلت: انظر إلى هذا الشاعر الطريف، والعاشق، العفيف؛ قد قنع من
مناهل أحبابه بالوشل، واكتفى باللمح من خلل الاستار والكلل...))

((...الباء الثالث والعشرون اختلاط الاشباح اختلاط الماء بالراح

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من أفرط في العناق؛ إذا التقت
الساق بالساق؛ فأصبح هو ومحبيه كالشيء الواحد في رأي العين؛
حتى عند الأحوال الذي يرى الشيء شيئين؛ وذلك لفرط المحبة التي
لا يشتقي قلب صاحبها بالوصل، ولا تنقطع حبال دموعه
بالاتصال؛ كما قيل:
وكنت وهو ضجيعي أن أقول له من شدة الحب قد أبعدت فاقترب
وقال ابن الرومي:

أعانقه والنفس بعد مشوقة
إليه وهل بعد العناق تداني
وألثم فاه كي تزول حرارتي
فيشند ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى
ليشفيه رشفاً ما سوى الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن ترى الروحان يمتزجان..))

((... الباب الرابع والعشرون

هود المحب كالخلال وطيف الثيال وما في معنى
ذلك من رقة خمر الحبيب وتشبيه الردف بالكثيب

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من أدى به النحول إلى الذبول، وأصبح
كالطلل بين الطلول؛ فهو من شدة الضرر كما قال — صردر:
وكم ناحل بين تلك الخيام
تحسبه بين أطناها

فمحبوبه — في الجفاء ولحد — كالألف، وهو في رفته
كالخيال؛ يمشي إلى خلف.
وقلت أنا من قصيدة:
كأن ضباب الأفق ند سرت به
نسيم الصبا من نحو أرض الأحبة
كأن الصدا بين الجبال متيم
ولم يبق منه غير صوت وأنة..))

((... الباب الخامس والعشرون))

ذكر ما يكابه الاحباء من الامور الصعبة وغير
ذلك مما يقاسونه من تحمل المشاق والم الفراق

كقوله:

شكى ألم الفراق الناس قبلي
وروع النوى حي وميت
وأما مثل ما ضمت ضلوعي
فإني ما سمعت ولا رأيت

أقول: هذا الباب عقدناه لذكر ما يقايسه المحب من ركوب
الأخطار؛ في طلب الأوطار؛ فهو لا يزال مشغولاً بحاله، متقلباً
تحت أحماله؛ يقاسي في طلب الحبيب من الأهوال؛ ما هو أثقل من
الجبال، ويسمح في مقابلة اللمة اليسيرة منه؛ بالنفس والمال.
قال الطغرائي:

ومن طلب الأوبة كان أسخى ببذل النفس من كعب بن مامة
ومن طلب الغنائم لم يهب من نضى من دون مطلبه حسامه..))
((... ومن أحسن ما سمعته في طلب الأوطار وركوب الأخطار
قول ابن خفاجة:

لقد جبت دون الحي كل تنوفة
يحوم بها نسر السماء على وكر
وخضت ظلام الليل يسود فحمة
ودست عرين الليث ينظر عن جمر
وجئت ديار الحي والليل مطرق
منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزهر
أشيم بها برد الحديد وربما
عثرت بأطراف المتقفة السمر
فلم ألق الاصعدة فوق لامة
فقلت قضيب قد أظل على نهر
ولا شمت الأغرة فوق أشقر
فقلت حباب يستدير على خمر
فسرت وقلب البرق يخفق غيرة
ههناك وعين النجم تنتظر عن هناك وشزر..))

((... الباب السادس والعشرون)) طيب ذكر الحبيب

أقول: هذا باب عقنناه لذكر من صال وجال، وذكر محبوبه
حين تكسرت النصال؛ في كل موقف الوقوف فيه هزيمة، والموت
غنيمة؛ ولا سيما إذا أقيمت القسيء¹ مقام الحواجب، والتبست الخود
بنهود الكواعب، واشتبهت الرماح بالقنود، والبيض بحمرة الخود؛
هنالك يجعل حبيبه المشار إليه نصب عينيه؛ ولا يلهيه عنه ضرب
الحسام، ولا جعله غرضاً للسهام...))
((... وقال عنبرة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وما أرق قول الطغرائي أيضاً:
إني لأذكركم وقد بلغ الظمأ
مني فأشرق بالزلال البارد

¹ في الأصل: ((القسيء)).

وأقول ليت أحبتي عاينتهم
قبل الممات ولو بيوم واحد...))
((...)) وقلت أنا في رمل طريق مصر إلى الشام من مقامة:
ولقد ذكرتكم برمل روعه
في قلب كل مشرق ومغرب
وبنو بياضة كالدبي من حولنا
بسوأدهم سدوا فسيح السبب
والقضيبي تبري هام كل مدجج
من كف أشوس بالحروب مهذب
وأسنه الرماح تلمع في الدجى
كوميض برق في الدجى متلهب
وعلى العوالي كل نسر واقع
يفري أديم الليث منه بمخلب
والرعد للأرماج رعد قاصف
والبحر يهدر كالهزبر الأغلب
والبر بحر بالدما والبحر بر
بالفرنج وكل كلب أجرب
وعلى السواحل غارة شعواء ما
فيها لمن يرجو النجا من مهرب

وأنا بلوتار القسى كأني
فيه أغني بالرباب وزينب
وأقول ليت أحبتي يدرون ما
أنا فيه من لهو وعيش طيب..))

((... الباب السابع والعشرون

طرف يسير من المقاطع الرائقة والإغزال الفاتحة

مما اشتمل على ورد الخمود ورمات النهود وغير ذلك

أقول: هذا الباب عقنناه لذكر طرف يسير من الغزل،
والنسيب، ومحاسن التشبيب؛ مما يطرب سماعه، ويؤخذ لطالع
الحسن ارتقاعه؛ كقول بلدينا الشاعر الطريف محمد بن العفيف:

أيسعدني يا طلعة البدر طالع

ومن شقوتي خط بخديك نازل

نعم قد تناهى في الجفاء تطاولاً

وعند التناهي يقصر المتناول

وما كنت مجنون الهوى قبل أن يرى

لقلبي من صدغيك في الأسر عاقل

ولولا سنان من لحاظك قاتل

لما كنت أدري أن طرفك ذابل

ولم لا يصح الوجد فيك وناظر

لنسخة حسن من سناك يقابل

ولو أن قيساً واصفاً منك وجنة
لا عجزه نبت بها وهو باقل

نعم؛ هذا الباب من أوسع هذه الأبواب مجالاً، وأجرأها جرياً؛
لا؛ وأحسنها خطاباً، وأعذبها نصاباً؛ فيه يتميز سمين الشعر من
غثه، وجديده من رثه؛ ولا يكاد وجود فيه إلا ذاك، ولا يدركه إلا
كثير الدراية؛ وما أدراك...))
((... وقال ابن خفاجة:

ومهفف طاوي الحشى
كالغصن يخطر ان خطر
فإذا رنا وإذا شدا
وإذا سقى وإذا سفر
فضح الغزاة والهما
مة والغمامة والقمر...))
((... وقلت أنا:

يا صاح سكري من هوى أغيد
قوامه كالغصن أن ماسا
ساق متى ما لاح لي كاسه
ذكرني شاربه الآسا

وقلت أيضاً:

ذكرني شاربہ الآسا
رأيت الشمس ليلاً وسط داري
فورد خدودها ما لاح إلا
وأحرق عاشقيه بجانار
فصف لي شعرها ليلاً وطول
وقل في الخصر قولاً باختصار
تدير لنا مرآشفها عقاراً
قريب العهد من كاس مدار

ومنها:

عدمتك يا عذولي فيه قل لي
إذا لاح العذار فما اعتذاري
كأنك ما شعرت بأن حبي
غدا بعذاره حسن الشعار
غدوت مكاتباً فيه بخط
قريب الشكل من قلم الغبار
سقاني من مقبله شرباً
طهوراً لم يندس باعتصار
وأعقب وصله هجراً فقلبي
على حرف من الهجران هار

إذا ما قاذني يوماً هواه
مشيت وقطر دمي كالقطار
أيطمئني بخفض العيش دهري
وجر الدمع فيه على الجوار

وقلت أيضاً من قصيدة أمدح بها مولانا السلطان حسن:
ترادفت التهانى والسرور
وبشرنا بوصلكم بشير
وبات بقلعه الجبل انشراح
وأفراح وأحاب وحضور
بروج الأفق فيها فرد بدر
وافق بروجها فيه بدور
تغازل باللوافظ في دجاها
فما نامت ولا فتر الفتور

ومنها:

أغار من النسيم بها إذا ما
تصافح كفه فيها الستور
إذا نشرت ذوائبها تبدي
لميت الحب في الدنيا نشور

لها تُغريصون الدرما
يبيت عليه من خفر خفير
وفرقت بين ضوء الصبح لما
يلوح وبينه فرق كبير

((... الباب الثامن والعشرون))

ذكر طرف يسير من اخبار المطربين المجيدين
من الرجال وذوائ العجال وما في معنى ذلك؛
من ذلك مولا نهم ووصف الانهم

أقول: هذا باب عقدناه لذكر من استراح من الغناء؛ بسماع
الغناء؛ من كل محب يشرب بالشباب، ويغني بالرباب؛ فهو يضرب
بالعود، ويجمع من المذكور والمؤنث؛ بين الشيء وضده؛ لا يلهيه
غير ملاهيه؛ ولا سيما إذا كان في الغناء ممن يعرف الصواب،
ويقيم الإعراب، ويشبع الألحان، ويعدل الأوزان، ويصيب أجناس
الإيقاع، ويعطي النغم حقه من الإشباع، ويختلس مواضع النبرات،
ويستوفي ما شاكلها من النقرات، ويحسن الاختلاس، ويملا
الأنفاس؛ وغير وذلك مما هو معروف عند أرباب هذا الشأن؛ من
القيان؛ ممن جمع في ذلك بين الحسن، والإحسان؛ كما قيل:

ما تغنت إلا تفرج هم

عن فؤادي وأقلعت أحزان

يفضل المسمعين طيباً وحسناً

مثل ما يفضل السماع العيان

والناس في الغناء؛ كلهم عبيد معبد، واسحق الموصلي؛ اللذين
هما أطبع المتقدمين في الغناء؛ فيما حكاه غير واحد من أرباب
التاريخ. وفي معبد يقول حبيب:

محاسن أوصاف المغنين جمة

وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقال البحري يصف صهيل فرس:

هزج الصهيل كان في نغماته

نبرات معبد في الصهيل الأول

ومعبد هذا؛ كان منقطعاً إلى البرامكة؛ ومات في أيام الرشيد؛
وأخباره أشهر من أن تذكر؛ وقد ذكرها صاحب الأغاني وغيره.
وأما إسحق الموصلي؛ فإنه كان من أهل العلم، والأدب، والرواية،
والتقدم في الشعر، وسائل المحاسن؛ أشهر من أن يوصف؛ وهو
الذي صحح أجناس الغناء، وميز طرائقها؛ تمييزاً لم يقدر عليه أحد
قبله، ولا بعده؛ من تدقيق المجاري، وتمييز الأصناف؛ التي جعلوها
صنفاً واحداً؛ وهي في نفسها كذلك؛ ولكنها تفرق عند منيظ مثله.
من كلامه: حدود الغناء أربعة: النغم، والتأليف، والإيقاع، والقسمه.
وكان قد سأل المأمون: أن يكون دخوله مع أهل العلم، والأدب؛ لا

مع المغنين؛ فإذا أرادَه للغناء؛ دعاه فأجابه إلى ذلك. وقال الواصل:
ما غناني إسحق قط؛ إلا ظننت أنه زيد في ملكي، وأن إسحق لنعمة
من نعم الملك؛ التي لم يحظ أحد بمثلها؛ ولو أن العمر، والنشاط ما
يشتري؛ لشريته له بشطر ملكي...)) ((... وحكى أبو الفرج:
أنه أهديت للرشيد جارية في غاية الجمال؛ فخلا معها في قصره
يوماً؛ وأصطحب فكان من حضر من جواريه للغناء والخدمة ما يزيد
عن ألفي جارية؛ في أحسن زي من الثياب، والجواهر. فوصل
الخبر إلى أم جعفر؛ فعظم ذلك عليها، وأرسلت إلى عليّة؛ أخت
الرشيد تشكو إليها؛ فأرسلت إليها عليّة: لا يغيظك هذا؛ فوالله لأردنه
إليك؛ وقد عزمت أن أصنع شعراً، وأصوغ عليه لحناً، وأطرحه
إلى جواري؛ فابعثي إلي كل جارية عنك، وألبسهن أنواع الثياب
والجواهر؛ حتى ألقى عليهن الصوت مع جواري؛ ففعلت أم جعفر
ما أمرتها به عليه. فلما صلّى الرشيد العصر؛ لم يشعر إلا وعليّة قد
خرجت عليه من قصر ومعه ما ينيف عن ألفي جارية؛ عليهن
غرائب اللباس؛ وكلهن في نغمة واحدة؛ يغنين بهذين البيتين:

منفصل عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي قل لي لمن نويت بعدي أن تصل

قال فطرب الرشيد، وقام على رجليه؛ حتى استقبل أم جعفر
ومعه عليّة؛ وهو في غاية السرور؛ وقال: لم أرَ كالיום سروراً قط.
وقال لمسرور الخادم: لا تترك في الخزانة مالاً إلا نثرته؛ فكان

مبلغ ما نثره في ذلك اليوم ستة آلاف ألف درهم. وما سمع بمثل ذلك قط. وحكي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى؛ أنه أخرج إلى حضور جنازة؛ وكان لرجل — من أخوانه — منزل بالقرب من مقبره؛ فعزم عليه في الميل إليه؛ فنزل، وأحضر له طعاماً؛ فغنت جارية:

طابت بطيب لثاتك الأقداح
وزها بحمرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه
نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الخنادس أسبت ظلماءها
فضياء وجهك في الدجا مصباح

فكتبها القاضي طرباً بها على ظهر يده؛ ثم خرج. قال راويه:
فلقد رأيته يكبر على الجنازة؛ وهذه الأبيات على ظهر يده...))...
...)) وقلت أنا:

وغانية مكملة المعاني
بلطف ما عليه من مزيد
إذا ما أطربتنا بالمشاني
تثنت بين رمان النهود

تغار السمر منها حين تبدو
كغصن البان في خضر البرود
بأطراف من الحناء حمر
وألحاظ كبيض الهند سود
سوالفها من الريحان أطرى
وألحاظ كبيض الهند سود
سوالفها من الريحان أطرى
يوأخيها الشقيق من الخدود...))
((... وقلت أنا:

يوأخيها الشقيق من الخدود
أزاحوا اعتذاري عنهم بالهوى العذري
مواصيلهم من نفخهم كل ساعة
جلبنا الهوى من حيث أدري ولا أدري
وقلت أيضاً ملغزاً في شبابة:
وما خرساء إن نطقت رأينا
تناقض فعلها أمر عجبيا
منقبة وليس لها أزار
توافينا ولم تخشى الرقيبيا
فتاة إن خلوت بها صحبي
رأيت لهم معي فيها نصيبيا

ينازعني هواها كل صب
وإن لم تشبه الرشا الربيبا
فكم من عاشق فضحته فينا
وكم جمعت بمجلسها حبيبا
تجدد لي إذا نطقت سرورا
يعيد زماني البالي قشيبا
أرق من النسيم الرطيب صوتاً
وأسرع في الورى منه هبوبا
تغازل دائماً بعيونها من
يطارحها التغزل والنسيب
فدع لومي إذا ما همت بها
وأنشدني من الشعر الغريب
وشب لي بها أبداً وقل لي
ضروب الناس عشاق ضروباً
فأغدرهم محب ذو ملل
وأعذرهم أشبهم حبيباً...))

((... الباب التاسع والعشرون))

ذكر من ابتلى من اهل الزمان بحب النساء والعلماء

أقول: هذا باب عقدناه لذكر عشاق زماننا هذا؛ وهم ما تعرفهم بسيماهم؛ فمنهم من أتصف بالانصاف، وسلك طريقة السلف في العفاف؛ وهذا النوع فيما يظهر أعز من الكبريت الأحمر؛ لم أراه، ولا رأيت من رآه؛ وإن وجدت اسمه؛ فأين مسماه؟
فاشهد بصدق مقالتي أو لا فكذبني بواحد

هيهات؛ بل قصارى أهل هذا العصر أن يعشق أحدهم بكرة، ويواصل الظهر، ويسلو العصر. وعلى هذا حكاية بعض العلماء؛ من أهل المدينة فيما حكاه عمرو بن شبيبة؛ قال: كان الرجل يحب الفتاة؛ فيدور بدارها حولاً؛ يفرح إن رأى من رآها؛ فإذا ظفر بها في مجلس تشاكيا وأنشد الأشعار؛ واليوم يشير إليها، وتشير إليه؛ فيعدها، وتعهده؛ فإذا التقيا لم يشكو حباً، ولم ينشدا شعراً؛ وقام إليها كأنه على نكاحها أمين الأمناء؛ كما قيل:

لم يخطو من داخل الدهليز منصرفاً

إلا وخالها قد قارب الشنفا

وقال الأصمعي: قلت لإعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت العناق¹، والضمّة، والغمزة، والمحاذثة. ثم قالت: يا حضري؛ فكيف هو عندكم؟ قلت: يقعد ما بين رجلي عشيقته، ثم يجهدا. قلت يا ابن أخي: ما هذا عاشق؟ هذا طالب ولد. وسئل أعرابي عن ذلك؛ فقال: هو مص الريق، ولثم الثغر؛ والأخذ² من أطايب الحديث بنصيب؛ فكيف هو عندكم أيها الحضري؟ فقال: العض الشديد، والجمع بين الركبة والوريد، ورهز يوقظ النيام، ويوجب الآثام. فقال: تالله ما يفعل هذا العدو؛ فكيف الحبيب؟ قلت وقد تقدم أن الملوك — كغيرهم — في العشق؛ وأن الملك³ العظيم؛ قد يعشق؛ ولا يذهب به عشقه إلى ترك تدبير ملكه. وهناك طبقة أخرى دون الملوك؛ إذا عشقوا لم يتفرغوا لاستغاثهم بصنائعهم؛ وطبقة أخرى يخلون بأديانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم؛ بما لا يحل لهم، ويحرم عليهم؛ وما سوى هؤلاء؛ فإن عشقهم عرض من الأعراض؛ بل مرض من الأمراض؛ إذا وصلوا إليه أسرعوا بأنصرافهم عنه؛ وربما صار هجراناً؛ بل عداوة إلى آخر العمر. وهذا هو الغالب على أهل زماننا هذا. وهو أفسد أنواع الحب؛ إذ يوجد عند الفراغ، ويذهب عند الشغل، ويحدث عند غلبة الشهوة، ويتلاشى بتلاشيها؛ فهو أضعفها لا محالة؛ وأمر صاحبه سهل؛ إذ هو يسلو بالجفاء،

¹ في الأصل: ((العناق)).

² في الأصل: ((مص الريقة، ولثم الثغر، ولأخذ...)).

³ في الأصل: ((وإن الملط))؛ وهو تحريف.

وحبه¹ بقليل الوفاء. ومن كانت هذه حاله؛ سهل أمره، وانطفأ
بالبولة جمره. فمن أهل هذا العصر؛ من اقتصر على دمية القصر؛
فهام بالحسنة من النساء. ومنهم من خلع في الأمر العذار؛ وقال
للسلو عن وجنته الحمراء النار ولا العار. ومنهم من قرن بين
الفريقين، وجمع من المذكر والمؤنث بين الضدين؛ فتراه يأتي على
ما حضر، ولا يتوقف عند صورة من الصور؛ كما قيل:

أنا الرجل البصير بكل أمر

دخلت من التصابي كل باب

فيهوى المرد والشبان قلبي

ولا يأبى مواصلة الكعاب...))

((... وكتبت أنا إلى بعضهم:

ليهن مولانا حبيب لم يزل

بوصله في كل محسنا

كم زينته لحيه في وجهه أنبتها الله نباتاً حسناً...))

((... وقال يا قوت الحموي وقد ظلم أهل الموصل؛ من خصهم

بالنسبة إلى اللوط؛ حتى ضرب بهم المثل. وقال فيهم الشاعر:

كتب العذار على صحيفة خده

سطراً يلوح لناظر المتأمل

¹ في الأصل: ((وحب)).

بالغت في استخراجہ فوجدته
لا رأى إلا رأى أهل الموصل

ولقد جببت البلاد؛ ما بين جيحون والنيل؛ فمن رأيتہ لا يخرج عن هذا المذهب؛ فلا أدري؛ لم يخص به أهل الموصل؟ قيل: وليس الأمر كذلك؛ كما ادعى ياقوت من كل وجه؛ لأن مجرد الميل إلى الذكر؛ لا تخلو منه بقعة؛ إنما أهل الموصل يزدون على ذلك؛ بأنهم يميلون إلى أصحاب الذقون؛ وربما مالوا إلى من بعذاره شيب. ويقولون: هنا شعرة وشعرة؛ أي شعرة سوداء وشعره بيضاء. وبعضهم يسميه زرزوريا؛ وهذا قل أن يوجد في غير بلادهم. وقد رموا — بهذا — من بين أهل البلاد، وأهل الإسكندرية؛ لأنهم يقولون: ما نعطي فليستنا إلا لمن بنفقها على عائلته ووليداته¹، ما نعطيها لمن يأكل بها حلاوة. قال الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية؛ في كتابه روضة المحبين؛ بعد ذكر قصة عاد، وما أفضى إليه بهم الهوى؛ من الهلاك الفظيع، والعقوبة المستمرة؛ ثم قصة قوم صالح كذلك، ثم قصة العشاق أئمة² الفساق؛ ناكحي الذكران، وتاركي النسوان؛ وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم

¹ هكذا.

² في الأصل: ((أئمة)).

من العقوبات ما لم يجمعه على أمة¹ من الأمم أجمعين؛ وجعلهم سلفاً لإخوانهم اللوطية؛ من المتقدمين، والمتأخرين. قال: لما تجروا على هذه المعصية، وتمرّتوا، ونهجوا لإخوانهم طريقاً، وقاموا بها وقعدوا؛ ضجت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجاً، وعجت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى جميع المخلوقات؛ وهو سبحانه قد حكم؛ أنه لا يأخذ الظالمين؛ إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم. فلما خالفوا الرسول المرسل إليهم؛ ووقعت الحجة عليهم؛ فعل الله تعالى بهم ما أخبر به في كتابه العزيز: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِّيلٍ مَّتَّضُودٍ * مُّسَوِّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾². فهذه عاقبة اللوطية؛ عشاق الصورة؛ وهم السلف³ وإخوانهم بعدهم على الأثر.

¹ في الأصل: ((أمة)).

² سورة هود؛ الآيتان: 82 - 83.

³ في الأصل: ((السف)).

— فصل: النظر إلى وجه الأمرد:

ذكر الحافظ محمد بن ناصر

من حديث مجالد؛ عن الشعبي قال: قدم عبد القيس على النبي ص؛ وفيهم غلام أمرد؛ ظاهر الوضاعة؛ فأجلسه عليه السلام وراء ظهره؛ وقال: كانت خطيئة من مضى النظر. وفي الكامل عن أبي هريرة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد. وكان سعيد بن المسيب يقول إذا رايتم الرجل يلح بالنظر إلى غلام أمرد؛ فاتهموه. وصرح الشيخ محي الدين النووي — في المنهاج — بتحريم النظر إلى وجه الأمرد بشهوة، أو بغير شهوة. وذكر الخطيب من حديث عبد الرحمن بن وafd؛ عن عمرو بن أزهر؛ عن أبيان؛ عن أنس؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لا تجالسوا أولاد الملوك؛ فإن الأنفس تشاق إليهم؛ ما لا تشاق إلي الجواري العواتق. وكان إبراهيم النخعي، وسفيان الثوري، وغيرهم من السلف؛ ينهاون عن مجالسة الأمرد. وقال النخعي: مجالستهم فتنة، وإنمائهم بمنزلة النساء. حكى عن أبي سعيد الجزار — وكان من المشايخ المعروفين بالزهد والعبادة — أنه قال: رأيت إبليس في منامي — وهو يمر عني ناحية — فقالت: تعال؛ فقال: أي شيء أعمل بكم؛ أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس؛ قلت وما هو: قال الدنيا، ثم قال: غير أن لي

فيكم لطيفة؛ قلت وما هي؛ قال صحبة الأحداث؛ فأخذت العصا لأضربه؛ فقال: أنا ما أخاف من العصا؛ إنما أخاف من نور القلب. قال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخاً من الأبدال؛ كلهم يقولون: إياك ومعاشرة الأحداث. وحكى أبو عبد الله أحمد بن الجلاب؛ قال: كنت أمشي مع أستاذي؛ فرأيت حدثاً جميل الصورة؛ فقلت: أترى يعذب الله هذه الصورة بالنار؟ فقال: أو نظرت إليه؟ سوف ترى غبها. قال: فنسيت القرآن بعد عشرين سنة. ومن المعلوم أن النظر إلى الأمرد يوقع في سكرة العشق؛ كما قال تعالى: عن عشاق الصور: ﴿لَعْمُرُكُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾¹. فالنظر كاس من خمر؛ والعشق هو سكر ذلك الشراب؛ وسكر العشق هو أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق لم يفيق؛ إلا وهو من عسكر الأموات...))

سكران سكرى هوى وسكر مدامة

ومتى يفيق فتى به سكران

أنشدني بعض مشايخ العصر:

يا من غدا بالمرد ذا لوعة

ما أنت في حبهـم بالمصيب

¹ سورة الحجر؛ الآية: 72.

في الخرد العين الذي تشتهي
منهم و يفضلن بحب الحبيب

وقال آخر:

حبك الغلمان إن أم — كذك النسوان غبن
إنما يفسق في الظه — ر إذا عوز بطن

على أن عشق النسوان — أيضاً — والنظر إلى من لا يجوز
النظر إليها؛ فيه ما فيه مما لا يدرك تلافيه. وقد ثبت في
الصحيحين؛ من حديث أسامة بن زيد؛ أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال: ((ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء)).
قلت: ولا سيما نساء هذا الزمان؛ من كل شمس؛ خدر تطلع من
قوادها؛ بين قرني شيطان؛ وغيرها ممن اشتغلت بالسحاق،
والخروج بعد زوجها من الباب، أو الطاق...))

((... الباب الثلاثون))

ذكر من انتهت بالعتاف وبأحسن الوصف

أقول: هذا باب عقدناه لذكر أكثر المحبين ميلاً؛ وأظهرهم دليلاً، وأحسنهم سيرة، وأزكاهم سريرة، وأعفهم مع القدرة؛ ولا سيما بنو عذرة؛ الذين هم أشد الناس غراماً، وأعظمهم هياماً؛ فلذلك قلت: وقول العشق مع العفة؛ في بني عذرة كثير؛ والمقتول منهم عشقاً؛ جم غفير. فإن ذكر أحدهم بالعفة؛ فجميل جميل الصفات، صادق العزمات. وسنورد من أخباره — في هذا المقام — ما يصدق هذه الدعوى، ويحقق أنّ التسلي بالمحسوب؛ عن غيره ضرب من السلوى. فمن ذلك؛ ما حكاه محمد بن جعفر الأهوازي؛ قال: مرض جميل¹ بمصر؛ مرضه الذي مات فيه. فدخل عليه العباس بن سهل؛ فقال له جميل: ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن، ولم يقتل النفس، ولم يسرق؛ يشهد أن لا إله إلا الله. قلت: أظنه قد نجا، وأرجو له الجنة؛ فمن هذا الرجل؟ قال: أنا؛ فقلت له: ما أحسبك سلمت؛ وأنت منذ عشرين² سنة؛ تشبب³ ببثينة؛ فقال: أني لفي أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا؛ فلا نالتي

¹ هو جميل بن عبد الله بن معمر؛ القضاعي؛ الشهير بشعره العذري.

² في الأصل: ((عشرين))؛ بدون الياء.

³ في الأصل: ((تشبب))؛ بالسين.

شفاعة محمد يوم القيامة؛ إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط. فما قمنا؛ حتى مات سنة اثنتين وثمانين من الهجرة¹. ومن غريب ما حكاه الزبير من أخبار جميل²: أن بثينة المذكورة؛ من بني عذرة؛ وبنو عذرة قبيلة مشهورة بالعشق في قبائل العرب؛ وإليهم ينسب الهوى العذري؛ لأنهم أشد سائر خلق الله عشقاً. قال سعيد بن عتبة لأعرابي: ممن أنت؟ قال من قوم إذا عشقوا ماتوا. قال عذري ورب الكعبة. ثم قال: ولم ذلك؟ قال لأن في نساءنا صباحة، وفي فتياتنا عفة. وقال رجل لعروة بن حزام³: يا هذا؛ بالله؛ أصحيح ما يقال عنكم: أنكم أرق الناس قلوباً؟ قال نعم والله؛ لقد تركت ثلاثين شاباً في الحي؛ قد خامرهم الموت؛ ما لهم داء؛ إلاّ الحب. وقال رجل من بني فزارة⁴ لرجل من بني عذرة: تعدون موتكم بالحب مزية وفضيلة؛ وإنما ذلك ضعف بنية، وضيق روية، ورق وخور؛ تجدونه فيكم يا بني عذرة. فقال له: والله لو رأيتم النواظر الدعج؛ من فوقها الحواجب الزجاج؛ من تحتها المباسم الفلج، والشفاه السمر؛ تفتر عن الثنابيا⁵ الغر؛ لا تخذتموها اللات والعزى. ثم أنشد:

¹ الموافق لـ 701 ميلادية.

² حرفت الكلمة؛ فكتبت: ((حمل)).

³ في الأصل: ((جزام))؛ بالجيم الموحدة التحتية؛ وهو تحريف بَيّن. وعروة بن حزام؛ أحد شعراء بني عذرة؛ أحب ابنة عمه عفراء؛ فمنع منها؛ فمات كمداً؛ بالقرب من المدينة.

⁴ في الأصل: ((فزارة))؛ بالقاف المثناة الفوقية؛ وهو تحريف. والصحيح: ((فزارة))؛ بالفاء الموحدة الفوقية.

⁵ في الأصل: ((الثنابيا))؛ وهو تحريف.

تتبع مرمى الوحش حتى رميتني
من النيل لا بالطائشات الخاطف
ضعائف يقتلن الرجال بلا دم
من النيل لا بالطائشات الخاطف

وقيل لبعضهم¹: ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تحب. فقال:
لحل الخمار، وأحرم ما وراء الأزار، وأظهر للحب ما يرضي
الرب. وقال الحافظ أبو محمد الاموي: أن امرأة يثق بها؛ حدثته أن
فتى علقها، وعلقته، وشاع أمرهما؛ فاجتمعا يوماً خاليتين؛ فقال لها:
هلمي نحقق ما يقال فينا؛ فقالت: لا والله؛ لا كان هذا أبداً؛ وأنا أقرأ
﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. وقيل
لبعضهم؛ وقد طال عشقه لجارية من قومه: ما أنت صانع إن
ظفرت بها، ولا يراكما إلا الله؟ قال: والله لا جعلته أهون الناظرين؛
لا أفعل بها خالياً؛ إلا ما أفعله بحضرة أهلها؛ حنين طويل، ولحظ
من بعيد، وأترك ما يكره الرب، ويفسد الحب. وقيل لآخر: ما كنت
صانعاً لو ظفرت بمحبوتك؟ فقال: ضمها، ولثهما، وعصيان
الشيطان في أثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة؛ بلذة ساعة تقنى
ويبقى حسابها؛ إني إن فعلت هذا للثيم² ولم يلدني كريم.

¹ في الأصل: ((بعضهم)).

² في الأصل: ((الثيم)).

قلت: وممن اتصف من العفاف؛ بأحسن الأوصاف من
الخلفاء؛ هرون الرشيد؛ وذلك أنه عشق جارية؛ فلما راودها عن
نفسها؛ قالت: إن أباك ألم بي؛ فتركها، وشغف بها؛ حتى كاد يخرج
على¹ وجهه؛ فكان ينشد:
أرى ماء وبى عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورد

فقال له القاضي: أو كلما قالت جارية شيئاً؛ تصدق قولها.
فقال الرشيد: ما فوق الخلافة مرتبة؛ فانظر ما أحسن عفة الجارية،
وامتناع هرون الرشيد؛ مع شدة شغفه بها. ودخل عليه منصور بن
عمار؛ فاستناده حتى ألصق ركبتيه بركبتيه. فقال له منصور: يا
أمير المؤمنين؛ تواضعك في شرفك؛ أحب إلينا من شرفك. فقال
عظني؛ فقال من عفّ في جماله، وواسى من ماله، وعدل في
سلطانه؛ كتبه الله من الأبرار؛ فبكى الرشيد؛ وقال: زني؛ فقال لو
طلبت شربة ماء؛ فلم تجدها إلا بنصف الدنيا؛ أكنت تشتريها به؟
قال: نعم. قال: فلو تعسرت عليك بعد شربها؛ أكنت تشتري
خروجها بالنصف الآخر؟ قال: نعم. قال: قبح الله دنيا تشتري
بشرية ماء وبولة. وحكي عن السلطان ملك شاه السلجوقي؛ أنه
حضر بين يديه مغنية؛ فأعجب بها، واستطاب غناءها؛ فهم بها؛
فقالت: يا سلطان العالم؛ إني أغار على هذا الوجه المليح الجميل؛

¹ في الأصل: ((عى)).

أن يعذب بالنار؛ وإن الحلال أيسر؛ وبينه وبين الحرام كلمة. فقال: صدقت، واستدعى القاضي؛ وتزوجها؛ وأقامت في عصمته حتى مات رحمه الله. وحكى سهيل؛ أكبر خدم السلطان نور الدين الشهيد: أن السلطان المذكور اشترى مملوكاً بخمسمائة دينار؛ وخلعة وبغلة؛ وكان جميل الصورة؛ وسلمه إلي؛ وكنت قد ربيت السلطان؛ فقلت في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ هذا ما اشترى مملوكاً قط بخمسين ديناراً؛ فلم أشتري هذا بخمسمائة دينار. ثم تركني أياماً؛ وقال: أحضره مع المماليك؛ يقف في الخدمة كل يوم؛ فلما كان بعد أيام؛ قال: أحضره بعد العشاء إلى الخيمة، ونم أنت وإياه على باب البرج. فقلت في نفسي: هذا الشيخ — في زمان شبابه — ما ارتكب كبيرة؛ ولما كبر سنه؛ يقع فيها؛ والله لا قتلته قبل أن يقع في المعصية؛ فأخذت كتارة¹ فأصلحتها وجئت بالمملوك وأنا في قلق؛ فسهرت عامة الليل؛ ونور الدين في أعلى البرج؛ ثم غلبتني عيني فنمت؛ ثم استيقظت؛ فوَقعت يدي على وجه الغلام؛ فإذا به مثل الجمرة، وعليه حمى شديدة؛ فرجعت به إلى خيمتي، وأحضرت الطبيب؛ فمات وقت الظهر؛ فغسلته، وكفنته، ودفنته؛ فدعاني نور الدين في اليوم الثاني؛ وقال: يا سهيل؛ إن بعض الظن إثم؛ فاستحييت. فقال قد عرفت حالي؛ وأنت ربييتي؛ هل عثرت لي على زلة؟ قلت حاشا لله: قال: فلم حملت الكتارة؛ وحدثتك نفسك

¹ الكتارة: أداة للصيد.

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

فكانت كما قيل:

جننا بليلي وهي جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

ومثل قول الآخر:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً
غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

وممن اتصف بالعفاف؛ من ذوي الغرام؛ الإمام ابن الإمام
محمد بن داود الظاهري؛ وله في ذلك حكايات مشهورة؛ وهذا
موضع إيرادها، ونشر أبرادها؛ فمن ذلك قوله لكل شيء زكاة؛
وزكاة الوجه الحسن؛ إيمان أهل العفة من النظر إليه. وحكى
محبوبه محمد؛ وقيل اسمه وهب بن جامع الصيدلاني؛ أنه دخل
على أمير المؤمنين؛ فسأله عن ابن داود؛ هل رأيت منه ما تكره؟
فقال: لا يا أمير المؤمنين؛ إلا إني بت عنده ليلة؛ فكان يكشف عن
وجهي؛ ثم يقول: اللهم أنت تعلم أنني أحبه، وإنني أراقبك فيه. قال:
فما بلغ من رعايتك له؟ فقلت¹: دخلت الحمام؛ فلما خرجت؛ نظرت

¹ في الأصل: ((فقلت)).

في المرأة؛ فاستحسنّت صورتي فوق ما عهدت؛ فغطيت وجهي، وآليت أن لا ينظر أحد إلى وجهي قبله، وبادرت إليه. فلما رأني مغطى الوجه؛ خاف أن يكون لحقتي آفة. فقال: ما الخبر؛ فقلت رأيت الساعة وجهي في المرأة؛ فأحببت أن لا يراه أحد قبلك؛ فغشي عليه. قال الليث بن سكرة: كان محمد بن واسع؛ ينفق¹ على محمد بن داود؛ وما عرف — فيما مضى من الزمان — معشوق ينفق على عاشقه؛ ويتقرب إلى قلبه بأنواع البر؛ إلا هذا؛ مع ما هو فيه من الصيانة، وحسن الديانة. فالحمد لله الذي رأينا في زماننا من يتخلق بأخلاق الناس...)) ((... خاتمة الكتاب في ذكر من مات من حبه؛ وقدم عليه² به من صغير وكبير، وغني وفقير؛ على اختلاف ضرورهم، وتباين مطلوبهم. ولأجل ذكرهم؛ أسست قواعد هذا الكتاب، ودخلت فيه من باب وخرجت من باب؛ لأتوصل منه إلى ذكر من ساقه الهجر إلى السياق؛ وتحمل من العشق ما لا طاقة له به؛ من الباب إلى الطاق. ومن هنا أشرع في ذكر مصارعهم، وعرض بضائعهم؛ إذ منهم الخاسر والرابح، والصالح والطالح؛ فمنهم شقي وسعيد، ومنهم قتيل وشهيد. وحكى أبو الفرج بن الجوزي: قال: ذكر لي شيخنا أبو الحسن علي بن عبد الله: أن رجلاً؛ عشق نصرانية حتى غلب على عقله؛ فحمل إلى اليمارستان؛ وكان له صديق يترسل بينهما؛ فلما زاد به الأمر،

¹ في الأصل: ((يتفق))؛ وهو تحريف.

² في الأصل: ((على)).

ونزل به الموت؛ قال لصديقه: قد قرب الأجل، ولم ألق فلانة في الدنيا، وأخشى أن أموت على الإسلام؛ ولا ألقاها؛ فتتصر؛ فمات؛ فمضى صديقه إلى النصرانية؛ فوجدها عليلة؛ فقالت أنا ما ألقيت صاحبني في الدنيا؛ وأريد أن ألقاه في الآخرة؛ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ ثم ماتت. قلت لم أسمع بأغرب من هذه الحكاية؛ ولا أعظم من هذه النكاية. قد سبق على صاحبها الكتاب، وضرب بينه وبين محبوبته بسور له باب؛ فابتلي من فراق محبوبته ودينه؛ بداعين، ودارت عليه دائرة السوء في الدارين؛ وكيف لا؟ وقد ورد بكسادة في الحب دار البوار؛ وأصبح بكفره وإسلامها على شفى جرف هار.

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ذكرت بهذه الحكاية؛ قول عبد الوهاب الأزدي؛ يرثي حبيب له نصرانياً؛ وأحسن ما شاء؛ حيث قال:

أخي بوداد لا أخي بديانة ورب أخ في الود مثل نسيب
وقالوا أتبكي اليوم من ليس صاحباً غداً إن هذا فعل غير لبيب
فقلت لهم هذا أو أن تلهفي وشدة إعوالي وفرط نحبي
ومن أين لي أبكي حبيباً فقدته إذا خاب منه في المعاد نصيبي

وكان هذا النصراني موسوماً بالجمال؛ خماراً؛ فعلقة عبد الوهاب المذكور؛ واشتهر به؛ وأقام بيابته في الحانة ثلاث سنين؛ ويدخل معه الكنيسة في الأعياد، والحدود؛ طول هذه المدة؛ حتى حفظ كثيراً من الإنجيل، وشرائع أهله؛ وهجره مرة؛ فلم يجد سبيلاً إليه؛ وزعم أن عليه قسماً، شديداً أن لا يكلمه إلى مدة شهر؛ فلما يئس؛ دعا بالفاسد¹؛ فافتصد في إحدى يديه، ودعا فاصداً آخر فافتصد في اليد الأخرى؛ ودخل داره، وأغلق باب بيته؛ وفجر الفصادين؛ فما شعر أهله إلا والدم يدفع من سدة باب المحل الذي هو فيه؛ فأدركوه وقد أشرف على الموت؛ فصالحه محبوبه النصراني؛ خوفاً على نفسه. ومن شعره فيه:

أنظر إلى الشامة في خد من ألحظه باللحظ جراحه
كأنها من حسنهما إذ بدت حبة مسك فوق تقاحة

ومنهم شهيد. قال يا قوت في تاريخه: كان مدرك بن علي الشيباني؛ شاعراً، أنبياء، فاضلاً؛ وكان كثيراً ما يلزم بدير الروم ببغداد؛ ويعاشر نصاراه؛ وكان بدير الروم غلام؛ من أولاد النصاري؛ يقال له عمرو بن يحيى؛ وكان من أحسن الناس صورة، وأكملهم خلقاً؛ وكان مدرك بن علي يهواه. وكان لمدرك مجلس تجتمع فيه الأحداث لا غير؛ فإن حضر شيخ أو صاحب لحية؛ قال

¹ في الأصل مكررة: ((القاصد.. فافتصد.. ودعا قاصداً.. فافتصد))؛ والصحيح: فاصد؛ بالفاء الموحدة الفوقية.

له مدرك قبيح بك أن تختلط بالاحداث والصبيان؛ فقم في حفظ الله؛
فيقوم؛ وكان عمرو يحضر مجلسه؛ فعشقه مدرك وهام به؛ فجاء
عمرو يوماً إلى المجلس؛ فكتب مدرك رقعة، وطرحها في حجره؛
فقرأها؛ فإذا فيها:

بمجالس العلم التي بك تم حسن جموعها
ألا رثيت لمقلة غرقت بفيض دموعها
ببني وبينك حرمة الله في تضييعها

قال: فقرأ الأبيات، ووقف عليها من كان في المجلس،
وقرؤوها؛ فاستحيا عمرو، وانقطع عن الحضور؛ وغلب الأمر على
مدرك؛ فترك مجلسه، ولزم دار الروم، وجعل يتبع عمراً؛ حيث
شاء؛ وقال فيه شعراً كثيراً. قال الحريري: وقد رأيت عمراً أبيض
الرأس واللحية... ((.. قيل إنه ضعف، وسل جسمه، وذهب
عقله، وانقطع عن إخوانه، ولزم الفراش. قال حسان بن محمد بن
عيسى فحضرته عائداً مع جماعة من أصحابه؛ فقال ألسنت
صاحبكم القديم العشرة لكم؛ فما منكم أحد يسعدني بنظرة إلى وجه
عمرو. قال فمضينا بأجمعنا إلى عمرو؛ وقلنا له: إن كان قتل هذا
الرجل ديننا فإن أحياءه مروءة. قال: وما فعل؛ قلنا: قد صار إلى
حال ما نحسبك تلحقه. قال فلبس ثيابه؛ ثم نهض معنا؛ فلما دخلنا

عليه، وسلم عليه عمرو؛ أخذ بيده¹؛ وقال: كيف تجدك يا سيدي؟
فنظر إليه؛ ثم أغمى عليه؛ ثم أفاق وهو يقول:

أنا في عافية إلا من الشوق إليك
أيها العائد ما بي منك لا يخفى عليك
لا تعد جسماً وعد قلباً رهيناً في يديك
كيف لا يهلك مرشوق ق بسهمي مقاتيك

ثم أنه شفق؛ فارق فيها الدنيا؛ فما برحنا؛ حتى دفناه؛ رحمه
الله تعالى.

ومنهم قتيل: قال العلامة أبو القاسم محمد بن عبد
الرحمن الشيرازي؛ في كتاب روضة القلوب ونزهة المحب
والمحبيب: وشاهدت امرأة كانت من أهل شیراز؛ تزوجت رجلاً
جندياً أعجمياً. وكانت تجد به وجداً شديداً؛ حتى كانت لا تصبر عنه
لحظة. وكان إذا مشى إلى نوبته إلى القلعة؛ تأتزر؛ وتظل قائمة
قبالته؛ حتى ينصرف؛ فإذا دخل عليها؛ لابعها، وقبلها؛ فيسكن
بعض ما تجده؛ فدخل عليها يوماً مغضباً؛ من كلام جرى بينه وبين
مقدمه؛ فلما دخل؛ أرادت منه العادة؛ فلم يلتفت إليها؛ فظنت أن ذلك
لسبب حدث منها؛ فارتاعت، وجزعت؛ فمكث ساعة عنها؛ لم يرفع
طرفة إليها؛ فقوى عندها التخيل. فلما خرج؛ خرجت خلفه كعانتها؛

¹ في الأصل: ((بيد))؛ وهو تحريف.

فانتهرها؛ فلم تشك أن غضبه لأجلها؛ فرجعت؛ وجعلت في رقبتها
حبالاً وشدته في السقف؛ فأختنقت به وماتت.

ثم بحمد الله؛ ما أمكن تلخيصه من كتاب "ديوان
الصبابة" لابن أبي حجلة التلمساني.
وبهذا كمل الجزء الثالث من كتاب أدباء وشعراء
من تلمسان؛ وسيليه الجزء الرابع
بحول الله وتوفيقه.

فهرس الموضوعات

(جزء 3)

- 14 — محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن علي
التلمساني الكومي؛ الشهير بابن العفيف التلمساني،
وبالشاب الظريف؛ (شمس الدين)..... 4
- 15 — محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعرفي
الكومي؛ ويقال البطوي؛ (أبو عبد الله)..... 273
- 16 — محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي؛
(أبو بكر)..... 275
- 17 — محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر
الزناتي جمال الدين التلمساني — محي الدين النحوي
المعروف بحافي رأسه..... 292
- 18 — محمد بن يخلفتن بن أحمد بن ينفليت الفازاري،
ثم اليجعشني التلمساني؛ (أبو عبد الله)..... 296

- الملة الثامنة هجرية..... 298
- 1 — أحمد بن شعبان (أبو العباس)..... 299
- 2 — أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد
التلمساني الشهير بابن أبي حجلة (أبو العباس —
- شهاب الدين)..... 305
- مختارات من ديوان الصبابة..... 319
- فهرس الموضوعات..... 492

الناشيء

بوزياني الدراجي

أدباء وشعراء من نلمسان

الجزء الرابع



دار
الأمل
للدراسات

الناشيء

أدياب وشعراء من تلمسان

بوزيانج الكراجي

الجزء الرابع

(نسخة منقحة)



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار مظاهرات
تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف السحولة (16305) الجزائر
هاتف وفاكس: 0 21 35 78 29

الإيداع القانوني: 1193 – 2011
ردمك: 2 – 46 – 858 – 9961 – 978 ISBN



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حسن بن إبراهيم ابن سبع (أبو الحسن)

كل الذي قاله يحيى بن خلدون بخصوصه:
((أنه الطالب النبيل أبي علي حسن بن إبراهيم
سبع))¹. ولكن ابن مريم؛ أشار إليه في سياق
ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف
الحسني - دون أن يخصص له ترجمة - وكل ما
قاله: أنه عند وفاة الشريف: ((رثاه الفقيه الصدر
المفتي المدرس أبو علي حسن بن إبراهيم بن
سبع بقصيدة طويلة))². وهنا؛ يفهم أنه نما وتطور؛
عما كان عليه في زمن يحيى بن خلدون. بحيث
تجاوز مستوى الطالب؛ الذي وصفه به هذا الأخير؛
وأضحى - كما قال عنه ابن مريم - الفقيه الصدر
المدرس. كما يفهم أنه شارك في قرص الشعر؛
بقصائد طويلة. ومع ذلك؛ لم نتجنا المصادر بما
يسد الحاجة في هذا الباب.

¹ بغية الرواد، ج: 2، ص: 502.

² البستان، ص: 177.

— قصيدة حسن بن إبراهيم هذه؛ أنشئت بواسطة
المسمعين بين يدي أبي حمو؛ بمناسبة إحياء ذكرى
المولد النبوي الشريف؛ وذلك في عام 775هـ/1373م.

هو الحبّ تهديه العيونُ الفواترُ
ويَخْفَى فتبديه البوادي البوادر
وتَغْرُسُهُ في روضة القلب روضةٌ
من الحسنِ مرعاها جوى أو جواهر
فيثمرانٍ وصلّاً بخُلُوٍ وإنْ نَوَى
فَمُرٌّ وإنْ عَتَباً فطعمٌ مغاير
كذا مذكُورُ عرقاهُ وصعبُ مُرامِهِ
يُنْبِلُ المُنَى طَوَراً وطوراً يُغادر
ولم أعْنِ نَفْسِي لِمَ أَقْلُ مَنْ أَحَبَّتِي
مُرادي حَمَتَنِي عن حماهم كَبَائِر
جَنَيْتِ ثَمَارَ الغَيِّ من دَوْحَةِ الهَوَى
وأطمعتُ قَلْبِي فَهُوَ قَاسٍ وَقَاسِر
ولكنْ بمدحِ الهاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ
رجوتُ خلاصِي يومَ تَبْلَى السَّرَائِر
فَصَنَنْتُ رَسولاً أَكْرَمَ الخَلْقِ كُلَّهُم
وأَفْضَلَ مَنْ تُثْنِي عَلَيْهِ المَنَابِر

سَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالْكُونِ كُلِّهِمْ
وَأَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْمَقَابِرُ
أَبُو الْقَاسِمِ الْمَاحِي مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ
رَسُولٌ أَمِينٌ عَاقِبٌ وَهُوَ حَاشِرُ
لَهُ الْمَنْزِلُ الْأَعْلَى وَفِي حَبَّةِ الْعُلَا
وَمَنْ أَجَلُهُ الدُّنْيَا وَعَنْهُ الْمَقَاخِرُ
تَقَدَّمَ فَضْلًا قَبْلَ كُلِّ مُكَوَّنٍ
وَجَاءَ لِنَصْرِ الْحَقِّ وَالْكَفْرِ جَائِرُ
أَيَا خَاتَمَ الْإِرْسَالِ وَهُوَ أَمَامُهَا
وَسَيِّدُهَا وَالْفَضْلُ فِي الْكُلِّ بَاهِرُ
فَأَحْيَى رَبُّوعَ الْحَقِّ بَعْدَ دُرُوسِهَا
مُهَالَّةً بَعْدَ الْعَفَا وَحَوَاضِرُ
وَجَدَّ لِلتَّوْحِيدِ عَقْدَ شُهُودِهِ
بَرَاهِينَ صَدَقَ كُلُّهُمْ بَوَاهِرُ
تَبَدَّتْ بِأَفَاقِ الْقُلُوبِ قَوَاطِعُ
فَقَدَّتْ قَمِيصَ الْكُفْرِ فَهِيَ بَوَائِرُ
وَمَا بَرِحَتْ حَتَّى أَرَاخَتْ ضَلَالَهُ
وَحَتَّى أَرَاخَتْ مِنْهُ وَالْحَقُّ ظَاهِرُ
وَأَعْظَمُ آيَاتِ النَّبِيِّ وَكُلِّهَا
عَظَائِمُ آيَاتِ نَوَاحِ زَوَاجِرُ

تَبَتَّ بِأَفْقِ الرَّشْدِ شَمْساً مَنِيرَةً
وَقَدْ أَسْنَبَتِ لِلْغَيِّ سَوْدُ غَدَائِرِ
فَأَشْرَقَ بِالتَّوْحِيدِ مَا كَانَ مُظْلَمًا
وَشَابَتْ بِمَا لَاقَتْهُ تِلْكَ الْغَدَائِرِ
أَنْتَ مُعْجَزَاتُ الْمُرْسَلِينَ وَقَدْ مَضَتْ
وَلَمْ يَلْقَهَا إِلَّا الْفَرِيقُ الْمُعَاصِرِ
وَمُعْجَزَةُ الْهَادِي الشَّفِيعِ مُحَمَّدٍ
تَدُومُ وَتَرْعَى مَا رَعَى النَّجْمُ سَاهِرِ
وَمَا الْحَصْرُ قَصْدُ الْمَادِحِينَ وَإِنَّمَا
لِنَتَشْنِيفِ آذَانِ الْفَخَارِ الْمَفَاخِرِ
فَلَا الْفَضْلُ مَحْدُودٌ وَلَا الْمَدْحُ بِالْغُ
وَلَا الْفَخْرُ مُحْصُورٌ وَلَا الْمَجْدُ قَاصِرِ
فَفِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ فَضْلًا وَرَفْعَةً
فَكَمْ خُلِعَتْ فِيهَا عَلَيْهِ مَفَاخِرِ
عَلَى السَّبْعِ يَرْقَى نَحْوَ مَجْدٍ وَسُؤْدَدِ
بِرْدَادِهِ يَشْقَى الْحَسُودُ الْمَكَابِرِ
إِلَى أَنْ أَتَى مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ مَنْزِلًا
أَتَتْهُ بِهِ تَتَرَى عَلَيْهِ الْبَشَائِرِ
فَمَا تُثَبِّتُ الْأَقْلَامُ مَا نَالَ مِنْ عَلَى
وَلَوْ مَدَّ هَذَا الْبَحْرُ سَبْعَ زَوَاخِرِ

فصلى عليه الله ما لاح بارق
وما سبحت فلك وما سار سائر
وأيد بالنصر العزيز خليفة
له المجد إرث والغلى والمآثر
هو البحر جوداً والكواكب رفعة
وشمس الضحى نفعاً فمن ذا يفاخر
هو الملك الزباني موسى بن يوسف
أبى الله إلا نصره وهو قادر
ليهن تلمساناً ياب ملكها
فقد ذهب عنها النحوس الغواير
ويهن الورى طراً إياك سالماً
وسعدك موفور وأمرك ظاهر
تبدت بأفق اليمن شمس سعودكم
فأجفان شانيها سواه سواهر
وعادت تلمسان لأحسن حالة
فكم بعدما سيمت بخسف يسامر
ومدت ظلال الأمن فالكل مأمّن
وسحت عهاد الخير والجود غامر
فأله ما ألقى السرور بمهجتي
غداة اللقاء أو ما حوته الضمائر

وما لي ونظم الشعر لولا علاقة
ومن لي به لولا العلى والمآثر
كلّفتُ بكم فأحتلتُ في نيلِ قريبكم
وأملتُ معاليكم وتلك المفاخر
فأصبحتُ أهدي من ثنائي عليكم
جواهر نظم كلُّهنّ جواهر
فقالوا محباً وهو حقاً يُحِبُّكم
وقالوا وزوراً قولهم هو شاعر
فكنْ مُنْصِفي منهم وجُدْ لي بالمُنَى
فلا شكَّ مولى العبدِ حامٍ وناصر
ودُمّ وابقِ وانعمْ واسلِّمْ وسُدْ وجُدْ
تُضيءُ بكِ العليا وتزهِى المناير

...¹ ابن محمد

ابن علي العصامي (ابو الفضل)

هو فقيه، وأديب وشاعر؛ عمل كاتباً للإشياء
ببلاط الدولة الزيانية؛ أيام أبي حمو موسى الثاني؛ لا
يعرف الكثير عن نشأته ومماته؛ وكل ما يقال:
أنه كان حياً في عام 776هـ/1374م. وهذه القصيدة
رفعها في رمضان من السنة المذكورة؛ إلى مقام أبي
حمو تهنئة ببيعة مدينة تنس للسلطان الزياني؛ قال
فيها:

بُشْرِى كَمُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
أَوْ كَالصَّبَا جَاعَتْ بَرِيًّا الْعَنْبَرِ
حَيَّاكَ عَاطِرِ نَشْرَهَا فَكُنْهَا
دَارِينَ أَهْدَتْ طَيْبَ مَسَكٍ أَذْفَرِ

¹ اسم صاحب الترجمة غير معروف؛ إذ اكتفى يحيى بن خلدون بكنيته
واسم والده؛ فقال: ((الفقيه الكاتب أبو الفضل ابن الشيخ الفقيه العدل
أبي محمد بن علي العصامي)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 557. وواضح أن
لقب أبي الفضل يلحق باسم العباس في معظم الأحيان؛ حتى وإن أسند في بعض
الحالات إلى اسم أحمد. وعليه فقد اخترنا وضعه هنا.

جاءتك تخبرُ بالفتوحِ كريمة
أكرم بها من قادم ومبشّر
وافت بفتح تدّلس لك مالكي
فاهناً بملك بالفتوح مؤزّر
فتدّلس تقضي بفتح بجاية
فانهض بعزك أو بسعدك تظفر
واكرغ بوانيها وجلّ ببديعها
وربيعها الزاهي بذاك المنظر
وافرغ معاقلها وجسّ بخلالها
فالله يمنحها بأمرٍ أيسر
لازلت ذا سعد جديد ترتقي
أوج الكمال على توالي الأعصر
وبقيت في العزّ المكين مؤيداً
مهما سرت نفحات روضٍ مزهر



عبد الله بن عبد الواحد ابن ابراهيم بن الناصر المجاصي، (ابو محمد).

يعرف بالبكاء؛ لكثرة بكائه وزهده، وسهولة
ذرفه للدموع؛ خشوعاً لله. كان من أهل الحديث
والدين والورع؛ حتى أنه لا يرفع طرفه نحو
السماء؛ خشية ورهبة من الله سبحانه وتعالى.
يحسن الموعدة، ويتقن تدريس العلم. يقال أنه حج
بحمار؛ لا يركبه إلا حينما يشعر بالتعب. وتلقى العلم
بتلك الديار. من تلاميذه: الشريف أبي عبد الله
التلمساني، والمقري الجد، وابن مرزوق الجد. هو
من رجال القرن السابع الهجري، وقبره موجود
بعين وانزوة في باب الجياد؛ وبالقرب من العباد
السفلي. ومما كان ينشده باستمرار:

هم الرجال وغبن أن يقال لمن

لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

وقوله:

تريدون إدراك المعاني رخيصة
ولا بد دون الشهد من إير النحل

وقوله:

لولا رجال لهم ورد يقومونا
وآخرون لهم سرد يصومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا
لأنكم قوم سوء لا تبالونا

توفي بئلمسان في سنة 741هـ/1340م

عبد المؤمن بن موسى

المديوني (أبو محمد)

ورد اسمه في زهر البستان: مرة ((أبو محمد عبد المؤمن بن موسى المديوني))؛ بينما سمي أبوه في المرة الثانية ((يوسف)). ثم أُسْقِطَ اسم أبيه في المرة الثالثة؛ واكْتُفِيَ بالقول ((وللفقيه المديوني)). ولا يعرف إن كان هو الشخص نفسه؛ أم هما اثنان. المهم أن صاحب الترجمة هذه؛ فقيه وأديب وشاعر. ورد ذكره في كتاب زهر البستان؛ إذ أورد صاحبه قصيدته التي قالها في الحفل المنعقد بالبلاط الزياني بمناسبة ذكرى المولد النبوي المبارك؛ في عام 762هـ/1390م. وجاء فيها:

جاءت سعاد بوصل بعدما ذهباً

عصى الشباب ولاح الشيب والتهبا

واحدوب الظهر من سقم ومن كبر

واعوج عصبي الذي قد كان منتصباً

وصرت أمشي الهونيا بعدما ضعفت
منى القوى واسترد الدهر ما وهبا
لا أستطيع نهوضاً قد وهى بدني
تمكن السقم¹ من حسمي فصار هباً
تظن أنني على العهد القديم ولم
تعلم بأنني هجرت اللهو والطرباً
وجانبت نفسي العقل الذميم فلا
أرى نديماً إلى من قد هفاً وصبا
ولا أنا ثم الذي يرضى بمنقصة
ولا أصيخ لقول يحدث للعبا
إذا تذكرت أيامي التي سلفت
تبادر الدمع من عينيّ منسكباً
[أفنيته عاصياً لله مجترئاً
لم أرتدع صلفاً بالإثم والطرباً]²

¹ كتب في الأصل: ((القسم))؛ وهو تحريف.

² هذا البيت بكامله مختل الوزن. فحدثت زيادة في صدره؛ ممثلة بسبب خفيف (0/)؛ بين التفعيلتين: الثانية والثالثة. أما عجز البيت فقد سقط من تفعيلته الأولى وتد مجموع (0/). بالإضافة إلى زيادة سبب خفيف بين التفعيلتين: الثالثة والرابعة. فجاء البيت هكذا:

((أفنيته في معاصي الإله مجترنا * ولم أخفشأهداً على من تعبا). وللتصويب نظمنا بيتاً بدلاً منه؛ وجاء كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

كم بت فيها على العصيان معتكفا
مضيعا من حقوق الله ما وجبا
وصدني عن سبيل الخير دون خفا
قرين سوء إذا غالبته غلبا
كيف اصطباري إذا ما النار جيء بها
والخلق في قنط والرب قد غضبا
وقيل يا أيها العاصي نسيت ولم
ينس¹ الرفيقان ما خاطا وما كتبنا
إقرأ كتابك وانظر ما جنيت به
اليوم أجزى الورى كلا بما كسبا
ما حيلتي ما جوابي عند ذاك وما
يكون عذري ومنى العقل قد سلبا
لكنني برسول الله معتصم
من جاء بالنور والبرهان منتخبا
[بدر تطلع في السماء حلّ فلا
غَيَمٌ يُغَيِّيه، فصار محتجبا]²

¹ في الأصل: ((تنسى))؛ وهو خطأ نحوي.

² هذا البيت مختل الوزن، ومضطرب الصياغة؛ جاء في الأصل هكذا:
((بدر تطلع في أفق السما فلا غيم * يواريه أو تقص فيحتجبا)). وحرصاً منا
على سياق المعنى؛ وضعنا بيتاً بدلاً منه؛ ورد أعلاه؛ بين حاصرتين.

أسنى النبيين، أعلاهم وأرفعهم
فنوره يخجل الأنوار والشهباء
خير البرية من عرب ومن عجم
أوفاهم ذمة، أركاهم حسبا
من أجله كَوَّنَ الأكوان خالقنا
كما أتى في صحيح النقل مكتبا
فأظهر الحق إذ فرت معالمه
وساد بنيانه من بعد ما ذهب
وقام يدعوا الورى لله مجتهدا
من كان منهم على نأى ومن قرباً
فمن أجاب نجى من حر نار لظى
وقد كفاه الإله الأمر والتعبا
ومن عصاه فمثواه الجحيم غدا¹
يُسْقَى حميما فما يُرَوَى إذا شربا
وأبعد الناس من جهل أضلهم
من بعد ما اعتقدوا الأصنام والنصبا
أسرى به الله في الليل البهيم إلى
السبع الطباق فحاز الفخر واقتربا

¹ في الأصل: ((غدى))؛ بالألف المقصورة.

صلى بموسى وعيسى والخليل بها
وعاين العرش والأستار والحجبا
أدناه، كلمه من غير واسطة
ثم اجتباه وأعطاه الذي طلبا
أتى ربيع به أهلا بواحدة
ومرحباً نعم ما أهدى وما وهبا
محمد خير من تُهْدَى له [درر]¹
من مشى فوق ظهر الأرض أو ركبا
فارتج إيوان كسرى عند مولده
وما [ء] ساوة² حقاً عنده قصباً
ونار فارس أيضاً عنده خمدت
كأنها ما حوت حراً ولا لهبا
والجن ضلت تجوب الأرض ذاهبة
إلى أقاصي النواحي أمعت هربا
وأمه لم تجد في الوضع من ألم
به ولا كابدت ضراً ولا وصبا

¹ هذا الشطر مختل؛ إذ سقط منه ما يماثل التفعيلة الرابعة؛ وعليه فقد أضفنا كلمة: ((درر))؛ للتصويب.

² كتب في الأصل: ((وما ساوة))؛ وهو تحريف؛ يطمس المعنى، ويخل بالوزن. والصحيح هو: ((ماء ساوة))؛ بالهمزة في آخر كلمة ((ماء)). والمقصود بذلك؛ بحيرة ساوة التي جف ماؤها يوم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وخص بالمعجزات الباهرات فما
 [سواه خص بسرها ولا قربا]¹
 أروى الجيوش وقد كانوا على ظمإ
 من حينهم ملؤا الأشنان والقربا²
 تفجر الماء من كف مباركة
 سحا ووبلا وهطالا ومنسكبا
 وأشبع القوم من ندر الطعام إذا
 من بعد ما كبدا³ الأقال والسغا
 وكلمته نراع السم معلنة
 وأعلمته بما فيه ليجهدا⁴
 ثم الغمامة [إن مشى مشى]⁵ معه
 أو لازم الأرض أرخت فوقه طنبا⁶

¹ جاء هذا الشطر - في الأصل يزهر البستان - مضطرب المعنى، مختل الوزن؛ هكذا: ((سواه أعطيها نفعا ولا غربا)). فقمنا بتصويب نظمه، ووضعنا بين حاصرتين أعلاه.
² القرية جمعها قرب وقربات: وعاء من جلد المعز أو الصان؛ يستعمل لحفظ الماء أو اللبن. أما الشنة؛ فجمعها أشنان: وهي القرية الصغيرة.
³ في الأصل: ((أكابدا))؛ بالألف في مطلع الكلمة؛ وهذا تحريف يؤدي إلى خلل في الوزن واضطراب في المعنى.
⁴ أصيبت قافية هذا البيت بعلة الإكفاء؛ باختلاف رويها (د) عما سبقه؛ وإن كان اللفظ متقاربا.
⁵ كتب في الأصل: ((إن سار تسير))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوضعنا بدلا منها - بين حاصرتين - عبارة: ((إن مشى مشى))؛ لتقويم الوزن، والحفاظ على المعنى نفسه.
⁶ يقال: ((طنب الخيمة))؛ شدها بالأطناب. والأطناب مفرداها: طنبة؛ وهو حبل طويل؛ يشد به سراق البيت.

والبدر شُقَّ له نصفين فافترقا
 والناس قد شاهدوا من أمره عجا
 فمعجزات رسول الله ليس له¹
 حصر لمن رمها أو عدَّ أو كتبها
 ومن يطق كيل ماء البحر مجتهداً²
 أو الغمام إذا ما انهلَّ وانسكبها
 يا سيد الرُّسُل إن العبد في قنط
 مما جنى من قبيح الفعل وارتكبها
 وما عسى في أمور كلها خطل
 وما تعدَّى وما أكْدَى³ وما انتهبا
 أرجوا بمدحك يا سؤلي ويا أملي
 فوزاً لجَنَاتٍ عدنٍ لا أرى نصبا
 فأنت أفضل مأمول ومدخر
 وشافع لمسيء جاء مكتتباً⁴

¹ ربما تكون: ((لها))؛ وتغيرت في النسخ.

² ورد هذا الشطر في الأصل بزهر البستان مختلا بسبب كلمة: ((الأرض))؛ التي زالت هكذا: ((ومن يطق كيل ماء (الأرض) البحر مجتهداً)). وعليه فقد حذفت هذه الكلمة أعلاه؛ من أجل التصويب.

³ أكْدَى إكداء: بخل في العطاء

⁴ في الأصل: ((مكتتباً))؛ وهو تحريف يتسبب في اختلال الوزن.

صلى عليك إله العرش خالقنا
ما لاح نجم بأفق الشرق أو غربا
وانصر بجودك يا من لا شبيه له
خليفة ساسنا بالعدل محتسبا
فرع نشأ¹ من بني زيان قد كرمت
آبائهم الخلفاء السادة النجبا
خليفة لا يسامى في أرومته
وهل يسامى السما² من بالثرا رسبا
خليفة قهر الأملاك صارمه
كل له خاضع من بأسه رهبا
أسنى ملوك الدنا قدرا ومنزلة
وخيرهم نسبا إذ³ ما هو انتسبا
كهف الضعيف ومأوى المتعبين ومن
أودى به الدهر في أحكامه ونبا
خليفة كفه نار [لها أَلَمٌ]⁴
لمن عصاه وبحر الجود إن وهبا

¹ أي نشأ؛ وللضرورة خففت الهمزة.

² أسقطت همزة ((السماء)) للضرورة.

³ في الأصل: ((إن)).

⁴ هذا الشطر مختل؛ بسبب التفعيلتين: الثالثة والرابعة؛ التي تمثلهما عبارة: ((ما حجة)). وعليه فقد وضعنا أعلاه - بين حاصرتين - بدلا منها العبارة التالية: ((لها ألم)). بغرض التصويب.

فأعجب لكف حَوَتْ ضدين فامتزجا
 هل شاهدت مقتلأك مثلها عجا
 موسى بن يوسف مولانا وسيدنا
 ليث الحروب إذا عَزَمُ الجبان أبا
 من قام بالمولد الأسنى وشرفه
 كيما ينال به ذاك الذي رغبنا
 واعمل الجهد في مرضات خالقه
 مبادراً لأفعال الخير محتسبنا
 سمى له ربه ما هُوَ¹ آمله
 مبلغاً مقصداً [يسمو به رتبنا]²
 فالله يبقيه في أمن وعافية
 ما هزت الريح في إرسالها القُضْبنا

— وله قصيدة قل فيها:

شهرٌ ربيعٌ زارنا يا حبذا
 أهلاً به من زائر [متفقد]³

¹ تشدد واو ((هو))؛ للضرورة؛ حفاظاً على سلامة الوزن.
² انتاب التفعيلتان: الثالثة والرابعة خلل؛ وتمثلهما عبارة: ((مقضيأ أرتبنا))؛
 فانكسر الوزن. لذا فقد وضعنا عبارة أخرى تجلي المعنى وتصوب خلل الوزن.
 ووردت أعلاه بين حاصرتين.
³ في الأصل: ((منتقدا))؛ وهو خطأ نحوي؛ ويصيب الروي بعيب الإقواء.

في كل عام مرة يهدي لنا
 أزهاره ومبشراً بالمولد
 [ف]أيا ربيعُ لك العلا فأرى العلا¹
 فضلاً ولا تسمع لقول [مفسد]²
 وأيا ربيعُ لك المفاخر كلها
 ولك الشهور أذلة كالأعبد
 فيك استهل نبينا خير الورى
 في ساعة طلعت بسعد مسعد
 فتكشفت ظلماء كل ظلالة
 وانجاب غيبتها لكل موجد
 والكفر ولّى³ لا ضلالة بعده
 قد هُدم ما قد شاده بمحمد
 فكأنه في نوره وبهائه
 قمر بدا في جنح ليل أسود
 فتكست أصنام قيصر عنده
 واعتاض [قائدهم]⁴ كميت ملحد

¹ جاء هذا الشطر في الأصل هكذا: ((أيا ربيعُ لك العلا فأرى العلا))؛ فالختل وزنه؛ فصوب كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

² في الأصل: ((مقتدا))؛ وهذا إقواء وعيب في الروي. كما أن وزن الكلمة يفسد وزن الشطر كله.

³ في الأصل: ((ولا)).

⁴ في الأصل: ((قاياء))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصويب.

ثم انطفئت نيران فارس بعدما
مرّت سنون وحموها لم يخمدا
والتاج عن كسرى تساقط هيبة
لظهور خير العالمين محمد
وتضعضع الإيوان من جنباته
وبدت أمور للكفور المخلد
هذا وكم ظهرت له من آية
كالشمس في إشراقها أو أزيد
من معجزات عز أن يأتي بها
بشر سواه ومثلها لم يشهد
ككلام ضب والغزاة بعده
والذئب حقا والحصا والجلد
ثم انشقاق البدر والماء الذي
روى الجيوش من الأصابع واليد
ثم الغمامة فوقه مهما¹ مشى
وتضل واقفة له إن يقعد
ويرى الذي من خلفه مثل الذي
يأتي قبالتة كما في المسند

¹ في الأصل: ((مهمى)).

الهاشمي المصطفى علم الهدى
فله اللوى وله الشفاعة في الغد
يوماً يقوم الناس من أجدانهم
ذهل العقول إلى المقام الأوحـد
شُعْناً عِراً خائفين وفوقهم
شمس تُغْرِبُ والجوارح ترعد
والنار جيء بها لتلفح من عصى
والخلق في قلق وكرب مجهـد
والله ربي قد تجلى للقضا
بين العباد فيآله من مشهـد
ويود مقترف الجرائم في الدنا
لو كان ينفع أنه لم يولد
فهناك يشفع شافع ومشفع
ومقرب في ظالم أو معتـد
خير الورى محبوبنا ونبينا
فهو الذي نرجوا ليوم الموعد
يوماً ينادي أمتي يا سيدي
أوعدتني وعداً فبلغ مقصد
فيجيبه لك يا محمد ما تشا
هذا الجنان بها فلج ثم أصعد

واشفع تشفع واطلبن ما تبتغي
 تعطى الذي ترضى فأنت محمد
 يعطى الشفاعة والوسيلة والرضى
 أكرم به من شافع وممجد
 وينال إذ ذاك الرضى من ربه
 وَيَقَرَّ عَيْنَا بِالنَّعِيمِ السَّرْمَدِ
 لولاك ما كان النهار ولا نَجَا
 ليلٌ ولا بان الصواب لمرشد
 لولاك لم تكن الجحيم لمن عصى
 لا لاق لا الحور الحسان لمهتد¹
 لولاه ضل الناس في غشواتهم
 كل يتيه بمهمه وبفد فد
 صلى عليه الله في ملكوته
 ما غردت ورقٌ على غصنٍ نَدِ
 وانصر بجودك يا مجيب إماننا
 [انصراً بليغاً بالثنا والمقصد]²

¹ هكذا.

² لحق بهذا الشطر في رويه عيب الإقواء؛ فأتى في الأصل هكذا:
 ((انصرا ببلغه الثنا والمقصد))؛ فصحح كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

ملك زكّ أخلاقه وأصوله
ورث الخلافة سيّداً عن سيّد
الله فضّلَهُ ورَقَّعَ قَدْرَهُ
وأَمَدَّهُ بمهابةٍ وتأييدٍ
مولاي [بوحمو]¹ الذي قهر العدى
وأَمَاتَهُمْ حتْفاً بعُضْبٍ مهنّدٍ
فالنصر يقدمه ويقدم جيشه
والفتح يتبعه يروح ويفتد²
في الليلة الغراء جاد بما له
ليفوز بالخير المقيم السرمد
والله ربي لا يُخَيِّبُ قَصْدَهُ
فيما رجا³ من فضل هذا المولد
يتسيفه⁴ [يستوفه] فيما نراه بقُبَّةٍ
حيطانها من لؤلؤ وزبرجد
في جنة طابت وطاب نعيمها
ويقال طب نفساً بها ثم اخلد

¹ في الأصل بزهر البستان: ((أبوحمو))؛ وهذا يؤدي إلى خلل في الوزن؛ وعليه؛ فقد
وجب حذف ألف ((أبو))؛ فأضحت ((بوحمو))؛ كما ورد أعلاه بين حاصرتين.
² هكذا.

³ في الأصل بزهر البستان: ((رجى))؛ بالألف المقصورة.

⁴ كتب في الأصل: ((يستيفه))؛ فوجب التصويب.

يا آل عبد الواد دام سروركم
ببقاء مولانا الإمام الأسعد
[المتصدر]¹ الأسنى الكريم المرتضى
الماجد الأوفى الزعيم الأصعد
أولاكم براً وألف شملكم
من أرض فاس والمكان الأبعد
فرضاً عليكم أن توفوا حقّه
نصحاءً وفعلًا باللسان وباليد
فالله يبقّيه ويبقى ملكه
ما دار نجم في السماء بفرقد
ثم السلام عليه دأباً دائماً
ما مر ريح بالقضيب الأملد

¹ كتب في الأصل بزهر البستان: ((نصور))؛ بطريقة غير واضحة؛ فعوضت بما ورد أعلاه بين حاصرتين.

- وهذه القصيدة قالها صاحب الترجمة في سنة 760هـ/1358م؛ في حفل بمناسبة فشل المرينيين في استعادة تلمسان؛ وافتكاكها من يد أبي حمو؛ الذي سبق أن دخلها في السنة نفسها؛ إثر موت أبي عنان. ولم ترد هذه القصيدة إلا في زهر البستان:

وافى السرور بحمد الله محتقلا والسعد أقبل يا مولاي متصلا
نصر من الله مقرون بجيشك لا ينفك عنه ولا يبغى [له] بدلا¹
والنصر يتبعه ما أن يفارقه به مثال الرضى والأمن والأملا
جاءت بشائر تنلونها نصائرها فاشكر لربك ما أولا وما فعلا
هذا عدوك قد ولت كتائبه وفر منهزما إذ فارق الخطلا
لا يستطيع رجوعا من مخافتكم كأنه الظبا المذعور إذ جفلا
فصارم الحزم مسلول بكفك لا ترهب فبادر به الأعناق والغلا
وعش سعيدا قرير العين في دعة ودع مناويك تبكي الدار والطللا
واجن الأماني كما تهوى فمئلك من حاز الكمال ومن بالمكرمات علا
أرى الليالي والأيام ضاحكة أتنك خاضعة مكسوة حلا
كأنها خودة² راقحت محاسنها تهدي لعاشقها من ثغرها قبلا
فاعطف عليها ليا مولاي إذ سمحت بوصلها وأنت محمرة خجلا

¹ عجز البيت في الأصل بزهر البستان مختل؛ ولا يستقيم إلا إذا أضيف إليه سبب ثقل (//) متكون من حرفين متحركين؛ مثل: ((له))، التي أضفناها.
² الخود؛ جمع خوذات: المرأة الشابة. وقد كتبها في شعره ((خودة)) بناء التأنيث.

وضمها وارثشف من ريق مسمها
 وأنلها منك وصلا غير منفصل
 ثم اعتبر ما جئت من عشرتها
 وعاملتك به فيما مضى وخلا
 22/ يا أيها الملك الميمون طائره
 وفاقك سعدك يا مولاي مقتبلا
 أعطاك ربك ملكا دون ما تعب
 وزادك الله تدبيرا به كمالا
 لا بد أن تملك الدنيا بأجمعها
 رغما على أنف من أبدا الجفا وقلا
 وترتقي فوق ما قد كنت تأمله
 حتى تصير لكم أعدائكم خولا
 يا سائلي عن ملكك فيه أربعة
 بأس وحلم وإيثار إذا وصلا
 وحسن رأي سديد هو رابعها
 كالعطف والنعته والتوكيد والبدا
 شاعت مكارمه في الأرض وانتشرت
 من شاء مصداق قولي يقتفي السبلا
 لا زلت أنشر ما لولاه من نعم
 ومدحه في فمي قد لذ لي وحلا
 ماذا عسى تبلغ الأمداح في ملك
 إن جاء سائله يرجوه إن قبلا
 فانه يبقيه في أمن وفي دعة
 مقضيا إربا مبلغا أملا
 ثم السلام عليه دائما أبدا
 ما حلت الشمس من أبراجها الحملا

— وهذه قصيدة أخرى وردت في زهر البستان؛ ألحها صاحب الترجمة بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف ببلاط أبي حمو الثاني. ولكن وقع اختلاف في اسم الأب؛ حيث سمي هنا باسم ((يوسف))؛ وهذه القصيدة ألقيت في عام فتح تلمسان 760هـ/1358م.

مدح النبي المصطفى العدناني هو عدتي لقيامتي وكفاني¹
صيرته شغلي وغاية مقصدي حتى ثوى بجواني وجناني²
وسعت محبته بقلبي فاكتفى وجرت مجاري الروح من جثماني
لم لا وهو خير العباد المرتضى³ وأجل من وطئ الثرى ببنان⁴
الهاشمي الأوفى الكريم المجتبي [من جاءنا بالنور والبرهان]⁵
زين القيامة شافع ومشفع في مذنب أو معتد أو جان
فهو الرسول إلى الخلائق كلهم وهو الدليل لجنة الرضوان
من أجله خلق السموات العلى رب العباد مكن الأكوان
ودحى البسيطة فوق ماء جامد سبحانه من ملك ديان⁶

¹ أي يكفيني، ويغنيني.

² ثوى: أقام وسكن. الجوانح: الأضلاع التي تلي الصدر. والجنان - هنا - هو القلب؛ لأنه مستور تحت الأضلع.

³ هذا الشطر غير موزون؛ والخلل في التفعيلتين: الأولى والثانية. بسقوط حرف ساكن في آخر الأولى، وزيادة حرف متحرك في الثانية.

⁴ البنان: أطراف الأصابع.

⁵ كتب في الأصل بزهر البستان هكذا: ((من جاء بالنور وبالبرهان)). وهذا يخل بالوزن. وعليه فقد صوب الشطر؛ كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

⁶ ثمة خلل في التفعيلة الثانية؛ بسقوط حرف متحرك في أولها.

من أجله¹ خلق الخلائق كلها متخالف في الأشكال والألوان
وكذا النبيئون الكرام من أجله خلقوا بلا ريب ولا بهتان
وضعته أم² لم تجد في وضعه ألماً كما يأتي إلى النسوان
في ليلة أهدت لنا كل المنى بظهور خير الخلق من عدنان
أربيع زرت زيارة محمود³ أزهارها عبت بكل مكان
وكسوت وجه الأرض حلة سندس خضراء أجمل ما ترى العينان
لك يا ربيع على الشهور مزية أزجيتها⁴ بالحسن والإحسان
حزت المفاهر والمحاسن كلها وعلوت في العليا على الأكوان
فيك استهل نبينا وحبينا وشفيع أهل الذنب والعصيان
لما بدا في صورة قمرية بل دونها في حسنهما القمران
وأتى بوحى صادق من ربه ودعا إلى الإسلام والإيمان
طارت عتات الجن في أفق السما فأصابها شهب من النيران⁵
وتنكست أصنام قيصر كلها من حينها سقطت على الأذقان
فكأنها قرئت عليها آية وجب السجود لها من القرآن

¹ في الأصل بزهر البستان: ((ومن أجله))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصحيح؛ بحذف حرف الواو في كلمة: ((ومن)). فأضحى كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

² حرفت هذه الكلمة في الأصل؛ فكتبت هكذا: ((أمن)). وهذا خطأ؛ فأم بالتنوين؛ لا بحرف النون كما حدث.

³ لأن مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقع في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول.

⁴ كتبت هذه الكلمة في الأصل بزهر البستان؛ هكذا: ((أنجيتها)). ويبدو أنه تحريف.

⁵ مَنَعَت الشياطين من استراق السمع، وحراسة السماء بالشهب الحارقة؛ وذلك وذلك في يوم ولادته صلى الله عليه وسلم؛

والتاج عن كسرى تساقط هيبة وتفرقت أجزاؤه نصفان
وتهدم الإيوان من أركانه¹ خوفاً فلا تسأل عن الإيوان
والماء غاض من البحيرة وانطفت² نيران فارس في أقل زمان
والرّاهب المعلوم قال لجده³ احذر بنيك من أذى الكهان
واحفظه من كيد اليهود ومكرهم وعداوة الأبحار والرهبان
فهو الرسول إلى الورى علم الهدى ومعيد أهل الكفر والعصيان
[فإذا]⁴ بقيت إلى أوان ظهوره وامتد لي عمري وطال زمانى
فأمن به وأبذل طاقتي⁵ في نصر دين، أفضل الأديان
كم ذا له من معجزات جملة ظهرت وما خفيت على إنسان
منها الذراع بسمها قالت له⁶ يا أحمد المحمود يا ذا الشأن
لا تأكلن لحمي فسمي قاتل من فعل أهل الزيغ والعدوان

¹ الإيوان: بلاط الحكم في فارس.

² جف الماء من بحيرة طبريا؛ بولادته عليه السلام.

³ قال لعمه أبا طالب وليس لجده. والراهب هنا يسمى بحيرى؛ أوصى أبا طالب؛ بأن لا يوغل بمحمد في بلاد الشام؛ خوفاً عليه من اليهود؛ وليس من الكهان والرهبان.

⁴ كتب في الأصل بزهر البستان: ((فإن))؛ وهذا يخل بالوزن. ومع هذا؛ فقد حاول الناسخ استدراك الأمر؛ ولكنه سقط في خطأ آخر. وعليه؛ فقد صوبنا الخلل بوضع كلمة: ((فإذا)) بين حاصرتين؛ لكي يستقيم الوزن.

⁵ وقع خلل بسيط في ضرب البيت؛ إذ سقط حرف متحرك في بدايته (/).

⁶ يشير إلى ذراع الشاة التي سممتها زينب بنت الحارث، وقدمتها هدية إلى رسول الله؛ لكي تقتله؛ فقال عليه السلام: ((إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم)).

والجذع حن له لمحض محبة¹ وبكى بدمع ساجم هتان
والبدر أكبر آية في شقه² دلت عليه لمن له عينان
ثم الغمامة فوقه مهما يسر³ هذا لعمر ك أعظم البرهان
والضرب خاطبه ونادى معلنا⁴ حيث⁵ يا من خصَّ بالفرقان
أنت النبي الهاشمي المجتبي صلى عليك الله كل أوان

¹ ورد في بعض كتب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب على جذع، ثم تركه؛ فأخذ الجذع ين أنيناً يسمعه من كان بالمسجد؛ فنزل عليه السلام من حيث كان يخطب، وضمَّ الجذع إلى صدره وقال: هدا جذع، هدا جذع؛ إن أردت أن أغرسك فتعود أخضراً، يؤكل منك إلى يوم القيامة؛ أو أدفئك فتكون رفيقي في الآخرة. فقال الجذع: بل ادفني؛ وأكون معك في الآخرة".

² عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "انفلق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فصار فلقين: فلق من وراء الجبل وفلق دونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا "

³ ورد أن بحيرى الراهب - وهو في صومعته في بصرى الشام - رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركب قريش - حين أقبلوا - وغمامة تظله من بين القوم.

⁴ ورد في الأثر أن أعرابي من بني سليم كان قد صاد ضباً ليأكله. فرأى جماعة محتفين بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فشق الأعرابي الجماعة، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقال: واللوات والعزى لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب الميت؛ ثم خلع الضب الميت من يده وطره بين يدي رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام. فقال صلى الله عليه وسلم: للضب الميت أضب. فقال الضب لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين. فقال له الرسول: ومن تعبد يا ضب. فقال الله الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه. قال الرسول: ومن أنا يا ضب. قال الضب: أنت رسول رب العالمين، وخاتم المرسلين. فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

⁵ في الأصل بزهر البستان: ((حيث))؛ وهو تحريف.

والماء حتى من أصابعه جرى فروى جميع الجيش نون تَوان¹
ثم الحجارة كلمته بلا امتراً² من غير جارحة وغير لسان
هذا وكم ظهرت له من آية كالشمس ناشرة على البلدان
صلى عليك الله من علم هدى ما غرد القُمري³ في الأغصان
وانصر بجاهك يا مجيب إمامنا خير الملوك وسيد الشجعان
ملك همام في الحروب غضنفر مفني العداة بمرهف وسان
قهر الملوك بمشرق وبمغرب وسمى على الأملاك من قحطان
تاج العلى بدر الدجى سيف الفدى كهف الضعيف وملجأ اللهفان
سند لما أجنى عليه زمانه والمورد السلسال للظمان
ملك له ملك تأئل شامخاً متوارث من جده زيان
حاز المكارم كلها بيمينه فيها هديت إلى الغنى شيئان
للمقتفى بحر الندى إن أمه [ولمن يناوي لفحة النيران]⁴

¹ في الأصل بزهر البستان: ((توان))؛ وهو تحريف. ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقد حانت صلاة العصر؛ فلتنمس الناس ماء الوضوء؛ فلم يجدوه؛ فأتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء؛ فوضع صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء؛ وأمر الناس أن يتوضأوا منه؛ فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه؛ فتوضأ الناس عن آخرهم.

² يشير إلى ما جاء في السيرة؛ من أن رسول الله قال: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)).

³ القمري؛ جمعه قُمَر وقماري، والأثنى قمرية: وهو ضرب من الحمام؛ يتميز بصوته الجميل.

⁴ كتب هذا الشطر - في الأصل بزهر البستان - هكذا: ((ولمن يناوي نفخة النيران)). وهذا يخل بالوزن. وعليه فقد صوب؛ كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

هذي وحقك ما سمعت بمثلها ماء ونار كيف يجتمعان
أعجوبة قرت بكف سيمدح موسى بن يوسف حامي الأضعان
الله فضله بها واختصه بمهابة وفصاحة وبيان
يا طلعة البدر المنير ضياؤه عش في سرور دائم وأمان
واجن الأمان فكيف¹ شئت فإنها حفظ الإله الواحد الرحمن
وأمر زمانك بالذي قد شئته يفعلْه يا مولاي دون تـوان

¹ كتب في الأصل: ((كيف))؛ بدون الفاء؛ وهذا يخل بالوزن؛ فصوبت الكلمة كما جاء أعلاه بين حاصرتين.

عبد الوهاب بن محمد ابن عبد القادر (ابو محمد)

لا يعرف عن صاحب هذه الترجمة ما يسد الحاجة. وهذا هو كل ما جاء في زهر البستان: ((وقال الخطيب الكاتب أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد القادر؛ أحد كتبة أشغاله وقد كلفه تكليفاً))¹:

مدح النبي الهاشمي محمد	هو مذهبي هو بغيتي هو مقصدي
فيفضل مولده ربيع قد سمي	وبدت به البشرية لأمة أحمد
طل يا ربيع على الشهور بأسرها	فلقد حببت بكل سعد فاسعد
ولقد علوت جلالة وكرامة	لما أتيت بخير هاد مهتد
بمحمد المختار من خير الوري	هادي البرية للسبيل الأرشد
ذي المعجزات الباهرات دلالة	جاءت بكل هداية للمهتد
من فاض عذب الماء بين بنانه	فغدا كنهر للغايل مبرد
كم للنبي محمد عَلم الهدى	من معجزات فضلها لم يجحد
منهن تسبيح الحصى في كفّه	والذئب كلمه وصخر الجلمد

¹ ورقة: 86 و.

والبدر شق له بمكة آية والجذع حن حنين صَبَّ مُكَمَد
وشكى البعير له بأفصح [منطق]¹ والضَّبُّ كلمه بغير تردد
آياته أربت على عدِّ الحصى قد صَح ذلك في الصحيح المسند
بمحمد المحمود أكرم مرسل هدي الأنام به لأوضح مرشد
وعلى خليفتنا الإمام المرتضى موسى بن يوسف ذي العلي والسودد
ملك البسيطة والمعالي والهدى من لم يزل يعنى بمولد أحمد
ملك تملك وُدَّ أهل زمانه بمآثر عليا وجدٍ منجد
فعلاه في العلياء قد حاز المدى فاق السماك وحاز نجم الفرقد
حامي ديار قبيله بحسامه² أكرم به من باهر ومسدد
ملك تمسك بالمفاخر والتُّقى بالعروة الوثقى وشرعة أحمد
ما في بني الأملاك ملك شبهه أنعم به من ماجد وبماهد³
بَدْرُ الكمال بوجهه متهلل بِدَرُ النّوال تسح من وسط اليد⁴
مَلِكٌ به حَسَنَ الزَّمانُ فلم يَدَع في الأرض من باغ ولا من معتد
فَبِه بنو زيان زادت رِفْعَةً وغدت تجر لذيل⁵ عز أمجد
وكذا تلمسان به تاهت على كل البلاد وأرغمت للحسد

¹ في الأصل بزه البستان؛ كتبت كلمة: ((لغة))؛ الأمر الذي أخل بالوزن؛ فوضعت كلمة [منطق]. لسلامة الوزن.

² الكلمة الأخيرة في الأصل غير واضحة؛ فاخترنا كلمة ((بحسامه)).

³ الكلمة الأخيرة في الأصل غير واضحة؛ وربما كانت: ((وبمايد))؛ وهذا مستبعد؛ لذا فقد اخترنا كلمة: [وبماهد].

⁴ البَدْر؛ في بداية البيت؛ هو القمر المكتمل في الليلة الرابعة عشر من كل شهر.

أما كلمة: ((بَدْر))؛ فمفردها: ((بَدْرَة))؛ وهي الكمية العظيمة من المال.

⁵ أضفنا حرف: ((لام)) لكلمة ((نيل))؛ من أجل استقامة الوزن.

ملك سما بنجاره ووقاره ونواله وبداره للأسعد
لا زال هذا الملكُ دأباً جارياً في عقب عز فيه [يوم] الموعد¹
يا أيها الملك الهمام المعتلي في ذروة العليا لمرقى إصعد
عبد أشاد وقد أتاك مقصراً مستمثل الأمر العزيز الأمجد
ما كنت مدّاحاً بشعري غيركم كلا ولا حكمت القريض لمولد
حتى أمرتم عبدكم بنظامه فأتيت مبتدراً بغير تبدل
وتكملت بكاملة من بحرها² لكمالك السامي الشريف الماجد
وجلوت من فكري إليك قصيدة بكرة تجلّت من حلاك بعسجد
خذها إليك عقيلة فكرية [تشدو بمجدك في العلا بتودد]³
والله يبقي سعدكم ويمدكم بالعضد والنصر العزيز السرمد
يا عابد الوهاب نلت فضيلة فافخر بمدحك للإمام الأوسد
فارغب إلى ذي العرش يبقي ملكه في⁴ عشية حسن وعيش أرغد
وعلى صحابته الكرام تحية أبداً مكرمة تروح وتعتد

¹ كتب في الأصل: ((اليوم))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فحذفنا اللام؛ فأصبحت كما وردت أعلاه بين حاصرتين.

² هذا الشطر مضطرب الوزن؛ جاء هكذا: ((وتكملت كاملة العروض وأما)). وقد عوض بشطر آخر أسلم؛ ورد أعلاه بين حاصرتين.

³ عجز البيت هذا؛ مضطرب المعنى، ومختل الوزن؛ فجاء هكذا: ((أهلا بها بشده تبادي أمجد)). وعليه فقد نظمنا شطراً آخر؛ ووضع أعلاه بين حاصرتين؛ لتسهيل موصلة القراءة.

⁴ في الأصل: ((فو))؛ وهو تحريف يخل بالوزن.

علي بن العطار (أبو الحسن)

ورد ذكره في كتاب زهر البستان؛ ضمن الشعراء المشاركين في الحفل الذي عقده السلطان أبوزحمو الثاني؛ بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف بالبلط الزيانى سنة 760هـ/1358م. وجاء لسمه في الكتاب المذكور هكذا: ((وللطالب أبي الحسن علي بن العطار عفا الله عنه)):

وصبُّ بالهوى كلف مُعَنَّى

أَعَنَّ مِنَ الصَّبَابَةِ مَا تَعَنَّا

فمن زفراته ما شَبَّ ناراً

ومن عبراته ما نهَّل مزنَا

تَذَكَّرَ عِيشَهُ الْمَاضِي فَأَضْحَى

يَكْفُفُ دَمْعَهُ شَوْقاً وَحُزْناً

وَشَبَّ أَوَارُ أَطْلَقَهُ وَأَجْرَى

مَدَامَعَهُ وَهَامَ وَكَادَ يَفْنَى¹

¹ هكذا.

حَبَى بِجُذْيَةٍ¹ هَبَّتْ فَتَّتْ²
 فَرَقَ لَعَزْفَهَا طَرِبًا وَأُنْسًا³
 تَتَمُّ نُمَيْةً⁴ كَالْمَسَاكِ نَشْرًا
 [وَرِيحٌ تَقْوَحُ بِمَا يَفْدُنَا]⁵
 فَهَامَ الْقَلْبُ أَجْلَالًا وَشَوْقًا
 بَمَنْ نَأْنَا الْفَخَارُ بِهِ وَسَدْنَا
 نَبِيَّ مُصْطَفَى هَادٍ شَفِيعَ
 بِمَوْلَدِهِ السَّعِيدِ لَقَدْ سَعَدْنَا
 شَفِيعَ الْمَذْنُبِينَ غَدَاةَ حَشَرِ
 مَقِيلِ عَثَارِنَا مِمَّا اقْتَرَفْنَا
 لَقَدْ نَأْنَا بِهِ شَرَفًا صَمِيمًا
 وَحُزْنًا الْمَكْرَمَاتِ بِهِ وَفَزْنَا
 نَرَاعُ الشَّاةَ كَلِمَهُ يَقِينًا
 وَأَخْبِرْهُ وَأُظْهِرْ مَا أُكْنَّا⁶

¹ الجذْي: والجذْيَة من الشجرة: أصلها.
² هكذا ورد هذا الشطر في الأصل بزهر البستان. ولعله تعرض للتحريف.
³ هكذا في الأصل؛ وربما تكون: ((وَأُنَا)).
⁴ نَمُ الشْيء: سطعت رائحته. ونمت الريح: جلبت الرائحة أو الحركة. والنُمَيْة: الطبيعة.
⁵ ورد هذا الشطر في الأصل بزهر البستان هكذا: ((فَطْيِبُهُ وَنَشَوَاهَا ذَكَرْتَنَا))؛ وهو مختل الوزن؛ ومضطرب: تعويضه بما ورد أعلاه بين حاصرتين.
⁶ أكن الشْيء: ستره.

[وعين قتادة عادت وما أن
 رأى الراؤون أحسن منه عينا]¹
 نعم والبدر شقُّ له بليل
 كذاك الجذع للمختار حنًّا
 وإيوان المجوس له ارتجاج
 وأصبح دينهم كذبا وميًّا²
 وأعظم آية بتبوك ماء
 جرى من كفه وأنهل مُزنا
 مدائح سيد الثقلين ما أن
 تعد وكيف إن تحصي وأنا³
 وحسبك مدحة وعلو قدر
 من الربِّ العظيم عليه أثنى
 رسول الله يا أملي وسؤلي
 ويا أسمى الورى قدراً وأسنى

¹ كتب في الأصل بزهر البستان: ((وعين قتادة عادت وما رأى)). وهذا يخل بالوزن؛ فنقلنا كلمة ((رأى)) إلى عجز البيت؛ ثم أضفنا إلى الصدر مقدار سبب خفيف تمثله كلمة ((أن))؛ كما جاء أعلاه؛ للتصويب.

² المين؛ جمع مَيون: الكذب.

³ هذا الشطر مضطرب المعنى.

سألت الله في سرِّي وجَهْرِي
 [وأرقُّبه إذا ما الليل جنًّا]¹
 لعلِّي إن أحل حماك يوماً
 ويبلغ قلب صَبٍّ ما تمنا
 إذا المولى أبو حمو حباني
 بإحسان وجاد به ومنّا
 فمن يقصد حماه [يجده]² رحباً
 ويبدل خوفه فرحاً وأمنّا
 إمام قد تخير للبريا
 فما أرقى معاليه وأسنّا
 بدائع مجده الآفاق عمّت
 وكم من سُنَّةٍ في الجود سنّا
 وغرة ملكه الغراء لما
 علت وجه الزمان كسّته حسنا
 فتى جمع المحاسن والمعالي
 وحاز فنونها فنّاً ففنا

¹ ورد هذا العجز في الأصل بزهر البستان هكذا: ((وأرقبه إذا ما أتا الليل جنّا))؛
 فاختل الوزن؛ بسبب كلمة ((أتا))؛ وهي زائدة؛ فافتضى الحال حذفها للتصويب.
 وجنُّ اللَّيْلِ: هي ظلمته.

² في الأصل: ((يجد))؛ بدون هاء الضمير؛ وهذا يخل بالوزن والمعنى. فوجب التصويب.

مهَابٌ إِنْ نَظَرْتَ رَأَيْتَ لَيْثاً
 وَوَهَّابٌ [يَلاقي]¹ مَا تَمْنَى
 [وَكَفَّاهُ السَّحَابِ حَامِلَات]²
 يَفِيضُ نَوَالَهُ يُسْرَى وَيُمْنَى
 وَكَفَّ أَكْفَ أَهْلِ الْبَغْيِ قَهْرَاً
 وَكُلَ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ أَثْنَى
 دَعَتْهُ خَلَاةُ الْآفَاقِ طَرَاً
 بِمَا إِنْ عَنْ إِجَابَتِهَا تَأْنَاً³
 وَكَمْ رَامَ الْخَلَاةَ مِنْ غَوِيٍّ
 فُتَابَ وَفِي تَطْلُبِهَا تَعْنَى
 وَمَا رِبَحَتْ تِجَارَتَهُ وَلَكِنْ
 شَرَى صَفَقَاتِهِ نَحْساً وَغَبَاً
 أَمْوَلَانَا أَبُو حَمُو هَنِيئَاً
 لَكَ الْبُشْرَى بِأَنْ تَبْقَى وَتَهْنَاً
 فَطَبَ نَفْساً عَلَى رَغَمِ الْأَعَادِي⁴
 وَسِرّاً وَابْلَغَ مُنَاكَ وَقَرّاً عَيْنَاً

¹ تم وضع كلمة: ((يلاقي)) عوض كلمة غير مفهومة في الأصل بزهر البستان.

² ورد هذا الشطر في الأصل هكذا: ((وكفاه الصحاب حامدات))؛ ويبدو أن الناسخ حرف كلمته؛ لذا فقد رأيناه كما جاء أعلاه.

³ في هذا الشطر غموض.

⁴ في الأصل: ((الأعاد))؛ بدون ياء.

[ودونك هذه بكر تبنت]¹
بمدحك في حلى لفظ ومعنى
[ويبقى ذا زمانك في سمو]²
ودام عدوك المدموع مضنا

¹ ورد هذا الصدر في الأصل بزهر البستان هكذا: ((ودونك بكر قد تبنت))؛
فاختل الوزن؛ فوجب التصويب كما ورد أعلاه بين حاصرتين.
² جاء في الأصل صدر البيت هكذا: ((ودونك بكر قد تبنت))؛ وهو مختل الوزن؛
فلزم الحال؛ تصويبه كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

علي بن محمد

ابن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي التلمساني
(أبو الحسن)

ينتمي - في أصوله الأولى إلى أسرة أندلسية نبيلة؛ اتصفت بالرئاسة والعلم ووظائف القضاء. تمتع والده في بلاط تلمسان بحظوة وسمو. ولد صاحب الترجمة بتلمسان في عام 710هـ/1310م. ونشأ كما وجهه والده؛ مُحباً للعلم؛ ساعياً للحصول عليه بمختلف الطرق، وشتى الوسائل. فقرأ في مدارس تلمسان، وتلقى العلم على ابن مرزوق الخطيب؛ فتفوق في تحصيل علوم: الفقه، والأدب، والتاريخ، والحساب. كتب في بلاط بني زيان؛ ثم التحق بخدمة المرينيين - عند احتلالهم لتلمسان؛ كما يبدو - فلقي لديهم حظوة، وإكباراً. إذ تولى خطة "كتابة العلامة" للسلطان المريني أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن. ثم تولى في البلاط المريني خطة كتابة الأشغال، ورئاسة قلم الدولة.

ومن مؤلفاته المبكرة في الجودة، والسبق؛ كتاب: "تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ من الحرف، والصنائع، والعمالات الشرعية". قال عنه الشيخ عبد الرحمن الجليلي: ((وهو - لعمرى - كتاب نفيس؛ فريد في بابه؛ مستوعب لموضوعه؛ لم يترك فيه خطأ، أو وظيفة، أو رتبة، أو صناعة، أو حرفة، أو أي عمل من أعمال المجتمع الإسلامي؛ في ميدان المصالح الإدارية - عسكرية كانت أو مدنية، أو شرعية، أو علمية... إلخ - إلا وأثبت أصلها في الإسلام، ودليلها من السنة، وعمل الخلفاء الراشدين فيها؛ مع التعرض إلى ذكر أول من باشر تلك الأعمال - بنفسه - من الصحابة؛ أو كان ممن ولاه رسول الله عليها. فكان الخزاعي - بذلك - أسبق العلماء إلى تدوين تاريخ المدينة الإسلامية، وتفصيل الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية في صدر الإسلام))¹.

¹ تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 131.

- من شعره هذه المقطوعة التي قالها في أحد
أبناء أبي عنان المريني؛ حين كبا به فرسه:
مولاي لا ننب للشقراء إن عثرت
ومن يلثمها لعمرى فهو ظالمها
قد هالها ما اعتراها من مهايبكم
من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مذركوا
تكبو الجياد ولم تثب عزائمها
وفي النبي رسول الله أسوتنا
أعلا النبيين مقداراً وخاتمها
كبا به فرس أبقى بسقطته
في جنبه خدشة تبدو مراسمها
حتى صلى صلاة جالسا ثبتت
لنا بها سنة لأحت معالمها
صلى عليه الإله دائماً أبداً
أزكى صلاة تحييها نواسمها

محمد البطوي

(ابو عبد الله)

— قال صاحب الترجمة هذه القصيدة بين يدي
السلطان أبي حمو الثاني في سنة 763هـ/1361م؛
بمناسبة ذكرى المولد النبوي المبارك خلال حفل
عقد ببلاط الدولة الزيانية بتلمسان. ووردت هذه
القصيدة في كتاب زهر البستان؛ الذي أشار مؤلفه
إلى صاحب هذه القصيدة بقوله: ((والطالب الأليب أبي
عبد الله محمد البطوي عفا الله عنه))¹:

لك يا ربيع قدوم أشرف مولد

تزهوا مطالعه بسعد الأسعد

لك يا ربيع على الشهور مزينة

عرفت بميلاد الرسول محمد

يا شهر جئت لنا بأكرم مرسل

للعالمين هدى وأفضل مرشد

من خصّ قديماً بالشفاعة والووى

واختصّ بالحوض الشريف المورد

¹ ورقة: 64 ظ.

بظهوره الأصنام والأوثان قد
سجدت إلى الصمد العلي الأوحـد
والنهر جف ولم يسـل والنار قد
خمدت وكانت قبله لم تخمد
وقصور قيصر هدمت شرفاتها
من بعد تأسيس وحسن تشيد
وارتج إيوان لكسرى عندما
ظهرت براهين ليوم المولد
فبينه فزنا بأفضل ملة
تهدي لنهـج الحق كل موحد
وهدى إلى سبـل الهداية بعدما
كنا بجهل في ضلال الأربـد¹
فالشرك أضى وهو في ضيق به
والدين في صعد ببعثة أحمد
كم آية ظهرت له ودلائل
جاءت بصدق هداية للمهتدى
منها انشقاق البدر والجذع الذي
أبدى لفرقة حنين توجد

¹ يقولون: عام أربد: أي مقحط. والربداء: المنكرة.

وسلام أشجار إليه قد أقبلت
وكلام أحجار بغير تردد
والذئب أفصح ناطقاً بسلامه
أدى الشهادة حين قال له اشهد
وشكى البعير له بضرٍ ومشقة¹
من معتد فأزال ضرَّ المعتدي
وغزالة نادت محمّداً إنَّ لي
خشفاً أرضعه وخفت تصيدي
فأجازها من صائد قد صادها
وأنا لها الأمن² السني المقصد
وله نراع الشاة أخبر بالذي
[دس له من أبشع السم الردي]³
وبكفّه لله سبحت الحصى
بتواضع كالعابد المتجهّد⁴

¹ الكلمة في الأصل بزهر البستان رسمت هكذا: ((مثقة)). ووضح أنها محرفة؛ فعوضناها بالكلمة الواردة بين حاصرتين. ويشير الشاعر هنا إلى جمل لأحد الأنصار؛ شكاً إلى رسول الله ظلم صاحبه؛ الذي يجبعه ويواصل العمل عليه دون انقطاع. وأورد هذه الرواية مسلم في صحيحه.

² في الأصل بزهر البستان: ((بالأمن))؛ فحذفنا حرف ((الباء))؛ لتصويب الوزن.

³ جاء الشطر في الأصل هكذا: ((قد أودعنه عداه من سم رد)). ووضح أنه نسخ بشكل رديء؛ لذا فقد عوضناه بآخر وضع بين حاصرتين.

⁴ في الأصل: ((المجتهد))؛ وهذا تحريف يخل بالوزن.

والضرع¹ درّ له ومن بركاته
جاعت أنامله بأغرب مورد
وأزال عن عيني علي ثقله
رمداً فلم يشكوا بجفن أرمد
وكذاك² عين قتادة قد ردها
بعد الذهب كأنها لم تفقد
وحذيفة أعطاه عود أراكه
في كفه سيفاً لحرب الملحد
ولكم له من معجزات أعجزت
بدلائل من قبله لم تعهد
نعم الرسول له الهداية في الدنا
للمهتدي وله الشفاعة في غد
لله مولده السعيد وحسنه
أكرم به من موسم متردد³
فليهنّ مولانا بليلة مولد
طلعت بطلعها نجوم الأسعد
أسنى الملوك أجلها المولى أبو
حمو المؤيد ذو العلى والسؤدد

¹ في الأصل بزهر البستان: ((والدرع))؛ وهو تحريف.

² في الأصل: ((وكذلك))؛ وهو تحريف يخل بالوزن.

³ لم يوفق الشاعر بكلمة (متردد)؛ وأفضل منها كلمة ((متجدد)).

غيث [جرى عبر السنين]¹ ليث الردى
للمعتدي بحر الندى نور الغد
يكفي العدى في الحرب هيبة بأسه
[ویراعه في السلم زاد المرشد]²
وإذا بدا بين الملوك بحاله
مولاهم وهم له كالأعبد
منصور رايات ويوم خلاده
يحيى بقائم سيفه المتجود
من رام أن يبعث³ عناد مليكننا
تبت يده وماله من مسعد
هذا هو الزابي الذي نطقت به
الحدثان يقهر كل باغ معتد
مفني العدى قسراً مبيد قصورهم
قهرأ فمنصور اللواء [المايد]⁴

¹ هذه العبارة الواردة بين حاصرتين؛ وضعناها عوض عبارة أخرى؛ تعذر فك كلماتها، وفهم معناها. وقد رسمت في زهر البستان هكذا: ((الجرى للمجتزي)).
² رسم هذا الشطر في الأصل هذا: ((عرض ططي وسل فهند)). وهذا الكلام غير مفهوم. وعليه؛ فقد عوضناه بشطر آخر وضع بين حاصرتين؛ لتمكين القارئ من متابعة القصيدة.
³ في الأصل: ((يبغي))؛ بالياء؛ وهو خطأ نحوي؛ ويخل بالوزن.
⁴ كتبت الكلمة هنا هكذا: ((ماند))؛ وهو مغل بالوزن؛ فأضفنا الألف وللأم؛ للتصويب.

مولاي يا خير الملوك ومن سما
فوق السماك بمجده والفرقد
أما تلمسان فقد تاهت على
فاس بطالع سعدك المتجدد
لا زلت من ملك وعبد الواد في
عز بدولتكم ورفعة سؤدد
وولي عهدك عابد الرحمان من
تأييد أمرك في نعيم سرمد
وتقر عينك فيه من ولد كما
تعطى المراد بفضل يوم المولد
ثم الصلاة على النبي المصطفى
خير الأنام الهاشمي محمد
وعلى المقام المولوي المرتضى
أزكى تحيات تروح وتغدي

- وله أيضاً هذه القصيدة؛ التي أوردتها صاحب
كتاب زهر البستان؛ دون ذكر التاريخ والمناسبة التي
ألقيت فيها:

أمولاي نصر الله جاعك والفتح
لأنك فيك الجود للخلق والنصح
هنيئاً بتأييد وملك مؤيد
وفتح مبين لا يقاس به فتح
وأنت بحمد الله في كل حالة
[مؤيد]¹ رايات وفي رأيك النجاح
لواؤك منصور وأنت مؤيد
وسيفك ماض في عدائك والرمح
أيا من له بين الملوك فضائل
يُقصِّرُ عن إثبات أوصافها الشرح
لك الملك يا مولاي إرثاً ومكسباً
لك الحسن والإحسان والحلم والصفح
فمن وجهك الأقمار يدركها السنا
ومن طيبك الأزهار طاب بها النفح

¹ في الأصل يزهر البستان: ((مايد))؛ وهذا مخل بالمعنى والوزن معاً؛ فاخترنا
كلمة: ((مؤيد))؛ للتصويب.

جلا بمحياء الخطوب عن الورى
 كما قد جلا الليل البهيم لنا الصبح
 له منظر أبهى من البدر إن بدى
 وكف إذا مح الغمام لها مح
 هو الملك المنصور موسى بن يوسف
 إمام الرضى [من دأبه]¹ الفضل والمنح
 هو الملك المذكور في الكتب وصفه
 سجيته العليا علامته السمع
 وحين بدا من جانب الزاب وانتضى
 مهند حزم في هجير له لفح
 أعاد لعبد الواد ملكاً مجدداً
 فخدمته فوز وطاعته ربح
 وشيد بنيان الخلافة عزمه
 ونظم عقد الملك واتصل الفتح
 قدم يا أمير المؤمنين لك الرضى
 هنيئاً بطول الدهر يهدي لك المدح

¹ كتب في الأصل بزهر البستان: ((من آدابه))؛ وهذا تحريف يخل بالوزن؛ فاخترنا عبارة: ((من دأبه))؛ وضعت بين حاصرتين؛ لكي يستقيم الوزن.

- وله هذه القصيدة أيضاً؛ التي قالها بمناسبة احتفال إقيم ببلاط أبي حمو الثاني بمناسبة انتصاره على بني مرين؛ خلال زحفهم لاسترداد تلمسان في عام 760هـ/1358م. وقد وردت في كتاب زهر البستان؛ ولم يذكرها صاحب بغية الرواد:

شمس الخلافة حلت منزل الحَمَلِ
فما تحيد عن العليا ولا تحل
وأنجم السعد من عليك مشرقة
نجم السرور بمرأها ولم تقل
مولاي طالع السعد من حين بدى¹
باليمن أقبل والإقبال والجدل
فالأمر طوعك إن تأمره موعدا
يقضي لأمرك ما نسيت من أمل²
نظمت للملك عقدا لا نثار له
مجيد عليك حال ليس بالعطل
كما أقمت من التقوى عماد تقي
شيدت بنيانه بالعدل والعمل

¹ هذا الشطر؛ مختل الوزن.

² ورد هذا الشطر في الأصل بزهر البستان هكذا: ((يقضي لأمرك ما قد نسيت من أمل)). وهذا يخل بالوزن؛ فحذفت كلمة: ((قد)).

تَبْنِي تَلْمَسَانِ لِمَا أَنْ حَالَتْ بِهَا
 مَوْلَايَ مُوسَى حُلُولَ الشَّمْسِ بِالْحَمَلِ
 قَدْ أَشْرَقَتْ بِسَائِكُمْ هِيَ سَافِرَةٌ¹
 عَنْ مَنْظَرِ بِيْهَاءِ الْحَسَنِ مُشْتَمِلِ
 وَقُلْتُ بُوْشَاحَ نَظْمِ جَوْهَرِهِ
 مَفْصَلًا بِحَلَائِكُمْ غَيْرِ مَفْصَلِ
 تَأْرَجَتْ مِنْكُمْ الْأَرْجَاءُ (و) قَدْ فَتَحَتْ²
 أَكْمَامَ أَزْهَارِهَا أَجْرَى الْجَبَا الْهَطْلِ
 مِنْ كُلِّ زَاهِرَةٍ فِي الْحَسَنِ زَاهِيَةٍ
 مَفْتَرَةٌ عَنْ ثُغُورِ الْخَرْدِ الرِّتْلِ
 وَالْقَضْبُ تَرْقِصُ مِنْ مَرِّ النَّسِيمِ بِهَا³
 وَالْأَرْضُ تَضْرَعُ فِي أَفْنَائِهَا الْمَيْلِ
 وَالنَّهْرُ يَنْسَابُ كَالسَّيْفِ [الصَّقِيلِ]⁴ يَرَى
 مَعَ الضَّحَى وَيَرَى كَالزَّرْعِ فِي الْأَصِيلِ

¹ هذا الشطر غير واضح في الأصل بزهر البستان. ويمكن قراءته كما هو ظاهر أعلاه.

² لكي يستقيم الوزن أسقطنا الواو قبل ((قد))؛ فأضحى الشطر هكذا: ((تأرجت منكم الأرجاء قد فتحت)).

³ حرف هذا الشطر؛ فكتب هكذا: ((والقضب ترقص من مر النسيم بها)).
 فاخترنا ما جاء أعلاه.

⁴ حرفت هذه الكلمة في الأصل بزهر البستان؛ فكتبت بالسين المهملة: ((سقييل)). والسيف الصقييل (بالصاد) هو المصقول - الحاد الأملس.

أما تلمسان راقّت منظرا فرقت
على البلاد وقد قرّت سنا المقل
لَمْ لا وملك بني زيان عاد لها
عيدا فعادت إلى أيامها الأول
بشراكم أهلها إذ حل ساحتها
ملك حماها سيعد منه مقبّل
لكم بني عابد الواد الفخار به
فإن دولته من أشرف الدول
هذا الإمام أبو حموا أعاد لهم
ملكا جديدا وعزا غير منفصل
فتى إذا هاجت الهيجاء يصول بها
عن الأعادي بحد البيض والأسل
تكفي محاربه في الحرب هيئته
عن صارم سل فيها والقتا الذبل
قد بايعته جميع العرب قاطبة
من كل ندب همّام فارس بطل
جاعت بنو عامر طوعا لبيعته
وقد جرى ذكره في السهل والجبل
فإنه الملك الزلابي الذي ذكرت
في الكتب أخباره قدما ولم تزل

مولا الأئمة أسناهم وأرفعهم

1.....

إن الملوك نجوم وهو بدرهم
أربى عليهم بحسن فيه مكتمل
قد أظهر الله سر الملك فيه وقد
أعطاه نيل بلوغ القصد والأمل
بشراك بالملك مولانا فرايته
بالنصر قد نُشِرَتْ والفتح عن عجل
سللت للمجد سيفاً صارماً فيه
تدّمي قلوب العدى والرهن² والوصل
ذلت لسلطانه الأملاك إذ خضعت
لعزكم وعراها روعة الرجل
بك الخلافة يا مولاي قد سعدت
ونزهت عن جميع النقص والخلل
أكرم بنجل أبي يعقوب من ملك
حاز المكارم عن أسلافه الأول
يعطيك ما شئته من غير مسألة
كأن كفيه صوّب الوايل المهطل

¹ هذا الشطر غير مفهوم بالكامل بزهر البستان.

² هكذا. ولعلها: ((والرهب)).

فأقصد حماه وبادر نحو ساحتَه
تجده بحرا وليس البحر كالوشل¹
فما يخيب راج من مكارمه
تلقاه مبتسما بالبشر والجدل
مولاي منك على نظمي القبول وان
قصر في المدح فالنقصير من قبل
ما زان شعري إلا مدحك فغدى
كالدريز به جيد المهي العطل
لكن رجوت الهي أن أنال بكم
عزا يبلغ نفسي غاية الأمل
لا زلت شمس ضحي فينا وظل ضحي
ترجي وورد ظما بالمال² والنهل
قدم بملك سعيد غير منفصل
وأهنا بسعد جدير غير منتقل

¹ الوشل: الماء القليل.
² هكذا.

محمد بن أبي جمعة

(ابن علي)¹ التلاسي التلمساني (ابو عبد الله)

سمي هكذا - بدون "ابن علي" في كل المصادر. غير أن صاحب نفح الطيب أشار إلى طبيب جراح؛ أيام الحصار الكبير لتلمسان؛ سماه أبا جمعة بن علي التلاسي. ويفهم من سياق الحديث؛ أنه جد صاحب الترجمة؛ والله أعلم. وجاء في قول المقرئ: ((كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق؛ فيمن كان فيه من أهل تلمسان؛ أيام محاصرته لها؛ فرأى أبو جمعة بن علي التلاسي الجرائحي² منهم؛ كأنه قائم على سانية دائرة؛ وجميع قواديسها يصب في نقيز في وسطها؛ فجاء ليشرب؛ فلما اغترف الماء؛ إذا فيه فرث ودم؛ فأرسله، ثم اغترف؛ فإذا هو كذلك؛ ثلاثاً أو أكثر؛ فعدل عنه؛ فرأى خصه³، وشرب

¹ هكذا سماه صاحب زهر البستان؛ ورقة: 33 و.

² أي طبيب جراح.

³ أي حوض ماء.

منها. ثم استيقظ؛ وهو النهار؛ فأخبره¹؛ فقال: إن صدقت رؤياك؛ فنحن عمّا قليل خارجون...)).

جمع صاحب هذه الترجمة؛ بين مهنة الطب، وقرض الشعر. إذ له أشعار في غاية الروعة والجمال. وكان طبيباً خاصاً بالسلطان أبي حمو موسى الثاني؛ وشاركه - بقصائده - في إحياء معظم الاحتفالات التي أقيمت في البلاط الزياني؛ احتفاء بالمولد النبوي الشريف. لم تشر المصادر إلى ما يفيد كثيراً عن حياة محمد بن أبي جمعة التلاسي؛ غير أن أشعاره منشورة في كثير منها. كما بقي التلاسي على ما طبع عليه؛ من مباشرة مهنة الطب، والمشاركة بالشعر؛ في المناسبات الدينية ببلاط تلمسان. ولا يعرف التاريخ الذي توفي فيه بالتدقيق؛ وكل ما يمكن قوله؛ أنه كان عائشاً بين سنتي: 760هـ/1359م و 767هـ/1366م.

¹ أي أخبر محمد بن محمد الغزموني؛ الذي يحسن تعبير الرؤيا.

شعره

- هذه القصيدة؛ قالها التلاسي في سنة 761هـ/1359م؛ بمناسبة إحياء ذكرى الميلاد النبوي الكريم؛ وذلك في بلاط السلطان أبي حمو بتلمسان.

أَصْبَحَ رَأْسِي مِنَ الشَّوَائِبِ وَهُوَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ شَائِبٌ
يَا لَهْفِ نَفْسِي عَلَى زَمَانٍ كُنْتُ لثَوْبِ الشَّبَابِ سَاحِبٌ
أَرُقُلُ فِي حُلَّةِ التَّصَابِي بَيْنَ حَبِيبٍ وَبَيْنَ صَاحِبِ
حَتَّى بَدَا الشَّيْبُ فِي قَدَالِي¹ بَادَرْتُهُ بِالسَّوَادِ خَاضِبٌ
أُسْتُرُهُ كُلَّ حِينٍ حَتَّى² عَمَّ مِنَ الرَّأْسِ كُلِّ جَانِبِ
وَأَقْبَلْتُ مِنْهُ لِي جِيُوشٌ سِيَاهُهَا لِلصَّبَا³ صَوَائِبِ
فَصَالَ شَيْبِي عَلَى شَبَابِي صَوَّلَةَ ذِي نَجْدَةٍ مُحَارِبِ
وَسَلَّ فِي الْعَارِضَيْنِ سَيْفًا أَضْحَى بِهِ لِلشَّبَابِ ضَارِبِ
مَا زَالَ يَسْطُو عَلَيْهِ حَتَّى ظَلَّ لِمَا قَدْ ذَهَاهُ هَارِبِ
وَقَدْ مَضَى مَعَهُدُ التَّصَابِي وَأَقْبَلَ الشَّيْبُ فِي كَتَائِبِ
وَأَحْدَوْدَبَ الظُّهْرُ وَاعْتَرَانِي مَا ذَادَ عَنِ وَصْلِي الْكَوَاعِبِ⁴

¹ القَدَالُ جمعه قَدْلٌ وأَفْذَلَةٌ: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

² يبدو أن كلمة مثل: ((في)) سقطت هنا؛ فاختل الوزن. ويمكن أن يكون الشطر هكذا: ((أُسْتُرُهُ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى))

³ الصَّبَا هنا: الصَّغَر.

⁴ ذَادَ نُوذًا: دفع وطرده. كَوَاعِب مفردا كاعب: الجواري.

وَمَلَّنِي الصَّاحِبُ الْمُصَافِي هَذَا وَنَفْسِي لِكُلِّ شَيْءٍ
مِنْ قُبْحِ قَوْلٍ وَسُوءِ فِعْلٍ فَقُلْتُ يَا نَفْسِي لَيْسَ إِلَّا
وَلْتَسْتَعِذِّي لِهَوْلِ يَوْمٍ يَوْمًا يَكُونُ الْإِلَهُ فِيهِ
يَا نَفْسُ بَادِرِ دَعِ التَّانِي ارْجِعْ لِمَوْلَاكَ بَانِكْسَارٍ
وَقُلْ أَيَا مَالِكِي وَيَا مَنْ يَا رَبِّ إِنِّي أَسَأْتُ جَهْلًا
يَا غَافِرِ الذَّنْبِ وَالْخَطَايَا يَا رَبِّ يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ
إِنِّي تَوَسَّلْتُ يَا إِلَهِي وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ طُورًا²
الْهَاشِمِيِّ الَّذِي بِهِ قَدْ لُخْبِرَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ
قَامَ بَدِينِ الْإِلَهِ حَتَّى دَعَا إِلَى الرُّشْدِ وَالْهُدَى مِنْ
وَالْعَرَسُ وَالْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ مِمَّا يُشِيقُ الْفَتَى تَرَاقِبُ
وَتَرَكْ حَقَّ عَلَيَّ وَاجِبُ أَنْ تَنْظُرِي الْآنَ فِي الْعَوَاقِبِ
تَشِيبُ مِنْ بَعْضِهِ الدَّوَائِبُ عَلَى جَمِيعِ الْعُصَاةِ غَاضِبُ
فَعَيْشُكَ عَنْ قَرِيبِ ذَاهِبُ وَلْتُرْسَلِ الْأَذْمُعُ السَّوَاقِبُ
إِلَيْهِ كُلُّ الْأَنَامِ آئِبُ¹ يَا رَبِّ إِنِّي أَتَيْتُ تَائِبُ
حَاشَاكَ أَنِّي أُرَدُّ خَائِبُ يَا رَبِّ سَامِحُ وَلَا تُعَاقِبُ
بِسَيِّدِ الْعُجَمِ وَالْأَعَارِبِ وَخَيْرِ مَاشٍ وَخَيْرِ رَاكِبُ
سَمَاقُصِي وَسَادِ غَالِبُ وَقَالَ كَاهِنٌ وَرَاهِبُ
أَبْطَلَ مَا قَالَهُ الْكَوَازِبُ أُمِّهِ شَاهِدٌ وَغَائِبُ

¹ آئِب : راجع وتائب.
² طرأ: أي جميعاً.

أَتَى رَبِّيَعٌ بِهِ بَشِيرًا كُلُّ رَبِّيَعٍ لِلْخَيْرِ جَالِبٌ
سَرَى إِلَى عَرْشِ ذِي الْمَعَالِي وَاللَّيْلُ مُحْلُولُكَ الْغِيَاهِبِ
فَكَانَ فِي الْقُرْبِ وَالْتَدَانِي كَقَابِ قَوْسَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ¹
شَرَفُهُ وَارْتَضَاهُ مَوْلَى أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَاجِبِ
وَمُعْجَزَاتُ النَّبِيِّ مِنْهَا مَا صَحَّ فِي سَائِرِ الْمَذَاهِبِ
نُطِقَ حَصَى وَأَنْشِقَاقُ بَنَرٍ وَغَيْرُ هَذَا مِنَ الْعَجَائِبِ
يَقْصُرُ عَنْ حَصْرِهَا يَقِينًا كُلُّ لَبِيبٍ وَكُلُّ حَاسِبِ
أَمْدَاحُهُ جَنَّتِي وَذُخْرِي وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَكَاسِبِ
يَا لَيْتَنِي زَائِرٌ إِلَيْهِ أَطْوِي لَهُ الْبِيدَ وَالسَّبَاسِبِ
أَعْفُرُ الْخَدَّ فِي ثَرَاهُ وَأَرْسِلُ الْأَدْمُعَ الْأَسَاكِبِ
وَأَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ عَوْنٍ لِلْمَلِكِ الْمُعْتَلِي الْمَنَاصِبِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ مُذْ² كَانَ طِفْلًا ذَا هِمَّةٍ تُذَرِّكُ الْكَوَاكِبِ
كَرَّاتٍ عَيْنِيهِ فِي الْأَعَادِي تُغْنِي عَنِ السُّمْرِ وَالْقَوَاضِبِ
إِنْ بَاشَرَ الْحَرْبَ فِي قِتَالٍ هَبِيتُهُ تَهُمُّ الْمَوَاكِبِ
وَجَيْشُهُ لَا يَمُرُّ إِلَّا كَانَ عَلَى الْمَارِقِينَ غَالِبِ
بِلَادُهُ قَدْ حَمَى جَمَاهَا فَلَا عَدُوٌّ لَهَا يُقَارِبِ
كُنَّا سَمِعْنَا بِهِ وَكَانَتْ ابْنَارُنَا نَحْوَهُ تُرَاقِبِ

¹ إشارة إلى قوله تعالى: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى». سورة النجم؛ الآية: 9.

² في الأصل: ((منذ))؛ وهو تحريف يؤدي إلى خلل في الوزن؛ لذا فقد حذفنا النون؛ للتصويب.

فَجَاءَ وَالسَّعْدُ فِي صُعُودِ وَالْغَيْرُ تَحْتَ الشَّفَاعِ غَائِبِ
وَالْمُشْتَرِي¹ مُشْرِقٌ مُنِيرٌ وَرَحَلُ² سَاقِطٌ وَغَارِبِ
عَادَ بِهِ الْمُلْكُ فِي قَرَارِ وَأَبْتَرَهُ مِنْ يَدِ الْغَوَاصِبِ
لَهُ تَدِينُ الْبُلَادُ طُرّاً فَلَا مَنَاصَ وَلَا مُنَاصِبِ
وَالْغَرْبُ لَوْ أَمَّهُ لِأَضْحَى فِيمَنْ بِهِ تَنْدُبُ النَّوَاصِبِ
لَكِنَّهُ عَفَا عَنْهُ حِلْماً إِذْ كُلُّ مَنْ فِيهِ عَنْهُ نَائِبِ
مُعْتَدِلُ الْحُكْمِ فِي الْقَضَايَا لَيْسَ يَحَاشِي وَلَا يُجَانِبِ
طَوْدٌ وَقَارٌ وَبَحْرٌ عِلْمٌ صَعْبُ الذُّرَى صَافِحُ الْجَوَانِبِ
مَنْ يَرَوْ عَنْهُ الْحَدِيثَ يَقْطَعُ كُلَّ بَلِيغٍ وَكُلَّ طَالِبِ
وَحَوْلَهُ مِنْ بَنِيهِ جَمْعٌ شَوَاهِنُ³ صَيِّدِ صَوَائِبِ
دَلَائِلُ الْمُلْكِ قَدْ تَبَدَّتْ فِيهِ رَأَاهَا أَوْلُو التَّجَارِبِ
مِنْهُمْ أَبُو تَاشَفِينَ شَهْمٌ لِلضَّرْبِ وَالطَّعْنِ غَيْرِ هَائِبِ
فِي الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ لَا يُيَارِي وَالْمَالُ لِلْمُجْتَهِينِ⁴ وَاهِبِ

¹ هو أضخم كواكب المجموعة الشمسية. سمي بالمشتري لأنه يستشري في سيره؛ أي يمضي ويجد في سيره بلا فتور ولا انكسار. وهو ثالث الأجرام تألقاً في الليل؛ بعد القمر، والزهرة. وسماه الرومان جوبيتر.
² اشتق اسمه من الجذر "رَحَلَ" أي تَخَى وتباعد. وربما سمي هكذا؛ بسبب بعده في السماء؛ إذ يعتبر سادس كوكب يبعد عن الشمس. وسماه الرومان: ((ساتورن)).

³ شواهين وشياهين: مفردهما شاهين: طائر من فصيلة الصقور؛ له جناحان طويلان.

⁴ جدًا؛ جدواً عليه: أعطاه الجدوى. اجتداه: أعطاه الجدوى. الجدوى: العطية.

وَكُلُّهُمْ ضَيِّغَمٌ¹ مُهَابٌ يَا وَيْحَهُ مَنْ لَهُمْ يُحَارِبُ
كَأَنَّهُمْ وَالْإِمَامُ مُوسَى بَذَرُ دُجَى حَوْلَهُ كَوَاكِبُ
وَأَفَى تِلْمَسَانِ وَهِيَ مَحَلٌ² فَجَادَهَا صَيِّبُ السَّحَائِبِ
فَهِيَ بِهِ الْآنَ ذَاتُ حُسْنٍ مَنظَرُ مَا لِلْعُقُولِ سَالِبُ
عَادَتْ بِهِ جَنَّةٌ وَصَارَتْ فِي الْغَرْبِ تَحْدُو لَهَا الرِّكَائِبُ
طَابَ لَعْمَرِي الْهَوَاءُ فِيهَا لَمَنْ فِي طَوْلٍ³ الْإِمَامُ رَاغِبُ
شَيْدٌ بُنْيَانُهَا فَأَضْحَتْ تَلَحُّقُ بِالْأَنْجُمِ الثَّوَاقِبُ
لَا زَالَ يَسْمُو وَفِي يَدَيْهِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَالْمَغَارِبُ

- وله أيضاً هذه القصيدة التي قالها خلال حفل
بمناسبة المولد النبوي في بلاط أبي حمو الثاني سنة
760هـ/1358م:

أشهر ربيع أنت ربيع قلبي
لقد كان الفؤاد إليك حاد
أتيت بسيد الثقلين طراً
وخير الخلق من أتٍ وغاد

¹ الضيغم: الأسد.

² المحل: الشدة والجذب والجوع الشديد وانقطاع المطر.

³ الطول: القدرة والفنى والفضل والعطاء.

نبي هاشمي أبطحي¹
 سرى لمليكه والليل هاد
 حباه الله بالسبع المثاني
 وفضّله على كل العباد
 محبّته لقد علقت بقلبي
 بها أرجوا نجاتي في المعاد
 عليه صلاة خالقنا تعالى
 إلى يوم ينادينا المناد
 صلاة دائماً تترى عليه
 وليس لها وحقك من نفاد
 عباد الله من عرب وعجم
 هلمّوا للصّلاح وللرشاد
 هلمّوا للإمام فبايعوه
 فإنّ الحق خير من [عناد]²

¹ لكلمة أبطحي معان عديدة؛ غير أن الشاعر يقصد بها هنا؛ نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بطحاء مكة. وقد أشار إليها شعراء كثيرون؛ مثل قول الزمخشري: ((إني إلى بطحاء مكة سائر))؛ وقول الفرزدق: ((هذا الذي تعرف البطحاء وطأته)). ومع هذا فصيقة ((الأبطحي)) التي استعملها التلاسي؛ ليست لائقة في هذا المقام؛ لأن لها معان أخرى سلبية.
² في الأصل بزهر البستان: ((خير من العناد))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصحيح بحذف الألف واللام في كلمة ((العناد)).

هو الزّابي الذي كنا سمعنا
تدين له الحوضر والبواد
هو المذكور في الحدثان يفني
لمن في الأرض من أهل الفساد
هو المولى أبو حمو وقدما
سواء الملك كان عليه باد
أتاه الملك عفواً دون حرب
وكان لغيره صعب القياد
تلمسان به حسنت وراقت
وصار لها الفخار على البلاد
إمام عادل شههم جواد
فهيا للصلاح وللساد
لطاغته دعانا فاستجبنا
رعاه الله من ملك وهاد
فمن يأتي لبيعته مطيعا
وإلا فالحسام عليه عاد
يلين على الضعيف إذا رآه
ويسطوا بالفراغة الشداد
لقد منّ الإله به علينا
ونجانا به من كل عاد

له من عامر جمع تراهم
أسود في الحروب على الأعداء
حموه وآزروه وناصحوه
وهم أنصاره يوم الجلاء
إذا وعدوا وفوا وإذا ينادي
[بذكراهم]¹ بلغت إلى المراد
وإن سالمتهن نلت الأمانني
ووا أسفا لمن لهُمُ يعاد
وعبد الواد سادات كرام
بهم ما شئت من بطل جواد
وأقسمُ لئس في الدنيا جميعاً
سواهم للسروج وللجواد
فكم من كربة بهمُ تجلت
شدا بمدحهم في الناس شاد
بني زيان عاد الملك فيكم
بحول الله قهار العباد
فعيشوا ما دعا لله داع
بخيرٍ ما حدى بالركب حاد

¹ كتب في الأصل بزهر البستان: ((بنكرهم))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصويب.

أُنِيلُونَا مِنْ النُّعْمَا فَإِنَّا
 أَنَاسٌ شَانُنَا حَفْظُ الْوَدَادِ
 فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لَكُمْ عَلَيْنَا
 وَكَمْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ أَيَْادِ
 فَلَا زِلْزَالَ رَعِيَّتِكُمْ وَأَنْتُمْ
 أَتَمْتَنَا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ

- وهذه قصيدة رثاء؛ قالها التلاسي؛ في جنازة والد
 أبي حمو: "أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن":
 كَأْسُ الْحِمَامِ عَلَى الْأَنَامِ تَدُورُ مَا أَنْ لَهَا إِلَّا الْقَضَاءُ مُدِيرُ
 وَكَذَا اللَّيَالِي لَا وِفَاءَ لِعَهْدِهَا إِنَّ أَقْصَطَ يَوْمًا فَسُوفَ تَجُورُ
 كَمْ شَتَّتْ¹ مَنْ جَمَعَ شَمْلٌ لَمْ يَكُنْ يَخْشَى الشَّتَاتَ وَكُلَّ ذَا مَشْهُورُ
 إِنَّ أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدًا فَالْخَيْرُ مِنْهَا إِنَّ أَتَاكَ غُرُورُ
 فَجَعْتُ بِمَوْلَانَا الْأَمِيرِ وَخَلَّفْتُ فِي الدَّمْعِ آمَاقَ الْجُفُونِ تَغُورُ
 كُنَّا نُوَمِّلُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهُ لَكِنَّهُ ثَوْبُ الْحَيَاةِ قَصِيرُ
 رِزءٌ أَلَمَ فَمَالَهُ مَنْ دَافَعَ يُرَدُّ رِزءٌ سَاقَهُ الْمَقْدُورُ

¹ الأفضل للوزن - مع حفظ المعنى - لو كانت: ((كم انشت))؛ لأن انشت
 تعني: تفرق.

مَوْلَايَ يَوْسُفُ وَالَّذِ الْخُلَفَا الَّذِي
ضَجَّتْ لِمَصْرَعِهِ الْخَلَائِقُ ضَجَّةً
كَادَتْ تَزُولُ الرَّأْسِيَّاتُ لِفَقْدِهِ
قَبْلَ الْمَمَاتِ نَظُمْتُ فِيهِ مَدَائِحاً
وَالْآنَ أُرْتِيهِ وَأُبْكِيهِ بِمَا
يَا حَامِلِيهِ قَفُوا عَلَيْنَا وَقَفَّةً
رُكُّوا الَّذِي حَازَ الْمَكَارِمَ وَالْعُلَى
بَكَتِ الْأَرَامِلُ وَالْيَتَامَى بَعْدَهُ
لِقُدُومِهِ جَنَاتُ عَدْنٍ زُخْرِفَتْ
مَوْلَايَ يَا مُوسَى الَّذِي بِسُعُودِهِ
اصْبِرْ إِذَا جَاءَ الزَّمَانُ بِحَادِثٍ
هُوَ عَلَىكَ أَذَى الْخُطُوبِ فَإِنَّمَا
لَا تَأْخُذِ الزَّمَنَ الْمُسِيءَ بِفِعْلِهِ
إِنْ كَانَ صِرْفُ الدَّهْرِ فِيهِ مُذْنِباً
مَنْ أَنْتَ تَخْلُفُهُ فَحَيٌّ لَمْ يَمُتْ
وَفَيْتَ حَقَّ أُبَيْكَ بَعْدَ وَفَاتِهِ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لِيَامُهُ
هَنَّاكَ رَبُّ الْعَرْشِ مَا خُولَّتُهُ
مَا لِلزَّمَانِ فَضِيلَةٌ إِلَّا بِكُمْ
وَبَقِيَتْ لَا تَقْنَى وَلَا تَخْشَى رَدَى

مَنْعَاهُ خُطْبٌ فِي الْوُجُودِ كَبِيرٌ
كَادَتْ بِهَا مِثْلُ الْقُلُوبِ تَطِيرُ
وَالشَّمْسُ تُكْسَفُ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
يَقِفُ الْحَطِيبَةُ دُونَهَا وَجَرِيرُ
يَبْدُو وَالْخَنَسَاءُ فِيهِ قُصُورُ
تُشْفَى بِهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ صُدُورُ
بَحْرُ النَّدَى يَحْيَى بِهِ الْمَعْمُورُ
إِذْ مَا لَهُ بَيْنَ الْكَرَامِ نَظِيرُ
وَتَشَوَّقَتْ وَلَدَانُهَا وَالْخُورُ
قَهَرُ الطُّغَاةِ وَجَيْشُهُ مَوْقُورُ
إِنَّ النَّصْبَ سَعْيُهُ مَشْكُورُ
أَنْتَ الْأَمِيرُ وَدَهْرُكَ الْمَأْمُورُ
وَأَصْفَحَ فَإِنَّكَ بِالْأُمُورِ خَبِيرُ
فَبَقَاءُ مِثْلِكَ بَعْدَهُ تَكْفِيرُ
حَقّاً يَقِيناً أَيُّهَا النُّحْرِيرُ
إِنَّ الْقِيَامَ بِحَقِّهِ لَبَرُورُ
قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِوَاؤُهُ مَنْصُورُ
فِي الْمَغْرِبَيْنِ الْأَمْرُ وَالنَّامِيرُ
إِنَّ الزَّمَانَ إِلَيْكُمْ لَفَقِيرُ
وَجَمِيعُنَا بِبِقَائِكُمْ مَسْرُورُ

أَبْقَاكَ رَبُّ الْعَرْشِ فِينَا دَائِمًا تَحْمِي الْبِلَادَ وَسَعْدُكَ الْمَوْفُورُ
ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَنْ ذَكَرُهُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مُعَظَّمٌ مَشْهُورٌ

- وفي المولد النبوي الشريف؛ الذي حلَّ في عام
767هـ/1365م؛ شارك التلاسي في إحياء هذه الذكرى
المباركة بهذا الموشح:

لِي مَذْمَعٌ هَتَّانَ * يَنْهَلُ مِثْلَ الدُّرَرِ
قَدْ صَيَّرَ الْأَجْفَانَ * مَا إِنْ لَهَا مِنْ أَثَرِ

حَقٌّ لَهُ يَجْرِي * دَمًا عَلَى طُولِ الدَّوَامِ * مَذْجَدٌ فِي السَّيْرِ
نَاسٌ إِلَى خَيْرِ الْأَنَامِ * عَافَنِي وَزَرِي¹ * يَا صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَقَامِ

وَسَارَتِ الْأُطْعَانَ * يُحْدِي بِهَا فِي السَّحَرِ
فَاسْتَبْشَرَ الرُّكْبَانَ * بِقُرْبِ نَيْلِ الْوَطَرِ

يَا سَعْدَهُ مَنْ زَارَ * قَبْرَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى * مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ

¹ في أزهار الرياض: ((وعافني وزري)).

قُطِبَ الْمَعَالِي وَالْوَفَا * فِي مَذْهِ قَدْ حَارَ * الْخَلْقُ طُرّاً وَكَفَى

فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ * وَشَرْحِهِ وَالسَّيَرِ
فَضَّلَهُ الرَّحْمَانُ * عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ

يَا حَادِيَ الرَّكْبِ * بِاللهِ إِنَّ جَنَّتِ الْبَقِيعُ * تَحِيَّةَ الصَّبِّ
بَلِّغْ إِلَى الْهَادِي الشَّفِيعِ * غَرِيباً¹ بِالْغَرْبِ * عَنْ نَلِكِ الْمَغْنَى الرَّفِيعِ

وَلَيْسَ لِي إِمْكَانٌ * يُنْهَضُنِي لِلسَّقَرِ
إِلَّا مِنَ السُّلْطَانِ * الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ

مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو * إِلَى الْمَعَالِي كُلَّ حِينٍ * ذَاكَ أَبُو حَمُو
أَعْنَى² أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ * طَاعَتُهُ غَنَمٌ * نَلْنَا بِهَا³ ثُنْيَا وَكَيْنَ

أَظْهَرَ فِي الْبُلْدَانِ * مِنْ عَدْلِهِ الْمُشْتَهَرِ
وَعَمَّ بِالْإِحْسَانِ * لِلْبَدْوِ ثُمَّ الْحَضَرِ

¹ في أزهار الرياض: ((غَرِيبَتْ)).

² نفسه: ((المولى)).

³ في بغيه الرواد: ((به)).

قَابَلَهُ إِسْعَازٌ * تَكَلُّ عَنْهُ الْأَسِنَّةُ * قَبِيلُ عَبْدِ الْوَادِ
بِهِ غَدَتْ فِي سُلْطَنَةِ * أَيَّامُهُ أَعْيَادٌ * يَا لَيْتَهَا أَلْفَي سَنَةً

مُلْكُ بَنِي زَيْانٍ * بِالْمَشْرِفِيِّ الذَّكْرُ
لَحْيَاهُ إِذْ قَدْ كَانَ * لَيْسَ لَهُ مِنْ خَبَرٍ

تَاهَتْ يَلْمَسَانِ * بِمُلْكِهِ عَلَى الْبِلَادِ * صَارَ لَهُ شَانٌ
وَسَعْدُهُ فِي ازْدِيَادٍ¹ * قَدْ ضَلَّ إِنْسَانٌ * قَالَ بِهَا يَشْكُو السُّهَادُ

لَيْلُ الْهَوَى يَقْطَانُ * وَالْحُبُّ يَرْبُو² السَّهَرُ
وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانٌ * وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي بَرِيءٌ

— قال التلاسي هذا الموشح؛ في سنة 762هـ/1360م؛

كالعادة بمناسبة إحياء المولد النبوي الشريف:

يَا وَيْحَ صَبِّحْ بَانَ عَنْهُ الشَّبَابُ * وَأَوْدَعَ * لَهَيْبَ وَجْدٍ عِنَّمَا وَدَّعُوا
أَوْدَى بِهِ الْوَجْدُ وَفَرَطَ الْجَوَى
وَهَذَا مِنْهُ الشُّبُّبُ كُلُّ الْقَوَى

¹ في أزهار الرياض: ((وسعدها حلف ازدياد)).
² نفسه: ((يرب)).

وَلَا لَهَ مِمَّا اعْتَرَاهُ دَوَا
 مَنْ فَقَدَ الْخِلَانَ مِثْلِي وَشَابَ * مَا يَنْفَعُ * إِلَّا لِيَالِي الْوَصْلِ لَوْ يَرْجِعُ
 آهِ لَأَيَّامِ الصَّبَا لَوْ تَعُودُ
 كَأَنَّ بِهَا قَدْ لَاحَ بَذَرُ السُّغُودِ
 تَرَى بِهَارِ رَبِّ الزَّمَانِ يَقُودُ
 لَهْفِي عَلَيْهَا مَا لَهَا مِنْ إِيَابَ * فَالْأَمْنَعُ * تَنْهَلُ وَالْأَجْفَانُ لَا تَهْجَعُ
 ذِكْرِي لِأَيَّامِ الصَّبَا لَا يُفِيدُ
 فَمَذُخُ مَوْلَاتَا الْإِمَامِ السَّعِيدِ
 أَوْلَى وَأُخْرَى فَهَوَّ بَيْتُ الْقَصِيدِ
 لَهُ مُلُوكُ الْأَرْضِ طُرًّا تَهَابَ * وَتَخَضَّعَ * مِنْ مِثْلِهِ حَقٌّ لَهَا تَجَزَّعُ
 إِنَّ ذِكْرَ الْأَجْوَادِ فَهَوَّ الْغَمَامِ
 أَوْ غَدَدَ الْأَبْطَالِ فَهَوَّ الْهَمَامِ
 أَوْ سَأَلُونِي قُلْتُ مُوسَى الْإِمَامِ
 الْمَاجِدُ الْأَسْمَى الْمَتِيعُ الْجَنَابَ * الْأَمْنَعُ * عَنْ مُلْكِهِ الثَّابِتِ لَا يُدْفَعُ
 أَهْلُ تِلْمِيسَانَ بِهِ آمِنِينَ
 أَكَلْ وَشَرِبْ وَقَرَارَ مَعِينِ
 قَالَ بِهَا شَخْصٌ مِنَ التَّلَابِينِ
 لَأَشْ يَضِيدُونِي وَيَقُولُ لِي تَابَ * إِنْ يَطْمَعُ * أُنَى كُنْتُ رَكَّ عَشْقِي أَوْ نَقَطُ

— فمما قاله سنة 760هـ/1358م؛ في حفل بالمشور؛
 حضره السلطان أبو حمو موسى الثاني؛ إحياء
 لذكرى الميلاد النبوي الشريف:

تَرَى هَلْ يُرَدُّ الصَّبَا بِالْوَسَائِلِ فَدَمَعِي مُذْ بَانَ هَامٍ وَسَائِلُ
 وَهَلْ لَزِمَانَ مَضَى رَجْعَةً كَعَهْدِي بِهِ أَتَرَى الدَّهْرُ فَاعِلُ
 بَدَا الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِي قَادِمًا فَقَالَ السُّلُو أَنَا عَنْكَ رَاحِلُ
 فَهَذَا أَنَا أَبْكِي لِفَقْدِ الشَّبَابِ وَعَصْرِ التَّصَابِي بُكَاءِ الثَّوَاكِلِ
 وَلَيْسَ الْبُكَاءُ عَلَى فَقْدِهِ وَلَكِنْ لِتَضْيِيعِ عُمْرِي بَاطِلُ
 مَضَى ضَائِعًا فِي عَسَى وَلَعَلَّ وَحَتَّى وَسَوْفَ اعْتِذَارِ الْمُمَاطِلِ
 أَطَاوَعُ نَفْسِي فِي غِيْهَا وَأَمْسِي عَنِ الرُّشْدِ لَاهٍ وَغَافِلُ
 فَيَا وَيْحَ نَفْسِي كَمْ ذَا تُرَى تُطِيعُ الْغَوَاةَ وَتَعْصِي الْعَوَادِلُ
 وَكَمْ ذَا اغْتَرَارُ بِطُولِ الْبَقَا وَلَمْ يَتَّبَقْ مِنَ الْعُمْرِ طَائِلُ
 فَمَنْ مُنْصِفِي أَوْ لِمَنْ أَشْتَكِي وَدَهْرِي غَدَا لِي حَرْبًا مُقَاتِلُ
 وَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ وَهَلْ مِنْ شِفَاءٍ وَلَسْتُ لِشَيْءٍ مِنَ النَّصَحِ قَابِلُ
 شَكَوْتُ إِلَيْكَ إِلَهِي عَسَى تَمْنُ وَتَسْمَحُ بِالتَّوْبِ عَاجِلُ
 وَتَصْفَحُ عَن زَلَّتِي إِنَّنِي أَتَيْتُ ذَائِلًا بِأَبَاكَ سَائِلُ
 فَمَا لِي سِوَاكَ وَأَنْتَ الْإِلَهُ الَّذِي لَا تَخِيبُ لَدَيْهِ الْوَسَائِلُ
 تَوَسَّلْتُ بِالْهَاشِمِيِّ الَّذِي بَعَثْتَ رَسُولًا فَادَى الرِّسَائِلُ
 نَبِيُّ الْهُدَى خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ شَفِيعُ الْعَصَاةِ وَزَيْنُ الْمَحَافِلُ
 عَظِيمُ الْجَلَالِ كَثِيرُ النَّوَالِ كَرِيمُ الْفِعَالِ وَبِالْحَقِّ قَائِلُ

أَتَانَا رَبِيعٌ بِشِيرَا بِهِ فَحَقَّ رَبِيعٌ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ
فَحَيَّيْتُ يَا شَهْرَ مَنْ قَادِمٍ سُرُورِ قُدُومِكَ لِلْخَلْقِ شَامِلٍ
أَتَيْتَ بِمَنْ جَاءَنَا بِالْهُدَى وَبِالْمُعْجَزَاتِ أَتَى وَالذَّلَائِلُ
لَهُ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي لَيْسَ تُحْصَى وَمَنْ قَالَ تُحْصَى فَدَعَا بَاطِلُ
تَخْيِرَهُ اللَّهُ مِنْ أُمَّةٍ تَخَيَّرَهَا مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ
فِيَا حَادِيَ الرِّكَبِ إِنْ جِئْتَ أَرْضاً بِهَا سَيِّدُ الْخَلْقِ ثَاوٍ وَنَازِلُ
وَأَبْصَرْتَ نَجْداً وَعَايَنْتَ سِلْعاً¹ وَتِلْكَ الْمَغَانِي بِهَا وَالْخَمَائِلُ
فَقِفْ عِنْدَ بَابِ السَّلَامِ² تَرَى ضَرْيَحَ نَبِيِّ الْهُدَى دُونَ حَائِلٍ
فَبَلِّغْ سَلَامِي وَبُخِّ ثُمَّ بِاسْمِي وَلَا يَشْغَلْنِكَ عَنْ ذَلِكَ شَاغِلُ
لَعَلِّي أَكُونُ لَهُ زَائِراً بَعَامِي هَذَا أَوْ الْعَامِ قَابِلُ
أَعْقُرُ خَدِّي فِي يَثْرِبَ وَأَذْرِي هُنَاكَ الدُّمُوعَ الْهَوَامِلُ
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ نَدِمْتُ لَهُ وَعَاضْتُ الْأَنَامِلُ
وَأَدْعُو بِنَصْرِ إِمَامِ الْهُدَى حِمَى الْمُسْتَجِيرِ وَقُطْبِ الْفَضَائِلُ
مُبِيدِ الطُّغَاةِ وَمُفْنِي الْعُدَاةِ وَكَنَزِ الْعَفَاةِ وَالْأَرَامِلُ
فَذَلِكَ مُوسَى الْإِمَامُ الَّذِي مَحَا عَنْ رِعِيَّتِهِ كُلَّ بَاطِلٍ
تَحَلَّى بِهِ الْمَلِكُ نُرّاً نَفِيساً وَمَا زَالَ مُذْ كَانَ لِلْخَيْرِ فَاعِلُ
أَنَافٍ وَأَرْبَى عَلَى مَنْ سِوَاهُ فَمَا فِي الْمُلُوكِ لَهُ مِنْ مُمَائِلُ

¹ نجد: هي الهضبة الممتدة شمال شرق المدينة المنورة؛ وهي بعيدة عنها. أما سلع: فهو جبل بالمدينة.

² باب السلام: أحد الأبواب الأمامية للمسجد النبوي بالمدينة المنورة؛ وهو يؤدي مباشرة للروضة الشريفة، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإنَّ الكرامَ إذا جمعُوا فكانوا حيًّا كان جدواه وإبلٌ
وفي طبعه من بديع الصفاتِ عَفَافٌ وحِلْمٌ وبَأْسٌ ونَائِلٌ
وسُبْحانَ لو رآه لاثني يعيره بالفهاهة¹ باقل²
فوقى الخلافةَ أشرطها وعدلٌ من أمرها كلُّ مائلٌ
فبُشراه بالنصرِ والفتحِ حتَّى تدين البلادُ له والقبائلُ
حلَّلت من الملكِ أسنى محلٍّ رحمتُ يتيماً وأغنيت عائلُ
وجئت تليمانَ والمُشتري تَبَدَّى وكيوانٌ بالغربِ أفل³
قد افتخرت حين ملكتها وحصنتها بالقنى والقنابل⁴
دع المعتدين فما ظفرت يداهم بما قد حوته بطائلُ
فلا زال أمرُكم نافداً وملكُكم ثابتاً غير زائلُ

¹ الفهاهة: العي.

² هذا البيت مختل الوزن والمعنى.

³ كوكب المشتري: هو زيوس (Zeus) بالإغريقية وجوبيتير (Jupiter) عند الرومان. وهو أكبر الكواكب والمعها. يمكن مشاهدته في الجهة الجنوبية الشرقية. أما كوكب كيوان: فهو كوكب زحل. وكيوان تسمية فارسية؛ أما الإغريق والرومان فسموه: فرونس؛ بينما يسمى لدى الهنود: شنشر. وفي علم البروج يتم صلاحه بالمشتري؛ إذ يحول طبيعته إلى الخير، ويحل ما يعقد من الشر. ولهذا ربط الشاعر بين الكوكبين.

⁴ القنابل: هنا مفردا القنبل والقنبلة. وهي الطائفة من الناس أو الخيل.

- وهذا الموشح؛ قاله التلاسي - أيضاً - في سنة
763هـ/1361م؛ ببلاط السلطان أبي حمو في تلمسان؛
وذلك بمناسبة إحياء يوم الميلاد الكريم:

سخي أيا مُقلتي وأُنْهَلي * بَدْمَعُكِ الْوَائِفِ الْمُنْهَلِ
عَلَى شَبَابِي الَّذِي قَدْ وَلَّى
أِهْ لَقَدْ بَانَ وَاضْمَحَلَّ
فَهَلْ لِقَلْبِي الشَّجِيَّ أَنْ يُسَلَّى
ما في الذي نالني ما يُسْتَلُ * فَقَدْ الشَّبَابُ وَفَقْدُ الْأَهْلِ
بَانَ الْحَبِيبُ وَوَفَى الشَّيْبُ
فَكَيْفَ يَسْلُو بِهِذَا الْقَلْبُ
تُرَى لِمَا قَدْ دَهَانِي طِبُ
ما لي وَحَقُّ الْهَوَى مِنْ مِثْلٍ * لَا فِي انْتِحَابِي وَلَا فِي شَكْلِ
تَرْكِي لِذِكْرِ الصَّبَا أَوْلَى لِي
وَمَذْخُ مُوسَى الرِّضَى أَسْمَا لِي
مِنْ خُصِّ بِالْفَضْلِ وَالْأَفْضَالِ
شَهْمُ جَوَادُ كَثِيرُ الْبَذْلِ * بِهِ اعْتِصَامُ الْوَرَى فِي الْمَحَلِ
بِهِ تَلْمَسَانُ ذَاتُ الْحُسْنِ
فِي مَا اسْتَهَتْ مِنْ مُنَى وَأَمْنِ
بَغْدَادُ شَوْقاً لَهَا تُغْنِي
أَجَزَتْ لَنَا مِنْ دِيَارِ الْخُلِّ * رِيحُ الصَّبَا عَافِرَاتِ الدُّنَى

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ
يَا مَنْ لَهُ الْأَمْرُ وَالْأَمِيرُ
بِنَصْرِكُمْ قَدْ جَرَى الْمَقْدُورُ
فِي مَدْحِكُمْ يَا زَكِيَّ الْأَصْلِ * يَدِي تَخُطُّ وَقَلْبِي يُمْلِي

— هذه قصيدة في مدح تلمسان؛ وردت في الجزء الأول

من بغية الرواد؛ وفي نفع الطيب ج: 7.

سَقَى اللَّهُ مِنْ صَوْبِ الْحَيَا هَاطِلًا وَبَلًا
رُبُوعٌ بِهَا كَانَ الشَّبَابُ مُصَاحِبِي
جُرِرْتُ إِلَى اللَّذَاتِ فِي دَارِهَا الذِّيلَ
فَكَمْ نِلْتُ فِيهَا مِنْ أَمَانٍ قَصِيَةٍ
وَكَمْ مَنَحَ الدَّهْرُ الضَّيِّينَ¹ بِهَا النَّيْلَ
وَكَمْ غَاظَلْتَنِي الْغَيْدُ فِيهَا تَلَاعِبًا²
وَكَمْ³ مِنْ عَذُولٍ لَا أَطِيعُ لَهُ قَوْلًا
وَكَمْ لَيْلَةٍ بَنَيْتَا عَلَى رَغَمٍ حَاسِدٍ
نُدِيرُ كُؤُوسَ الْوَصْلِ إِذْ بِالصَّفَا تُمْلَأُ

¹ في نص: ((المنيف)).

² في بغية الرواد: ((تذلل)).

³ نفسه: ((وكل عذول)).

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَتْنَا بِصَفْصِفِهَا الَّذِي
تَسَامَى عَلَى الْأَنْهَارِ إِذْ عَدِمَ الْمُثَلَّ
وَكَذِيَّةٌ عُشَّاقُ لَهَا الْحُسْنُ يَنْتَهِي¹
يَعُودُ الْمُسِنَّ الشَّيْخُ مِنْ حُسْنِهَا طِفْلاً
نَعَمْ، وَغَدِيرُ الْجُوزَةِ السَّالِبُ الْحَجَى
نَعِمْتُ بِهِ طِفْلاً وَطُنْتُ² بِهِ كَهْلاً
وَمِنْهُ وَمِنْ عَيْنٍ أَمْ يَحْيَى شَرَابُنَا
لَأَنْهُمَا فِي الطَّيِّبِ كَالنَّيْلِ بَلْ أُخْلَى
وَعَبَّأُهَا مَا الْقَلْبُ نَاسٍ زِمَامَهُ
بِهِ رَوْضَةٌ لِلْخَيْرِ قَدْ جُعِلَتْ حِلًّا
بِهِ³ شَيْخُنَا الْمَشْهُورُ⁴ فِي الْأَرْضِ ذِكْرُهُ
أَبُو مَدْيَنٍ أَهْلاً بِهِ أَبْدَأُ⁵ أَهْلاً
لَهَا بِهَجَةٍ تُزْرِي عَلَى كُلِّ بَلَدَةٍ
بِتَاجٍ عَلَيْهَا كَالْعَرُوسِ إِذَا تُجْلَى
فِيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي رَاقَ حُسْنُهَا
فَحَازَتْ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ بِهِ الْفَضْلَ

¹ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ: ((مُنْتَهَى)).

² فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ: ((هَمْتُ)).

³ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ: ((بِهَا)).

⁴ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ: ((الْمَذْكُور)).

⁵ نَفْسُهُ: ((دَائِمًا)).

وَلَا عَجَبٌ أَنْ كُنْتُ فِي الْحُسْنِ هَكَذَا
وَمَوْسَى الْإِمَامُ الْمُرْتَضَى فِيكَ قَدْ حَلَا
وَلَا حَتَّ لَدَيْنَا فِيكَ مِنْهُ مَحَاسِنٌ
كَأَنَّ سَنَاهَا حَاجِبُ الشَّمْسِ إِذْ جَلَّى¹
مُطَاعٌ شُجَاعٌ فِي الْوَعَى ذُو مَهَابَةٍ
حُسَامٌ عَلَى الْبَاغِينَ فِي الْأَرْضِ قَدْ سُلَا
كَرِيمٌ حَلِيمٌ حَاتِمِي نَوَالُهُ
سَعِيدٌ حَمِيدٌ يَصْدُقُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَا
لَهُ رَاحَةٌ كَالْغَيْثِ يَنْهَلُ وَدَقَّهَا
وَصَارِمٌ نَصْرٌ مُرْهَفٌ الْحَدُّ، وَلَا² فُلَا
هُوَ الْمَلِكُ الْأَرْقَى هُوَ الْمَلِكُ الْأَرْضَى³
هُوَ الْمَلِكُ الْأَسْنَى هُوَ الْمَلِكُ الْأَعْلَى
وَمَنْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ فِيهِ تَجَمَّعَتْ؟
حَقِيقاً عَلَى كُلِّ الْمَعَالِي قَدْ اسْتَوَلَى
إِمَامٌ حَبَاهُ اللَّهُ مُلْكاً مُؤَزَّراً
فَلَا مَلِكٌ إِلَّا لِعِزَّتِهِ ذُلًّا

¹ في بغية الرواد: ((أو أجلى)).

² في نفح الطيب: ((لا))؛ بدون الواو.

³ نفسه: ((الرضي)).

مِنَ الزَّابِ وَأَفَانَا عَزِيزاً مُظْفِراً
 يَجُرُّ مِنَ النَّصْرِ الْمَنُوطَ بِهِ ذَيْلاً
 بَدَتْ لِمَلِكِ الْغَرْبِ شِدَّةُ بَأْسِهِ
 وَإِنْعَامُهُ لِلْمُعْتَقِينَ وَمَا أَوْلَى
 فَبَادَرَهُ بِالصَّلَاحِ خَوْفُ فَوَاتِهِ
 وَسَأَلَمَهُ إِذْ كَانَ ذَلِكَ بِهِ أَوْلَى
 فَكَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ صُلْحاً مُهْناً
 بِهِ طَابَتْ الدُّنْيَا وَجُزْنَا بِهِ السُّبُلَا
 لَهُ فِي الْمَعَالِي رُبَّةٌ لَا يَنَالُهَا
 سِوَاهُ وَكُتِبَ فِي فَضَائِلِهِ تُتْلَى
 لِبَاطِعِهِ كُلُّ الْأَنَامِ تَبَادَرُوا¹
 فَيَا سَعْدَ مَنْ وَافَى وَيَا وَيْحَ مَنْ وَلَّى
 أَحْسَادَهُ مُوتُوا فَإِنَّ قُلُوبَكُمْ
 بِجَمْرِ الْغَضَا مِمَّا بِهَا أَبَدَا تُصَلَّى
 لَقَدْ جَبَرَ اللَّهُ الْبِلَادَ بِمُلْكِهِ
 بِهِ مَلَأَتْ أَمْنًا، بِهِ مَلَأَتْ عَدَلًا
 فَلَا زَالَ هَذَا الْمُلْكُ فِيهِ مُخَلَّدَا
 وَصَارُمُهُ الْأَمْضَى وَخَادِمُهُ الْأَعْلَى

¹ في نفع الطيب: ((تبادرت)).

— وفي سنة 765هـ/1363م؛ شارك التلاسي في إحياء
المولد النبوي الكريم؛ في بلاط السلطان أبي حمو
بتلمسان؛ فقال هذه القصيدة¹:

أصنوبر رأسي بالمشيب غدا حال	وحال لذاك الشيب لما بدا حالي
وكيف لمتلي بالتصابي وبالهوى	وهل للتصابي أن يمر على بالي
وعني شبابي قد تولّى وقد مضى	فقلبي منه لا هنيء ولا سالي
علا مفرقي جيش المشيب فما أنا	جديد شبابي مذ ألمّ به بالي
نفائس أنفاس الشباب قد انقضت	وما لي من بعد الشبيبة من مال
ونادى لسان الحال شمّر إلى متى	ترى غير ناس للتصابي ولا قالي
فحرمت سلواني وحزني أبحتّه	وقلت لنفسي قد دنا عنك ترحالي
فجديّ بحزم في نجاتك وانظري	بعزم لما فيه الصلاح لأحوالي
ألا فارحلي قصدا لطيفة وانزلي	بها قبل أن أقضى وترفع أعمالي
تقدم أقوام لتقبيل تربها	وأصبحت تسعى في عناء وتضلال
أمن بعد أنس كان لي بجوارها	فأبلسيت يا ويحي لسيء أفعالي
ترفق خليلي إن إنسا فقدته	جدير بأن أبكي عليه ويكي لي
أشيّع ركبا بعد ركب لطيفة	ويقعدني غيبي وكثرة آمالي
بقرب رسول الله طاب ترابها	وأضحى لها جيد بأنواره حالي
نبي كريم شرف الله قدره	وفضله في القبل والبعد والحال

¹ نظمت هذه القصيدة بشكل مغاير في بغية الرواد وزهر البستان..

نَبِيٌّ بِهِ سُدْنَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَلَا أُمَّةَ إِلَّا لَنَا تَحْتَ إِذْلالِ
سَمَا لِإِلَهِ الْعَرْشِ وَاللَّيْلِ أَلْيَلِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمُرْتَقَى الْعَالِي
لَمَوْلَاهُ نَوْرٌ عَلَى الْأَرْضِ قَدْ بَدَا غَدَا بُونَهُ بِدَرِ الدَّجَى دُونَ إِكْمَالِ
نَجُونَا بِهِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ يَرُوعُنَا وَأَنْقَذَنَا مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَأَوْجَالِ
هُوَ الْمُصْطَفَى سَادَ الْأَنَامِ وَقَدْرَهُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ نَطَقَتْ بِهِ عَالِي
حَلِيمٌ رَحِيمٌ مُؤَثِّرٌ مُتَفَضِّلٌ رَوْفٌ عَطُوفٌ مَانِحٌ دُونَ تَسْأَلِ
رَبِّيعٌ بِشِيرًا لِلْأَنَامِ أُنَى بِهِ فَكُلُّ رَبِّيعٍ فِيهِ رَاحَةٌ إِعْلَالِ
وَهَلْ مِنْ شَفِيعٍ غَيْرِهِ يَرْتَجَى إِذَا عَرَى النَّاسَ سَكْرًا مِنْ عَذَابٍ وَأَهْوَالِ
بَأَمْدَاحِهِ يَا نَفْسَ لَوْذِي فَإِنَّهَا شَفَائِي مِنْ وَعْكِ الذُّنُوبِ وَإِيْلَالِي
فَمَنْ رَامَ أَنْ يَحْصِيَ فَضَائِلَ أَحْمَدِ فَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَمُرُّ عَلَى بَالِي
عَلَيْهِ صَلَاةٌ تَمَلُّهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ يَحْطُبُهَا وَزُرِّي تَخَفُّفٌ أَثْقَالِي
وَبَعْدَ الرِّضَى عَنْهُ وَعَنْ آلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلُ الْفَضَائِلِ وَالْآلِ
أَقُومُ وَأَدْعُو لِلْخَلِيفَةِ إِنَّهُ لَخَيْرُ إِمَامٍ فِي ذُرِّي شَرْفِ عَالِ
عَلَى اللَّهِ فِي أَحْوَالِهِ مُتَوَكِّلٌ وَمَا إِنَّ لَهُ إِلَّا التَّوَكُّلَ مِنْ حَالِ
يَشِيدُ أَمْرَ الْمَلِكِ طَوِيلَ نَهَارِهِ وَإِنْ جَنَّهُ اللَّيْلُ الْبَهِيمَ يُرَى تَالِ
فَكُلُّ أَمْرٍ يَأْتِيهِ يَطْلُبُ نَائِلًا يَعُودُ غَنِيًّا مَثْرِيًّا بَعْدَ إِقْلَالِ
وَصَارِمُهُ أَسَدُ الْكَفَاحِ تَخَافُهُ فَهَا هُوَ قَتَالٌ بِهِ كُلُّ قَتَالِ
أَنَارَتْ مَعَالِيهِ وَأَشْرَقَ فَضْلُهُ كَبِيرٌ تَبَدَّى لِلوَرَى بَعْدَ إِهْلَالِ
وَأَوْجَدَ عَبْدُ الْوَادِ بَعْدَ دُثُورِهَا وَأَظْهَرَ رَسْمًا دَارِسًا بَعْدَ إِحْمَالِ
تَلَمَّسَانَا أَضْحَتْ بِهِ وَيَمْنُهُ نَتْنِيهِ عَلَى فَاسِ الْجَدِيدَةِ وَالْبَالِي

فنحن به في طيب عيش وغبطة وتجديد أفراح وفسحة آمال
قبائل عبد الواد سعدكم بدا ودولتكم عادت إلى أشرف الحال
ولست أراها تنقضي عنكم ولا تزالون فيها في نعيم وإفضال
وموسى أمير المؤمنين مؤيد بنصر وتمكين ويمن وإقبال
فها أنا مذ بايعته وخدمته أجرُّ على أهل البسيطة أنيالي
فإن نالني منه قليل عناية فما هذه الدنيا وحقك إلّا لي

- وهذا الموشح؛ قاله التلاسي - أيضاً - بمنابة
الاحتفال بالملد النبوي؛ في عام 766هـ/1364م.

قلبي المبلى له أوار * والجسم أودى به السقام
لما تولى الشباب عني * واستشعرت نفسي الحمام

لما رأيت الشباب ولى * أذريت دمي على الشباب * إذ عهده بان واضمحلا
وليس يرجى له إياب * فقلت يا نفس ليس إلا * إن تسألي الفوز والمتاب

فإن شيب الفتى وقار * تقبح مهما بدا الأثام
يا نفس بادر دع التائي * فإنما عشنا منام

من لي برد الصبا ومن لي * هيهات لا يرجع الصبا * قد كنت فيه وكان شملي
يا صاح غضا وطيبا * فكيف لي عنه بالتسلي * والصبر عن طاعتي أبا

لأجله أدمعي غزار * تهل سكبا على الدوام
الحال هذا وإن جفني * بالسهد لا يعرف المنام

دع عنك ذكر الصبا وبادر * يا نفس للحج وأقلعي * واجتهدي وتُركي المعانر
وجددي السير واسرعي * لعل أن تسعد المقدار * لك بخير واسمعي

أما ترى العشقين ساروا * وركبهم قاصدا أمام
حاديهم دائما يغني * هبوا إلى الكعبة الحرام

يا من على الحج كان عازم * وراعه دربه البعيد * أعدل إلى كعبة المكارم
كف الإمام الرضى السعيد * موسى الذي شاع بالأقالم * تتسى به دولة الرشيد

لنا بسلطانه فخار * باد على سائر الأنام
كل لسان عليه يثنى * شرفه الله من إمام

ملوك ذا العصر ما رأينا* فيهم لعلياه من مثال* إحسانه دائم علينا
ماض ومستقبل وحال* عبادة لو أتى إلينا* لما بكى أهله وقال

شطت بأحبابنا الديار* فلا قرار ولا منام
يا لاثمي في البكاء دعني* بالله لا تكثر الملام



محمد بن أحمد الحسني المعروف بابي يعلى (أبو عبد الله)

وواضح؛ أنه شخص آخر؛ غير الفقيه العالم محمد بن أحمد بن علي الشريف الحسني صهر أبي حمو؛ والمدرس بالمدرسة التي بناها من أجله السلطان أبو حمو؛ بالقرب من ضريح والده أبي يعقوب. وكما هو واضح في زهر البستان. وعليه؛ يكون محمد بن أحمد الحسني - ابن يعلى - قد عاصر عهد السلطان أبي حمو؛ بدليل قصيدته هذه التي ألقاها ببلاطه؛ خلال الحفل المنعقد بمناسبة المولد النبوي الشريف في عام 760هـ/1358م. ولم يرد فيما توفر من مراجع؛ ما يفيد ويضيف شيئاً بخصوص صاحب الترجمة هذه. وكل ما عرف حتى الآن؛ هي الترجمة المقتضية الواردة في كتاب درة الحجال؛ ضمن الترجمة رقم: 615؛ كما يلي:
(محمد بن يعلى الشريف الحسني أبو عبد الله. أخذ عن منديل بن أبي أجروم [مؤلف الأجرومية] وغيره. له شرح على المقدمة الجرومية

[الأجرومية]؛ سماه "الدرة النحوية في شرح معاني
الجرومية"::

ظَهَرَتْ فَأَظْهَرَتْ السُّرُورَ الْأَبْكَرَا
وَسَمَتْ فَأَخْفَضَتْ الْهَالَ الْأَزْهَرَا
وَرَقَتْ مَعَالِي سِيْمَةٍ¹ عَلَوِيَّة
مَا كَانَ أَعْلَامَا عِلَّتْهُ وَأَشْهَرَا
لِلَّهِ صَبْحَ صَبِيْحَةٍ مَيْمُونَةٍ
أَبَدَتْ بِفَضْلِ اللَّهِ نُورَا نِيرَا
يَا خَيْرَ ذَا صَبْحٍ وَخَيْرَ صَبِيْحَةٍ
جَاعَتْ بِمَوْلَدِهِ ظَهِيْرًا أَظْهَر
سَفَرَتْ لَنَا عَنْ ثَغْرِهَا فَتَبَسَّمَتْ
أَزْهَارُ رَوْضٍ قَدْ أَثَارَتْ عَنَبَرَا
وَجَلَّتْ قَلَائِدُ جِيْدِهَا عَطْرِيَّة
مَا كَانَ أَسْمَى رِيْحٍ ذَاكَ وَأَعْطَرَا
لِلَّهِ مِنْهَا سَاعَةٌ مَسْعُودَةٌ
عَادَتْ لِمَنْشَأِهَا بَعِيشٍ أَخْضَرَا

¹ السَّيِّمَةُ: العلامة والهيئة.

جاءت بأحمد [هادياً] ومهداً¹
 ومبشراً ومحرراً ومطهراً
 خضعت ركاب المشركين لبعثه
 وتضعضع الإيوان منه وكسرا
 وكذلك نيران المجوس بفارس
 خمدت لمولده كما قد سطرأ
 وبكفه حصباء [رمل] سبّحت²
 وكذلك الماء الزلال تفجرا
 والضبي كلمه بأفصح مقول
 والظّبّ رد له جوابا مخبرا
 وشكى البعير إليه ظلماً ناله
 فحباه نصراً بالعدو وظفّرا
 وبكى الجذيع تشوّقا لفراقه
 فحنا عليه مسكناً ومصبّرا
 هذا وكم من معجزات قد سمت
 وتعاظمت في قدرها أن تحصرأ

¹ حرف هذا الشطر في زهر البستان؛ فكتب هكذا: ((جاءت بأحمد هاد وأمهدا))؛ وهذا يخل بالوزن. فوجب التصويب.

² في الأصل بزهر البستان: ((وبكفه حصباء رمال سبّحت))؛ وهو تحريف؛ فوجب التصويب.

صلى عليك الله يا خير الورى
 أزكى صلاة للإله وأوفرا
 مولاي إني قد وجدتكَ كاشفاً
 بلوى ذنوب أوبقت وتحسرا
 مالي إلى ربّي سواك وسيلة
 ليمن بالعفو الجميل ويغفرا
 [ويُبَلِّغُ العاني زيارة طيبة
 من قبل أن يأتى مماتي أقبرا]¹
 أملي الزيارة لا عدتني كلما
 رمت ارتحالا رمت صعبا أوعرا
 وأرى الذنوب صوارفا عن بابكم
 وأرى الرجى عن وجه نيلي أسفرا
 مولاي حظي من رجائك حضني
 فوثقت منه بكل موثقة العرا
 [وبباب جودك يا ملك ميمني
 أوقفت أرجو منك عفوا مؤثرا]²

¹ هذا البيت بزهر البستان غير سليم بالمرة. وورد في الأصل هكذا: ((ويبلغني طيبة في طيبة من قبل أن يلحقني الممات وأقبرا))؛ فوضعهنا كما جاء أعلاه بين حاصرتين.

² جاء هذا البيت - في الأصل بزهر البستان - هكذا: ((وباب جودك يا ملك ميميني أوقفت أرجوا منك مؤثرا))؛ وهو مضطرب، وغير موزون؛ فصوب كما ورد بين حاصرتين كما ورد أعلاه.

لَتَمْدَنِي بِالْعَوْنِ مِنْكَ إِذَا دَنَا
 [رَكَبْتُ إِلَى تِلْكَ الرُّبُوعِ مَشْمُرًا]¹
 طَابَتْ بِذِكْرِكَ يَا مَلِيكَ وَعْطَرْتُ
 أَرْجَى² تَلَمَّسَانِ وَطَابَتْ مَخْبِرًا
 وَسَمْتُ بِكَ [الْعُلْيَاءَ]³ أَسْمَا رَتْبَةٍ
 وَبِجَاهِكَ الْمَجْدَ الرَّفِيعَ تَأْزُرًا
 لِلَّهِ مِنْكَ مَكَانَةٌ قَدْ ظَفَّرْتُ
 بِعَزِيزِ نَصْرِكَ ظَافِرًا وَمُؤَزَّرًا⁴
 لِلَّهِ مِنْكَ جَلَالَةٌ مَائُورَةٌ
 وَنَهَائَةٌ فِيهَا الْعَدُوَّ تَحِيرًا
 لَكَ فِي الدَّعَا⁵ إِنْ مَا حَمَدْتُ مَفَاخِرَ
 تَغْنِي الْأَسْوَدَ إِذَا بَلَوْنَا مَنَظَرًا⁶
 وَإِذَا مَنَنْتَ (بِبحر) غِيْثٍ وَابِلٍ
 وَإِذَا انْتَشَيْتَ فَبَدْرَتُمْ [وَأَزْهَرًا]⁷

¹ جاء هذا الشطر - في الأصل - هكذا: ((رَكَبْتُ إِلَى تِلْكَ الرُّبُوعِ مَشْمُرًا))؛ فاضطرب المعنى، واختل الوزن؛ وعليه فقد صوب؛ كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

² هكذا.

³ ((الْعُلْيَاءَ)) - في الأصل - كتبت ((الْعُلْيَا))؛ بدون همزة؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصويب.

⁴ كتبت في الأصل: ((مَأْزُرًا))؛ بالهمزة على الألف؛ وهو خطأ.

⁵ رسمت في الأصل هكذا: ((الدْعَى))؛ بالألف المقصورة.

⁶ هكذا. وفي الشطر غموض.

⁷ في الأصل؛ بدون واو العطف؛ وهذا يخل بالوزن. فأضفناها.

موسى الرضى مولاي فاهناً واثقاً
بالله فالفتح المبين تيسراً
هذي السعود دلت ودانت بالذي
تهواه والمطلوب عاد الأيسراً
هذي الاماني طوع أمرك أقبلت
وزمام عزمك في الاماني أمرا
فاحكم بما تهوى فأمرك نافذ
حكمت به الأقدار جبراً للورى
فالله يبيقيكم ويولي أمركم
نصراً على مر الزمان مظفراً
ويريكم وبما تحب يمدكم
وينياكم عنا النوال الأوفراً
ثم الصلاة على النبي محمد
[أسنى الموارد ذا وأطيب عنصراً]¹

¹ هذا الشطر مضطرب المعنى، مختل الوزن؛ وورد في الأصل هكذا:
((أسنى الموارد أنا وأطيب عنصراً))؛ فوجب التصويب.

- ومما قاله أيضاً؛ خلال الحفل المقام ببلاط أبي
حمو الثاني بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف؛
المنعقد بعد عودة السلطان من فتح تنس؛ وذلك في
عام 762هـ/1360م¹:

حَدَّثَ عَنِ الْعَلَمِ إِلَّا عِلًّا² عَمَل

وَقِفْ بَنُورُوتَه العلياً على قدم
وناد بالحمد من أرجاء جانبه

جوى نفوس ضنى من حرّها الضّرْمِ
حَدَّثَ عَنِ المصطفى الهادي بلا حرج

حَدَّثَ يُولَد في بستانك النّعْمِ
حَدَّثَ عن الهاشمي الأبطحي [إذا]³
تكل نفساً عن الآثار والشّيم

¹ هذه عبارة عن منظومة نسخت بقلم رديء؛ بحيث تخللها غموض كثيف؛ منع من قراءة كلمات كثيرة بها. وخاصة حينما يتضح بأن صاحبها مولع بالغريب في صياغته. ونظم قصيدته في بحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)؛ ويجوز في (مفاعلتن = مفاعيلن، وفي فعولن = فعول). ولكن ظهر على بعض أبياتها خلل في الوزن، بسبب الزحاف والطل.

² هكذا رسم. وهكذا انطلق في مطلع المنظومة.

³ صدر البيت هذا في الأصل مختل الوزن؛ إذ تنقص التفعيلة الرابعة حروف بقدر وتد مجموع (0//)؛ فأضفنا كلمة: ((إذا))؛ لكي يستقيم الوزن.

إيه على الغرة الغراء قد وضحت
نور الهدى علماً إيه¹ بها فهم²
إيه وما لرسول الله معجزة
إلا وقد بهرت كالنجم في الظلم
البدر شق لمولانا الرسول وجا³
بالبعث بشر والإرسال في الحرم
وانشق في كين⁴ نصفين يسأله
نيل الشفاعة يوم الحشر والندم
والشمس بعد غروب حلّ مطلعها
بسير مطلبه من بارئ النسم
كذاك قد حبست أيضاً بدعوته
وزيد ساعة يوم مطلع النعم
كذا الخراع بسّم فيه أعلمه
وأعلم المصطفى من كان عنه عم

¹ تأتي هكذا في حالات نادرة. مثل قول حاتم الطائي:

((إيه، فدى لكم أمي وما ولدت حاموا على مجدكم، واكفوا من اتكلا)).

² هكذا.

³ في الأصل: ((وجاء)) بالهمزة؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب حذفها للضرورة؛ لكي يستقيم الوزن.

⁴ كين - كان - يكين كينا لفلان: خضع.

والجذعُ حَنَّ له تَحْنَانُ ذِي حَرْقٍ
وأعلن النوح يبكيه بمنسجم¹
والضأن إذا وطئ المرعى له سجدت
وأمرعت عملا في نبل مستلم
كذا البعير شكى ظلم اليهود وقد
آوى إليه فألفى حكم محتكم
وناقة الآية الكبرى التي شهدت
لربها ونفت قولاً لمتهم
كذا الجبال كذا الآكام قد شهدت
كذلك الضب لبي مفصحا بفم
كذا الظباء أتته وهي شاهدة
وكم حماد وكم صاد وكم حطم²
وكم أتته وحوش الأرض مسرعة
كذا الثمار على ساق بلا قدم
وإن أراد الجنا³ تتحط خاضعة
وفي يديه ترى الحام من حم⁴

¹ طرأ خلل على التفعيلة الثالثة في هذا الشطر.

² هكذا.

³ لعلها: ((الجنى))؛ بالألف المقصورة في آخر الكلمة؛ وتعني قطف الثمار.

⁴ هكذا رسمت. ولم يفهم الشطر. وهو غير موزون؛ ولا مفهوم.

وفي الغمامة إذ تتلوه طائعة
تظله حكمة أربت على الحكم
كذا الحمام أظلمه بأجنحة¹
في فتح مكة مثل الأحمـل² الشم³
وآية الغار إذ أواه مختقياً
والعنكبوت عليه ظل في خيم
وفي الحمام على الباب التي سكنت⁴
[في عشاها؛ ففشت في ا] لعرب والعجم⁵
وأرقم الغار يشكوا منذ رؤيته⁶
وجه النبي وصد⁷ الصادق الفهم

¹ طراً خلل على التفعيلة الثالثة في هذا الشطر.
² الحَمَل: هو السحاب الكثير الماء. جمعها الناظم بـ((الأحمل)).
³ ذكر بعض كتّاب السيرة الشريفة؛ أن حملاً مكة أظلم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتحه لمكة؛ فدعا له بالبركة.
⁴ ثمة من يرى أن سلاله حملاً مكة الآن؛ تعود إلى حمالتي غار ثور.
⁵ هذا الشطر غير واضح في الأصل في زهر البستان. فأضفنا إليه ما ورد بين حاصرتين أعلاه؛ حفاظاً على سياق الفكرة.
⁶ الأرقم: حية خبيثة؛ لونها أسود وأبيض. وأوردت بعض كتب السيرة النبوية؛ أن حية من هذه الحيات؛ لدغت أبا بكر في غار ثور. ((ولما انتهيا إلى الغار روي أن أبا بكر دخل الغار وسد جوره بإزاره حتى بقي منها اثنان فألقمهما رجله. ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونام في حجر أبي بكر. وبينما هو نائم إذ لدغت رجل أبي بكر من الجحر؛ فتصبر ولم يتحرك؛ مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه؛ لكن دموعه غلبته؛ فسقطت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فيستيقظ ليرى صاحبه قد لدغ قال: يا أبا بكر مالك. قال: لدغت فداك أبي وأمي؛ فتفل صلى الله عليه وسلم على رجله فبرأت في الحال)).
⁷ هكذا

وكم رضيع رسول الله أنطقه
وكم بريء له من أمه وعم
كذا أتى وبحفن¹ الكف [مقلته]²
قادة لرسول الله حين رُم³
فردّ [مقلته]⁴ في عينه عجا
وسدّ خلته⁵ في ساعة الألم
[وكان]⁶ يطعن في الكفار يبصره
في سعي مجتهد يرقى لملتزم⁷

¹ الحَقْنُ: أخذك الشيء براحة كفك والأصابع مضمومة.
² كتب في الأصل بزهر البستان: ((مقلته)) وهو تحريف؛ فوجب التصويب.
³ هو الصحابي قتادة بن النعمان؛ رمي في عينه؛ فسقطت على وجنته؛ فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى مكانها؛ فقال ابن إسحاق: ((فكانت أحسن عينيه وأحدها)).
⁴ في الأصل بزهر البستان: ((مقلته))؛ وهو تحريف أيضاً. فصوب.
⁵ الخلّة: ((الثقبة)). والمقصود بها هنا: الفجوة التي تسكن فيها شحمة العين؛ وهي المقلة.
⁶ في الأصل بزهر البستان: ((وكن))؛ فصوب.
⁷ هذا البيت في الأصل بزهر البستان؛ كله غامض في معناه وصياغته مضطربة.

كذا ذراع معاذ.....¹

عليه في² بفيض دم³

ورجل ابن معاذ عندما قطعت⁴

بالسيف أبرأها راق بريق فم

وأشبع الجيش من صاع وأرغده

ماء الأنامل يجري جري ملتئم

حتى روى وملا بالماء أوعية

نوي العشيرة من عدن ومن خدم

وفي تبوك دعا للعين فانفجرت

وبعد فضّ شرك فاض فيض هم

كذا السحاب دعا بالماء فانسكبت

ووبلها حف جيش العسرة العزم

¹ تعذر معرفة ما كتب في الأصل بزهر البستان؛ ضمن هذا الحيز؛ وذلك بقدر سبب خفيف + وتد مجموع + تفعيلة: ((فعلن)).

² تعذر أيضاً معرفة ما كتب في هذا الحيز الذي يقدر بتفعيلتين: ((فاعلن مستفعلن)). فيفترض أن البيت كله هكذا:

((كذا ذراع معاذ [حينما نزلت] * عليه في [جرّجه الدامي] بفيض دم
³ لعله يقصد بمعاذ هنا: سعد بن معاذ الأنصاري؛ كبير الأوس؛ الذي أصيب في أكحل ذراعه؛ فأمر الرسول بنقله إلى مسجده ليعالج جرحه بنفسه.

⁴ هو عمرو بن معاذ. الذي قطعت رجله؛ فشفّاها رسول الله بأن تقل عليها. ففي حديث جاء فيه: ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقل في رجل عمر بن معاذ حين قطعت رجله؛ فبرأ)).

وأطبق القدم اليمنى على ييس
 في الأرض فانفجرت عينٌ بذى القدم¹
 كذا ارتوى وحسين جدنا حسن
 من زين مقوله الشافي من السقم
 وضرع شاة [جدودة]² وقد يبست
 أترها لبنا مسحاً على الأدم³
 كذا جعيل⁴ [تراخي] تحته فرس
 فزك⁵ للمصطفى فيها فلم يقم
 وأوقدته نشاطاً في مسابقتها
 فما استطاع قياد الراس باللجم⁶

¹ في الأصل يزهر اليستان: ((عين بت القدم)). والمقصود هو: ((بتلك القدم))؛ فحذف الكاف؛ لاعتقاده أنها ضرورة شعرية؛ بينما كان عليه تجنب ذلك؛ بتعويضها بما يتوافق مع المعنى والوزن. كما ورد أعلاه مثلاً.
² وضعنا كلمة [جدودة] بدلا من كلمة في ذلك الحيز؛ غير مفهومة في الشطر. ويقال للشاة قليلة الذر للين: ((جدودة)).

³ ثمة روايات عديدة؛ تفيد بمسح الرسول عليه السلام على ضرع شاة أو معزة؛ فتدر اللين ببركته. وهذه روايه منها: ((عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنت أرى غنماً لعقبة ابن أبي معيط فمر بي رسول الله وقال لي: " يا غلام، هل من لبن؟ " فقلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: " فهل من شاة حائل لم ينز عليها الفحل؟ " قال: فأتيت به شاة حائل فمسح ضرعها فنزل لبن، فحلبه في إناء وشرب، وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: " اقلص " فقلص قال: ثم أتيت به فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: " يرحمك الله فإنك عليم معلم (هذا الحديث أخرجه أحمد وابن سعد في الطبقات).

⁴ هو جعيل الأشجعي رضي الله عنه.

⁵ زك زكاً: هروى، أو مر يقارب خطوه ضعفاً.

⁶ أوردت المصادر خبر جعيل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجاء فيها: ((عن جعيل الأشجعي رضي الله عنه قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه

وفي قال حنين [قل] أيا عجا¹
 إذ ظل مرتجلا² في الموقف الهزم
 [وشتت الكفر طراً دونما مدد]³
 وعاد بالنصر للأجناد والحشم
 ناهيك من بطل لله نصرته
 ودعوة الحق دعواه لمغتتم
 كذا عسيب⁴ يحل في الوغي بطلا
 أعطى فعاد حسا في يديه سم⁵

وسلم في بعض غزواته، وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، قال: فكنت في
 أخريات الناس، فلحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: سر يا صاحب
 الفرس. فقلت: يا رسول الله، عجفاء ضعيفة. قال: فرفع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم مخفقة معه فضربها بها وقال: اللهم بارك له. قال: فلقد رأيتني
 أمسك برأسها أن تقدم الناس، ولقد بعث من بطنها باتني عشر ألفا. رواه
 البخاري في التاريخ، والنسائي في السنن الكبرى، والبيهقي في الدلائل.
¹ هذا الشطر مختل الوزن؛ إذ ينقص التفعيلة الثالثة سبب خفيف: (0/). وعليه
 فقد أضفنا كلمة ((قل))؛ للتصويب.
² هكذا.

³ ورد هذا الصدر في زهر البستان هكذا: ((وبعد الكفر فرداً بون ما عده))؛ وهو
 غير مفهوم، ومختل الوزن. وعليه فقد وضعنا شطراً بديلاً؛ جاء أعلاه بين حاصرتين.
⁴ عسيب؛ جمعها؛ أعسبة: منبت الشجر. وعظم الذنب. ريش القم. وقضيب من
 النخل بدون أوراق. وشق في الجبل؛ وثمة جبل أضحى يدعى بذلك؛ وبه دفن الشاعر
 إمرؤ القيس. وثمة صحابي يدعى أبا عسيب؛ ومولى الرسول صلى الله عليه وسلم.
⁵ هكذا. ورد في الأصل هذا الشطر مضطرب المعنى ومختل الوزن؛ إذ ينقصه
 سبب خفيف: (0/)؛ في بداية التفعيلة الثالثة.

والأرض أجمعها للمصطفى رويت¹
وكم له طويت رفقا به وكم²
وملك أمته لما رأوه بها
في طرفة العين من آيات ذي عظم
كذلك أعطاه رب العرش مكرمة
على مسيرة شهر نصر رعبهم
والنخل من يده لما بها غرست
من عامها أطعمت سلمانها السلم³
واقتك من أسره سلمان إذ طعمت
بجبر منقذه من عيه الظالم

¹ استسقى رسول الله؛ فاستجاب له الله: ((انه لما شكى إليه شاك قحوط المطر - أي حبسه وانقطاعه وهو فوق المنبر في خطبة الجمعة - فرفع يديه إلى الله تعالى ودعا - وما في السماء قطعة من السحاب - فطلعت سحابة حتى توسطت السماء فاتسعت فأمطرت فقال: اللهم حوالينا ولا علينا؛ فاقطعت وانقطعت. متفق عليه.

² عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: ((ما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث)). أخرجه أحمد والترمذي وابن سعد وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

³ جاء في خبر سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ أن رسول الله أعانة في غرس نخل؛ بغرض عتق نفسه بشراء حريته؛ مقابل القيام بغرس 300 نخلة لسيده. فقال: ((وكننا نحمل إليه [أي رسول الله] الودّي [صغار فسيل النخل]؛ ويضعه بيده ويسوى عليها فو الذي بهته بالحق ما ماتت منها ودية واحدة)).

تَم عينه والأقدار تحفظه
[بقوله¹ ساهر يقضان لم ينم
وكان يبصر من خلف على بعد
كما يرى بسنا عينه من أمم
وكان يسمع تسبيح الطعام على
عهد الرسول لدى كفيه والأدم
كذا الحصة رآها معشر حضروا
تسبح الله في كفيه لا بفم
والوحي أعظم إعجاز به اتضحت
شمس الهدى لذوي الأفهام والهمم
وكم تُعدُّ وكم تُخصى مآثر من
لولاه لم تكن الأكوان في القدم
وأخبر الرُّسل طراً عنه واتفقوا
على رسالته في أشرف الأمم
وكلهم سأل الرحمن يدخله
في أمة المصطفى سبِقاً لفضلهم

¹ كتب في الأصل: ((وله)). ويبدو أن الناسخ بتر الكلمة؛ فحذف منها حرفين بقدر سبب ثقل (//)؛ ولم يترك سوى الجزء الأخير من التفعيلة: (0//0). فأضفنا ما سقط؛ فأضحت الكلمة كما وردت أعلاه.

لما رأو لرسول الله من شرف
عند الإله وما يلقاه من كرم
وأنه الأول الهادي لرحمته
والحاشر العاقب الماحي ردي الرمم
وأنه الأول العاف لرحمته¹

من نوره خلق العرش العظيم كما
من نوره نشأة المحفوظ والقلم
والشمس منه ومنه الشهب مشرقة
ومنه يسطع نور الصدق في الكلم
وكل نور فمن نور النبي بدا
ومنه يشرق نور الحق والحكم

¹ تكرر صدر البيت هذا في زهر البستان؛ دون العجز؛ مع أنه مختل الوزن؛ وغير سليم كالصدر الذي سبقه؛ بسبب تغيير كلمة ((الهادي)).

تكوّن المصطفى نوراً وأخبأه
مولاه في خرز عليين في علم¹
حتى استتم له ما شاء من أجل
وصار ينقل من صلب إلى رحم
في الطاهرين من السادات في عرب
في الأنبياء وفي الأشراف غيرهم
إلى الأكارم من عدنانٍ إذ كسيت
وجوههم غرراً من نوره الشيم
أضحى بها وجه عبد الله مبتسماً
كزهره للزهرة الزهراء في شمم

¹ لعل الشاعر يشير إلى الرواية التالية: ((رُويَ عن كعب الأحبار رضي الله عنه؛ قال: أول ما خلق الله جوهرة، وخلق من الجوهرة ظلمة، وخلق من الظلمة نوراً، وخلق من النور نور محمد صلى الله عليه وسلم؛ قبل أن يخلق الخلق بتسعة آلاف عام؛ فكان ذلك النور يطوف بقدره الله تعالى؛ فإذا انتهى إلى الظلمة؛ خرّ ساجداً لله تعالى؛ ويقعد في السجدة الواحدة ألف عام، ويقول في سجوده "سبحان الذي لم يزل، سبحان الجواد الذي لا يبخل، سبحان الحليم الذي لا يعجل؛ ثم يرفع رأسه من السجود. فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يخلق الأشياء خلقها من نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ ماء عذب؛ وجعل فيه البركة؛ ثم قسمه عشرة أجزاء: فخلق من الجزء الأول العرش، وأمره أن يستقر على الماء. وخلق من الجزء الثاني القلم؛ وأمره أن يطوف بالعرش ألف عام.... وخلق من الجزء الثالث اللوح المحفوظ، والجزء الرابع الشمس، ومن الجزء الخامس القمر، وخلق من الجزء السادس الجنة، وخلق من الجزء السابع النار، وخلق من الجزء الثامن الملائكة، وخلق من الجزء التاسع الكرسي، وخلق من الجزء العاشر النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وخلق الأنوار كلها من نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم...)).

فاستودع السرّ بطن الأمّ آمنة
 فلاح في وجهها كالبدر في تمم
 جاءت به ليلة اثنا عشر واضعه
 بوسط شهر ربيع الأول البسم
 رعياله ولبشرى أم ينصرها
 نشر الربيع [شذا] الأزهار في الكم¹
 إيوان فارس كسرى ارتج منكسرا²
 [إيوانه شامخ في عزا من قدم³]
 ونار فارس من نور الهدى خمدت
 ولم تدع للعدى [!] ⁴سما على علم
 [وجاءه قدر الأقدار مكتسحاً⁵]
 دين الظلال حليف الذل والهضم

¹ ورد - في الأصل بزهر البستان - هذا الشطر بوزن مختل. ويظهر ذلك في التفعيلة الثانية؛ فجاء هكذا: ((نشر الربيع نشرًا الأزهار في الكم))؛ وعليه فقد صوبناه كما ورد أعلاه.
² جاء هذا الشطر في الأصل هكذا: ((فللعجارف كسرى ارتج منكسرا))؛ فأصلحناه كما ورد أعلاه.
³ وهذا الشطر وضعناه؛ بدل الشطر الأصلي بزهر البستان؛ الذي نسخ بشكل تعذر فهمه؛ وجاء كما يلي: ((إيوان شامخ ملك حسالم بهم)).
⁴ أضفنا (ألف قطع) لكي يستقيم الوزن.
⁵ هذا الشطر غير مفهوم في الأصل بزهر البستان؛ وقد نسخ هكذا: ((وجاءت في سرد تحسيسا)). ولكي نسهل على القارئ متابعة الفكرة؛ وضعنا الشطر الوارد أعلاه.

والدين سل¹ حاسم للنصر في صعد
مستأصل الظفر يققوا إثره الهرم
وبأت الأرض بالأزهار ضاحكة
تختال ترفل في أثوابها الرقم²
والأفق يسطع أنواراً كما اختلفت³
حور الجنان نوات الخلد والنعم
وكل ما ملك قد جاء مستلماً
وجه النبي، ووجد الوحش والرخم⁴
والطير تدعوا بلفظ العرب أمته
دع الحبيب لنا وأتبه واستلم
تقيه عين حسود إن تراه وما
تخشى عليه بنار الكفر من ضرر
ولن يليه أوان الوضع من أحد
سوى الكرام من الأملاك كلهم
فمن حفيظ ومن آت بملبسه
ومن معد بريق الفم⁵ للحكم

¹ هكذا.

² أي: المخططة والمرقومة.

³ هكذا؛ ولعلها: انتقلت. أي تألقت وسطعت.

⁴ هكذا. ولعلها: الرغم.

⁵ التفعيلة الثالثة تقتضي إضافة حرف ساكن زائد؛ فلزم تشديد ميم (الفم).

ومن مناوِل حرز الله يَطْلُوهُ¹
 بدعي النميمة في لوح بلا ختم
 ومن مُطَهَّر مخفأة الضغائن من
 طي الفؤاد بماء الكوثر الركم
 ومن مُنْزَل أعلام لينشرها
 بالشرق [صارت بـ] منجاة وبالحرم²
 ومن مبشر أقطار البلاد ومن
 برغم أنف العدو الحاسد السدم³
 وكم رأته أوان الوضع آمنة
 من الغرائب ما لم يحض ذو قلم
 كسجدة البيت للرحمن خائفة
 وشكوة بلسان غير ما عجم
 ورج غلظة أصلاص الصليب وما
 [تلا] تساقط فوق الأرض من صنم⁴

¹ هكذا. لعلها: يتلوه.

² هذا الشطر - في الأصل بزهر البستان - تنقصه سبب خفيف في التفعيلة الأولى (0/) + وتد مفروق: (0/); في التفعيلة الثانية؛ لذا فقد أضفنا ما ورد ضمن الحاصرتين.

³ هذا البيت مختل الوزن. وفي صدره زيادة كلمة هي: ((شاء))؛ فتم حذفها. أما عجزه؛ فاختل أيضاً؛ بسقوط كلمة منه؛ فأضفنا كلمة: ((العو))؛ للتصويب.

⁴ هذا الشطر مختل الوزن؛ وينقصه في التفعيلة الأولى وتد مجموع (0//). فأضفنا كلمة ((تلا))؛ لتصويب الوزن.

أكرم بمولد ساد لم يدع هتفا¹
للشرك بعد بدر المرنق العمم²
باللين بالرفق بالتمهيد عن خلق
موصوفة الخلق في الفرقان بالعظم
يودي فيبصر لا غيظ فيكظمه
ولن يقيم حدود الله في سدم
يحاول الأمر في قوم تلا جههم
في الحق لجة بحر للطلال طم
فلم يزل بغيوب الوحي يخبرهم
صدقاً وينبئ عن عاد وعن أرم
وعن زبور وآيات به نزلت
وعن تهكم توراة بدينهم³
وأى محكم إنجيل بما احتكمت
[هلا ترى ذكر إعجاز لقولهم]³
فمن حسود رمى بالسحر ساعته
ومن عزول رمى بالشعر والعدم

¹ هتفاً: صوتاً عالياً أو مدحاً.

² هكذا.

³ هذا الشطر مضطرب المعنى، ومختل الوزن؛ وورد في الأصل هكذا:
(فيهم يخبر إعجازا لقولهم))؛ فصوب كما جاء أعلاه.

وقائل سفها أضغات ذي سمة
فرد ذلك وصى جاء بالعصم
حاشاه إن حسدا جهلا فموبقهم
وإن تمرد كفر ويل ويلهم

إلى أن قال:

[أتلو مديحي وشكري]¹ إن ظفرت بما
أرجوا من الملك العدل الرضى العلم
قطب المكارم مأوى كل ذي طلب
سمك² السيادة حامى الحل والحرم
إين الكرام أبو حموا الشهير سننى
موسى بن يوسف بَرّاً بحق؛ ذو الكرم³
[هذا المليك الذي جاءت بدعوته]⁴
مسطورة ببراھين على القدم

¹ كتب في هذا الحيز - في الأصل - العبارة التالية: ((من لا تهاني الا))؛ ونظراً لغموضها؛ فقد وضعنا عبارة أخرى بين حاصرتين لتصويب الفكرة.
² سمك سمكاً الشيء: رفعه. يقال ((سمك الله السماء))؛ أي: رفعها.
³ هكذا.

⁴ هذا الشطر مختل الوزن؛ وجاء في الأصل هكذا:
((هذا المليك الذي جاء وبدعوته)). وعليه فقد صوب كما ورد أعلاه.

هذا الإمام الذي شكُّوا به أزرأ
 شادوا بها علما ناهيك من علم
 هذا الإمام الذي خفت به شهب
 كأنه البدر فيها انساب عن دم¹
 الوارث المجد² عن آباء له سلفوا
 شادوا له منه ركناً غير منهدم
 فلم يزل سامياً يعلي أعاليه
 بحدّ حزمٍ ورأيٍ أيّ محتكم
 وراحتين متى غاب الغمام همت
 بسكب فيض عوادي سيله العرم
 قالت يعلق باب الحرب من كسل
 ولا الهجيرة نخلها من البهم³
 يلقي الصوادم في راحات عسكره
 ما بين ذي قلل منها ومنحطم
 كذا الدوامل في أعقاب منهزم
 من العداة وفي لبات مقتحم

¹ الدمم والدمام: كل شيء ظلي به.

² اختلت التفعيلة الثانية بسقوط حرف ساكن في آخرها.

³ هكذا.

كأنما الموت في أرجائها كمن
 [ضمن المفاصل والأعضاء في الأمم]¹
 يسطوا اقتدار فيثى الجود محتشما²
 فحسبك الدهر من ضرٍ (أ)³ ومن نعم
 [ما زال مذ شب في أيام شببته]⁴
 يملأ بفطنته الأحكام من حكم
 ناهيك من ملك أشهى مقاصده
 إيرامه الحكَم بالتَّـ (زي)ـل عن حزم⁵
⁶

حاشى وكلا ولا تعريض متهم
 رحب المحاسن طلق الوجه منبسط
 الأخلاق فاق العلى والدهر في وهم

¹ هذا الشطر غير مفهوم؛ ورسم هكذا: ((المصرق الغصب في أعطاء مندم)).
 وعليه فقد وضعنا الشطر الوارد أعلاه بدلا منه.
² هكذا.
³ هذه الألف زائدة؛ وكسرت الشطر.
⁴ هذا الشطر يكتفه الغموض، ومختل الوزن؛ فجاء هكذا: ((ما زال مذ شب في ربق شببته))؛
 أو ((شبيبته)). لذا فقد عوضناه بشطر؛ كما ورد أعلاه.
⁵ هذا الشطر مختل الوزن؛ بزيادة سبب خفيف: (0/) في التفعيلة الثالثة؛
 ويقابله حرفا: ((الزاي والياء)) في كلمة ((التنزيل)).
⁶ وهذا الشطر أيضاً غامض المعنى ومختل الوزن؛ وجاء هكذا:
 ((لا ربيع لأصل لا إعراض يمنعه)).

يا من تسربل بالعلياء متزرا
ثوب العفاف وأعفى مربع التهم
لا زلت تقمع من عاداك متزرا
بعاجل الظفر مستأصل النعم¹
ودمت [في عز] ملك ما له هدم²
وواحد (أ)³ كل ما تهوى بلا عدم

¹ سقط حرف ساكن في التفعيلة الثانية.
² هذا الشطر مختل؛ والعلة في التفعيلة الثانية؛ لذا فقد أسقطنا كلمة: ((خالد))؛
سبب العلة؛ ووضعنا بدلاً منها ما ورد بين حاصرتين.
³ هذه الألف زائدة. فأسقطناها حفاظاً على الوزن والمعنى.

وله قصيدة أيضا يقول فيها¹:

أشهر² بالأمالي والأمانى أنال العالمين نوي الأماني
بمقدمك [انجلي الحق المعلا]³ بأنوار البشائر والتهاني
ألا أهلا محياه وسهلا وأهلا بالتلاقي والتدان
وأهلا بالهدى والرشد أهلا وأهلا بالحبيب [مدى الزمان]⁴
محمد النبي الهاشمي شفيع الخلق في يوم الهوان
أنال العز والعليا مكانا ودانا⁵ بالتلطف والحنان
وأنقذ من لظى وحمى ونعمى⁶ نعم، وأحلنا دار الجنان
له بدر السماء انشق طوعا [كذاك]⁷ الشمس ردت للعيان⁸

¹ لم ترد هذه القصيدة إلا في زهر البستان؛ وهي متواضعة شكلاً ومضموناً. كما أنها نسخت بشكل يصعب استخراج معانيها، ولا تفكيك كلماتها؛ بالإضافة إلى الأخطاء الإملائية؛ حيث بَيَّرَت بعض الحروف، وسقطت كلمات بكاملها؛ فاختل بذلك وزن أبياتها، واضطربت معانيها.

² في الأصل: ((أشهر))؛ وهذا خطأ يؤدي إلى خلل في الوزن.
³ هذا الشطر مضطرب ومعظم كلماته غير مفهومة؛ فجاء هكذا:
((بمقدمك الأاهلا المحلي)). هكذا بالضبط. وعليه فقد وضعنا ما ورد أعلاه بين حاصرتين؛ لكي يتمكن القارئ من متابعة بقية الأبيات.

⁴ كتب في الأصل: ((...الذ تران))؛ فتعذر استنتاج المقصود. وعليه فقد وضعت أعلاه عبارة بديلة؛ بين حاصرتين.

⁵ داني بين أمرين: قارب بينهما.

⁶ هكذا.

⁷ في الأصل: ((كذلك))؛ وهذا يخل بالوزن. فوجب التصويب.

⁸ يشير هنا إلى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم: منها انشقاق القمر، وارتداد الشمس بعض الوقت؛ بعد أن شارفت على الغروب. حدث هذا في يوم الخندق؛ إذ دعا الرسول (ص) فردت الشمس؛ لكي يصلي العصر في وقته. بعد أن نام علي ركة علي كرم الله وجهه.

كذلك الضَّبَّ كلمه مجيباً كذاكَ الظبي وافي للضمان¹
كذلك الجذع حنّ له اشتياًقاً [وَأَنَّ بِلَوْعَةٍ وَحَنَانِهِ، كَوَانِي]²
كذا الأشجار يدعوها فتأتي³ تخذ⁴ الأرض طائعة العنان
وكم للمصطفى من معجزات وآيات على مرّ الزمان
أمولانا رسول الله شكوى مطيع طابع بالغرب عان
تَخَلَّفَ⁵ والركاب إليك جرّت رواحلها وساروا في أمان
وما إن للعُبَيْدِ سواك ذخراً لما يرجوه من نيل الأمان
ورحلي قد حطّطت برحب ملك مطاع لا يضيع بذّي هوان
ملك حازم عدل همام سمي سيد سامي المكان
أمولانا استعن بالنصر طولاً وثق بالله في كل الأوان
ألا فاهناً بما ترجوا فهيّا وأنت مع السعادة في قران

¹ معجزة الضَّبّ سيأتي الحديث عنها فيما بعد. أما معجزة الظبي؛ فتتعلق بالظبية التي اصطادها بعضهم، وشدّوها على عمود فسطاط؛ فمرّ الرسول عليه الصلاة والسلام بهم؛ فكلّمته متوسّلة أن يأمرهم بإطلاقها حتى ترضع صغارها ثم تعود. فطلب منهم ذلك وضمنها؛ فاستجابوا له وأطلقوها. فأوفت الظبية بوعدا إذ عادت إليهم بعد الاطمئنان على صغارها.

² نسخ هذا الشطر هكذا: ((ودرع الشتات أليهم الرهان)). وهذا كلام غير مفهوم بالمرة. وعليه فقد نظمنا شطراً بدلاً منه؛ ووضعناه بين حاصرتين؛ لمساعدة القارئ على مواصلة القراءة دون بتر أو انقطاع.

³ أما معجزة الأشجار؛ فمفادها أن الأشجار تجمعت حول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لكي تستره؛ عند قضاء حاجته في الخلاء. وبعد انتهائه عادت كما كانت إلى مواضعها المتفرقة.

⁴ خَذَ الأرض: شق الأرض وجعل فيها أخدوداً.

⁵ وقع الناظم هنا في عيب التضمين؛ بسبب بدء هذا البيت بكلمة: ((تخلف)) المتعلقة بقافية البيت السابق.

سمت بك همة عليا تجلت محل الحمل في أعلى امتكان¹
وتطلب أن تبلغها الليالي علوا ليس يمكن في مكان
وقد كثرت عن الأشياء حتى مضت علوا ولم تحفل بشأن
فما ترضى بأعظم ما ارتضته ملوك الأرض من باق وفان
جرت جري الجموع إلى محل بعيد ما ثاها عنه ثاني
سليل المجد قد أعطيت علماً وأنت من الصبا في عنفوان
ملك تحت بهجته وقار كنار قد تجلت من أمان
لقد نصرت جنودك في الأعادي وكرؤا من سعودك في ضمان
قد اعتلقت أكف الناس منه بنبت القلب [صونا للعيان]²
إذا ما غرة الزيف [عنته]³ غزا بالقلب واليد واللسان
لقد أظفى أبو حمو علينا ظلال العدل في كنف الأمان
أبو حمو بن يوسف خير ملك تلمسان بها نال الأمان
أقام بها الشريعة فاستقامت لدين الله آثار تراني⁴
يصمم في الجموع بلا افتخار ويسهم في الجزيل بلا امتنان

¹ واضح من آثار التصحيح؛ أنه كتبها في البداية: ((مكان))؛ ثم تراجع لكي لا يقع في عيب الإيذاء؛ فجعلها: ((امتكان))؛ خاصة وأن كلمة: ((مكان)) وردت في البيت الموالي مباشرة.

² رسم الناسخ هذا الشطر هكذا: ((بنبت القلب حفلها العيان))؛ وهو غير سليم؛ فعدلت العبارة الأخيرة؛ ووضعت أعلاه بين حاصرتين.

³ في الأصل: ((عنت)). كما أصيبت التفعيلة الثانية بزحاف (الكف). وذلك بسقوط حرف ساكن في آخر التفعيلة الثانية. هكذا⁴

فتحفل من ندى يده الثريا ويكشف في سناه البشر أن¹
 شديد لين يخشى ويرجى [رحيم في ملمات خشان]²
 وجوه الحسن في تلك السجايا وجود الجود في لك³ البنان
 من القوم الذين جنوا وأجنوا ثمار النصر يانعة المجان
 بني⁴ زيان زين الملك أصلا ليوث الغاب في الحرب العوان
 لهم حسن الزمان وطاب نشرأ كذا الألفاظ تحسن بالمعاني
 لقد أسكرت أهل الربع حتى بخمر الذعر لا خمر الدنان
 فكم لك فيه من بطل صريع وكم من موبق في القيد عان
 صببت عليهم سيف انتقام إذا ذكروا⁵ المنية هو ثاني
 خطيب ينظم البيت انتظاماً وينثرها بهم نثر الجمان
 تجرده عن القمر المحلى وتكسوه برود الأرجوان
 أمولانا ابن مولانا هنيئاً بمجد لا تحيط به التهاني
 فكم نظراً إليك بلا انتهاء أعذك منه بالسمع المتان⁶

¹ هكذا.

² جاء هذا الشطر في الأصل مضطرب المعنى، ومختل الوزن هكذا: ((كذا المجد استزاد في التيان)). وعليه؛ فقد نظمنا شطراً آخر وضعناه بين حاصرتين؛ لتمكين القارئ من مواصلة قراءة المنظومة دون انقطاع.

³ لكه: ضغطه.

⁴ هكذا. والصحيح: ((بنو)).

⁵ كتب في الأصل: ((ذكروا لمنية)). بحيث سقطت ألف؛ سواء كانت ألف الجماعة، أم الألف المشتركة مع لام التعريف. وهذا خطأ؛ وجب تصويبه.

⁶ هكذا. ولطها: ((المتاني)).

إذا أعطى جنى النحل المصفى فممزوج بسم الأفعوان¹
فليس أريده غير اصطباري وليس يريدني غير امتحان
وما إن خفت منه وأنت قاص فكيف أخاف منه وأنت دان
وقد عاينت إحساناً وبشرى هما قادا هواي وقلدان
وكم أثبت عنك بكل فخر ولكن اليقين مع العيان
[وهأنذا]² رفعت إليك شعراً تنافسني عليه الشعريان³
بقيت مجرراً ثوب المعالي ودمت منظمًا سالك الأمان

¹ الأفعوان: ذكر الأفعى.

² كتب في الأصل، وضمن النص الأساس: ((وها أنا))؛ بينما وردت: ((ذا)) في الهامش. وعليه فرسم هذه العبارة بالطريقة المذكورة؛ يخل بالوزن؛ وعليه فقد صوبت العبارة ووضعت بين حاصرتين.

³ الشعريان: هي العبور التي في الجوزاء. ويبدو أن الشاعر زج بهذه الكلمة زجاً هنا.

محمد بن أحمد

ابن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق
العجيسي¹، (أبو عبد الله - شمس الدين).

عند الحديث عن أحد أعضاء أسرة بني مرزوق؛ وجب الحذر، والتحري بدقّة في اسم العالم المراد الترجمة له. فجّل أعيان هذه الأسرة يحتلون مواقع هامة بين علماء تلمسان. والأمر المجلب للتذبذب والإلتباس هنا؛ هو تشابه الأسماء، وتطابق الاهتمامات بين أصحابها. وعليه فقد لجأ المحققون السابقون إلى فرزهم وتمييزهم بألقاب وصفات؛ مثل: الجد، والحفيد، والكفيف. وعندما استهلك لقب الحفيد أضافوا إليه مفردة أخرى؛ فأضحى حفيد الحفيد. ومع هذا بقي احتمال الخطأ وارد. وعليه فقد اخترنا في هذا المجال طريقة أخرى؛ اعتمدت في مقدمة

¹ توجد ترجمة محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني أيضاً في: الإحاطة في أخبار غرناطة، والتعريف بابن خلدون، وكتاب العبر، وبقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالوادر، ونيل الابتهاج، والدرر الكامنة، والديباج المذهب، ونفح الطيب، والبستان في ذكر الأولياء والعلاء بتلمسان، وجذوة الاقتباس، وفي كثير من المصادر.

كتاب المسند الصحيح الحسن؛ وتتمثل في تمييز الأسماء بإضافة رقم معين لها. وبذلك؛ يعتبر صاحب هذه الترجمة؛ في المرتبة الرابعة؛ ووالده بهذا الاعتبار - هو أحمد الأول، ووالد والده محمد الثاني، وجد والده محمد الأول، ابن أبي بكر (الذي عاش أيام يغمراسن بن زيان؛ ودفن بجواره تبركاً به)، وهو الآخر ولد رجل اسمه مرزوق العجيسي (الذي دخل تلمسان في عهد المرابطين)؛ قادماً من القيروان؛ أيام الاضطرابات التي تسبب فيها أعراب بني هلال. ومحمد (الرابع) هذا؛ ابن أحمد بن مرزوق من العلماء الفطاحل، والأعيان الأصائل، والوزراء الأفاضل. خلط بين الخطط. ولد بتلمسان في عام 711هـ/1311م¹؛ ونشأ في أحضانها، ودرس في كتابتيها، وأخذ أول دروسه على علمائها. ولما حل عام 718هـ/1318م؛ رحل رفقة والده (أحمد الأول) إلى الحجاز؛ وفي طريقه سمع في بجاية على ناصر الدين المشدالي. وكان محمد بن مرزوق حريصاً في رحلته الشرقية هذه؛ على التزود بأكثر ما يمكن من

¹ هذا ما قاله ابن الخطيب في الإحاطة، القسم الثالث، ص: 671. ووافقه عليه يحيى بن خلدون؛ في البغية، ج، 1، ص: 115. بينما ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن صاحبه محمد بن مرزوق قال له أنه ولد في سنة 710هـ. أنظر التعريف بابن خلدون، ص: 49.

العلوم، والأخذ على من يقابله من العلماء. لذا؛ فقد رجع إلى مصر؛ بعد أن قرّر والده مجاورة الحرمين. وفي القاهرة؛ درس على برهان الدين إبراهيم بن محمد القيسي الصفاقسي المالكي، وأخيه شمس الدين محمد؛ ثم عاد إلى تلمسان في سنة 735هـ/1334م¹؛ أين وجد جيش أبي الحسن محاصراً لتلمسان. وكان عمّه محمد بن مرزوق (الثالث بين المحمدين، والخطيب الأول) يتولى خطابة مسجد العباد الكبير - الذي بناه السلطان أبو الحسن أيام الحصار - فتوفي في تلك الأثناء؛ الأمر الذي سهّل على صاحب الترجمة؛ الانتصاب على منبر الخطابة في مكانه. ولما سمعه أبو الحسن يشيد به، وبنوه بفضله، ويصرح بجلالة قدره؛ استحسن قوله؛ وقربه إليه، واختصه، وأدناه؛ فالتحق بمجلسه، وانخرط ضمن أعوانه؛ بل رافقه في غزواته؛ إذ شارك في موقعة طريف؛ واستعمله السلطان أبو الحسن في سفارته؛ نحو الأندلس، ومملكة قشتالة؛ فقام بالمهمة

¹ هذا ما قاله ابن خلدون في التعريف، ص: 50. بينما ذكر ابن مريم أنه عاد في 733هـ/1332م؛ أنظر البستان، ص: 184. ويبدو أن خبر ابن خلدون أقرب للواقع.

أحسن قيام؛ حين أنقذ ولده أبا عمر تاشفين من
أسر النصارى.

ولما زحف السلطان المرينى نحو إفريقية؛ كان
محمد بن مرزوق في قشتالة؛ فلم يحضر موقعة
القيروان. ولم يعلم بخبر الهزيمة إلا حين وصل إلى
قسنطينة؛ مرفوقاً ببعض زعماء النصارى؛ الذين
وفدوا معه لعقد الصلح؛ فقرّر - بعد النكبة، وبعد
ثورة أهل قسنطينة عليهم - الاتحاق بفاس؛ فرجع
ضمن موكب حظية السلطان أبي الحسن، وأم أبي
عنان؛ التي كانت في طريقها إلى زوجها؛ فاضطرت
إلى العودة؛ بعد سماع ما جرى للسلطان. وعند
وصوله إلى حاضرة بني مرين؛ استأذن في العودة إلى
تلمسان؛ فأذن له؛ حيث أقام بالعباد. وكانت تلمسان
- في تلك الفترة - تحت سلطة الأخوين أبي سعيد
عثمان، وأبي ثابت الزعيم؛ ولدي عبد الرحمن بن
يحيى بن يغمراسن. فكلف السلطان أبو سعيد ابن
مرزوق صاحب الترجمة بالاتصال سراً بأبي الحسن؛
المتواجد في نواحي الجزائر؛ للاتفاق معه؛ ولكن أبا
ثابت استنكر ذلك التصرف من أخيه؛ دون أن
يستشير في الأمر؛ ثم بعث من يلحق بابن مرزوق
ويردّه. ولما وصل زُجَّ به في السجن؛ ثم نُفي إلى

الأندلس. وفي تلك الديار وجد كل ترحاب وحفاوة استقبال من قبل سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف ووزيره وكتابه ابن الخطيب؛ وأسندت إليه الخطابة في جامع الحمراء؛ إلى أن استدعاه أبو عنان - في سنة 754هـ/1353م؛ بعد موت والده أبي الحسن، واستيلائه على تلمسان - فعاد دون تردد؛ فقربه، ونظمه في مجلسه، وأحل له الرتبة التي وضعه فيها والده: ((ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه؛ وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي؛ يُدرّس في نوبته مع من يُدرّس في مجلسه منهم))¹. وفي سنة 758هـ/1356م؛ بعثه أبو عنان إلى تونس؛ خاطباً بنت سلطانها أبي يحيى لأبي عنان. ويقال أنها رفضت؛ بل اختفت عن الأعين؛ الأمر الذي أغضب أبي عنان؛ وحمل فشل المهمة إلى ابن مرزوق²؛ فزج به في السجن؛ ثم أطلق سراحه قبل مهلكة بفترة. ولما اعتلى السلطان المريني أبو سالم سدة الحكم؛ قرب إليه ابن مرزوق، وفوضه بمباشرة القضايا الهامة في دولته؛ بحكم معرفته به

¹ التعريف بابن خلدون، ص: 52.

² ((فردت تلك الخطبة، واختفت بتونس. ووشى إلى السلطان أبي عنان؛ أنه كان مطلعاً على مكانها؛ فسخطه لذلك)). التعريف، ص: 52.

في الأندلس؛ مقرر مفاهما جميعاً: ((وكان السلطان أبو سالم بالأندلس؛ غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان؛ مع بني عمهم... فلما توفي؛ أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب... فنزل بجبل الصفيحة من بلاد غمارة... وكان ابن مرزوق يداخله؛ وهو بالأندلس، ويستخدم له، ويفاوضه في أموره؛ وربما كان يكتبه وهو بجبل الصفيحة، ويدخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته. فلما ملك السلطان أبو سالم؛ رعى له تلك الوسائل أجمع؛ ورفع على الناس، وألقى عليه محبته، وجعل زمام الأمور بيده؛ فوطئ الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه. فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة، ونقموا على السلطان، وتربصوا به؛ حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان؛ وقتله عمر بن عبد الله [الفودودي]؛ آخر اثنين ووستين [وسبعمائة]؛ وحبس ابن مرزوق؛ وأغرى به سلطانه الذي نصبه؛ محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسين؛ فامتحنه، واستصفاه؛ ثم أطلقه؛ بعد أن رام كثير من

أهل الدولة قتله؛ فمنعه منهم. ولحق بتونس)).¹
فالتحق بتونس سنة 764هـ/1362م²؛ أين ولاه السلطان
أبو إسحاق الحفصي الخطابة في جامع الموحدين.
وبقي حاله هكذا؛ إلى أن استولى على سدة الحكم في
تونس السلطان أبو العباس سنة 772هـ/1368م؛
وكان يبغض ابن مرزوق؛ لأمر قديم؛ حدث في
فاس أيام أبي سالم³. فأقاله أبو العباس من خطة
الخطابة؛ فاستاء لذلك، وتأثر نفسياً؛ إلى الحد الذي
قررّ فيه الرحلة إلى المشرق؛ فسرّحه السلطان؛
فرحل عن طريق البحر إلى الإسكندرية؛ ومنها انتقل
إلى القاهرة؛ أين اجتمع بالعلماء والأمراء؛ فأوصلوه
إلى السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد
ابن قلاوون؛ الذي ولاه في بعض الوظائف العلمية؛
فتولى التدريس بالشخنية، والصرغتمشية، والقمحية.
وبقي على ذلك إلى أن هلك بالقاهرة في ربيع الأول
من سنة 781هـ/1379م: ((ولم يزل مقيماً بالقاهرة؛

¹ التعريف بابن خلدون، ص: 52 - 53.

² في البستان سنة 766هـ. والأصوب 764هـ؛ وهو ما ذكره ابن خلدون
في التعلايف، ص: 53..

³ ((وكان ابن مرزوق يستريب منه [أي من أبي العباس]؛ لما كان يميل -
وهو بفاس - مع ابن عمّه أبي عبد الله محمد؛ صاحب بجاية؛ ويؤثره
عند السلطان أبي سالم عليه)). التعريف بابن خلدون، ص: 54.

مؤَقَّر الرُّبَّة، معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء
المالكية، ملازماً للتدريس في وظائفه؛ إلى أن هلك
سنة إحدى مئتين [وسبعمائة]¹.

وقد خصص ابن الخطيب لمحمد بن أحمد بن
مرزوق ترجمة واسعة شافية وافية؛ نثبتها هنا
لقيمها الأدبية: ((هذا الرجل من طُرفِ دَهرِه ظرفاً
وخصوصية ولطافة، مليح التوسل² حسن اللقاء،
مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف
التأني³، خَيْرُ البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان،
طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب
على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار
السلطين والأمراء؛ يسحرهم بخلاصة لفظه، ويفتلمهم⁴
في الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم
الكمينة بحذقه، ويصنع⁵ غاشيتهم بتلطفه، ممزوج
الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة بالبسط،
عظيم المشاركة لأهل وده، والتعصب لإخوانه، ألف

¹ التعريف بابن خلدون، ص: 55.

² في جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الإعلام مدينة فاس: ((الترسل)).

³ في النفح: ((التأني)).

⁴ أي يداورهم.

⁵ في النفح: ((ويصطنع)).

مألف، كثير الأتباع والعَلَق¹، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط، أتيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون، من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقرئ ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هَيَابَة². رحل إلى المشرق في كنف حشمة نم جناب والده رحمه الله، فحج وجاور، ولقي الجلة، ثم فارقة، وقد عرف بالمشرق حقّه، وصرف وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره، اشتمالاً خاطه بنفسه، وجعله مفضي سرّه، وإمام جمعته وخطيب منبره، وأمين رسالته، فقدم في غرضها على الأندلس في أواخر عام ثمانية وأربعين وسبعماية³، واجذبه⁴ سلطانها رحمه الله، وأجراه على تلك الوتيرة، فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية⁵، وأقعه للإقراء بالمدرسة من حضرته. وفي أخريات

¹ أي الذين يتعلقون ويلتصقون به.

² في النفح: ((هَيَاب)).

³ الموافق لـ 1347م

⁴ في النفح: ((فاجتذبه)).

⁵ الموافق لـ 1352م

عام أربعة وخمسين بعده أطرف عنه حفن بره¹،
في أسلوب طماح ودالة، وسبيل هوى وقحة،
فاغتم العبرة²، وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل
العزيمة، واتصرف عزيز الرحلة، مغبوط المنقلب، في
أوائل شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية³،
فاستقر بباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبي
عنان فارس في محل تجلة، وبساط قرب، مشترك
الجاه، مجدي التوسط، ناجع الشفاعة، والله يتولاه
ويزيده من فضله⁴)).

أما شيوخ محمد بن مرزوق؛ فقد ذكرهم في
كتابه المعنون بـ "عجالة المستفز المستجاز في ذكر
من سُمع من المشايخ؛ دون من أجاز من أئمة
المغرب والشام والحجاز". فيما يلي بعض أسمائهم
حسب ما ورد في الديباج المذهب، ونفح الطيب،
ومقدمة تحقيق كتاب المسند الصحيح الحسن. وهم:

1 - العلامة عز الدين أبو محمد الحسن بن علي
ابن إسماعيل الواسطي. 2 - الشيخ الإمام جمال
الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن

¹ في النفح: ((وخمسين صرف عنه حفن بره)).

² نفسه: ((الفترة)).

³ الموافق لـ 1353م.

⁴ الإحاطة في أخبار غرناطة، القسم الثالث، ص ص: 622 - 624.

عيسى الخزرجي المطري. 3 - محيي الدين أبو
زكرياء يحيى بن محمد المغراوي التونسي. 4 -
نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الحجار
الفراس. 5 - شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني.
6 - شرف الدين بن محرز الأحميمي بن
الأسيوطي. 7 - عز الدين خالد بن عبد الله
الطواشي. 8 - شهاب الدين أحمد بن عبد الله
المعيشي. 9 - بهاء الدين موسى بن سلامة المدلجي
الشافعي المصري. 10 - أبو طلحة الزبير بن أبي
صعصعة بن علي الأسواني. 11 - عفيف الدين عبد
الله المطري. 12 - أبو البركات أيمن بن محمد
ابن محمد بن أيمن التونسي. 13 - أبو محمد عبد
الله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي. 14 -
أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي
زكنون. 15 - شرف الدين أبو عبد الله عيسى بن
عبد الله الحجبي المكي. 16 - زين الدين أحمد
محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي
بكر الطبري المكي. 17 - شرف الدين خضر بن
عبد الرحمن العجمي. 18 - حيدر بن عبد الله
المقريء. 19 - برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن
إبراهيم الأربلي. 20 - مصلح الدين الحسن بن عبد

الله العجمي. 21 - أبو الصفا خليل بن عبد الله
 القسطلاني التوزري. 22 - عفيف الدين أبو محمد
 عبد الله بن أسعد اليافعي. 23 - فخر الدين عثمان
 ابن أبي بكر النويري المالكي. 24 - شهاب الدين
 أحمد بن الحرازي اليمني. 25 - نجم الدين محمد
 ابن جمال الدين بن عبد الله بن المحب الطبري.
 26 - جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
 ابن براجين الفشيري التلمساني. 27 - شرف الدين
 عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب. 28 -
 فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن
 أيوب. (وهي أخت عيسى المذكور قبلها). 29 -
 فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد
 ابن إبراهيم الطبري المكي. 30 - أبو الربيع سليمان
 ابن يحيى بن سليمان المراكشي السفاح. 31 - عز
 الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة
 الكنائي. 32 - علاء الدين القونوني. 33 - تقي الدين
 محمد الأخنائي. 34 - جلال الدين القزويني. 35 -
 البرهان الحنبلي. 36 - محمد بن محمد بن نباتة
 الفارقي. 37 - أبو محمد بن المنير. 38 - أحمد
 الجوهري الحلبي. 39 - يحيى المقدسي المصري. 40
 - محسن القرشي. 41 - الشهابي الحنبلي. 42 - فتح

الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن
محمد بن يحيى بن سيد الناس اليعمري. 43 -
شمس الدين أبو بكر بن محمد بن محمد بن
محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد
الناس اليعمري. 44 - أبو حيان. 45 - شهاب الدين
أبو العباس أحمد بن أبي بكر الزبيري المصري. 46
- الشمس بن عدلان. 47 - الشهاب البوشي المالكي.
48 - تاج الدين أبو عبد الله بن أحمد بن ثعلب
المصري (ابن الكشتغري). 49 - تقي الدين السبكي.
50 - شمس الدين الأسواني. 51 - أحمد الفاربي. 52
- أحمد بن عبد الرحيم السمرنائي. 53 - البرهان
الحكري. 54 - شمس الدين محمد بن جابر الوادي
آشي. 55 - أبو محمد عبد الكريم التونسي. 56 -
صالح بن عبد العظيم العسقلاني. 57 - شمس الدين
محمد بن القماح. 58 - تاج الدين علي التبريزي.
59 - شمس الدين محمود الأصبهاني. 60 - برهان
الدين إبراهيم الصفاقسي. 61 - فاطمة بنت محمد
البكري. 62 - أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي. 63
- علاء الدين علي الأيوبي. 64 - نور الدين محمد
ابن الصائغ. 65 - محمد بن علي الأندلسي. 66 -
برهان الدين الجعبري. 67 - برهان الدين ثم

الفرکاح. 68 - شمس الدين بن مسلم. 69 - أحمد
المرادي بن العشاب. 70 - أبو القاسم بن علي بن
البراء. 71 - ناصر الدين بن المنير. 72 - أبو
محمد جابر بن عبد الغفار. 73 - محمد بن حسن
القرشي الزبيدي. 74 - عمر بن عبد العزيز بن
عبد الرفيغ. 75 - محمد بن عبد السلام الهواري.
76 - محمد بن راشد الققسي. 77 - أبو موسى
هارون. 78 - أبو عبد الله التلمساني (تعتقد
مارياخيسوس محقة المسند أنه يكون: محمد بن عبد
النور التلمساني). 79 - محمد بن هارون الكنائي. 80
- يحيى بن عصفور التلمساني. 81 - أبو محمد
سعد الله بن أبي القاسم ابن البراء. 82 - أبو عبد
الله بن حيون. 83 - أبو محمد بن راشد. 84 -
أبو علي ناصر الدين المشدالي. 85 - محمد بن
عبد الله بن يلبخت الزواوي. 86 - محمد المسفر.
87 - محمد بن هدية. 88 - عبد الله بن عبد
الواحد المجاصي (البكاء). 89 - محمد بن علي
الآبلي. 90 - سعيد بن إبراهيم بن علي (أبو
إسحاق الخياط). 91 - أبو زيد عبد الرحمن بن
الإمام. 92 - أبو موسى عيسى بن الإمام. 93 -
حسن بن يوسف بن يحيى بن محمد الحسيني. -

94 - محمد بن علي بن سليمان السطبي. - 95 -
محمد بن عبد الرزاق الجزولي. وثمة مجموعة
أخرى من شيوخه وردت في كتاب ابن فرحون
الديباج المذهب¹؛ ومنعاً للإطالة نكتفي بهذا؛ خاصة
وأن الروايات تقول أن عدد شيوخه يصلون إلى ألفي
شيخ تقريباً¹؛ بين من لازمه، ومن سمع عنه،
ومن جالسه لوقت ما. غير أنه صرح بنفسه في
خطاب كتبه بخط يده؛ أن عدد من قرأ عنهم
مائتين وخمسين شيخاً². أما تلاميذه فهم عديدون؛
وأهمهم: 1 - لسان الدين بن الخطيب. 2 - أحمد
ابن قنفذ القسنطيني (ابن الخطيب القسنطيني). 3 -
أبو القاسم البرزالي. 4 - عبد الله بن محمد
الشريف التلمساني. 5 - محمد بن أحمد بن علوان
المصري التونسي. 6 - محمد بن يوسف الصريحي
(ابن زمرك). 7 - إبراهيم بن محمد بن علي
التازي. أما مؤلفات ابن مرزوق الخطيب؛ فقد
أشارت إليها بعض المصادر؛ كالبيستان، أهمها: 1 -
تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام؛ في خمسة
أسفار. جمع فيه مضمون ما شرحه: تقي الدين

¹ أنظر نفع الطيب، ج: 5، ص: 394. والديباج المذهب، ج: 2، ص: 293.

² البيستان، ص: 187. نيل الابتهاج، ص: 453.

ابن دقيق، وتاج الدين الفاكهاني؛ ثم أضاف ما
عنده من فوائد عديدة. 2 - برح الخفاء في شرح
الشفاء؛ وجد حتى الآن منه خمسة مجلدات. وهو
شرح لكتاب أبي الفضل عياض المعنون بـ"الشفاء في
التعريف بحقوق المصطفى". 3 - شرح الأحكام
الصغرى؛ لعبد الحق بن عربي الإشبيلي. 4 - إزالة
الحاجب عن فروع [أو لفروع] ابن الحاجب. 5 -
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي
الحسن. 6 - عجالة المستوفر [أو المستوفى] المستجاز
في ذكر من سمع؛ دون من أجاز من أئمة المغرب
والشام والحجاز. 7 - جني الجنين في فضل الليلتين.

شعره

- وهذه قصيدة استهلها بمطلع قصيدة لابن الخطيب؛
استقبله بها - ضمن خطاب ترحيب - حين قدومه
رسولاً عن سلطانه إلى فاس. فقال لسان الدين:
((ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة،
خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما
نصه))¹:

يا قادماً وافى بكل نجاج
أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي نرى ملك الملوك فلذ بها
تتل المنى وتقز بكل سماح
معنى الإمام أبي عنان يمين
تظفر ببحر في العلى² طفاح
من قاس جود أبي عنان ذي الندى³
بسواه قاس البحر بالضحضاح⁴

¹ الإحاطة، القسم الثالث، ص ص: 628 - 630.

² في الاستقصا: ((بالندا)).

³ في النفح: ((في الندى)).

⁴ الضحضاح: الماء القليل.

ملك يفيض على العفاة نواله
قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدى¹ في الندى
ذكر محاه من نداه ماح
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله²
من أريحي للندى مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا
قد ألحفوا منه بظل جناح
وهمى على العافين سيب نواله
حتى حكى سح الغمام الساح
فنواله وجلاله وفعاله
فاقت وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت
كل المنى تتقاد بعد جماح
من كان ذا ترخ فروية وجهه
متلافة الأحزان والأتراح

¹ يقصد بكعب: كعب بن مامة بن عمرو الإيادي الذي يضرب المثل بجوده؛ أما ابن سعدى؛ فهو: أوس بن خالد ابن حارثة بن لام الطائي. يضرب به المثل في الجود والفضل.
² في النفخ: ((ما إن سمعت ولا رأيت بمثله)).

فانهض أبا عبد الإله تقز بما
تبغيه من أمل ونيل نجاح
لا زلت ترتشف الأمانى راحة
من راحة المولى بكل صباح

والحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا
تحصى حمداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى، فيبلغ
الأمَد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي لأسى في
خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتغال بلبال¹،
ولقدومكم على هذا المقام² العلي في ارتقاب،
ولمواعدكم³ بذلك في تحقق وقوعه من غير شك
ولا ارتياب، فهأ أنت تجتلي، من هذا المقام العلي،
لِنَشِيعَكَ⁴ وجوه المسرات صباحاً، وتتلقى أحاديث
مكارمه ومواهبه مسندة صباحاً بحول الله. ولسيدي
الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه
ولجامه، فهو من بعض ما لدى المحب⁵ من

¹ البلبال: الوسواس.

² في النفح: ((هذا المحل المولوي)).

³ نفسه: ((ولمواعدكم)).

⁴ نفسه: ((بَنَشِيعَكَ)).

⁵ نفسه: ((المعظم)).

إحسان مولاي¹ وإنعامه. ولعمري لقد كان وافداً
على سيدي في مستقره مع غيره. فالحمد لله
الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله.

— فأجابه ابن الخطيب بقصيدة مطلعها:

راحت تذكرني كؤوس الراح والقرب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما دل النسيم على ابتلاج صباح

— هذه قصيدة قالها ابن مرزوق في فاس بمناسبة
حفل عقد لإحياء ليلة الميلاد المبارك من سنة
763هـ/1361م:

[أيانسيم]² السحر بالله³ بلغ خبر
إن أنت يوماً بالحمى جررت فضل المئزر
ثم حثت الخطو من فوق الكثيب الأعفر
مستقرياً في عشبه خفي⁴ وطء المطر
تروي عن الضحك في الر وضٍ حديث الزهر

¹ في النفح: ((مولاه)).

² نفسه: ((قل لنسيم)).

³ نفسه: ((الله)).

⁴ نفسه: ((مخفي وطء)).

مخلق الأنفال بالـ عبير أو بالعنبر
وصف لجيران الحمى وجدي بهم وسهري
وحقهم ما غيرت ودي صروف الغير
لله عهد فيه قَضَّ يَت حميد الأثر
أيامه هي التي أحسبها من عمري
وباليل فيه ما عيب بغير القصر
العمر فينان ووجـ ه الدهر طلق الغرر
والشمـل بالأحباب منـ ظوم كنظم الدرر
صفو من العيش بلا شائبة من كدر
ما بين أهل تقطف الـ أنس جني الثمر
وبين آمال تبيـ ح القرب صافي الغدر¹
يا شجرات الحي حيـ اك الحيا من شجر
إذا أجال الشوق في تلك المغاني فكري
خرجت من خدي حديـ ث الدمع فوق الطرر
وقلت يا خدُّ أروِ منْ دمعي صحاح الجوهري
عهدي بحادي الركب² كالـ ورقاء عند السحر

¹ مفردها غدير: وهو النهر، أو بقية من الماء يتركها السيل.

² أي الذي يتغنى بالحداء لتنشيط حرطة الإبل في سيرها.

والعيس تجتاب الفلا واليَعْمَلَاتُ¹ تَنْبَرِي²
تخبط بالأخفاف مظل لوم البرى³ وهو برى⁴
قد عطف عن مَيِّدٍ والتفت⁵ عن حور
قسي⁶ ستر ما سوى الـ عزم لها من وتر
حتى إذا الأعلام حلـ لـت لحفي البشر
واسبتشر النازح بالـ قرب ونيل الوطر
وعين الميقات للـ فر⁶ نجاح السفر
والناس⁷ بين محرم بالحج أو معتمر
لبيك لبيك إلـ ه الخلق باري الصور
ولاحت الكعبة بيـ ت الله ذات الأثر

¹ مفردا يَفْعَلَة: وهي الناقة النجيبة المطبوعة على العمل.

² أي تباري بقية الإبل في السرعة.

³ البرى هنا: التراب.

⁴ أي برىء؛ وقد خففت الهمزة واكتفى بالياء.

⁵ في النفح: ((والتفتت))؛ وهو أسلم.

⁶ أي للمسافرين.

⁷ في النفح: ((فالناس)).

مقام إبراهيم¹ والم آمن عند الذعر
واغتم القوم طوا ف القادم المبتدر²
وأعقبوا ركعتي السّ عي استلام الحجر³
وعرفوا في عرفا ت كل عرف أذفر⁴
ثم أفاض الناس سعي أ في غد للمشعر⁵
فوقفوا وكبروا قبل الصباح المسفر

¹ مقام إبراهيم: هو الحجر الذي وقف عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام. وضعه له ابنه إسماعيل؛ ليقف عليه؛ وهو يرفع الحجارة على الكعبة؛ فأنطبع أثر قدميه عليه بشكل غائر. وبقي هذا الحجر ملتصقاً بحائط الكعبة؛ إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ الذي فصله عن البيت، وأخره بضعة أمتار؛ لئلا يشغل المصلين والطائفين. وما تزال أثر قدمي إبراهيم الخليل ظاهرة على الحجر إلى الآن. وقد أحيط بغطاء زجاجي موّطر بدعائم مذهبة لحمايته من التأثيرات المناخية.

² أي المبادرة بسرعة والشروع في طواف القدوم.

³ أي استلام الحجر الأسود؛ سواء بالمسح عليه أو بتقبيله.

⁴ أي: كل ذي رائحة طيبة.

⁵ هو المشعر الحرام؛ بين عرفات ومنى؛ يسمى مزدلفة. وفيه قل سبحانه وتعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ فِرَاقاً أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَزَافَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَبَراً هَذَاكُمْ وَلَنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَبِيقَ الضَّالِّينَ». سورة البقرة؛ الآية: 198. وقد اختلف في تحديد مكان المشعر بالضبط؛ فمن قائل في جبل قزح الراض في آخر مزدلفة؛ وقائل ما بين، الجبلين. ولكنهم أجمعوا على المزدلفة كلها. وجاء في الأثر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم ((صلى الفجر بالمزدلفة، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام؛ فدعى وكبر وهلل؛ ولم يزل واقفاً حتى أسفر)).

وفي منى نالوا المنى وأيقنوا بالظفر
وبعد رمي الجمرات كان حلق الشعر
أكرم بذاك الصحب¹ والـ له وذاك النفر²
يا فوزه من موقف ياربحه من متجر
حتى إذا كان الوداع وطواف الصدر³
فأي صبر لم يخن أو جلد لم يغدر
وأي وجد لم يصل وسلوة لم تهجر
ما أفجع البين لقلـ ب الواله المستغفر⁴
ثم ثنوا نحو رسول الله سير الضمر
فعاينوا في طيبة⁵ لألاء نور نير
زاروا رسول الله واسـ تشفعوا بلثم الجدر
نالوا به ما أملوا وعرجوا في الأثر
على الضجيعين أبى بكر الرضا وعمر
زيارة الهادي الشفيـ مع جنة⁶ في المحشر
فأحسن الله عزاء قاصد لم يزور

¹ في النفح: ((السقر)).

² نفسه: ((السقر)).

³ طواف الصدر: هو طواف الوداع؛ (الطواف الأخير)؛ ومنه يتجهز الناس للعودة إلى بلدانهم.

⁴ في النفح: ((المستغفر)).

⁵ طيبة: أحد أسماء المدينة المنورة.

⁶ أي وقاية.

ربع ترى مستزل الـ آي به والسور
 وملقى جبريل بالـ هادي الزكي العنصر
 وروضة الجنة بـ ين روضة ومنبر¹
 منتخب الله ومخـ تار الوري من مضر²
 والمنتقى والكون من ملابس الخلق عري
 إذ لم يكن في أفق من زحل أو مُشْتَرٍ³
 ذو المعجزات⁴ الغرّ أمـ ثال النجوم الزهر
 يشهد بالصدق له منها انشقاق القمر
 والضرب والظبي إلى نطق الحصى والشجر
 من أطعم الألف بصا ع في صحيح الخبر
 والجيش رواه بما ء الراحة المنهمر
 يا نكتة الكون التي فاتت منال الفكر
 يا حجة الله على الـ رائح والمبتكر
 يا أكرم الرسل على الـ له وخير البشر

¹ الروضة الشريفة: تقع وسط، وفي مقدمة المسجد النبوي؛ وملاصقة لبیت رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره. قال فيها عليه الصلاة والسلام: ((ما بين منبري وبين روضة من رياض الجنة؛ ومنبري على حوضي))؛ وفي رواية: ((ومنبري على ترعة من ترع الجنة)).

² مضر بن نزار بن معد بن عدنان. أبو عرب الشمال.

³ في النفتح: ((ومشترى)).

⁴ سيذكر - فيما يلي - بعض معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومنها: انشقاق القمر، وكلام: الضب والظبي والحصى والشجر، وإطعام الجيش بصاع، وارتجاج إيوان كسرى، وانطفاء نار المجوس... إلخ.

يا من له التقدم الـ حق على التأخر
 يا من لدى مولده المقدس المطهر
 إيوان كسرى ارتج إذ ضاقت¹ قصور قيصر
 وموقد النار طفا كأنها لم تسعر²
 يا عمدتي يا ملجئي يا مفزعي يا وزري
 يا من له اللواء والـ حوض وورد الكوثر
 يا منقذ الغرقى وهم رهن العذاب الأكبر
 إن لم تحقق أمني بُوتُ بسعي المخسر
 صلى عليك الله يا نور الدجا المعتكر
 يا ويح نفسي كم أرى من غفلي في غمر³
 واحسرو⁴ من قلتي الـ زّاد وبعد السفر
 يحجني والله بالـ برهان وعظ المنبر
 يا حسنهما من خطب لو حركت من نظري⁵
 يا حسنهما من شجر لو أورقت من ثمر
 أو مل الأوبة والـ أمر بكف القدر

¹ في النفج: ((ضاعت)).

² جاء هذا البيت في نفح الطيب هكذا: ((وموقد النار طفى * كأنه لم يسعر)).

³ ورد هذا الشطر في النفج هكذا: ((في غفلة من غمري)).

⁴ في النفج: ((واحسرتي))؛ وهو أصوب.

⁵ نفسه: ((نظري)).

أَسَوَّفُ العِزْمَ بِهَا¹ مِنْ شَهْرِ لَشَهْرٍ
 مِنْ صَفَرٍ لِرَجَبٍ مِنْ رَجَبٍ لَصَفَرٍ
 ضِيعَتْ فِي الْكِبَرَةِ مَا أَعْدَنْتَهُ فِي صَغَرِي
 وَلَيْسَ مَا مَرَّ مِنْ الْـ أَيَّامِ بِالْمُنْتَظَرِ
 وَقُلْ مَا أَنْ حَمَدْتُ سَلَامَةَ فِي غُرُرِ
 وَلِي غَرِيمٍ لَا يَنْيَ عَنْ² طَلَبِ الْمُنْكَسَرِ
 يَا نَفْسَ جَدِي قَدْ بَدَا الْـ صَبْحُ أَلَا فَاعْتَبِرِي
 وَاتْعَظِي بِمَنْ مَضَى وَارْتَدَّعِي وَازْدَجِرِي
 مَا بَعْدَ شَيْبِ الْفُودِ مِنْ مَرْتَقِبِ فِشْمَرِي
 أَنْتِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى فِي قَلْعَةٍ³ أَوْ سَفَرٍ⁴
 وَلَيْسَ مِنْ عَذْرِ يَقِيْـمِ مِمْ حِجَّةِ الْمُعْتَذِرِ
 يَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْمَنَى تَسْرِقُ طَيْبَ الْعَمْرِ
 هَلْ ارْتَجِي مِنْ عَوْدَةٍ أَوْ رَجْعَةٍ أَوْ صَدْرِ
 فَأُبْرِدَ الْغَلَّةَ مِنْ ذَاكَ الزَّلَالِ الْخَصِيرِ⁵
 مَقْتَدِيًّا بِمَنْ مَضَى مِنْ سَلَفٍ وَمَعْشَرِ
 نَالُوا جَوَارِ اللَّهِ وَهُوَ الْفَخْرُ لِلْمَفْتَخَرِ

¹ فِي النَّفْحِ: ((بِه)).

² نَفْسُهُ: ((فِي)).

³ أَيِ فِي انْتِقَالِ.

⁴ فِي النَّفْحِ: ((وَسَفَر)).

⁵ أَيِ الْعَذْبِ الْبَارِدِ.

أرجو بإبراهيم مو لانا بلوغ الوطر
فوعده لا يمتري في الصدق منه الممتر¹
فهو² الإمام المرتضى والخير ابن الخير
أكرم من نال المنى³ بالمرهفات البتر
ممهد الملوك وسي ف الحق والليث الجري
خليفة الله الذي فاق بحسن السير
وكان منه الخبر في الـ علياء وفق الخبر
فصدق التصديق من مرآه للتصور
ومستعين الله في ورد له وصدر
فاق الملوك الصيد⁴ بالـ مجد الرفيع الخطر
فأصبحت ألقابهم منسية لم تذكر
وحاز منهم⁵ أوحـ وصف العديد الأكثر
برأيه المأمون أو عسكره المظفر⁶
بسيفه السفاح أو بعزمه المقتدر
بالعلم المنصور أو بالذابل المستنصر⁷

¹ في النفح: ((ممتري)). والممتري: هو الذي يشك في شيء ما.

² نفسه: ((وهو)).

³ نفسه: ((الغلا)).

⁴ في النفح: ((الصيد)).

⁵ نفسه: ((منه)).

⁶ سيشير فيما يلي بتورية إلى بعض الخلفاء العباسيين.

⁷ في النفح: ((المنتصر)).

بابن¹ الإمام الطاهر البر الزكي السير
مدحك قد علم نظم الشعر من لم يشعر²
جهد المقل اليوم من مثلي كوسع المكثّر
فإن يقصر ظاهري فلم يقصر مُضمّري

- هذه المقطوعة أوردتها أحمد المقري في أزهار
الرياض؛ ونسبها لابن مرزوق³:

وَجَمَاعَةٌ عُرِفَتْ لَعُمُرِي بِالسُّقَّةِ
وَتَمَسَّكَتْ بِضَلَالِ أَهْلِ الْفَلَسَفَةِ
عَدَلْتُ عَنِ النَّهْجِ الْقَوِيمِ فَلَقَّبْتُ
عَدَلِيَّةً وَعَدُولَهَا عَنْ مَعْرِفَةِ
ضَلَّتْ وَقَالَتْ لَنْ يُرَى رَبُّ الْوَرَى
يَوْمَ الْجَزَاءِ فَأَلْزَمْتُ نَفِي الصَّفَةِ
هَذَا وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ زَلَّتْ وَكَمْ
مِنْ مَذْهَبٍ ذَهَبَتْ بِهِ فِي مَنَافَةِ

¹ في النفح: ((يا ابن)).

² نظم ابن مرزوق هذه الأبيات الأخيرة؛ بغرض إقناعها في المولد النبوي؛
أمام السلطان المريني أبي سالم إبراهيم بن علي؛ ولكن هذا الأخير لقي
مصرعه قبل المولد النبوي في سنة 762هـ/1360م.

³ أنظر أزهار الرياض، ج: 3، ص: 301.

وَكَذَلِكَ أَسْلَمَتِ الْأُمُورُ لِنَفْسِهَا
هِيَ هَاتِ تَنْقِذُ نَفْسَهَا مِنْ مُتْلَفَةٍ
كَيْفَ السَّبِيلُ لِيَصْرِفَهَا عَنْ غِيَّهَا
وَالْعَدْلُ يَمْنَعُ صَرْفَهَا وَالْمَعْرِفَةُ

- وهذه مقطوعة ارتجلها أثناء وجوده في فسحة
مع سلطان غرناطة: ((ركب مع السلطان خارج
الحمراء، أيام ضربت اللوز قبابها البيض، وزينت
الفحص العريض، والروض الأريض¹، فارتجل في
ذلك))²:

أنظر إلى النوار في أغصانه
يحكي النجوم إذا تبدت في الحلك
حيا أمير المسلمين وقال قد
عميت بصيرة من بغيرك متلأ³
يا يوسفأ حزت الجمال بأسره
فمحاسن الأيام تومي هيت لك¹

¹ أي كثير العشب.

² الإحاطة، القسم الثالث، ص: 627.

³ أي عميت بصيرة من زعم أن لك مثيلا.

أنت الذي صعدت به أوصافه
فيقال فيه ذا ملوك أو ملك²

- ولما قرّر الخروج من إفريقية راحلاً إلى مصر
قال هذه الأبيات مودعاً بها أهل تونس:
أودّعكم وأُنّي ثمّ أُنّي
على ملكٍ تطاول بالجميل
وأسأل رغبة منكم لربي
بتفسير المقاصد والسبيل
سلام الله يَشْمَلنا جميعاً
فقد عزم الغريب على الرحيل

¹ أي: هلم تعالى. وجاء هذا القول في الذكر الحكيم: °وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَاحُ°
°وَقَالَتِ حَيْثُ لَكَ°؛ سورة يوسف؛ من الآية: 23.

² اقتبس هذا من قوله تعالى: °وَقُلْ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ°. سورة يوسف؛ من الآية: 31. وقد سبق إثبات الآية كاملة.

- وهذا بيت بقي من قصيدة قالها في محنته عندما
سجن إثر مهلك أبي سالم:
رفعت أموري لباري النسيم
وموجدنا بعد سبق العدم

نثره

في خطاب؛ كتبه أثناء وجوده في سجن فاس؛ بعد مهلك السلطان أبي سالم، وتثقيفة من قبل عمر ابن عبد الله الفودودي¹: ((الحمد لله على كلِّ حال. خرج الطبراني² في منسكه، وأبو حفص المالتي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهم؛ قالاً: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية التي بأعلى مكة - وليس بها يومئذ مقبور - فقال: "يبعث الله من هنا سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب؛ يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً؛ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب؛ ووجوههم كالقمر ليلة البدر". فقال أبو بكر: من هم يا رسول الله؟ فقال: "هم الغرباء من أمتي؛ الذين يدفنون هاهنا". ففي هذا الموضع دفن والدي رحمه الله؛ وبعد سماعه هذا الحديث بسبعة أيام؛ دفن فيه. أفتراه لا يشفع فيمن أقل عشرة ولده؟ أفما يُشترى هذا بأموال الأرض؟ أفلا يُراعى

¹ كَتَبَ هذا الخطاب بخط يد ابن مرزوق الخطيب.

² في نيل الابتهاج، ص: 453. ((الطبري)).

لي ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً
 وأندلساً؟ أفلا يُراعَى لي أنه ليس اليوم يوجد من
 يَسُدُّ الأحاديث الصحاح سماعاً - من باب
 الإسكندرية إلى البربر¹ والأندلس - غيري؟ وقرأت
 عن نحو من مائتين وخمسين شيخاً؛ والله ما
 أعلمه؛ لكن حرمني الله منه؛ فنبذت الاشتغال به،
 وآثرت اتباع الهوى والدنيا؛ فهويت. اللهم غفرانك.
 أفلا يُراعَى لي مجاورة نحو اثني عشر عاماً -
 وختم القرآن - في داخل الكعبة، والإحياء في محراب
 النبي صلى الله عليه وسلم، والإقراء بمكة؟ ولا
 أعلم من له هذه الوسيلة غيري. أفلا يُراعَى لي
 الصلاة بمكة ستاً وعشرين سنة، وغربتي بينكم،
 ومحنتي في بلادي على محبتكم وخدمتكم؟ من ذا
 الذي خدمكم من الناس يخرج على هذا الوجه؟
 أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله من ذنوبي.
 ذنوبي أعظم، وربّي أعلم، وربّي أرحم؛ والسلام))².

¹ في نيل الابتهاج، ص: 453. ((من باب الإسكندرية إلى الريق والأندلس)).
² البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 187 - 188. ونيل
 الابتهاج، ص: 450 - 455.

محمد بن البناء (ابو عبد الله)

هو فقيه وأديب وشاعر. لا يعرف عنه أكثر مما ورد في كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد؛ مع أنه جيد الشعر، مليح الحبك. وصفه يحيى بن خلدون بقوله: ((كاتب مفلق ظريف، وشاعر جيد النظم))¹. ومن شعره قوله:

عيدو غيد وعود وابنة العود
يا ليلة جمعت شملي بها عُودي
وشادنِ خنث الأعطاف من تَرَفٍ
عَلَّقَتْهُ بَذْرَ تَمَ فَوْقَ أُمْلُودِ
يَجْنِي قَتَمَحُو حَنَائِهَ مُحَاسِنُهُ
وَالْجَمَالِ شَفِيعَ غَيْرِ مَرْدُودِ
لَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْ خَمْرِ بَرِيقَتِهِ
يَحْمِيهِ بِالْبَيْضِ مِنْ أَجْفَانِهِ السُّودِ
وَسَأَلْنَاهُ وَصَدُغَيْهِ فَقَالَ لَنَا
هَذِي الْمُدَامَةُ مِنْ تِلْكَ الْعَنَاقِيدِ

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 124.

ومن شعره هذه الموشحة التي وصفها يحيى بن
خلدون بـ((عذبة السماع، محكمة الصنعة))، جاء بها:

مَنْ أَطْلَعَ فَوْقَ مَا يَسِرُ الرِّيحَانِ بَذَرَ الْأَفْقِ
يَهْتَزُّ مُنْعَمًا عَلَى كُثْبَانِ تَحْتَ الْغَسَقِ

مَنْ نَمَّقَ خَدَّهُ بِرُضٍ أَنْفِ بادِي الْقَطْفِ
وَطَرَّزَهُ بِسَالِفٍ مُنْعَطَفِ رَقَمَ الصُّحُفِ
وَالثَّغَرُ غَدًا لِذُرِّهِ كَالصَّدَفِ قَدْ أَنْبَتَ فِي

مَرْجٍ قَدْ زَانَهُ مِنَ الْمَرْجَانِ بِالشُّهْدِ سُقِي
لَوْ جَادَ عَلَى فُؤَادِي الظَّمَانِ أَطْفَى حَرَقِي

بَذَرُ أَزَارُرُهُ تَبَدَّتْ فَلَاكَ قَلْبِي مَلَا
عَيْنَاهُ مَعَ الْهَوَى دَمِي سَفَا فِيهِ اشْتَرَا
قَدْ أَشْبَهَتْ أَلَمَهَا لَحْظًا فَتَكَ وَالْخَالَ حَكَ

مَسْكًا مُسْتَمْسِكًا عَلَى سُوسَانِ غَضُّ عَبِقِ
يُهْدَى كَنَسِيمِ جَنَّةِ الرِّضْوَانِ لِلْمُسْتَشْرِقِ

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 124.

حَالِي مُذْ غَبِتَ حَائِلٌ يَا قَمَرِي
أُنْسَى بِاللَّيْلِ مَعَ نِظَامِ الدُّرَرِ
إِنْ كُنْتُ جَهَلْتُ أَدْمَعِي كَالْمَطَرِ

حَالَ الْكَدَرِ
نَقَرَ الْوَتَرِ
قُلْ أَوْ سَهَرِي

فَسَأَلَ جُنْحَ الظَّلَامِ عَنْ هَيْمَانَ
يُنْبِي عَنْ فَيْضِ دَمْعِي الْهَتَّانِ

بَادِي الْقَلْقِ
أَوْ عَنْ أَرْقِي

الْهَجْرُ وَوَصَلُهُ عَدُوٌّ وَحَبِيبُ
وَالْقَلْبُ وَقْدُهُ كَصَخْرٍ وَقَضِيبُ
وَالرَّثْفُ وَخَصْرُهُ خَصِيبٌ وَجَدِيبُ

دَاءٌ وَطَبِيبُ
قَاسٍ وَرَطِيبُ
غُصْنٌ وَكَثِيبُ

قَدْ شَابَهُ مَا بِنُغْرِهِ الْفَتَّانِ
وَالنَّرَجَسُ ذَابِلٌ مِنَ الْأَجْفَانِ

مَا بِالْعُنُقِ
حَوْلَ الْحَقِّ

يَا صَاحَّ أَدْرُ عَلَيَّ وَالْوَجْدُ مُقِيمُ
مِنْ كَفِّ رَشَا مُهْفَفِ الْقَدِّ قَوِيمُ
دُرِّي الثَّغْرِ رِيْقُهُ كَالْتَّنْسِيمِ

أَقْدَاحُ نَعِيمِ
وَالطَّرْفُ سَقِيمِ
مِسْكِي نَسِيمِ

قَدْ أَطْلَعَ فِي كَوَاكِبِ الْقِطْعَانِ
هَذَا كَالْوَرْدِ عِنْدِي قَان¹

نُورِ الشَّفَقِ
وَذَا يَقَقُ

مَنْ أَنْبَأَهُ اللَّهُ نَبَأًا حَسَنًا
أَنْسَى الْغَزْلَانَ وَالْمَهَا حِينَ رَنَا
قُلْ كَيْفَ أَرْوَحُ دُونَ وَجْدٍ وَضَنَى

قَلْبِي سَكَنًا
مِنْهُ فَتَنًا
مِمَّنْ فَتَنًا

مَا أَخْجَلَ قَدُّهُ غُصُونِ الْبَانِ
إِلَّا وَسَبَى الْمَهَا مَعَ الْغَزْلَانِ

بَيْنَ الْوَرَقِ
سُودَ الْحَقِّ

¹ في نص: ((مثل بمي قان)).

محمد بن صالح

ابن شفرون

لا يعرف عنه سوى أنه أحد الكتاب في بلاط الدولة الزيانية؛ كما قال يحيى بن خلدون. بينما ورد ذكره في زهر البستان أيضاً؛ في أحداث عام 762هـ/1360م؛ خلال فتح الجزائر صلحاً؛ إذ قال مؤلف الكتاب: ((وفي ذلك يقول أحد الشعراء؛ من أهل الجزائر مستعظفاً المولى أبي حمو، ومصرحاً بمحبتهم في الباطن والظاهر؛ وهو محمد بن صالح البننسي))¹. وواضح هنا؛ أنه من بننسية أصلاً؛ فحمل اسمها؛ وسكن الجزائر؛ ولكنه التحق بخدمة أبي حمو إثر فتحه لمدينة الجزائر؛ فعمل في الكتابة ببلاطه.

¹ ورقة: 54 ظ.

- قل صاحب الترجمة هذه القصيدة في سنة
765هـ/1363م؛ إثر عودة السلطان أبي حمو من
غزوة شنّها في التخوم الغربية. ولم يرد ذكره بعد
هذه القصيدة:

حدّث عن الملك المنصور ما شئتَا
تجد ألدّ حديث يشبه القوتَا
وذع غرائب فتح كلها عجب
غدا النظام بها درأ وياقوتَا
واقرع بها كل أذن فهي واعية
فقد أذاعت له في العالم الصيتَا
إقطع بحسك قطعاً دون ما ريب
فإنه ملك ما شاءه يوتى
ولا يريبك شك أن نصرته
من السماء وما ينفك مبخوتَا
لا يستطيع عدو قرب ساحته
من رame بعناد عاد مكبوتَا
جرت على أفقه الأقدار حامية
له فزاد بها عزاً وتثبيتَا
كم من عرمرم قد أرذت كئابُهُ
وخلفُهُ بطعن الرمح منكوتَا

تنبئك همته عن سر مدته
فمن رآه بديها عاد مبهوتا
لا تستفز به الأهواء جملتها
ولا الرقى لا ولا أسحر هاروتا
مواقف الحرب لا تعدو أوامره
إن قال كفي لها لم تبد تعنيتها
وإن أشار بإغراء لها قصمت
ظهر العدو ونالت منه تشنيتها
أنظر إشارته في الغرب ما صنعت
لما أتاهم ثنوا نحو العرى ليتا
وأصبحوا شرّداً في البید قد جفلوا
مثل الظلیم غدا بالحل مسوتا
وأسلموا جزعاً للحين جامعهم
وخلفوه حليف الذعر مقليتا
ونافر البعض بعضا بعد ألفتهم
حتى لقد خلت ذا ضبّا وذا حوتا
وعاد ما جمعوا أيدي سبا بددا
بضعف رأي وقد جاعوا مصاليتا
لو أنهم سئلوا عن أصل جفلتهم
لقال أثبتهم خلت العفاريता

قل للأعارب والأعداء جاءكم
حامي الذمار فربح الموت مبعوثاً
دينوا ببيعة موسى دون ما نكر
فإنه سيف ملك جاء أصلياً
لا يرفع السيف عنكم غير طاعته
فاستملوا أمره لا تبدوا جبروتاً
كم منة نلتُم من جود راحته
إذ كان أعظمكم عاراً ومسنوتاً
أمدّكم بنعيم من مواهبه
ومد أيديكم خيراً وسبروتاً
فما رضيتم سوى كفران نعمته
تبّاً لكم جئتم نكراً وتبهيّاً
سيخلع السيف عنكم طوق منته
وذاك أجدر بالكفار تسميتاً
لا غرو أن الإمام العدل يرهقكم
على البهذية إيجاباً وتبهيّاً
وذاك فرض علينا كالصلاة فقد
مضى عليكم كتاب كان موقوتاً
من ينصر الله ينصر في بريته
ومن به يعتصم لم يُلف مكبوتاً

من ذا كموسى أمير المسلمين إذا
تدعى نزال ويغدو الشهم هرّيتا
ودارت الحرب نوراً كالرحى وسطت
على بنيتها ولما ترع تربيتا
هناك تعرفه عرفان منتقد
تحت العجاجة يستقري الطواغيتا
ورمحه كشهاب أثر مسترق
يردي العداة به صميا وتصميتا
يدير في أدهم الهيجاء أدهمه
كر الحماية قد أبدى المخافيتا
مولى أعاد رسوم الملك ظاهرة
بعد الدثور وقد لمّ الأشائيتا
وأمسد الحبل منهم يمن طلعتّه
إذا كان من قبلُ واهي المسد مبتوتا
ورد من عدم قوما إلى نعم
وانهال من كرم لا يختشى ليتا
فرض على كل عبد الواد طاعته
ومن سواه يروم الملك ملفوتا
لولا له لم تعرف الأعدا معاندة
ولا أقاموا ولو كان ابن صابوتا

فإن يكن جده ديناً يبوءُ به
فجامع الكل زيان لما شئنا
وفضل موسى على كل بسوؤدو
فقد أتى في بني زيان منعوتاً
به استقام قسطاس الملك دون مرآ
ومن به الملك يسمو راح كبريتاً
مولاي يهنيك نصر الله يا أملي
وللأنام بما في الفتح أعطيتاً
خذها إليك بقيت الدهر في دعة
من نظم ذي لسن ما زال سكيّتا
لا زلت في نعم شتى مجددة
لا تدع في غرض إلاّ ولبيّتا
مني عليك سلام نشره عطر
ما حمل الله جرم الأرض بهموتاً

- قال الشاعر هذه القصيدة إثر فتح الجزائر
صالحاً؛ والدخول إليها من قبل أبي يعقوب والد أبي
حمو:

هنيئاً لك الفتح الذي شرح الصدر
هنيئاً مريئاً حلّ ما [أوجب]¹ النصر
فسر لافتتاح الأرض آية وجهة
فلا وجهة بفتحكم [ترتضى]² ثغرا
وصادم بعبد الواد كل عرمرم
فإن لهم أن يحملوا الآلة الكبرا
وخوف بهم في الحرب كل مخوف
وشرد بهم قوما لهم أظهروا مكرا
وزلزل بلادا قد أناخ بها العدى
ولم يرقبوا في أهلها [شهورا ولا]³ دهرا
وجيش جيوش النصر من كل فرقة
وضيق على أعدائك البر والبحرا

¹ كلمة هنا غير واضحة؛ فعوضت بالكلمة الواردة بين حاصرتين.
² جاء هذا الشطر في الأصل هكذا: ((فلا وجهة بفتحكم ثغرا)). وهو مختل الوزن. والخلل في التفعيلتين: الثالثة والرابعة. لذا فقد أضفنا عبارة: ((ثبتقى))؛ ووضعناها بين حاصرتين؛ للتصويب.
³ جاء هذا الشطر في الأصل هكذا: ((ولم يرقبوا في أهلها دهرا)). وبذلك يكون قد أختل وزنه؛ بسبب التفعيلتين: الثالثة والرابعة. لذا فقد أضفنا عبارة: ((شهورا فلا))؛ ووضعناها بين حاصرتين؛ لكي يستقيم الوزن.

وهو على متن الزمان مكلكل
فقد نلت ملك الأرض فاستلزم الشكرا
لأنت أمير المؤمنين حقيقة
وخير بني زيان والملك الأسرى
وأكرم من تأتي الوفود لبابه
وأجزل من يعطي المواهب والخيرا
وأنجز من يحمي ويستملك الورى
وأشجع من هز القواضب والسمرا
وأزكى ملوك الأرض فخرا وخيمة
وأزكى فخارا إن هُمُ ذكروا الصدرا
وأضخم طود فوق صهوة سابع¹
إذا ما كساه طالبت في الوغى أجرا
ملك إذا شاهدت غرة وجهه
تشاهد نورا ساطعا قد علا البشرى
قضية إسعاد ويمن ورحمة
هو الطائر الميمون لن تزجر الطيرا
عليه إمارات المحاسن والعلى
وآيات مجد لا أطيق لها حصرا

¹ كتبت في الأصل: ((سابع))؛ بالياء. وربما حرفها الناسخ هكذا؛ وليس الشاعر. خاصة وأن الصفة الشائعة للجواد؛ هي: ((سابع))؛ بالياء.

يَنْبِئُ عَدِيمًا إِنْ غَدَا [بِعَذَابِهِ
عَتِيقَ عَطَاءٍ تَتَجَلَّى دُونَهُ الْبَشَرَا]¹
أَمْوَلَايَ مُوسَى زَادَكَ اللَّهُ رَفْعَةً
وَعِزًّا وَإِسْعَادًا وَأَوْلَاكُمْ يَسْرًا
وَكُنْ لِلْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ مَلْجَأً
وَخُذْ بِجَمِيلِ الْعَفْوِ وَاسْتَعْمِلِ الْبِرَا
وَرَاعِي الرِّعَايَا فَالرَّعِيَّةُ حِفْظُهَا
يَقِيمُ بِجَاهِ الْمَلِكِ مَا لَمْ يَنْرُدْ جُورًا
وَهَا هِيَ يَا مَوْلَايَ مَنِي قَصِيدَةٌ
أَنْتَ بِإِفْتِتَاحِ الْفَالِ فَتَحَ لَكُمْ خَيْرًا
بَشِيرًا بِأَنْ الْفَتْحَ يَوْمَ طُلُوكُمْ
عَلَى سَدَفَاتِ الْقَطْرِ حِينَ تَرَى الْقَطْرَا
فَلَا زِلْتَ يَا مَوْلَايَ تَسْتَعْبِدُ الْوَرَى
وَتَسْتَعِزُّ بِالْآلَاءِ² وَالْمَنْحِ الْكَثْرَا
وَلَا زِلْتَ الْإِيمَانَ تَخْدُمُ جَنْدَكُمْ
وَتَجْرِي عَلَى أَعْرَاضِكُمْ أَبَدًا يَسْرًا

¹ نسخ هذا البيت بشكل رديء؛ بحيث تعذر فهم جل كلماته. وعليه فقد عوضنا الكلمات القمضة ووضعها بين حاصرتين.

² الآلاء هي: النعم. وجاء في قوله تعالى: «فِي آيَاتِهِ لَكُمُ الْكُفَّانُ»؛ أي: فباي نعم ربكما تكذبان.

عليكم سلام يفضح¹ المسك نشره
ويزري بأزهار الخمائل ما مرّاً
متى هدهدت في الأيك أرق حمامة
[تشيد بذكر طالما أنلج الصدر]²

¹ هكذا. والأفضل هي كلمة: ((يفضح)) بالصاد المهملة؛ لأن كلمة ((يفضح)) بالضاد الموحدة الفوقية؛ تطلق على كشف المساوي.
² هذا الشطر غير واضح في الأصل تماماً. وعليه فقد وضعنا بدلاً منه شطراً آخر؛ ووضعناه بين حاصرتين؛ من أجل استكمال الفكرة المبتورة.

محمد بن علي

ابن قاسم المرسي

لا يعرف عن صاحب هذه القصيدة؛ سوى أنه أحد كتاب الدولة الزيانية؛ ولم يرد ذكره إلا في بغية الرواد.

— أورد يحيى بن خلدون هذه القصيدة؛ بين القصائد التي قيلت بغرض تهنئة السلطان أبي حمو على دخول تدلس في حماه ببيعة أهلها له؛ وذلك في 16 شعبان من عام 776هـ/1374م. وقائل هذه القصيدة هو من سمي بمحمد بن علي بن قاسم المرسي.

مولى الملوك وولحد الخلفاء

ومقرّ كلّ مجادة وعلاء

ومنول العافين ما لم يحوه

فكرّ ولا لمحتّه عين الرائي

لله في تكييف أمرك حكمة

بهرت شواهدا وسرّ سماء

حكمت بتسويغ السعادة والمنى

وقضت لعزكم بنصر لواء

فشأوت أملاك الزَّمان بأسرهم
شأواً علوت به عن النُّظراء
وغدوت أحرزهم لأسباب العلاء
طراً وأحوزهم لطيب ثناء
فليهنئك الفتح الذي عذبت به
بين الأنام موارد السَّراء
فإنه يجعله بداية أنعم
خولتها من واهب النُّعماء
مولاي يا كهف العفاة وواهب الـ
نعما ومسرح ألسن الشعراء
أجنيّني ثمر الأمانى دانيلاً
فجزاك عني الله خير جزاء

محمد بن محمد

ابن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن
ابن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ
التمساني¹ (أبو عبد الله)،

ولد بتمسان أيام أبي حمو موسى بن عثمان
ابن يغمراسن بن زيان²؛ ذلك ما كتبه بيده ونقله
عنه ابن الخطيب³ هو من كبار فقهاء المالكية.
تولى قضاء الجماعة بتمسان ثم بفاس. ويعتبر
من أعلام العلماء، وقضاة العدل والدين والجزالة.
تولى التدريس والإفتاء ببلده. وينتمي إلى سلف صالح
من أهل العلم والذكر. وكان جدّه — الخامس —
عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرئ؛ من

¹ ترجم له حفيده أحمد المقرئ في كتابيه: نفح الطيب، وأزهار الرياض.
وله أيضاً ترجمة في: الإحاطة في أخبار غرناطة، وتاريخ قضاة الأندلس،
والتعريف بابن خلدون، وجذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة
فاس، ونيل الابتهاج.

² حكم من سنة 707هـ/1308م إلى سنة 718هـ/1318م.

³ الإحاطة، القسم الثاني، ص: 600.

⁴ والمقرئ نسبة إلى مَقْرَة ((مَقْرَة))؛ الواقعة بين مدينتي: المسيلة
وبريكة في الجزائر الآن. ويقول أحمد المقرئ حفيده؛ في كتابه نفح
الطيب: ((وهي مَقْرَة؛ من قرى زاب إفريقية؛ وانتقل منها جدّه إلى

أتباع الولي الصالح أبي مدين شعيب؛ قدم معه إلى تلمسان. وقال صاحب الترجمة؛ فيما كتبه بخطه: أن هذا الأخير دعا لجدّه ولذرتّه؛ فظهر عليهم ما يُفيد قبول الدعوة. أما ذرية الجد الأول للمقري - مريد أبي مدين - فقد اشتغلوا في تجارة قوافل السودان عبر الصحراء. وأهمهم أولاد يحيى؛ وهم خمسة رجال؛ اتفقوا بعقد شراكة بينهم في تلك التجارة المربحة. ويقول صاحب الترجمة أن أبا بكر ومحمدا؛ منهما؛ ينحدر نسبه منهما إليه من جهة الأب والأم؛ قد أقاما في تلمسان؛ بينما اختار عبد الرحمن الإقامة في سجلماسة؛ أما الأخوان الصغيران: عبد الواحد، وعلي؛ فقد استقرا في إيواتن. ثم أضاف: ((فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا النساء. واستولدوا الإماء. وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع.

تلمسان؛ صحبة شيخه ولي الله سيدي أبي مدين رضي الله عنه)). نفح الطيب، ج: 5، ص: 205.

¹ ذكر ابن الخطيب أنه اطلع على مخطوط كتبه المقري الجد بخطه. وما ورد هنا؛ مقتبس بتصريف من الإحاطة. القسم الثاني، ص: 529 - 602.

² إيواتن: موضع في عمق الصحراء؛ ويتواجد الآن في موريطانيا.

³ في نفح الطيب: ((بهذه الأقطار الحوائط)).

⁴ أي مزارع النخيل.

⁵ نفح الطيب: ((وتزوجوا النساء)).

⁶ أضيفت من نفح الطيب.

ويبعث إليه الصحراري بالجلد والعاج والجوز والتّبر. والسجلماسي كلسان الميزان؛ يعرفهما بقدر الرجحان والخسران؛ ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة¹ أحوالهم. ولما افتتح التكرور² كورة إيولاتن وأعمالها، أصيبت أموالهم، فيما أصيب من أموالها؛ بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دون ماله القتال. ثم اتصل بملكهم؛ فأكرم مثواه، ومكّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصدّيق الأحب، والخلصة الأقرب، ثم صار يكتب من بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة. وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبئ عن ذلك. فلما استوثقوا من

¹ في النفح: ((بقدر الخسران والرجحان)).

² نفسه: ((الضخامة)).

³ التكرور: اسم لشعب كبير من القبائل الحامية؛ أسسوا مملكة شاسعة الأطراف بإفريقيا السوداء؛ عريقة في القدم؛ امتدت من غرب السودان (دارفور حالياً)؛ وحتى المحيط الأطلسي في (السّنغال). إذ كانت تشمل ما يعرف الآن بـ: تشاد، والنيجر، ونيجيريا، ومالي، والسينيغال. ودخل الإسلام في مملكة التكرور بشكل رسمي؛ في عهد ملكها: ((وارديabi))؛ المتوفي سنة 432هـ/1040م. غير أن بعض الدلائل تفيد أن الإسلام دخل إلى مملكة تكرور - في أضيق الحدود - قبل سنة 422هـ/1030م؛ بسنوات عديدة؛ وذلك بواسطة التجار الوافدين من شمال إفريقيا.

⁴ في النفح: ((فيها)).

⁵ نفسه: ((دونها ودون ملهم القتال)).

الملوك، تذلت لهم الأرض للسلوك؛ فخرجت أموالهم عن الحد، وكادت تفوق الحصر والعد، لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر كانت تجلب لها من المغرب ما لا بلال له من السلع، فيعوض، عنه بما له بال من الثمن)). ثم أضاف: ((ولما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمين قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان، فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان، إنها أنا ذا لم أدرك في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشاً، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك؛ خزائنة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطالب، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة؛ فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوارد

¹ في النفح: ((تفوت)).

² كتبت هذه العبارة في نفح الطيب كما يلي: ((كان يجلب لها من المغرب)).

³ أي ما ليس له شأن يذكر.

⁴ في نفح الطيب: ((فتعويض)).

⁵ الإحاطة، القسم الثاني، ص - ص: 531 - 533.

⁶ في نفح الطيب: ((ولما درج)).

⁷ نفسه: ((السلطين)).

⁸ نفسه: ((فلم يزل)).

⁹ نفسه: ((الزمن)).

والظاعن[...]]¹. أشاد بعلمه وفضله جل الذين ترجموا له. منهم ابن الخطيب الذي قال فيه: ((هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهداً، ودؤوباً، وحفظاً وعناية، واطلاعاً، ونقلًا ونزاهة؛ سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التصنع، كثير الهشة، مفرط الخفة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضائق في العقد والتوجه، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة، ثم يغافص الوقت فيها، ويوقعها دفعة متبعاً إياها زعقة التكبير، برجفة، ينبو عنها سمع من لم يكن² تأنس بها عادة، بما هو دليل على حسن المعاملة، وإرسال السجدة، قديم النعمة، متصل الخيرية، مكب على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصيانة والعدالة، منصف في المذاكرة، حاسر الذراع، عند المباحثة، راحب عن الصدر في وطيس

¹ هذه الفقرة الموجودة بين حاصرتين نقلت عن نفح الطيب؛ لأنها غير موجودة في الإحاطة.

² الإحاطة، القسم الثاني، ص ص: 534 - 535.

³ في النفح: ((من لم تؤنسه بها العادة)).

⁴ نفسه: ((الذراع)).

المنافسة، غير مختار¹ للقرن، ولا ضان² بالفائدة، كثير الالتفاف، متقلب الحذقة، جهير بالحجة، بعيد عن المراء والمباهة، قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتهجر بحفظ الأخبار³ والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق، ويكتب ويشعر؛ مصيباً في ذلك غرض الإجادة؛ ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، ويحطني بالتدوين فيها⁴)). ووصفه النباهي بقوله: ((كان هذا الفقيه - رحمه الله - في غزارة الحفظ، وكثرة مادة العلم؛ عبرة من العبر، وآية من آيات الله الكبير؛ قلما تقع مسألة إلا ويأتي بجميع ما للناس فيها من الأقوال؛ ويرجح ويعلل، ويستدرك ويكمل؛ قاضياً ماضياً، عدلاً جذاً؛ قرأ ببلده على المدرس أبي موسى عمران المشدالي صهر أبي علي ناصر الدين، وعلى غيره؛ وقام

¹ كلمة مختار مضافة من نفح الطيب.

² أي لا باخل بالفائدة.

³ في النفح: ((يحفظ التاريخ والأخبار)).

⁴ أضيفت من نفح الطيب.

⁵ الإحاطة، القسم الثاني، ص: 535 - 537.

بوظائف القضاء أجمل قيام))، رحل المقرئ الجد إلى المشرق؛ فبدأ رحلته ببجاية أين التقى بعض علمائها؛ كأبي عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، (ابن المُسَفَّر)، وقاضي بجاية أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي، وأبي علي حسن بن حسن؛ الضليع في علوم المعقولات؛ ثم انتقل إلى تونس؛ حيث أخذ عن قاضي الجماعة فيها؛ الفقيه أبي عبد الله بن عبد السلام، وقاضي المناكح أبي محمد اللخمي؛ والفقيه أبي عبد الله بن هارون؛ شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول. وبعدها رحل إلى الحجاز؛ فأدى فريضة الحج، وتعرّف على بعض العلماء هناك؛ مثل: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل، وأبي العباس رضي، الدين الشافعي. وفي عودته دخل بلاد الشام؛ فلقي بدمشق شمس

¹ تاريخ قضاة الأندلس، ص: 169.

² ترجمته في نيل الابتهاج، والديباج المذهب. وقد توفي في سنة 743هـ/1342م.

³ في النفح: ((أبو علي حسين بن حسين)).

⁴ هو محمد بن عباد السلام المنستيري؛ ترجمته في نيل الابتهاج، وتاريخ قضاة الأندلس، والتعريف بابن خلدون. وتوفي سنة 750هـ/1349م.

⁵ في النفح: ((الأجمي)).

⁶ نفسه: ((ابن رضي)).

الدين بن قيم الجوزية؛ صاحب ابن تيمية، وصدر الدين الغماري المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي، وآخرين. وفي بيت المقدس؛ التقى أبا عبدالله بن مثبت، والقاضي شمس الدين ابن سالم، والفتية أبا عبد الله بن عثمان، وآخرين.

ثم عاد إلى تلمسان؛ حيث تولى تدريس العلم. وكان أبو عنان على رأس ولاية تلمسان أيام أبيه أبي الحسن. فوجد محمد المقرئ في محلّ الصدارة بين علماء تلمسان. ولما انتقض على والده، وخلعه في سنة 749هـ/1348م؛ كلف صاحب هذه الترجمة بكتابة خطاب البيعة؛ فكتبه وقرأه على الملائم من الناس. ثم ارتحل في ركاب أبي عنان إلى فاس؛ حاضرة الدولة المرينية. وهناك؛ ولي خطة قضاء الجماعة؛ بعد عزل القاضي المسين أبي عبد الله بن عبد الرزاق. وفي هذا؛ كتب ابن الخطيب: ((فاستقل بذلك أعظم الاستقلال، وأفد الحكم¹، وألان الكلمة، وأثر التسديد، وحمل الكل²، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة³، وأحبته الخاصة والعامة. حضرت بعض

¹ في نفح الطيب ((الحق)).

² الكل: التعب والإجهاد.

³ أي أقوال الناس.

مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللد، وتأنيته² للحج ورفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب³)).

وقد اختلف في سبب تركه لخطاة القضاء في فاس؛ فمن قائل أنه تركها زهداً فيها؛ وقائل أنه أبعد عنها جراً غضب السلطان وسخطه عليه. فهذا النباهي يقول: ((ثم إنه كره الحكم بين الناس، وتبرّم من حمل أمانته، ورام الفرار عنه بنفسه؛ فتنشّب في انتظامه، وتوجه عليه الإنكار من سلطانه؛ ثم إنه ترك - بعد عناء شديد - لشأنه⁴)). ويؤيد هذا الرأي حفيده أحمد المقرئ؛ الذي قال: ((فإن مولاي الجد المذكور كان نزل عن القضاء وغيره⁵)). وفي المقابل؛ يرى عبد الرحمن بن خلدون؛ أن أبا عنان عزله عن القضاء؛ وكلفه بالسفارة: ((فلم يزل قاضياً بها [أي بفاس] إلى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية؛ فعزله، وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي؛ آخر سنة ست

¹ اللد: شدة الخصومة.

² في النفح: ((وتأنيته)).

³ الإحاطة، القسم الثاني، ص: 537 - 538.

⁴ تاريخ قضاة الأندلس، ص: 169 - 170.

⁵ نفح الطيب، مج: 5، ص: 214.

وخمسين [وسبعمائة]؛ ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس؛ فامتنع من الرجوع¹. ويبدو أن هذا الرأي الأخير يؤيده ابن الخطيب؛ الذي استهل فقره عن دخوله غرناطة؛ بقوله: ((ثم لما أُخِّر عن القضاء، استعمل بعد لأي في الرسالة))². بقي - بعد إيعاده عن القضاء - في خدمة بلاط المرينيين؛ إذ كلفه أبو عنان بالسفارة إلى الملوك. وذكر ابن الخطيب أنه وفد إلى حمراء غرناطة رسولاً عن أبي عنان في جمادى الثانية من سنة 756هـ/1355م. ولكنه - بعد إكمال مهمته في السفارة - لم يعد إلى المغرب؛ وانتقل إلى مالقة؛ أين قرّر الاعتكاف، والتفرغ للعبادة، والابتعاد عن أهل الحكم والسلطان. ولما وصل خبره إلى أبي عنان؛ ثار، وسخط؛ وحمل سلطان غرناطة المسؤولية؛ على اعتبار أنه وصل إليه ضمن وفد رسمي يمثله؛ وطالبه بإعادته إليه³. وحدثت بسبب ذلك؛ أزمة دبلوماسية بين السلطانين؛

¹ التعريف بابن خلدون، ص: 60.

² الإحاطة، القسم الثاني، ص: 538.

³ علق حفيده أحمد المقرئ على هذه الحادثة بقوله: ((قلت: هذه آفة مخالطة الملوك. فإن مولاي الجد المذكور؛ كان نزل عن القضاء وغيره؛ فلما أراد التخلي إلى ربّه؛ لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت)). نفح الطيب، مج: 5، ص: 214.

تخللتها خطابات عديدة انتقلت بين الطرفين؛ وقد جُمِعت تلك الخطابات التي كتبها ابن الخطيب في كتابه "كناسة الدكان بعد انتقال السكان". ولما استند الخلاف، وحمي الجدل؛ قدم محمد المقرري إلى غرناطة؛ حيث اعتكف في مسجدها. وانتهى الخلاف؛ باتفاق عَودَ بين الطرفين؛ يقضي بعودة المقرري إلى فاس؛ بعد تعهد أبي عَمان بالعمو عنه من قبل: ((ولما تحصل ما تيسر من ذلك، انصرف محفوفاً بعالمي القطر: قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني المترجم به قبله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مستهلين لوروده، مشافهين للشفاعة في غرضه، فأقشعت الغمة، وتنفست الكربة))¹. ويشرح عبد الرحمن بن خلدون ذلك الحال؛ بصفته شاهد عيان؛ آنئذ؛ فيقول: ((واقضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عَمان؛ وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة؛ ومنهم القاضيان بغرناطة: شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي - شيخ الدنيا جلاله، وعلماً ووقراً، ورئيسه، وإمام اللسان حوكاً ونقداً في نظمته ونثره - وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن

¹ الإحاطة، القسم الثاني، ص ص: 540 - 541.

محمد بن إبراهيم بن الحاح البلقي؛ من أهل
المرية - شيخ المحدثين، والفقهاء، والأبهاء،
والصوفية، والخطباء بالأندلس، وسيد أهل العلم
بإطلاق، والمتفنون في أساليب المعارف، وآداب الصحابة
للملوك فمن دونهم. فوفدا به [أي بالمقري] على
السلطان شفيرين؛ على عظيم تشوقه للاقائهما؛ فقبّلت
الشفاعة، وأنجحت الوسيلة. حضرت بمجلس السلطان
يوم وفادتهما - سنة سبع وخمسين [وسبعمائة]؛
وكان يوماً مشهوداً. واستقرّ القاضي المقرّي في
مكاته بباب السلطان؛ عطلاً من الولاية والجراية.
وجرت عليه - بعد ذلك - محنة من السلطان؛
بسبب خصومة وقعت بينه وبين أقاربه؛ امتنع من
الحضور معهم عند القاضي الفشتالي؛ فتقدم السلطان
إلى بعض أكابر الوزعة ببابه؛ بأن يسحبّه إلى
مجلس القاضي؛ حتى أنفذ فيه حكمه. فكان الناس
يعدونها محنة. ثم ولّاه السلطان - بعد ذلك - قضاء
العساكر في دولته؛ عندما ارتحل إلى قسنطينة؛ فلما
افتتحها، وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان

وخمسين [وسبعمئة]؛ اعتلَّ القاضي المقرئ في طريقه؛ وهلك عند قدومه بفاس¹)).

وقد نقل ابن الخطيب ما سجله القاضي المقرئ بيده من معلومات تخص شيوخه؛ فقال: ((قال: فممن أخذت عنه، واستفدت منه علمها - يعني تلمسان² - الشامخان، وعالمها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى؛ إبننا محمد ابن عبد الله بن الإمام³، وحافظها ومدرسها ومفتيها: أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي⁴، صهر شيخ المتأخرين¹، أبي علي ناصر

¹ التعريف بابن خلدون: ص ص: 61 - 62.

² هذه العبارة مضافة من نفح الطيب.

³ ترجمة هذين الإمامين موجودة في الجزء الأول من هذا الكتاب، وفي التعريف بابن خلدون، والعبر، والديباج المذهب، ونيل الابتهاج، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. توفي أبو زيد سنة 743هـ/1342م. أما أبو موسى فتوفي بالطاعون في تلمسان سنة 749هـ/1348م. وقد أسهب المقرئ في الحديث عن هذين العالمين الجليلين؛ ويفهم من كلامه أن ما ذكره استمد من رسالة لجده عنوانها (نظم الآلي في سلوك الأمالي)؛ وقال أن ابن الخطيب؛ اختصر منه الذي أورده في الإحاطة: ((وقد ذكر لسان الدين - رحمه الله تعالى - في (الإحاطة) شيوخ مولانا الجد؛ فلنذكرهم من جزء الجد الذي سماه (نظم الآلي في سلوك الأمالي)؛ ومنه اختصر لسان الدين ما في (الإحاطة) في ترجمة مشيخته)). نفح الطيب، مج: 5، ص: 215.

⁴ سماه صاحب نفح الطيب ب(المشدالي)؛ وهو أقرب إلى الصحة؛ لأن مشدالة قبيلة أمازيقية من المغرب الأوسط. وترجمته موجودة في الجزء الأول من هذا الكتاب، وفي نيل الابتهاج. ولد أبو موسى المشدالي سنة 670هـ/1271م. وتوفي علم 745هـ/1344م، ومصادر أخرى كثيرة.

الدين² على ابنته، ومشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم الكنائي³ السلوي رحمه الله. ومنهم: القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور⁴، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن⁵ البروني، وأبو عمران موسى بومن⁶ المصمودي الشهير بالبخاري. قال سمعت البروني يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس البخاري⁷، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، وكانا يعرفان بالبخاري ومسلم، فشهدا عند قاضٍ، فطلب المشهود عليه بالإعذار فيهما؛ فقال له أبو عمران أتمكنه من الإعذار في الصحيحين: البخاري ومسلم؛ فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين. ثم قال، ومن شيوخ الصلحاء الذين لقيت بها: خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم بن علي الخياط، أدرك أبا إسحاق

¹ في النفح ((المدرسين)).

² يسمى منصور بن أحمد بن عبد الحق؛ الذي توفي سنة 731هـ/1330م. وترجمته في نيل الابتهاج.

³ سقطت كلمة ((كنائي)) في نفح الطيب.

⁴ ترجمته موجودة في الجزء الأول من هذا الكتاب، وفي التعريف ببلبن خلدون، وجذوة الاقتباس، ونيل الابتهاج.

⁵ في نفح الطيب: ((الحسين)). وله ترجمة في نيل الابتهاج.

⁶ كلمة ((بومن)) لم ترد في النفح.

⁷ في النفح: ((يدرس صحيح البخاري)).

الطيار. ومنهم: أبو عبد الله بن محمد الكرموني،
وكان بصيراً بتفسير الرؤيا، فمن عجائب شأنه، أنه
كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق
مع من كان فيه، من أهل تلمسان؛ أيام محاصرته
لها، فرأى أبا جمعة علي التلاسي الجراحي منهم؛
كأنه قايم على ساقية دايرة، وجميع أقداحها
وأقواسها تصب في نقير في وسطها؛ فجاء ليشرّب؛
فاغترف الماء؛ فإذا فيه فرثٌ ودم؛ فأرسله، واغترف
فإذا هو كذلك، ثلاثاً أو أكثر، ثم عدل إلى خاصة
ماء، فجاءها وشرب منها. ثم استيقظ، وهو
النهار¹؛ فأخبره، فقال: إن صدقت الرؤيا، فنحن عن
قليل نخرجون من هذا السجن. قال كيف؟ قال
الساقية الزمان، والنقير السلطان، وأنت جراحي،
تدخل يدك في جوفه فيناله الفرث والدم، وهذا ما
لا يحتاج معه إلى دليل، فأخرج، فوجد السلطان
مطعوناً بخنجر، فأدخل يده في جوفه، فناله الفرث
والدم، فخط جراحته وخرج، فرأى خاصة ماء،
فغسل يده وشرب. ولم يلبث السلطان أن توفي،
وسرحوا من كان في سجنه².

¹ هكذا. ربما يقصد: وهو ذا النهار.

² الإحاطة، القسم الثاني، ص: 547 - 550.

ثم أضاف ابن الخطيب العلامة أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد الأبلى التلمساني؛ وبعدها واصل نقل ما سجله صاحب الترجمة بخطه؛ فقال: ((قدم على مدينة فاس، شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، عرف بابن المُسَفَّر. رسولاً من صاحب بجاية. وزاره الطلبة، فكان مما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يستشكلون كلاماً وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، واستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: "ثبت في بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل". فأخبروا بذلك الشيخ الأبلى؛ لَمَّا رجعوا إليه، فتأمله ثم قال: هذا كلام مصحف؛ وأصله أن المركب قبل البسيط في الحسن، والبسيط قبل المركب في العقل، وإن الحسن أقوى من العقل، فأخبروا ابن المُسَفَّر؛ فليج: فقال لهم الشيخ، التمسوا النسخ؛ فوجدوا في لفظ بعضها كما قال الشيخ))¹.

¹ الإحاطة، القسم الثاني، ص: 551.

ألف المقري الجد؛ مجموعة من الرسائل؛
منها: كتاب يشتمل على مائة مسألة فقهية، ثم
رسائل في التصوف؛ كـ "إقامة المريد"، وورحلة
المتبذل، وكتاب الحقائق الرقائق. وغيره من التأليف.

شعره

جاء في كتاب الإحاطة: ((نقلت من ذلك قوله:
هذه لمحة العارض لتكملة ألفية¹ ابن الفارض،
سلب الدهر من فرايدها مائة وسبعة وسبعين؛
فاستعنت على ردها بحول الله المعين)):

من فصل الإقبال²

رفضت السَّوى وهو الطهارة عندما
تلفعت في مرط الهوى وهو زينتي³
وجئت الحمى وهو المصلى ميمماً
بوجهة قلبي وجهها وهو قبلتي
وقمت وما استقتحت إلا بذكرها
وأحرمت إحراماً لغير تجلة⁴

¹ كلمة ((ألفية)) أضيفت من نفح الطيب.

² هذه القصيدة موجودة في الإحاطة، ونفح الطيب،

³ صرح أحمد المقري في نفح الطيب؛ أنه نقل هذه القصائد عن الإحاطة.

⁴ في نفح الطيب: ((تحلة))؛ بالحاء المهملة.

فدينني إن لاحت ركوع وإن دنت
سجود وإن لاهت¹ قيام بحسرة
على أننا في القرب والبعد واحد
تألفنا² بالوصل عين التشتت
وكم من هجير خضت ظمآن طاوياً
إليها ويجور طويت برحلة
وفيها لقيت الموت أحمر والعدا
مزرقة³ أسنان الرماح وحدة
وبيني وبين العذل فيها منازل
تنسيك أيام الفجار ومؤنة
ولما اقتسمنا خطبتينا فحامل
فجار بلا أجر وحامل برة
خلا مسمعي من ذكرها فاستعدته
فعاد ختام الأمر أصل القضية
وكم لي على حكم الهوى من تجلد
دليل على أن الهوى من سجيّتي

¹ أي تسترت.

² في النفع: ((تؤلفنا)).

³ نفسه: ((بزرقة))؛ وهذا أسلم.

يقول سميري والأسا سالم الأسى
ولا توضع الأوزار إلا لمحنة
لو أن مجوساً بت موقد نارها
لما ظل إلا منهلاً ذا شريعة
ولو كنت بحراً لم يكن فيه نضحة
لعين إذا نار الغرام استحرت
فلا ردم من نقيب¹ المعاول آمن
ولا هدم إلّاك شيد² بقوة
فمم تقول الأسطّسات³ منك أو
علام مزاج ركبت أو طبيعة
فإن قام لم يثبت له منك قاعد
وإلا فأنت الدهر صاحب قعدة
فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا
أم النار أم دساس عرق الأمومة
وإني على صبري كما أنت⁴ واصف
وحالي أقوى القائمين بحجة

¹ في النفخ: ((ثقب))؛ وهو أسلم.

² نفسه: ((إلا منك شيد))؛ وهو أسلم.

³ نفسه: ((الأسطّسات)).

⁴ نفسه: ((أنا)).

أقل الضنى إن عج من جسمي الضنى
وما شاكه معشار بعض شكيتي
وأيسر شوقي أني ما ذكرتها
ولم أنسها إلا احترقت بلوعة
وأخفي الجوى قرع الصواعق منك في
جواي وأخفي الوجد صبر المودة
وأسهل ما ألقى من العذل أني
أحب أقل¹ ذكرها وفضيحتي
وأوج حظوظي اليوم منها حضيضها
بالأمس وسلّ حرّ الجفون الغزيرة
وأوجز أمري إن دهري كله
كما شاعت الحسناء يوم الهزيمة
أروح وما يلقي التأسف راحتي
وأغدو وما يعدو التقجّع خطّتي
وكالببيض بيض الدهر والسمر سوده
مساعتها في طي طيب المسرة
وشأن الهوى ما قد عرفت ولا تسل
وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتي

¹ في النسخ: ((أقلّي)).

سقام بلا برء ضلال بلا هدى
أوام بلا ري دم لا بقيمة
ولا عتب فالأيام ليس لها رضاء
وإن ترض منها الصبر فهو بغيتي¹
ألا أيها اللوام عني قوضوا
ركاب ملامي فهو أول محنتي
ولا تعذلوني في البكاء ولا البكى
وخلو سبيلي ما استطعتم ولوعتي
فما سلسلت بالدمع عيني إن جنت
ولكن رأيت ذاك الجمال فجنت
تجلى وأرجاء الرجاء حوالك
ورشدي غاو والعميات عمت
فلم يستبن حتى كئني كاسف
وراجعت إيصاري له وبصيرتي

¹ في النفح: ((بغيتي)).

ومن فصل الانصال¹

وكم موقف لي في الهوى خضت دونه
عباب الردى بين الطبّا والأسنة
فجاوزت في حدي مجاهدتي له
مشاهدتي لما سمت بي همتي
وحل جمالي في الجلال فلا أرى
سوى صورة التنزيه في كل صورة
وغبت عن الأغيار في تيه حالتي
فلم أنتبه حتى امتحى اسمي وكنيتي
وكاتبت ناسوتي بأمارة الهوى
وعدت إلى اللاهوت بالطمئنة
وعلم يقيني صار عيناً حقيقة
ولم يبق دوني حاجب غير هييتي
وبدلت بالتلوين تمكين عزة
ومن كل أحوالي مقامات رفعة
وقد غبت بعد الفراق والجمع موقفي
مع المحو والإثبات عند تثبتي

¹ هذه القصيدة موجودة في الإحاطة، ونفع الطيب.

وكم جلت في سمّ الخياط وضاق بي
لبسطي وقبضي بسط وجه البسيطة
وما اخترت إلا دن بقراط زاهدا
وفي ملكوت النفس أكبر عبرة
وفقري مع الصبر اصطفت على الغنى
مع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبي
وأكتم حبي ما كنى عنه أهله
وأكني إذا هم صرحوا بالخبيّة
وإني في جنسي ومنه لواحد
كنوع ففصل النوع علة حصتي
تسببت في دعوى التوكل ذاهباً
إلى أن أجدى حيلتي ترك حيلتي
وأخر حرف صار مني أولاً
مريداً وحرف في مقام العبودة
تعرفت يوم الوقف منزل قومها
فبت بجمع سدّ خرق التشتت
فأصبحت أقضي النفس منها منى الهوى
وأقضي على قلبي برعي الرعية
فبايعتها بالنفس داراً سكنتها
وبالقلب منه منزلاً فيه حلت

فخلص الاستحقاق نفسي من الهوى
وأوجب الاسترقاق تسليم شُفْعة
فيا نفس لا ترجع تقطع بيننا
ويا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة

ومن فصل الإدلال¹

تبدت لعيني من جمالك لمحة
أبادت فؤادي من سناها بلفعة²
ومرت بسمعي من حديثك ملحمة
تبدت لها فيك القران وقرت
ملامي أين عذري استبن وجدي استعن
سماعي أعن حالي أين قاتلي أصمت
فمن شاهدي سخط ومن قاتلي رضا³
وتلوين أحوالي وتمكين رتبتي
مرامي إشارات مراعي تعكر⁴
مراقي نهايات مراسي تثبت
وفي موقفي والدار أوقوت رسومها
تقرب أشواقي تبعد حسرتي
معاني إمارات مغاني تذكر
مباني بدايات مثاني تلفت

¹ هذه القصيدة موجودة في الإحاطة، ونفع الطيب.

² في النفع: ((بلفعة)).

³ في النفع: ((قاتلي رضا)).

⁴ في النفع: ((تفكر)).

وَبُئْتُ غَرَامٌ وَالْحَبِيبُ بِحَضْرَةِ
وَرَدَّ سَلامَ وَالرَّقِيبِ بِغَفْلَةٍ
وَمَطْلَعِ بَدْرِ فِي قَضِيبٍ عَلَى نَقَا
فَوَيْقِ مَحَلِّ عَاطِلٍ دُونَ دَجِيَّةٍ
وَمَكْمَنِ سَحَرِ بَابِلِيٍّ لَهُ بِمَا
حَوَتْ أَضْلَعِي فَعَلُ الْقَنَا السَّمْهَرِيَّةِ
وَمَنْبَتِ مَسْكَ مِنْ شَقِيقِ ابْنِ مَنْذَرِ
عَلَى سَوْسَنِ غَضِّ بَجْنَةٍ وَجَنَّةِ
وَوَصْفِ اللَّالِي فِي الْيَوَاقِيَّتِ كَلِمَا
تَعْلُ بِصَرْفِ الرَّاحِ فِي كُلِّ سَحْرَةٍ
سَلِّ السَّلْسَبِيلِ الْعَذْبِ عَنْ طَعْمِ رَيْقِهِ
وَنَكْهَتِهِ يَخْبِرُكَ عَنْ عِلْمِ خَبْرَةٍ
وَرَمَانِ كَافُورٍ عَلَيْهِ طَوَابِعُ
مَنْ النَّدَى لَمْ تَحْمَلْ بِهِ بَنَتُ مَزْنَةٍ
وَلَطْفِ هَوَاءٍ بَيْنَ خَفَقٍ وَبَانَةٍ
وَرَقَّةِ مَاءٍ فِي قَوَارِيرِ فُضَّةِ
لَقَدْ عَزَّ عَنْكَ الصَّبْرُ حَتَّى كَأَنَّهُ
سَرَاقَةٌ لَحَظَ مِنْكَ لِلْمَتَافَتِ
وَأَنْتِ وَإِنْ لَمْ تَبْقِ مِنْ صُبَابَةٍ
مَنْى النَّفْسِ لَمْ تَقْصِدِ سِوَاكَ بِوَجْهَةٍ

وكل فصيح منك يسري لمسمعي
وكل مليح منك يبدو لمقلتي
تهون عليّ النفس فيك وإنها
لتكرم أن تغشى سواك بنظرة
فإن تتظريني بالرضا تشف عنتي
وإن تظفريني باللقا تطف غلتي
وإن تذكريني والحياة بقيدها
عدلت لأمني منيتي بمنيتي
وإن تذكريني بعد ما أسكن الثرى
تجلت دجاءه عند ذاك وولت
صليني وإلا جددي الوعد تدركي
صباية نفس أيقنت بتقلت
فما أم بَّو¹ هالك بتتوفة²
أقيم لها خلف الحلاب قدرت
فلما رأته لا ينازع خلفها
إذا هي لم ترسل عليه وضئت
بكت كلما راحت عليه وإنها
إذا ذكرته آخر الليل حنت

¹ البوّ: ولد الناقة.

² التتوفة: الأرض الجذباء الواسعة.

بأكثر مني لوعة غير أنني
رأيت وقار الصبر أحسن حلية
فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتها
أطامن أحشائي على ما أجنّت
أهون ما ألقاه إلا من القلى
هوى ونوى نيل الرضا منك بغيتي
أخوض الصلّى أظفي العلا والعلوّ لا
أصل السّلا أرعى الخلى بين عبرتي
ألا قاتل الله الحمامة غدوة
لقد أصابت الأحشاء نيران لوعة
وقاتل مغناها وموقف شجوها
على الغصن ماذا هيجت حين غنت
فغنت غناء أعجيباً فهيجت
غرامي من ذكري عهد تولّت
فأرسلت الأجفان سحباً وأوقدت
جوّاي الذي كانت ضلوعي أكنّت
نظرت بصحراء البريقين نظرة
وصلت بها قلبي فصلّ وصلت
فيالهما قلباً شجياً ونظرة
حجازية لو جُنّ طرف لجُنّت

ووا عجباً للقلب كيف اعترافه
وكيف بدت أسرارہ خلف سترة
وللعين لما سوئلت كيف أخبرت
وللنفس لما وطنت كيف دلت
وكنا سلکنا في صعود من الهوى
يسامي بأعلام العلا كل رتبة
إلى مستوى ما فوقه مستوى¹
فلما توافينا ثبت وزلت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
على نحر قربان لدي قبر شيبة
مؤكدۃ بالانذر أيام عهده
فلما تواتقنا اشتدّت وحلت



¹ صدر هذا البيت في النفع هكذا: ((إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى)).

ومن فصل الاحتفال¹

أزور اعتماراً أرضها بتنسك
وأقصد حجا بيتهما بتحلة
وفي نشأتي الأخرى ظهرت بما علت
له نشأتي الأولى على كل فطرة
ولولا خفاء الرمز لا ولن ولم
تجدها لشملي مساكاً بتشتت
ولو لم يجدد عهدنا عقد خلة
قضيت ولم يقض المنى صدق توبة
بعثت إلى قلبي بشيراً بما رأيت
على قدم عيناى منه فكفت
فلم يعد أن شام البشارة شام ما
جفا الشام من نور الصفات الكريمة
فيالك من نور لو أن التفاتة
تعارض منه بالنفوس النفيسة
تحدث أنفاس الصبا أن طيها
بما حملته من حراقة حرقه

¹ هذه القصيدة موجودة في الإحاطة، ونفع الطيب.

وتتبيّ أصل الربيع عن الربا
وأشجاره إن قد تجلت فجلت
وتخبر أصوات البلابل أنها
تغنّت بترجيعي على كل أكلة
فهذا جمالي منك في بعد حسرتي
فكيف به إن قربتني بخلة
تبدّى وما زال الحجاب ولا دنا
وغاب ولم يفقده شاهد حضرتي
له كل غير في تجلية مظهر
ولا غير إلا ما محت كف غيره
تجلى دليل واحتجاب تنزه
وإثبات عرفان ومحو تثبت
فما شئت من شيء وآليت أنه
هو شيء لم تحمد فجار أليتي
وفي كل خلق منه كل عجيبة
وفي كل خلق منه كل لطيفة
وفي كل خاف منه مكنى حكمة
وفي كل باد منه مظهر جلوة

أراه يقلب¹ القلب واللغز كامناً
وفي الزجر والقال الصحيح الأدلة
وفي طي أوفاق الحساب وسر ما
يتم من الأعداد فابدأ بستة
وفي نفثات السحر في العقد التي
تَطوُّعُ لها كل الطباع الأبية
يصور شكلاً مثل شكل ويعتلي
عليه بأوهام النفوس الخبيثة
وفي كل تصحيف وعضو بذاته
اختلاج وفي التقويم مجلى لرؤية
وفي خضرة الكمون تزجي شرابه
مواعيد عرقوب على أثر صفرة
وفي شجر قد خوفت قطع أصلها
فبان بها حمل لأقرب مدة
وفي النخل في تلقّحه واعتبر بما
أتى فيه عن خير البرية واسكت
وفي الطابع السبتى في الأحرف التي
يبين منها النظم كل خفية

¹ في النفح: ((بقلب)).

وفي صنعة الطلسم والكيمياء والـ
كنوز وتغوير المياه المعينة
وفي حرز أقسام المؤدب محرز
وحزب أصيل الشاذلي وبكرة
وفي سيمياء الحاتمي ومذهب ابـ
من سبعين إذ يُعزى إلى شر بدعة
وفي المثل الأولى وفي النحل الألى
بها أوهموالما تساموا بسنة
وفي كل ما في الكون من عجب وما
حوى الكون إلا ناطقاً بعجوبة
فلا سر إلا وهو فيه سريرة
ولا جهر إلا وهو فيه كناية
سل الذكر عن إنصاف أصناف ما ابتنى
عليه الكلام من حروف سليمة
وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما
أنت فيه أمضى عدها وتثبت
فلا بد من رمز الكنوز لذي الحجا
ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة
ولولا سلام ساق للأمن خيفتي
لعاجل مس البرد خوفاً لميتتي

ولو لم تداركني ولكن بعطفها
درجت رجائي أن نعتني خييتي
ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم
قضى العتب مني بغية بعد وحشتي
ونعم أقامت أمر ملكي بشكرها
كما هونت بالصبر كل بليّة

ومن فصل الاعتقال¹

سرت بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي
وسارت ولم تثن العنان بعطفة
وذلك لما أطلع الشمس في الدُّجى
محيّاً ابنة الحيين في خير ليلة
يمانِيّة لو أنجدت حين أنجدت
لا أبصرت عيناك حياً كميّت
لأصحمة² في نصحتها قدم بنى
لكل نجاشي بها حصن ذمة
ألمت فحطت رحلها ثم لم يكن
سوى وقفة التوديع حتى استقلت
فلو سمحت لي بالتفات وحل من
مهاوي الهوى والهون جد تقلتي
ولكنها همت بنا فتذكرت
قضاء قضاء الحسن قدما فصدت

¹ هذه القصيدة موجودة أيضاً في الإحاطة ونفح الطيب.
² أصحمة: هو النجاشي ملك الحبشة؛ الذي أحسن للمسلمين أيام الرسالة. وعند وفاته صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب.

أجلت خيالاً إنني لا أجله
ولم أتسب منه لغير تعلقة
على أنني كلي وبعضه حقيقه
وباطل أوصافي وحق حقيقتي
وجنسي وفصلي والعوارض كلها
ونوعي وشخصي والهواء وصورتي
وجسمي ونفسي والحشا وغرامه
وعقلي وروحانيتي القدسية
وفي كل لفظ عنه ميل لمسمعي
وفي كل معنى منه معنى للوعتي
ودهري به عيد ليوم عروبة
وأمرني أمري والورى تحت قبضتي
ووقتي شهود في فناء شهادته
ولا وقت لي إلا مشاهد غيبة
أراه معي حساً ووهماً وإنه
مناط الثريا من مدارك رؤيتي
وأسمعه من غير نطق كأنه
يلقن سمعي ما توسوس مهجتي
ملأت بأنوار المحبة باطني
كأنك نور في سرار سريرتي

وجليت بالإجلال أرجاء ظاهري
كأنك في أفقي كواكب زينة
فأنت الذي أخفيه عند تسري
وأنت الذي أبديه في حين شهرتي
فته أحتمل واقطع أصل وأعل استقل
ومر أمتل وأمل أمل وارم أثبت
فقلبي إن عاتبته فيك لم أجد
لعتبي فيه الدهر موقع نكنة
ونفسي تتبو عن سواك نفاسة
فلاتتني إلا إليك بمنة
تعلقت الآمال منك بفوق ما
أرى دونه ما لا ينال بحيلة
وحامت حواليتها وما وافقت حمى
سحائب يأس أمطرت ماء عبرتي
فلو فاتني منك الرضى ولحقني
بعفو بكيت الدهر فوت فضيلة
ولو كنت في أهل اليمين منعماً
بكيت على ما كان من سبقة
وكم من مقام قمت عنك مسائلاً
أرى كل حي كل حي وميت

أَتَيْتُ بِفَارَابِ أَبَا نَصْرَهَا فَلَمْ
أَجِدْ عِنْدَهُ عِلْماً يَبْرُدُ غِلَّتِي
وَلَمْ يَدِرْ مَا قَوْلِي ابْنَ سَيْنَاءَ سَائِلاً
فَقُلْ كَيْفَ أَرْجُو عِنْدَهُ بَرءَ عِلَّتِي
فَهَلْ فِي ابْنِ رَشْدٍ بَعْدَ هَذَيْنِ مَرْتَجَى
وَفِي ابْنِ طِفِيلٍ لَا حَتِّاثٌ مَطِيَّتِي
لَقَدْ ضَاعَ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكْنِي حُمَى
مَنْ اللَّهُ سَعَى بَيْنَهُمْ طَوْلُ مَدَنِي
فَقِيضٌ لِي نَهْجاً إِلَى الْحَقِّ سَالِكاً
وَأَيْقُظُنِي مِنْ نَوْمٍ جَهْلِي وَغَفْلَتِي
فَحَصَنْتُ أَنْظَارَ الْجَنْدِ¹ جَنِيدَهَا
بَتَرَكْتُ فَلِي مِنْ رَغْبَةٍ رِيحَ رَهْبَةٍ
وَكَسَرْتُ عَنْ رَجُلِ ابْنِ أَدْهَمٍ أَدْهَماً
وَأَنْقَذْتُهُ مِنْ أَسْرَحِبِ الْأَسْرَةِ
وَعَدْتُ عَلَى حَلَاكِ سُكْرَى² بِصَاتِبِهِ
وَأَلْقَيْتُ بِلَعَامِ التَّقَانِي³ بِهَوَةِ

¹ فِي النَّفْحِ: ((الْجَنِيدُ))؛ وَهُوَ أَسْلَمُ.

² نَفْسُهُ: ((شُكْرِي)).

³ نَفْسُهُ: ((التَّقَانِي)).

فقلولي مشكور ورأيي ناجح
وفعلي محمود بكل محلة
رضيت بعرفاني فأعليت للعلا
وأجلسني بعد الرضا فيه جاتي
فعشت ولا ضيراً أخاف ولا قلى
وصرت حبيباً في ديار أحبتي
فها أنا ذا أمسي وأصبح بينهم
مبلغ نفسي منهم ما تمت

- ونقل ابن الخطيب عنه ما قاله؛ مذكلاً به قول
القاضي أبي بكر بن العربي:

أما والمسجد الأقصى وما يتلى به نصّاً
لقد رقصت بنات الشوق بين جوانحي رقصاً

- ثم قال:

فأقلع بي إليه هوى جناحاً عزمه قصاً
أقل القلب واستعدى على الجثمان فاستعصى

فَقَمْتُ أَجُولَ بَيْنَهُمَا فَلَا أَدْنَى وَلَا أَقْصَى¹

— ومما أورده أيضاً ابن الخطيب من شعر محمد
المقري؛ المقطوعات التالية؛ قال أنه تلقاها منه
وسجلها مباشرة عندما كان بغرناطة:

وَجَدْتُ تُسْعِرُهُ الضُّلُوعُ وَمَا تَبَرَدَ الْمَدَامِعُ
هَمْ تَحْرِكُهُ الصَّبَا بِالْمَهَابَةِ لَا تَطَاوِعُ
أَمَلِي² إِذَا وَصَلَ الرَّجَا أَسْبَابُهُ فَالْمَوْتُ قَاطِعُ
بِاللَّهِ يَا هَذَا الْهَوَى مَا أَنْتَ بِالْعِشَاقِ صَانِعُ

— ومن شعره كذلك:

أَنْبَتَ عَوْدًا بِنِعْمَاءٍ³ بَدَأَتْ بِهَا
فَضْلًا وَأَلْبَسَتْهَا بَعْدَ اللَّحَى الْوَرَقَا
فَظَلَّ مُسْتَشْعِرًا مُسْتَدَثِّرًا أَرْجَا
رِيَّانَ ذَا بَهْجَةٍ يَسْتَوْقِفُ الْحَدَقَا
فَلَا تُشِينُهُ بِمَكْرُوهِ الْجَنَى فَلَكُمْ
عَوْنَتَهُ مِنَ الْجَمِيلِ مِنْ لَدُنْ خَلْقَا

¹ هذه الأبيات نقلت أيضاً عن نفح الطيب. منقولة بدورها عن نسخة قديمة من الإحاطة.

² في النفح: ((أمل)).

³ في النفح: ((النعماء)).

وأنف القذى عنه وأثر الدهر منبته
وغذّه برجاء واسقه غدقاً
واحفظه من حادثات الدهر أجمعها
ما جاء منها على ضوء وما طرقاً¹

— ونقل عنه ابن الخطيب هذه المقطوعة أيضاً:

إليك بسطت الكف أستنزل الفضلا
ومنك قبضت الطرف أستشعر الذلا
وها أنا ذا قد قدمت² يقدمني الرجا
ويحجمني³ الخوف الذي خامر العقلا
أقدم رجلا إن يضى برق مطمع
وتظلم أرجائي فلا أنقل الرجال
ولي عثرات لست آمل إن هوت
بنفسي ألا أستقل وأن أصلى
فإن تدركني رحمة أنتعش بها
وإن تكن الأخرى فأولى بي الأولى

¹ هذه الأبيات بدورها جاءت في نفح الطيب؛ بعد أن نقلت من نسخة قديمة للإحاطة.

² في النفح: ((قمت))؛ وهو أسلم.

³ نفسه: ((ويحجم بي)).

— وله أيضاً:

نحن إن تسأل بناس معشر
أهل ماء فجرته الهمم
عرب من بيضهم أرزاقهم
ومن السمر الطوال الخيم
عرضت أحسابهم أرواحهم
دون نيل العرض وهي الكرم
أورثونا المجد حتى أننا
نرتضي الموت ولا نزدحم
ما لنا في الناس من ذنب سوى
أننا نلوي إذا ما اقتحموا

— وقال أيضاً في التورية بشأن راوي المدونة:

لا تعجب لظبي قد دها أسداً
فقد دها أسداً من قبل سحنون

توفي القاضي محمد بن محمد المقرئ بمدينة
فاس في نهاية محرم؛ من سنة 759هـ/1357م. وثمة
رأي آخر يجعل وفاته في ذي الحجة من عام
758هـ/1356م. وبعد وفاته؛ نقل جثمانه إلى تلمسان؛
لأن دفن في مقبرة أسرته.

محمد بن منصور

ابن علي بن هدية الفرشي التلمساني؛

(ابو عبد الله).

فقيه وخطيب؛ ينتمي أسرياً إلى عقبة بن نافع الفهري؛ عالم جليل؛ وواحد من أئمة اللسان والبلاغة والأدب بتلمسان، له معرفة بالوثائق؛ واشتهر بالدين المتين والفضل والاستقامة. ولي خطة كتابة السر في بلاط أبي حمو موسى الأول؛ فوضعه فوق وزراء الدولة؛ لا يفعل شيئاً دون مشورته. كما ولي خطة القضاء في تلمسان؛ فكان حسن السيرة؛ نزيهاً في أحكامه. له مؤلفات في مختلف الفنون؛ من بينها: كتاب "تاريخ تلمسان"؛ وهو مفقود. ثم رسالة نقدية لابن خميس وشعره؛ سماها: ((العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس))؛ شرح من خلالها - نثراً ونظماً - "رسالة الدر النفيس من شعر ابن خميس"؛ التي جمعها القاضي الحضرمي. وكان ابن هدية - في حقيقة الأمر من خصوم ابن خميس؛ إذ يعتبره زنديقاً؛ بسبب مشاركته في علوم الفلسفة. وقد حضر ابن هدية - مع علماء آخرين - جلسة

محاكمة لابن خميس في مدينة فاس؛ فكتب بقلمه ملاحظاته نثراً؛ وهي كما يلي:

((فاتق أن اجتمع في بعض محافلها الحافلة، ومجالسها العامرة بأهل الفضل، الأهله بطائفة من حذاق الأشعرية، وجماعة من الفقهاء المالكية: كالشريف أبي البركات، وغيره من فقهاء ذلك ذلك القطر. ففتحوا باب المذاكرة، وسلكوا سبيل المناظرة، وتفننتوا في الكلام؛ إلى أن أخذوا في علم الكلام؛ استدراجاً لابن خميس، واستخراجاً لخبّ مذهبه الفاسفي الخسيس... فلم يلبث أن فاوضهم فيما عنده، وكشف لهم معتقده؛ فأنبرى له الشريف أبو البركات معارضاً، ولمذهبه السيئ مناقضاً؛ وكثر القول منهما، وتخلّى القومُ عنهما... فامتد مجال الجدل بينهما؛ فلم يكن بأسرع من أن خاسى ابن خميس، وخاست الفلسفة، وسكت مدحوض الحجة؛ فلم ينطق ببنت شفة؛ ثم نُظر في القول الصادر منه، وما ينشأ من الحكم الشرعي عنه. وخاف بوار الحكم؛ فأدّرع جلاباب الظلام؛ وفرّ فرار الأبق؛ ولم يلو

على مرافق، ولم يُلق عصا تسياره إلا بتلمسان
داره...)).¹

توفي ابن هديّة بتلمسان في عام 737هـ/1335م.
وفيه يقول شاعر من شعراء تلمسان يسمى ابن
حمادو:

لما رأوك هدية من ربهم
سموك بابن هدية فأجادوا

ومن شعر ابن هدية:

إلهي مضت للعمر سبعون حجة
جنيت بها مما جنيت الدواهيأ
وعبدك قد أمسى رهين ذنوبه
فجد لي برحمتي منك نعم الدواهيأ

¹ مجلة الأصالة؛ الرقم التسلسلي: 26؛ ص ص: 131 - 132. وكتاب باقة
السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ص: 485.

[محمد]¹ ابن ميمون

السنوسي ابو القاسم

سماه صاحب زهر البستان: الطالب الأديب أبا القاسم بن ميمون السنوسي. ولا يعرف عنه أكثر من هذا. ومن نظمه أيضاً؛ هذه القصيدة؛ التي قالها احتفالاً بقدوم والد أبي وحمو أبي يعقوب وولده أبي تاشفين من المغرب بعد السماح لهما بالعودة إلى تلمسان. وذلك في رجب من سنة 766هـ/1358م ومن شعره²:

أطلق عنائك لا تنتظر إلى أحد
كفى حسودك ما يلقي من الكمد
وانظر³ يمينا شمالا كيف شئت فلا
معارض لك في الدنيا⁴ من الأبد

¹ محمد؛ مجرد افتراض؛ لأن ما ورد هو: أبو القاسم بن ميمون السنوسي. ولم يذكر اسم صاحب الترحمة؛ وبما أن كنية أبي القاسم؛ تقابل في معظم الأحيان اسم محمد؛ فقد وضع هذا الاسم كافتراض محتمل.

² هذه القصيدة متواضعة في الشكل والمضمون. وزادها ناسخها سوءاً.

³ الكلمة هنا غير واضحة؛ فوضعنا مكانها كلمة: ((وانظر)).

⁴ لعلها هكذا.

جواد جَدَّكَ مسروح وسائسه
 مهنـب الرأى ما أدناه من....¹
 أنت الخليفة بعد الله حجه
 في الأرض أفضل من أوما له بيد
 ما للشياه يسنن الملك واعجباً
 أظنهن نسين وثبة الأسد
 وللعصافير في الآفاق سايحة
 وفي البسيطة عقبان بلا عدد
 تبا لمن أمن الدنيا وصار على
 متونها راكباً يسعى بلا قود
 فالركب ما لم يكن فيه الدليل فما
 يجوب بالحج منه غير ذي جلد
 والنوق ما لم تكن تحدوا حداة بها
 لم تشرد العير في البيداء أو تجهد
 هو الإمام عماد القوم يا ملكا
 أعداؤه أرفعوا² بيتاً بلا عمد
 ما يُبَيِّنُ البيت إلا بالعماد ولا
 يرضى عماد إذا ما شد بالوتد

¹ كلمة غير مفهومة. لعلها: ((وَحَدَّ))، أو ((وَمَدَّ)).
² هكذا.

هيهات هيهات دعمهم جانباً فلهم
يومٌ يفرق بين الرأس والجسد
لا تكثر كمداً أصلاً بهم كمداً
لأن منك هُم موتى من الكمد
وَيْلاً لأنفسهم في فرض دولتهم
إذ كل ما مال للنقصان لم يزد
هب كان فارسهم أسنى فوارسهم
فذاك آخرهم ولى ولم يعد
عجبت من معشر ما فيهم بطل
قد عاقدوا بطلا في الحرب كالأسد
يصلي بصارمه الهيجا فيضرمها
ناراً فصارمه أمضى من الزند¹
ترى الندى حيث داعي النداء ودعا
من جوده في محل لم يكن بند²
يلقاك بالبشر إن واقبت مقتصداً
له وإن لم يكن له بمقتصد³

¹ الزند بفتح النون: المسن.

² هكذا.

³ كتبت: ((مقتصد))؛ وهو تحريف يخل بالوزن والمعنى. فوجب التصويب.

كَأَنَّ ذَاكَ الَّذِي بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ
بِهِ مِنَ النَّاسِ بَلْ أَلْقَى فَقُلْ وَزِدْ¹
حَزَبَ الْفَضَائِلِ يَا مُوسَى بِأَجْمَعِهَا
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا نَصِيبًا مَا إِلَى أَحَدٍ
أَفْدِيكَ بِالرُّوحِ مِنْ عَيْنِ الْحَسُودِ وَمِنْ
عَيْنِ الْوُدُودِ وَقُلْ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ
تَبَارَكَ اللَّهُ نِيرَانِ الْعَدَى خَمَدَتْ
وَنُورَ وَجْهِكَ يَبْدُو غَيْرَ مُنْخَمِدٍ
لَا أَحْجَرَ الْحَقِّ إِنْ الْحَقَّ يَعْرِفُهُ
أَخُو الْبَصِيرَةِ وَالْأَعْمَى وَذُو الرَّمَدِ
كَمْ لَا وَكَيْفَ وَمِنْ حَيْثُ اسْتَتَارَ لَنَا
وَجْهَ الزَّمَانِ كَفِينَا نَظْرَةَ الْحَسَدِ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا الشَّمْلُ مُنْتَظَمٌ
أَضْحَى بِوَالِدِكَ أَسْنَى وَبِالْوَلَدِ
إِنْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ لَا أَهْلًا وَلَا وَلَدَ
فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتَ بَيْنَ الْأَهْلِ فِي الْبَلَدِ
فَعَشَ هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
مَرَاتِبِ الْعِزِّ مَعْصُومًا مِنَ الْتَكْدِ

¹ هذا البيت مضطرب في معناه.

لا تخش سطوة دهر أنت من يده
على الأكف شبيه المهد بالولد
إن كان كابر عبر مدح غيرك في
ما قد مضى وتولى غير مجتهد
دعني أكابر فيك المجد مجتهدا
ما عشته خلق الإنسان في كبد

— وله أيضاً:

بزهدك لا بالعزم كان لك الظفر
وبالجد لا بالجبر تمّ لك النصر
وبالكوكب الأعلى السعيد الذي أنا
بطالعك الميمون ساعدك الدهر
فيمناك فيها اليمن مهما مدنتها
ويسراك عند العسر في بسطها اليسر
وغرتك الغراء في ما توجهت
إلى حاجة بالأمن قابلها البشر
لك الفخر يا شمس الملوك ومن به
علت رتبة العلياء واقتخر الفخر

أتيت لناس جانب الزاب طال ما
ذكرت به قدما فشاع بك الذكر
فقابلت الأيام وجهك بالمنى
ودانت بك الدنيا وساعدك الأمر
خرجت فريداً بين قوم قلائل
كرام فكان الله عونك والنصر
فجاءتك أشياخ القبائل كلها
تبائع يا مولاي ليس لها عذر
كمثل أسود الحرب أبناء عامر
إذا ذكروا، أسود الحروب والجمر
ثناهم إذا طال الجلال هو الثنا
وصبرهم حيث الطعان هو الصبر
عليكم عباد الله بالشكر والثناء
فقد نزل التيسير وارتحل العسر
وزال العناء عنا بعودة دولة
لأبناء عبد الواد وإنكشف الضر
أسود إذا راحوا سيول إذا عدوا
لهم يرفع الشأن المعظم والقدر
لهم ينسب القول الجميل وعنهم
يحدث فعل الخير إن ذكر الخير

يقاتل عشر الألف في الحرب منهم
بعشرة آلاف فيهزمها العُشْر
بذكر أبي عمران موسى بن يوسف
إذا ذكر الأشراف يفتخر الذكر
إمام أعاد الله دولة أهله
على يده لِمَ لَا يَكُونُ لَهُ الْفَخْرُ
أمولاي يا ذا العلم والحلم والحجا
ومن قوله الحسنى ومن فعله الخير
على هذه النعمى التي جاد ربنا
علينا بها مولاي قد وجب الشكر
أَقَمْتَ عِمَادَ الْعَدْلِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
من الأرض لما كان هَدَمَهُ الْجَوْرُ
فَبَيَّضَ وَجَةَ الدَّهْرِ بَعْدَ سَوَادِهِ
وَأَنْتَ يُرَى اللَّيْلُ وَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ
يمينك مثل البحر والبحر دونها
وجودك مثل القطر بل دونه القطر
وأولاد عبد الواد شهب ثواقب
ووجهك يا مولاي بينهم البدر
فهز يمين العز سيف العلى على
رقاب العدى يا من له سمح العصر

لمن فرت الفرسان من كل جانب
لدى الحرب حيث البيض تلمع والسمر
فما فر عنك العزم والحزم والحب
وما زال يبدوا فوق رايتك النصر
كأنهم لما برزت إليهم
سحاب على الآفاق قشعها بدر
كأنهم ليل سجي حين أقبلوا
فعرّفه من بعد مذ قد سجي فجر
أدرت عليهم كأس حرب تشعّعت
كما شعّعت في كأس ياقوتة خمر
فلو لم يكن منكم على القوم عفة
هناك ولطف الله فوقهم ستر
لخلفتهم في الأرض صرعى كأنهم
سكارى وما بالقوم من خمرة سكر
إذا جن ليل ناح وحش عليهم
وإن لاح صبح صار يندبهم طير
فلا جنة إلا ودنت أزهارها
ولا سهلة إلا ومن فوقها نسر
فعاملتهم بالصفح منك تقضلا
عليهم جميعا ليس من شيمتك الغدر

إلى أن أتموا من بعد ستين ليلة
مكمله شهر خلا قبله شهر
فوليت عنهم معرضا غير ناظر
عليهم ولم تعبأ بهم وهم كثر
لذاك تولى الليث والليث جائع
لعفة شاة وبينهما قفر
فلو لا انقلاب الدهر ما كان يُتَقَى
وبعد امتلاء البحر قد تحدث الحصر
كأنك بدر وغبث عشرين ليلة
تضاف إليها بعد عدتها عشر
فلاح إلى الأتصار وجهك بعدما
جرنا كؤوسا طعمها علقم مر
فوا عجا عنه بهم كيف يطلبوا
لقاك فلما سرت طالبهم فروا
وقالوا رأينا الصلح خير لنا عسى
تصالحنا والصلح بين الورى خير
فقلت بلى لو لم يقلها لصالحت
رقابهم طرا مهندة بـر

وسمّطت بالخطيّ فوقِ جُسومهم
خطوطاً لذيّ التعداد ليس لها حصر
فكان الذي قد شده الله وانفض¹
وأبرزه في اللوح عن قلم سطر
فبادر له بالخير والشكر والتثا
عليه وقلّ حمداً له الحمد والشكر
وجاز بخير نجل يغمور إنه
أقام مقام الجيش عنك ولا فخر
أبا يوسف يعقوب فارس عصرنا
وبحر الندى العنب الذي له....²(ر)
فكن كيف شئت الآن يا نجل يوسف
هنيئاً لك الفتح الميسر والظفر
لجذك كان الملك ثم صوبيته
ولا شك فيه ينتهي بعدك الأمر³
فأنت وأيم الله حقاً مليكنا
أتانا على رغم الأعادي بك الدهر

¹ هكذا. والمعنى هنا مبهم وغير مفهوم.

² هذا البيت مضطرب المعنى وغير موزون؛ كما قلب فيه الاسم لقباً؛ بل سقطت منه كلمة؛ واكتفى الناسخ بكتابة حرف ((الراء)) منها فقط؛ وهو الروي. وعليه نقترح ما يلي: [وبحر الندى العنب الذي له مدّ ذكر].

³ المعنى هنا غير سليم.

سأنفق عمري في امتداحك ربما
تواصلني النعمى ويبعدني العسر
ويتحفني مولاي بالحكمة التي
عرفت بها حبي ويسعفني اليسر
فشأن الموالى إذ تقل عبيدها
إذا عثرت والعبد يكتفه الحر
أمولاي ها عادت تلمسان داركم
وعدتكم وقد أغنى عن.....¹
سنحضى بفاس بل بمراكش² معاً
وبالمغرب الأقصى وما رده البحر
كلامك مسموع وحكمك نافذ
وأمرك في كل البلاد هو الأمر
فخذ [و]رعاك الله مني هدية³
من الشعر فيها الدهر جمّع والسحر
سهرت⁴ عليها الليل حتى نظمتها
كما ينظم الياقوت في العقد والدر

¹ هذا الشطر غير واضح.

² يسكن الشين المثناة الفوقية لكي يستقيم الوزن.

³ أضفنا حرف ((الواو)) قبل ((رعاك))؛ لكي يستقيم الوزن.

⁴ حرّفت هذه الكلمة؛ فكتبت ((صهرت))؛ بالصاد المهملة.

وحئت بها حسناء في الخدر تختلي
وما هي في القرطاس ليس بها خدر
فضها أمير المؤمنين (و) لدمجها¹
فما مسها شين كما أنها بكر
خطبتك للأمداح دعني للحياة²
فمن يخطب الحسناء لم يغله المهر

¹ حذفنا ((الواو)) قبل كلمة ((الدمجها))؛ لكي يستقيم الوزن؛ مع أن المعنى فيه ضعف وإسفاف.
² هذا الشطر كتب هكذا؛ نون معنى، و دون وزن. لعل الناسخ أسقط بعض كلماته.

— وله قصيدة أخرى؛ نظمها بمناسبة المولد النبوي الكريم. وقد وردت في زهر البستان؛ موصوفة بأنها موشح¹:

ففت يا شهر جميع الأشهر فاشمخ الآن إننْ واقتخر
أنت في الأشهر مثل القمر طالع بين نجوم السحر
جئت يا شهر ربيع بالمنى فلنا البشرى إلينا والهنا
وخلنا ليلة الإنس بما نصل الأفراح طول العمر

في ربيع لاح نور الحکم وانجلا عنا غلاس الظلم
ولد المختار خير الأمم أحمد فيه سراج النشر
أحمد مولده معظم نطق اللوح به والقلم
يعلم الله بذا والأمم وكذا جاء صحيح الخبر

¹ وكما هو معلوم - في معظم الأحيان - ليس للموشح وزن محدد، ولا قافية ثابتة، ولا حتى روي واحد. وإنما يترك ذلك الأمر إلى ذوق الشاعر وحسن صياغته. بالإضافة إلى ما دخل عليه - مع الوقت - من كلمات دارجة؛ وتراجع شرط الفصحى فيه؛ بل تفاضوا فيه كذلك على القيود اللازمة في قواعد اللغة من إعراب وغيره. وإن كان صاحب هذه المنظومة قد أدخلها في عداد التواشيح؛ فإن هذا الفن يتفاوت النظم فيه بين الجيد والمتوسط والردىء. ومع ذلك فقد اختار ابن ميمون السنوسي الخوض في هذا الفن؛ فنظم قصيدته على شكل رباعي؛ وتنقل في أوزانه بين: (فاعلن مفتعلن مستفعلن * فاعلن مفتعلن مفتعل)، و(فاعلن مفتعلن مفاعلتن * فعلن مفتعلن مفتعلن)، (فاعلن مستفعلن مفاعل * فاعلن مستفعلن مفاعل). (مفاعيلن فاعلن * فعلن مستفعلن مفتعل). (فعلن مفاعلن مفتعلن * فعلن مفاعلن مفاعل)، (مفاعلن مستفعلن مفاعلن * فاعلن مستفعلن مفتعلن). وهكذا دواليك؛ كما عرف في نظم التواشيح. فلامس بحر البسيط أحياناً، ودغدغ بحر السريع أحياناً أخرى. حرصاً منه على البقاء مجال التواشيح.

أحمد في الأنبياء أفضل ذكره به الحديث يحمل
كل من يجهل هذا يسأل جاء في الآي أتى والسور
إن مع الباطل خوفاً وجداً منه لمّا أظهر الحق الهدى
فاهتدى للرشد من قد اعتدى واعتدى بعد العمى ذا بصر

سيد الرسل جميعاً أحمد فضله بينهم لا يُجدد
كلهم بفضله قد شهدوا قبل أن يوتي به من مضر
سيّد الدين به وسدداً أوضح الرشد لنا ومهدا
أورث العمى بعدله الرؤا وبنور شرعه المشتهدا

يا له من مولد مولده هذه ليلته ترصده
سعد من مات بها بشهره جفنه عن نوق طعم الصهر¹
ليلة الإثنين خير لمة قادها الدهر لخير لمة
شرفت من أصل نور غرة من ضيائها ضياء القمر

¹ رسم هذا الشطر هكذا. وبسبب غموضه؛ نقترح ما بين حاصرتين بدلاً منه:
[سعد في مولد مشتهر].

ليلة الإثنين لذ المشرب¹ ليلة الإثنين صح المذهب
ليلة الإثنين لاح الكوكب في السماء بالهدى للبشر
يا له من كوكب قد طلعا فاستار نوره وارتقعا
عرف الحق به فاتبعوا فهو لا يخفى على ذي نظر

كم خبر الخلق من معجزة تجلّى أنوارها مشرقة
يا لها من حكمة محكمة ظهرت عند انشقاق القمر
في ذراع الشاة شيء عجب ووقوف الشمس منه أعجب
وحديث الضبي لا يكذب لمحمد ونطق الحجر

أوقف القاعد أيدي الأجر ما² صير الأعمى يرى بعد العمى
أشبع الألف بصاع بعدما أصبحوا من الطوي في كدر
ظماً الجيش روي من حينه بزال فاض من يمينه
في حنو الجذع أو حنينه حكمة وفي سجود الشجر

ليلة الإسراء بات يصعد نوره فوق السماء أحمد
ناظرا ذاك الجمال يشهد حاضرا لذي المقام الأكبر

¹ للحفاظ على انسجام هذا الشطر مع الشطر الموالي؛ حذفت كلمة غامضة في الأصل؛ أفسدت المعنى؛ إذ ورد الشطر هكذا: ((شرفت ليلة الإثنين لذ المشرب)).
² هكذا.

معجزات المصطفى لا تختصر [في حديث سائر أو خبر]¹
فضل تلك قد حوته السير يجد الطالب ذا في السير

أحمد له الثناء الأرفع أحمد في المذنبين يشفع
يوم قول المرء ماذا أصنع وجهنم رجت بالشرر
يوم حر مذهل يلتهب يوم لا ينفع فيه الكذب
أيها الغافل هذا اللعب لمتى قم فانتبه وازدجر

غرك الآن الرجا والأمل وألوا العزم نأوا وارتحلوا
فالإلى كم يعتريك الكسل إصحب التوبة باقي العمر
عائب النفس على عيش مضى في ضلال وتولى وانقضى
والترم [ياليسر]² يا باب الرضى واقطع الليل بطول السهر

فإن باللذة قوم سهروا ليلهم واعتبروا وازدجروا
ودعوا ربهم واقتكروا عذرهم يوم دخول القبر
ها هو الموعد أين المهرب ما جواب من عليه الطلب

¹ هذا الشطر غير واضح؛ وجاء هكذا: ((لا ولا طيف بعد الشجر)). وعليه فقد
نظمنا بدلاً منه شطراً آخر، ووضعناه بين حاصرتين. لتسهيل الفهم.
² عبارة - هنا - غير واضحة؛ فعوضناها بما ورد بين حاصرتين.

عجبا [ف]-يعيد العجب¹ كيف يخفي² الشمس عن ذي بصر

إنما يوقظ من ينتظ ليس في قولي إليكم عرض
بك يا مولاي ما لي عوض يا أمان الخائف المنكسر
هذه الحالة قد نعلمها قبحها من حسناتها أعظمها
من لها سواك من يرحمها يا مقييل عشرة المعتذر

هب³ أنا العبد فأنت المولى أإله الأزل الأول
لم أزل منك قديما أسأل الأرض من صغري للكبر
سيدي مولاي نخري أملي عدتي كهفي، الجفا من قبلي
لا تؤاخذني بأسوأ عملي لم أكن لولاك بالمعتبر

فاصلح اللهم ما قد فساد وأخذ الفتنة مهما اتحدت
وجدت نفوسنا ما وجدت لطفك الله بنا في القدر
وانصر الأسنى الإمام الضيغمي من سمت به المعالي فسمما
من يحاكي الصبح إن تبسما من نواله كَوَيْلِ المطر

¹ أضفنا الفاء للتوضيح والحفاظ على وزن البيت.

² هكذا. والأفضل: ((تخفى)).

³ هكذا.

مضرم الهجاء موسى البطل [منذ]¹ مرَّ بها تشتعل
من به تزها الطوال الأسل زهو تلك البيض بين السمر
ألهام ذا الحروب الأشجعا ألكريم اللوذعي المصقعا²
الإمام الأعظم المرفعا عدة البدو ملاذ الحضر

ملكه سعوده قد ظهرت في البلاد كلها وانتشرت
نصر الدولة لما نثرت بدوام سعده المشتهر
يال له من ملك صولته لا تطاق ولا هيبته
ضيغم لذي الوغي وثبته وثبت الليث المهاب الذكر

يقطع الأرض كمثل الأسد بلداً في بلد في بلد
فذاب سيفه³ أرهقه ولواء جيشه المظفر
[جال في الأرض فحاز الغلبا]⁴ طالبا للثأر لا مطالباً
مشاركاً قد طاف أو مغارباً هكذا في الأفق فعل القمر

¹ في الأصل: ((من ذا))؛ وهي عبارة غامضة ولا تنسجم مع وزن القصيدة؛ لذا فقد عوضناها بما ورد بين حاصرتين. للتوضيح والحفاظ على الوزن.

² اللوذعي: الذكي الذهن الفصيح اللسان. المصقع: عالي الصوت البليغ.

³ ذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

⁴ هذا الشطر غير مفهوم بالمرة؛ وتعذر استخراج كلماته بالتمام. لذا فقد عوضناه بآخر، ووضع بين حاصرتين.

سخر الله له كل الوري مدّه بنصره فانتصرا
قدر الله بهذا قدرا كل شيء سابق في القدر

محمد بن يوسف

القيسي (الثغري) الاندلسي (ابو عبد الله)

لا يعرف الكثير عن حياة صاحب هذه الترجمة؛ سوى أنه من كتاب أبي حمو الثاني؛ ومن المكلفين بالأشغال في الدولة الزيانية في عهده. ويفهم من بعض المصادر أنه ولد، ونشأ بتلمسان؛ في تاريخ غير معروف. كما أن يوم وفاته مجهول أيضاً. وكل ما عرف عن حياته؛ أنه عاش في الفترة المحصورة ما بين: سنة 760هـ/1353م؛ تاريخ ظهوره كشاعر في بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ وسنة 796هـ/1393م؛ وهو التاريخ الذي يؤرخ لآخر قصيدة عرفت حتى الآن؛ كان قد ألقاها بين يدي السلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو¹.

نقل المقرئ على لسان الدين ابن الخطيب؛ فقال: ((ومما صدر عني؛ ما أجبت به عن كتاب؛ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان؛ أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري....))². وسماه —

¹ أنظر كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 210 - 220.

² نفح الطيب، ج: 6، ص: 427.

بدوره - في أزهار الرياض: ((الفقيه العلامة الناظم
النائر أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري)).
وجاء في بغية الرواد: ((وللفقيه أبي عبد الله بن
يوسف الثغري الأندلسي أحد شهود الدخول والخروج
ببابه الكريم))¹. أي باب السلطان أبي حمو. ويعتبر
محمد الثغري من الشعراء المجيدين، وقد استشهد
المقري ببعض قصائده في نفع الطيب وفي أزهار
الرياض.

¹ بغية الرواد، ج: 1، ص: 87.

شعره

- قـيـلـت هـذه القصـيـدة؛ فـي رثاء والـد أبي حمـو
الثاني؛ "أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن"؛ وذلك
فـي سـنة 763هـ/1361م:

المرء في الدنيا رهين خطوب
والدهر أفصح من خطاب خطيب
من صاحب الدنيا الدنية لم تزل
تأتيه بالمكروه في المحبوب
ومؤمل الأيام ليس بحاصل
إلا على أمل بها مكذوب
دنياه مثل الحلم في التجريب
ولغاية مجهولة تجري بي
يا نفسي خلي الصبر وادري الأسى
وإذا دعيت فبالوجيب أجيب
نادي بنادي المجد صرخة نادب
أسفاً على المولى أبي يعقوب
فعليه يا نفسي الكئيبة فاندبي
وعليه يا كبدي القريحة ذوبي

أسفاً لمن فاق الملوك جلاله
وديانة ويكل فضل حوبي
جمع الفضائل باختلاف ضروبها
فغدا بها فرداً بغير ضريب
أعظم به من زاهد ومجاهد
ومنيل رفد تارة ومنيب
من دأبه الدين المتين ولم يزل
من كل فضل آخذاً بنصيب
من كان جيش الموت يخدم سيفه
أودى بجيش للمنون عصيب
أودى فلم نملك له من حيلة
أعوى دواء الموت كل طبيب
وأصيب من كان الزمان مطيعه
أبدأً بسهم للزمان مصيب
هوت النجوم الزهرات لفقده
وذوى من الأزهار كل رطيب
وتغيرت شمس النهار له أسي
وتبدلت من نورها بشحوب
وبكت سيوف الهند في أغمادها
بدم بماء فرندھا مخضوب

ولقد بكته جياده بصهيلها
وغدت تحن له حنين النيب
وبكت محاربه له وحروبه
من بعده لمحارب وحروب
وعلت على وجه الزمان كآبة
والبشر بدل منه بالتقطيب
جفت ينابيع الندى من بعده
والجود أجذب منه كل خصيب
من للوفود إذا أوت لجنابه
يلقاهم بالبشر والترحيب
أو من يجير المستجير بظله
ويجيب صوت الصارخ المكروب
ما زال يغلب كل خطب غالب
حتى أتى ما ليس بالمغلوب
رزة رمى بين الضلوع شواظه
فأثار كل أسى وكل نحيب
وتقطرت كمداً عليه قلوبنا
فأنظر لأشباح بغير قلوب
وإذا مصاب جل قل لمثله
شق القلوب فكيف شق جيوب

والحزن وصف قائم بالقلب لا
بالثوب يصبغ كالدجى الغريب
ولرب مكتئب قليل دمع
وكثير دمع وهو غير كئيب
والحال من ذي الحال قد تنبى على
ما في الجوانح من جوى مشبوب
قد يستدل بشاهد عن غائب
وبظاهر عن باطن محجوب
يانازحاً راموا اقترب محله
فغدا على التقريب غير قريب
إني لأعجب من نولم يفد
إلا نزوحاً زاد في تعذيب
حملوه من شرق لغرب فاغدى
كطلوع شمس بادرت لغروب
حفت ملائكة السماء بنعشه
والخلق حول سريره المنسوب
ومشوا على أقدامهم قدامه
يدعون بالترغيب والترهيب
لو أمكن الخلق الفدا بنفوسهم
لفدوه طراً من لقاء شعوب

فتعزياً مولاي عنه فإنه
 قد فاز من مولاه بالمرغوب
 ومضى لرحمة ربه مستبشراً
 بثوابه والله خير مثيب
 واختار دار الخلد من دار الفنا
 بدلاً كذلك فعل كل لبيب
 ولقد أطاب النفس إن وفاته
 في العز تحت رواقه المضروب
 ومضى وخلف منك خير خليفة
 للخلق مرغوب الندى مرهوب
 ما مات من أضحى لملك منجياً
 يا خير نجل في الملوك نجيب
 وجب الرضى لكم ببركم له
 إذ لم تخل أبره بوجوب
 فأسلم أمير المسلمين مؤيداً
 تجري من العليا على أسلوب
 وبقيت يا مولاي منصور اللوى
 في ظل ملك في الزمان رحيب

وعلى علاك تحية كالروض من
عبد مطيل للثناء مطيب

— هذه القصيدة الرائعة؛ قالها محمد بن يوسف
القيسي بين يدي أبي حمو الثاني؛ في ليلة السابع
والعشرين من رمضان في عام 776هـ/1374م؛ أثناء
حفل عقد؛ احتفاء بالنصر:

أَيُّهَا الْحَافِظُونَ عَهْدَ الْوَدَادِ
جَدُّوْا أَنْسَا بِيَابِ الْجِيَادِ¹
وَصِلُوهَا أَصَائِلًا بِإِيَالِ
كَلَالٍ نُظِمْنَ فِي الْأَجْيَادِ
فِي رِيَاضٍ مُنْضَدَاتٍ الْمَجَانِي
بَيْنَ تِلْكَ الرُّبَا وَتِلْكَ الْوَهَادِ
وَبُرُوجٍ مُشَيَّدَاتٍ الْمَبَانِي
بَانِيَاتِ السَّنَا كَشْهَبٍ بَوَادِ

¹ باب الجياد: أحد الأبواب بتلمسان؛ يقع في الجهة الشرقية من المشور؛ ويربط بينه وبين أغادير والمشور.

رَقَّ فِيهَا النَّسِيمُ¹ مِثْلَ نَسِيبِي
 وَصَفَا النَّهْرُ مِثْلَ صَفْوِ وَدَادِي
 وَزَهَا الزَّهْرُ وَالْغُصُونُ تَنَتَّتْ
 وَتَغَنَّتْ عَلَيْهِ وَرَقَّ شَوَادِي
 وَانْبَرَى كُلُّ جَدُولٍ كَحُسامِ
 عَارِي الغِمْدِ سُنْدُسيَّ النَّجَادِ
 وَظِلَالُ الْغُصُونِ تَكْتُبُ فِيهِ
 أَحْرُفًا سَطَّرَتْ بِغَيْرِ مَدَادِ
 تُذَكِّرُ الْوَشْمَ فِي مَعَاصِمِ خَوْدِ
 قُضْبُ² فَوْقَهُ ذَوَاتُ امْتِدَادِ
 وَكُؤُوسُ الْمُنى تُدَارُ عَلَيْنَا
 بَجَنَى عَفَّةٍ وَثَقُلَ³ اعْتِقَادِ
 وَاصْفَرَّ الْأَصِيلُ فِيهَا مُدَامَ
 وَصْفِيرُ الطُّيُورِ نَغْمَةً شَادِ
 كَمْ غَدَوْنَا بِهَا لِأَنْسٍ وَرُحْنَا
 جَادَهَا رَائِحٌ مِنَ الْمُزَنِ غَادِ

¹ في نفع الطيب: ((النَّسِيمُ))؛ وما جاء في بغية الرواد وأزهار الرياض أفضل.

² هذا ما جاء أيضاً في أزهار الرياض. أما في نفع الطيب فكتب: ((نصبت)).

³ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((وثقل)).

وَلَكُمْ رَوْحَةٌ عَلَى الدُّوحِ كَادَتْ
أَنْ تُرِيحَ الصَّبَا لَنَا وَهوَ غَادٍ
رَقَّتِ الشَّمْسُ فِي عَشَائِهِ حَتَّى
حَدَّثَتْ¹ مِنْهُ رِقَّةً فِي الْجَمَادِ
جَدَّتْ بِالْغُرُوبِ شَجْوٌ غَرِيبٌ
هَاجَهُ الشُّوقُ بَعْدَ طَوْلِ الْبَعَادِ
يَا حَيَّا الْمُزْنَ حَيَّهَا مِنْ عَرَاصٍ²
غَرَسَ الْحُبُّ غَرْسَهَا فِي فَوَادِي
وَتَعَاهَدُ مَعَاهِدَ الْأَنْسِ مِنْهَا
وَعَهْدَ الصَّبَا بِصَوْبِ الْعَهَادِ
حَيْثُ مَعْنَى الْهَوَى وَمَلْهَى الْغَوَانِي
وَمَرَادُ الْمُنَى وَنَيْلُ الْمُرَادِ
وَمَقَرُّ الْعُلَا وَمَرْقَى الْأَمَانِي
وَمَجَرُّ الْقَنَا وَمَجْرَى الْجِيَادِ
كُلُّ حُسْنٍ عَلَى تِلْمِزَانٍ وَقَفٌ
وْخُصُوصاً عَلَى رَبِّي الْعَبَّادِ
ضَحَاكُ النُّورِ فِي رَبَاهَا وَأَرْبَى
كَهْفُ ضَحَّاكِيهَا عَلَى كُلِّ نَادٍ

¹ في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((أحدثت)).

² نفح الطيب: ((من بلاد)).

وَسَمَا تَأْجُهَا عَلَى كُلِّ تَاجٍ
 وَصَطَفَظَظِيفُهَا عَلَى كُلِّ وَادٍ¹
 يَدَّعِي غَيْرُهَا الْجَمَالَ فَيَقْضِي
 حَسَنُهَا أَنَّ تِلْكَ دَعَاوَى زِيَادٍ
 وَبِشِغْرِي فَهَمْتُ مَعْنَى عُلَاهَا
 مِنْ حِلَاهَا فَهَمْتُ فِي كُلِّ وَادٍ
 حَضْرَةَ زَانِهَا الْخَلِيفَةُ مُوسَى
 زِينَةُ الْخَلِيِّ عَاطِلُ الْأَجْيَادِ
 وَحَبَّاهَا بِكُلِّ بَذْلٍ وَعَدْلٍ
 وَحَمَاهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَعَادٍ
 مَلَكٌ جَاوَزَ الْمَدَى فِي الْمَعَالِي
 فَالْنَّهَائِيَّاتُ عِنْدَهُ كَالْمَبَادِي
 مَعْقِلٌ لِلْهَدَى مَنِيعٌ النَّوَاصِي²
 مَظْهَرٌ لِلْعُلَا رَفِيعُ الْعِمَادِ
 قَاتِلُ الْمَحَلِّ وَالْأَعَادِي جَمِيعاً
 بَغِيرَارِ الظُّبَا وَغُرِّ الْأَيْدِي

¹ كتب هذا الشطر في نفح الطيب هكذا: ((وئما وهذها على كل وادي)). وفي أزهار الرياض:

((وسطا سيقفها على كل وادي)).

² في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((منيع التواحي)).

كَلَّمَا ضَنْتِ السَّحَابُ أَغْنَتْ
رَاحَتَاهُ عَنِ السَّحَابِ الْغَوَادِي
كَمْ هَيَاتَ لَهُ وَكَمْ صَدَقَاتِ
عَائِدَاتِ عَلَى الْعُقَاةِ بَوَادِ
فَأَيَّادِي خَلِيفَةِ اللَّهِ مُوسَى
أَبْجُرُّ عَذْبَةً عَلَى الْوُرَادِ
رُكْبَ الْجُودِ فِي بَسِيطِ يَدَيْهِ
فَقَلَّافِي بِهِ تَلَافِ الْعِيَادِ
جَلَّ بَارِيهِ مَلْجَأُ الْبَرَايَا
كَالْحَيَا ضَامِنًا حَيَاةَ الْبِلَادِ
جَلَّ مَنْ خَصَّهُ بِتِلْكَ الْمَرَآيَا
بَاهِرَاتِ مِنْ طَارِفِ وَتِلَادِ
شَيْمٌ حُلُوءَةُ الْجَنَى وَسَجَايَا
شَهْدًا¹ الْمَجْدُ أَنَّهَا كَالشُّهَادِ
يَا إِمَامَ الْهُدَى وَشَمْسَ الْمَعَالِي
وَعَمَامَ النَّدَى وَبَذَرَ النَّادِي²
لَكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ
لَيْسَ مَعْنَاهُ لِلْعُقُولِ بِيَادِ

¹ في أزهار الرياض: ((يشهد)).

² نفسه: ((النادي)).

فَكَانَ الْبِلَادَ كَفُّكَ مَهْمَا
 كَانَ فِيهَا مَنْ يَنْتَمِي لِعُنَادٍ¹
 قَبَضَتْ كَفُّكَ الْبَنَانِ عَلَيْهِ
 فَاتَى بِالْإِذْعَانِ وَالْإِنْقِيَادِ²
 بِكُمْ³ تَصْلَحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً
 إِنَّ آرَاءَكُمْ صِلَاحُ الْبِلَادِ
 لَمْ تَزَلْ دَائِماً تَجِنُّ إِلَيْكُمْ
 كَحَتَيْنِ السَّقِيمِ لِلْعَوَادِ
 لَوْ أُعِينَتْ بِمَنْطِقِ شُكْرِكُمْ
 مِثْلَ شُكْرِ الْعَفَاةِ لِلْأَجْوَادِ
 قَدْ أَطَاعَكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً
 طَاعَةً أَرْغَمَتْ أَنْوْفَ الْأَعْدَادِ
 فَأَرِيحُوا الْجِيَادَ أَتَعَبْتُمُوهَا
 وَأَقْرُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ
 وَاهْتَنُّوا الْخَالِدِينَ⁴ فِي عِزِّ مَلِكٍ
 قَائِمِ السَّعْدِ دَائِمِ الْإِسْعَادِ

¹ في أزهار الرياض: ((للعباد)).

² جاء هذا الشطر في نفع الطيب هكذا: ((فاتى بالإذعان حلف انقياد)).
 أما أزهار الرياض فجاء الشطر هكذا:

((فانثنى بالإذعان حلف انقياد)).

³ في أزهار الرياض: ((وبكم)).

⁴ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((خالدين))؛ وهو أسلم.

وإِلَيْكُمْ مِنْ مُذْهَبَاتِ الْقَوَافِي
 حِكْمًا سَهْلَةً¹ لِيَانِ الْمَغَارِ
 كُلُّ بَيْتٍ مِنَ النِّظَامِ مَشِيدٍ
 عَطَّرَ الْأَفْقَ بِالنِّثَاءِ الْمَشَارِ²
 نُوِ ابْتِسَامِ كَزْهَرِ رَوْضِ مَجُودٍ
 وَانْتِظَامِ كَسَلِكِ دُرٍّ مُجَادٍ

- قال محمد بن يوسف الثغري هذه القصيدة أمام
 السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو
 الثاني؛ في حفل بمناسبة اليوم السابع للمولد النبوي
 المعظم:

أَعْلَلُ نَفْسِي وَالتَّعَلُّ لَا يُجْدِي وَإِنْ كَانَ أحياناً يُسْكِنُ مِنْ وَجْدِي
 فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ وَالْأَمَانِي ضَلَّةٌ إِلَى مَعْهَدٍ بِالْأَنْسِ طَالَ بِهِ عَهْدِي
 وَأَيَّامٍ وَصَلِ كُلُّهُنَّ أَصَائِلُ وَمَاضِي زَمَانٍ كُلَّهُ زَمَنُ الْوَرْدِ
 سَمَحْتُ بِدَمْعِي لِلطُّلُولِ مَسَائِلًا رَسُومَ الْهَوَى لَوْ أَنَّ تَسَالَهَا يُجْدِ

¹ في نفح الطيب: ((سَهَّلْتُ)) بفتح السين والهاء. وفي أزهار الرياض:

((سَهَّلْتُ)) بالضمة فوق السين، والكسرة مع التشديد على الهاء..

² في نفح الطيب: ((المجاذ)) وفي بغية الرواد أسلم.

³ وردت هذه القصيدة في نظم الدر والعقيان فقط.

ولم أبك أطلالاً لهندي مواسلاً
وكم كاتم سرّ المحبة قد وشى
وما هاج شوقي غير زم ركائب
بنور طوتها حين جدت بها النوى
فجذت بروحي حين ضنوا بوصلهم
فلله من دمع يجود على الثرى
فرققاً بصب في يد الشوق مفرد
يكلف عراف اليمامة برءه
فهل راجع ما فات في زمن الصبا
وما أن ذمت الشيب أدخل مفرقي
يُفَرُّ شيطان الغواية نوره
إذا ابيض فودي زاد طبعي رقة
ولكنني أبكي لزلاتي التي
وإني وإن كانت ذنوبي كثيرة
لأرجو شفيع المذنبين محمداً
نبي تسمى أحمداً ومحمداً
نبي جميع الرسل تحت لوائه
كما خص بالسبع المثاني كرامة
له معجزات ماثلت كل ما أتى
وأعظمها القرآن يهدي لنا الهدى

بذي الأثل لكتني بكيت على هند
به مهراق الدمع في مهراق الخد
تخب بأبراج الهواج أو تخدي
خدور كما يطوى الكمم على الورد
وعادت دموعي مثل منتر العقد
بياقوته القاني وجوهه الفرد
بأشجانه ياساكني العلم الفرد
ويعلم أن البرء في علمي نجد
وهيئات ما أن للشبيبة من رد
فكم من يد للشيب مشكورة عندي
إذ حل في فودي ويهدي إلى الرشد
كما وصفوا البيض الرقاق من الهند
تجاوزت فيها منتهى الحصر والحد
وآثرت غيبي إذ تعاميت عن رشد
يشفعه المولى فيشفع في العبد
وأطنب فيه الوحي بالمذح والحمد
وقد خص فضلاً دونهم بلوا الحمد
من الله وهي السبع من سورة الحمد
به الرسل من أي وأربت على العد
فيا حسن ما يهدي ويا فوز من يهدي

هو الوفي أجلى من سنى الشمس في الضحى
له انشق بدر التّم عند كماله
له حن جذع النخل عند فراقه
وافاض نَميرُ الماء بين بنانه
وآياته قبل الولاد وبعده
ومولده للخلق أسعد مولى
ألا يا شفيع المذنبين شفاعه
فقد عافني شيب وضغف وكيرة
فمن لي بربع حلّه خيرُ مرسل
وأبلغ قلبي ما تمنى من المنى
وأشفي غليلي بالورود لزمزم
لئن فانتني فيما مضى من شيبتي
فتحت اللواء التأشيفيني بسعده
إمام تولى الله تشييد فخره
هُمام حباه الله عزّة نصره
له السعد والسعي الجميل ملازم
له الجود أضحى أمة فيه وحده
له العسكر الجرار يجلو قتامة
كروض ولكن السيوف جداول
كسحب ولكن السيوف بروقها

سنّاه وأحلى حين يتلى من الشهد
فشاهده من كان بالقرب والبعد
حنينا شكى من شوقه ألم الفقد
إلى أن تروى الجيش من ذلك الورد
لكثرتها لم تحصى في القبل والبعد
فهم منه في ظل من الأمن مُمتد
وعنت بها في الحشر يا صادق الوعد
قضت لي عن مغناك بالنأي والبعد
أعقر خدي في ترى ذلك اللحد
وأبرد شوقاً فيه ملتهب الوعد
فيا ظمأى شوقاً إلى ذلك الورد
ولم أعتل سيراً بنص ولا وخذ
تبلغني أطعانه مُنتهى قصدي
فما شئت من مجد ومن كرم عُد
فلله من نصر عزيز ومن عضد
وناهيك من سعي جميل ومن سعد
كما أنا في مدحي له أمة وحدي
أسنّته كالشهب في الظلم الربد
وسمر القنا الخطي كالقضب الملد
إذا ما انتضوها والصواهل كالرعد

يُعِدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ كُلَّ كَتِيْبَةٍ
وَكُلَّ صَقِيلِ الصَّحْفَيْنِ مُهَنَّدٍ
يُبِيدُ الْعِدَى قَبْلَ اللَّقَاءِ مَهَابَةً
يُهَابُ وَيُرْجَى فِي جَلالِ جَمالِهِ
فِي مَالِكٍ يَحْمِي الرِّعِيَةَ رَعِيَّتُهُ
وَيَكْفُلُهُم بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالنَّدَى
لِيُهْنِكَ مَا جَدَّدْتَ مِنْ عَهْدٍ مَوْلِدٍ
جَمَعْتَ جَمِيعَ الْحُسْنِ فِي لَيْلَتَيْهِمَا
هُوَ الْمَوْلَدُ السَّامِيُّ وَسَابِعُهُ الرُّضَى
وَيُهْنِكَ أَبْنَاءُ بَنَوْا بِكَ مَجْدَهُمْ
وَأَضْحَتْ شُرُجُ الصَّافِنَاتِ مُهَوِّدَهُمْ
سَمَوْا بِكَ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي كَوَاكِباً
لِعَمْرِي لَقَدْ زَانَتْهُ مِنْكَ مَهَابَةٌ
فَمَا الْبَدْرُ فِي أَشْوَاقِهِ وَضِيائِهِ
فَدِمْتَ لَهُ يُرْضِيكَ بِالْبِرِّ وَالتَّقَى
وَدُونَكَ رَوْضاً مِنْ ثَنَائِكَ عَاطِراً
فَمِنْكَ أَجَدُّنَا الْقَوْلَ فَيْكَ إِجَادَةٌ
وَلَا غَرَوْ أَنْ حَيَّتِكَ بِالطَّيِّبِ رَوْضَةٌ
وَمَا هِيَ إِلَّا الْعَقْدُ مِنِّي نَظْمُهُ

بِهَا الْجُرْدُ تَرْدِي وَالْفَوَارِسُ كَالْأَسَدِ
وَكُلَّ قَوِيمِ الْمَتَنِ مُعْتَدِلُ الْقَدِّ
فَتُبْرِي الطَّلَى أَسْيَافُهُ وَهِيَ فِي الْعُمْدِ
كَلِيثٌ وَغَيْثٌ فِي وَعِيدٍ وَفِي وَعْدِ
وَيُحْيِيهِم بِالْبَدَلِ وَالْعَيْشَةِ الرَّغْدِ
وَيَشْمَلُهُم بِالْجُودِ وَالرَّفْقِ وَالرَّفْدِ
وَسَابِعُهُ أَكْرَمُ بِذَلِكَ مِنْ عَهْدِ
تُذَكِّرُنَا كِلْتَاهُمَا جَنَّةَ الْخُلْدِ
فَمَا لَهُمَا مِنْ مَظْهَرِ الْفَخْرِ مِنْ حَدِّ
وَلَا حِوَا نَجُوماً فِي سَمَاءِ ذَلِكَ الْمَجْدِ
تَعَوَّدَهَا أَطْفَالُهُمْ عَوْضَ الْمَهْدِ
أَبُو ثَابِتٍ مِنْ بَيْنِهِمْ قَمَرُ السَّعْدِ
كَمَا زَانَ أَشْوَاقَ الْفَرَنْدِ طَبَى الْهَنْدِ
بِأَجْمَلٍ مِنْهُ عِنْدَ مَطْلَعِ الْوَقْدِ
وَتُرْضِيهِ بِالرُّضْوَانِ عَنْهُ وَبِالرُّشْدِ
فَمَا لِنَثْنَاكَ الْعَاطِرِ النَّدِّ مِنْ نَدِّ
وَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ إِلَّا مِنَ الْوَرْدِ
تَجُودُ لَهَا بِالصَّبِيبِ الطَّيِّبِ الْعَهْدِ
وَمَنْ وَصَفَكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جَوْهَرٍ فَرْدِ

قال محمد بن يوسف القيسي هذه القصيدة في
عام 776هـ/1374م؛ خلال حفل أقامه السلطان أبو
حمو الثاني؛ بمناسبة ختم ابنه أبي زيان محمد
سورة البقرة وحفظها:

تهلّ وجه الأرض وابتسم الزهرُ
وغارت به في أفقها الأنجمُ الزهرُ
وضاحكت الأرض السماء مسرةً
وقابلها من كلّ ريحانة ثغرُ
ومالت قدودُ القضبِ زهواً كأنها
نشاوى تمشّت في معاطفها الحمرُ
وغتّ قيانُ الورق خلف ستورها
وللورق إن غتّ بأوراقها سترُ
أجدت سروراً في صنيع خالفة
أتاحت له الأقدارُ ما يقتضي القدرُ
لمولاي موسى أبدت الأرض زينة
فتوجّها زهرٌ ووشحها نهرُ
وقد رفلت في حلّة سندسية
وشأها الصبّا وبجّها القطرُ

فالرّوض إِيراق بنائله الذي
غدا الرّوض منه وهو فينان مخضرٌ
وللزّهر أشواق بمحفله الذي
غدا الدّهر منه وهو جذلان مفتر
ولله من يوم أغرّ محبّـل
وأيام مولانا محبّـلة غرّ
به الحسنُ والحسنَى جميعاً تجمّعاً
تلاقى به البشري وراق به البشري
وقد سرّ أبناء الملوك بأنسهم
وناهيك من أنس الملوك إذا سروا
أشمس الهدى أطلعت في أفق العلى
نجوماً وليّ العهد بينهم البدر
أبو تاشفين سيف دولتك الذي
به تفخر العلياء أو يعتلي الفخر
له السّوددُ المأثورُ والمجدُ والعلوّ
له الكرمُ المشهورُ والنّائلُ الغمرُ
أميرٌ رضى أرضى الخلافة أمره
فقد فاز بالرضوان ممّن له الأمرُ
تلاه أخوه في علاه وإنّـه
لمنتصرٌ بالله عزّ به النّصرُ

وإنَّ أبا زِيَّانَ زَيْنٌ لِّذَاتِهِ
زَكَامَنهُ نَجْلٌ حِينَ طَابَ لَهُ نَجْرُ
وَقَدْ حَذَقَ الْقُرَّاءَ حِذْقَ مُجَوِّدٍ
فَأَشْرَقَ مِنْهُ الْقَلْبُ وَأَنْشَرَ الصَّدْرُ
وَهَشَّتْ لَهُ الْجُوزَاءُ تَخْدُمُ حِفْلهِ
وَقَدْ شَدَّ مِنْ عَقْدِ النَّطَاقِ لَهَا خَصْرُ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ حَافِظُ
لِتَالِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حُفِظَ الذِّكْرُ
وَقِرَّةَ عَيْنِ الْمَجْدِ يَوْسُفَ صِنُوهُ
بِهَيْهَاتَ الْعِلْيَاءِ شَدَّ لَهَا أَزْرُ
وَكُوكِبُ أَفْقِ السَّعْدِ خَامِسُهُمْ أَبُو
عَلِيٍّ عَلَا فِي الْمَعْلَوَاتِ لَهُ قَدْرُ
وَنَاصِرُهُمْ يَتْلُوهُ عُثْمَانُ وَاقْتَدَى
بِفَارِسِ عَبْدِ اللَّهِ فَانْتَظَمَ الدُّرُ
فِيَا مَلَكاً فَاضَتْ أَشِعَّةُ نَوْرِهِ
فَأَشْرَقَ مِنْهَا لِلْعَالِي أَنْجَمُ زَهْرُ
لِيُهَنَّكَ أَبْنَاءُ بَنِيَّتِ بِهِيْهِمْ
مَنْ الدِّينِ أَرْكَاناً يَهْدِيهَا الْكَفْرُ
بِهِمْ تَزْدَهِي الْأَعْلَامُ وَالْبَيْضُ وَالْقَا
كَمَا ازْدَهَتْ الْأَفْلَامُ وَاللُّوحُ وَالْحَبْرُ

فما مِنْهُمْ إِلَّا أَمِيرٌ مُؤَيَّدُ
 وما مِنْهُمْ إِلَّا رَضَى مَاجِدِ بَرُ
 جَمَعْتُمْ لَدَى الْقَصْرِينِ كُلِّ فَضِيلَةٍ
 سَمَا لَكُمْ فِي الْخَافِقِينَ بِهَا ذَكَرُ
 مَآثِرُ شَتَّى مِنْ قَرَى وَقِرَاءَةٍ
 تَضْمَنَ مِنْهُ كُلُّ مَآثِرَةِ قَصْرِ
 فَمِنْ صَدَقَاتِ غَارٍ مِنْ جَوْدهَا الْحَيَا
 وَفِيضِ هَبَاتِ غَاضٍ فِي جَوْدهَا الْبَحْرُ
 دَعَوْتُمْ إِلَيْهَا كُلَّ بَادٍ وَحَاضِرِ
 فَلَبَّوْا كَأَنَّ النَّاسَ ضَمَّهْمُ الْحَشَرُ
 كَأَنَّ الثَّرْيَا نَحَوَكُمْ مَدًّا كَفَّهَا
 فَمِنْ نَيْلِكُمْ فِي كَفِّهَا وَرَقٌ وَفَرُ
 كَذَا تُبَتِّنِي الْعُلْيَا وَيُذْخِرُ الثَّنَا
 وَتُكْتَسِبُ الزُّلْفَى وَيُغْتَنَّمُ الْأَجْرُ
 مَكَارِمٌ لَا تَتَفَكُّ تَزْدَادُ جَدَّةَ
 عَلَى الدَّهْرِ لَا تُبْلَى وَإِنْ بُلِيَ الدَّهْرُ
 فَدَامَتْ بِكَ الْأَيَّامُ تُظْهِرُ حُسْنَهَا
 فَيَحْسُنُ فِي أَوْصَافِهَا النَّظْمُ وَالنَّثْرُ
 وَدُونِكَ مِنْ دُرِّ الدَّرَارِي قَوَافِيهَا
 فَيَا مَنْ رَأَى الشَّعْرَى يَنْظُمُهَا الشَّعْرُ

قوافٍ قفتْ أثر النُّجومِ مناهجاً
فليسَ بِمَقْفِيٍّ لها أبداً أثرُ
وما هي إلاَّ بِكرُ فِكْرٍ تَبَرَّجَتْ
وفي لفظها ثُرٌ وفي لحظها سحرُ
مخبرة من قال مُستخبِراً لها
سَلِي هلْ لديها منْ مخبرةٍ ذكرُ

- قال الشاعر هذه القصيدة عقب فتح أبي حمو
الثاني لوهران. ولم تردت إلا في زهر البستان فقط:¹
بسعدك الجاريان الدَّهر والقدر
وباسمك الغالبان النصر والظفر
من بعض أنصارك السعد المكين ومن
خدامك الماضيان البيض والسمر
بيمينك الفلك الأعلى جرى وعنا
بجودك الأجودان البحر والمطر

¹ الشاعر محمد بن يوسف القيسي شاعر مجيد؛ ولكن هذه القصيدة
نسخت للأسف بقلم رديء؛ الأمر الذي أفسد رونقها.

فَأَنْتَ أَعْلَى مَلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً
 وَدُونَكَ النَّيِّرَانِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 لَكَ الْمُلُوكُ فَعَنْ عَلَيْكَ قَدْ عَجَزُوا
 وَصَدَّاهُمْ طَائِعَانِ الْعِجْزِ وَالْخُورِ
 فَبَسَطَ كَفْكَ فِيهِ بَرْقَ سَيْفِكَ قَدْ
 تَأَلَّفَ الْنَافِرَانِ الْمَاءِ وَالْقَقَرِ
 اللَّهُ مَلِكُ مَلِكٍ [رَاعٍ] ¹ وَرَوَّعَنِي
 فِي الْحَرْبِ عَمْرُو ² وَفِي مُحْرَابِهِ عَمْرُ ³
 نِبَارِكُ الْأَرْضِ لَوْ فِي الْأَرْضِ مِنْ نَدِيٍّ
 لَمْ تَذْبُلِ الْنَاعِمَانِ الْوَرْدِ وَالزَّهْرُ
 وَوَاضِحُ الْبَشْرِ لَوْ فِي الْبَدْرِ مِنْهُ [سَنَى
 يَجْلِي بِهَا مَرْكَبِينَ: الْأَرْضِ وَالسَّرَرِ] ⁴

¹ كتب في الأصل: ((أوزع))؛ وهذا تحريف لكلمة أخرى قالها الشاعر؛ لأن ما ورد في الأصل يخل بالوزن. وعليه فقد وضعنا بين حاصرتين كلمة [راع]؛

ليستقيم الوزن والمعنى.

² أي: عمرو بن العاص.

³ أي: عمر بن الخطاب.

⁴ للأسف؛ قلص الناسخ ما يمكن جنيته من هذه القصيدة؛ إذ شوه كلماتها، وأخل بوزنها؛ حتى أن القارئ يعجز عن فك شفرة الكلمات؛ ويفاجأ - بين الحين والآخر - بخلل؛ يسقطه في فجوة عتماء، أو يصدمه بحاجز عصي؛ يمنع متابعة تسلسل معاني القصيدة. لذا لم أجد بداً من محاولة نظم كلمات وعبارات بديلة؛ لعلها تساعد القارئ على متابعة قراءة هذه القصيدة. وعليه؛ فكل ما يعترض القارئ من عبارات أو كلمات بين حاصرتين فهي من صياغة صاحب التحقيق؛ ونرجو من الله التوفيق.

ولو أجبرت قلوب العاشقين به
لم يسبها الفاتنان: الغنج والخور
[أجبتنا]¹ بالغنى والأمن فاندفعت
عناية [الشقوتان]² الفقر والحزر
فالجود يأتي على الأقوام منسكب
والأمن ظل على الإسلام منتشر
[تغدو الفضائل كلها له فجرى]³
من وجهه البدر أو من كفه البذر
يلقى الجفأة ببشر إثره كرم
كذلك الغيث إثر البرق ينهمر
وإن تبسم بُشْرُنَا بكل غنى
كذلك النور يأتي بعده الثمر
هدى يغمر أسن المولى وسيرته
[تسمو جلالاً وتروي ذكرها السير]⁴
فمن معاليه في جيد الزمان حلي
ومن مساعيه في طرف العلى حور

¹ كلمة - في الأصل - غير واضحة؛ فوضناها بكلمة بديلة.
² في الأصل كلمة غير مفهومة؛ فوضعنا كلمة بدلاً منها بين حاصرتين.
³ تعذر قراءة ما كتب في هذا الشطر. وعليه فقد عوضناه بما ورد بين حاصرتين.
⁴ جاء هذا الشطر في الأصل هكذا: ((أبدى محياتنا فسرت منهما السير)). وهذا مما حرقه الناسخ. لذا فقد وضعنا شطراً بدلاً منه؛ كما ورد أعلاه.

للنصر ريح رجاء لا تفارقه
 تروح [القوم في نصر]¹ وتبتكر
 ريح ولكنها روح إذا ابتدرت
 رأيت راياتها للفتح تبتدر
 [أجرت]² قلوب الأعادي في متابعة
 كأنما كل قلب؛ طائر³ [ذعر]³
 له جيوش لها نار مضمرة
 وقودها الناس لكن من له ضرر
 نعم وفيها لمن والاه منفعة
 كالسحب يوجد فيها النار والمطر
 يقودها ملك في بردة ملك
 في درعه أسد في تاجه قمر
 ملك بهمة العليا وعزمته
 [ترسخت وعلت أركانه الغرر]⁴

¹ ما بين حاصرتين وضع في مكان عبارة غير مفهومة في الأصل.
² الكلمة - في الأصل - غير مفهومة؛ فعوضت بما ورد بين حاصرتين.
³ ما بين حاصرتين؛ وضع في مكان كلمة غير واضحة في الأصل.
⁴ ورد هذا الشطر في الأصل هذا: ((يستجاب النفع أو يستدفع الضرر)). وهذا الكلام الذي نقله الناسخ - طبعاً - غير موزون، ولا مفهوم. لذا فقد عوضناه بما ورد بين حاصرتين؛ لتقريب المعنى المقصود إلى القارئ.

عَفَّ الإِزار مصِيبَ الرَّأيِ متكل
على الإله بما يأتي وما يدر
حامي الديار أبو حمو الذي فُتِحَتْ
له البلاد ودان البدو والحضر
مفني العدا فإذا أفنى الأولَى مردوا
على النفاق يُثَنِّي فَلَؤلى كفر
من ذي الكتبية [قد فاضت مناقبه
يطري ويثني على أوصافه البشر]¹
معطي الألف ومطعم الضيوف ومطـ
عان الصفوف وبادي الحرب تستعر
والخيل كالسبيل تحت الليل ترفعها
فرسانها ودجى الهيجاء معتكر
والبيض والسمر في الصفيين قارئ
علم البديع فمنظوم ومنثور
والهام تسقط والألأباب طائشة
والأسد قابلة للأسر لا وزر
هناك يحمي حماها بالهمام أبى
حموا ويَحْمَرُّ منه الورد والصور

¹ ما ورد بين حاصرتين في هذا البيت؛ وضعناه؛ بفرض تعويض الكلمات المشوهة التي تعذر فك طلاسمها.

سَلْ عَنْهُ وَهَرَانِ هَلْ أَجْدَى تَحْصِنُهَا
مِنْهُ وَهَلْ أَغْنَتْ الْأَسْوَارُ وَالْجُدَرُ
كَلَّا لَقَدْ حَلَّهَا إِذْ حَلَّ سَاحَتُهَا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهَا مِنْ عِنْدِهِ الْقَدَرُ
كَيْ يُوْرِدَ الصَّفْوُ مِنْ لَمْ يُحْيِ تَكْرِمَةً
وَيُوسِعَ الْعَفْوُ مَنْ يَحْيَى وَيَقْتَدِرُ
يَا غَاصِبِينَ اسْتَحَقَّ الدَّارُ صَاحِبُهَا
إِنْ شَاءَ عَاقِبَكُمْ أَوْ شَاءَ يَغْتَفِرُ
هَذَا إِذَا طَرَحَ الْجَنَازَةَ زَلْتَهُمْ¹
وَعَادَ بِالْعَفْوِ شَهْرًا² ذَلِكَ الْعَبْرُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدُ الشَّاكِرِينَ عَلَى
فَتْحِ تَلِيهِ فَتَوْحِ جَمَّةٍ أُخْرٍ
وَالْأَرْضُ أَبَدَتْ لِهَذَا الْفَتْحِ زِينَتَهَا
بَشْرًا وَأَشْرَقَتْ الْأَمَالُ وَالْكِبَرُ
فَأَنْظُرْ إِلَى الرُّوضِ تَهْتَزُّ الْغُصُونُ بِهِ
عُجْبًا وَيَضْحَكُ فِي أَرْجَائِهِ الزَّهْرُ

¹ رسم هذا الشطر في الأصل هكذا: ((هذا أمن جانا جنى بما جنى عبرا))؛ ونظرا لغموضه، والتحريف الذي أصاب كلماته؛ عوضناه بشطر آخر ورد بين حاصرتين.
² هكذا.

وللربيع على أعطافه حلل
مرقومة كللتها للندى درر
تستبشر الناس حتى قلت أنهم
نشاهم المطر بان الكأس والوتر
هذا الذي كانت العليا [تؤمله]¹
هذا الذي كان كل الناس ينتظر
أقدم على فرص الآمال منتهزا
يحصي بها بشرأ ما نالها بشر
بادر كما تترجى بالسعد مبتدراً
ومر بما تشتهي فالدهر [مبتكر]²
والنصر بينهم يهفو به سلم
وأنت معتصم بالله منتظر
فانهض بجيش وسعد منك ساعده
يا حبذا العسكران السعد والنفر
بسعدكم قدمت كل البلاد لكم
لم يعص سيفك لا سهل ولا عر

¹ في الأصل: ((تأمله))؛ وهذا يخل بالوزن.
² الكلمة الواردة بين حاصرتين وضعناها بدل كلمة غير واضحة.

سر حيث شئت بعبد الواد [إنهم]¹
 عربٌ كرامٌ وكل ضيغم هصر
 زين الزمان بنو زيان إنهم
 وأنت بدر علاهم أنجم زهر
 أراؤكم وعطاياكم وأوجهكم
 في العصر الدهم من آياتها غرر
 إليكم تطمح الأبصار والفكر
 وفيكم تسرح الأشعار والفقر
 ومن يكن فخره بالشعر ممتدحا
 فبامتداحكم الأشعار تقفخر
 وما عسى أن يطيل المدح ذو لسن
 ومن يطل فيك مدح فهو مختصر
 فكل فخر إلى عليك غايته
 وكل جود على يمينك مقتصر
 إليكما من مجيد خير قافية
 لو أنصفوها لما فاهوا ولا شعروا
 ما كل من يتعاطى الشعر يحسنه
 كلا وهل تستوي الحصبا والدرر

¹ في الأصل: ((ما بهم)).

لازال سعدكم ينمي وسيفكم
يحمي وجودكم يهمني وينهمر
[فقائد]¹ الأمر منصور اللواء، لكم
بكل أفق ثناء طيب عطر

— قال صاحب الترجمة هذه القصيدة الغراء الرائعة
بتلمسان في سنة 796هـ/1393م؛ بين يدي السلطان
أبي زيان محمد بن أبي حمو الثاني²:

تذكرتُ صباحاً يَمُمُوا الضَّالَّ والسُّدْرَا فهاجتُ³ لي الذِّكْرَى هوى سَكَن الصَّدْرَا
وإخوان صدق أَعْمَلُوا السَّيْرَ والسُّرَى إذا ما بدا عذرٌ لهم قطعوا العذْرَا
سروا في الدُّجَى يفلون ناصية الفَلَى وعند صباح القوم قد حمى المَسْرَى
غدتُ نَكَرْتُ البَيْنَ معرفةً بهم وآهله تلك المَجاهِل لا قَفْرَا
وتوديعهم أذكى الجَوَى في جوانحي لقد أودع التَّوْدِيْعُ في كبدي جَمْرَا
يُضِيءُ النُّجَى من عزمهم فكأنهم كواكبٌ تُسْرِى للحمى كي تَرَى البَدْرَا
لجلّ بدور الرُّسُل نوراً وبهجةً وأجمل خلق رِيءٍ في حُلَّةِ حَمْرَا
وأصدق من في عالم الكون لهجةً وأكرمهم فعلاً وأشرفهم ذِكْرَا

¹ في الأصل: ((قائد))؛ بدون الفاء؛ وهذا يخل بالوزن. فوجب التصويب.

² وردت هذه القصيدة في نظم الدر والعقيان فقط.

³ هكذا جاءت، وربما كانت: ((وَهَيْجَ لي الذِّكْرَى...)).

وأطهرهم قلباً وأكملهم تُقَى
وأفصح من بالضاد والظاء ناطقاً
تلاً نوراً يفضح الشمس في الضحى
ويبسم عن حب الغمام كأنما
فما الروض مطلول الأزاهر باسماء
ولا المسك مفوض النوافخ صامكاً
أزين الحلى وقف عليك محبتي
يمثل لي مرآك في كل لحظة
إذا فهت لم أنطق بغير حديثكم
ومالي أطوي عنك سر الهوى وقد
أبيت إذا ما الليل أرخى سدوله
عقدت بها جفني وأطلقت أذمعي
يكذب دعوى النفس شاهد حالها
أترعم حباً للحبيب ولم تخض
وكل اعتذار قد يسوغ ولا أرى
وأخطر ما يلقي المحب به الردى
وليس عجيباً أن ينال مشوقهم
ففي سعة الأنطاف ما يفرج الأسى
وفي رحمة المولى إغاثة عبده
إلهي عفواً عن ذنوب جنيتهما
وأشرحهم صدرأ وأرفعهم قدراً
إذا فاة نطقاً خلته ينثر الدرأ
فليس له ظل لدى الشمس يستقرا
جواهر نور أودعت ذلك الثغرا
بأنكى أريجاً منه ورداً ولا زهراً
بأطيب من رياه عرفاً ولا نشرأ
إذا رمت صبراً عنك لم أستطع صبرأ
ويخطر لي نكرالك ما جرت الذكرى
وإن غيت لم يغير سواكم لي الفكرأ
تملك مني حبك السر والجهرأ
أسامر من شوقي لك الأنجم الزهرا
فلا عبرة ترقى ولا مقله تكرى
إذا لم يكن برهانها يشرح الصدرأ
له في سبيل الحب برأ ولا بحرأ
لمثلي مقيماً في تخلفه عنرا
وكل محب لا يرى للردى خطرا
على البعد منهم ما يسر به السرا
وفي كنف اليسرين ما يذهب العسرا
ولا سيما أن يدعه العبد مضطراً
وغفراً لما أسلفت من زلل غفراً

بأسمائك الحسنَى سألْتُكَ ضارِعاً
لعلِّي أخطى بالمزارِ لطيفةً
هي الدَّارُ حَطَّ الصَّالِحُونَ رِحَالَهُمْ
مُثَابَةً لِيَمَانٍ وَأَمْنٍ وَنَصْرَةٍ
تَخَيَّرَهَا الْمُخْتَارُ دَاراً لِهَجْرَةٍ
أَيَا جِيْرَةَ الْوَادِي بِحَقِّكُمْ مَتَى
لُحْلُ بَارِضٍ حَلَّهَا خَيْرُ مُرْسَلٍ
نَبِيٍّ آتَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
بَشِيرٌ نَذِيرٌ بَيْنَ كَتَفَيْهِ خَاتَمٌ
أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ يَشْفَعُ فِيهِمْ
فِيَا مُرْسَلًا بِالْحَقِّ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً
وَمَنْ مَانِلَتْ آيَاتُهُ كَلِمَا أَتَتْ
لَأَنْ كَانَ فَلَقُ الْبَحْرِ قَبْلَكَ آيَةً
وَإِنْ كَانَ فَاضِ الْمَاءِ مِنْ حَجَرٍ لَهُ
وَإِنْ وَقَفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ لِيُوشِعَ
لَكَ اللَّهُ رَدَّ الشَّمْسِ بَعْدَ غُرُوبِهَا
وَإِنْ كَانَ مَعَ دَاوُدَ سَبَّحَتِ الصَّوْوَى
وَإِنْ حَمَلَتْ قِدْماً سُلَيْمَانَ رِيحُهُ
فَفِي لَيْلَةٍ أَسْرَى بِكَ اللَّهُ رَاكِباً
مِنْ الْفَرَشِ نَحْوَ الْعَرْشِ أَسْرَى بِعَبْدِهِ
وَبِالْمُصْطَفَى أَلَا تَرَدُّ يَدِي صِفْراً
فِيْمَحُو بِهَا ذَاكَ الْمَزَارُ لِي الْوِزْرَا
فَحَطَّتْ خَطَايَاهُمْ وَإِنْ عَظُمَتْ كَثْرَا
بِهَا انْتَصَرَ الْإِسْلَامُ فَاصْطَلَمَ الْكُفْرَا
فَمَا سَامَهَا مِنْ بَعْدِ هِجْرَتِهِ هَجْرَا
يَقُولُ لِي الْحَادِي هَتَيْناً لَكَ الْبُشْرَى
غَدَا تُرْبُهَا مِسْكاً وَحَصَانُوهَا دُرّاً
فَبَالِغٍ فِي تَبْلِيغِهِ لِلْوَرَى طُوراً
بِهِ خَتَمَ اللَّهُ الرِّسَائِلَ وَالنُّذْرَا
يَوْمُنْ فِي الدُّنْيَا وَيُشْفِئُهُ فِي الْآخِرَى
وَمَشَكَى شَكَاؤُهُمْ إِذَا وَرَنُوا الْحَشْرَا
بِهِ الرُّسُلُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمُ الْكُبْرَى
لِمُوسَى فَإِنَّ اللَّهَ شَقَّ لَكَ الْبَدْرَا
فَمِنْ كَفَّكَ الْمَاءُ الزَّلَالُ جَرَى نَهْرَا
فَقَدْ وَقَفَتْ لِلْمُصْطَفَى تَارَةً أُخْرَى
فَأَنْرَكَ إِذْ صَلَّى عَلَيَّ بِهَا الْعَصْرَا
فَقَدْ سَبَّحَتْ فِي رَاغِيَتِكَ الْحَصَى جَهْرَا
تَرَوْحُ بِهِ شَهْراً وَتَغْنُو بِهِ شَهْرَا
بُرْاقاً يَفُوقُ الْبَرَقَ فِي سُرْعَةِ الْإِسْرَا
إِلَى الْحَضْرَةِ الْعُلْيَا فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى

وَعَادَ إِلَى مَثْوَاهِ وَالصُّبْحُ لَمْ تَشْبُ
وَإِنَّ لِسُلَيْمَانَ الشَّيَاطِينَ سُخَّرَتْ
فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سُخِّرَتْ لَهُ
مَلَائِكَةُ قَدْ قَاتَلَتْ مَعَهُ الْعِدَى
فَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
أَعَادَ الْأَعَادِي فِرْقَتَيْنِ بِحُكْمِهِ
وَإِنْ خَمَدَتْ نَارُ الْخَلِيلِ كَرَامَةٍ
فَقَدْ خَمَدَتْ لِلْمُصْطَفَى نَارُ فَارِسَ
وَفَاضَتْ بِهِ الْأَنْوَارُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَلَوْلَا سَنَى نَوْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
وَكَمْ لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ آيَةٍ سَمَتْ
وَكُلَّ النَّبِيِّينَ انْقَضَتْ مُعْجَزَاتُهُمْ
وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلَادِ لَاحَتْ عَجَائِبُ
وَسَلَّتْ عَلَى الْإِيوَانِ سَيْفٌ مَهَابَةٌ
هِيَ اللَّيْلَةُ الْغَرَاءُ جَدَّدَ عَهْدَهَا
فَأَسْدَى وَأَبْدَى مِنْ نَدَاهِ وَحُسْنِهَا
يُذَكِّرُنَا دَارَ الْمَقَامَةِ حُسْنَهَا
إِمَامٌ مَلَأَ الدُّنْيَا تُقَى وَفَضَائِلًا
فَمِنْ سِيرٍ أَذَكَّرْنَا عَمْرًا وَمَنْ
نَرَى بَطْعَنِ الرِّمَحِ فِي مَهْجِ الْعِدَى

ذَوَائِبِهِ وَالصُّبْحُ مَا فَجَّرَ الْفَجْرَا
فَلَمْ تَكُ فِي التَّسْخِيرِ تَعْصِي لَهُ أَمْرًا
مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ تَنْصُرُهُ نَصْرًا
بِغَزْوَةٍ بَنَرَ حِينَ حَلَّ الْعِدَى بَنَرًا
فَمَنْ لَمْ يَدْنِ طَوْعًا أَتَاهُ الرَّدَى قَهْرًا
فَمَنْ فِرْقَةٍ قَتَلَى وَمَنْ فِرْقَةٍ أُسْرَى
فَأَلْفَوْهُ إِذْ أَلْفَوْهُ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَا
بِمَوْلَاهُ مِنْ بَعْدِ مَا أُضْرِمَتْ دَهْرًا
وَفِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى سَرَى الْبَشَرُ وَالْبُشْرَى
لَمَّا أَبْصِرَتْ بِالشَّامِ مِنْ مَكَّةَ بُصْرَى
عَلَى الْأَلْفِ وَالْقُرْآنُ آيَتُهُ الْكُبْرَى
وَمُعْجَزَةُ الْقُرْآنِ بَاقِيَةٌ تُقْرَأُ
بِقِصَرٍ أَوْدَتْ بَعْدَمَا كَسَرَتْ كِسْرَى
فَخَرَّ بِهَا الْإِيوَانُ مِنْ بَعْدَمَا قَرَأَ
الْإِمَامُ أَبُو زَيْنَانَ بِالْحَضْرَةِ الْغُرَا
حَيَا جَادَ رَوْضًا فَانْتَسَى زَهْرًا نَضْرَا
فَمِنْ بَهْجَةٍ تُجَلَّى وَمِنْ نِعْمَةٍ تَنْتَرَى
وَتَرْتَجُّ أَحْشَاءَ الْمُلُوكِ بِهِ دُغْرَا
مَوَاطِنَ فِي الْهَيْجَاءِ أَنْسَيْنَا عَمْرًا
وَلَكِنْ بَضْرِبِ السَّيْفِ فَوْقَ الطَّلَى أَنْرَا

مَلِكُ أَقَامَ الْخَلْقُ فِي ظِلِّ عَدْلِهِ وَأَضْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ مَلَابِسِهِ سِتْرًا
 فَكَمْ قَدْ سَطَتْ ذُؤْبَانُ عُرْبَانِهِمْ بِهِمْ تَسْوِمُهُمْ قَهْرًا وَتَسْلِيهِمْ جَهْرًا
 فَكَفَّ أَكْفَ الْجَوْرِ عَنْهُمْ بَعْدْلِهِ فَلَا رُوْعَةَ تَعْرُو وَلَا عَوْرَةَ تَعْرَى
 فَكُلُّ الْوَرَى يَدْعُو بِطَوْلِ بَقَائِهِ فَمَنْ رَافِعَ كَفًّا وَمَنْ سَاجِدٍ شُكْرًا
 لَنْ كَانَ بَحْرًا فِي الْعُلُومِ فَإِنَّ فِي بَنَانٍ يَدِيهِ لِلْنَّدَى أَبْحُرًا عَشْرًا
 فَمَا فِي سَجَايَاهُ الْكَرِيمَةِ مَطْعَنٌ سِوَى أَنَّهُ بِالْجُودِ يَسْتَعْبِدُ الْحُرًّا
 لَهُ بَكْتَابِ اللَّهِ أَعْنَى عَنَابَةِ وَبِالسَّنَةِ الْغَرَّا هُوَ الْمَغْرَمُ الْمُغْرَى
 فَمَا هَمُّهُ إِلَّا كِتَابٌ وَسَنَةٌ بِنَسْخِهِمَا قَدْ أَخْزَرَ الْفَخْرَ وَالْأَجْرَا
 فَنَسَخَ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَنَسَخَ الْبُخَارِي ضَامِنَانِ لَهُ النَّصْرَا
 وَمَنْ كَانَ يَعْتَدُّ الشِّفَاءَ شِفَاءَهُ فَمَنْ عَلَّلِ الْأَوْزَارَ فِي نَسْخِهِ يَنْزَا
 تَضَوَّعَ طَيْبًا حَيْرُهُ وَكِتَابُهُ فَزَادَ الْبُخَارِي مِنْ مَبَاخِرِهِ عِطْرًا
 فَلَمْ أَدْرِ وَالْأَوْرَاقُ رَاقَتْ بِخَطِّهِ أَمْسَكَ عَلَى الْكَافُورِ يُنْتَرُ أَمْ حَيْرَا
 أَلَا هَكَذَا فَلَيْسَ لِلْمَجْدِ مِنْ سَمَا وَيَجْزِي لِأَمَادِ الْفَضَائِلِ مِنْ أَجْرَى
 مَعَالٍ سَمَى عَنْهَا السَّهَى وَمَكَارِمِ يَقْصُرُ عَنْهَا الشُّعْرُ لَوْ نَظَّمَ الشُّعْرَا
 وَدُونَكَ أَبْكَارُ الْقَوَافِي فَإِنْ بَدَا عَلَيْهَا حَيَاءٌ فَهُوَ مِنْ شِيْمَةِ الْعُذْرَا
 مُنْضَدَّةٌ بِيضُ الْوَجْهِ تَخَالَهَا عَلَى صَفْحَةِ الطُّرْسِ الدَّرَارِي وَالذُّرَا
 وَمَا كُنْتُ أَنْزِي النَّثْرَ وَالنَّظْمَ قَبْلَهَا فَعَلَّمَنِي إِحْسَانُكَ النَّظْمَ وَالنَّثْرَا
 تَوَلَّاكَ مِنْ وَلَاكَ بِالْعِزِّ وَالْبَقَا وَأُولَاكَ فِي النَّثَا رِضَاهُ وَفِي الْآخَرَى

— هذا تخميس لقصيدة؛ أشدها صاحب الترجمة في
سنة 764هـ/1362م؛ بين يدي أبي حمو الثاني؛
بمناسبة المولد النبوي الشريف.

يا ليلة الاثنين افتخر* بالبدر الطالع من مضر* في ليلة يوم اثني عشر
من شهر ربيع المشتهر* بالمولد فهو به علم

كالشمس سناه وكالقمر* وبنت كالزهر وكالزهر* أنوار هدى خير البشر
ونبي الرحمة والبشر* فجميع الخلق به رُحِمُوا

يا شهر بك افتخر الدهر* يا شهر جمالك مشتهر* يا شهر كمالك منتشر
يا شهر قدومك يا شهر* تحي بمواسمه النسم

يا شهر ربع فيك بدا* ومن الأنوار قد نفردا* والخير بمولده أطردا
وأتى للخلق بكل هدى* فبطلعته سعد الأمم

صبح الإرشاد به انصدعا* ويأمر الله لقد صدعا* والخلق لنجح الحق دعا
وأزال بسنته البدعا* فبسنته الخلق اعتصموا

ظهرت بنبوته العبر* شهدت برسائله الشجر* والذيب وكلمه الحجر

ولشوق بدعوته القمر * وانجاب بغرته الظلم

والجذع سُكا وله وَلَة * لفراق رسول الله له * لما بالمنبر بدَّله
فلذلك أنَّ وَحَنَ له * شوقاً وألَمَ به الألم

ومعاد بتقلته لصقا * يده بالمرفق إذ فرقا * وقتادة رد له الحدقا
وسقى الأحياء حيا غدقا * عمت للقوم به النعم

بهرت أنوار شرفه * ولكم ظهرت بمنازعه * من معجزة لمنازعه
والماء خلال أصابعه * أضحى ينهل وينسجم

قام القرآن بحجته * وإمام دليل محجته * وتسامى الصديق بلهجته
وتناهى الحسن ببهجته * فالعقل يهيم ولا يهم

معلي الإسلام ومعلمه * بهداه تشيد معلمه * ومبيد الكفر ومعدمه
بظباه أريق له دمه * فوجود الشرك به عدم

زين الإرسال وخاتمهم * وشفيق الخلق وراحمهم * هو منجيهم هو عاصمهم
في يوم تبين جرائمهم * وتزل بهم فيه القدم

ورسول الله كما وردا* يروي بالكوث من وردا* لا يضمأ وأراده أبدا
ولواء الحمد له عَقْدَا* وشفاعته تَرَجو الأَمَم

يا رب انفع بمحبته* مشتاقا اسنى رغبته* تقبيل مقدس تربته
وقبول منك لتوبته* عما يجنيه ويجترم

وأنصر من قام بموسمه* يبدي الأفراح بمقدمه* ويفيض عوائد نعمة
ملك أمسى بتكرمه* للأجر يحوز ويفتتم

ملك قد عم تفضله* وملوك الأرض تؤمّله* برسول الله توسله
وعلى مولاه توكله* وحلاه العفة والكرم

ملك يتخيل كالمالك* كالشمس تحل ذرى الفلك* كالبرق يضئ بمحتاك
كالليث يصول بمعترك* تتفاه الأسد فتتهزم

بدر العلياء إذا لتنسبا* أسد الهيجاء إذا ركبا* يعطي الآلاف إذا وهبا
ويخاف الله إذا غضبا* لا هجر لديه ولا برم

ملك قد لاحت أسعده* يحميه الله ويعضده* هو ينصره ويؤيده

وعلى الأملاك علت يده* وبعز علاه جرى القلم

أمعزّ الدين وناصره* ومعيد الملك وجابره* لا زلت تشيّد عامره
أبدأ وتجدد عامره* ما أنهل بكفك منسجم

من عاند فضلك أو جددا* فالسيف يقرب ما بعداً* ويقيم لأمرك من قعدا
فأمّد للواء الملك يدا* من مواهبها الديم

فالنصر أمامك والظفر* والسعد يساعده القدر* وعودك واه محتقر
بشراك فإنك منتصر* بالله عليك ومعتصم

والدهر بيبأسك ينتصف* والبحر بجودك يتصف* ماذا أثنيه وما أصف
أغمام بنانك إذ يكف* أم نور سناك أم الهمم

فيمثل علائك يفتخر* ونفيس ثنائك يدخر* وبعصرك تقتخر العصر
فلقد حسنت لكم سير* ولقد كرمتم لكم شيم

من رأى مراك من البشر* دلته حلاك على البشر* كالنور يدل على القمر
ضربت بظباك يد القدر* تقني الأعداء وتحكم

سيف السلطان أبي حمو * يبدو لعداه به نجم * فيه لشياطينهم رجم
لازال بسطوته يسمو * يعفو ويعف وينتقم

فتلمسان بك في خذل * مذ لانت منك بخير ول * وأعدت لها أسنى الدول
عادت لعوايدها الأول * ونأى عن ساحتها العدم

يا حسن مقام منك سما * ولعبد الوادي همى كرما * فكأنك فيهم مبتسما
قمر حفته نجوم سما * لا ظلم لديه ولا ظلم

أمليكاً جاوز كل مدى * وأل القصد لمن قصدا * وأفاد ندى وأباد عدى
من نال رضاك لقد سعدا * ونأى عن ساحتها العدم

— قصيدة لمحمد بن يوسف الثغري وصف بها
تلمسان¹. يبدو أنه نظمها في عام 767هـ/1365م؛
بمناسبة وصول ابنة أمير بجاية أبي عبد الله
الحفصي؛ عروس السلطان أبي حمو²:

قُمْ فَاجْتَلِ³ زَمَنَ الرَّبِيعِ الْمُقْبِلِ
تَرِ مَا يَسِرُّ الْمُجْتَنِي وَالْمُجْتَلِي
وَأَنْشِقْ نَسِيمَ الرِّوَضِ مُطَوِّلاً وَمَا⁴
أَهْدَاكَ مِنْ عَرْفٍ وَعَرْفٍ فَاقْبَلِ
وَأَنْظُرْ إِلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ كَأَنَّهُ
دُرٌّ⁵ عَلَى لَبَّاتِ رَبَّاتِ الْخُلِي
وَالطَّيْرِ تَتَشَدُّ بِاخْتِلَافِ لُغَاتِهَا
طَرَباً عَلَى أَعْلَى الْغُصُونِ الْمِيلِ⁶

¹ هذه القصيدة موجودة في الجزء الأول من بغية الرواد، وزهر البستان في دولة بني زيان، ونفح الطيب.

² أشار صاحب زهر البستان إلى هذا؛ حين قال: ((وفي أثناء وصول هذه العروسة؛ وصل الأمير عبد الله صاحب بجاية؛ وشهد على هذه العراسة؛ التي جاوزت النهاية. وفي ذلك يقول الفقيه النبيل أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي؛ أحد كتبة الأشغال...)). ورقات: 89 ظ - 90 و.

³ في النفح: ((مبصراً)).

⁴ هكذا في بغية الرواد، ونفح الطيب؛ بينما سقطت كلمة: ((الروض)) في زهر البستان؛ الأمر الذي أخل بالمعنى والوزن معاً.

⁵ في بغية الرواد: ((دُرٌّ)).

⁶ سقط هذا البيت في بغية الرواد ونفح الطيب.

فِي دَوْلَةٍ فَاضَتْ يَدَاهَا بِالنَّدَى
 وَقَضَتْ بِكُلِّ مُنَى لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ
 بَسَطَتْ بِأَرْجَاءِ الْبَسِيطَةِ عَدْلَهَا¹
 وَسَطَتْ بِكُلِّ مُعَانِدٍ لَمْ يَغْدِلِ
 سُلْطَانُهَا الْمَوْلَى أَبُو حُمُو الرُّضَى
 نَوَ الْمَنْصِبِ السَّامِي الرَّفِيعِ الْمُعْتَلِي
 تَاهَتْ تَلَمَّسَانٌ بِدَوْلَتِهِ عَلَى
 كُلِّ الْبِلَادِ بِحُسْنِ مَنْظَرِهَا الْجَلِيِّ²
 هَذِي تَلَمَّسَانٌ حَمَى مِنْهَا الْحِمَى
 وَفَرَى³ الْعِدَى عَنْهَا بِحَدِّ الْمِنْصَلِ⁴
 فَغَدَتْ نَتِيئُهُ بِحُسْنِ تَوَلَّتِهِ الَّتِي
 أَرَبَتْ عَلَى حُسْنِ الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
 وَزَهَتْ بِدَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا عَلَى
 كُلِّ الْبِلَادِ بِحُسْنِ مَنْظَرِهَا الْجَلِ
 رَأَقَتْ مَحَاسِنُهَا وَرَقَّ نَسِيمُهَا
 فَحَلَا بِهَا شِعْغَرِي وَطَابَ تَغْزَلِي

¹ فِي الْأَصْلِ بَزْهَرِ الْبِسْتَانِ: ((أصلها))؛ وما ورد في البغية والنفع أفضل.

² سَقَطَ هَذَا الْبَيْتُ فِي زَهْرِ الْبِسْتَانِ.

³ فِي زَهْرِ الْبِسْتَانِ: ((وعدا))؛ وما جاء في البغية والنفع أفضل.

⁴ هَذَا الْبَيْتُ؛ ثُمَّ الْبَيْتَانِ الْمَوَالِيَانِ مُبَاشَرَةً؛ غَيْرَ مُوجُودَةٍ فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ وَفِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ.

عَرَّجْ بِمُنْعَرَجَاتِ بَابِ جِيَادِهَا
 وَاَفْتَحْ بِهِ بَابَ الرَّجَاءِ الْمُقْفَلِ
 وَأَعِزَّ¹ إِلَى الْعُبَادِ مِنْهَا غُنْوَةً
 تُصْبِحُ هُمُومُ النَّفْسِ عَنْكَ بِمَعْزَلِ
 وَضَرْيَحُ شَيْخِ² الْعَارِفِينَ شَعْبِهَا
 زَرَهُ هُنَالِكَ إِنَّهُ نَعَمَ الْوَلِيُّ³
 فَمَزَارُهُ لِعِبَادَةِ وَنَزَاهَةِ
 فِيهِ ذُنُوبُكَ وَكُرُوبُكَ تَنْجَلِي⁴
 وَتَمَشَّ فِي جَنَاتِهَا⁵ وَرِيَاضِهَا
 وَاجْنُحْ إِلَى ذَاكَ الْجَنَاحِ الْمُخْضِلِ
 تَبَيَّنُوا لَكَ الْأَفْرَاحُ فِيهَا أَنْجُمًا
 زُهْرًا وَلَكِنْ لَسْنَا عَنْكَ بِأَقْلٍ⁶
 وَبِكَهْفِهَا الضَّحَّاكَ قِفْ مُتَنَزِّهًا
 تَسْرَحْ جُفُونُكَ فِي الْجَمَالِ الْأَجْمَلِ⁷

¹ في نفح الطيب: ((ولتأخذ)). وفي زهر البستان: ((واغذا)). وما جاء في بغية الرواد أفضل.

² في بغية الرواد ونفح الطيب: ((تأج)).

³ جاء هذا الشطر في البغية والنفح هكذا: ((زُرَّهُ هُنَاكَ فَحَبِّدَا ذَاكَ الْوَلِيَّ)).

⁴ جاء هذا البيت في بغية الرواد ونفح الطيب هكذا:

((فَمَزَارُهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا مَعًا تُمَحِّي ذُنُوبَكَ أَوْ كُرُوبَكَ تَنْجَلِي)).

⁵ في بغية الرواد ونفح الطيب: ((في جنباتها)).

⁶ سقط هذا البيت في بغية الرواد؛ وفي نفح الطيب.

⁷ ورد هذا البيت؛ في بغية الرواد ونفح الطيب في ترتيب غير هذا.

وَبِرَبْوَةِ الْعُشَّاقِ سَلْوَةَ عَاشِقٍ
فَتَنَّتُهُ الْخَاطِطُ الْغَزَالِ الْأَحْلَلِ
تُسَلِّيكَ فِي تَوَحَّاتِهَا وَتَلَاغِهَا
نَغْمُ الْبَلَابِلِ وَاطِّرَاذُ الْجَدُولِ²
بِنَوَاسِمٍ وَبَوَاسِمٍ مِنْ زَهْرِهَا
تُهْدِيكَ أَنْفَاساً كَعَرَفِ الْمَنْدَلِ
فَلَوْ أَمَرُو الْقَيْسَ بْنِ حَجْرٍ رَأَهَا³
قَدْ مَأْتَسَلَى عَنْ مَعَاهِدِ مَأْسَلِ⁴
أَوْ حَامَ حَوْلَ فِنَائِهَا وَظَبَائِهَا
مَا كَانَ مُحْتَقِلاً بِحَوْمَةٍ حَوْمَلِ⁵
كَمْ جَادَ لِي فِيهَا الزَّمَانُ بِمَطْلَبِ
جَادَتْهُ أَخْلَافُ الْغَمَامِ الْمُسْبِلِ
فَاذْكُرْ لَهَا كَلْفِي بِسِقْطِ لَوَائِهَا
فَهَوَايَ عَنْهَا الدَّهْرُ لَيْسَ بِمُنْسَلِ⁶

¹ في نفح الطيب: ((فتنت وألحاظ)).

² ورد هذا البيت في بغية الرواد ونفح الطيب في ترتيب غير هذا.

³ سقطت كلمة رآها في زهر البستان؛ فيكون الشطر فيه إذن غير موزون.

⁴ يشير إلى بيت امرئ القيس في معلقته الذي يقول فيه:

((كَذَابِكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ)).

⁵ يشير هنا إلى مطلع معلقة امرئ القيس؛ وجاء فيه:

((فَقَا نُبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ النَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ)).

⁶ جاء هذا البيت في بغية الرواد ونفح الطيب؛ قبل هذا الترتيب ببيت.

وَأَعْمُدٌ إِلَى الصَّفْصِيفِ يَوْمًا ثَانِيًا
وَبِهِ تَسَلُّ وَعَنْهُ دَائِبًا فَاسْأَلِ
وَإِذْ تَرَاهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ بِهَجَةٍ
خَالٍ مِنَ الْأَزْهَارِ غَيْرِ مَعْطَلٍ¹
يَنْسَابُ كَالْأَيْمِ انْسِيَابًا دَائِمًا
أَوْ كَالْحُسَامِ جَلَاهُ² كَفُ الصَّيْقَلِ
فَزُلَّالُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ³ قَدْ حَلَا
وَجَمَالُهُ فِي كُلِّ عَيْنٍ قَدْ حُلِيَ⁴
وَاسْرَحْ لَدَى تِلْكَ الْمَسَارِحِ وَارْتَقِ
فِي كُلِّ حُسْنٍ مِنْ تَرَاهَا الْمُقْبِلِ
لَا تَنْتَسِ يَوْمًا ثَالِثًا فَوَّارَةً⁵
وَبِعَذْبٍ مِنْهَلَهَا الْمُبَارَكِ فَانْهَلِ
تَجْرِي عَلَى ذُرٍّ لُجَيْنًا سَائِلًا
أَحْلَى وَأَعْدَبَ مِنْ رَحِيقِ السَّلْسَلِ⁶

¹ جاء هذا البيت في بغية الرواد ونفح الطيب هكذا:
((وَإِذْ تَرَاهُ مِنَ الْأَزْهَارِ خَالِيًا أَحْسَنَ بِهِ غَطْلًا وَغَيْرَ مَعْطَلٍ)).
² في الأصل بزهر البستان: ((جلاله))؛ وهو تحريف؛ يخل بالوزن.
³ هكذا في نفح الطيب؛ بينما كتب في بغية الرواد، وزهر البستان: ((في كل قم)).
وهذا يخل بالوزن.
⁴ في نفح الطيب: ((قد جلي)).
⁵ في بغية الرواد ونفح الطيب: ((واقصذ بيوم ثالث فوارة)).
⁶ في بغية الرواد ونفح الطيب: ((سلسل))؛ بدون الألف واللام.

واشرف على الشرف الذي بإزائها
 لترى تلمسان العليّة من علٍ
 فكأنه تاج بمفرقها بدا¹
 أحسن تاج بالبهاء مكلّل
 وإذا العشيّة شمسها² مالت فمل
 نحو المصلّى ميّلة المتمهل³
 وبملعب الخيل الفسيح مجاله
 أجل النواظر⁴ في العتاق الحفل
 فحلبة الأفراس⁵ كلّ عشية
 لعب بذاك الملعب المتسهّل⁶
 من كلّ طرف كلّ طرف يستبي⁷
 قيد النواظر فتّة المتأمل

¹ في بغية الرواد ونفح الطيب: ((تاج عليه من المحاسن بهجة)).
² في الأصل بزهر البستان: ((سمتها)). وما ورد في البغية والنفح أفضل.
³ جاء هذا الشطر في زهر البستان هكذا: ((نحوها على مهلة المتمهل)). وبهذا الشكل يختل الوزن.
⁴ هكذا في البغية الرواد ونفح الطيب؛ وهو أفضل. بينما كتب في زهر البستان: ((تره جفونك)).
⁵ في نفح الطيب: ((فلحلبة الأشراف)). وفي بغية الرواد: ((فلحلبة الأفراس)).
⁶ اختل هذا البيت في زهر البستان؛ فجاء هكذا:
 ((بحلبة الأفراس كلّ عشية لعب لذاك اللعب المستهل)).
⁷ اختل هذا الشطر في زهر البستان؛ بسقوط عبارة: ((كل طرف)). فجاء هكذا:
 ((من كل طرف يستبي)).

وَرَدَّ كَانَ¹ أَدِيمَهُ شَفَقُ الدُّجَى
 أَوْ أَشْهُبُ كَشِيهَابٍ رَجَمَ مُرْسَلِ
 أَوْ أَحْمَرَ قَانِي الْأَلِيمِ كَعَسَجَدِ
 أَوْ أَشْقَرٍ يَزْهُو² بِذِيلِ أَشْعَلِ³
 أَوْ مِنْ كُمَيْتٍ لَا نَظِيرَ لِحُسْنِهِ
 سَامٍ مَعَمٍ فِي السَّوَابِقِ مُخَوِّلِ⁴
 أَوْ أَذْهَمٍ كَاللَّيْلِ إِلَّا غُرَّةً
 كَالصُّبْحِ، بُورِكَ مِنْ أَغْرِ مُحَجَّلِ
 جَمَعَ الْمَحَاسِنَ فِي بَدِيعِ شَيَاتِيهِ
 مَهْمَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلِ
 فَتَرَى الْمُجَلِّيَّ وَالْمُصَلِّيَّ خَلْفَهُ
 وَكِلَاهُمَا فِي جَرِيهِ لَا يَأْتَلِي⁵
 هَذَا يَكِرُّ وَذَا يَقِرُّ فَيَتَنَنِي
 عَطْفًا عَلَى الثَّانِي عَنَانَ الْأَوَّلِ
 عُقْبَانُ خَيْلٍ فَوْقَهَا فُرْسَانُهَا
 كَالْأُسْدِ تَنْقُضُ انْقِضَاضَ الْأَجْدَلِ⁶

¹ في زهر البستان: ((كأنه))؛ وبذلك يختل الوزن.

² في بغية الرواد: ((يزهى)).

³ في البغية والنفع: ((يعرف أشعل)).

⁴ جاء هذا البيت في البغية والنفع قبل البيت السابق.

⁵ هذا البيت؛ والبيت الذي يليه مباشرة؛ وردا في بغية الرواد ونفع الطيب؛ في غير هذا الترتيب.

⁶ الأجدل: الصقر.

فُرْسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعَى
 أَهْلُ النَّدَى وَالْبَاسِ وَالشَّرَفِ الْعَلِ¹
 أَعْجَبَ لِحُسْنِ جَمَالِهِمْ لِمَجَالِهِمْ
 وَبِحُجَّةِ الدُّنْيَا تَلْمَسَانِ ادْخُلِ²
 فَإِذَا دَنَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ لِعَرْبِهَا
 فَإِلَى تَلْمَسَانِ الْأَصِيلَةَ فَادْخُلِ³
 مِنْ بَابٍ مَلْعَبٍهَا لِبَابِ حَدِيدِهَا
 مُتَنَزِّهًا فِي كُلِّ نَادٍ أَحْقَلِ⁴
 وَتَأَنَّ مِنْ بَعْدِ الدُّخُولِ هُنَيْهَةً
 وَاعْدِلْ إِلَى قَصْرِ الْإِمَامِ الْأَعْدَلِ
 فَهُوَ الْمُأْمَلُ وَالْذِّيَارُ كُنَايَةً
 وَالسَّرُّ فِي السُّكَانِ لَا فِي الْمَنْزِلِ
 فَإِذَا⁵ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَأَيْتَهُ
 فَالْتَمِ ثَرَى ذَاكَ الْبِسَاطِ وَقَبِّلِ

¹ في بغية الرواد والنفع: ((حَامُوا الدَّمَارَ أُولُو الْقُخَارِ الْأَطْوَلِ)). والشرط هنا مختل الوزن في التفعيلة الثانية.

² لم يرد هذا البيت إلا في زهر البستان. ويبدو أن عوض؛ واكتفي بالبيت الموالي؛ والذي يبدأ بـ ((فإذا دنت شمس الأصيل...)).

³ هذا البيت غير موجود في الأصل بزهر البستان؛ وقد يكون عوض بالذي جاء قبله هنا.

⁴ هكذا في نفح الطيب؛ وفي بغية الرواد: ((حقل)). بينما شوه ناسخ زهر البستان هذا الشرط؛ فكتبه هكذا: ((متنزها في كل حقل أو أحقل)).

⁵ في بغية الرواد: ((وإذا)).

باهي به¹ زَمَنَ الرَّبِّيعِ وَقُلْ لَهُ
 بُشْرَى بِأَمْلَحَ مِنْ حُلَاكَ وَأَجْمَلِ²
 يَنْهَلُ مِنْهُ لَنَا الْجَدَا وَبِهِ الدُّجَى³
 تُجَلَى⁴ بِمُشْرِقٍ وَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ
 فَالْمَجْدُ لَفْظٌ فِي الْحَقِيقَةِ مُجْمَلٌ
 وَحُلَاةُ تَفْصِيلٍ لِذَاكَ الْمُجْمَلِ
 مولاي بشراكم فما بيد الإله
 وبنصره في الحال والمستقبل
 هنيئتم بهنية الملك التي
 وفدت بإقبال وسعد مقبل
 حَسَبُ الْمَفَاخِرِ نَزَاكَ الْحَسَبُ الَّذِي
 أَضْحَى لَدَيْهِ الْمَجْدُ جِدًّا مُوْتَلِ⁵
 شَمْسُ الْعُلَا حَلَّتْ بِمَنْزِلٍ سَعْدِهَا
 وَأَوْتَتْ إِلَى بَذْرِ الْمُلُوكِ الْأَكْمَلِ⁶

¹ في بغية الرواد، ونفع الطيب: ((هني به))

² ورد هذا البيت في بغية الرواد ونفع الطيب في غير هذا الترتيب.

³ في الأصل بزهر البستان: ((الجدى)) أيضاً؛ وهو تحريف.

⁴ نفسه: ((يجلي))؛ وهو تحريف.

⁵ هذا البيت غير موجود في نفع الطيب، ولا زهر البستان؛ بينما ورد في بغية الرواد.

⁶ جاء هذا البيت في بغية الرواد والنفع في غير هذا الترتيب.

لأعزهم¹ جَاراً وَأَمْنَعُهُمْ حِمَى
وَأَجْلَهُمْ مَوْلَى وَأَعْظَمَ مَوِيلٍ²
وكفى لهذا الملك فخرأ أنه
بحمى أبي حمو ثوى في معقل³
بالعادلِ المُستَصرِ المنصورِ والـ
مأمونٍ والمهديِّ والمتوكِّل⁴
وكفى الورى سعداً أبو حمو الذي⁵
يخمي حماهم بالحسامِ الفَيصلِ⁶
بشُرى لِعَبْدِ الوادِ بِالمَلِكِ الذي
خَلَصُوا بِهِ مِنْ كُلِّ خُطْبٍ مُعْضِلِ
وبجده في أمرهم وبحزمه⁷
وبسَعْدِهِ وبِسَعْيِهِ الْمُتَقَبِّلِ

¹ في بغية والنفع: ((بأعزهم..)).

² جاء هذا البيت في بغية الرواد والنفع في غير هذا الترتيب.

³ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد ونفع الطيب.

⁴ هكذا في بغية الرواد ونفع الطيب؛ ولكن في غير هذا الترتيب. بينما ورد هذا البيت - هنا - في الأصل بزهر البستان؛ ولكن بشكل مضطرب المعنى مبتور الكلمات مختل الوزن هكذا:

((بالناصر المنتصر التصور * المهدي والمأمون والمتوكِّل)).

⁵ جاء هذا الصدر في نفع الطيب هكذا: ((وكفاهم سعداً أبو حمو الذي)). بينما ورد في زهر البستان مع عجز بيت آخر؛ وبما أنه كان مختل الوزن؛ فقد حذف نهائياً؛ وهو هكذا: ((وأعاد دولتهم ونثير ملكهم)).

⁶ سقط هذا البيت في زهر البستان.

⁷ في بغية الرواد ونفع الطيب: ((وبحسن نبيته لهم وبجده)).

ذُو الْهِمَّةِ الْعُلْيَا الَّتِي أَنَارُهَا
 حَلَّتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ
 بَحْرُ النَّدَى الْأَحْلَى وَفَخْرُ الْمُتَنَدِّي
 وَسَنَا الدُّجَى الْأَجَلَى وَزَيْنُ الْمَحْقَلِ
 يَرْتَاحُ لِلْأَمْدَاحِ مِنْ كَرَمِ كَمَا
 يَرْتَاحُ غَصَنُ لِلنَّسِيمِ الشَّمَالِ
 لَا زَالَ لِلرَّاجِحِ مَتَى يَسْتَجِدُّهُ
 يَمْلَأُ نَوَالاً كَفَّهُ [فَيْسِل]¹
 لَا زَالَ مُحْرُوسِ الْجَنَابِ مَنِيْعُهُ
 وَسَعُودُهُ تَغْنِي عَنْهُ الْجَحْفَلُ
 وَعَلَى عُلَاهُ مِنْ صَنِيعَةٍ فَضْلُهُ
 تَرْدَادُ نَافِحَةِ السَّلَامِ الْأَكْمَلِ²

- هذه القصيدة؛ قالها صاحب الترجمة في عام
 761هـ/1359م؛ خلال حفل أقيم بالمشور؛ إحياء
 لذكرى المولد النبوي الشريف:
 أَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَدَمْعِي سَائِلٌ وَبَيْنَ صَبَا نَجْدٍ وَشَوْقِي رَسَائِلُ

¹ وضعنا هذه الكلمة بين حاصرتين؛ في مكان أخرى؛ غير سليمة؛ وهي: ((ويول)).
 ² ثمة بعض الأبيات الأخرى التي وردت في زهر البستان فقط؛ ولكنها غير واضحة.

وَلِي عِنْدَهُمْ مِنْ صِنِقٍ وَذِي وَسَائِلٍ^١ وَحَاشَا لَدَيْنِهِمْ أَنْ تَخِيبَ الْوَسَائِلُ
 نَعَمْ لِي نُنُوبُ كُلَّمَا رُمْتُ عَزْمَةً يُشَاغِلُنِي فِيهَا عَنِ السَّيْرِ شَاغِلٌ
 أَلَا إِنَّمَا كَفَّتْ خَطَايَا عَنِ السَّرَى أَكْفَ الْخَطَايَا وَالزَّمَانُ الْمُطَاطِلُ
 وَلِلَّهِ قَوْمٌ أَيْقَطُوا عَزَمَاتِهِمْ كَأَنَّ سَنَاها فِي الظَّلَامِ الْمَشَاعِلُ
 إِلَى عَرَقاتٍ يَمُمُّوا فَتَعَرَّفَتْ بِهِمْ نَكَرَاتٌ لِلْفَلَا وَمَجَاهِلُ
 وَأَنْى لِمِثْلِي بِاللَّحَاقِ بِمِثْلِهِمْ وَقَلْبِي فِي غِيٍّ عَنِ الرُّشْدِ غَافِلُ
 سَقَى رَبِّعَهُمْ بِالْجَزَعِ مِنْهُمْ الْحَيَا فَإِنْ لَمْ يُصِنْهُ مِنْهُ طُلُ فَوَابِلُ
 وَمَالِي أَسْتَسْقِي الْغَمَامَ لِرَبِّعِهِمْ وَوَاكِفٌ^٢ دَمْعِي لِلْغَمَامِ مُسَاجِلُ
 عَهْنَتْ بِهِ سِرْبًا مِنَ الْإِنْسِ حَالِيَا فَعَادَ بِهِ سِرْبٌ مِنَ الْوَحْشِ عَاطِلُ
 بِمَسْحَبِ أَذْيَالٍ وَمَلْعَبِ صَبْوَةٍ وَمَطْمَحِ آمَالٍ لِمَنْ هُوَ أَمِلُ
 وَمَسْرَحِ غَزْلَانٍ وَمَسْرَى أَهْلَةٍ تَمْنَى سَنَاهاً الْبُدُورُ الْكَوَامِلُ
 وَمَرْبُضُ آسَادٍ وَمَلْهَى جَاذِرٍ^٣ تَصِيدُ بِهَا الْأَسَدَ الظُّبَاءَ الْخَوَازِلُ
 فَكَمْ عَبَثَتْ تِلْكَ الْمَهَا بِنُورِي النَّهْيِ وَكَمْ لَعِبَتْ بِالْعَقْلِ تِلْكَ الْعَقَائِلُ^٣
 تَوَلَّوْا فَحَالَتْ حَالَةُ الرَّبْعِ بَعْدَهُمْ فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ جِسْمِي نَاحِلُ
 خَلِيلِي مَا قَلْبِي لَدِي وَإِنَّمَا أَقْلَنْ بِهِ تِلْكَ الْبُدُورُ الْأَوَاقِلُ
 وَيَا صَاحِبِي نَجَوَايَ عَهْدِي لَمْ يَحُلْ أَلَا كُلُّ عَهْدٍ غَيْرَ عَهْدِي حَائِلُ

^١ الواكف: المطر الساقط قليلاً قليلاً. وَوَكَّفَ يَكْفُ الدَّمَعُ: سَالَ قَلِيلًا قَلِيلًا
^٢ الصحيح جاذر. لأن الجؤذر: هو ولد بقر الوحش وجمعه: جاذر (بالذال المنقوطة).

^٣ العقل: جمعه عقول: نور روحاني به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس. أما العقائل: فمفردها عقيلة: وهي المرأة الكريمة.

وَقَدْ أَكْثَرَ الْعَذَالَ عَذَلِي فِي الْهَوَىٰ وَلَا حُجَّةَ فِيمَا ادَّعَتْهُ الْعَوَازِلُ
 وَمَا هَاجَ كَرْنِي غَيْرَ رَكْبٍ تَحَمَّلُوا بِقَلْبِي فَمَنْ كُلِّ قَدْ أَقْوَتْ مَنَازِلُ¹
 فَلَمْ أَنْرِ مَا أَبْكِيهِ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ أَقْلَبِي أَمْ ذَاكَ الْخَلِيطُ الْمَزَايِلُ
 فَيَا لَيْلَ أَشْجَانِي أَمَا لَكَ آخِرٌ وَيَا بَحْرَ أَشْوَاقِي أَمَا لَكَ سَاحِلُ
 وَمِمَّا شَجَانِي أَنْنِي بَعْدَ بُعْدِهِمْ مُقِيمٌ عَلَى التَّقْصِيرِ وَالْعُمُرُ رَاحِلُ
 تَقَلَّصَ ظِلٌّ لِلشَّيْبَةِ² إِذْ أَتَى مَشِيبٌ بِهِ ظِلُّ الشَّيْبَةِ زَائِلُ
 عَفَاءً عَنِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَدَّ عَيْشَهَا فَمَا فِي نَعِيمٍ بَعْدَهُ الْمَوْتُ طَائِلُ
 لَعْمَرِكَ مَا الْأَعْمَارُ إِلَّا مَرَا حِلٌ تَقْضَىٰ وَأَيَّامُ الشَّبَابِ قَلَائِلُ
 أَلَمْ يَأْنِ بَعْدَ الشَّيْبِ أَنْ يُنْبَذَ الْهَوَىٰ وَتُطَوَّىٰ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ الْمَرَا حِلُ
 وَلِي كَلَّمَا هَبَّتْ نَوَاسِيمُ طَيِّبَةٍ شَمَائِلُ تُبْذِرُهَا الصَّبَا وَالشَّمَائِلُ³
 يُدَافِعُنِي عَنْهَا عَظِيمُ جَرَائِمِي كَمَا دَفَعَ الثَّنِينَ الْغَرِيمُ الْمُطَاطِلُ
 فَيَا مَنْ رَأْنِي فَوْقَ ظَهْرِ شِمْلَةٍ⁴ تَخْبُ بِرِخْلِي تَارَةً وَتَنَاقِلُ
 لَخَيْرٍ مَحَلٍّ حَلَّةٌ خَيْرٌ مُرْسَلٍ مَحَلٌّ مُحَلَّى بِالْفَضَائِلِ أَهْلُ
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَانِي بِرَبِّعِهِ أَقْبَلُ مِنْ آثَارِهِ مَا أَقَابِلُ
 رَسُولُ كَرِيمٍ خَاتَمُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ وَأَعْظَمُ مَنْ تُلْقَىٰ إِلَيْهِ الرِّسَائِلُ

¹ هذا الشطر ورد هكذا؛ مختل في وزنه ومعناه.

² ربما تكون كلمة (الشبيبة) أسلم للوزن.

³ شمائل الأولى: مفرداتها: الشمال والشميلة: أي الطنوع. الصبا جمعها صَبَوَات وأصْبَاء: وهي ريح تهب من ناحية الشرق. والشمائل الثانية لا تجمع هكذا والصحيح هو: أشمال ومفرداتها: الشَّمْل والشَّمْل والشَّمْل والشَّمْل والشَّمْل والشَّمْل وهي ريح الشمال.

⁴ شِمْلَة: وصف للناقة؛ يقولون: (ناقة شِمْلَة)؛ أي سريعة.

وَأَفْضَلُ مَبْعُوثٍ وَأَكْرَمُ شَافِعٍ
بَدَا فَاَنْجَلَى لَيْلُ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى
وَعَمَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ عِلْمًا وَحِكْمَةً
أَلَمْ يَأْتِ بِالآيَاتِ تُتْلَى عَلَيْهِمْ
صَحَائِفُ أَيُّ أَيَّدَتْ بِصَحَائِفِ
وَأَجْرَى لَهُمْ مِنْ كَفِّهِ الْمَاءَ فَأَعْجَبُوا
وَمَا صَدَرُوا حَتَّى ارْتَوَوْا وَتَوَضَّأُوا
تَجُودٌ لَهُمْ بِالْمَاءِ وَالْمَالِ كَفَّهُ
كَمَا دَرَّ ضَرْعُ الشَّاةِ وَقَتِ جُفُوفِهِ
وَحَنَّ إِلَى الْجَذْعِ عِنْدَ فِرَاقِهِ
إِذَا اللَّهُ رَدَّ الشَّمْسَ بَعْدَ غُرُوبِهَا
فَكُلُّ جَلَالٍ دُونَهُ مُتَقَاصِرٌ
وَمَا خُصَّ بِالْإِسْرَاءِ إِلَّا مُحَمَّدٌ
هُوَ اخْتَرَقَ السَّبْعَ الطَّبَاقَ لِرَبِّهِ
وَكَمْ مُعْجَزَاتٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
لَنَا الْفَخْرُ إِذْ كُنَّا بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ
بِمَوْلِدِهِ الْأَيَّامُ رَاقٍ جَمَالُهَا
أَشْهُرُ رَبِيعٍ حَزَتْ كُلُّ فَضِيلَةٍ
وَلَيْلَةٌ تَنْتَبِئُ عَشْرَةٌ مِنْهُ أَشْرَقَتْ
بِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَشَاهِدُ

تُنَالُ بِهِ يَوْمَ الْحِسَابِ الْوَسَائِلُ
وَزَاحَ بِهِ مَا زَخَرَفَتْهُ الْأَبَاطِلُ
فَلَمْ يَبْقَ فِي عَصْرِ الْجَهَالَةِ جَاهِلُ
يُشَابِهَ بَعْضًا بَعْضُهَا وَيُشَاكِلُ
تُجَادِلُهُمْ هَذِي وَهَذِي تُجَادِلُ
لِيَنْبُوعِ مَاءٍ أَنْبَطَتْهُ الْأَنَامِلُ
عَنْ آخِرِهِمْ وَالْمَاءُ هَامٌ وَهَامِلُ
فَتُعَذِّبُ لِلْوَرَادِ مِنْهَا الْمَنَاهِلُ
لَهُ لَبَنٌ رَغَدًا بِهِ الضَّرْعُ حَافِلُ
حَنِينًا كَمَا حَنَّتْ مِنَ الْفَقْرِ نَائِلُ
إِلَيْهِ وَشَقَّ الْبَدْرُ وَالْبَدْرُ كَامِلُ
وَكُلُّ جَمَالٍ عِنْدَهُ مُتَضَائِلُ
وَمَا جَالُ فَوْقِ الْعَرْشِ إِلَّا جَائِلُ
فَأَوْلَاهُ إِسْعَافًا بِمَا هُوَ سَائِلُ
ظَوَاهِرُ لَا تَبْغِي عَلَيْهَا دَلَائِلُ
نُفَاحِرُ مَنْ شِئْنَا بِهِ وَنُطَاوِلُ
فَطَابَتْ لَنَا أَسْحَارُهَا وَالْأَصَائِلُ
بِأَفْضَلِ مَنْ تَمَّتْ لَدَيْهِ الْفَضَائِلُ
فَقِيهَا بَدَا بَدْرُ الْهُدَى وَهُوَ كَامِلُ
لَنَا مِنْهُ فِيهَا أَنْعَمُ وَفَوَاضِلُ

عَوَائِدُ إِحْسَانٍ وَحُسْنَى عَوَائِدُ
فَمَا مِثْلُهَا فِي الدَّهْرِ لَيْلَةٌ مَوْسِمِ
هُوَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مُوسَى بْنِ يَوْسُفَ
إِمَامُ الْهُدَى سَاقِي الْعِدَى أَكُوسَ الرَّدَى
أَذَلَّتْ لَهُ الصَّعْبُ الْأَبْيَّ سِيَاسَةً
فَمَا كَحِجَاهُ² عَقْلٌ مَن سَاسَ أُمَّةً
يُنْظَمُ شَمْلًا لِلْعَلَى بِشَمَائِلِ
حَيَاءٍ وَأَفْضَالٍ وَعَدْلٍ وَعِفَّةٍ
أَيَا مَلِكًا دَانَتْ بَطَاعَةً أَمْرُهُ
وَحَازَ تَرَاثَ الْمَجْدِ لَا عَنْ كَلَالَةٍ³
بَعَثَتْ بِجَيْشِ النَّصْرِ كَالْبَحْرِ لِلْعِدَى
وَكَالسُّحْبِ لَكِنِ الْبُرُوقُ صَوَارِمٌ
وَكَالرَّوْضِ إِلَّا أَنَّ مُشْتَجِرَ الْقَنَى
أَبُو تَاشَفِينَ بَنَرُهُ وَنُجُومُهُ
وَسَعْدُكَ بَعْدَ اللَّهِ رِذَاءٌ لِّجَيْشِهِ
بِهِ أَمِنَتْ سُبُلٌ وَكَانَتْ مَخُوفَةٌ

تُسَالُ بِهَا مِنْهُ هَيَاتُ جَلَائِلُ
وَلَا مِثْلُهُ لِلَّذِينَ كَافٍ وَكَافِلُ
إِذَا احْتَقَلَتْ يَوْمَ الْفَخَارِ الْمَحَافِلُ
غَمَامُ الْجَدَى¹ غَيْثُ النَّدَى الْمُتْرَاسِلُ
أَرْتُهُ وَجُوهَ الرَّأْيِ فِيمَا يُحَاوِلُ
إِذَا اشْتَبَهَتْ يَوْمًا عَلَيْكَ الْمَسَائِلُ
ثَمَانٍ فَيَا اللَّهَ تِلْكَ الشَّمَائِلُ:
وَحَزَمٌ وَإِقْدَامٌ وَحِلْمٌ وَنَائِلُ
جَمِيعِ الْوَرَى حَتَّى الْمُلُوكُ الْقَبَائِلُ
وَجَاءَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِيعَهُ الْأَوَائِلُ
تَدَافَعُ كَالْأَمْوَاجِ فِيهِ الْجَحَافِلُ
بِهِ مُنْتَضَاةٌ وَالرُّعُودُ صَوَاهِلُ
لَهُ شَجَرٌ وَالْمُرْهَفَاتُ جَدُولُ
قَبَائِلُ عَبْدُ الْوَادِ نِعَمَ الْقَبَائِلُ
وَيَا حَبَّذَا جَيْشٌ مِنَ السَّعْدِ حَافِلُ
وَدَانَتْ بِلَادٌ وَاسْتَكَانَتْ مَعَاقِلُ

¹ غَمَامُ الْجَدَى: غمام المنافع والسخاء.

² الْحِجَى: العقل والفطنة.

³ الكلاله: صفة لمن لا ولد له ولا والد. ويقصد بهذا القول أن أبا حمو تولى الملك مع أنه ليس وحيداً؛ بل ثمة في أسرته رجال أكفاء؛ ولكنه كان هو الأصلح فيهم والأجدر بالملك.

وَأُنْبَرَتْ الْأَعْدَاءُ لَمَّا تَوَارَدَتْ عَلَيْهِم مِّنَ الْجَيْشِ الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ
عَدُوُّكَ مَقْهُورٌ وَسَعْدُكَ ظَاهِرٌ وَجَيْشُكَ مَنْصُورٌ وَسَيْفُكَ نَاصِلُ
وَنَجْلُكَ مَيِّمُونَ النَّفْيَةِ مَاجِدٌ وَلِلْعُرْفِ بَذَالٌ وَفِي الْحَرْبِ بَاسِلُ
بِهَيْبَتِكُمْ اسْتَهْدَى بِمَجْدِكُمْ اقْتَدَى فَلَا حَتَّ عَلَيْهِ مَن سَنَاكُمْ دَلَائِلُ
وَفِي الْبَذْرِ نُورٌ مِّن سَنَى الشَّمْسِ ظَاهِرٌ وَلِلشَّيْلِ مَن لَيْتَ الْعَرِينِ مَخَائِلُ
جَنَيْتَ ثِمَارَ النَّصْرِ خَضِرًا نَوَاعِهَا بِمَا أَثْمَرْتَ فِي الْحَرْبِ سُمْرَ الذَّوَابِلِ¹
فَدُونُكَ أَبْكَارُ الْمَعَانِي لِباسُهَا بُرُودٌ حُلَاكُمُ هُنَّ فِيهَا رَوَاقِلُ
قَوَافِي جَرَّتْ بِالْمَجَرَّةِ نَيْلُهَا فَقَصَّرَ عَنِ إِزَاكِهَا الْمُتَنَاقِلُ
وَمُذْ سَحَبَتْ ذَيْلَ الْبَيَانِ تَبَيَّنُوا بِأَنِّي سَحْبَانٌ وَغَيْرِي بِأَقْلٍ²
فَدَامَتْ بِكَ الْأَيَّامُ تُظْهِرُ حُسْنَهَا وَتَحْسِدُ أَخْرَاهُنَّ فَيْكَ الْأَوَائِلُ
وَلَا زَالَ صَرْفُ الدَّهْرِ طَوْعَكَ كُلَّمَا أَمَرْتَ بِأَمْرٍ قَائِلًا فَهُوَ فَاعِلُ

— قِيلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ؛ فِي عَامِ 770هـ/1368م؛ فِي
بِلَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي حَمُو الثَّانِي بَتَلْمَسَانَ؛ بِمُنَاسَبَةِ
إِحْيَاءِ ذِكْرِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ:

لَوْلَا هَوَى ذَاتِ الْجَنَابِ السَّامِي
مَا شِمَتْ ثَغَرَ الْبَارِقِ الْبَسَامِ

¹ فِي الْأَصْلِ: ((سَمُرُ ذَوَابِلٍ))؛ وَهَذَا يَخِلُ بِالْوِزْنِ.
² سَحْبَانٌ: رَجُلٌ مِّنْ قَبِيلَةِ وَالٍ؛ اشتهر بالبلاغة وطلاقة اللسان؛ يضرب
به المثل في البيان وفصاحة اللسان؛ فيقولون (أفصح من سحبان وال).
وبأقل: اسم رجل من ربيعة اشتهر بالقي؛ فيضرب به المثل فيقولون:
(إنه لأعيا من بأقل).

برق يُعارضه الفؤاد إذا بدا
ما بين خفق دائم وخرام
فوميضه يذكي الجوى بجوانحي
مهما تألق في متون غمام
وافى بخير عن ربوع أحبتي
خير الحديث العهد بالإمام
يا برق صف حال المشوق إليهم
وارو حديث صبابتي وغرامي
قسماً بهم ومحبتني لجناهم
وبما لها من حرمة و ذمام
ما أن سلوت هواهم بسواهم
يوماً ولا أصغيت للوام
في كل جارحة غرام كامن
لم يبق فيها موضع لمام
فالقلب من فرط المحبة هائم
والجفن من بعد الأحبة هام
ما ضرهم وهم بدور تمام
لو قصّروا بالطيف قبل تمام
أم هل يزور الطيف مضجع ساهر
ما ذاق مُذْ هجوره طعم منام

آه الليلى ما أمر سهاده
عندي وما أحلى جنى أحلام
ولعهد أيام الشبيبة والصبا
ما كان أحسنهن من أيام
مرت سراعاً ثم أبقت حرفة
فكأنها حلم من الأحلام
وأتى المشيب فظلتُ أندب بعدهم
عهد الصبا ومرابع الآرام
يا أيها الركب الميم طيبة
بركائب الأجداد والاتهام
يذري مطي كالقسي سواهم
ترمي بهم عرض الفلاكسهام
عوجوا المطي على مطالع أنجم
بالجزع تدعى عندهم بخيام
وسلوا جفوني كم أسلنَ من أنمُعِ
مثل العقيق على العقيق سجام
وردوا العذيب وخلفوني ظامئاً
فمتى يياح الورد فيه لظام
يا خير خلق الله شكوى مذنب
ملئت صحائفه من الآثام

رام المسير لرامة وذنوبه
قعدت به عن نيل كل مرام
يا ليت شعري هل لحومي مورد
يروى أوري أو يبيل أوامي
وأزور ربعا ضم أكرم مرسل
وأرى حماه قبل يوم حمامي
لم لا يحن له فؤاد متيم
والجذع حن له حنين هيام
والبدر شق له ليظهر صدقه
والطفل كلمه لدون فطام
روى الجيوش بعذب ماء بنانه
والآلف أشبعهم بصاع طعام
ولقد علا فوق السموات العلا
وسما إلى ذاك المحل السامي
في حيث لا ملك ولا فلك ولا
نجم ولا علم من الأعلام
فأتم نعمته عليه ربّه
في كل أمرٍ أفضل الإتمام
وحباه فضلاً من لدنه ورحمة
بمواهب لم تجر في الأوهام

وله الشفاعة وهو مخصوص بها
 يوم القيامة في نوي الإجرام
 وله لواء الحمد معقود به
 والكوثر المورد دون زحام
 ومقاله المسموع فيه عناية
 ومقامه المحمود خير مقام
 لاحت به شمس الهداية فانجلي
 ما كان للإضلال من إظلام
 ولكم له من معجزات أوضحت
 سبل الهدى لنهى ذوي الإفهام
 وأجلها الوحي الذي إعجازه
 متجدد بتجدد الأيام
 متضمن كل العلوم بأسرها
 ومفصل الأدلة الأحكام
 من واجب أمر الإله بفعله
 أو من حلال بين وحرام
 فدعا جميع الخلق للحق الذي
 في ضمنه بدعاية الإسلام
 وأبان واضح نهجه وسبيله
 وأباد ما عبدوا من الأصنام

سرّ الوجود وصفوة الله الذي
ختمت به الارسال خير ختام
في ليلة الاثنين أشرق نوره
بأجل شهر أو بأسعد عام
أبدى لنا من هدية وجبينه
نورين شمس ضحى وبدر تمام
فجلا بنور هداه كل ضلالة
وجلا بنور سناه كل ظلام
لولا لوائح نوره ما أبصرت
من مكة أقصى قصور الشام
يا مولد المختار كم أسديت من
نعم لكل العالمين جسام
يا موسماً قد قام فيه بحقه
لله خير خليفة وإمام
موسى أمير المسلمين أجل من
في الأرض من ملك أغرّ همام
ملك عليه هيئة ملكيّة
تقضى على الأعداء بالإعدام
قسمت قلوب الخلق إجلالاً له
بين المحبة فيه والإعظام

أحى بنائله المكارم والاعلا
وحى بصارمه حمى الإسلام
أعطى فأين الغيث من إعطائه
في بشرٍ بَسَّام ونفع دوام
وسطاً فأين اللّيث من إقدامه
في الحرب عند تزلزل الأقدام
كم موقف ضنك يحار بحربه
عمرو بن معدي صاحب الصمصام
دارت كؤوس حمامه لحماته
صرفاً كما دارت كؤوس مدام
برزت به الشمس المنيرة عادة
فتقّعت من نفعه بلثام
وصبت إلى بيض الطلى سمر القنى
وتواصلت ألفاتها باللام
فحمى ذمار ذمامه المولى أبو
حمّو فلا بطل سواه محام
يا ماجداً قسم الفضائل في الورى
وحوى الذي في الفضل من أقسام
برجاجة وسجاجة وسماحة
وفصاحة وصباحة ووسام

سبحان من أولاك من أفضاله
أوفى الحظوظ وأوفر الأقسام
فملكته بالإرهاب أرقاب الورى
وقلوبهم بالبرّ والأنعام
من لم يكن هذا المقام إمامه
في دينه لم ينتفع بإمام
لا يبرح التوفيق لازم أمره
أونهيته في رحله ومقام
أدنت له الأفطار عزمته التي
بنيت على الأسراج والالجام
لا يرتضى فوق البسيطة منزلاً
ما لم تطنّبه الوغى بقتام
نهضت به قدماً إلى حرب العدا
همم وعزم صادق الإقدام
بسوابق غرّ كرام ضمّر
نهضت بغرّ ماجدين كرام
أسد على خيل تخال إذا جرت
ريحاً تقاد مطيعه بلجام
صدقته له النيات أسد ما لها
إلا الردينيات من آجام

خفقت قلوب عداه من أعلامه
كخفوق ريح النصر في الأعلام
لما ذعرت عداك في أوطانهم
وفصمت عروتهم أتم فصام
فرّوا ولا لوم وكيف يلام من
يطوي المراحل خوف بحر طام
أخمدت نارهم بنار أسنة
وحسمت داءهم بكلّ حسام
وفصمت عقدة جمعهم فتفرقوا
أيدي سبا في البید والآكام
ونقضت ما قد أبرموه فلن يرى
أبدأً لذاك النقض من إبرام
لولا الذي آثرت من إيقائهم
لم يصبحوا الأرواح في الأجسام
مولاي حزت معاني المجد الذي
ما حازَ غيرك منه غير أسامي
فأسلم أمير المسلمين مؤيداً
في غبطة موصولة بدوام
دامتْ علاكَ فليس مثلك في العلا
سام ولا لك في الملوك مُسام

وأسعد بدهر نحو أمرك ينتهي
وإليك يلقي طائعا بزمَام
وأقطف من الأشعار روضاً جاده
من جودك الفياض صوب غمام
روض كأن ثناك في أثناؤه
عرف الصبا وحلاك زهر كمام
وإليك من سحر البيان بدائعا
قصر الخطا عنها أبو تمَام
هي بنتُ فكر من حلاكم حُلِيَّتْ
بنظام دُرٌّ أو بدُرٍّ نظَام
حسنتُ بمدحك فهي خير لذاتها
شهدتُ بذلك ألسن الأنَام
خُتِمَتْ بذكر المصطفى فكانها
نفحات مسك عند فضٍّ خَتَام
صلى عليه من اصطفاه كرامة
أزكى صلاة شُفِّعَتْ بِسَلام

— أورد هذه القصيدة التنسي في نظم الدر؛ ولم يذكر التاريخ التي قيلت فيه؛ وكل ما قاله: ((ومما رفع إلى حضرته العلية؛ في بعض تلك المواليد الشريفة؛ قول الأديب البارع المكثّر المتفنّن أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري؛ في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومدح المولى أبي حمو وولي عهده المولى أبي تاشفين))¹:

سر المحبة بالدموع يترجم	فالدمع إن تسأل فصيح أعجم
والحال تنطق عن لسان صامت	والصب يصمت والهوى يتكلم
كم رمت كتمان الهوى فوشى به	جفن بنم بكل سر يكتم
جفن تحامى ورده طير الكرى	لما جرى دمعاً يمازجه دم
آه وفي شكوى الصبابة راحة	لو أنني أشكو إلى من يرحم
وصل الأحبة لو يتاح وصالهم	شَهْدٌ وهجران الأحبة علقم
والقرب منهم للمتيم جنة	والبعد عنهم للمشوق جهنم
خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها	فعسى تسلي من عليه تسلم
واحيرتي بين الصبابة والصبأ	لا هذه تنسى ولا ذي تتسم
هذا الهوى أذكى الجوى بجوانحي	بعد النوى فأنا المُعَنَّى المُعْرَم
لا أنس تاريخ الفراق وما له	من روعةٍ قلبي بها متألم

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 168-169.

ما مقلّتاى جماديان وإنما
 أستودع الله الذين تحملوا
 ترمي بهم أيدي النوى فمطيهم
 وإذا جرى ذكر الحمى اهتزوا كما
 قسما بزمزم والحطيم وما حوى
 وبحرمة الحرم الشريف ورفعة
 ومقام إبراهيم والركن الذي
 لقد لطوت نفسي على جمر الغضا
 إليه حديث لبانة من دونها
 هل من سبيل للسرى حتى أرى
 مغنى يُنَيِّمُ كل سال حسنه
 متنزل الوحي الذي يتلى فلا
 يتنزل الروح الأمين به على
 شمس الرسالة والنبوة والهدى
 هو رحمة الله التي يهمني بها
 لما بدت أنوار مولده خبت
 وتضعضع الإيوان من أرجائه
 وتساقطت أصنام مكة رهبة
 يا من له قبل الولاد وبعده
 لك رد قرص الشمس بعد غروبها
 جفني ربيع والمنام محرم
 بالقلب لم يلوا ولم يتلوموا
 مثل القسيّ وهم عليها أسهم
 يهتز غصن في الرياض منعّم
 من رحمة ذاك الحطيم وزمزم
 البيت المنيف ومن بنجد خيموا
 تُحمى به الآثار ساعة ياثم
 شوقا يشب على الضلوع ويضرم
 بيداء تتجد بالركاب وتتهم
 مغنى به لأولي السعادة مغنم
 قل كيف يسلو عن هواه متيم
 سمع يمل ولا لسان يسأم
 خير الورى صلوا عليه وسلموا
 بدر الجلالة نورها المتجسم
 في الخلق بالحق المبين ويحكم
 نار لفارس لم تزل تتضرم
 وغدت به شرفاته تتهدم
 والجن بالشهب الثواقب ترجم
 آيات إرشاد لمن يتوسم
 وانشق بدر الأفق وهو متم

لك حن جذع النخل إذ فارقته
لك أنطق الله الجماد ولم يكن
لك يا رسول الله كل دلالة
أنت الرؤوف بأمة بشرتها
أنت المرفع والمشفع في غد
أن المسوغ مشرب الحوض الذي
أنت المبلغ حكمة الذكر الذي
أنت الذي نبع الزلال بكفه
أسريت للسبع الطباقي فأقبلت
وتبركت بصلاتك الإرسال إذ
رفعت لك الحجب العظيمة فاعتلى
حتى سمعت صريف أقلام بها
في حيث لا ملك ولا فلك ولا
تلك المراتب لم يكن لينالها
ماذا عسى يثني عليه مقصر
يا خاتم الرسل الكرام وخير من
ما لي سوى حبي إليك وسيلة
إني بجاهك واثق متمسك
يا نفس صبح الشيب لاح وأنت في
واللهو طار به غراب شببيتي
شوقا كما حنت عشار روم
لولاك يفصح بالخطاب ويفهم
لم يبق من شك لمن يتوهم
يوم القيامة أنها بك ترحم
يرجو شفاعتك المسيء المجرم
يروى بكوثره التقي المسلم
بينت فيه ما يحل ويحرم
حتى تروى الجيش وهو عرمم
أملأها طرا عليك تسلم
صليت وأنت إمامها المتقدم
بك للعلی ذاك المقام الأعظم
في اللوح محفوظا تخط وترسم
نجم ولا علم هنالك يعلم
إلا النبي الهاشمي الأكرم
وبمدحه نزل الكتاب المحكم
يبدأ به الذكر الجميل ويختم
ونظام مدح في علاك ينظم
بالعروة الوثقى التي لا تقصم
ليل الغواية وهو ليل مظلّم
وحَمَام شبيبي الحَمَام يحوم

زجرتك بارقة الهدى لو ترعوي ونهتك واعطة النهى لو تعلم
وجلاء عقل المرء فهم ثاقب يرضي التقى أفديك يا من يفهم
يا رب عفوا عن ذنوبي كلها عفوا تمن به عليّ وتنعم
وانصر خليفتك الذي لبس التقى حللاترز بالثناء وترقم
وأقام ليلة مولد الهادي الذي يزهر به الدين الحنيف القيم
ظفر التقى والعدل من موسى الرضى بالجواهر الفرد الذي لا يتأم
ملك تقر له الملوك بأنه بالدين أقوى والخلافة أقوم
يحمي الأنام بعدله وحسامه فالظلم يقصي والمعاند يقصم
مستشعر تقوى الإله فعنده يبني التورع والتصنع يهدم
لولا سجاياه الجليلة لم يكن تحكى المفاخر والمآثر تحكم
لولا عطاياه الجزيلة لم تكن تُعلى الأكارم والمكارم تعلم
يا أيها الملك التقى ومن له شرف على سمك السماك مخيم
أعطيت بالعدل الخلافة حقها فملوكها في حقها لك سلموا
بهرتهم أوصافك الزهر التي منها على زهر الكواكب ميسم
جود وإحسان وقصد في الهدى حسن وعقد في التقى مستحكم
وتواضع يُعلي وقد يُعتلى وندى يدِ تهمي وبشر يبسم
والحلم أوسع والجناب مؤمل والعز أمنع والسجية أكرم
والفخر أعظم والعلاء مؤثّل والفضل أكمل والعطاء متمم
الله حسبك ما لمحمد غاية إلا وأنت لشأوها متقدم
أعدت للأعداء عدتها التي بسلاحها يلقي العدو فيهزم

فكأنما تلك السيوف بوارق تعرى فتغمد في العدو وتدغم
وكأنما تلك الذوابل أغصن وبكل عالية سنان لهذم
وكأنما تلك القسي أهلة تنقض مثل الشهب عنها الأسهم
وكان تلك العاديات إذا عدت سرب لشرب دم الأعادي حوم
وكان سابعها عقاب كاسر وعليه من أسد الفوارس ضيغم
فالبيض تمضي والذوابل تنثني والخيل تردي والفوارس تغنم
ولديك جيش من سعودك غالب إن السعود كتائب لا تهزم
وأسود حرب من بنيك تخيم عن أقدمها أسد الحروب وتحجم
فكأنهم وولي عهدك يُزهرهم بسماء حضرتك العالية أنجم
ما عابد الرحمن إن تسأل به إلا هزبر في الكريهة ضيغم
شهم يعل البيض من مهج العدى والسمر في ثغر النحور يحكم
ما أم يوما وجهة إلا انثنى بالنصر يقتاد الفتوح ويقدم
دامت علاك لهم ودام بمدحكم طير السعادة دائماً يترنم
وإليك من بدع البيان بديعة قد حل فيها السحر وهو محرم
روض من الآداب جيد بجودكم فغدت لكم أزهاره تتبسم
فاخلد ودم واهناً بموسم مولد لمحمد الهادي فنعم الموسم

- وله أيضاً:

1.....

كما قال إبراهيم حسبي فعلمهم
فحالي مغنٍ عن سؤالي إليهم
وألهمها فوق السموات² أحمد
وما زال للتوفيق أحمد يلهم
دنا فتدلى قاب قوسين رفعة
وليس دنوا بالمسافة فاعلم
وعاينه حقاً بعين عيانه
وقيل بنور القلب والله أعلم
فناجاه مولاه بأسرار غيبه
وأعلمه ما لم يكن قبل يعلم
وكم معجزات قد أتى قومه بها
ولكنهم عن منهج الحق قد عم
ومن يك عن ورد القبول محلاً
فبات الهدى عنه مدا الدهر مبهم

¹ ترك - في الأصل - فراغ ربما اتسع لستة أبيات أو سبعة تقريباً. ولا يعرف إن كان لأبيات سقطت بالفعل من هذه القصيدة.
² في الأصل: ((السموت))؛ وهذا خطأ، ويخل بالوزن.

وآيته في الغار إذ مكثت به
قريش ورب العرش يحمي ويعصم
وقد أرسل الله الحمام ببابه
فباضت به من فورها وهي جثم
كما نسجت فيه العناكب حلة
بستر من الرحمن تسدي وتلحم
ولو لا دفاع الله كيدهم بها
فأضعف أسباب الوجودات أحجم
وفي غزوة الأبواء إذ لم يكن بها
من الماء عند القوم ما يتوهم
ولم يجدوا في رحلهم غير قطرة
بعزلاء¹ شحت لا يبيل بها الفم
على يده في جفنة الركب صبها
فبارك فيها فاغتدت وهي حصرم
وفاض نمير الماء بين بنائه
إلى أن تروى وهو [جيش]² عرمرم
وحين ارتووا من عند آخرهم به
لقد كف عنه كفه وهو مفعم

¹ العزلاء هنا: مصب الماء.
² كلمة [جيش] هنا سقطت في الأصل؛ فأضفناها.

وقصته في ذي المجاز حقيقة
 شكا عمه جهرا ولا ماء يعلم
 فشق أديم الأرض ركضا¹ برجله
 ففاض به عين من الماء [دائم]²
 ويوم تبوك والحديبية [كذا]³
 سما لهما في ذروة الفخر ميسم⁴
 وكم من جماد قد غدانا طلاقة
 وعجمى بأفصح غدت تتكلم
 كجذع [وحصباء]⁵ وضب وضبية
 وطفل رضيع لم يكن⁶ بعد يقطع
 وعادت إليه الشمس بعد غروبها
 وشق له البدر المنير المتمم
 وآياته كالشهب نورا وكثرة
 لتحصر وتحصى على العد أنجم

¹ هكذا في الأصل. ولو قال: [ركلا] لكان أفضل.

² الكلمة هنا غير واضحة؛ فعوضناها بكلمة [دائم].

³ كتب - في الأصل - ((الذا))؛ وهذا خطأ نحوي. وبما أن إكمال الكلمة

إلى ((الذان))؛ يخل بالوزن؛ فقد عوضناها بكلمة: ((كذا)).

⁴ أي: وسامة.

⁵ في الأصل: ((وحصبا))؛ بدون الهمزة؛ وهذا خطأ ويخل بالوزن.

⁶ هكذا في الأصل؛ والأفضل كلمة: [يكد].

وقد أجمعوا منها على ألف معجز
روى بعضهن الترمذي ومسلم
وأعظمها القرآن يزداد جدة
بطول المدى تكراره ليس يسأم
وليس حديثاً حاش لله مفتري
ولكنه وحي من الله محكم
هو النور والبرهان والحجة التي
بها حلل الدين الحنيفي ترقم
تضمن أحكام الوجود بأسرها
وأودع فيه ما يحل ويحرم
فلما تحدى الخلق منه بسورة
أقروا له بالعجر عنه وأحجم
والمصطفى سبع وعشرون غزوة
يشاد بها الإسلام والكفر يهدم
وكم آية قبل الولاد وبعده
على فضله دلت لمن يتوسم
فنون الهدى في برده متجسم
ونون¹ الهدى في كفه مبتسم

¹ الأولى ((فنون الهدى))؛ والثانية ((نون))؛ ومعناها السيف.

بشهر ربيع قد بدا علم الهدى
شفيح الورى صلوا عليه وسلم
تساقطت الأصنام عند ظهوره
وعادت بغاة الجن بالشهب ترجم
وأخمدت الأنوار نيران فارس
ومن قبل كانت ألف عام تُضَرَّم
وأشرقَت الدنيا بمولد أحمد
فلا خلق مظلوم ولا أفق مظلم
فيا خاتم الرسل الكرام وخير من
به يبدوا الذكر الجميل ويختم
بمولدك السامي الرفيع قد اعتنى
عليك سجاياه الندى والتكرم
إمام له بالمكرمات عناية
همام له بالمعلوات تيمم
هو الملك الزابي موسى بن يوسف
له نسب فوق النجوم مخيم
لقد ضم أمر الملك بعد شتاته
كما ضم زند بالسَّوار ومعصم
وجدد رسم المجد بعد رسوبه
وأضحى لسبل الدين يعلي ويعلم

فلا مجد إلا بناه فإنه
لتنهدم الدنيا ولا ينهدم
فلا زلت منصور اللواء على العدى
وسيفك ماض في الطفاة محكم
ودونكها حسنا يعذب ذكرها
فيصبوا إليها القلب والسمع والفم
فصاحتها في الشعر تنبئك [أنها]¹
من العرب [العرباء]² والغير أعجم

- قال صاحب الترجمة هذه القصيدة في سنة
771هـ/1369م؛ بين يدي أبي حمو موسى الثاني؛
بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي:
أقصر فإنّ نذير الشيب وافاني
وأكرّني الغواني بعد عرفانٍ
وقد تماديت في غيّ بلا رشد
والنفس تأمرني والشيب ينهاني

¹ الكلمة هنا - في الأصل - غير واضحة؛ فعوضناها بكلمة: [أنها].
² كلمة: ((العرباء)) في الأصل بدون همزة؛ وهذا خطأ ويخل بالوزن.

فقلت للنفس إذ طالت بطالتها
مهلاً ألم يأن أن تخشى ألم يأن
كم من خطي في الخطايا قد خطوت ولم
تراقبني الله في سر وإعلان
فلا تغررك الدنيا بزخرفها
فياندامة من يعتز بالفاني
فليس فيها وصال دون هجران
وليس فيها كمال دون نقصان
وأسلك سبيلاً إلى التقوى لتقوى بها
على السلوك إلى جنات رضوان
وانهض لمغنى رسول الله تحظ بما
تشاء من خير أوطار وأوطان
وأركب إليه جواد الجد مجتهداً
ولا تكن في السرى والسير بالواني
يا مزعم السير نحو المصطفى عجلأ
يحدو إليه باحداج واطعان
بلغ تحية مشتاق لروضته
إن الطليق يؤدي حاجة العاني
وإن رأيت المصلّى قف وحالي صِفْ
لجيرة بالحمى هم خير جيران

وقلْ لهم ضاع قلبي في رحالكُم
فساعدوني ولو قولاً بنشدان
فما وَجَدْتُ سِوَى وَجَدًا أَكَابِدَه
ولا فَقدْتُ سِوَى صَبْرِي وَسَلْوَائِي
عندي لطيفة أشواق مضاعفة
أَذْبَنَ قَلْبِي وقد أَنْحَنَ جِثْمَانِي
مهما تَذَكَّرْتُ بعدي عن معاهدها
سَحَّتْ بوابل دمعِي سحب أَجْفَانِي
عليل نسمتها يبرى العليل به
لو عادني بعد أحيان لأحياني
فيا نسيماً سرى في الطَّيِّب منغمساً
مجرراً ذيله في كلِّ بستانٍ
مغازلاً لخدود الورد يلثمها
ملاعباً لقُدود الرِّند والبان
مصاحباً لرياحين الرِّبى سحرأ
وساحباً من عليها فضل أردان
قَبْلُ ثرى روضة حلَّ الحبيب بها
بل جنَّة عرفها رُوحِي وريحاني
وقلْ غريب بأقصى الغرب أقصده
سهم البعاد فهلُّ للقرب من آن

نائي المحلّ بعيد الدّار شاسعها
هامي الجون مشوق رهن أشجان
فؤاده صحبة الرّكبان مرتحل
لطيفة وهو ثاوٍ في تلمسان
لا يعذب الورد إلّا بالعذيب له
ولا نعيم له إلّا بنعمان
يا أفضل الخلق من عرب ومن عجم
وخير آتٍ بآياتٍ وفرقان
عساك يا خير خلق الله تشفع لي
يوم الحساب فإنّي مذنب جان
وأنت لي أمل إذ ليس لي عمل
من التّقى يقتضي ترجيح ميزاني
لعلّ حسن يقيني فيك يمنحني
شفاعة ويقيني لفح نيران
ديني على الدّهر حجّ البيت معترأ
فهل يساعدي دهري بإمكان
وزورة لرسول الله ملتحمأ
ذاك الضّريح الذي بالنّور يغشاني
وأبي عذر لقلب لا يحنّ له
والجذع حنّ له تحنان لهفان

والبدرُ شقّ له والضّرب كلّمه
والظّبي والنّيب تكليماً بتبيان
وفاض ينبوع ماءٍ من أنامله
بورده العذب روّى كلّ ضمئان
أعلى الورى من سرى ليلاً لخالقه
بما له من علاء القدر والشان
إعظم بقدر رسول الله حين دنا
من ربه حيث لا قاصٍ ولا دان
وعاد قبل ظهور الفجر منقلباً
عن قاب قوسين لم يخصص بها ثانٍ
كم من دلائل للمختار قد حسبت
ومن فضائل لا تحصى بحسبان
بيعته نطقت من قبل مولده
في الكتب أخبار ورهان
وفي ربيع ربوع الهدى عمرت
ورحمة ظهرت للإنس والجان
يا شهر أطلعت في أفق الهدى قمراً
كماله غير موسوم بنقصان
فالسّعد مقتبل والعزّ متّصل
والدّهر محتفل في زيّ جذلان

والملك مبتسم بالبشر متسم
مذ قام بالعدل فيه خير سلطان
أفاض في مولد المختار نائله
فأنظر إلى ملتقى حسن وإحسان
موسى الخليفة والإجماع منعقد
عليه لم يختلف في فضله اثان
كأنه للورى روح وهم جسد
ولا حياة بلا روح لجثمان
له وقار نهى في طيه فطن
إن يرسل الظن يأتيه بإيقان
فراصة من هبات الله صادقه
يرى المغيب من سر كإعلان
تنهاه عفته عن أمر بطشه
يرعى الرعايا بعين العاطف الحاني
فالحق في الخلق جار في إيالته
مستضعف وقوي فيه سيان
أعاد دولة عبد الواد ثانية
حتى استقامت بأساس وأركان
يا ناظم الملك بالأموال ينثرها
كم كف كفاك من أزمان

نوالك الغيث إلا أن ديمته
صوبان من ورق محض وعقيان
وجيشك البحر لكن من عجائبه
عقبان خيل عليها أسد فرسان
تقر منه شياطين العدا فرقاً
تتقض منه عليهم شهب خرصان
يا باسط العدل في أهل البسيطة قد
طويتُم للأعادي كل عدوان
مولاي أن تدع الأملاك معلوة
بشبهة فمعاليكم ببرهان
فلو رأى من مضى ما شدت من كرم
لم يمدح المتنبّي آل حمدان
إليكها كلمات لو بها سمعت
أولاد جفنة قالوا شعر حسان
ما مثل عبدك في مداح مجدك من
مثنٍ ولا لك في الأملاك من ثان
فدام سعدك يا مولاي مقبلاً
مجدداً كلما عاد الجديدان

- هذه القصيدة قالها صاحب الترجمة؛ في عام 760هـ/1358م؛ بمناسبة أول احتفال للمولد النبوي الشريف؛ أحياه السلطان أبو حمو الثاني؛ إثر فتح تلمسان؛ وجاء في القصيدة:

ذِكْرَ الْحِمَى فَتَضَاعَفَتْ أَشْجَانُهُ
شَوْقاً وَضَاقَ بِسِرِّهِ كِتْمَانُهُ
نَزِفٌ تَذَكَّرُ مِنْ عُهُودٍ وَدَادِهِ
مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِ نِسْيَانُهُ
يَهْفُو¹ لِبَرْقِ الْأَبْرِقَيْنِ تَعْلُلاً
وَالْقَلْبُ مِنْهُ دَائِمٌ خَفَقَانُهُ
وَيَسْأَلُ الرُّكْبَانَ عَنْ ذَاكَ الْحِمَى
فَتُثِيرُ كَامِنَ وَجْدِهِ رُكْبَانُهُ
وَيَرُومُ سُلُوفَ الْهَوَى فَيُجِيبُهُ
أَنَّ الْمُحِبَّ مُحَرَّمٌ سُلُوفَانُهُ
وَيَشُوقُهُ مَرُّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى
مِنْ نَحْوِ طَيِّبَةٍ طَيِّباً أُرْدَانُهُ²

¹ في زهر البستان: ((يهفوا))؛ بالالف؛ وهو تحريف. وفي بغية الرواد أصح.
² طيبة: هي المدينة المنورة. والرْدَن؛ جمعه أردان: الغزل والخز. والرْدَن: جمع أردان: أصل الكم.

أُتْرَى أَرَى وَادِي الْعَقِيقِ وَرَامَةً¹
وَيَلُوحُ لِي رَنْدُ الْحَجَّازِ وَبَانُهُ²
وَأَعَايِنُ الْحَرَمَ الشَّرِيفَ وَتَجَلِّي
عَنْ قَلْبٍ صَبٍّ مُذْنِفٍ أَشْجَانُهُ
وَأَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَيَعْتَلِّي
بِي لِاسْتِلَامِ الرُّكْنِ شَاد.....³
وَفَدَتْ عَلَيْهِ رِكَابُ أَرْبَابِ الثُّقَى
وَالْمُذْنِبُ الْخَطَّاءُ كَفَّ عَنَانُهُ
مَنْ لِي بِزُورَةٍ رَوْضَةِ الْهَادِي الَّذِي
رَحِمَ الْوُجُودَ بِبَعْثِهِ رَحْمَانُهُ
الْمُصْطَفَى خَيْرُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَأَجْلُهَا قَدْرًا تَعَاطَمَ شَأْنُهُ
هُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ الْمَكِينِ مَكَانُهُ
وَهُوَ الْمُقَدَّمُ وَالْأَخِيرُ زَمَانُهُ

¹ العقيق: وادي مجاور للمدينة المنورة. وراماة: موضع بوادي العقيق.
² الرند: شجر من الغاريات، له رائحة طيبة يصلح للتزيين ويستعمل في الطبخ. والبان: شجر من فصيلة البانيات، معتدل الطول، له ورق لين؛ غالباً ما يشبه به الشعراء قد المرأة.
³ هذا حيز يتسع لكلمة؛ ليست واضحة في الأصلين: بغية الرواد، وزهر البستان.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ¹ النُّبُوَّةَ وَالْهُدَى
 شَرَفَ حَوَاهُ فَوَادَهُ وَلِسَانَهُ
 عُنْوَانُ طَرَسِ الْأَنْبِيَاءِ خِتَامُهُ
 وَالطَّرَسُ يُكْمِلُ حُسْنَهُ عُنْوَانُهُ
 لَوْلَاهُ مَا وَجِدَ الْوُجُودُ: سَمَاوَهُ
 أَوْ أَرْضَهُ أَوْ أَنْسَهُ أَوْ جَانَّهُ
 فَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ كَانَ لِأَجْلِهِ²
 شَرَفَ الْوُجُودِ بِأَنَّ فِيهِ كَيَانَهُ
 فَالذَّهْرُ أَفْقٌ أَحْمَدُ إصْبَاحُهُ
 وَالْخَلْقُ جَفْنٌ أَحْمَدُ إِنْسَانُهُ
 بِعُلُوِّهِ [مِنْ] فَوْقَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى³
 وَيَقَابَ قَوْسَيْنِ اسْتَبَانَ مَكَانَهُ
 مَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْهِ مَادَحٌ
 وَيَمْدَحُهُ أَيْضاً⁴ أَتَى فُرْقَانَهُ

¹ هكذا في بغية الرواد. بينما كتب في زهر البستان: ((سر)).

² هكذا في بغية الرواد. بينما كتب في زهر البستان ((من أجله)). وما ورد في بغية الرواد أفضل.

³ هذا الشطر مختل الوزن. وجاء هكذا في بغية الرواد أيضاً. والخلل في التفعيلة الثانية؛ إذ ينقصها سبب خفيف (0/). وعليه فقد أضفنا كلمة ((من)) بين حاصرتين للتصويب.

⁴ في بغية الرواد: ((نصاً)).

عَجَزَ النَّظَامُ¹ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَدْحِهِ
 إِذْ لَا يَصِحُّ لِنَازِمٍ إِمْكَانُهُ
 فَأَعَدَّ عَلَى الْمُشْتَأَقِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ
 يَزِدُّ بِهِ إِيْمَانُهُ وَأَمَانُهُ
 يَا حَادِي الرُّكْبَانِ نَحْوَ مُحَمَّدٍ²
 تَلْوِي إِلَى عِلْمِ اللّٰوِي أَطْعَانُهُ
 إِنَّ جِبْتَ أَرْضَ مِنَى وَبَلَغْتَ الْمُنَى
 وَحَلَلْتَ رَبْعاً شَرَّفْتَ سُكَّانُهُ
 أَبْلَغَ عَنِ الْمَوْلَى أَبِي حَمُو الرِّضِيِّ
 الْمُعْتَلِي فِي كُلِّ فَضْلٍ شَأْنُهُ
 أَزَكَى سَلَامٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 كَالرَّوْضِ صَافِحَ رُوحَهُ رِيْحَانُهُ
 فَهُوَ الَّذِي حُبُّ النَّبِيِّ وَآلِهِ
 مَا زَالَ مُنْطَوِيّاً عَلَيْهِ جَنَانُهُ
 كَمْ قَامَ مُعْتَبِئاً بِمَوْلِدِهِ³ وَكَمْ
 سَهَرَتْ بِهِ شَوْقَآلَهُ لُجْفَانُهُ

¹ أي: نظم الشعر.

² في بغية الرواد: ((نحو مَحَلِّه)).

³ هكذا في بغية الرواد؛ بينما كتب في زهر البستان: ((بمراده)).

يَرْجُو شَفَاعَتَهُ وَسَوْفَ يَنَالُهَا
وَيَنَالُهُ مِنْ رَبِّهِ رِضْوَانُهُ
زَانَ الْخِلَافَةِ بِالْمَكَارِمِ وَالنَّدَى
مَلِكٌ، نَمَاهُ إِلَى الْعُلَى زِيَانُهُ
وَحَمَى حِمَاهَا بِالصَّوَارِمِ وَالْقِنَى
يَوْمَ الْكِفَاحِ إِذَا التَّقَتْ فُرْسَانُهُ
((مُوسَى بْنُ يُوسُفَ لَا نَظِيرَ لِمَجْدِهِ
مَجْدٌ يُزَيِّنُ حُسْنَهُ إِحْسَانَهُ))¹
مِنْ آلِ زَيْبَانَ الْأَكْلَى شَهِدُوا زَانُوا² الْعُلَى
وَالْمُلُوكُ³ إِرْثُهُمْ وَهُمْ تَيْجَانُهُ
مَلِكٌ يَسُوسُ بِرَأْيِهِ كُلَّ الْوَرَى
فَكَانَهُ رُوحٌ وَهُمْ جُنْمَانُهُ
مَلِكٌ أَعَادَ الْمُلُوكَ بَعْدَ دُنُورِهِ
لَوْلَاهُ لَمْ تَثْبُتْ⁴ لَهُمْ أَرْكَانُهُ
مَلِكٌ وَحِيدٌ فِي الْمَعَالِي مَا لَهُ
إِلَّا الْمَكَارِمُ وَالْتَقَى خِلَانُهُ

¹ سقط هذا البيت في زهر البستان.

² في بغية الرواد: ((زَانُوا)).

³ نفسه: ((فَالْمُلُوكُ)).

⁴ في بغية الرواد: ((يَثْبُت)).

مَهْمَا يَجُذُّ فَالْغَيْثُ دُونَ عَطَائِهِ
 مَا إِنْ يُعَارِضُ جُودَهُ هَتَّائُهُ¹
 الْجُودُ² يَنْفَعُ فِي الْوُجُودِ³ دَوَامُهُ
 وَالْغَيْثُ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذْمَانُهُ
 مَلِكٌ تَخَافُ الْأَسَدُ سَطَوَاتَهُ إِذَا
 حَمَى الْوَطِيسُ وَضَمَّهُ⁴ مِيدَانُهُ
 وَخُفَا⁵ النَّهَارُ بَلِيلِ نَقْعٍ أَغْبَرِ⁶
 وَبَدَتْ كَمَثَلِ نُجُومِهِ خُرْصَانُهُ⁷
 تَلْقَى الْخَلِيفَةَ عِنْدَ ذَلِكَ⁸ بِأَسِمَاءَ
 يَقْنِي⁹ الطُّغَاةَ ضِرَابُهُ وَطِعَانُهُ
 وَحُسَامُهُ يَنْهَلُ بِالْدَّمِ كُلَّمَا
 أَضْحَى يُضَاحِكُ ذُرَّةَ عَقِيَانُهُ¹⁰

¹ هَتَّنَ هَتْنًا وَهَتُونًا وَهَتَانَتْ السَّمَاءُ: تَتَابَعُ مَطَرُهَا وَانْصَبَ. وَتَهَاتَنَ الدَّمْعُ: قَطَرَ. وَغَيْثُ هَتَانٍ: مُتَدَفِّقٌ.

² فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ: ((وَالْجُودُ)).

³ هَكَذَا فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ؛ بَيْنَمَا كَتَبَ فِي زَهْرِ الْبِسْتَانِ: ((فِي الْجُودِ))؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ يَخِلُ بِالْوِزْنِ.

⁴ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ: ((وَضَمَّهُمْ)).

⁵ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ: ((وُخْفِي)).

⁶ النَّقْعُ جَمْعُهُ نَقَاعٌ وَنَقُوعٌ: الْغُبَارُ.

⁷ الْخُرْصُ وَالْخُرْصُ جَمْعُهُ خُرْصَانٌ: حَلَقَةُ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ.

⁸ هَكَذَا فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ؛ بَيْنَمَا كَتَبَ فِي زَهْرِ الْبِسْتَانِ: ((ذَاكَ))؛ وَهَذَا يَخِلُ بِالْوِزْنِ.

⁹ حَرَفْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ؛ فَكَتَبْتُ: ((يَقْنِي)).

¹⁰ الذَّرُّ وَاحِدُهَا ذُرَّةٌ: اللَّوْلُؤَةُ الْعَظِيمَةُ. الْعَقِيَانُ: الذَّهَبُ الْخَالِصُ.

فَكَأَنَّهُ رَوْضٌ تَفَّحَ زَهْرُهُ
وَدَمَ الْعِدَى فِي خَدِّهِ¹ نَعْمَانُهُ²
سَيْفٌ شَعَاغَ الشَّمْسُ ثُونَ فِرْنْدِهِ³
مَهْمَا تَبَدَّى⁴ سَاطِعاً لِمَعَانِهِ
أَمِنْتُ يَلْمَسَانِ مَخَافَهَا بِهِ
فَلَقَدْ حَمَاهَا سَيْفُهُ وَسِنَانُهُ
مَلِكٌ سَعِيدٌ لَا يُعَانِدُ مُلْكُهُ
إِلَّا شَقِيٌّ قَدْ ذَنَّا خُسْرَانُهُ
مَلِكٌ تَقَرُّ لَهُ الْمُلُوكُ بِأَنَّهُ
مَوْلَاهُمْ الْأَسْنَى وَهُمْ عِبْدَانُهُ
مُتَوَكِّلًا⁵ أَبَدًا عَلَى مَوْلَاهُ فِي
عَلْيَاهُ، وَافَقَ سِرَّهُ إِعْلَانُهُ
حَكَمَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْقَدِيمَةُ أَنَّهُ
سَيُسَيِّدُ مُلْكَاً شَامِخاً⁶ بُنْيَانُهُ

¹ في بغية الرواد: ((في صفحه)).

² إشارة إلى زهور شقائق النعمان التي تنتشر في الحقول في فصل الربيع.

³ الفِرْنْد: جوهر السيف ووشيه.

⁴ في بغية الرواد: ((تَلَقَّ)).

⁵ في بغية الرواد: ((متوكل)).

⁶ هكذا في بغية الرواد؛ بينما حُرِفَت الكلمة في زهر البستان؛ فُكْتُبَ: ((مخا))؛ وفي الهامش كتبت كلمة غير مفهومة.

مِنْ نَحْوِ أَرْضِ الرَّابِّ يُقْبِلُ¹ طَالِباً
 ثَاراً، وَمِنْ أَنْصَارِهِ عُرْبَانُهُ
 فَيُمَهِّدُ الدُّنْيَا وَيَمْتَهِنُ الْعِدَى
 وَجَمِيعُ ذَلِكَ قَدْ بَدَأَ بُرْهَانُهُ
 أَدْنَى² الْبِلَادِ إِلَيْهِ عَزَمُ صَادِقٍ
 فَالْنَّجْحُ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ ضَمَانُهُ
 لَا زَالَ فِي الْعِزِّ الرَّفِيعِ مَكْنَأً³
 وَالنَّجْمُ عَنْهُ كَلِيلَةٌ أَجْفَانُهُ⁴
 وَإِلَيْكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ قَصِيدَةٌ
 كَالسَّلَاكِ فَصَّلَ دُرَّةَ مَرْجَانِهِ⁵
 مِنْ نَاطِمٍ سَحَرَ الْبَيَانَ بِدَالِعَا
 لَكِنْ يُقْصَرُ عَنْ⁶ حَلَاكِ بَيَانِهِ
 لَا يَسْتَوِي حُرُّ الْكَلَامِ وَعَبْدِهِ
 يَوْمًا وَلَا حَصْبَاؤُهُ مَرْجَانُهُ

¹ في بغية الرواد: ((يَقْدِمُ)).

² هكذا في بغية الرواد؛ بينما كتب في زهر البستان: ((يَزَن)).

³ في بغية الرواد: ((لَا زَالَ فِي الْعِزِّ الْمَكِينِ مَرْقَعًا)).

⁴ هكذا.

⁵ الدُّرُ سبق شرحه. والمَرْجَانُ والواحدة مَرْجَانَةٌ: اللؤلؤة الصغيرة.

⁶ في بغية الرواد: ((فِي)).

((وَالْعَبْدُ مِنْ مَوْلَاهُ يَلْتَمِسُ الرِّضَى
 إِنَّ الْخَلِيفَةَ شَامِلٌ إِحْسَانُهُ))¹
 لَا زَالَ مَوْلَانَا أَبُو حَمَّو حِمَى
 لِلْمُلْكِ دَامَ مُوَيِّدَا سُلْطَانُهُ

- قال محمد بن يوسف الثغري هذه القصيدة المتواضعة في عام 792هـ/1389م؛ بمناسبة المولد النبوي الشريف؛ في بلاط أبي تاشفين عبد الرحمن؛ خلال أول احتفال له بالمولد النبوي بعد مقتل أبيه؛ وتربعه على عرش دولة بني زيان:

شرف النفوس طلابها لعلاها ولياسها التقوى أجل حلاها
 فبها تنال العز في الدنيا إذا دانت بها والفوز في أخراها
 فاخلع لبوسك من سوى ثوب التقى ما للنفوس حلى سوى تقواها
 أوصي بها نفسي وما من أمة إلا وخالقها بها أوصاها
 من لي بنفس تدعي طلب العلى قولا فيثبت فعلها دعواها
 من لي بنفس تمتطي خطر السرى لترى مناها عند خيف مناها
 سعدت إذا وردت نفوس زمزما وشفقت بمنهلها غليل صداها

¹ سقط هذا البيت في زهر البستان.

وبسعيها سبعاً ليقبل سعيها ما بين مروتها وبين صفاها
وإذا هي اعترفت على عرفاتها غفرت خطاياها بحَثَّ خطاياها
طاف الأنعام بكعبة الله التي لم يجعل البيت الحرام سواها
واختارها لنبيه في قوله لنولينك قبلة ترضاها
طافوا بها سبعاً ومهما قابلوا ركن اليماني قبلوا يمناها
ولدى صلاتهم إليها وجهوا من حيث داروا أوجها وجباها
لله قوم أيقظوا عزماتها فكأنها شهب تضيء دجاها
وصلوا السرى بالعيس تنفخ في البرى وفلوا بأيدي اليعملات فلاها
وإلى الحمى قبل الحمام سرت بهم ظعن يسر الظاعنون سراها
نجب هواها في الحجاز ووردها ماء العذيب فخلَّها وهواها
تغنّيك شدة شوقها عن سوقها فاخلع براها فالغرام براها
أو ما تراها كالقسي ضوامرا والركب مثل النبل فوق دراها
دأبوا على السير الحثيث وحثهم شوق ينود عن الجفون كراها
حتى بدا القمر الذي لولاه ما بدت النجوم ولا بدا قمرها
قمر بيثرب أشرقت أنواره حتى أضاعت أرضها وسماها
وبدت لرأي العين أرض الشام من أرض الحجاز وأبصرت بُصرها
دنت النجوم إليه عند ولاده وتود لو كان الثرى مثواها

¹ اقتباس من قوله تعالى: «فَلَنُؤَلِّقَنَّهٗ قَبْلَةَ تَرْجَاهَا». من الآية: 144 من سورة البقرة.

كم آية قبل الولاد وبعده
قصرت بأرض الشام قيصرها كما
أعلى الأنام علا وأحلام حلى
هو أحمد ومحمد والمجتبى
وافى من الذكر الحكيم بآية
وإلى جميع الخلق بلغ حكمها
وإلى سيادته العظيمة أومأت
يا من تشرفت البسيطة إذ مشى
وإليه حن الجذع عند فراقه
لأن سبحت في كفك اليمنى الحصى
إن أفصحت لك في الخطاب غزالة
لولاك ما نطق الجماد ولم تكن
يا من هدى بايات آيات الهدى
بسناك أبصرت البصائر رشدًا
لك رد قرص الشمس يا شمس الهدى
لك في انشقاق البدر أعظم آية
يا من سما فوق السماوات العلى
ورقى بساط العز معتزا ولم
وكقاب قوسين اقترابا كان أو
في حضرة الحق المقدسة التي
دلتك أولاهها على أخراها
كسرت بأرض الفرس من كسراها
وأجلهم قدرا وأعظم جاهها
والمصطفى والمدح لا يتناهى
تلت جبين الشوك حين تلاها
وعلى منصة الإشهار جلاها
ياسيت فيه والطهارة طاهها
فيها وداس بأخمصيه ثراها
وأنت له الأشجار حين دعاها
فيها الأنامل فجرت أمواها
فالضب أو نذب الفلا مثلاها
بخطابها العجماء تغفر فاهها
من ضل عن سبل الرشاد وتاهها
وأجلهم قدرا وأعظم جاهها
لما توارى بالحجاب ضياها
لما تكامل حسنه وتناهى
في ليلة الإسرى التي أسراها
يخلق به نعلا ولا ألقاها
أدنى مقاما حين ناجى الله
قصرت عقول الخلق عن معناها

أوحى إليه بها من الأسرار ما أوحى ونور قلبه فوعاها
أسرى وعاد وفجره لم ينفجر وخطى الكواكب ما عدت مسراها
كم معجزات للنبي محمد لم يحوها عدد ولا أحصاها
من خصه الباري بما سماه من أسمائه الحسنى فليس يُضاهى
وجبت شفاعته لأمته التي صلة الصلاة عليه هجيرها
يا خير مأمول شكية نازح بانث أحبته وشط نواها
رام المزار فأقعده ذنوبه عن طيبة الطيب التي يهواها
فغدا يعلل نفسه بنسيمها يا حبذا منها نسيم صباها
يا سائق النجب المذلة التي عرفت هواجها قباب قباها
إن جئت خيف منى وبلغت المنى وحللت أرضا شرفت سكانها
أبلغ إلى خير الأنام تحية أذكى من المسك الفتيق شذاها
عن عابد الرحمن مولانا الذي حاز الفضائل حملة وحوها
فهو الذي حب النبي وآله سِرّ جوانحه عليه طواها
سينال في أخرى شفاعته كما قد نال في الدنيا العلا والجاها
ملك تقر له بكل فضيلة كل الملوك وأنه مولاها
ملك تهاب الأسد سورة بطشه ولعز سطوته يذل سطاها
ماضي العزائم والطبى فسيوفه كمضائه ومضائه كظباها
زان الخلافة بالمكارم والندى وحمى بحد المشرفي حماها

يا وارث الخلفاء في الملك الذي سامى به كل الملوك وباهى
يهنيك بل يهني خلاقتك التي بلغت بسعدك سولها¹ ومناها
وتعز عن أركته منية الله قدرها له وقضاها
حيى الإله ضريحه بتحية وأطاب تربته وجاد ثراها
وأدام ملك خليفة الله ابنه وأعز دولته ومدّ مداها
ما عابد الرحمن لإلا رحمة لرعية قد حاطها ورعاها
تتبيك سيرته الحميدة فيهم عن سيرة قد سنّها عمراها
ترجو الجناة به النجاة من الردى عفوا فيسعفها بنيل رجاها
كم من نفوس تستحق عقابها لكن بفضل حيائه أحيّاها
ركب المجلي في الفضائل كلها وجرى لغايتها فحاز مداها
أنسى مآثر من مضى بمآثر رفعت له في الخافقين لواها
إن كان موسى للخلافة بدرها فالتأشفيني شمسها وضحاها
إن كان موسى للخلافة صدرها فالتأشفيني قلبها وحجاها
إن كان موسى للخلافة سحبها فالتأشفيني غيثها ونداها
إن كان موسى للخلافة لحظها فالتأشفيني نورها وسناها
لا تحسبن الدنيا بغير ثلاثة ما في الوجود إذا نظرت سواها
بدر الجى والتأشفينى الرضى والشمس في إشراقها وعلاها

¹ كتبت في الأصل: ((سولها))؛ ولعل ذلك بفعل التحريف؛ وربما كانت الكلمة الصحيحة هي ((سلوها))؛ لأن ((السلوة، والسلو)) تعني: رغد العيش؛ إذ يقال: ((هو في سلوة من العيش))؛ أي في رغد عيش.

راقّت محاسنها الثلاثة فاغدت للناظرين نظائر أشباهها
 ترجو البلاد القاصيات نواله فنواله كحياتها وحياتها
 لم ترض منه بغير رؤية وجهه شوقاً فأسعفها بنيل رضاها
 متوجهاً فيها بأسعد وجهة حركاتها محمودة عقباها
 هي وجهة بركات مولد أحمد قدامها والنصر تحت لواها
 هي دولة النصر العزيز فكل ما لم يأتها طوعاً أتى إكراها
 فاهناً بليلة مولد الهادي الذي عظمت لأمته بها بشرها
 وتعاقد النوران من شمع ومن شهب فطار بها غراب دجاها
 فكأن فيها من نذاك وحسنها غيثاً وروضا طاب فيه جناها
 جعل الإله علاك عنواناً لما ترجو بدار الخلد من عليها
 وحباك منه بكل سعد مسعد لا ينقضي أبداً ولا يتناهى

— أورد المقرئ هذه القصيدة في أزهار الرياض؛ قال

أنها للثغري؛ في وصف تلمسان وملكها أبي حمو:

تَاهَتْ تِلْمَسَانُ بِحُسْنِ شَبَابِهَا

وَبَدَا طِرَازُ الْحُسْنِ فِي جِلْبَابِهَا

فَالْبَشْرُ يَبْنُو مِنْ حَبَابِ ثُغُورِهَا

مُتَبَسِّمًا أَوْ مِنْ ثُغُورِ حِيَابِهَا

قَدْ قَابَلْتُ زُهْرَ النُّجُومِ بِزَهْرِهَا
 وَبُرُوجَهَا بِبُرُوجِهَا وَقِيَابَهَا
 حَسُنْتَ بِحُسْنِ مَلِكِهَا الْمَوْلَى أَبِي
 حَمُو الَّذِي يَحْمِي حِمَى أَرْبَابِهَا
 مَلِكُ شَمَائِلُهُ كَزَهْرِ رِيَاضِهَا
 وَتَدَاهُ فَاضٌ بِهَا كَفَيْضِ عُبَابِهَا
 أَعْلَى الْمُلُوكِ الصَّيِّدِ مِنْ أَعْلَامِهَا
 وَأَجْلُّهَا مِنْ صَفْوَةِ وَلِبَابِهَا
 غَارَتْ بِغَرَّةٍ وَجْهَهُ شَمْسُ الضُّحَى
 وَتَنَقَّبَتْ خَجَلًا بِثُوبِ ضَبَابِهَا
 وَالْبَدْرُ حِينَ بَدَتْ أَشْعَثُهَا لَهُ
 حُسْنًا تَضَاعَلَتْ نُورُهُ وَخَبَا بِهَا
 اللَّهُ حَضَرَتْهُ الَّتِي قَدْ شَرَفَتْ
 خُدَّامَهَا فَسَمَوْا بِخِدْمَةِ بَابِهَا
 فَالْثَّمُ فِي يُمْنَاهُ يُبْلِغُهَا الْمُنَى
 وَالْمَدْحُ فِي عُلْيَاهُ مِنْ أَسْبَابِهَا

— هذه القصيدة؛ قيلت في عام 768هـ/1366م؛ بين
يدي السلطان أبي حمو الثاني؛ بمناسبة الاحتفال
بالمولد النبوي الشريف:

سما لك نور الحقّ للحقّ هاديا
فخفضت طرفاً عن سناه وهاديا
وما زال يدعوك التّقى لو وعى النّهى
فيا معرضاً هلاًّ أجبت المناديا
وما النفس إلا من أعدائك فليكن
عزيمك فيها ما يسوء الأعدايا
فيا نفس كم تهوى الهوى وتطيعه
ولم تنته لما ارتكبت النّواهيا
ففي الرشد لا تزدد إلا تماريا
وفي الغي لا تزدد إلا تماديا
ولو ثمر التوفيق أصبحت جانيا
لما كنت للأثم والذنب جانيا
ولا كان قلبي بالجرائم قاسيا
ولا كنت عن دار الأحبة قاصيا
ولله قوم عندما للهوى دعوا
أجابوا فجابوا للحجاز الفياقيا

هُمْ أوردوا ماء العذيب ظمأهم
وَحَلَفْتُ مَصْدُوداً عَنِ الْوَرْدِ صَادِياً
غَرِيبَ بَغْرَبٍ أَوْبَقَّتْهُ ذُنُوبُهُ
فَأَصْبَحَ فِي أَسْرِ الْبَطَالَةِ عَانِياً
وَكَمْ أَنَّةَ لِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
تَذُوبُ عَلَيْهَا قِطْعَةٌ مِنْ فَوَائِدِهَا
حَنِيناً وَشَوْقاً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُنَالُ الْأَمَانِيَا
وَأُبْصِرُ رُبْعاً حَلَّهَ خَيْرٌ مَرْسَلٍ
وَأَلْثَمَ فِي مَغْنَاهُ تِلْكَ الْمَوَاطِيَا
وَأَسْجِدُ فِي التُّرْبِ الْمُقَدَّسِ سَجْدَةً
وَأُنْوِي بِهَا جَبْراً لَمَّا كُنْتُ سَاهِيَا
وَمَا فَازَ إِلَّا مَنْ فَلَى نَحْوَهُ الْفَلَا
وَلَمْ يَنْوَ فِي قِصْدٍ إِلَيْهِ التَّوَانِيَا
وَمَا عَافَنِي إِلَّا ذُنُوبٌ كَأَنَّمَا
تَحْمَلُ مِنْهُنَّ الْجِبَالُ الرُّوَاسِيَا
مَدَدْتُ يَدَيَّ يَا ذَا الْمَعَارِجِ رَاجِيَا
وَأَصْبَحْتُ آمَالِي إِلَيْكَ حَوَادِيَا
عَسَى جُودُكَ الْفَيَاضُ يَدْنِي وَسَائِلِي
وَيَنْشِي مِنْ الْعَفْوِ الْعَمِيمِ غَوَادِيَا

ويفتح لي باباً إلى منهج التّقى
فأُلقي التّداني يوم أُلقي التّاديا
لدى موقف يوم الحساب وهوله
يسوم الورى كرب يُشيب النّواصيا
هناك ينادي أشفع تشفع محمد
وسل ما تشا تُعطّ المنى والأمانيا
فينقذنا من ذلك الهول جاهه
ويحجزنا عن زفرة النّار واقيا
فمالي سوى حبّي إليه وسيلة
تردّ عن اللّهفان تلك المراديا
نبيّ رآه الله أفضل خلقه
فأرسله بالحق للخلق هاديا
وأسرى به ليلاً إلى حضرة العلى
فشاهد فيها كلّ ما كان خافيا
سرى راكباً ظهر البراق كرامة
وبين يديه سار جبريل ماشيا
دنا فتدلى قاب قوسين رفعة
وقرباً فأمسى للحبيب مناجيا
وكلمه ظنّي الفلا متشفعا
وحنّ إليه الجذع بالحال شاكيا

وفاض نمير الماء بين بنائه
فكان وضوء للكتيبة كافيا
وكان له في الغار إذ نزلا به
أبو بكر الصديق بالصدق ثانيا
وحامت حواليه الحمام وشيدت
من النسيج أيدي العنكبوت مبانيا
وإن انشقاق البدر أعظم آية
يعود بها جيد الهداية حاليا
وكم معجز أبدى النبي مظاهراً
غدا في اتضاح للصباح مضاهيا
وَوَرِدُ الهدى لا يهتدي لسبيله
فيروي به من كان في البدء صاديا
وبشر رضوان بمولد أحمد
ففتح جنات النعيم الثمانيا
و آدم لما خاف يجزي بذنبه
توسل بالمختار لله داعيا
فتاب عليه واجتباه وخصه
وأدناه منه بعد ما كان نائيا
وقد يهجر المحبوب في حالة الرضى
ويأبى الهوى ألا يصنق وأشيا

وعين الرضى عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدي المساويا
وأدرك موسى في المناجاة رعبه
فكلمه الله العظيم مناجيا
وما الرسل إلا كالمبادي لغاية
هو الغاية القصوى أتم المباديا
نبي له فضل على كل مرسل
كما فضلت شمس النهار الداريا
أشهر ربيع حزت كل فضيلة
ويا ليلة الاثنين فقت الليالي
ويا مولد المختار وافيت زائراً
فلله ما أسنى الحبيب الموافيا
حللت بربع الملك فاختل زاهيا
وصار لنور النيرات مباهيا
تلقاك مولانا الخليفة باسمأ
لقاء مشوق لم يكن عنك ساليا
وأبدى محيا كالصباح صباحة
بموسمك السامي فأجلى الدياجيا
إمام عليه للسعادة حلة
جديدة حسن ليس تخشى التبايا

أجلّ ملوك العصر موسى بن يوسف
حلاه التّقى والجود كهلاً وناشياً
ومن تكن التقوى حلاه ودأبه
يكن عنه ربّ العرش لا شكّ راضياً
ومن يتوكّل في جميع أموره
على الله يُؤفّقه كفيلاً وكافياً
حمى حوزة الدّين الحنيف بعدله
وقام بتقويم الأمور مُعانياً
إمام الهدى مفني العدا بظبا الردى
فمنذ بدا أحيا الندى والمعاليا
ودانت له كلّ البلاد وأقبلت
إليه أدانيها فأدنى الأفاصيا
أمولاي إنّ الله أعطاك ملكه
فشيدت من مبناه ما كان واهياً
رأى الله أنّ الملك ليس يسوسه
سواك وما للدّين غيرك حامياً
فأولاك في ضيق الشّدائد فرجة
وأعطاك نصراً دائماً متوالياً
ستقضي لك الأقدار ما كنت ناوياً
وتدني المنى من حيث تقضي المناوياً

وتستفتح الأمصار شرقاً ومغرباً
وتدفع عنهن العدو المداحيا
وتجلبها خيلاً ورجلاً وتمتضي
من العزم ما ينسي السيوف المواضيا
تشنّ عليهم غارة بعد غارة
تحكّم فيهن الظبى والعرايا
فما أهملوا لكنهم أمهلوا إلى
زمان يبید الله فيه الأعديا
لكلّ من الأشياء حدّ موقت
ولا بد يوماً أن يوافي التناها
وكم أبق في رق ملكك قد جنى
مراراً ولولا العفو ما كان ناجيا
عفوت اقتداراً عن تمادي نوبه
وأوسعته حلماً فكفّ التماديا
وما قلة الأحرار كالعفو عنهم
وما الحر إلا من يراعي الأياديا
فلا زالت الآمال وقفاً عليكم
لها من نذاك المورد العذب صافيا
ودام لك الملك الذي أنت زينه
وألبس برداً بالسعادة صافيا

ودونكه سلكاً من النظم رائقاً
غدا فائقاً في نظمهن اللآلئ
وما كنت أدري الشعر قدما وإنما
تعلمت من تلك المعالي المعاني
فلولا حلاكم وأعلاكم لما غدت
تطاوعني مهما دعوت القوافي

منصور بن علي ابن عبد الله الزواوي، (ابو علي)

ولد ببجاية سنة 710هـ/1310م. ودرس بها، ونشأ في ربوعها؛ ثم انتقل إلى الأندلس؛ حيث تصدر للتدريس والإقراء. وكان يتحلى بمرتبة رفيعة بين العلماء وأهل الدين؛ يميل إلى الزهد وترك مباحج الدنيا. ويمتاز بحذق وبراعة في الفتيا؛ وله خط جميل؛ وله كذلك نظم رائع؛ ونثر نبيل. ومن شيوخه في بجاية: والده الشيخ أبو علي ناصر الدين بن أحمد المشدالي، والشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي؛ المعروف بالمسفر، والأستاذ أبو علي بن حسين البجائي، والقاضي أبو عبد الله محمد بن أبي يوسف الزواوي، والفقير أبو العباس أحمد بن عمران اليانيوي. كما أخذ في الأندلس عن الفقيه أبي عبد الله الرندي، والشيخ أبي عبد الله بن الفخار البيري، وقاضي الجماعة أبي القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني، والشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن الحاج المعروف بالبلفيقي، والفقيه أبي عبد الله الطنجالي؛ أما في المغرب فقد أخذ عن الفقيه

الرئيس أبي محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد
المهيمن الحضرمي والمحدث الفقيه أبي العباس بن
يربوع، والقاضي أبي إسحاق بن أبي يحيى. وقد
تصدر للأقراء في غرناطة بالأندلس، ثم تلمسان
حاضرة المغرب الأوسط آنذاك. وتولى مهمة الإفتاء
في النوازل بين الناس في كل من العدوتين. ووصف
بأنه محقق دقيق، سليم الإدراك. وهو أحد شيوخ
يحيى بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وأبي
إسحاق الشاطبي؛ والمقري الجد. قال عنه ابن
الخطيب: ((هذا الرجل طرف في الخير والسلامة،
وحسن العهد، والصون والطهارة والعفة، قليل
التصنع، مؤثر للاقتصاد، منقبض عن الناس، مكفوف
اللسان واليد، مشغل بشأه، عاكف على ما يعنيه،
مستقيم الظاهر، ساذج الباطن، منصف في المذاكرة،
موجب لحق الخصم، حريص على الإفادة والاستفادة،
مثابر على تعلم العلم وتعليمه غير أئف عن حمله
عمَّن دونه جملة من جمل السذاجة والرجولة
وحسن المعاملة، صدر من صدور الطلبة، له
مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية،
واطلاع تقييد، ونظر في الأصول والمنطق وعلم
الكلام، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات. يكتب

الشعر فلا يعدو الإجادة والسداد. قدم الأندلس في عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة¹، فلقي رجباً، وعرف قدره، فتقدم مقرئاً بالمدرسة² تحت جارية نبهة، وحلق للناس متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير. وتصدر للفتيا، وحضر بالدار السلطانية مع مثله. جربته وصحبته، فبلوت منه ديناً ونصفه، وحسن عشرته³)). امتحن في بلاد الأندلس، وطرد منها في عام 765هـ/1363م. وعلق ابن الخطيب بقوله: ((وهو من لدن أزعج عن الأندلس - كما تقدم ذكره - مقيم بتلمسان؛ على ما كان عليه؛ من الإقراء والتدريس⁴)). وقال تلميذه يحيى بن خلدون: ((تصدر للإقراء بغرناطة، وتلمسان؛ وأفتى الناس بالقطرين في النوازل. مدرك، ومحقق⁵)). تاريخ وفاته مجهول؛ وكل ما يعرف عنه؛ أنه كان حياً في عام 770هـ/1368م.

¹ الموافق لـ 1352م

² هي المدرسة النصرية أو الجامعة التي بناها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل؛ الذي حكم دولة بني الأحمر من سنة 733هـ/1332م إلى سنة 755هـ/1354م.. له ترجمة في الإحاطة.

³ الإحاطة؛ القسم الرابع، ص: 138 - 139.

⁴ نفسه، ص: 146.

⁵ بغية الرواد، ج: 1، ص: 132.

شعره

نقل عنه ابن الخطيب - عندما زاره بمسجد
رابطة العقاب بغرناطة؛ رفقة أبي عبد الله المقرئ -
بعض المقاطع من شعره؛ منها:
لما رأيناك بعد الشيب يا رجل
لا تستقيم وأمر النفس تمتثل
زدنا يقينا بما كنا نصدقه
عند المشيب يشب الحرص والأمل

- وله أيضاً:

يا من وجدناه لفظا
حقيقة في المعالي
مقدمات علاكـم
أنتجن كل كمال
وكل نظم قياس
خلوت منه فخال

— ومما قاله من شعر أيضاً:

يحبيك عن بعض المنازل صاحب

صديق غدت تهدي إليك رسائله

مقدمة حفظ الوداد وسيلة

ولا ود إلا أن تصح وسائله

يسايل عنك الدارسين ولم يكن

تغيب لبعد الدار عنك مسايله

وقد اختار سكنى تلمسان؛ بعد إخراجهم من

الأندلس فاشتغل في تلمسان بالتدريس والإقراء.

موسى بن يوسف

ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراش بن زيان
(أبو عمرو الثاني)

لقد استغرق الحديث عنه مطولاً في الجزء الأول من هذا الكتاب - خلال الدور الثالث من دولة بني زيان - وسيقتصر الحديث في هذا المجال على أدبه وشعره.

المهم؛ أن أبا عمرو ولد بغرناطة في عام 723هـ/1323م؛ كما أجمع عليه ابن الخطيب، ويحيى ابن خلدون، والتتسي؛ بينما يقول صاحب روضة النسرين أنه ولد بغرناطة في عام 722هـ/1322م. وكان ابن الخطيب قد خصَّ أبا عمرو بترجمة في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة؛ قال فيها: ((هذا السلطان مُجمَعٌ على حزمه، وضمُّه لأطراف ملكه. واضطلاعُه بأعباء ملك وطنه، وصبره لدولة قومه. وطلوعه بسعادة قبيله. عاقل، حازم، حصيف، ثابت الجأش، وقور مهيب، جماعة للمال، مباشر للأمور، هاجر للذات، يقظ، متشمر. قام بالأمر غرة ربيع

الأول في عام ستين¹، مرتاش الجناح بالأحلاف من
عرب القبلة، معولاً عليهم عند قصد عدوه؛ وحلب
ضرع الجباية، فأتى بيت ماله، ونبهت بولته،
واتقته جيرته؛ فهو اليوم ممن يشار إليه بالسداد.
وجه لهذا العهد في جملة هدايا ودية، ومقاصد
سنية، نسخة من كتابه المسمى بواسطة السوك في
سياسة الملك²؛ افتتحه بقوله: "الحمد لله الذي جعل
نعمته على الخلق؛ بما أفهم عليه من الحق،
شاملة شايعة، ويسر طوائف من عباده لليسرى،
فأتت إليها مساعدة مسارعة، وحضهم على الأخذ
بالحسن، ولا أصل للناس نفوس أرشدت، فأقبلت
لإرثها طالبة ولربها طائعة. ولا أسمى من هم
نظرت بحسن السياسة في تدبير الرئاسة، التي هي
لأشتات الملك جامعة ولأسباب الملك مائعة، وأظهرت
من معادنها درر الحكم، وغرر الكلم لايحة لامعة،
فاجتلت أقمارها طالعة، واجتنت أزهارها ياتعة.
وصلى الله على سيدنا محمد الكريم، المبعوث
بالآيات البينات، ساطية ساطعة، والمعجزات المعجمات

¹ المقصود هنا في سنة سبعماية وستين 760 هـ/1358م.

² طبع هذا الكتاب بمطبعة الدولة التونسية سنة 1279هـ/1862م. كما
توجد نسخة مخطوطة منه بالمكتبة الوطنية الجزائرية؛ تحت رقم: 1374.

قاصمة لظهور الجاحدين قاطعة. الذي زويت له الأرض، فتدانت أفكارها وهي نابية شاسعة، واشتافت له المياه؛ فبرزت بين أصابعه يانعة، وامتلأ السحاب أمره، فسح باستسقاياه درراً هامية هامة، وحن الجذع له، وكان حنينه لهذه الآيات الثلاث آية رابعة، إلى ما لا يحصى مما أتت به متواترات الأخبار، وصيحات الآثار، ناصرة لنبوته ساطعة. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وعترته التي أجابت داعي الله خاشية خاشعة، وأذغت لأوامر رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فكانت من الاستبالة الخالية، وللأنداد خالعه، صلاة ديمتها دائمة متتابعة، وسلم كثيرًا. جمع فيه الكثير من أخبار الملوك وسيرهم، وخص به ولده وولي عهده؛ فجاء مجموعاً يستظرف من مثله، ويدل على مكانه من الأدب ومحلّه. وثبت فيه الكثير من شعره؛ فمن ذلك قصيدة أجاب فيها أحد رؤوس القبائل، وقد طلب منه الرجوع إلى طاعته، والانتظام في سلك جماعته، وهي:

تذكرت أطلال الربوع الطواسم
وما قد مضى من عهدها المتقادم
.....إلخ¹.

((قلت: ولما تعرفت كلفه بالأدب، والإمام
بمجاورته؛ عزمت على لقائه، وتشوقت عند العزم
على الرحلة الحجازية؛ إلى زيارته. ولذلك كنت
أخاطبه بكلمة منها:

على قدر قد جيت قومك يا موسى
فجلت بك النعمى وزالت بك البوسى

فحالت بون ذلك الأحوال. وهو بحاله الموصوفة
إلى هذا العهد. وفقه الله وسائر من تولى أمراً
من أمور المسلمين. وجرى ذكره في رجز الدول²
من نظمي:

بادرها المفدي الهمام موسى
فأذهب الرحمن عنها البوسى
جدد فيها الملك لما أخلقا
وبعث السعد وقد كان لقا

¹ الإحاطة، القسم الرابع، ص ص: 63 - 65.
² وهو بعنوان رقم الحل في نظم الدول.

ورتب الرتبا والرسوما
وأطلع الشموس والنجوم
واحتجن المال بها والعدة
وهو بها باق لهذي المدة

ولد بمدينة غرناطة؛ حسبما وقعت عليه بخط
الثقة من ناسه؛ في أول عام ثلاثة وعشرين
وسبعماية¹.

الناشيء

¹ الإحاطة، القسم الرابع، ص ص: 72 - 73.

شعره

- قصيدة لأبي حمو؛ أنشدتها فرقة السماع بالمشور

في تلمسان؛ بمناسبة المولد النبوي الشريف:¹

هَوَيْنَا الطَّبَّاءَ وَالْفَنَّا الطَّبَّاءَ² وَكَمْ مِنْ فَوَادٍ إِلَيْهَا صَبَا
إِلَى أَنْ بَدَا الشَّيْبُ فِي مَقْرَفِي وَأَجْرَيْتُ مِنْ خَيْلِهِ أَشْهَبَا
فَأَقْظَنِي الشَّيْبُ مِنْ غَفْلَتِي فِي لَمَّتِي³ مِنْ حَدِيثِي نَبَا
وَقَدْ عَادَ غَضَّ شَبَابِي بِهِ مُحِيلًا وَلَوْ نِي غَدَا مَذْهَبَا
فَوَا أَسْفِي مِنْ ذُنُوبٍ مَضَتْ تَقْضِيَّتُهَا فِي زَمَانِ الصَّبَا
وَكَمْ لُمْتُ نَفْسِي فَمَا أَطَاعَتْ وَعَاتَبْتُ قَلْبِي فَمَا أَعْتَبَا
وَكَمْ قَدْ بَكَيْتُ لَذَنْبٍ جَنَيْتُ وَقَلْبِي تَوَيْتُ وَلَكِنْ أَبَى
مُسِيءٌ قَسَا قَلْبُهُ إِذْ أَسَا قَلَابَ أَسَى عَدَمًا أَذْنَبَا
لَقَدْ حَقَّ أَبْكِي عَلَى زَلَّتِي فَذَنْبِي لِجَرِّي قَدْ أَوْجَبَا
وَلَيْسَ لِخَطْبِي وَتَمَحِيصِ ذَنْبِي سِوَى فَرْطِ حُبِّي لِأَهْلِ الْعَبَا
فَيَا أَهْلَ وَدِّي لَقَدْ زَادَ وَجْدِي إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ وَأَهْلِ قُبَا
فَذَكَّرَهُمْ عَادَ لِي عَادَةً وَحُبُّهُمْ صَارَ لِي مَذْهَبَا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

² في الأولى: الطَّبَّاءُ؛ مفردُها الطَّبَّيُّ؛ الغزال. أما الثانية؛ فمفردُها؛ الطَّبَّة،

وقد جمعها بهذا الشكل للضرورة؛ وتعني: طرف السيف وحده.

³ اللَّمَّة؛ جمعُها لِمَمٌ وَلِمَامٌ: الشعر المجاوز لشحمة الأذن.

وَحُسْنُهُمْ كَمْ مُحِبِّ صَبَا
فَإِنْ يَرْحَمُونِي فَمِنْ فَضْلِهِمْ
وَإِنْ هُمْ يَجُودُونَ لِي بِالرُّضَى
فِيَا حَادِي الرِّكْبِ نَحْوَ الْحِمَى
فَأَبْلَغُ سَلَامِي لِسُكَّانِهَا
وَقُلْ لَهُمْ يَرْحَمُونَ الْمُحِبِّ
فَرِّقُوا لِقَلْبٍ غَدَا مَشْرِقاً
فَوَاكِفِ أَجْفَانَهُ مَا رَقَى
حَمَى النَّوْمِ عَنِّي بَرْقُ الْحِمَى
فَجِئُوا السَّرَى لِشَفِيعِ الْوَرَى
فَالْتَمَعَ النُّورُ مِنْ رَضِيهَا
بِلَادَ مُقَدَّسَةٍ حَلَّهَا
فَشَهْرُ رَبِيعٍ أَتَى بِرَفِيعِ
فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِمَوْلَى أَحَلَّ
نَبِيٌّ أَتَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ
وَنِيرَانُ فَارَسٍ قَدْ أُخِمِدَتْ
وَكِسْرَى تَسَاقَطَ إِيوَانُهُ
وَحَرَّتْ قَوَاعِدُ إِيوَانِهِ
وَكَلَّمَتِ الْوَحْشَ لِلْمُصْطَفَى
وَحَنَّ لَهُ الْجِدْعُ مُسْتَوْحِشاً
إِلَيْهِ وَكَمْ مِنْ فُؤَادٍ سَبَى
وَإِنْ يَهْجُرُونِي فَيَا مَرْحَباً
فِيَا مَا أَلَذَّ وَمَا أَعَذَباً
إِذَا جِئْتَ نَجْداً وَتِلْكَ الرَّبَى
ذِكْرُ الشَّدَا عَاطِراً طَيِّباً
فَمَا اخْتَارَ غَيْرَهُمْ مَطْلَباً
وَحَنُّوا لِصَبِّ ثَوَى مَغْرِباً
وَلَاعَجُ أَشْوَاقِهِ مَا خَبَا
وَشَاقُ فُؤَادِي نَسِيمَ الصَّبَا
عَسَى أَنْ تَرَى مُقَلَّنِي يَنْثَرِبَا
وَأَسْتَشْفِقُ الْمِسْكَ بَلْ أَطْيَبَا
نَبِيَّ الْهَدَى الْمُصْطَفَى الْمُجْتَبَى
نَبِيٌّ شَفِيعٌ لِمَنْ أَذْنَبَا
وَبَدْرٌ تَجَلَّى جَلًّا غَيْهَبَا
وَأَظْهَرَ لِلْحَقِّ نَوْرًا خَبَا
فَلِلَّهِ ذَلِكَ مَا أَعْجَبَا
وَذَلَّ مِنَ الرُّعْبِ كَاسُ الطَّبَا
وَصَارَتْ رَمِيماً كَمِثْلِ الْهَبَا
وَنُطِقَ الذَّرَاعُ لَهُ أَعْجَبَا
وَكَلَّمَهُ الظَّنُّ مُسْتَغْرِبَا

وشوقاً له البدرُ عندَ التَّمامِ ورثتُ له الشَّمْسُ أنْ تَغْرِبَا
 وأسْرَى بِهِ لَيْلَةَ الإِرْتِقَا إلى قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَقْرَبَا
 وكمْ مُعْجَزَاتٍ لَخِيرِ الْوَرَى تَجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ إِنْ تَحْسَبَا
 فَيَا سَيِّدَا قَدْ حَبَاهُ الْإِلَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً بِمَا قَدْ حَبَا
 وَيَا مَنْ سَمَا قَدْرُهُ رِفْعَةً وَيَا مَنْ عَلَا فِي الْعُلَى مَنْصِبَا
 يَخْصُكَ مُوسَى بِأَزْكَى سَلَامٍ يَرُوقُ النُّفُوسَ كَنَشْرِ الْكِتَابِ¹
 وَمِسْلِكِ فَتَيْقٍ وَزَهْرٍ أَتَيْقٍ بِرَوْضِ شَرِيقِ حَوْتِهِ الرَّبِّي
 فَ رَبِّي حَسْبِي لَوْجَدِي وَكَرْبِي وَمَا لِي لَذَنْبِي سِوَى الْمُجْتَبَى

- قصيدة بعث بها النابشي رعية 766هـ/1364م؛
 إلى الوزير عمر بن عبد الله الباياني؛ المستبد في
 دولة بني مرين؛ إثر غارة قام بها السلطان
 الزياني على الأراضي المرينية المتاخمة لمملكة
 تلمسان²؛

السَّيْفُ أَجْدَرُ وَالْخَطِيُّ مِنْ خُطْبِ

فِيهَا الْجَاجُ وَقَوْلٌ غَيْرُ مُنْتَسَبٍ

¹ الْكِتَابُ جَمْعُهُ كُتُبٌ: عَوْدُ الْبُخُورِ.
² وَرَدَتْ فِي بَغِيَةِ الرُّوَادِ.

خطّ الكتاب لا خطّ الكتاب بها
جلية الأمر عند السمر والقضب
والحق فرض على الإنسان مفترض
والصدق أفضل ما أودعت في الكتب
ومن غدا السيف في كفيه عارية
فكيف يدرك ما يرجو من الأرب
فكم تحاول أمراً ليس تدركه
تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب
قد خنت من بعد أيمان مؤكدة
وبئلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تجيب لداعي الغي مبتدراً
وإن دعوتك يوم الحرب لم تجب
فانصب إلى الحرب ميداناً تشيب له
سود النوائب بين الحرب والحرب
قدمت طائرک المشؤوم إنَّ له
دلائلاً ظهرت في منزل خرب
أخطأت في رأي من خابت روايته
حتى اقتحمت الردى من غير ما سبب
تخوض بحراً ولا تخشى عواقبه
وليس يسلكك لَحّ البحر بالنجب

عانت ويحك من أعطاه خالقه
ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض أمر الله معترضاً
يُمسي ويصبح في بحرٍ من التعب
أَيَمَحُ المرء والقهار يمنعُه
أو يوهب الأمر والوهاب لم يهب
كم غاضب قبلكم قد عاد منتهباً
وطالب خاب والمطلوب لم يخب
من رام إدراكنا رام المحال ولا
ينجو من السيف من يلج في الهرب
كم رام غيركم ما رمتموه فما
نالوه والقلوب في سوءٍ منقلب
جُرْتُمْ على الله في أحكامه ولقد
قطعتُم الدهر بين اللهو واللعب
هتكت ستر مريم طالما ستروا
قتلت ما لكم غدرأ بلا سبب
تعمدوا جرأة أخليت دارهم
ولم تدع لبني الأملاك من عقب
فلا يغرك ما قد كان من لعب
شمرَّ إزارك جاء الحق فارتقب

لما دعوت على بعد أجبتكم
وقد دعوناك من قرب فلم تجب
وقد نهضت بعون الله متكلاً
على الإله ومن يرجوه لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء به
كالبحر أعظم به من عسكر لجب
عزمزم زلخر فاضت مواكبه
كأنه سحب أربت على سحب
من كل ليث شجاع فارس بطل
حامي النمار من الأعجام والعرب
على سوابق خيل ضمّر عُرْب
تزهى بحليتها كالخرَد العرب
من أحمر عسجديّ اللون مذهبه
وأشقر كشعاع الشمس ملتهب
وأدهم متنه ليل وغرته
صبح فيها حسنه من منظر عجب
وأشهب كشهاب إن رميت به
شيطان كل عدو في الوغى تصب
فالحمر من فلق والشقر من شفق
واللّهم من غسق والشّهب من شهب

تشن غاراتها في كل منهلة
فتتني بالذي نهواه من أرب
بها وطننا بلاداً لا سبيل لها
وما أرننا تتولناه من كئيب
حيث الهودج والبوجات مشرقة
لاحت لمنزل رأس العين كالشهب
وافت بنو عامر من كل ناحية
في خيلها العرب أو في نجعها الأشب
جاءت إلى نصر حزب الله وابتدرت
كالأسد تبدو عليها سورة الغضب
ومن امام عبيد الله في أمم
فاضت مواكبها بالبيد والشعب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها
في ظل ألوية خفاقة العذب
بحر على البر مرتجّ غواربه
من فوقه قطع الرايات كالسحب
ونحن نقدمهم والنصر يقدمنا
والأرض تهتز بالفرسان والنجب
ثم ارتحلنا لتأمّسّلت مرحلة
وكوكب الفتح قد وافى ولم يغيب

إلى ثنية بلزوز توجين أنت
لمستراح أرحناها من التعب
ثم ارتحلنا على اسم الله تقدمنا
طلائع الفتح في إبرادها القشب
حتى نزلنا على دبدو وساحته
جالت عساكرنا في السهل والهضب
لما بدا للعدا ألاّ نجاة لهم
ولا قرار وقد أشفوا على الشجب
تضرّعوا وأتوا طوعاً لخدمتنا
بالذلّ والذعر خوف الهالك والعطب
وقد عفونا وإنّ العفو شيمتنا
ومن تردّى رداء العفو لم يخب
ونال من عفونا ما كان يأمله
حمو بن زيان بعد القهر والغلب
ومن هناك لوينا نحو ملوية
وكم تركنا بها من منزل خرب
ما كل من قاد جيش الزحف قائده
وليس يذكر غير الماجد الدرب
لما دعوناك من قرب فلم تجب
علمت قولك بين الهزل واللعب

ثبتت عنك عنان العزم محتكماً
بالرأي والعزم لا عجزاً عن الطلب
لا بدّ من ساعة بيني وبينكم
تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
وتكتسي الأرض ثوباً كالعقيق ولا
تجري الجداول إلّا من دم سرب
والخيل جائلة والأسد ذاهلة
والأرض عارية من ثوبها القشب
هناك تجني ثماراً كنت غارسها
ويحكم الدهر بالآيات والعجب
ونأخذ الثأر ممن قد دنا وقصاً
من العداة وهذا منتهى أربي
ثم الصلاة على المختار من مضر
خير البرية من عجم ومن عرب

- قصيدة لأبي حمو أنشدها المنشدون في حفل
بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف؛ أقيم في
المشور بتلمسان سنة 767هـ/1365م¹.

ألفتُ الضنى وألفتُ النحيبا وشبَّ الأسى في فؤادي لهيباً
وحقَّ لنفسي أسَى أن تذوباً وللدمع من مقلتي أن يصوباً
وقد كنتُ بالوصل منكم قريباً فأصبحتُ بالهجر منكم غريباً²
جفاني الحبيب فسرَّ الحسود وأدنى البعيد وأقصى القريباً
وذنبِي أوجبَ هجري فما جفاني حتى جنيتُ الذنوباً³
فيا ليت شعري هل عطفة يكون بها الدهر عيشي خصيباً⁴
فما لي على الهجر من قدرة فقد آذ جسمي وأفنى القلوباً⁵
وقفت رجائي بكم فارحموا وقوفي على بابكم مستريباً
غريب فريد أنا بينكم وحاشاكم تفردون الغريباً
وما لي ذنب سوى حبكم وتالله عن حبكم لن أتوباً
فإن تقتلونني حلالاً لكم أنا أرتضي ما يرضي الحبيباً

¹ وردت هذه القصيدة في بقية الرواد، واسطة السلوك.

² في: واسطة السلوك. (مخطوط + مطبوع):

((فأصبحت بالهجر أخشى الرقيب)).

³ سقط هذا البيت في واسطة السلوك.

⁴ ورد هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط):

((يوصل وعيش يكون خصيباً)).

⁵ ورد هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط):

((ينيب النفوس ويغشى القلوب)).

وإن تَبْعِدُونِي عَلَى زِلَّتِي فَشَأْنُكُمْ¹ تَغْفِرُونَ الذُّنُوبَا
 وَإِنْ تَرْحَمُوا تَرْحَمُوا صَبَّكُمْ فَظِلُّ رِضَاكُمْ يَغْطِي الْعُيُوبَا
 أَسِيرُ هَوَاكُمْ قَتِيلُ نَوَاكُمْ لَعَلَّ رِضَاكُمْ يَكُونُ قَرِيبَا
 فَوَادِي عَلِيلٍ وَجَسْمِي نَحِيلُ وَسَقَمِي طَوِيلٌ قَدْ أَغَى الطَّبِيبَا
 هَجَرْتُ الْهَجُوعَ نَثَرْتُ الدَّمُوعَ فَسَرِّي أُنِيعَ قَلْبِي أَذْيَا
 أَبْكِي الرُّسُومَ وَأُرْعَى النُّجُومَ أَقَاسِي الْهَمُومَ مَعَا وَالْخَطُوبَا²
 أَعَاتِبُ نَفْسِي عَلَى زِلَّتِي فَيَزِدَادُ جَسْمِي ضَنْئِي وَشُحُوبَا
 مَسِيءَ أَلَمٍ بِذَنْبِ أَدَمَ وَأَجْمَعُ لَمَّا أَسَا أَنْ يَتُوبَا
 سَأَلْتُكَ يَا خَالِقِي تَوْبَةَ فَمَا زِلْتُ لِلْسَّائِلِينَ مَجِيبَا
 خَشِيتُ الْمَعَاصِي يَوْمَ الْقِصَاصِ إِذَا مَا النُّوَاصِي تُشِيبُ مَشِيبَا
 وَأَنْتَ رَقِيبِي يَوْمَ الْحِسَابِ كَفَى بِكَ يَوْمَ الْحِسَابِ رَفِيقَا³
 فَكَمْ قَدْ لَهَوْتُ وَكَمْ قَدْ سَهَوْتُ وَلَكِنْ دَعَوْتُ سَمِيعاً مَجِيبَا
 عَلِيماً بِخَطْبِي يُفَرِّجُ كَرْبِي فَمَا زَالَ رَبِّي يَزِيلُ الْكَرُوبَا
 مَضَى الْعَمْرُ يَا حَسْرَتِي فِي⁴ الضَّلَا لِوَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنْهُ مَشِيبَا
 وَأَضْحَى مِنَ الشُّوقِ جَسْمِي عَلِيلاً وَأَمْسَى مِنَ الْهَجْرِ قَلْبِي كَثِيبَا
 أَحْنُ إِلَى الْفَجْرِ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلِلشَّمْسِ حِينَ تَزُومُ الْغُرُوبَا

¹ في: و. س. (مغ + مط): ((فشيمتكم)).

² نفسه؛ جاء هذا البيت هكذا:

((بكيت الرسوم رعيت النجوم * أداري الهموم معاً والخطوب)).

³ لا يوجد هذا البيت ف: و. س. (مغ + مط).

⁴ في: و. س. (مط): ((ب)).

إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ طَيِّبَةٍ تَعَطَّرَتِ الْأَرْضُ مَسْكَاً وَطِيّاً
 وَأَصْبَوُ¹ إِلَيْهَا وَمَنْ أَجْلَهَا أَحَبُّ الصَّبَا وَأَحَبُّ الْجَنُوبِ
 تَهَبُّ النِّوَاسِمُ مِنْ أَرْضِهَا فَيَزْدَادُ نَارَ اسْتِثْنَائِي لَهْيَا
 حَنِيناً وَشَوْقاً إِلَى الْمُصْطَفَى إِلَى مَنْ بِهِ اللَّهُ يَمْحُو الذُّنُوبَ²
 إِلَى خَيْرٍ هَادٍ هَدَى لِلرَّشَادِ جَمِيعَ الْعِبَادِ وَأَخْلَى الْخُطُوبَ³
 لَخِيرٍ⁴ شَفِيعٍ مَكِينٍ رَفِيعٍ أَتَى فِي رَبِيعٍ فَأَحْيَا الْقُلُوبَ
 فَأَكْرَمَ بِشَهْرِ حَوَى كُلِّ فَخْرٍ بِمِيلَادٍ⁵ بَدْرٍ بَدَأَ لَنَا يَغْيَا
 كَرِيمَ السَّجَايَا عَظِيمَ الْمَزَايَا جَزِيلَ الْعَطَايَا جَمِلاً مَهِيّاً
 فَيَا حَادِيَ الرَّكْبِ⁶ نَحْوَ الْحَمَى إِذَا جِئْتَ ذَاكَ الْجَنَابِ الرَّحِيّاً
 وَزَادَ الْهَوَى حِينَ زَالَ النَّوَى وَجِئْتَ اللَّوَى وَاعْتَمَدْتَ الْكُتُبَا
 لِقَبْرِ الرَّسُولِ مُنَايَ وَسُؤْلِي عَسَى بِالْوَصُولِ سَأَحْظِي نَصِيّاً⁷
 لِقَبْرِ التَّهَامِي وَخَيْرِ الْأَنَامِ وَبَدْرِ التَّمَامِ شَفِيعاً حَبِيباً⁸
 فَبَلِّغْ إِلَيْهِ سَلَامِي عَلَيْهِ فَإِنْ لَدَيْهِ لَسَقَمِي طَبِيباً

¹ ف: و. س. (مخ + مط): ((فأصبو)).

² جاء هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط): ((أثار الغليل وأذكي الوجيب)).

³ في: و. س. (وجلى الخطوب).

⁴ في: و. س. (مخ + مط): ((أجل)).

⁵ نفسه: ((بمولد)).

⁶ نفسه: ((العيس)).

⁷ جاء هذا البيت في غير هذا الترتيب في واسطة السلوك.

⁸ جاء هذا البيت ف: و. س (مخ + مط) هكذا:

((لقبر التهامي لبدر التمام * لخير الأنام شفيعاً حبيباً))

وإن جئت نجداً وأعلامها فشق ثراها بدمعي سكبها
 فيا سعد قوم حدو كل يوم وعن وضع نوم تجافوا جنوبا
 حدوا بالنياق فزاد اشتياقي وسالت سواقي دموعي صبيبا
 وزموا الحمول وأموا الرسول فجابوا السهول له والسهوبا¹
 تسنى لهم قصدهم عندما تسنم كل نجيب نجيبا²
 سروا بالذجون³ ففاضت جفوني وقد خلفوني مشوقاً كثيبا
 فقلبي من الشوق في مشرق وجسمي في الغرب أمسى غريبا⁴
 سقوني كؤوساً تذيب النفوس ويرجوك موسى تزيل الكروبا
 بحرمة أحمد خير الورى رجائي وظني به لن يخيبا
 نبي أتى رحمة للعباد فأمحي وأمحص عنا الذنوبا⁵
 وسن الشريعة للمؤمنين وشن على الكافرين الحروبا
 بمولده أشرق الأفق نوراً وألبست الأرض حسناً قشيبا
 وكسرى تساقط إيوانه وكاد من الرعب يلقي شعوبا⁶
 ونيران فارس قد أخدمت وإخمادها كان أمراً⁷ عجيبا
 وجفت موارد أنهارهم وقد اعقبت بعد ريّ نضوبا

¹ في: و. س. (مخ): ((والشعوبا))؛ أما (مط): ((والشهبوبا)).

² اختلف ترتيب هذا البيت في: و. س. (مخ + مط).

³ في: و. س. (مط): ((في الذجون)). بينما سقط البيت بالكامل من (مخ).

⁴ في: و. س. (مخ + مط): ((وجسمي بالقرب أضحي غريباً)).

⁵ نفسه: ((فمحي ومحص عنا الذنوبا)).

⁶ في: و. س. (مخ): ((شغبوا)).

⁷ في: و. س. (مخ): ((سراً)).

وحنَّ له الجذع مستوحشاً¹ وأبدى إليه الأسى والنحيباً²
 دعا بالعباد لسقي البلاد فأخصب ما كان منها جديباً
 وشقَّ له البدر عند تمام³ وكلمه الطبي يشكو الخطوباً
 وكم معجزات له أعجزت جميع الورى شاعراً أو خطيباً
 عليه السلام ما ناح الحمام⁴ وما أضحك الروض ثغراً شنيباً⁵
 شنيباً⁵

— أنشدت قصيدة أبي حمو هذه؛ في حفل سماع
 بالمشور؛ بمناسبة ليلة المولد الكريم؛ وذلك في عام
 766هـ/1366م⁶.

الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا
 والشوق ردّ خيالي بالسقام هبا

¹ في: و. س. (مط): ((مستأنساً)).
² في: و. س. (مخ) ((وأبكى إليه البكا والنحيب)).
³ في: و. س. (مخ + مط): ((التمام)).
⁴ هذا الشطر مختل الوزن. وكذا الحال في: و. س. (مخ)؛ حيث جاء
 الشطر مختلاً هكذا ((عليه السلام ما تبكى حمام)). أما (مط) فجاء سليماً
 هكذا: ((عليه السلام بطول الدوام)).
⁵ في: و. س. (مط) ((قشيباً)).
⁶ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد؛ وواسطة السلوك المطبوع بتونس.

والبين أشعل نار الوجد في كبدي
والدمع يضرهما في القلب واعجبا
ماءً ونار وأكباد لها شعل
والقلب بينهما قد ذاب والتهبا
ضدان قد جمعا عونا على سهري
لكن عذابي بها في الحب قد عذبا
ما كنت أدريهما حتى صحبتهما
كرها وقد يكره الإنسان مَنْ صحبا
أحدهما قَاتِلِي آهٍ إذا اجتمعا
وبعض خطبهما للصب قد صعبا
سهذً وبُعْدً وأشواق تلازمني
وكلها لعذابي قد غدا سببا
أكابد الليل بالتسويد مفتكرا
ولا أبالي به إن طال أو قربا
ليلي نهار¹ ويومي كله فكر
والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا
وقد شغلت بقلبي كل مشغل
وقد مزجت دما بالدمع منسكبا

¹ في: و. س: ((نهارى)).

وكلها لعذابي في الهوى سبب
ولم أجد لوصالي بالنوى سببا
أكفكف الدمع من عيني فيغمرها
كم بين مَنْ بات مسرورا ومنتحبا
من بعد ما كان دهر الأتس يجمعنا
والسعد يسعدنا والوصل قد عذبا
ولا رقيب ولا واش بحضرتنا
واليوم بالبين حالت بيننا الرقبا
ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتتعا
واليوم أقنع إن هبت نسيم صبا
كانوا وكنا وحكم الدهر فرقنا
وكم عسى يبلغ الإنسان ما طلبا
وهكذا الدهر ما زالت عوائده
فلا تثق بزمان بان أو قربا
يدني ويبعد في أحكامه أبدا
هذا بذاك ولا عتب لمن عتبا
كم نفحة بعد قطع اليأس نافحة
تهدي لنا عاطرا من ثغره شنبا
وكم أعلل قلبي بعد فرقتهم
إن التعلل للأحباب فيه نبا

وقد تعلمت من حبي لهم خيبا
وخيل راحتنا تجري بنا خيبا
ما للمحب دواء غير وصلهم
يبيري له السقم والتبريح والوصبا
وقد تقطع قلبي بعدهم قطعا
لما نأوا وقضوا في سيرهم إربا
سار الأحبة نحو الرقمتين ضحى
وخلفوني رهين القلب مكتئبا
ساروا على البزل والحادي يجد بهم¹
والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا
هذي الأحبة قد شدوا² مطيهم
وأسرعوا بقباب الحي³ نحو قبا
ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا
ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا
ولا سلوت ولا أسلو لبعدهم
إن السلو عن المهجور قد حبا⁴

¹ في: و. س: ((يجذبهم)).

² نفسه: ((شطوا)).

³ نفسه: ((الحب)).

⁴ نفسه: ((صعبا)).

زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم
والصبر بعدهم عني لقد عزيبا
وخلفوني بغربٍ مغرمًا بهم
أشكو لهم وبهم من عبرتي عجيبا
فقلت يا حاديا والركب يسمعي
رفقا على الصب يا حاديهُم فأبى
مزجت دمعي دما من بعد رحلتهم
فأنظر ترى عجيبا للدمع مختضبا
وكم سحبت ذيولي¹ في الهوى مرحا
وكم سفحت دموعي بعدهم سحبا
لا تتكروا حال قيس في محبته
إن الهوى لم يزل للحر منتسبا
يا حادي العيس قف بالله تخبرني
بيني وبينهم عهدا ترى قريبا²
في كل عام يسير الركب مرتحلا
وقد تقيَّدتُ عن فرضي الذي وجبا
لولا الخلافة شدتني قلائدها
لم أفتنع بخيال أو بريح صبا

¹ في: و. س: ((دموعي)).
² نفسه: ((لقد قريبا)).

إلا بجد السرى والسير نحو ربي
 نجد وكاظمة أكرم بهن ربي
 لو كان لي قدرة ما كنت أتركهم
 حتى أموت بفراط الحب محتسبا
 فليس يطفى لهيب الشوق من كبدي
 إلا بما زمزم يا سعد من شربا
 مني السلام على أهل الحطيم ومن
 أم المقام وطاف البيت مرتقبا
 من مدنف¹ هائم في الغرب مسكنه
 موسى بن يوسف أفنى عمرة لعيا
 لكنني أرتجي يوم الحساب غدا
 شفاعة لشفيح جل ذا طابا
 فهو الحبيب بأقصى الشرق شوقني
 والقلب من أجله في الكرب قد نشبا²
 صلى عليه إله العرش خالقنا
 ما غنت الطير في أفنانها طربا
 ثم السلام عليه دائما أبدا
 ما أطلع الأفق من أنواره شهبا

¹ في: و. س: ((من مذنب)).
² نفسه: ((قد نسبا)).

— قصيدة أبي حمو هذه أشدها أهل السماع في ليلة
المولد النبوي الشريف بتلمسان في عام
770هـ/1368م¹.

ألاً ما لصبّ مشوق صَبَا	إذا ما تذكّر عهد الصبَا
غدا بالغواني يغني هوى	فيا ربع أين الغواني الظبَا
لقد قدّ قلبي شوقي لهم	وبين بينهم ما خبا
ومزق صبري من بعدهم	فما البيض ما السمر أو ما الظبا
ونوح حمام الحمى شاقه	وأطربه كل ما أطربا
فيا عاذلي كفّ من لومه	فلم تلق أهلاً ولا مرحبا
شجون تهيج لهيب الحشى	فوفد الجوى فودّه شيبا
فكم ذا أوارى أوارى وقدّ	تبيّن مني ما قد خبا
فصبر يقل ووجد يجد	وسهد يزيد وشوق ربا
فمن لي بالصبر من بعدهم	أبى المبر في الحب أن يصحبا
فيا سعد من مسعدي في البكا	فقال تعال بنا نندبا
ونجري دموعاً كمثل الدّما	رضى من رضى ² أو لى من لى
نعلم فيها لأهل الهوى	علوماً جرى ³ قل أن يكتبا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

² هكذا.

³ هكذا أيضاً.

فمن شاء يروي غريب الغرام	فأمر غرامي ما أغربا
لقد كنت والدَّهر لي مسعد	فأغضبني ليت ما أغضبا
فما باله اليوم مُحلِّكاً	وما زلت أعهده مذهبا
فخان وأخنى وجوراً جفى	وظهر المِجَنُّ لنا قلبا
فصرت أعاتبه إذ عا	فأسلمني بعد ما قربا
فلا درَّ درَّك يا دهر قل	أيرجع منك الذي قد نبا
فقال مجيباً ألسن الذي	على الرغم فرقت آل سبا
وأرزأتهم كلَّ ما ملكوا	وأضحت معاهدهم سبسا
تفانوا جميعاً وما جمَّعوا	فأين سبا والذي قد سبى
توالت عليهم أكف الردى	فولوا وما أن قضوا مأربا
وأنت أبا الصبر مهلاً إذا	بساحك خطب التنا طنبا
فمفتاحها الصبر إن ضيقت	فصبراً فبالصبر يرجى الحبا
فكم من جوادٍ جوادٍ كما	وكم من حسامٍ حسامٍ نبا
وأعقبه صبره بعدها	نجاحاً فيا جلَّ ما أعقبا
فبشراك موسى بنيل المنى	بفضل الإله فما أقربا
ويا نفس بشرى بما نلته	وياك إياك أن ترهبنا
وبادر إلى الله مستعجلاً	ووال الصلاة على المجتبى

— أنشدت أيضا قصيدة أبي حمو هذه؛ في حفل عقد
بمناسبة المولد النبوي الشريف في عام
766هـ/1364م¹.

يا من يجيبُ ندا المضطر في الدَّيَجِ
ويكشفُ الضرَّ عند الضيق والهوج²
ولطفُ رحمته يأتي على قنطِ
إذا القنوطُ دعا يا أزيمة انفرجي
ومن إذا حلَّ خطبٌ واعترت نوبٌ
أبدى اللطف ما لم يجز في المهج
إنِّي دَعَوْتُكَ جُنَحَ اللَّيْلِ يا أَمَلِي
دُعَاء مُبْتَهِلٍ بِالْعَفْوِ مُنْتَهَجٍ
يا كاشف الضرِّ عن أيوب حين دعا
قَدْ مَسَّنِي الضرُّ فاكشف كرب كل شجي
أنت المُنْجِي لنوح في سَفِينَتِهِ
ومُخْرِج يونس من ظِلْمَةِ اللُّجَجِ
يا مَنْ وَفَى يوسف الصديق كلَّ أذى
لما رَمَوْهُ بِجُبِّ ضَيِّقٍ حَرَجٍ

¹ وردت في بغية الرواد فقط.

² كتبت في نسخة أخرى ((والهرج)).

أَجَابَ يَعْقُوبُ لَمَّا إِن بَكَى وَشَكَا
وَجَاءَهُ مِنْهُ لُطْفٌ لَمْ يَخْلُهُ يَجِي
وَعَادَ بَعْدُ بِصِيرًا حِينَ هَبَّ لَهُ
نَسِيمُ نَشْرِ الْقَمِيصِ الطَّيِّبِ الْأَرَجِ
أُنْجَى مِنَ النَّارِ إِبْرَاهِيمَ رُمِيَ
فِيهَا وَعَادَتْ سَلَامًا دُونَ مَا وَهَجَ
يَا مَنْ تَكْفَلَ مُوسَى وَهُوَ مُنْتَبَذُ
بَالِيَمٍ فِي جَوْفِ تَابُوتٍ عَلَى لُجَجِ
وَأُمِّهِ مِنْ أَلِيمِ الشَّقْوَ وَالْهَلَاةِ
فُؤَادُهَا فَارِغٌ مِنْ شِدَّةِ الْوَهَجِ
يَا مَنْ أَعَادَ لَهَا مِنْ بَعْدِ مَا يَنْسَتُ
مُوسَى وَقُرْبَهُ فِي الْمُرْسَلِينَ نَجِي
يَا مَنْ كَفَى الْمُصْطَفَى كَيْدَ الْأُولَى كَفَرُوا
إِذْ جَاءَهُمْ بِكِتَابٍ غَيْرِ ذِي عِوَجِ
يَا مَنْ وَفَاهُ الرَّدَى فِي الْغَارِ إِذْ نَسَجَتْ
بِبَابِهِ عَنُكْبُوتُ خَيْرِ مُنْتَسَجِ
وَكُلَّمَا حَاوَلُوا مَكْرًا بِهِ انْقَلَبُوا
بِالرُّعْبِ مَا بَيْنَ مَكْبُوتٍ وَمُنْزَعَجِ
مَنْ قَدْ أَتَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَقَدْ
أَحْيَى الْقُلُوبَ بُوْحَى وَاضِحِ الْحُجَجِ

مَنْ عَطَّرَ الْكَوْنَ طَيِّباً عِنْدَ مَوْلِدِهِ
 وَأَشْرَقَ الْأَفُقُ مِنْ نُورِهِ لَهُ بِهِج
 مِنْ أَنْزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ
 أَنْوَارُهَا كَصَبَاحِ لَاحِ مُنْبَلِّجٍ
 يُبْلَى الْجَدِيدَانِ أَخْلَاقاً وَجِدَّتْهَا
 مَعَ الْجَدِيدَيْنِ فِي نُورٍ وَفِي بِهِجٍ
 فِي طَيِّهَا كُلِّ عِلْمٍ ظِلٌّ مُنْدَرِجٌ
 وَأَيُّ عِلْمٍ لَدَيْهَا غَيْرُ مُنْدَرِجٍ
 وَكَمْ لَهُ مُعْجَزَاتٍ مَا لَهَا عَدَدٌ
 جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ مِنْ فَرْدٍ وَمُزْدَوِجٍ
 عَمَتْ شِفَاعَتُهُ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 وَبِالْوَسِيلَةِ يَرْقَى أَرْفَعَ الدَّرَجِ
 مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ قَاطِبَةً
 نُورُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرِّسَالِ وَالسُّرُجِ
 يَا حَادِيَّ الْعَيْسِ عَرِّجْ نَحْوَ أَرْبَعِهِ
 بِاللَّهِ عُجِّبْ بِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ عُجِّ
 لِلَّهِ قَوْمٌ إِلَى مَغْنَاهُ قَدْ وَصَلُوا
 بِالْعِزِّ إِذْ وَصَلُوا الرُّوحَاتِ بِالدَّلَجِ
 سَارُوا فَزَارُوا وَفَرَطُوا الذَّنْبِ أَقْعَنْتَنِي
 وَقَدْ مَزَجْتُ بِدَمْعِي كُلَّ مُمْتَزَجٍ

فَالْجِسْمُ مُنْتَحِلٌ وَالذَّمْعُ مِنْهُمْ لَـ
 وَالْقَلْبُ مُشْتَعِلٌ مِنْ حَرِّهِ الْوَهْجُ
 وَقَدْ تَقَلَّدْتُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ لَهُ
 مِنَ الْخَلَافَةِ أَوْهَى مِنْ قَوَى حُجَجِي
 يَا رَبَّ عَبْدَكَ مُوسَى قَدْ دَعَاكَ عَسَى
 تُتَيْلُهُ نَفْحَةٌ مِنْ نَصْرِكَ الْأَرْجُ
 فَكُنْ نَصِيرِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً
 وَالْقَلْبُ مِنْ نَكْثِ الْأَوْزَارِ كَالسَّبَجِ
 قَدْ ضَقْتُ ذُرْعاً بِزَلَاتِي وَكُنْزَتَهَا
 فَمَا اعْذَارِي إِذَا طَلَبْتَ بِالْحُجَجِ
 وَكَمْ قَطَعْتُ مِنَ الْأَيَّامِ فِي لَعَبِ
 وَفِي ضَلَالٍ وَكَمْ ضَيَّعْتُ مِنْ حَجَجِ
 وَفِي الْبَطَالَةِ لَهْواً قَدْ مَضَى عُمْرِي
 أَوْ لِتَضْيِيعِهِ فِي اللَّهْوِ وَالْمَرْجِ
 وَكَمْ عَصَيْتُكَ جَهْلًا ثُمَّ تَسْتَرْئِي
 وَبَابُ فَضْلِكَ عَنِّي غَيْرُ مُرْتَجٍ¹
 مِنِّي الْإِسَاءَةُ وَالْإِحْسَانُ مِنْكَ بَدَا
 مِنِّي الذُّنُوبُ وَكُلُّ الْفَضْلِ مِنْكَ رُجِي

¹ أي غير مقفل.

كَمْ جَذَّتْ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مِنْكَ وَكَمْ
سَتَرْتَ بِالْفَضْلِ مِنْ أَعَالِي السَّمَجِ
إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالسَّرِّ الَّذِي ارْتَفَعَتْ
بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ لَمْ تَمَجِ
أَصْلَحْ بِفَضْلِكَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ خَلَلِ
وَاجْبُرْ بِحِلْمِكَ مَا قَدْ بَانَ مِنْ عَوَجِ
وَاجْعَلْ لَنَا مَخْرَجاً فِي إِثْرِهِ فَرَجِ
فَكَمْ نُعَامِلُ بَعْدَ الضَّيْقِ بِالْفَرَجِ
وَصَلِّ صَلَاةَ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِّ
مَا لَاحَتْ الشُّهُبُ فِي الْآفَاقِ كَالسَّرَجِ

- لا يعرف المناسبة - ولا التاريخ - الذين نظم فيهما
أبو حمو هذه القصيدة. كما أنها لم ترد إلا في
واسطة السلوك؛ وهي موجودة كاملة في مخطوط
المكتبة الوطنية الجزائرية. أما النسخة المطبوعة في
تونس؛ فقد بتر منها سبعة أبيات؛ من بدايتها.

قفا خبراني عن رؤسوم نواهج
وعن معلمات طيِّبات الأرائج

وَعَنْ أَرْضِ نَجْدٍ وَالْعَذِيبِ وَبَارِقٍ
 وَلَا تُخْبِرَانِي عَنْ ذَوَاتِ الدَّمَالِجِ
 وَجُوبَا الْفِيَا فِي وَالْمَهَامِيهِ وَاسْتَعِينْ
 عَلَى قَطْعِ أَسْبَابِ النَّوَى بِاللَّوَاعِجِ
 وَعُوجًا¹ بُوَادِي الطَّلْحِ مِنْ أَرْضِ رَامَةٍ
 وَزُقَا الْهُوَادِي عِنْدَ رَمْلَةٍ عَالِجِ
 وَإِنْ جِئْتَ نَجْدًا فَانْتَشِقْ مِنْ تُرَابِهَا
 كَعَرَفِ عَبِيرٍ أَوْ كَطَيْبِ النَّوَافِحِ
 وَإِنْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ أَرْضَ تِهَامَةٍ
 فَبُشْرَاكَ قَدْ وَافَيْتَ أَسْنَى الْمَنَاهِجِ
 فَسَرِّحْ بِطَرْفٍ فَوْقَ طَرْفٍ مُضْمَرٍ
 وَحُطَّ حَمُولَ الْبَزْلِ بَيْنَ الْغَوَاجِ
 وَقُلْ لِسَائِمِي لَسْتُ أَسْأَلُوا بِحُبِّهَا
 وَأَنْ طَرِيقَ الْغَيِّ لَسْتُ بِنَاهِجِ
 وَإِنْ بَرَقَتْ مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ بَوَارِقُ
 تُذَكِّرُنِي² عَهْدَ الْهُوَى وَالْهُوَادِجِ
 فَصَرِّحْ بِتَذْكَارِ³ الْعَقِيقِ وَحَاجِرِ
 لِأَنَّ بِهَا يُشْفَى غَلِيلُ اللَّوَاعِجِ

¹ كانت في الأصل: ((عَرَجًا))؛ فصوبها حاجيات هكذا؛ ليستقيم الوزن.
² هكذا في النسخة المطبوعة بتونس؛ بينما كتبت في المخطوط: ((تذكرنا)).
³ هكذا كتبت في النسخة المطبوعة؛ بينما كتبت في المخطوط: ((بأذكار)).

وإن جئت أرضاً بالحجاز عرفتُها
فُشُق¹ أراها بالدموع المَوارِج
وقض مناسيك الحجاز بأسرها
وزر زورة تقضي جميع الحوايج
وشد القوى من متن ضامرة الحشى
لخبر شفيع خصصته المعارِج
نبي كريم جاء بالرشد والهدى
إلى كل قلب في الضلالة مارج
جلى بالهدى والرشد كل ضلالة
ومحى بدين الله دين الخوارِج
به أنهد أيوان إكسرى وأخمدت
لفارس تلك النار ذات الوهايج
وأشرفت الأنوار من نور أحمد
فمنه استفاد الكون كل المباهج
فبدر الدجى والأنجم الزهر كلها
وشمس الضحى من نوره المتبالج
رسول أتى بالمعجزات فلم تدع
براهينها من حجة للمحاج

¹ في النسخة المطبوعة: ((فسق))؛ بالسین المهملة؛ وهو تحريف.

له آية في الغار حين استناره
 عَنْ أَعْيُنِهِم بِالْعَنَكُوتِ النَّوَاسِجِ
 وَلِلَّهِ مِنْ قَلْبٍ لَهُ غَيْرِ نَائِمٍ
 وَجَسَمٍ إِلَى السَّبْعِ السَّمَاوَاتِ عَارِجٍ
 وَمِنْ نَهْرٍ مَاءٍ قَدْ جَرَى مِنْ بَنَانِهِ
 وَبَحْرِ عَطَاءٍ بِالْأَنْدَى مَتَمَارِجٍ¹
 أَجَلَ نَبِيٍّ فِي الْخَالِيقِ شَافِعٍ
 وَلِلْجُودِ بِذَالِ وَلِلْكَرْبِ فَارِجٍ
 وَمَا الرُّسُلُ إِلَّا تَحْتَ ظِلِّ لَوَائِهِ
 وَكَلَهُمْ عَنْ جَاهِهِ غَيْرِ خَارِجٍ
 وَسَيِّئَاتُنَا لِلَّهِ حُبٌّ نَبِيُّنَا
 بِصَدَقِ قُلُوبٍ لِلْقَبُولِ مُحَاوِجٍ²
 لَقَدْ شَغَلْتَنِي عَنْ حِمَاكُمْ قَلَايِدُ
 شَغَلْتُ بِهَا عَنْ قَطْعِ تِلْكَ الْمَعَارِجِ
 سَلَامٌ كَرِيمٌ مِنْ مُحِبِّ مُتَيَّمٍ
 بِحُبِّكَ مَشْغُوفٌ بِذِكْرِكَ لَاهِجٍ
 سَلَامٌ مِنَ الْمُشْتَاقِ مُوسَى بْنُ يُوسُفَ
 مُقِيمٌ بِأَقْصَى الْغَرْبِ سَدَّتْ نَوَاهِجِ

¹ سقط هذا البيت في مخطوط الجزائر؛ بينما ورد في النسخة المطبوعة.
² كتب في المخطوط: ((مخارج))؛ بالخاء الموحدة الفوقية.

على المصطفى والآل والصُّحْبِ كلهم
والأنصار طُرّاً أوسها والخزارج

— أنشد المسمعون قصيدة أبي حمو هذه؛ في سنة
763هـ/1361م؛ خلال حفل أقيم بمشور السلطان
بتلمسان بمناسبة ليلة المولد النبوي المبارك¹

مُشَوِّقٌ تَرَيَّا بِالْغَرَامِ وَشَاخَا
مَتَى مَا جَرَى ذِكْرُ الْأَحْيَةِ صَاخَا
تُعَذِّبُهُ أَشْجَانُهُ² وَهُوَ صَابِرٌ
وَيُنْدِي اشْتِيَاقاً زَفَرَةً وَنَوَاحَا
مُحِبٌّ مُشَوِّقٌ قَدِّتَهُ يَدُ الْهَوَى
أَسِيرٌ لَنَيْكُمُ لَا يُرِيدُ سَرَاخَا
عَذَابِي صَلَاحٌ فِي رِضَاكُمُ فَلَيْتَكُمُ
رَأَيْتُمْ صُدُودِي فِي الْغَرَامِ صَلَاحَا
رَمَيْتُمْ بِأَكْبَادِي سِهَامَ نَوَاكُمُ
وَلَوَدَعْتُ قَلْبِي أَسَى وَجِرَاحَا

¹ هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

² الشَّجَنَ جمعه شُجُونٌ؛ وهو الحزن.

فَتَكْتُمُ بِالْحَاضِ مَرَضِي فَوَائِرِ¹
لَقَدْ خِلْتُهَا يَوْمَ الصُّدُودِ رِمَاحًا
تَقْطَعُ مَا بَيْنَ الْحَشَا وَبِمَقْلَتِي
دُمُوعٌ جَرَتْ فَوْقَ الْخُدُودِ سِفَاحًا
رَكِبْتُ إِلَيْكُمْ مَوْكِبَ الشُّوقِ رَائِضًا²
كَمَا قَدْ رَكِبْتُمْ لِلصُّدُودِ جِمَاحًا
مَزَحْتُمْ بِهَجْرِي يَوْمَ جَلَّتْ بِي النَّوَى³
فَعَادَ النَّوَى جِدًّا وَكَانَ مِزَاحًا
وَسَلَّتُ سَيْوفَ الْبَيْنِ⁴ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
فَلَمْ يُغْنِ عَنِّي مَا اتَّخَذْتُ سِلَاحًا
أَهْمُ بِمَغْنَاكُمْ وَأَنْدُبُ رَبْعَكُمْ
وَيَسْتَأْذِنُ قَلْبِي مَسَاءَ صَبَاحًا
أَكْافِحُ دَهْرِي بِالتَّجَلُّدِ فِيكُمْ
وَأُفْنِي زَمَانِي بِالْغَرَامِ كِفَاحًا
فَلَا تُتَكَبَّرُوا مِنِّي التُّهْدَ فِي الْهَوَى
فَلَمْ يَرَأْ أَهْلُ الْحُبِّ فِيهِ جُنَاحًا

¹ أي بماخر عينين ذابلتين لينتين.

² المهر المروض والمذل.

³ النوى: البعد.

⁴ البين: الفارقة.

لِكُلِّ مُحِبٍّ فِي التَّأْوِهِ رَاحَةً
إِذَا أَنْ مِنْ فَرَطِ الْغَرَامِ وَنَاحَا
فَكَمْ زَفَرَةٌ فِي الْقَلْبِ أَخْرَقَتْ الْحَشَا
كَنَارِ تُلَاقِي فِي الْهُبُوبِ رِيَا
أَبَحْتُمْ صُنُودِي فِي الْغَرَامِ وَلَمْ تَرَوْا
وِصَالِي فِي شَرْعِ الْغَرَامِ مُبَا
وَحَرَمْتُ وَجْدِي لَا سَلَوْتُ هَوَاكُمْ
وَلَا رُمْتُ عَنْهُ مَا حَبِيتُ بَرَا
أَجُودُ بِنَفْسِي فِي رِضَاكُمْ صَبَابَةً¹
فَهَلَّا مَنَنْتُمْ بِالْوِصَالِ سَمَاحَا
يَخُطُّ كِتَابَ الشَّوْقِ دَمْعِي بِوَجْنَتِي
وَيَرْوِي أَحَادِيثَ الْغَرَامِ صِيحَا
جُفُونِي بِمَاءِ الدَّمْعِ جَانَتْ وَأَضْلَعِي
بِنَارِ غَرَامِي لَمْ يَزَلْنَ شِيحَا
وَكَمْ قَدْ شَجَانِي بَارِقُ مِنْ جَنَابِكُمْ
يُذَكِّرُ دَهْرًا بِالْأَحْيَاءِ رَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ بَطِيئَةً
رُبُوعاً بِهَا حَلَّ الْهُدَى وَبِطَاحَا

¹ صَبَابَةٌ: بَقِيَّةُ. يُقَالُ: ((لَمْ أَدْرِكْ مِنَ الْعَيْشِ إِلَّا صَبَابَةً)).

أَسْكَنْ أَشْوَاقِي بِقُرْبٍ لِقَائِهِمْ
 وَأَنْشِدُ قَلْبًا بِالْأَبْيَاطِ¹ طَاحًا
 لَعُمْرِي لَقَدْ قَضَيْتُ عُمْرِي فِي الصَّبَا
 وَأَجْرَيْتُ خَيْلَ اللَّهِ فِيهِ مِرَاحًا
 وَوَلَّى شَبَابِي فِي التَّصَابِي وَلَاخَ لِي
 مَشِيبٌ بِهِ عَادَ الْمَسَاءُ صَبَاحًا²
 فَيَا حَادِيًا يَخْدُو الرِّكَّابَ لَطِيفَةً
 يَجُوبُ بِهَا بَحْرَ الْفَلَاقِ طِلَاحًا³
 إِذَا جِئْتَ نَجْدًا أَوْ نَشَقْتَ نَسِيمَهَا
 وَشِمْتَ عَرَارًا رَبَوَةً وَبِطَاحًا⁴
 فَصَرِّحْ بِذِكْرِي فِي الْخِيَامِ وَأَهْلِهَا
 وَنَاشِدُهُمْ شَوْقِي هُنَاكَ صَرَاخًا
 وَبَلِّغْ إِلَى خَيْرِ الْأَنْامِ تَحِيَّاتِي
 كَمَا نَمَّ زَهْرٌ فِي الرِّيَاضِ وَفَاحًا

¹ لعله تصغير لاسم موضع بين مكة ومنى يسمى الأبيطح. كما يوجد موضع قديم بوادي حنيفة؛ قرب الرياض الحالية يسمى الأبيطح.

² أي به أصبح الشعر أسوداً بعد البياض.

³ طلاحاً: متعبة من السفر.

⁴ العَرَار: نبت له رائحة طيبة. ومعنى هذا الشطر هو: وشممت رائحة العرار في بطاح نجد ورباها. وفي نبت العرار يقول أحد الشعراء: ((تَمَنَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيِّ مِنْ عَرَارٍ))

نَبِيٌّ لَهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ مُرْسَلٍ
أَنْتَ أَلْسُنُ الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَصَاحًا
سَرَى فَسَمَّا بِالْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ إِلَى
مَقَامٍ رَأَى الْأَمْلَاكَ عَنْهُ نَزَاحًا
وَشُقَّ لَهُ الْبَذْرُ الْمُئِيرُ وَقَدْ غَدَا
لَهُ لَا إِلَى الْبَذْرِ الْمُئِيرِ طِمَاحًا
إِذَا ظَمِيَ الْأَقْوَالُ يَوْمًا سَقَاهُمْ
بِمَاءٍ مَعِينٍ بِالْأَنَامِلِ سَاحًا
بِمَوْلِدِهِ صُبْحُ الْهَدَايَةِ قَدْ بَدَا
فَزَالَ بِهِ لَيْلُ الضَّلَالِ وَزَاحَا
وَأَشْرَقَتْ آفَاقُ الْبُحُورِ عِنْدَمَا
بَدَا وَجْهُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَلَا حَا
أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةُ شَيْقٍ
يُؤَمِّلُ أَمَالًا لَدَيْكَ فَسَاحَا
مُقِيمٌ بِغَرْبِ كَادَ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ
يَطِيرُ اسْتِيفًا لَوْ أُعِيرَ جَنَاحَا
وَمَا لِي سِوَى حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيلَةً
أُمْدُ بِهَا نَحْوُ الشَّفَاعَةِ رَاحَا

عَبْدُكَ¹ مُوسَى مِنْكَ يَرْجُو شَفَاعَةَ
يُنَالُ بِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ نَجَاحًا
عَلَيْكَ سَلَامٌ طَيِّبُ النَّشْرِ عَاطِرٌ
يَرُوحُ وَيَغْدُو بُكْرَةً وَرَوَاحًا

- قصيدة أبي حمو هذه أشدها المنشدون في حفل
بمناسبة المولد النبوي الكريم؛ أقيم بتلمسان سنة
771هـ/1369م.²

خليلي قد بان الحبيب الذي صدًا
وقد عاقني صبري فلم استطع ردًا
وسألت دموعي فوق خدي هواملاً
وقد صيرت فوق الخدود لها خدًا
قد اصفرَّ لوني بعد حسن شببيتي
كما أبيضَّ رأسي بعدما كان مُسودًا
وقد مرَّ عمري في عسى ولعلما³
تواصلني لُبْنَى وتهجرني سعدى

¹ عَبْدُكَ: تصغير لكلمة عبد؛ بغرض التواضع والخضوع لله.

² وردت هذه القصيدة في بغية الرواد، وواسطة السلوك (مخ + مط).

³ في: و. س (مخ + مط): ((في لعل وفي عسى)).

وتزري بي الدنيا بزور غرورها
فكم نقضت عهداً وكم نثرت عهداً
وهذا نذير الشيب لاح بمفرقي
يذكرني خوفاً وينجز لي وعداً
هويت من الدنيا زخارفها التي
بفرط هواها لا أطيق لها ردّاً
شغفت بها دهرأ ولم أنر ما مضى
وقد بذلت من بعد قربي لها بعداً
تشاغلني نفسي ودنياي والهوى¹
وتبعدني من بعد ما أظهرت ودّاً
ولست بسأل عن هواها كأنني
أشابه بشراً في محبته هنذا
لبانة دهري قد نقضت² وقد مضت
وجيش شبابي بالمشيب لقد قدّاً
ويا ليت شعري للزمان³ الذي مضى
أرجع مرّ العيش من بعده شهداً
وتغفر أوزاري وتمحي جرائمي
وحصر دنوبي لا أطيق لها عدّاً

¹ في: و. س (مخ + مط): ((تشاغلني الدنيا ونفسي والهوى)).

² نفسه: ((نقضت)).

³ نفسه: ((بالزمان)).

أنا المسرف الجاني أنا المذنب الذي
أشاهد باب العفو بالذنب قد سداً
لقد حقاً لي أبكي على فرط زلّتي
وأسكب دمعاً كالعقيق علا الخداً
إذا ذرفت عيناى زاد تفكّري
وتعظم أفكاري ووجدى لو أجدى
أعاتب نفسي في زمان بطالتي
وقلبي على كسب المآثم قد جدّاً¹
وجيش شبّابي قد مضى بسبيله
وجيش مشيبي قد تقدّم لي وفداً
وحالي بين الحاليتين كما ترى
فقطّعمني² شوقاً وتقلّقني صدّاً
إلهي هبّ لي منك عفواً ورحمة
فما زلت يا مولاي تبّلغني القصد
وعبدك موسى لم يزل فيك راجياً
ومن شيم المولى بأن يرحم العبد
توسلت بالمختار من آل هاشم
أجرني من النار التي أضرمت وقدّا

¹ في: و. س (مط): ((حدا)).

² في: و. س (مخ + مط): ((تطمعني)).

نبي أتى والكفر بادٍ ضلاله
 فأهْدَى الهُدَى للخلق يا حسن ما أهدى
 هو الرَّحمة الهادي الشَّفيْع لنا غداً¹
 هو المصطفى المختار يلهمنا الرُّشداً
 هو النّخر للهلول الشَّدِيد إذا أتى
 ومن ذا سواه للمخاف إذا اشتدَّ
 ألا يا ربِّيع الخير لا زلت رائقاً
 لقد² جنّت بالرّحمى وخولت السَّعدا
 لك الفخر³ صلّ وافخرْ على الحول كلها
 فأنت لنا عيد نوفيّ لك العهدا
 أتيت بمن لم يأت دهر بمثله⁴
 أبر بميثاق وأزكاهم مجداً
 وأعظم عند الله جاهاً وحرمة⁵
 وأندي الورى كفاً إذا سئل الرُّفداً⁶
 سلامٌ عليه طيّبُ النّشر عاطراً
 يفوق بريّاه الرّياحين والرّندا

¹ في: و. س (مخ + مط): ((المشفع في غد)).

² نفسه: ((فقد)).

³ نفسه: ((المجد)).

⁴ نفسه: ((أتيت بمن لم تأت أنثى بمثله)).

⁵ نفسه: ((ورفعة)).

⁶ نفسه: ((إذا سألوا الرفدا)).

سلام مشوق من بلاد بعيدة
يموت ويحيى من صبابته وجداً

- قال أبو حمو هذه القصيدة في سنة
773هـ/1371م؛ خلال غربته بأعماق الصحراء؛ وأثناء
إقامته المؤقتة في تيفورارين¹. حيث أشار فيها إلى
محنته، وما عاناه من شدائد؛ وإلى خيانة الأتباع
والحلفاء²

قف بالمنازل وفقه المتردد
ما بين نؤي بالطلول وموقد
وإذا مررت على الربوع مسلماً
فاسئل عن القلب الغريب المفرد
حدث بها خبر الأسى عن مدنف
بحلى الغرام موشح ومقلد

¹ تيفورارين: بالجيم المصرية؛ (Tigourârîn)؛ لذا فهي ترسم أيضاً
هكذا ((تيفورارين أو تيقورارين أو تيكورارين)). تقع في الشمال الشرقي
لواحات توات. وهي من أهم المراكز التجارية في الصحراء؛ إذ تربط
تلمسان بالسودان.
² وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

هجر السُّلُو فما يقرّ قراره
فيظل حلف تأوّه وتتهّد
نزحت منازلّه وشطّ مزاره
ونأت أحبّته بغير تعمّد
فغدا يكابد عبّرة في زفرة
للبين بين مصوّب ومصعّد
يا سائق الأظعان هل لي بعدهم
من منجد في حبّهم أو مسعد
ركبوا بدوراً في الخدور وأدلجوا
فسألت توديعاً فقلن إلى غد
فغرقت في دمعِي وما يغني البكا
ضنّوا بتوديع فكيف بموعد
لو كان لي يوم الفراق تخيراً
لفديت ظعنهم بما ملكت يدي
تركوا المنازل بلقعاً وترحلّوا
فغدت معاهدها كأن لم تعهد
سحبت عليها الرّامسات نيولها
من شمّالٍ وصبّا تروح وتغتدي
وتعوضت بالأنثى بين عراصها
من بعد ذاك الزّهر والورد الندي

ومن الأوانس بالرياض نواعماً
بالوحش يرتع في خلاء فدفيد
من بعد طول تتعم ونضارة
للعيش فيها بالحسان الخرّد
وغناء غانية سبت بجمالها
تزهي بكل مغنّج ومورّد
الشعر ليل فوق صبح جبينها
يحمي لعقرب صدغها بمجعد
ولحافظهن صوارم مسلولة
فتكّت بالباب ولما تغمد
ومباسم كالأفحوان تخالها
درأ بسمط في العقيق منضد
ولكم ظفرنا بالرّضى من دهرنا
وأنت لنا الدنيا بوقت مسعد
نجني المنى وبنو الزّمان عبيدنا
والسعد يدني ما لنا من مقصد
لا نخشى في الحيّ رقة عاذل
كلاً ولا نصغي لقول مقّد
لنا الذي شئنا بدهر طائل
من أنعم دامت برغم الحسد

حتى إذا شهر الزمان سلاحه
بيد العدا من أسمر ومهند
ورمى سهاماً للفراق كأنما
كانت لشت جميعنا بالمرصد
وأرى بروق القضب في ليل الوغى
ذهبت بأبصار العلا والسودد
والخيل تعثر في طلى صرعاها
ما بين مظجع وبين موسد
من كل أشهب كالشهاب تخاله
أو أدهم مثل الغراب الأسود
أو أحمر كالورد لون أديمه
أو أشقر متجلل بالعسجد
أو أصفر منهن كالخيري في
حسن معارفه كخط باليد
أو أبلق حسن الحجال مرند
ومدرهم ومقصد ومحدد
أو أشقر أصدى فسحة لونه
سحر وغرة ووجهه كالفرقد
وفوارس من فوقهن عوابس
بسلاحها من أبتري أو أملد

فكأنهم أسدُ الشَّرى في غابها
والسَّيف قرع زناذه لم يصلد
فيجول بين جماجمٍ وغلاصمٍ
ويقدّ كلّ مدرّعٍ ومحدّدٍ
ومقانبُ من خلفهنّ عساكرُ
طاقت بنا من كلّ شهمٍ أمجد
من عامريّ ضيغمٍ يوم الوغى
أو معقلي بهمةٍ لم يرفد
وزناتةٍ من خلفنا وأمانا
من كل ليث في الحروب مُمَجَّد
وطبولنا زارتْ كأسدٍ في الوغى
وبنودنا خفقت بنصرٍ منجد
واصطفّت الجَمعان واحتدم الوغى
لكنّها خبثت بسعي المرءِ
وجرت غشائم خاربينَ لحربنا
من كافري نعمائنا أو جُحْدٍ
حتى تفرّق جمعنا وتشتّتوا
بسعاة كلّ مضللٍ أو مفسدٍ
فالبعض منهم قد انزوى لعدونا
والبعض فرّوا كالنَّعام الشُّرد

نقضوا العهود وخلفوني في الوغى
بين الأعداء كالغريب المفرد
كفروا بأنعمنا وخانوا عهودنا
وأثوا من الخذلان ما لم يُعهد
فهنالك فرسان العدا طافت بنا
من كلّ طاغ في الوغى أو معتد
ففضيتُها صمصامة رومية
وهزرت منها منتهى ضرب اليد
أوردتها علق النجيع من العدا
نهلاً وما رويت بذاك المورد
فلكم كررت عليهم من كربة
بمشطّب ومتقف ومهند
من فوق ضامرة الحشا وحشية
جرداء حجر نعلها كالجلمد
فكأنها برق يلوح لشائم
وكأنها نجم يلوح لمهند
من خلفنا النجل الرضى متسرّبل
شهم اللقا فمثله لم يولد
فكأنه في الخيل ليث عابس
يسقي الفوارس في الوغى كأساً ردي

وَإِذَا انْتَنَى نَحْوَ الْعِدَاةِ فَكَمْ لَهُ
مِنْ فَارِسٍ فَوْقَ التُّرَابِ مُوسَّدٍ
مِنْ فَوْقٍ أَشْهَبَ ضَامِرٍ حَسَنِ الْحُلِيِّ
فَكَأَنَّهُ رِيحُ تَرَوْحٍ وَتَغْتَدِي
دَارَتِ بَنَاءُ الْأَعْدَاءِ فَصَرْنَا بَيْنَهُمْ
كَالدَّرَّةِ الْبَيْضَا بَلِيلِ أَسْوَدٍ
اِثْنَانِ كَانَ اللَّهُ ثَالِثًا بَهَا
وَلَكُمْ لَهُ عِندَ الشَّدَائِدِ مِنْ يَدٍ
وَلَكُمْ عَفَا وَلَكُمْ أُنَالُ تَقْضِيًّا
وَاللَّهُ رَبِّي نَاصِرِي وَمُؤَيِّدِي
يَا رَبِّ كَمْ أَنْتَ تَنِي فِي غَرْبَتِي
يَا رَبِّ كَمْ فَرَجْتَ كَرْبَ الْمَكْمَدِ
يَا رَبِّ فَاجْبِرْ مَا تَرَى مِنْ حَالَتِي
يَا رَبِّ وَاجْبِرْ قَلْبَ كُلِّ مُوَحِّدٍ
يَا نَفْسِ لَا تَيْئُسْ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
فَاللَّهُ يَجْمَعُ شَمْلَ كُلِّ مُبْعَدٍ
سَتَعُودُ أَيَّامُ السَّرُورِ وَطَيِّبُهَا
وَتَعُودُ عَنْ قَرَبٍ لِيَالِي الْأَسْعَدِ
يَا رَبِّ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَأَهْلِهِ
وَبِجَاهِ يَثْرِبَ وَالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

فَرَجَ بِحَقِّكَ كَرِبَتِي يَا مُؤَلِّي
وَبِحَقِّ فَضْلِكَ لَا تَخَيِّبْ مَقْصِدِي
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
مَا غَرَّتْ وَرَقَ بَغْصَنِ أُمْلَدٍ

- رثى أبو حمو والده أبا يعقوب يوسف بهذه
القصيدة؛ إثر موته في سنة 763هـ/1361م.¹
دَنَفٌ² تَذَكَّرَ حَسْرَةَ التَّوْدِيْعِ
وَهَنِيٌّ وَصَلَ بِالنَّوَى مَقْطُوعِ
وَلِمَا عَرَا³ مِنْ فَقْدِ خَيْرِ أَحْيَتِي
وَمَرَارَةِ التَّوْدِيْعِ وَالتَّشْيِيْعِ
فَبَكَيْتُ مِنْ أَسْفٍ لِذَاكَ كَمَا بَكَتِ
حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي وَرُبُوعِي
وَجَزَعْتُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَلَمْ أَكُنْ
يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْوَعَى بِجَزْوَعِ

¹ هذه هي المراثية التي أوردها يحيى بن خلدون؛ بينما انفرد صاحب
البستان بإثبات قصيدة رثاء أخرى سبق ذكرها؛ ومطلعها:
صَبَّ تَذَكُّرُ عَهْدٍ بِالْحَمَى سَلْفًا * فَظَلَّ يَسْكُبُ دَمْعًا هَاطِلًا وَكُفَا
² دَنَفٌ: المصاب بمرض ثَقِيل.
³ عَرَا: أَي أَلَمَ وَأَصَابَ.

لَمْ تَنْصِفِ الْإِيَّامَ حَرًّا فَرَاقِهِ
لَكِنَّهُ قَدْ أَنْصَفْتَهُ دُمُوعِي
عَجَبًا لِأَجْفَانِي سَخَتْ بِدُمُوعِهَا
وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ بِنَارِ ضُلُوعِي
هَٰذَا تَجَوُّدٌ وَذَا يَشْحُ بِنَارِهِ
فَعَنَيْتُ بِالْمَمْنُوحِ وَالْمَمْنُوعِ
وَالْبَيْنُ فَوْقَ سَهْمِهِ وَرَمَى بِهِ
عَمْدًا إِلَى قَلْبِ الشَّجِيِّ الْمَوْجُوعِ
أَوْ لِيُوصَلَ قَطْعَتُهُ يَدُ النَّوَى
وَلِحَسْرَةِ الْمَوْصُولِ وَالْمَقْطُوعِ
الدَّهْرُ أَفْجَعَنِي وَغَيَّرَ بَاطِنِي
حَتَّى أَضَرَّ بِقَلْبِي الْمَفْجُوعِ
فَعَدَمْتُ سُلُوكِي وَبَانَ تَصَبُّرِي
وَفَقَدْتُ خِلَاتِي فَزَادَ نُزُوعِي
وَلَكُمْ خَشِيتُ الْفَقْدَ قَبْلَ وَقُوعِهِ
وَلَكُمْ حَذَرْتُ مَرَارَةَ التَّوَدِّيعِ
يَا مُسْعِدِي أَبْصَرْتُ مَا فَعَلَ النَّوَى
بِكَرِيمِ قَوْمٍ فِي التُّرَابِ صَرِيمِ
فِي طَيِّ لَحْدٍ بِالنَّوَى فَكَأَنَّهُ
مَا كَانَ فِي عِزٍّ وَفِي تَرْفِيعِ

وَالْقَصْرُ أَمْسَى مَاجِلًا مِنْ بَعْدِهِ¹
 وَمَنَازِلُ تَزْهَى بِكُلِّ صَنِيعٍ
 وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ قَدْ زُيِّنَتْ
 مِنْ دُرِّهَا الْمَنْظُومِ بِالتَّرْصِيعِ
 وَمَقَاصِرٍ لَمْ يُبْنِ قَطُّ مِثْلُهَا
 مِنْ قَبْلِ لِلْمَأْمُونِ وَالْمَخْلُوعِ²
 وَالْأَسَدُ تَخَضَّعَ وَالْمُلُوكُ تَهَاوَبُوا
 فَلَكُمْ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعٍ
 وَلَكُمْ تَزَاخَفَتِ الْكَتَائِبُ خَافَهُ
 فَيَرُوعُ بِأَسَأَ وَهُوَ غَيْرُ مَرُوعٍ
 وَلَكُمْ عَسَاكِرَ قَادَهَا يَوْمَ الْوَعَى
 مِنْ كُلِّ صِنْدِيدٍ بِكُلِّ نَجُوعٍ
 مِنْ خَيْرِ قَوْمٍ مِنْ أَجَلِّ عَشِيرَةٍ
 وَأَعَزِّ مُنْتَسِبٍ إِلَيْهِ رَفِيعٍ
 سَيِّطُ الْحُسَيْنِ ابْنِ الْبَتُولِ وَجَدَهُ
 خَيْرُ الْأَنَامِ أَجَلُّ كُلِّ شَفِيعٍ
 مَنْ كَانَ هَذَا أَصْلُهُ أَوْ فَصْلُهُ
 فَلَهُ الْعُلَى فِي مَنْزِلِ التَّرْفِيعِ

¹ أَمْسَى مَاجِلًا: أَي أَمْسَى أَجْدَبًا

² الْمَأْمُونُ: هُوَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ الْمَأْمُونُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ. وَالْمَقْصُودُ بِـ: الْمَخْلُوعِ: هُوَ الْأَمِينُ بْنُ الرَّشِيدِ الَّذِي خَلَعَهُ أَخُوهُ الْمَأْمُونُ عَنْ سِدَّةِ الْخِلَافَةِ.

قَدْ حَازَ أَشْتَاتِ الْمَحَاسِنِ كُلَّهَا
 فَأَعْجَبَ لِحُسْنِ ثَنَائِهِ الْمَجْمُوعِ
 جُودٌ وَمَجْدٌ وَالشَّجَاعَةُ وَالنَّدَى
 وَالْجُودُ فِي طَبْعٍ لَهُ مَطْبُوعِ
 فَبِكَفِّهِ بَأْسٌ وَفِيهِ رَحْمَةٌ
 قِسْمَانِ بَيْنَ مُعَانِدٍ وَمُطِيعِ
 عَدْلٌ إِذَا يَقْضَى وَغَيْثٌ إِنْ يَجِدُ
 وَحُسَامُهُ نَارٌ لِكُلِّ قَرِيعِ
 قَدْ كَانَ كَهْفًا لِلْأَنَامِ وَعِدَّةٌ
 وَحِمَى لِمَنْ يَرْجُوهِ جِدٌّ مَتِيعِ
 حَتَّى نَنَّا مِنْهُ الْحِمَامُ فَصَابَهُ
 سَهْمُ الرَّدَى وَانْبَثَّ كُلُّ جَمِيعِ
 تَرَكَ الْجَمِيعَ وَصَارَ عَنْ أَحْبَابِهِ
 لَمْ يُغْنِ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ مَجْمُوعِ
 لَوْ كَانَ يُغَرِّضُ لِلْفِدَاءِ قَدِيدَهُ
 بِالْدُرِّ ثُمَّ بَعَسَجَدِ مَطْبُوعِ
 وَبِمَا مَلَكَتْ وَنَاطِرِي وَحَشَاشَتِي
 وَبِمُهْجَتِي وَبِقَلْبِي الْمَصْنُوعِ

قَدْ كَانَ مِنْهُ لَنَا أَبَا ذَرَّافَةَ
 كُنَّا لَهُ فِي الْبَرِّ جِدَّ مُطِيعٍ
 حَتَّى رَمَى الدَّهْرُ الْمُشْتِ بِسَهْمِهِ¹
 فِي شَمْلِنَا الْمَنْظُومِ وَالْمَجْمُوعِ
 فَاحْذِرْ زَمَانَكَ لَا يَغُرَّكَ أَنَّهُ
 فِي شَهْدِهِ يَأْتِي بِكُلِّ فَظٍّ
 وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا فَلَا تَأْمَنُ لَهَا
 فَلَكُمْ تَغُرُّ بِوَصْلِهَا الْمَقْطُوعِ
 وَلَكُمْ غَدَا فِي أَسْرَهَا مِنْ مَاجِدِ
 وَلَكُمْ لَهَا مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْرُوعِ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَيْنَ مَا قَدْ جَمَعُوا
 مِنْ كُلِّ ذُخْرِ فِي الْحَيَاةِ رَفِيعِ
 سَارُوا فَلَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ خَبْرًا وَلَمْ
 تَرِ مِنْهُمْ أَثْرًا يَلُوحُ بِرِيعِ
 وَأَبَادَهُمْ صَرْفُ الزَّمَانِ وَخَلَّفُوا
 مَا جَمَعُوا مِنْ جِنَّةٍ وَزُرُوعِ
 لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ فَعْلٍ صَالِحِ
 يَمْلَأُ الصَّحِيفَةَ أَوْ ثَنًا مَسْمُوعِ²

¹ المشتى بسهمه: المفرق بسهمه. يقال: ((أشتى بي قومي)): أي فرقوا أمري.
² يملأ وثنا: بدون همزة للضرورة.

أَوْ حُبِّ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ
 شَرَفَ الْبَرِّيَّةِ ذُرَّةَ التَّرْصِيعِ
 صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا لَاحَ الضِّيَّاءُ¹
 أَوْ حَطَّتِ الرُّكْبَانُ بِالْيَنْبُوعِ
 ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَعْصِمٍ
 بِجَمَاهِ خَيْرِ حَمَى بِخَيْرِ شَفِيعِ
 مُوسَى بْنِ يَوْسُفَ مُرْتَجِيهِ فِي غَدٍ
 لِلْفَوْزِ مِنْ هَوْلٍ هُنَاكَ فَظِيعِ

— وهذه قصيدة خمسة لأبي حمو أنشدها المسمعون
 في حفل بالبلاط الزياني بتلمسان؛ بمناسبة ذكرى
 المولد النبوي الشريف؛ وذلك في سنة
 764هـ/1362م:²

نرفت لتذكّار العقيق نموعي وازداد شوقي للحمى وولوعي
 والحب شب أواره بضلوعي من لي بشمل بالحمى مجموع³
 وبجبر قلب بالنوى مصدوع⁴

¹ الضياء: بدون همزة للضرورة.

² وردت هذه القصيدة في بغية الرواد، وفي واسطة السلوك؛ (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية).

³ في: و. س (مخ): ((بالهوى مجموع)).

⁴ نفسه: ((وبجبر قلبي بالهوى مصدوع)).

هَبَّ النَّسِيمُ مِنْ أَرْضٍ نَجْدٍ شَاقَّتَنِي والبرق أَرَقَّنِي سَنَاهُ وَرَاقَّتَنِي¹
والذنب عن وصل الأحبة عَاقَّتَنِي وجرت دموعي كالعقيق وخَانَّتَنِي
صَبْرِي وَكَانَ الشُّوقُ أَصْلَ خَضُوعِي²

حَبِي شَفِيعَ الْحَبِيبِ إِنْ أَعْرَضَا والحب بَابَ لِلشَّفَاعَةِ وَالرِّضَا
لَكُنْتَنِي ضَيِّعْتَ فِيمَا قَدْ مَضَى رَمَتْ الْمَسِيرَ فَلَمْ يُسَاعِدْنِي الْقَضَا³
وَلَكُمْ نَشَرْتُ إِلَى الرَّحِيلِ قُلُوعِي

تَضَيَّتْ عَمْرِي فِي لَعْلٍ وَفِي عَسَى والعبد يَرْغَبُ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
فِي زُورَةٍ تَمَحُّو لَهُ مَا قَدْ أَسَا⁴ والقلب مَنفَطِرٌ يَنْوِبُ لَهُ أَسَى
وَالدَّمْعُ مَنحَدِرٌ كَمَا الْيَنْبُوعُ⁵

شَأْنُ الْمَحَبِّ عَلَى زِيَادَةِ حَبِّهِ عَزَمَ الْمَسِيرَ إِلَى زِيَارَةِ حَبِّهِ
لَوْ كَانَ سَاعِدْنِي الزَّمَانُ بِقُرْبِهِ لَحَطَطْتُ رَحْلِي فِي مَقْدَسِ تَرْبِهِ
وَهَجَرْتُ خِلَانِي لَهُ وَرَبُوعِي

¹ هذا البيت في: و. س. (مخ): غير سليم؛ وجاء هكذا: ((والحب أرقني سنياه وأراقني)).

² في: و. س. (مخ): ((باب خضوعي)).

³ نفسه: ((فلم يوافقني القضاء)).

⁴ هذا الشطر سقط تماماً من مخطوط واسطة السلوك.

⁵ في: و. س. (مخ): ((والدمع منسكب كماء ينبوع)).

أخطأت مرباي وغيري ما خطا وتبعت غيبي في الذنوب وفي الخطا
والشيب وافي والشباب تفرطا يا سعد ساعدني على زمن سطا¹
هل للزمان مساعد برجوع

أستى² الثرى من مدمعي لما همى والقلب هام ونار شوقي ضرما³
شوقا لمحبوبي منامي قد حمى ولقد شغفت بحب من سكن المي
وحرمت لذاتي به⁴ وهجوعي

قد زاد شوقي للعقيق وللصفا ولأروضة الهادي النبي⁵ المصطفى
يا أهل ودي أنتم أهل الوفا وأنا للمحب لكم وقد برح الخفا
وإليكم دون الأنام رجوعي

صب سبي⁶ قلبي ودمعي قد جرى وهجرت سلواني ولذات الكرى
وبحالي من شوق نجد ما ترى شوقا⁷ لمن ركب البراق وقد سرى

¹ في: و. س. (مخ): ((زمان سطا)). وهذا يخل بالوزن.

² نفسه: ((سُقي)).

³ نفسه: ((أضرما)).

⁴ نفسه: ((معا)).

⁵ نفسه: ((الشفيع)).

⁶ نفسه: ((صبا)).

⁷ نفسه: ((وجدى)).

لمقام عز¹ في السماء رفيع

يا ليلة الاثنين نورك قد سما واتجابت الظلماء² عن أفق السما
وانهدأ إيوان لكسرى عندما خلق النبي الهاشمي معظما³
في ليلة غرا بشهر ربيع

والبدر شق بغير إفك⁴ يفترى لمحمد المختار من خير الورى
والجذع حن إليه من غير امترأ والماء نبعا من أنامله جرى
من غير ممنون ولا ممنوع

سعد الزمان⁵ بخير من وطئ الثرى في ليلة الاثنين لاح وأقمرأ
يا حاديا يطوي الفلا بيد السرى رفقا علي فما أطيق تبصرا
عمن تحكم حبه بضلوعي

بهدي رسول الله أمته اهتدت بظهوره الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أخدمت ودلائل⁶ بانته وآيات بدت

¹ في: و. س. (مخ): ((بمقام عقلي)).

² نفسه: ((الظلمات)).

³ نفسه: ((ولد النبي الهاشمي الأكرما)).

⁴ نفسه: ((شك)).

⁵ نفسه: ((الآلام)).

⁶ نفسه: ((وعجائب)).

وشفاعة¹ جاءت لكل مطيع²

يا رب كم لي بالذنوب أنوسا ولكم أطلت مع العصاة جلوسا
وسقيت من فقد الحبيب كؤوسا يا رب يرجو منك عبدك موسى
عفوا يبلغ منزل الترفيع³

أدعوك دعوة مستهام وآله أوليتني الإحسان منك فواله⁴
واسمح لعبدك عن قبيح فعاله فوسيلتي حب النبي وآله
خير البرية وهو خير شفيع

¹ في: و. س. (مخ): ((وبشارة)).

² ورد هذا المقطع بأجزائه الخمسة في: و. س. في غير هذا المكان؛ بل قبل المقطع الذي يبدأ بـ: ((والبدر شق بغير...)).

³ هذا الشطر مختل في: و. س.

⁴ هذا الشطر مضطرب في: و. س.

- هذه قصيدة رثاء؛ قالها أبو حمو بعد موت والده أبي يعقوب يوسف في سنة 763هـ/1361م:¹

صب تذكر عهداً بالحمى سلفاً
فظل يسكب دمعاً هاطلاً وكفاً
وبات من شدة الإشراف في قلق
وخامرت عقله الأفكار فانتفا
وهيجته الصبا يوماً بهم فصبا
وصاح من وهج التبريح وا أسفا
وظل يركض في ميدان موته²
ولا درى ناعي الموت قد هتفا
والدهر منقلب والعمر منصرف
والعبد مقترف للذنب زاد جفا
بانت شواهد من كل جارحة
والدمع أصفح ما قد كان قبل خفى

¹ لم ترد هذه القصيدة إلا في زهر البستان؛ بينما أورد صاحب بغية الرواد قصيدة أخرى رثا بها أبو حمو والده. مطلعها: ((دنف تذكر حسرة التوديع * وهني وصل بالنوى مقطوع)). جاء في زهر البستان؛ أن أبا حمو نظمها في رثاء والده أبي يعقوب. سيأتي ذكرها لاحقاً.
² كتبها حاجيات: ((مرته))؛ و((المرّة))؛ معناها: القتل؛ أي قتل الحبل. ومن هنا يبدو أن الأصح هو ما اعتمدناه؛ لأنه أقرب إلى ما رسم في المخطوط، وأسلم من حيث المعنى.

وكم حمامة وصل بيننا صدحت
وكم غراب النوى في غصنها وقفأ
لا تأمن الدهر والدنيا وزينتها
إن الزمان ولو يدنيك منصرفأ
وكم خليل تخلى عن أخلته
وكم خليل صفا في وده وصفا
قد كان لي في التآ أب يساعدي
فصار تحت الثرى في لحده اكتفا
مددت¹ في ظل نعماه يدي زمنأ
ونلت من رفده في دهره التحفا
رعى جناني وليد غير مضطجر
حتى ترعرعت في ظل له ورفأ
وكلما قد رأني صرت يافعة
لها وسرّ وأسدى لي منه عرفأ²
يا كابد الدهر في الثرى ليكسبني
ويبتني لي في نيل العلا عرفأ
يسره إن رأني سرت في ترف
ويستزيد على الأعداء بي صلفأ

¹ هكذا استخرجها حاجيات؛ وهو صحيح؛ على عكس ما رسم في المخطوط ((مدت)) وهذا طبعاً يخل بالوزن.

² هذا الشطر غير مستقيم. وربما حدث تأخير وتقديم في كلماته؛ مثل ((لي)).

وإن عراني ما أخشاه من ننف
 بكى ورق وأضحى يشتكي لهفا
 كأن ذاك الذي قد ذقت من وجل
 (أصابه) فهو يشكوا ذلك الدنفا¹
 لا غرو أنا رجال لا نفى بما
 للوالدين علينا بالحقوق وفا
 مولاي يوسف أفجعت البنين وقد
 أضحى وليدك موسى نادبا نحفا
 لو كنت تقدى بمال أو بنفس فتى
 فذتك نفسي ومالي كي أبي نصفنا²
 لأهملن دموعي ما حبيت وإن
 أبقاني العمر ترفت الدما ترفا
 يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلا
 يا فقد يوسف إن الصبر عنك عفا
 ما مثل يوسف مفقود لفاقد
 ولا كموسى أخو فقد إذا وصفا
 أصبت بالمعضل الأدمى بوالده
 كفقد يوسف لكن حنف ذا جحفا

¹ هذا الشطر غير مستقيم؛ وتنقصه كلمة؛ حتى يستقيم الوزن. وقد اقترح حاجيات كلمة: ((أصابه)).
² هكذا رسم.

يا قبر يوسف لا (تهجرك) ¹ هامية
من الغمام ولا زال الثرى رعباً
يا دار ² كم لك في الأحباب تقجعني
وهكذا الدهر ما أوفى ولا نصفاً
فرقتنا بعدما كنت تجمعنا
وقد نثرت نظاماً إذ وهى الصدف
أفجعتني يا زمان اليوم في خلّتي ³
ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى
صارت مساكنهم تحت التراب وقد
تمزق الدود ما قد كان مؤتلفاً
الماء والنار مجموعان في كبدي
فأعجب لضدين في قلب قد ائتلفا
نار تشب وأكباد تذوب بها
ويح المعذب بالجنسين يا لهفا
أين الذين بنوا من قبلنا ونأوا
وشيدوا أطمأ واستوطنوا عرفاً

¹ الكلمة هنا غير واضحة. غير أن حاجيات وضع كلمة زادت الشطر غموضاً؛ هي: ((لا تهدوك)). أما أنا فأفضل كلمة ((لا تهجرك)).
² لم يستسغ حاجيات كلمة ((يا دار))؛ ووضع بدلاً منها كلمة ((يا دهر))؛ لا اعتقاده أنها لا تتوافق مع سياق البيت. ولعل الذي يقصده الشاعر هنا؛ هو دار الدنيا الزائلة.
³ كتبها حاجيات: ((خلدي)).

وظنهم أن هاذي الدار باقية
ولم يظنوا بأن الدهر ساء صفا
كم من قرين مع الأحباب مبهج
أمسى فريداً وأضحى بدره كسفا
وكم غريب بعيد الدار ذي حزن
أضحى من الغرب يبكي اللام والألفا
الموت باب وكل الناس داخله
والعبد يجزى بما أجنى وما اقترفا
والله مطلع فوق العباد وقد
يؤاخذ العبد في الدنيا بما سلفا

- قال أبو حمو قصيدته هذه؛ في سنة
760هـ/1358م عند منطلقه من بلاد الزاب؛ في اتجاه
تلمسان؛ لاستعادتها من بني مرين. وبعثها إلى
والده؛ المتواجد آنذاك بفاس؛ مخبراً إياه بعزمه
على استرداد ملكهم¹.

حان الفراق فكنت منه بمنزل ودنا الرحيل فكنت فيه بأول

¹ وردت هذه القصيدة في زهر البستان فقط.

وَتَحَكَّمَ البين المشئت والنوى فينا بفنكة سيفه المتكلل
وبدا غراب البين في عرصاتها¹ يرثي عليها منزلاً في منزل
والوصل ولّى راحلاً في إثره قاضي الفراق على كثيب محجل²
خلت المعالم والطلول دوارس ونوى الرياض وكل ربع مزبل
والدار أمست بلقعاً³ من أهلها يرثي عليها كل طير أليل
والورق⁴ نائحة على أغصانها نوح الشجي المدنف المتعلل⁵
فسمعت هاتفة على أفنانها تشكو بصوت بين لم يجهل
فنشتها عن حالها فترنمت وبكت وأبكت صم صخر الجندل
قالت وأشواق النوى لعبت بها عن غير حالي يابن آدم فاسأل
أوما رأيت الروض أمسى مقفراً لعبت به ريح الصبا والشمأل
هاذي دياركم وهاذي أرضكم بالأمس قد كانوا بهذا المنزل
دعني أنوح عليهم طول المدى أبكي عليهم جدولاً في جدول

¹ البين: هو الفراق. وعرف عن العرب الميل إلى التشاؤم عند سماعهم صوت الغراب ورؤيتهم شكله؛ إذ كانوا يعتقدون أن نقيق الغراب؛ يجلب الفراق للأحبة. فعبّروا عن تشاؤمهم بعبارة: " غراب البين " أي غراب الفراق. أما العرصات: فهي الساحات الفاضية بين الدور.

² محجل هنا: مشهور.

³ أي أمست قفراً.

⁴ الورق؛ مفردا ورقاء؛ وهي أنثى الأورق؛ أي الحمامة ذات اللون الرمادي الممزوج بالسواد. وقد حرفت في زهر البستان؛ فجمعت هكذا: والأزق؛ فصحبها عبد الحميد حاجيات.

⁵ الشجي: الحزين. المدنف: ذو المرض الثقيل. المتعلل: المتضرر المعذور.

فشفيت لما أن علمت حديثها والجفن يغرق بالدموع الهطّل
ناديتها والجسم مني قد فنى وعلى فؤادي غمرة لم تتجل
لو ذقت يا ورقاء ما قد ذقته لحرقت أغصان الأراك الميل
كم حرقة كم زفرة كم لوعة يطو لديها كل صعب مذهب
وشواهدى هم هؤلاء كما تري بانوا وكل مبین لم يجهل
دمعي يسبح وزفرتي لا تنقضي والسهر أنحلني وعذل العذل
لو ذاق قاسي القلب ما قد ذقته لغدوا سكارى في محل مهمل
أو حلّ ما بي بالجال تدكدكت دكاً وأمست مثل كحل المكحل
والحال تنبئ والكواكب تشهد أني أراقبها ولم أتخيل
حالي يطول ومحنتي لا تنقضي كم لي بميدان الوغى من محفل
لابد من سوق النجوع مغرباً حتى تكلّ متونها بالأحمل
وترى الفوارس دائرات بالعدى تسقي لواردها نقيع الحنظل
وإمامها قطب الوفا بحر الندى عطالها يوم الوغى بالعيطل¹
صدامها رداحها حكامها شرادها ورادها بالفیصل²
موسى الهمام لين السراة نوي العلى من قد رقي في العز أعلى معقل
لا بد من طي³ السرى لبلادهم من فوق صهال أغرّ محجل
وأسير في إعلائه متبخرأ متوشحاً متقلداً في جحفل

¹ العيطل هنا كناية للرمح الطويل.

² الصدام الذي يضرب خصومه بجسده. الرذاح: الثابت. والحكام: المتحكم في الأمر. والشراد: الطراد. الوراد: الشجاع الجريء. الفیصل: السيف القاطع.

³ كانت في الأصل: ((لابد من سوق السرى))؛ ففضل حاجيات ما كتب أعلاه.

وقبيل عبد الواد محدقة بنا
 ولها عوال كالشهب إذا بدت
 والخيل تعثر¹ في الأعنة ضمراً
 يا نجل عامر سر بنا واطو السرى
 يا نجل عامر سر غرست النخل في
 يا نجل عامر طال قلبي إنني
 يا نجل عامر دارنا مع داركم
 وأسير من شد السرى متميلاً
 يا سر ما عندي إذا لاحت لنا
 ويعود دهر قد مضى بسبيله
 فابلغ سلامي يانسيمات الصبا
 أعني أبا يعقوب مولانا الذي
 من آل زيان الكرام نتاجه
 من نجله موسى الذي هو لم يزل
 ثم الصلاة على النبي المصطفى
 من كل ليث ضارب بالمنصل
 قد عدلت للحرب أي تعدل
 من أشقر وأدهم ومحجل
 ليلاً لعل الدهر يدني منزلي
 أوطانها تجنى كطعم السلسل
 أحمي الحمى يوم الوغى بالمنصل
 قد عمرت من بعدنا بالحنظل
 فوق الأغرّ ومقلتي لم تقفل
 يوماً على تلك الرسوم المحل
 ويعود حسن الروض بعد تذبل
 نحو الشقيق الوالد المتفصل
 نرجو رضاه وهو غاية من يلي
 ياقوتة في وسط سلك مجتل
 بين الخلائق كالسماك الأعزل
 ما دام سلطان القديم الأول

¹ حرفت فكتبت: " تعثرى "؛ فصحتها حاجيات؛ كما هو ثابت أعلاه.

— أورد صاحب زهر البستان هذه القصيدة في سياق
القصائد التي قيلت بمناسبة الاحتفال بالموالد النبوي
الشريف في عام 760هـ/1358م¹.

دمع يَنْهَلُ من المقل لقيح كان من العمل
وجوى في الصدر له حرق فالقلب لذلك في شغل
ونهيته النفس فما ازدجرت² وثناء الصبر فما حيلي³
ناس ركبوا التقوى ولقد ركبت نفسي طرق الزلل⁴
أبأذني الوقر فما سمعت والذنب تكاثر من خللي
ليلي سهر يومي فكر دمعي دُرَّرَ بُرِّي علي
نفسى ضجرت⁵ لما افتكرت هلا نظرت ما يصلح لي
أثمى كَثْرًا شَيْبِي ظَهَرًا وقد اشتهرا والأمر جلي
في قلب شجًا كيف المنجى لمن الملجا حارت حيلي⁶

¹ وردت هذه القصيدة في زهر البستان، وواسطة السلوك؛ ولم ترد في بغية الرواد. نظمها أبو حمو في وزن الخبيب (فَعْلَنَ فَعْلَنَ فَعْلَنَ فَعْلَنَ)؛ وهو أصلاً بحر المتدارك ويسمى أيضاً المحدث (فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن)؛ ويجو في فَعْلَنَ = فَعْلَنَ. وفي الأعراب: فاعلن، وفعلن. وفي الأضراب: فاعلن، وفعلن. فإذا استعمل هذه الجوازات بشكل واسع؛ سمي: خبيباً.

² في واسطة السلوك: ((فما قبلت)).

³ نفسه: ((وتولى الصبر في حيلي)).

⁴ هكذا في الواسطة (مط) وزهر البستان؛ بينما كتب في مخطوط الواسطة: ((ركبت نفسي على طرق الزلل))؛ وهذا طبعاً يخل بالوزن.

⁵ في مخطوط واسطة السلوك: ((زجرت)).

⁶ في واسطة السلوك: ((بارت حيلي)).

من ينقذني من يسعدني من يرحمني من يغفر لي
 إِلَّا مَوْلَى يَسْدِي الطُّوْلَى رَبِّي الْأَعْلَى شَافِي عَلَيَّ¹
 منشئ الرمم معطي القسم باري النسم محيي الدول
 أحياء وأعاد قبيل أبي² من عبد الواد [ذي]³ الأسل⁴
 أحياءها بي وبأعرابي وأنا الزابي والدولة لي⁵
 بي⁶ أحياءها بي أنشأها لي أعطاهما أزل الأزل
 الله قضى والحكم مضى ولنا فرضاً⁷ فدعوا عدلي
 فله الشكر وله الأمر منه النصر لا من قبلي
 حملني الملك ومن يقوى يحمل ما فيه من الثقل؟
 إِلَّا بِمَعُونَةٍ خَالَقْنَا مولى النعماء وخير ولي
 أحمي المظلوم وأنصره وأقيم الحق على عجل⁸
 نَزَلْتُ⁹ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وتركت الظالم في وجل

¹ في واسطة السلوك: ((ربي الأعلى محيي الدول)).
² في الأصل بزهر البستان: ((أبالي))؛ وهذا تحريف يخل بالوزن.
³ في الأصل بزهر البستان: ((أولي))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فوجب التصويب؛ كما
 ورد أعلاه بين حاصرتين.
⁴ هذا البيت، والبيت الذي سبقه؛ سقطا في واسطة السلوك.
⁵ سقط هذا البيت في مخطوط واسطة السلوك.
⁶ في واسطة السلوك: ((لي)).
⁷ في الأصل بزهر البستان: ((فرض)). وما ورد أعلاه أفضل.
⁸ في واسطة السلوك: ((وأقيم الحق بلا ميل)).
⁹ نفسه: ((أنزلت)).

وأنا للطفل كوالده¹ وأسوق الشيخ على مهل
والرفق كذلك من شيمي² والعدل به أعطي أملي
وأنيّل القاصد حاجته وأنيّل المال بلا ملل
وأنا للحرب كعنترة³ وأنا في السلم أخو جدل
خيلى للخير ملجمة وكذا للحرب⁴ ولا تسلي
وأنا موسى وأبو حمو أصلح للملك ويصلح لي
سيفي إن ملت بقائمه أدنى المراق إلى الأجل
وكذا⁵ كفاي إذا انبسطت من كان مقلا عاد ملي
أهل تلمسان بدولتنا كالشمس لدى برج الحمل⁶
تقنى الدنيا ومحبتهم فينا أبداً ما أن ترحل⁷
ولقد بذلوا في خدمتنا أقصى الغايات بلا مثل⁸
فلهم منا عدل وندى ولهم منا أقصى الأمل⁹
فيفضل الله ورحمته¹⁰ أرشدت إلى أهدي السبل

¹ في واسطة السلوك: ((أحنو للطفل كوالده)).

² في الأصل بزهر البستان: ((شيمتي))؛ وهذا يخل بالوزن.

³ في واسطة السلوك: ((وأنا للحرب كعنترها)).

⁴ نفسه: ((وكذا للش)).

⁵ في مخطوط واسطة السلوك: ((وكذلك))؛ وهذا يخل بالوزن.

⁶ في واسطة السلوك: ((كالشمس لدى برج الحمل)).

⁷ نفسه: ((فيما وحياتك لم تحل)). وهذا أفضل.

⁸ نفسه: ((بلا كسل)).

⁹ في واسطة السلوك المطبوع: ((ولنا منهم أقصى الأمل)).

¹⁰ نفسه: ((فيفضل الله ومثته)).

وأنا أرجو من منته¹ أن يغفر لي يوم الخجل
بعناية أحمد سيدنا وهو المبعث إلى الملل
مبدي الإسلام ومظهره علم التقوى خير الرسل

- قال أبو حمو قصيدته هذه عند فتح تلمسان
سنة 760هـ/1358م.²

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم
لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها³
وأي خطاب للصلاد الصلادم

¹ في واسطة السلوك المطبوع: ((وأنا أرجو من رحمته)).

² وردت هذه القصيدة - بالإضافة إلى بغية الرواد - في كتابي: زهر البستان
البستان وواسطة السلوك.

³ كتبت في زهر البستان وواسطة السلوك: ((لخطابها)). ويبدو أنه
الأصح. أما كلمة ((مستفهما)) فكتبت في زهر البستان: ((مستخبراً)).
والراجع هي كلمة ((مستفهما)) كما جاء في بغية الرواد وواسطة
السلوك.

وسرت على جون أقب مضمّر¹
كلمعة برق أو كلمعة صارم
وجلّت بطرف الطرف في عرصاتها
كجولة واه أو كوقفة هائم
وصفقت ما بين الطلول خوامسي
وفاضت² سواقي الدمع مثل الأرقام
وقلت لصحبي لا تملوا من السرى
ولا يزدريكم في السرى لوم لائم
سلوا ساكنات الحي³ أين تحملوا
فقد عيل صبري بين تلك المعالم
ديار عهدناها بها الشمل جامع
مع الغانجات الأنسات النواعم
وكم ليلة بات السرور مساعدي
بسعدى وسلمى والمنى أم سالم

¹ في واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية): ((وسرت على جون أقب مشحب)). الجون: يقصد به الحصان الأسود اليمومي، والأسود المشرب حمرة. والقَبُّ والقَبْبُ: دقة الخصر وضمور البطن. والخَيْلُ القَبُّ: الضَّوَامِرُ. قال هذا البيت في وصف حصانه.
² في واسطة السلوك (مخ + مط)، وزهر البستان: ((سالت)).
³ كتبت في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((وسل سامرات الحي)). أما في واسطة السلوك (مط) فكتبت كلمة ((جملات)) بدلاً من ((ساكنات)).

فعانت رسوم الدار بعد أنيسها
 هشيمًا ولا تخفى بقايا المراسم
 وكم نسجتُها من جنوب وشَمْل¹
 وكم سجتُها¹ من لغات الحمائم
 كأنني بهم والله يوم تحملوا
 وحادي النوى يحدو بذات المباسم²
 قطعت الفيافي بالقلاص³ وإنما
 تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم⁴
 وقد خلّتها بين الرياح زوابعها
 تسابق في البیدا ظالم النعائم
 مكحلة الأحداق فيها هشاشة
 مهملة الأطراف سود المباسم
 ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا⁵
 يرون المنايا بعض تلك المغانم

¹ في و . س (مخ) ((شجعتُها)) وهو خطأ.
² جاء في و . س (مط) ((يحدو هوادي الرواسم)). أما في (مخ) فكتبت:
 ((وحادي النوى يحدو بذات المباسم)).
³ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((قطعتُ الفيافي)). القلوص
 من الإبل جمعها قلانص وقلاص: الطويلة القوائم.
⁴ المتنسيم جمعه متناسيم للإبل والنعام: هو طرف الخف، وشبيهه بظفر الإنسان.
⁵ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((السرى)).

وخضت الفيافي فدفاً بعد فدفاً
لنيل¹ العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجذب والطوى²
نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال أغر محجل
مديد الخطا لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر
ومن آل إدريس الشريف ابن قاسم
رجال إذا جاش الوطيس تراهـم³
أسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة
وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي⁴
لتذكـار أطلال الربوع الطواسم

¹ في زهر البستان: ((الطلب العلى)). وف . و . س (مخ): ((القصد)).

² الطوى: الجوع.

³ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((رجال إذا هاج)).

⁴ أرض الزاب: هي المنطقة الفلاحية الواسعة المحيطة ببسكرة. وكتب في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((فاضت مدايعي))؛ بدلاً من تذرف أدمعي.

وشبكت عشري¹ فوق رأسي فلم أجد
 بها مخبراً غير الربى والمعالم
 وجاوزتها ما بين هوج هجائن²
 رفاق الهوادي³ عاليات القوائم
 وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها⁴
 بباقعة⁵ قفر قفتها عزائي
 سألت ربوع الدار فيها فلم أجد⁶
 بها معلماً يأتي إليّ بعالم
 شددت عرى للنجع من كل جانب
 وصيرتها مثل الرياح الرواكم
 تخيلاتها مثل القطا في ميسرها
 وفوق ذراها كل شهم وحازم

¹ في زهر البستان: ((شبكت شعري)). ويبدو أن ما جاء في البقية
 واسطة السلوك هو الصحيح. لأن تشبيك الأصابع العشر فوق الرأس
 مما يعبر عنه بالحيرة.

² في واسطة السلوك (مخ): ((هوج هواجن)).

³ في زهر البستان: ((العوالي)). والهوادي هنا أصح؛ ومعناها: ذوات
 الأعناق الطوال؛ وفي الحديث: ((طلعت هوادي الخيل))؛ إذا بدت أعناقها.

⁴ في واسطة السلوك (مخ): ((وجزت بلاد الريغ)). وفي زهر البستان:
 ((وجزت بأرض الريغ)). راغت: حادت ومالت. يقولون: (راغ الرجل عن
 الطريق: حاد عنه؛ مكرراً وخديعة).

⁵ في زهر البستان، واسطة السلوك (مخ): ((قفرأ قفاها)). البلقع
 والبلقعة؛ جمعها بلاقع: الأرض القفر.

⁶ في زهر البستان: ((سألت ربوع الدار يوماً فلم أجد)).

وحفت بنا الأبطال من كل جانب
 يذكرها عهد الهوى الصمام¹
 وجئت لوارجلا وجزت مصابها
 ولا مخبر² غير الصلاد الأعاجم
 ومازلت أطوي سهلها وأكامها³
 وأحطمها⁴ بين الربي والهضائم
 قطعت الحمادي⁵ والسراب غدورها
 على هيكل عبل الذراعين هاجم⁶

6

مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى⁷
 مفر إذا طالت عظام الهزائم
 إلى أن بدا لي وادي زرقون أزرقا
 وبانت عليه شاحبات الغياهم⁸

¹ سيف صمصام: قاطع لا ينثني. والسيوف صمصام.
² في و. س (مخ و مط): ((ولا مخبراً)).
³ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((وما زلت أطوي سيرها بأكامها)). أما (مط) من و. س فجاء فيه: ((سهلها بأكامها)).
⁴ في و. س (مخ + ومط)، وزهر البستان: ((وأخطبها)).
⁵ الحمادي: اصطلاح في البلدان المغرب على تسمية الصحراء الحجرية المنبسطة بالحمادي.
⁶ في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((هاضم)). يقولون: ((رجل عبل عبل الذراعين) أي ضخمهما).
⁷ وبني وثياً ووثى: فترّ وضعف وكلّ وأعيا.
⁸ في و. س (مخ): ((الغمام)). الغيهم: الظلمة. والغياهم: الظلمات.

طرقت برأسي واستفزيت¹ بالكري
 وكم من لياليتها غير نائم
 وجدت في طلب² السرايا مسربلا
 بسير حثيث أو سري متداوم
 وكم من بلاد³ قد قطعت أكامها
 وكم نسمة جادت عليها نسائي
 وبين ضلوعي زفرة مستكنة
 يصعدها فيض الدموع السواجم⁴
 وبتنا نسوق النجع في غيب الدجى
 وخرصاننا فيها كشهب عواتم
 إلى ملل ملنا وما ملت السرى
 سرايا ركاب كالقسي السواهم
 ولما بدالي منزل⁵ القوم ظاهرا
 وحيهم بين الظلال الغياهم⁶

¹ استفز بالكري: استخف بالنعاس.

² في و. س (مخ): ((في طي))، وفي و. س (مط): ((في قصد)).

³ في زهر البستان وواسطة السلوك (مخ): ((وكم من فيافي)). أما (مط): فكتبت: ((وكم من فيافي)).

⁴ وهذا البيت لم يأت هكذا في زهر البستان وواسطة السلوك (مخ)؛ بل جاء كالتالي: ((وكم زفرة تطلو من القلب صاعدا جواها وكم دمع على الخد ساجم)).

⁵ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ + مط): ((غيب القوم)). أي شدة سواد الليل أو الشيء؛ يقولون: (جمل غيب).

⁶ الغيهم وجمعها غياهم: الظلمة.

جبئنا مجابئذا وجدت جئاءها¹
 وجات كما العقبان بين الفشاعم²
 وضمر عائج على صهواتها
 كرام سماح³ بالنفوس الكرائم
 نطارءفها الخيل بالخيئل مثلها
 فكان على الأعداء كر الهزائم
 حملنا عليهم حملة مضرئة⁴
 فولوا شراداً مثل جفل النعائم
 فكم خافوا ما بين بكر وبكرة
 ومن عادة ملتفة بالهدائم⁵
 وولت⁶ سويد ثم خلت مجبرها
 وشيخ حماها في الثرى أي جائم⁷

¹ في واسطة السلوك (مخ + مط) كتيب: ((جبئنا مجابئذا وجدت جئاءنا)).
² في و. س (مخ + مط): ((السفاهم)). وفي زهر البستان: ((السقائم)).
³ في واسطة السلوك (مخ): ((كرام تجود بالنفوس))، وزهر البستان: ((يجودوا)). أما و. س (مط) فهو مثل بغية الرواد؛ والوزن فيه أسلم.
⁴ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((شدنا عليهم شدة مضرئة)).
⁵ جاء هذا البيت في واسطة السلوك (مخ + مط)، وزهر البستان على غير ترتيب بغية الرواد، وكتب هكذا:
 ((وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة وكم عادة ملتفة في الهدائم)).
⁶ في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان كتيب: ((فولت)).
⁷ جاء هذا البيت في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان مباشرة بعد البيت البيت الذي يبتدئ بـ ((شدنا عليهم))؛ وقبل البيت الذي يقول: ((وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة)). كما جاء عجز هذا البيت فيهم كالتالي: ((وشيخ حماها في لجوج المصادم)).

وطاحت على وادي ملال هشائم
 من القوم صرعى للنسور القشاعم
 فكانت إلى الطير القشيم فرائسا¹
 وكانت على الأعداء شؤم الذمائم
 وهبت رياح النصر من كل جانب
 وجاعت² إلينا مبهجات الغنائم
 ولما قضينا الأمر في الحرب منهم
 رحلنا بعون الله نحو المعالم³
 وخضراء⁴ كبود تبدت هضابها
 وهبت رياح عاطرات النواسم
 درجنا إلى درج ولاحت بشائر
 بهلك الأعادي التاعسين الأثائم
 ألا أيها الناعي البشير الذي نعى
 أمير مرين حزت أسنى المقاسم

¹ في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان ((فكانوا إلى الطير القشيم فرائسا)).
² في و. س (مخ)، وزهر البستان: ((وكانت))
³ لم يرد هذا البيت في بغية الرواد؛ بينما جاء في واسطة السلوك (مخ)،
 وزهر البستان كما سبق؛ أما واسطة السلوك (مط) فكتب: ((ولما قضيت الأمر)).
⁴ في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((وخضرا كبود)) بدون الهمزة
 وهو أسلم للوزن الشعري.

لقد قرب الله البعيد بهلكه
فبشراك بالخيرات يا خير قادم¹
ولاح² لنا فرتون فافترت المني
إلينا ابتساما للثغور البواسم³
وصارت أسود الغاب تأتي مطيعة
وعادت لنا الأيام مثل المواسم
قطعنا الثنايا والخميس مسربل
صلاصله مثل الرياح القواصم⁴
وعجنا وعرجنا على وادي يسر
وجزنا المخاض⁵ كالليوث الضراغم
وفي يسر آملنا يسرت لنا
فجددت⁶ للأوطان فيه عزائي⁷
عزائي⁷
وبتنا وبات النوم غير مساعد
واني على جد السري جد عازم

¹ هذا البيت والبيت الذي سبقه موجودان في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان؛ بينما سقطا في بغية الرواد.
² في و . س (مخ + مط): ((ولاحت)).
³ نفسه، وزهر البستان: ((بالثغور البواسم)).
⁴ في و . س (مخ): ((قطعنا الثنايا والخميس مسربل = صلاصله مثل الرياح النواسم)). وما جاء في بغية الرواد أفضل.
⁵ في و . س (مط): ((المخاض)).
⁶ نفسه: ((وجردت)).
⁷ نفسه، وفي زهر البستان جاء عجز البيت هكذا: ((فيها عزائي)).

وسرنا¹ ضحى والنصر يهفو أماننا
 برايات سعد فوقنا كالغمام
 قدما وكان الفتح يرجو قدومنا
 وكان على الأعداء شر المقادم
 وصفوا صفوفائهم صفت صفوفنا
 وسالت دموع القوم مثل العنادم²
 وجالت ليوث الحرب بين صفوفها
 وخط بها الخطي بين الحلاقم³
 ولاح شعاع الهند بين خميسها
 كبرق تبدى بين درج الأراقم⁴
 علونا على الصفصيف⁵ واشتد بيننا
 حروب تشيب الرأس قبل الفطائم

¹ في و . س (مخ): ((وصرنا ضحى)).
² جاء عجز هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا:
 ((وخط بها الخطي بين الحلاقم)).
³ أما هذا البيت فجاء في زهر البستان كما يلي:
 ولاح شعاع الهند بين صفوفها كبرق تبدى بين درج الأراقم
⁴ جاء هذا البيت في و . س (مخ):
 ((ولاح شعاع الهند بين صفوفنا = كبرق تبدى بين درج الأراقم)).
 أما في زهر البستان كتبت كلمة ((بين صفوفها)) بدلاً من ((بين خميسها)).
⁵ في و . س (مخ): ((سمونا إلى الصفصيف)). وفي (مط)، وزهر البستان
 ((سمونا إلى اصطفتيف)).

كررنا عليهم كرة بعد كرة
وقد شعلت¹ للحرب نيران جاحم
بضرب يزيل الهام عن مستقره
وطعن مضى بين الكلى والحيازم
فهذا أسير صفته يد الوغى
وهذا قتيل في عجاج المصادم
فطوبى لعبد الواد عند إزدحامهم
لقد جدلوا في الحرب كل مزاحم
وجالت خيول العامرية عندها
كأسد الشرى في موجهها المتلاطم²
وعاد شعاع الشمس في الجو أصفرا
وجال نباب السيف بين الغلاصم
جعلنا كرايسا على كل ربوة
وطالت رقاب الأسود تحت العمام
شددنا عليهم شدة بعد شدة
فولوا فرارا والتجوا للمعاصم³

¹ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((سعرت)).

² ورد هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا:

((وجالت خيول العامرية فوقها * أسود الشرى في بحرها المتلاطم)). أما في

و . س (مط)، فكتب: ((موجهها المتلاطم)) بدلا من ((بحرها المتلاطم)).

³ لا يوجد هذا البيت في زهر البستان.

وداروا بأسوار المدينة كلها
كدور سوار فوق أبيه المعاصم¹
وقد برزت من خذرها كل عادة
درجن على الأسطاح درج الحائم
وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسرا
بجمع لنا بين الكتائب سالم
فرامت مرين الصلح بعد فرارها
وقد ظلموا عمداً ولست بظالم
فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها
وتساقط الأبدان تحت الجماجم
وتخلى من الأعداء دار عهدها
مع الأنسات الناعمات الكرائم²
دخلت تلمسان التي كنت أرتجي
كما ذكروا في الجفر أهل الملاحم³

¹ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فوق حسن المعاصم)). ويبدو أن بيت بغية الرواد وضع في غير موضعة؛ خاصة إذا كان ضرب البيت ينطبق مع سابقه.
² في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((مع الفاتجات الناعمات الكرائم)).
³ جاء هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا:
((وجنت تلمسان التي كنت أرتجي = كما ذكروه في كتاب الملاحم)).
أما و . س (مط) فكتب ((كما ذكرت)) بدلاً من كلمة ((كما ذكروا)).

فخلصت من غصابها دار ملكنا
وطهرتها من كل باغ وجارم¹
لقد أسلموها عنوة دون عدة
لقد² طلقوها بالقنى والصوارم
ولم يغنهم ماشيدوا من معاقل
ولم يجدهم ما حصنوا من معاصم
ولا كثرة الجيش اللهم ولا الظبى³
ولا ما أعدوا من قسي سواهم
إذا لم يكن للمرء سعد مساعد
فما يغنه عد⁴ الجيوش الخضارم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه
وكم بات نهياً شمله دون ناظم⁵
شددنا له أزرأ وشدنا بناءه
بأوثق أركان وأقوى دعائم

¹ كتب هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان:
((وخلصت من غصابها دار ملكنا * وطهرتها من كل باغ وظالم)).
أما و . س (مط) فتتطابق مع بغية الرواد ما عدا كلمة: ((وخلصت))
المكتوبة في و . س بدلاً من ((فخلصت)).
² في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((وقد)).
³ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((الجيش اللهم مدرعاً)).
⁴ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فما تغن تعداد الجيوش)). أما في و .
س (مط) فكتب: ((فما يغني إعداد الجيوش)).
⁵ في و . س (مط): ((غير ناظم)).

فصارت¹ ملوك الأرض تأتي مطيعة
إلى بابنا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا من كل أوب ووجهة
تبايعنا طوعاً وفود العمائم
أنا الملك الزَّابِي ولست بزَابِي²
ولكنني مفني الطغاة الطماطم³
إذا ما أتت من بعد ستين سبعة⁴
نبيد مريناً كل طاغ وجارم
وإني لمفنيهم ومفني جموعهم
وهادم ما قد شيدوا من معالم

¹ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فعادت ملوك الأرض)).
² كتبت في و . س (مط) ((زَابِي)). وزَابِي الأولى: نسبة إلى منطقة الزَّابِ الممتدة حول بسكرة. أما زَابِي الثانية: فتعني الهروب والانسلاخ متخفياً؛ لذا فهو ينفي عنه ذلك. ومعنى البيت هنا هو: أنه يقول: أنا الملك المنتسب لمنطقة الزَّابِ؛ ولكنني مع هذا لست من الذين يهربون وينسلون في الخفاء.
³ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان كتبت العبارة هكذا: ((مفني الطغاة الأعظم)). أما كلمة طماطم: فمعناها العُجْم.
⁴ المقصود هنا: سنة 760 هجرية.

سطيح وشق أخبروا في جفورهم¹
بذلك حقاً تحت حسن التراجم²
فقمنا بأمر الله في نصر دينه
وفي كف³ ما قد أحدثوا من مظالم
فله منا الحمد والشكر دائماً
وصلى على المختار من آل هاشم

- ذكر يحيى بن خلدون أن قصيدة أبي حمو هذه؛
أنشدها المنشدون بألحان ورنات الإيقاع بالمشور
بتلمسان؛ في ليلة الميلاد المبارك؛ من سنة
760هـ/1358م⁴.

نام الأحبابُ ولم تَنَمَ عيني بمصارعة الندم

¹ الجفر: ضرب من التنجيم؛ سبق الحديث عنه. أما سطيح: فاسمه ربيع ابن ربيعة (توفي حوالي 572م). وهو كاهن؛ اشتهر بالتنجيم مع صنوه شيق؛ وتقول الأساطير أنه كان دوماً منسطحاً على الأرض؛ لا يستطيع القيام؛ ولا حتى الجلوس. وقد عمر مدة طويلة. أما شيق: فقد توفي (في حدود سنة 583م). ويُعد - مع سطيح - من أشهر الكهان أيام الجاهلية. وتقول الأساطير: أن شيقاً كان بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة؛ وقد عمر هو الآخر طويلاً.

² هذا البيت والبيتان السابقان غير موجودة في بغية الرواد.

³ في زهر البستان: ((وفي فك)).

⁴ لم ترد هذه القصيدة في زهر البستان؛ بينما وردت في البغية والواسطة.

والدَّمَعُ تَحَدَّرَ كَالدَّيَمِ جرح الختَّين فوا أَلَم¹
وزجرت النفس فما ازجرت² ونهيت القلب فلم يرم
ونذير الشيب لقد وافى وحلول الشيب من الهرم³
والعمر تولى منصرما آه للعمر المنصرم
وكذا الأيام لها دول⁴ وليالي الدهر كما الحلم
والدار تَغَرَّ بساكنها ويح المغرور بها النهم
يا نفس خدعت بزخرفها كم ذا تَغْتَرِبُهَا وَكَمْ⁵
يا رب ذنوبي قد عظمت فامن بالعفو لمجترم⁶
فالعفو إلهي منك وإن الذنب وحقك من شيمي
شأن المملوك الذنب وشأ ن المولى العفو عن الخدم
إني بذنوبي معترف والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمني ما لي بذنوبي من عصم
كم أجني الذنب وتمهلني⁷ وتقابل ذلك بالنعيم
ولكم أعصيك وتسترني يا ذا الأفضال وذا الكرم

¹ في و . س (مط): ((فيا ألمي)).

² نفسه: ((فما انزجرت)).

³ نفسه: ((مع الهرم)).

⁴ نفسه: ((لها عبر)).

⁵ نفسه: ((كم تغترين بها وكم)).

⁶ في و . س (مغ): ((المحترم)).

⁷ هذا الشطر في و . س (مغ) مختل الوزن؛ إذ جاء هكذا: ((كم أجني الذنب وكم تمهلني)).

ما زلت بفضلك ترحمني وتُجود عليّ على القدم¹
 والعبد ببابك ملتزم وبغير جنابك لم يحم²
 ورضى المحبوب له أرب ورضاكَ الفوز لمغتم³
 يا رب سألتك تغفر لي بشفيع الخلق من الأمم⁴
 أدعوك إلهي معذرا في ضوء الصبح وفي الظلم⁵
 حط العشاق ركائبهم بين العلمين وبالحرَم
 وصروف الدهر تعارضني عما أبغيه من القسم
 ساروا وذنوبي تقعدني⁶ فقرعت السن من الندم
 وبكيت الدمع على زلي⁷ ومزجت الدمع بفيض دم
 قلبي انفطرا والدمع جرى والركب سرى نحو الخيم⁸
 قلبي بهواه أسيرُ هواه فيا شوقاه إلى العلم⁹

¹ في و . س (مط): ((من القدم)). أما مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية فيتوافق مع ما جاء في هذه النسخة من بغية الرواد.

² سقط هذا البيت بالكامل من النسخة المطبوعة بواسطة السلوك. وثبت البيت في مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية؛ ولكن الوزن اختل حين جاء العجز هكذا:

((وبغير حماك لم يحم)).

³ في و . س (مط): ((يا رب أتلني منك رضى + فرضاك الفوز لمغتم)).

⁴ نفسه: ((بشفيع الخلق وكهفهم)).

⁵ في و . س (مغ + مط): ((في جنح الليل وفي الظلم)).

⁶ نفسه: ((ساروا والذنب قد أقعدني)).

⁷ في و . س (مغ + مط): ((على زلل)).

⁸ نفسه: ((تحو العلم)).

⁹ نفسه: ((قلب بنواه أسير هواه + فيا شوقاه إلى الخيم)).

سرت الإبل لما ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم
حملوا خلدي أفنوا جلدي تركوا جسدي رهن السقم
بنت الأنوار على الزوار¹ من الأقمار بذى سلم
زاروا الهادي بهوى باد² وحدا الحادي عزمابهم
شوا عزموا فازوا غنموا لما قدموا لحمى الحرم
طافوا بالبيت وقد وقفوا ودعوا إذ ذاك لربهم
غفرت بالبيت ذنوبهم عند الإقرار بذنوبهم
وغدا المشتاق بزفرته في مغربه ييكى بدم
جسمي بتلمسان دنف والقلب رهين الحرم
قد قيدني ما قلدني من أمر حكيم ذي حكم³
ولأنى أمر الخلق فلم أسطع سيرا من أجلهم⁴
فاقمت أصلح ما خرقت⁵ بالغرب يد الفتنة الدهم
وبعثت رسالة مكتئب لشفيح العرب مع العجم
أرجو في الحشر جوائزها من خير وفي الذمم
ندمي إن لم أعمل قدمي عوض القرطاس أو القلم⁶

¹ في و . س (مخ + مط): ((على السمار)).

² نفسه: ((بهوى بادي)).

³ في و . س (مخ + مط): ((من حكم حكيم ذي حكم)). أما ترتيب البيت فمختلف.

⁴ كتب البيت في واسطة السلوك (مخ + مط) هكذا:

((ولأنى أمير الخلق فلم = أسطع سقراً من أجلهم)). وهذا أسلم للوزن.

⁵ في و . س (مخ): ((لأصلح ما فسد)). أما (مط) فكتب فيه: ((أصلح ما أفسدت)).

⁶ في و . س (مخ + مط): ((ندمي إذ لم أعمل قدمي = عوض القرطاس مع القلم)).

بدعا عيسى وبإدريساً يرجو موسى كشف الألم
ويخصك¹ يا أسنى قمر بصلة فائقة العظم
وسلام يفصح كل شذى ما دار لسان بالكلم²

- قال أبو حمو هذه القصيدة؛ في سنة
762هـ/1360م؛ رداً على قصيدة؛ تملق بها محمد
السبيع بن موسى بن إبراهيم اليربوعي؛ كان قد
فرّ إلى تلمسان؛ بعد أن قبض أبو سالم الميرني
على والده الوزير³؛

تَذَكَّرْتُ أَطْلَالَ الرَّبُوعِ الطَّوَّاسِمِ

وما قد مَضَى من عَهْدِهَا الْمُتَقَادِمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ بُعْدِ أَنْيْسِهَا

بَصِيرٍ مُنَافٍ⁴ أَوْ بِشَوْقٍ مُلَازِمِ

¹ في و . س (مط): ((ونخصك)).

² جاء عجز هذا البيت في واسطة السلوك (مغ + مط) هكذا: ((يزري بالزهر المبتسم)).

³ هذه القصيدة موجودة في بقية الرواد، وزهر البستان، وواسطة السلوك في سياسة الملوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية). والإحاطة في أخبار غرناطة.

⁴ أي بصبر زائد وطويل.

أهيم بمغناهم¹ وتندب² ربّعهم³
وأَيّ فؤادٍ بعدهم غير هائم
تجنّ إلى سلمى ومن سكن الحمى
وما حُبّ سلمى للفتى بمُسالِم⁴
فلا تندب الأطلال واسأل عن الهوى⁵
ولا تغلّ⁶ في تذكّار تلك المعالم
فإنّ الهوى لا يستقرّ ذوي النهي
ولا يستبى إلاّ ضعيف العزائم⁷
وكلّ فتى أعطى الغرام قيادة
وبات على ضيّم فلّيس بحازم
فما فاز بالعليا سوى كلّ ماجد
مُسمّر ساق الجدّ⁸ ماضي العزائم⁸

¹ في بغية الرواد: ((أهيم بمغناهم وأندب ربعهم)).
² هذا البيت غير موجود في بغية الرواد؛ بينما هو موجود في مخطوط واسطة السلوك مخ، والإحاطة وزهر البستان.
³ في الإحاطة: ((واسأل عن الهوى)). وتندب هنا ليست مثل ((أندب)) السابقة. إذ أن معناها الآن هو: البكاء.
⁴ في الإحاطة: ((تغلّ)).
⁵ في: واسطة السلوك (مخطوط)، والإحاطة: ((الضعيف العزائم)).
⁶ في بغية الرواد: ((وما)).
⁷ نفسه: ((العز)).
⁸ هذا البيت والبيت الذي قبله سقطا في الإحاطة.

صَبُورَ عَلَى الْبُلُوى طَهُورَ مِنَ الْهَوَى
قَرِيبَ مِنَ النَّقْوَى بَعِيدَ الْمَأْثِمِ
وَمَنْ يَبْغِ دَرْكَ الْمَعْلَوَاتِ وَيَنْلِهَا¹
يُسَاوِي بِخُلُوصِ الشَّهْدِ مُرَّ الْعَاقِمِ²
وَلَاثِمَةً لِمَارِكِنَا إِلَى الْعُلَى
بِحَارِ الرَّدَى فِي أُجَّةِ الْمُتَلَاظِمِ³
تَقُولُ بِإِسْفَاقٍ أَتَسَى هَوَى الدُّمَى⁴
وَتَتَنُّرُ ذُرّاً مِنْ دُمُوعِ سَوَاجِمِ
إِلَيْكَ فَإِنَّا لَا يَرُدُّ⁵ اعْتِزَامَنَا
مَقَالَةً بِأَكْ أَوْ مَلَامَةً لِأَيِّمِ
أَلَمْ تَدْرِ⁶ أَنَّ اللَّوْمَ لُوْمٌ وَإِنَّا
لَنَجْتَنِبُ اللَّوْمَ اجْتِنَابَ الْمَحَارِمِ
فَمَا بِسِوَى الْعِلْيَاءِ هَمُّنَا جَلَالَةً
إِذَا هَامَ قَوْمٌ بِالْحَسَنِ النَّوَاعِمِ
بُرُوقُ السُّيُوفِ الْمَشْرِقِيَّاتِ وَالْقَنَآ
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ بُرُوقِ الْمَبَاسِمِ

¹ في بغية الرواد: ((وَمَنْ يَبْغِ إِذْرَاكَ الْمَعَالِي وَيَنْلِهَا)).

² في الإحاطة: ((يُسَاوِي بِخُلُوصِ الشَّهْدِ)).

³ في و ، س ، والإحاطة: ((في لجها المتلاطم)).

⁴ في و . س . ((هوى الدنيا)). ومعنى الدمى: الصورة الجميلة.

⁵ في بغية الرواد: ((لا ترد)).

⁶ نفسه: ((ألم تدري)).

وَأَحْسَنُ مِنْ قَدِّ الْفَتَاةِ وَخَدَّهَا
 قُدُودُ الْعَوَالِي أَوْ خُدُودُ الصَّوَارِمِ¹
 وَأَمَّا صَهِيلُ السَّابِحَاتِ² لَدَى الْوَعَى
 فَأَشْجَى لَدَيْنَا مِنْ غِنَاءِ الْحَمَائِمِ
 إِذَا نَحْنُ جَرَّتْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ نَعُدْ
 لِأَغْمَادِهَا إِلَّا بِحَزِّ الْغَلَاصِمِ³
 نَوَاصِلُ بَيْنَ الْهِنْدِ⁴ وَالْهَامِ وَالطُّلَى
 بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنَ الطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ
 فَيَرْغَبُ مِنَّا السَّلْمُ كُلُّ مُحَارِبٍ
 وَيَرْهَبُ مِنَّا الْحَرْبُ كُلُّ مُسَالِمٍ⁵

¹ لا يوجد هذا البيت في زهر البستان؛ بينما يوجد في هذه النسخة من بغية الرواد، وواسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية)، والإحاطة. ولكن في غير الترتيب المتبع في بغية الرواد.
² في الإحاطة: ((وأما صميل السابحات)). السابحات: الخيل السريعة.
³ هذا البيت والبيت الذي يليه سقطا من زهر البستان وبغية الرواد؛ وغير موجودين إلا في واسطة السلوك، والإحاطة؛ إلا أن عجز البيت كتبت في الإحاطة هكذا: ((إلا غِمَادُهَا الْأَبْحَرُ الْغَلَاصِمِ)). الغَلَاصِمُ مفردُها الْقَلَاصِمَةُ: اللحم بين الرأس والعنق.
⁴ هنا كلمة غير مفهومة في مخطوط واسطة السلوك. بينما كتبت في الإحاطة: ((الهند)).
⁵ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد؛ بينما يوجد في مخطوط واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة.

نَقُودُ¹ إِلَى الْهَنْجَاءِ كُلِّ مُضْمَرٍ
وَنُقَدِّمُ أَقْدَامَ الْأَسْوَدِ الضَّرَاعِمِ
وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الْجِيُوشَ إِلَى الْعِدَى
يَعُودُ إِلَى أَوْطَانِهِ بِالْغَنَائِمِ
وَنَنْصُرُ مَظْلُومًا وَنَمْنَعُ ظَالِمًا
إِذَا شَكَ² مَظْلُومٌ بِشَوَكَةِ ظَالِمٍ
وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْمُسْتَجِيرُ وَيَلْتَجِي
فِيَحْمِيهِ مِنَّا كُلُّ لَيْثٍ ضَبَارِمٍ³
أَلَمْ تَرَ إِذْ جَاءَ السُّيْنِيُّ⁴ قَاصِدًا
إِلَى بَابِنَا يَتَغَيُّ التَّمَاسِ الْمَكَارِمِ
وَذَلِكَ لَمَّا أَنْ جَفَّاهُ صِحَابُهُ
وَكُلُّ خَلِيلٍ وَدُّهُ غَيْرُ دَائِمٍ
وَأَرْزَمَ إِرْسَالًا إِلَيْنَا رِسَالَةً
بِإِخْلَاصٍ وَدٍّ⁵ وَاجِبٍ غَيْرِ وَاجِمٍ

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((نعد)).

² في بغية الرواد: ((إذا شيك)).

³ في الإحاطة: ((صبارم))؛ والصحيح هو ما جاء في زهر البستان وبغية

الرواد. يقولون: ((أسد ضبارم))؛ أي وثاب.

⁴ في الإحاطة: ((السُّيْنِيُّ)). وهذا أسلم للوزن.

⁵ في بغية الرواد: ((بود جديد)).

وَكَانَ رَأَى أَنَّ الْمَهَامَةَ بَيَّنَّنَا
 فَخَلَّى لِذَاتِ¹ الْخُفِ ذَاتَ الْمَنَاسِمِ
 وَقَالَ أَلَا هَلْ مِنْ عَلِيمٍ مُجَرَّبٍ²
 أَبُتُّ لَهُ مَا تَحْتَ طَيِّ الْحَيَازِمِ
 فَيُبَالِغُ عَنِّي³ الْآنَ خَيْرَ رِسَالَةٍ
 تَوْدِي إِلَى خَيْرِ الْمُلُوكِ الْأَعَازِمِ⁴
 عَلَى نَاقَةٍ وَجُنَاءٍ كَالْحَرْفِ ضَامِرٍ
 تَخَيَّرْتُهَا بَيْنَ الْقِلَاصِ الرَّوَاسِمِ⁵
 مِنَ اللَّاءِ يَظْلِمُنَ الظَّلِيمَ إِذَا عَدَا
 وَيُشْبِهَنَّهُ فِي جِيدِهِ⁶ وَالْقَوَائِمِ
 إِذَا أَتَلَعَتْ⁷ فَوْقَ السَّحَابِ جَرَانَهَا⁸
 تَخَيَّلْتُهَا⁹ بَعْضَ السَّحَابِ الرَّوَاسِمِ

-
- ¹ كتب في واسطة السلوك: ((بذات)).
² كتب في واسطة السلوك: ((وقال لأمرى من حليم مجرب))، وفي الإحاطة: ((الأسل من عليم مجرب)).
³ في الإحاطة: ((عنه)).
⁴ كتب عجز البيت في بغية الرواد واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة هكذا: ((تؤدي إلى خير أعلام الملوك الأعظم)).
⁵ في الإحاطة: ((تخيَّرَهَا بَيْنَ الْقِلَاصِ)).
⁶ كتب في واسطة السلوك: ((في جريه)). والأصح - كما يقتضيه الحال - هو ما كتب في بغية الرواد وزهر البستان.
⁷ في واسطة السلوك: ((أتلعت)).
⁸ في الإحاطة: ((فوق السحاب جوابها)).
⁹ كتبت في واسطة كلمة أخرى غير مفهومة. اعتقد حاجيات أنها ((تجلى))؛ مع أن ما هو ظاهر لا يفهم منه ذلك.

وإنْ هَمَلَجَتْ بالسَّيْرِ فِي وَسْطِ مَهْمَةٍ
تَرَاعَتْ¹ كَمِثْلِ الْبَرْقِ لَاحَ لِشَائِمِ
وَلَمْ يَأْمَنْ الْخَلَّانَ بَعْدَ اخْتِلَالِهِمْ
فَأَمْسَى وَفِي أَكْبَادِهِ أَي جَاحِمٍ²
فَقَالُوا³ فَحَمَلَهَا الْحَمَائِمُ قَالَ لَا
لِبُعْدِ الْمَدَى أَوْ خَوْفِ صَيِّدِ الْحَمَائِمِ
وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا فِي الْوُصُولِ بِسُرْعَةٍ
فَقَالُوا فَحَمَلَهَا أَكْفُ النَّوَاسِمِ⁴
فَقَالُوا⁵ لَنَعْمَ الْمُرْسَلَاتُ وَإِنَّمَا
لَهَا أَلْسُنٌ مَشْهُورَةٌ بِالنَّمَائِمِ
كِتَابِي⁶ زَهْرٌ فِي كَمَائِمِ طَرْسِهِ
وَبِالرَّيْحِ يُفْشَى سِرُّ زَهْرِ الْكَمَائِمِ
فَلَمْ يَلَفْ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعًا
وَكُلُّ أَمْرٍ لِلْسَّرِّ لَيْسَ بِكَائِمِ

¹ في: و. س (مخ): ((تضاعفت)). وفي: الإحاطة: ((نزلت)).
² هذا البيت - والبيتان السابقان - لا توجد في نسخة بغية الرواد؛ بينما هي موجودة في واسطة السلوك وزهر البستان والإحاطة.
³ في واسطة السلوك: ((وقالوا)).
⁴ هذا البيت والبيت الذي سبقه غير موجودين في زهر البستان؛ بينما وجدوا في بغية الرواد وواسطة السلوك والإحاطة.
⁵ في بغية الرواد: ((فقال)).
⁶ نفسه: ((وكئيب))؛ بينما سقط البيت كله في الإحاطة.

فَحِينَئِذٍ وَافَى إِلَيْنَا بِنَفْسِهِ
 فَكَانَ لَدَيْنَا خَيْرٌ وَافٍ وَقَادِمٌ
 يَجُوبُ لَنَا الْبَيْدَاءَ قَصِداً¹ وَيَبْشُرُنَا
 يُضِيءُ لَهُ الظُّلُمَاءَ مِنْ كُلِّ عَاتِمٍ
 طِلَابُ الْعُلَى يَسْرِي² مَعَ الْوَحْشِ فِي الْفَلَا
 وَيَصْحَبُ مِنْهَا كُلَّ بَاغٍ وَبَاغِمٍ³
 عَلَى سَلَهَبٍ ذِي صَهْوَتَيْنِ مَطْهَمٍ⁴
 مِنَ الْمُقْرِبَاتِ الصَّافَنَاتِ الصَّلَامِ⁵
 إِذَا شَاءَ أَيَّ الْوَحْشِ أَدْرَكَهُ بِهِ
 فَتَحْسِبُهُ فِي الْبَيْدِ بَعْضَ النَّعَائِمِ⁶
 وَيُقَدِّمُهُ طَوْعاً⁷ إِلَيْنَا رَجَاوَهُ
 حِمَايَتَنَا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ

¹ في بغية الرواد: ((طوعاً)).

² في الإحاطة: ((تسري)).

³ لم يرد هذا البيت في بغية الرواد. وورد في واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة في ترتيب آخر.

⁴ في: الإحاطة: ((ذي صوتين مُطْعَم)).

⁵ في بغية الرواد: ((المقربات الصافنات)). وفي: الإحاطة: ((من المُقْرِبات المُقْرِبات الصَّافَنَات)). وهذا البيت لم يأت في واسطة السلوك؛ والإحاطة فجاء في غير هذا الموضع.

⁶ ورد هذا البيت في واسطة السلوك مباشرة بعد البيت الذي يبدأ ب: ((طلاب العلى)).

⁷ هكذا في و. س، والإحاطة: ((طوعاً)). أما في بغية الرواد فكتب ((حباً)). ((حباً)).

أَلَا إِلَٰهَآ الْآتِي لَظِلِّ جَنَابِنَا¹
 نَزَلَتْ بِرَحْبٍ فِي عِرَاضِ الْمَكَارِمِ²
 وَقَوَّيْتُ مِنَّا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
 وَفَاضَ عَلَيْكَ الْجُودُ فَيَضُ الْعَمَائِمِ
 كَذَا دَأْبُنَا لِلْقَاصِدِينَ³ مَحَانَا
 حِمَى وَنَدَى يُنْسَى بِهِ جُودُ حَاتِمِ
 وَهَذَا جَوَابٌ عَنْ نِظَامِكَ إِنَّنَا
 بَعَثْنَا بِهِ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُتَنَازِمِ⁴
 وَنَحْنُ ذَوُو التَّجَانِ مِنْ آلِ هَاشِمِ⁵
 لَعُمْرِكَ مَا التَّجَانُ غَيْرُ الْعَمَائِمِ
 بِهِمَّتِنَا الْعُلْيَا سَمَوْنَا إِلَى الْعُلَى
 وَكَمْ دُونَ إِدْرَاكِ الْعُلَى مِنْ مَلَاحِمِ
 شَدَدْنَا لَهَا⁶ أَزْرًا وَشَدَدْنَا بِنَاءَهَا⁷
 وَكَمْ مَكْنَتْ دَهْرًا بِغَيْرِ دَعَائِمِ⁸

¹ في: الإحاطة: ((حناننا)).

² نفسه: ((في عراض المكارم)).

³ في الإحاطة: ((للقاصدين)).

⁴ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد.

⁵ جاء في واسطة السلوك، والإحاطة: ((من آل حمير)).

⁶ في و. س: ((بها))؛ وفي بغية الرواد: ((له)).

⁷ في بغية الرواد: ((بناءه)).

⁸ نفسه: ((بأوثق أركان وأقوى دعائم)).

نَظَمْنَا شَتِيتَ الْمَجْدِ¹ بَعْدَ افْتِرَاقِهِ
وَكَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلُهُ دُونَ نَاطِمِ²
وَرَضْنَا جَمَاحَ³ الْمُلْكِ بَعْدَ جِمَاحِهَا
فَذَلَّتْ وَقَدْ كَانَتْ صِعَابَ الشَّكَايِمِ⁴
مَنَاقِبُ زِيَانِيَّةٍ مُوسَوِيَّةٍ
يُذَلُّ لَهَا عِزُّ الْمُلُوكِ الْقِمَاقِمِ
يَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا كُلُّ مُتَبَغٍّ
وَيَعْجَزُ عَنْ إحصَائِهَا كُلُّ نَاطِمِ⁵
فَلِلَّهِ مِنَّا الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ دَائِمًا
وَصَلَّى عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَيَخْتَصُّكُمْ مِنَّا السَّلَامُ الْأَثِيرِ مَا
تَضَاحَكَ رَوْضٌ عَنْ⁶ بُكَاءِ الْغَمَائِمِ

¹ في بغية الرواد: ((شتيت الملك)). في: زهر البستان، والإحاطة: ((المجد)).

² جاء هذا البيت في بغية الرواد في غير هذا الترتيب.

³ في واسطة السلوك: ((رضنا عياد الملك)).

⁴ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد.

⁵ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد؛ بينما هو موجود في واسطة السلوك وزهر البستان، والإحاطة.

⁶ في واسطة السلوك: ((من)).

- لا يعرف - بالضبط - المناسبة التي قال فيها أبو
حمو قصيدته هذه؛ غير أن صاحب زهر البستان
أوردها - ضمناً - في سياق الأحداث التي وقعت في
عام 762هـ/1360م؛ كما أنها لم ترد إلا في مخطوط
واسطة السلوك، وزهر البستان؛ بينما سقطت في
النسخة المطبوعة من واسطة السلوك، وبغية
الرواد¹:

كتمت حبي فأفشى الحب كتمانِي
وزاد شوقي على قيس وغيلان
يا جيرة الحي إني قد فتنت بكم
كم تهجروني كأني مذنب جاني
ناديتهم ودموع العين هامية²
بأي ذنب رضيت اليوم هجراني
يا فتنة القلب كم لي في هواك وكم³
أطلت هجري وحالي صار ضدان
الماء والنار تشكو من فراقكم
وحبكم قد رمى قلبي بنيران

¹ قصيدة (كتمت حبي) هذه؛ وردت في واسطة السلوك (مخطوط)، وزهر البستان فقط.

² في مخطوط واسطة السلوك: ((هاملة)).

³ نفسه: ((كم لي لا أواصلكم)).

كم تهجروني وهجري لا يحل لكم
الموت أهون من بعدي وهجراني
وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا
بان الزمان بحالي أي تبيان
يا أحسن الناس ما لي عنك مصطبر
وكيف صبري وصبري اليوم أعياني
أنا جبلت الهوى حتى بليت به
وخاض بحر الهوى قلبي وجثماني
نازعت عيني على ما كان من نظر
فقالت العين إن القلب أبلاني
مهما نظرت إلى شيء أراقبه
يميل نحوكم سري وإعلاني
وهذه حالتي يا جبرتي ولكم
تضاعف الوجد من شوقي وأشجاني
إنني فتنت بذات الخال يا خولي
وعذبت بجفاها العاشق العاني¹
يا قرة العين كم نرضى تفارقتي
رفقا عليّ أما يكفيك هجراني

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((الفاني)).

رقت¹ لحالي وما قد بان من شغفي
وأعطفت بعد ذاك الهجر سلواني
قلت وحق هواك اليوم ما نظرت
عيناك عيني إلا ذبت من شاني
الحب من شيمتي² والوجد معرفتي
والصبر نافلتي يا آل زيان
إني شغفت بكم منذ زمان مضى
وأنت لم تدر ما قد كان أجفاني
رقت حشاشة قلبي من هواك³ وقد
تضاعف السقم في روحي وأبداني
أني وحق حياة الحب ما اكتحات
والله بعدكم بالنوم أجفان
ولا شغفت بحسن غير حسنكم
ولا أخذت عليكم في الهوى ثان
ولا شربت لذيق الماء من عطش
ولا رأيت خيالا منك خالان
ولا جلست على قوم أحدثهم
إلا حديثك مع قاص ومع داني

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((رثت)).

² نفسه: ((شيمي)).

³ نفسه: ((من هواكم)).

إن كنت مثلي فنعم الحب منقسماً
فأفعل بفضلك ما أرضاك أرضاني
ضممتها حين زارتي ببهجتها
وقلبها عندما أدعوه لباني
بتنا وبات نعيم الدهر يأنسنا
والعيش صاف وروض الوصل ريان
ولا رقيب ولا واث يطوف بنا
إلا الحسان بأصوات والحنان
من كل عانية رقت¹ شمائلها
تزهوا على ناعمات القضب والبان
وكل عاطرة فاحت نواسمها
من عنبر ومسكي وريحان
هم سبوني وكم أسبوا لذي حظر
من الملوك وحبى اليوم برهاني
قد كان فيما مضى قلبي وإن جهلت
مولى حباب² وكسرى نوشروان
ذلت لعزتنا أسد الوغى ولقد
تزهوا عليها وأيم الله غزلان

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((راقت)).
² المقصود هنا؛ يزيد بن عبد الملك.

كم من كريم وكم من ماجد بطل
أفنى الغرام وكم من عابر عان
يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن
فما حلى من هواهم قلب انسان
وهذه قصتي¹ يا عاذلي وكفى
إن الملام قد أعيأك وأعياني
ولا جعلت بنات الحي من شغلي
حتى شغفت بقدر البيض والزمان
وقد الفت من الهيجاء عاطلة
تشب يوم الوغى والحرب نيران
وكم سقيت كؤوس الموت صافية²
وقد حميت بحد السيف أوطاني
وكم قهرت عدوا ظالما غشما
يوم اللقاء بأطعان وأطعان³
وكم عمرت ديارا قل عامرها
وقد جعلت ديار الإنس عمران

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((صفتي)).

² جاء هذا الشطر في زهر البستان هكذا:
((وقد سقيت كؤوس الماء صافية))؛ وما أثبت أعلاه؛ ورد في واسطة السلوك؛ وهو أفضل.

³ في مخطوط واسطة السلوك قلبت؛ فكتب: ((باطعان وأطعان)).

وقد حييت¹ رسوما قل ناصرها
يوم الهياج وكل الناس عاداني
حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه
والحمد لله في سر وإعلان
بعم ولا بد لي من أخذ أرضهم
بالمرهفات وجرّد تحت عقبان
حتى أروي سيوفي من دمائهم
ري الحجيج إذا حلت بحسيان²
وتسقط الهام والألباب طائشة
والخيل عارية من غير فرسان
والبيض تضرّم نار الحرب إن خمدت
والسمر³ مثل شهاب إثر شيطان
والخيل عابسة كالت فوارسها
والأرض كاسية ثوبا كعقيان⁴
فما ترى غير أبطال مجدلة
ما بين سهل وأهضاب وكتبان

¹ في مخطوط واسطة السلوك: ((وقد أقمت)).

² في مخطوط واسطة السلوك: ((بغيلان)).

³ كتب في زهر البستان: ((والشمس))؛ وهي غير مناسبة؛ وما جاء في واسطة أفضل؛ فاعتمد هنا.

⁴ ورد هذا الشطر في مخطوط واسطة السلوك؛ هكذا: ((والأرض كاسية في لون مرجان)).

والأرض هامة والأسد داهشة
والبيض ضاحكة تزهوا على الزان¹
هناك نحمي حماها عندما اشتعلت
والأسد ما بين سكران ونشوان
ونضرم الحرب صدمات يكل لها
أسد² الحروب ويغمرور بن زيان
ونأخذ الثأر ممن قد نأى ودنا
ويرجع الشرق بعد الغرب ديواني

- هذا التخميس الذي نظمه أبو حمو؛ أشده
المسمعون في ليلة المولد النبوي المبارك؛ بتلمسان
سنة 762هـ/1360م³.

نَزَلْتُمْ مِنْ فَوَادِي مَنْزِلًا حَسَنًا وَكُلُّ مَا سَاعَنِي فِي حُبِّكُمْ حَسَنًا
فَلْتُمْ⁴ فَلَمْ أَتَّخِذْ مِنْ بَعْدِكُمْ سَكَنًا وَحُبُّكُمْ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ قَدْ سَكَنَا
وَبُعْدُكُمْ صَارَ عِنْدِي سَاعَةً بِسَنَةٍ

¹ ورد هذا الشطر في مخطوط واسطة السلوك؛ هكذا:
((والسيف ضاحكة تزهوا على البان)).

² في زهر البستان: ((ليت))؛ وكلمة ((أسد)) الواردة في مخطوط واسطة السلوك أفضل.

³ هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

⁴ فلت: تخلص. وفلتم: تخلصتم.

سِرْتُمْ وَلَمْ تَعْلَمُوا بِالْبَيِّنِ مَا فَعَلَ بِهَائِمٍ مُذْنِفٍ¹ لَا يَبْتَغِي بَدَلًا
هَلَّا رَحِمْتُمْ مُحْيَاً بِالنَّوَى قَتِيلًا مُتَيْمًا صَارَ فِي أَهْلِ الْهَوَى مَثَلًا
لَمْ يَتَّخِذْ بَعْدَكُمْ خَلَاً وَلَا وَطْناً

يَا رَاحِلِينَ وَلِلتَّوْنِيعِ مَا عَظَفُوا وَسَائِلِينَ وَبِالْمَشْتَاقِ مَا عَرَفُوا
قَفُوا قَلِيلًا عَلَى مُضْنَى الْغَرَامِ قَفُوا خَنُوا فَوَادَ الْمَعْنَى الصَّبَّ وَأَنْصَرَفُوا
لَا أُبْتَغِي مِنْكُمْ رَهْنًا وَلَا ثَمَنًا

هَجَرْتُمْ دُونَ ذَنْبٍ لَا وَلَا سَبَبٍ قَطَعْتُمْ الْقَلْبَ بِالتَّبْرِيحِ² وَالْوَصَبِ³
فَظَلْتُ³ مِنْ حَرِّ نَارِ الشَّوْقِ فِي لَهَبٍ أَعَاتَبَ الدَّهْرَ فِيمَا جَرَّ مِنْ نُوبٍ
يَا دَهْرُ أَفْجَعْتَ قَلْبِي بِالنَّوَى زَمَنًا

لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ مَا فَارَقْتَكُمْ أَبَدًا وَلَا رَضِيتُ سِوَاكُمْ فِي الْهَوَى أَحَدًا
لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ صَبْرًا وَلَا جَلْدًا⁴ وَالنَّوْمُ عَنْ مَقَلَّتِي مِنْ بُعْدِكُمْ شَرَسَا
وَقَدْ حُرِمْتُ لَذِيذَ الْعَيْشِ وَالْوَسْنَى⁵

¹ مُذْنِفٍ وَذَنْفٍ: مَرِيضٌ شَارَفَ عَلَى الْمَوْتِ.

² التَّبْرِيحُ: الشَّدَّةُ وَالْأَذَى. الْوَصَبُ جَمْعُهُ أَوْصَابٌ: الْمَرَضُ وَالْوَجَعُ الدَّائِمُ.

³ يَقْصِدُ: فَضَّلْتُ.

⁴ الْجَلْدُ وَالْجَلَادَةُ: الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ.

⁵ الْوَسْنُ: النَّوْمُ الْعَمِيقُ وَالتَّقِيلُ.

هَلَّا كَفَوْنِي أَهْيَلُ الْحُبِّ هَجَرَهُمْ¹ مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّهُمْ جَادُوا بِوَصْلِهِمْ
مَا كُنْتُ أَنْزِي الْهَوَى حَتَّى عَرَفْتَهُمْ وَعَبَّرْتِي مَا رَقَّتْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِمْ
وَالْقَلْبُ فِي حُبِّهِمْ مَازَالَ مُرْتَهَنًا

يَا حَادِيَّ طَعْنِهِمْ نَحْوَ الدِّيَارِ قَفَا نُنْشِدُ² فَوَادًا بِذَاكَ الْحَيِّ قَدْ تَلَفَا
وَسَائِلًا بِرَبِّي نَجِدُ لِمَنْ عَرَفَا قَوْلًا لَهُمْ ذَلِكَ الْمُشْتَقُّ قَدْ شَغِفَا
وَقَلْبُهُ بِالْيَمِّ الشُّوقُ قَدْ طَعِنَا

هَلْ مُخْبِرٍ كَيْفَ أَحْبَابِي وَمَا صَنَعُوا أَبِالْحِمَى خَيَّمُوا أَمْ عَنْهُ قَدْ رَجَعُوا
سَارُوا بِقَلْبِي وَشَمَلِي بِالنَّوَى صَدَعُوا يَا لَيْتَ شِعْرِي بِذَاكَ الْقَلْبِ هَلْ قَنَعُوا
أَمْ هَلْ أَبْشُرُفِي نَجِدُ بِالْفَتَا

يَا هَاجِرِينَ وَهَجَرُ الصَّبِّ مَا وَجَبَا أَبْعَثْتُمُونِي وَلَمْ أَنْزِلْ لَذَا سَبَبَا
وَصِرْتُ فِي حَيْكُمٍ مِنْ جُمْلَةِ الْغُرَبَا وَقُلْتُ يَا ذَهْرُ جُذْ لِي بِالرُّضَى فَأَبَى
يَا ذَهْرُ هَلَّا كَفَفْنَاكَ الْيَوْمَ فُرْقَتَنَا

¹ أَهْيَلُ الْحُبِّ: تصغير لأهل الحب.
² نشد نشداً الضالة: نادى وسأل عنها.

شَدُّوا عَشِيَّةَ يَوْمِ الْبَيْنِ¹ وَارْتَحَلُوا وَلَا تَرَى الصَّبَّ بَعْدَ الْبَيْنِ مَا فَعَلُوا
هَلْ بِالنَّقَا خَيْمُوا أَمْ بِالْحِمَى نَزَلُوا نَادَيْتُ مِنْ شِدَّةِ الْأَشْوَاقِ يَا رَجُلُ
رُتُّوا الرُّكَّابَ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ ظَعَنَّا

أَنَا الْمُشَوِّقُ فَهَلْ خُلُّ يُسَاعِدُنِي عَلَى الْبُكَاءِ مَدَى الْأَيَّامِ وَالزَّمَنِ
قَدْ خَانَنِي فَيَكُمُ مَنْ كَانَ يَأْلَفُنِي لَعَلَّ دَهْرِي بِكُمْ حِينًا سَيَجْمَعُنِي
فَيَشْتَفِي قَلْبُ صَبٍّ بِالْغَرَامِ فَنِي

لَقَدْ أَضَرَّ بِقَلْبِي لَاعِجُ الْوَهَجِ² وَقَدْ مَزَجْتُ بِدَمْعِي كُلَّ مُمْتَرَجٍ
وَالشَّوْقُ أَثَّرَ فِي الْأَحْشَاءِ وَالْمُهَجِ فَاللهُ يَعُوبُ بَعْدَ الْعُسْرِ بِالْفَرَجِ
فَيَسْعِدُ السَّعْدُ وَالْأَيَّامُ تَجْمَعُنَا

مَا كَانَ أَحْسَنَ عَهْدٍ بِالْحِمَى سَلَفًا وَطِيبَ عَيْشٍ حَلَالِي وَرَدُّهُ وَصَفَا
ضَيَّعْتُ عُمْرِي فِي التَّسْوِيفِ وَأَسَفَا فَهَا أَنَا بَعْدَ شَمْلٍ كَانَ مُؤْتَلَفَا
أُبْكِي الرُّبُوعَ وَطَوْرًا أَنْدُبُ الدَّمْنَا

كَمْ ذَا أَكْبَدُ حَرَّ الشَّوْقِ فِي كَبْدِي وَكُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ

¹ الشد: يقولون: (شدَّ الرِّحال)؛ كناية عن السفر. يوم البين: يوم الفراق.
² لاعج الوهج: شدة الحرقعة.

يَا نَفْسُ لَا تَرْجِ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ يُغْنِيكَ عَنْ عَدَدٍ فِي الْحَرْبِ أَوْ عُدَدٍ
فَلَمْ يَزَلْ بِجَمِيلِ اللَّطْفِ يَنْصُرُنَا

رُحْمَاكَ يَا رَبُّ إِنَّ الذَّنْبَ مِنْ قِبَلِي فَوْقَ الْعَبْدِ لِلْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ
وَهَبْ لَهُ فَرَجًا يَأْتِي عَلَى عَجَلٍ بِحَقِّ أَحْمَدَ خَيْرِ الْخَلْقِ وَالرُّسُلِ
مَنْ فِي غَدٍ مِنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ يُنْقِذُنَا

يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي يَا نَفْسُ وَاصْطَبِرِي وَلَا زِمِي الْجَدْفَ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرٍ¹
لِزُورَةِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ فَإِنْ خَتَمْتَ بِهَذَا مُنْتَهَى عُمْرِي
فَقَدْ ظَفَرْتُ بِعِزٍّ دَائِمٍ وَهَنًا

وَهَبْتَ نَفْسِي لِلْحَادِي إِذَا قَبِلَا كَيْ أَبْلُغَ الْقَلْبَ مِنْ ذَلِكَ الْجَمَى أَمَلًا
وَأُبْصِرَ الْبَيْتَ وَالْأَرْكَانَ وَالْحِلَالَ أَطُوفُ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ بِهِ رَمَلًا²
وَأُنْثَنِي لِمَنَى قَدْ حُزْتُ كُلَّ مَنَى

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزِلَةً كَمْ لِي أَرْوُمُ إِلَى مَعْنَاكَ مَرَحَلَةً³

¹ الورد هنا: خلاف الصدر؛ وهو الحضور والمجيء. أما الصدر والصدور: فهو الرجوع؛ فيقولون: (صدر عن المكان، وصدر عن الماء)؛ أي رجع عنه.

² رملا: الجري مهرولاً.

³ المَعْنَى جمعه مَعَان: المنزل.

لكنْ أُمُورَ عَدَّتَنِي عَنْكَ مُعْظِلَةٌ مِنْهَا ذُنُوبٌ غَدَتْ لِلظَّهِرِ مُثْقَلَةٌ
وَمَا مِنْ الْحُكْمِ رَبُّ الْعَرْشِ قَلَدْنَا

يَا رَبَّ عَبْدَكَ مُوسَى ذَنْبُهُ عَظُمَا فَهَبْ لَهُ الْعَفْوَ جُوداً وَالرُّضَى كَرَمَا
وَأَرْحَمْ ضَرَاعَتَهُ يَا خَيْرَ مَنْ رَحِمَا يَا رَبَّ لَا تُبْعِدِ الْجَانِي بِمَا اجْتَرَمَا
أَنْتَ الْغَنِيُّ وَمَا لِلخَلْقِ عَنْكَ غِنَى

أَهْلًا بِمَوْلِدِ خَيْرِ الْخَلْقِ حِينَ بَدَا وَفَاضَ مِنْهُ عَلَى الْآفَاقِ نُورُ هُدَى
أَرْجُو شِفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ غَدَا يَا رَبَّ صِلْ عَلَيْهِ دَائِمًا أَبَدَا
مَا صَافَحَ الرِّيحُ رَوْضًا أَوْ ثَنَى غُصْنَا

— قصيدة أبي حمو هذه؛ أشدها المنشدون في ليلة
المولد انلبوي المبارك؛ سنة 761هـ/1359م:¹

قفَا بين أرجاء القباب وبالحَيِّ
وحيِّ دياراً للحبيب بها حيِّ
وعرج على نجد وسلعٍ ورامَةٍ
وسائل فدتك النفس في الحي عن مَيِّ

¹ وهذه القصيدة توجد في بغية الرواد، ونظم الدر.

وقل ذلك المضنى المعذب بالهوى
يموت ويحيى فارث للميت الحي
وبُثَّ لهم وجدي وفرط صبابتي
وارو¹ حديثي فهو أغرب مروى
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى
وقلبي على جمر من الشوق مخمي
لبست ثياب السقم في دوحة الهوى
وقد صبغت في حبهم لون عودي
تحليت في أهل الهوى بهواهم
فمالي سوى زِيَّ المحبة من زِيَّ
وصرت إذا هبت نسيم² أرضهم
على شجرات البان أو قضب نسري
أميل بها شوقاً إليهم وأنثني
كما ينثني قد الحسام الفرندي
وأصبو إلى أرض الحبيب ومن بها
متى ما سرى عرف النسيم الحجازي
رعى الله داراً بالحمى قد عهدتها
وسقى ثراها صوب مزن سماوي

¹ في نظم الدر: ((وروى)) وهو أسلم للوزن.
² نفسه: ((نسيمات)).

وكم¹ نفحة تحيي الفؤاد بنشرها
 أتت بنسيم عاطر النشر مسكي
 أعلل نفسي بالنسيم إذا سرى
 وبالبرق إذ يسري وسجع القماري
 أحبة قلبي ما أمر فراقكم
 على قلب صب لا يطيق على شيء
 حياتي وموتي في هواكم وإنني
 أعلل نفسي فيكم بالأمانني
 لقد أقعدتني عن حماكم قلائد
 وليس عاني عن هواكم بمثني
 فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى
 فإنني في بحر من الشوق لحي
 مقيم بأقصى الغرب يشكوبه الجوى
 وحالي على حكم النوى غير مخفي
 ويا حادياً يحدو الركاب إليهم
 أنخ بربي نجد وسلم على طي
 وأخبرهم أنني أراعي ذمامهم
 فما لزامي عندهم غير مرعي؟

¹ في نظم الدر: ((نكم)).

تَنَاسَيْتَهُمْ عَهْدِي وَطُولُ مَوَدَّتِي¹
وَحُبُّكُمْ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ بِمَنْسِي
فِي أَلَيْتِ شَعْرِي وَالذَّيَارُ قَصِيَّةٌ
مَتَى تَسْمَحُ الْإِيَّامُ لِي بَلَقَا الْحَيِّ
عَسَى الدَّهْرُ يَنْدِينِي وَيَسْمَحُ بِاللِّقَا
فِي شَفِي غَلِيلِ الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ الرِّيِّ
فَقَدْ طَالَ هَجْرَانِي وَأَعْيَا تَعْلِيلِي
وَأُنَى² أَوَارِ الشُّوقِ لَاعَجِ جَمْرِي
وَقَدْ قَطَعْتَ قَلْبِي الْقَطِيعَةَ وَالنَّوَى
بِأَبْيَضِ هَنْدِيٍّ وَأَسْمَرِ خَطِيٍّ
وَتَاللهِ مَا لِي غَيْرِكُمْ إِنْ هَجَرْتُمْ
فَهَجْرَكُمْ يَرْدِي وَوَصْلَكُمْ يَحْيِي
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ أُرَاقُمْ
فَمَرَّكُمْ فِي الْحَسَنِ أَبْدَعُ مَرْنِي
وَيَا أَسْفَى يَوْمِ الْحِسَابِ وَيَا أَسَى
إِذَا كَانَ سَعْيِي عِنْدَكُمْ غَيْرَ مُرْضِي
وَمَا أَرْتَجِي إِلَّا شِفَاعَةَ خَيْرِ مَنْ
أَتَى بِالْهَدْيِ يَهْدِي لِدِينِ حَنِيفِيٍّ

¹ فِي نَظْمِ الدَّر: ((حَفِظْ مَوَدَّتِي)).

² نَفْسُهُ: ((وَأُنْكَى)).

به يرتجي العاصون غفران ذنبهم
 وما عملوا في الدهر من عمل سيّ
 فمولده¹ قد أشرق الكون كله
 وكل سنى شمس وبدر ودريّ
 سلام على من بالقيع وبالحمى
 سلام على البدر المنير التّهاميّ
 سلام من المشتاق موسى بن يوسف
 على خير خلق الله هاد ومهديّ
 سلام مشوق أثقالته ذنوبه
 وأخر عن سير وقُيّد عن سعي
 بيثرب قلبي والحجاز موتّي
 وإن عاقني عن كلّ رشد به غيّ
 بنفسي وروحي أهل طيبة إنها
 شفاء من الآثام والزيغ والبغيّ
 فياليت شعري هل أزور محمداً
 وأمنح ما أهواه من منزل الوحي
 لئن أخرتني عن زيارة أحمد
 قلّدت أمر قيتني عن السّعي

¹ في نظم الدر: ((بمولده)).

فربي أرجو أن يمن بقربه
قريباً وشوقي لا يقابل بالنأي
عليه سلام الله ما حنَّ شيق
إلى قبره يطوي الفلا أئما طي

يحيى بن محمد

ابن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون

(ابوركرياء)

ولد بتونس في عام 734هـ/1333م؛ وهو الأخ الأصغر لعبد الرحمن بن خلدون؛ الذي يكبره بسنتين. وينتمي ابن خلدون - في أصوله - إلى أسرة أندلسية من إشبيلية؛ هاجرت إلى برّ العدو المغربي في سنة 630هـ/1232م؛ فاستقر أعضاؤها في البداية بسبّة؛ ثم انتقل منهم الحسن بن خلدون إلى إفريقية في عام 640هـ/1242م؛ أين وجد ترحيباً، وتكريماً من قبل الأمير الحفصي أبي زكرياء.

نشأ يحيى بن خلدون في تونس داخل أسرة تهتم بالعلم والسلطان؛ فسار على نهج أخيه؛ في الحرص على كسب العلم، والسعي خلف المناصب الإدارية والسلطانية. وتبعه في أولى رحلاته؛ حيث كان معه في المغرب الأقصى؛ ثم ساعده على تولي منصب الكتابة لدى أمير بجاية؛ كما زكاه لدى السلطان الزياني أبي حمو الثاني؛ الذي أسند إليه كتابة السر في بلاطه. فقام بالدور على أحسن

وجه. وخلال ذلك كتب كتابه بغية الرواد في ذكر
الملوك من بني عبد الواد؛ في جزأين؛ وكان
المصدر الأول والأهم لدولتهم. أما وفاته فوُفِّعت
بتلمسان؛ جراء مؤامرة دبرها ضده يوسف بن
يخلف صاحب الشرطة؛ الذي شحن صدر ولي العهد
أبا تاشفين عليه؛ فوافقه على اغتيال يحيى؛ وتم
ذلك في ليلة من ليالي رمضان؛ حيث اغتيل أثناء
عودته من صلاة التراويح في عام 780هـ/1378م.

شعره

- وهذه القصيدة قالها يحيى بن خلدون بين يدي
أبي حمو في سنة 771هـ/1369م؛ في حفل عقد
بمناسبة المولد النبوي الشريف:

سقى الدّار بالجرعاء من جانب الشعب
سحائب دمعِي إنْ وَنَتْ أَدْمُعُ السحبِ
ورَوْض ما بين العقيق إلى النقي
وحَيّا بذِيّاك الحمى زمن القربِ
مغاني شُموس أو ربوع أهْلَة
طلَعْنَ بروضٍ أو بزغنَ على القضبِ
هنالك أعطيتُ الهوى فضل مقودي
وجدت مطيعاً بالحشاشة والقلب
فيا عجباً لآ من تنائي مزارها
ولكنّه إنْ أمكنت عيشة الصّب
وقفت بأطلال الربوع ركائبي
بلائي عرفت الدّار عافية التّرب
فيايها الحادون مهلة ساعة
عسى وطراً أقضيه في وقفة الرّكبِ

خَلِيلِيَّ مَالِي كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا
 تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهيجُ لَذِي الْحَبِّ
 دِعَا الْعَتَبِ أَوْ رَدًّا عَلَى الْقَلْبِ عَهْدَهُ
 فَإِنَّ وَفَائِي لَا يَنْهِنُهُ بِالْعَتَبِ
 وَمَا شَاقَنِي إِلَّا تَأَلَّقُ بَارِقِ
 أَطَارِ مَنْامِ الْعَيْنِ وَهَنَا مِنْ الرُّعْبِ
 يَذَكِّرُنِي عَهْدَ التَّصَابِي بِرَامَةِ
 فَأَهْفُو فَيَأْتِي زَاجِرُ الشَّيْبِ بِالْعَتَبِ
 بِنَفْسِي الْأَلَى رَاضُوا عَلَى السَّيْرِ أَنْفُسًا
 يَهْوَنُ عَلَيْهَا فِي الْمَعَالِي لَقَا الصَّعْبِ
 يَحْثُونَ مِنْ شَوْقٍ لِيُثْرِبَ رِكَبَهُمْ
 فَمَا شئتُ فِيهِ مِنْ ذَمِيلٍ وَمِنْ خَبِّ
 نَضَاوَى عَلَى عَيْسٍ نَضَاوَى كَأَنَّهُمْ
 سَهَامٌ تَرَامَى عَنْ قُوسِيٍّ مِنَ النَّجَبِ
 تُضِيءُ الدُّجَا مَهْمَا سَرَوْا عِزَمَاتُهُمْ
 وَتَطْوِي الْفَلَاطِيَّ السَّجِلَاتِ لِلْكَتَبِ
 تَمِيلُ عَلَى الْأَكْوَارِ سَكْرَى رُؤْسُهُمْ
 وَلَيْسَ سِوَى خَمْرِ الْمَحَبَّةِ مِنْ شَرَبِ
 إِذَا مَا دَنَوْا دَارًا يَزِيدُونَ نَشْوَةَ
 كَذَا بُرْجَاءُ الشَّوْقِ تَزْدَادُ بِالْقَرَبِ

فقالوا المنى في طيبة لهم الهنا
وأقعدني ما قد جنبتُ من الذنب
فمن لي بأن يدنو المزار وتلقني
وتقضى لبانات المحبّ من الحب
وأتي ضريح الهاشمي محمد
أعفرُ خدي في ثرى ذلك التّرب
بحيث الهدى والوحي تبدو ربوعه
وأثار خير الخلق في السّهل والهضب
نبيّ الرّضى نور الإله صفيّة
ومختاره المخصوص في القدسِ بالقربِ
هو المصطفى والمجتبى سيّد الورى
وأكرم مبعوث إلى العجم والعرب
أتى بالهدى يمحو الضّلال نهاره
فأشرق صباحاً لا يميل إلى غرب
به بشر الكهان قبل ولاده
وعندهم ألفوه في محكم الكتب
له أنهدّ ليوان وغازت بحيرة
ورُدّت شياطين عن السّمع بالشّهب
من المسجد الأقصى سما ليلة السرى
يصاحبه جبريل حتّى إلى الحجب

دنا فتدلى قاب قوسين رفعة
لدى حضرة التقديس تؤذن بالقرب
وحلّ بها عن عالم الكون مفرداً
وهل بعد هذا من دليل على الحبّ
وأرسله للعلمين بأسرهم
وأيده بالمعجزات وبالرُّعب
ففي البدر والشمس المنيرة آية
وفي الجذع والحصباء والطّبي والضّب
ومن كفّه أروى الجيوش على ظمأ
وأشبع من نزرٍ ألوفاً على سغب
ونادى فجاءت أيكّة لندائه
تجرّ من الأغصان ذيلاً على التّرب
بدعوته أغنى من الفقر عافياً
وأبرأ من بعد العمى ليس بالطّيب
بشيراً نذيراً عاقباً حاشراً أتى
رعوفاً رحيماً بالعباد عن الرّب
إبان قضايا الأمر في كلّ ملة
فهذي بإيجاب وهاتيك بالسّلب
به ختم الله الرسالة للورى
وشفعه فيهم لدى الموقف الصّعب

إِذَا أَلْتَجَّ هَوْلَ الْحَشْرِ أَوْ جَلَّ خُطْبَهُ
 فَأَحْمَدُ يَنْجِي الْخَلْقَ مِنْ ذَلِكَ الْخُطْبِ
 أَجِبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةَ مَرْتَجٍ
 شَفَاعَتِكَ الْعَظْمَى تَجِيرُ مِنَ الذَّنْبِ
 يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي الْبَطَالَةِ جَامِحاً
 يَسِرُّ مِنَ الْإِيَّامِ بِاللَّهِوِ وَاللَّعِبِ
 وَقَدْ آدَنِي حَمْلَ الْخَطَايَا وَإِنِّي
 بِجَاهِكَ أَرْجُو الصَّفْحَ عَنْ ذَاكَ مِنْ رَبِّي
 عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ
 وَرَحْمَتُهُ مَا أَنْهَلَ مُزْنَ مِنَ السَّحَابِ
 وَعَامِلٍ بِالرِّضْوَانِ قَوْمَكَ إِنَّهُمْ
 هُمُ النَّاسُ مِنْ آلِ كِرَامٍ وَمِنْ صَحْبِ
 وَأَيْدٍ مَنْ أَحْيَا لَنَا سُنَّةَ الْهَدَى
 خَلِيفَتُهُ حَامِي الدِّينِ بِالْعَضْبِ
 شَرِيفِ مَلُوكِ الْأَرْضِ فِرْعَاً وَمَحْتَدَاً
 وَأَكْمَلَهُمْ فِي الْجِنْسِ وَالْفَصْلِ وَالْكَسْبِ
 هُوَ الْقُطْبُ وَالْأَمْلَاكُ شَهَبُ سَمَائِهِ
 وَهَلْ دَارَتْ الشَّهْبَانُ إِلَّا عَلَى الْقُطْبِ
 كَرِيمِ السَّجَايَا أَرِيحِي سَمِيدِ
 طَلِيقُ مُحْيَا الْوَجْهِ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ

وما في سوى كسب المحامد رأيه
وذاك لعمرى أشرف الرأى والكسب
له أثر في الحلم والعلم ظاهر
وفي الرأى والإقدام يسفر عن ندب
فمن ذا كموسى أو يضاهي جلاله
وهيهات للشمس المنيرة من ترب
خلال كما شاء الكمال حميدة
تضاهي نجوم الأفق في العدّ أو تربى
وخلق كما قد شاءه الحسن باهر
يُعْظَمُ الرأى على البعد والقرب
وهمة ذي مجد كريم نجاره
سمت بك يا مولاي عن مرقب الشهب
فيمناك وهي المزن سيفك جاحم
ولا عجب أن لاح برق من السحب
فإن تأتته تأت الذي ليس بعده
لذي أمل مرمى بشرق ولا غرب
ففي بابه تلقى الأسود خوادراً
على الجرد من عجم البرية والعرب
وفيه ترى آثار حكمة ربنا
من الأمر والنهي المطاعين عن حب

تَراحِمُ تَيجانِ الكِماءِ بِيابِه
كما اَزْدَحِمُ الصَّادونَ بِالمُوردِ العَذبِ
إِذا حَطَّ عافَ رِحلَه بِفنائِه
يلاقِي الَّذي يَهوَاهُ بِالمنزلِ الرَّحَبِ
فما الدِّينَ والدُّنيا سِوى ما رَأَيْتَه
بِبابِكَ لا ما دَوَّنَ النَّاسُ في الكُتُبِ
هَنيئاً أُميرَ المُسلمينَ بِأنْ حوَّتْ
مِعالِيكَ كُلَّ الفِخْرِ بِالطَّبْعِ وَالكَسْبِ
وَدونَكَ مِن نَسْلِ القَريضِ كَريمَةٍ
تَزِفُ بِمِغْناءِ العَليِّ عَنِ الشَّهَبِ
أَتَتُكَ كَما شاءَ الكِمالُ كَريمَةٍ
بِديعَةٍ نَظَمَ مِن عَروضٍ وَمِن ضَربِ
وَقَفَتْ بِها بَينَ السَّماطِينِ مَنشَدا
لَدى مَلِكِ الدُّنيا فَفَقَّتْ بِها صَحبِي
وَبانَ بِها فَضلي عَلى كُلِّ شاعِرِ
فَليسَ لَها فيما يَقولونَ مِن تَربِ
بَقِيَتْ لَنَيلِ المَجدِ والعِزِّ والعَلا
تَغِيظُ الأَعادِي إِذ تَسرُّ ذَوي القَربِ

ولا زلت والأقدار تجري بما تشا
وأنت قرير العين بالآل والحزب

- قال يحيى هذه القصيدة؛ بين يدي أبي حمو
موسى الثاني في سنة 764هـ/1362م؛ حين جاءه
موفداً من قبل أميره أبي عبد الله محمد بن أبي
زكرياء بن يحيى الحفصي:

يا بدر تم بالأوج قد ظهرا	فضاء بالخافقين واشتهرا
ويا مليكاً له العلى خلق	ففي العلى ما نهى وما أمرا
ويا إماماً له الورى خول	يعتق إن شاء أو يشا حصرا
ما الفخر ألا الذي أوتيت به	بأساً وحلماً ونائلاً خمرا
لولاك لم تلف كفؤها أبداً	خلافة المصطفى بغير مرا
بواتها من قريش رتبتهها	وكم غدت في سواهم عصرا
فليس للعالمين من ملك	يرجى ويخشى سواك مقتدرا
وإن عرا الخطب أو نبا زمن	بالناس كنت الشمال والوزرا
ومرسلي أولع الزمان به	فانشب الناب فيه والظفرا
ولم يجد ناصراً سواك وقد	أرسل يحيى إليك وانتظرا

- وهذه قصيدة؛ في المفاضلة بين السيف والقلم؛ نظمها صاحب الترجمة في شوال من سنة 776هـ/1374م؛ استجابة لطلب السلطان أبي حمو موسى الثاني:

بَيْنَ الْيَرَاعِ وَمُرْهَفِ الْأَسِافِ
نَسَبَ حَمَتُهُ شَرِيعَةَ الْإِنصَافِ
خَلَقَ وَكَفَّ الْمَلِكِ آدَمَ نَوْعِهِ
وَالنَّوْعُ مُنْقَسِمٌ إِلَى الْأَصْنَافِ
أَوَّلًا فَصَنُوا دُوحَةَ الشَّرَفِ لِذَا
قَدْ أَذْنِيَا لِلْفَخْرِ كُلِّ قَطَافِ
لَنَا مَهْزَرٌ عَلَى وَرَاقَا مَنْظَرًا
وَتَوَاحِيَا فِي تَالِدِ وَطَرَافِ
وَتَنَاسَبَا قَصْرًا وَشَفَا جَوْهَرًا
وَتَمَاثَلَا فِي الْبَرِّي وَالْإِرْهَافِ
وَتَأَلَّفَا خُبْرًا وَبَانَا مَخْبَرًا
كَالْمَاءِ تَمْزِجُهُ بِصَفْوِ سُلَافِ
رَفَعَا سَمَاءَ الْمُلِكِ فَوْقَ بَسِيطَةِ
لِيَرَى السِّيَاسَةَ رَحْبَةَ الْأَكْنَافِ

وَتَقَاسَمَا زَمَنِيَّةً مِنْ حَرْبٍ وَمِنْ¹

سَلِمَ وَمَا اشْتَرَكَا مَحَلَّ خِلَافٍ
هَذَا يَصُولُ وَذَا يَقُولُ فَهَلْ لِمَا
خَرَقَاهُ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ رَافٍ
فَامْتَازَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَحَامِدٍ
وَاحْتِازَ فَضْلًا لَيْسَ فِيهِ بَخَافٍ
فَالسَّيْفُ يَنْطِقُ صَامِتِ الْأَمْنِ الَّذِي
يُرجَى وَيَصْنُمْتُ نَاطِقُ الْإِرْجَافِ
وَالسَّيْفُ إِنْ يَصِلَتْ مَحَاطِلُ الْعُدَا
كَالصُّبْحِ يَجْلُو اللَّيْلَ حِينَ يُوَافِي
وَالسَّيْفُ تَمَّ بِجِنْسِهِ وَبِفَصْلِهِ
حَدَّ الشَّرَائِعِ وَاضْمَحَلَّ النَّفَافِي
وَالسَّيْفُ مَدَّ لِنَصْرِ أَحْزَابِ الْهُدَى
كَفَا تَلَافَى الْحَقَّ بَعْدَ تَلَافٍ
وَالسَّيْفُ قَبْلُ أَعَزَّ أُمَّةَ أَحْمَدٍ
وَأَذَلَّ أُمَّةَ نَابِلٍ وَأَسَافٍ
وَالسَّيْفُ مَازَ مَنَاصِبَ الْعُلَيَّا وَكَمْ
فِي ظِلِّهِ مِنْ جَنَّةٍ أَلْفَافٍ

¹ هذا الشطر غير مستقيم.

شَرَفٌ بِمُنْتَجِ ضَرْبِهِ وَبِفَضْلِهِ
صَدَقَتْ قَضَايَا الْمُلْكِ تُونِ خِلَافِ
وَمِنْ الْيَرَاعِ لَهُ أَخٌ بَجْدَالِهِ
قَدْ شَدَّ أَرْزَ جِلْدِهِ الْمُكَتَافِي
غَوَاصُ بَحْرِ الدَّوَاةِ إِذَا انْتَنَى
لَفَظَ الْجَوَاهِرِ مِنْهُ فِي أَصْنَافِ
كَالزَّهْرِ أَوْ كَالسُّلْكِ فِي نَثْرِ وَفِي
نَظْمٍ بِأَسْجَاعٍ وَغُرٍّ قَوَافِ
قَلَمٌ بِهِ الرَّحْمَانُ أَقْسَمَ عِنْدَمَا
خَطَّ الْكَيَانَ بِنُوبِهِ وَالْكَافِ
قَلَمٌ بِإِذْنِ اللَّهِ يَكْتُبُ وَحْيَهُ
وَيُبَيِّنُ مِنْهُ كُلَّ سِرٍّ خَافِ
وَبِهِ أَحَادِيثُ الرِّسَالَةِ وَالْهُدَى
تُرْوَى عَنِ الْأَسْلَافِ لِلْأَخْلَافِ
وَالْعِلْمُ وَالْآدَابُ وَالْحِكْمُ الَّتِي
بَهَرَتْ بِهِ ظَهَرَتْ بِنَصٍّ شَافِ
وَبِهِ الْحِسَابُ غَدَتْ مَرَاتِبُ أَسْهٍ
مَبْنَى قَوَاعِدِ شَرْعَةِ الْإِنْصَافِ
وَبِهِ حَدِيثُ الْأَوَّلِينَ تَقْصُّهُ
فِي الْآخِرِينَ صَحَائِفُ الْآلَافِ

مَا تَبَّعَ فِي حِمِيرٍ مَا قَيَّصَرُ
 فِي الرُّومِ مَا سَابُرُ ذُو الْأَكْتافِ
 مَا الْقَيْطُ مَا فِرْعَوْنُهَا مَا الْفَرَسُ مَا
 كِسْرَى وَمَا خَاقَانُ ذُو الْأَسْيَافِ
 مَا جُرْهُمُ وَجَدَيْسُ مَا طَسْمُ وَمَا
 قَحْطَانُ أَوْ عَدْنَانُ فِي الْأَسْلَافِ
 مَنْ هُمْ بَنُو مَرْوَانَ يَوْمَ أَوْ بَنُو الْـ
 عَبَّاسِ فِي أَقْيَالِ عَجْدٍ مَنَافِ
 وَمَنْ الْعَبَاهِلُ وَالْقُرُومُ وَمَنْ هُمْ الْـ
 أَدَوَاءُ وَالْأَبَوَاءُ فِي الْأَشْرَافِ
 ذَهَبَتْ بِهِمُ أَيْدِي الْمَنَا وَتَخَلَّفُوا
 هَذِي الدَّنَا رَغْمًا عَلَى الْآنَافِ
 وَمَضَوْا وَمَا كُنَّا لِنَسْمَعَ ذِكْرَهُمْ
 لَوْلَا شِبَاةُ يِرَاعَةِ الْعِرَافِ
 لَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُ عَمْرَأَ خَالِدًا
 وَلَهُمْ بِمَا عَمَلُوا الْجَزَاءُ الْوَاقِي
 عَهْدِي بِحَيْثُ الْحُلُوفِ وَأَهْلِهِ
 عَهْدِي بِأَيَّامِ الشَّبَابِ الْعَافِي
 دَارُ الْهَوَى جَانَتِكَ أَخْلَافُ الْحَيَا
 مِنْ مَرْبَعٍ أَقْوَى وَمِنْ مُصْطَافِ

كم في عراصك للصبا من ملعب
 حال عهدناه وورد صاف
 يا طالما قضيت فيه لياليا
 وطر الهوى والشمل في إيلاف
 ما خلت أن تنوى غضارة عيشها
 حتى انقضت والدهر نو أخفاف
 فلئن نزحت فإنني بك جائل
 بالوهم بين مواقف وأثاف
 من لي بقلب فيك قد أضلته
 بين الغصون الهيف والأحقاف
 ولرب ليل بت فيه كأنني
 من لاعج البرحاء فوق أشاف
 أرعى كواكبه تمور كأنها
 نور على نهر الحديقة طاف
 والدمع في خدي تراهن شقره
 سبق المجلي والمصلي قاف
 حضأت بصنري جامحاً زفراته
 رأيت مفئداً خلال سواف
 قد كنت أرجو الطيف يخطر في الكرا
 لو أن جفناً من محب غاف

يا عاذل المشتاق قد بَرِحَ الخفا
عَنِّي إِلَيْكَ فَلَسْتُ ذَا إِسْعَافِ
سَلَبَ الْفِرَاقِ حَشَاشَتِي وَسَبَى الْجَوَى
لُبِّي فَهَلْ لَصَبَابَتِي مُتَّلاَفِ
أَفْدِي فَتَى وَنَيْتَ خَطَاهُ عَنِ الْهَوَى
وَأَرَاهُ صَفْحَةً مُعْرَضٍ مُتَّجَافِ
وَسَمَتَ بِمَطْلَبِهِ إِلَى أَوْجِ الْعُلَا
هُمْمٌ أَحَلَّتْهُ ذُرَى الْأَعْرَافِ
يَارَاكِباً تَخْدِي بِهِ وَجَنَافُهُ
كَالرَّيْحِ بَيْنَ تَتَايُفٍ وَفِيَاَفِ
مُتَطَلِّبِ أَشْأَوْ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
عَرَّجٌ عَلَى أَسْبَاطِ عَبْدِ مَنْاَفِ
وَاقْصِدْ أَبَا حَمُو الرُّضَى فَهُوَ الَّذِي
دُونَ الْوَرَى فِيمَا تَطَالِبُ كَافِ
تَلَفَ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالنَّدَى
وَالدُّيْنَ وَالْدُّنْيَا عَلَى أَصْنَافِ
تَلَفَ السَّرَاوَةَ وَالْجَلَالََةَ وَالْهُدَى
وَالْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ فِي إِيلَافِ
تَلَفَ الْخَلَافَةَ قَبْلَةَ مَحْجُوجَةٍ
طَافَ الْوَرَى مِنْهَا بِخَيْرِ مَطَافِ

تَلَفَ الْمَفَاخِرَ نِيَّراتِ شُهْبَهَا
والمَجْدُ ثوباً معلَمَ الأطْرَافِ
تَلَفَ الكَمالَ البَخْتِ والْخَلْقَ الرِّضَى
والْبِشْرَ مُقْتَرِناً بوَعْدٍ وَاْفٍ
مَلِكٌ أَعارَ الرِّوْضَ طيَبَ ثَنائِهِ
والصُّبْحُ نورُ جَبِينِهِ الشَّفَافِ
غَمَرِ الْأَنامَ مواهباً كالْقَطَرِ إِذْ
غَمَرِ الْوِهادَ ومُرْتَقَى الْأَشْرَافِ
فَبِكُلِّ قَطْرٍ مِنْ صَنائِعِ جُودِهِ
حَقْلٌ تَرَوْحُ إِلَيْهِ فِي الْأَضْيَافِ
إِنْ صالَ طالَ الْأَسَدُ أَوْ بَذَلَ النَّدَى
بَذَّ الغَمامَ بَعارِضٍ وَكَافِ
يَبْدُو فَتَحَسِبُهُ الْكَتائِبُ هَيْبَةً
لِلَّهِ فَرْدٌ قِيَسَ بِالْأَلْأافِ
مَنْ ذَا يُضاهِي فِي الْعُلَا موسى الرِّضَى
مولى المُلُوكِ وَسَيِّدِ الْأَشْرَافِ
يا طالِبِي إِدْرَاكَ شَأْوِ كَمالِهِ
طاشَتْ سِهامُكُمْ عَنِ الْأَهْدافِ
خَلُّوا لَهُ طُرُقَ المَحامِدِ وَاْفسَحُوا
لِمُدَرَّبٍ بِسُلُوكِهَا عَرَّافِ

جَمَاعَ نَهَبِ الْمَجْدِ مِنْ إِرْثٍ وَمِنْ
كَسْبِ حَوَاهِ لِمَالِهِ مِنْتَلَافٍ
مِنْ آلِ زَيْنِ الْأَلَى رَفَعُوا عَلَى
عَمَدِ الْغَنَى لِلْعَزِّ أَيَّ طَرَافٍ
نَهَجُوا سَبِيلَ الْمَعْلَوَاتِ وَخَلَدُوا
شُرْفاً عَلَى الْأَيَّامِ لَيْسَ بَعَافٍ
وَسَعَوْا لِكَسْبِ الْحَمْدِ بِالْهَمِّ الْعَلَى
وَكَذَا تَكُونُ خَلَائِقُ الْأَشْرَافِ
أَخْلِيفَةُ اللَّهِ الَّذِي فَضَّلَ الْوَرَى
بِالذَّاتِ وَالْأَبَاءِ وَالْأَوْصَافِ
لِللَّهِ دَوْلَتُكَ الْكَرِيمَةِ إِنَّهَا
زَيْنُ الْحَيَاةِ وَمَظْهَرُ الْأَطْوَافِ
رَفَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ رَوْضُ سِيَاسَةٍ
رَتَعَ الْوَرَى مِنْهُ بَظِلٌّ ضَافٍ
وَكَفَتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ دِيمَةً
فَاخْتَالَ لِلْإِقْبَالِ فِي أَفْوَافِ
كَرَمَتْ مَجَانِي الْعَزِّ فِيهِ وَقَدْ جَرَتْ
جُوداً مَجَانِيهِ بَعْدَ قَطَافِ
وَتَمَايَلَتْ قُضْبُ الْفَتْوحِ بِدُوحِهِ
لِنَسِيمِ نَصْرِ بَيْنَهَا هَفَّافِ

كَمْ زَهْرَةٌ لِلْفَخْرِ يَغْبِقُ طَيْبُهَا
 فِيهِ وَكَمْ ثَمَرٍ نَدَا لِقَطَافِ
 قَسماً بِمَجْدِكَ وَهُوَ خَيْرُ أَلِيَّةٍ
 أَلَيْتُ فِي مَاضٍ وَفِي اسْتِنَافِ
 مَا أَنْتَ إِلَّا آيَةٌ لِلَّهِ فِي
 فُرْقَانِهَا لِلنَّاسِ سِرٌّ خَافِ
 وَأَنَا الَّذِي لِلْعَالَمِينَ شَرَحْتُهَا
 وَأَتَيْتُ عَنْهَا بِالْبَيَانِ الشَّافِي
 وَجَمَعْتُ فِي تَأْلِيفِهَا لِأُولِي النُّهَى
 عِبَرًا تُبَيِّنُ مَوَاقِعَ الْأَلْطَافِ
 وَصَدَعْتُ فِيهِ لِلْكَمَالِ بَحْجَةً
 قَامَتْ عَلَى الْأَسْلَافِ وَالْأَخْلَافِ
 مَا الْفَخْرُ كُلُّ الْفَخْرِ إِلَّا مَا بِهِ
 خَلَدَتْ مَنْ خَبِرَ بِخُبْرِكَ وَافِ
 لَمْ آلَ فِيهِ طَوْعَ أَمْرِكَ غَايَةً
 بَلْ طَرْتُ مَلءَ قَوَادِمِ وَخَوَافِ
 مَوْلَايَ خَذَهَا مِنْ نَتَائِجِ فِكْرَتِي
 بِكْرًا تُزَفُّ لَدَيْكَ أَيُّ زَفَافِ

أَلْبَسْتُهَا حُلَّ الْقَرِيضِ فَأَقْبَلَتْ
 تَخْتَالُ فِي حَبْرَانِهِ الْأَقْوَافِ
 وَأَطْبَبْتُهَا بَخْلُوقِ مَدْحِكَ فَاعْتَدَتْ
 وَالْعَرَفِ مِنْهَا فَاغْمُ الْآنَافِ
 فُقَّتِ الْمُلُوكُ مَمَادِحاً فَشَأَتْ بِكُمْ
 أَمْدَاحُهَا فِي تَالِدٍ وَطَرَافِ
 لَازِلَتِ سُلْطَانُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
 حَتَّى الْقِيَامَةِ يَا مَالِ الْعَافِي

- وهذه قصيدة؛ وصف فيها يحيى بن خلدون
 سلطان غرناطة ابن الأحمر:

ملك تبجح الجلالة والعلأ
 ضاهى المجرة رفعة وجمالاً
 وامتياز بالفضل المبين خليفة
 شأت الأنام مجادة وكمالاً
 وبدا بأفق الدين شمس ظهيرة
 فإنجاب ليل الكفر عنه ومالاً

هو شاد للإسلام ركنأ واهيأ
مستهونأ نفسأ تعز ومالأ
وأى بآيات الشجاعة والندى
ييدي بها التفصيل والإجمالأ
من كل معجزة بفصل خطابها
ومبينة قد أغنت الأمثالأ
فهو الذي من بأسه ونواله
قهر العداة وأحسب الآمالأ
والدين والدنيا به نالأ المنى
لمأ غدا وزراً وراح ثمالأ
فالزهر ينطق عرفه بثنائه
والريح إن خفقت صبا وشمالأ
فلذاك أسماه الإله ممجداً
وحباه عزة نصره إكمالأ
دامت له الدنيا ودام لأهلها
يجني السرور ويحفظ الإهمالأ

- قال يحيى بن خلدون هذه القصيدة في حفل أقيم
ببلاط الدولة الزيانية بتلمسان؛ في عام
770هـ/1368م؛ بمناسبة ذكرى المولد النبوي
الشريف.

سلا القلب لولا لوعة وشجونُ
تتمّ ولا يدري بذاك شئونُ
يُذكره البرق اليمانيّ عهده
بنجدٍ فيصبو والحديث شجونُ
وربّما بيدي المشوق تجلداً
ولكن إذا جدّ الغرام يمين
ومنّ ملك الحب القياد ويدعى
سلواً للعمري أنه لضنين
رعى الله بالجرعاء موطن أُلْفه
ولا برحت تسقى ثراه مزونُ
عهدتُ فصيحاً بالأوانس ربعه
فأعجم حتى ما يكاد يبينُ
وقفتُ بها أُرْجي سحائب أدمعي
من السقم أخفي تارة وأبين
وقالوا جنون ما اعتراه وإنما
لذيذ التّصابي أن يقال جنون

كذا مـد عرفنا الحبّ أوله ضنى
وأخـره اما عرفت منون
أيا عذبات البان من أيمن اللوى
نعمت وجانت ربعكـن عيون
ترى ذلك العهد الذي تعرفينه
يعود وتُقضى في حماك ديون
يمينا لـقد أوى الفراق بمهجتي
فلم يبق إلا زفرة وأنين
ويسري بـرياك النسيم فأثنى
كما تنثنى بينكن غصون
ألا أيها الركب المخبون بالضحى
عسى لك من أرض الحجاز طعون
أعيدوا أحاديث العذيب وأهله
فلى بأحاديث العذيب فتون
أمن طيبة يا قوم ثور ركـبكم
فعن طيبها هذا العبير يبين
وما طيبة حسناً إذا ما اعتبرتها
وسكانها إلا الجنان وعين
محط ركاب الوحي منتجع الهدى
مساحب ذيل الرشد حيث يكون

مواطئ خير الخلق آثار نعله
ومثواه حياً وهو ثمّ دفين
هو المصطفى المختار من آل هاشم
أولي الشرف الوضاح منه جبين
محمد المبعوث للخلق رحمة
وليس سواه للنجاة ضمين
توالد إحدى بعد عشرة ليلة
لشهر ربيع حبذا لك حين
في ليلة الاثنين فضلك ظاهر
وكلّ الليالي عند قدرك دون
أتى وظلام الكفر مدّ رواقه
فجلاه صبح من هداه مبين
نبيّ كريم للرسالة خاتم
مطاع لدى ذي العرش ثمّ أمين
رؤوف رحيم بالعباد وإنّنه
لذو قوّة عند الإله مكيّن
وسرّ وجود العالمين وأصله
وغايته فالكلّ عنه يبين
وما هو إلاّ سيد الرسل كلهم
وأولاهم بالفخر حيث يكون

وأفضلهم خُلُقاً وخُلُقاً ومحتداً
 وأكملهم ذاتاً وذاك يقين
 وأعلاهم قدراً وأرفع منصباً
 وأسمح كفاً إذ تجرد يمين
 وهل يدرك المذاح غاية فضله
 وفي الغيب سرّ من علاه مصون
 ألا يا رسول الله دعوة خاطئ
 لقد طال منه للضلال ركون
 مقيم بأقصى الغرب جسماً وقلبه
 بيثرب لا يلوي عليه رهيّن
 يُؤمّل قبل الموت نحوك رحلة
 فيقضيه دهرٌ باللقاء ضنين
 وقد ضقتُ ذرعاً بالذي اكتسبت يدي
 وإني من خوف الجزاء حزين
 سريت بليل من شبابي إلى الصبا
 وخفت افتضاحي والصباح مبين
 وقد يرعوي بعد اللجاج أخو الهوى
 ويقتاد من بعد الجماح حرون
 إذا لم تكن لي في القيامة شافعاً
 فيا حسرة إني إنّ لغيبين

وإني لأرجو عن قريب زيارة
لقبرك تسري بي إليه أمون
وما خلت هذا قبل أن علق يدي
بجاه أحبّ الخلق فيك يكون
خليفة ربّ العرش موسى بن يوسف
له شرف مما يشين مصون
أغار حسودي رفعة وكرامة
وراش جناحي والجناح مهين
فقلتُ الذي أُمّلتُ دنيا بعزه
وما لي على الأخرى سواه معين
هو الملك المنصور والواحد الذي
به قُضِيَتْ للمعلوات ديونُ
به الله أعطى للخلافة حقّها
فعمّ الورى عدلٌ وأُيدَ دينُ
فيمناه يوم الحرب والسلام للعدا
ضرام وللراحي النوال معين
إذا ما بدا فالشمس نوراً ورفعة
وهاتيك قد تخفى وأنت مبين
له همّة لم ترض إلاّ له العلا
على أنّه فوق السّمّاك مكين

وشيمته الفخر العظيم وعنده
من العلم والرأي الرجيح فنون
به الغرب يزهي غبطة بجواره
فمصر تمننت أن تَكُنَّه وصين
إذا شرف الأملاك ملك فإنه
كمال لملك العالمين يزين
أمولاي يا أعلى الملوك بأسرها
وأكرمهم أصلاً وذاك مبين
إذا افتخروا جداً كريماً ففخركم
بعبد مناف عند ذاك يكون
أبى الله إلا أن يكون لك العلى
فخابت من الأعداء فيك ظنون
وآتاك ربّ العرش عزاً فلا تُبَلْ
وإن نظرت شزراً إليك عيون
وخذها أمير المسلمين مجاة
من القول غراً من علاك تبيين
شأوت بها صبحي وأنت شهيدها
فليس لها بين النظام قرين
بقيت على مرّ الزمان مؤيداً
لك الصّعب في كلّ الأمور يهون

ولا زلت في العزّ المكين مخلصاً
وربّك فيما ترتجيه معيْنُ

- قال هذه القصيدة أثناء حفل يخلد ذكرى المولد
النبيوي الشريف؛ عقد بمشور السلطان أبي حمو
الثاني بتلمسان؛ وكان يحيى بن خلدون قدم برسالة
من قبل أمير بجاية أبي عبد الله¹:

تراعت لها أعلام نجد محياها
نسيم سرى من حاجر ورباها
ولاح لها البرق اليماني فانبرت
تمر حثيث للعذيب خطاها
بها ميه الأشواق عذرت الهوى
يهيج ترجيع الحداة جواها
تردد من ذكرى الأجيرع أنه
وتزري دموعا للمشوق عندها²

¹ لم يشر يحيى بن خلدون إلى هذه القصيدة - في كتابه بغية الرواد - بل أورد
قصيدة أخرى - غير هذه؛ وردت فيما سبق - ذكر أنه ألقاها بهذه المناسبة؛
ومطلعها: ((يا بدر تم بالأوج قد ظهرا * فضاء بالخافقين شتھرا)).
² نسخ هذا الشطر بشكل لا يقرأ؛ فقرأناه هكذا.

وتصبوا لنعمان الأراك وعهده
فيا حسن مغرها ويا بعد مرماها
خلية سقم بي من الوجد ما بها
وفرط هواي الجاحدي هوائها
بحقك علها بذكر عهوده
فجل حداها أن يكف بذكرها
أنلها وقرفا في المعاهد ساعة
فقد شفها طول السرى وبرها
أرحها من التعنيف بالشوق ساقها
وما قد عناها حسبها وكفاها
[ودعها تهيم في سيرها فلن تصل]¹
إلى قبر غير الهاشمي سراها
محمد المبعوث للخلق رحمة
له من مراقي الفخر لا غرو أغناها
رسول أتى والشرك باد ضلاله
فأوضح من سبل الهداية أزكاها
لمولده في الأرض أية أية
بنت ليلة الاثنين ما كان أسناها

¹ هذا الشطر مضطرب المعنى ومختل الوزن؛ فجاء هكذا:
((ودعها تهيم قاصدها مسفرا فما)). لذا فقد عوض بشطر آخر - لتسهيل
مواصلة القراءة - ووضع بين حاصرتين.

تداعى له إيوان كسرى وأخمدت
لفارس [نار]¹ نور أحمد أطفأها
وغاضت مياه من بحيرة ساوة
فبان لها للحين خيبة مسعاها
وكم معجزات للمقال تنزلت
عليه وأخرى للفعائل أبداهها
له حن [لما]² غاب جذع أراكه
وجاءت له تشكو³ الغزالة بلواها
وأشبع آلفاً طعاماً بصاعه
ومن كفه عذبا من الماء رواها
وفي ليلة الإسرى تبين فضله
بها قدمته [الأنبياء]⁴ في مصلاها
نبي كفيل بالشفاعة للورى
له الله في يوم القيامة أعطاها
عليه سلام الله ما درّ شارف
فضوحت الأزهار بالروض [ريحها]⁵

¹ كتب في الأصل كلمة: ((تور))؛ وهذا يخل بالوزن والمعنى معاً. وعليه فقد عوضت بكلمة أخرى؛ وردت أعلاه بين حاصرتين.
² كتب في الأصل: ((ما))؛ وهذا يخل بالوزن والمعنى معاً.
³ في الأصل هكذا: ((تشكوا))؛ بالآلف وهو خطأ.
⁴ في الأصل: ((الأنبياء))؛ وهذا يخل بالوزن؛ فحذفنا الهمزة لتصويب الوزن للضرورة.
⁵ كتبت هذه الكلمة في الأصل: ((رباها)) أو ((رياحها))؛ والحالتين يخلت الوزن؛ لذا فقد عوضت بكلمة وردت أعلاه بين حاصرتين.

وخص بتأييد الإله خليفة
بسنة خير الخلق قام فأضفاها¹
إمام هدى لله أخلص فعله
وأحكامه بالعدل في الخلق أمضاها
به الله أحيا للخلافة رسمها
وجدّد عافيتها وشيّد ذكراها
إذا افتخر الأملاك فالفخر دونه
وإن سمحت موسى بن يوسف مولاها
ملك له في المعلوات منازل
ترفع عن كبواه لا شك أدناها
[فمن ذا]² الذي يرجى لكل ملمة
سواء بحد السيف يكشف ظلماها
ومن غير موسى يستجار بجاهه
فيمنع من جور الليلي وعدواها
همام أبى إلا المفخر مكسبا
وما غير أثواب المحامد يرضاها

¹ في الأصل: ((فاطياها))؛ فجعلناها كما ورد أعلاه بين حصرتين.
² كتب في الأصل: ((فمن الذي...))؛ وهذا يخل بوزن الشطر؛ لذا فقد جعلنا العبارة كما ورد أعلاه بين حاصرتين.

فَلْبَأْسَ وَالْإِعْطَاءَ يَسَّرَ نَفْسَهُ
[وَاللَّجُودَ وَالْأَفْضَالَ لِلنَّاسِ يَعْطِيهَا]¹
أَيَا خَيْرٍ مِنْ يَرْجَى شَكِيَّةً مَرْسَلِي
فَظَلَمَ اللَّيَالِي نَحْوَ بَابِكَ أَنْهَاهَا
فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ يَبْقَى مَخْلَدًا
فَذَكَرَكَ يَسَّرَ مِنْ أَمَانِيهِ أَنْضَاهَا
أَعِدَّهُ إِلَى أَوْطَانِهِ عَنْكَ نَائِبٌ
يُشَيِّدُ مَجْدًا وَالسَّعَادَةَ تَعْطَاهَا
وَاخْذَهَا إِلَيْكَ الْيَوْمَ بِنْتَ قَرِيحَةٍ
لَقَدْ طَالَ مَا بِالْخُطْبِ ذَا الدَّهْرِ أَرْسَاهَا
وَدَمَ لِقَاتَاءَ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ بَاقِيَا
مَتَى [أُطْلِعْتَ]² شَمْسَ السَّمَاءِ مُحْيَاهَا

¹ جاء عجز البيت هنا غير سليم من حيث الوزن؛ وهو هكذا: (والليمنى بالأفضال والجود أعراها)). وعليه فقد عوض بشطر آخر؛ ورد أعلاه بين حاصرتين.
² هذا الشطر مختل الوزن - في الأصل - بسبب كلمة: ((أُطْلِعْتَ))؛ لذا فقد عوضت بما ورد أعلاه بين حاصرتين.

- نظم يحيى بن خلدون المقطوعات التالية؛ تلبية
لأمر السلطان أبي حمو؛ عبر فيها عما يجري في
آلة الوقت (الساعة المائية)؛ المسماة ((المنقانة))؛
حيث كانت تلك المقاطع لسان حال التماثيل
(الجواري) المثبتة فيها؛ ومنطوقها في كل ساعة:

الساعة الأولى

أمولى الملوك وأعلى الأمم ومن جود العالم الكل عم
مضت ساعة ليت لو تثني فإن الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لمّا بدا وقد خلته البدر في الأفق تم
عليه لأجل التقى هيبة وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى سروراً لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه ففعلك هذا على ذاك نم
ففلت السعادة دنيا وأخرى وحزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا ملكاً تطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية

أخليفة الرحمن والملك الذي تعنوا لعزّ علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علأ بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهاً وجّه الخليفة بينهن هو القمر

وَاللَّيْلُ مِنْهُ سَاعَتَانِ قَدْ انْقَضَتْ تُنْثِي عَلَيْكَ نَتَا الرِّيَاضِ عَلَى الْمَطَرِ
لَا زَالَ هَذَا الْمَلِكُ مَنْصُوراً بِكُمْ وَبَلَغْتَ مِمَّا تَرْتَجِي أَسْنَى الْوَطَرِ

الساعة الثالثة

أَمُولَايَ يَا ابْنَ الْمُلُوكِ الْأَلَى لَهْمُ فِي الْمَعَالِي سَنِي الرُّتَبِ
تَوَلَّيْتُ ثَلَاثَ مِنَ اللَّيْلِ أَبْ قَتَ لَكَ الْفَخْرَ فِي عُجْمِهَا وَالْعَرَبِ
فَدُمَ حُجَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ تَنَالُ الَّذِي شِئْتَهُ مِنْ أَرْبِ

الساعة الرابعة

يَا وَاحِداً فِي الْمَعَالِي وَمَالِكُ الْفَضْلِ أَجْمَعِ
مَوْلَايَ دُمْتَ عَلِيّاً مَضَتْ لِلْيَاكِ أَرْبَعُ
لَا زِلْتَ تَقْنِي الْأَعَادِي وَلِلْمَفَاخِرِ تَجْمَعُ

الساعة الخامسة

يَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَالَ الْعَالَمِينَ
وَالَّذِي حَازَ الْمَعَالِي كُلَّهَا نُنِيَا وَدِينَا
قَدْ مَضَتْ لِلَّيْلِ خَمْسٌ حُسْنُهَا رَاقِ الْعِيُونَا
وَانْقَضَى النِّصْفُ فَآهَ هَكَذَا تَمْضِي السَّنُونَا
دُمْتَ فِي عِزٍّ وَسَعْدٍ خَالِدَ الْمَلِكِ مَكِينَا

الساعة السادسة

يا واحداً في علاه من بأسه في عساكر¹
سِتُّ من اللَّيْلِ وَلَّتْ ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى إلى المعاد نواضر

الساعة السابعة

يا مَنْ لَهُ الفضلُ طَبَعَ والفخرُ فيه سَجِيَّة
مرَّت من اللَّيْلِ سَبْعَ ما إن لها مثويَّة
لازلت والشمْلُ جَمَعَ يُعْلِيكَ رَبُّ الْبَرِيَّة

الساعة الثامنة

يا أَكْرَمَ الْخَلْقِ ذاتاً وأشرفِ النَّاسِ أُسْرَةً
مرَّت ثمانٌ وأَبَقَتْ في الْقَلْبِ مِنِّي حَسْرَةً
فيهِنَّ كانَ شَبَابِي أَخا نَعِيمٍ وَنَضْرَةً
ولَّى بها الدَّهْرُ عَنِّي تُرَى لها بَعْدُ كَرَّة
فإنَّه يُبْقِيكَ مَوْلى يُطِيلُ في السَّعْدِ عُمْرَةً

¹ جاء هذا البيت في نفح الطيب، وأزهار الرياض؛ هكذا:
(يا ماجداً وهو فردٌ * تخاله في عساكر)).

الساعة التاسعة

يا أُوْحِدَ النَّاسِ فِي مَجْدٍ وَفِي شَرَفٍ
وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ فِي بَاسٍ وَفِي كَرَمٍ
مَوْلَايَ تَاسِعَةُ السَّاعَاتِ قَدْ ذَهَبَتْ
وَاللَّيْلُ مِنْ بَعْدِهَا قَدْ عَادَ ذَا هَرَمٍ
كَذَا يَمُرُّ وَلَا نَذْرِي الزَّمانَ بِنَا
وَيَنْقُضِي الْعُمْرُ فِي اللَّذَاتِ وَالنَّدَمِي
مَنْ كُلَّ ذَا عَمَلٍ فِي الْبِرِّ مِثْلَكُمْ
يَا فَوْزَهُ يَوْمَ تَخْشَى زَلَّةَ الْقَدَمِ
لَا زِلْتَ ذَا عِزَّةٍ وَالْمَلِكُ ذَا شَرَفٍ
بَكُمْ وَأَنْتُمْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي نَعَمٍ

الساعة العاشرة

يَا مَالِكَ الْخَيْرِ وَالْخَيْلِ الَّتِي حَكَمْتَ
لَهُ بَعِزٌّ عَلَى الْأَيَّامِ مُقْتَبِلِ
هَذَا الصَّبَّاحِ لَقَدْ¹ لَاحَتْ بِشَائِرُهُ
وَاللَّيْلُ وَدَعَا تَوْدِيْعَ مُرْتَحِلِ

¹ في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((وقد)).

لله عشرٌ من السَّاعاتِ باهرةٌ
مضينَ لا عن قَلَى مَنَّا ولا مللِ
كذا تمرُّ ليالي العمرِ راحلةً
عنا ونحن من الآمالِ في شُغلِ
نمسي ونصبحُ في لهو نُسرٍ به
جهلاً وذلك يُدْثِننا من الأجلِ
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا
عليه إذ مرَّ في الآثامِ والزَّللِ
يا ليت شعري غداً كيف الخلاصُ به
ولم نقْدِّمْ لَهُ شَيْئاً من العملِ
يا ربَّ عَفْوِكَ عَمَّا قَدْ جَنَنَتْهُ يَدَي
فليس لي بجزاءِ الذَّنْبِ مِنْ قِيلِ
يا ربَّ وانصر أميرَ المسلمين أبا
حمُّو الرَضَى وأنله غايَةَ الأملِ
وابقِ في العزِّ والتَّمكينِ مدَّتَهُ
وأعلِ دولته الغرَّاءِ في الدُّولِ

— وهذا وصف للمنقانة؛ كتبه يحيى بن خلدون بقلمه؛ فقال: ((وخزانة المنقانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أكمة تحمل طائرا؛ فرخاه تحت جناحيه؛ ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجنر الأكمة صعداً؛ وصدرها أبواب موجفة؛ عدد ساعات الليل الزمانية؛ يصاقب طرفيها بابان موجفان؛ أطول من الأولى وأعرض فوق حميعها؛ وتؤين رأس الخزانة قمر أكمل؛ يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت — كل أول ساعة — بابها المرتج؛ فينقض — من البابين الكبيرين — عقبان؛ بفي كل واحد منهما صنجة صفر؛ يلقيها إلى طست من الصفر مجوف؛ بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة؛ فيرن؛ ويتهش الأرقم أحد الفرخين؛ فيصفر له أبوه؛ فهناك يفتح باب الساعة الزاهنة؛ وتبرز منه جارية محتزمة؛ كأظرف ما أنت راء؛ يئمنها أذبارة¹ فيها اسم ساعتها منظوماً؛ ويسراها موضوعة على فيها؛ كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله. حيل أحكمت يد الهندسة وضعها²)).

¹ الذئب: جمعه: ذباب؛ الكتاب السهل القراءة. وجمعها يحيى ابن خلدون هكذا.

² بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 101 - 104.

المائة التاسعة هجرية

800 – 900هـ

محمد بن أحمد

ابن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد
ابن أبي بكر بن مرزوق التلمساني العجيسي،
المعروف بالحفيد (أبو عبد الله)

جاء فيما سبق؛ أن أسماء علماء بني مرزوق تتأشبه، وتتداخل؛ وحتى تخصصات أعضاء هذه الأسرة العلمية فهي واحدة؛ لذا؛ وجب الحذر والتحري جيداً؛ كي يسهل تمييزهم عن بعضهم. كما اتبع فيما سبق أسلوب الترقيم؛ لفرزهم. وعليه؛ يصبح صاحب هذه الترجمة؛ في المرتبة السادسة بين أعضاء المرازقة. أما مولده فتم بتلمسان في سنة 766هـ/1365م؛ وتوفي بها في عام 842هـ/1439م. وهو ابن أحمد الثاني بين المرازقة، ثم ابن محمد الرابع في أسرة المرازقة؛ (وهذا الأخير؛ هو صاحب ابن الخطيب، ومؤلف كتاب المسند)، ثم ابن أحمد الأول بين المرازقة، ثم ابن محمد الثاني، ثم ابن محمد الأول، ثم ابن أبي بكر (عاش في القرن السادس الهجري)، ثم ابن مرزوق العجيسي؛ الذي

يعتبر أول من دخل منهم تلمسان؛ قادماً إليها من القيروان؛ عندما اجتاحتها قبائل بني هلال في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري. وهم جميعاً ينتسبون إلى قبيلة عجيصة البرنسية؛ التي استوطنت قديماً بلاد الحضنة في نواحي المسيلة الحالية. وكان محمد بن أحمد هذا؛ حجة في الفقه المالكي؛ وإماماً في النحو والأصول والحديث والتفسير وغيرها من العلوم. كما له مشاركة في الأدب، ويجيد نظم الشعر. وله تأليف عديدة؛ منها: "كتاب المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخرجية"؛ وهو في العروض والقوافي، و"كتاب إسماع الصُّم في إثبات الشرف من جهة الأم"، و"كتاب المفاتيح القرطاسية في شرح الشقرطسية"، و"كتاب المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج"؛ ويهتم بإجابات ابن سراج في بعض المسائل النحوية والمنطقية، و"كتاب الروضة"؛ وهو رجز في علم الحديث، و"كتاب مختصر الحديقة"؛ وهو مختصر منظوم في بحر الرجز لألفية العراقي في علم الحديث؛ و"كتاب المقنع الشافي"؛ أرجوزة في الميقات تحتوي على 1700 بيت، وأرجوزة أخرى في ألف بيت على الشاطبية، وأرجوزة في تلخيص المفتاح، وأرجوزة في تلخيص

ابن البناء، وأرجوزة في جمل الخونجي، و"كتاب نهاية
الأمّل في شرح الجمل"؛ وهو في المنطق، وأرجوزة؛
اختصر بها ألفية ابن مالك، و"كتاب اغتنام الفرصة
في محادثة عالم قفصة"؛ وهو في الفقه والتفسير،
و"كتاب نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين"،
و"كتاب الدليل الموفي في ترجيح طهارة الكاغد
الرومي"، و"كتاب النصّح الخالص في الرد على
المدعي رتبة الكمال للناقص"؛ وهو في سبعة
كراريس؛ رد فيه على فتوى الإمام قاسم العقباني،
و"مختصر كتاب الحاوي في الفتاوى"؛ لابن عبد البر
التونسي، و"كتاب الاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي
هريرة من الإنصاف"، و"كتاب الروض البهيّج في
مسألة الخليج"، و"كتاب أنوار الدراري في مكررات
البخاري"، ورسالة في ترجمة إبراهيم المصمودي،
وكتاب برنامج الشوارد، وكتاب تفسير سورة
الإخلاص؛ اتبع فيه طريقة الحكماء، وشرح على
ابن الحاجب، وشرح على التسهيل، وثلاثة شروح
على البردة: الأول عرف بالأكبر؛ هو إظهار صدق
المودة في شرح البردة؛ كل بيت يشتمل على سبعة
فنون، والثاني عرف بالأوسط، الثالث عرف
بالأصغر؛ وهو الاستيعاب لما فيها من البيان

والإعراب. وله أيضا بعض الكتب لم يتمكن من إكمالها؛ وهي: روضة الأريب في شرح التهذيب، والمنزوع النبيل في شرح مختصر خليل، وإيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك، وعقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، والآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات، والدلائل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم، وشرح صحيح البخاري؛ بعنوان المتجر الربيع والمسعى الرجح والمرحب الفسيح والوجه الصبيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح؛ وهو في جزأين. ومما قاله نظماً عن تلمسان:

بَلَدُ الْجِدَارِ مَا أَمَرَ نَوَاهَا كَلَفَ الْفَوَادُ حُبُّهَا وَهَوَاهَا
يَا عَاذِلِي كُنْ عَاذِرِي فِي حُبِّهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاؤُهَا وَهَوَاهَا

— وقال فيها أيضا ضمن أرجوزة في علم الحديث:

وَمَنْ بِهَا أَهْلٌ ذَكَاءٌ وَفِطْنٌ فِي رَابِعٍ مِنَ الْأَقَالِيمِ قُطْنٌ
يَكْفِيكَ أَنَّ الدَّوْدِيَّ بِهَا دُفْنٌ مَعَ ضَجْبِهِ ابْنُ غَزْلُونِ الْفُطْنُ

□

محمد بن محمد ابن أبي القاسم المشدالي (أبو الفضل)

ينتمي إلى عشيرة من زواوة تسمى مشدالة. أما مولده؛ فوقع ببجاية في سنة 820هـ/1417م أو 821 أو 822هـ. نشأ بمسقط رأسه؛ مواظباً على التعلم في حلقات العلم المختلفة؛ في ظل عائلة تهتم بالعلم، وتحافظ على الدين؛ وهو سليل علماء عظام من هذه العائلة كأبي علي ناصر الدين المشدالي، وأبي موسى عمران المشدالي. كما أن والده أبا عبد الله محمد بن القاسم المشدالي هو عالم ببجاية في وقته وخطيبها؛ بالإضافة إلى شقيقه الفقيه محمد بن محمد المشدالي. قرأ صاحب الترجمة عن والده القرآن برواياته السبع؛ فذكرت المصادر أنه بدأ حفظ القرآن في الخامسة من عمره؛ واستطاع حفظه كاملاً بعد سنتين ونصف. واشتهر عنه أنه استظهر سورة سبح وحفظها بالسماع؛ قبل أن يتعلم تهجئة الحروف. ومن شيوخه في القراءات الإمام أبو عبد الله محمد ابن أبي رفاع؛ كما أخذ قراءة نافع عن الشيخين

هارون المجاهد وأبي عثمان سعيد العيسوي؛ إلى جانب آخرين. ومن العلوم التي حرص على تعلمها وحفظها: دواوين الأدب، ثم مجموعة من المتنون؛ إذ استظهر: الشاطبتين، ورجز الخراز في الرسم (الإملاء)، والكافية والشافية، والخلاصة، ولامية الأفعال، ومعظم كتاب التسهيل؛ وهما لابن مالك، ومتن ابن الحاجب الفرعي، والرسالة، وأرجوزة التلمساني في الفرائض، وما يقدر بربع مدونة سحنون، وطوالع الأنوار في أصول الدين للبيضاوي، وجزء من ابن الحاجب الأصلي، وجمل الخونجي، والخزرجية في العروض، وتلخيص ابن البناء في الحساب، وتلخيص المفتاح؛ ودواوين: امرئ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعلمة الفحل، وطرفة بن العبد. انتقل إلى تلمسان في عام 840هـ/1436م؛ أين استقر بها مدة أربع سنوات؛ فتزود بالعلم في حلقات أبي مرزوق الحفيد، وأبي قاسم العقباني، وأبي الفضل بن الإمام، وأحمد بن زاغو، ومحمد بن النجار الشهير بساطور القياس، وسليمان البوزيدي، ويوسف بن إسماعيل، وعلي بن القاسم، ومحمد البوري، ومحمد بن علي بن أفشوش التلمساني. أخذ عن هؤلاء كلهم علوماً شتى وفنوناً

كثيرة متنوعة؛ من ذلك: التفسير، والحديث، والفقه،
والأصليين، وفنون الأدب، والبلاغة، والمنطق، والفلسفة،
والطب، والموسيقى، والهندسة، وعلم الهيئة، والحساب،
والجبر، والمقابلة، وعلم النقاويم والميقات، والفرائض
والتصوف. ولما استوفى حقه، واكمل علمه؛ عاد
إلى بجاية سنة 844هـ/1440م؛ حيث تصدر للتدريس؛
ولكن مقامه لم يطل؛ إذ رحل إلى قسنطينة، وبونة،
ثم تونس، ثم قبرص، ثم بيروت الشام، ثم رحل
لأداء فريضة الحج؛ ثم دخل إلى مصر؛ أين جلس
للتدريس في جامع الأزهر. وكانت وفاته بعين تاب
في بلاد الشام؛ وذلك في سنة 864هـ/1460م. له
ديوان شعر مفقود.

— ومن شعره؛ هذه الأبيات التي قالها سنة 840هـ؛
أثناء إقامته في تلمسان؛ خاطب بها بعض أصدقائه
في بجاية:

برق الفراق بدا بأفق بعادنا فتضعضت أركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا والبين شق قلوبنا بعموده
لله أيام مضت بسبيلها والدهر ينظم شملنا بعقوده

محمد بن موسى ابن يوسف (ابوزيان)

هو ابن السلطان الزياني أبي حمو الثاني. وشبيهه في الاعتناء بالعلم، ورعاية الفنون، والمشاركة في مجالات الآداب، ونظم الشعر. ولد أبو زيان محمد في تلمسان بتاريخ لم يحدّد. أما أمه فهي من مدينة ميلّة المتواجدة في شمال قسنطينة. تزوجها أبو حمو أثناء حركته مع أعراب إفريقية المناهضين للمرينيين في تلك الديار؛ ولأبي زيان ثلاثة أشقاء من أمه؛ أشهرهم: المنتصر، ثم عمر (العروف بعمير). قاوم أبو زيان أخاه أبا تاشفين. خاصة عندما واجه أباه بالعداوة؛ وتآمر عليه - إلى جانب المرينيين - وشاركهم في قتله. وقد تمكن أبو زيان - بعد محاولات فاشلة؛ ضد أخيه أبي تاشفين؛ وجراء موقف بني مرين الكابح له والمعرقل لكل من شأنه تحقيق هدفه. تمكن من ذلك؛ إثر مهلك سلطان بني مرين أبي العباس سنة 796هـ/1394م؛ حيث سمح له ولده أبو فارس المريني بالعودة إلى

تلمسان؛ سعيًا لاستعادة ملك أبيه. وكان إخوة أبي زيان قد تكاتفوا في مواجهة أخيهم أبي تاشفين. وبموته؛ انتصب أبو زيان ملكاً على تلمسان من سنة 796هـ/1394م إلى عام 801هـ/1399م. ثم ذلك في جو غير مستقر، ومشحون بالفتن المشتعلة. ويبدو أنه لم يكن مطلق السلطات؛ لأنه وضع في محل مراقبة من قبل بني مرين.

ويتميز السلطان أبو زيان الثاني ابن أبي حمو بسعة الاطلاع، وحب العلم، والتفوق في فنون الأدب، وحسن ركوب صهوة الشعر. وقد وصفه محمد بن عبد الله التتسي بقوله: ((وتصرف في شببته بين دراسة معارف، وإفاضة عوارف؛ وكلف بالعلم؛ حتى صار منهج لسانه، وروضة أجفاته؛ فلم تَخُلْ حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة ومحاضرة؛ فلاحته للعلم في أيامه شمس، وارتاحت للإستقرار فيه نفوس بعد نفوس. نسخ - رضي الله عنه - بيده الكريمة نسخاً من "القرآن" وحبسها؛ ونسخة من "صحيح البخاري"، ونسخاً من "الشفاء" لأبي الفضل عياض؛ حبسها كلها بخزائنه؛ التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة؛ التي

هي من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل؛
ما سرت به الركبان؛ لِمَا أوقف عليها من
الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف. وصنَّف
كتاباً؛ نَحَا فيه منحى التَّصَوُّف؛ سماه "كتاب
الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس
الأمارة"¹.

وسار هذا السلطان المثقف على خطى والده
أبي حمو الثاني؛ في التأكيد على سنن الاحتفال
بالمولد النبوي الشريف في كل عام. وكان يعقد في
قصره مجمعاً - كأبيه - تُلَقَّى فيه قصائد الشعر،
وتشرف الأذان بأهل السماع المترنمة بأشعار في مدح
الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.

ولكن هذا السلطان الأديب الشاعر المسالم؛ لم
يسلم من مكائد بني مرين؛ الذين جهزوا أخاه أبا
محمد عبد الله؛ بجيش، وسيروه إلى تلمسان للإطاحة
بأبي زيان محمد. فافتحم عليه البلد؛ فاضطر إلى
الخروج من المدينة؛ والتقل بين القبائل في شرق
البلاذ؛ إلى أن غدره أحد أفراد تلك القبائل المدعو

¹ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 211.

محمد بن مسعود الوعزاني؛ فقتله. وذلك في سنة
805هـ/1402م.

— قال السلطان أبو زيان هذه القصيدة؛ عندما
مرت بتلمسان الهدية الموجهة من قبل سلطان بني
مريـن إلى سلطان مصر الظاهر برقوق¹؛ فقرر
السلطان أبو زيان محمد المشاركة — هو الآخر —
بهدية من عنده؛ بعث بها مع تلك القافلة إلى
سلطان مصر؛ وهي مكونة من جواد بمراكبها؛ ثم
أرفقها بقصيدة مدح بها السلطان برقوق؛ وهي
كالتالي:

لِمَنِ الرِّكَائِبُ سَيَرُهُنَّ ذَمِيلُ وَالصَّبْرُ — إِلَّا بَعْدَهُنَّ — جَمِيلُ
يَا أَيُّهَا الْحَادِي رُوَيْدَكَ إِنَّهَا ظُعْنٌ يَمِيلُ الْقَلْبُ حَيْثُ تَمِيلُ
رَفِقًا بِمَنْ حَمَلْتَهُ فَوْقَ ظُهُورِهَا فَالْحُسْنُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ
لِلَّهِ آيَةٌ أَنْجُمٌ: شَفَافَةٌ تَتَجَابَّ عَنْهَا لِلظَّالِمِ سُدُولُ
شُهْبٌ بِأَفَاقِ الصُّدُورِ طُلُوعُهَا وَلَهَا بِأَسْتَارِ الْجُدُولِ أَفُولُ

¹ الظاهر برقوق؛ هو أول المماليك البرجيين في مصر والشام؛ حكم من
سنة 784هـ/1382م إلى سنة 801هـ/1399م.

فَكَانَهَا قُمْرٌ عَلَى غُصْنٍ عَلَى مَتْنَى كَثِيبٍ وَالْكَثِيبُ مَهِيلٌ
ثَارَتْ مَطَايِهَا فَتَارَ بِي الْهَوَى وَاعْتَادَ قَلْبِي زَفْرَةً وَغَلِيلٌ
أَوْمَتْ لِتَوْدِيعِي فَغَالِبَ عَبْرَتِي نَظَرْتُ تَخَالِسُهُ الْعُيُونُ كَلِيلٌ
دَمَعٌ أَغِيضُ مِنْهُ خَوْفَ رَقِيبِهَا طَوْرًا وَيَغْلِيظُنِي الْأَسَى فَيَسِيلُ
وَيَحُ الْمُحِبُّ وَشَتَّ بِهِ عَبْرَاتُهُ فَكَانَهَا قَالٌ عَلَيْهِ وَقِيلُ
صَانَ الْهَوَى وَجُفُونُهُ يَوْمَ النَّوَى لِمَصُونِ جَوْهَرٍ دَمْعُهُنَّ تُذِيلُ
وَتَهَابُهُ أَسْدُ الشَّرَى فِي خَيْسِهَا وَيَرُوعُهُ ظَنِّي الْحِمَى الْمَكْهُولُ
تَأَبَّى النُّفُوسُ الضَّيِّمَ إِلَّا فِي الْهَوَى فَالْحُرُّ عَبْدٌ وَالْعَزِيزُ ذَالِيلُ
يَا بَانَةَ الْوَادِي وَيَا أَهْلَ الْحِمَى هَلْ سَاعَةٌ تُصْنِعِينَ لِي فَأَقُولُ
مَا لِي إِذَا هَبَّ النَّسِيمُ مِنَ الْحِمَى أَرْتَاخُ شَوْقًا لِلْحِمَى وَأَمِيلُ
خَلُّوا الصَّبَا يَخْلُصْ إِلَيَّ نَسِيمُهَا إِنَّ الصَّبَا لِيَصَابَتِي تَعْلِيلُ
مَا لِي أَحْلَأُ عَنْ وَرُودِ مَحَلِّهِ وَأُذَاذُ عَنْهُ وَوَرْدُهُ مِنْهُوْلُ
وَالْبَابُ لَيْسَ بِمُرْتَجٍ عَنْ مُرْتَجٍ وَالظَّنُّ فِي الْمَوْلَى الْجَمِيلِ جَمِيلُ

مَنْ لِي بِزُورَةٍ رَوْضَةِ الْهَادِي الَّذِي مَا مِثْلُهُ فِي الْمُرْسَلِينَ رَسُولُ
هُوَ أَحْمَدٌ وَمُحَمَّدٌ وَالْمُصْطَفَى وَالْمُجْتَبَى وَلَهُ انْتَهَى التَّقْضِيلُ
يَا خَيْرَ مَنْ أَهْدَى الْهَدَى وَأَجَلَ مَنْ أَتْنَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالتَّنْزِيلُ
وَحْيٍ مِنَ الرَّحْمَنِ يُلْقِيهِ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ جَبْرِيلُ
مَدَحْنِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَيَشْرَتُ بِقُدُومِكَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلُ
صِلَةَ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ تَحْلُو فِي فَمِي مَهْمَا تَكَرَّرَ ذِكْرُكَ الْمَغْسُولُ

فَوَرَبِّكَ الْمَاهُولُ إِنَّ بَأْضَلْعِي
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِلسَّرَى حَتَّى أَرَى
حَتَّامَ تَمَطُّلِنِي اللَّيَالِي وَعَذَهَا
مَا عَاقَنِي إِلَّا عَظِيمَ جَرَائِمِي
أَنَا مُغْرَمٌ فَتَعَطَّفُوا أَنَا مُذْنِبٌ
وَأَنَا الْبَعِيدُ فَقَرَّبُوا وَالْمُسْتَجِبُ
يَا سَائِقًا نَحْوَ الْحَاجِزِ حَمُولَةً
لِمَحَمَّدٍ بَلَغَ سَلَامَ سَمِيهِ
وَسَلِ الْإِلَٰهَ لَهُ اغْتِقَارَ ذُنُوبِهِ
قَلْبًا بِحُبِّكَ رَبِّعُهُ مَاهُولُ
خَيْرَ الْوَرَى فَهُوَ الْمُنَى وَالسُّوْلُ
إِنَّ الزَّمَانَ بَوْعِدِهِ لَبَخِيلُ
إِنَّ الْجَرَائِمَ حَمْلُهُنَّ ثَقِيلُ
فَتَجَاوَزُوا أَنَا عَاطِرٌ فَأَقِيلُوا
يِرُّ فَاْمُنُوا وَالْمُرْتَجِي فَاْنِيْلُوا
وَالْقَلْبَ بَيْنَ حُمُولِهِ مَحْمُولُ
فَذِمَامُهُ بِمُحَمَّدٍ مَوْصُولُ
يُسْمَعُ هُنَاكَ دُعَاؤُكَ الْمَقْبُولُ

وَعَنِ الْمَلِكِ أَبِي سَعِيدٍ فَلَتَنَبُ
مُنْحَمِلٌ لِلَّهِ كِسْفُةَ بَيْتِهِ
سَعْدُ الْمَلِكِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ
مَلِكٌ يَحُجُّ الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى بِهِ
مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنَامُ وَأُمْنَتْ
فَالْمَلِكُ ضَخَمٌ وَالْجَنَابُ مُؤَمِّلٌ
وَالصَّنْعُ أَجْمَلُ وَالْفَخَارُ مُؤْتَلٌ
يَا مَالِكَ الْبَحْرَيْنِ بَلَّغْتَ الْمُنَى
يَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ حَقَّ لَكَ الْهَنَا
يَا مُتَحِفِي وَمُقَاتِحِي بِرِسَالَةٍ
فَلَاكُمُ لَهُ نَحْوُ الرَّسُولِ رَسُولُ
يَا حَبَّاذَكَ الْمَحْمَلُ الْمَحْمُولُ
سَيْفٌ عَلَى أَعْدَائِهِ مَسْلُوكُ
فَلَهُمْ بِهِ نَحْوُ الرَّسُولِ وَصُولُ
سُبُلُ الْمَخَافِ فَلَا يُخَافُ سَبِيلُ
وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلُ
وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلُ
قَدْ عَادَ مِصْرُ عَلَى الْعِرَاقِ يَصُولُ
فَعَلَيْكَ مِنْ رُوحِ الْإِلَهِ قَبُولُ
سَلْسَالَةٍ يُزْهِى بِهَا التَّرْسِيلُ

أَهْدَيْتَهَا حَسَنَاءَ بِكَرَامٍ لَهَا
ضَاءَ الْمِدَادِ مِنَ الْوِدَادِ بِصُحُفِهَا
جُمِعَتْ وَحَامِلُهَا بِحَضْرَتِنَا كَمَا
وَنَأَكَّدَتْ بِهَدِيَّةٍ وَدِّيَّةٍ
وَبَدَائِعِ الْحُلَلِ الِيمَانِيَّةِ الَّتِي
فَاجَلَّتْ فِيهَا نَاطِرِي فَرَأَيْتُهَا
جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَأَهْوَى نَحْوَهَا
يَا مُسْعِدِي وَأَخِي الْعَزِيزِ وَمُنْجِدِي
إِنْ كَانَ رَسْمُ الْوَدِّ مِنْكَ مُذَيَّلًا
فَفَظِيرُهُ عِنْدِي وَلَيْسَ يَضِيرُهُ
وَدُّ يَزِيدُ وَتَابِتٌ شَهِيدًا بِهِ
وَالْيَكَا تُنْبِيكَ صِدْقَ مَوَدَّتِي
فَإِذَا بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سَمَتْ
دَامَ الْوِدَادُ عَلَى الْبِعَادِ مُوَصَّلًا
وَبَقِيَتْ فِي نَعَمٍ لَدَيْكَ مَرِيدُهَا
غَيْرِي وَإِنْ كَثُرَ الرِّجَالُ كَفِيلُ
حَتَّى اضْمَحَلَّ عُيُوسُهُ الْمَجْبُولُ
جُمِعَتْ بُثْنِيَّةٌ فِي الْهَوَى وَجَمِيلُ
هِيَ لِلْإِخَاءِ الْمُرتَضَى تَكْمِيلُ
رَوَى مَعَاطِفُهَا بِمِصْرَ النَّيْلِ
تُحَفًا يَجُولُ الْحُسْنُ حَيْثُ تَجُولُ
بِفَمِ الْقَبُولِ اللَّثْمُ وَالْتَقْبِيلُ
وَمَنْ الْقُلُوبُ إِلَى هَوَاهُ تَمِيلُ
بِالْبِرِّ وَهُوَ بِذِيْلِهِ مَوْصُولُ
بِمَعَارِضٍ وَهَمٌّ وَلَا تَخْيِيلُ
وَلِخَالِدٍ بِخُلُودِهِ تَذْيِيلُ
صَحَّ الدَّلِيلُ وَوَافَقَ الْمَدْلُولُ
فَلَدَيْكَ إِقْبَالٌ لَهَا وَقَبُولُ
بَيْنَ الْقُلُوبِ وَحَبْلُهُ مَوْصُولُ
وَعَلَيْكَ يَضْفُو ظِلُّهَا الْمَسْدُولُ

المائة العاشرة فجرية
من 900 - 1000 و

أحمد بن محمد

ابن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيه بن عبد

الله المناوي الوربي التلمساني

المعروف بابن الحاج.

هو أحد فقهاء المذهب المالكي ذوي الاعتبار. كما عرف بضلوعها وتمكنه من علوم شتى: كعلوم اللغة والأدب والبيان والمنطق؛ وله قدرات واضحة في النظم. وله مؤلفات عديدة؛ منها: أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس، ونظم عقيدة السنوسي الصغرى، وشرح بردة البصيري؛ ولكنه لم يكمله. من شيوخه: أحمد بن محمد بن زكري التلمساني؛ الذي أخذ عنه الأصول، والعريفة، والمعاني، والبيان، والمنطق، والحساب. قال عنه ابن مريم: ((وكان شاعراً، ماهراً في عروض الشعر. وكان معاصراً لابن غازي؛ وكان يلغز كل واحد لصاحبه بالمسائل بالنظم. ومن نظم ما بعث به ابن غازي إليه:

وميت قبر طعمه عند رأسه
إذا ذاق من ذاك الطعام تكلما
يقوم فيمشي صامتا متكلما
ويأوى إلى القبر الذي منه قوما
فلا هو حي يستحق زيارة
ولا هو ميت يستحق ترحما

فأجابه سيد أحمد بن الحاج رحمه الله ورضي عنه:
بحمد الله أبتدي ثم بعده
أصلي على خير الأنام مسلما
هو القلم القبر الدواة وطعمه
مداد كلامه الكتابة فافهما
وكاتب هذا أحمد بن محمد
عفا الله عنه كل ما كان أجراما¹.

أما تلاميذ ابن الحاج؛ فمنهم: ابن أخته الحاج
ابن السعيد، ومحمد بن بلال المديوني، والولي
الصالح عبد الرحمن التابع لليعقوبي في التصوف.
أما وفاته فيبدو أنها حدثت في حدود عام
930هـ/1524م.

¹ البستان، ص: 8.

نظمه

يغلب على أعمال ابن الحجاج النظم في قضايا
تعليمية. وفي ما يلي عينات منه:

- نظم عقيدة السنوسي الصغرى؛ ومطلعها:

الحمد لله الذي عرفنا بنفسه وزبالهدى شرفنا
إلى قوله:

وبعد فالمقصود من هذا النظام نظم عقيدة السنوسي الإمام
من غير تبديل ولا تغيير سوى اختلاف اللفظ والتعبير

- وفي نظمه لبيوع الآجال قال:

الله أحمد مصليا على محمد مسلما على الولا
أما فخذ نظم بيوع الأجل مختصرا أزاح كل الوجدل
من باع شيئه بنقد فاشتراه بثمن من جنس ما به شراه
من يشتريه قبل كان فيه سبع وعشرون من الوجوه
يجوز ذا في عشرة وسبعة وعشرة تمنع للزريعة
والحكم في النقد دون الأجل سيان في كل تطول
لأنه قد يشتريه فردا لوقته أو بعده أو نقدا
فذي ثلاث كلها بمنل ما باع به أو ناقصا أو أعظما

تصير تسعا مع تسع أخرى فيما إذا قد كان بعضه اشترى
وتسعة فيما إذا اشتراه مع غيره وذاك منتهاه
إذا ضربت في ثلاث تسعا زادت على العشرين فاعلم سبعا
فإن يكن شراؤه للأجل فالتسعة الأوجه جازت فاعقل
وهي ما إذا اشتراه مفردا بالقدر أو أقل أو بأزيدا
أو اشترى معه سواه في الثلاث أو بعضه اشترى كذا بلا اكتراث
وإن يك اشتراه فردا ناجزا أو بعضه فذا يكون جائزا
بمثل ما باع به أو أكثرا ولا يجوز أن يكون نذرا
وإن يك اشتراه نقدا مع سواه فمنع الأوجه الثلاث غير واه
أما إلى أبعد من ذاك الأجل مفردا أو مع مزيد قد حصل
فجائز بالمثل أو أقل ولا يجوز أن يكون أعلى
وإن يكن شراؤه بعضا إلى أقصى من الأجل فامنع مسجلا
هذا إذا كان المبيع يعرف بعينه فالحكم لا يختلف
وإن يك المبيع ليس يعلم وغاب عنه فالوجوه أعظم
يطول شرحها فلا تقنع بما من الوجوه ذكره تقدما
كذا حكى الشيخ أبو الوليد محمد بن رشد الرشيد
ثم الصلاة والسلام جمعا على النبي والصحب والآل معا

وإلى جانب النظم؛ له أيضاً قصائد شعرية؛ وصفها
ابن مريم بقوله: ((وقد مدح النبي صلى الله عليه
وسلم بقصائد أتى فيها بالعجب العجائب؛ فمنها:

ومن بعد باسم الله والحمد إذ به بديّة من يبغى الكمال ويطلب

وفيهـا من الأبيـات عدد سور القرآن العظيم؛ ومنها
في مدح النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهي هذه:
سلام على سكان طيبة والحمى فهم اسلموا قلبي سليما مسلما
نأت دارهم عني فظنّت لبينهم كنيبا قريح القلب صبا متيما
وآخرها:

فلما عدمت القبر يمت مدحه فمن لم يجد ماء دهورا تيمما¹.

— وله هذه المقطوعة أيضاً:

رضيت بقسم الله ثم اختياره وجنبت نفسي السعي حول اغتباله
وفوضت أمري للذي هو عالم بأسباب إصلاح الفتى واختباله
وأبست قلبي من رجا غير ربه لجلب مناه أو لسلب اعتلاله
يقيني يقيني أن أرى متذلا لغير عزيز واحد في جلاله
وإني لأستحيي من الله أن أرى لباب سواه سائلا لنواله
أيا طالب الدنيا والأخرى كليهما عليك بباب الله لذّ بحباله
— وجاء في آخرها:

ومن بعد حمد الله أهدي صلاته وتسليمه للهاشمي وآله

¹ البستان، ص: 18.

أحمد بن يحيى

ابن محمد بن عبد الواحد بن علي النشري
(أبو العباس)

هو أحد أئمة الفقه والفتوى؛ المختصين
بالمذهب المالكي. أصله من جبل وانشريس في
النواحي الغربية من مدينة الجزائر؛ وولد في عام
834هـ/1430م، ونشأ بتلمسان ودرس على شيوخها؛
منهم: أبو الفضل قاسم العقباني، وولده القاضي أبو
سالم العقباني، وحفيده محمد بن أحمد بن قاسم
العقباني؛ ثم درس أيضاً على محمد بن العباس، وأبي
عبد الله الجلاب، وابن مرزوق الكفيف، والغرابلي،
والمري، والمازوني. امتحن ونكب بتلمسان في سنة
874هـ/1469م من قبل السلطان أبي ثابت المتوكل؛
فنهبت داره؛ فاضطر إلى الهجرة نحو المغرب
الأقصى؛ حيث استقر بفاس؛ أين بقي بها إلى أن
وافته المنية في سنة 914هـ/1509م. ومن مؤلفاته:
كتاب الولايات؛ في الخطط الشرعية، عدة البروق في
تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق، وكتاب
في ترجمة محمد المقرئ الجد، شرح الخرجية في

العروض، وغنية المعاصر، مختصر أحكام البرزالي،
القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن الحاجب، حل
الربقة في أسير الصفة، وإضاءة الحالك في الرد
على من أفتى بتضمين الراعي المشترك، وكتاب
وفيات الونشريسي، وإيضاح المسالك إلى قواعد الإمام
مالك، وفهرس الونشريسي في ثلاثة كراريس، وكتاب
المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأدب
الوثائق، ثم أهم كتبه وأوسعها انتشاراً؛ وهو كتاب
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء
إفريقية والأندلس والمغرب.

- قل التنسي هذه المقطوعة في تقريض كتابه
المعنون بـ: إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي
عبد الله مالك:

عليك بإيضاح المسالك أولاً

فقد ضم أنفاساً نفائس واعتلا

وبرز في مجلى الجمال وجيدها

وأحرز أشتات المحاسن واجتلا

وواضح أشكالا جليلا فما ترى
غموضا وقل كل المناهج ذللا
وهذب ألقاب القواعد كلها
ورتب أنواع المباني وفصلا
وقرب ما قد كان ينبو عن الورى
وقيد ما قد كان في الكتب مسجلا
جنى من ثمار العلم ما قد رأيته
وحاز من السحر الحلال حائلا
عليك بحفظ ما حواه فإنه
جليل مفيد قد أبان وحصلا
وتدعو لعبد مذنب متذلل
عبيد الإله نجل يحيى عن الولا
وصل وسلم ثم صل وسلمن
على خير رسل الله ثمة من تلا

محمد بن أحمد بن الحداد

الشهير بالوادي أشي نزيل تلمسان.

(ابو عبد الله)

حلّ بتلمسان؛ بعد سقوط غرناطة في يد
النصارى. وباستقراره في هذه المدينة؛ تزوج من
أسرة من بني مرزوق؛ ولكن تلك الصلة انقطعت
بعد فترة؛ لأسباب ما. ووصف المقرئ نظمه فقال:
(وكان له نظم لا بأس به)¹.

— أورد المقرئ له هذين البيتين؛ قللاً أن بيتاً منهما
نسيه؛ ومفاده: أن الناس لاموه عندما طلق بنت
ابن مرزوق؛ فأجابهم بهذه المقطوعة؛ بعد ذلك
البيت المنسي:

يلومني الأقوام من بعد ما سَطَا
عَلَيَّ ابْنُ مَرْزُوقٍ وَمَنْ بَانَفَاقٍ

¹ أزهار الرياض، ج: 3، ص: 305.

فَقُلْتُ لَهُمْ كُفُّوا الْمَلَامَ فَإِنِّي
تَرَكْتُ ابْنَ مَرْزُوقٍ وَأَمَّمْتُ رِزَاقِي

— هذه الأبيات رثى بها أحمد بن يحيى الونشريسي
صاحب المعيار المغرب:

لَقَدْ أَظْلَمْتَ فَاسٌ بِلِ الْمَغْرِبِ كُلِّهِ
بِمَوْتِ الْفَقِيهِ الْوَنْشَرِيْسِي أَحْمَدِ
رئيسُ ذَوِي الْفُتُوْى بغيرِ مُنَازِعِ
وَعَارِفِ أَحْكَامِ النَّوَازِلِ الْأَوْحَدِ
لَهُ دُرْبَةٌ فِيهَا وَرَأْيٌ مُسَدَّدٌ
بِإِرْشَادِهِ الْأَعْلَامُ فِي ذَاكَ تَهْتَدِي
وَتَاللهِ مَا فِي غَرْبِنَا الْيَوْمَ مِثْلُهُ
وَلَا مِنْ يُدَانِيهِ بِطُولٍ تَرَدُّدِ
عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَفْضَلُ رَحْمَةٍ
تَرْوُحُ عَلَى مَثْوَاهِ فَيَضَا وَتَغْتَدِي

— وقال يرثيه في أخرى كذلك:

أَبْعَدَ ابْنِ يَحْيَى الْيَوْمَ فِي الْغَرْبِ عَالِمٌ
يُطَبِّقُ بِالْفُتُيَا الْمَفَاصِلَ مِثْلُهُ

وَيَعْرِفُ مِنْ فَهْمِ النَّوَازِلِ غَايَةَ
يُوقِّعُ مِنْهَا مَا بِهِ بَانَ نُبْلُهُ
وَإِنْ جِئْتُ لِلْإِنْصَافِ لَمْ يَبْقَ مِثْلُهُ
وَهَذَا الْجَلِيلُ لَيْسَ يُنْكَرُ فَضْلُهُ
فَإِذَا كَانَ جَاءَ الْمَوْتُ فَالْصَّبْرُ وَالرِّضَا
عَلَى مَا قَضَى الْخَلْقُ فَالْحَوْلُ حَوْلُهُ

— وقال في مرثية ثالثة للتنسي أيضاً:
رَأَيْتُ نُجُومَ الدِّينِ تَبْكِي حَزِينَةً
عَلَى فَقْدِ حَبْرٍ كَانَ قُطْبَ أُولَى الْعُلِيَا
فَقُلْتُ: وَمَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ مُجِيبَةً:
عَلَى الْوَنَشْرِيسِيِّ رَئِيسِ ذَوِي الْفُتَيَا
فَصَحْنًا وَقُلْنَا: وَيَلْنَا ثُمَّ وَيَلْنَا
عَلَى فَقْدِهِ مَذْ غَابَ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا
عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَفْضَلُ رَحْمَةٍ
تَعَاهَدُ مَثْوَاهُ مَعَ الْجَوْدِ وَالسُّقْيَا

— وفي رابعة المراثي قال أيضاً:
رَأَيْتُ نُجُومَ الدِّينِ تَبْكِي حَزِينَةً
عَلَى فَقْدِ مَنْ قَدْ كَانَ قُطْبَ زَمَانِهِ

فقلت: وَمَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ مُجِيبَةً:
عَلَى الْوَتَشْرِيسِيَّ وَحِيدٍ أَوَانِهِ
إِلَيْهِ انْتَهَتْ فِي الْفِقْهِ كُلُّ رِيَّاسَةٍ
وَمَعْرِفَةِ زَيْنَتٍ بِحُسْنِ بَيَانِهِ
وَمُذْ غَابَ عَنَّا أَظْلَمَ الْكَوْنُ كُلُّهُ
وَصَارَ الضُّحَى لَيْلًا لِفَقْدِ عِيَانِهِ
وَإِنَّ عَزَائِي فِيهِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ
خُصُوصاً ذَوِي فِقْهِ لِعِزِّ مَكَانِهِ

— مَدْحُ الْفَقِيهِ أَحْمَدَ الْعَبَّادِي بِقَوْلِهِ:
وَمَنْ مِثْلُهُ فِي الْعِلْمِ يُنْدِي فُنُونَهُ
مَعَ الدِّينِ وَالتَّقْوَى عَلَى صِغَرِ السِّنِّ
فَأَثْبَتَهُ الْمَوْلَى وَأَثْبَتَ أَمْرَهُ
وَزَكَّى عُلُوماً حَازَ فِي غَيْرِ مَا فَنٍّ

— وَقَالَ فِي تَلَمُّسَانِ عَصْرِهِ:
تِلْمُّسَانُ أَرْضٌ لَا تَلِيْقُ بِحَالِنَا
وَلَكِنْ لُطْفَ اللَّهِ نَسْأَلُ فِي الْقَضَا
وَكَيْفَ يُحِبُّ الْمَرْءُ أَرْضاً يَسُوسُهَا
يَهُودٌ وَفَجَّارٌ وَمَنْ لَيْسَ يَرْضَى

— وقال أيضاً عن تلمسان في أيامه:

غريباً في تِلْمَسَانَ وحيداً

من الأحباب ليس له مُشَاكِلُ

وكم فيها من الأصحاب ولكن

عَدِمَتْ بِهَا الْمُنَاسِبُ وَالْمُمَانِلُ

محمد بن عبد الرحمن الحوضي التلمساني (ابو عبد الله)

وصفه ابن مريم بقوله: ((الفقيه العالم
الأصولي الشاعر المكثر؛ له نظم في العقائد شرحه
الإمام السنوسي، وله غيره، ووقع اسمه في المعيار؛
قال الونشريسي في وفياته: توفي في ذي القعدة عام
910هـ [الموافق لـ1505م])¹. ولد الحوضي بتلمسان
في تاريخ غير معروف؛ ونشأ بمسقط رأسه؛ أين
كان يتقل بين حلقات دروس شيوخ العلم. وكان
متفوقاً في فنون الأدب وعلوم اللغة. وله قصائد
عديدة في أغراض متنوعة؛ كما قام بإعداد منظومة
في العقائد؛ شرحها الإمام السنوسي. وقام أيضاً
بتخميس قصيدة لأبي مدين شعيب مطلعها:
يا من يغيث الوري من بعد ما قنطو
إرحم عبيداً أكف الفقر قد بسطوا

¹ البستان، ص: 252.

— ومن شعر الحوضي الغزلي هذه القصيدة:

أَرِذَاذُ الْمُزْنِ مِنْ عَيْنِ نَزَلْ
أَمْ دُمُوعُ الشَّوْقِ إِنَّ¹ رَقَّ الْغَزْلُ
أَبْعَيْنِي بِيَمَةً وَكَافَةً
أَمْ شُعَيْبٌ لِلنَّوَى مِنْهَا أَنْبَزْ
لَا بَكَتْ عَيْنِي وَلَا أَبْغَى الْبُكَاءُ
ضَوْؤُهَا عَنْ فِعْلِهَا إِنْ لَمْ تَزَلْ
دَغْ عَذُولِي اللَّوَمِ إِنِّي شَائِقٌ
رَقَّ طَبْعِي دُونَ صُنْعِي فِي الْأَزَلْ
أَوْ يُنَسَى الْعَهْدَ قَلْبٌ دَنَفْ
وَالْهَوَى قَبْلَ النَّوَى عَنْهُ نَزَلْ
لَا تَلْمَنِي دُونَ عِلْمِ عَاذِلِي
فَيَسْمَعِي صَمَمٌ عَمَّنْ عَذَلْ
إِنْ فِي نَارٍ هَوَاكُمُ جَنَّتِي
لَوْ عَلِمْتَ الْحَبْلُ مِنْكُمْ يَتَّصِلْ
أَمْثُوا رَوْعَةً قَلْبِي بِاللَّقَا
فَأَنْتِظَارُ الْوَعْدِ قُرْبُ إِنْ حَصَلَ

¹ في نص: ((اذ)).

- هذه الأبيات؛ من قصيدة مدح بها الحوضي
التمساني سلطان تلمسان أبا عبد الله المتوكل
الزباني:

أَصْبَحَ الْمَزْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي
يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءَ
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْغَمَامُ شَبِيهَاً
وَلَقَدْ فُقِّتَهُ سَنَاءً وَسَنَاءَ
أَنْتَ تُعْطِي إِذَا تَقَصَّرُ مَا لَّا
وَهُوَ يُعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءَ

قال صاحب نفح أنها طويلة؛ فاكتفى بما ورد.

- وهذه قصيدة لزومية للحوضي يرثي بها الإمام
محمد بن يوسف السنوسي الحسني:

مَا لِلْمَنَازِلِ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤَهَا
وَالْأَرْضُ رَجَبٌ حِينَ خَابَ رَجَاؤُهَا
وَأَتَى عَلَيْهَا النِّقْصُ مِنْ أَطْرَافِهَا
وَتَرَاكُمَتْ وَتَعَاظَفَتْ أَرْزَاؤُهَا

رزء عظيم خطبة ومصيبة
لم ندر يا للقوم كيف عزأوها
فقد السنوسي الإمام محمد
وهو ابن يوسف هد منه علاؤها
قد كان بحرا للمعارف زاخرا
فانزاح عنها حين بث غطاؤها
ودعا إلى التوحيد دعوة مخلص
وإلى الشريعة فاستنار ضياؤها
هذا الذي ورث النبي فأصبحت
علل الضلال به استفيد دواؤها
هذا الذي تبع النبي وصبه
فانجاب عن سبل الهدى ظلمأوها
يا أيها النفس المقدسة التي
لبقائها المحدود كان فناؤها
يا أوحى العلماء يا علما به
كل العلوم بدت لنا أنحاؤها
يا درة الزهاد يا غوثا به
يرجي لأمراض القلوب شفاؤها
كم جاءت الدنيا تسوق رئاسة
يبغي إليك تقربا أبناؤها

فأبیت عنها معرضا مستحرقا
لم یخدعك جمالها وبهاؤها
وجعلتها نحو الجنان مطیة
وسبیل ترحال وذاك جزاؤها
من للتألیف التي ألفتها
ییدی بها ما استشكلت قراؤها
من للعلوم على اختلاف فنونها
ییدی لها نكتا یروق سناؤها
من القلوب إذا صدت وإذا قست
تأتي مواعظه فیذهب داؤها
ما ذاك إلا من خصائلك التي
أعطاكها رب له إعطاؤها
ما شئت من تقوى ومن روع ومن
كرم ومن شیم تلا إحصاؤها
واسیت أهل العلم حتی أصبحوا
وعلك من نفقاتهم أجراؤها
تعطي وتؤثر من ترى ذا حاجة
فاعتاد رفدك دائما فقراؤها
تلقاهم متهللا متبسما
فوجدوهم باق علیها ماؤها

وينال كل الناس منك نصيبه
حتى لقد بلغ المراد إياؤها
أخلاقك التسليم يصحبه الرضى
بالله منشور عليك لواؤها
خلق كريم لم ينل يعطيه
إلا من المولى ينال عطاؤها
شهد الأعادي كالصديق فأنشدوا
ومليحة شهدت لها أعداؤها
لكن مشيئة ربنا تجري كما
سبق القضاء فلا يرد قضاؤها
لها ولها دائماً لو أنها
تجدي وما تغني وكيف غاؤها
إن تكبه عين فما أدت له
حقاً ولو مزج الدموع دماؤها
أو تبكه أبداً تلمسان ومن
في حوزها ورجالها ونساؤها
لم يقدروا مقداره أنى لهم
ولقد بكته أرضها وسماؤها
فلمنله يبكي الوجود مصيبة
عظمت فأحزنت الورى إغماؤها

هيهات للذنيا تجود بمثله
من شأنها لم يصف قط إناؤها
وجب العزاء به لكل موحد
من شأنها لم يصف قط إناؤها
ولأهل مجلسه خصوصها ابنه
شمس نأت عنهم غاب ضياؤها
وشيخونا العلماء نعزي أننا
جسد له أعضاؤهم رؤساؤها
ولأهله حق العزا فبيوتهم
من بعده لا تتجلي ظلماتها
لكن من الشمس المنيرة إن تغب
بدر الدجا خلف وفيه سناؤها
يا قلب صبرا فالمصائب كلها
إن تلقها بالصبر خف بلاؤها
يا رب قدس روحه وضريحه
ومن الجنان تحفه نعمائها
وعليه من رب الأنام تحية
موصلة لا تنقضي أناؤها

محمد بن عبد الكريم ابن محمد المغيلي التلمساني

ينتمي صاحب الترجمة إلى قبيلة مغيلة البترية الأمازيغية. وولد بتلمسان في عام 790هـ/1425م؛ أين نشأ وترعرع في وسط عائلة نبيلة؛ اشتهرت بالعلم والمحافظة على الدين. زاول دروسه بتلمسان؛ أخذ عن والده مبادئ اللغة العربية؛ من نحو وصرف؛ ثم حفظ على يديه القرآن الكريم، وأخذ عنه أيضاً كتاب الموطأ، وكتاب ابن الحاجب الأصلي. ثم تدرس - بعد والده - على الفقيه محمد بن أحمد ابن عيسى المغيلي المعروف بالجلاب التلمساني (المتوفي سنة 875هـ/1470م)؛ حيث أخذ عنه التفسير والقراءات؛ ثم الفقه المالكي؛ خاصة أن صاحب الترجمة قال أنه ختم على يديه المدونة مرتين؛ كما أخذ عنه أيضاً مختصر خليل، والفرائض. ومن شيوخه في تلمسان كذلك: أبو يحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الحسني التلمساني (المتوفي سنة 825 أو

826هـ/1421 - 1422م). ومحمد بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله التلمساني (المتوفي سنة 845هـ/1441م). وأخذ العلم في بجاية عن: الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (المتوفي سنة 840هـ/1436م، ثم منصور بن علي عثمان، وأبو علي الزواوي المنجلاتي (المتوفي بتونس سنة 846هـ/1442م). وأخذ أيضاً عن علماء آخرين؛ منهم: الفقيه القاضي أبي زكرياء يحيى بن نذير بن عتيق التدلسي؛ الذي تعلم هو الآخر بتلمسان، وولي القضاء بتوات. ثم أخذ عن أبي العباس الوغليسي. وفي مدينة الجزائر أخذ المغيلي عن الإمام المفسر الشهير عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف بن طلحة الثعالبي؛ صاحب تفسير الجواهر الحسان؛ فلزمه المغيلي، وتزوج بابنة الشيخ الثعالبي. وبعد رحلات التزود بالعلم؛ والحرص على اكتساب ما قلّ وفاض من معين العلم والمعرفة؛ أضحى محمد بن عبد الكريم المغيلي أحد كبار فقهاء المالكية، ومن المتكلمين، وأصحاب التفسير. كما خط بقلمه مؤلفات كثيرة في: الفقه، والتوحيد، والتفسير، والحديث، والمنطق، والعربية، والآداب السلطانية، والشعر؛ وقد تصل

مؤلفاته إلى 18 تأليفاً؛ أهمها: البدر المنير في علوم التفسير، وشرح بيوع الآجال من كتاب ابن الحاجب، ومختصر تلخيص المفتاح، وشرحه في البلاغة، وشرح الجمل للخونجي، ومقدمة في المنطق، ومنظومة فه - أيضاً - بعنوان منهج الوهاب؛ خصها بثلاثة شروح، وتنبیه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين؛ وهو نقد للمتصوفين؛ حسبما يبدو، ومقدمة في العربية، وكتاب الفتح المبين، وشرح خطبة المختصر، ورسالة مصباح الأرواح في أصول الفلاح؛ التي بعث بها إلى علماء أقطار المغرب؛ لحثهم على مناهضة اليهود، والتصدي لهيمنتهم. وكانت له اتصالات - بالمراسلة - ببعض علماء المشرق. من بينهم جلال الدين السيوطي؛ الذي اختلف معه بخصوص شرعية تعاطي علم المنطق؛ فأرسل إليه منظومة؛ يدافع فيها عن هذا العلم، ويعارض موقف السيوطي؛ الذي كان لا يجيز تعلم المنطق. ومن هنا يتبين تفوق المنهج العلمي عند المغيلي؛ الذي يستند إلى المنطق؛ الفاصل بين ما هو حق وما هو باطل؛ بالاستناد إلى أسس عقلية.

ولم يكن المغيلي راضياً عن سلاطين المنطقة آنئذ؛ وسخط على سلوكهم مع رعيّتهم، كما سخط على مثقفي عصره؛ جراء صمتهم وتملّقهم للحكام. الأمر الذي حثّه على الهجرة جنوباً؛ نحو قصور الصحراء الطاهرة العذراء عن كل ما من شأنه أن يمسّخ حالها. فاستقر لبعض الوقت في نواحي توات (ولاية أدرار حالياً)؛ وفي تمّنيط بالذات. فكان مجال عمله العلمي منتشراً في تلك القصور الصحراوية مثل: تمّنيط تيكورارين، وأسملال، وأولف، وزلوية كنتة. وبوجوده في تلك المناطق النائية؛ التي تقع في وسط الطريق التجاري بين إفريقيا السوداء والشمال الإفريقي؛ تعرف على أهمية المنطقة استراتيجياً؛ كما اكتشف الدور الخطير الذي يمثله يهود تلك الجهات؛ حيث تبين له أنهم بصدد إقامة كيان لهم في أرض الإسلام. وعلى هذا؛ فقد شنّ ضدهم حملة ضارية؛ انتهت بكبحهم وتقليص نفوذهم في بلاد توات. ولما حقق مبتغاه؛ قرر الهجرة نحو بلاد السودان الغربي وفي مناطق مالي والنيجر الحاليين: (تكدة، وكشن، وكانو، والتكورور، وكاغو)؛ أين أضحى له تأثير عجيب على سلاطين تلك البلاد؛ حيث بقي منشغلاً بشؤون الدعوة لجوهر الإسلام،

وكرس نفسه للوعظ والإرشاد وتأليف بعض كتب في الدين، وفي الأحكام السلطانية. وحتى إن ظهرت له مواقف ضد المتصوفين الدراويش؛ إلا أنه لم يكن ضد الصوفية الإيجابية المستتيرة والناشرة للعلم. وقد ثبت لبعض المحققين أنه كان من المشجعين على نشر الطريقة القادرية في بلاد السودان الغربي؛ بحكم أنه تلقاها عن شيخه وصهره عبد الرحمن النعالبي. وقام برحلة للحجاز بغرض أداء فريضة الحج. ولما عاد توجه إلى توات؛ بعد أن وصله خبر مقتل ولده من قبل يهود تلك الديار. بقي يدرس العلم في تلك الجهة إلى أن وافته المنية في عام 909هـ/1503م.

شعره

- وهذه أبيات من منظومة المغيرة؛ لام بها جلال الدين السيوطي على فتواه بعدم جواز قراءة علم المنطق:

سَمِعْتُ بِأَمْرٍ مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
وَكُلُّ حَدِيثٍ حُكْمُهُ حُكْمُ أَصْلِهِ
أَيَّمَكِنْ أَنْ الْمَرْءَ فِي الْعِلْمِ حُجَّةٌ
وَيَنْتَهَى عَنِ الْفُرْقَانِ فِي بَعْضِ قَوْلِهِ
هَلِ الْمَنْطِقُ الْمَعْنَى إِلَّا عِبَارَةٌ
عَنِ الْحَقِّ أَوْ تَحْقِيقَةً حِينَ جَهْلُهُ؟
مَعَانِيهِ فِي كُلِّ الْكَلَامِ فَهَلْ تَرَى
دَلِيلًا صَحِيحًا لَا يَرُدُّ لَشَكْلِهِ؟
أُرِينِي هَذَاكَ اللَّهُ مِنْهُ قَضِيَّةٌ
عَلَى غَيْرِ هَذَا تَنْفُهَا عَنْ مَحَلِّهِ
وَدَعِ عَنْكَ مَا أَبْدَى كُفُورٌ وَذَمُّهُ
رَجَالٌ وَإِنْ أُثْبِتَ صِحَّةُ نَقْلِهِ
خُذِ الْحَقَّ حَتَّى مِنْ كُفُورٍ وَلَا تَقِمِ
دَلِيلًا عَلَى شَخْصٍ بِمِثْلِهِ

عَرَفْنَاهُمْ بِالْحَقِّ لَا الْعَكْسَ فَاسْتَبْنِ
 بِهِ لَا بِهِمْ إِذْ هُمْ هُدَاةٌ لِأَجْلِهِ
 لَنْ صَحَّ عَنْهُمْ مَا ذَكَرْتَ فَكَمْ هُمْ
 وَكَمْ عَالِمٌ بِالشَّرْعِ بَاحٌ بِفَضْلِهِ؟
 فكل عني ما ينبغي لكلامه
 فهذا هو التحقيق فارجع لعدله
 وإلا قدم برهان تضليل بعضهم
 على منهج ينجيك عن سم نبيله

— فأجابه السيوطي:
 حَمَدْتُ إِلَهَ الْعَرْشِ شُكْرًا لِفَضْلِهِ
 وَأَهْدِي صَلَاةَ النَّبِيِّ وَأَهْلِهِ
 عَجَبْتُ لِنَظْمٍ مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
 أَتَانِي عَنْ حَبْرٍ أَقْرُ بِنَبْلِهِ
 تَعَجَّبَ مِنِّي حِينَ أَلْفَتْ مُبْدَعًا
 كِتَابًا جَمُوعًا فِيهِ جَمٌّ بِنَقْلِهِ

أَقَرُّ فِيهِ النَّهْيُ عَنْ عِلْمِ مَنْطِقٍ
وَمَا قَالَهُ مِنْ قَالٍ مِنْ ذِمٍّ شَكْلِهِ
وَسَمَّاهُ بِالْفَرْقَانِ يَا لَيْتَ لَمْ يَكُنْ
فَإِذَا وَصَفَ قُرْآنَ كَرِيمٍ لِفَضْلِهِ
وَقَدْ قَالَ مُحْتَجًّا بِغَيْرِ رِوَايَةٍ
مَقَالًا عَجِيبًا نَائِيًا عَنْ مَحَلِّهِ
وَدَعَّ عَنْكَ مَا أَبْدَى كُفُورًا وَبَعْدَ ذَلِكَ
خُذِ الْحَقَّ حَتَّى مِنْ كُفُورٍ بِخَلْقِهِ
وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ فِي ذِمٍّ مِنْ حَوَى
عُلُومَ يَهُودٍ أَوْ نَصَارَى لِأَجْلِهِ
يَحُوزُ بِهِ عِلْمًا لَدَيْهِ وَإِنَّهُ
يُعَذِّبُ تَعْذِيبًا يَلِيقُ بِفِعْلِهِ
وَقَدْ مَنَعَ الْمُخْتَارَ فَارُوقَ صَحْبِهِ
وَقَدْ خَطَّ لَوْحًا بَعْدَ تَوْرَةِ أَهْلِهِ
وَكَمْ جَاءَ مِنْ نَهْيٍ اتَّبَعَ لِكَافِرٍ
وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ حَقًّا بِأَصْلِهِ
أَقَمْتُ دَلِيلًا بِالْحَدِيثِ وَلَمْ أَقُمْ
دَلِيلًا عَلَى شَخْصٍ بِمَذْهَبٍ مِثْلِهِ

سَلَامٌ عَلَىٰ هَذَا الْإِمَامِ فَكَمْ لَهُ
لَدَيَّْ ثَنَاءٌ وَاعْتِرَافٌ بِفَضْلِهِ

- من مؤثور ما قاله شعراً، وتداوله بين الناس
غرباً وشرقاً؛ حتى عومل معاملة المثل السائر قوله
هذا البيت الشهير:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى مَوْتَهَا
إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

كشف عام بالمصادر والمراجع

- ابن تومرت؛ لرشيد بورويبة، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1982م
- أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره؛ لعبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1394هـ/1974م.
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان؛ — لأحمد بن عمر بن أبي الضياف (ت: 1291هـ/1845م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، والدار التونسية للنشر، 1396هـ/1976م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة؛ للسان الدين؛ محمد بن الخطيب السلماني (713هـ/1313م — 776هـ/1374م)، تقديم ومراجعة وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر 2009م.
- أخبار ملوك بني عبيد؛ محمد بن علي ابن حماد الصنهاجي (ت: 626هـ/1230م)، تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1405هـ/1984م.

— أخبار المهدي بن تومرت؛ لأبي بكر بن علي الصنهاجي البيذق، تحقيق عبد الحميد حاجيات؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1394هـ/1974م

— أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين؛ لأبي بكر بن علي الصنهاجي البيذق، تحقيق ليفي بروفنسال E. Lévi-Provençal، مكتبة المشرقين Librairie Orientaliste بباريس 1928م.

— أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السّفر للسّلفي)؛ لأحمد بن محمد السّلفي (ت: 576هـ/1180م)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1963م

— الأدب المغربي؛ ابن تلويت؛ محمد الطنجي، ألفه بالإشتراك مع محمد عفيفي، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1389هـ/1969م.

— الأدب في عصر دولة بني حماد؛ لأحمد بن محمد أبو رزاق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1979م.

— أزهار الرياض في أخبار عياض؛ لأحمد بن محمد التلمساني المقرئ (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1892م — 1942م.

— الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى؛ لأحمد بن خالد الناصري السلاوي (ت: 1315هـ/1897م)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء بالمغرب، 1954 — 1956م.

— أعز ما يطلب؛ محمد بن عبد الله المهدي ابن تومرت (ت: 424هـ/1129م)، تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1406هـ/1985م.

— الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)؛ خير الدين الزركلي، مطبعة كوستا توماس وشركاه (1373هـ/1954م — 1378هـ/1959م).

— إعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام؛ للسان الدين؛ محمد السلماني ابن الخطيب (713هـ/1313م — 776هـ/1374م)، (القسم المخصص لتاريخ إسبانيا الإسلامية)؛ تحقيق لعبيدي بو عبد الله، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر 2009م.

— إعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام؛ للسان الدين؛ محمد السلماني ابن الخطيب (713هـ/1313م — 776هـ/1374م)، (القسم المخصص لتاريخ المغرب العربي)، تحقيق الشريف مريعي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر 2009م.

— **إتباه الرواة على أتباه النحاة؛** لأبي الحسن علي ابن يوسف القفطي (ت: 624هـ/1226م)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت 1406هـ/1986م.

— **الأنساب؛** لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت: 562هـ/1166م)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان ببيروت 1408هـ/1988م.

— **أنس الفقير وعز الحقير؛** لأحمد بن الحسين الخطيب المعروف بابن قنفذ (ت: 810هـ/1406م)، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس بالرباط 1965.

— **أنس الوحيد ونزهة المريد؛** لأبي مدين شعيب (ت: 594هـ/1197م)، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية ببيروت 1424هـ/2004م.

— **الأنيس المطرب بروض القرطاس؛** لعلي بن عبد الله الشعير بابن أبي زرع، أو عبد الحليم ابن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. ثم نسخة مطبوعة؛ تحقّق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال بالسويد، 1359هـ/1943م.

— **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان**
عاصمة دولة بني زيان؛ للحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1995م.

- البداية والنهاية؛ لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير الدمشقي (701 – 774هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان بمصر 1998م.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان؛ لمحمد الشريف المليتي المديوني ابن مريم (كان حيا سنة 1025هـ/1611م)، تحقيق محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية بالجزائر، 1326هـ/1908م.
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد؛ ليحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون (ت: 780هـ/1378م)، تحقيق ألفرد بل، والغوثي أبو علي، مطبعة فطنانة الشرقية بالجزائر، ج: 1، 1321هـ/1903م، وج: 2، 1328هـ/1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية بالجزائر، 1400هـ/1980م. أما الجزء الثاني فحققه بوزياني الدراجي؛ برعاية وزارة الثقافة الجزائرية، وإنجاز دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر سنة 2006م.
- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس؛ لأحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)، مكتبة المثنى ببغداد، وطبع بمطبعة روخس بمدريد 1884م.
- بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي؛ لإبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة 1970م.

— البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب؛ لمحمد المراكشي ابن عذاري (ت: 669هـ/1272م)، تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

— تاريخ إفريقيا الشمالية؛ شارل أندري جوليان، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر بتونس والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1978م — 1983م.

— تاريخ إفريقية والمغرب؛ لإبراهيم ابن القاسم الرقيق القيرواني (ت: بعد 417هـ/1026م)، تحقيق المنجي الكعبي، نشر رقيق السقطي بتونس 1968م.

— تاريخ الأمم والملوك؛ لمحمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ/923م)، مكتبة خياط ببيروت.

— تاريخ بني زيان ملوك تلمسان؛ وهو الكتاب المطبوع لـ (نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما مضى من الزمان؛ لمحمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، بتحقيق محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1405هـ/1985م.

— تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى القرن 14هـ؛ سعد الله؛ أبو القاسم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بالجزائر 1401هـ/1981م.

- تاريخ الجزائر العام؛ لعبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة ببيروت 1400هـ/1980م.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث: مبارك بن محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية؛ لمحمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي (كان حيا سنة 894هـ/1488م)، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس 1966م.
- تاريخ علماء الأندلس؛ لعبد الله بن محمد الأزدي ابن الفرضي (ت: 403هـ/1012م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
- تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا): علي بن عبد الله النبأهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، لمدينة، مليانة؛ لعبد الرحمن الجيلالي، مطبعة صاري بدر الدين وأبنائه بالجزائر 1392هـ/1972م.

- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الإزدهار والذبول؛ لمحمد الهادي العامري ، الشركة التونسية للتوزيع بتونس 1974م.
- تاريخ المغرب الكبير؛ لمحمد علي دبوز، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة 1963م — 1974م.
- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم من الوارثين، وظهور المهدي بالموحدين على الملتمين وما في مساق ذلك من خلافة أمير المؤمنين وأخيرا (بعض) الخلفاء الراشدين؛ لعبد الملك ابن صاحب الصلاة (كان حيا سنة 594هـ/1198م)، تحقيق عبد الهادي التازي، ج: 2، دار الأندلس للطباعة والنشر ببيروت 1383هـ/1964م.
- التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية؛ أطروحة جامعية لبشاري لطيفة، معهد التاريخ بجامعة الجزائر، السنة الجامعية 1986 — 1987م.
- تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر؛ لمحمد بن عبد القادر الجزائري ، دار اليقظة العربية ببيروت 1384هـ/1964م.
- تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؛ محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة (ت: 779هـ/1377م)، تحقيق علي المنتظر الكتاني، مؤسسة الرسالة ببيروت، 1395هـ/1975م.

– التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي؛ لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت: 617هـ/1220م)، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1997م.

– التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً؛ لعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، تحقيق محمد الطنجي ابن تاويت، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، 1370هـ/1951م.

– تقويم البلدان؛ للسلطان أبي الفداء عماد الدين إسماعيل الحموي، صححه وطبعه ماك قوكين دوسلان، ورينود، دار الطباعة السلطانية بباريس 1840م.

– التكملة لكتاب الصلة؛ لمحمد بن عبد الله البانسي الشهير بابن الأبار (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد 1956م.

– تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)؛ لمحمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1405هـ/1984م.

– تلمسان في العهد الزياني؛ لعبد العزيز فيلالي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر، 2002م.

- جنوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام
مدينة فاس؛ لأحمد بن محمد بن أبي العافية
المعروف بابن القاضي المكناسي (ت: 960 — 1025
هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1973م.
- جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس؛ لمحمد بن أبي
نصر الأزدي الحميدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار
المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
- جمهرة أنساب العرب؛ علي بن أحمد الأندلسي
ابن حزم (ت: 456هـ/1063م)، تحقيق عبد السلام
محمد هارون، دار المعارف بمصر 1382هـ/1962م.
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492
— 1792م)؛ لأحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع بالجزائر 1976م.
- الحل السندية في الأخبار التونسية؛ لمحمد بن
محمد الأندلسي السراج (ت: 1149هـ/1736م): تحقيق
محمد الحبيب الهيل، الدار التونسية للنشر بتونس
1970 — 1973م.
- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب
والأندلس؛ لمحمد بن محمد الأصفهاني (ت:
597هـ/1200م)، تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين،
الدار التونسية للنشر بتونس، والشركة الوطنية للنشر
والتوزيع بالجزائر 1971 — 1972 — 1973م.

- دائرة المعارف الإسلامية: محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس؛ لأحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
- درة الحجال في أسماء الرجال (وهو ذيل وفيات الأعيان)؛ لأحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي (ت: 1025هـ/1616م)، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس 1970 - 1971م.
- دليل المؤرخ في المغرب الأقصى؛ لعبد السلام ابن سودة، دار الكتاب بالدار البيضاء، 1380هـ/1960م.
- دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي؛ لمحمد ابن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1984م.
- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية: لموسى لقبال، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
- دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة؛ لإسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1983م،

- دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع)؛ لمحمد عبد الله عان: لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1380هـ/1960م — 1389هـ/1969م.
- دولة بني حماد صفحة رائعة من تاريخ الجزائر؛ لعبد الحليم عويس، دار الشروق ببيروت 1400هـ/1980م.
- دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية؛ لإسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر وتوزيع بالجزائر 1980م.
- الدولة الحمادية وحضارتها؛ لرشيد بورويبة، ديوان المطبوعات الجامعية، والمركز الوطني للدراسات التاريخية.
- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن ابن علي؛ لعبد الله علام، دار المعارف بمصر 1971م.
- دول الخوارج والعلويين في بلاد الأندلس؛ لبوزياني الدراجي، دار الكتاب العربي بالجزائر 2002م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب؛ لإبراهيم بن علي المالكي ابن فرحون؛ (ت: 799هـ/1396م)، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث للطبع والنشر بالقاهرة 1972م.

– ديوان أبي الحسن الششتري شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب؛ تحقيق علي سامي النشار، منشآت المعارف بالأسكندرية 1960م.

– ديوان أبي مدين شعيب؛ منشور في المكتبات الإلكترونية.

– ديوان الشاب الظريف؛ لمحمد بن سليمان الكومي التلمساني (661هـ/1263م – 688هـ/1289م)، طبع ديوانه مرات عديدة في دمشق والقاهرة. وأكثر شعره منشور في المكتبات الإلكترونية.

– ديوان الصبابة؛ لأحمد بن يحيى بن أبي حجلة، (725هـ/1325م – 776هـ/1375م)، طبع بهامش كتاب تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق لداود الأنطاكي. وهو متوفر الآن في مكتبات إلكترونية.

– ديوان عفيف الدين التلمساني؛ لسليمان بن علي الكومي التلمساني الشهير بعفيف الدين (610هـ/1213م – 690هـ/1291م)، تحقيق يوسف زيدان، دار الشروق بالقاهرة.

– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ علي الشنتريني الأندلسي ابن بسام (ت: 542هـ/1147م)، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس 1395هـ/1975م – 1399هـ/1979م.

– ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان؛
لحسين بن علي خوجة (ت: 1145هـ/1732م)، تحقيق
الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب بلبيبا وتونس
1975م.

– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة؛ لمحمد
ابن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت:
703هـ/1303م)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة
بيروت 1965م.

– رحلة التيجاني؛ التجاني؛ لمحمد عبد الله التيجاني
(كان حيا سنة 717هـ/1317م)، الدار العربية للكتاب
بلبيبا وتونس 1981م.

– رسائل ابن الخطيب؛ للسان الدين بن الخطيب
السلمان (713هـ/1313م – 776هـ/1374م)، بعناية
مجموعة أساتذة، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
بالجزائر 2009م.

– رسالة افتتاح الدعوة: القاضي أبو حنيفة النعمان
ابن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد
القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج؛ لمحمد بن عمرو الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1404هـ/1983م.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات؛ لمحمد باقر الوسوي الخونساري الأصبهاني، الدار الإسلامية بيروت 1411هـ/1991م.
- روضة التعريف بالحب الشريف؛ للسان الدين بن الخطيب السلماني (713هـ/1313م – 776هـ/1374م)، تعليق حسن سعدودي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر 2009م.
- روضة النسرین في أخبار بني مرین؛ إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر (ت: 807هـ/1406م)، تحقيق جورج مارسى، وغوثي بوعلی باريس 1336هـ/1917م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام)؛ لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت 1975م.
- سير أعلام النبلاء؛ لشمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت: 748هـ/1347م)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار المعارف بمصر 1955م – 1957 – 1962م.

- شذرات الذهب في من أخبار من ذهب؛ لعبد
الحي الحنبلي ابن العماد (ت: 1089هـ/1678م)،
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت.
- صبح الاعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي
القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.
- صلة الصلة؛ أحمد بن إبراهيم الأندلسي ابن
الزبير (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط ببيروت.
- طبقات علماء إفريقية وتونس؛ لمحمد بن أحمد
القيرواني أبو العرب (ت: 333هـ/944م)، تحقيق علي
الشابي ونعيم حسن الباني الدار التونسية للنشر
1968م.
- العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني؛ لمحمد
الطاهر علاوي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع
بالجزائر 2011م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب
والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان
الأكبر؛ لعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد
ابن الحسن ابن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار
الكتاب اللبناني ببيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3،
1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار؛ لعبد الرحمن الجبرتي، تحقيق حسن محمد جوهر وآخرين، لجنة البيان العربي القاهرة 1958م.
- العلاقات الخارجية للدولة الرستمية؛ عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1984م.
- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب: عبد العزيز فيلاي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية؛ أحمد بن أحمد الغبريني (ت: 714هـ/1315م)، تحقيق عادل نويهض، لجنة التأليف والترجمة والنشر ببيروت 1969م.
- الفصوص اليتعة في محاسن شعراء المائة السابعة؛ لأبي الحسن علي بن موسى الأندلسي ابن سعيد (610 – 685هـ)، تحقيق إبراهيم الإياري، دار المعارف بمصر 1945م.
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية؛ لأحمد بن الحسين ابن القنفذ (ت: 810هـ/1406م)، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م.

- فتوح البلدان؛ لأحمد بن يحيى البلاذري (ت: 279هـ/892م)، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.
- فتوح مصر والمغرب؛ لعبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم: (ت: 257هـ/871م)، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي بالقاهرة، 1961م.
- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم؛ لأفرد؛ بل، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي ببيروت 1181م.
- فهرست الرصاع؛ لمحمد الأنصاري الرصاع (ت: 894هـ/1488م)، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة بتونس 1967م.
- فوات الوفيات والذيل عليها؛ لمحمد بن أحمد الكتبي ابن شاکر (ت: 764هـ/1362م)، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة ببيروت 1973 - 1974م.
- في تاريخ المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
- القبائل الأمازيغية: لبوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م - وج: 2: 2000م).
- القبائل العربية في المغرب (في عصر الموحدين وبني مرين)؛ لأحمد عمر أبو ضيف، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1403هـ/1982م.

- قبائل المغرب؛ لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، 1388هـ/1968م.
- قلائد العقيان في محاسن الأعوان؛ الفتح بن محمد الإشبيلي ابن خاقان (ت: 529هـ/1134م)، المكتبة العتيقة بتونس 1966م.
- الكامل في التاريخ؛ لعلي بن أبي المكارم الجزري ابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي ببيروت، 1403هـ/1983م.
- كتاب الجغرافيا؛ لعلي بن موسى ابن سعيد: (ت: 685هـ/1274م) تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1403هـ/1982م.
- كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان؛ لأبي مدين شعيب وآخرين، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1394هـ/1974م.
- كتاب الصلة؛ خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (ت: 578هـ/1182م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
- كتاب الوفيات؛ لأحمد بن الحسين ابن قنفذ (ت: 810هـ/1406م)، تحقيق عادل نويهض، دار الأفق الجديدة ببيروت 1403هـ/1983م.

— **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء
المئة الثامنة؛** للسان الدين بن الخطيب السلماني
(713هـ/1313م — 776هـ/1374م)، بعناية محمد شايب
شريف دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر
2009م.

— **اللمحة البدرية في الدولة النصرية؛** للسان الدين
ابن الخطيب السلماني (713هـ/1313م —
776هـ/1374م)، بعناية محمد شايب شريف، دار الأمل
للدراسات والنشر والتوزيع بالجزائر، 2009م.

— **ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة الى
بلاد المشرق (الرحلة المغربية)؛** لمحمد بن محمد
البانسي العبدري (كان حيا سنة 688هـ/1289م)،
تحقيق أحمد بن جدو، كلية الآداب، بالجزائر.

— **مجموع النسب والحسب والتاريخ والأدب؛** محمد
بلهاشمي الغريسي ابن بكار، المطبعة الخلدونية
بتلمسان، 1381هـ/1961م).

— **المدن المغربية؛** لإسماعيل العربي، المؤسسة
الوطنية للكتاب بالجزائر، 1984م.

— **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر
من حوادث الزمان؛** لعبد الله بن أسعد اليافعي
اليمني المكي (ت: 768هـ)، وضع حواشيه خليل
المنصور، دار الكتب العلمية ببيروت 1417هـ/1997م.

— **المرابطون تاريخهم السياسي؛** شعيرة؛ محمد عبد
الهادي، مكتبة القاهرة الحديثة.

— المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن؛ لمحمد (الرابع) بن أحمد ابن مرزوق (ت: 781هـ/1379م)، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م.

— المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد ابن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

— معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

— معجم البلدان: أبو عبد الله الرومي البغدادى المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.

— معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

- معجم المطبوعات العربية والمغربية؛ جمعه يوسف إلياس سركيس، مطبعة سركيس بمصر 1346هـ/1928م.
- المغرب عبر التاريخ؛ إبراهيم حركات ، مطبعة دار السلمي بالدار البيضاء بالمغرب 1384هـ/1965م،
- المغرب العربي تاريخه وثقافته؛ لبونار رابح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1969م.
- المغرب في حلى المغرب؛ لعلي بن موسى ابن سعيد: (ت: 685هـ/1274م)، بمشاركة آخرين؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1384هـ/1964م.
- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك)؛ لعبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م): تحقيق ماك فوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق بباريس Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ وهي القطعة الثانية؛ لحيان بن خلف بن حسين القرطبي ابن حيان (ت: 479هـ/1076م): تحقيق عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة ببيروت 1965م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس؛ حيان بن خلف ابن حسين القرطبي ابن حيان (ت: 479هـ/1076م)، وهي القطعة الأولى التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي ببيروت 1393هـ/1973م.
- مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)؛ لمحمد بن عبد الله الحمودي السبتي الإدريسي (يكون قد توفي سنة 560هـ/1164م)، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1983م.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي؛ لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأنابكي (ت: 874هـ/1470م)، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب بأكاهرة 1986م.
- نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر: لمجهول عاش في سنة 712هـ (وربما كان لأبي علي صالح بن عبد الحليم؛ حسب تحقيق موسى لقبال)؛ تحقيق ليفي بروفنسال 1934م.
- نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان؛ إسماعيل ابن يوسف ابن الأحمر (ت: 807هـ/1406م)، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة ببيروت 1967م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛ أبو
المحاسن يوسف الأتابكي ابن تغري بردي (ت:
874هـ/1469م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والترجمة والطباعة والنشر 1383هـ/1963م.

- النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين؛
إبراهيم حركات: مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء.
- نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد
الزيانية؛ لبوزياني الدراجي، ديوان المطبوعات
الجامعية 1993م.

- نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان
وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما
مضى من الزمان؛ التنسي؛ محمد بن عبد الله
التلمساني (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط، الخزانة العامة
بالرباط.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر
وزيرها لسان الدين بن الخطيب: أحمد بن محمد
التلمساني المقرئ (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان
عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج؛ لأحمد بابا التتبكتي
(963 - 1036هـ)، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد
الله الهرامة؛ مع مجموعة من طلبة كلية الدعوة
الإسلامية بطرابلس 1989م.

- واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ لموسى بن
يوسف بن عبد الرحمن الزياني أبو حمو الثاني
(ت: 791هـ/1388م)، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.
- واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ لموسى بن
يوسف بن عبد الرحمن الزياني أبو حمو الثاني
(ت: 791هـ/1388م)، نسخة مطبوعة بمطبعة الدولة
التونسية بتونس، 1279هـ/1862م.

- الوافي بالوفيات؛ لصلاح الدين خليل بن أيبك
الصفدي (ت: 764هـ/1362م)، تحقيق أحمد الأرناؤوط
وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي ببيروت
1420هـ/2000م.

- وصف إفريقيا: الحسن بن محمد الوزان الفاسي
الشهير بليون الأفريقي (ت: بعد 957هـ/1550م)؛
ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، و محمد
الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ لأحمد بن محمد ابن خلكان (ت: 681هـ/1282م)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971م، ج: 7، 8، 1972م.

- المراجع باللغة الأجنبية:

- BRUNSCHVIG ROBERT: - **La Berbérie Orientale Sous Les Hafsides** (Des Origines à la fin du XVème siècle) Librairie D'Amérique et D'Orient, Andrien Maisonneuve, Paris, 1982. et - **Deux Récits de voyage inédits en Afrique du Nord.** (Abdelbasit Ben Khalil et Adorne), Paris, 1936.
- DHINA ATALLAH: **Les Etats De L'Occident Musulman (Aux XIIIème, XIVème, XVème siècles).** Office des Publications Universitaires, Alger, 1984. et - **Le Royaume Abdelouadide à l'époque D'Abou Hammou Moussa 1er, et D'Abou Tachfin 1er,** Office des Publications Universitaires, Alger, 1985.
- JEAN LEON LAFRICAÏN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- LEVI-PROVENCAL: - **Documents inédits. D'Histoire Almohade,** Librairie Orientaliste. 1928. et - **LE Musnad D'ibn Marzuk.** Emile Larose Editeur, Paris. 1925.
- L'ABBE J. J.L. BARGES. Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom



فهرس الموضوعاء

(جزء 4)

- 14 — حسن بن إبراهيم بن سبع (أبو الحسن)..... 4
- 15 — ابن محمد بن علي العصامي (أبو الفضل).... 10
- 16 — عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر
- 12 — المجاصي؛ (أبو محمد).....
- 17 — عبد المؤمن بن موسى المديوني (أبو محمد).. 14
- 18 — عبد الوهاب بن محمد بن عبد القادر (أبو محمد).. 37
- 19 — علي بن العطار (أبو الحسن)..... 40
- 20 — علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود
- 46 — الخزاعي التلمساني (أبو الحسن).....
- 21 — محمد البطوي (أبو عبد الله)..... 49
- 22 — محمد بن.. أبي جمعة [ابن علي] التلاسي
- 62 — التلمساني (أبو عبد الله).....
- 23 — محمد بن أحمد الحسني المعروف بأبي يعلى
- 91 — (أبو عبد الله).....
- 24 — محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر
- 122 — ابن مرزوق العجيسي (أبو عبد الله — شمس الدين)..

- 25 — محمد بن البناء (أبو عبد الله) 156
- 26 — محمد بن صالح بن شقرون 160
- 27 — محمد بن علي بن قاسم المرسى 170
- 28 — محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي
المقري التلمساني (أبو عبد الله) 172
- 29 — محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي
التلمساني؛ (أبو عبد الله) 216
- 30 — [محمد] ابن ميمون السنوسي (أبو القاسم) ... 219
- 31 — محمد بن يوسف القيسي (الثغري) الأندلسي
(أبو عبد الله) 238
- 32 — منصور بن علي بن عبد الله الزواوي؛ (أبو علي) .. 342
- 33 — موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى
ابن يغمراسن بن زيان (أبو حمو الثاني) 347
- 34 — يحيى بن محمد بن محمد بن الحسن
ابن خلدون (أبو زكرياء) 464
- المائة التاسعة هجرية 502
- 1 — محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد
ابن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني
العجيسي؛ المعروف بالحفيد (أبو عبد الله) 503

- 2 — محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي
507(أبو الفضل)
- 3 — محمد بن موسى بن يوسف (أبو زيان) 510
- المائة العاشرة هجرية: 517
- 1 — أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب
ابن سعيد بن عبد الله المناوي الورنيدي التلمساني
المعروف بابن الحاج 518
- 2 — أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد
ابن علي الونشريسي (أبو العباس) 523
- 3 — محمد بن أحمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي
نزىل تلمسان (أبو عبد الله) 526
- 4 — محمد بن عبد الرحمن الحوضي (أبو عبد الله) 531
- 5 — محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني 538
- كشف عام بالمصادر والمراجع 547
- فهرس الموضوعات 573

الناشيء

